

تَارِيحُ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ

الشيخ محمد عبد الله

(١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م)

الجزء الأول

القسم الأول

وفيه تفصيل سيرته وخلاصة سيرة مؤلف الشرق وحكيم الإسلام

السيد جمال الدين الأفغاني

(١٢٥٤ - ١٣١٥ هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م)

جامعة

السيد محمد رشيد رضا

مبشر مجلة المنار

(١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ = ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م)

الطبعة الثانية لدار الفضيحة

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م



دار الفيل

للنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة : القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي - كلية البنات
مصر الجديدة ت وفاكس ٤١٨٩٦٦٥ رقم بريدي ١١٣٤١ هليوبوليس
المكتبة : ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة ت ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات ، دبي - ديرة . ص ب ١٥٧٦٥ ت ٢٦٩٤٩٦٨ فاكس ٢٦٢١٢٧٦

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : 19625 / 2003 م

الترقيم الدولي : 8 - 182 - 297 - 977

﴿ تصويب أهم ما وقع من الخطأ وتحريف الطبع وخفائه ﴾

(في الجزء الاول من تاريخ الاستاذ الامام)

بذكر العوَاب دون الخطأ وقد منّا رقم السطر المعبر عنه بحرف س على رقم الصفحة المعبر عنها بحرف ص
(جعلناه منفصلاً ليصحح بالقلم قبل القراءة، وتركنا بعض البديهي والمحكي)

في ص ٣ صفحة (ج) من التصدير : القرن الخامس - ص ١٧ صفحة (م) الذين آمنوا -
ص ١٢ ص ٦ و ٥ مغلطة - ص ١١ ص ١٨ الناس نسباً -- ص ٢٣ ص ٥٥ ودفع ص ١٧ ص
٥٩ دناءة ص ١٦ ص ٩٣ وهو يحتضر ص ١٥ ص ١١٠ طابخة ص ٢١ ص ١١١ من أغري
ص ١٥ ص ١١٥ ويحاول - ص ٢٢ ص ١١٧ في اصطلاحهم ص ١٧ ص ١١٨ غيبة ص
٢٠ ص ١٣٢ الواضع ص ٢ ص ١٤٢ ماسبيرو - ص ١٨ ص ١٤٣ قراراته ص ١١ ص
١٤٤ تألفت لجنة ص ٩ ص ١٤٥ يتأخر - ص ١٦ ص ١٤٧ الاتقجاني ص ١٧ ص ١٥١
جبلتنا - و ص ١٨ أنحأها بجماعاتها ص ٢٢ ص ١٥٨ أجل وأوفى ص ١٩ ص ١٧١ تدرج
ص ١٥ ص ٢٢٤ M. Brodley - ص ١٦ defended Orabi

ص ٢١ ص ٢٥٦ (يرمج) السطر كما لان كلمة منوفي الاصل صواب) ص ١٢
ص ٢٦٦ كما حوكموا ص ٢ ص ٢٨٧ يمد - ص ١٠ ص ٢٨٩ لا يظن أحد ص ٢٣ ص ٢٩١
فجهله هذه الامم ص ٩ ص ٢٩٢ بل ما يجري ص ٢٣ ص ٢٩٤ للراسلات - العدوان
الاجنبي ص ٣ ص ٢٩٥ ولئن قامت فكم ص ٣ ص ٣٠٨ المقالة ص ١٧ ص ٣١٢ وكوي
ص ١٤ ص ٣٢٢ البشرية ص ٢٣ ص ٣٢٣ فيما ص ٥ ص ٣٤٢ ستار أكتف ص ٢٣ ص ٣٤٨
عدة مقالات ص ٢٤ لنزيل ما كان ص ١٣ ص ٣٦٩ يراق ص ١٩ ص ٣٨٠ من سنة - ص
١٢ ص ٣٨٣ الجهر - ص ١٧ ص ٣٨٨ اجتنات ص ١٩ ص ٣٩٣ ففهم ص ٢٤ ص
٣٩٥ يخوض - ص ١ ص ٣٩٦ اختتمه ص ١٦ ص ٤١٤ طريقها ص ١٩ ص ٤١٨
يلبث ص ٢٥ إياها على تكوين قوة بها في أمته لا رجاء في رفع السلطة الاجنبية منه وعنها
بدونها (*) ص ١٦ ص ٤٢٦ حتى أهله ص ٩ ص ٤٣٩ وضع ص ٤ ص ٤٦٥ والمقارنة

(*) في هذا السطر تقديم وتأخير سببه سقوطه عند البدء في الطبع وامادته على
غير اصله. ويحسن في تصحيحه أن يوضع على كل كلمة رقم على الترتيب الاصل الذي هنا

صواب ما وقع من الخطأ في الكتاب

من ٢٢ ص ٤٧٤ الشيخين من ٢٤ ص ٤٩٠ كان نونا من ١٧ ص ٤٩٨ متعاقبين من ٢٤ ص ٥٠٢ مذاهب من ١٧ ص ٥٠٤ الاصلاح الديني من ١٦ ص ٥١١ نفي الشيخ العظيم اشتغالهم — من ١٧ ص ٥١٢ ان الاستاذ وفي من ١٨ الاستدراك — من ٩ ص ٥١٩ الحنفي — من ١٨ ص ٥٣١ كذا يجرموا — من ٢٣ ص ٥٣٣ لوجدتها — من ٢ ص ٥٤١ وأوهام من ١٧ ص ٤٤٤، تقرر من ٦ ص ٥٦٨ علمه من ٨ ص ٥٧٣ لحث لي أم من ١٨ نص القانون من ١٣ ص ٥٧٨ الوجدان يقبل من ١٨ ص ٥٨٢ اركستره من ٢٥ ص ٦٥١ ثمرات من ١٨ ص ٦٥٥ المشروع من ٧ ص ٦٦٣ في الدين من ٢١ فان طالب الخير من ١٥ ص ٦٨٠ أمر — الدم من ٢٢ ص ٦٩٣ الرئيسين العظميين من ٢١ ص ٧١١ قصد من ٨ ص ٧١٢ والنصاري من ٢٠ ص ٧٢٠ فيها وعون من ١٦ ص ٧٢٥ يوه دار الكرامة من ١٤ ص ٧٤٣ إحياء من ٢٠ ص ٧٥٧ الذين من ٣ ص ٧٥٨ الشيخ حسين من ١٣ ص ٧٥٩ كلام غير المصوم من ٢٠ ص ٧٧٨ سنة ١٣٠٦ — من ١١ ص ٧٩٢ أجده — من ٢٠ ص ٧٩٦ وايراجم الفاريه قصة من ٢١ ص ٨٠٢ مقال من ٦ ص ٨٠٦ كتبت اليوم من ٨ ص ٨١٤ ثم ذكر — من ٢٤ ص ٨١٥ وسط — من ١٤ ص ٨١٩ عالما إيرانياً — من ٦ ص ٨٢٥ يؤولوا من ٢٥ ص ٨٢٥ يستأذنه من ١٧ ص ٨٢٦ ان يديهم من ٥ ص ٨٥٦ ويملهم العلم اللازم من ٢ ص ٨٥٧ وبابيت من ٤ ص ٨٦٥ تعلمه للغة من ٢٥ ص ٨٨٢ مذكراته من ٢١ ص ٩٠٨ إلى جبرها من ٢٣ ص ٩١٥ الصفتان اللتان من ١٢ ص ٩١٧ اللذان كان من ٢٣ ص ٩٢٧ نذاكر نافيه من ٢٣ ص ٩٣٦ ختمتها من ٧ ص ٩٣٨ بان اسمها من ٤ ص ٩٤٥ بجملته من ٩ ص ٩٤٦ والمرشدين من ٢٠ ص ٩٧٦ مذكراته فيها من ١٦ ص ٩٨٤ أو عاداته من ١ ص ٩٨٧ عبده من ١٦ ص ١٠٠٣ أخالفكم فيه من ٢ ص ١٠١٣ ويعللهم ومن ٥ تفسير انقرآن من ١٨ ص ١٠٢٠ ما كان من ٧ ص ١٠٢١ رشيداً من ٢٠ ص ١٠٢٥ كتابة من ٢ ص ١٠٢٩ لا يملؤه من ١٥ ص ١٠٣٢ تربيته من ١٣ ص ١٠٥٤ لم يتعودوا من ١٤ ص ١٠٦٢ عوض افندي واصف من ٢٥ ص ١٠٦٤ أدونها من ١٠ ص ١٠٩٠ والحبس الفردي من ١٩ ص ١١٠٣ سعيد الشرتوني

تصدير الكتاب

بيان كنه التجديد والاصلاح الذي نهض به حكيم الشرق والاسلام
(وشيخنا الاستاذ الامام ، ووجه الحاجة اليه ، ووجوب المحافظة عليه)

بسم الله الرحمن الرحيم

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ
أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥: ٢٧) وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠: ٧) وَتِلْكَ
الْآيَاتُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ
مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠: ٣)

جرت سنة الله تعالى في أفراد البشر أن يؤتاهم قوى المشاعر الحسية والمدارك
العقلية بالتدرج حتى يبلغ احدهم أشده ، ويستكمل رشده ، ويستقل بنفسه بالعالم
والعمل والتجارب، وجرت سنته في الشعوب والامم أن يمنح كلا منهم من هداية
الوحي في كل طور من أطوار حياتهم الاجتماعية ما هو مستعد له وصالح لحاله
وزمانه ، على مثال سنة التدرج في الافراد ، إلى أن استمد النوع البشري في جملة
ومجموعه لفهم أعلى هداية إلهية لا يحتاج بعدها إلا لاستعمال عقله في الاهتداء بها ، في كل
زمان ومكان بحسبهما ، فوهبه هداية القرآن ، وختم النبوة برسالة محمد عليه الصلاة والسلام
ولما كان من طباع البشر أن يضمف تأثير الوحي في قلوبهم بطول الامد على
عهد النبوة فيفسقوا عن أمر ربهم ، ويتأولوا كتبه باهوائهم ، أنهم عليهم بما يجبي
هداية النبوة فيهم ، بان يبعث فيهم بعد عصر النبوة مجددين ، وأئمة مصلحين ، يرثون
الانبياء بالدعوة الى اصلاح ما أفسد الظالمون في الارض ، ويكونون حجج الله
على الخلق ، وقد بشرنا نبنيا محمد خاتم النبيين وإمام المصلحين ، بان الله تعالى يبعث

في هذه الامة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها ، ليكونوا خلفاءه فيا جرده من دين الله تعالى اللام كلها (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) إذا طال عليهم الآمد ، فقتت قلوبهم ، وفسقوا عن أمر ربهم

إنما كان المجددون يبعثون بحسب الحاجة إلى التجديد لما أبلى الناس من لباس الدين ، وهدموا من بنيان العدل بين الناس ، فكان الامام عمر بن عبد العزيز مجدداً في القرن الثاني لما أبلى قومه بنو امية وأخلفوا ، وما مزقوا بالشقاق وفرقوا ، وكان الامام احمد بن حنبل مجدداً في القرن الثالث لما اخلى بعض بني العباس من لباس السنة ، ورشاد ساف الامة ، باتباع ماتشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وتحكيم الآراء النظرية في صفات الله وما ورد في عالم الغيب ، بالقياس على ما يتعارض في عالم الشهادة . وكان الشيخ ابو الحسن الاشعري مجدداً في القرن الرابع بهذا المعنى ، وحجة الاسلام أبو حامد الغزالي مجدداً في أواخر القرن الخامس وأول السادس لما شبرقت نزغات الفلاسفة وزندقة الباطنية ، والامام ابو محمد علي بن حزم الظاهري في القرن السادس لما سحقت الآراء من فقه النصوص الشرعية . وشيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم مجددين في آخر القرن السابع وأول الثامن لجميع ما مزقت البدع الفلسفية والكلامية والتصوفية والالحادية ، من حلال الكتاب والسنة السنية ، في جميع العلوم والاعمال الدينية ، وحسبنا هؤلاء الامثال في التجديد الديني العام

وظهر مجددون آخرون في كل قرن كان تجديدهم خاصاً بمحضر في قطر او شعب ، او موضع كبير او صغير ، كابي اسحاق الشاطبي صاحب الموافقات والاعتصام في الاندلس ، وولي الله الدهلوي والسيد محمد صديق خان في الهند ، والمولى محمد بن بيز علي البركوي في الترك ، والشيخ محمد عبد الوهاب في نجد ، والمقبلي والشوكاني وابن الوزير في اليمن

وهناك مجددون آخرون للجهد الحربي بالدفاع عن الاسلام ، او تجديد ملكه وفتح البلاد له ، وإقامة أركان العمران فيه ، وهم كثيرون في الشرق والغرب والوسط ، ورجالهم معروفون ، كععض خلفاء العباسيين والامويين ، ومنهم

من جمع بين أنواع من التجديد كالسلطان صلاح الدين الايوبي الذي كسر جيوش الصليبيين من شعوب الافرنج المتحدة ، وأجلاهم عن البلاد الاسلامية المقدسة وغيرها ، وأزال دولة ملاحدة العبيديين الباطنية من البلاد المصرية ، وكذلك فتح الترك لكثير من ممالك اوربة عرف فيها بمجد الاسلام

ضعف الاسرار السياسية وملكه

ثم اتسع ملك الاسلام وزالت وحدة أحكامه بانقسام الخلافة إلى خلافتين فزوال كل منهما ، وكثرت دوله فتفرقت وحدة أمته السياسية إلى شعوب مختلفة في الاجناس والاطنان، ووحدة ماته الدينية إلى مذاهب مختلفة في الاصول والفرع، فتمادوا في الدنيا والدين، وتقاتلوا على عصبية الملوك والسلاطين، فحق عليهم قول كتاب ربهم (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) فسلط الله عليهم اعداءهم فثلوا أكثر عروشهم، وانزعوا منهم أكثر بلادهم (ذلك بان الله لم يك منبراً نعمة نعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم وان الله سميع عليم (٥٣: ٨) وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون (١١ : ١١٧) وكان يظهر في هذه الدول المتفرقة مجددون متفردون في العلم كما تقدم وفي الادارة والعمران كحمد علي باشا بمصر - وفي الحرب كالامير عبد القادر في الجزائر ومقبوب بك في تركستان الصينية - وفي السياسة كسطفى رشيد باشا وعالي باشا وفؤاد باشا في الترك وخير الدين باشا في تونس - وفي ارشاد العامة والبدو للدين والدنيا كالسيد السنوسي

مال البسر الاخير وما يقنضيه من التمجير

في أثناء هذا الضعف الاسلامي العام - دخلت الشعوب الافرنجية في طور جديد في الفتح والغلب والسياسة والعمران ، قوامه العلوم السكونية والفنون والصناعات والثروة والنظام، وتجدد فيهما من آلات الحرب وكراعها، وأسلحة القتال وعتادها، ما يمكن الجند القليل من زيادة جند يفوقه أضمافا مضاعفة في العدد والشدة والشجاعة في زمن قصير

واستحدث فيه من النظام ما يسهل به على أفراد ممن حذقوه ومردوا عليه

أن يسخروا لخدمتهم شعباً كبيراً غريباً عنهم في جنسه ولغته ودينه كما يسخرون الانعام الداجنة والسائمة، والجرالموكفة والخليل المسومة، فيذلون بالجماعات المذلة منه الجماعات المتمردة، ويستنزفون ثروته كلها فيجرفونها إلى بلادهم التي ترحوا منها فاتحين مستعمرين، ويتصرفون في قواه المعنوية، وروابطه القومية والدينية، كما يتصرفون في حرثه ونسله، ولحمه ودمه، وأرضه وماله، وهكذا يتصرف العلم بالجهل، والنظام بالفوضى

وابتدع فيه من مصراكب النقل والسيار، وآلات رفع الاثقال، وأجهزة تبليغ الاخبار، ما مهد السبل لمبتدعيها ومتخذيها من كل ما أثمرنا اليه من الاعمال الحربية، والتصرفات السياسية، والوسائل الاقتصادية، وصارت المسافة بين القارة والقارة، اقرب من المسافة بين بلد وأخرى من مملكة واحدة، وهو ما عبر عنه في الحديث النبوي بتقارب الزمان

اتسعت بذلك مسافة الخلف بين الشعوب في العلم والعمل ووسائلهما، واشتدت الحاجة إلى تجديد الحياة في المتخلفة منها عن المتقدمة، لا ينض بتلك أمثال أولئك المجددين القدماء بالوسائل القديمة وحدها، ولا يطمح اليه صوفي يستمد قوته من الاموات، ويتكل على الكرامات ويعتر بالمنامات، ولا يطمع في تذليل صعابه واقتحام عقابه غريق في بحار النظريات العقلية، ومفترق الافكار بنظريات الفلسفة، ولا يطلع ثناياه، ويمجتي خفاياه، منقطع إلى كتب الشرائع، واستقنباط أحكام الوقائع، ولا يتسامى اليه من تعلم العلوم والفنون العصرية تعليماً آلياً ليكون أحد العمال في دائرة من دوائر الحضارة أو ديوان من دواوين حكومتها.

إن هذا ابدع من الخطوب الكبرى غير عادي، لا ينبعث إلى تلافيه إلا بدع من كبراء الرجال غير عادي: أمم قوية بالعلم الجديد والفن الجديد، والسلاح الجديد، والنظام الدقيق في السياسة والادارة والمال، والتعاون بتوزيع الاعمال، واستخدام قوى الطبيعة، تستأب ملك أمم جاهلة، متفرقة متخاذلة، مختلفة النظام، مستعبدة المستبدين، منقادة للخرافيين، وقد قذف في قلوبهم الرعب فكانوا مصداق قول النبي ﷺ «يوشك أن تداعى عليكم الامم كما تداعى الاكلة إلى

قصصها»^(١) فقال قائل :ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال « بل أنتم يومئذ كثير ، ولكن غشاء كغشاء السيل ، وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، ويبقى في قلوبكم الوهن » قال قائل :يا رسول الله وما الوهن ؟ قال « حب الدنيا وكرهية الموت »^(٢) فمن ذا الذي يضطلع بتجديد حياة هؤلاء الموتى ويحشرهم من قبورهم إلا إن الرجل الذي ينبعث إلى نفخ روح الحياة في شعوب هبطت إلى هذه الدرجات من الوهن ، وبمعناها إلى مجاهدة أتم عرجت إلى تلك الدرجات من القوة ، يجب أن يكون ذا روح علوية ، أوتيت حظا عظيما من وراثته النبوة ، في كمال الايمان ، وصحة الالهام ، وعلو الهمة ، وقوة الارادة ، وصدق المزيمة ، وإخلاص النية ، وقوة الفراسة ، والزهد في الشهوات البدنية ، واحتقار الزينة الخادعة . والزهد في الجاه الباطل ، وعدم الخوف من الموت ، وأن يكون ذا وقوف على حالة العصر ، وتاريخ الشعوب الديني والسياسي ، ومنن الله في الاجتماع ، وفصل الخطاب في الاقتناع ، وفصاحة اللسان وبلاغة التعبير ، وقوة التأثير ، ثم يكون ما يتحذقه من سائر العلوم مددآ له في عمله

حكيم الشرق والاسلام

كذلك كان ذلك الروح العلوي النبوي ، الذي تمثل للافغان في ناسوت بشري ، جلس في دروس العلم خذق العلوم والفنون القديمة نقلها وعقلها في بضع سنين ، وألم بالهند لتلقي مبادي العلوم الاوربية فوقف على ماشاء منها في زهاء سنتين ، ثم حج في سنة ١٢٧٣ ومكث في سفره زهاء سنة يتقلب في البلاد الاسلامية ، لاكتناه أخلاقها وعقائدها الدينية ، واختبار أحوالها الاجتماعية والسياسية ثم عاد إلى بلاده فانتظم في سلك حكومتها وهي ممزقة بالفتن الداخلية ، وموبوءة بالذسائس البريطانية ، فكاد يتديره بخلص الامر فيها لا ميرا محمد أعظم خان الذي بواه مكان الوزير الاول عنده ، لو لا ما عارض ذلك من الذسائس الانكليزية ، التي تمددها القناطير المقنطرة من الجنيهات الاسترلينية ، والروبيات الهندية

(١) تداعى بفتح الدال أصله تداعى أي يدعو بعضها بعضا . والاكلة بفتح الحين جميع آكل (٢) رواه ابو داود والبيهقي في دلائل النبوة من حديث ثوبان (رض)

واضطار بفشل أميره إلى هجر وطن ولادته ونشأته، إلى حيث يمكنه الإصلاح من أوطان أمته، فر بالهند فبالفت حكومتها الانكليزية في الحفاوة بضيافته، مع إحاطة عمالها وجواسيسها بمجالسه، ومنع علماءها من الاتصال به، ولكنه نفخ فيمن لقيه من كبرائها روح الاستقلال، والجراة على كسر مقاطر الاستعباد، ثم كان يغذي ذلك الروح بالكتاب وتأئين الافكار، ان باقى من رجالها في مصر وأوربة وسائر البلاد، ومقالات له في الجرائد نشرناها في المنار، وناهيك بالبروة الوثقى التي كادت تضرم نيران الثورة فيها، وكان موقنا باستقلالها من بعده، حتى انه قال للشيخ عبد الرشيد التتاري: يا ولد انك ستبلى صلاة الجنابة على القيصرية الروسية، وستحضر تشييع جنازة الامبراطورية الانكليزية في الهند، وقد تمت البشارة الاولى وظهرت بوادر الثانية في هذه الاعوام

وأغرب من ذلك انه حملة تقريراً منه إلى جمعية سياسية سرية في عاصمة الروسية رئيسها عم القيصر وقال له اذهب بهذه الرسالة وأوصلها إلى الفراندوق فلان، واعلم انك إما ان تقتل، وإما ان تفوز وتغنم، فأوصلها فقام الفراندوق لها وقعد، ثم اعاده بها إلى بلاد اليونان ليطبعها فيها باللغة الروسية ويرسلها اليه، وعرض عليه من المال ماشاء فلم يأخذ الا القدر الضروري، ولقي احوالا كادت تذهب بحياته . جاء هذا السيد مصر فنفخ فيها روح الحكومة النيابية، وألف فيها الحزب الوطني الاول لتقييد سلطان الحكومة الشخصية، وغذى تلاميذه ومريديه بعشق الحرية ووسائلها من العلم والكتابة والخطابة، كما ارشد المسلمين منهم إلى الإصلاح الديني، واجمع بينه وبين العلم المصري، وكان من أثر هذا ما شرجه هذا الكتاب

ذهب إلى إيران، فنفخ فيها روح التجديد في السياسة والعمران، فازال يفعل فعله فيها بين قيام وقعود، وهبوط وصعود، حتى ظفرت بالحكومة النيابية في عهد الشاه مظفر الدين خان، وما زالت تنقل في أطوار التجديد والإصلاح

ثم انتهى إلى عاصمة الدولة العثمانية فأنشأ يرشد السلطان إلى وسائل الاستفادة من منصب الخلافة الاسلامية، ويجمع له كلمة الشعوب والمذاهب المختلفة، حتى انه أقتع كثير من علماء الشيعة المجتهدين بالاعتراف بخلافته وجماعها مناط أوخدة الجامعة

للمسلمين ، ولكن قرناء السوء خوفوا السلطان من النهوض بهذه الجامعة فأعرض عنها ، وكان السيد مع ذلك يث هناك أفكار الإصلاح والتجديد ، الجامع بين الطريف والتليد ، إلى ان قضى نحبه ، واتي ربه ، رحمه الله وقدر سره

الاستاذ الامام

أرايتك هذا المصالح العظيم ، والمجدد الحكيم ، انه لم يظفر في شعب من الشعوب الاسلامية بمن يصلح أن يكون خليفة له ، ومتمما لاصلاحه بما يرجى به دوامه ، بعد أن وجه اليه الوجوه ، وعلمت بطلابه القلوب ، على كثرة من المصطبغين بصبغته ، إلا رجل مصر الشيخ محمد عبده ، لان منصب إمامة الإصلاح والتجديد ، لا يرتقى اليه بوسائل الذكاء والتفكير والتربية والتعالم وحدها ، بل لابد فيه من الاستعداد الروحي والمواهب الفطرية كما قررنا

كان الشيخ محمد عبده سليم الفطرة ، قدسي الروح ، كبير النفس ، وصادف تربية صوفية نقية ، زهدته في الشهوات والجاه الدنيوي ، وأعدته لورثة هداية النبوة ، فكان زيتة في زجاجة نفسه صافياً يكاد يضيء ولو لم تمسه نار ، فستة شمعة من روح السيد جمال الدين فاشتعل نوراً على نور (يهدي الله انوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم)

اقرأ في الصفحة ٢٥ من هذا الكتاب كيف زار السيد المرة الاولى هو وصديقه وأستاذه الشيخ حسن الطويل في خان الخليلي ، وكيف كان اول حديثه معها السؤال عن تفسير بعض آي القرآن وما يقول العلماء والصوفية فيها ، وانه بين لهما قصور كل ما قالوه ، وجاء من عنده بخير منه ، وكيف اعجبا كلاهما بما قال ، ولكن الشيخ حسنا ظل على حاله ، لانه كان قد بلغ منتهى استمداده ، وكان أرقى علماء الازهر عقلا وعلماً وزهداً

وأما الشيخ محمد عبده فكان يشعر بأن كل ما اصابه من حسن تربية الشيخ درويش ، ومن علم الشيخ الطويل والشيخ القصير ^(١) دون ما تسمو اليه نفسه ، (١) المراد بالشيخ القصير احمد الرفاعي القصير القامة وكان اصلب الازهرين جمودا كما كان الشيخ الطويل أشدهم استقلالاً

وبتطاع اليه عقله ، وتضطلع به همته ، و كان يطلبه بما استطاع من الوسائل فلا يجده ، ذلك ان روحه كانت مستشفرة للعرفان الذي يصعد بها إلى سماء الوراثة النبوية ، لإصلاح البشر ، وتجديد أمر الدين الذي بشر به المصلح الاعظم ﷺ ، فأتصل بالسيد جمال الدين من ذلك اليوم حتى اقتبسه منه وكان خليفته فيه ، لكن من ناحية تربية الامة التي كان يتمنى قيام السيد بنفسه بها ، إذ لا يثبت إصلاح الحكومات بدونها ، لا من ناحية استبدال حكومة صالحة مكان غيرها (راجع ص ٩٧٤) تلك الوراثة النبوية التي عبر عنها يوم موت السيد بقوله في رثائه الوجيه البليغ : « هو الذي أعطاني حياة يشاركني فيها علي وعجروم » السيد جمال الدين أعطاني حياة أشارك بها محمداً وإبراهيم وموسى وعيسى (ص) والاولياء والتقديسين . ما رثيته بالشعر لانني لست بشاعر ، ما رثيته بالنثر لانني لست الآن بنثر ، رثيته بالوجدان والشعور لانني انسان أشعر وأفكر « اه بنعمه تقريبا »^(١)

هذه الوراثة هي التي أخرج الله تعالى بها محمداً عبده من خمول تصوفه وخمود أزهريته الى ميادين الجهاد في سبيل التجديد الديني ، والإصلاح الاجتماعي المدني ، يخوض غمرات الثورات ، وتتقاذفه أمواج الاسفار ، وتكافحه قن الامراء المستبدين ، وجهالة حملة العمامم الجامدين — من حيث بقي حسن الطويل نديده في التصوف والفلسفة فابما في كسر بيته ، راضيا بخموله وراحة نفسه . وإن في الصلاة لراحة ، وإن في العلم والذكر للذة ، ولكن ثوابها قاصر على صاحبها ، وثواب الجهاد متعدد لكل من ينتفع به ، والانسان الكامل من يجمع بينهما

بهذا الروح اله لوي كان يقول له أستاذة السيد جمال الدين وهو مجاور يلبس الزعبوط : قل لي يا الله أي أبناء الملوك أنت ؟ ذلك السيد الذي كان يخاطب الملوك المستبدين خطاب الاقران ، بل يهدد بعضهم ويمن على بعض فيقول لاسلطان عبد الحميد انني لاجل أمرك قد ماتت عن شاة إيران ، ويقول له السلطان : بحق يخاف منك الشاة خوفا عظيما^(٢)

(١) هما أخواه اللذان يشغلان بالزراعة (٢) كنت كتبت العبارة من مذكرة له وفقدت المكتوب وبقي الحفوظ (٣) هذا لفظ السيد في ترجمة لفظ السلطان سمعه منه كثيرون في الآستانة

بهذا الروح العلوي كان يشرف من سماء إدارة المطبوعات بالسيطرة والساطان على الحكومة المضربة من أعلاها الى أدناها، فيأمرها وينهاها، منتقداً أعمالها، مرشداً أعمالها، يخطي أفتهم الكتابية فيضطرهم إلى إصلاحها في معاهد التعليم، ويفند أعمالهم فيقيمهم على صراط العدل المستقيم. بل أزعج بمقالاته في انتقاد وزارة المعارف ناظرها حتى شكاه إلى رئيس النظائر رياض باشا فما أشكاه، وكلم الرئيس الشيخ فأقام له البرهان على وجوب الإصلاح، وأقنعه بإنشاء المجلس الأعلى المقيد لاستبداد وزيرها في الأعمال، فأنشأ برأيه، وكان هو سكرتير ذلك المجلس وصاحب التأثير الأكبر فيه

بهذا الروح العلوي كتب ذلك الكتاب البليغ في سجنه، وأعلن فيه عفوه عن وشوا به وأساءوا إليه على ما كان من احسانه اليهم، وجزم بما أعدت له العناية من المجد، واعدأ بأن سيفعل المعروف، ويغيث الملهوف . . . وكذلك كان

بهذا الروح العلوي كان هو الرأس المدبر في كل مجلس رسمي عين عضواً مرعوساً فيه كمجلس إدارة الأزهر ومجلس الاوقاف الاعلى ومجلس شورى القوانين. نجد إثبات ذلك في بيان أعماله فيها من هذا الكتاب، سافرة الوجه ليس دونها نقاب بل بهذا الروح العلوي كان اميره يكبره ويها به ويقول انه يدخل علي كأنه فرعون. وإنما كان يدخل عليه كدخول موسى عليه السلام على فرعون، متوكئاً على عصا الحق، داعياً الى الإصلاح والخير، ناهياً عن الاستبداد والبغي - كقوله له في مجلس تشريف المقابلة الحافل بالعلماء: ان مجلس إدارة الأزهر لا يعرف لسموكم أمراً عليه، الا بهذا القانون الذي بين يديه، دون الاوامر الشفوية التي يبلغها عنكم، من لا يثق به المجلس لمخالفته لقانونكم



تلك آيات يينات من حياة كل من الروحين على الانفراد، فما رأيك إذا اجتمع هذا الروح العلوي بذلك الروح الاعلى الذي اذكى سراج الوهاج، واتحدوا في عمل من الأعمال؟ ذلك ما كان من اصدارها جريدة العروة الوثقى التي لا نعرف في تاريخنا كلاماً بشرياً ابلغ من مقالاتها في إصابة مواقع الوجدان من النفس،

اشترك الروحانيون والمجددين في العروة الوثقى وتأثيرها الغريب ك

ومواضع الإقناع من العقل ، وتجربة الضعفاء على الثورة على الأقوياء ، والجهاد لتحرير أممتهم ، واستقلال بلادهم

فإن سألت عن تأثيرها في رعب المظلمة البريطانية ، وإثارة العالم الإسلامي والشعوب الشرقية ، فإنك تجد قصصها مبسوطا في هذا الكتاب ، بما يشبع هممتك السياسية من إسهاب ، ويروي غلتك الأدبية من إطناب ، (ص ٢٩٨ و ٣٠٣)
وإنه ليس ذلك بالروايات الصحيحة ، والشواهد الصادقة ، كل ما أشرنا إليه في هذا التصدير من آثار تلك الروح القدسية ، وتجديد الإصلاح المنقذ للامم والشعوب من رق الفاتحين المستعمرين ، وظلم المستبددين القاهرين ، وجود الفقهاء المتلذذين ، ودجل المتصوفة الخرافيين ، فاطلبه من هذا التاريخ فإنه يقصه عليك مفصلا تفصيلا فاقراءها النور على قومه ووطنه فصلا فصلا ، وتدبر مقاصد فصوله مقصدا مقصدا ، ثم اقرأ في الجزء الثاني له مقالات الامام الاجتماعية والأدبية ، ولوائحه في إصلاح التربية والتعليم ، ورسائله الدينية والأدبية للعلماء والأدباء . ثم ارجع البصر إلى الجزء الثالث واعتبر بتأثير وفاته في العالم الديني والدني ، وتأمل إجماع كتاب الامم والشعوب المختلفة الاجناس والاديان والآراء والافكار على تزيينته وتقديسه ، او تدبر مقدمتنا لكل منهما - تعلم انه هو الامام الذي يجب اتباعه في تجديد الامة وإحياء الملة ، وإيجاد المدنية الفاضلة ، ثم انظر ما اقترحتة على مصر في خاتمة هذا الكتاب لعلاك تكون من حزب الدعاة الصالحين ، وأنصار التجديد المستبصرين الذين قال الله تعالى فيهم (وزيد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين)

هذا ما توخيت التنويه به من هذا الضرب البديع من التجديد لحياة الشرق على ما وصفت من التباين بينه وبين الغرب ، وما كان من تأثيره الذي يشبه خوارق العادات ، كبراء الاكهم والابرص وإحياء الاموات ،

المجددون للوثنية والرهيل

إلا وإنه قد نجم في هذين القرنين قرنان اوقرون من أدياء التجديد، بعضهم في إيران وبعضهم في الهند، وانهم بالامسحاء دجالون، ومتنبئون كذابون، لبسوا على الناس لباس الاصلاح الديني، ومثلوا لهم بالشكل الذي تصوره تقاليدهم لما ينتظرون من المسيح والمهدي، وانتحلوا لدعايتهم آيات، واخترقوا لانفسهم معجزات، فمنهم من ادعى النبوة، ومنهم من ادعى الالهية، وقد اتبعهم فئام من المحرومين من مزايا الانسان: الكافرين بنعمتي العقل واقرآن، الجاهلين لثبوت نبوة خاتم النبيين بالعلم والعقل، وان الله ختم به نزول الوحي، فزادوهم رجسا على رجسهم، وعبودية للاجانب على عبوديتهم، فكانوا دعاة وأنصاراً للمعتدين على استقلال بلادهم، المستعبدين لاقوامهم، فوالله لو عمت فتنتهم لاستولى الانكايز على بلاد فارس كلها، ولما وجد في الهند من يطالب الانكايز باستقلال، ولا بحق من الحقوق ولا عمل من الاعمال

أليس من مثار العجب الذي جاء بها ابو العجب^(١) ان يضع كل من اتباع هؤلاء الدجائين لانفسهم نظاما، ويجمعوا لبث فحلتهم أموالا، وينفروا للدعوة اليها خفافا وثقالا؟ فيكون لهم في كل واد أثر، وفي كل قطار ذكر، وينضوي اليهم بعض الملاحدة طمعا في أموالهم، لا إيمانا بمسيحهم او الههم؟

أوليس باوغل من هذا في أعماق العجب واولغ في احشائه أن يتخاذل العارفون بقدر حكيمة الشرق، وامامي الاسلام بالحق، عن تأليف حزب لتعميم اصلاحهما، واستمرار تجديدهما، وأن يكون لجماعتهم نظام يكفل دوام سيرهم ومال يضمن نجاح سعيهم، ومدارس تربى النابتة على منهاجهم، وأطباء يداوون أمراض الاجتماع بملاجهم؟ على استقلال الفكر، وحرية العلم والرأي، وهداية الدين، وتوطين النفس على الجهاد لاعلاء كلمة الحق. واقامة ميزان العدل لتكون عزيزة لاتدين لاجنبي معتد، ولا لوطني مستبد؟

(١) ابو العجب الشموذي وكل من يأتي بالاغاجيب

نعم ان ذلك لعجيب ! وان هذا لا عجب منه . وبشبههما في العجب ان المنتمين الى السنة من المسلمين أقل من المبتدعة تعاونوا وتناصروا وعصبية ودعاية : أفلا أنبتك بالسبب ، الذي يفتشك من حيرة العجب ؟

ان حقيقة السنة والجماعة هي حقيقة الاسلام . وان الاسلام الحق هو دين توحيد المبودية والربوبية لله وحده . والحرية وعزة النفس تجاه ماسواه . واتباع رسوله وحده فيما بلغه عنه والعمل بمقتضى الوازع النفسي التابع للعقيدة ، والنظام الاجتماعي الذي تقرره الشريعة ، فلا تذلل نفس صاحبه بالانقياد لرئيس ديني ولا دنيوي لذاته ، ولا سلطان ورثي أو تقليدي فيما وراء تنفيذ أحكامه .

وأما هذه النحل الباطلة والمذاهب المبتدعة التي أشرنا الى بعضها فأساسها المبودية والخضوع لفرد أو جماعة من البشر ، يقدر متحايها أشخاصهم ويرفعهم على نفسه وعلى سائر الناس وهم منهم ، ويوجب طاعتهم عند فريق وعبادتهم عند آخر . فتكافل هؤلاء يكون تاما شاملا لانه تعبدى ، وعصبيتهم تكون أقوى لانها وجدانية لا عقل للافراد ولا رأي للجمهور فيها .

ويرد علينا ههنا ان العقائد الباطلة والتعاليم الواطئة ، خير للجماعات والشعوب التي تأخذ بهن من العقائد الصحيحة والتعاليم العالية ، من حيث جمع الكرامة ووحدة الامة . ونرد هذا الايراد بقولنا ان العقائد الحق والتعاليم الصحيحة لا يقوم بها إلا أصحاب العقول النيرة والافكار المستقلة الذي آمنوا بها عن حجة وإذعان . وما تنازع هؤلاء مع المخالفين لهم إلا وكان لهم الرجحان . سواء أكان التنازع في الدين أو في الحكم والسلطان ، وبهذا ظهر الاسلام على جميع الاديان .

وهذا الفريق فريق العقل واستقلال الفكر قل في جميع فرق المسلمين ببناء التعليم فيهم على أساس التقليد الذي يحتم على طالب العلم أن يقبل كل ما يقرره شيوخه بمنوان مذهبه وإن لم يكن منه ، سواء أعقله أم لم يعقله ، فان نازعه فيه حكم بكفره ، ولهذا صار أكثر المسلمين يقبلون البدع والخرافات مهما تكن المذاهب التي ينتمون اليها ، إذ ليست المذاهب فيهم إلا عناوين لمصيبيات لها رؤساء يطاعون باسماء ، وأكثرهم يجهلون اصولها وقواعدهم . ومن تلقى منهم شيئا منها فانما هو لفظ ينقله ولا يعقله ،

ن سبب قلة أنصار الحكماء من رجال الدين وكثرتهم في رجال الدنيا.

ولا يرجع اليه في فروع علمه ولا عمله ، ومن كان غير مستقل الفهم والعقل في عقيدته ، لا يكون مستقل الإرادة في عمله . ومن نتائج هذا الخضوع ان صاروا خاضعين للمستبدين ، وظهراء للظالمين ، وان كانوا بملتهم كافرين

وأساس الإصلاح الديني والسياسي الذي قام به وعليه الاسلام ديننا ودولة وقامت عليه الدول القوية هو الاستقلال بنوعيه . وهو الذي دعا اليه الحكماء المجتهدون الافغان والمصري ، وقد بينه الاستاذ الامام في رسالة التوحيد ، لهذا كان أنصارهم من رجال الدين هم الاقلين وخصومهم منهم هم الاكثرين . وكان أشد ما أنكروه عليهما القول بوجوب الاجتهاد وتحريم التقليد - ويقابله أن كان أكثر المعجبين بهما والذين قدرهما قدرهما ، هم الذين نبغوا في المدارس المدنية العالية التي يسير فيها التعليم على منهاج استقلال الفكر وكذا من تلقى من بعض أهلها وعاشروهم على استعداد فيه فصار مستقلا . ثلثة من المدنيين وقليل من المغممين

ولو كان مادعا اليه الحكماء هو التجديد السياسي والمدني دون الديني لآلف له هؤلاء الانصار حزبا كبيرا منظما كما فعل سعد باشا من تلاميذها بعدهما

ولو دعا الاستاذ الامام الى نهضة دينية تقليدية صوفية لوجد من الازهريين وأهل الطرق من يؤسس له عصبية قوية يذهبها الالوف وآلوف الالوف في زمن قريب ، ولا سيما اذا أباح لنفسه أن يظهر لم تعبه الخلق ، ومعرفته بأسرار التصوف ، وغير ذلك من خصائصه الروحانية ، التي كان يعتقد وجوب كتابتها لانها غير طليعية . فإظهارها للمقيد بالسنن الطبيعية فتنة لهم ، وفيها كثير مما يعد من الكرامات عندهم ، وقد نقلت هذا عنه في بيان رأيه في التصوف والصوفية .

بيد أن كلا منهما حكيم عاقل ، وان السيد جمال الدين رجل دين وان غلبت عليه السياسة . والشيخ محمد عبده رجل سياسة وان غلب عليه الدين . بل هو أقرب من أستاذه الى الموقف الوسط بين رجال الدين والدنيا من المرتقين . فيهما ، فقد كان في الازهر لا يعمل قوله قول ولا يغلب رأيه رأي . وكذلك كان بين الراقيين من رجال الدنيا كالوزراء والقضاة والمحامين والادباء والنشئين ، بل كان كذلك بين علماء الافرنج وساستهم ، وترى نموذجا من شهادات الجميع له في هذا التاريخ

خلاصة الخلاصة

في وجوب الجمع بين التجديدية الدينية والمدنية

وحزب الاصلاح المعتدل

الذي يقوم به

وخلاصة ما أريد عرضه على قراء هذا التاريخ في هذا التصدير ان اصلاح الامة الاسلامية في أي شعب من شعوبها لن يكون إلا بالجمع بين التجديد الديني والديني. هذا ما صرح به الحكماء وجريا عليه بالعمل. وصرح لي به سعد باشا زغلول وقد قلته عنه في النار. بل هذا ما يعتقده أهل الرأي الناضج من غير المسلمين، وقد صرح به الكثيرون منهم قولاً وكتابة، كما يراه القاري. فيما كتبه بعضهم في تأييدهم الاستاذ الامام وترجمتهم له من الجزء الثالث، وذكرت كلمات منها في الشهادات المعدودة لاشهرهم قبل خاتمة هذا الجزء.

فالجهد الذي يخوض غمراته دعاة الاستقلال السياسي والاصلاح المدني لا يتم لهم النصر فيه، ولا يتسقى أمره وتثبت بوابه، إلا بالتعاون والتظاهر مع دعاة الاصلاح الديني، وقد كثر جنده المستقلون في فهم الاسلام في الازهر وغيره من القطر المصري وفي سائر الاقطار الاسلامية وهم منذ سنين يفكرون في تكوين وحدتهم وتنظيم حزبهم، فاذا وجدوا من زعماء الاحزاب المدنية رغبة في الاتحاد بهم والتعاون معهم، ظهر هؤلاء من قوتهم في الرأي، وتأثيرهم في الشعب، بألسنتهم الحاطبة، واقلامهم الكاتبة، مالم يكونوا يحسبون،

واختصر في هذا الموضوع هنا لانني قد وفيته حقه في خاتمة الكتاب بما ليس وراءه مزيد، إلا اذا ظهر الاستعداد له وانتقل إلى حيز التنفيذ.

فراجع الخاتمة، واجمع بينها وبين هذه الفاتحة، وأما الاعمال بالحوادث (ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم)

✽ وكتبه محمد رشيد رضا في سلخ جمادى الاولى سنة ١٣٥٠ ✽

﴿ المواد المهمة التي اعتمدنا عليها في كتابة هذا التاريخ ﴾

- (١) ما كان شرع فيه الاستاذ الامام من ترجمة نفسه بخطه .
- (٢) مذكرة بتاريخ حياته كتبها لي لاجملها أصلاً لخلاصة لتاريخه طلبت منه
- (٣) ما كتبه من تاريخ الثورة العربية ومذكراته الوجيزة فيها
- (٤) مجموعة خطية له فيها بعض المستندات في عمله مع السيد جمال الدين في تأسيس جمعية العروة الوثقى السرية ونظامها . وبعض المكاتبات بيده وبين أعضائها
- (٥) مسودات مقالات ومكتوبات وتقارير كان يعطيني إياها لتبويبها أو بسطها ونشرها في الجرائد أو إرسالها لبعض الناس ومنها ما هو خاص بالازهر
- (٦) مؤلفاته كلها وما اقتبسته من تفسيره ودروسه في الازهر
- (٧) جملة من المكتوبات والرسائل والتمصائد التي كانت ترسل اليه وحفظها عنده
- (٨) مجموعة فيها حكم مقتبسة منشورة بخط السيد جمال الدين وخطه ومقالات له
- (٩) مقالاته الإصلاحية في جريدة الوقائع المصرية
- (١٠) مجموعة العروة الوثقى برمتها بخطي وخط بعض اخواني
- (١١) قوانين الازهر ولوائح التعليم فيه ومحفوظات أخرى في شأنه
- (١٢) كتاب اعمال مجلس ادارة الازهر
- (١٣) تقرير محمد بك ابو شادي في مسألة فتوى طعاع اهل الكتاب
- (١٤) إرشاد الامة الاسلامية إلى أقوال الائمة في الفتوى الترافعية لجامعة من أكابر علماء الازهر
- (١٥) مجموعة مجلدات المنار وما فيها من المقالات والآراء له وعنه وفي شأنه
- (١٦) عدة أجزاء من مجلة ضياء الخافقين فيها مقالات للسيد جمال الدين
- (١٧) مجموعات المجلات والجرائد المصرية التي نشرت ترجمة السيد وترجمته
- (١٨) كتاب الدفاع عن العربيين لحاميهم مستر برودي
- (١٩) ما كتبه لي أصدقائنا من تلاميذه ومريديه عن سيرته في سوروية بمد النفي ورحلته إلى السودان وفي مدحه والدفاع عنه
- (٢٠) مذكراتي الخاصة ومكتوباته لي وما اقتبسته واستفدت منه من معاشرته ٨ سنين





الشيخ محمد بن عبد الله

بن عبد الله بن عبد الله

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ
صَادِقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٣: ٢٦) أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١: ١٢)

فلك الحمد أن جعلت سير الاولين عبرة للآخرين ، ومننت على عبادك بمن
بعثته في الاميين ، يتلو عليهم آياتك ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا
من قبل لني ضلال مبين . محمد خاتم النبيين ، ورحمتك العامة للعالمين ، فصل وسلم
اللهم عليه وعلى آله وصحبه ، والمجددين لهديه واصلاحه من بعده ، حتي ترث
الارض ومن عليها وأنت خير الوارثين

أما بعد فيقول محمد رشيد رضا صاحب المنار إن مصر لن تنسى ذكر الحكيمين
المجددين ، والامامين المصلحين ، السيد جمال الدين الافغاني ، والشيخ محمد عبده
المصري ، فطلاب الاصلاح الديني والاصلاح المدني والاصلاح السياسي ، لا يفتنون
يشيدون باسميهما على أعواد المنابر ، وفي اعمدة المجلات والجرائد ، ولا يزالون
يجعلونهما مضرب الامثال ، ويتناقلون ما يؤثر عنهما من حكم الاقوال ، وجلال
الاعمال ، بل ذكرهما الحميد معروف في سائر الشرق ، غير مجهول في عالم الغرب ، وان
لقب « حكيم الشرق » ولقب « الاستاذ الامام » لاصقان بهما ، وهفتيان عن تسميتهما
وقد أجمع العارفون والمدونون للتاريخ الحديث على انهما مصدر هذه النهضة
العصرية في مصر والافغان و إيران والهند ، وهم يشعرون بالحاجة إلى وضع
تاريخ لهما يدون سيرتهما ، ويفصل أعمالهما الاصلاحية ، ويرون ان ما كتب في
الصحف عند وفاة كل منهما ، وما ينشر فيها أحيانا من التنويه باصلاحهما ، نزر
يسير من أعمالهما وآرائهما النافعة . وعجز بعض المفكرين ان رأوا بعض الافرنج
يكتب في تاريخهما مالم يكتب مثله أولادها وأحفادها من دعاة الاصلاح والتجديد
وينحون بأشد اللائمة على المصريين منهم عامة وعلى صاحب المنار خاصة إذ
كان أخص مر يدي الاستاذ الامام وناشر علمه وحكمته . والمدافع عن اصلاحه

في عهده ومن بعده . وقد وعد بكتابة تاريخ له عقب وفاته . فنشر سفر أجمع فيه أكثر منشأته القلمية ، وجزء أجمع فيه أهم ما قيل وما كتب في تأييده وراثته ، وبماها الجزء الثاني والجزء الثالث من تاريخ الاستاذ الامام . وقد مر ربع قرن ونيف ولم يصدر الجزء الاول الذي هو التاريخ الحقيقي

أشهد ان لوم اللائمين لصر على هذا القصير حق . وانني بما يخصني من التثريب علي لاجله وهو أكبره أحق . ورب لائم ملهم . ورب ملوم معذور . وها أنذا ألخص عذري بعد أن اعترفت بتقصيري . وبرئت من ذنبي بانجاز وعدي

توفي الاستاذ الامام رحمه الله تعالى في إثر معارك من جهاده في الإصلاح ماصلي نارها معه غيري . وحماة ما تصديت له من الضرر . غير متامل ولا ضجر . وأماما لذع قلبي من نارفقده فهو الذي لم يكن لي بحمله حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . ثم كنت مهتداً بعده بالنفي من هذه البلاد كما هددت في آخر عهده . وقد وطنت نفسي على النفي وعزمت على السفر الى الهند . ولم أتحول عن خطتي قيد شعرة أعلنت عزمي على كتابة تاريخ للاستاذ الامام فلم ألبث أن بلغت عن الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان ان أصدقاءه قد قرروا تأليف تاريخه بالتعاون بينهم وهم به أولى ، فقلت للمبلغ ان تأليف تاريخين لهذا الامام الكبير ، ليس بكثير ولا كبير . فليكتبوا ما عندهم وأنا أكتب ما عندي

ثم أرسل إلي عميد حزبه المدني وأقوى أركانه سعد باشا زغول وكان عادع شقيقه احمد فتحي باشا من أوربة ، فخبثته فبلغني أنه هو واخوانه من مر يدي الامام وأصدقائه يرون أن أتولى كتابة تاريخه . وأن يساعدوني بما لديهم من المواد والمعلومات . ثم يساعدوني على طبعه ونشره بالمال ، بشرط ان أطلعهم على عملي وأستشيرهم فيه ، فان كثيراً من سيرته رحمه الله كانوا يعدون متكافلين معه فيه . ويعدون من بعده مسؤولين عنه

فاجبته انني لست الا واحداً منكم بل أنا أصغركم ، ولا أستغني عن مساعدتكم ومشاورتكم . ولا أحب الخروج عما ترونه من مصالحتكم . وفي إثر ذلك اجتمع بدعوة منه الشيخ عبد الكريم سلمان وحسن باشا عاصم وشمس بك راسم وقاسم بك أمين والشيخ عبد الرحيم الدهرداش (باشا) وقرروا ان يخدموا احمد فتحي بكما زغول ليكون نائباً عنهم في التعاون والتشاور معي في العمل وبلغوا حموده بك عهده ذلك ، وانه يرضيهم أن يعطيني ما عنده من مواد هذا التاريخ . وانما اختاروه لذلك لانه أنشطهم وأقدرهم عليه وأكثرهم مودة وزياره لي ، وطلاقة في حرية الكلام معي ، وكان هو المتصل من جماعتهم بسمو الخديو ومحيطاً بسياسة الانكليز في الامور علماً . وها الجانبان اللذان يحسب لرضاها وسخطها كل حساب

وكان كل ما قدمه لي من المساعدة نسخ مقالات الاستاذ الامام الاصلاحية من جريدة الوقائع المصرية الرسمية إذ كان يقتني مجموعتها . وكان أول ما شاورته فيه مقالات جريدة العروة الوثقى وكانت كلها منسوخة عندي . فاما ما كان منها خاصا بالسياسة ومسالة مصر والسودان وتهيج العالم الاسلامي والهند على الدولة الانكليزية فقد وافقته على تركه وعدم نشر شي منه في منشأته لان الحرية في مصر لا تنفع لنشرها . وقد كانت العروة الوثقى ممنوعة من مصر والسودان والهند لاجلها . وقد نشرت أهمها في هذا الجزء . وأعطاني جموده بك بعض المواد ومن أهمها ما كتبه الأستاذ من تاريخ الثورة العرابية

وأما المقالات الاصلاحية العامة التي بث الحكيمان فيها الدعوة الى جمع كلمة المسلمين واصلاح ذات بينهم . والتعاون على احياء مدينتهم بما تقتضيه وسائل هذا العصر . فقد اتفقنا على نشر أكثرها . وترك ما تعددنا كثرة تحريضا عليها منها . ولكنه أشار أيضا بحذف جمل من بعض المقالات ما وافقته عليها إلاكارها . وأيقنت اني لا يمكنني أن أكتب هذا التاريخ تحت مراقبته والتقييد بمشاورته بالحرية التي أريد بها ، وقد ساعدتني اللجنة بمبلغ من المال أعطيتها في مقابلته مئات من النسخ وزعها أعضاؤها بالمجان ، وبيع بعضها بثمان بحدس

فهذا ما حملني على التعجيل بجزء الثاني والرائء والتعازي ثم بجزء المنشآت والتسويق بجزء الترجمة ثم التطويل في فصول تربية الاستاذ الامام وتعليمه منه بذلك الاستطراد الطويل في الكلام على حقيقة التصوف وما يوافق الكتاب والسنة وما يخالفهما منه واتفقنا على جعل ترجمة المنار للاستاذ الامام هي الاصل لجزء الترجمة في مواده مع بسطها والتوسع فيها . وقد قرأه هو وورثه وأشار بالخبر الاحمر الى حذف بعض المسائل منه لمخالفتها لمقتضى الحال أو سياسة الوقت

وفي أثناء ذلك استقال لورد كرومر العميد البريطاني وخلفه السر ألدون غورست صديق سمو الخديو وكان ذلك في أوائل سنة ١٣٢٥ قبل أن تتم على وفاة الامام سنان ، فكبر نفوذ سموه في الحكومة وضاعت بكبره سعة الحرية علينا ، وأعيد في عهده العمل بقانون المطبوعات فاقنتع أحمد فتحي باشا نفسه بارس كتابه تاريخ الاستاذ الامام كتابة حرة مفيدة صار متعذرا ، فاتفقنا على الوقوف عند ما كان قد تم منه وهو الى ٢٣٢ صفحة وهو المقدار الذي أطلعت عليه الشيخ عبدالكريم سلمان إذ رأيته شاكا في بدئي بطبع الكتاب فاعترف بانه لا يمكن نشره

وجملة القول ان طبع هذا الجزء كان يسوء الخديو عباسا وإن لم ينشر فيه ما كان من مقاومته للامام في اصلاح الازهر والمحام الشرعية والاقواف حتى المساجد فان نشر هذا فيه كإبراه القاري . هنا فانه كان يبذل كل قواه في عقاب مؤلفه ، وما

كان أحمد فتحي باشا ليرضى بذلك ولا سعد باشا أيضاً، ومكانهما في حكومة جنابهما مكانهما وما انتهى عهد سموه إلا بسبب الحرب الكبرى التي جعلت الحكومة الانكليزية مضراً في اثنائها خاضعة لاحكامها العسكرية وأعلنت حمايتها عليها، واشتدت مراقبتها العسكرية ومراقبة الحكومة المحلية بامرها على المطبوعات، واستمرت هذه المراقبة الشديدة الى ما بعد الحرب زمن طويل.

وانما سنحت الفرصة الاولى لاصدار الكتاب في العهد الاخير لسعد باشا في زعامة الامة ورياسة الحكومة واستقرار نفوذه في البلاد أي في سنة ١٣٤٥ هـ إذ لم يبق للانكليز من النفوذ القوي في هذا العهد ما يخشى أن يمكنهم من حمل الحكومة على مصادره، على ان ثورة مصر قد انتهت ولم يعد ما في الكتاب من التحريض السابق يضيق على حريتهم. بيد أنه قد عاقني عن افتراض هذه السانحة بالسرعة عدة عوائق منها انني كنت انتقلت من الدار التي طبعت فيها القسم الاول من التاريخ الى دار أخرى وتعذر وضع كل نوع من المطبوعات الكثيرة وحده فلم تقدر على العثور على المطبوع من التاريخ إلا بعد الانتقال الى دار المنار الجديدة ووضع كل كتاب من مطبوعاتنا في محل خاص به. وانما تم بعد وفاة سعد رحمه الله تعالى. وقد وجدنا بعض المطبوع تالفاً وبعضه قد فقد، فاضطررنا الى اعادة طبع أكثرها وشرعت في اتمام الكتاب في أواخر سنة ١٣٤٨ وعرض لي موانع عن المضي فيه مدة سنة وعدت اليه في أواخر سنة ١٣٤٩ وكنت أقدره ثمانين كراسة (ملزمة) أو مائة، ثم كنت كلما شرعت في مقاصد فصل من الفصول أتذكر من مواده ومسائله ما كنت ذاهلاً عنه حتى بلغ ما رآه القاري، وقد صيرت نفسي وجسستها على كتابة ثلثة الاخير اربعة أشهر من هذا العام (١٣٥٠) لا اشرك به عملاً آخر حتى تم طبعه في هذه الايام، وبقي كثير من المواد والمستندات من تاريخه وتاريخ السيد جمال الدين ضاق عنها هذا الجزء فوعدت باثباتها في جزء الذيل الذي اضعه له ان شاء الله كيف كتب هذا التاريخ

كتب هذا التاريخ في أثناء سنين كثيرة وفترات بعيدة، وأوقات يختلف فيها الفكر والشعور باختلاف الاحوال، والالاء والاستعجال، ولم تكن مواده مجموعة مرتبة وانما جريت في ترتيب أكثرها على ما كتبه في المنار عقب وفاة الاستاذ الامام من ترجمته، ومنها ما ليس له ذكر في تلك الترجمة، ومن ثم يجد القاري فيه تكراراً لبعض المسائل عن سهو أو عمد، وربما تختلف فيه العبارة في المسألة الواحدة بعض الاختلاف في اللفظ كاختلاف الورق، ولا سيما المسائل التي اعتمدت في كتابتها على حفظي، وأرجو أن لا يكون فيها شيء من التناقض فأنني بفضل الله تعالى قوي الذاكرة للعاني

ولولا ان طال هذا الجزء حتى صار يشغل حمله، وعطلت أهم أعماله لاجل اتمامه، مع سوء الحال، وقلة المال، لوضعت له خلاصة كلية ألخص فيها مقدمات كل مقصد من مقاصد فصوله ونتيجته، وأبين مواضع العبرة فيه على نحو ما ذكرته في أثنائه لبعضها، كأن أعد ما كان عليه الازهر قبل تصدي الامام لاصلاحه من الصفات والاحوال واحدة واحدة، واعدا ما كان عليه شيوخه وطلابه من الصفات والعادات والاعمال صفة صفة وعادة عادة وعملا عملا، ثم أبين ما كان من تغيير الاصلاح لبعض ما ذكر وأعد فوائده واحدة بعد واحدة، ومثله أن ألخص آراءه في التربية والتعليم قاعد المفاسد التي ذكرها في لوائح اصلاح التعليم في الدولة العثمانية وفي مصر، وما ذكره منها في خطبه في احتفالات مدارس الجمعية الخيرية، ثم أعد ما ذكره في تلك المواضع وغيرها من قواعد الاصلاح كلها وهي التي ادعو اليها، ولكنت أفعل هذا في كل فصل بل كل مقصد، واذا لكانت الفائدة اتم والنفع أعم، واذا عذر على كتابة هذا فاني أوجه همة الراغبين في مثله أن يتولوه لانفسهم بانفسهم، ومن لا يعنيه ذلك فلا يهتم لقراءته. وعسى أن أوفق لهذا في الذيل الذي أرجو أن يكون هو المكمل له وقد جريت على سنن علمائنا المتقدمين من رواة الآثار المحدثين والمؤرخين في بيان آراء الاستاذ الامام وعاداته وشماله وأخلاقه بالصراحة والحرية والصدق، ومنها ما هو منتقد عندي على ما كان بيننا من الاتفاق، الذي ينذر أن يوجد مثله بين اثنين من الناس، وأنا أعلم ان منها ما يكون منتقداً في نظر غيري وان كان صواباً عندي، ومنها ما ينتقد علي نشره لان مثله غير معتاد، اولانه من مبالغاته التي ربما كان يقصدها التأثير الخاص، ككلمته في تحريف الفقهاء، وهذا نادر ومن أنعم النظر في فوائد هذا الاستقصاء رأى ان أهمها تمثيل حقيقة الرجل من كل ناحية كي يحيط القاري به خيراً، ويحكم عليه حكماً صحيحاً، فان الذين يترجمون الرجال بذكر محاسنهم ومناقبهم، وإخفاء هناتهم ومثالبهم. انما هم شعراء مداحون، لا مؤرخون حقيقيون.

فاذا رأى القاري انني على اعجابي بسعة علومه ورسوخه في معارفه التي كان بها جديراً بلقب الاستاذ الامام، الذي قبله وأجازته الرأي العام. أثبت انه كان مقصراً في علوم الحديث من حيث الرواية والحفظ والجرح والتعديل كغيره من علماء الازهر - وانني على اعجابي باخلاقه التي كان بها حقيقاً زعامة الاصلاح والتجديد للامة والملة، صرحت بأنه كان كأستاذ لا يخلو من الحدة. ومما يقابلها من الضعف بشدة الرحمة، والمبالغة في الورع، المغريتين لصاحبهما بإثارة ما على المصلحة العامة - وأنني على اعجابي بقوة تدينه وحسن تعبدده ومحافظة على تهجدته. صرحت بأنه كان يجمع بين الصلاتين في الحضر أحياناً ترخصاً اجتهداً يا خالف فيه المذاهب الاربعة، ولكنه وافق حديثاً صحيحاً أخذ به غيرهم من الائمة

إذا رأى القارىء هذا وذالك أيقن انني لم أكن محاييا له في هذا التاريخ، ولا سالكا فيه مسلك الشعراء، ولا انصار المذاهب وزعماء السياسة، الذين يصورون آئمتهم وزعماءهم صورا مكبرة مزينة مججلة بما يظهر محاسنهم ويخفى مساوئهم، أو يبدل سيئاتهم حسنات، وعلم ان كل ما انتقد على الاستاذ يصح أن يقال فيه « حسنات الابرار سيئات المقر بين » واني وأيم الحق لم أطلع له على عمل يتنافى العفة والزاهة ولا الورع والشرف. ولا هفوة تدل على كامن حقد أو حسد. فهو أكمل من عرفت من البشر. ومن اطلع على دخائل كثير من المشهورين بالعلم والتقوى، او الحكمة والفلسفة، أو تاريخهم الصحيح رأى كثيرا من العجر والبجر. فما قولكم في زعماء السياسة وعشاق الرياسة؟

ولقد كنت داعية لزعامته وامامته، وانما كانت دعاية صدق ودين، وجهاد وجلاد، لزعامته تجديد واصلاح. لازعامته رياسة وجاه، ومناصب ومال، وهل يتوسل العاقل المتدين الى الحق بالباطل، والى الاصلاح، بالكذب الذي مطية كل افساد، فيتمجمل لنفسه الاجرام قدا، لاجل ما يرجو لغيره من الاصلاح نسيئا؟ وقد سئل الاستاذ الامام أترجو أن تجني ثمر اصلاحك في حياتك؟ قال أستبعد هذا ولا أظنه، وحسبي أن يتم فيجنيه من بعدي

ومجلة القول ان هذا الرجل اكمل من عرفت من البشر ديناً وأدبا ونفسا وعقلا وخلقا وعلميا وعملا وصدقا واخلاصا. وان من مناقبه ما ليس له فيه ند ولا ضرب، وانه هو السري الاحوذى العبرى الحقيق بلقب « المثل الاعلى » من ورتة الانبياء في هذا العصور ان لم اطلقه عليه لانه على اطلاقه خاص بالله في نص كتابه، وقد ابذله الناس في الخطب والجرائد حتى خرج عن معناه.

صنوف قراء هذا التاريخ

ألا وان قراء هذا التاريخ صنوف فمنهم طلاب الاصلاح والتجديد النافع للامة، مع المحافظة على مقوماتها ومشخصاتها التي تمت بها حقيقتها وامتازت من غيرها، وهؤلاء يشكرون لي عملي ويرون أنني أحسنت فيه وأصبت. ويعفون عما عساني أخطأت فيه أو قصرت، ويساعدوني على نشر الكتاب، لانه خير عون على اثارة الهمم، وتقوية الامل، والتنشيط على العمل. بل هؤلاء منا، من عرفنا منهم ومن لم يعرفنا

و يليهم المستعدون للإصلاح بسلامة فطرتهم وحسن نيتهم . ولكنهم غافلون عنه لفقد الباعث والمنبه ، وسيجدون في هذا التاريخ أقوى دعاية ، وأوضح هداية ، خلا ليلث قارئه أن يكون منا وينصيرنا بقدر ما أوتي من همة واستطاعة

ومنهم دعاة النهضة المدنية الوطنية اللادينية وسيجد المخلصون منهم ان امامنا امام لهم في جانب من جانبي اصلاحه ، وان الجانب الآخر ينفعهم ولا يضرهم ، فان الجامدين في التقاليد الدينية والخرافيين فيها هم أعداء التجديد المدني ، فاذا صلحوا التقوا معهم في تعزيز النهضة الوطنية وتعاونوا معهم عليها ، ما لم يكونوا دعاة اللحاد لذاته . وقد كان المعاصرون منهم للحكيم الافغاني والامام المصري يدينون لزعامتهما ، وان لم يكونوا من مريديهما والمقتبسين منهما مباشرة . بل كان اخلص منهم لقومه ووطنه يعترف بفائدة إصلاحهما الديني وضرورته لاكمال النهضة المدنية ، والرابطة الوطنية ، كما ترى في تابين احرار النصارى وملاحدة المسلمين للاستاذ الامام

وأما الجامدون المصريون على التقاليد والخرافات ، المطبوع على قلوبهم بما مردوا عليه من الخطيئات ، فقد يوجد فيهم من ياتمس لنا العثرات ، ويبدل حسناتنا سيئات ، ويكبر الصغير من الهفوات . ولا خوف على أنصارنا منهم فالحق يدفع الباطل والنور يطرد الظلمات ، وانما ضررهم محصور في مقلدتهم من العوام الجاهلين الخرافيين . يصدونهم عن قراءة كتبنا ، وما قرأها أحد وفهمها الا واتبعنا

ومن دون هذه الصنوف والطبقات صنف الملاحدة والزنادقة ، ودعاة الاباحة المطلقة ، وصنف اجراء الاجانب وأعوانهم ، وصنف المتملقين للظلمة المفسدين . وهؤلاء تحوت أدنياء لا يرجعون عن غيهم الا اذا صار للإصلاح دولة قوية غنية تستصلح هؤلاء بالرزق ، وتكبح شر أولئك بالقوة . وأما نحن فاذا خاطبونا قلنا سلاما . واذا مررنا بلغوهم مررنا كراما . ونسأله تعالى ان يجعلنا معهم ممن قال فيهم (واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به . انه الحق من ربنا . إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون * واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين * انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين)

سيرة الاستاذ الامام

بدء الشعور بالحاجة اليها ومطالبته بالشروع في تدوينها ما كان الاستاذ الامام يفكر في أن تكون له ترجمة تكتب أو سيرة تدون، لانه كان يستصغر عظم اعماله لتوجه همته الى ما هو أعظم منها . ولا أعظم منها الا غاياتها وثمراتها . وأما علمه وحكمته وأخلاقه وشماله فكانت محجوبة عنه بتواضعه، فلا يخطر في باله ما في اظهارها للناس من المثل الكامل والاسوة الحسنة . فبينما هو غافل عن هذه ومستصغر لذلك اذا به يطالب من بعض أهل العلم والفضل بالتفضل عليه بترجمته . ثم اذا هو بمعجب به يقترح عليه أن يكتب بيده سيرته . واذا بالمقترح جاد يلحف في السؤال ويكرر الاقتراح، فهل كان هذا المقترح وذلك الطالب من تلاميذه ومريديه وعم أولى الناس بعرفان فضائله؟ أم من صنائع أياديه فكان من حق الشكر عليها تعريف الناس بقواضله؟ أم كانا من أولى النزعة الوطنية والعصبية القومية، فاحبا أن يباهيا به الاوطان، ويفاخرا به الاقوام؟ لا هذا ولا ذاك جاء في الامثال « مغنية الحي لا تطرب » والعجيب اذا ألف لا يعود يعجب، ولذلك يكون اجلال الغرباء للرجل العظيم أبلغ من اجلال أهله وقومه، وقد كان للاستاذ الامام نصيب عظيم من اكبار الغرباء له لفضائله ومناقبه، على حين كان أكبر تحويم قومه عليه لجأه ومنصبه، لالعلمه وحكمته، واكثر اغتباط اصحابه الكثيرين به لعلو مروءته ونجدته، لا لاجل اصلاحه وجهاده، فكان لاكثر الفريقين حظ شخصي من تعظيمه

وأما اعجاب الغرباء به فلباعث عليه فضائله الذاتية . لا فواضله العرضية . وقد كان الذي طالبه بكتابة سيرته وتاريخه رجل من فضلاء الاجانب لا من متبعي ملته ولا من اهل وطنه . والذي طالبه بتفضله عليه بخلاصة من سيرته ليزداد علما بمناقبه . وتأسيا به في عمله، رجل كريم يشاركه في الدين دون الوطن . فكان هذان الاقتراحان سببا لعلمنا بما لم نكن لنعلمه لولاها

أما هذا المقترح للخلاصة فكان سببا لحمل الاستاذ نفسه على كتابة مذكرة في خلاصة سيرته أعطاها لاريد فيها ما علمته منه بالمشاهدة والمشاهدة . وأيضها ليرسلها اليه، ففعلت، وبقي عندي الاصل وقد ازددت به علما . وكان مادة لي في هذا التاريخ فما سبق صحبتي لصاحبه من الزمن، وأما المقترح لتدوين كتاب حافل في سيرته التفصيلية فقد كان بالحاجة وما شعر به الامام من اخلاصه، سببا لشروعه فيه، ولكن كثرة اعماله وضيق أوقاته عن الاتساع لها كلها قضت بان يسترق له من خلس الراحة سويعات من كل أسبوع أو شهر، وكان كل ما أمكنه أن يكتبه المقدمة وبعض الفصل الاول الذي موضوعه أهله وبيته . وانني أبدأ به وهذا نصه تجاهك:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ولي الضعفاء اذ رجعوا اليه ، ونصبرم اذا اعتمدوا في أعمالهم عليه ، وأخلصوا له العمل ، ومحضوه من شوائب الحيل ، ولم يياسوا من رحته ، ولم يبطروا بنعمته ، والصلاة والسلام على محمد خاتم رسله ، الهادي الى الحق وسبله ، الداعي اليه بقوله وفعله ، المؤثر له على نفسه وأهله ، المعرض عن نعيم الدنيا لأجله ، وعلى آله وصحبه الذين بايعوه ، وعلى الصراط المستقيم والهج الواضح تابعوه .

وبعد فما أنا ممن تكتب سيرته ، ولا ممن تترك للأجيال طريقته . فإني لم آت لأمي عملا يذكرك ، ولم يكن لي فيها الى اليوم أثر يوثر ، حتى أكون لأحد منها قدوة ، أو يكون لأحد في أسوة ، وهذا الذي أجده من استصغار أمري ، وخفاء أثري ، وظهور عجزتي عن بلوغ ما يري اليه فكري ويطمح اليه نظري كان بمنعني من أن أكتب شيئاً يتعاقب بحياتي ، تعرض فيه بداياتي ، وشي من أعمالي بعدها وصفاتي ، حتى أكون به باقيا عند من يطالعهم بعد مماتي . وكنت أقول : وقت أصرفه في حكمة أستفيدها خبر من زمن أنفقه في قصة أستعيدها ، وما الذي عساه يبقى مني ، وأنا في قومي لم أترك ما يوثر عني .

ولكن عرض لي أن زرت يوما بعض معارف من الغربيين ممن نظروا في الآفاق ، وبحثوا في العادات والأخلاق ، وجابوا لذلك الاقطار ، وركبوا الاخطار ، وتجشموا مشاق الأسفار ، وحققوا في ذلك ونقبوا ، وكتبوا فيه ماشاء الله أن يكتبوا ، فدار الحديث بيننا على شؤون بعض الأمم الحاضرة ، وما يجري فيها مما أدت اليه حوادثها الماضية فذكرت لهم ما عندي في ذلك وما أقيم عليه رأيي من مشاهدات ، في أيامي الخاليات ، فأروا فيما ذكرت شيئا يستحق أن يذكر ، ولا ينبغي أن يهمل ويهدر ، وزادوا على ذلك أن قالوا : انهم يطمنون أن يروه منقولا الى لغتهم ، مقروءا في قومهم بلسانهم ، ولن يكمل ذلك حتى يكون مدرجا في سيرتي ، معروضا في تضاعيف وصفي لميشتي ، وما تنقلت فيه من أدوار ، وما ندرجت اليه من آراء وأفكار ، مع اسناد

كل شيء الى سببه، ورد كل أمر الى أصله، وسألوني مع ذلك ان اكتب ما أعرف من نسبي وما كان عليه بيتي ومنزلة أهلي من قومي فقلت سبحان الله لو كانوا من المسلمين لقلت انهم أخذوا بقوله صلى الله عليه وسلم « لا تحقرن من المعروف شيئا » اولئك قوم يعرفون الاقدار، ويقدرن الآثار، لا يبخسون شيئا حقه، ولا ينكرون عليه ما استحقه، يطلبون المنفعة في كل شيء حتى فيما لا قيمة له في نظرنا، وفيما نعدده من الضائعات فيما بيننا . هذا الذي الفهم الى دعوتي لتحرير سيرتي - نزر قليل مما أقصه كل يوم على أبناء جلدتي، وهم يسمعون ما بين عابث بلحيته، ولاء بكبريائه وعنجهيته، ومغرور بمقامه وربته، ومعجب بسنه وشيخوخته، وما استحقني على اثبات شيء مما غشيني الا رجل واحد يشاركني في الملة، ولكنه يفارقي في الاصل والمنشاء (١) وكان من كلامه في استنهاضي لذلك « انه ان لم ينفع أهل عصرنا اتفنع به من يأتي بعدنا » غير أن المرء ولوع بما بين يديه غير واثق بما غاب عنه فكنت ادافعه بما قدمت من الأعاليل، ولكن لما نصره أولئك الغرباء، وأيده في طلبه العرفاء، وبالغوا في اللاحاح علي حتى قال لي أحدهم ثاني يوم (٢) « لعل الفصل الاول قد تم » يريد بذلك لعل بدأت في العمل عقب مفارقتة وأتممت الفصل الاول من الكتاب مع اني لم أكن شرعت فيه وفي يوم سفره قال « أرجو أن أقرأ الكتاب بلفتنا في مثل هذه الايام من العام القابل »

لما تكرر الطلب في هذه الصور المختلفة رأيت ان الاضراب عن الاجابة اغراق في الخمول وتقصير في احترام رأي لم يشبهه رياء ولم يحمل عليه الا قوة الظن بالفائدة في المطلوب .

ثم نظرت نظرة في نفسي وما كانت بدايتي، وما لاقيت في تربيتي، وما نزعته اليه اثناء الطريق في سبيري، وما انتهيت اليه فيما تأخر من أيام عمري، قست جميع ذلك الى ما عليه الناس حولي، فوجدت اخلافا قد يسهوه عنه الغافل، ولكن ربما ينتفع بملاحظته العاقل .

(١) يعني بهذا الرجل مؤلف هذا الكتاب الذي هو إتمام ما شرع به فاني كنت ألح عليه في ذلك (٢) هو المستر ويلفرد بلانت الانكليزي المشهور

وجدت انني نشأت كما نشأ كل واحد من الجمهور الاعظم من الطبقة الوسطى من سكان مصر ودخلت فيما فيه يدخلون، ثم لم ألبث بعد قطعة من الزمن ان سئمت الاستمرار على ما يالْفون، واندفعت الى طلب شيء مما لا يعرفون، فمئرت على ما لم يكونوا يصرون عليه، وفناديت أحسن ما وجدت ودعوت اليه، وارتفع صوتي بالدعوة الى أمرين عظيمين - الاول تحريم الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة - لف الامة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه الى ينابيعها الاولى واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله ليرد من شططه، وتقلل من خلطه وخطئه، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الانساني وانه على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم، باعثاً على البحث في أسرار الكون، داعياً الى احترام الحقائق الثابتة، مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس واصلاح العمل، كل هذا أعده أمراً واحداً وقد خالفت في الدعوة اليه رأي الفئتين العظيمتين اللتين يركب منهما جسم الامة - طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في حاجتهم .

أما الأمر الثاني فهو اصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير سواء كان في المحادثات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها أو فيما تنشره الجرائد على الكفاية منشأ أو مترجماً من لغات أخرى أو في المراسلات بين الناس . وكانت أساليب الكتابة في مصر تنحصر في نوعين كلاهما يمجج الذوق وتنكره لغة العرب: الاول ما كان مستعملاً في مصالح الحكومة وما يشبهها وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات رث خبيث غير مفهوم ولا يمكن رده الى لغة من لغات العالم لافي صورته ولا في مادته ولا يزال شيء من بقاياه الى اليوم عند بعض الكتاب من القبط ومن تعلم منهم غير أنه والحمد لله قليل . والنوع الثاني ما كان يستعمله الادباء والمتخرجون من الجامع الأزهر وهو ما كان يراعى فيه السجع وإن كان بارداً، وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجناس وإن كان رديئاً في الذوق، بعيداً عن الفهم ثقيل على السمع غير مؤد للمعنى المقصود ولا منطبق على آداب اللغة العربية وهو وإن كان يمكن رده الى أصول اللغة العربية في صورته لكنه لا يعد من أساليبها المرضية عند أهلها، ولا يزال هذا النوع موجوداً في عبارات المشايخ خاصة . ثم

ورد علينا في أخريات الايام ضرب آخر من التعبير كان غريباً في بابه وهو ما جاءنا من الأقطار السورية في جريدتي الجنة والجنان المنشأتين بقلم المعلم بطرس البستاني وهذا الضرب كان بعد من غرائب الاساليب وبه أنشئت جريدة الاهرام في مصر وقد محي أثره والحمد لله .

وهناك أمر آخر كنت من دعاة والناس جميعاً في عني عنه، وبعد عن تعقله، ولكنه هو الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية وما أصابهم الوهن والضعف والذل الا بخلو مجتمعاتهم منه وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة . نعم كنت فيمن دعا الامة المصرية الى معرفة حقها على حاكمها وهي هذه الامة لم يخطر لها هذا الخاطر على بال من مدة تزيد على عشرين قرناً . دعوناها الى الاعتقاد بأن الحاكم وان وجبت طاعته هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم وانه لا يرد عن خطئه ولا يقف طغيان شهوته الا ينصح الامة له بالقول وبالفعل .

جهرنا بهذا القول والاستبداد في عنفوانه
والظلم قابض على صولجانه . ويد الظالم من
حديد . والناس كلهم عبيد له أي عبيد .

نعم اني في كل ذلك لم أكر الامام المتبع ولا الرئيس المطاع غير اني كنت روح الدعوة وهي لا تزال بي في كثير مما ذكرت قائمة ولا أبرح ادعو الى عقيدتي في الدين وأطالب بانمام الاصلاح في اللغة وقد قارب . اما أمر الحكومة والمحكوم فمر كته لبقدر بقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبره ، لاني قد عرفت انه ثمرة نخبها الامم من غراس تفرسه وتقوم على تنميته السنين الطوال فهذا الغراس هو الذي ينبغي أن يعني به الآن والله المستعان .

أصبحت نجاحاً في كثير مما عانيت به ، أخفقت في كثير مما وجهت عزيمتي اليه ، ولكل ذلك أسباب بعضها مما غرز في طبعي ، وشي منها مما احتف حولي ، وطائفة

منها من اصالتني في الرأي أو خطلي، ومن الذي يستطيع ان يفصل ذلك غيري، حتى يكون ان شاء الله عبرة لمن يأتي من بعدي،

لهذا رأيت أن أكتب ما لاقيت، وأثبت ما صادفت من لدن عقلت، منها على ما في من معائب، وعلى احسان الله اليّ في بعض المزايا، وعلى علل الحوادث التي حدرت بها أو مرت بي في أطوار حياتي. غير انني أبدأ بكلام قليل فيما يتعلق بما في بيتي وهو ما لا أعرفه الا بالسماع من أهله كما لا يخفى

الفصل الاول - أهلي

أول ما عقلت من أنا ومن والدي ومن والدني ومن هم أقارب بي وجيران بيتي عرفت انني ابن عبده خير الله من سكان قرية محلة نصر ببر كز شبراخت من مديرية البحيرة ووقر في نفسي احترام والدي ونظرت اليه أجل الناس في عيني وسكن من هيئته في قلبي ما لا أجده لاحد من الناس اليوم عندي أما عوامل هذا الاحترام وذلك الاجلال فأذكر منها قلة الكلام امامي ووقار كان في الحركات والاعمال والحيأة، والتزهد عن مخالطة الصغار من الناس، ومشاهدتي أهل بلده يحترمونه ويبالغون في توقيرهم اياه، وانفراده بالطعام دون والدني وأخواني فان ذلك كان آية العظم عندنا فانه ما كان يواكل نساءه وأولاده في تلك الاوقات الا الفقراء وأهل الطبقة السفلى من أهل القرية.

ثم وجدت والدي يقري الضيف ويؤوي الغريب ويفتخر باكرام الغزير وذلك كان يزيد منزلته من نفسي علواً وأنا لا أنهم من هذا الا أنه شيء يفخر به بدون أن أعقل له علة وبالجملة كنت أعتقد أن والدي أعظم رجل في القرية وكل من فيها دونه وهو بذلك كان أعظم رجل في الدنيا فان الدنيا عندي لم تكن أوسع من قرية محلة نصر وكان يمدني في اعتقادي هذا رؤيتي لبعض الحكم كناظر القسم (مأمور المركز) وحاكم الخط (معاون المركز) ينزلون عندنا ولا ينزلون في بيت العمدة مع انه كان أوسع رزقاً من والدي وأكثر دوراً وأرضين وفشاً في ذلك الاعتقاد بأن الكرامة وعلو المنزلة لا يتعلقان بالثروة ووفرة المال.

هذا وكنت أعقل من صفري ما كان عليه والذي من ثباته في عزمته وشدة في
المعاملة وقسوته على من يعاديه وقد أخذت عنه ماعدا القسوة وأحمد الله ولا أحصي
ثناء عليه

أما والذي فكانت منزلتها بين نساء القرية لا تنزل عن مكانة والذي وكانت
ترحم المساكين وتمطف على الضعفاء وتمد ذلك مجدا، وطاعة لله وحده . ولم
أزل أجد أثر ما وجدت من ذلك في نفسي الى اليوم .

عرفت لي عما يسمى بهنسى ولا أعرف من أحواله شيئا لأنه مات قبل أن
أحفظ عنه وكان لوالدي ابن عم يسمى ابراهيم ولم يكن له بين الناس ما يذكرونه
وكان يساكتنا في بيت واحد ولا يزال ولده يسكن في قسم من منزلنا الى اليوم
ولنا أقارب كثيرون يتصلون بنا من جهة النساء وبيوتهم من خبر البيوت في القرية .

هذا ما عرفته من حاضر بيتي في أول أمري وما طرأ عليه سيأتي ذكره في
سيرتي أما ماضيه فأتما أذكره حديثا عن أبي ورواية عن بعض من عرف شيئا منه من
أثق به من ذوي قرابتي وغيرهم . جدي لاني كان يسمى حسن خبر الله توفي عن
أبي وعمي بالهواء الأصفر الذي فتك بكان القطر المصري في أواسط القرن الماضي
ويقال أنه كان له قبل موته من نبي عمه وذوي عصته نحو اثني عشر رجلا وثني
بهم واث من بيت آخر جاء بالبلدة وسكن فيها واحد أهل الحسب من سكانها فسمى
بأهل هذا البيت (بيت خير الله) عند الحكام بحجة أنهم ممن يحمل السلاح ويقف
في وجوه الحكام وأعوانهم عند تنفيذ المظالم فأخذوا جميعا وزجوا في السجون واحدا
بعد واحد ومن دخل منهم السجن لا يخرج الا ميتا وكان جدي حسن شيخا بالبلدة
وهو الذي بقي من البيت مع ابن أخيه ابراهيم الذي سبق ذكره

بعد وفاته طالت يد ذلك الكاشح بمساعدة أعوان الحكومة الى سلب ما كان
في البيت من تراث حيث لم تكن قوة تدافعه فان لم يكن بقي الا والذي في سن الرابعة
عشرة وعمي في سن السادسة عشرة و ابراهيم في سن الثامنة عشرة والنساء فأخذ جميع
ما كان في البيت حتى الابواب وبعض أخشاب السقوف فهاجر والذي وعمي ومن
معهما من البلدة ولجأوا الى خال والذي الحاج محمد خضر وكان عمدة في قرية صغيرة

متصرف بكنيسة أورين من مركز شبراخيت ولكنه لم يستطع ابواهم عنده خوف
 للاضطهاد لأن هذه المصائب كلها لم تكن قد استلقت احقاد الظلمة من الحكام
 ولوشاة فأخذهم خفية وسار بهم الى مديرية الغربية عند احد أقاربه في
 قرية يقال لها منية طوخ بمركز السنطة ثم انتقلوا الى قرية بجانبها تسمى شبرا
 وكان معهم من النقود ما يسمح لهم باستئجار أطيان يعملون في زراعتها اما بانفسهم
 أو بشركاء يعملون بأيديهم ويتقسمون الربيع معهم واشتروا والذي بالفتوة والبراعة
 في الصيد بالسلاح وأحبه لذلك مصطفى أفندي المنشاوي ومحمد أخوه وكانا
 موظفين في دائرة المرحوم اسماعيل باشا الخديوي الاول في وظيفة مفتش زراعة
 والثاني بوظيفة ناظر وطابت له صحبتهما وعدوه كأنه واحد من أهلها ودام ذلك
 مدة سنين

ولما اشتد الظلم على أهل قرية محلة نصر وضافت بهم السبل كما كان يسومهم
 ذلك الواشي من الخسف والذل أخذوا يتسللون ليلاً بعديت يهرون القرية
 ويذهبون ليقبضوا في جوار من سبقهم من أهلي فأحس الشقي بأشراف القرية على
 الحراب وفي ذلك انتفاص منافعه وخسار كبير في مصالحه فجدد لوشاية بالذي
 ومن معه ورفع شكوى الى مدير البحيرة وكان في شبراخيت يذكر فيها ان والذي
 مأوى لمن فروا بأسلحتهم من القرية وكان قد صدر أمر المرحوم عباس باشا الاول
 بتجريد الاهالي من السلاح وحظر حمله عليهم فكتب مدير البحيرة بذلك الى
 مدير الغربية وأنهم مع ذلك مصطفى أفندي المنشاوي بأبوائه بعض الفارين من
 العسكرية فأخذ الجميع على غرة وقبض عليهم في بيوتهم وسيقوا الى مديرية الغربية
 أما مصطفى المنشاوي فارسل الى ليمان الاسكندرية وأما والذي ومن معه فارسلوا
 الى مديرية البحيرة ليحبسوا هناك الى أن يصدر الأمر في شأنهم ولم يزلوا في السجن
 الى أن توفي عباس باشا فافرج عنهم وعن غيرهم وبعد ذلك عاد والذي الى مسقط
 رأسه في أول ولاية المرحوم سعيد باشا ولم يجد شيئاً مما كان يملكه اسلافه الا
 جدران البيت مهدمة .

تقدم انه طالبت اقامته في مديرية الغربية ويقال ان مدتها بلغت نحو خمس

عشرة سنة وفي أثنائها عرف كثيرا من سكان البلاد المجاورة لشبرا وعرف فيمن عرف بيت والدتي وهو بيت كبير في بلدة تسمى حصّة شبشير يعرف بيت عثمان كان كبيره اذ ذاك جذي ابراهيم عثمان الكبير فتزوج والدتي وأخذها الى شبرا وفيها ولدت في أواخر سنة خمس وستين بعد المئتين والالف من الهجرة (*) ولم يولد له منها غيري الا بنتان احدهما تسمى زمزم وهي بكرة وتوفيت قبل ولادتي والاخرى تسمى مريم وهي لم تمت حتى تزوجت وأنا في آخر سني طلب العلم

كنت أسمع المزاحين من أهل بلدتنا يلقبون بيتنا بيت التركان فسألت والدي عن ذلك فاخبرني أن نسبنا ينتهي الى جد تركاني جاء من بلاد التركان في جماعة من أهله وسكنوا في الخيام بمدينة البحيرة مدة من الزمن ثم انفقوا اتصل بهم شيخ يسمى عبد الملك لا يعرف نسبه ولكنه كان معتقدا له كرامات تنسب اليه واتخذ له خلوة في المحل الذي أسست فيه قرية محلة نصر فلما توفي رأى جدنا ومن كان من أهل بيت الشيخ وبيت آخر يسمى بيت الفرزواني ان يبنوا له قبة ثم يقيموا لهم بيوتا من البناء حول تلك القبة ويسكنوها ثم انضم اليهم بيوت كثيرة تكون من مجموعها قرية محلة نصر وذلك من زمن مديد لا يعرف ابتداءه ولا تزال قبة الشيخ وبيت أقربائه الى اليوم اما تسميتها بمحلة نصر فذلك لان مزارع البلدة كانت أعطيت أقطاعا لشخص يسمى نصرا فسميت باسمه وذلك في زمن لا نعرفه أيضا . وقد أخبرني المرحوم علي باشا مبارك انه اطلع على رحلة لعبد اللطيف البغدادي الشهير تعرف بالرحلة الكبرى ورأى فيها اسم محلي نصر ومسروق وأنه نزل ضيفا في بيت خير الله التركاني وقال ان البيوت الكبيرة في البلدة كانت ثلاثة: بيت الشيخ وبيت خير الله وبيت الفرزواني .

اما بيت والدتي فيقال انه عربي قرشي وأنه يتصل في النسب بعمر بن الخطاب رضي الله عنه ولكن ذلك كله روايات متوارثة لا يمكن إقامة الدليل عليها .

وهنا موضع الكلام على سبب ضياع الانساب في الاسلام وكيف وصل الامر بالمسلمين الى ان لا يعرف الواحد منهم من آثائه أكثر من ثلاثة ومنهم من

لا يعرف غير والده

جاء الاسلام والعرب أشد الناس محافظة على انسابهم وأشدهم حرصا على معرفة ما كان لاسلافهم من مجد وحسب وكانوا يبالغون في الاعتزاز بشرف الاحساب حتى كادوا لا يعدون من خلال الخير شيئا يساوي شرف النسب. وهيات أن يرتفع قوادب باديه، الى رتبة شريف بنسبه، وان كان خاملا في نفسه غير شيء في عمله. ولا يخفى ما كان في ذلك من بخس الحق والاستهانة بالكرم لذاتي والشرف المعصامي والانسكال في نيل المقامات العالية بين الناس على ما فعل السابقون، لاعلى ما يكسبه المرء بمجده واجتهاده. نعم كان في الافتخار بالآباء والاجداد ومعرفة ما أنوا به من جليل الأعمال وما كانوا عليه من كريم الخصال تحريض لأخلافهم على الاقتداء بهم، وحفظ ما ورثوهم من علو ورفعة، لكن الكسل الملازم لطبيعة الانسان كان يغلب جانب الانسكال على جانب الاسوة فجاء الدين الاسلامي ينكر الافراط والغلو في اعتبار الانساب كما أنكر ذلك في كل شيء حتى في الدين نفسه وقال التنزيل (ان اكرمكم عند الله اتقاكم) وقال صلى الله عليه وسلم «اثنوني باعمالكم ولا ثاتوني بآسابكم» ليدل على أن النسب وحده ليس بالشيء يرفع ويخفض ولكن المعول عليه، وما يصح ان يرجع الكرم اليه، انما هو ما يكرز عليه المرء نفسه فان وافق ذلك نسباً عاليا وحسبا تالدا كان أبلغ في الشرف وأعرق في الكرم والا فلن يبغض العامل عمله ولن يحرم أولئك الذين فاض عليهم الفضل الآلهي فرفع أنفسهم عما كان وضعهم آباؤهم، فجعلهم بذاتهم أصولا للكرم وأدواحا للمجد بما أودع فيهم من الفرائض الفاضلة، ووقفهم للأعمال الصالحة، فمنهم يبتدىء الحسب، واليهم في القرون المستقبلية يرجع النسب

هذا ما اراده الاسلام وما دعا اليه ولكنه مع ذلك امر برعاية النسبة الى الآباء. ونفى ما كان عند الجاهلية من عادة التبني والاتحام بالادعياء وفرض على المؤمنين ان يدعواهم لآبائهم ليعرفوا بهم لا بمن اندرجوا فيهم وجعل لقريش من الفضل على غيرها من القبائل ما تقصر من بلوغه رواحل الآمال وأوصى علي بن ابي طالب أن يمهّد بجلال الاعمال الى أهل البيوتات الصالحة وذوي القدم السابقة

وجاءت سنة السلف شاهدة بان للانساب وتوارث الاحساب مظاهر في أعمال الاشخاص وآثاراً في خصالهم ينبغي النظر اليها . فلم يهمل الاسلام شأن النسب ، ولم يضع من شأن الادب المكتسب ، بل طلب العدل في الامرين ، وجمع لاهله بين النظرين الصادقين . ولكن ماذا يصنع الاسلام في المسلمين وقدمهروا في تحريفه وقلب مقاصده المالية الى اضدادها كأنما هم مفرون بذلك من أعدائه . رأوا من بداية الأمر أن بعض من لا نسب لهم من الموالي والمصلقين قد بلغوا من منازل الكرامة بين المسلمين ما يغبطهم عليه أهل الاحساب وذلك بما أحرزوا من شجاعة ونجدة أو علم وفضيلة وبلغ من أمر بعض الموالي الذين لا يعرف أبائهم فضلاً عن أجدادهم في الدولة العباسية أن استبدوا على الخلفاء من نسل العباس ابن عبد المطلب واغتصبوا الملك منهم وسادوا على كل ذي حسب ونسب في أيامهم بل قد فعل كثير منهم الا فاعيل بأشرف الناس نسباً من آل بيت النبوة فسقطت لذلك منزلة النسب من نفوس المسلمين وعاندوا سنة من أعظم سنن الله في خلقه وهي سنة توارث الاخلاق والفرائض وان ما يكون في الآباء من أصول الملكات يهيئ الابناء لكسب مثلها وما جاء مخالفاً لذلك فهو من مبدعات القدرة الالهية وأما الترية فان كانت حسنة مهدت السبيل واسرعت بتكو بن الملكة الصالحة في النفس المستعدة حتى يكون الشاب من أهل بيت صالح بمنزلة الشيخ ممن جاهد نفسه وأخذها بالرياسة على مكارم الاخلاق وليس له سلف فيها وان كانت رديئة أمانت الاستعداد للخير ومحتة من طبيعة النفس وجاءت بدله بضده .

وشأن الترية مع الاستعداد للرذائل ذلك الشأن بعينه فان كانت صالحة أمانت ذلك الاستعداد ولكن بعد عناية يستغرق السنين الطوال وان كانت غير صالحة أسرعرت بتكوين الملكات الخبيثة في نفس الناشئ حتى يكون الفتى من قوم فاسقين قد بلغ مبلغ الشيخ من غيرهم برميئه القدر من أول نشأته من قسمة الحاجة فيأخذ يكلف نفسه ما ليس في استعدادها ويحمل على معاطاة ما لا يليق من الخلال من الحيلة والمكر والخديعة مثلاً وهو ليس من أهلها .

هكذا أغفل المسلمون مراعاة هذه السنة في أنفسهم مع أنهم لم يغفلوا عنها في دوابهم من الخيل والحمير وما شبتهم من البقر والغنم والابل ونحوها فيطلبون

نتاج الجهاد من الجياد ولكنهم لا يطلبون البنين من أم البنين بل ولعوا بالجواري
والإماء ممن لا تعرف أصولهن ، ولم تعرض على الاختبار خلاهن ، في بيوت آبائهن ،
وأكثر ما كان من ذلك في بيوت الخلفاء . ومن يليهم من عليّة الناس فكان خيرا
للأبن أن ينسى خوؤته بعد أن كان يفخر بها . وولع الملوك بالممالك وظنهم
فيهم الاخلاص في الولاء وثقتهم بامانتهم ذهب بهم الى رفعهم على رؤس من سواهم
فتوجهت اليهم النفوس بالرعاية والاحترام وما كان لاحد من أولئك العبيد المحترمين
أن يذكر له ابا ، أو يقدر لنفسه نسباً ، فصار الجبل بالانساب عادة وبثبت العادة وأصبح
البيت القديم المؤسس على مئين من السنين لا يعرف من أسلافه الا واحداً أو اثنين
ومن بقي بعد ذلك فقد أكل الزمن ذكره ومحي جهل خلفه أثره .

ولذلك أقول ان ما أسمعه عن بيت والدي ووالدتي انما هو روايات في أفواه
الاهل والاقارب ومن يعرفهم من الناس قد يكون لها طريق الى الصحة وقد تكون
ما يخترعه الناس لتزهد في الفضل غير أن ذلك يأتي في الانساب الى قريش وعمر
ابن الخطاب أما في الانساب الى أصل تركاني فلا أظن ذلك يأتي ولهذا يترجح
عندي جانب صحة الخبر ويؤيده ما يرى في أهل بيتنا من بعض الخصال التي
لا يشار لهم فيها من مجاورهم في مساكنهم .

(يقول مؤلف الكتاب) هذا ما كتبه رحمه الله في ترجمة نفسه ومن الاخلاق
المعروفة لبيته ان والده كان الى آخر عمره شعماً شجاعاً وقوراً مهيباً سخياً النفس
كريم النخبة محترماً من كل من يجالسه وكانت والدته برة رحيمة بالمساكين ذكية
الفؤاد شديدة الحياء ولا أبعد إذا قلت ان والديه كانا من أسلم الناس فطرة وأحسنهم
خلقاً . وكانت هذه الاخلاق فيهما موروثه ومكتسبة بالمعاشرة والقودة لا بتعليم
المدارس ولا بتأديب المعلمين . وهذا أصل عظيم في استعداد الرجل لما وصل اليه
من الكمال الذي لم نر ولم نسمع بمثله وقد قال صلى الله عليه وسلم « الناس معادن
خيرهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا » رواه البخاري ومسلم . ولذلك كان
السيد جمال الدين يقول له : قل لي بالله أي أبناء الملوك أنت : يشير الى أن ما كان
عليه من الاخلاق المالية وشرف النفس كان وراثياً

❦ الفصل الثاني ❦

❦ نشأته وتربيته وطلبه العلم ❦

نشأ كما ينشأ أمثاله من أبناء البيوت المعروفة في القرى ولم يدخل المكتب لتعلم القراءة والكتابة إلا بعد أن جاوز العاشرة من سنه وقد كتب هو عن مبدإ تعلمه وتأديبه من مذكرات أعطاها لآسئخرج منها ترجمة مختصرة له - وكان قد طلبها بعض الغرباء الفضلاء - مانصه : « تعلمت القراءة والكتابة في منزل والدي ثم انتقلت الى دار حافظ قرآن قرأت عليه وحدي جميع القرآن أول مرة ثم أعدت القراءة حتى أتممت حفظه جميعه في مدة سنتين أدركني في ثانيتهما صبيان من أهل القرية جاؤا من مكتب آخر ايقروا القرآن عند هذا الحافظ ظانمنهم ان نجاحي في حفظ القرآن كان من أثر اهتمام الحافظ . بعد ذلك حملني والدي الى طنطا حيث كان أخي لأبي الشيخ مجاهد رحمه الله لأجود القرآن في المسجد الاحمدي لشهرة قرأته بفنون التجويد وكان ذلك في سنة ١٢٧٩ هجرية

« ثم في سنة احدى وثمانين جلست في دروس العلم وبدأت بتلقي شرح الكفراوي على الأجرومية في المسجد الاحمدي بطنطا وقضيت سنة ونصف لا أنهم شيئاً لرداءة طريقة التعليم فان المدرسين كانوا يفاجئوننا باصطلاحات نحوية أو قهية لانفهمها ولا عناية لهم بتفهم معانيها لمن لم يعرفها فأدركني اليأس من النجاح وهربت من الدرس واختفيت عند أخوالي مدة ثلاثة أشهر ثم عثر علي أخي فأخذني الى المسجد الاحمدي وأراد اكرامي على طلب العلم فأبيت وقلت له : قد أيقنت ان لا نجاح لي في طلب العلم ولم يبق علي الا أن أعود الى بلدي واشتغل بملاحظة الزراعة كما يشتغل الكثير من أقاربي : وانتهى الجدال بتغايبي عليه فأخذت ما كان لي من ثياب ومتاع ورجعت الى محلة نصر على نية ان لا أعود الى طالب العلم ونزوجت في سنة ١٢٨٢ على هذه النية

« فهذا أول أثر وجدت في نفسي من طريقة التعليم في طنطا وهي بعينها طريقته في الازهر وهو الأثر الذي يجده خمسة وتسعون في المئة ممن لا يساعدهم القدر بصحبة

من لا يلتزمون هذه السبيل في التعليم - سبيل إلقاء المعلم ما يعرفه أو ما لا يعرفه بدون أن يراعي المتعلم ودرجة استعدادة للفهم غير أن الاغلب من الطلبة الذين لا يفهمون نفهمهم أنفسهم فيظنون أنهم فهموا شيئاً فيستمرون على الطلب الى أن يلفوا سن الرجال ، وهم في أحلام الأطفال ، ثم يبتلى بهم الناس وتصاب بهم العامة فتعظم بهم الرزية لأنهم يزيدون الجاهل جهالة ويضلون من توجد عنده داعية الاسترشاد ويؤذون بدعائهم من يكون على شيء من العلم ويحولون بينه وبين نفع الناس بعلمه

« بعد أن تزوجت باربعين يوماً جاني والذي ضحوة نهار وألزماني بالذهاب الى طنطا لطلب العلم وبعد احتجاج وتمنع وإباء لم أجد مندوحة عن إطاعة الأمر ووجدت فرساً أحضر فركبته وأصحبني والذي بأحد أقاربي وكان قوي البنية شديد البأس ايشعني الى محطة (إيتاي البارود) التي أركب منها قطار السكة الحديدية الى طنطا . كان اليوم شديد الحروالريح عاصفة ملتهبة سافياً ، تحصب الوجه بشبه الرمضاء ، فلم أستطع الاستمرار في السير فقلت لصاحبي أما مداومة المسير فلا طاقة لي بها مع هذه الحرارة ولا بد من التعرّيج على قرية أننظر فيها أن يخف الحر ، فأبى عليّ ذلك فتركته وأجريت الفرس هارباً من مشادته وقلت اني ذاهب الى (كنيسة اورين) - بلدة غالب سكانها من خوولة أبي - وقد فرح بي شبان القرية لانني كنت معروفاً بالفروسية واللعب بالسلاح وأملوا أن أقيم معهم مدة يلهو فيها كل منا بصاحبه . أدركني صاحبي وبقى معي الى العصر وأرادني على السفر فقلت له خذ الفرس وارجم وسأذهب بمباح القند وان شئت قلت لو الذي انني سافرت الى طنطا . فانصرف وأخبر بما أخبر وبقيت في هذه القرية خمسة عشر يوماً تحولات فيها حالتي ، وبدلت فيها رغبة غير رغبتني ، ذلك ان أحد أحوال أبي واسمه الشيخ درويش سبقت له أسفار الى صحراء ليبيا ووصل في أسفاره الى طرابلس الغرب وجلس الى السيد محمد المدني والد الشيخ ظافر المشهور الذي كان قد سكن الاسنانة وتوفي بها وتعلم عنده شيئاً من العلم وأخذ عنه الطريقة الشاذلية وكان يحفظ الموطأ وبعض كتب الحديث وبجيد

حفظ القرآن وفہمہ ثم رجع من أسفاره الى قریته هذه واشتغل بما يشتغل بہ الناس من فلاح الارض وكسب الرزق بالزراعة

« وان هذا الشیخ جاءني صبيحة اليلة التي بها في الكنيسة ويده كتاب يحتوي على رسائل كتبها السيد محمد المدني الى بعض مریديه بالاطراف بخط مغربي دقيق وسألني ان أقرأ له فيها شيئاً لضمف بصره فدفت طلبه بشدة ولعنت القراءة ومن يشتغل بها ونفرت منه أشد النفور ولما وضع الكتاب بين يدي رميته الى بعيد لكن الشیخ تبسم ونحلي في ألطف مظاهر الحلم ولم يزل بي حتى أخذت الكتاب وقرأت منه بضعة أسطر فاندفع يفسر لي معاني ما قرأت بعبارة واضحة تغالب اعراضني فتغلبه وتسبق الى نفسي . وبعد قليل جاء الشبان يدعونني الى ركوب الخيل واللعب بالسلاح والسباحة في نهر قريب من القرية فرميت الكتاب وانصرفت اليهم . بعد العصر جاءني الشیخ بكتابه وألح عليّ في قراءة شيء منه فقرأت وفسر ثم تركته الى اللعب وفعل في اليوم الثاني كما فعل في الأول أما اليوم الثالث فقد بقيت أقرأ له فيه وهو يشرح لي معاني ما أقرأ نحو ثلاث ساعات لم أملّ فيها فقال لي إنه في حاجة الى الذهاب الى المزرعة ليعمل بعض العمل فيها فطلبت منه إبقاء الكتاب معي فتركه ومضيت أقرأه وكلما مررت بعبارة لم أفهمها وضعت عليها علامة لأسأله عنها الى أن جاء وقت انظر وعصيت في ذلك اليوم كل رغبة في اللعب وهوى ينازعني الى البطالة ، وعصر ذلك اليوم سأله عما لم أفهمه فأبان معناه على عادته وظهر عليه الفرح بما تجدد عندي من الرغبة في المطالعة والميل الى الفهم

« كانت هذه الرسائل تحتوي على شيء من معارف الصوفية وكثير من كلامهم في آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس الرذائل وتزويدها في الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا

« لم يأت عليّ اليوم الخامس الا وقد صار أبغض شيء إليّ ما كنت أحبه من لبب ولهو ، وفخفخة وزهو ، وعاد أحب شيء إليّ ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم وكرهت صور أولئك الشبان الذين كانوا يدعونني الى ما كنت أحب وزهدوني

في عشرة الشيخ رحمه الله فكنت لا احتمل أن أرى واحدا منهم بل أفر من لقاءهم جميعا كما يفر السليم من الأجر. في اليوم السابع سألت الشيخ ماهي طريقكم فقال طريقنا الاسلام فقلت أوليس كل هؤلاء الناس بمسلمين ؟ قال لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمور ولما ستمتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب وبغير سبب . هذه الكلمات كانت كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندي من المتاع القديم - متاع تلك الدعاوي الباطلة والمزاعم الفاسدة ، متاع الفرور بأننا مسلمون ناجون ، وان كنا في غمرة ساهين ، سأله ماوردكم الذي يتلى في الخلوات أو عقب الصلوات ، فقال لاورد لنا سوى القرآن تقرأ بعد كل صلاة أربعة ارباع مع الفهم والتدبر : قلت أنى لي أن أفهم القرآن ولم أتعلم شيئا قال أقرأ معك ويكفيك ان تفهم الجملة و ببركتها يفيض الله عليك التفصيل واذا خلوت فاذكر الله - على طريقة بينها - وأخذت أعمل على ما قال من اليوم الثامن فلم تمض علي بضعة أيام الا وقد رأيتني أطير بنفسي في عالم آخر غير الذي كنت أعهد ، واتسع لي ما كان ضيقا ، وصغر عندي من الدنيا ما كان كبيرا ، وعظم عندي من أمر العرفان والنزوع بالنفس الى جانب القدس ما كان صغيرا ، وتفرقت عني جميع المهوم ولم يبق لي الا هم واحد وهو أن أكون كامل المعرفة كامل أدب النفس ولم أجد إماما يرشدني الى ما وجهت اليه نفسي الا ذلك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل الى فضاء المعرفة ، ومن قيود التقليد ، الى إطلاق التوحيد ، - هذا هو الأثر الذي وجدته في نفسي من صحبة أحد أقاربي وهو الشيخ درويش خضر من أهل (كنيسة أورين) من مديرية البحيرة . وهو مفتاح سعادي ان كانت لي سعادة في هذه الحياة الدنيا ، وهو الذي زدني ما كان غاب من غريزتي ، وكشف لي ما كان خفي عني مما أودع في فطرتي ،

« وفي اليوم الخامس عشر من بي أحد سكان بلدتنا (محلة نصر) فأخبرني ان والدني ذهبت الى ططا لتراني فملت ان سيقول لوالدي اتني لا أزال في الكنيسة فأصبحت مبكرا الى طنطا خوف عتاب الوالد واشتداده في اليوم لانني لو كنت أقمت له ألف دليل على اتني وجدت في مهربي مطلبه ومطلبي لما اقتنع

« ذهبت الى طنطا وكان ذلك قرب آخر السنة الدراسية في شهر جمادى الآخرة من سنة ١٢٨٢ هجرية لكن اتفق ان بعض المشايخ كانت ماتت بنته فعاقه الحزن عليها عن اتمام شرح الزرقاني على المزية وآخر عرض له عارض منعه عن اتمام شرح الشيخ خالد على الأجر ومية فأدركت كلا منهما في أوائل الكتاب الذي كان يدرس وجلست في الدرسين فوجدت نفسي أفهم ما أقرأ وما أسمع والحمد لله . وعرف ذلك مني بعض الطلبة فكانوا يلتفون حولي لأطالع معهم قبل الدرس ماستلقاه . وفي يوم من شهر رجب من تلك السنة كنت أطلع بين الطلبة وأقر لهم معاني شرح الزرقاني فرأيت أمامي شخصا يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجازيب فلما رفعت رأسي اليه قال مامعناه : ما أحلى حلوى مصر البيضاء : ققلت له وأين الحلوى التي معك ؟ فقال سبحانه الله من جد وجد : ثم انصرف فعددت ذلك القول منه ! لها ماساقه الله الي ليحملني على طلب العلم في مصر دون طنطا

« وفي منتصف شوال من تلك السنة ذهبت الى الازهر وداومت على طلب العلم على شيوخه مع محافظتي على العزلة والبعد عن الناس حتى كنت استغفر الله اذا كلمت شخصا كلمة لغير ضرورة . وفي أواخر كل سنة دراسية كنت أذهب الى (محلة نصر) لأقيم بها شهرين — من منتصف شعبان الى منتصف شوال — وكنت عند وصولي الى البلد أجد خال والدي الشيخ درويشا قد سبقني اليه فكان يستمر معي يدارسني القرآن والعلم الى يوم سفري . وكل سنة كان يسألني ماذا قرأت فأذكر له ما درست فيقول : ما درست المنطق ما درست الحساب ما درست شيئا من مبادئ الهندسة : وهكذا كنت أقول له بعض هذه العلوم غير معروف الدراسة في الازهر فيقول : طالب العلم لا يعجز عن تحصيله في أي مكان : فكنت اذا رجعت الى القاهرة أتمس هذه العلوم عند من يعرفها فتارة كنت أخطئ في الطلب وأخرى أصيب الى ان جاء المرحوم السيد جمال الدين الافغاني الى مصر وأواخر سنة ١٢٨٦

« وقد صاحبه من ابتداء شهر المحرم سنة ١٢٨٧ وأخذت ألتقي عنه بعض العلوم الرياضية والحكمة (الفلسفية) والكلامية وأدعو الناس الى التلقي عنه كذلك وأخذ

مشايخ الأزهر والجمهور من طالبته يقولون عليه وعلينا الاقاول ويل يزعمون أن تلقي تلك العلوم قد يفضي الى زعزعة العقائد الصحيحة وقد يهوي بالنفس في ضلالات تهرمها خيري الدنيا والآخرة فكنت اذا رجعت الى بلدي عرضت ذلك على الشيخ درويش فكان يقول لي: ان الله هو العليم الحكيم ولا علم يفوق علمه وحكمته وان أعدى أعداء العليم هو الجاهل وأعدى أعداء الحكيم هو السفیه وما تقرب أحد الى الله بأفضل من العلم والحكمة فلا شيء من العلم بمقوت عند الله ولا شيء من الجهل بمحمود لديه الا ما يسميه بعض الناس علماً وليس في الحقيقة بعلم كالسحر والشعوذة ونحوهما اذا قصد من تحصيلها الاضرار بالناس:»

هذا ما كتبه الفقيه عن مبدأ تربيته وتعليمه في ترجمته التي كتبها لي قبل اشتداد مرضه الاخير وكان حدثني بشيء من ذلك قبل ومنه أنه لم يكن يواظب على حضور دروس من لا يفهم أو لا يستفيد منهم وأنه ربما كان يحضر درس أحدهم وفي يده كتاب آخر يطالع فيه مدة الدرس وان من شيوخه الذين فهم منهم واستفاد في أول تحصيله الشيخ محمد البديوني وأنه بعد الحضور في الأزهر ثلاث سنين مل الدروس المعتادة كأنه أخذ حظه منها وصارت نفسه تطلب شيئاً جديداً وتميل الى العلوم العقلية ولكنه حضر جميع الكتب وفهمها ولم يكن يروح الى إعادة شيء منها. وكان الشيخ حسن الطويل ممتازاً في الأزهر بعلم المنطق فحضره عليه ولم يكن يشفي ما في نفسه بل كانت تقشوف دائماً الى علم غير موجود فكان يبحث في خزائن الكتب الأزهرية عن طلبته المجهولة فيظفر ببعض الشيء ومما ظفر به القطب على الشمسية ناقصاً. وقرأ الشيخ حسن الطويل لهم شيئاً من الفلسفة ولكن لم يكن يحزم بأن المعنى كذا بل كان الدرس احتمالات أو شبه الحزر فيما بينهم حتى جاء السيد جمال الدين فسكنت اليه نفسه من اضطرابها ووجدت عنده جميع طلبتها، وأقصى أمنيته،

وأخبرني الشيخ رحمه الله تعالى ان الذي أخبره بقدم السيد جمال الدين هو أحد المجاورين في رواق الشوام قال انه جاء مصر عالم افغاني عظيم وهو بقم في خان الخليلي فسر بذلك وأخبر الشيخ حسناً ودعاه الى زيارته معه فألفياه يتعشى فدعاهما الى

الأكل معه فاعتذرا فطفق يسألها عن بعض آيات القرآن وما قاله المفسرون والصوفية فيها ثم يفسرها لهم فكان هذا مما ملأ قلب فقيرنا به عجباً وشغفه حباً لأن التصوف والتفسير هما قرة عينه أود كما قال مفتاح سعادته . وأخبرني رحمه الله تعالى أنه قرأ على السيد كتاب الزوراء للدواني في التصوف ، وشرح القطب على الشمسية والمطالع وسلم العلوم من كتب المنطق ، والهداية والاشارات وحكمة العين وحكمة الاشراق من الفلسفة ، وعقائد الجلال الدواني في التوحيد والتوضيح مع التلويح في الاصول ، والجغميني وتذكرة الطوس في الهيئة القديمة وكتاباً آخر في الهيئة الجديدة نسبت اسمه .

ثم ان السيد أرشده كغيره من تلامذته الى الانشاء وكتابة المقالات الادبية والاجتماعية والسياسية ومنهم على الخطابة فبرع فقيدنا في ذلك حتى صار أبرع من أستاذه نفسه لان عبارة السيد رحمه الله تعالى كانت على متانتها وبلاغها لم تصف من كدورة العجمة الى صفاء الانسجام العربي الخالص كعبارة الشيخ ثم ان مجالس السيد في ناديه وسامره كانت كلها مجالس علم وحكمة وأدب وسياسة وقلما كان يفوت فقيدنا شيء منها اذ كان يلزمه ملازمة ظله وما يستفيده المرء بالمذاكرة في ساعة لا يستفيده بالدرس في ساعات لان المدرس يكلفك كل ما يلقى اليك سواء كنت تشمر بالحاجة اليه وتعتقد الاستفادة منه أم لا وسواء كنت مستعداً لفهمه أم لا ، وأما المذاكرة فهي مشاركة اختيارية في البحث والانسان لا يختار الا ما يرى نفسه محتاجة اليه ومستعدة لفهمه فمثل الدرس يلقي اليك كمثل من يكلفك أن تأكل مقداراً معيناً من الاطعمة التي قد تعاف بعضها ولا تستطيع تناولها الا بكلفة وغثاة فأنت لا تتغذى الا ببعضها والباقي اما أن يضرروا ما أن لا ينع ومثل المذاكرة كالطعام الذي تشتهي وتتناول منه ما يكفيك فيكون كاه غداء نافعا . وقد قل بعض علماء التربية من الافرنج انه قلما يفلح من يقيم في مدارس العلم زمناً طويلاً . ولقد كانت مجالس اساتذنا العقيد كجالس استاذة (رحمهما الله) تفيض علماً وحكمة وأدباً ولكن الفصل بينهما في هذا هو ان السيد كان يلقي الحكمة لكل أحد وأما الشيخ فكان يخاطب كل أحد أو كل فريق بما يرى انه مستعد له ومتوجه اليه وقد قال لي

رحمه الله تعالى ان السيد جمال الدين كان يلقي الحكمة لمريدها وغير مريدها ومن خواصه انه يجذب مخاطبه الى ما يريد وان لم يكن من أهله وكنت أحسده على ذلك لانني تؤثر في حالة المجلس والوقت فلا تتوجه نفسي للكلام الا اذا رأيت له محلا قابلا واستعدادا ظاهرا وهكذا الكتابة: واننا في هذا المقام نورد ترجمته للسيد جمال الدين التي نشرها في أول ترجمة رسالة الرد على الدهريين ونزيد عليها قليلا قال

السيد جمال الدين الافغاني

بمحملنا على ذكر شئ من سيرة هذا الرجل الفاضل ما رأيناه من تخالف الناس في أمره، وتباعد ما بينهم في معرفة حاله، وتباين صورته، وفي مخيلات اللافقين لخبره، حتى كأنه حقيقة كاية نجلت في كل ذهن بما يلائمه، أرقوة روحية قامت لكل نظر بشكل يشاكله، والرجل في صفاء حوصره، وزكا. مخبره، لم يصبه وهم الوهمين، ولم يمسسه حزر الحراصين، واننا ندكر مجملا من خبره، نروي به عن كمال الخبرة، وطول العشرة:

هذا هو السيد جمال الدين ابن السيد صفر من بيت عظيم في بلاد الافغان ينمي نسبه الى السيد علي الترمذي المحدث المشهور ويرتقي الى سيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. وآل هذا البيت عشيرة وافرة العدد تقيم في خطة (كتر) من أعمال كابل تبعد عنها مسيرة ثلاثة أيام ولهم العشيرة منزلة عليا في قلوب الافغانين يجلونها رعاية لحرمة نسبها الشريف وكانت لها سيادة على جزء من الاراضي الافغانية تستقل بالحكم فيه وانما سلب الامارة من أيديها دوست محمد خان جد الامير الحالي (١) وأمر بنقل أبي السيد جمال الدين وبعض أعمامه الى مدينة كابل

ولد السيد جمال الدين في قرية (اسعد آباد) من قرى كافر سنة ١٢٥٤ هجرية وانتقل بانتقال أبيه الى مدينة كابل وفي السنة الثامنة من عمره اجلس لتعلم وعني والده بتربيته فأيد العناية به قوة في فطرته، واشراق في قريحته، وذكا في مداركته، فأخذ منه بدائيات العلوم ولم ينف دون نهاياتها. نال علومها بجرع في جميعها

(١) يعني به المرحوم الامير عبد الرحمن لان الترجمة كتبت وهو حي

فمنها العلوم العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وكتابة وتاريخ عام وخاص ومنها علوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول فقه وكلام وتصوف ومنها علوم عقلية من منطق وحكمة عملية سياسية ومنزلية ونهذية وحكمة نظرية طبيعية وألھية ومنها علوم رياضية من حساب وهندسة وجبر وهيئة افلاك ومنها نظريات الطب والتشريح . أخذ جميع تلك الفنون عن أساتذة ماهرين على الطريقة المعروفة في تلك البلاد وعلى ما في الكتب الاسلامية المشهورة واستكمل الغاية من دروسه في الثامنة عشرة من سنه ثم عرض له سفر الى البلاد الهندية فاقام بها سنة وبضعة أشهر ينظر في بعض العلوم الرياضية على الطريقة الاوربية الجديدة وأتى بعد ذلك الى الاقطار الحجازية لأداء فريضة الحج وطالت مدة سفره اليها نحو سنة وهو ينتقل من بلد الى بلد ومن قطر الى قطر حتى وافى مكة المكرمة في سنة ١٢٧٣ فوقف على كثير من عادات الامم التي مربها في سياحته واكتنه أخلاقهم وأصاب من ذلك فوائد غزيرة ثم رجع بعد اداء الفريضة الى بلاده ودخل في سلك رجال الحكومة على عهد الامير دوست محمد خان ولما زحف الامير الى هراة ليفتحها وبالكما على سلطان أحمد شاه صهره وابن عمه سار السيد جمال الدين معه في جيشه ولازمه مدة الحصار الى أن توفي الامير وفتحت المدينة بعد معاناة الحصر زمنا طويلا . وتقلدا لامارة ولي عهدا شير علي خان سنة ١٢٨٠ وأشار عليه وزيره محمد رفيق خان أن يقبض على اخوته خصوصا من هو أكبر سنا منه ويعتقلهم فان لم يفعل سعوا بالناس الى الفتنة واليوم للفساد طلبا الاستبداد بالامارة

وكان في جيش هراة من اخوة الامير ثلاثة محمد أعظم ومحمد أسلم ومحمد أمين وهوى الشيخ جمال الدين كان مع محمد أعظم فلما أحسوا ابتداء الامير ومشورة الوزير أسرعوا الى الفرار ونفروا الى الولايات كل منهم ذهب الى ولايته التي كان يلها من قبل أبيه ليعتصم بمنته فيها وطاشت بهم الفتن واشتعلت نيران الحروب الداخلية وبعد مجاللات عنيفة عظم أمر محمد أعظم وابن أخيه عبد الرحمن (الامير السابق) وتغلبا على عاصمة المملكة وأقذا محمد أفضل والد عبد الرحمن من سجن قرنة وسمياه أميرا على أفغانستان ثم أدركه الموت بعد سنة وقام على الامارة بعده شقيقه محمد أعظم خان

وارتفعت منزلة الشيخ جمال الدين عنده فأحله محل الوزير الاول وعظمت ثقته به فكان يلجأ لرأيه في العظام وما دونها (على خلاف ما تعودده أمراء تلك البلاد من الاستبداد المطلق وعدم التمويل على رجال حكومتهم) وكادت تخلص حكومة الافغان لمحمد أعظم بتدبير السيد جمال الدين لولا سوء ظن الامير بالاغلب من ذوي قرابته حملة على تفويض مهمات من الاعمال الى أبنائه الاحداث وهم خلو من التجربة عراة من الحنكة فساق الطيش أحدم وكان حاكما في قندهار على منازلة عمه شير علي في هراة ولم يكن له من الملك سواها وظن الفتى انه يظفر فينال عند أبيه حظوة فيرفعه على سائر اخوته فلما تلاقى مع جيش عمه دفعته الجراة على الانفراد عن جيشه في مقي جندي واخترق بها صفوف أعدائه فأوقع الرعب في قلوبهم وكادوا ينهزمون لولا ما انتفت بمقوب خان قائد شير علي فوجد ذلك الفر المتهور منقطعاً عن جيشه فكر عليه وأخذه أسيراً قد شنت جند قندهار وقوي الامل عند شير علي فحمل على قندهار واستولى عليها وعادت الحرب الى شبابها وعضد الانكليز شير علي وبذلوا لها قناطير من الذهب ففرقها في الرؤساء والامالين لمحمد أعظم فبيعت أمانات ونقضت عهود وجددت خيانات وبعد حروب هائلة تغلب شير علي وانهزم محمد أعظم وابن أخيه عبدالرحمن فذهب عبدالرحمن الى بخارى (وعاد الى بلاده رحمه الله) وذهب محمد أعظم الى بلاد ايران ومات بعد أشهر في مدينة نيسابور وبقي السيد جمال الدين في كابل لم يمسه الامير بسوء احتراماً لمشيرته وخوف انتقاض العامة عليه حمية لآل البيت النبوي الا انه لم ينصرف عن الاحتيال للقدر به والانتقام منه بوجه يلتبس على الناس حقه بباطله ولهذا رأى السيد جمال الدين خيرا له أن يفارق بلاد الافغان فاستأذن للحج فأذن له على شرط أن لا يمر ببلاد ايران كيلا يلتقي فيها بمحمد أعظم وكان لم يممت فارتحل على طريق الهند سنة ١٢٨٥ بعد هزيمة محمد أعظم بثلاثة أشهر فلما وصل الى التخوم الهندية تلقت حكومة الهند بمقاوة في اجلال الا انها لم تسمح له بطول الاقامة في بلادها ولم تأذن لعلماء في الاجتماع عليه الاعلى عين من رجالها فلم يبق أكثر من شهر ثم سيرته من سواحل الهند في أحد مرأى كباها على نفقتها الى السويس فجاء الى مصر وأقام بها نحو

أربعين يوماً تردد فيها على الجامع الأزهر وخالطه كثير من طلبة العلم السورين ومالوا إليه كل الميل وسألوه أن يقرأ لهم شرح الاظهار فقرأ لهم بعضاً منه في بيته ثم تحول عن الحجاز عزمه وتعبه بالسفر الى الاسنانة

وصل الاسنانة وبعد أيام من وصوله أمكنته ملاقاته الصدر الاعظم عالي باشا ونزل منه منزلة الكرامة وعرف له الصدر فضله وأقبل عليه بما لم يسبق لثله وهو مع ذلك بزيه الافغاني قباء وكساء وعمامة عجرا وحومت عليه افضله قلوب الامراء والوزراء وعلاذ كره بينهم وتناقلوا الثناء على علمه ودينه وأدبه وهو غريب عن ازيائهم ولقنهم وعاداتهم وبعد ستة أشهر سمي عضواً في مجلس المعارف فأدى حق الاستقامة في آرائه وأشار الى طرق لتعميم المعارف لم يوافق على الذهاب اليها رفقاؤه . ومن تلك الطرق ما أحفظ عليه قلب شيخ الاسلام لتلك الاوقات حسن فهمي أفندي لأنها كانت تفس شيناً من رزقه فأرصد له العنت حتى كان رمضان سنة ١٢٨٧ فرغب اليه مدير دارالفنون نحسين أفندي ان يلقي فيها خطاباً للبحث على الصناعات فاعتذر اليه بضعفه في اللغة التركية فألح عليه نحسين أفندي فأنشأ خطاباً طويلاً كتبه قبل لقائه وعرضه على وزير المعارف وكان صفوت باشا . وعلى شرواني زاده وكان مشير الضابطية وعلى دولومنييف باشا ناظر المعارف وكان عضواً في مجلس المعارف واستحسنه كل منهم وأطرب في مدحته

فلما كان اليوم المعين لاسماع الخطاب تسارع الناس الى دار الفنون واحتفل له جم غفير من رجال الحكومة وأعيان أهل العلم وأد باب الجرند وحضر في الجمع معظم الوزراء وصعد السيد جمال الدين على منبر الخطابة وألقى ما كان أعده وأرسل حسن فهمي أفندي أشعة نظره في تضاعيف الكلام ليصيب منه حجة للتشليل به وما كان يمجدها لوطالب حقاً ولكن كان الخطاب في تشبيه المعيشة الانسانية بيدن حيوان وان كل صناعة بمنزلة عضو من ذلك البدن تؤدي من المنفعة في المعيشة ما يؤديه العضو في البدن فشبه الملك مثلاً بالمنح الذي هو مركز التدبير والارادة . والحداثة بالمضد والزراعة بالكبد والملاحة بالرجلين وهن في سائر الصناعات ولاعضاء حتى أتى على جميعها بيان صاف واف ثم قال هذا ما يتألف منه جسم المادة الانسانية

ولا حياة لجسم الابروح وروح هذا الجسم أما النبوة وأما الحكمة ولكن يفرق بينهما بأن النبوة منحة الهية لا نالها يد الكاسب يختص الله بها من يشاء من عباده والله أعلم حيث يجعل رسالته . أما الحكمة فمما يكتسب بالفكر والنظر في المعلومات وبأن النبي معصوم من الخطأ والحكيم يجوز عليه الخطأ بل يقع فيه . وإن أحكام النبوات آتية على ما في علم الله لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها فلاخذ بها من فروض الايمان أما آراء الحكماء فليس على الذمم فرض اتباعها الا من باب ما هو الاولى والا فضل على شريطة أن لا يخالف الشرع الالهي .

هذا ما ذكره متعلقا بالنبوة وهو منطبق على ما أجمع عليه علماء الشريعة الاسلامية الا ان حسن فهمي أفندي أقام من الحق باطلا ليصيب غرضه من الانتقام فأشاع أن الشيخ جمال الدين زعم ان النبوة صنعة واحتج لتثبيت الإشاعة بأنه ذكر النبوة في خطاب يتعلق بالصناء (وهكذا تكون حجج طلاب الفتى) ثم أوعز الى الوعظ في المساجد أن يذكر ذلك مخفوفاً بالتفنيد والتنديد فاهم السيد جمال الدين المدافعة عن نفسه وإثبات براءته مما رمي به ورأى ان ذلك لا يكون الا ببعثه كشيخ الاسلام (وكيف يكون ذلك واشتد في طلب المحاكمة وأخذت منه الحدة مبالغاً وأكثرت الجرائد من القول في المسألة فمنها نصراء للشيخ جمال الدين ومنها أعوان للشيخ الاسلام فأشار بعض أصحاب السيد عليه أن يلزم السكون وبغضى على الكريهة وطول الزمان يتكفل باضمحلال الاشاعات وضعف أثرها فلم يقبل واجب في طلب المحاسبة فمظلم الامر وآل الى صدور أمر الصدارة اليه بالجللاء عن الاستانة بضمة أشهر حتى تسكن الخواطر ويهدأ الاضطراب ثم يعود ان شاء فقارق الاستانة مظلوماً في حقه ، مظلوماً لحدته ، وحله بعض من كان معه على التحول الى مصر فجاء اليها في أول المحرم سنة ١٢٨٨ هذا بمجل أمره في الاستانة وما ذكره سليم المنحوري في شرح شعره المسمى سحر هاروت مما يخالف ذلك خلطاً من الباطل لاشائبة للحق فيه

مال السيد جمال الدين الى مصر على قصد التفرج بما يراه من مناظرها ومظاهرها ولم تكن له عزيمة على الإقامة بها حتى لاقى صاحب الدولة رياض باشا فاستأثمه مساعيه الى المقام وأجرت عليه الحكومة وظيفة ألف قرش مصري كل شهر نزلاً

أكرمه به لافي مقابلة عمل واهتدى اليه بعد الإقامة كثير من طلبة العلم واستودوا زنده فاوردى، واستغاضوا بحره ففاض درا، وحملوه على ندر يس الكتب فقرأ من الكتب العالية في فنون الكلام الاعلى والحكمة النظرية الطبيعية وعقلية وفي علم الهيئة الفلكية وعلم التصوف وعلم أصول الفقه الاسلامي وكانت مدرسته بيته من أول ما ابتدأ الى آخر ما اختتم ولم يذهب الى الازهر مدرسا ولا يوما واحدا نعم كان يذهب اليه زائرا وأغلب ما كان يزوره يوم الجمعة .

عظم أمر الرجل في نفوس طلاب العلوم واستعجزوا فوائدا لاخذ عنه وأعجبوا بدينه وأدبه وانطلقت الالسن بالثناء عليه وانتشر صيته في الديار المصرية ثم وجه عنايته لحل عقل الاوهام عن قوائم العقول فنشطت لذلك أبواب واستنضات بصائر وحل تلامذته على العمل في الكتابة وانشاء الفصول الادبية والحكمية والدينية فاشغفوا على نظره وبرعوا وتقدم فن الكتابة في مصر بسعيه وكان أرباب القلم في الديار المصرية القادرون على الاجادة في المواضيع المختلفة منحصرين في عدد قليل وما كنا نعرف منهم الا عبد الله باشا فكري وخيري باشا ومحمد باشا سيد أحمد على ضعف فيه ومصطفى باشا وهبي على اختصاص فيه ومن عدا هؤلاء فاما ساجعون في المراسلات الخاصة واما مصنفون في بعض الفنون العربية أو الفقهية وما شاكلها ومن عشر سنوات ترى كتبة في القطر المصري لا يشق غبارهم ولا يوطأ مضارم وأغلبهم أحداث في السن شيوخ في الصناعة وما منهم الا من أخذ عنه أو عن أحد تلامذته أو قلد المتصلين به ومنكر ذلك . كابر ولحق مدابر . هذا ما حده عليه أقوام واتخذوا سبيلا للطعن عليه من قراءته بعض الكتب الفلسفية أخذا بقول جماعة من المتأخرين في تحريم النظر فيها على أن القائلين بهذا القول لم يطلقوه بل قيدوه بضعفاء العقول قصارا النظر خشية على عقائدهم من الزيف أما الثابتون في إيمانهم فلهم النظر في علوم الأولين والآخرين من موافقين لمذاهبهم أو مخالفين فلا يزيدهم ذلك الا بصيرة في دينهم وقوة في يقينهم ولنا في أئمة الملة الاسلامية ألف حجة تقوم على ما نقول ولكن تمكن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة الى رأي هذا الرجل وأذاعوا ذلك بين العامة ثم ليدهم اخلاط من الناس

من مذاهب مختلفة كانوا يطارقون مجلسه فيسمعون مالا يفهمون، ثم يحرفون في النقل عنه ولا يشعرون، غير ان هذا كله لم يؤثر في مقام الرجل من نفوس العقلاء العارفين بحاله ولم يزل شأنه في ارتفاع، والقلوب عليه في اجتماع، الى أن تولى خديوية مصر حضرة خديوها المغفور له توفيق باشا وكان السيد من المؤيدين لمقاصده الناشئين لمحامده، إلا ان بعض المفسدين ومنهم (مسترفييان) فصل انكثرا الجنرال سعى فيه لادى الجناح الخديوي ونقل الفساد عنه، ما الله يعلم انه بريء منه، حتى غير قلب الخديوي عليه فأصدر أمره باخراجه من القطر المصري هو وتابعه ابوتراب ففارق مصر إلى البلاد الهندية سنة ١٢٩٦ وأقام بمحيدرا آباد الدكن وفيها كتب هذه الرسالة في نفي مذهب الدهريين . ولما كانت الفتنة الاخيرة بمصر دعي من حيدر آباد الى كلكتة وألزمته حكومة الهند بالاقامة فيها حتى انتضى أمر مصر وفثأت الحرب الانكليزية ثم أتيح له الذهاب إلى اي بلد فاختار الذهاب إلى أوروبا واول مدينة أصعد إليها مدينة لوندرة اقام بها اياما قلائل ثم انتقل عنها إلى باريز واقام بها ما يزيد على ثلاث سنوات وافيناه في اثنائها . ولما كلفته جمعية العروة الوثقى^(١) ان ينشئ جريدة تدعو المسلمين الى الوحدة تحت لواء الخلافة الاسلامية ايدها الله سألني ان أقوم على تحريرها فأجبت، ونشر من الجريدة ثمانية عشر عدداً، وقد أخذت من قلوب الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا ما لم يأخذهم قبلها وعظ واعظ ولا تقيبه منه، وذلك لخلوص النية في تحريرها، وصحة المقصد في تحجيرها، ثم قامت للوانغ دون الاستمرار في اصدارها حيث اقفلت ابواب الهند عنها، واشتدت الحكومة الانكليزية في اعزازات من تصل اليهم فيه، ثم بقي بعد ذلك مقبلا بوربا أشهر آفي باريز وأخرى في لندرة إلى أوائل شهر جمادى الاولى سنة ١٣٠٣ وفيه رجع إلى البلاد الايرانية أما مذهب الرجل فحنيفي حنفي وهو وإن لم يكن في عقيدته مقلداً لكنه لم يفارق السنة الصحيحة مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية رضي الله عنهم، وله مشاركة شديدة على أداء الفرائض في مذهبه وعرف بذلك بين معاصريه في مصر أيام اقامته بها، ولا يأتي من الاعمال إلا ما يحل في مذهب امامه، فهو أشد من رأيت في

(١) هي جمعية سياسية كان لها فروع في الاقطار الاسلامية

المحافظة على أصول مذهبه وفروعه

اما حميته الدينية فهي مما لا يساويه فيها أحد يكاد يلهب غيره على الدين وأهله
اما مقصده السياسي الذي قد وجه اليه أفكاره وأخذ على نفسه السعي اليه
مدة حياته، وكل ما اصابه من البلاء اصابه في سبيله، فهو انتهاض دولة اسلامية من
ضعفها، وتنسيبها للقيام على شؤونها، حتى تلحق الامة بالامم العريضة، والدولة بالدول
القوية، فيعود للاسلام شأنه، والدين الحنيفي مجده، ويدخل في هذا تنكيس دولة
بريطانيا في الاقطار الشرقية، وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الاسلامية، وله
في عداوة الانكليز شؤون يطول بيانها

اما منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدها قلبي إلا بنوع من الاشارة
اليها، لهذا الرجل سلطة على دقائق المعاني وتحديداتها وبرايزها في صورها اللاتقة بها
كأن كل معنى قد خلق له. وله قوة في حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش
فمنظرة منه تفكك عقدها. كل موضوع يلقى اليه، يدخل للبحث فيه كأنه صنع
يديه، فيأتي على أطرافه، ويحيط بجميع أكنافه، ويكشف ستر الغموض عنه، فيظهر
المستور منه، واذ انكلم في الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها، ثم له في باب الشعريات
قدرة على الاختراع، كأن ذهنه عالم الصنع والابداع، وله لسان في الجدل وحقق
في صناعة الحجلة لا يلحقه فيها أحد إلا أن يكون في الناس من لا نعرفه، وكفاك شاهداً
على ذلك انه ما خصم أحداً إلا خصمه، ولا جادله عالم إلا ألزمه، وقد اعترف له الاوربيون
بذلك بعدما قرله الشرقيون. وبالحجلة فاني لو قلت ان ما آتاه الله من قوة الذهن وسعة
العقل ونفوذ البصيرة هو أقصى ما قدر لغير الانبياء لكنت غير مبالغ. ذلك فضل
الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

اما اخلاقه فسلامة القلب سائدة في صفاته، وله حلم عظيم يسع ما شاء الله ان
يسع، إلا ان يدنو منه أحد ليمس شرفه او دينه، فينقلب الحلم إلى غضب، تنقض
منه الشهب، فينما هو حليم أواب، اذا هو أسد واثاب، وهو كريم يبذل ما بيده، قوي
الاعتماد على الله لا يبالى ما تأتي به صروف الدهر، عظيم الامانة، سهل لمن لاينه. صعب
على من خاشنه، طموح إلى مقصده السياسي الذي قدمناه، اذا لاحت له بارقة منه،

تعجل السير للوصول اليه ، وكثيراً ما كان التعجل علة الحرمان ، وهو قليل الحرص على الدنيا ، بعيد من الغرور بزخارفها ، ولوع بعظام الأمور ، عزوف عن صفارها ، شجاع مقدام لا يهاب الموت كأنه لا يعرفه ، إلا أنه حديد المزاج وكثيراً ما هدمت الحدة مارفته الغفنة ، إلا أنه صار اليوم في رسوخ الاطواد ، وثبات الافناد ، فخور بنسبه إلى سيد المرسلين ﷺ لا يعد لنفسه منزلة أرفع ولا عزا أمنع من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر ، وبالجملة ففضله كعلمه والكمال لله وحده

أما خلقه فهو يمثل لناظره عريباً محضاً من أهالي الحرمين فكانما قد حفظت له صورة آبائه الاولين من سكنة الحجاز حماه الله . ربة في طوله ، وسطفي بنيته . قحي في لونه ، عصبي دموي في مزاجه ، عظيم الرأس في اعتدال ، عريض الجبهة في تناسب ، واسع العينين ، عظيم الاحداق ، ضخم الوجنت ، رحب الصدر ، جليل في النظر ، هش بش عند اللقاء ، قد وفاه الله من كمال خلقه ، ما ينطبق على كمال خلقه بقي علينا ان نذكر له وصفاً لو سكتنا عنه سئلنا عن اغفاله وهو انه كان في مصر يتوسع في اتيان بعض المباهات كالجلوس في المنزهات العامة والاماكن المدة لراحة المسافرين ، وتفرج المحزونين ، لكن مع غاية الحشمة وكال الوقار . وكان مجلسه في تلك المواضع لا يخلو من الفوائد العلمية فكان بعيداً من اللغو ، منزهاً عن اللهو ، وكازيوافيه فيها كثير من الاسراء وأرباب المقامات العالية وأهل العلم . وهذا الوصف ربما عده عليه بعض حاسديه ، لكن الله يحب ان تؤتى رخصه ، كما يحب ان تؤتى عزائمه ، وأي غضاضة على الرء المؤمنين ان يفرج بعض همهم بما اباح الله له . هذا مجمل من أحوال السيد جمال الدين الافغاني أتينا به دفعا لما افتراه عليه الجاهلون ولو سلكننا في تاريخه مسلك التفصيل ، لادى بنا الى التطويل . اهـ



(يقول المؤلف) وكتب الاستاذ الامام في كتاب أسباب الحوادث العربية نبذة أثبت فيها أن هذا السيد كان ، مبدأ النهضة الاجتماعية السياسية بمصر ، وذلك قوله بعد بيان ما كانت عليه مصر في زمن الخديو اسماعيل باشا ما يأتي بنصه : « هذه كانت شذائد مهاكة ، وظلمات حالكة ، يضل فيها الرشيد ، ويتعثر فيها

العزم الشديد ، ولكن كان يلوح من خلالها ضياء لو كل ظهوره ، وانتشر نوره ،
لاهدى به الضال ، وحسن به الحال

«ذلك ان أهالي مصر قبل سنة ١٢٩٣ كانوا يرون شؤونهم العامة بل والخاصة
ملكاً لحاكمهم الاعلى ومن يستنييه عنه في تدبير أمورهم يتصرف فيها حسب ارادته ،
ويعتقدون ان سعادتهم وشقاءهم موكلان الى أمانته وعدله ، او خيائته وظلمه ،
ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحق له ان يبدية في ادارة بلاده ، او إرادة يتقدم
بها الى عمل من الاعمال يرى فيه صلاحاً لامته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم
وبين الحكومة سوى انهم محكومون مصرفون فيما تكلفهم الحكومة به وتضربه
عليهم ، وكانوا في غاية البعد عن معرفة ماعليه الامم الاخرى سواء كانت اسلامية
أو أوربية . ومع كثرة من ذهب منهم الى أوروبا وتعلم فيها من عهد محمد علي باشا
الكبير الى ذلك التاريخ الذي ذكرناه وذهب العدد الكثير منهم الى مجاورهم
من البلاد الاسلامية أيام محمد علي باشا الكبير و ابراهيم باشا لم يشعر الاهالي بشيء
من ثمرات تلك الاسفار ولا فوائد تلك المعارف التي اكتسبت بها ، ومع ان اسماعيل
باشا أبدع مجلس الشورى في مصر سنة ١٢٨٣ وكان من حقه ان يعلم الاهالي
ان لهم شأنًا في مصالح بلادهم وان لهم رأياً يرجع اليه فيها ، لم يحس أحد منهم ولا
من أعضاء المجلس أنفسهم بان له ذلك الحق الذي يقتضيه تشكيل هذه الهيئة
الشورية لان مبدع المجلس قيده في النظام وفي العمل . أما في النظام فلانه قد
نص فيه على ان نظر المجلس منحصر فيما تراه الحكومة من خصائصه وما يعن لها
ان ترسله اليه المداولة فيه ، واما في العمل فلانه كان يرسل من قبله عند المداولة
من يخبر الاعضاء بارادة جنابه فيقررون ما يريد بعد مداولة صورية ، فكانوا يشعرون
بان الارادة المطلقة هي التي كانت ولا تزال تصرفهم في آرائهم .

هل كان يمكن لاحد ان يعمل على خلاف ما يأمربه؟ هل كان يمكن لشخص ان
يميل بفكره عن الطريق التي رسمت له ، او الوجهة التي يتوجه اليها الحاكم ؟ لو حدثه
الفكر السليم بان هناك وجهة خيراً من تلك هل كان يمكنه أن ينطق بما حدث به فكره ؟
كلا فانه كان بجانب كل لفظ نفي عن الوطن او إزهاق للروح أو تجريد من المال ،

ويدنا الناس على هذا لا كاتب ينههم ، ولا خاطب يعظمهم ، اذ عرض امر
 قهراياتت اليه ، أو تحوم الافكار حواله ، وان كان نما يعرض في كل مكان ،
 وجرت به السنة الالهية في كل زمان
 ﴿ مبدأ النهضة المعنوية بمصر ﴾

« جرت سنة الله في خلقه بأن عظام الامور تتولد من صغارها ، كما ان ضخام
 الاشجار تبسق من بزورها ، جاء الى هذه الديار في سنة ١٢٨٦ رجل غريب ، بصير
 في الدين ، عارف بأحوال الامم ، واسع الاطلاع ، جم المعارف ، جريء القلب ، وهو
 المعروف بالسيد جمال الدين الافغاني ، وركن الى الاقامة في مصر فتعرف اليه
 في بادى الامر بعض طلبة العلم ، ثم اختلف اليه كثير من الموظفين والاعيان ، ثم
 انتشر عنه ما تخالفت آراء الناس فيه من افكار وعقائد ، فكان ذلك داعيا لطلاب
 الاجتماع به لتعرف ما عنده . ثم اشتغل بالتدريس ببعض العلوم العقلية ، وكان
 يحضر دروسه كثير من طلبة العلم ، ويتردد على مجالسه كثير من العلماء وغيرهم ، وهو
 في جميع اوقات اجتماعه مع الناس لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل ، أو يظهر العقيدة ،
 أو يذهب بالنفس الى معالي الامور ، أو يستلقت الفكر الى النظر في الشؤون العامة
 مما يمس مصلحة البلاد وسكانها . وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتبونه من تلك
 المعارف الى بلادهم ايام البطالة ، والزائرون يذهبون بما ينالونه الى احيائهم ، فاستيقظت
 مشاعر ، وانتبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة في اطراف متعددة من البلاد
 خصوصا في القاهرة — كل ذلك والحاكم القوي في علوم مكانه ، ارفع من ان يناله
 هذا الشعاع في ضعف شأنه ، ولا زال هذا الشعاع يقوى بالتدريج البطيء ، وينتشر في
 الانحاء على غير نظام الى ان نشبت الحرب بين الدولة العثمانية ودولة روسية في سنة ١٢٩٣
 « وجد الناس من أنفسهم لذة في الاطلاع على ما يكون من شأن الدولة العثمانية
 صاحبة السيادة عليهم مع دولة الروسية فتطاعوا الى ما يرد من اخبار الحرب .
 وكثيرة الاجانب في هذه البلاد سهات ورود الجرائد الاوردية الى طلابها
 من الاوربيين ، ومخاطبتهم للعامة والخاصة ، هدت الطريق الى العلم بما فيها ، فزاد تشوق
 الناس الى الوقوف على حوادث تلك الحرب وسرى هذا الشعور الى بعض الجرائد

العربية التي كانت لا تزال الى هذا العهد قاصرة على ما لايهمهم ، فانطلقت في ايراد الحوادث ونشرها ، وظهر فيها الميل الى اطراء ما كانت تأتي به العساكر الروسية ، وازدراء ما كان ينسب الى الجنود العثمانية ، فوجد في الناس الناقم على تلك الجرائد والناصر لها ، وحدث بين العامة نوع من الجدال لم يكن معروفا من قبل ، ثم استحدثت جرائد كثيرة لمباراة ما سبقها في نشر الاخبار ، ومناوأتها في المشرب ، واندفعت الرغبات الى الاشتراك فيها الى حد لا يمكن منعه ، وقضى سلطان الوقت على سلطان الارادة القاهرة

« لم يكن ما ينشر في الجرائد محصوراً في حوادث الحرب بل اجتث الكثير منها على نشر ما عليه سائر الامم في سيرتهم السياسية والمعيشية ، وزادوا على ذلك نشر ما كان قد بدأ في الحكومة المصرية من سوء الاحوال المالية ، وكثر المتحدثون بما يكثر في تلك الجرائد ، وأخذ الشيخ جمال الدين في حمل من يحضر مجلسه من أهل العلم وأرباب الاقلام على التحرير وانشاء الفصول الادبية والعلمية في مواضيع مختلفة لا تخرج جامعتها عن اصلاح الافكار ، وتهذيب الاخلاق ، فتساقطت الى ذلك الكتاب وتبارت الاقلام ، وأخذت الحرية الفكرية تظهر في الجرائد الى درجة يظن الناظر فيها انه في عالم خيال ، أو أرض غير ارض الخيال ، ومن يطلع على اعداد جريدة مصر وجريدة التجارة وجريدة مرآة الشرق والاهرام وصداها يرى حقيقة ما ذكرنا » اهـ ما اردنا نقله من كتاب اسباب الحوادث العراقية وهو على ايجازه صريح في ان السيد جمال الدين كان هو مبدأ هذه النهضة الفكرية في مصر . وكان بعد ذلك يغذيها يارشاده وجرائد تلاميذه حتى صار له حزب سياسي عظيم من ذلك الحزب الادبي الذي لم يكن يخمار على البال

واننا ندعم ما كتبه الاستاذ الامام على قوته وورسوخه بما كتبه أديب بك اسحاق الكاتب المشهور وكان من تلاميذ السيد جمال الدين وافراده حزبه في زمنه قال أديب :



جمال الدين

«هو الحكيم الخطيب البالغ الحجة، النبيه المتوقد الذكاء، الجري، الذي لا يعرف الخوف، النسيب السيد جمال الدين الحسيني الافغاني، ولد بكابل في بيت شرف وعلم وعمره الآن نحو ٤٥ عاما وطالب العلم بالفارسية والعربية على ماجرت به عادة الامراء والعلماء في بلاده فتبحر في المنقول والمعقول، وغلبت عليه مذاهب قدماء الحكماء، فدخل في ذلك بداءة بدء شي، من التصوف فانقطع حيناً بمنزله يطلب الخلوة لكشف الطريقة وإدراك الحقيقة، حتى صار له في القوم كثير من الأتباع والريدين، كل ذلك وهو دون العشرين سنة. ثم خرج من خلوته مستقر الرأي على حكم العقل وأصول الفلسفة القياسية، ومات عامهذ أمير الافغان عن ولدين وهما شيرعلي خان ومحمد أعظم خان فاقتلا على الولاية فانتصر جمال الدين الثاني

فقربه وجعله من رؤساء جنده فشهد الحروب وحضر الوقائع فازداد جراءة واستخفافاً بالموت، وأقام على ذلك تسعة أعوام لا يرى الراحة ولا يستقر بمكان، حتى دارت الدائرة على محمد اعظم خان، فانصرف الاولياء عنه إلا جمال الدين ونفر غيره من الامناء فسار بهم الى الهند فلم يلبثوا أن أوجست حكومة الانجائز خيفة من صاحب الترجمة فعاد إلى أفغانستان ثم هاجر الى الحجاز على قصد المجاورة فلم يلائمه ثم الهوا، فقصد الاستانة وأقام بها مجهول المكان، حتى اهتدى اليه بعض أكابر الوزراء فعرف قدره وفضله، فجعله من اعضاء مجلس المعارف العالي، ثم اقترح احد الامراء عليه ان يخطب في دار الفنون فأجاب وكانت خطبته في الصناعات فأنكر مشايخ العلم اشياء منها واتصل الامر بشيخ الاسلام وكان متغيراً على صاحب الترجمة لواقعة حال جرت له في مجلسه، فالتمس من الدولة إبعاده فارسلته الى الحجاز فاقام فيه مضطراً، وكان قد عرف رياض باشا احد وزراء مصر واتصل منه باسباب مودة فقصد وادي النيل عام ١٨٧١ فاجرت له الحكومة الخديوية رزقا كافياً على ان يكون من المدرسين، فجرت بينه وبين بعض علماء الازهر مناظرة، أفضت الى المنافرة، فانقطع الى منزله وصار له فيه حلقة تدريس يحضرها كثير من الطابة بل من المدرسين ثم صارت ملتقى للنبهاء من رجال الحكومة والوجهاء فكان يكشف بعضهم بأرائه الحرة ويسلك بسائرهم طريق النجاة من الخرافة والجهل، على انه بقي مجهول الشأن عند العامة، حتى ظهرت آثاره وآثار مردييه في جريدة مصر، فظهرت شأنه، وصارت تنشر له بعض المقالات تارة باسمه ومرة تحت حجاب اسم مصنوع مثل (مظهر بن وضاح) فطار صيته، وعظم نفوذه

وكان السيد جمال الدين كثير التطلع إلى السياسة، شديد الميل إلى الحرية، قوى الرغبة في إنقاذ المصريين من الذل، فلما عظم التداخل الاجنبي في مصر واختلت أمورها المالية، علم أنه لا بد من تغير أحوالها فرام انتهاز تلك الفرصة لجمع السكامة على مبدأ الحرية فدخل الماسونية وتقدم فيها حتى صار من الرؤساء ثم أسس محفلاً وطنياً تابعا للشرق الفرنسي ودعا مردييه من العلماء والوجهاء اليه

فصلوا أعضاؤه نحواً من ثلاثمائة عدا وعظم اقبال الناس عليه حتى ان توفيق باشا
ولي العهد حينئذ طلب الدخول فيه وكان صاحب الترجمة شديد الكراهة لدولة
الانكليز جهر بذلك غير مرة ونشر في جريدة مصر فصولاً ناطقة به خصوصاً
بعد اعتداء الانكليز على ابناء آية فهاجوا عليها وترجمتها جرائد لوندرة واهتموا
بها كثيراً حتى ان المستر غلادستون تولى بنفسه أمر الجدل في موضوعها فلما عظم
شأن محفل داخل الخوف منه فنصل انكليزته فوثق به الى الحكومة وبث الرقباء
في المحفل فسموا فيه فساداً

وفي خلال ذلك بلغت أحوال مصر نهاية الارتباك والاختلال فظهر للسيد
جمال الدين ان الخديوي اسماعيل مخلوع لاجالة فكشف الفطاء عن مقاصده
السياسية وأخذ يسمى في انفاذ أغراضه قلقي المسيو نريكو فنصل جنرال فرنسا
وسكانب التيمس وكلهما بلسان حزب كبير فهاه أمره بعض أمراء المصريين
تقريباً بذلك حجته وشأنه ونفذت سعاية أعدائه فأمر الخديوي الجديد بنفيه
لواسط شهر رمضان سنة ١٢٩٦ الموافق لشهر ستمبر سنة ١٨٧٩ فأخذ غلساً وقبض
على من كان في حلقة وأرسل هو وخادمه الأمين (أبو تراب) مخفورين الى
السويس ومنها الى أبو شهر (فرضة في المعجم) وهو الآن بهيدرآباد مرفوع المكان
عليه المقام وبقيت كتبه وأوراقه في مصر وقيل ان روجرس بك أخذها ثم
أعادت لها صاحبها

(قال أدب) عرفت صاحب الترجمة بمصر وكنت من مرديبه ومحبيه طول مدة
الاقامة بالمعروسة والاسكندرية فكلامي في ترجمة حاله عن علم واختيار على انني ملتزم
فيه جانب الصدق برى من الهوى يعرف هذا كل من عرف السيد جمال الدين
واقفه على ما أقول وكيل والعهد بهذا الحكيم أنه أسمر اللون ربة ممتلي قوى البنية
جذاب النظر نافذ المحظ خفيف العارضين مسترسل الشعر بحجة وسراويلات سوداء
تطبق على الكاحلين وعمامة صغيرة بيضاء على زبي علماء الاستانة وانه عرب
عفيف النفس قانت كثير القيام لا ينام الا الفلن الى الضحى ولا يأكل غير مرة

واحدة في اليوم على أنه يكثر من شرب الشاي والتدخين قوي المعارضة ميال الى المعارضة طويل الحجة واسع المفوظ نبيه يكاد يكشف حجب الضمائر، ويهتك استار السرائر، ولكنه على فضله لا يسلم من حدة المزاج

ومن عجائب ذكائه انه تعلم اللغة الفرنسية أو بعضها حتى صار يقدر على الترجمة منها ويحفظ من مفرداتها شيئاً كثيراً في أقل من ثلاثة شهور بالاستاذ الا من علمه حروف هجائها يومين

ومن غرائب فضله انه كان يتنعم حركة المعارف الاوربية والمستكشفات المصرية ويلم بما وضع أهل العلم وما اخترعوه جديداً حتى كأنه قرأ العلم في بعض مدارس أوربها بالمالية

ومن مدهشات أحواله الدالة على ثبات جأشه وعفة نفسه انه قبض عليه لما لانعلم من الشر، فكان سائراً الى الخطر، ببر الشجاع الى الظفر، وأنه أنزل الى البحر في السويس منفياً خالي الجيب فأناه فيما يقال السيد النقادي فنصل ايران بذلك انتقم ومعه نفر من تجار المعجم وقدموا له مقداراً من المال على سبيل الهدية أو القرض الحسن فردده وقال لهم «احفظوا المال فأنتم اليه أخرج ان الليث لا يعدم فريسة حينما ذهب» اه من كتاب الدرر



ترجمة سليم بك النجوري للسيد جمال الدين

قال في شرح ديوان (سحر هاروت) في تفسير قوله :

تنو اليّ بمقله غضبي اذا بصرت بطود سال كالوديان
فكأنني بيكون سفلد زمانه وكأنها من بنضها الافغاني

ما يأتي بعد ترجمة وجيزة لأورد بيكون سفلد الوزير الانكليزي الشهير :
« وأما الافغاني فهو السيد جمال الدين العالم الفيلسوف الشهير . نبغ في بلاد الافغان فتعلم فيها اللغة الفارسية والمعلوم الدينية والنطق وشيئاً من علم الاخلاق وكان ممن انتظموا في سلك الجندية فلما قام الخلاف عام ١٨٦٣ على امارة الافغان

من شير علي خان واخوته وأولاد اخوته انحاز جمال الدين الى أفضل خان
 (أو الى محمد أكبر خان) «*» وعدّ من مشاهير أنصاره بيدان الانكليز أخذوا
 أخيراً بناصر شير علي واعترفوا له بمهادنة تمت في أوائل سنة ١٨٧١ بأنه وليّ
 البلاد الشرعي فاختف سعي جمال الدين وفرّ ثمّت الى الهند وهناك أخذ عن
 علماء البراهمة والاسلام أجل العلوم الشرقية والتاريخ وتبعه في لغة (السانسكريت)
 ثمّ لغات الشرق وبرّز في علم الأديان حتى أفضى به ذلك الى الاتحاد والقول
 بتدسية العالم زاعماً ان الجراثيم الحيوية المنتشرة في الفضاء هي المكوّنة بتقوّر ونحوه
 طبيعين ما نراه من الاجرام التي تشغل الفلك وتبجاذبها الجوّ وان القول بوجود
 محرك أولي حكيم وهم نشأ عن ترقّي الانسان في تعظيم المعبود على حسب ترقّيه
 في المعنويات بمعنى انه عند ما كان همجياً صرفاً وساذجاً بحثاً كان يعبد خصائص
 للوجودات من مثل الخشب والحجر ولما ترقّى في معراجي المدنية والعالم رقى بالنسبة
 عينا معبوداته فصار يحترم النار فالسحاب فالافلاك فاجرامها وما يروح يندرج
 بحرّ في الخبرة ويستغني بمشكاة العلم وهو آخذ في سير طبيعي يرفع مكانة معبوده
 ويرقيه في مراتب السموّ حتى قال هو منزّه عن الكيف والسّم معصوم من البداية
 والنهاية . بعيد عن الحصر والاحاطة . مالى السّكل وفي السّكل يرى السّكل ولا
 يراه أحد غير ان مدارك الانسان ترقّت بعد ذلك الى حدّ أوصلها الى العلم بأن
 كلّ هذا ضروب أوهام ، وأضغاث أحلام ، نشأت في الاصل عن خوف الانسان
 من الموت وميله الى الخلود، ذلك ما جعله يلقي في الهواء صروحاً من الاماني وابراجاً
 من التعلّلات مما رسخ في مخيلته الى حدّ كاد يكون اعتقاداً فطلق يقول انه سينحول
 بعد هذا الموت الى حياة خالدة ونعيم مقيم وان الخشب أو الحجر هو الذي ينتهي
 به الى هذا المقام الاسمى اذا أداه احتراماً ، وأوسعه اكراماً، فانبعث في عبادته
 تخلصاً من مرارة التذكّر بمات لا تعقبه حياة . ثمّ عن له ان النار أكثر اقتداراً،
 وأجل نفعا واضراراً، قال عنه اليها، ثمّ رأى ان السحاب خير من النار وأقدر
 فنضوى اليه، وعول عليه، وما برحت تزداد حلقات تلك السلسلة المصوغة باداني

وهم وميل مرافقين لفريضة الانسان وفطرته حتى انتهى الى تلك الرتبة المتناهية علواً فصار من موجبات نواميس الاشياء رد الفعل المؤدي الى الجزم بان كل ذلك خزعات منشؤها الأمانى لاحقيقة لها ولا رسم

وليس اعتقاد المرء ما خط كفه كما ان حاي الكفر ليس بكافر (عود على بدء) وبعد ان أقام في الهند رذخاً جاء فروق عاصمة الدولة العليا فانصل بصدرها (أمين عالي باشا) وحظي لديه وما لبث هناك ان ألقن اللغة التركية ولما رغب اليه الصدر ان يخطب في دار الشورى ارتجل خطبة في الصناعات غالى فيها الى حد ان ادمج النبوة في عداد الصنائع المعنوية فشغب عليه طلبة العلم وشددت صحيفة الوقت عليه التنكير بما الجأ الصدر الى ابعاده فقصده مكة وجاور هناك عاماً وبعض عام أخذ في خلالها مبادئ اللسان العربي (كذا) ثم جاء مصر وكان قد سبق فعرف في الاستانة رياضها المشهور (وزير المعارف أو انشد) فأكرم مشواه اجلالاً له وانه انزله حجرة في الجامع الازهر (كذا) وعين له راتباً رايكاً مع وظيفة التدريس بعد ان محضه النصيح بان يلزم خطة الشرع الانور والدين الخفيف فلبث في الجامع حيناً من الدهر يفي فروض الصلاة ويواصل الانفال والاوراد ويواظب على قشف الصوم مستمسكاً بشمائل أهل السنة وكان قد آانس من بعض الطلبة فكراً نيراً وذهناً وقادراً فجعل معولم عليه ، ومصدرهم عنه وموردتهم اليه ، ثم لاح له ان يغادر الازهر فاتخذ له في حارة اليهود بيتاً مالبث ان صار منتدباً العلماء والادباء ، ومحط رحال الطلبة الاذكياء ، وكان من ديدنه ان يقطع يياض نهاره في داره حتى اذا جن الظلام خرج متوكئاً على عصاه الى ملهى قرب الازبكية يدعى (قهوة البوسطة) وجلس في صدر فئة تتألف حوله على هيئة نصف دائرة ينتظم في سمطها القوي والشاعر والمنطقي والطبيب والكيمائي والتاريخي والجغرافي والمهندس والطبيعي فيتسابقون الى إلقاء ادق المسائل عليه ، وبسط اعوص الاحاجي لديه ، فيحل عقد اشكالها فرداً فرداً ويفتح اغلاق طلاسمها ورموزها واحداً واحداً بلسان عربي مبين لا يبتلعهم ولا يتردد بل يتدفق كالسيل من قريحة لا تعرف الكلال فيدهش السامعين ،

يرفعهم السائلين ، ويبيكم المقترضين ، ولا يبرح هذا الشأن شأنه حتى يشتعل رأس القيل شديداً وترعى غزالة الصبح نرجس الظلم فيقفل الى داره بعد أن ينقد صاحب الملهي كلما يترب له في ذمة الداخلين في عداد ذلك المجمع الانيق .

وبعد ان ذهب المنشئ الكاتب أديب اسحق الى الاسكندرية قصد تمثيل الروايات تحت رئاسة الفاضل المغفور له سليم نقاش سنحت عوارض قضت بالفناء التمثيل فأصبح أديب خالي الوفاض ، بادي الانفاض ، فبث به المرحوم حنين الحوري الي القاهرة مصحوباً بكتاب وصاة الى جمال الدين فأحسن هذا لقيه لما توسه فيه من امارات الذكاء ومخايل النجابة ولزمه تمت ملازمة اللام للألف ، وأقبل عليه إقبال الهائم العاني الكلف ، فحصل له امتياز صحيفة اسمها (مصر) واتخذ له دكاناً يباب الشعرية هباً له فيها من أدوات الطبع بالحرف البولاقي المشهور ما قوي معه على اصدار تلك الصحيفة فكانت تود مودعة فصولاً وأمالى منسوجة يبراع جمال الدين ومنشورة باسم المزهري ابن وضاح أصارت لتلك الصحيفة شأناً مذكوراً ثم رأى ان ثغر الاسكندرية أقرب لاصطياد الاخبار فوفق بين أديب وسليم وأوعز اليهما بنقل الادارة اليها بعد ان مكثا من نوال امتياز آخر لصحيفة يومية دعيها (التجارة) ثم أوما الى كاتبه الشيخ محمد عبده و ابراهيم اللقاني ان يخرجا تينك الصحيفةتين قلداً وسعيًا ما استطاعا الى ذلك سبيلا وجعل باصلهما بشذرات من قله البديع ، وخطرات من فكره المزري بلا لآء الرقيع ، حتى كان سبب شهرتهما كما كانا بتعظيمهما له في النعوت والالاب من مثل (مبهط اسرار الحكمة وأسطرلاب فلك العلوم واسطس هبولى الفلسفة) الى غير ذلك مما اعتادا ان يصفاه به سبب نماء شهرته وانتشار صيته وله في صحيفة مصر مقالان احدهما في الحكومات الشرقية وأنواعها والثانية مماها (روح البيان في الانكليز والافغان) ترنمت لهما اعطاف أولي العلم طرباً ، ومالت اليهما اعناق الحكام السياسيين عجباً ، حتى ان (غلادستون) زعيم الحرية في انكلترا اثبت في بعض الصحف رسالة تشهد له انه من اعلام الشرق واعيان العلماء ، حالة كون الانكليز من أعدائه الالهاء ، ولما شخص المؤلف الى القاهرة

عام ١٨٧٨ تعرف به وانتفع بصحبته ولازمه حيناً من الدهر في أوقات اجتماعه وخلوته وكان ممن ساعدوه على الوصول الى الحدو (اسمعيل) والتمكن منه وشوقه الى الاندماج في سلك الاخباريين فقال امتياز صحيفة دعاها (مرآة الشرق) ومطبعة سماها (الاتحاد) وكان قد أمر زعيم تلامذته الشيخ محمد عبده ان يقرظ كتابه (كنز الناظم) فوصفه برسالة ضافية القيل نسج أكرها بقلم جمال الدين ونشرت في العدد ١٢٦ من صحيفة الاهرام فانه كان من خلقه الاخذ بناصر كل منتم الى العلم وشد أزركل ذي ميل للادب ومع انه كان كثير الانفة شديد الوطأة على الحكم يعاملهم بالمعجب والخيلاء، ويرنو اليهم بعين المقت والازدراء، تراه بالعكس كثير التعظيم والتكريم لاولياء العلم وانصاره مها كانوا خاملين قاصرين يبذل لهم لائس والدعة ويخفض جانب الرقة والدمائة ويؤامى محتاجهم ومحتاجهم بكلمة يقدريه عليه ، وتصل يده اليه ،

وفي خلال عام ١٨٧٨ زاد مركزه خطراً في البلاد وما مقامه لانه تداخل في السياسات وتولى رئاسة جمعية (الماسون) العربية وصار له أصدقاء وأولياء من أصحاب المناصب العالية من مثل محمود باشا البارودي (الذي فني أخيراً مع عرابي الى جزيرة سيلان) وعبد السلام بك المويلحي النائب المصري في دار الندوة وأخيه ابراهيم كاتب الضابطة وكثر سواد الذين يخدمون أفكاره ، ويملون بين الناس مناره ، من أرباب الاقلام من مثل الشيخ محمد عبده و ابراهيم الاقاني وعلي بك مظهر والشاعر الزرقاني وأبي الوفاء القوني في مصر ، وسليم نقاش وأديب اسحق وعبد الله نديم في الاسكندرية . ففتبرت ثم لمجته سيفه أحاديثه وأخذ يقرب منه العوام ويقول لهم اثناء مكالماته ما منناه : انكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد، وريتم بحجر الاستبداد، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين، وتعنون لوطأة الفزاة الظالمين، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور، وتنزل بكم الحسف والذل، وأنتم صابرون بل راضون ، وتنتزف قوام حياتكم ومواد غذائكم المجموعة بما يتحلب من عرق جباهكم بالمقرفة والسوط وأنتم في غفلة معرضون ، فلو كان في عروقكم

بجم فيه كريات حيوة وفي رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمة لما رضىتم
 بهذا الذل والمسكنة ولما صبرتم على هذه الضعة والخول ولما قعدتم على الرضاء
 وأنتم ضاحكون تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب
 (والا كراد والماليك ثم الفرنسيس والماليك والعلويين وكلهم يشق جلودكم بمبضع
 حديد ويبيض عظامكم بأداة عسفة، وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة لا حس لكم
 ولا صوت انظروا اهرام مصر وهياكل منفيس وآثار ثنية ومشاهد سيوة وحصون
 حياط شاهدة بمنمة آباءكم وعزة أجدادكم

وتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالرشيد فلاح
 هبوا من غفلاتكم، اصحوا من سكرتكم، انفضوا عنكم غبار الغباوة والخول، عيشوا
 كقبي الأمم احراراً سعداء، أو موتوا مأجورين شهداء، : الى غير ذلك مما من
 جاءه ان يحرك الماء فيجعله ناراً، ويشير نسيم الصبا فيفادها اعصاراً، فبدأت
 تنتشر حركة الخواطر في الديار المصرية وأخذ القوم يشكون من حكومتهم
 ضاللين، ويتناولون باعناقهم الى ما يقول مشراً بين، ومذ ذلك الحين طارت
 الشررة الأولى من شررات الثورة العرابية وكان المؤلف قد لمح الى هذا في
 بعض أعداد صحيفته (مرآة الشرق) بقوله في جملته الافتتاحية

أرى خلل الرماد وميض نار وأخشى أن يكون له ضرام
 قار بعض قادة الجند (على) بولسن ودبلنير الوزيرين الاجنبيين وأوسعوها
 جمر بآ وإهانة واجتمع في بيت الشيخ البكري ثم في بيت راغب باشا لفيف
 من اعيان البلاد وعمد الارياف وأجمعوا على تغيير الوزارة التوبارية ثم
 التوفيقية ثم زاد انتشار الخواطر الثورية وكسبت صحف الاخبار اهمية ما كان
 لها من نكسبها في اسمى البلاد مدنيةً وحينئذ رأى المؤلف ان المسلك وعراً
 وللوقف خطر، فقال الى الغاء التحرير بانني هي أحسن، والجروح في هذا الامر
 العسير لاني هي أقوم، فاعتزل الجريدة بعد ان أحال امتيازها الى رجل أصارها
 لمجوع اشارة الافغاني، فوكل بها كاتبه ابراهيم افغاني، فبدأ من العدد السادس
 عشر ايعاها مبادئ الثورة وأمالى الشكوى والتعريض وبعد حين تاب الافغاني

عن الأمة بسفارة الى الحديبو فذكرت ذلك (مرآة الشرق) بطنطنة عادت عليه بالربال * وعليها بالتمطيل والتكامل (السبب الظاهري لتمطيلها غير هذا واما المطلعون على الحقائق فيعلمون ان الباعث عليه اتمامها هو انها الى الافغاني) وكان قبل ذلك قطع في الاسكندرية بضعة ايام خطب في أثنائها بقاعة (زيزينيا) خطبة في النساء جمعت أوفداً من الفرنكات فوزعت بايمان منه على الفقراء ولم يمض زمن حتى انقلب دست (اسماعيل) وعلا أريكة الحديبية صاحب السموت الاميري (توفيق) وكان من الراجدين على جمال الدين فأخذ يحجس موامي أفعاله، ويرود مرامي أقواله، حتى علم انه ممن ينزعون الى ابدال الحكومة المقيدة بجمهورية شوروية فحدثه نفسه بتولي زعامتها فاغتناله بعض الشرطة وهو عائد عند بزوغ الفجر من مقامه الليلي المعلوم وكان قد ارفض عنه أصحابه فاستاقوه الى دار الضابطة وذهبوا به ثم الى محطة السكة حديداً أرسل من طريق الاسماعيلية الى (بروت سعيد) ولما رأى قنصل المعجم في ذلك الثغر (وكان ماسونياً) انهم مزعمون على بعثته بطريق جدة الى بلاد فارس مرض عليه مئة دينار برسم النفقة فأبى مع كونه لم يملك ساعتئذ درهماً وأما مكتبته فحجرت عليها الحكومة وضبطتها وأما خادمه (أبو تراب) الذي صار بمعاشرته اياه وملازمته له فيلسوفاً صغيراً حالة كونه أمياً كبيراً فسجن زمناً ثم أطلق مسراحه فأتى بيروت منذ عامين ولا علم لنا الآن اين مسراه وكيف مسراه . وكان روح الثورة قد امتد في القطر بحيث لم يكن اجلاء الافغاني الا ليزيده سرياناً وانتشاراً (من هنا فما بعد يعلم كل بما جريات الديار المصرية مما يخرج عن وظيفة كتابنا هذا الافاضة بتفصيلاته) ومنذ ذلك العهد احتجبت عن المؤلف اخباره حتى ظهرت في باريز صحيفة العروة الوثقى موسومة باسمه وموشاة بقلم دهقان رجاله الشيخ محمد عبده فعلم من منزعه انه عاود الاستمسك بالدين الخفيف وجنح الى نهج خطة جديدة تكسبه ميل العالم الاسلامي ورضاه عنه

وهو بالجملة والتفصيل آية من آيات القرن التاسع عشر ومعجزة من بدائع معجزاته ولو لم يكن طموحاً الى المال بافراط واعجال وعاجزاً عن كتمان مبداه

وغايته لرحب به الثاريخ وافرزله من اسفاره صفحات ثنرى * زينها برقم اعمال
 محيية تكون قدوة للآتين وذ كرى * وهو الآن دون الحسين من عمره أسمر
 اللون الى صفرة * مفلل الشعر أسوده * نحيف البنية * اهيف القامة * جذاب
 الملامح * خفيف العارضين * حاد البصر يكاد يتطابر الشرر من حدقنيه . يلبس
 السواد ويتزبى بزى العلماء * طلي الكلام ذرب اللسان * نصيح اللمجة *
 يلغ العبارة * مليح النكسة * سمح الكف * طاق الحيا * وقور السمات * محتجب
 النساء * يفظم نفسه عن الشهوات * يكره الخلو ويحب المر وقلم خات جيو به
 من خشب الكينا والراوند ينقل بهما تفكماً * يأكل الوجبة (حرة كل يوم)
 ولا يأكل الا منفرداً * يكثر من شرب الشاي والتبغ واذا تعاملى مسكراً قليلاً
 من (الكونياك) وليس له من التأليف المطبوعة سوى تاريخ الافغان * يكره
 الكتابة ويتناقل منها فاذا رام انشاء مقالة ألقى على كاتب من مثل ابراهيم افغاني
 لقاء قلما يراجعـه ويصلحه فيجيب من أول وهلة مسبوكاً مفرغ الماني بقوالب
 لفظ لا تنقص عنها ولا تزيد * فسبحان من خلقه بهذه الاطوار * وجهه بهذه
 الآثار * انه قال لما يريد ما كتبه سايديك المنحوري في شرح سحر هاروت
 وقد اطلم الاستاذ الامام على هذا الشرح أيام كان مقباً في بيروت واجتمع
 بالكاتب فأقنمه بأنه مخطى . فيما وصف به السيد من الإلحاد فادر الى تخطئة
 نفسه في الجرائد فكان بذلك مصيباً للفضيلة ، وظهرها للحقيقة ، وقد نشر الاستاذ
 الإمام ما كتبه المنحوري في آخر ترجمته للسيد التي نشرها في صدر ترجمة رسالة
 الرد على الدهريين قال :

« هذا مجمل من أحوال السيد جمال الدين الافغاني أتينا به دفماً لما اقترأه
 عليه الجاهلون ولو سلكتنا في تاريخه مسلك التفصيل ، لأدى بنا الى التطويل ،
 وانا تتبع هذا بما كتبو سليم افندي المنحوري تخطئة لنفسه فيما نقله في شرح
 سحر هاروت والمطلع على ما كتبناه ، يعلم خطاه في جل ما رواه »

« هذا ما نشره سليم أفندي المنجوري في جريدة لسان الحال والجنة بحروفه:
 « لا يخفى أننا كنا أتيناً في حاشية كتابنا (سحر هاروت) على شيء من ترجمة
 الحكيم الشرقي الفزير المادة السيد جمال الدين الأفغاني الطائر الصيت وأبناً في
 عرض قصصنا لمحة مما تلقيناه عن بعض المصريين والسوريين من سوء عقيدته
 ووهن دينه مما كان مدعاة أسفنا وباعث استغرابنا ثم أسعدنا البخت بأن التقينا
 هاته الأيام بصديقنا المجلي بحلة الفضل، الحائز قصب السبق في مضماري العقل
 والنقل، الشيخ محمد عبده نزيل بيروت وأعز أخلاء الحكيم المشار إليه فجال بيننا
 حديث أفصى إلى البحث بما يرويه عنه بعض الناس ورويناه نحن عنهم فأوضح
 لنا بدلائل ناهضة، وبراهين داحضة، أن ما تناقله الألسن من هذا القبيل ما كان
 إلا من آثار ما رماه به بعض من غمرتهم أياديهم فجازوه بالكثود يعني بهم قوماً
 كفرتوا تولفوا إليه فأغتر بيراقيش السنتهم ووطأ لهم جانب الأتس سالكاً في
 سبيل اسعادهم كل سبيل فلما دارت عليه الدوائر ونحوات الأحوال أخذوا
 يتسبحون بالتملذة عليه، وينسبون ما أشربوا من الكفر إليه، وبين لنا بأجلى أسلوب
 أن المباحث التي كان يدور بها لسانه أثناء مناظراته الجدلية في بيان عقائد
 الممطلين كان المراد منها اظهار حقائق النحل والبدع بمعزل عن الاعتقاد بها، والخروج
 إليها، بل مع تعقيها بالرد عليها، واقامة الحجج على بطلانها، ثم تأييداً لمقاله هذا
 وقفنا على رسالة منسوجة بقلم المشار إليه سواً بها أصحاب المبادئ المعطلة من أي
 فريق كانوا وبين قبح طريقهم بعبارة حنيف عريق بالاسلام ثبت منها هنا
 مبحثه في ضرورة اعتقاد الألوهية لسمادة الانسان

« قال بعد بيان وجوه زعموها كافي اصلاح النوع البشري ورد ما زعموا
 « فأذن لم يبق للشهوات قاعم، ولا للاهواء رادع، إلا الايمان بأن العالم صانعاً
 عالماً بمضمرات القلوب، ومطويات الانفس، سامي القدرة، واسع الحول والقوة، مع
 الاعتقاد بأنه قد قدر للخير والشر جزاء بوفاء مستحقته في حياة بعد هذه الحياة
 مرمدية » ثم قال « فلم يبق ريب في أن الدين هو السبب الفرد لسمادة الانسان
 فلو قام الدين على قواعد الامر الالهي الحق ولم يخالطه شيء من أباطيل من

يزعمونه ولا يعرفونه فلا ريب يكون سبباً في السعادة التامة والتعليم الكامل ويذهب بمعتقديه في جواد الكمال الصوري ، والمعنوي ويصعد بذوبه الى ذروة الفضل الظاهري والباطني ، ويرفع اعلام المدنية لطلابها بل يفيض على المتمدنين من ديم الكمال العقلي والنفسي ما يظفروهم بسعادة الدارين ﴿

ثم اني بعد هذا في مزايا الدين الاسلامي خصصت ما يطول بيانه وبعده من اطاع على تلك الرسالة هذا كله بعد ما قال في وصف الماديين ﴿ انهم كيفاً ظهروا ، وفي أي صوره تمثلوا ، وبين أي قوم نجموا ، كانوا صدمة شديدة على بناء قلوبهم ، وصاعقة محتاجة لثأر أمهم ، وصدعاً متفاقماً في بنية جيلهم ، يهتدون القلوب الحية بأقوالهم ، وينفتون السم في الارواح بأرائهم ويزعزعون راسخ النظام بمساعيهم ، فما رزئت بهم أمة ، ولا مني بشرم جيل الا انتكث فثله ، وتبددت آحاده ، وفقد قوام وجوده ، ﴿ ثم أطال في بيان ذلك الى حد لم يبق معه محل للرؤية في كمال اعتقاده وجلاء يقينه

« فأخذتنا لذلك خفة الطرب وسارعنا لا ذاعته بلسان الصحف شأن المؤرخ العادل وقياماً بحق الأدب وضاً بفضل هذا الرجل الخطير من ان تناله أسنة من لا يعرفه خطأ وافتراءً والله يتولى الصادقين » اه كلام المنحوري

(يقول محمد رشيد) ان الناس ولعوا منذ قرون كثيرة بأن يتهموا بالكفر ولا لحاد كل نابغ في العلوم العقلية بل كل مستقل في العلم لا يتبع الناس في جميع مآدرجوا عليه من التقليد الدينية ولذلك نهزوا بلأب الكفر أو الابتداع مثل ابن سينا وابن رشد من الفلاسفة وأبي الحسن الشاذلي ومحبي الدين بن العربي من الصوفية ومثل الغزالي ممن جمعوا بين الفلسفة والتصوف : وكذلك فعل النصاري قبل المسلمين فانباع هؤلاء منهم وسيأتي بيان ذلك في هذا الكتاب مفصلاً . من الناس من ينهم أمثال هؤلاء العقلاء متمردا للكذب والبهتان ومنهم من ينهم لسوء ظنه وقصور عقله وقد أشار الاستاذ الامام في ترجمة أستاذه السيد الحكيم الى ذلك وبه أقنع سليم بك المنحوري كما قرأت آنفاً . وقد ذكرني هذا درساً خاصاً ألقاه الاستاذ علي بعض النابغين من أساندة المدارس الأميرية وغيرهم في الدين هل هو فطري في البشر أم هو حاجة من حاجات الاجتماع تعرض لهم

فيمطّيعهم إياها الجواد الحكيم (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى)
ذكر الاستاذ الامام في بيان كون الدين بطبيعته أمراً فطرياً أن الشعور
بوجود إله ينصرف في الاكوان تصرفاً غيبياً فوق تصرف المخلوقات ، بما يكون
من إفضاء الاسباب الى المسببات ، قد عرف في جميع البشر من أدنى القبائل
الهمجية ، الى أرقى شعوب المدنية ، فهو شعور يستوي فيه الحفاة العراة في صحاري
أفريقية وجزائر المحيط وفلاسفة اليونان في الماضي وفلاسفة الافرنج الآن وقد
عرف في الفريقين عن قدماء الأمم كالمصريين والكلدانيين والهنود كما هو
معروف في هذا العصر . ومثل هذا الاتفاق بين الشرقي والغربي والشامي والجنوبي
في جميع الازمان من غير تواطؤ ولا تقليد ولا تلقين ولا تعليم لا يعقل الا أنه
فطري في البشر

فان قيل ان في الناس من لا يؤمن بالله ولا بالم الغيب كالمادين من الفلاسفة
ومقلديهم ولو كان ذلك الشعور فطرياً لكان عاماً ولم يعرف منه هؤلاء : فانا نقول
إن من لا يؤمن بسلطة غيبية غير خاضعة للأسباب المعروفة نادر جداً والقاعدة
لا تنقض بالنادر بل تبقى صحتها اثباتاً بالدليل ويبحث عن سبب شذوذ النادر
كما يبحث الماديون وغيرهم من علماء الكون عن أسباب الشذوذ الذي يعبرون عنه
بفئات الطبيعة ولا يمدون هذه الفئات دليلاً على بطلان الدين والنواميس العامة
في الكون . (قال) فالحقيقة ان الاحاد مرض من الامراض الاجتماعية

ثم تكلم في مسألة ترقى الشعور الديني في البشر بحسب ارتقائهم الاجتماعي
وهي المسألة التي يمدّها الملحّدون من علماء الاجتماع أقوى الشبهات على الدين
وهي التي ذكر الضحوري ان السيد جمال الدين كان يحتاج بها على
كون الدين أمراً وضعياً وهمياً رقاء الانسان بحسب معارفه حتى بين له الاستاذ
خطأه كما تقدم . وما قاله الاستاذ في الدرس يوشك ان يكون قد سمع هو وغيره
مثله من السيد ففهم هو مالم يفهمه أولئك الذين حرفوا الكلام عن مواضع جهلا
وغباوة أو كذباً وبهتاناً

بين الاستاذ رحمه الله تعالى ان البشر في طور الهمجية كانوا يذهبون سيفه

ذلك الشعور الفطري بأساس الدين مذاهب الوهم فكما أشكل عليهم فهم شيء من أسرار الخليفة توهموا أنه هو صاحب تلك السلطة الغيبية العالية التي كانوا يشعرون بوجودها فعظموه لهذا التوهم فكان ذلك عبادة له لأن العبادة هي تعظيم ينشأ عن الاعتقاد بالسلطة الغيبية التي هي وراء الاسباب لا معنى لها الا هذا

رأى بعضهم الثعبان الصغير يبيت الانسان أو نحو الثور والجل من غير أن يذبحه أو يذيق عنته أو يهشم رأسه وذلك ما لم يكونوا يهدونه ولا يفهمون سببه فعبدوه وعلى هذا النحو عبدوا كثيرا من الحيوانات ثم وضعوا لها التماثيل فكانت موضوع عبادتهم . ولما ارتقوا عن هذه المرتبة عبدوا السحاب والكواكب وهكذا كانوا يحضرون شعورهم بالاعتقاد بالخالق وعالم الغيب بما اتصل اليه عتولهم حتى استعدوا بالارتقاء الى فهم الحقيقة وهي أن كل ما في الكون ما عرف سببه وما لم يعرف مخلوق خاضع للسنن العامة في الاسباب والمسببات وأن الخالق الواضح لهذه السنن لا يعمل في شيء من هذه المخلوقات ولا يتقيد به . حينئذ بعث الله فيهم النبيين مبشرين ومنذرين ، فكانوا هم المبينين لحقيقة الدين ،

(يقول محمد رشيد) هذا ملخص ما علق بنهني من ذلك الدرس ومن أراد كمال البيان فيه فليرجع الى ما كتبه رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) الآية عند بيانه فيه لقول أبي مسلم الأصفهاني والقاضي أبي بكر (ص ٦٠ م ٨ من المنار . ص ٢٩٤ و١٠١ بعدها من الجزء الثاني من التفسير) فهذا ما رآه في منشأ وهم الواهم في عقيدة السيد جمال الدين من غير الكذبة المعتبرين

وأما ما ذكره المنحوري من عاداته في أكله وشربه ففيه الخطأ والصواب فقد كان يأكل الوجبة ، واكتنه لم يكن يأكل وحده ، وقد كان يكثر من شرب الشاي ، ولم نسمع حتى من أعدائه أنه كان يشرب المسكرات ، فإن لم يكن ما قيل من شربه انليل من الكونياك فريه ، فيحتمل أن يكون له شبهة ، كان يكون رآه الناقل يشرب شيئا يشبه الكونياك أو يكون شرب ذلك القليل تداويا فظنه الناظر عادة . وهذه الشبهات كثيرة وقع لي منها ما ظن به من لا يعرفني الا بالسماع انني أفطر في رمضان متعمدا .

ذلك أن ابراهيم بك الهلباوي كتب في المؤيد مقالة ضرب فيها المثل برجل كان في ادارة المؤيد يكلم صاحب المنار ويمدح الدين ويذكر فوائده وهو يدخن بسيكارته في نهار رمضان . فظن كثير ممن قرأ تلك المقالة ان الذي كان يدخن وقت الحديث هو صاحب المنار وتمجبوا من ذلك وتكلموا فيه فكان من يسمعه من العارفين بهذا النقيير يقول لهم ان صاحب المنار لم يتعود التدخين ويكرهه وربما يحرمه لاعتقاده بضرره :

على ان القصة ليست كما رواها الكاتب فان ذلك الذي كان يمدح الدين - إنما كان يمدحه في معرض مدح المنار وفوائده - لم يكن يدخن في أثناء الحديث ولكنني تركته وخرجت لحاجة ثم عدت فاذا به يدخن ويشرب القهوة !!



تتمت الترجمة

علم أن السيد جمال الدين ذهب بعد إنشاء العروة الوثقى في باريس والسعي في المسألة المصرية ذهب الى روسيا . وتقول إنه أقام في بطرسبرج عاصمتها أربع سنين كان فيها موضعاً لا كرام القيصر وكان يماخدم به المسلمين هناك إقناع القيصر بحسن معاملة المسلمين والاذن لهم بطبع المصحف الشريف وبعض الكتب الدينية فأذن بذلك وقد نشرت جريدة الفلاح التي كانت تصدر في القاهرة مقالة في هذا الموضوع وينا هو في بطرسبرج زارها شاه ايران ناصر الدين وأظهر هناك رغبته في لقاء السيد فبلغ السيد ذلك فلم يحفل به ولم يزر الشاه . ثم سافر السيد الى مونيخ من بلاد ألمانيا فوافاها الشاه وهو فيها وهناك التقيا

ذكر السيد ذلك في بعض مجالسه في الاسطوانة وقال « إن بعض الكبراء من الألمان وغيرهم جهموني به فرغب اليّ أن أذهب معه الى بلاده ليجعلني رئيس

وزرائه فأبيت وقلت انني عزميت على الذهاب الى معرض باريس ولا أحب أن
أقض عزمي فألح عليّ أشد الإلحاح حتى ألزمني بالذهاب معه . وكان يقول
عني : هذا رجل العالم السياسي الحربي الجدير بأن يكون رئيس وزارة ويقوم
بتدبير الشعب : فقال له بعض الحاضرين - وهو الشيخ عبدالقادر المغربي الذي
كتب حديثه وأرسله اليّ من الاسنانة يومئذ - كيف يدعوك الى ذلك وأنت
مشهور بشدة رغبتك في تشييد عقائد أهل السنة ؟ فقال جنون وهوس منه : وبعد
أن مكثت مدة في بلاده طلبت الذهاب الى أوروبا (كذا) كان يعرف الكلمة وأمثالها
في كلامه) فنغني وسمعت عنه كلاماً خشناً في حق وآراء رديئة مآلها الحجر عليّ
في البلاد الايرانية . فأعملت الحيلة وذهبت الى مقام عبد العظيم وهو من أحفاد
بعض الأئمة ومقامه حرم من دخله كان آمناً فكثت هناك سبعة اشهر كتبت في
أثنائها عدة مقالات وحررت في الجرائد جملة كتابات (كذا) في باب الشاه
الذي كور وحث الشعب على خلعهم ثم خرجت من هناك :

ثم ذكر بحبيشه الى لوندرد وطعنه هناك في الشاه الى أن طلبه السلطان عبدالحميد
الى الاسنانة وكله في الكف عن الطعن في الشاه . قال : أخبرني أفندينا أن سفير
المعجم قصده ثلاث مرات قال فحجبتني في المرتين الأولىين ثم أذنت له فطلب مني
أن أمرك بالكف عن التعرض للشاه بسوء فأنا الآن أطلب منك الإعراض
عن شاه المعجم : فقلت حينئذ : امثالاً لأمر خليفة مصر قد عفوت شاه
المعجم قد عفوت شاه المعجم (كذا قالها بتعديدية عفوت بنفسه) فقال مولانا أمير
المؤمنين حينئذ : بحق أن يخاف منك شاه المعجم خوفاً عظيماً :

قال الكاتب : وذكر أنه حمل بعض علماء المعجم على الافناء بجرمة الدخان
(التنباك) فخرمه ومنع العامة عن شربه فأطاعوه وشغبوا على الشاه وقصدوا داره
لإهلاكه أو بطل المفاولة الجديدة التي عقدها مع الافرنج لاجل حصر الدخان
فاضطرا الشاه الى ذلك ورفع غرامة لأصحاب المفاولة قدرها نصف مليون ليرة انكليزية :

(يقول المؤلف محمد رشيد) قد اطلمت على صورة مطبوعة على حديثها من
الكتاب الذي أرسله الى رئيس المجتهدين في ذلك الوقت وهذا نصه :

مكتوب من البصرة الى السامرة

بسم الله الرحمن الرحيم

حقاً أقول : ان هذا الكتاب خطاب الى روح الشريعة المحمدية أينما وجدت ،
وحيثما حلت ، وضراعة تعرضها الأمة على نفوس زاكية تحققت بها وقامت بواجب
شؤونها كيفما نشأت ، وفي أي قطر نبغت ، الا وهم العلماء فاحبيت عرضه على الكل
وان كان عنوانه خاصاً ،

حبر الأمة ، وبارقة أنوار الأئمة ، دعامة عرش الدين ، واللسان الناطق
عن الشرع المبين ، جناب الحاج الميرزا محمد حسن الشيرازي صان الله به حوزة
الاسلام ، ورد كبد الزنادقة اللثام ،

لقد خصك الله بالنبابة العظمى ، عن الحجة الكبرى ، واختارك من العصاة
الحقة ، وجعل بيدك أزمة سياسة الأمة بالشرعية الغراء ، وحراسة حقوقها بها ،
وصيانة قلوبها عن الزيغ والارتباب فيها ، وأحال اليك من بين الأنام (وانت
وارث الانبياء) مهام أمور تسعد بها الملة في دارها الدنيا ، وتحظى بالعقبى ، ووضع
لك أريكة الرئاسة العامة على الافئدة والنهى ، اقامة لدعامة العدل وانارة لمحجة
الهدى ، وكتب عليك بما أولاك من السيادة على خلقه حفظ الحوزة والذود عنها
والشهادة دونها على سنن من مضى ،

وان الأمة قاصيها ودانيها ، وحاضرها وباديتها ، ووضعها وعليها ، قد
أذعنت لك بهذه الرئاسة السامية الربانية ، جائية على الركب ، خاتمة على الاذقان ،
تطمح نفوسها اليك في كل حادثة تمرورها ، تطل بصآرها عليك في كل مصيبة
تمسها ، وهي ترى ان خيرها وسعدها منك ، وان فوزها ونجاتها بك ، وان
أمنها وأمانيتها فيك ،

فاذا امح منك غض طرف ، أو نيت (١) بجاذبك لحظة ، وأمهلتها وشأنها لحظة ،
لرئيت أفئدتها ، واخثلت مشاعرها ، وانتكشت عقائدها ، وانهدمت دعائم إيمانها ،
فهم لا برهان للعامة فيما دانوا ، الا استفامة الخاصة فيما أمروا ، فان وهن هؤلاء
في فريضة ، أو قعد بهم الضعف عن اقامة منكر ، لا عتور أولئك الظنون والاهام ،
ونكص كل على عقبه مارقا من الدين اتقويم ، حائدا عن الصراط المستقيم ،
وامد هذا وذلك وذلك أقول ان الأمة الإيرانية بما دهمها من عراقيل
الحوادث التي آذنت باستيلاء الضلال على بيت الدين ، وتناول الأجانب على
حقوق المسلمين ، ووجرم الحجة الحق (اياك أعني) عن القيام بنصرها وهو
حامل الامانة ، والمسؤول عنها يوم القيامة ، قد طارت نفوسها شعاعا ، وطاشت
عقولها ، ونهات أفكارها ووقفت موقف الحيرة (وهي بين انكار واذعان
وحجود وايقان) لانهتدي سبيلها وهامت في بيداء المواجهات في عممة الوسواس ،
ضالة عن رشدها لا تجد اليه دايلا ، وأخذ القنوط بعجام قلوبها ، وسد دونها
أبواب رجائها ، وكادت ان تختار اياسا منها الضلالة على الهدى ، وتعرض عن محجة
الحق وتتبع الهوى ، وان آحاد الأمة لا يزالون يتسألون شاحصة أبصارهم عن
أسباب قضت على حجة الاسلام (اياك أعني) بالسبات والسكوت ، وحتم عليه
ان يطوي الكشح عن إقامة الدين على أساطينة ، واضطره الى ترك الشريعة
وأهلها ، الى أيدي زنادقة يلعبون بها كيفما يريدون ، وبمحكون فيها بما يشاؤون ،
حتى ان جماعة من الضملاء زعموا أن قد كذبوا وظنوا في الحجة ظن السوء ،
وحسبوا الامر أحبولة الماذق ، وأسطورة المذق ، وذلك لانها ترى (وهو الواقع)
ان لك الكلمة الجامعة ، والحجة الساطعة ، وان أمرك في الكل نافذ ، وليس
لحككم في الامة منابذ ، وانك لو أردت تجمع آحاد الامة بكلمة منك (وهي كلمة
تنبثق من كيان الحق الى صدور أهل) فترهب بها عدوا لله وعدوهم ، وتكف
عنهم شر الزنادقة ، وتزيح ماحاق بهم من العنت والشقاء ، وتنشاهم من ضنك

(١) كذا في الاصل واليت هو التمايل من ضعف وفعله ككالم يكبل

العيش الى ما هو أرغد وأهنى ، فيصير الدين بأهله منيعا عزيزا ، والاسلام بحجته رفيع المقام عزيزا ،

هذا هو الحق . انك رأس العصاة الحققة (١) ، وانك الروح الساري في أحاد الأمة ، فلا يقوم لهم قائم الا بك ، ولا تجتمع كلهم الا عليك ، ولوقت بالحق نهضوا جميعا ولهم الكلمة العليا ، ولوقدت ثبطوا ، وصارت كلمتهم هي السفلى ، ولربما كان هذا السير والدوران حينما غض حبر الأمة طرفه عن شؤونهم ، وتركهم هملا بلا راع ، وهمجا بلا رادع ولا داع ، يقسم لهم عذرا فيما ارتابوا . خصوصا لما رأوا أن حجة الاسلام قدوفى فيما أطبقت الأمة خاصتها وعامتها على وجوبه ، وأجمت على حظر الاتقاء فيه (٢) خشية اقوبه ، الا وهو حفظ حوزة الاسلام الذى به يد الصيت وحسن الذكر والشرف الدائم والسعادة التامة . ومن يكون أليق بهذه وأحرى بها من اصطفاة الله في القرن الرابع عشر ، وجعله برهانا للدين ، وحجة على البشر ، أيها الخبر الأعظم ، ان الملك قد وهنت مريته ، فسأت سيرته ، وضغفت مشاعره

فقبحت مريته ، وعجز عن سياسة البلاد ، وادارة مصالح العباد ، فجعل زمام الامور كليها وجزئها بيد زنديق أثيم ، غشوم ثم بعد ذلك زعيم . . يسب الانبياء في المحاضر جبرا ، ولا يذعن لشرعية الله أمرا ، ولا يرى لرؤساء الدين وقرا ، يشتم العلماء ، ويقذف الاتقياء ، ويهين السادة الكرام ، ويمامل الوعاظ معاملة اللئام ، وأنه بعد رجوعه من البلاد الاخرى قد خلم العذار ، وتجاهر بشرب المقار ، وموالة الكفار ، ومعاودة الأبرار ، هذه هي أفعاله الخاصة في هذه . . ثم انه باع الجزء الأعظم من البلاد الابراية ومنافعها لأعداء الدين . المهادن ، والسبل الموصلة اليها ، والطرق الجامعة بينها وبين تخوم البلاد ، والخانات التي تبنى على جوانب تلك المسالك الشاسعة التي تتشعب الى جميع ارجاء المملكة وما يحيط بها من البساتين والحقول . . نهر الكارون والفنادق التي تنشأ على ضفتيه الى المتبع وما يستتبعها من الجنائن والمروج . . والجادة من الاهواز الى طهران وما على أطرافها من العمارات والفنادق والبساتين والحقول . . والتبائك وما يقبعه من

(١) الحققة الثابتة القوية والمراد طائفة العلماء لاسيما المجتهدين منهم (٢) الاتقاء التقية

المراكز ومحلات الحرث وبيوت المستحفظين والحاملين والبائعين أي وجد وحيث
نبت ، وحكر العنب للخمر وما تنال منه من الحوانيت والمعامل والمصانع في جميع
أقطار البلاد ، والصابون والشمع والسكر ولوازمها من المعامل ، والبنك وما أدراك
مال البنك هو إعطاء زمام الأهالي كلية بيد عدو الاسلام واسترقاقه لهم واستملاكه
أيامهم وتسليمهم له بالرئاسة والسلطان ،

ثم ان الخائن البليد أراد أن يرضي العامة بواحي برهانه فحقيق قائل ان هذه
معاهدات زمانية ، ومقاولات وقتية ، لا تطول مدتها أزيد من مائة سنة !! يا لله من
هذا البرهان القوي سوله خرق الخائنين ، وعرض الجزء الباقي على الدولة الروسية حقاً
لسكونها (لو سكنت) مرداب رشت وأنهر الطبرستان والجادة من أنزل الى
الحراسان وما يتعلق بهما من الدور والقنادق والحقول . . . ولكن الدولة الروسية شجعت
بأنفها وأعرضت عن قبول تلك الهدية ، وهي عازمة على استملاك الحراسان
والاستيلاء على الأذربيجان والمازندران ان لم تنحل هذه المعاهدات ولم تنسخ
هذه المقاولات القاضية على تسليم المملكة تماماً بيد ذاك العدو اللد ، هذه هي
النتيجة الاولى لسياسة هذا الآخرق ،

وبالجملة ان هذا المجرم قد عرض اقطاع البلاد الايرانية على الدول يبيع المزايد ،
واته يبيع ممالك الاسلام ودور محمد وآله عليهم الصلاة والسلام للأجانب ولكنه
لحسة طبعه ودنائة فطرته لا يبيعهما الا بقيمة زهيدة ودرهم معدودة (نعم هكذا
يكون اذا امتزجت اللثامة والشره بالحيانة والسفه)

وانك أيها الحجة ان لم تقم بناصر هذه الأمة ولم تجمع كلمتها ولم تنزعها بقوة
الشرع من يد هذا الأثيم لاصبحت حوزة الاسلام تحت سلطة الأجانب (يحكمون)
فيها بما يشاؤون ويفعلون ما يريدون) ، واذا فانتك هذه الفرصة أيها الجبر ووقع
الامروأت حي لا أبقيت ذكر جميل بعدك في صحيفة العالم وأوراق التواريخ...
وأنت تعلم أن علماء ايران كافة والعامة بأجمعهم ينتظرون منك (وقد خرجت
سدورهم وضائق قلوبهم) كلمة واحدة ويرون سعادتهم بها ونجاتهم فيها...
ومن خصه الله بقوة كهذه كيف يسوغ له أن يفرط فيها ويتركها سدى ،

ثم أقول للحجة قول خبير بصير ان الدولة العثمانية لتبجح بنهضتك على هذا الامر وتساعدك عليها لانها تعلم أن مداخلة الافرنج في الاقطار الايرانية والاسديلاء عليها تجلب الضرر الى بلادها لا محالة ، وان وزراء الايران وأمراءها كلهم يتهجون بكلمة تنبص بها في هذا الشأن لانهم بأجمعهم بما فون هذه المستحدثات طبعاً ، ويسخطون من هذه المقاولات جبلة ، ويجدون بنهضتك مجالا لا بطلها ، وفرصة الكف شر الشره الذي رضي بها وقضى عليها ،

ثم ان العلماء وان كان كل صدع بالحق وجبه هذا الاخرق الخائن بسوء أعماله ولكن ردهم للزور وزجرهم عن الحيانة ونهرم المجرمين ما قرت كسلالة المدات قرارا ، ولا جمعتهما وحدة المقصد في زمان واحد ،

وهؤلاء لثماثلهم في مدارج العلوم وتشاكلهم في الرئاسة وتساوهم في الرتب غالباً عند العامة لا ينجذب بعضهم الى بعض ولا يصبر أحد منهم لصفاً للآخر ولا يقع بينهم تأثير الجذب وتأثير الانجذاب حتى تتحقق هيئة وحدانية وقوة جامعة يمكن بها دفع الشر وصيانة الحوزة . كل يدور على محوره ، وكل يردع الزور وهو في مركزه ، (هذا هو سبب الضعف عن المقاومة وهذا هو سبب قوة المنكر والبغي) . وأنت وحدك أيها الحجة بما أوتيت من الدرجة السامية والمزلة الرفيعة علة فعالة في نفوسهم ، وقوة جامعة لقلوبهم ، وبك تنضم القوى المنفرقة الشاردة ، وتلثم القدر المتشتتة الشاذة ، وان كلمة منك تأتي بوحدانية ثامة يحق لها أن تدفع الشر المحرق بالبلاد . وتحفظ حوزة الدين وتصون بيضة الاسلام فالكل منك وبك واليك . . . وأنت المسؤول عن الكل عند الله وعند الناس

ثم أقول ان العلماء والصلحاء في دفاعهم فرادى عن الدين وحوزته قد قاسوا من ذاك العتل شدائد ماسبق منذ قرون لها مثيل ، ونحملوا لصيانة بلاد المسلمين عن الضياع وحفظ حقوقهم عن التلف كل هوان وكل صغار وكل فضيحة .

ولا شك أن حبر الامة قد سمع ما فعله أدلاء الكفر وأعوان الشرك بالعالم الفاضل الصالح الواعظ الحاج الملا فيض الله الدر بندي وستسمع قريباً ما صنعته الجفأة الطغاة بالعالم المجتهد النقي البار الحاج السيد علي أكبر الشيرازي وسخط

علما بما فعله بحماية الملة والامة من قتل وضرب وكيّ وحبس . ومن جملتهم الشاب الصالح الميرزا محمد رضا الكرهاني الذي قتله ذلك المرتد في الحبس والفاضل الكامل البار حاج سياح والفاضل الاديب الميرزا فروغي والاريب النجيب الميرزا محمد علي خان والفاضل المتقن اعتماد السلطنة وغيرهم .

وأما قصتي ، وما فعله ذلك الكنود الظلوم معي ، فما يفتت أكباد أهل الإيمان ، ويقطع قلوب ذوي الايقان ، ويتضي بالدهشة على أهل الكفر وعباد الاوثان ، إن ذلك اللئيم أمر بسحبي وأنا متحصن بحضرة عبد العظيم عليه السلام في شدة المرض على الثلج الى دار الحكومة بهوان وصفار وفضيحة لا يمكن أن ينصور دونها في الشناعة (هذا كله بعد النهب والغارة) « ان الله وانا اليه راجعون »

ثم حلاني زبانيته الاوغاد وأنا مريض على برذون مسلسلاني فصل الشتاء وتراكم الثلج والرياح الزمهريرية وساقطني جحفة من الفرسان الى خانقين وصحبني جمع من الشرط ... ولقد كاتب الوالي من قبل والنفس منه أن يبعثني الى البصرة علما منه أنه لو تركني ونفسي لا تترك أبها الخبر وثبت لك شأنه وشأن الامة وشرحت لك ما حاق ببلاد الاسلام من شر هذا الزنديق ، ودعوتك أبها الحجة الى عون الدين ، وحملتك على إغاثة المسلمين ، ... وكان على يقين أنني لو اجتمعت بك لا يمكنه ان يبق على دست وزارته المؤسسة على خراب البلاد ، وهلاك العباد ، واعلاء كلمة الكفر وبما زاده لوءاً على لوءه ودناة على دنائه أنه دفعا لثورة العامة ونسكيناً لهياج الناس نسب تلك العصاة التي ساقها غيره الدين وحية الوطن الى المدافعة عن حوزة الاسلام وحقوق الاهالي (بقدر الطاقة والامكان) الى الطائفة البابية . . كما أشاع بين الناس أولاً (قطع الله لسانه) أنني كنت غير مختون (وإسلاماه) ما هذا الضعف ؟ ما هذا الوهن ؟ كيف أمكن أن صلوا كأدني النسب ، ووغدا خسيس الحسب ، قدران يبيع المسلمين وبلادهم بثمان بنحس حوام معدودة ويزدري بالمال . وبهين السلالة المصطفوية ويهت السادة المرتضوية للبيتان العظيم ، ولا يد قدرة تساهل هذا الجذر الخبيث شفاء انيظ المؤمنين ، وانقهما لآل سيد المرسلين ، عليه وآله الصلاة والسلام .

ثم لما رأيت نفسى بعيداً عن تلك الحضرة العالمة أمسكت عن بث الشكوى
ولما قدم العالم المجتهد القدوة الحاج السيد علي أكبر الى البصرة طالب مني ان اكتب
الى الخبر الاعظم كتاباً أثبت فيه هذه الفوائد والحوادث والكوارث فبادرت اليه
امثالاً، وعلمت أن الله تعالى سيحدث بيدك أمراً، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته
السيد الحسيني

.....

(يقول محمد رشيد) إن هذا الكتاب نفخ روح الحماسة والغيرة في ذلك
العالم العظيم صاحب النفوذ الروحي في الامة الفارسية فأفنى بحرمة استعمال التذات
وزراعته واذاغ العلماء فتواه بسرعة البرق فخضعت لها أعناق الامة حتى قيل
ان الشاه طلب في صبيحة يوم بعد وصول الفتوى الى طهران النارجيله (الشيشة)
فقيل له انه ليس في القصر تذات لاننا ائلفناه فسأل عن السبب مبهوتا فقيل له:
فتوى حجة الاسلام : فقال لم لم نستأذوني ؟ قبل انها مسألة دينية لا حاجة فيها
الى الاستئذان !! واضطر بعد ذلك الى ترضية الشركة الانكليزية على أن تأخذ
نصف مليون جنيه وتبطل الامتياز . وبهذا انقذ السيد جمال الدين بلاد ايران من
احتلال الانكليز لها بابطال مقدمته وهو ذلك الامتياز أو الامتيازات التي قرأت
شرحها في كتابه فمكذا تكون الرجال وهكذا تكون العلماء .

هكذا هكذا او الا فلا لا ليس كل الرجال تدعي رجالا

وقد ظهر الآن تأثير نفوذ طائفة العلماء في بلاد فارس أمم الظهور بما كان قلب نظام
الحكومة ويؤهلها عن الاستبداد المطلق الى الشورى . ولعل تلك الحادثة هي
المنبه للاول لعلماء الى ان الامر في ايديهم . فالسيد جمال الدين علي هذا هو
العامل الاول في هذا الانقلاب كما أنه سبب الانقلاب الذي حدث في مصر فان
عمل جمعيته كان اول سعي في مقاومة سلطة اسماعيل باشا وتقويضها وفي نفخ روح
الاصلاح في توفيق باشا حتى واثق العيود وخصته بأنه اذا آل الامر اليه ليؤمن
مجلس نواب وليعلمان وليعلمان . ولكن تداخل الجند في السياسة أفسد العمل بعد ذلك
ولم يكن نجاح العلماء بسعيه وارشاده في ابطال تداخل الاجانب في بلاد

فارس هو المنبه وحده لكون ساطة العلماء والامة فوق سلطة الملوك بل كان تمام
 التنبية قتل الشاه بعد ذلك وما قبل من ان قتله من اتباع السيد جمال الدين
 لم يكتف السيد بنحريض كبير المهتمدين وصائر العلماء على الشاه ووزيره
 ولا بنجاحه في نديهم له بل ذهب من البصرة الى أوروبا وطاف بطعن فيهما بالقول
 والكتابة وقد أسس هناك مجلة شهرية تصدر باللغتين العربية والانكليزية باسم
 (ضياء الخافقين) أو سعي في تأسيسها وكان يكتب في كل عدد منها مقالة في أحوال
 فارس بتوقيعه المعروف (السيد) أو (السيد الحسيني) وكان الكلام في هر من أهم مباحثها
 وقد فضح في مقالاته عن بلاد فارس حكومتها وشاهها شر فضيحة حتى جاءه
 سفير المعجم في لندره يستميله ويسترضيه ليكشف عن الكلام والكتابة في ذلك
 وعرض عليه مالا كثيرا فقال له السيد « لا أرضى الا أن يقتل الشاه ويقر
 بطله ويوضع في القبر » فكان هذا القول من الشبه على كون القاتل له من اتباع
 السيد . وانا نورد هنا بعض ما كتبه في ضياء الخافقين عن بلاد فارس تخليدا
 له في التاريخ . وماك ما كتبه في المدد اثنا في تحريرا للعلماء على خلع الشاه والقيام
 بشؤون الامة . وهذا المدد صدر في أول مارس (آذار) سنة ١٨٩٢

مجلة بلاد فارس

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

حملة القرآن ، وحفظة الايمان ، ظهراء الدين المتين ، ونصراء الشرع المبين ،
 جنود الله الغالبة في العالم ، وحججه الدامغة لضلال الأمم ، جناب الحاج الميرزا
 محمد حسن الشيرازي . وجناب الحاج الميرزا حبيب الله الرشتي ، وجناب الحاج
 الميرزا أبي القاسم الكركلائي ، وجناب الحاج الميرزا جواد الاقال تبريزي ، وجناب
 الحاج السيد علي اكبر الشيرازي ، وجناب الحاج الشيخ هادي النجم آبادي ،
 وجناب الميرزا حسن الاشناني . وجناب السيد الطاهر الزكي صدر العلماء .
 وجناب الحاج آقا محسن العراقي ، وجناب الحاج الشيخ محمد تقي الاصفهاني ،

وجناب الحاج الملا محمد نقي البجنوردي . وسائر هداة الأمة . ونواب الأمة .
من الاحبار العظام ، والعلماء الكرام ، أعز الله بهم الاسلام والمسلمين ، وأرغم
آتوف الزنادقة المتجبرين ، آمين

طالما تاق الامم الافرنجية الى الاستيلاء على البلاد الابرازية حرصا منها
وشرها . ولكم سولت لها امانها خدعا تمكنها من الولوج في ارجائها ونمهد فيها
سلطانها على غرة من اهلها تحاشيا من المفارعة التي تورث الضغائن فتبعث النفوس
على الثورة كلما سنحت لها الفرص وقضت بها الفترات . واكنها علمت ان بلوغ
الارب والعلماء في عز سلطانهم ضرب من المحال لان اقلوب تهوي اليهم طرا ،
والناس جميعا طوع يدهم يأتمرون كيفما أمروا ، ويقومون حيثما قاموا ، لا مرد
لقضائهم ، ولا دافع لحكمهم ، وانهم لا يزالون يدأبون في حفظ حوزة الاسلام
لا تأخذهم فيه غفلة ، ولا تعروم غره ، ولا تميد بهم شهوه ، فخنست وهي تبرص
بهم الدوائر ، وتترقب الحوادث ، ايم الله أنها قد اصاب فيمارأت ، لان العامة
لولا العلماء وعظيم مكانتهم في النفوس لانجأت بطيب النفس الى الكفر واستنظلت
بلوائه خلاصا من هذه الدول الذليلة الجائرة الخرقى التي قد عدت القوة ، وفقدت
النصفه ، وانفت المجاملة ، فلا حازت منها شرفا ، ولا صانت بها لنفسها حقا ، ولا
انشرح منها صدرها فرحا .

ولقد كلما ضعفت قوة العلماء في دولة من الدول الاسلامية وثبت عليها طائفة
من الافرنج ومحت اسمها ، وطمست رسمها ،
إن سلاطين الهند وأمراء ما وراء النهر جدت في إذلال علماء الدين فعاد
الوبال عليهم سنة الله في خلقه وان الافغانيين ماصانوا ببلادهم عن أطماع
الأجانب وما دفعوا هجمات الانكليز مرة بعد أخرى الا بقوة العلماء وقد
كانت في نصابها *

ولما تولى هذا الشاه (الحاربه (١) الطاغية) الملك طفق يستأب حقوق العلماء
تدريجيا ويخفض شأنهم ويقال نفوذ كامنهم حبا بالاسبئداد ياطل أوامره ونواهي،

(١) هي الحية كبرت فصغرت حتى بقي رأسها فيه سمه وانفسه وهي أخبت الافاعي

وحرصاً على توسيع دائرة ظلمه وجوره ، فطرد جماعاً من البلاد يهواناً ، ونهته فرقة
عن إقامة الشرع بصغار ، وجلب طائفة من أوطانها الى دار الجور والحرق (طهران)
وقهرها على الإقامة فيها بذل فخلاله الجو فقهر العباد وأباد البلاد وتقلب في
أطوار الفظائع وتجاهر بأنواع الشنائع وصرف في أهوائه الدنية وملاذه البهيمية
مامصه من دماء الفقراء والمساكين عصراً ونزع من دموع الأراذل والأيتام
قهرًا (بالاسلام)

فاذا اشتد جنونه بجميع فنونه فاستوزر وغداً خسيساً ليس له دين يردعه
ولا عقل يزجره ولا شرف نفس يمنعه وهذا المارق ما قعد على دسسته الا وقام
بإبادة الدين ومعاداة المسلمين وساقته دناءة الأرومة ونذالة الجرثومة الى
بيع البلاد الاسلامية بغير زهيدة •

فحسبت الأفرنج ان الوقت قد حان لاستملاك الأقطار الإيرانية بلا كفاح
ولا قتال وزعمت ان العلماء الذين كانوا يذبون عن حوزة الاسلام قد زالت
شوكتهم وفقد نفوذهم فهرع كل فاعراً فاه يبغي أن يسرط قطعة من تلك المملكة •
فغار الحق وغضب على الباطل فدمغه فخاب مسماه وذل كل جبار عنيد •
أقول الحق انكم يا أيها القادة قد عظمت الاسلام بعزيمتكم وأعليتم كلمته ولامتم
القلوب من الرهبة والهيبه • وعلت الأجانب طرا ان لكم سلطاناً لا يقاوم وقوة
لا تدفع وكلمة لا ترد وانكم سياج البلاد وبيدكم أزمة العباد ولكن قد عظمت
الخطب الآن وجلت الرزية لأن الشياطين قد تألبت جبواً لكسر وحرصاً على
لوصول الى الغاية وأزمت على اغراء ذاك المارق الأثيم على طرد العلماء كافة
من البلاد • وأبانت له ان انقاذ الأمر انما هو بآتياد قواد الجيوش وان القواد
لا يصحون العلماء أمراً ولا يرضون بهم شراً فيجب لاستئجاب الحكومة استبدادهم
بقواد الأفرنج • وأرت لذلك البليد الخائن رأسه الشرطة بقيادة فوج (١) القزاق

(١) يطلق الفرس هذا اللفظ العربي على الطائفة من العسكرية التي يطلق عليها الترك
لفظ طابور (وصوابه بالعربية تابور) ويطلق عليها في مصر لفظ أورطوه وهي أعجمية
(٩ ج ١ تاريخ الاسناد الامام)

مؤذجا (كنت واضرا به) . وان ذاك الزنديق وزملاءه في الاتحاد يجدون الآن في جيب قواد من الأجانب . والشاه مجنونه المطبق قد استحسن هذا واقترب به طر باه
 لعمر الله لقد تحالف الجنون والزندقة ونعاهد العتة والشره على محق الدين
 واضمه للال الشريعة وتسليم دار الاسلام الى الأجانب بلا مقارعة ولا مناقرة •
 يا هداة الأمة انكم لو أهملتم هذا الفرعون الذليل ونفسه وأهملتموه على سرير
 جنونه وما أسرعتم بخلمه عن كرسي غيبه لقضي الأمر ففسر العلاج وتمذرا التمدارك •
 أنتم نصراء الله في الارض . ولقد تمحصت بالشريعة الالهية نفوسكم عن
 أهواء دنية بُعث على الشقاق وتدعو الى التفاق ويئس الشيطان بقذافات الحق
 عن فريق كلمتكم . فأنتم جميعا يدٌ واحدة يذود بها الله عن صياحي دينه الحصينة
 ويذب بقوتها القاهرة جنود الشرك وأعوان الزندقة . وان الناس كافة (الامن
 قضي الله عليه بالحية والحمران) طوع أمركم . فلو أعلنتم خلع هذا (الحارية)
 لأطاعكم الأمير والحفير وأذن لحكمكم النفي والفقير (ولقد شاهدتم في هذه
 الأزمان عيانا فلا أقيم برهانا) خصوصا وان الصدور قد حرجت وان القلوب
 قد فطرت من هذه السلطنة القاسية الحق التي ماسدت ثغورا ولا جندت جنودا
 ولا عرت بلادا ولا نشرت علوما ولا أعزت كلمة الاسلام ولا أراحت يوما
 ما قلوب الأنام بل دمرت وأقوت وأقوت وأذات ثم بعد ضلت وارتدت
 وأنها سحقت عظام المسلمين وعجنها بدمائهم فعمات منها البنا (١) بنت بها قصورا
 لشهواتها الدنية . هذه آثارها في هذه المدة المديدة والسنين العديدة فساءلها
 وتبت يداها •

واذا وقع الخلم (وتكفيه كلمة واحدة يذبح بها لسان الحق غيره على دينه)
 فلا ريب ان الذي يخلف هذا (الطاغية) لا يمكنه الميدان عن أوامركم الالهية
 ولا يسهه الا الخضوع بمتبتكم عتبه الشريعة المحمدية كيف لا وهو يرى عيانا مالكم
 من القوة الربانية التي تقبلون بها الطاعة عن كرسي غيبها . وان العامة متى سمعت

بالعدل تحت سلطان الشرع ازدادت بكم ولما وحامت حولكم هياما وصارت جميعاً جنداً لله وحزباً لا أوليائه العلماء *

ولقد وهم من ظن ان خلق هذا (الحارثية) لا يمكن الا بهجمات المساكر وطلقات المدافع والقنابر . ليس الامر كذلك . لان عقيدة ايمانية قد رسخت في العقول ، وتمكنت من النفوس ، وهي ان الراد على العلماء راد على الله (هذا هو الحق وعليه المذهب) فاذا أعلنتم (يا حلة اقرآن) حكم الله في هذا الغاصب الجائر وأبنتم أمرة تعالى في حرمة إطاعته لانفض الناس من حوله فوقع الخلع لا جدال ولا قتال *

واند أراكم الله في هذه الأيام إنعاماً لحبته ما أولاكم من القوة انامة ، والقدرة الكاملة ، وكان الذين في قلوبهم زيغ في ريب منها من قبل . اجتمعت النفوس بكلمة منكم على إرغام هذا الفرعون الذليل وهامانه الرذيل (مسألة التذكير) فصبغت الامم من قوة هذه الكلمة وسرعة نفوذها وبهت الذي كفر . قوة أنفسها الله عليكم لصيانة الدين وحفظ حوزة الاسلام . فكل يجوز بكم اهمالها وهل يسوغ التفريط فيها ؟ حاشا ثم حاشا *

قد آن الوقت لآحياء مراسم الدين ، واعزاز المسلمين ، فاخلعوا هذا (الطاغية) قبل أن يفتك بكم ، ويهتك اعراضكم ، ويثلم سياج دينكم ، ليس عليكم الا أن تعلنوا على رؤوس الاشهاد حرمة إطاعته فاذا يرى نفسه ذليلاً فريداً يفر منه بطائفة وينفر منه حاشيته وينبذه المساكر ويرجمه الأهانر *

انكم يا أيها العلماء والذين قاموا معكم لتأييد الدين بعد اليوم في خطر عظيم . قد كسرتهم قرن فرعون بمصالح الحق وجدتم أنف الحارثية بسيف الشرع فهو يربص فرصاً تساعده على الانتقام شفاء لفيظه ومرضاة لطبيته التي فطرت على الحقد والجحاح فلا تمهلوه أياماً ولا تمكنوه أن يقبض زمناً اعلنوا خلعهم قبل اقدامال جرحه *

وحاشاكم أيها الراسخون في العلم أن ترتابوا في خلق رجل ساطانه غصب وأفعاله فسق وأوامره جور وأنه بعد ان مص دماء المسلمين ونهش عظام

المساكين وترك الناس عراة حفاة لا يملكون شيئاً حكم عليه جنونه أن يملك
الأجانب بلاداً كانت للإسلام عزا وللدين المتين حرزا وساقته سورة الصفه
الى اعلاء كلمة الكفر والاستغلال بلواء الشرك *

ثم أقول ان الوزراء والامراء وعامة الاهالي وكافة العساكر وأبناء هذا
(الطاغية) ينتظرون منكم جميعاً (وقد فرغ صبرهم ونفذ جلدكم) كلمة واحدة
حتى يخلعوا هذا القرون الذليل ويريموا العباد من ضربه ويصونوا حوزة الدين
من شره قبل أن يخل بهم العار ولات حين مناص والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته *

(السيد الحسيني)

(يقول محمد رشيد) ان العلماء من الاحترام والنفوذ الروحي في بلاد الأعاجم
ما ليس لهم في البلاد العربية وان احترامهم في بلاد الفرس أشد منه في سائر بلاد
العجم فان الحكم ليس لهم عليهم من السلطة هناك مثل ما لغيرهم من حكام المسلمين وما
أزال الملوك والأمراء احترام العلماء ومحو نفوذهم - حاشا ما كان منه مؤيدا لهم ومعينا
لاستبدادهم - الا بما اخترعوه لهم من الرتب العلمية وكساوي الشرف الوهمية وبما
جعلوا من موارد أرزاقهم في تصرفهم . فصار رزق العالم وجاهه الدينوي بيد الأمير
أو السلطان وهما الرئسان اللذان يقودون بهما طالب المال والجاه من العلماء الى حيث
شاؤا . فاذا أمكن لطلاب الإصلاح الاسلامي أن يطلوا هذه الرتب العلمية
وما لها من الكارات ويخرجوا أرزاق علماء الدين من أيدي الحكماء فإنهم محروون
العلماء من رزق يكون مقدمة لا صلاح الامة كلها

الاسلام دين اجتماعي جمع بين مصالح الدنيا والآخرة وقد عبث الحكماء
المستبدون في أهله باتحال الرياسة فيه على كونهم قد أبطلوا اشتراط العلم الديني
وغيره في الخليفة وفي السلطان والوالي بالأولى ثم جعل بعضهم الاحكام والأعمال
والمناصب قسمين شرعية خاصة بعلماء الشرع كالقضاة فيما يسمونه الامور الشخصية
وغير شرعية وهي سائر الاحكام القضائية والادارية والسياسية ولا يشترطون في
عمال هذه الاحكام والأعمال معرفة شيء من أحكام الشرع ولا الأخذ بشيء
من أمر الدين كما أنه لا يشترط في الحاكم الاعلى من أمير أو سلطان ان يكون

قد تاتي علم التوحيد والفقہ فضلاً عن التفسير والحديث . ومع هذا كله يجعل
 هذا الحاكم رئيساً دينياً ويجعل أمر علماء الدين في يده فهو الذي ينعم عليهم
 بالرتب العلمية التي يعدّ بها بعضهم فوق بعض في الدين وعلومه من غير مبالاة
 بالقاعدة المشهورة التي لا يختلف فيها عاقلان وهي « فاقد الشيء لا يعطيه » فلماذا
 صار الدين أمراً ثانوياً في أكثر بلاد المسلمين لا يحترم عند حكامه الا بقدر
 تعلق العامة به على حسب ما عليه العامة كالاختفال بالمواسم الدينية والمبتدعة
 ينهدم ركن من اركان الاسلام كالزكاة فلا يبالي به الحكام الذين جعلوا
 انفسهم رؤساء للدين ويسكت معهم العلماء عن ذلك فلا يقومون بفريضة الامر
 بالمعروف والنهي عن المنكر وهي سياج الدين لانهم على قسمين قسم مرتبط
 بالسلطين والامراء فهم تابعون لهم وقسم لاشان له فهو يستصغر نفسه ان تقوم
 بالدعوة الى احياء الدين فاذا عرف لنفسه قيمة وظهر بالدعوة فطفت العامة
 تحترمه نفحه الامراء بشيء من الدنانير التي قاموا على خزائنها وهي للامة لاهم -
 وألقوا في عنقه ورأسه طوقاً من الفضة او الذهب (علامة الشرف) فكان لهوام
 من المتقادين

فلا صلاح للاسلام الا باستقلال العلماء وعدم ارتباطهم في العلم والتعليم
 والارشاد ولا في الرزق بالامراء والسلطين كما تقدم

وكتب السيد في العدد الاول من ضياء الحائقين الذي صدر في فبراير
 (شباط) سنة ١٨٩٢ ما يأتي :

أحوال فارس الحاضرة

ان اصراخ الفارس دويماً في آفاق الارض . قد أقفرت البلاد وبارت
 الاراضي وغارت الأنهر وتبدد الناس في شاسعات الاقطار شذر منذر . ان سواد
 العراق ومدن القفقاز وامصار ماوراء النهر وقرى الخوارزم وقصبات بين النهرين
 غصت بوجوه غبره . ذرأى الامائل وسلالة الافاضل يكدون آناً القيل وأطراف
 النهار في أعمال خسية وحرف دنيئة تأنف منها النفوس وتعاها الطباع . ان

الايران بسعتها قد ضاقت على أبنائها، ونبت بأهلها، وليس في تلك البسيطة الرحبة الا أخصاص حقيرة وكنان صغيرة ودور حرجة يستكنها شعث غبر رث الثياب كأنهم ينازعون الموت ويراقبون الأجل . الجور قد تمثل في تلك البلاد سلطاناً قاهراً لا يحد طوره ، ولا يسبر غوره . والقسوة برزت بصور بشعة وهيبات شنيعة تقشعر منها الجلود . جدع الانوف وقطع الآذان وشق البطون وجز الرؤوس أعمال عادية وأفعال يومية لا يستغرب منها السامع ولا تبشعها الرائي . ودونها فظائع تأبى النفوس البشرية عن اسماعها ونجم درن ذكرها وانضطرب حياء وخشية كلما خطرت في لوح خيالها .

الحكومة قهرت الشرع فأبادته ، وكهرت النظام المدني فجته ، وازدرت بناموس العقل والفطرة فطمسته ، فلا يسود فيها الا الهوس ، ولا يأمر الا الشره ، ولا يقوم بالامر الا القهر والزور ، ولا يحكم الا السيف والكي والسوط ، بلذاها سفك الدماء ، وتباهى بهتك الأعراض ، وتعجب باستلاب أموال الأراذل والأيتام ، فلا أمان في تلك البلاد ، وان قاطنيتها لا يرون وسيلة لصون الحياة من أنياب الظلم الا الفرار ،

قد هرب خمس الايرانيين الى الممالك العثمانية والبلاد الروسية وراهم بمجولون في الأزقة والأسواق بين حال وكناس وزبال وسقا . وهم برثة ثيابهم وكراحة وجوهم وخساسة حرفتهم يستبشرون بالنجاة ويشكرون الله على بقية الحياة ... لاحد في الأقطار الايرانية للضرائب والجبايات والخراج والمكوس . ان الجرائم ليست لها حقائق أحرزها الشرع وحكم بها العقل . والجزء لا يحدده حصر . كل هذه تحت سلطان الهوس والشره والقهر . لادستور للحكومة ولا نظام ولا قانون . كل يفعل ما يقدر عليه وتدعو شهوته اليه ولا رادع لقضاء الحاكم ولا مانع لحكمه . يأخذ الجار بالجار ويدمر قرية بذنب يدعيه على رجل (ولا ذنب له) كل مسؤول لديه عن الكل ...

الحاكم يقدم لشاه على حسب عظام الحكومة وصفرها تقديس (ييش كش) ويلتزمها على نفسه كل سنة شكرا انويليه (ولا شهيرة له) ثم انه يأخذ من كل من

يستصحبه لخدمة الحكومة أَوْخاصة شخصه من مدير وكاتب ومعاون وشرطي وجلاد وطباخ وفراش وسائس وغال مبلغاً جزاء لاستخدامه (ولا شهرية لهؤلاء أبداً) . وهذه القطيعة الضارية والضباغ الجائئة تثب فجأة على البلاد فتقترب وتنش وتبلغ وتدمر ولا شفقة تكف ولا عقل يزجر . فالويل كل الويل لقوم قضت الأقدار عليهم بحكومة جائرة وحشية كهذه . . .

وان الحاكم واتباعه للاستئصال على ما نقدوه أولاً وما التزموا على ذمتهم لا يدعون في مدة الحكومة وهي غير معلومة عملاً شديداً وفعلًا فظيماً وأمرًا بشماً الا ويرتكبونها . . يعاقبون النساء بشعورهن ويضعون الرجال مع الكلاب المارقة في الجوائق ويسمرون الآذان على ألواح من الخشب ويدخلون زماماً في العرينين ويدبرون ذاك المظلوم بتلك الهيئة المحزنة في الأزقة والأسواق وان أهون المذاب عندهم الكي والضرب بالسياط »

وان الحكومة الايرانية لا تمنون المساكر وليست لهم لاشهرية ولا جارية فانما تكلمهم الى قدرتهم في القصب وخذقهم في السرقة . تدبر فيما يكابده الأهالي ويقاسيه من هذه الحكومة الجائرة الحق . أليست هذه هي الامة الايرانية التي سادت الأمم في زمانها ؟ أليست هذه هي الامة الفارسية التي أحيت العلوم في العالم الاسلامي وأقامت الديانة على دعامة الحق بقرة براهينها وقومت اللغة العربية بعالي نصائيفها ؟ أسفا على هذه الامة كيف أبادها الجور وبددها الظلم حتى سقطت عن عداد الأمم العظيمة وكاد أن يندرس رسمها وينطس اسمها . أين العلماء وأين حملة القرآن وأين حفاظ الشرع والقائمين بأمر الامة وأين نصراء الحق والعدل »

(السيد)

(يقول محمد رشيد) الم يكن الشاه جديراً بالخوف من اظهار هذه الحجازي وعاقبة ذلك التحريض ؟ ام هل يستغرب القارىء — وقد قرأ هذا — قول السلطان عبد الحميد للسيد : بحق يخاف منك شاه المعجم خوفاً عظيماً : وبلغني أن له كتابة أخرى بحرض فيها على خلع السلاطين ، ويقول فيها ان خلعها أهون من خلع النعمان ،

وانا لم أطلع على ذلك . ولكن أغلبه أحد السلاطين بالدهاء وحجر عليه في الاستانة حيث لا مجال للتعريض بالقول ولا بالسكناية
قال السيد في بعض محافله بالاستانة ان الشاه ناصر الدين طغى ونجبر وبالغ في الكبر والعلو وكان كل استناده على دولة الانكليز . وذكر انه انما اختار عاصمة الانكليز لظعن فيه لاجل ان يحقر أمره في عين الشعب الانكليزي ويحفظ قلبه عليه

وقتل البنا أن السلطان كان يريد ان يرسله الى أوروبا في أمر سياسي ثم عدل عن ذلك . وذكر هو أن السلطان أثنى عليه بخدمة الاسلام وقال له اني أحب ان اجعل وطنك الاستانة اذ لا وطن لك وعرض عليه ان يزوجه فأبى وقال في بعض مجالسه اني لو تزوجت لكان زواجي أغرب عند العارفين بحقيقة امري في مصر من ذهاب الشيخ عيش بتلاميذه الى أحد ملاهي الازبكية وتماطيمهم كورس (البيرة) جهرا : وقد ذكرت ذلك للاستاذ الامام فقال لي انه كان قد قد داعية الزواج والقدرة عليه بانصراف الذهن عنه الى ماعلق آماله به من عظام الامور

وحدثني الشيخ حسين الجمر وغيره عنه انه بعد مجيئه الى الاستانة استأذن له على السلطان فقيل له انه مشغول وضرب له موعد جاء فيه فقيل له انه مشغول وضرب له موعد آخر فقال لا أعود ثم طلب بأمر السلطان لمقابلته فتمنع وقال « هذه تلك » فاقنعوه بما ذكروا له من كثرة أعمال السلطان وتقيده بالمواعيد فرضى . وان السلطان كان اذا أغضبه بعمل يرضيه بالقول وحسن المعاملة . ومن ذلك انه لما سمي به اليه بأنه أفشى سره (اي سر السلطان) الى مكاتب التيمس وكان قد زاره وان عنده ديناميت وانه يحقر السلطان في مجالسه امر السلطان بتفتيش بيته الذي انزله فيه فغضب وذهب الى سفارة الانكليز وأراد ان يسافر من الاستانة فاستحضره السلطان بعد ذلك وقبله وقال لا يفرق بيني وبينك الا القضاء المحتوم ثم انزله في زورقه الذي يتنزه به في بحيرة « يلدر » وما زال به حتى استجاب حيث لرقبته ، واندمل جرحه بمسبره ،

وكان السلطان يتساهل معه ما لا يتساهل مع أحد اذ يبلغه عنه من الأقوال الجارحة ما يبلغه فلا يظهر له ولا لأحد ذلك . وقد حدثني بعض من حضر مجلسه في الاستانة انه سمعه يقول « ان هذا السلطان سلّ في رثة الدولة » وكان هذا بعد إعجاب بالسلطان استمر مدة طويلة كاتب في غضونهما علماء الفرس المجتهدين واقنعهم بأن يعترفوا له بأنه خليفة المسلمين فأجابوا وكتبوا اليه في ذلك . يقال إن هذا كان ابتداء في دعوة المسلمين كافة الى الاعتصام بعروة الخلافة والقيام بتدبير سياسي عظيم عرفه الشيخ ابو الهدى عليه واقنع السلطان بوجوب الانصراف عنه .

مذهب السيد جمال الدين السياسي

لعل ما قلناه آنفاً هو السبب فيما اشتهر عن السيد من السعي الى جمع كلمة المسلمين على خليفة واحد فاني رأيت الناس يتناقلون هذا الرأي وقد كبه غير واحد في الصحف المنشرة والتواريخ المصنفة . قال جرجي افندي زيدان في آخر ترجمة السيد من كتاب تراجم مشاهير الشرق (ص ٦٥ ج ٢) ما نصه :

﴿ آماله وأعماله ﴾ يؤخذ من مجمل أحواله أن الغرض الذي كان يصوّب نحوه اعماله ، والمحور الذي تدور عليه آماله ، توحيد كلمة الاسلام وجمع شتات المسلمين في سائر اقطار العالم في حوزة دولة واحدة إسلامية تحت ظل الخلافة العظمى . وقد بذل في هذا السعي جهده واقطع عن العالم من أجله فلم يتخذ زوجة ولا التمس كسبا ، اه المراد

والصواب أنه كان له من حياته مقصدان (احدهما) علمي وهو تنبيه المسلمين الى الاصلاح الديني والعلمي بالكتابة والخطابة (وثانيهما) سياسي اجتماعي وهو ما بينه الاستاذ الامام في ترجمته (ص ٣٤) وهو ترقية دولة إسلامية آية دولة كانت وحسبك انه بدأ عمله في إمارة تابعة لدولة أخرى وهي الإمارة المصرية فقد كان يرمي الى تمدينها وتعزيزها حتى تكون في القوة والعلم والمدنية كأحسن البلاد الاوربية . ثم تعلق أمله بالسودوان ، ثم بلاد إيران ، ثم بالدولة العثمانية

(١٠ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

أما شأنه في مصر فظاهره معروف في الجملة وقل من يعرف أسرار الخفية ، ومقاصده السياسية ، وقد علم بعضه مما تقدم ونزيده بيانا فنقول
 نقلنا فيما مر من هذه الترجمة (ص ٣٥ - ٣٨) نبذة من كتاب اسباب الحوادث العراية للاستاذ الامام بين فيها ان السيد جمال الدين هو موجد النهضة الاجتماعية بمصر (من الجهتين العلمية والسياسية) وقد بين بعدما تقدم نقله ما كان من الارتباك الشديد في المالية المصرية بإسراف إسماعيل باشا وسوء تصرفه وتشكيل لجنة مختلطة من وكلاء الدول لذلك سميت « لجنة التفتيش العليا » وتعين وزيرين اوربيين احدهما انكليزي للمالية والاخر فرنسي للاشغال العمومية فكان ذلك مع حكم المحاكم المختلطة على الخديوي في مسألة مالية وتنفيذ الحكم بالقوة رغم إرادته مما أعان على تنبيه أفكار المصريين وبين لهم ان حاكمهم قد يقع تحت الحكم وان سلطته ليست إلهية تلو قوى البشر . ثم أفاض في بيان سوء الحال وذكر حادثة الضباط التي توسل بها إسماعيل الى قلب وزارة نوبار باشا مع بقاء الوزيرين الاوربيين ثم توسله باعيان الأمة الى عزلها وخبر الائحة الوطنية التي عملت لاجل ذلك وما كان من تنبيه الناس الى ان حاكمهم قد يحتاج اليهم في الدفاع عن سلطته (وهذا مما كان يفتنمه السيد جمال الدين)

بعد هذا ذكر ما كان من سعي نوبار باشا في اوربا لعزل إسماعيل و اشار الى ما كان من سعي جمال الدين لذلك بمصر لما كان بينه وبين ولي العهد (توفيق باشا) من الموطأة على الاصلاح اذا صار الأمر اليه . قال بعد ذكر إرسال فرنسا موسيو تريكو مأمورا فوق العادة ليتحد مع وكيل انكلترا بمصر على عزل إسماعيل ما نصه :
 « ولكن كان الناس كافة في شوق الى رؤيته (أي إسماعيل) بعيدا عن كرسي الخديوية ، وطلاب الحرية من الاهالي كانوا يترددون على رئيس الوزارة المصرية يظهر ون له الميل الى جناب الخديو السابق توفيق باشا رحمه الله . وكانت بينه وبين السيد جمال الدين مكالمات ومخبرات في هذا الأمر فسمى هو والكثير من الاعيان عند شريف باشا حتى يقنع الخديو الاسبق بوجوب التنازل (عن الخديوية) وقد فعل فأشار عليه بأن رفض الطلب لا يفيد وان الدولتين لا بد ان تتالما تطلبان

عاجلا او آجلا والفكر في الحرب رأي طائش فان الناس عموما في انحراف عنه فاذا حصل حرب خذله الجيش في أول واقعة وكانت عاقبة ذلك أشنع، وان أمس شيء بالصواب أن يحوّل الامر على السلطان

« ثم ذهب وفد من المصريين ومعهم السيد جمال الدين الى وكيل دولة فرنسا وأبانوا له أن في مصر حزبا وطنيا يطلب الاصلاح (١) ويسعى اليه وأن الاصلاح لمصر لا يتم الا على يد ولي العهد توفيق باشا وانتشر ذلك في القاهرة وغيرها وناقضته الجرائد وهي أول مرة عرف فيها اسم « الحزب الوطني الحر » اه

ثم ذكر ولاية توفيق باشا وما ثبت به من الاصلاح في اوائها ومنه شروع شريف باشا في وضع قانون اساسي لمجلس النواب ومعارضة الاوربيين لاسيما وكلي فرنسا وانكثرا لذلك وذكر انشاء جمعية في الاسكندرية باسم « مصر الفتاة » لم يكن فيها مصري حقيقي وانما كان أغلب أعضائها من شبان اليهرد ثم انشائها جريدة (مصر الفتاة) المتطرفة في الانقياد والوعظ والارشاد ثم قال مانصه :

« لكن ما حظ الاجانب في مصر من اطلاق الحرية للمصريين وتخويلهم الاصلاح المرغوب؟ لو صح شأن المصريين واستنارت عقولهم وكان لهم رأي في ادارة بلادهم هل تزيد الضرائب ويضيق على الفلاح في ادائها حتى يأخذ المائة بمائة في بضعة اشهر وهو انما ياخذها من الاجنبي؟ ولو وضع نظام ثابت للحكومة المصرية يكفل للاهالي سعادتهم هل يمكن للاجانب ان يتمتعوا بالسلطة والنفوذ الذي يتمتعون به تحت السلطة الاستبدادية وان يكونوا حكاما في اقتضاء ديونهم واستخدام المصريين في مصالحهم؟ ماذا اصاب الاجانب في عهد الاستبداد مما لا يجبورون حتى يطلبوا الخلاص منه؟ نعم قد يصح هذا اذا امكن ان يكونوا ملائكة قدسين يؤثرون سعادة المصريين على سعادتهم ويزهدون في المنافع الخاصة بهم اذا جلبها ضرر عام يصيب غيرهم وان يكون ذلك الطلب مبدأ توبة عما اتوه من قبل

« وسواء صحت هذه الأقول أو لم تصح فالحق الذي لا ريب به ان وكيل دولة فرنسا عند ما أحس بمقاصد الخديو وميله الى مشايعة الاحساس العام أخذ

بسعى في إقامة الموانع دون ذلك ودعا وكيل دولة انكلترا للاتفاق معه في اقتناع الخديو بمضرة هذه الأوضاع الجديدة في الوقت الحاضر وقت الارتباك في المسائل المالية وان دخول النواب في تصحيح الموازين ونحوها مما يعوق حل المشاكل الموقوفة لتشتت الآراء وافناء الوقت في المداولات لو تم ذلك وبقاء هذه العقد في الحكومة بدون حل سريع قد يؤدي الى الضرر بمسند الخديوية كما حصل من أيام . وساعدهم على ذلك بعض الوطنيين من حاشية الجنب الخديوي ولقرب حادثة الخديوي الاسبق من الأذهان وظهور السبب فيها تأثر الخديو الجديد بهذه الأدلة ومال الى غير ما أظهر للعامة في أول الأمر وصمم على رفض مشروع الاصلاح الجديد لو عرضه شريف باشا وعندما عرض عليه رئيس النظار ما وضعوه في مشروعاتهم عرضاً غير رسمي ظهرت عليه علامات النفور منه غير انه لم يقطع بعدم قبوله الى ان جاء الفرمان وتلي في احتفال عظيم وذهب المندوب السلطاني الى الاسكندرية ليتوجه منها الى الاستانة يوم الأحد غاية شعبان سنة ١٢٩٦ فبعد غروب ذلك اليوم دعا الخديو حضرات النظار فوفدوا عليه وبعد قليل قدموا استعفاءهم قبل وانصرفوا والسبب الصحيح لاستعفائهم ان شريف باشا صمم على تنفيذ لائحة الاصلاح ورأى حضرة الخديو السابق ان الاصلاح على هذه الصورة سابق وقته فلم يقبل ما عرض عليه فاستغفت النظارة وشكل الخديوي نظارة جديدة تحت رئاسته

« بذلت مساع كثيرة في اخفاء حقيقة سبب الاستعفاء حتى لا تشعر به الأنفس الطامحة الى الاصلاح الجديد لكن الحقيقة سطعت رغما من هذه المساعي وكثر القيل والقال في ذلك وكان وكلاء الدول أرباب النفوذ في مصر يظنون ان محرك هذه الافكار وباعث الأنفس على طلب الحرية ووضع أصول للنظام انما هو الشيخ جمال الدين فتقدموا الى الجنب الخديوي باقامة الادلة على خطر الرجل واخافوه منه (١) كما اخافوه من النظام نفسه وكان التخلص من النظام باستعفاء الوزارة اما التخلص من الشيخ جمال الدين فكان بنفيه سادس رمضان اخذ في الطريق آخر الليل وهو

ذاهب الى يته هو وخادمه وحجز في الضبطية ولم يمكن من أخذ ثيابه . وبعد ان اتشر ضياء النهار حمل في عربة مقفلة الى محطة السكة الحديد ومنها ذهب تحت المراقبة الشديدة الى السويس ومنها انزل في البحر ليسافر الى بمباي فقطع المسافة بقميص واحد على بدنه والوقت صيف والحرارة شديدة حتى تفرح جسده ولم يكن معه من النقود اكثر من ثلاث جنيهات عثمانية وبعض قروش من الفضة وهذا المبلغ اخذ منه في السويس فنزل البحر ولم يكن معه شيء . ولما شعر بذلك احمد بك النقاوي وكان قنصل دولة ايران في السويس ذهب لتشيعه وعرض عليه مبلغا وافرا من القنصل فآبى ان يأخذ منه شيئا (٢) هذا ما رواه احمد بك النقاوي وواقعه عليه الشيخ جمال الدين عند ما سئل عن ذلك بعد عودته من الهند الى اوربا . وثاني يوم سفر الشيخ جمال الدين ذهب بعض تلامذته الى يته فوجدوا بعض اعوان الضبطية يعيثون كبه فدهشوا ورجعوا وكان عنده كتب كثيرة في فنون شتى فاختر منها اعوان الاصلاح وحفظه الأمن ما اختاروا لأنفسهم وحشوا بالباقي بطون الصناديق وارسلوه الى بندر أبوشهر من بلاد ايران ظنا منهم بأن صاحب الكتب ذهب الى ذلك التفرق وبقيت الكتب في مخزن الجمر هناك الى ان اكملها المثلث هنيئا مربيا

«اذكر هذه الحادثة لما كان لها من الأثر السيئ في افكار العامة فقد ذكرتهم بالايام السالفة واحيت ما كان قد مات من ذكرى حوادث المقتس وغيره وجمعت آمالم بشدة هائلة وقسوة شديدة نزلت بمن كان يقول له الخديوي قبل الحادثة أيام على مسمع من الحاضرين

«انك أنت موضع أمني في مصر ايها السيد»

«فاين موضع هذا العمل من الاصلاح الذي كان ينادي به الجناح الخديوي في اوامره العالية وينعش بذكره ارواح الخاصة من الماثلين في حضرته ويجتهد في ابلاغ البشرى به الى الكافة؟ اليس من اول مبادي الاصلاح تقرير الأمن على النفس وكفالة الحقوق بالعدالة ومتى يكون الامن اذا لم تحقق التهم، ولم يسأل التهم، ولم تتضح الجناية بادلتها الصحيحة ولم تقدر العقوبة بقدرها

« لا ريب ان الانزعاج بنفي الشيخ جمال الدين كان عاما، والكدر كان تاما، ولكن الجناح الخديو أظهر سروره مما فعل وتحدث به في محضر جماعة من المشايخ على مائدة الافطار في رمضان ف أظهر الطرب بذلك من كان لا يعرف لنفسه قيمة في العلم والفضل في محضر الشيخ جمال الدين وألزمت الجرائد بنشر الامر الصادر بالنفي وفيه من التقرع الشديد ما لم يكن يستحقه الرجل كما انه كان فيه تشنيع جارح بمن كانوا يجتمعون عليه فنشره البعض وابت احدى الجرائد نشره لان محررها كان من تلامذته فغطلت . على ان هذه الشدة، لم تزد الافكار الا حدة، ولا اللسان الا جرأة، ولا الاحساس بضرورة الاصلاح الانموا وظهورا، اه المراد هنا من كلام الاستاذ الامام في كتاب اسباب الثورة العرابية وهو مؤيد بما تقدم في ترجمة اديب بك اسحق وسليم بك العنحوري للسيد

هذا شيء من التفصيل لعمله السياسي في مصر فهو الذي نفخ فيها روح الحياة المعنوية ونقلها من طور الى طور ولكنه تركها في سن الطفولية وخلف عليها وصيه ووارث علمه وحكمته الاستاذ الامام كما صرح بذلك عند سفره فاستقل بتريتها من بعده كما يعلم ذلك بالتفصيل من هذا الكتاب

وأما ما قصد اليه من العمل في السودان فقد كان السعي اليه مع الاستاذ الامام في لندره أيام كانا يصدران العروة الوثقى بعد الاحتلال . فقد عظم أمر محمد أحمد القائم بدعوى المهديّة بالسودان في نفوس الانكليز وكان لهما يدان فيما يرسل من مصر والسودان الى انكليترا من الاخبار حتى اقنعا الحكومة الانكليزية بإخلاء السودان وكتب في ذلك معاهدة أو اتفاقية ما حال دون امضائها الا بحج البرق بنيا وفاة محمد أحمد

وقد كان لهما رحمهما الله من المساعي في مسألة السودان وتمهيد السبل الى العمل فيه بعد ترك الانكليز له مالا فائدة في يانه . ويجد قارئ كتب الاستاذ الإمام الى بعض أعضاء جمعيتهم التي كانت تعرف بجمعية العروة الوثقى إشارات في بعضها الى بعض ذلك كما ترى في الرقيم ٦ من كتبه الإصلاحية (راجع ص ٤٩٠ و ٤٩١ من الجزء الثاني)

وأما إيران فقد علم القراء بعض نباه فيها من الفصل الذي قبل هذا فهو نافخ روح الحركة التي تقيم البلاد وتقعدها الآن
وجملة القول انه كان العامل الاول في هذا الانقلاب الاجتماعي الذي حصل في مصر من نحو ثلاثين سنة والمنبه الأول الى الانقلاب الذي حصل في بلاد فارس وسعت الاستاذ الامام يقول « ان السيد لم يعمل عملاً حقيقياً الا في مصر » ولا غرو فهو المزلزل الأول لجود الازهر والمصلح الاول للتعليم الاسلامي فيه بتريته للاستاذ الامام وواضع المعول الاول في أساس بناء السلطة الاستبدادية بمصر ومؤسس الحزب الوطني لايجاد حكومة أهلية صالحة وقد كانت البلاد تشتغل بالعلوم الاوربية من قبله عشرات من السنين في غير ان يفكر احد فيها بشيء من هذا وقد كان من اسباب فشله والعوائق دون إتمام عمله بناء سياسته على عداوة انكلترا ومقاومة نفوذها في الشرق وله في ذلك مقالات كثيرة سنورد طائفة منها في جزء آخر نجعله ملحقاً لهذا الكتاب مع طائفة أخرى من مقالاته في الفلسفة ومقاومة الاستبداد

فلسفة السيد جمال الدين

لا تزال فلسفة اليونان والعرب تدرس في بلاد الأعاجم ولكن قل من يقرأها في البلاد العربية كمصر والشام . وقد تلقى السيد جمال الدين الفلسفة العربية القديمة في بلاده ثم تلقى شيئاً من الفلسفة الأوربية والرياضيات على الطريقة الحديثة في الهند وكان قد تصوف قبل ذلك علماً وعملاً فكانت فلسفته مزيجاً من التصوف والفلسفة القديمة والحديثة أي كان له رأي خاص في العلوم العقلية وعلم النفس والاخلاق وعلم الوجود والتكوين يستدل عليه ويفند رأي من يخالفه ولا معنى لفيلسوف الا هذا

مذهب فلاسفة الافرنج في الوجود قريب جداً من مذهب الصوفية القائلين بالوحدة وكان السيد يعيل الى هذا المذهب كما أشار اليه الاستاذ الإمام في ترجمته . ولا بد من التنبيه هنا الى ان مذهب السادة الصوفية قد اشبه على كثير من المتأخرين بمذهب الباطنية الزاعمين ان الله تعالى يحل في بعض البشر سبحانه

وتعالى عما يصفون . والفرق بين المذهبين دقيق ، لا يحصيه الا أهل التحقيق ،
ف للصوفية كلام في أنفسهم وفي شيوخهم ، يشبه كلام الباطنية في أمتهم ، ومن ذلك
قول الاستاذ الامام في خطاب السيد (رحمهما الله تعالى) « أوتيت من لدنك
حكمة أقرب بها القلوب وأعقل العقول » الخ (راجع ص ٥٢٦ من الجزء الثاني)
فان كنت لا تعرف مذهب الباطنية حق العلم ومذهب الصوفية حق العلم ولا تدري
ما يريدون بالظهور والبطون والتجليات والتنزلات والمنازلات فاربأ بنفسك ان
تكون من أهل الدث والرجم ، وان تقفو ما ليس لك به علم (١٧ : ٣٦ ولا
تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً)
كذلك يشبهه على الجاهل الفرق بين رأي السيد في النشوء ورأي داروين قد
حكى الاستاذ الامام عن درس السيد للاشارات مانصه :

« بين حفظه وأثبت ان الانسان نوع من انواع الحيوانات الارضية (لا كما
يزعم ارباب الاوهام كالصينيين وقدماء الفرس من انهم ابناء السماء فليترك من
له فطنة) وانه قد أتى حين من الدهر وهو على مقربة منها ينشأ نشأتها ، ويسير في
في عيشه سيرتها ، يتفأ ظلال الاشجار ، ويستكن في الجحر والاوكار ، ليس له شعار
ولا دثار ، ولكن خفيف اشعار ، يقات بنيات وثمرات تحضرها له القدرة الالهية ، على
يد القوى الطبيعية ، لانمسا يد صناعية ، ولا تربية اجنبية ، ليس له من المكر
والتخيل الا مالا يداني فيه الثعلب ، ولا من العلم والتدبير الا مايغنيه على الغدو
لطلب قوته من الاعشاب وثمار الاشجار ، والرواح للاستكنان من كن يواريه عن
أعين الحيوانات العادية ، والفرار من المكاره الحسية ، كما تفر الشاة من الذئب ،
والارنب من الثعلب ، ولم يكن له من رفعة القدر ما يجلسه على كرسي سلطنة الوجود ،
ويقيمه متحكماً في كل موجود ، ويدعوه للحكم بانه خلاصة العالم ، ومتهى سير
الحقائق وعمار عالم الكون ، وان جميع البسائط والمركبات إنما خلقت لاجله ، والكواكب
والسيارات انما تتحرك لخدمته » الخ ما أثبتناه في مقالة فلسفة الصناعة من جز
المنشآت ، (راجع ص ٣٠ ج ٢)

فاذا قابلنا هذا القول برده على مذهب دارون وعلى الماديين الذين يقولون

انه لا فرق بين الانسان وبقية الحيوانات يتجلى لنا ان مذهبه وسطي بين المذاهب في ذلك وهو ان الانسان حيوان مترق من جهة وملك أرضي من جهة أخرى اي انه جامع لخواص الجنسين . وقد قال في رسالته في الرد على الدهريين مينا خواص اعتقاد اهل الدين بأن الانسان ملك أرضي وانه اشرف المخلوقات في الأرض (اي لا في العالم كله) مانصه : « فما يلزم الاعتقاد بان الانسان اشرف المخلوقات ترفعُ المعتد بحكم الضرورة عن الخصال البهيمية ، واستنكافه عن ملابسة الصفات الحيوانية ، ولا ريب انه كلما قوي هذا الاعتقاد اشتد به النفور عن مخالطة الحيوانات في صفاتها ، وكلما اشتد هذا النفور سما بروحه الى العالم العقلي ، وكلما سما عقله أوفى على المدنية وأخذ منها بافر الحظوظ حتى قد ينتهي به الحال الى ان يكون واحداً من اهل المدينة الفاضلة مجيماً مع اخوانه الواصلين معه الى درجته على قواعد المحبة وأصول العدالة ، وتلك نهاية السعادة الانسانية في الدنيا وغاية ما يسعى اليه العقلاء والحكماء فيها

« فهذه العقيدة أعظم صارف للانسان عن مضارعة الحمر الوحشية في معيشتها ، والثيران البرية في حالتها ، ومضاربة البهائم السائمة ، والدواب الهائلة ، والهوام الراشحة ، لا تستطيع دفع مضرة ، ولا النقية من عادية ، ولا تهدي طريقاً لحفظ حياتها ، وتقضي آجالها في دهشة الفزع ووحشة الانفراد

« هذه العقيدة أشد زاجر لبناء الانسان من التقاطع المؤدي لاقتراس بعضهم بعضاً كما يقع بين الاسود الكاسرة ، والوحوش الضارية ، والكلاب العاقرة ، وأشد مانع يدفع صاحبها من مشاكلة الحيوانات ، في خائص الصفات ، وهذه العقيدة احجى حاد للفكر في حركاته ، وأنجح داع للعقل في استعمال قوته ، وأقوى فاعل في تهذيب النفوس وتطهيرها من دنس الرذائل

« إن شئت فارم بنظر العقل الى قوم لا يتقدون هذا الاعتقاد ، بل يظنون ان الانسان حيوان كسائر الحيوانات ، ثم تبصر ماذا يصدر عنهم من ضروب الدنايا والرذائل ، وإلى أي حد تصل بهم الشرور ، وبأي منزلة من الدناءة تكون نفوسهم ، وكيف ان السقوط الى الحيوانية يقف بعقولهم عن الحركات الفكرية »

رأي السيد في إصلاح حال المسلمين

كان يرى ان المسلمين ما صاروا أمة ذات مدنية ودول عزيزة إلا بحسن فهمهم لدينهم وحسن عملهم به وما ضعفوا واستكانوا بعد ذلك إلا بسوء فهمهم لدينهم وانحرافهم عن صراطه وابتداعهم فيه وأنهم لا يرقون ولا يعتزون إلا بحسن فهمهم له ونهوضهم به واستقامتهم عليه وهذا الرأي معروف عنه . وقد كتب اللي شيخ عبد القادر المغربي من الاساتذة سنة ١٣١٠ انه زاره مرتين أو ثلاثاً وأنه كان مما دار بينه وبينه ما يأتي بالص الذي كتبته المغربي يومئذ :

« قال (السيد) ان بطرس برج وفيثا كيليس في حسن الانظمة والزخرف وان فيثا أكبر من الاساتذة . قلت الاساتذة منذ ثلاثين سنة لم تكن هكذا بل كانت متأخرة من عدة وجوه فهي لا تزال تتدرج في مدارج المدنية لاسيما باهتمام أفندينا ولي التمس وهذا يدل على ان المسلمين عن قريب يلغون من التمدن والترقي ما بلغت اليه أهالي البلاد الغربية . فقال اذا لم يبن تقدموا وتعدت على قواعد ديننا وقرأنا فلا خير لنا فيه ولا يمكن أن نتخلص من رقة الانحطاط والتأخر . قلت إذا نظرنا الى حالتنا منذ ثلاثين سنة وقابلناها بما نحن عليه الآن ترى يوماً عظيماً . فقال : ما تراه الآن من حالتنا المستحسنة ظاهراً هو عين التهمر والانحطاط لاننا في تمدننا هذا مقلدين للام الاوربية وبسبب ذلك يخشى علينا بدم من غير طويل ان نمنع للذل والسلطة الاجنبية أو تبدل صبغة الدين الإسلامي الذي من شأنه رفع راية السلطة والتغلب الى صبغة خمول وذل بعض الشعوب القديمة .

« قلت ما الطريقة القويمة التي ينبغي ان نسلكها لتوصل للتمدن الحقيقي ولماواة شعوب اورروبا ؟ فقال لا بد من حركة دينية لاننا اذا نظرنا في سبب انقلاب حالة عالم اورروبا من الخشونة الى المدنية نراه الحركة الدينية وذلك منذ عصر لوثيروس رئيس الطائفة البروتستانية فانه لما رأى اهل اورروبا تعتقد في البابا اعتقاداً يوجب عليها الخضوع له والاستكانة لاوامره وغير ذلك من الاعتقادات المسيحية الفاسدة

قام بتلك الحركة الدينية التي نشأ عنها الانقسامات بين الشعوب وجعل كل شعب يغار من الآخر ويحاربه في سلوك سبل النجاح . وخلاصة الامر ان تمدن أوروبا ينسب الى تلك الحركة ومبدأه من ذلك العهد

قلت ان دينهم فاسد فأصلحوه وديننا بحمدہ تعالى للآن محفوظ من التبديل والتغير فكيف تكون حركتنا الدينية وعلى اي شيء مبناها ؟ فقال حركتنا الدينية هي اهتمامنا بقلع مارسخ في عقول العوام والخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقي مثل حملهم القضاء والقدر على معنى يوجب ان لا يتحركوا لطلب مجد ولا لتخلص من ذل ومثل فهمهم لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان الذي حملهم على عدم السعي وراء الإصلاح والنجاح ومثل . . . فلا بد من بث العقائد الدينية الحققة بين الجمهور وشرحها لهم على وجهها المناسب وحملها على محاملها الصحيحة التي تعودهم للافية خیرسم دنیا وأخرى . ولا بد أيضاً من تهذيب علومنا وتقيحها وتأليف كتب فيها قرينة المأخذ سهلة الفهم لتستعين بها على تقدمنا لا أن نجعلها علماً مقصوداً لذاته كعلم النحو والبلاغة يصرف الانسان جلّ في حياته الاشتغال فيها ولا يقتدر على إنشاء مقالة يعبر بها عما يقوم في نفسه من الافكار والامور التي يرجع اليها لإصلاح في الوطن وتعزيز للدين وهوية للامة

« وهنا شرع في بيان سوء اشتغالنا في العلوم على غير طائل حتى ان الغير اهتدى الى لب تلك العلوم واستعان بها على تهويم اعوجاجه وتركنا نحن نتخبط في مهامه الخيرة والفئلة وتيه في فيافي الجهالة غير مباليين بما ينجم عن ذلك من الدمار والانعحاء من صفحات الوجود » فلا بد إذن من الحركة الدينية ، ، ، اه ما كتبه المغربي من محاورته مع السيد

وهكذا كان السيد يدعو كل من لقيه من المسلمين الى الإصلاح الديني ويحاطبه في ذلك على قدر فهمه ولا شيء من آثاره ينجلي فيها ذلك الا العروة الوثقى التي عرفناهم اذهبه هذا على ما فيها من الاجمال ولكن الاستاذ الامام هو الذي كان يسلك مسلك التجلي والتفضيل ، وهو المثال الكامل الذي عرف به فضل جمال الدين

﴿ عشق المؤلف للسيد وكتابه اليه ﴾

نشأ مؤلف هذا الكتاب نشأة دينية صوفية فحب اليه النسك والتحنث منذ سن المراهقة بل التميز وكنت لا يلذ لي شيء كقراءة أخبار الصالحين والذكر والصلاة وهديت الى قراءة إحياء العلوم قبل طلب العلوم فأكبت على مطالعته مع مطالبة النفس بالعمل به ثم اشتغلت بطلب العلوم ولم أترك التصوف بل سلكت معه طريقة النقشبندية ففغني التصوف في طلب العلم من جهة واضربي من جهة أخرى فأنني رغبت عند دخول (المدرسة الوطنية) عن درس اللغتين التركية والفرنسية لاعتقادي يومئذ انه ليس في دراستها فائدة دينية ولا هما مما يطلب لوجه الله عز وجل

وقد غلب عليّ الزهد وبنفض الحكم والمُسرفين من اهل الدنيا حتى كنت انكر على من أراه منهم كل منكر يأتيه . فانكرت على والي يروت مرة لإساءة صلاته وهو في مسجد « السراي » بطرابلس حتى لآمني على ذلك بعض العلماء الرسميين وانكرت على كثير من رجال العدلية وغيرهم سيرتهم وحلمهم للساعات والسلاسل الذهبية وغير ذلك

ثم اتفق لي ان كنت اقلب في اوراق والدي (رحمه الله تعالى) فرأيت عديدين من جريدة العروة الوثقى قرأتهما بشوق ولذة ففعلاً في نفسي فعل السحر فطفقت أبحث عن سائر الاعداد فوجدت بعضها عند والدي ووجدت الباقي عند استاذي الشيخ حسين الجسر الطرابلسي فاستنسخت الجميع وقرأته المرة بعد المرة فاتقلت بذلك الى طريق جديد في فهم الدين الاسلامي وهو انه ليس روحانياً أخروياً فقط بل هو دين روحاني جسماني أخروي دنيوي من مقاصده هداية الانسان الى السيادة في الارض بالحق ، ليكون خليفة لله في تقرير المحبة والعدل ،

وأحدث لي هذا الفهم الجديد في الاسلام رأياً فوق الذي كنت أراه في إرشاد المسلمين فقد كان هي قبل ذلك محصوراً في تصحيح عقائد المسلمين ونهيهم عن المحرمات ، وحثهم على الطاعات ، وتزهيدهم في الدنيا . وكنت مجداً في ذلك حيث

كنت حتى اذا ما اردت ترويح النفس في بعض قرى الكورة (من لبنان) أخذت معي مثل كتاب (الزواجر عن اقتراف الكبائر) لأتوكأ عليه في المواعظ التي كنت أبتها في كل مجلس فتعلقت نفسي بعد ذلك بوجوب إرشاد المسلمين عامة الى المدينة والحفاظة على ملكهم ومباراة الأم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة فطقت أستعد لذلك استعداداً

و كنت أبحث عن آثار السيد وآثار الشيخ محمد عبده وعما قيل فيهما وما كتب عنهما . وكنت اناضل دونهما وادافع عنهما بحماسة وشدة حتى لم يعد يتجرأ احد على الطعن فيهما أمامي . ولما اشتدت المنافسة بين السيد وبين الشيخ ابي الهدى افندي في الاستانة وصار بدري باشا احد انباء ابي الهدى متصرفاً في بلدنا (طرابلس) وكان ما كان لصناعته بني الانجا من النفوذ والبغي كنت في دفاعي عن السيد عرضة للايذاء ولكن ذلك لم يحولني عن مذهبي حتى إني جهرت بذلك في دار بدري باشا على مسمع من مصطفى باشا الانجا . واني اذكر هنا صورة الكتاب الذي أرسلته من طرابلس الى الاستانة وهو يمثل حالي في ذلك الوقت تمثيلاً بينا وهو بحروفه :

كتاب المؤلف الى السيد جمال الدين

(في سنة ١٣١٠)

الحمد لله على افضاله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله ، وعلى سيدي بل السيد المطلق ، ذي القدر المعلي والجواد المصلي السابق ، سدره مستهى العرفان ، وجنة مأوى المحاسن والاحسان ، الذي له في كل جوة متنفّس ، ومن كل نار مقتبس ، الامام المفرد ، والعقل المجرد ، حجة الاسلام ، وعلم الأعلام ، أخطب الخطباء وأبلغ الكتاب ، من أوتي الحكمة وفصل الخطاب ، بدل الأبدال ، سيد الآكل ، الانسان الكامل ، الوارث الكامل ، المرشد الكامل

مبيط الفيض مصعد الكلم الطيب . . . ب مجلى سر الجمال الأكل

جمال الدنيا والدين ، وبقية رجاء المسلمين . أيده الله تعالى ، وزاده رفعة وكمالاً ان فرط الشغف بالجمال ، ومساهمة بالانتساب للآكل ، قد حملاني على غارب الجرة

والإقدام على خطابه خطاب نسيب لنسيب، ومحـب لحـيب، ومفادرة الأحرى بل الواجب الذي لا تخير فيه من مخاطبته مخاطبة مملوك للملك كريم، وخادم لسيد عظيم، وعليه قلت :
اني منذ لاحت على مخايل التميز ما نمي الى خبر ألد وأشهى، ولا ابنل واسى،
من خبر سيدي (جمال الدين) نبأ عظيم غرس في قلبي حبة الحب والشغف وسقاها
بماء الحياة فنبت نباتا حسنا، وامتدت أغصانها، وتشعبت افنانها، حتي لم تذر في أرض
الجسم ذرة من دقايقه الا وجذورها راسخة فيها . شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في
السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، جنت منها نمرة حب الحكمة واقتطف
الناس منها ثمار الثناء، على حكيم الحكماء، أعزه الله تعالى . ولم تزل تتمو بنموي حتي كأنها
من عناصر جسدي، وتقوى بقواي العاقلة حتي كأنها من مقومات ماهيتي، وهي الآن
أرسخ الملكات في نفسي : لا أتبوأ مجلسا ولا أفيض في كلام الا ويكون ذكر الجمال
فأتمته أو ختامه، أو متخللا أجزائه وأقسامه، ان لم يكن هو موضوع الكلام، حتي عرفت
بين المعاشرين، بما شق جمال الدين، وربما دعائي بعض الاصدقاء بالداعي له (واحد
الدعاة) لا سيما وأنا أعد له ما يعد عليه (كدخول الماسونية والجلوس في الاماكن العامة
وطول الاقامة في أوربا وتقريب وإرشاد غير المسلمين في البلاد الاسلامية)

إني حتي الآن لم أقف على شيء من سيرة سيدي الا ما كتبه سليم أفندي العنحوري
في كتاب له خلط فيه الخطأ بالصواب : وما نقل في متخبات اديب بك اسحق وما
كتبه الاستاذ الفاضل الشيخ محمد عبده (حياه الله تعالى) على رسالة سيدي في
النسبة بين الدين والكفر في العمران (١) ولم أحظ بشيء من آثاره النفيسة إلا
الرسالة المشار اليها آنفا وتاريخ الافغان والاعداد ١٨١١ التي صدرت من العروة الوثقى
هذا كل ما ارويـه وأؤثره عن سيدي وهو ان كان قليلا بالنسبة لمن أضر به
الظلم فلا يكفي بقليل من الورود لكنه لا يقال له قليل بالاضافة لما فيه من عظيم
الفائدة التي لا يعني عنها لقاء المثين والالوف من المشيخة ولا مطالعة أسفار المتقدمين
والتأخرين في الفنون العديدة

(١) اني منذ اطلمت على هذه الرسالة وسمتها بهذا الوصف الذي ذكرته لمؤلفها

فله أنت من ذي نفس زكية ، وروح قدسية ، ماهبت نفحة من معارفها في
جوة قوم الا ونفخت في رممهم روح الفضل ، ولا تدقت امواه فضائلها في ارض امة
الا وجرفت منها ادران الجهل ، بل اقول لا تنبث من ذلك الذهن المشتعل بالانوار ،
ذرات الفكر في فضاء قطر من الاقطار ، الا تكون منها في سماء العقل من كواكب
العرفان ، ماهو افيد من النظام الشمسي في عالم الحس والعيان ، وعلى هذا فما
اجدركم بقول القائل

أبدأ تحن اليكم الارواح ووصالكم ريجانها والراح

وما أعذرنى وأنا أعد قربكم أفضل القربات ، ولها كم غاية اغايات ، واني اسير
كتابي هذا ليكون مستنحاعواطفكم ، ومستجديا مكارمكم ، قبولي لديكم بصفة مرید
يتلقف الحكمة ، وتليذ يقوم ببعض الخدمة ، يساهمكم السراء والضراء (وقاكم
الله) ويسيركم في الزرع والرخاء (حماكم الله) ولا أراني ارد عن أبواب فضلكم
فما جزاء من احب الا ان يحب وللرحم حقوق مثل سيادتكم من يراعها ويصلها
ثم ذكرت له في آخر هذا الكتاب ماخص ترجمتي ولا حاجة الى اثباتها هنا
على اني لم أجدها كلها قد كنت كتبت لهذا الكتاب مسودة بقلم الرصاص على ورقتين
قعدت مني الصغرى منها وفيها تمة الترجمة وعبرة اخرى اتذكرها بنصها تقريبا وهي
قبولي في الاعتذار عن عدم المبادرة الى الرحلة اليه في الاستانة « لاني اعتقد
ان القسطنطينية على سعتها بل المملكة العثمانية بما رحبت لا يفسح فيها لسيدي مقام
لأن ممالك الشرق امت كالمريض الاحمق يأبى الدواء ويعافه من حيث إنه دواء »
وقد كتب الي الشيخ عبد القادر المغربي من الاستانة أنه اجتمع بالسيد وانه
ذكر كتابي اليه فاثني عليه مبالغا في الثناء وأمره ان يبلغني ذلك معذرا عن عدم
الكتابة الي بانه ليس عنده قلم ولا دواة ولا ورق (اي كان ممنوعا عن مكتبة
الناس او ممتعا عنها حتى لا يسوء ظن السلطان به) وذكر لي احمد بك رشوان
وغيره ممن كان يتردد عليه من المصريين أنه كان يثني على هذا الكتاب وعلى
صاحبه ويقرأه لزاثيره المرة بعد المرة . ولا سبب لذلك الا اخلاص الكاتب
وشعور المكتوب اليه بذلك

﴿ نهاية امره في الاستانة ﴾

ذكرنا خبر مجي السيد الى الاستانة وحفاوة السلطان به . وقد كان لما طلبه السلطان من لندرة تمنع وكان ممن كتب اليه واجتهد في اقناعه الشيخ ابو الهدى افندي الشهير وكانت المادة بينهما في أول مقدمه شديدة وانخدع السيد بحفاوة ابي الهدى واجلاله له فأحسن به الظن كعادته فكان يثني عليه ثم لم يلبث ان قلب له ظهر المجن ومحل به عند السلطان وعرقل عليه عمله في شد او اخي الاخوان بين العثمانيين والفرس أو بين اهل السنة والشيعة ووسوس للسلطان في شأنه ماشاء ان يوسوس حتى قويت ريبته فيه وجعله موضع الظنة واكثر من العيون والجواسيس حوله حتى ضاق صدره وناهيك بحياة من كان اشد الناس حرية وعزة في ضيافة السلطان عبد الحميد وتحت مراقبته مراقبة من يخشي منه على المملكة او الخلافة !!!

حدثني الثقة قال حدثنا السيد جمال الدين بالاستانة فقال ما مثاله : ان الخديو كان شديد الرغبة في لقائي لما كان يسمع عني من اولادي واحفادي بمصر فأرسل الي في ذلك فقلت لا بد في ذلك من اذن السلطان فاستأذن غير مرة بواسطة بعض رجال المايين فكانوا يرجئون ويسوفون ويجمعون في الجواب ولا يفصحون وينا انا جالس في الكاغدخانه (متنزه مشهور في الاستانة كالجزيرة بمصر) أصيل يوم من الايام كعادتي واذا أنا بفارس قد اقبل عليّ وترجل مسلماً فقلت من انت ؟ قل عباس حلمي . فكشنا ساعة زمانية نتحدث . وطار الجواسيس الى السلطان بالخبر فأرسل الي فلما لقيت قال : اريد ان تجعلها عباسية ؟ فقلت ان بني العباس قد انقرضوا وبنو عليّ أولى « ثم قال ان مولانا يريد عباس حلمي وهل هي خاتم يدي فأضعها في اي اصبع شئت

وذكر غير هذا الراوي ان السيد لم يفهم ان السلطان يريد بقوله « اريد ان تجعلها عباسية » جعل عباس حلمي باشا خليفة فأجاب بما أجاب . وكنت عند سماع الرواية الأولى فهمت انه قال ذلك أولاً على سبيل المغالطة . فبمثل هذه الأوهام

كان شياطين الانس يوسوسون للسلطان ويخوفونه من السيد حتى حرم الاستفادة منه

وحدثنا الثقة أيضاً ان السيد جمال الدين كان يركب عربته كل يوم بعد العصر فيذهب الى الكاغدخانة ففطن لجاسوس كان يتبعه ماشياً فقال للجماعة السلطان في نفس الماين انكم قد اعطيتموني مركبة وجعلتم لي جاسوساً بغير مركبة فاذا أنا أسرعت بعربي طفق يعدو ورأي وهو يلث كالكلب ولا يدركني فهلا رحتموه فأعطيتموه عربة ليدركني أنى سرت ؟ ؟



(هذه آخر صورة للسيد قبل مرض وفاته)

وقد بالغ الشيخ أبو الهدى في عداوته والكيد له حتى كان يسمى في ايداء من يذكره بخبر أينما كان من بلاد الدولة . وكان يطعن في نسبه ودينه كما هي عادته فيمن يستاء منهم فانه يجردهم من اللباس الذي فصله وخاطه لنفسه ولمن يرضى عنهم من انصاره . وقد كتب إليّ في ٢٩ رجب سنة ١٣١٦ كتابا قال فيه « اني أرى جريدتك طاغية بشقاشق المتأفمن جمال الدين الملققة وقد تدرجت به الى الحسينية التي كان يزعمها زورا وقد ثبت في دوائر الدولة رسما انه ما زندياني من اجلاف الشيعة .. وهو مارق من الدين كما مرق السهم من الرمية » وكذلك قال الشيخ أبو الهدى في امام الصوفية الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي هو من أشهر الشرفاء ، في كتب لفقها باسماء الاموات والاحياء ، ولا ندري في أيّ دوائر الدولة يسجل شتم الناس فنصدق خبر أبي الهدى كذلك كان شأنه في الاستانة في آخر أيامه بمساعي أبي الهدى الى ان توفاه الله اليه



وهذه صورة السيد بعد العملية الجراحية

﴿ خبر مرضه ووفاته ﴾

المشهور انه أصابه وجع في احدى اسنانه أو أضراسه فأشار الطبيب بقلعها فحصل له التهاب في موضعها كان يعالجه له الطبيب ثم ظهر في فكه السرطان فعملت له عمليات جراحية فلم تقف ولم يلبث أن توفي على أثرها فشاع في كثير من البلاد انه مات مسموما كما شاع مثل ذلك في موت الاستاذ الامام وموت السيد عبدالرحمن الكواكبي ولما توفاه الله تعالى صدرت الارادة السلطانية الى الجرائد العثمانية بأن لا تكتب في شأنه شيئا بل ضبطت الحكومة في سوريا جميع الجرائد والمجلات المصرية التي أبنته واعني غير الممنوع منها كالهلال والبيان . وإنا نختم الترجمة ببعض ما كتبه الصحف المصرية من خبر مرضه وموته

جاء في المؤيد الذي صدر في ٥ شوال سنة ١٣١٤ و ٩ مارث سنة ١٨٩٧ مانصه
 « علمنا من اخبار الاستانة العلية ان صحة حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ السيد جمال الدين الافغاني في غاية الاعتلال شفاه الله وعافاه . وقد اقطع حضرته عن الكلام بالمرّة إثر العملية الجراحية الثالثة التي عملت له أخيرا فقطع فيها جزء من لسانه واستنصل الفك الاسفل . وجلالة . ولانا السلطان قد كلف جملة من أطبائه الخصوصيين بعيادته على التناوب ويرسل للاستفسار عن صحته كل وقت رسلا وكثيرا ما يتوجه عطفوا لعزت بك (العابد) من قبل الحضرة السلطانية لعيادته فيجد فضيلة السيد من هذه العاية ما يخفف آلامه لطف الله به

وفي العدد الذي صدر في ١٠ شوال و ١٥ مارث مانصه

انا لله وانا اليه راجعون

« نعت الينا أخبار الاستانة العلية المغفور له الاستاذ الفاضل والفيلسوف الشهير السيد جمال الدين الافغاني .

« توفي رحمه الله في الساعة ١٣ و ٧ دقيقة من صباح يوم الثلاثاء الماضي خامس

شوال (٩ مارث) الماضي (كذا) حيث كان يعود كثير من الحاشية والخدم الذين خصصهم له مولانا السلطان الاعظم في منزله يشكطاش

ولما حضرته الوفاة كان في خدمته كذلك حضرة جورج افندي كوتشي أحد موظفي محافظة مصر سابقا حيث يقيم معه من مدة وهو الذي نفاه الى المايين الهايوني فصدرت الارادة الشاهانية الى سعادة حسن باشا ضابط بشكطاش ان يعد جنازته ويشيعها بالاحتفال اللائق . وبلغ الخبر جماعة من حضرات العلماء الاعلام فبادروا الى منزل الفقيد كما بادر اليه كثيرون من رجال الدولة وبينهم سعادة سهل باشا نجل دوللو فضل باشا العلوي وحضرة علي بك راغب المصري من ضباط البحرية العثمانية وقد شيعت جنازته بالاحتفال اللائق حيث دفنت جسده في قراقة « شيخارمزارغلي » أي مقبرة المشايخ

« ولقد أسف جلالة السلطان عليه شديد الاسف كما حزن عليه أصدقاؤه وكبار المايين الهايوني الذين كانوا يعرفون فضله ويقدرونه حق قدره

« وجاء خبر وفاة الاستاذ الفقيد رحمه الله أمس تلغرافيا على حضرة الفاضل ابراهيم افندي اللقاني فأبلغنا إياه ولكن كان ذلك بعد ما طبع أكثر الجريدة . ثم جاءنا كتاب خصوصي من الاستانة العلية مساء أمس يفصل الخبر بما تقدم ولا شك ان وفاة هذا العالم العظيم تحزن جميع العارفين بفضله وما كان منفردا به من قوة الحجة والعارضة في الكتابة والخطابة مع التضلع الرائد من العلوم العقلية والنقلية وسعة الاطلاع في المعارف الحديثة . فنحن نعزي أنفسنا وكل أصدقائه وتلاميذته على وفاته ونسأل الله تعالى له الرحمة والرضوان »

وجاء في المقطم الذي صدر في ١٥ مارث ما نصه

« بلغنا نعي العلامة الشهير ، الغني عن الوصف والتعريف ، السيد جمال الدين الافغاني بعد صدور جانب من المقطم يوم السبت فذكرناه في الجانب الآخر وما ذاع هذا النبا في أطراف العاصمة حتى جل الخطب على كل أديب ، واشتد الالام على كل من عرف فضل رجل طبق صيته المشارق والمغارب ، وكان منارا للحرية

والعرفان في كل مكان احتله، وتعلقت به افئدة النجباء والاذكياء في كل بلاد اقام بها، ووقعت تعاليمه وآراؤه في نفوس الادباء وقعا عجيبا، حتى انك لتراهم في كل جهة من جهات المشرق يتحدثون في مجالسهم بمواهبه ويتناقلون اقواله، فقد قد الشرق به علما يهتدى بعلمه، وركنا يعتمد عليه، وداعيا الى الحرية يقتدي به في الدعوة اليها، ومقداما لا يهاب كبيرا في المجاهرة بضيمه، ولا يراعي اميرا في ما ليس من رأيه، ولنا ندعي في هذه العجالة ايفاء حقا من حقوقه المتعددة في عالم الأدب والعلم والحرية، على انا سننشر ترجمته مفصلة في المقتطف. وكانت وفاته رحمه الله يوم الثلاثاء في التاسع من هذا الشهر بداء السرطان فراح مأسوفا عليه مبكيا من جميع تلامذته ومريديه واحتفل بآتمه في الاساتنة احتفالا يليق بمقامه ومكارم الحضرة السلطانية فعزى جميع انصار الحرية ومحبي العلوم والفضائل عن فقدته، ونسأل له الرحمة والرضوان ولم طول البقاء من بعده،»

ثم جاء في العدد الذي صدر منه (اي المقطم) في ١٨ مارث مانصه
 « كتب الينا صديق يوثق بروايته تفصيل وفاة المرحوم السيد جمال الدين الافغاني وهو يخالف ما نشر من هذا القبيل قال : رأى الطيب هرون صباح الثلاثاء في ٩ الجاري ان ساعة وفاة السيد قد دنت فقصده جرجي افندي كونيحي صديقه الأمين وأيقظه من نومه قائلا ادرك السيد فقد حضرته منيته وقد تركته. وهو يحاضر فأسرع جرجي افندي الى منزله فوجده في حالة النزاع وليس عنده غير خادمه فلما رآه امسك يده وكلما اشتدت عليه الحشجة حول عينيه اليه، كأنه يرتاح لوقوع عينيه على عينيه، ثم اسلم الروح في الساعة السابعة والدقيقة ١٣ من صباح ذلك اليوم. فأبلغ جرجي افندي المايين خبر وفاته في الحال فجاء بعض الاطباء وشاهدوه ثم أثبتوا المايين وفاته فصدرت الارادة الى حسن باشا ضابط بشكطاش بضبط أوراقه وسائر تركته فحضر حسن اشا ومعه بعض البوليس وبعض الجواسيس ودققوا في البحث والتفتيش وضبطوا كل ما كان باقيا عنده. وفي الساعة العاشرة امروا بدفن الجنازة في مقبرة بجهة نشان طاش اسمها « شيخلرمزارلني » فأرسل جرجي افندي الى اصدقائه يخبرهم وفاته فلم يحضر أحد منهم غير سهل باشا ابن فضل باشا الملاباري

وعلي قبودان راغب المصري ثم حملة اربعة من حمالي الاستانة على اكتافهم وسار بعض رجال البوليس حولهم يخفرونهم ودفن كما يدفن اقل انسان في بلاد آل عثمان وبقي السيد رحمه الله خمسة أشهر يقامي ألم السرطان وعذابه وقطع السلطان عنه راتبه منذ زمان فاشتدت عليه الحاجة والفاقة في مرضه ورجال الماين يشعرون ان السلطان يفيض عليه النعم ويعمره بالاحسان انتهى بمعناه. هذا واأسفاه ما يعامل به الفضلاء اذا قضوا نحبهم في دار السعادة »

وكان المقطم ذكر في العدد الذي صدر في ١٣ مارث و٩ شوال خبر اشتداد المرض على السيد وقال « ويقال ان السلطان ينفق عليه ١٨٠ ليرة في الشهر آملا ان يشفى من مرض قات فيه حيل الاطباء » وهذا يدل على ان المقطم كان يكتب مايبلغه بدون تحامل . ولكن اصحابه لم يذكروا ترجمته في المقتطف كما وعدوا وقد كتب الينا بعض المطلعين على الجرائد المصرية والمتقفين لأخبار السيد من العارفين مايؤيد رواية المقطم الاخيرة في الجملة وزاد ان جرجي افندي انفق على السيد مئتي ليرة وان الماين لما بلغه ذلك بعد موت السيد أراد ان يعطي المبلغ لجرجي فلم يقبله . ومما رواه الكاتب من خبره عند مادعي الى السيد وهو محتضر انه قال « دخلت عليه وهو وحده يماني سكرات الموت فاحترت ماذا اصنع والمحتضر يصلي او يذكر الله الله الله وأنا أدور من حول سريره حتى استأثر الله به »

تأييد مجلة البيان

﴿ وترجمتها للسيد جمال الدين ﴾

كتب الشيخ ابراهيم اليازجي الكاتب اللغوي الشهير في الجزء الثاني من مجلة البيان الذي صدر في اول ابريل سنة ١٨٩٧

﴿ السيد جمال الدين الحسيني الافقاني ﴾

هذا جمال الدين امسى نازلا جدثا تضمن منه أي دفين
قدرد به عم البكاء على امرئ فقدت به الدنيا جمال الدين

« نعمت الينا انباء الاستانة انسان عين الفضائل والكمال ، ومجمع اشعة الحكمة
بل قطب دائرة العلوم على الاجمال ، رُحلة البقاء وقُدوة العارفين ، وقاضي علوم
الدنيا والدين ، السيد جمال الدين الحسيني الافغاني المشهور ، فرع الارومة الزكية ،
وحليل الحسب القائم من منصب السوُدد في الذروة العلية ، فكان لمنه يوم اشتد
وقه على القلوب والمخارج ، وطال في وصفه أنين الاقلام فأمدتها بالدمع عيون الحبار ،
وكيف لا وهو خطيب الشرق الذي رنَّ في الخافقين صدى خطابه ، وامامه الذي
انفتحت انوار اليقين من سماء محرابه ، واستاذ علومه الذي ما فتئت الحكمة تتدقق
بين قوادسه ولسانه ، وتطلع شموس البلاغة من رين خاطره وبيانه ، وتجري مناهل
المرقن رين اقلامه وبيانه ،

« قضى رحمه الله في التاسع من الشهر الغابر بيلة السرطان وقد نشبت منه بين
الملك والنحر ، وهب في مجرى الفصاحة منه ولا عجب ان يدي السرطان في البحر ،
فقبض ذلك اللسان عن تدفق عيابه ، وحيس تلك الدرر فلا يبرز مكنونها من
حجابه ، الى ان نقله الله الى جواره فذهب حميد الابر ، ودقن في قراقة المشايخ
مذكورا بالرحمة ما غاب قمر ، وناح طائر على شجر ،

« وهذه ترجمته فلخصها عن فصل لحضرة العلامة الفاضل الشيخ محمد عبدالمشهر
صدر به تعريب رسالته التي كتبها في ابطال مذهب الدهريين على ما سيجي . ذكره
في الترجمة قال حفظه الله :

(وهنا ذكر ملخص الترجمة التي تقدمت في ص ٢٧ - ٣٥ ثم قال)
« ووقفنا له على ترجمة اخرى باللغة الفرنسية فيها انه بعد ما فارق اوربا سار
يريد نجدا فوافقه رسالة برقية من الشاه ناصر الدين سلطان المعجم يدعوه اليه فتحول
قاصدا بلاده ولما بلغ طهران احتفل به الشاه احتفالا بالغا وادناه منه ورفع منزله
وسماه وزير حربه وكان ينوي ان يرقه الى مقام الصدارة

« وبعدها اقام مدة بيلاد فارس شاع ذكره وتناقلت الالسة فضائله وغزارة علمه
وادبه فتواردت عليه الخاصة من وجوه البلاد وامراتها وعلمائها ورأوا من كمال فضله
وسعة معرفته باحوال السياسة والتاريخ وسائر العلوم قديما وحديثا وتبحره في معرفة

الاديان مع ما رزقه من توقد الذهن و بلة المنطق و قوة الخطاب ما بهرهم وعظم به وقته في نفوسهم فانصرفت اليه الوجوه وملكته القلوب اعنة اهوائها و رأى الشاه أن تسلطه على النفوس يزداد كل يوم وحرمة تعلقه عند الامة فاستشعر خشية من امره و اضمر الحذر من ناحيته و تبين السيد جمال الدين ذلك من قبل الشاه و استأذنه في الانصراف و خرج من البلاد الايرانية فصار الى موسكو ثم تحول الى بارزلشهود معرضها الذي كان سنة ١٨٨٩ وفيما هو مارفي موزنج من بلاد الالمان وافق انشاء بها فاجل ملثقه و دعاه للمصير الى بلاده و ألح عليه في ذلك فسار في صحبته و ما كادت تستقر قدمه في بلاد ايران حتى تألب القوم حوله بما ارى على ما كان منهم في المرة الاولى ثم رغب اليه المتفقون منهم ان يرسم لهم قوانين دستورية تجري بها الاحكام في نصابها من النصفة والعدل وتلزم الاحكام العمل بمقتضاها فأسر جمال الدين ذلك في نفسه ثم تطف في عرضه على الشاه فاستصوبه و مال الى موافقته عليه لكنه لم يلبث ان نكل عن قبوله بمشورة الصدر الأعظم فانه حذره عواقبه بحجة ان الامة غير متأهبة له فصلا عن انه يؤدي الى تقييد سلطة الشاه و ربما كان سببا في تقويض عرشه فلما رأى جمال الدين ذلك خرج الى المشهد المعروف بشاه عبد العظيم وهو مقام مبني على نحو اثني عشر ميلا من طهران يفضى اليه بسكة حديد فاستمر اقوم يختلفون اليه في مقامه ذاك يفاوضونه فيما اشربته قلوبهم من أمر القوانين والاحكام الى ان اتى على ذلك نحو من ثمانية أشهر وأمره لا يزداد الا انتشارا حتى ثارت الخواطر في جميع اطراف البلاد

و تخوف الشاه عاقبة ذلك على ساطنانه فوجه الى الشاه عبد العظيم خمس مئة فارس مدججين بالسلاح فقبضوا عليه وهو مريض في فراشه وقاده خمسون منهم الى الحدود العثمانية فكان عن ذلك هرج شديد في البلاد الايرانية وانتشرت المشاغب وكثرت الرسائل والمنشورات وتواردت على الشاه كتب التهديد بان يجري على مقترحهم أو يخلع نفسه من الملك حتى بلغ منهم ان حاصروه يوما في قصره . وسار جمال الدين بعد ذلك الى البصرة لتفاهم العلة عليه بسبب اشتداد البرد في تلك الديار فلبث بها سبعة أشهر الى ان تماثل من مرضه ثم نهض متوجها

الى لندره فأنشأ بها جريدة سماها ضياء الخالقين) أكثر فيها من الطعن في سياسة
الشاه وتهيج خواطر الامة من رعيته عليه وكان يكثر التردد الى المحافل السياسية
يخطب فيها في امر الشاه وحض رجال الدولة الانكليزية على خلعه واقام على
ذلك مدة ثمانية أشهر وفي اعقاب ذلك بعث السلطان عبد الحميد يستدعيه اليه على
يد رستم باشا سفيره في لندره فأجاب بعد ما امتنع على ان يؤذن له في العودة الى
أوربا متى شاء. وقدم الاستانة سنة ١٨٩٢ فتلقاء السلطان بتعطفاته واحسانه واجرى
عليه زرقا واسعا وكان كثيراً ما يدعوه ويخلو به في اغراض سياسية ليس من شأن
هذه المجلة التعرض لها ولا لغيرها مما اتفق له من الحوادث مدة اقامته بالاستانة
حتى ظهر فيه الداء فالزمه الفراش أشهرا قاسى في اثناها عذابا واصبا الى ان اختار
له الله ما عنده فذهب مأسوفا عليه تغمده الله برضوانه وافرغ عليه سبحانه
رحمته وغفرانه

هذا ما وقع الينا من ترجمة هذا الرجل الشهير وهي كما تراها أدنى ان تكون
ترجمة رجل سياسي قد جعل نُصب ناظره غرضا بعيدا لا تبلغ اليه ذراعه، ولا
تصبر عن همته وأطماعه، فهو أبدا تمثال يقظته وطيف منامه، وحديث خواطره
في رحلته ومقامه

وكنت إذا أرسلت طرفك رائدا قلبك يوما أتيتك المناظر
رأيت الذي لا كله انت قادر عليه ولا عن بعضه انت صابر
فأقبل يضرب اليه آباط المسالك، ويكثر في التماسه من الحركة في البلاد
والتقل في الممالك، لا تستقر له قدم ولا يقف على ساق، ولا ينزل رحله في أفق
من الآفاق، ولسان حاله ينشد قول المتنبي:

يقولون لي ما أنت في كل بلدة وما تبتغي؟ ما أبتغي جل ان يُسمى
وإنما تدرك الآمال، بمضافة الرجال، وتبلغ الأوطار، بموازرة الأقدار،
ولا نصبر اذا لم ينصر القدر، ولا رفيق اذا تورعت شقة السفر، وكانت محفوفة
(١٣ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

بالخطر ، فلا عجب اذا قصر مشايهوه عن مجاراته ، وتخاذل مريدوه عن موالاته ،
فكان كما قال المتنبي أيضا

وحيد من الخلائف في كل بلدة اذا عظم المطلوب قل المساعد
وانما هي نفسه الكيرة اقدمت على ركوب العظام ، ومته ان يبلغ منفردا
مالا يبلغ الا بالجيوش انخضارم ، فلا مأربا نال ، ولا نفسه أقال ، ولكنه اضاع أيامه
في الطلب ، ولم يحسن من أمانيه سوى النصب ، وما أحسن ما قال المتنبي أيضا
واذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الاجسام
وانما انزع المتنبي هذه المعاني من صحيفة أيامه ، وما قرأ فيها من تخلف جده وتقدم
إقدامه ، كما قال :

أبدأ أقطع البلاد ونجسي في هبوط وهمي في صعود
قد طبع الرجلان على غرار واحد وان تفاوتا المحتدان ، ونشأ في منشأ واحد
وان تباين البلدان ، فدرج كل منهما بين صليل السيوف وصهيل الجياد ، وترعرع بين
مزاحف الصفوف ومواقم الجلاد ، في بلاد لا حكم فيها الا للغالب ، ولا شرع الا ما
حكمت به شفار القواضب

وحقيق بمن ربي على مثل تلك الحال ، ان يخرج صلب النفس رغب الآمال ،
ولاسيما اذا كان له قديم يرجع اليه يبصره ، او فائت يستحبه للكر على أثره
وعجيب من مثل السيد على استضاءة بصيرته بنور اليقين ، ووضه بين حاشيتي
علوم المتقدمين والمتأخرين ، ووقوفه على يفاع من الحكمة بجمع الدنيا به بنظرة ،
ويستقصي اطرافها بلمحة ، وقد تجردت له عن زيتها وزخارفها ، وأماطت له اللثام
عن أباطيلها وسفاسفها ، أن يبقى في نفسه مكان شيء منها يقال له الرئاسة ، وتزع
همته الى حال من احوالها تسمى بالسياسة ، بل ما كان اجدره وقد رزق من توقد
الذهن وسعة المحفوظ ما كان فيه آية من آيات الله ، وأوتي من قوة الحكم وسرعة
الخطاير ما انفرد فيه عن النظراء والاشباه ، ووعى في صدره من انواع العلوم العقلية
والنقلية ما كان فيه نسيج وحده ، ومن سياسات الممالك وتواريخ الامم ما عجز على غيره
من بعده ، ان ينزل نفسه من دنياه حيث انزلته الفطرة ، ولا يتعدى ما قسم له القدر

ووجد من نفسه عليه القدرة، فيجعل أيامه وقفا على الاشتغال والنفع، واستزادة ماشاء الله من العلوم مما هو متأهب له بالطبع، وتسطير ما يفتح به عليه مما غفل السلف عن تدوينه، أوفاتهم الوصول إليه من علوم هذا العصر وفنونه، ولو فعل لكان إمام الدنيا ملا مدافع، وكانت حياته طالحة بالفوائد والمنافع، وتجاوزت الآفاق من صدى ذكره بما لا يأتي عليه كرور الليال، ولا يتقرض الا باقراض القرون والاجيال، فسبحان من لا يشغله شأن عن شأن وهو الكبير المتعال،

اه ما كتبه اليازجي ونحجب عما نعجب منه بكلمة واحدة وهي ان السيد رحمه الله كان يشتغل بالسياسة لانه يرى أنها اذا لم تصلح لاتدع احدا يعمل إصلاحا، ولا يطلب فلاحا، ولا ينشر علما يرقى به الأمة، ولا بطوي وهما يكشف به الغمة، وان هي سمحت لمثله بالإصلاح يث العلوم، وترية الارواح والعقول، فان طريق ذلك يطول عليه، وربما حالت المطامع الاجنبية دون الوصول اليه، فهو ما اختار الإصلاح من طريق السياسة الا لا اعتقاده ان العمل من طريقها أسرع تأثيرا من العلم والكتابة لا لأجل الرياسة كما علم من مجموع ترجمته

وكتب صاحب مجلة الهلال ما ملخصه :

﴿ السيد جمال الدين الحسيني الاقناني ﴾

(ولد سنة ١٢٥٤ هـ (١٨٣٩ م) وتوفي سنة ١٣١٤ هـ (١٨٩٧ م))

قد تمر القرون وتتوالى الاجيال والناس على ما ساقهم اليه الحاجة في شؤون معاشهم لا يفقهون غثا من سميتها ولا يدركون مبدأها ولا مصيرها حتى تتخض الطبيعة قلند من ابنائها افرادا يميطنون عن اسرارها اللثام فيرى الناس من ورائه شرائع ونواميس كانوا عنها غافلين. أولئك هم أقطاب العلم وأنوار العالم ومنهم الفلاسفة الطبيعيون الذين مزقوا استار الجهل وكشفوا غوامض الطبيعة فهدوا سبل الاختراع والاكتشاف ومنهم الفلاسفة العقليون الذين استطلعوا اسرار الحكمة

المستترة وراء تلك النواميس وينبوا ما أودعه الخالق في خليقته من القواعد العقلية والروابط الأدبية

ولكن الطبيعة لا تمجد بواحد من أولئك الأفراد إلا كل بضعة قرون فيسير الناس على خطواته أجيالا حتى إذا كادوا يرجعون إلى غيهم جادت عليهم بآخر ينفث فيهم روحا حية فيتهون من رقادهم ويعودون إلى رشدهم رينما يأتبهم ثالث هكذا كان شأن العالم في بدء عمرانه ومن أولئك الفلاسفة سقراط وأفلاطون ومن تقدمهم وجاء بعدهم من فلاسفة اليونان والرومان والفرس والعرب وغيرهم من علماء العقول والمقول ممن لا تزال نستضيء بنبراسهم ولكن الله في خلقه حكمة لا تدركها العقول فقد ينبغ في بعض الاجيال افراد توفرت فيهم قوى الفلاسفة ومواهب رجال الاعمال فتحيط بهم ينثات لا تصلح لنماء ما يفرسون فيذهب سميهم هباء مشورا

ولما كان الانسان لا يقدر العمل الا بنسبة ما يترتب عليه من الفائدة كان نصيب كثيرين من عطاء الارض جهل الناس حق قدرهم واغفال التاريخ ذكرهم كما هو شأننا بقعيد الشرق الفيلسوف الخطيب السيد جمال الدين الافغاني رحمه الله فقد نشأ قطبا من اقطاب الفلسفة وعاش ركنا من اركان السياسة ولكنه مات ولم يتم عملا ولا الف كتابا . على أن ذلك لا يحبط من مقامه وقد رأينا اعظم فلاسفة اليونان (سقراط) مات ولم يدون شيئا من كلامه ولكن تلامذته حفظوا فلسفته ودونوها فتوارثتها الاجيال خلفا عن سلف . فحسى ان لا نحرم من مريدي الاستاذ وتلامذته من يفعل مثل ذلك »

ثم ذكر الهلال ملخص ترجمة الاستاذ الامام له مع زيادات منها ما كان من شأنه في بلاد فارس على نحو ما ذكر في مجلة البيان . ومنها قوله قبل ذلك « وقضى جمال الدين في باريس ثلاث سنوات نشر في جرائدها مقالات تبحث في سياسة روسيا وانكلترا او الدولة العلية ومصر ترجمت جرائد انكلترا كثيرا منها وجرت له أبحاث فلسفية مع الفيلسوف الفرنسي رينان في « العلم والسلام » فشهد له هذا بسعة العلم وقوة الحجته ثم شفع إلى لوندرا بايمارز اللورد شرشل واللورد سالسبري ليسالام عن رأيه

في المهدي وظهره إذ ذاك . ثم عاد إلى فرنسا وتعرف بكثيرين من علمائها وفلاسفتها فأحلوه مكانا عاليا ، اه . ومما قاله في شمائله :

(مجلسه وخطابه) كان أديب المجلس كثير الاحتفاء بزائريه على اختلاف طبقاتهم ينهض لاستقبالهم ويخرج لوداعهم ولا يستنكف من زيارة أصغرهم على امتناعه من زيارة أكبرهم إذا ظن في زيارته تزلزا . وكان ذا عارضة وبلاغة لا يتكلم إلا باللغة الفصحى بعبارات واضحة جلية وإذا آتس من سامعه التباسا بسط مراده بعبارة أوضح فإذا كان السامع عاميا تنازل إلى مخاطبته بلغة العامة . وكان خطيبا مصقعا لم يقم في الشرق أخطب منه ، اه .

يقول مؤلف الكتاب . حدثنا الدكتور شبلي شميل انه شهد خطبة له في الاسكندرية وكان قريب العهد بمصر فوقف ساعتين يتكلم بلسان عربي فصيح وإلقاء حسن لكلام مفيد حتى أدهش الناس . أو ما هذا معناه

هذا وإن كثيرا من الفرس يقولون إن السيد جمال الدين فارسي لا أفغاني فكلمة أبي الهدي لها أصل عن غيره زاد عليها من عنده كما هي عادته فقد ذكر في كتبه التي عزاها إلى الرفاعية طعنًا مثل هذا في نسب السيد عبد القادر الجيلاني سواء بسواء وقد قل لنا بعض علماء الفرس إن أسيرة السيد هي من بيوت العلم والشرف في بلاد فارس وقد هاجرت إلى الأفغان وأن السيد جمال الدين ولد في بلاد الأفغان فهو أفغاني منشأ فارسي في الأصل . ومن الناس من يظن أن ادعاء بعض الفرس أن السيد منهم هو من قبيل ما جرت به العادة في الرجال العظام من تنازع الشعوب لهم

وجملة القول أن هذا الرجل كان آية من آيات الله وأن عمله في البلاد الإسلامية لم يكن قليلا فهو الذي نقل مصر من طور إلى طور وأحياها حياة جديدة لم يسبق لها نظير في تاريخها فانها كانت في كل أدوارها مستعبدة للحكام لم يخطر في بال شعبها أن يكون له شأن في حكومتها حتى في حركتها الأوربية الأخيرة في عهد يت محمد علي فأننا لم نقرأ لمن ترجموا الكتب الأفرنجية ولا لمن ألفوا الكتب

المصرية ولم نرو عنهم كلمة تشير إلى وجوب جعل الحكم في البلاد مقيدا برأي أهلها حتى جاء السيد جمال الدين فأسس الحزب الوطني المصري لأول مرة على هذا الأساس كما يعلم من مقالاته وخطبه التي كان يلقيها على تلاميذه (١) ثم انه هو الذي كسر مقاطر التقليد الفكري والديني واللغوي فكان إمام النهضة العلمية والقلبية والدينية في مصر وغيرها كما كان إمام النهضة الاجتماعية والسياسية وهو أيضا إمام النهضة الاجتماعية السياسية في بلاد الفرس الذي بذر في نفوس الفارسيين بذرة الحكم الشوري كما تقدم . ولو انه انقطع إلى التصنيف لما كان بوجوده مثل هذا التأثير الكبير

وقول في خاتمة ترجمته انه لو لم يكن له من الأثر إلا الشيخ محمد عبده لكفى كما قال كثير من العلماء في شيخ الاسلام أحمد بن تيمية انه لو لم يكن له من الأثر إلا تلميذه ابن قيم الجوزية لكفى . ولتعد إلى ترجمة الاستاذ الإمام فقد جمع القلم في ترجمة السيد حتى جاء فيها بأكثر مما وعدنا به رحمه الله رحمة واسعة

﴿ دخول الاستاذ الامام الامتحان ﴾

(في الازهر)

بعد ان تلقى رحمه الله تعالى ما تلقاه على شيوخ الازهر وعلى السيد جمال الدين كما سبق البيان عرض نفسه على لجنة الامتحان لأجل شهادة العالمية كما هو المهود وقد كتب عن امتحانه ما نصه :

« عرضت نفسي على مجلس الامتحان في ١٣ جادى سنة ١٢٩٤ هجرية وابتليت في الامتحان أشد الابتلاء لتعصب الأكثر من أعضائه مع المرحوم الشيخ عليش وكان يعاديني على الغيب اتباعا لآراء من لا رشد عندهم من بلاد الطلبة ، وكانوا قد أجمعوا أمرهم على ان لا يمنحوني درجة مافي العلم وجرت أمور قبل الامتحان

(١) راجع مقالاته في الحكومة الاستبدادية في (ص ٥٧٧ و ٦٠١) من

مجلد المنار الثالث وربما ننشرها مع مقالات أخرى له في ملحق لهذا الكتاب

يطول شرحها ولكن كان أمر الله أغلب فخرجت من هذا الامتحان بالدرجة الثانية وصرت مدرسا من مدرسي الجامع الأزهر وأخذت أقرأ العلوم الكلامية والمنطقية الخ وقد أخبرني رحمه الله أن بعض الشيوخ تقاسموا قبل الامتحان بينا مؤكدة لا يأخذن فلان درجة ما ولما وقع الامتحان ورأوا من حسن الجواب عما سأله فوق ما كانوا ينتظرون ، طفقوا يناقشون ويراجعون ، وينتقلون به ويستطردون ، حتى صار الامتحان مناظرة ، تتولاها المشاغبة والمكابرة ، فعند ذلك حلف الشيخ العباسي أنه لم يراحد امتحن في عصره مثله وأنه لو كان فوق الدرجة الأولى درجة ممتازة لاستحقها فأراد أحد الشيوخ وأظنه الشيخ الرافعي أن يوفق ويصلح فأخذ الورقة وكتب له بالدرجة الثانية وطفق يعرضها على اخوانه الذين كانوا متقين على حرمانه لبوقعوا عليها فوقعوا ثم أعطوها للشيخ العباسي فأمضاها لهم ولم يحب أن يراجعهم بعد أن رأى منهم ما رأى فظفروا ببعض المطلوب وهو حرمانه من الدرجة الأولى ، ما كانوا ضارين .

﴿ طلبه العلم بعد التدريس ﴾

هذا مجمل سيرة الرجل في تلقي العلم عن الشيوخ منذ بدأ إلى أن صار مدرسا وانك لتجد أكثر طلاب العلوم عندنا يعدون أخذ شهادة العالمية غاية التحصيل والتعلم فلا تتوجه منهم بعده إلا إلى استغلال العلم وطلب المال به واحراز الجاه والمكانة عند الناس بما ينالون به من وظيفة وعمل . وإن صاحبنا لم يسلك مسلكتهم بل سار على سبيل سلفنا الصالح الذين يوتر عنهم : اطلب العلم من المهد إلى اللحد . فكان يقول إلى آخر حياته اني لا أزال طالب علم أبقي المزيد منه في كل يوم . فكان له في طلب العلم ثلاثة أدوار أولها الطلب على طريقة الأزهر المعروفة من المناقشة في عبارات كتب المؤلفين وقراءة المتن مع الشروح والحواشي والتقارير . سلكها زمنا حتى ملها وتوجهت نفسه إلى علم أعلى وفهم أجلى فقيض الله تعالى له ذلك العلامة الحكيم السيد جمال الدين فقرأ له علوما أخرى على طريقة أسهل مسلكتها وأقرب غاية ، فانتاشه من الإخلاد إلى أرض العبارات الركيكة والاساليب الضعيفة ، والاحتمالات البعيدة ، ورفعه إلى سما عرفان الحقيقة ، والافصاح عنها بالعبارة البليغة ،

بعد إطلاقه من قيود تقليد المؤلفين ، وتعويده الحكم باليقين ، فهذا هو الدور الثاني وهو خاص كسابقه بالعلوم الاسلامية ، التي كتبت باللغة العربية ، مع شيء قليل من العلوم الحديثة ، وتطبيق العلم على حال المسلمين الأخيرة ، وأما الدور الثالث فهو النظر في علوم الافرنج قرأ رحمه الله كثيرا مما ترجم من الكتب ثم تعلم اللغة الفرنسية فصار يقرأ الكتب فيها لا يكاد يتركها يوما من الايام . وكانت عنايته بعلوم الاخلاق والنفس وأصول الاجتماع الانساني والتاريخ وفلسفته وفن التربية أشد من عنايته بآثر العلوم وقلماء علم بكتاب لافرنجي يتكلم فيه عن الاسلام والمسلمين الا واستحضره وقرأه وقد قرأ عدة كتب في تربية الارادة خاصة ، وفي سفره الاخير الى سويسرة تعلم هناك القلم المسند لانه علم ان في بعض المكاتب الاوربية كتابا فيه وإن الانكليز تقلوا من حضرموت بعض ما هنالك من الآثار الحميرية ولذلك دخل كثير في تاريخ العرب والاسلام . وهذه العلوم الافرنجية هي التي أعطته القوة العظيمة في المدافعة عن الاسلام وفي زيادة البصيرة بخدمته لانه عرف من أين يهاجمه أعداؤه وكيف ترد هجماتهم . وكان يقول من لم يعرف لغة من لغات العلم الاوربية لا يعد عالما في هذا العصر وقد كتب لي في ترجمته لنفسه عن تعلمه اللغة الفرنسية مانصه :

« بدأت بتعلم اللغة الفرنسية عندما كانت سني أربعا وأربعين سنة ولكن ميلي الى تعلم لغة أجنبية ابتداء في أثناء الحوادث العراقية فتعلمت الهجاء ثم تركته ونسيتة هربيا وعند ما سافرت الى فرنسا أول مرة أقمت هناك عشرة أشهر كنت أحرر فيها جريدة العروة الوثقى ولم أعلم شيئا من الفرنسية لان اجتماعي كان بالسيد جمال الدين ورفاق من العرب واشتغالي بتحرير تلك الجريدة ما كان يسمح لي بوقت كاف للتعلم بدراسة منتظمة فذهب على ذلك الزمن بدون فائدة في اللغة لا كثيرة ولا قليلة . أما بعد عودتي من النفي الى مصر واشتغالي بالقضاء في المحاكم الاهلية والحكم بها خصوصا في الجنائيات على أصول القوانين الفرنسية وجلوسني بين قضاة يغلب عليهم الملم بتلك القوانين في لغتها فقد قري عندي الميل الى تعلم اللغة الفرنسية حتى لا أكون في معرفة القوانين أضعف من أجلس معهم مجلس القضاء وبعد مجيئي الى القاهرة واشتغالي بالقضاء في إحدى محاكمها وجدت الوقت والحال مناسبين للبدء في العمل

فبحثت عن معلم فوجدت أستاذاً لا بأس به فدعوته فجاءني حاملاً كتاب نحو في يده (كرامير) فسألته ماهذا فقال كتاب نحو قلت له دلا وقت عندي لأن أبتدي وإنما عندي زمن لأن اتهي ، ثم ناولته قصة من تأليف ألكسندر دوماس وقلت له أنا أقرأ وانت تصلح لي النطق وتفسر لي الكلم وما عدا ذلك فهو علي والنحو يأتي في أثناء العمل ، وهكذا أتممت الكتاب وكتابا بعده وثالثا عقبه وكنت أطلع وحدي بصوت مرتفع كلما وجدت نفسي في بيتي خاليا فتملعت مبادئ اللغة الفرنسية وحصلت منها ما كان يمكنني من القراءة والفهم لكن ما كنت أستطيع الكلام « سافرت بعد ذلك الى فرنسا وإلى سويسرا عدة مرات في أيام العطلة الصيفية وكنت أحضر دروس العطلة في كلية جنيف وبهذه الطريقة تعلمت اللغة الفرنسية في أوقات الفراغ مع اشتغالي بالقضاء في المحاكم الابتدائية ومحاكم الاستئناف . ثم ان الذي زادني تعلقا بتعلم لغة أوربية هو أنني وجدت انه لا يمكن لأحد ان يدعي انه على شيء من العلم يتمكن به من خدمة أمته ويقدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغي إلا اذا كان يعرف لغة أوربية كيف لا وقد أصبحت مصالح المسلمين مشبكة مع مصالح الأوربيين في جميع أقطار الارض وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خبرهم أو للخلاص من شر الشرار منهم » اهـ

هذا ما يقال في طلبه للعلم وفيه عبر كثيرة لمن يعتبر بسير العطاء ، وتاريخ أفراد الحكماء ، أولها نفوره من التقليد والتسليم للشيخ بما يقولون من غير أن يفهموه وهذا هو مبدأ استقلاله بنفسه ، الذي فاق به أبناء جنسه ، وأوسطها عدم كفايته بما أتى عليه شيوخه في أكبر معاهد العلم في بلاده ، حتى صار يبحث عن علوم أخرى ويلتمس اساتذة آخرين ، وخاتمها عدم الغرور بنفسه والرضا بما حصله على تفوقه فيه بل عمل بقول السلف « اطلب العلم من المهد الى اللحد »

الفصل الثالث

﴿ في تريته الروحية وتصفوه ﴾

قد علم مما مر شي من تريته الأولى منها أنه نشأ في بيت يوصف أهله بالاخلاق
الفطرية الحيدة التي لا ينقصها الانور العلم وقد كان له وانه لم يعن في صباه إلا بالفروسية
وأعمال الرجولية فكان يلعب بالسلاح ويسابق الناشئين معه على ظهور الجياد ويكثر
من السباحة وهذه الألعاب مما يحسن أن يربى عليها الولدان بالقصد كما قال الحكماء
وعلماء التريّة وهي مما يربى عليه أولاد الملوك والأمرأ في أوربا

بعد ان أخذ حظه من هذه التريّة الفطرية أخذ الشيخ درويش خضر
بالتريّة الدينية فألزمه العزلة ومجاهدة النفس . وكان من جبلته أن يأخذ كل شي
بقوة فكان في مدة طلبه للعلم يصوم النهار ويقوم الليل بالصلاة والتلاوة والذكر
ويمشي مطرقا لا ينظر الا حيث يضع قدميه ولا يكلم أحدا الا للضرورة وقد ظل عدة
سين لا يلقي نظره على امرأة أجنبية حتى في الطريق . وقد كان لكثرة الانهماك في الذكر
والفكر والنظر في كتب التصوف والتنقل في أحوال القوم ومقاماتهم يخرج عن حسه ويزج
في عالم الخيال أو عالم المثال كما يقولون فيناجي أرواح السابقين . ولو كان يجيز شرح
ذلك لشرحناه ولكنه كان يقول ان ما يحصل للصوفية من الاحوال غير الطبيعية لا يجوز
ذكره لغير العارف به ولا تجوز كتابته بحال ولو كنت ملكا لحكمت بقتل الذين
يكتبون ذلك لانهم يفتنون كثيرا من الناس ولا يفيدون به أحدا . وقال ما معناه
ما زج أحد نفسه في عالم الخيال ثم قدر على الخروج منه الا ان يجذبه جاذب آخر
ويخرجه منه وذلك قليل

وأقول إن السيد جمال الدين هو الذي أخرجه منه ، ورقى به الى ما هو
خير منه ، ولم يتمكن من ذلك الا بعد ان جراه عليه زمانا عرفه به أنه أعرف بتلك
المعاهد ، وأسبق الى تلك المشاهد ، بما كان يحل له من عقد كلام الصوفية التي يعجز

عن حلها ، حتى أقنعه بأنه من أفراد أهلها ، ولو كان الجماهير من الناس يعرفون في أيام حادثة الشيخ عlish شيئا من أمر الرجل في تصوفه وتنسكه لماجوا على الشيخ عlish وان كانت شهرته بالصلاح عظيمة وعلى من وشى اليه من فساق المجاورين ولا خاضوا في قعيدنا بالذي خاضوا ولكنه كان يبالغ في كتمان ذلك خوفا من الرياء وحب السمعة والامة مستعدة للشر وكانت الشبهة عليه حضور كتب الفلسفة والكلام على عالم غريب وهو السيد رحمهم الله أجمعين

قلنا ان السيد جمال الدين هو الذي قل قعيدنا من حال الى حال في التربية كما قلنا في العلم وكان الشيخ درويش هو الذي مهله السبيل للأمرين . وقبل ان تنقل من الكلام في تربيته وتعليمه الى الكلام في عمله وإصلاحه نذكر ان الشيخ درويشا هو الذي رباه أيضا على التعرض للإرشاد الديني والتصدي لنصيحة الناس فهد السبيل التي سلكها به السيد جمال الدين - سبيل الإصلاح العلمي والاجتماعي . ذلك ان الشيخ درويشا رأى ان مريده قد كملت نفسه بعد العزلة الطويلة وكل سلوكه فصار بآمن من المعاشرين الذين يقطعون الطريق على المريدين فأمره بمخالطة الناس والتعرض لإرشادهم وقد كتب لي رحمه الله في ذلك ما نصه :

« قلت اتني كنت في أوائل مدة طلب العلم بعد مجيئي الى الازهر في عزلة عن الناس الا من استفيد منه علما أو نصيحة لكن بعد مضي سبع سنين على ذلك - والشيخ يقودني في سبيل الرياضة وقهر النفس على المكاره بالصوم تارة ولبس الخشن والتعرض لانتقاد الناس تارة أخرى . قال لي عندما رجعت الى محلة نصر في سنة ١٢٨٨ : الى متى هذه العزلة وما الفائدة في العلم ونحصيله اذالم يكن لك نورا تهتدي بهويتهدي به الناس ؟ ان من المكروه أن تستأثر بالفائدة دون أهل ملك وان من لم ينفع بما تعلم قد أضاع أهم ثمرة تقصد من غراس المعرفة فملك ان تخالط الناس وتعظم وترشدهم الى الطريق القويم والسنة الصالحة : فذكرت له اشمنزازي من الناس وزهادتي في معاشرتهم وثقلهم على نفسي اذا لقيتهم وبعدهم عن الحق وفترتهم منه إذا عرض عليهم فقال لي : هذا من أقوى الدواعي الى ما حثتلك عليه فلو كانوا جميعهم هداة مهدين لما كانوا في حاجة اليك : ثم أخذ يستصحبني في مجالس العامة ويفتح

الكلام في الشؤون المختلفة ويوجه اليّ الخطاب لا تكلم فيتكلم الحاضرون فأجيهم وأنطلق في القول على وجل في أول الامر وما زال بي حتى وجد عندي شيء من الألفة مع الناس والاستئناس بمكالمتهم وفي شوال من تلك السنة ودعني وبكى بكاء شديدا ومات في السنة الثانية رحمه الله تعالى ، اه أقول يظهر أنه أحس بأن عمله قد تم بتكامل تربية مريده وأنه ألهم بأنه قد دنا أجله إذ تم عمله فبكى بكاء مودع وللصوفية من هذا الإلهام والشعور ، ما هو معروف مشهور ،

ومن تدبر كيفية تربية الشيخ درويش للرجل وكان عارفا بطرق الصوفية يعلم أنه يصدق على طريق الشيخ درويش ما قاله أبو السعود بن الشبل عن نفسه وعن شيخه عبد القادر الجيلي قال « طريق عبد القادر في طريق الأولياء غريب وطريقنا في طريق عبد القادر غريب » وأبو السعود هذا هو الذي كان يقول محيي الدين ابن العربي فيه وفي شيخه أن الشيخ عبد القادر أعطي حال الصدق فكان صاحب ظهور والشيخ أبا السعود أعطي مقام الصدق فكان نكرة لا تعرف .

وهكذا كان شيخنا محمد عبده في الصوفية نكرة لا تعرف أي أنه صاحب مقام لا تغلبه الأحوال ، ولا يسهل عليه التأثير في نفوس الأغيار ، ولا يحتاج إلى كلفة في إخفاء ما هو فيه ، وكنمان ما وهبه وأعطيه ، فكان مقامه مقام الصدق كالشيخ أبي السعود ابن الشبل ، ولذلك كان يظن المحجوبون عن خصوصيته أنه كان من أبناء الدنيا ، ومن رآه منهم غير مبال بالمال ، ولا مبال إلى زينة الأثاث والرياش ، ظن أن حب الجاه هو الذي غلب عليه . ولكن من وقف على تاريخه يعلم أن هذا الظن من الباطل فإنه كان يخفي ما استطاع كل ما من شأنه توسيع دائرة جاهه من الأعمال ، ولما عاد من منفاه في سورية إلى مصر وأراد توفيق باشا أن يجعله قاضيا في المحاكم الأهلية قال اتني خلقت لا تكون معلما لا لا كون قاضيا واتني أعلم انني إذا دخلت القضاء أرتقي إلى أعلى درجاته ومع هذا أختار أن أكون معلما في مدرسة دار العلوم على علمي بأنه لا ارتقاء في صنعة التعليم ، كما سيأتي

ولما بلغ أنه صار مفتيا انكشف وأخبرني بذلك وهو ممتعض حتى لم أنطق بكلمة تشعر بالسرور أو التهنئة ولكنتي قلت له ومالي أراك متقبضا ؟ قال لأن هذه

وظيفة لا عمل فيها . وسيأتي لذلك مزيد بيان في الكلام على أخلاقه وإنما غرضنا الآن ان نبين شيئا من تربيته الصوفية لا آثار هذه التربية في الاخلاق والعمل وان ما نريد من ذلك يتوقف على بيان شيء من حقيقة التصوف ومن أحوال طرق الناس فيه قديما وحديثا فنذكر من ذلك مالا بد منه لمن يريد ان يعرف الحقيقة التي نربي اليها فنقول

ما هو التصوف

يقال تصوف الرجل إذا صار صوفيا لا معنى للكلمة غير هذا ولهذا البناء اصل معروف لاتزاع فيه فهو كيهود اذا صار يهوديا ومنه الحديث «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» ولكن وقع الخلاف في الصوفي الى أي شيء ينسب فأشهر الأقوال وأقربها من اللفظ ان يكون نسبة الى الصوف لأن القوم كانوا يكثر من لبسه وعارض فيه بعضهم بأنه لم يكن خاصا بهم ولا كان كلهم يلبسه أو لم يكن شعارا لهم . وزعم بعضهم ان اسم الصوفي مأخوذ من الصفاء وانشدوا:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا فيه وظنوه مشتقا من الصوف (*)
ولست امنح هذا الاسم غير قتي صافي وصوفي حتى سمي الصوفي

وزعم آخرون انه من الصفة نسبتة الى أهل الصفة من الصحابة أي الذين كانوا يلازمون صفة المسجد لقرهم واقطاعهم للعبادة وحفظ القرآن واللغة تنفي هذا النسب وتبرأ منه . ويقول بعض الناس ان الصوفي منسوب الى كلمة «سوقا» أو «سوفي» بعد التصرف فيها بالتعريب والكلمة يونانية معناها الحكمة والصوفية الحقيقيون كلهم طلاب حكمة وهم من صنف الفلاسفة الاشراقيين عند اليونان . وذلك انه لما دخلت الفلسفة اليونانية البلاد الاسلامية أخذ كل أناس منها ما يناسب استعدادهم ففني بعض الناس بالعلوم النظرية وبعضهم بالعلوم العملية مع العمل وذلك قسمان قسم يتعلق بالظاهر كالطب وقسم يتعلق بالباطن كرياضة النفس وتهذيب الاخلاق وهذا هو موضوع التصوف ويعرف أهل التاريخ ان هذا التصوف قديم العهد في البشر فهو معروف عند

(*) ويرى المصراع الثاني هكذا * وكلمهم قال قولاً غير معروف *

براهمة الهند الى اليوم وعند أهل الصين أيضا ومن الصينيين طائفة يسمون أهل الطريقة لهم شارات كشارات أهل الطريق وأعلام يكتبون عليها كلمات دينيه كالذي تراه كل يوم عند أهل الطرق

وذهب الحافظ ابن الجوزي في كتاب «تليس ابليس» الى ان الصوفية نسبة إلى رجل يقال له صوفة قال

« كانت النسبة في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الاسلام والايمان فيقال مسلم ومومن ثم حدث اسم زاهد وعابد ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد فتخلوا عن الدنيا واقطعوا الى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها واخلاقا تخلقوا بها ورأوا ان أول من انفرد بخدمة الله سبحانه عند يته رجل يقال له صوفة واسمه الغوث بن مر فانتسبوا اليه بمشابهتهم اياه في الاقطاع الى الله سبحانه وتعالى قسموا بالصوفية . وعن ابن سعيد الحافظ قال سألت وليد بن القاسم إلى أي شيء نسب الصوفي فقال كان قوم في الجاهلية يقال لهم صوفة اقطعوا الى الله عز وجل وواظنوا الكعبة فمن تشبه بهم فهم الصوفية . قال عبد الغني فهو لاء المعروفون بصوفة ولد الغوث بن مر اخي تميم بن مرة . وعن الزبير بكار وقال كانت الاجازة بالحج للناس من عرفة الى الغوث بن مر بن أذ بن طائحة (ثم كانت في ولده وكان يقال لهم صوفة وكان اذا حانت الاجازة قالت العرب «أجيزي صوفة» قال الزبير قال ابو عبيدة صوفة وصوفان يقال لكل من ولي من البيت شيئا من غير أهله اذا قام بشيء من أمر المناسك يقال لهم صوفة وصوفان . وعن ابن السائب الكلبي قال انما سمي الغوث ابن مر صوفة لانه كان لا يعيش لأمه ولد فنذرت لئن عاش لتعلقن برأسه صوفة وتجمعت ريط الكعبة ففعلت فقبل صوفة ولولده من بعده . وعن عقيل بن شيبة قال قالت أم تميم بن مر ولدت نسوة فقالت لله علي ان ولدت غلاما لأعبدنه للبيت

(هـ) طائفة هذا هو ابن الياس بن مضر وهو بالباء والخاء كاسم الفاعل المؤنث من الطبخ كما في المعاجم وضبط في نسخة التليس بالهمزة والخاء المهملة . والاجازة هي الافاضة من عرفات كانت العرب لا تفيض من موقعا بعرفات حتى يفيض بها صوفة وكذا من منى ونسبة الصوفية الى صوفة ذكرها الزنجشيري في الاساس احتمالا

فولدت الفتى بن مر فلما ربطته عند البيت اصابه الحر فمرت به وقد سقط واسترخى
فالت ماضار الا صوفه فسمي صوفة وكان الحج وإجازة الناس من عرفة الى منى
ومن منى الى مكة لصوفة فلم تزل الاجازة الى عقب صوفة حتى اخذتها عدوان فلم تزل
في عدوان حتى اخذتها قریش اه

أقول ولا مانع في القياس من صحة هذه النسبة عرية ولكن يعد ان ينتسب
القوم باختيارهم الى أهل الجاهلية ولو الى النساك وملازمي خدمة البيت منهم فاذا
صح ان هذا هو أصل النسبة فالمعقول ان يكون قد أطلق عليهم ذلك بعض العرب
اذ رأوهم يكثررون التحنث ويتقطعون للعبادة في المسجد الحرام وغيره لأن صوفة
ممن يضرب بهم المثل في مثل ذلك

وأما تاريخ التصوف ومبدأه فقد قال ابن الجوزي فيه: هذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة

متين ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة وحاصلها ان
التصوف عندهم رياضة النفس ومجاهدة الطبع برده عن الاخلاق الرذيلة وحمله على
الاخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والاخلاص والصدق الى غير ذلك من الخلال
الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الاخرى . وسئل الجنيد بن محمد
عن التصوف فقال الخروج عن كل خلق دري، والدخول في كل خلق سني، وعن
محمد بن حنيف قال لرويم كل الخلق قعدوا على الرسوم وقعدت هذه الطائفة على
الحقائق، وطالب الخلق كلهم أنفسهم بظواهر الشرع، وطالبوا انفسهم بحقيقة الورع
ومداومة الصدق .

ثم ذكر ان هذا ما كان عليهم أوائلهم حتى لبس الشيطان عليهم فكان أول تليسه
ان صدمهم عن العلم وأراهم ان المقصود العمل فلما انطلقا مصباح العلم تخطوا في الظلمات
فمنهم من غلا في ترك الدنيا وهي قوام مصالح الخلق ومنهم أغري بتعذيب النفس
بالجوع والعري والفقر الاختياري . ومنهم من هام بالسباع والوجد والرقص، ومنهم من
غلبت عليهم الخيالات، حتى قالوا بالحلل والاتحاد، وكانوا يبنون بالنظافة والتنطع في
الطهارة وراجت عليهم لقلة العلم الاحاديث الموضوعية

وذكر المؤلفين منهم وان بعضهم قد هذبوا التصوف . فأول من ألف لهم في الزهد

والغلو في ترك الدنيا الحارث المحاسبي . وصنف لهم عبدالرحمن السلمي كتاب السنن وجمع لهم حقائق التفسير فذكر عنهم ما فيه العجب من تفسير لا يستند الى أصل من أصول العلم . وذكر ابن الجوزي ان السلمي هذا غير ثقة وانه كان يضع لهم الاحاديث وحدث عن الاصم بشواذ كثيرة وهو لم يسمع منه الا قليلا ، وصنف لهم ابونصر السراج كتاب لمع الصوفية وفيه كثير من الاعتقاد القبيح وصنف ابو طالب المكي قوت القلوب فذكر فيه الاحاديث الباطلة والموضوعات . وصنف لهم ابونعيم كتاب الحلية وذكر في حدود التصوف اشياء منكرة قبيحة (وقال) لم يستح ان يذكر في الصوفية الخلفاء الراشدين وسادات الصحابة والتابعين وسفيان الثوري واحمد بن حنبل . وصنف لهم عبدالكريم بن هوازن القشيري كتاب الرسالة فذكر فيها العجائب من الكلام في الفناء والبقاء والقبض والبسط والحال والوجد والوجود والجمع والتفرقة والصحو والسكر والذوق الخ ثم ذكر تصنيف الغزالي للاحياء وما فيه من الاحاديث الباطلة وانه لم يكن يعلم بطلانها

ثم ان أبا الفرج بين ضروب التليس على الصوفية وما خالفوا فيه الشرع عن جهل أو تأوّل فأصاب في أكثر ما كتب وأخطأ في أقله وقد كان حسن النية كما كان أولئك الذين انتقد عليهم مخلصين فيما قالوا وفعلوا وهو لا ينكر ذلك عليهم ولكنه كان أعلم منهم بالسنة السنية وبما كان عليه السلف الصالح من هدي الدين لأنه من الحفاظ ولم يكن في أولئك الصوفية حافظ ولا محدث الا من انتصر لهم في بعض المسائل كابن طاهر الذي انتصر لهم في القول بإباحة السماع وان إحياء علوم الدين هو أحسن كتبهم ومولفه الامام ابو حامد الغزالي كان أوسعهم علما بالكلام والفقه والأصول وأدقهم فهما في اسرار الشريعة وحكمها ومع ذلك كله نرى في الاحياء كثيرا من الاحاديث والآثار الموضوعية والواهية وجاها أو كلها منقولة من كتاب قوت القلوب وهي هي وما أخذ منها وبني عليها هو جل ما ينتقد على هذا الكتاب الجليل ولكن لا نعرف كتابا لعالم من علماء الاسلام أشد جذبا الى الدين وتأثيرا في قلوب القارئ من هذا الكتاب . واذا كان كثير من الصوفية قد أخطأوا بقبول بعض الموضوعات والواهيات والاحتجاج بها والاستنباط منها فهذا خطأ لم يسلم منه كثير من الفقهاء الذين تحاملوا

عليهم رضالوا بعضهم وكفروا آخرين في القرون الأولى عند ما كان الصوفية صوفية كاملين في طريقتهم ثم خضعوا لهم وذالوا وأولوا كلائهم المخالف لظواهر الشريعة وكذا المخالف لتعصوها وذلك بعد أن طرأ عليهم ما طرأ من الشذوذ والبدع الكثيرة وقفت الصوفية على الطرف المناهض للطرف الذي وقف عليه الفقهاء من الاسلام: عني الصوفية بباطن الاسلام ولبابه وسره وهو تزكية النفس وتطهير القلب ومراقبة الله تعالى وما يوصل الى ذلك من علم حكمة التشريع وأسرار الدين وعلم النفس والاخلاق والعلم بصفات الله وسفنه في خلقه . وعني الفقهاء بظاهر الاسلام من علم طهارة الابدان والثياب وأعمال العبادات والاحكام القضائية مدنية وجنائية وسياسية . وكان كل من الفريقين يخطئ ويصيب على نسبة استقلاله في فهم القرآن والعلم بانسنة وبعده وقربه من ذلك و « كل حزب بما لديهم فرحون »

قد علم كل أناس مشربهم ، واقتدى قوم آخرون بهم ، ثم جاء المقلدون لكل منهم ، فذهب بهم الجهل الى الغلو فيهم ، حتى فضاهم بعضهم على الصحابة والتابعين ، وظنوا أنهم أوسع علماً وأحسن عملاً بهذا الدين ، هيهات هيهات لما تزعمون ، وشتان بين السلف والخلف فيما تصفون ، فلو صدق ما ظننتم ، وكانت حقيقة الامر ما زعتم ، لكان لقاتل أن يقول ان هذا الدين من وضع البشر ، ولذلك ارتقى بتداول الزمن ، كلا ان السلف هم الذين أقاموا وزنه بالقسطاس المستقيم ، وجروا فيه على سنة الحنيفية السمحة وهداية الكتاب الحكيم ، فكل ما خالف جماعتهم من فنون زهد الصوفية البصريين ، أو اقيسة الفقهاء الكوفيين ، فهو في هذا الدين مردود ، وصاحبه إما مجتهد معذور وإما مقلد معذول ، ولا يتبع أحد منهما فيما يعمل من ذلك ولا فيما يقول ، اذ المسألة من مسائل النزاع فترد الى كتاب الله وسنة الرسول ، (٤ : ٥٨ فان تنازعتم في شئ فردوه الى الله والى الرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً) فلا أحد من الصوفية معصوم في أعماله وأحواله ، ولا أحد من الفقهاء معصوم في آرائه وأقواله ، ولكن العصمة لكتاب الله عز وجل ، ولما بينه من سنة نبيه صلى الله عليه وعلى آله (١٥ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

وسلم ، فحكمها هو الحكم العدل ، وقولها هو القول الفصل ، وسبيلها هي سبيل جماعة المؤمنين الاولين ، وهم سلف الامة الصالحين ، من جمهور الصحابة والتابعين ، ومن تبعهم قبل حدوث الفرق ، ونحزب الاحزاب والشيع ، واجماع اولي الامر ، من أهل الحل والعقد ، يطاع في المصالح العامة ، دون العبادات والامور الخاصة ، ولقد غلامن كل حزب وفرقة أناس بعدوا بالدين عن كتابه وسنته ، وسيرة سلفه وأئمة : كان من غلو بعض الصوفية أن أفرطوا في الكلام على حكمة الدين وأسراره حتى بعدوا بها عن النصوص والسنن ثم زعموا ان للقرآن ظاهرا وباطنا ، وان مدلول النصوص هو الظاهر ، وأما الباطن فلا يعرف الا بالكشف والالهام ، ومن هذه المنفرة دخلت على هؤلاء الغلاة دسائس الباطنية الذين أوجسوا خلال الامة يفتونها الفتنة بتحريف النصوص وتأويلها ، وفيها سماعون لهم ، مخدوعون بزخرفهم ،

ثم انهم اشتغلوا بالفلسفة وعلوم الكون من الرياضيات والطبيعات كالتكلمين ومزجوا ما أخذوه منها بكتبهم التي بحثوا فيها عن الوجود وعوارضه ، ولكن طريقتهم فيها كانت مخالفة لطريقة التكلمين ، فكانت عناية المتكلمين منصرفة الى عرض مسائل تلك العلوم على الكتاب والسنة وقرار ما وافقها وإبطال ما خالف النصوص بالادلة والبراهين على طريقة الفلاسفة أنفسهم ، وما خالف الظواهر ان ساعدهم الدليل على إبطاله أبطلوه ، والا أولوا العبارة على طريق فنون اللغة من جعلها مجازا أو كناية ، واما غلاة الصوفية فقد تصرفوا في المعاني والألفاظ ، وسلكوا سبيل التعمية والالغاز ، فهم كفلاة الفلاسفة الاسلاميين واكثر منهم مخالفة للفلسفة ، ومخالفة للشريعة ، حتى إنهم قالوا شريعة وطريقة وحقيقة ، والتقسيم والعطف يفيدان المغايرة ، وكان المتكلمون والفقهاء يكفرون الغلاة من الفريقين بل كانوا على الصوفية أشد تحاملا لأنهم يخذعون العامة باظهارهم التمسك فتمتظم الفتنة بهم ، والفريقان سواء في شر ما كفرهما به المتكلمون والفقهاء وهو أمران أحدهما علمي كقول قدم العالم وكون النبوة كسبية ، وثانيهما علمي وهو إباحة المحرمات للأخواص الكاملين في العلوم وجعل الشريعة وسيلة لتربية النابتة وضبط العامة ، ومن دون ذلك مخالفة

التصوص واتباع الفلاسفة في مسائل العالم العلوي وعالم الغيب كالسموات والعرش والكرسي والملائكة والجن والجنة والنار ،

والذي استنبطته من طول البحث والمقارنة ان أكثر الذين خالفوا نصوص الشريعة بأقوالهم وكتبهم من لا يبي لباس التصوف هم باطنية في الحقيقة وأقلهم قد مرق من الدين بشبهات عرضت له من تلك الفلسفة الباطلة التي كانت رائجة في تلك القرون ، ثم قلدهم في هذه الاباطيل كثير من المسلمين وهم لا يعرفون أصلها ولا الغاية التي وضعت لتؤدي اليها

مثل الصوفية في ذلك كمثل الشيعة فقد كان هؤلاء حزبا سياسيا من المسلمين يرى ان الحكومة الاسلامية يجب ان تكون حكومة أشرف وان احق الناس بها بعد النبي (ص) أقرب زعماء الصحابة المرشحين لذلك إليه وهو علي وبيته وصهره وابن عمه ثم أولاد علي من بنته (ص) فجعل الباطنية من أصول تعاليمهم الرضوية العلوية علي وولده والقول بمصبتهم ، وانه لا يعرف باطن الدين ولا حقيقته الا منهم ، وبثوا ذلك في غلاة الشيعة وجهاتهم ، توسلوا بذلك الى الطعن في ابي بكر وعمر وجهور علماء الصحابة وادعاء كتمانهم لبعض القرآن وتحريرهم لبعض آخر وابطال ثقتهم بما كانوا عليه من الدين وصرف وجوههم الى زعماء منهم يدعون انهم اخذوا حقيقة الدين من أئمة آل البيت المعصومين فيطمسوا الاسلام الحقيقي ويحلوا رابطة أهله ويستبدلوا به دينا جديدا ان لم يئس لهم إرجاع الناس الى المجوسية التي هي دين واضعي تعاليم الباطنية للانتقام من المسلمين الذين أزالوا ملكهم واستولوا على بلادهم هكذا ثبت الباطنية تعاليمها الالحادية الفاسدة في غلاة الشيعة وغلاة المتصوفة وانخدع بها الفريقان لاظهار دعائهما الاسلام والتسك والتقوى حتى صار الناس يقولون ان الشيعة قسمان ظاهرة وباطنية ، ولم يكن أحد يقدر ان يميز بينهما لان الباطنية كانوا يخفون عقائدهم أو تعاليمهم المخالفة للاسلام نفسه المصراحة بعداوتهم الا لمن يتقون به بعد وصوله الى الدرجة الاخيرة من درجات دعوتهم ، ولذلك رأينا مثل الشريف الرضي من أئمة العلم والفضل في الشيعة يمدح بعض الخلفاء العبيديين ، فلما منه انهم من الشيعة المسلمين ، وانهم حقيقة من العلويين ، فقال وقد كان مستاء من الخليفة العباسي

ألبس الذل في ديار الاعادي وبمصر الخليفة العلوي
من أبوه ابي ومولاه مولا ي اذا ضاغي البعيد القصي
لف عرقى بعرقه سيدا النا من جميعا محمد وعلي

ولو علم ان الخليفة العبيدي عدو جده والساعي في إبطال دين جده لما قال ذلك فيه
ولما ظهرت تعاليم الباطنية في بعض فرقهم امتاز مسلمو الشيعة وثبتوا على الايمان
بوحداية الله ورسالة محمد خاتم النبيين والمرسلين وإقامة أركان الاسلام الخمسة
بالعمل لا بخالفون غيرهم من المسلمين فيها الا ببعض الفروع الاجتهادية، والباطنية
هدموا كل هذه الأركان والمعتقد الاساسية، ولكن بقي في كتب الشيعة وقائدهم
شيء من تعاليم الباطنية كما بقي في كتب أهل السنة شيء من أحاديثهم الموضوعة.
وأما كتب غلاة الصوفية فلا تزال حاوية لجميع ضلالانهم أو أكثرها لا يستطيع
التمييز بينها وبين التصوف الصحيح الا افراد من المحققين. وكان الاستاذ الامام
صاحب الترجمة يقول ان التفسير المطبوع في جلدتين المنسوب الى الشيخ محيي الدين
بن عربي هو لكاشاني الباطني. ويقول بعض العلماء ان الفتوحات المكية
والفصوص أشهر مصنفات الشيخ محيي الدين فيها كثير من دسائس الباطنية فان لم
يكن كذلك فهو من أكبر زعماء الباطنية أو أكبرهم على الإطلاق

قل ابن خلدون في مقدمته في سياق الكلام عن التصوف :

« ثم إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحس
توغلوا في ذلك فذهب الكثير منهم الى الحلول والوحدة كما أشرنا اليه وملاؤا
الصحف منه مثل الهروي في كتابه المقامات له وغيره وتبعهم ابن عربي وابن سبعين
وتلميذهما ابن العفيف وابن الفارض والنجم الاسرائيلي في قصائدهم وكان سلفهم
مخاطبون للاسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا بالحلول واللمية الائمة
مذهبهم يعرف لا ولهم فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط
كلامهم وتشابهت عقائدهم وظهر في كلام المتصوفة اقول بالقطب ومعناه رأس
العارفين يزعمون انه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى يقبضه الله
ثم يورث مقامه لآخر من أهل العرفان

« وقد أشار الى ذلك ابن سينا في كتاب الاشارات في فصول التصوف منها
 محل : جل جانب الحق أن يكون شرعة لكل وارد ، وأن يطاع عليه الا الواحد
 بعد الواحد : وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي وانما هو من
 أنواع الخطابة أو هو بعينه ما نقوله الرافضة ودانوا به

« ثم قالوا بترتيب الابدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقاء حتى انهم
 استندوا لباس خرقه التصوف ليجعلوه أصلا لطريقتهم وتخليبهم ورفعوه الى علي رضي
 الله عنه وهو في هذا المعنى أيضا والا فلي رضي الله عنه لم يختص من بين الصحابة
 بتخليفة ولا طريقة في لباس ولا حال بل كان ابو بكر وعمر رضي عنهما ازهد الناس
 من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكثرهم عبادة ولم يختص أحدا منهم بشي
 يؤثر عنه في الخصوص بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة
 يشهد لذلك من كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطمي وما شنعوا كتبهم في ذلك مما
 ليس لسلف المتصوفة في كلام بنفي أو إثبات وانما هو مأخوذ من كلام الشيعة الرافضة
 ومذاهبيهم في كتبهم والله يهدي الى الحق

« ثم ان كثيرا من الفقهاء وأهل الفتيا انتدبوا للرد على هؤلاء المتأخرين في
 هذه المقامات وأمثالها وشملوا بالكبر سائر ما وقع لهم في الطريقة والحق ان كلامهم
 مهم فيه تفصيل فان كلامهم في اربعة مواضع (احدها) الكلام في المجاهدات
 وما يحصل في الاذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الاعمال لتحصل تلك الاذواق
 اني تصير مقاما ويترقى الى غيره كما قلناه (وثانيها) الكلام في الكشف والحقيقة
 المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والوحي
 والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد وتركيب الاكوان بأنواع
 الكرامات (وثالثها) التشرف في العوالم والاكوان بأنواع الكرامات (ورابعها) الفاظ
 موهمة اظهر صدرت من الكثير من أئمة اقوم بعبور عنهم في اصطلاحهم بالسطحات
 فستشكل ظواهرها فنذكر ومحين ومتأول

« واما الكلام في المجاهدات والمقامات وما يحصل في الاذواق والمواجد في نتائجها
 ومحاسبة النفس على التصبر في أسبابها فأمر لا مدغم فيه لا أحد وأذواقهم فيه صحيحة

والتحقق بها هو عين السعادة

د وأما في كرامات القوم وإخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات فأمر صحيح غير منكر وإن مال بعض العلماء إلى إنكارها فليس ذلك من الحق وما احتج به الأستاذ أبو اسحاق الاسفرائيني من أئمة الاشعرية على إنكارها لالتباسها بالمعجزة فقد فرق المحققون بينها بالتحدي وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق ما جاء به قالوا ثم إن وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية فإن صفة نفسها التصديق فلو وقعت من الكاذب لتبدلت صفة نفسها وهو محال هذا مع أن الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات وإنكارها مكابرة وقد وقع للصحابة وأكابر السلف كثير من هذا وهو معلوم مشهور

د وأما الكلام في الكشف واعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور الكائنات فأكثر كلامهم فيه نوع من التشابه لما أنه وجداني عندهم وفاقد الوجدان عندهم يعزل عن أذواقهم فيه واللغات لا تعطي دلالة على مرادهم منه لأنها لم توضع إلا للتعارف وأكثره من المحسوسات فينبغي أن لا تعرض لكلامهم في ذلك وتتركه فيما تركناه من التشابه ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة فأكرم بها سعادة

د وأما الالفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بها أهل الشرع فاعلم أن الانصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس والواردات تملكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور فمن علم منهم فضله واقتداره حل على القصد الجليل من هذا وإن العبارة عن الواحد صعبة لفقدان الوضع لها كما وقع لآبي يزيد وأمثاله ومن لم يعلم فضاه ولا اشتهر فؤاخذ بما صدر عنه من ذلك إذا لم يتبين لنا ما يحتملنا على تأويل كلامه وأما من تكلم بمثلها وهو حاضر في حسه ولم يملكه الحال فؤاخذ أيضا ولهذا افتى الفقهاء وأكابر المتصوفة بقتل الخلاج لأنه تكلم في حضور وهو مالك لحاله والله أعلم

د وسلف المتصوفة من أهل الرسالة (١) اعلام الملة الذين أشرنا اليهم من قبل لم

يكن لهم حرص على كشف الحجاب ولا هذا النوع من الادراك انما مهمم الاتباع والافتداء ما استطاعوا ومن عرض له شيء من ذلك اعرض عنه ولم يحفل به بل يفرون منه ويرون انه من العوائق والحجج وانه ادراك من ادراكات النفس مخلوق حادث وان الموجودات لا تنحصر في مدارك الانسان وعلم الله أوسع وخلقه أكبر وشريعته بالهداية أملك فلا ينطقون بشيء مما يدركون بل حفظوا الخوض في ذلك ومنعوا من يكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده بل يلتزمون طريقهم كما كانوا في عالم الحس قبل الكشف من الاتباع والافتداء ويأمرون أصحابهم بالتزامها وهكذا ينبغي أن يكون حال المريد والله الموفق للصواب اه
أقول وذ كر قبل ما قلناه أن بناء هذه الطريقة على مجاهدة النفس وغايتها الوصول الى مقام التوحيد والمعرفة : قال ان الادراك الذي يتميز به الانسان عن سائر الحيوان نوعان إدراك للعلوم والمعارف من اليقين والظن والشك والوهم وإدراك للاحوال القائمة بالنفس من الفرح والحزن والقبض والبسط والرضا والغضب والصبر والشكر وأمثال ذلك فالروح العاقل والمتصرف بالبدن تنشأ من إدراكات وارادات وأحوال وهي التي يميز بها الانسان وبعضها ينشأ من بعض كما ينشأ العلم من الادلة ، والفرح والحزن عن إدراك المؤلم أو المتلذذ به ، والنشاط عن الجاهم والكسل عن الاعياء . وكذلك المريد في مجاهدته وعبادته لابد وان ينشأ له عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة ، وتلك الحال إما أن تكون نوع عبادة قترسخ وتصبح مقاما للمريد ، وإما أن لا تكون عبادة وإنما تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك من المقامات ، ولا يزال المريد يترقى من مقام الى مقام الى ان ينتهي الى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للكمال :

ثم ذكر غاية القوم بمحاسبة النفس على الاعمال والخواطر وعدم الاكتفاء بالانسان بالعبادة موافقة لشروط بآئمه بل يبحثون عن نتائجها بالاذواق والمواجد ، فأصل طريقته المجاهدة والمحاسبة وانرها في النفس ، وذ كر انهم اصطالحوا على الفاظ تدل على ما انفردوا به من هذه الاذواق ومبادئها وغاياتها كما وضع أهل الكلام والفقه والاصول اصطلاحات لعلومهم فصار علم الشريعة صنفين علم الفقهاء وعلم الصوفية

ثم تكلم على ما تتمرر الخلوة والمجاهدة من كشف حجاب الحس وإدراك بعض العوالم الخفية وأطال في الكلام على هذا الكشف وعلته من سنة الله تعالى في النفس البشرية وما فيها من الاستعداد للادراك بغير واسطة الحس ، وما حدث للصوفية بعد عنايتهم بهذا الكشف من الكلام في حقائق الموجودات العلوية والسلفية وحقائق الملك والروح والعرش والكرسي ، وإنكار بعض الفقهاء وأهل الفتوى عليهم وتسليم بعضهم لهم وأمال في ذلك

وأقول ان ابن خلدون أصاب في أكثر ما قاله وأخطأ في بعضه وانه ما سلم للصوفية من سلم من الفقهاء الا لظهور بعض خوارق العادات من بعضهم كالكشف وغير الكشف والانسان معها كان معتزا قويا بعلمه وثقته بمعرفته فانه يضمف وينقاد لأضعف الاشياء اذا ظهر له من قبلها ما يعده مددا من السلطة العليا والقدرة الالهية اذ أودع الله في فطرته العبودية والخضوع لسلطانه الأعلى الذي سخر به الاسباب ولا تسخره الاسباب في شيء ، ومن الناس من لم يبال بخوارقهم لانه علم بأن مثلها قد كان من الهنود والصينيين وغيرهم فقالوا ان لهذه الخوارق أسبابا جارية على سنة الله تعالى في النفس البشرية وآثارها فنحن لا نسلم بشيء في الشرع لم يقم عليه الدليل الشرعي لان القائل به جاء بشيء غريب لا نعرف سببه وهو نفسه لا يصلح أن يكون حجة على ما قاله ولا على عصمته فيما يكون عليه . وقد قال بعض كبراء العلم والتصوف . اذا رأيتم الرجل يطير في الهواء فلا تفنروا به حتى تروا حاله عند الأمر والنهي ، أي فان كان متبها عما نهى الله عنه موثما بما أمر به فهو المؤمن الصالح الولي لله والا كان فاسقا شقيا ، أو كافرا غويا ،

وقد غلا في علم التصوف فريقان فريق عده كله بدعا محدثة يجب ردها وعدم قبول شيء منها الا اذا كان له أصل يقوم عليه من الكتاب أو السنة أو إجماع السلف العملي أو القولي ولا يعتد بما يسمونه الاشارة ولا الكشف لانهما ليسا من طرق الدلالة في الشرع ولا في اللغة العربية . ومنهم من جعل مائتة عنهم ديننا يتقرب الى الله تعالى به وينكر على مخالفه كما ينكر على من خالف الكتاب والسنة أو نصوص أئمة الفقه عند مقلديهم ، ويؤمن بتشابهه كتشابه الكتاب والسنة مع ان الصوفية

أنفسهم أنكروا ذلك . وذكر الشعراني أن شيخه علياً الخواص قال له في جواب سؤال : أن مثابه كلام الصوفية لا يقبل ولا يؤوّل كمنشابه الكتاب والسنة ، لمصنعة الكتاب والسنة دون كلام الصوفية ، فإنهم غير معصومين من الخطأ فيه . وهذه الكلمة أحسن ما نقله عنه

والصواب أن كلام الصوفية ككلام غيرهم من أهل العلوم الشرعية كعلم الكلام والاصول والفقه - وأهل العلوم الكونية والعقلية كالفلسفة والطبيعات . وكتبهم ككتب هؤلاء العلماء فيها الخطأ والصواب . وقد كنت كتبت لهذا البحث أوراقاً ثم ضاعت ، وانفقي أن اطلمت قبل كتابة غيرها على فتوى لشيخ الاسلام أحمد تقي الدين بن تيمية في الصوفية والفقراء ذكر فيها تاريخ ظهورهم وحقيقة حالهم وغلو بعض الناس في مدحهم ، وبعضهم في ذمهم واتقاهم ، وحقق أن مبدأ ظهورهم كان في البصرة وأنهم من أصحاب عبد الواحد بن زيد من أصحاب الحسن البصري ، وأن أهل البصرة قد اشتهروا بالعبادة والزهد أكثر من أهل سائر الأمصار ، كما اشتهر أهل الكوفة بالفقه ، فكان يقال : فقه كوفي وعبادة بصرية وإن الصوفية والفقراء كغيرهم لا يخرجون عن المراتب الثلاث في قوله تعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات) وأن السابقين بالخيرات منهم كالسابقين بها من الفقهاء ، ويسمون أهل الحقائق ، وقد يصل بعض هؤلاء وأولئك إلى درجة الصديقين . ثم قال : « وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم كالحلاج مثلاً فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه وأخرجوه عن الطريق مثل الجنيد محمد سيد الطائفة وغيره ، كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية وذكره الحافظ أبو الطيب في تاريخ بغداد

« فهذا أصل التصوف ، ثم إنه بعد ذلك تشعب وتنوع وصارت الصوفية ثلاثة أصناف : صوفية الحقائق ، وصوفية الارزاق ، وصوفية الرسم ؛ فأما صوفية الحقائق فهم الذين وصفناهم ، وأما صوفية الارزاق فهم الذين وقفت عليهم الوقوف كالخوانك ، فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق فإن هذا عزيز وأكبر أهل الحقائق (م ١٦ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

لا يتصدون بلوازم الخوانك، ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط احدها العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض ويحبتون المحارم ، والثاني التأدب بآداب أهل الطريق وهي الآداب الشرعية في غالب الاوقات، وأما الآداب البدعية الوضعية فلا يلتفت اليها . والثالث أن لا يكون أحدهم متمسكا بفضول الدنيا، فأما من كان جماعا للمال أو كان غير متخلق بالاخلاق المحمودة ولا يتأدب بالآداب الشرعية أو كان فاسقا فانه لا يستحق ذلك . وأما صوفية الرسم فهم المقصرون على النسبة فهمهم في اللباس والآداب الوضعية ونحو ذلك ؛ ف هؤلاء في الصوفية بمنزلة الذي يقتصر على زي أهل العلم وأهل الجهاد ونوع ما من أقوالهم وأعمالهم بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره انه منهم وليس منهم »

ولما كان الصوفية يسمون أنفسهم (الفقراء) تكلم شيخ الاسلام في مسألة الفقر ولقب الفقير في عرف الشرع وعرفهم ، وبين ان الفقراء كغيرهم لا يخرجون عن المراتب الثلاث التي أشرنا اليها في تلخيص كلامه عن الصوفية وجملة القول ان مرادنا من التصوف والصوفية هنا ينحصر في المسائل الآتية نلخص بها ما تقدم ونزيد عليه . وهي

- (١) التصوف الاسلامي هو التخلق بأخلاق الصوفية والانتظام في سلكهم
- (٢) الصوفية في الاسلام طائفة انقطعوا الى الزهد في الدنيا والعمل للآخرة برياضة النفس ونزوية الارادة والاخذ بالعزائم ومحاسبة النفس وحسن النية والمبالغة في العبادة . وغايتهم الوصول الى تجريد التوحيد وكال المعرفة بالله تعالى، ثم ادعى حالهم من ليس منهم غشاء وتلييساء ولبس لباسهم من تناقض حاله حالهم دعوى وتقليدا
- (٣) ان رياضة النفس والتدقيق في عيوبها والحرص على تزكيتها وتكميلها يشر علما وعرفانا بسنن الله تعالى في الارواح وأسرار قواها ، وأحوالا وأذواقا غريبة ، من أعمها الكشف ، وهو معرفة بعض الحقائق والوقائع من غير طرق الحس والفكر، (ومنها) التأثير بقوة الارادة في بعض الاشياء، وأكثر ما يكون ذلك بنحو شفاء مريض أو استهواء نفس تكون أطوع للمستهوي من طرفه ، وأتبع له من ظله . وذلك فوق ما يعهد الناس في هذا العصر من الاستهواء الذي يسمونه [التنويم المغناطيسي]

وقد ظهر في هذا الجيل رجل في سورية عرضت له حال اعتقد بها انه يجب عليه الخروج لإزالة الفساد ، واصلاح أمر العبادة ، فكان يسبر ويدعو الناس الى اتباعه فيتركون حرمهم وذرعهم وتجارتهم وصناعتهم ويتبعونه فرادى ومثنى وجماعات ، من غير بينة ولا برهان، ولولا أخذ الحكومة له لكان له شأن وأي شأن ! (ومنها) أحوال تعرض ، وبروق تومض ، يلفظ بها الكثيف ، ويرق بها الغليظ ، ويضعف سلطان المشاعر ، وينعكس نور الابصار الى البصائر ، فيرى صاحبها ويسمع ويشم ويدرك ما لا يشاركه به غيره ممن ليست له تلك الحال ، حتى انه يمزج به في عالم من الخيال ، يناجي فيه الارواح ، تتجلى في صور الاشباح ، بأغرب وأعجب مما يدعيه مستحضرو الارواح الآن

(ومنها) الغوص على دقائق أسرار الشريعة وحكمها ، وصفات النفوس البشرية وقواها وعلاها ، وغير ذلك من العلوم العقلية ، والمعارف الكونية والإلهية

(٤) إن هذا التصوف برياضة النفس وما تشمه من الاحوال ليس من

مستحدثات المسلمين بل سبقهم اليه قدماء الهندين والصينيين واليونان وغيرهم — كما تقدم في أوائل الفصل — وقد سرى الى بعض صوفية المسلمين كثير من بدعهم وضلالاتهم ، وشعارهم وشاراتهم ، حتى انهم أخذوا عنهم فلسفة وحدة الوجود ، فصارت هي غاية الطريقة عندهم ، كما كان تجريد التوحيد الشرعي غاية الطريق الاسلامي عند غيرهم . ولا ندري كيف دخلت هذه الدخائل على الصوفية ولا عن أي كتب الهند وغيرها أخذوا ، ولا تاريخ ذلك — لم تقف على ذلك كما وقفنا على ما يقابله من دخول فلسفة اليونان على علماء الكلام ، ولكننا رأينا في بعض كتب الصوفية ذكراً لصوفية البراهمة وتفرقة بين كشفهم وكشف المؤمنين . ويسمون الكشف الاول الكشف الصوري والظلماني ، والثاني الكشف المعنوي والروحاني ، وأما المتكلمون منا فقد قالوا بجواز وقوع الكشف وغيره مما يسمونه خوارق العادات من غير المؤمن النقي ، ويجعلون لكل نوع منها اسماً ، فما كان على يد المؤمن النقي يسمونه كرامة ، وما كان على يد الكافر أو المبتدع أو الفاسق يسمونه استدراجاً

(٥) اتنا على جهلنا تاريخ دخول تلك الدخائل على صوفية المسلمين نعلم ان الباطنية

الذين كانوا يؤلفون الجماعات والاحزاب للكيـد للاسلام ودولة العرب، والسعي لافساد الدين واسقاط الملك ، قد دخلوا على المسلمين من بابي التشيع والتصوف معا كما تقدم ، ولذلك ترى أكثر طرق الصوفية تتصل بأئمة آل البيت عليهم السلام وتنتهي الى أصلهم علي المرتضى كرم الله تعالى وجهه . وما عدا ذلك فهو مستحدث كطريقة النقشبندية التي تنتهي الى أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه . والباطنية هم الذين اخترعوا مسألة كون الشريعة لها ظاهر و باطن ، وكون أئمة الباطن هم العارفين بتأويل القرآن وحقيقة الدين دون غيرهم ، وكونهم يتصرفون بأمر الكون ، وهم الذين أدخلوا على التصوف بدعة وحدة الوجود البرهمية ونزغات فاسفة اليونان النفسية . وكان غرضهم من ذلك إفساد عقائد الاسلام وازالة سلطانه وحكمه ، وكانوا يعنون بالأئمة والاقطاب وأهل الديوان المستورين أئمة نحلتهـم الذين يريدون رفعهم الى عروش الممالك ليتمموا لهم مايزيدون بقوة السلاطة ، بعد التمهيد العظيم له بالدعوة . وقد تم لهم أمر الملك في مصر بدولة العبيديين ، ولكنهم عجزوا عن ابطال الاسلام وافساد أمره (٦) قد امتزجت دسائس الباطنية بتعاليم الصوفية فراج بعضها على الاكثرين وبعضها على الأقلين ، وعز التمييز بينها حتى على كثير من العلماء الراسخين ، كما راج على الاكثرين ما دخل عليهم من البدع الاخرى جهلهم بالسنة الصحيحة وسيرة السلف المقتدى بهم من الصحابة وأئمة التابعين

فالضلالات والبدع المتفاعلة في كتب الصوفية قسما (أحدها) ما أخذه الباطنية من صوفية البراهمة واليونان ودسوه في التصوف الاسلامي وليس له أصل من كتاب ولا سنة (ثانيهما) ما أحدثه بعض شيوخ الطريقة من الاوراد والشعائر المخالفة للسنة في ذاتها أو في كفيـتها . ولا يخفى انه ليس لاحد بعد زمن الوحي ان يجعل بعض العبادات التي لا أصل لها في الدين شعائر تؤدي بطريقة مخصوصة في أزمنة مخصوصة بكيفية مخصوصة . اذا لم يرد هذا التخصيص في السنة المتبعة . مثال ذلك صلاة رجب (الרגائب) وشعبان اللتين نص القتها على كونهما من البدع المذمومة ، وقس عليهما ما هو دون الصلاة من شعائرهم كاجتماع لقراءة الاوراد والدلائل والاذكار بالكيفيات المخصوصة في الايام المعلومة والمواسم المؤقتة كالموالد وغيرها ، وما فيها من

البدع والمنكرات الكثيرة

(٧) إنما الحكم العدل في التصوف والصوفية كتاب الله وسنة رسوله (ص) وسيرة أهل الصدر الأول في اقامتهما والعمل بهما، فما وافق ذلك فهو الحسن المقبول، وما خالفه فهو القبيح المردود، وما كان غير موافق ولا مخالف فهو محل الاجتهاد اذالم يعد ديناً، وتحسين الظن أولى بالعاجز عن الاجتهاد، ولو فيما كان مخالفاً للمعهود بين الناس

ولا يعرف هذا الحكم الا العالم الراسخ في التفسير والحديث وتاريخ الاسلام، لان شيوخ التصوف يلتزمون لما لديهم أدلة من الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح، ولكنهم قد يستدلون على الشيء بما لا يدل عليه من التأويلات البعيدة للآيات والاحاديث، والاخذ بالاخبار الموضوعة بآله الضعيفة، وترى علما كبيرا كالامام الغزالي يقع في ذلك

(٨) طالما تمنيت ان يوجد كتاب لاحد أئمة العلم الجامعين بين علوم النقل والعقل والتصوف يحصي على المنتسبين الى التصوف ما ألوا به من البدع، ويبين ماخالط كتبهم من دسائس الباطنية والفلاسفة، ويزن ذلك بالقسطاس المستقيم المبين في المسألة - السابقة - حتى عنرت على كتاب [مدارج السالكين بين منازل : اياك نعبد واياك نستعين] للامام الشهير ابن القيم - وهو ابن بمجة هذا الامر وأبو عذرفته - فاذا هو قد شرح فيه كتاب [منازل السائرين] لشيخ الاسلام أبي اسماعيل عبدالله بن محمد الانصاري الهروي المتوفى سنة ٤٨١هـ فكان هو الأئمة أما أبو اسماعيل فهو - على كونه من أكابر أئمة الصوفية أرباب الحقائق - مفسر محدث فقيه حنبلي سلفي، وأما كتابه [منازل السائرين] فهو نسج وحده في متون التصوف، جعله عشرة أقسام في كل قسم عشرة أبواب، في كل باب كلام وجيز على منزلة من منازل السائرين الى الحق تعالى، وكل منزلة لها ثلاث درجات. وقد يعبر بغير الدرجات قليلا. وقد غاب تصوف مؤلفه على علمه بالسنة في بعض المواضع فشذ كغيره. ولذلك نمتي الحافظ الذهبي لو لم يكن ألف هذا الكتاب وأما الامام ابن القيم فلا يعرف مكانه وعلوقه في التصوف الا من اطعم

على كتابه مدارج السالكين . وأما علمه بالسنة وسائر العلوم الاسلامية فهو فيه أشهر من علم ، وكتابه هذا هو الذي حرر علم التصوف وبقاه من دسائس ملاحدة الباطنية وغيرهم ، وحكم فيه كتاب الله تعالى وسنة رسوله (ص) وسيرة السلف الصالح . فهو غاية الغايات في هذا الباب ، لانعرف كتابا غيره ندل عليه من يريد هذا العلم علما اسلاميا ليس فيه بدع ولا عقائد زائفة ، الا ان تذكر لتدحض شبهتها ، وتدمغ جبهتها

مكان صاحب الترجمة من التصوف

بيننا في أول الفصل ان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى ربي تربية صوفية، وانه كان صوفيا حفا خفيا ، وأنه كان يرى وجوب كتمان كل ما يؤتاه المرء من ثمرات التصوف، وأن يكون مع الناس فيما يشاركون فيه من الصفات والاحوال . وكذلك كان : كان مع الحكماء حكميا ، ومع الفقهاء فقيها ، ومع الادباء أدبيا ، ومع المؤرخين مؤرخا ، ومع رجال الادارة والقضاء اداريا كاملا ، وقاضيا عادلا — وكان يخاطب كل قوم وكل فرد بقدر ما يراه من استعداده ، مع التزام الصدق واستقلال الرأي

ولما كان وجود الصوفية في هذا العصر أندر من الكبريت الاحمر كانت مكانة الشيخ في التصوف مجهولة حتى عند أصدقائه وتلاميذه ، ولا أعرف أحدا من أهل هذه البلاد كان يزوره ليذاكره في علم التصوف وأحواله الا أحد شيوخ الطريق المعتقدين في الصعيد وهو الشيخ أبو شروقاي رحمه الله تعالى . كان لهذا الشيخ تلاميذ يعتقدون أنه من أولياء الله تعالى، ومنهم من هو ميء الاعتقاد أو الظن بالشيخ الذي كان شيخهم يسأله عن دقائق التصوف ويستفيد منه

ولولا أن سبق لمؤلف هذا الكتاب اشتغال بسلوك طريق التصوف وعناية بمطالعة كتبه لما أمكن أن أعرف من صاحب الترجمة ما عرفت من أمره فيه شيئا لانه كان نكرة لا تتعرف كما قلت في أول الفصل . وقد أخبرني أن كتاب الفتوحات المكية عنده كنتارنج ابن الاثير لا يقف فهمه في شيء منه

وقد بدا لي الآن ان أبدي شيئا مما كنت عازما على إخفائه من معنى قوله :
ما زج أحد نفسه في عالم الخيال ثم قدر على الخروج منه الا ان يجذبه جاذب آخر

ويخرجه منه وذلك قليل . فأقول :

ان كل من يسلك طريقة الصوفية بالرياضة والمجاهدة عرضة للوقوع في عالم الخيال ، ومن آثار ذلك ان يرى في اليقظة (الطبعية لا ما تسميه الصوفية اليقظة) مالا وجوده في الخارج ويسمع من نفسه تارة ومن الارواح التي تتمثل له تارة كلاما لا يسمعه غيره وان كان بجانبه ، ويشم روائح طيبة لا مصدر لها من المادة ، وتعرض له أذواق ووجدانات روحية كثيرة لا يمكن التعبير عنها كما انه لا يمكن للرجال ان يعبروا للاطفال عما هو خاص بهم من لذة أو ألم ، وينبع هذه الاحوال تخيلات وأوهام كثيرة ، يمجدها صاحبها لذة عظيمة ، يحتفر في جنبها ما سواها ، فلا يسمع فيها عدل عاذل ، ولا رأي عاقل ، ولا فتوى قبيح ، ولا برهان متكلم أو حكيم . ولكنه قد يقبل كلام من يرى انه فوقه في أحواله وأعماله ، وأننى لفريق خياله باقاذ غريق خياله ؟ بل ما كل من غرق ثم نجا يقدر على إنقاذ الغرقى ، وإنما تكون النجاة من هذا الفرق بقوة واستعداد من الغريق ، وقوة واستعداد آخرين من المنقذ ، وقلما يتفق اجتماع الامرين ، كما اتفق ذلك للشيخين - الاستاذ الامام والسيد الحكيم - قدس الله أرواحهما

ومن لم يتح له هذا التوفيق يفتن بهذه الحال أو بذلك الخيال ، ويفتر به ويرى انه مستغن به عن جميع العلوم الدينية والدنيوية التي فرضها الله على العباد ، اذ جعلها مدار صلاح أمور المعاش والمعاد ، فاذا اقترن بذلك ما يقع كثيرا من المكشفات ، أو التأثير بقوة الارادة في شفاء بعض الامراض ، أو حمل بعض الناس على أعمال ما كان ينتظر ان يعملوها لولا ذلك التأثير ، وغير ذلك من الامور الغريبة التي يسمونها كرامات ، فحينئذ يكون من يقع له ذلك فتنة لنفسه ولغيره ، فيفلو فيه من يرى ذلك منه ، أو يروى له عنه ، حتى ان من الغالين من يعدلون هؤلاء الناس بربهم ، ويجمعونهم شركاء له في التصرف بهم وبغيرهم ، بل يدعونهم حتى عند الشدائد من دونه ، ويقدمون كلامهم على كلامه وكلام رسوله ، فاذا كان لاحد من رجال طريقته حزب أو ورد اتخذوا قراءته شعارا من شعائر الاسلام ، وهجروا لقراءته تلاوة القرآن ، ومنهم من يواظب على الورد ويترك الصلاة ، وإذا نسبت الى أحد

منهم بدعة ، قدموها على ما اتفق عليه المحدثون من السنة ، فيصدق عليهم بذلك ما فسر به الرسول صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (اتخذوا أجباهم ورهبانهم أربابا من دون الله) بأنهم اتبعوهم في مسائل الحلال والحرام ، وكذا فيما زادوا في الدين من العبادات

ومن رضي أن يرى نفسه إماما متبوعا ، وشارعا مطاعا ، جدير بأن تعظم فتنته ، ويرسخ غروره ، وقد يتوهم انه على هدى من ربه ، وان من ينكر بدعه من علماء الشرع محجوب بقشور الدين عن لبه ، فيكون من الاخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . ولكن منهم من يتخذ إلها معبودا ، وربما مقصودا ، وشارعا مطاعا ، وهو لا يدري ، واذا درى لا يرضى

ومن دون هؤلاء من ينتحل لنفسه مقام شيوخ الطريقة ، وهو لم يعرف للسلوك معنى ، ولم يذق للتصوف طعما ، ولم يعقل له حدا ولا رجا ، انما قصارى أمره فيه أن يرأس زعقة من الفوغاء ، على اللفظ والصياح بما يسمونه الاذكار والاوراد ، ثم انه يُدعى له مقامات العارفين ، وكرامات الصالحين ، فيخادع العوام الغافلين ، بتخييلات السحرة وحيل المشعوذين ، ويحترع لهم من الرؤى النامية ، ما هو عندهم أهدى من الكتاب العزيز والاحاديث النبوية ، فاذا مثل له الهوس في أحلامه ، بعض ما يشغله في عامة لياليه وأيامه ، فقد يلبس على نفسه ما كان يلبسه على الناس ، ونعوذ بالله من شر الوسواس الخناس

فهؤلاء يعيشون في عالم خيالي ، وأولئك يعيشون في عالم خيالي ، والفرق بينهما كالفرق بين الملائكة والحدادين — كما يقول في أمثاله الغزالي — بل هؤلاء من الشياطين ، وأولئك من الصالحين غير الكاملين ، فهم بغيرورهم بما هم فيه والاستغناء به عن علوم السنة والفتنة الصحيح والعلوم والفنون التي تميز بها الأمة وذم ذلك واحتقار أهله كععض غلاة علم الكلام وعلم الاحكام الذين يفضلون جدلهم وحياتهم التي يسمونها شرعية على كل شيء ، ويختفرون في سبيلها كل شيء

ان المنسبين الى طرق الصوفية في هذا العصر ألوف الألوف ، ولكنهم هبطوا الى أسفل سافلين ، قلما يصلح احد منهم أن يعد بمن سماهم ابن تيمية صوفية الرسم

دع صوفية الارزاق الذين فوقهم ، دع صوفية الحقائق الذين كلامنا فيهم
 طالما فكر محبو الاصلاح من عقلاء المسلمين في إصلاح شأن المتبين الى طرق
 الصوفية ، وإيقادهم من خيالاتهم الفاسدة وبدعهم الفاضحة ، بل اخراجهم — من
 جحر الضب الذي دخلوه وهم لا يشعرون — فلم يهتد أحد الى ذلك سبيلا ، ولما
 هاجرت الى مصر سنة ١٣١٥ كان أول إصلاح سعيت اليه ان حادلت إقناع شيخ
 مشايخ طرق الصوفية الشيخ محمد توفيق البكري بالقيام بهذا الاصلاح ، كلمته بذلك
 قبل إصداري (المنار) ثم مازلت الحاح عليه في ذلك وهو يسوق مع الاستحسان
 حتى عمد الى ذلك بوضع لائحة رسمية ولائحة داخلية ، ثم وضع كتابا في
 الاخلاق والآداب ، على انه سألتني عن رأيي في ذلك فقلت له مرارا ان الاصلاح
 لا يقوم الا برجال من أهل العلم الصحيح والاخلاق والغيرة والاستقامة يناط بهم
 أمر هذه الطرق كلها ، ثم علمت بعد طول السعي ان ما حاولت من الاستعانة
 بهذه السلطة الرسمية على هذا الاصلاح الروحي يكاد يكون من محالات العادات (١)
 وقد جرت المذاكرة في ذلك مرة بيني وبين صديقي السيد عبد الرحمن
 الكواكبي — وكان يرى أن إصلاح هذه الطرق أو الاصلاح من بابها محال —
 فقلت أرأيت إذا اقنعنا بعض إخواننا الصادقين في حب الاصلاح ، العالمين بطارق
 الارشاد ، بأن يكونوا شيوخا لهذه الطرق المشهورة ، ألا يستطيعون ان يقفوا بامة
 أهل طريقتهم عند حدود السنة ، ويربوا طائفة من المريدين تربية جديدة؟ فقال
 إننا جربنا ذلك فأقنعنا رجلا من أمثل هؤلاء الذين تعينهم بنحو ما ذكرت ،
 فكان عاقبة أمره معهم ، ان أفسدوه ولم يصلحهم ، فأنس بهذه الرياسة وآثرها ،
 ففسرناه بها

(١) مما بعد من عجائب مصر أن مشيخة التصوف فيها منصب رسمي يورث
 كالإمام ، فأمير البلاد يقلد بعض الوجهاء منصب (شيخ مشايخ الطرق الصوفية)
 وهو منصب محصور منذ عهد بعيد في بيت البكري من بيوتات مصر ، وشيخ
 المشايخ يقلد مشيخة أكثر الطرق المشهورة في هذا القطر من برنها عن أبيه أو غيره ،
 ولهم عادات وتقاليد في ذلك لا غرض لنا في شرحها

فلم بهذا كله ان للحياة الخيالية التي يعيش بها هؤلاء الناس لذة عظيمة سواء كان الخيال فيها عاليا أم سافلا ، ولذلك كان اصلاح شأنهم عمرا جدا ، ولن يقوم به الا من جمع بين العلم الصحيح والتقوى والاخلاص وقوة التأثير بالكلام وبالارادة، وهيات ان يتفق وجود افراد من هؤلاء اتفاقا ، وانما يوجد في كل عدة قرون منهم واحد ، وكثيرا ما يكون لهذا الواحد من الصوارف ما يحول دون التصدي لهذا الاصلاح ، فيجب على المسلمين السعي لتربية طائفة منهم ، وقد كان الاستاذ الامام من اولئك الافراد القادرين على هذا الارشاد لو تصدوا له ، ولكن صرف عنه حتي كان أكثر الناس يظنون انه ليس منه في ورد ولاصدر ، وطالما كانت نفسه تتوق اليه ؛ قال لي مرة : اذا يئست من اصلاح الازهر فاتني انتقي عشرة من طلبة العلم واجعل لهم مكانا عندي في عين شمس أريهم فيه تربية صوفية مع إكمال تعليمهم وأستعين بك على ذلك ، وكان اقترح مثل هذا الاقتراح على السيد جمال الدين ايام كانا ينشئان العروة الوثقى في باريس ، وسيأتي بيان ذلك

ولو تم للاستاذ هذا على الوجه الذي يريده لكان أعظم أعماله فائدة ، وما كان يحول دون تمامه الا تعسر الاهتداء الى عشرة من المریدین المستعدين لهذه التربية ، فان أوبئة فساد الفطر والاخلاق وضمف الارادات والمراثم لم يكبد يسلم منها الا الافراد الذين يعز الاهتداء اليهم بالسعي ، وانما يعرف منهم من يعرف بالانفاق والمصادقة غالبا. على ان تلك الروح المليئة ، والارادة القوية جديرتان بتحويل الطباع ، وتبديل الاوضاع

الفصل الرابع

في الطور الاول من حياته العملية

وهو ما قبل النفي

يتألف هذا الفصل من تمهيد في نتيجة تربية صاحب الترجمة وتعلمه ، خمسة مقاصد — ١ —
تدريبه في الازهر — ٢ — تدريبه في مدارس الحكومة — ٣ — عمله في ادارة الحكومة
— ٤ — عمله في نظارة المعارف — ٥ — سيرته في الثورة البرابية

تمهيد في حظه مما يكون به الرجل عظيما لو سأل سائل: أي الرجال أعظم في
الامة وأفضل؟ — لاختلف الجواب باختلاف أفهام الافراد ومذاهبهم، فهذا يقول
أعظمهم العالم وذاك يقول بل الفيلسوف، ويقول ثالث بل هو الرجل الصالح، فينبزي
رابع قائلا بل القائد الفاتح، ويخالفهم رجل آخر يدعي ان أفضل الناس السياسي
الخاذق، ويقول آخرون أقوالا أخرى. وإذا رجعت بالجميع الى البرهان رأيتهم
يتفقون على ان أعظم الرجال وأفضلهم المصلحون الذين يوجهون عزائمهم الى رفع
الامة من الدرجة الدنيا الى الدرجة العليا، وهؤلاء قلائد نجوم الاجيال بواحد منهم على
كثرة العلماء والصلحاء والقواد والسياسيين في كل زمان

انما يكون الرجل عظيما بأمرين أحدهما فطري لا يأتي بالكسب وهو الاستعداد
الذي يكون له بكمال الخلقة واعتدال المزاج، وحسن الوراثة للوالدين والاجداد.
وثانيهما كسبي وهو التربية القويمة والتعليم النافع، وقد كان استعداد الاستاذ الامام
لكل أمر عظيما حتى كان استعداداه هو الاصل في تربيته وتعليمه. فقد علمت مما
مر أن فطرته السليمة لم تقبل الاستمرار على حضور دروس لا يفهمها ولم يعرف هذا

عن غيره من المبتدئين بطلب العلم حتى أذكياهم الذين استفادوا بعد العناء، فصاروا من كبار العلماء، وقد كانوا يصبرون على مالا يفهمون زمنا طويلا، وإذا حفظ أحدهم شيئا بال تكرار ظن ان هذا فهم ودلم، ولا سيما اذا حفظ تفسير المتن من شرحه وحاشيته . ولكن صاحبنا لم يكن يترك المسألة حتى يفهمها ، ويوقن أو يرجح أن الحكم فيها كذا ، ولذلك أسرع اليه الملل من دروس مشايخ الاحتمالات . وكان يقول ان حضور كتب العلوم العربية على طريقته قد أضر بذهنه وعقله، وانه ظل يكس ذهنه وينظفه منها بضع سنين فلم ينظف تمام النظافة . وقد أعجبه طريقة السيد جمال الدين فانه كان يشرح معنى المسألة حتى تتجلى للافهام ثم يقرأ عبارة الكتاب ويطبقتها عليها فان انطبقت والا أبان ما فيها من التقصير، أو يقرأ العبارة ويبحث في دليلها فيقره أو يفنده ويجزم بغيره . وبهذه الطريقة ارتقى الى أن يحكم بنفسه في المسائل ولا يرضى بمجرد فهم المراد مع التسليم لأولف الكتاب ، فالذي امتاز به صاحب الترجمة على اخوانه الازهريين هو أنه في بدايته لم يرض أن يحضر شيئا لا يفهمه ، وفي نهايته لم يرض بما يفهمه الا بعد أن يثبته فيه الدلائل فيرضاه له، وأنه لم يقنع بالعلوم المتداولة في الازهر بل كان من أوائل عهده يطلب العلم الى يوم وفاته يطلب العلوم ويقدم منها ما يزيد كالا في نفسه ، ويمينه على رفع شأن ملته وأمته ، ولو انه تعلم في حداثة على طريقة قديمة كما تعلم النابغون من حكماء أوربة وعلمائهم في المدارس النظامية ولم يضع ذلك الوقت الطويل في البطالة وفي الطريقة الازهرية المتويدة - لرأينا من آياته العلمية أضعاف ما رأينا ، على ان ما رأينا يكاد يكون من الخوارق، فانه لم يكن يتكلم في علم الاوتراه صاحب القدر الممل فيه حتى كأنه هو الواضع له ، فمن شاء أن يقتدي بطريقته المثلى من الازهريين وغيرهم فليفعل عسى أن يكون من المفلحين

وأما تربيته النفسية فقد علم مما تقدم أننا انه تربي على طريقة الصوفية القويمة الخالية من البدع والخرافات وسلم من أوهامها الخالية حتى ملك نفسه وملك أخلاقه وصار الدين وجدانا له، فكل دينه بالجمع بين صحة الوجدان وقوة البرهان . وأهم ما اتفق له تربية الارادة أي ملكة العزيمة والاقدام، فقد كان فيها نسج وحده في أمته،

وسياتي بيان ذلك في الكلام على أخلاقه .

تقدم ان الرجل توجهت نفسه الى العمل والاصلاح قبل أن يصير مدرسا رسميا فبدأ باحياء اللغة ونفخ روح العلم والدين في الازهر ثم ان السيد جمال الدين وجه وجهه الى الاصلاح الاجتماعي والسياسي فجعله ساعده وعضده في ذلك، فاشتغل بها معه مدة ثم استقر رأيه على ان الاصلاح محصور في احياء لغة الامة واصلاح نفوسها بالترية الصحيحة والنظم النافع. وسيعلم القارى من هذا الكتاب كيف تنقل في ذلك من حال الى حال حتى كان بدء عمله التعليم في الازهر وخاتمته التعليم في الازهر

المقصد الاول

تدريسه وبدؤه بإصلاح التعليم في الازهر

كان عفا الله عنه قبل أخذ شهادة التدريس يطالع مع بعض الطلاب الدروس التي يحضرونها في الازهر ثم اتفقت الرغبة على أن يقرأ طائفة منهم بعض الكتب فقرأ لهم إيساغوجي في المنطق ثم شرح العقائد النسفية للسعد التنفاري مع حواشيه ثم مقولات السجاعي بحاشية المطار وغير ذلك من الكتب التي لم تكن تقرأ في الازهر، فكبر سواد المحججين عليه، وكان يدعوهم الى مطالعة ما لم يمدودوا من القنون والكتب، ويفتح لهم أبواب المداكرة والمناقشة ليلا، فكانوا يضلون الليل ولا يشعرون بطوله، ووقتن الاذكار بحسن بيانه ودقة فهمه، وحسن اناس منهم ففعلوا عليه قلب الشيخ عlish فكان ما كان من أموره، ثم اذ ذهب ابن للشيخ عlish مع بعض آخر فقلوا ان فلانا يقرأ شرح العقائد النسفية، وقد رجع في درسه أمسن مذهب المبنزلة على مذهب الاشعرية، وكان الشيخ عlish رحمه الله اذنا يصدق كل ما سمع، وكان شديد الغيرة في الدين حديد المزاج سريع الغضب، فكبر عليه أن يقرأ أحد الطلاب مثل ذلك الكتاب الذي لم يكن الشيوخ الكبار يتسامون لقراءته، فأرسل الى العقيد فخاه وهو يقرأ الدرس في المسجد الحسيني، فقال الشيخ عlish: بلغني أنك تقرأ شرح العقائد النسفية درساً قال: نعم، قال الشيخ عlish وبلغني أنك

رجحت مذهب المعتزلة على مذهب الاشعرية ! قال : اذا كنت أترك تقليد الاشعري فلماذا اقلد المعتزلي ؟ إذا أترك تقليد الجميع وأخذ بالدلائل ، قال الشيخ عlish : أخبرني الثقة بذلك ، قال : هلم الثقة الذي يشهد بذلك فليميز امامنا هنا بين المذهبين وليخبرنا أيهما رجحت ، قال الشيخ عlish : أو مثلك يفهم شرح العقائد ؟ قال : الكتاب حاضر وأنا حاضر فسأني ان شئت . فكبر على الطلبة الحاضرين مثل هذه المراجعة من طالب مجاور للشيخ عlish المبيب ، وقال بعضهم ان هذا يرسل شعره ويجمعه تحت عمامته ، وأخذ عمامته عن رأسه ، ولفظ الحاضرون ، فتركهم الفقيد رحمه الله تعالى وذهب حاسرا عن رأسه . فقال أناس ان الشيخ عlishا ضربه ، وقال آخرون انه منعه من الدرس . وكثرت الاشاعات والاقوال والرؤى والاحلام فيه وفي السيد جمال الدين . والحق أن ما ذكرناه هو كل ما حصل ، وأن الفقيد لم يتمتع من قراءة الدرس ، وقد اشيع ان الشيخ عlishا لا بد ان يمنعه من الدرس بالقوة ، واشتهر انه ترك قراءة الدرس في مسجد محمد بك أبي الذهب وأتمه في بيته . وقد حدثني انه لم يترك الدرس ولكنه كان يضع بجانبه عصا وقال اذا جاء الشيخ بـكازة فله هذه العصا . وكان من الشجاعة على ما يهد عارفوه كما سنين ذلك في الكلام على أخلاقه .

أما تأثير هذه الحادثة فقد كان أكبر منها ، بل كان هو مبدأ خوض بعض الجامدين في دين كل من السيد الحكيم والاستاذ الامام رحهما الله تعالى حتى عدوا حبس الاستاذ في امر الثورة العرابية كرامة للشيخ عlish ولم يمدوا حبس عlish كرامة له . وسنعتقد فصلا خاصا في هذا الجزء نبين فيه انه لم يسلم أحد من أئمة الدين ولا من كبار الحكماء والصوفية من مثل هذا الطعن ، وأنه من مناقب حكيمنا قدس الله روحهما ، وإن الذين يتشغون بمثل هذا الخوض من الاعداء والحاسدين ومن يقدّم من المساكين والمجانين لو عقلوا لكتموه وسعوا في ازالته

نعم ان ذلك الخوض والتقول مما نزين به تاريخ هذين الحكيمين ولكن لا نكر أن تأثيره السيء وقع على الامة الاسلامية عامة وعلى الازهر خاصة دون الرجلين الذين لم يحترم الناس من عقلاء الامة الاسلامية ولا من الاجانب أحدا في هذا

العصر من أهل المشرق كاحترامهم إياها — ذلك أنه كان عقبة في سبيل اصلاحهما واستفادة الأمة منهما ، وهما مأجوران عند الله تعالى بحسن نيتهما ، وبذلها جهد المستطاع في خدمة أمتهم وملتهم . وقد كاد يترتب على ذلك حرمان فقيدنا من شهادة العالمية ومرتبة التدريس في الازهر لولا عدل الشيخ العباسي وإنصافه ثم إن دروسه في الازهر كانت بناءً جديداً للمقائيد على أساس البراهين القطعية ، وتجديداً لما يلي من سائر العلوم العقلية ، وكانت حلقة درسه في الازهر واسعة جداً تحيط بأعمدة كثيرة ، وكان يقرأ في بيته درسا في الاخلاق أو السياسة لطائفة من المجاورين : قرأ في ذلك كتاب (تهذيب الاخلاق) لابن مسكويه الرازي فكان ذلك سبب طبعه المرة الاولى . وقرأ كتاب (كبرو) في السياسة ولا أدري أمه أم لا

شعر الازهر بشيء جديد يتجلى في تلك الدروس ، فهابها كثيرون ، كما أقبل عليها كثيرون ، وحسد الفقيد عليه بعض الشيوخ فكانوا يصدون تلاميذهم عنه ، حدثني صديقنا حقني بك ناصف أنه ما أقدم على حضور درسه في الازهر الا على سبيل الاكتشاف ، مع مراعاة الحذر والاحتراش ، وإنما اكتشف بتلك التجربة كثراً من التبر ، وغاص في بحر جنى منه أنفس الدر ، فترك له ما كان يلهو به من الحزف ، أو يخطف بصره من يريق الصدف ، وتبع هذا المصلح فكان من أنفع تلاميذه .

هذا ما كان من أمر الفقيد في الطور الاول من حياته العملية ، وهو وضع جراثومة الإصلاح في الازهر ، وقد بقي هذا همه الا كبر طول حياته فكان المبدأ والختام ، وسبباني تفصيل ما عمله في الازهر في أواخر أيامه

المقصد الثاني

تدريسه في مدارس الحكومة

عين الفقيد في أواخر سنة ١٢٩٥ مدرسا للتاريخ في مدرسة دار العلوم ، وللعلوم العربية في مدرسة الألسن الخديوية ، فكان يدرس فيهما مع الاستمرار على التدريس

في الجامع الأزهر، فبدأ دروسه في دار العلوم بقراءة مقدمة ابن خلدون بأنها مقدمة للتاريخ وإنما كان غرضه بث أفكاره السياسية والاجتماعية في أذهان التلاميذ، فكان يطبق ما فيها من الكلام على نهوض الدول وسقوطها وشؤون العمران وأصوله على أمته، ويبين أسباب ضعفها، والوسائل التي تذهب به وتعيد اليها ما فقدت من عزها وتجدها. وكان يكلف التلاميذ كتابة المقالات والفصول في ذلك فكان كل واحد يشعر بروح جديد يدب في هيكله، ويرى نفسه مخلوقا لخدمة بلاده وإعلاء شأن أمته، لأن هذه الأفكار لم تكن مألوفة في هذه البلاد، فلا تذكر في المدارس ولا في الجلسات المنعقدة في أذهان جميع الناس وقلوبهم أنهم عبيد للحكم لا حقوق لهم عليهم وقد كتب رحمه تعالى في ذلك العهد كتابا حافلا في علم الاجتماع وفلسفته التاريخ انتقد فيه بعض ما قاله ابن خلدون واستدرك عليه ما نكته طبيعة الاجتماع في هذا العصر من أحكام العمران في العصور الغابرة

وكان في مدرسة الألسن آية البيان في أحياء اللغة العربية وإشراغ الطريق للباحث في التعليم، والخروج بالطلاب من مأزق العهد القديم وما نبع من نبع من تلاميذ السيد وتلاميذ الشيخ إلا أنه كان يقصد بتربيته وتعليمهم إحياء نابتة من المصريين نمحي اللغة العربية، والعلوم الإسلامية، وتقيم عوج الحكومة، إذ كانت قد رثت ووهت، ووقعت في النزاع أو أوشكت. عظم فيها سلطان الأجانب، وأحاطت بها سيول الفتن من كل جانب، ففتت الأمة بالتمزق والمهينة، وضربت عليها الذلة والمسكنة، ذلك بما أسرف اسماعيل باشا في الضرائب والمكوس، وتعذيب الأجساد وإذلال النفوس، وقد حدثني بعضهم أنهم عندما كانوا يحضرون دروس الشيخ ومجالس السيد يشعرون بأن في استطاعتهم القيام بكل إصلاح يناط بهم، وأنهم إذا وزعوا على مديريات القطر ومحافظاته يصلحونها في أقرب وقت، وقد كان السيد مهد السبيل لهذا الإصلاح باتصاله بتوفيق باشا ولي عهد الخديوية المصرية، وإقناعه إياه بما يجب أن تكون عليه الحكومة إذا آل أمرها إليه، وقد تقدم بيان ذلك في ترجمة السيد رحمه الله

ظهرت آثار روح الشيخين في أعمال تلاميذها فكان منهم أرقى القضاة

الاهليين والمحامين وأساتذة المدارس العالية ، ومن أشهرهم سعد زغلول ، و ابراهيم اللقاني ، وحفني ناصف ، ومحمد صالح ، وسلطان محمد

المقصر الثالث

عمله في ادارة المطبوعات والجريدة الرسمية

في أواسط سنة ١٢٩٧ توجّهت عناية رياض باشا الى تحسين كتابة الجريدة الرسمية وجعلها مفيدة مرغوبا فيها من الناس فاستشار الشيخ حسيناً الرصني ومحمود باشا سامي البارودي كلا على حدته فأشارا برأي واحد كاتهما توأصيا به وهو جعل الشيخ محمد عبده محرراً فيها أولاً ففعل بعد أن استرضى توفيق باشا فصدر الامر العالي بتمينه محرراً ثالثاً وانتظر رياض باشا مدة من الزمن فلم يرتضيه آ يذكر فطلب الفقيه وسأله عن ذلك فقال ان أمر الجريدة ليس إلي وإنما أنا أحد المحررين ان طلب مني شيء كتبتّه وإلا فلا .

ثم ان رياض باشا كتب من الاسكندرية يأمر قلم المطبوعات في مصر بان يكتب مقالة في مالية مصر تلم بشيء من تاريخها الماضي وحالها الحاضر الذي وضع له قانون التصفية وأن تنشر هذه المقالة في أول عدد يصدر من الجريدة الرسمية وكان قد بقي له يوم واحد فخاص كتاب الجريدة وحاروا فلم يدروا ما يكتبون ثم اهتموا السبيل فأرسلوا الى صاحب الترجمة من أحضره من الازهر وكلفوه كتابة المقالة فكتبها في مجلسه ونشرت فلما قرأها ريانر باشا أعجب بها أشد الإعجاب وسأل عن كاتبها فقيل له هو فلان فزاد عجبه أن وجد في الازهر شاب واقف على تاريخ المالية في مصر عارف بجميع شؤونها قادر على بيان ذلك والافصاح عنه . ويقول بعض مريدي الاستاذ ان رياض باشا طلبه وكلفه كتابة تلك المقالة في بيان الغرض من قانون التصفية وفائدته للبلاد وأما الرواية الاولى فقد سمعتها من الفقيه ولعلها واقعتان لمقاتلين . وفي أواخر هذه السنة طلبه رياض باشا وسأله عن رأيه في اصلاح الجريدة اذ علم انه ابو عذرتها ، والنقد لما يرجو من ترقيةها ، فبين له رأيه في تقرير ضاف فأمر بان

(م ١٨ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

تؤلف لجنة للنظر في التقرير من وكيل الداخلية ومدير المطبوعات وكاتب التقرير، وأن توضع لائحة لقلم المطبوعات وتحرير الجريدة فكان ذلك، وعين الفقيده رئيساً لقلم تحرير الجريدة الرسمية العربية وسمي « المحرر الاول » لها، فاختار لها من المحررين المهرة الشيخ عبدالكريم سلمان والشيخ سعد زغلول (هو سعد بك زغلول المستشار بمحكمة الاستئناف لهذا العهد) والشيخ ابراهيم الملباوي (هو ابراهيم بك الحامي الشهير الآن) والشيخ سيد وفا (رحمه الله) وهم ممن كانوا قد برعوا في الكتابة معه على يد السيد.

ثم ماذا كان من شأنه ؟ كان مالم يخطر على قلب بشر، وهو ان رئيس التحرير للجريدة الرسمية صار مهميناً على الحكومة والامة، ينتقد الاعمال والاقوال، وينقل بالناس من حال الى حال

وضع لائحة لقلم المطبوعات أو للجريدة الرسمية اجازها وانفذها رياض اشا فكان من احكامها ان جميع ادارات الحكومة ومصارفها ومجالسها في العاصمة وغيرها مكلفة ان تكتب الى ادارة الجريدة مخبراً بما عملت فتمت وما شرعت فيه فلم تتمه، وكذلك المحاكم ترسل اليها نتائج احكامها، وأن لادارة الجريدة الحق في انتقاد كل ما تراه منتقداً من الاعمال ومن المکتوبات الرسمية، وأن لها حق المراقبة على الجرائد الوطنية والاجنبية التي تصدر في اقطار المصري، وأن تبحث عن حقيقة ما تقول في رجال الحكومة واعمالها. وعلى الحكومة مساعدتها على ذلك بمعنى أنه اذا نشر في بعض الجرائد ما تراتب ادارة المطبوعات فيه فان لها أن تسأل المصلحة او الادارة التي يسند اليها ذلك عن الحقيقة بواسطة نظارة لداخلية إن لم يكن ما نشر مستنداً الى النظارة وإلا سألتها هي مباشرة. فان كان حقاً ما نشر في الجريدة وجب على الحكومة مؤاخذه من نسب اليه الذنب وذكر ذلك في الجريدة الرسمية. وإن كان كذباً طواب مدير الجريدة باثباته وإلا أنذر. وكان من احكام قانون المطبوعات انه اذا تكررت اذاعة جريدة ثلاث مرات يمنع اصدارها البتة أو الى الاجل الذي تراه الادارة.

وكان من حق هذه الادارة أن تفصل في كل نزاع يقع بين جريدتين عربيتين فصلاً لا تجوز المناقشة فيه. وكان من حق رئيس تحرير الجريدة الرسمية

أن يجعل فيها قسما غير رسمي ينشر فيه لنفسه ولغيره ما يراه نافعا من المقالات الادبية (ويدخل في الادبية الاجتماعية والاقتصادية وما أشبه ذلك) ومن أحب أن يعرف قيمة هذه المقالات في ارشاد الامة والحكومة فليرجع الى ما نشرناه من مقالاتها في منشآت الاستاذ في الجزء الثاني من هذا التاريخ

ان في هذا لمبة لاولي الالباب — صاحب عمامة ازهرية يدخل في حكومة مطابقة بعيدة في أعمالها عن رجل العلم والدين فيشرف من نافذة غرفته تحرير الجريدة الرسمية على نظارات الحكومة ومجالسها ومحاكمها ومصالحها ما لا يدتبون ويرشد هم الى اصلاح العمل فيما يعملون . ثم يشرف من نافذة أخرى لها على الامة فيقوم من أخلاقها ، ويصاح ما فسد من عادتها ، بالوعظ الصحيح ، والارشاد القويم . ويطل من نافذة ثالثة فيها على الجرائد العربية فيعلمها حسن التحرير ويربها على الصدق في القول ، ويجعل للصادق منها سلطانا نصيرا ، وتأثيرا ماثورا ! يالها من عمامة شرفت برأس صاحبها حتى حسدتها الطرايش ، وهابتها التيجان وعظمتها البرانيط . ونذكرها على سبيل الفكاهة ان بعض الكبراء رغبوا الى الاستاذ الامام في ذلك الهدى ان يستبدل الطربوش بالعمامة لان صاحب العمامة لا يرتقي الى مراتب الرؤساء والنظار كصاحب الطربوش فأبى عليهم ذلك فأردوا الاستعانة عليه برياض باشا فأوموه انه يميل الى ابس الطربوش ولكنه لا يلبسه إلا بأمره فسأله فقاهر له أنه لا يرغب في ترك زيه وأنه اذا ألزمه ذلك الزما فانه يمثل مادام في عمل الحكومة . فاذا خرج من عمله عاد إلى عمامته فقال رياض باشا كلا إنني لا أَرْضَى لك الطربوش لأنني أحب ان يعلم الناس انه يوجد تحت الدمام من العقول والافهام مثل ما يوجد تحت الطرايش وغيرها فلا در رياض باشا وجزاه الله الخير فانه هو الذي أحضر السيد جمال الدين ومكن له في أرض مصر وهو الذي كان السبب في ظهور مواهب الشيخ محمد عبده في اول نشأته حتى إنه حكمه في انتقاد نظارة الداخلية وهو أحد العمال المتوسطين فيها

كان من أثر مراقبة ادارة المطبوعات للجرائد أن اجتمع اصحابها في انتقاء المحررين وقد أُنذِر القعيد عامله الله تعالى باحسانه مدير جريدة شهيرة بمنع جريدته

إذا لم يختار لها محرراً صحيح العبارة في مدة عينها فبادر ذلك المدير إلى الامتثال ولم يكن يأذن بطبع كتاب من الكتب الضارة . وكان من أثر انتقاد كتاب الحكومة في الجريدة الرسمية أن نبه شأن المجدين ، وفتحت مدارس ليلية لتعليم المقصرين وتبرع تعمده الله برحمته بقراءة درس في بعضها . فهذا هو مبدأ النهضة القلمية الحقيقية في مصر ، فالفضل فيها للسيد جمال الدين وللشيخ محمد عبده رحمهما الله تعالى وأما انتقاده أعمال الحكومة فكان من أسباب تحريك الحق والعزل والاجتهاد في اصلاح كل نظارة ، وكل مديرية ومحافظة ، وقد ثلث على بعض المديرين انتقاد الجريدة اياه وأراد منها من مديريته وراجع نظارة الداخلية في أمرها زاعمان انتقاد أعماله بضع من قدر الحكومة في عين الرعية ، فعادت عليه شكواه بضد ما أراد ، وعلم ان ساطة الجريدة الرسمية ، فوق ساطة المديرية

وقد عني القيد يومئذ بنفسه بانتقاد نظارة المعارف ومثل مساوي التعليم والتربية في مدارسها شرميل ، فضاقت ناظر المعارف لذلك العهد ذرعاً ، فلاذ برياض باشا شاكياً من الجريدة الرسمية ، فقال له رياض باشا ان كان ما كتب حقاً فلا وجه للشكوى منه ، وان كان باطلاً فعليك أن تبين ذلك بالدليل والبرهان وفلان ينشره في الجريدة الرسمية نفسها ، فإنه لا يقصد بما يكتب فيها إلا الصالحة . فسكت الناظر واجماً ، وكان ذلك سبباً لما ترى في المقصد الرابع ، من المشروع في إصلاح نظارة المعارف

المقصد الرابع

(عمله في مجلس المعارف الأعلى)

اقتنع رياض باشا بما في نظارة المعارف من الخلل وعلم ان ما يكتب في الجريدة الرسمية حق فذاكر القيد في ذلك وفي وسائل تلافيه فأشار أولاً بان يستبدل بناظر المعارف ناظراً آخر أقدر منه على الاصلاح المطلوب ، فقال له الوزير إن الوزارة متكافلة لا تستطيع ان تفتح للخديو باب التغيير والتبديل فيها ، فعرض عليه حينئذ ان يكون للمعارف مجلس أعلى يكون له الحكم الفصل في ادارة المعارف العمومية ويكون الناظر منفذاً لما يقرره فأنفذ ذلك رياض باشا باستصدار الامر العالي الآتي

وجعل صاحب الترجمة عضوا في هذا المجلس فكان له فيه الاقترحات النافعة ولولا كثرة ما جعل فيه من الاعضاء الاجانب الذين كانوا يمارضون المشروعات النافعة للبلاد ثم حدوث الثورة لارتقت معارف البلاد في ذلك العهد ارتقاء عظيما .
صدر الامر العالي بتشكيل هذا المجلس في ٢٨ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨ وهذا نص الامر العالي به وما كتبه ناظر المعارف الى صاحب الترجمة في ذيله نقل من الاصل الرسمي المختوم بختم الناظر وهو :

ترجمة

أمر عالي (?)

نحن خديوي مصر

بناء على ما رفعه لنا ناظر المعارف العمومية وموافقة رأي مجلس نظارنا ذمربما هو آت : بند ١-

قد تشكل تحت رئاسة ناظر المعارف مجلس أعلى للمعارف العمومية متركب على الوجه الآتي:

علي مبارك باشا	ناظر الاشغال العمومية
حسين (فخري) باشا	ناظر الحفائية
موسيو موني	مدير وكوميسارى صندوق الدين العمومي
موسيو ليرونه دي رول	باشكاتب عموم التفتيش العام
استونه باشا	رئيس عموم أركان حرب
عبدالله باشا فكري	وكيل نظارة المعارف العمومية
لارمي باشا	ناظر المدارس الحربية
الدكتور سالم باشا سالم	رئيس مجالس الصحة العمومية
جانياردو بك	ناظر مدرسة الطب

ناظر دار الآثار القديمة (الانتقخانة) ومدير	مسيو جاستون ماسيرو
عمليات الحفر والبحث في جوف الارض	موسيو موجيل
ناظر مدرسة المعلمين	اسماعيل بك الفلكي
ناظر مندرسة الهندسخانه	دوجرس بك
ناظر قلم الاملاك الميرية المعروضة للبيع	فيدال بك
ناظر مدرسة الادارة	جيجون بك
ناظر مدرسة العمليات	اسييتا بك
ناظر الكتبخانة الاهلية	موسيو مونتان
ناظر دروس المدرسة العالية	صادق بك شنن
ناظر مدرسة التجهيزية	الدكتور عثمان بك غالب
وكيل مدرسة الطب	الشيخ حسين الرصفي
خوجه بمدرسة المعلمين	الشيخ محمد عبده
محرر أول الصحيفة العربية الرسمية	الشيخ زين الرصفي
عالم	الشيخ حسونه
خوجه بمدرسة الادارة	موسيو بارنار
خوجه بمدرسة اللسن	

بند — ٢

يمطي المجلس المذكور رأيه في المواد الآتية :

أولاً في مشروعات القوانين واللوائح المختصة بالتعليم وخصوصاً في جداول مواد التعليم بالمدارس الميرية

ثانياً فيما يتعلق بإنشاء مدارس جديدة

ثالثاً فيما يختص بتوزيع مايمطى من النقود على سبيل الاعانة والتشويق للمدارس الغير ميرية

رابعا فيما يتعلق بكتب التعليم التي تستعمل في المدارس الميرية

خامساً في جميع المسائل المختصة بضبط واربط المدارس الميرية وحساباتها وادارتها

سادسا في المسائل المتعلقة بحقوق وترقي المعلمين
سابعا في غير ما ذكر من جميع المسائل التي يقدمها له ناظر المعارف العمومية

بند — ٣

على ناظر المعارف أن يقدم في كل سنة للمجلس الاعلى صورة ميزانية المعارف العمومية عن السنة التالية وعند تقديم هذه الميزانية لمجلس النظار ينبغي أن تكون مصحوبة بما يبيده المجلس الاعلى من الملاحظات فيها بعد نظره اياها

بند — ٤

يجوز المجلس الاعلى أن ينتدب واحداً أو أكثر من أعضائه إما لتحقيق المواد التي تعرض عليه أو لتفتيش على المدارس الميرية أو المدارس الغير ميرية المربوط لها مرتبات على سبيل الاعانة من طرف الحكومة

بند — ٥

على المجلس الاعلى أن يحرر وينشر في آخر كل سنة تقريراً عن حالة التعليم في المدارس الميرية

بند — ٦

ينعقد المجلس المذكور بناء على طلب ناظر المعارف العمومية ويكون انعقاده مرة واحدة بالاقل في كل شهر ماعدا في مدة البطالة (؟)

بند — ٧

لا تكون مداوالات المجلس المذكور صحيحة ومعتبرة الا اذا كن حاضراً به تسعة من أعضائه لاقل وتكون قرارته بأغلبية الآراء

بند — ٨

على ناظر المعارف تنفيذ أمرنا هذا

صدر بسراي عابدين في ٢٨ مارث سنة ٨١ — ٢٨ ربيع الثاني سنة ١٢٩٨

بأمر الحضرة الفخيمة الخديوية الامضاء (محمد توفيق)

رئيس مجلس النظار

ناظر المعارف

الامضاء (رياض)

(الامضاء على ابراهيم)

حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ محمد عبده

المسطر بهذا ترجمة الامر الكريم^(١) الصادر بتشكيل مجلس أعلى للمعارف وحيث ان حضر تدكم من ضمن أعضاء المجلس المذكور فلزم تحريره للمعلومية بما اشتمل عليه الامر والحضور لديوان المعارف الساعة ٩ افرنجي صباحا في يوم الخميس الموافق ١٥ جاسنة ٩٨ حيث سيكون انعقاد اول جلسة في اليوم المذكور ١١ جاسنة ١٢٩٨

ناظر معارف

٣٦٠
٣٥

الحتم

هذا نص ما بلغه صاحب الترجمة بحروفه ، وخاتم ناظر المعارف منقوش فيه قوله تعالى (والله غالب على أمره) لا اسمه — ويرى القارئ ان الاعضاء الاوربيين أكثر من الوطنيين في هذا المجلس

في هذا المجلس تألفت للنظر في اصلاح طرق التعليم والتربية في جميع المدارس جعل الفقيه الكاتب العربي لجلساتها وكان له فيها الاراء الصحيحة والحجج القيمة على ما يطلب من الاصلاح

اذ ذكر من اقتراحاته شيئا سمعته منه ولا ادعي أنني أحطت بتفصيله كل الاحاطة وهو أنه اقترح مرة على المجلس ان يطلب من الحكومة مبالغاً عظيماً من المال يوزع على المدارس الاجنبية مكافأة لها على خدمة العلم ونشره في البلاد ، فمش الاعضاء الاوربيون لهذا الاقتراح وعارض فيه بعض الاعضاء الوطنيين ووافق عليه الآخرون الذين عرفوا ما يرمى اليه المقترح فتقرراً أكثر الآراء. ثم انه اقترح في جلسة أخرى أن يقرر المجلس وجوب جعل المدارس الاجنبية تحت مراقبة نظارة المعارف لينظر مفتشوا النظارة في نظام التعليم وسيره فيها فمش الاعضاء الوطنيين لهذا الاقتراح وعارض فيه الاجانب ، فأقام عليهم الحجة بأن جميع الدول الاوربية تراقب جميع المدارس التي تأخذ منها اغاثة وتفتش مدارسها اذ يجب على الحكومة ان تعلم أنها لا تضع دراهمها بل تنفقها فيما ينفع بلادها . فقال بعضهم ان هذا قول حق وانما نعارض

(١) قرارات مجلس النظار المصري تصدر باللغة الفرنسية الى الآن وتدوينها

وترجم بالربية

الآن في هذا الاقتراح لا ننازع أن المعارف في مصر منحلة وأما اجتماعنا لترقيتها، وأرباب المدارس الأجنبية مرتقون في العلوم والمعارف ولا يصلح الأدنى للإشراف على من هو أعلى منه ولا المنحط للحكم على المرتقي . فقال الفقيد رحمه الله تعالى للمعترض : كان يصح هذا الدفاع لو لم تكن أنت ورفاقتك الاوربيون المرتقون من أعضاء مجلس المعارف المصري ، على انه اذا كان الطلب في نفسه حقا وعدلا فلا يصح أن يرفض لان المعارف العمومية لم ترتق في البلاد المصرية . فان عدم ارتقاء المعارف وانتظام المدارس لا ينافي وجود أفراد من الموظفين في النظارة من الاوربيين أو المصريين المتعلمين في مدارس أوربية عالية يصلحون لتفتيش المدارس الأجنبية : فنهضت حجته وتقرر اقتراحه . وانها لأمنية كان يتلخر على ذكرها السلطان والامير ، ويسيل لثوهمها لعاب الناظر والوزير ، ولكن تقف دونها الآمال حسرى ، وتنحني أمامها العقول حيرى ، وتكبو في غاياتها جياذ السياسة ، ويصغر عن الطمع فيها أهل الرياسة ، ثم نسمو اليها تلك الهمة ، ونستزلفها من أعلى القمة ، ولولا الفتنة العرابية لجعل لنا ذلك العضو أو الكاتب ، سيطرة على مدارس الاجانب ، على ما كان لهم في ذلك الزمان ، من النفوذ والسلطان ، فكيف لو كان ذا منصب أعلى ، ونفوذ أقوى ؟

المقصد الخامس

﴿ عمله ورأيه في الثورة العرابية ﴾

علم مما تقدم ان البلاد المصرية كانت في أواخر إمارة اسماعيل باشا في ظلمات بحر من الظلم لجي بغشاء موج من فوقه موج من فوقه سحب ، ظلمات بعضها فوق بعض — ظلمة الجور والظلم ، وظلمة الفقر والفاقة ، وظلمة الشرور وفساد الاخلاق ، والآداب ، وظلمة تحكم الاجانب وسيطرتهم على الحكومة بحجة المراقبة المالية للملم من الديون على اسماعيل باشا ، وظلمة سلطتهم على الرعية التي أغرقها في الاستدانة منهم كثرة الضرائب والجزى ، وكثرة الضرب وسوء الجزاء . وكان يظهر من غمرات هذه الظلمات بصيص من النور في مواضع مختلفة لمعت جذوة منه في الازهر فنفخ (م ١٩ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

الشيخ عlish فتحة أخذتها ولكنها ما أطفأناها، ثم كان هذا النور يظهر في معاهد خاصة فتعشو اليه الابصار، ويسير في ضوءه من سار، حتى أشرق وتلاأ في ادارة المطبوعات، وانتشر نوره في سائر الجهات، وكان ما كان من أخذ الحكومة والناس بوسائل الاصلاح ومقاصده فرحين مستبشرين بأمرهم الجديد (توفيق باشا) لعفته عن أموالهم، ورغبته في اصلاح حالهم، وبوزيرهم العامل المخلص (رياض باشا) واذا بناجم الفتنة قد نجم، وطائر الشر قد وقع، اذهب ضباط الجيش من المصريين بطالبون بحقوقهم، وأيديهم على مقابض سيوفهم، وتلك هي ما يسمونه بالثورة العراقية

كان استاذنا في أول أمر هذه الثورة كارها لها منددا برعماها وهو بينهم، لانه كان يعلم انها تحبط عمله الذي مضى فيه، وكل اصلاح لعمله الحكومة أو تنويه، وأنها تمهد للاجانب سبيل الاستيلاء على البلاد، بل كان هو واستاذة يتوقعان ذلك من سيرة اسماعيل باشا، وقد صرح السيد بذلك في خطبه وفي بعض ما كتب وطبع لذلك العهد، وحاول ان يحول دون ما يخبثي ويتوقع بالدعي في الاصلاح، فليس قولنا عز استاذنا أنه كان لا يجهل خطر الثورة من الدعوى أو الرجم بالغيب، بل هو قول مؤيد بالدلائل وثابت بالرواية الصحيحة عنه وعن الصادقين من العارفين بما كان. كان ينتقد على زعماء الثورة بالقول خطابة وجدالا في أنديتهم وسمارهم وبالكثابة في الجريدة الرسمية، حتى أرسل اليه عرابي مرة من يتهدده ويقول انك أمنت الشرف العسكري بما كتبت عن الجيش ورؤسائه. أرسل اليه ضابطين الى قلم المطبوعات من الداخلية فطردهما وهددهما اذ هما لم يخرجوا، حتى صار عرابي وأعوانه ينفذون من المجلس الذي يدخل فيه

زار مرة طلبه باشا في أيام عيد الفطر فاذا بعرابي وأعوانه جلوس يتكلمون في الاستعداد والحرية، والحكومة المطاعة والحكومة النيابية الدستورية، واتفقوا على أن الامن على الارواح والاول، وصعود الامة في مراقي الكمال، من آثار الحكومة المقيدة بلا جدال، وان هذا التحويل قد آن في مصر أوانه، وأدركها إبانة، فعارض الاستاذ في ذلك وقال ان أول ما يجب أن يبدأ به التربية والتعليم لتكوين رجال

يقومون بأعمال الحكومة النيابية على بصيرة مؤيدة بالزعامة، وحمل الحكومة على العدل والاصلاح، ومنه تعويدها الاهالي على البحث في المصالح العامة واستشارتها إياهم في الامر بمجالس خاصة تنشأ في المديریات والمحافظات، وليس من الحكمة أن تعطى الرعية ما لم تستعد له فذلك بمثابة تمكين القاصر من التصرف بما له قبل بلوغه سن الرشد وكال التربية المؤهلة والمعدة للتصرف المفيد. فطلق عرابي مجادله هو وأحد أساتذة المدرسة الحربية، وكان مما احتج به الفقيه عليهما أن الامة لو كانت مستعدة لمشاركة الحكومة في ادارة شؤونها لما كان اطلب ذلك بالقوة العسكرية معنى، فما يطالب به رؤساء العسكرية الآن غير مشروع لانه ليس تصوير الاستعداد الامة ومطلبها، ونخشى أن يجر هذا الشعب على البلاد احتلالاً أجنبياً يسجل على مسييه اللعنة الى يوم القيامة.

عند ذلك أبدى المجادل نواجزه لغير تبسم، وقال أرجو أن لا أستحق هذه اللعنة، وليس الجند هو الذي يطالب مجلس النواب ولكنه مؤيد لطلب أعيان البلاد ووجهاتها، ثم أمر الى الاستاذ أن سلطان باشا جمع الاعيان لهذا الطلب.

وقد كتبنا في ص ٥١٢ من مجلد المنار الرابع (مجلد سنة ١٣١٩) رداً على صحافي عرض بأن الاستاذ الامام كان من أركان الثورة العرابية نذكره هنا وهو «عرض هذا الانفجاني المتذقح بذكر الفتنة العرابية وباليته كان يعرف حقيقة الفتنة العرابية ويعرف المتهورين فيها والناصحين لهم بالاعتدال فهو لا يعرف ولا يحب أن يعرف فإذا أحب فليسأل العارفين، وليراجع كتابه الكاتبين، وعند ذلك تظهر له مزية من عرض به ان كان من المنصفين، يظهر له أن هذا الرجل الكبير العقل البعيد الرأي كان ينتقد أعمال عرابي وتهوره في جريدة الوقائع الرسمية في القسم الادبي منها على حين ترتد فرائض قصر الخديوية من عرابي، وعلى حين يرى هذا المنتقد الشجاع ان رئيس النظار ينزل من ديوانه بأمر عرابي مكرها ويسمع من أتباعه ما يكره. ثم تظاهر له تلك الخطبة التي خطبها هذا الرجل العظيم في زعماء الثورة العرابية عند ما ألزوه حضور مجتمعتهم وان يقوم فيهم خطيباً.

«ماذا كان موضوع خطبته؟

« كان موضوعها يانا تاريخيا اجتماعيا ملخصه أن المهود في سبر الام وسنن الاجتماع القيام على الحكومات الاستبدادية وتقييد ساطتها وإلزامها الشورى والمساواة بين الرعية انما يكون من الطبقات الوسطى والدنيا اذا فشا فيهم التعليم الصحيح والتربية النافعة وصار لهم رأي عام ، وانه لم يمهّد في أمة من أم الارض ان الخواص والاغنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة أنفسهم بسائر الناس وإزالة امتيازاتهم واستثمارهم بالجاه والوظائف بمشاركة الطبقات الدنيا لهم في ذلك ، فكيف حصل في هذه المرة ومن أهل هذا المجتمع ؟ (قال) فهل تغيرت سنة الله في الخلق وانقلب سبر العالم الانساني ، أم بلغت فيكم الفضيلة حدا لم يبلغ اليه أحد من العالمين حتى رضيتم واخترتم عن روية وبصيرة أن تشاركوا سائر أمتكم في جاهكم ومجدهم وتساووا الصماليك حبا بالعدالة والانسانية ؟ أم تسبّرون الى حيث لا تدرّون ؟ وتعاملون ما لا تعلمون ؟ : وأمثال هذا الكلام الذي فهمه بعضهم فطفقوا ينفخون رؤوسهم وعلا على أفهام الآخرين

« هذا ما قاله الشيخ محمد عبده في أعظم مجتمعه لرؤساء العرايين ولو كانوا يعقلون لرجعوا به الى رشدهم ، ولكن الامة لم تكن استعدت لفهم ارشاد هذا الحكيم ولما نستعد الى الآن ، ولهذا الاستاذ ان يتمثل بقول ابن الفارض رحمه الله تعالى
« ونهج مبيلي واضح لمن اهتدى ولكنها الاهواء عمت فأعمت » اه

هذا ما كتبناه في سنة ١٣١٩ ونزيد عليه الآن أن عرابي ورجاله خنقوا على الاستاذ وكشفوا المرحوم السيد أحمد علي محمود والمرحوم ابراهيم افندي الوكيل وكاناه من أعضاء مجلس النواب ومن أخص أصدقاء الاستاذ بما أضمره له من سوء فأعدا احتفالا في منزلها بقصر الشوك دعيا اليه كل ذي جاه ومقام ليصاحبا ذات البين بين الفريقين ، وتوالى الخطباء هنالك حتى جاء دور الاستاذ وقام ليعتذر عما مضى ففسر مقصده من الخطبة السابقة تفسيرا كان أسوأ تأثيرا في نفوس العرايين مما كانوا تقومونه منه وخنقوا عليه لاجله .

ولا يلبس على القارى معارضة الاستاذ الامام للعرايين في مشروع مجلس النواب وتقييد السلطة مع أنه كان الداعي الثاني الى ذلك بعد استاذه وأول من

تلقى ذلك عنه، فانه إنما كان يحاول أن يكون ذلك برضا الامير وحكومته لا بالخروج عليه، وأن يكون في البداية من قبيل الترين والتعويد، مقرونا بالتربية والتعليم الى أن تبلغ النابتة الجديدة أشدها، وتصل من طريق الحكمة الى رشدها، وقد رأيت كيف كان التوسل اليه منه، فيما رويناه لك عنه، وهو لم يفارق القوم المطالبين بالاصلاح عند مهب الفتنة، ويأجأ الى قصر الامارة أو يتفياً ظلال العزلة، لانه في فكره وسط بين الطرفين، وفي عمله بين المصاحتين، وقد قال لعراي مرارا كثيرة: عليك بالهدوء والسكينة وأنا أضمن لك أكثر مما تطلب في بضع سنين، ونهاه بعد ذلك عن محاربة الانكليز

انتهت الثورة بالاحتلال الانكليزي وقبض على زعمائها وألقوا في غيابة السجن ليحاكموا فيقتلوا تقيلاً، وجعل الفريد منهم لأمرها، وصدر الامر بأن تكون محاكمتهم بالقانون الانكليزي، وعين لهم محام انكليزي جاءهم فسمع منهم، وكلفهم ان يكتبوا دفاعهم بأيديهم، كل يكتب عن نفسه، ولا يطمئن في غيره؛ فلم يرفي كتابة أحداً تقوم به الحجة، وتقعده به التهمة، ويدل على النوص في أعماق الحوادث، والاحاطة بما لها من الاسباب والنتائج. الا ما كتبه وما قاله الاستاذ الامام، وقد زاد المحامي على بيان ذلك أن أشعره بالحفايا، وأطلعته على ما في زوايا القصر من الخبايا، كقوله ان الحاشية خاطبت محافظ الاسكندرية بلسان البرق بكذا في يوم كذا وعدد كذا بأن يفعل كيت وكيت. وأعطاه من المستندات ما يقلب وجه المسألة، ولا ترضى اظهاره السياسة، فكان ذلك سبباً لتخفيف الحكم، ونسخ إعدام الزعماء بالنفي، فحكم على عراي ورفاقه المعروفين بالنفي الابدی وعلى صاحب الترجمة بالنفي ثلاث سنين. وقد كان النفي بلاء وشقاء على كل من المنفيين حاشا الامام فانه كان رحمة له ونعمة عليه، ومزيداً في كمال علمه وتربيته، ومبياً لنشر علمه في بلاد كثيرة، ذلك أنه كان من أهل الاخلاص والتقوى، فجعل الله تعالى له من كل ضيق فرجا ومخرجاً، بل بدله بالنعمة نعمة، والسيئة حسنة، فكان مبدأ حياة جديدة له نينها في الفصل الذي يلي هذا

هذا ما كنا كتبناه في المنار ونزيد عليه هنا ما يلي :

﴿ قصيدة الفقيد في الثورة المراية ﴾

أصبح الدلائل على رأي الانسان في أمر من الامور أو حدث من الاحداث وعلى موضع ذلك الشيء من شعوره ووجدانه ما يكتبه بشأنه في أثناء وقوعه ، وقد نظم صاحب الترجمة قصيدة في شأن هذه الثورة وهو في السجن صور فيها كل ما كان في دماغه وقلبه في ذلك الوقت ، اذ كانت نفثة . مصدور ، وشكوى مظلوم ، وأماني مصلح لم يدر كنهه أهل زمنه ، فانهموه بضد ما كان عليه في نفسه ، ولو كان قعيدنا من الشعراء ، أو استمال بقصيدته أمير البلاد أو أصحاب السلطة العسكرية فيها ، أو اعتذر عن عمل عمله ، لا يمكن ان لم يعرف أخلاقه أن يقول إنه قال غير ما يعتقد به ويشعر به لاستمالة أصحاب السلطة اليه ، توسلا به للافراج عنه . ولكن القصيدة كما ترى ، وهو لم ينظم الشعر قبلها ولا بعدها ، الا تلك الايات التي قلها في مرض موته وقد سارت بها الركبان ، وحفظها الالوف من الناس . وقد قال لي إذ أشدني إياها اتني قلت شعرا في هذه الايام كأنني لا أقول الشعر الا في المرض أو السجن (بشير الى هذه القصيدة)

وقعت لنا نسخة من هذه القصيدة فيها غلط وتحريف وتصحيف ، فما عرفنا أصله باليقين صححناه ، وما لم نعرف أصله تركناه ، وهي :

دَهْرٌ يَبَالِغُ فِي عَجْبٍ وَفِي تَبِهٍ	مَالِي يَنْفَقُ قَلْبِي مِنْ تَفَاضِيهِ
زُرْقُ الْإِفَاعِي وَقَدْ شُدَّتْ أَيْادِيهِ ^(١)	أَيْتُ لَيْلِي كَمَلَسُوعُ تَسَاوَرِهِ
وَالْقَلْبُ فِي فَرْغٍ مِنْ خَوْفِ آتِيهِ	الْجِسْمُ فِي أَلَمٍ وَالرُّوحُ فِي قَلَقٍ
يَأْتِي الدُّنْيَا وَأَفْكَارُ تَضَاهِيهِ	وَمَا ذَنْبِي لَدَى دَهْرِي سِوَى شَمِّهِ
عَلَى أَسَاسٍ مِنَ التَّقْوَى أَرَايِهِ	سَرِيتُ لِلْمَجْدِ هَوْنًا غَيْرَ ذِي عَجَلٍ
وَشِيمَةُ الْحَرِّ تَأْتِي خَفْضَ أَهْلِيهِ	مَجْدِي بِمَجْدِ بِلَادِي كُنْتُ أَطْلَبُهُ

(١) الایادي جمع الایدي وهي جمع يد ، وأكثر ما تستعمل الایادي في النعم وصنائع المعروف ولعله يشير الى عجزه عنها في تلك الحال

وإذا أحسنَ عداةَ الفضل مشيتنا
 فأوقفوني شهورا في مقاومة
 وازددت بسطة جاه لم يهن بها^(٢)
 أنزلت نفسي مقاما لا يحفُّ به
 وقت للحق أجلوم من مطالعه
 وأبرز الفكر كنزاً من جواهره
 وصحتُ بالظلم لا تطرق مغايننا
 نخر كل غشوم واجفاً صعباً
 وكنت أسهر ليلي في مطالعة
 أنعم به من سهاد كنت آلفه
 وكان لي أمل في وضع قاعدة
 ويؤخذ القوم طرا في مناهجهم
 حتى يكون نظاما كل سيرهم
 ويأخذ العلم والتهذيب مأخذه
 ويصبح العدل طبعاً في جبلتنا
 وتستقل بلاد في حكومتها
 ويشمل الخصب انحاما يحملتها

قاهوا على قدم: هيّا تناويه^(١)
 نجوت منها بعزم هيب ماضيه
 سوى مضيم ومظلوم أتجيه
 إلا الفضائل تعلية وتغليه
 نوراً وكان غمام الظلم يحقيه
 وزين النطق باهيا بحاليه
 [رياض] راع وعالي من حواريه^(٣)
 وارتح كل ظلوم خيفة «المهيه»^(٤)
 ونشر در لتبيان أوفيه
 وأبفض الشمس ثني عن وصاله
 لكل نوع من الاعمال تحويه
 أن لا يجوز راعن المشروع أوفيه^(٥)
 بمقتضى الإيف مع فهم يزكيه
 من النفوس فترهو من دراريه
 ويشهد الكون أنا من مواليه
 ونمنع الترك مفروضا تؤديه^(٦)
 ويثري القطر قاصيه ودانيه

(١) أصله تناوته بالهمز أي تفاديه (٢) أصل: هيّا (٣) حواريه بتشديد الباء
 أنصاره وخفف لضرورة الشعر (٤) هيه اسم صوت كان يردده رياض باشا دائماً بغير
 قصد، وأدخل عليه حرف التعريف لقصد لفظه، والمعنى خوفاً من ذلك الوزير
 (٥) جار عنه عدل وانحرف وجار في الحكم وفي الأمر ظلم أي بأن لا ينحرفوا
 عنه ولا يظلموا فيه (٦) قد كان موافقاً لرجال الثورة في هذه المسألة

نقضي ديونا وتنشى من ينازعنا
 هذا سبيلي خبيت السير فيه على
 ما كنت أسعى لنفسي في مصالحها
 وكنت أتبحر قومي في مكالمه
 وتنهض العزم أقوالي ولا عجب
 أقاوم الصعب في سيرى فأخضه
 وأما الفكر يغني نفس صاحبه
 بصوت فضل يرج الكلدانيه^(١)
 رغم الأنوف من البله المعانيه
 جزءا من الألف من سعي لانهيه^(٢)
 مع الرئيس لا خلاص بتنويهي
 شراب حق وروح الفضل ساقيه
 ولا حسام ولا رمح أرويه
 عن الجيوش اذا صحت مباديه

وينما أنا لاه في محادثي
 قامت عصابات جند في مدينتنا
 ذلك الذي أنش الآمال غيرته
 قاموا عليه لأمر كان سيدم
 كان الرئيس حليف العدل منقبة^(٣)
 جروا مدافعهم صفوا عساكرهم
 فقال ما نال وانقضت جموعهم^(٤)
 ثالب الشر هبت من مراقدها
 تقلت الحكم من أيدي مدبرة
 مع المعالي أقول «الامر ما فيه»^(٥)
 لعزل خير رئيس كنت راجيه
 وخلص القطر فارتاحت أهاليه
 يخفيه في نفسه والله مبيديه
 وسيد القوم يهوى الجور يأتيه
 نادوا بأجمعهم سل ما ترجيه
 اما النظام فقد دكت مبانیه
 وأفسدت من قوام العدل باقيه
 وصار فوزي شتيت الناس يجريه

(١) لعل البيت محرف (٢) الضمير راجع الى السيل وهو يذكرو ويؤنت (٣) هذه جملة محكمة تستعمل في مصر عند إتمام الكلام وإرادة الشروع في غيره (٤) الرئيس رياض باشا أي كان العدل منقبة راسخة فيه لا متكلنا (٥) أي نال سيد الجند عرابي ما نال من عزل رئيس الحكومة رياض باشا

مانوا أمانى تبكيني وتضحكني
 حديثهم صخب أسرارهم لب
 أما سبيلي فقد سدت منازعه
 رجعت أجري على خوف لمبدئه
 فغنغوني وراموا خفض منزلي
 وعجت أسأل ماذا في حقائبكم؟
 هزوا الرؤوس جوابا أي نعم معنا
 فولوات مهجتي حزنا على وطني
 وصفت من كلمي شمسا تكشفهم
 فأنكر الجهل ضوء الشمس ضاحية
 لروا رهوسهم عجبا بقوتهم
 مزجت بالهزل جدي عل يجيبهم
 وأعجم القول طورا في مناصحتي
 وعند ما حقت البلوى أشرت لهم
 فلم يصيخوا وصجوا في محاضرم
 ولم يزالوا حيارى في ترددم
 وشب حربا صلاها من بني وطني
 وسح كل غني ماء ثروته

(١) مانوا كذبوا والاماني جمع أمنية وهي ما يستنمأه الإنسان وبطلق على الكذب
 أي اختلفوا لأنفسهم أمانى زعموا أنها مطالبهم وهي الحرية ونظام الشورى المالي في
 الأحكام. ولفظ الشورى يختلس فلا يعد مراعاة الوزن (٢) أي لا يلاحظه ويحتمل أن يكون
 لا يوانيه (٣) كان موضع كلمة خطب يا ضائم كتب فيه بقلم الرصاص كلمة (سال)

سوج كل فقيه في تضرعه
 والمسلمون وكل القبط في نهج
 نادوا بأجمعهم هذى مواطننا
 وبينما الظفر معقود بوحدتهم
 واستدبر الجيش واستدعى لحضرته
 وقال أقدم فلا حرب ولا حرب
 فراه الريب وانهارت عزائمهم
 وخالف الأمر واستعصى بقوته
 وصار جيش المداء جيشا لحاكمنا
 فأنحل عهد نظام كان ملتصقا
 وهذا وهذا إلى ما كان من دخلي
 وزاد في الضعف ضعفا أن قوتنا
 وقائد الجند شهم في مكالمته
 يستطلع الرأي والتدبير في حُلم
 ما كان أحسنه شيئا بزأوية
 أما البلاد فوانغمي لحالتها
 واستنزفت طلبات الجند زرونها
 كما تفتقر قلبي من عواذيه
 مع اليهود كأن لا دين يأويه
 وطارق السوء فيها لا تخليه
 مال الأمير لأمر كان ينويه
 زعيم عسكره يلو مغازيه
 فليصرف الجيش فورا لاتبقيته
 إذ كان جيش المداء بالثغر ماله
 وناصب الشر مولى القطر واليه
 وقوة الملك تحمي وجه عاذه
 ويدد الرأي وفم كان يوهيه
 في أنف من كبار الجند تطويه
 ناس يرى ضبطهم صعبا تلافيه
 أشل قابلا إذ الهيجا تناديه (١)
 من المنامات جل الله هاديه
 يمشي النساء بوعظ كان يمليه
 لم يبق فيها سوى أمر وتذنيه (٢)
 واستأسد الذئب واشتدت عواذيه

(١) يعني ان عرابي باشا كان شهماً أي ذكي الفؤاد عند الحديث ومكالمته الناس
 ولكنه جبان اذا نادته الهيجا أي الحرب الى القتال يصاب قلبه بالشلل ، وفيما
 كتبه الناظم في أسباب الثورة ومذكراتها يان لذلك مؤيد بالحوادث (٢) أي لم
 يبق فيها سوى أوامر الجند تنفذ بالقوة ونذرهم التي يسمونها تنبيهات

حكام أريافها هاضوا بأجمعها واستفرغوا من فقار الظهر شوكة (١)
 مهاجرو الثغر زادوا في مصائبها قوم جياع وباع العقل شأريه (٢)
 ماذا أحمل نفسي في مداركتي هذا البلاء بتخفيف يسريه (٣)
 أطل يومي وأمسي في مناضلة مع الاهالي لدى من هم مراميهِ
 وسقت من منطقي جيشاً أروع به قلب السكي فألهميه وأدهيه (٤)
 حوائج الناس هالات على قري وليس في الناس إلا قاتل هيه (٥)
 وينجح الجند مني في وقايتهم ويقشع الظلم مذعوراً طواغيتهم
 ولا جزاء أرجيه سوى ألم يلم بالقاب والانجياز يشفيه
 والناس قسمان قسم همه نسب وآخر همه الطيلاء تطريه
 ويئما الناس أحزاب وأغلبهم من المنيفين (٦) يشدو باسم مسميه
 سابق النظام على الأشتات عسكره فصبح التل طود من سواريه (٧)
 منا قتل ومنا هائم جزعا قلبي الجريح فهلا من يداويه؟
 في موقع الشرق كانت شر هزمتهم والشرق ضأن وذئب الغرب راعيه

(١) هاض العظم كسره بعد الجبر والظاهر ان المراد هاضوها أى الارياف
 بمعنى أهلها . وكان يمكن أن يقال * حكام أريافها هاضوا العظام بها *
 ومعنى البيت انهم كسروا عظام الاهالي وانتقوها أى أكلوا ما فيها من النخاع
 حتى النخاع الذوكى الذى لا حياة بدونه — أى لم يبقوا للفلاح شيئاً يسد به الرمق .
 وله شوكة مخفف شوكة أى نخاعه الشوكى (٢) مهاجرو الثغر هم الذين هاجروا
 من الاسكندرية الى الارياف (٣) جواب الاستفهام معروف من السياق: أى أحملها
 حملاً ثقيلاً (٤) أدهيه أنسبه الى الدهاء أو أرميه بداهية . يقال دهاه يدهاه بهذا
 المعنى (٥) هيه كلمة تقال للاستزادة (٦) أى سابق الانكياز أولو النظام عسكرهم على
 الرايين الاشتات المتفرقين فصبح المكان المعروف بالتل الكبير جبل من سواريه
 أى جيش كبير من فرسانه كالجيل في عظمته

وقائد الجند وافانا بلحيته يسبل رعبا وثوب الدار كاسيه
وسلم السيف واستجدى بغفلته عفوا من الحنق المنزو خديويه
تخوف الذل فاستدعى مطيته ركضا اليه فوافاه موافيه
(*)

تمكرتني وجوه كنت أعرفها تعد لثم نعالى غاية التيه (١)
تيقن العزم انى لو برزت له أخرجت من ضغنه أخرى مخازيه
فهاص في قرم من ضل سجنه يعني مغالبتى كلا ساقيه (٢)
حجبت عنهم وعصبي غير محتجب صل يواصل والاقدار تمليه
بنى الزمان لهم بيتا وشيده وليس يُمقي على مالست أبقيه
نعم له معنا فيهم مداركة فيهم أجرهم من صنع أيديه
هذا الزمان زحمتاه فذل لنا لكن به صرف عيب كنت أدريه
وأحفظ الدهر أنى لا أشاكله فيما تبطن من غش وتمويه
أحارب الدهر وحدي ليس ينفعني إلا الثبات وحسي من أضافيه
تعلم الدهر منى كيف يطمئني نخاب ظنا وخاتمه زاكيه
وليس يمجزني عن كسر فياقه إلا المنايا تفاجيني فتحميمه
ان المنايا سهام الله سددها وليس يخطى سهم الله مرميه

(*) حذف من هذا الموضع بضعة أبيات محرفة الاصل معظمها في طعن سلطان باشا

(١) رويت هذا البيت بهذا اللفظ عن محمود افندي السكجى أحد تلاميذ الأستاذ

الامام في المدرسة السلطانية ببيروت وقد رواه كما سمعه منه أو من أخيه حموده بك
الذى كان تلميذاً معه في المدرسة. وتمت لو قال بناني بدل نعالى وقد يكون تقبيل
التمال حقيقة لا مجازا (٢) هاص الطائر ساج وهاص بالشيء عنف به وأقوى الفارس

فرسه — رده القهقري . ولعل المصراع الاول محرف

كتاب الثورة العرابية

إذا كانت قصيدة السجن ناطقة برأي صاحب الترجمة وشعوره في الثورة العرابية وهو في شرح الشباب ، وأوان التأثر والانفعال ، ذي السلطان الأعلى على الخيال . وكان خيال الشعر في مثل هذه الحال والسن يصور الأشياء أحيانا بغير صورتها . وكثيرا ما يسمها بغير ميسمها . فاعلم أيها القارئ لسيرته أنه قد كان شرع في أواخر سني حياته ، أو قبل بضع سنين من سنة وفاته ، بكتابة تاريخ للثورة العرابية يبين فيه أسباب الحوادث ومسبباتها ، وعمل الوقائع ومعلولتها ، ويستنبط النتائج من مقدماتها . توجه الى كتابة هذا الكتاب بعد أن بلغ أشده واستوى ، وبلغ من كمال الحكمة الغريزية والكسبية المنتهى . بطلب من أمير البلاد . خلف العامل الأكبر في تلك الأحداث . وانك لتجد ما كتبه في هذه الحل . القاضية بأتم الروية والاعتدال . مما يعد في معنى الشرح . لما جاء في قصيدة السجن ، إلا ما فيها من الفخر . الذي لا يحسن إلا في الشعر

ومن سوء حظ مصر والمصريين ، بل الشرق الأدنى والشرقيين ، ومحبي حقائق التاريخ أجمعين ، أن الاستاذ الامام . لم يتم تأليف هذا الكتاب ، وسبب ذلك أنه كان يكتبه لأمر البلاد عباس حلمي باشا بأمره . وكان اذ رغب اليه بكتابته — وذلك في السنين الاولى من امارته — موادا للاستاذ شديد الرغبة في استفادة الامة من معارفه ، ولكن لم يكدر يتم التقدم الاول من الكتاب ، وهو ما تقدم الثورة من المقدمات والاسباب . ففتح لها الطاق والباب . حتى نجمت نواجم التناكر بين الامير والاستاذ . وانتهت الى المغاضبة الشديدة المعروفة . وكان مفسدو ذات البين قد ألقوا الى الامير أن الاستاذ عدوله واييت محمد علي ، ولا يزال يسعى الى سلب الامارة منهم . وبهذا صار تأليف الكتاب للأمير مشكلا ، لانه قد عدهم مؤيدا لتهمة المفسدين بما فيه من إلقاء تبعه الثورة على الخديو توفيق باشا مباشرة . وجعل ما كان من اسراف الخديو سماعيل باشا وسوء ادارته للبلاد أسبابا ممهدة لها — ثم ان أعمال الاستاذ الامام تضاعفت بعد جعله مفتيا للديار المصرية وعضوا في مجلس

الاقواف الاعلى ومجلس شورى القوانين على كونه رئيسا للجمعية الخيرية وعضوا
في مجلس ادارة الازهر . بل كاد يكون هو المجلس وحده — وسيأتي بيان كل ذلك
في موضعه — فلا جل هذا كله ترك امام كتاب الثورة ، منتظرا به سنوح الفرصة
قد اطلعت على مسودة ماكتبه بعد أن كنت كتبت كل ماتقدم القصيدة
من هذا المقصد في ترجمته التي نشرتها في المنار فنقلت جلامنه في ترجمة السيد
جمال الدين . ثم رأيت من تمام الفائدة تلخيصه أو الاتيان بخلاصة وجيزة منه
هنا يعرف بها قراء تاريخه مالا سبيل لهم الى معرفته من غيره . اذ كل ما كتب
غيره في هذه المسألة لا يتجاوز بيان الظواهر الخادعة والابخار الرسمية . وأبدأ
بنشر خطاب المؤلف للامير في ذلك وهذا نصه :

خطاب الاستاذ الامام لسما والخيديو في أول الكتاب

الى مليك مصر المعظم عباس حلي باشا الانخم

مولاي

هذا مقام اذاكر لنعمتك . العارف بقدر منتك . العاجز عن الايفاء بمحق
شكرك . التالي في سره وجهره لايات حمدك . طوقني احسانا لم أكن أتأمله . اذ
أمرتني أمرا ما كنت أتخيله . أمرت أن أكتب ما شهدت وما سمعت . وما علمت
وما . اعتقدت في الحوادث العرابية من عهد نشأتها الى نهايتها . مع بيان أسبابها .
وإسناد الاعمال إلى أربابها . سمحت بأن تكون الحقيقة بادية الرواء . حاضرة نقاب
الرياء . أي منة أعظم من الاذن للحقيقة أن تتجلى بعد أن نسجت عليها العناكب .
وتدافعت عنها المناكب . وسترها عن الابصار عثير الالهواء . وحجبها عن البصائر
ضلة الاعالياء . وذلة الضعفاء . حتى أنكرها من شهدها . وخطب فيها من سمع خبرها .
ممن تولى كبرها . أو ممن لم يقف على سرها . ولم يميز خلوها من خمرها . أي إحسان
أجل وأوافي من رغبة مليك في كشف الغطاء عن حادثة الت بعرش الدولة .

واضطربت لها أركان الحكومة وتغير لها وجه السلطان وظهرت بعدها البلاد في شأن جديد؟

علم «بعوامل هذه الفتنة يقرر تبعه الخطيئة على من اقترفها، ويبرئ منها من رمي بها، وقد كان الساعي في تسكينها وحائي التراب في وجهها، وقوف على دخائل هذه التازلة يبعد بالعتل الرشيد في مثلها عن الاغترار بظواهر، ليست لها سرأثر، وصور انما تنكشف عن غير، وعبر ويحجب الفكر السليم في ما يشبهها عن الزلل، في مزالق الخطل، ويضيء لأهل المعزم مسالك الحزم، فلمولاي المنة على الحقيقة ومظهرها، حتى قدرها حق قدرها، واستضاء بسناها واهتدى بنورها

مولاي: أرفع إلى سدتك السنية ما وقفت عليه بنفسي غير ناظر في كتاب ولا راجع إلى مقال سبقني به غيري . اللهم إلا إلى بعض الاوامر الرسمية أو شيء من المحابر السياسية التي يضطر في بيان الوقائع إلى الإشارة إليها إذ لا غنى للقارىء عن الاطلاع عليها

أرفع إلى كرم مولاي المعظم ما استطعت أن أعرض على مقامه الفخيم، امثالاً لامره الكريم، معترفاً بقصوري عن إبلاغه بمنزلة كتاب يستحق النظر، أو عمل من الاعمال يليق به أن يذكر، إلا إذا شملته عناية الجنب العالي بحسن القبول، فعند ذلك تعلق قيمته، وتستكمل له زينته، ويرتد عنه كيد الكائد، وتنقطع دونه نفثات الحاسد، أيد الله بالحق ملكتنا ومولانا، وأبلغه من العزة والمجد متمنانا، آمين

﴿ خلاصة ما كتبه في أسباب الثورة المرابية ﴾

بدأ الاستاذ كتابه هذا بوصف حالة البلاد المصرية وحكومتها السوءى عند حاتنازل اسماعيل باشا عن إمارة مصر ووليها توفيق باشا، فبين أولاً بالانجاز ما كان من تدخل دولتي فرنسة وانكثرة في شؤون البلاد المالية وغيرها ومن تأثير المحاكم المحتاطة في إضعاف سلطة الحكومة والتصرف في ثروتها و نزوة الامة - ومن سوء احوال رجال الحكومة وأحوال الجند - ومن تصرف الربويين في استنزاف نزوة

الامة بالربا الفاحش ومساعدة الحكومة لهم — ومن الاضطراب العام في البلاد وإشرافها على المجاعة — وبين أيضاً ما كان عليه أهل مصر إلى ما قبل سنة ١٢٩٣ من توكلهم على حكومتهم في كل شيء وتسليمها إليهم أمرشؤونهم العامة وكذا الخاصة أيضاً، إذ كانوا يرون كل شيء ملكاً لها، وبين أن أكثر من تعلم في اوردية من المصريين من عهد محمد علي الكبير إلى ذلك التاريخ لم يغير شيئاً من هذه الحالة ولا أثر فيها مجلس الشورى الذي ابدعه اسماعيل باشا سنة ١٢٨٣ لانه قيده في النظام والعمل فكان يقرر ما يوعز إليه بتقريره، فظل الناس معه على اعتقادهم أنهم عبيد للحاكم لا رأي لهم معه ولا أمر

ثم انتقل من هذا إلى بيان مبدأ النهضة المعنوية في مصر بارشاد السيد جمال الدين الافغاني وسعيه فينب بالانجاز ما تقدم شرحه في ترجمة السيد من تربية نابتة جديدة وترقية أفكارها وأقلامها، وما كان من تأثير ذلك في ارتقاء الجرائد العربية وما أشرق عليها من نور الحرية. ومزج هذا بذكر بعض الحوادث الكبرى وتأثيرها في قلوب الناس وأفهامهم كالارتباك الشديد في المالية المصرية الذي أفضى إلى تأليف اللجنة المالية المختلطة وتعيين ناظر انكليزي للمالية وناظر فرنسي للاشغال العمومية وكأحكام المحكمة المختلطة على الخديو وحكومته — وما تلا ذلك من انطلاق الألسنة والأقلام بالأفكار الجديدة (المالية) كيان أنواع الحكومات الاستبدادية والدستورية وتأثير ذلك في طبقات الامة. ولكن الشعور بحقوق الامة في أمر حكم نفسها ومراقبة أعمال حكامها لم يسر في هذه النابتة من المصريين إلا وقد صحبه رؤية التصرف الاجنبي في حكومتهم. فتعلقت آمال البصراء من الناس باصلاح عظيم ولكن لم يهتدوا سبيلاً يسلكونه إليه لسوء حال الحكومة الوطنية وفساد رجالها وسوء الظن بالسلطة الاجنبية والخوف من مآلها

ثم بين أن الخديو اسماعيل ضاق ذرعاً بالوزيرين الاوربيين وأخذ يسعى إلى الخلاص منهما، فكثرت الاشاعات عن سوء مقاصدهما بايماز منه كما كان يقال. وفي اثناء ذلك دعي مجلس شورى النواب إلى الاجتماع فوفد أعضاؤه إلى القاهرة وفي أنفسهم ذلك الشعور الشديد بشر الاحوال وبلوح في أفكارهم الميل إلى الخلاص

منه « فالنأم المجلس في أوائل سنة ١٢٩٦ في موج من التشويش شديد الاضطراب واتفق ان الحكومة لم تقدم اليه من المسائل التي تطالب نظره فيها الا ما لا قيمة له » فكثرت الانتقادات على الحكومة ، ولما أمرت باقفال أبواب المجلس سلك بعض النواب مسلك الشدة في الجواب عن ذلك الامر وحاولوا التوقف عن الانصراف حتى يعلموا من أحوال الحكومة ما ينبئون به متخبيهم ، وكانت هذه أول مرة ظهر فيها لبعض النواب رأي يخالف رأي الحكومة ، ولكن الحديو كان يشد عضد أعضائه المجلس في المعارضة هذه المرة

ثم ذكر قلق ضباط العسكرية من تأخير رواتبهم واحساسهم بانحراف الحديو عن نظار حكومته ومهاجمتهم لنظارة المالية وضررهم لناظرها الانكليزي واهانتهم لرئيس النظار نوبار باشا وقبض أحدم عليه من شاريه وتصديهم لاهانة سائر النظار لولا أن جاء الحديو بنفسه وصرفهم ، وانما كانت حركتهم بتحريك منه توسل به الى إسقاط وزارة نوبار باشا قتم له ذلك ، ولكن لم يمكن إسقاط الناظرين الاوريين فأدخلوا في الوزارة الجديدة التي تألفت برياسة توفيق باشا ولي العهد وزاد نضييقهما على الحديو في التصرف فتوسل الى عزلها بوسيلة أخرى وهي طلب أعيان البلاد لذلك اذ اجتمعوا في دار السيد البكري ووضعوا اللانحة الوطنية المشهور أمرها التي تعهدوا فيها بوفاء ديون أوربة العظيمة وأنهم ضامنون لها

وقد بين الاستاذ ما في هذا العمل من الخطأ وقصر النظر ، وأنه « أحدث في الناس شعورا بقوة لم يكونوا يعرفونها من قبل فقد أيقنوا أن الحاكم القوي السلطان قد صار في حاجة اليهم ، ولا قوام لامره الا بالاعتماد عليهم ، فزاد ذلك ولوعا بما كانوا يميلون اليه من وجوب اشتراكهم في أعمال الحكومة دفعا للمضار التي نشأت عن استقلال الحاكم بالرأي ، وانفراد بالسلطة »

ثم بين سيرة اسماعيل باشا بعد ذلك في العود الى التصرف بأموال الحكومة وتبذيره وسوء الحالة العامة وذهاب رياض باشا ونوبار باشا الى أوربة بقصد الاقامة فيها وسعي الثاني الى اقناع فرسة وانكلترة بالسمي الى خلع الحديو اسماعيل . ثم ارسال فرسة موسيو تريكو مندوبا خاصا (فوق العادة) ليتحدث مع وكيل انكلترة في مصر في (م ٢١ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

مطالبة الخديو بالتنازل عن الخديوية لولي عهده ، واستشارة الخديو لحاشيته في الامر
واشارة أجهلهم بالسياسة عليه أن لا يتنازل والجيش حاضر يوثده - وإشارة من
كان يقال انه أعلمهم بأن يتنازل ، وبين بعد هذا ان جمهور العقلاء يزرون ان رأي
ذلك الجاهل كان عين الصواب وان الخديو لو ظهر لملدوبي الدولتين بجلد الاسد
الذي كان يلبسه للمصريين وعلموا ان دون التنازل حمل السلاح لأمكنه ان
يرضيها بوسيلة أخرى مع بقائه على العرش

ثم بين ان السيد جمال الدين كان قد أسس حزبا في مصر باسم (الحزب
الوطني الحر) وانه كان بينه وبين ولي العهد توفيق باشا مكالمات في هذا الامر ،
وانه سمى مع الكثير من الاعيان الى شريف باشا الكبير بأن يقنع الخديو بالتنازل ،
وان أحسن ما يجب به مندوب الدولتين تفويض الامر الى السلطان - وان السيد
جمال الدين ذهب بوفد من المصريين الى وكيل دولة فرنسة وكاشفوه بأمر الحزب
الوطني الحر الذي يطلب الاصلاح ويرى انه لا يتم الا على يد ولي العهد توفيق
باشا ، وأن ذلك تأييدا لرأي شريف باشا في اقناع الخديو بما ذكر آنفا فأقنعه فحول
الامر الى السلطان فقبل السلطان تنازله وتصب توفيق باشا خديويا بدله - وقد
تقدم نقل كلامه في ذلك في ترجمة السيد - . فهذه هي الاسباب التمهيديّة الاولى
للحوادث العراقية

❖ الاسباب المباشرة للثورة من سيرة توفيق باشا ❖

حالة البلاد وتظاهره بالاصلاح

بين رحمه الله تعالى أن البلاد دخلت في عهد توفيق باشا في طور جديد من
الحياة فقد كان لها من ارشاد السيد جمال الدين وتعاليمه وسعي الحزب الوطني
الذي ألقه فيها ما فتح أفعال القلوب والعقول لتدرك كنه أعمال حكومتها وما يجب
أن تكون عليه ، وسيرة الاجانب فيها وما يخشى أن تنتهي اليه ، فقد تولى هذا
الامير ولاية امة غير الامة التي كان يتصرف فيها والده تصرف الراعي المالك
بالمواشي ، ولكن هذا الامير لم يكن شرها ولا مسرفا بل كان عفيفا رحباً وكان

لطلاب الإصلاح فيه آمال كبيرة ، حال دون تحقيقها نوع آخر من الضعف فيه وسوء سيرة حاشيته

وقد كان أول عمله أن كتب الى شريف باشا في اليوم الثاني من ولايته أمرا بتشكيل الوزارة بعد قبول استعفائها صرح فيه برغبته في تحقيق آمال الامة فيه واخراجها من الحال السيئة التي هي فيه بالاقتصاد القانوني في نفقات الحكومة والاستقامة في الوظائف العامة واصلاح القضاء والادارة - ثم كتب في اليوم الخامس أمرا آخر الى مجلس النظار فصل فيه ما يحقق الآمال يجعل الحكومة شورى ونظارها مسؤولين وتوسيع نظام شورى القوانين واصلاح المحاكم والمجالس والسعي لتعميم التربية والتعليم وتوسيع دائرة الزراعة والتجارة ، ومنح الحرية للعاملين في أعمالهم ، وصدر ذلك الامر في ١٤ رجب سنة ١٢٩٦

وبين الاستاذ أن كل ما ورد في هذا انما انعكس على فكر توفيق باشا من الحال الجديدة التي كانت عليها خاصة رعيته

يلي ذلك بيان مشروع شريف باشا في وضع قانون اساسي لمجلس النواب يضمن لهم حرية القول والفكر وحق النظر فيما يحق لنواب الامة النظر والكلام فيه على حسب ما قرأه ورآه في بلاد أوربة ، فأعجب بذلك أرباب الأفكار المتطرفة وقالوا ان التصديق عليه يعد فاتحة عصر جديد لمصر والمصريين

قال: وتظاهر الاجانب بالرضاء عن الاصلاح المشروع فيه ، وأنشئت جمعية في الاسكندرية باسم [مصر الفتاة] لم يكن فيها مصري حقيقي بل كان أكثر أعضائها من شبان الاسرائيليين المنتمين الى الاجانب ، وقد رفعت هذه الجمعية لائحة الى الخديو فيها من مطالب الحرية ما يستحق الاعتبار ، وأنشأت بعد ذلك جريدة [مصر الفتاة] فكانت تنشر فصولا حادة الانتقاد وشديدة الموعظة . على حين كان أولئك الاجانب في ظل الاستبداد يقرضون الفلاح المتهتمين في بضعة أشهر ، وكانوا يتصرفون في المصريين كتصرف حكومتهم بهم

سواء صح ذلك التظاهر أم لم يصح ، وأما الذي لا شك في صحته فهو أن وكيل دولة فرنسة أخذ يسمى في إقامة الموانع دون إعطاء النواب حق النظر في تصحيح

الموازنين وتقرير الامور المالية ودعا وكيل انكثارة الى مساعدته في إقناع الخديو بضرر هذه الاوضاع الجديدة في ذلك الوقت بحجة أنه مما يعوق حل المشاكل الموقوفة ، وساعد على اقناع الخديو بعض الوطنيين من حاشيته ، فتأثر الخديو بذلك ومال الى غير ما أظهره للجمهور من قصد الاصلاح المطلوب ، ثم رفض لائحة شريف باشا عند عرضها عليه فاستقال شريف باشا لإصراره على هذا الاصلاح فشكل الخديو نظارة جديدة تحت رياسته

يتلو ذلك بيان أن وكلاء الدول أصحاب النفوذ في مصر كانوا يظنون أن محرك هذه الافكار الاصلاحية ، وباعث الانفس على طلب الحرية ، إنما هو السيد جمال الدين ، فأقاموا الادلة للخديو على خطر الرجل وأخافوه منه كما أخافوه من النظام نفسه . فأما التخلص من النظام فكان باستعفاء الوزارة ، وأما التخلص من السيد جمال الدين فكان بنفيه من مصر الى الهند

أقول وقد فصل هنا مسألة نفي السيد وسوء تأثيرها في مصر ونحول القلوب بسببها عن الخديو الذي تناقل الناس قوله له « أنت موضع أمني في مصر أيها السيد » وقد تقدم ما كتبه في ذلك بنصه في ترجمة السيد (ص ٧٤ - ٧٨)

مبدأ الفوضى في الجند المصري

ثم بين انه في حولي هذه المدة وقبل استعفاء وزارة شريف باشا صرف مبالغ عظيمة من الجند الى بلادهم وتقرر جعل الجيش العامل اثني عشر ألفاً فقط . وأن جماعة من الضباط قدموا بعد ذلك عريضة الى الجباب الخديو يلتمسون فيها عزل ناظر الجهادية وبناء ذلك على أسباب منها رداة المآكل وضررها بصحة العساكر ، ومنها سوء حال المستودعين وعدم النظر في اصلاح معاشهم . فوعدوا باصلاح الحالة ، وبعد أيام استعفت الوزارة ولم ينظر في حال الضباط ولا العساكر بعد ذلك ولم يتوجه الفكر الى هذه الحركة الفوضوية بالبحث في أسبابها ، واستئصال عواملها من الجيش قبل ان تأخذ قوتها ويظهر أثرها بمثل ما ظهر به من بعد . (قال) وإنما قلت انها فوضوية لأن للضباط حق الشكوى مما يصل اليهم من الاذى أو ما يجردونه من

الضرر ولكن لا حق لهم في طلب العزل والنصب فما فعلوا كان خارجا عن حد النظام لهذا كان جديرا بالانتفات .

نفوذ الاجانب واسبابه وغايته

قضى باستعفاء الوزارة ونفي السيد جمال الدين غرض أرباب النفوذ من الاجانب وبعض الوطنيين في منع الاصلاح وأرهاب النفوس الطامحة اليه على ما ظنوا. وبعد ذلك أخذ القناصل في اقناع الخديو بأن هذه لوزارة الجديدة تحت رئاسته لا قدرة لها على تذليل المصاعب الحاضرة ومن الضروري ان يوجد مساعدون من الوطنيين والاجانب في الوزارة حتى تقوى بذلك على التخلص من الضيق الذي تعانيه الحكومة، وأشاروا الى عودة واسن ودبليار، فأظهر لهم أن ذلك غير ملائم لاصلاحه وأنه لا يرضى البتة بأن يكون في النظارة أعضاء أوروبيون لانه يشوش أفكار المصريين ويزدي الى الخلط في الاعمال، قل ومع ذلك فلو صممت الدولتان على ارجاعهما وزيرين فاني مستعد للاشتراك معهما في العمل وقبول ما يشيران به واحسبهما صديقين ولكني أتبرا من تبعه ذلك، وقال: انني لا أنكر حاجتنا الى معونة الاجانب ولكني أريد رجالا مثل بارنج^(١) يشتغلون باصلاح المالية ولا يخلطون الادارة بالسياسة ويكونون في وظائف سامية غير انهم لا يكونون وزرا، فأشاروا الى نوبار باشا فأظهر غاية التمتع من قبوله بل أبى ان يسمح بعودته من أوربة إبعادا لفسائسه كما عرف ذلك كله وشاع بين العامة وتناقضه الجرائد في حينه، فأشير الى رياض باشا فابان شدة ميله اليه وقال انه الصديق الحميم والصادق الامين، وانتهى الامر باستدعائه فحضر في النصف الاخير من رمضان ثم عهد اليه برئاسة النظار في ٥ شوال سنة ١٢٩٦

« كان الخطاب الصادر من الجناح الخديوي الى رياض باشا المؤذن بتعيينه رئيسا للنظار يشف عن كمال المودة وتأكد الثقة وخلص السريرة في الاعتماد على اماته، وفيه التصريح بأنه لم يقصد بترأسه على مجلس النظار مدة الشهر الذي مضى ان يعيد السلطة الشخصية بل كان ذلك لمقتضى الاحوال (رفض لأئحة النواب ونفي الشيخ جمال الدين اذ لم يظهر حاله يقتضي التفرد بالسلطة سوى هذين الامرين)

(١) هو الذي صار لقبه بعد ذلك لورد كرومر

« ومن المعلوم أن أهم المسائل لدى الحاكم والحكومة في ذلك الوقت هي المسألة التي لاجلها اجبر خديو واسع السلطة مدرب على الملك المطلق سبع عشرة سنة أن يتنازل عن مقامه ويهبط من عرشه ويترك ملكه ويبعد عن بلاده مشيعا بالعويل والنحيب، ولاجلها ولي خديو جديد ناشئ في العمل لا يأنف لذة الملك ولا أبهة السلطان، وله الحق الكامل في المحافظة على ما وصل اليه بأي الوسائل الممكنة، وآماله في المستقبل نستدعيه في كل آن لحل ما وجده من العقد ووضع حد لملك المصائب التي جرت الى مثل تلك الحادثة العظيمة والاقطاب الذي لم يكن في حساب، وتلك هي المسألة المالية التي كان يريد الجناب الخديو أن يأتي على حلها قبل كل المسائل، وبفض مشكلها قبل جميع المشاكل، على انه لم يكن مشكل سواها لولا ما أعقبها مما تولد منها

« لم تكن عقدة الاشكال فيما يمس حالة المصريين وعلاقتهم مع الحكومة في الامور المالية، اذ لم تكن لهم حاجة الى أمور جسام وأعمال عظام فيما يتعلق بشأنهم مع الحكومة من هذه الوجهة، فقد كان يكفي ان تنظم أوقات التحصيل على وجه ما نظمت عليه أخيرا ويزاح عنهم من الضرائب ما يثقل عليهم ولا يفيد الحكومة كبير فائدة كما حصل فيما بعد، وما كان أسهل هذا الامر في ذاته، على انه لو بلغ من الصعوبة أقصاها وكان فيه من المشاكل ما يصل بين الارض والسماء، لما أخذ من اهتمام الحكومة جزءا من المئة بل من الالف مما أخذت المسألة المالية في ذلك الوقت. ولما كان خوف العاقبة يتعهد قلوب أولي الامر من وقت الى آخر ويحملهم على أعمال ربما لم يكونوا يقصدونها، على علم منهم بأنها تبعد عنهم قلوب الرعية وتصرف عنهم ميلها

« كان معظم الاهتمام منصرفا الى ارضاء الاجانب ووضع أساس مكين يضمن لهم وفاء ما كانوا ينالون من فوائد الدين الباهظ. ظهر عجز الحكومة عن تأدية بعض أقساط من دينها في أوقاتها المحددة في سنة ١٨٧٦. ولكون الخديو السابق كان يريد أن يكون ذلك العجز معروفا عند الدول ذات النفوذ ويجب أن يتداخلن أيضا في تحديد وجوه الوفاء وطرق التسديد ظنا منه بأنه متى ثبت عجز المالية

المصرية عن اداء الدين ولم يبق من وجوه الوفاء ما يكفي له أعلنت الدول قطع مرتب الاستانة ونادت به ملكا مستقلا على مصر لا يؤدي خراجا الى سلطان آخر وكان يسره ان يكون ملكا ولو على بلادخرية ورعية ضئيلة وبين خليط من الاجانب بصرفونه في داخلية بلاده حسب ما يريدون . ثم لم يكتف الخديو الاسبق عن تصرفه الخفي في المالية المصرية بما يزيد ارتباكها وكما تقدم الزمن ظهر الاختلال فيها فیدعو وكلاء الدول السياسيين للتدخل في اصلاحها ثم هم يجيئون الى ما يدعوه اليه تمكيا لحق التدخل في الشؤون المصرية الى أن جر الامر الى تعيين لجنة التفتيش العليا ولم يكن فيها المصري واحد وسائر أعضائها من الاجانب، وأخذت تتناول البحث في الشؤون المالية وتصل بها ماشاءت من الامور الادارية، وكانت أحكام المحاكم المختلطة لارباب الديون السائرة على الحكومة من أشد الضربات عليها، ووقع الحجز على كثير من أملاك الخديو، وطلبت الحكومة سبيلا للتخلص من بعض ورطاتها فعقدت سلفة روشيلد تحت شروط شديدة ورهنت بعض أملاكها وضمنت ما تعجز الاملاك المرهونة عن وفائه فكانت هذه السلفة ضغنا على إباله ومشكلا فوق المشاكل، فقد أبى بيت روشيلد أن يؤدي بقية السلفة بعد ما دفع شيئا منها وطلب شروطا أخرى وكفالة أشد ضررا بمن يقبلها من الاستغناء عن تلك السلفة. وبذلك وقع الخديوي الاسبق في شباك من حبال السياسة التي ألقى بنفسه فيها اختيارا لا يشوبه شيء من الاضطرار وصدق فيه قول القائل "انه صرف مائة مليون من الجنيهات أخذها بأفخس الفائدة وأنفق معها مائتين وخمسين مليونا تناولها من الرعية بأشد أنواع العذاب وقضى مع ذلك مدة سبع عشر سنة في سلطة تامة وكلمة نافذة — كل ذلك لان يعد بلاده وبهاها لنفوذ أجنبي يسوسها ولان يسجل عليها استكانة وذلا يتعذر الخلاص منها، بل كان يهين نفسه بالمال والسلطان للسقوط تحت سيطرة مسيطر لا يرحم، وركب بعجز عقله الذكي عن اخفاء شيء دون علمه، بل قاهر شديد يضعف سلطانه القوي عن مناوآته وهكذا كان يبذل جهد المستطع في اضاعه نفسه وهو يظن انه ساع الى الاستبداد بالملك والوصول الى الاستقلال به، ولهذا سمح بأن يأتي وكلاء عن أرباب الديون ليعثوا في شؤون المالية وأظهر لهم

قبول ماطلبوه بعد بحثهم، وعين مراقبة من الاجانب على عموم حسابات المالية، ولم يكتف بأن يكون شأنه مع دائنيه كماهي القاعدة المعروفة في كل ممالك العالم، بل حول المسألة من مالية الى سياسية، وأدخل فيها القناصل والوكلاء السياسيين ليصل بهم الى ذلك الغرض السامي الذي كان يحيله، وهي فرصة لا يضيعها أهل البصائر النافذة من وكلاء الدول ذات المصالح السياسية والتجارية في مصر

« ومن المقرر عند الاوربيين ان العادة قانون وأن العادة تتأصل بمرّة فما بالك بالمرات الكثيرة، فلماذا انقلبت المسألة المالية آخر الامر الى سياسية محضة، وما أخذه الاوربيون من حق التداخل في شؤونها أصبح أمراً مقررّاً وقانوناً واجب الرعاية ولم يعد لاحد من حكامنا ان يفكر في إلغائه أو تعديله خصوصاً وقد وجد الاجانب من الادلة ما يحجون به المنازع اذ كانوا يقولون " لا ثقة بوعده ولا اعتماد على عهد فقد وعد الحاكم السابق وأخلف وعقد ونقض ولم نره يوماً أنى بعمل تكون النية فيه خالصة لنفع بلاده ولم نرله أثر في البلاد تساوي قيمته ما صرف فيه ، والحاكم الجديد حديث العهد لا نعلم ما يكون منه ولا نريد ان تقع في التجربة مرة أخرى، فلا بد من أخذ الاحتياط الشديد من بداية الامر، ولما كان توفير المال الذي يقوم بوفاء الدين وضبط حسابه موقوفاً على ضبط جميع الادارات والمصالح فلا بد ان يكون لنا نوع من المراقبة عليها، حتى نكون على ثقة من ان حالتها لا تنقص الابرار ولا تزيد في النفقة، ولما كان الفلاح هو العامل الفرد في سوق الاموال الى الخزينة ومنها الى الدائنين فشأنه مرتبط بشؤون الدائنين ولا يشرع عمل الفلاح الا اذا كان آمناً على نفسه وماله فلناحق المراقبة على كل ما يتعلق بالفلاح من هذه الجهة - والنتيجة التي لاشبهة فيها بعد تسليم هذه المقدمات ان لنا حق السيطرة على الحكومة المصرية بجميع فروعها لكن تحت اسم المراقبة المالية، وزاد نفوذهم شدة تدخلهم في خلق اسماعيل باشا فهنا كان موضع الاشكال ومن هذا كان ينبوع الخفة والاضطراب على المسند الجديد »

« قبلت الدولتان ماطلبه جناب الخديوي السابق في عدم تعيين وزيرين أوربيين ولكنهما صممتا على تعيين مراقبين عموميين يقيمان في نظارة المالية ونفوذها يشمل جميع الادارات المصرية ، وراتبهما الذي يتالاه من الحكومة أوفر بكثير من راتب

وزيرين ، وصدر الامر بتعيينهما قبل توسيد رئاسة النظار الى رياض باشا بأيام . ولما تعين رياض باشا رئيسا للنظار وجد موسيو بارنج (اللورد كرومر) محاسباً عمومياً قلم الايرادات ، وموسيو دولنيار محاسباً عمومياً قلم المحاسبة وادارة الدين العمومي ، ولم يبق الكلام الا في تحديد وظائفهما ، كأن عنوان الوظيفة لم يكن كافياً في فهم معناها ، وبعد قليل قدم قنصلاً دولي فرنسي وانكلترا لأئمة تحدد وظائف المراقبين وبعد مداولة طويلة في مجلس النظار ونزاع شديد بينهم قبلت اللائحة كما قدمت قريبا ، وصدر الامر بتحديد وظائفهما على وجه ان لهما في الامور المالية حق المراقبة غير المحدودة على جميع المصالح العمومية ، وعلى الوزراء والمأمورين من أي رتبة كانوا أن يقدموا الى المراقبين كل ما يطلبانه من الاقادات ، وعلى ناظر المالية ان يقدم اليهما كل أسبوع كشفا مفصلاً عن دخل نظارته ونفقاتها ، وعلى كل ادارة ان تقدم كشفا مفصلاً كذلك في كل شهر ، ويتقاسم المراقبان النظر في المصالح العمومية التي يكون من شأنهما مراقبتها والاشراف عليها بمقتضى الحقوق المثبتة لهما في ذلك الامر الخديوي ، وتقرر لهما مقام في مجلس النظار برأي شوري ، وتقرر ان لا يعزلا إلا بموافقة حكومتيهما ، ولهما ان يعزلا وان ينصبا جميع الموظفين في ادارة التفتيش وان يعينا لهم الرواتب ، وهما اللذان يضعان برنامج (ميزانية) التفتيش على حسب ما يريدان ، وعلى الحكومة ان تصرف لهما ما يطلبان صرفه بلا معارضة . ومن هذا ترى ان تحديد الوظائف كان عبارة عن رفع كل حد يوهمه عنوان وظيفتهما واطلاق حق المراقبة عن كل قيد » وقد ذكر في ذلك الامر ما نصه : « ان حكومتي فرنسا وانكلترا قد رضيتا بأن المراقبين العموميين لا يتدخلان في الوقت الحاضر في ادارة المصالح الادارية والمالية فللمراقبان يقتصران الآن ان يقدما الينا (الخديو) والى وزرائنا ما تهديهما اليه مراقبتهما من الملاحظات » فهذا التقييد « بلوقت الحاضر » يدل على ما كان بين الدولتين والحكومة من الخبايا . واعتذار القنصلين باسم دولتيهما بعد صدور الامر الخديوي عن الفاظ « الوقت الحاضر » و « الآن » المسطورة في الامر الخديوي وتأويلهما على وجه لم يزد التصدد الا ظهورا يشير الى ان الامر سطر برأي القنصلين وان الحكومة تضجرت من هذا الوعيد بعد صدور الامر كما (٢٢٠ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

تضجرت منه قبله ، ولكن لم يتعطف القنصلان لارضائها الا بعد امضائه ، وكانت الترضية عبارة عن إبقاء الالفاظ وأوائلها بما لا يفهم منها ليحري حكمها كما وضعت « لم ير ذلك على الانفس والعقول بلا أثر خادش وهزة أسف عامة لكل من كان يلوح في قلبه شعاع الفكر ويدور في خلد خيال الميل الى استقلال البلاد ووضع الاصلاح فيها على قواعد سليمة واحاطته بما ينقي أعمال السلطة العليا من كل قصد الى غير مصلحة الرعية ، وبصونها عن كل غرض يسوق الى تأييد السلطة الاجنبية ، بعد ما عرفت آثارها ، وتمكنت من النفوس النفرة منها . وقد تحدث الناس بذلك بمجرد تعيين المراقبين ، واكثروا الانتقاد عليه قبل مجيء رياض باشا وقبل ان تبين حدود المراقبة على هذا الوجه ، وبعد ان نشر هذا الامر وعرفه العام والخاص لم يدع انساناً حتى أنطقه ، ولا قلماً حتى أطلقه ، وجرائد ذلك التاريخ شاهدة به

«وهنا اترك تسلسل الحوادث وتوارد الاسباب التي جرت الى الثورة حتى افرغ من ذكر ماتم من الاصلاح مدة وزارة رياض باشا وما تحولت اليه أحوال المصريين ، وما عرض على أفكارهم مما يحسب تقدماً وتأخراً . آني على ذلك باجمال يعني عن تفصيل ان شاء الله . ثم ترى بعد ذلك سلسلة الحوادث قد اتصلت حلقاتها بما ذكرناه سابقاً بدون حاجة للتنبيه الى المود اليه »

وزارة رياض باشا وتأثيرها في الثورة

بين الاستاذ ان رياض باشا حفظ لنفسه وزارة الداخلية اصالة لاصلاح الحال العامة ، ونظارة المالية نيابة مؤقتة لحل مشاكلها مع الاجانب ، وانه سار في الاصلاح سيرة حميدة لا عيب فيها الا محاولة تعميم العدل والمساواة فيها بسرعة ، ونخلص ذلك بما يأتي :

إلغاء رياض باشا للسخرة

كان أول إصلاح قام به إلغاء (السخرة الشخصية) وكان التسخير في البلاد المصرية نوعين عاما وخاصا ، أما العام فهو إكراه الحكومة الاهالي على العمل بغير

أجر في المصالح العامة كإقامة الجسور (الحواجز) على الانهار العظيمة وحفر الجداول الكبيرة وتشديد كل بناء يقام باسم الحكومة ، وأما الخاص فهو إلزام الاعلياء من دونهم العمل في منافعهم الخاصة بغير أجره كالعمل في المباني والاراضي بجميع أنواعه — فكان جميع الوجهاء وجميع موظفي الحكومة يرهقون الاهالي بهذه السخرة ، ويقرونها بالضرب والاهانة ، حتى ان بعضهم كان يضرب الفلاحين لمجرد اللذة ، (قال) : كان كل ذات من الذوات الفخام له بلاد تتعلق به (أي هي منطقة نفوذه) يستخدم سكانها في أراضيه بأشخاصهم وماشيتهم في جميع مواسم الزراعة على شرط ان يحمل العاملون أزوادهم وأقواتهم وأدوات العمل وغذاء ماشيتهم من ديارهم اذا كانت البلاد قرية ، فان كانت بعيدة سمح لهم بغذاء الماشية دون غذاء الآدميين ولكنه لا يسمح لهم أماكن بقي من المطر والبرد في أيام الشتاء ولا بمسقط يقيمهم الحر في أيام الصيف ، فكان القرى يقتلهم شتاء والحر يذيبهم صيفا — وبين الاستاذ ضرر ذلك في الانفس وقله الشعور والاستقلال والارادة

شدد الوزير في إلغاء السخرة بنوعيتها وبالغ في ذلك « حتى إنه أخذ مدير القليوبية مرة في ارسال بعض أشخاص من أهاليها لحفر التربة التوفيقية التي تصل الى أراضي القبة لأنها خاصة بالخديو ، ووبخ المدير توبيخا شديدا وعرض الامر على الخديو فاستحسنه ، ولكن لم يذهب بلا أثر في نفسه ، فان مبالغته في العدالة الى هذا الحد مما لا يلتئم مع السلطة العليا في مصر مهما كانت منزلة الحاكم من الكمال — فانظر ماذا يكون في نفوس أكابر رجال الحكومة السابقين بل والخالين من رياض بعد حرمانهم من منافع أبدان الرعية بقتة بلا تدرج »

ثم ان رياض باشا شرع في وضع نظام لتوزيع الاعانة على الاعمال العمومية يكون بدلا من السخرة كما أشارت لجنة التفتيش العليا من الاجانب ، وكان أساس هذا النظام التخيير بين العمل البدني ودفع بدل تقدي ، فخف الويل عن كثير من الفلاحين وشعروا بأن أوقاتهم ملك لهم لا للحكومة . وكان من عدل رياض باشا في ذلك ان عنف فريد باشا مدير الشرقية لارساله مشي رجل لاصلاح ماجرقة السيل من سكة حديد السويس اذ طلبت مصلحة سكة الحديد العمومية منه ذلك

حسب العادة ، هذا وان فريد باشا كان من رجال رياض الذين يحجبهم ويحبونه وبينهما شبه قرابة . ولم يكتب بذلك حتى كتب منشورا عاما لجميع المديرين يحذرهم من مثل ذلك . وقد كتب صورة هذا المنشور كتاب الداخلية مرارا وكما عرضوا عليه صورة مزقها لانها لم تف بغرضه من التنويه بشأن الاهالي ، (قال الاستاذ) وآخر الامر دعاني لتحرير ذلك المنشور فكتبته وذكرت فيه الحادثة وأتذكر منه هذه الفقرة « وليعلم المديرين والاهالي (لعلها والمأمورون) جميعا ان الاهالي ليسوا عبيدا لاحد ولا لأحد عليهم سلطان الا فيما يتعلق بمنافعهم عامة أو خاصة » وهذا تصریح من رئيس الحكومة النائب عن الجناب الخديوي باعتاق الاهالي من عبودية التسخير بل من العبودية للحاكم الأعلى على وجه الاطلاق ، وهذا مما لم يمهده له . ثيل من قبل العدل في توزيع مياه النيل

واهتم رياض باشا بأن توزع مياه النيل بالقسط وقد كان الفقراء لا ينالون من النيل أيام هبوطه الا فضلات ما يزيد عن حاجة الاغنياء . وشدد رياض باشا على نظارة الاشغال العمومية في تنفيذ ذلك على الكبير والصغير ، وذكر الاستاذ من الشواهد على ذلك تنفيذ عمل بحول دون ما كان يستفيد به بولينو باشا من آلة بخارية له يبيع الماء الذي ترفعه للفلاحين حتى في أيام الفيضان التي يجردون فيها الماء بغير ثمن ، وأن بولينو باشا جاء برجاله مسلحين ليمنعوا فتح التربة التي يسقي منها الاهالي فأمر رياض باشا بفتح التربة ولو بقوة السلاح ففتحت تحت حماية العساكر المصرية إلغاء الضرائب وترك بقاياها

لم تمض على وزارة رياض باشا بضعة أشهر حتى ألغى ثلاثون ضريبة ونيف من الضرائب الصغيرة كانت أضرت بالصنوعات والأعمال التجارية والصناعية الخاصة بالوطنيين وبحال المزارعين . وزيد مئة وخمسون ألف جنيه على ضريبة الاطيان العشورية تعويضا لما فات بإلغاء تلك الضرائب ، تخف بذلك عن الفقراء ما ثقل على الاغنياء ، وهو مما لا يحصى أثره من أنفس الفريقتين . وذهب الافواج من التجار والصناع ليعانوا شكرهم للجناب الخديوي على إلغاء تلك الرسوم ، ولكن الكبراء لم يحملوا بذلك ولا شاركوا الشاكرين (طبعا) ثم عفت الحكومة عما عجزت عن

وزارة رياض باشا وتأثيرها في الثورة - ابطال الكرجاج والحبس ١٧٣

تحصيله من الرسوم والضرائب المتأخرة الى سنة ١٨٧٦

وضع ميزانية الحكومة والتحصيل

« ثم نظم برنامج الإيراد والمنصرف من مال الحكومة (ميزانية) وشكلت لجنة لسماع شكايات المطالبين بالضرائب وانصافهم ووضع نظام للتحصيل في لادوات المعينة على حسب مواسم الزراعة وعرف الفلاح ماله وما عليه » وضع هذا ضيقا لما أشارت به لجنة التفتيش العليا

ثم ظهر عقب ذلك مبدأ المساواة بين الاغنياء والفقراء والوطنيين والاجانب في التحصيل ، وكان الاغنياء والاجانب يماطلون عدة سنين ، وكثيرا ما يعفى عنهم بعد ذلك . وظهر عند التنفيذ ان بعض أغنياء الاجانب كان في ذمته ضرائب سبع سنين فحصلت منه بقوة الحكومة . وهذا مما لم يكن يسمع به من قبل

ابطال الكرجاج

صدر الامر بابطال الضرب بالكرجاج في تحصيل الاموال الاميرية فعجب كثير من الناس لذلك وقالوا: كيف يمكن أن يحصل مال من الفلاح بدون ضرب؟ وأنكره كثير من المديرين وظنوا انه قد هدم ركن عظيم من سلطان الحكومة

ابطال الحبس في تحصيل الحقوق

صدرت الاوامر مشددة بمنع الحبس لتحصيل الحقوق سواء كانت أميرية أو شخصية، ولقي تنفيذها مصاعب ومقاومات شديدة لتمكن الميل الى الظلم من أنفس أكثر الحكام، ولكن لم تأت آخر مدة رياض باشا حتى كان قد محي الا ما ندر . قال : ومن غرائب آثار نفوذ الظلم ورؤيته ملازما للسلطة بمصر ان الذين حفظت أبدانهم من الضرب والجلد وأرواحهم وأجسامهم من الحبس في سبيل اقتضاء الحقوق - سواء كانت للحكومة أو للأفراد - كانوا يعدون تلك الاوامر مخالفة لما يجب أن يعاملوا به وأنه لا يفيد الا الكرجاج ، كما لا يزال قوم منهم يقولون ذلك الى اليوم ، وكانوا يهزّون بتلك الرحمة ، اللهم الا الذين لمع في عقولهم روح الفهم ، ووصل الى ابصارهم شعاع الاحساس بما للانسان من حق التكرمة التي خصه الله بها

قانون التصفية

(قال) « بعد مخبرات طالت مدتها بين الحكومة المصرية والدول العادلة الفخمية قبلت الدول تشكيل لجنة لتصفية الديون المصرية التي استدانها شخص اسماعيل باشا ولا يعرف في البلاد من آثارها في المنافع العامة الا القليل، قبلت الدول العادلة أن تؤلف لجنة من رجالها ليقضوا للدائنين من رعاياها على الحكومة المصرية ولم يكن في اللجنة من المصريين الاعضو واحد . قضت عدالة الدول المتمدنة أن تصادف المخبرات في ذلك صعوبات حتى يكون القبول مقرونا بالتفويض التام وخضوع الحكومة المصرية لكل ما يطلبه وكلاء الدائنين ، وصدر الامر بتشكيلها تحت رئاسة السر ريفرس ولسون في ٢١ مارث سنة ١٨٨٠ و بعد مدة أصدرت اللجنة قانون التصفية الذي اشتهر أمره ولا يزال من أصول الحكومة المصرية الى الآن »

ثم ذكر الاستاذ أهم مسائل هذا القانون ، وكيفية توزيع دخل الحكومة ودخل بعض الاملاك على الديون ، ومنها أنه قدر لتفقات الحكومة أربعة ملايين و ٨٩٠٠٨٩٧ ألف جنيه وفيها ويركو الاستانة وفوائد قنال السويس وتكميل النقص الذي يحصل في الايرادات المخصصة وسنوية المقابلة ، وما بقي من مالبة القطر المصري فهو للدين وفوائده

وبعد أن أطلال في مسائل هذا القانون ذكر أن تأثيره كان حسنا على ما فيه من غبن الدائنين الحكومة وجعلها تحت مراقبة الاجانب وتصرفهم فقال :

« كان يوم أمضي هذا القانون من الايام المعروفة في تاريخ مصر وقد احتفل له في الاسكندرية جماهير من أهالي القطر المصري ، وعد الناس ذلك اليوم من الاعياد الوطنية في ذلك الوقت ، وقالوا انه فاتحة الطمانينة وضمان من الاضطراب الذي كان يخشى منه ، وفي الحقيقة كان هذا القانون فاصلا بين ماض قلق مشوش كان يتعسر السير فيه وبين مستقبل واضح . معروف — كما تمنى الجنب الخديو وصرح مرارا من أنه يريد فصلا بين الماضي والمستقبل — وأهم ماغنمته الحكومة منه رضا أوربا عن الحالة التي قررها ، واطمئنان الاهالي والجنب العالي على مسند الخديوية ، وانقطاع المخاوف التي كانت المشاكل المالية تثيرها في الاوهام عند ما

يخطر بالبال حادثة فصل اسماعيل باشا، وبتلك الطائفة كان الفرح لها كالاحتفال»

*

عمل المؤلف في المطبوعات (١)

قال « كانت الجريدة الرسمية توزع على المأمورين وعمد البلاد توزيع الضرائب، ترسل الى من ترسل اليه بغير طلبه ويجبر على دفع قيمتها بالوسائل التي كان يجبر بها الممولون على الدفع، فأراد رياض باشا أن يجعل للجريدة الرسمية قيمة في ذاتها، تحمل الناس على طلبها رغبة فيها ليقفوا على ماتضمنته من الاوامر والوائح فيكونوا على بصيرة مما تريده الحكومة بهم ومنهم من غير اكراه من الحكومة لهم على ذلك، وكان قد أحس بتوجه الافكار الى طلب شيء من طلاوة العبارة ووفرة المعنى وحسن الانتقاد. أما أوامر الحكومة وحدها فلم تكن مما تحرك النفوس للاطلاع عليها في الجريدة الرسمية لان المأمورين يعرفونها من طريق أخرى، والا هالي لم يكونوا قد تعودوا معاملة الحكومة بما تنشره، ولا على أن تكون طاعتهم لها منحصرة فيما يكتب وينشر بوجه رسمي، ولا على الثقة بأن الحكومة تقف عند ماتحمده في أوامرها. لهذا لم يكن لهم اهتمام في الاغلب الا بأشخاص الحاكمين دون ما يكتبونه. ولم يكن في الجريدة الرسمية وراء أوامر الحكومة الا مدائح للجناب الخديو وبعض كبار المأمورين على الطريقة القديمة وهذا ما كان ينفر من رؤيتها فطلب رياض باشا وسيلة لتغيير طريقة التحرير وتحريرها على وجه يستميل الناس للاطلاع عليها، ورغب مع ذلك أن تكون يومية، فهداه بحته الى تعيين [الكاتب] في تحرير تلك الجريدة، وكان الجناب الخديو في انحراف عنه لأسباب غير معروفة، وانما قيل عنه انه كان موضع ثقة الشيخ جمال الدين، فاجتهد رياض باشا في استرضائه فرضي بتعيينه فعين محررا ثانيا، وبعد أشهر ذاك في الطريقة التي يمكن بها اصلاح الجريدة

(١) كان ينبغي أن ينشر ما كتبه الاستاذ الامام عن نفسه في هذه المسألة في المقصد الثالث الذي قبل هذا ويشار اليه هنا بالاختصار مع الاحالة على ماسبق من التفصيل، ولكننا كتبنا ما تقدم قبل الاطلاع على ما هنا كما وعيناه مما سمعناه منه رحمه الله تعالى

فعرض له ما رآه في تقرير وافٍ فأمر بأن ينظر في التقرير لجنة تؤلف من وكيل الداخلية ومدير المطبوعات وكاتب التقرير ، ثم توضع لائحة لقلم المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية، فوضعت اللائحة في قليل من الزمن وأمضاهها رياض باشا، وعين صاحب التقرير رئيساً لقلم تحرير الجريدة الرسمية العربية فانتخب محررين مجيدين تستميل الناس أقلامهم ، وتنبعث الرغبات الى النظر فيما يقولون ، فتحول حال الجريدة الرسمية الى ما حمده العامة والخاصة

« وقد يقول غير العارف بسير الحوادث » وما مكان الجريدة الرسمية من تاريخ مصر - سعادتها أو شقتها، طمأنينتها أو قلقها، تقدمها أو تأخرها، فنجيبه بأن تاريخ مصر ان كان مجموع حوادث شعب له حياة سياسية وأدبية وعقلية فتغير مصر الجريدة الرسمية وتحرير ادارتها مكان رفيع من تلك الحوادث ، ومقام سام من ذلك التاريخ كما سنبينه، وان كان تاريخ مصر تاريخ مادة جسمية حيوية تنمو وتنفذ وتموت، فالبحث فيه من خصائص علم التاريخ الطبيعي ولا علاقة لما به الآن وربه تبسم استخفافاً بالامر بعض الغفل الذين لم يتعودوا النظر في طبيعة ترقى الامر ، ولا بحرك احساسهم الا الصدمات الصاعدة ، والقواصف القارعة، وهم من موضع التاريخ الطبيعي كما قلنا

« واضع لائحة ادارة الجريدة الرسمية لم يكن من أرباب المنازل السامية في مصر. ولكنه نبأ في تربتها واتصلت حياته بحياتها ، وأثرت مداركه الاحساس بمحاجاتها، فكلمنا تناول عملاً مما له علاقة بشؤونها العامة فتح له هذا الاحساس بما من المعرفة بطريق اتصال منفعة من المنافع اليها، فلما دعي لوضع اللائحة أودعها في مكان غريبة في بابها يعجب لها الناظر فيها، خصوصاً اذا كان من أبناء الشعوب المتمدنة أو من المتعلمين للمتمدنين ، ولكن لكل بلاد طبيعة خاصة بها، ولكل قوم حاجات تختلف باختلاف البقاع والازمان

« تضمنت اللائحة ان جميع ادارات الحكومة ومصالحها الكبرى والمحاكم (المجالس الملغاة) ملزمة بأن تكتب الى ادارة المطبوعات بجميع ما لديها من الاعمال المهمة التي تمت أو شرع فيها على أن تتم، وعلى المحاكم أن ترسل جميع نتائج أحكامها، وان لادارة

الجريدة الرسمية حق الانتقاد على أي عمل من الاعمال عند ما ترى له وجهاً حتى أعمال نظارة الداخلية نفسها التي كانت الادارة جزءاً منها، واذا رأت في الجرائد التي تنشر في مصر عربية أو أجنبية ذكراً لخلل في عمل أو سوء تصرف في أمر ما فلها الحق أن تكتب بواسطة نظارة الداخلية الى النظارة أو الادارة التي يختص بها ذلك العمل تسألها عن الحقيقة ، فان كان حقاً ما نشرته الجريدة أو خذاً للخطيء بواسطة رؤسائه، وأشعرت ادارة المطبوعات بذلك ونشر في الجريدة الرسمية ، وإن كان باطلاً كلف صاحب الجريدة إثبات ما ذكره وإلا أنذر مرة بعد أخرى وبعد الثالثة يعطل لأجل أو دائماً على حسب الاحوال، وإن من حق رئيس تحرير الجريدة أن يكتب فيها تحت عنوان قسم غير رسمي ما يعن له أو ما يرد اليه من الفصول الادبية مما له مساس بالاحوال العامة ، وقد منح رياض باشا هذه السلطة لادارة الجريدة إما ثقة منه بالعامل فيها وهو واضع اللامحة ، وإما علماً منه بأن ذلك من مصلحة البلاد وحاجتها الحاضرة

« وأول ما بدأت الجريدة بانتقاده طريقة التحرير التي كانت متبعة في النظارات والادارات، فأخذت تبين وجه الخلل فيها وإضرارها بفهم المعاني المطلوبة واقتضاها لطول المحابر في الاستفهامات التي لا طائل تحتها، ثم رسم الطريقة الفضلى التي يجب السير عليها ، فلم تمض أشهر قليلة حتى ظهر فضل ذوي الالمام باللغة العربية من موظفي الحكومة، وخصهم رؤساؤهم بمكاتبة الجريدة الرسمية سترأ لميوب الادارات واضطر الجاهلون باللغة والتحرير الى استدعاء المعلمين أو المبادرة الى المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير ، وعم ذلك المديرين كما عم النظارات ، وذلك هو تاريخ اصلاح التحرير في مصالح الحكومة ولا زال يتقدم الى اليوم، وهكذا كان شأن الجرائد ، كانت تتسابق الى اظهار مزاياها في التحرير حتي تعجب ادارة المطبوعات أو العامل فيها، وصلاح بذلك كثير من أساليب الجرائد التي لم تكن لها عناية بتهديب العبارات، وتسابقة الاقلام في تنقيح الالفاظ وضبط المطالب، فتمت بذلك نهضة التحرير التي كانت بدأت من سنين قبل هذا، وكان الضعف يقعدها ، والخوف يرعدها، فقضي لها أن تظفر على يد من كان له دخل في نشأتها

« سهات بذلك المواصلات بين الانفس في الافكار، وخف عليها التعبير عما في الضمائر، كثر الكاتبون، وغزرت مادة المتكلمين، وتيسر التعارف بين المتباعدين، ونشأ في الناس نوع من اللفة، أحدثته الشعور بجامعة اللغة، وبعد أن كان نظر الواحد منهم لا يجاوز شخصه، أصبح وهو يشرف على فضاء يسع بني أمته، وأخذ يشعر بأن له حركة عامة الى المقصد العام، كما ان له حركة خاصة الى الغرض الخاص، وفي هذا من تواصل اللذائذ والآلام مالا يخفى على عاقل، وله من الاثر في إنهاض النفوس الى طلب ما يصلحها مالا يذهب إلا على غبي جاهل

« كانت تبحث ادارة المطبوعات، أو دائرة التحرير فيها في جميع منشورات الحكومة ولوائحها. وأعمال المديرية وأحكام الحاكم وتبدي رأيها في جميع ذلك وتنشره في الجريدة الرسمية، وكان ما ينشر من الآراء يأخذ مكاناً من الاهتمام عند رجال الحكومة، ويوضع موضع البحث، ويبني عليه التعديل أو التغيير، ويبادر الى نشر ما تم من ذلك في الجريدة الرسمية

« كانت دائرة التحرير تبحث في الجرائد عامة، وما كان فيها متعلماً بانتقاد بعض عمال المصالح كتب عنه من إدارة المطبوعات الى المصلحة التي كانت موضع القول، وسئل العامل عما نسب اليه، فاما أُوخذ إن صحت النسبة أو أنذر صاحب الجريدة إن لم تصح. عملاً بنصوص لائحة إدارة الجريدة الرسمية كما سبق، فارتفع شأن الجرائد في أعين المأمورين والناس عموماً من جهة، واشتد حرصها على تحري الصدق من جهة أخرى، أما القدح الشخصي فكان ممنوعاً على وجه الاطلاق سواء اشتكى من ذلك المطعون فيه أو لم يشتك، لاخلاله بالأداب العامة، فكان ذلك من أسباب تأديب المأمورين وحشهم على السير في طريق الكمال، والمنافسة في محاسن الاعمال، ومن وسائل تهذيب الجرائد وإلزامها الوقوف عند حدود الوقار فيما تكتب، مع اطلاق الحرية لها في تبين الحقائق وكشف وجود الخطأ والصواب بدون خوف ولا تعلقة، لم يبق عامل ولا رئيس مصالحة، بل ولا ناظر إلا كان يجب أن تظهر محاسن أعماله في صفحات الجريدة الرسمية ويخشى أن تكون له سواة فتبدو بنفثة من نفثاتها

« ومن فيكاهات ذلك التاريخ ان مدير بني سوييف (إ. بك) بعد أن ضاق صدره من شدة انتقاد الجريدة الرسمية ومؤاخذة نظارة الداخلية له على بعض خطئه أصدر أمره بمنع دخول الجريدة الرسمية في مديريته ، وكتب بذلك محرراً غير رسمي الى صديقه مدير المطبوعات ، فوقع المحرر في يد رئيس التحرير لانه كان العامل وحده في الادارة ، فنشرت تلك النغلة في منشور عام لجميع المديرين ، وأدرج المنشور في الجريدة الرسمية . فانظر الى أثر ذلك في أنفس العامة والخاصة . وهذا مما علم الناس طرق الانتقاد على اعمال الحكومة ، وأفهمهم انها قد اقامت من نفسها مراقباً عليها يبين مواضع الضعف فيها ، ويرشد إلى طرق التدارك لما يقع من الخلل ، وهو مما يرفع الهمم الى اعمال الفكر في معرفة الحق ويسوق العزائم الى طلبه

« لم يضع رئيس التحرير فرصة في انتقاد نظارة المعارف وسير التعليم وإظهار معاييب التربية وما يجب أن يؤخذ به من وسائل الإصلاح ، فغضب لذلك ناظرها (ع. إ. باشا) وكان بطيء الحركة خامد الفكر . بعيداً عن الاحساس بحاجة الوقت ، فاشتكى الى رياض باشا من اقتفاء الجريدة الرسمية له وتنقيتها على مواضع الخلل من اعمال نظارته ، فلم يسمع منه بل اجيب الى ان الحق أولى بالتأييد ، فان كان ما ذكرته الجريدة الرسمية غير صحيح فما على الناظر الا اقامة الدليل على ذلك وهي مستعدة لنشره ، فسكت لان ضوء الحقيقة كان هو المرشد للمعتقد في سبيل انتقاده وبعد ان تكرر النقد ووجد رياض باشا ان السكوت عن الخلل ضرب من الاهمال الذي لا يغفر ، اذا كر يوماً رئيس التحرير في ذلك ، وفي الوسيلة الى اصلاح نظارة المعارف ، وقال أما تغيير الناظر فغير ممكن ^(١) لان له مكانة في نفس الجناب الخديوي من جهة ، ومن جهة اخرى فنحن كحزمة ضمت اعوادها برباط واحد فلا يحسن البدء من الآن بحل ما عقد بيننا ، فلا بد من النظر في طريقة أخرى ، فعرض عليه أن يشكل مجلساً اعلى يكون هو القاضي في ادارة المعارف العمومية وما على الناظر

(١) انما قال هذا جواباً لا ابتداء فقد تقدم أن الاستاذ عرض عليه اولاً ان يستبدل بناظر المعارف غيره ، ويوشك أن يكون قد سقط من الاصل هنا ما هو بمعنى ما تقدم لاننا تلأيناه عن الاستاذ نفسه

إلا التنفيذ، فلم يرض على إبداء هذا الرأي بضعة أيام حتى صدر الأمر بتشكيل مجلس المعارف الأعلى، ووعده في أعضائه كثير من اكابر الاجانب والوطنيين وكان رئيس تحرير الجريدة الرسمية عضواً فيه، ولم يخل تشكيل هذا المجلس من الانتقاد لكثرة عدد الاجانب من أعضائه، غير أن رياض باشا كان يريد بذلك ان تكون قراراته معروفة حتى عند رجال الدول الاجنبية ذات النفوذ في مصر فيسهل تنفيذها بدون معارضة من الراقبين ولا غيرهم فيها خصوصاً إذا قضت بصرف النقود وتوسيع النفقات. وقد كان لهذا المجلس أعمال مشكورة لا يذكر أثرها في حالة المعارف العمومية ولم تضر به كثرة الاجانب فيه فان حمية بعض الوطنيين من أعضائه كانت تحبس بعض الاغراض السياسية في نفوس أربابها، فن بدت وجدت من المقاومة ما يبدها، وكانت اقرارات تصدر جميعاً في مصلحة البلاد وما يجب ان يتبع في سير التعليم فيها « فلما كان يخلو عدد من أعداد الجريدة الرسمية العربية من فصل في انتقاد عمل من الاعمال العمومية، أو طالب إصلاح عادة من العادات الرديئة، أو الأخذ بفضيلة من الفضائل التي يني عليها العمران، وكانت تخاطب العامة بلسان الحكومة وتخاطب الحكومة بلسان العامة، لهذا كان لكلامها من الاثر في الانفس ما لم يكن لكلام غيرها من الجرائد. ومن يطلع على أعداد تلك الجريدة يجد من نفسه هذا الاثر حتى اليوم، وما كان المقال لاظهار براعة أو الافتخار بمعرفة بل كان يكتب ما يكتب بانتظاراً لاثره في الانفس لا غير، وما كان الاثر يتخلف عنه

« بهذا وبما سبقه تنبهت الافكار وبدأت الحياة الاجتماعية تدب في جسم أمة فرقها الظلم وأمامها الجور، وانبعثت النفوس تطلب ما شعرت به من حاجاتها، فتألفت بعض الجمعيات الخيرية إسلامية وقبطية لمساعدة الفقراء بالمعونة المادية وأولادهم بالبرية، ولم يكن يسمع بمثل ذلك في مصر من قبل « اه ثم قال

دار الكتب العربية ودار العلوم

« اتجه عزم نظارة الاوقاف إلى الاخذ بوسيلة من أجل وسائل الإصلاح وهي تقريب الكتبخانة العربية ومدرسة دار العلوم من الجامع الأزهر وتوسيع نطاق المدرسة إلى أن يمكن احتواؤها على خمسمائة تلميذ، وأن يرتب التدريس فيها على طريقة

تؤدي الى تكثير الاساندة المهذين لكل نوع من أنواع المعارف اللازم تعميمها في الامة ، ولكل طبقة من طبقات المدارس ، بل الى إعداد عدد كبير من أهل الذكاء لادارة كثير من الاعمال الادارية والقضائية في البلاد ، وقد قدرت فوائد هذا المشروع في عشرين سنين بما يعظم مقداره ويتجاوز حد ما يتصوره المهاترون في هذه الاوقات ، وبهذا كان يتسنى لنظارة الاوقاف أن تقدم للامة المصرية خدمة لاحقة بذمتها بدلا من صرف نقودها بين الماء والطين ، وبناء معابد قلما يوجد فيها أحد من المصلين ، بل بهذا كانت تقيم الهياكل الالهية في قلوب المؤمنين ، وتزيد في عدد المصلين الحقيقيين ، فان ضاقت بهم المساجد وجدوا بأنفسهم الوسائل لتوسيعها وإقامة ما تدعو اليه الحاجة منها ، وكان توجه نظارة الاوقاف الى هذا المشروع بناء على ما عرضه رئيس تحرير الجريدة الرسمية أيضاً» ثم قال

اصلاح نظام العسكرية

« وجهت الحكومة عزمها لاصلاح في نظام العسكرية فبعد أن قررت مدة الإقامة في الخدمة العسكرية بخمس سنين ورجوع العسكري الى أهله بعد ذلك تحت الاحتياط مدة ست سنين ثم محو اسمه بعدها من دفاتر العسكرية ، رأت أن الضباط الكبار منهم لا يمكن أن يكونوا من العساكر المقترع عليهم لان المدة المقررة للخدمة لاتكفي في أن يصل العسكري الساذج الخالي من المعارف الجندية الى درجة تؤهله لان يكون ضابطا . فلا بد أن يحرص تعيين الضباط فيمن ينال المعارف العسكرية بالتحصيل في المدارس الحربية لا غير . وهو رأي معقول في نفسه لا يخطئ مصلحة البلاد في شيء»

اصلاح المحاكم

وذكر الاستاذ هنا اهتمام الحكومة باصلاح المحاكم القضائية وإعداد الوسائل لذلك ، ودعوة القضاة الى المداولة في أمر المحاكم المختلطة لئلا شيئاً من حق المساواة بين الوطنيين والاجانب

سيرة الحكومة بالاجمال

(والخديو توفيق باشا والوزير رياض باشا بشي من التفصيل)

بعد هذا بين الاستاذ سيرة الحكومة بالاجمال، وانها كانت موجهة الى مافيه الخير لمصر وأهلها، ولم يكن بناؤها على أساس الاثرة وقاعدة الاستبداد بالسلطة لقضاء شهوة الحاكين وأعوانهم، وذكر من مناقب الخديو توفيق باشا: العفة والابتن والتجيب الى الرعية، وتعرف أحوالها بالسياحة في المدن الشهيرة، وبعبده عن السرف، واكتفاءه من النساء بأميرة واحدة، وترفعه عن ارتكاب ما كان يرتكبه غيره . . . من الامور الفاضحة . وذكر نتيجة ذلك بقوله : فاجتمع له في أنفس الرعية : المحبة والمهابة، وهما أقوى سند للحاكم وأشد ركن يعتمد عليه، وهما البقية التي تحفز اليها الهمم، وتحث نحوها العزائم، وتطير دونها الرقاب، والسعيد كل السعادة من الحاكين من هيا له القدر أن يناها

وذكر من سيرته في حكومته اتفاقه مع نظارها وسائر كبارها، على ما يخفف عن الرعية أثقالها، ويرقي عقولها وآدابها، ويفتح أبواب السعادة في المستقبل لها، مع شدة تمسكه بمحفظ مسنده، وتقوية سلطته، وان هذا رفع قدره في نظر الاجانب أيضاً، وان الناس تناسوا بهذه السيرة ما أتاه في اول حكومته من النفي بغير محاكمة والمسارة الى تعيين المراقبين من الاجانب وإعطائهم الحقوق الواسعة، وكادت تندمل تلك الجراح بالقاء تبعه الخطأ فيها على غيره

ثم ذكر من سيرة النظار العمل فيما يعود على البلاد بالمنفعة أيضاً (قال) « ولم يكن لاحد منهم شهوة الاستبداد بالامر في عمله، لمحض إعلاء سلطته ووضع من دونه تحت قهره، واستعباد الرغائب والارادات لرغبته وإرادته، وجمع ما يسر له أن يجمع مدة استعلائه على كرسي الوظيفة » وقد استثنى منهم واحداً قيل انه كان يمد يده الى بعض الخطام في بعض الاعمال الجزئية التي لا يظهر لها أثر في كلياتها، وآخر كان بطبعه العصبية الجنسية، وسيأتي ذكره

ثم بين الاستاذ حسن تأثير هذه السيرة في الناس في نشاط العقول وتحفز الهمم والاحساس بالاجاذب الى مطلب البلاد «ر هو أن يكون فيها من قوة الارادة ونفاذ البصيرة ما يمكنهم من حفظ ما بقي لهم، واسترداد مذهب منهم على مدى الزمان. وقد قنع العقلاء من طلاب الحرية العارفين بحاجات البلاد الناهضين بقدر استطاعتهم الى البلوغ بها اقصى امانيتها، مع نفوذ البصيرة في شؤونها - رضي هؤلاء بما شهدوا من أعمال الحكومة وانضموا في العمل اليها، وقبلوا ما كان في جسم الحكومة من العال اختياراً لأخف الضررين، وخضوعاً لحكم الضرورة مع قوة الامل في الشفاء» وذكر ان ضياء الآمال كان يسطع على وجه كل أحد حتى الساخطين على الوزارة إذ أحس هؤلاء الساخطون بشيء جديد من القوة وان مطالبهم على ما فيها من العايش سهلة المتناول.

(قل) «وكان أهل الاصابة في الرأي يثمنون لو استمر سير الحكومة في سبيلها ذلك عشر سنين على الأقل، فيأخذ الشعوب بمنافع البلاد مكانه، ويستوي سلطان الارادة السامية على عرشه، وترسخ الملكات الحسنة في نفوس السبدين بمقتضى (ميل) الفطرة لاقتنائها - وكانت زعازع الاستبداد تحيد بهم عما أعد لهم الكرم الالهي - وتعود الى النفوس سكينة بعد ذلك الاضطراب الشديد، وعند ذلك كان يتبين لاهالي البلاد أن ينزعوا الى نظام أكل مما أعطي لهم، وأن يطلبوا سبيلاً الى تخفيف شيء مما كان لا يزال يشغل عايشهم

«ولكن وانسأه! حال دون بلوغ تلك الاماني أمور (منها) ما كان منشؤه رياض باشا نفسه وبعض المنظار (ومنها) ماله علاقة بالجناب الخديو (ومنها) ما سببه امتداد السلطة الاجنبية الجديدة (ومنها) نهوض الساخطين لاستعمال ما وجدوا في ذلك من الوسائل لاثارة الفتنة لقلب وزارة رياض باشا

شمائل رياض ومعارفه وأخلاقه وأعماله

عقد الاستاذ في رياض باشا فصلاً ودد فيه ماله وما عليه، وقال انه استعمل غاية الرأفة في الحكم عليه، وأن الذي قد حمله عليه ضرورة بيان أسباب الفتنة القريبة، وقد بدأ هذا الفصل بقوله: «رياض باشا خير من طبقة من المصريين

بلا نزاع ، والنزاع في ذلك مكابر ، وفيه من محامد الصفات مالا ينكره العدو المنصف ، ولكن يصحب هذه المزايا ما قد يؤاخذ عليه « ثم بين ذلك بما تختصره على ايجازه واختصاره ، قال :

رياض باشا ذكي بالفطرة وقد اكتسب بالتجربة في الاعمال الادارية ما لم يكتسبه سواه ، ولكن معارفه جزئيات متفرقة يعوزها كلي يرجع اليه ، ولم يكن لديه علوم كلية ترد اليها الجزئيات ، فقد كان يقيس الجزئي على مثله وربما لا يكون جامع الشبه بينهما تاما فيقع في الخطأ

فيه همه وقوة عزم لا تنكر ، ولكن قلما يحوط ذلك بالحزم وبعد النظر في العواقب ليتجنب ما يكره منها

صادق النية مخاض السريرة في خدمة البلاد ، ولكن لا يبال في تأدية ما يراه واجبا عليه بما يجرح القلوب ويؤلم النفوس ، ويظن ان من الواجب على كل أحد أن يعلم حسن نيته وإن لم يبينها هو ، وأن يرضى بعمله وإن لم تظهر الغاية الصالحة منه

له نشاط في العمل ، لا يصحبه كلال ولا ملل ، ولكن تأخذ الجزئيات من زمنه بعض نصيب الكليات

فيه مزية التفويض للعامل في عمله ، ومنحه كمال الحرية فيه اذا وثق به ، وامكن ليس عنده قاعدة يبنى عليها ثقته . فتارة يثق بالاذكياء العارفين والصادقين وتارة باضدادهم

اذا غضب على أحد مزج في غضبه بين احساسه الخاص وما يتعلق بالعمل العام ، فيسقط من نظره وإن كان فيه من الفضيلة ما يعترف به العالم أجمع ، ويفوته الانتفاع منه ، ولهذا يحترم أحيانا من لا يستحق الاحترام ، ويحتقر من يستحق الاكرام ، ويذم المتعصبين الاوهام ويجل الكثير من أفرادهم

يحب المصريين جملة وليس في طبقة من يحبهم مثله ، ولكنه يحب أن يراهم في أعلى درجات الكمال المنتظر فينادي عليهم بالويل ويرميهم بالنقيصة ، لانهم لم يستطيعوا أن يتجردوا مما ألصقته بهم الايام الظالمة ، وقد أعجزه هو نفسه التجرد

من ذلك والخروج منه — وشبهه بالاب الشديد الحرص على اعلاء منزلة أبنائه الذي لم يسلك مسلك اللين في تربيتهم وهو أهدي المسالك وأقربها نظيف القلب بعيد عن الحيلة ، اذا مال الى شيء أو نفر منه ظهر ذلك في قوله وأسرة وجهه وحركات أطرافه ، فتراه يميل الى اخفاء سره ، وطهارة نفسه تحاول اظهاره فتكون الغالبة

يهاب ذوي النفوذ من الاجانب ولكنه كان يجد السبيل لمقاومة بعضهم اذا وجد من آخر سنداً ، وهو أمثل طبقة في ذلك

جريء مقدم في الاعمال كأن لا شيء يخيفه فاذا عرض له مالم يستطع تذليله رجع الى أقصى ما يمكن أن يبلغه الاحتراس فينقطع العمل . . .

لم يكن بخالج فكره رغبة في سكون المصريين الى الطاعة في كل ما يؤمرون به حلالاً لم على سالف عهدهم فكان في غاية الطمأنينة من ناحيتهم فلم ير انه يجب أن ينظر فيما عساه أن يثيرهم من جهة المقابلة في تنفيذ السلطة و من ناحية الساخطين عليه من الوطنيين والاجانب ثم خص الاستاذ عثمان رفقي باشا الذي كان ناظراً للحرية من دون سائر نظار الوزارة الرياضية بذكر كلمة موجزة من صفاته لان سيرته من أعظم مقدمات الفتنة المراية فقال

عثمان رفقي باشا

« كان رجلاً ساذجاً محدود الادراك بعيداً عن التبصر في العواقب لم يكن يهيمه بعد قبض راتبه الشهري سوى أن يرضي ميله ويروي ظمأه الى حصر السلطة العسكرية في بني جلده من الجراكسة وتجريد من ساء حظهم بالولادة في مصر منها مع معاملتهم بالاحتقار. كان يطبع في ذلك تلك العصبية المقنونة التي يبطئها بعض الغفل من الجراكسة المقيمين في مصر كأن مصر وأهلها جنوا عليهم جناية مست آباءهم أو تعقبت أديبارهم ، أو كأن أهل مصر سلبوهم شيئاً مما كانوا يملكونه ، أو منموهم حقاً كانوا أهلاً لان ينالوه »

✽ تأثير سيرة رياض باشا وشماله في مقدمات الثورة ✽

قال: « بعد ماتين من موجز سيرة رياض باشا وهذا البعض من نظاره يمكنك

(م ٢٤ ج ١ — تاريخ الاستاذ الامام)

أن تسمع بعض مآثرته تلك السيرة » ثم قال ماملخصه

١ — إن إبطال رياض باشا للسخرة كان عدالة لا تنكر ولكنه أحق عليه جميع الوجهاء الذين كانوا يستغلون أبدان الرعية وأموالها، ولم يكن ذلك ضاراً لولا ما صحبه من استعلائه عليهم، وتعرضه بسوء ماضيهم، حتى رأوا أنه ينبغي لهم التخلص مما يمس كرامتهم، فشكوا لمقاومته جمعية تسمى جمعية حلوان كان فيها م. ش. باشا وش. باشا وع. ل. باشا وغيرهم فلما خاب سعيهم تربصوا به الدوائر. وكان قد اشتد على بعض الجرائد فألغاها بأسباب لم تكن بالقوية فمنح بذلك خصومه آلة تهيج الآراء لمقاومته فذهب [أديب إسحاق] أحد محرري تلك الجرائد الملقاة إلى أوربة وأنشأ جريدة سماها القاهرة لم يكن لها موضوع سوى رمي رياض باشا بالاستبداد والظلم والرغبة في بيع البلاد إلى الأجانب حتى كانت تسميه [رياضستون] وكان ينفق على تلك الجريدة الخديو الأسبق (إسماعيل باشا) و د. باشا وم. ش. باشا وع. ل. باشا وغيرهم، وكان الكثير من الساطنين يتلذذون بتلاوتها كما يتلذذ المريض بحكاية عاتيه ووسائل شفائه

٢ — زاد حنق أكثر الأغنياء عليه بزيادة مئة وخمسين ألف جنيه في أموال الاطيان العشورية وهو لم يبين الضرورة الداعية إليها ليتضح عذره فانتهاز الفرصة توبار باشا وأب كثيراً من الأعيان المظاهرة بالشكوى من الظلم والخسار الذي يحل بهم — وكثر الاجتماع لذلك ونفى من كان واسطة في إثارة للتظلمين وهو حسن موسى العقاد، وبرح توبار باشا مضى بتعيينه يقال أنه صدر إليه، ولكن جرح الأغنياء لم يبرأ الله بذلك

٣ — وثق بمن لم يكن أهلاً للثقة من المديرين فأسأوا إلى وجهاء البلاد ولم يكن رسع الشكوى فيهم لاستناده أن أولئك الوجهاء هم أصل شقاء البلاد. وهذا صحيح في الغالب ولكن ليس من الحزم جملة عاملاً. ولهذا وقع في نفوس الأعيان أن رياض باشا عذرهم يريد استعظامهم وإقامة من درجهم مقامهم

٤ — الغم بتقرير الأمن كما أدته في كل وزاراته كان البلاد في حرب دائم، وأعطى المديرين في ذلك سلطة أسأوا في استعمالها فأخذوا بالظن ونالوا من كثير

بالشبهة فازعج ذلك نفوس الباقيين فخافوا أن يصيبهم ما أصاب غيرهم بغير حق ولا عدل « اذا ضوبنا النظر الى مادون المرتبة العليا من مراتب الانسانية وهي المرتبة التي يصل فيها الى منازل الملائكة في كمال الصفات، وأخذنا الانسان من وجهته البشرية، رأينا أن المنافع العامة مهما عظم مقدارها وعم أثرها لاتصرف الشخص عن نفسه، ولا تنسيه منافع ومضاره الخاصة به، فما الظن بقوم تنقصهم التربية وتعموزهم البصيرة، وقد شعروا بشيء من القوة لا يدركون كيف يستعملونه؟ فمن مسه ظلم الأمور ولم تسمع شكواه — ومن يتربح أن يؤخذ بما أخذ به غيره بغير محاكمة عادلة — ومن نكبته شبهة مخيلة لاحقيقة لها — ومن يخاف أن يتمثل في خيال حاكم جاهل بصورة لاتعجبه فينال ما نال صاحبه — كل أولئك وإن كانوا لا ينكرون فضل الحكومة فيما أتته من الاصلاح كانوا يطلبون تغيير هذه الحال بما هو أدمى للسكينة والاطمئنان وتوفير المنافع. وأنزه الناس غرضاً كان يؤمل أن رياض باشا ينتبه الى ذلك من نفسه بما تكشفه التجربة في زمن قصير أو طويل. أما الضجرون ومن لاتباعد المصالح العامة من نفوسهم مبلغ أدنى مصالح الخاصة فضلاً عن أفضاها فقد كانوا يتمنون سقوط وزارة رياض باشا من ساعة الى أخرى ولا يكفون عن الطعن فيها والتنديد بها مهما استطاعوا

« تلك الرغبة التي كانت تلعب بالنفوس وتنجش في القلوب آخرة داماعيل باشا والايام الاولى من حكومة جناب الخديو السابق رحمه الله — تلك النزعة الى تأسيس الحكومة على قاعدة الشورى ومنح بعض منتخبين من الاهلين حق المشاركة في كليات أعمال الحكومة — ذلك الخلق وجد مسكناً من مبادئ الاصلاح فاطمأنت النفوس الى عدل الحكومة في القضايا العامة وفترت تلك الرغبة كأنها قد وجدت من حسن نية الحاكم عوضاً عن اشتراك الرعية في الحكم. لكن تلك النزعة انبعثت مرة أخرى بعد مدة من الزمان لهذه الاسباب التي سبق ذكرها ولاسباب سندكرها فرجع التحدث بين الناس الى ما كان عليه. وأخذ الناس يقولون لا صلاح في الاستبداد بالرأي وإن خالفت النيات. فرأي واحد عرضة للخطأ. وإن تحققت نزاعته من الغرض »

رياض باشا لم يكن يعرف أن في البلاد من يطلب هذا الامر طلباً صحيحاً لانه لم يختبر الناس ولم يصغ حق الاصغاء الى ما كان يدور بينهم . وكان يعتقد أن في مجلس الشورى تعويقاً عن الاصلاح المطلوب لان أعضائه تعوزهم الخبرة بالاحوال السياسية والادارية فلا ينتظر منهم إلا المعارضات وإطالة البحث في أمور تجب فيها السرعة . وكان يوافق في هذا الرأي كثير من العقلاء ويتمنون مع ذلك أن يبدأ بشفاء هذا الغليل بعد حل المشاكل المالية ووضع قانون التصفية وتشكيل المراقبة الثنائية وبت أهم المسائل السياسية ، إذ لم يبق بعد ذلك إلا الشؤون الداخلية والقضائية ، وكان يمكن تحويل المجلس بعض الحقوق التي منحها الامر العالي من قبل والتوسع فيها بعد ذلك بالتدريج ، وقد خاطبه بعض الوجهاء بذلك فرفض رفضاً باتاً فكان ذلك مما زاد الرغبة « ولو أنه أجاب بالرفق ووضع المسألة موضع البحث وطاول في بتها سنين - لكان قد أرسل الآمال تسرح في فسحة من النظرة ، ولم يكن قد دعاها بالشدة الى الانضمام الى من يؤلب عليه، ويثير الاحتقاد حواليه »

سيرة الخديو توفيق باشا

(المفضية الى الثورة)

قال « بعد امضاء قانون التصفية واطمئنان الحكومة من ناحية الاوربيين ومشاكلهم وجد الجنب العالي فراغا من الزمن يمكن أن يسمع فيه أو يلاحظ ماله مساس بسلطته التي كان ينبغي أن تكون له من جهة ما هو خديو وحاكم أعلى في مصر « لين عريكة الجنب الخديو أو رعايته لجنب والده أو حسن ظنه فيمن سبقت لهم أعمال في خدمة العائلة الخديوية - شيء من ذلك حسن لديه إبقاء الكثير ممن كانوا في خدمة حضرة الخديو السابق في معيته السنية وأغلبهم كانوا ممن لا يقيمون لمصالح الرعية وزنا ولم تألف قلوبهم وجدان الرحمة والشفقة على الاهالي ، ولهم مطامع لا تهدأ بعد ماذا أقوا من لذائذها الماضية ماذا أقوا . هؤلاء يغث عليهم أن روا السخرة الشخصية قد أبطلت ، والسلطة الادارية قد قيدت . وتحول مجراها عن رجال المعية الى ناحية النظارات ، ولم يبق لهم التصرف المطلق في الاعمال والمصالح

كما كان لهم من قبل، بل أحسوا بأن من الاحكام العمومية ما يجري عليهم كما يجري على أفراد الاهالي، وهذه غضاضة في نفوسهم لا يسهل عليهم الصبر عليها، فوجدوا من ذلك على رياض باشا ظناً منهم انه هو السالب لتلك الحقوق المكتسبة

« ميل الجنب الخديوي الى أن يكون محبوباً من رعيته كان يبعثه على إفاضة الاحسان بالرتب والنياشين على من يراهم اهلاً لولائه أو على الوعد باجابة بعض المطالب المعروضة عليه من ذوي وجاهة أو من متوشحين بوشاح ضرورة، وعهد جنابه بالسلطة الخديوية أن لا تعارض في مجراها خصوصاً إذا كانت متجهة الى مالا ضرر فيه بالرعية حسب اعتقاده ولا يمس مصالح الاجانب. لكن رياض باشا كان يجد في كثير من ذلك موضعاً للمعارضة وهو مع خلوص نيته في خدمة الخديويين لا يستطيع إخفاء ما في نفسه من غيظ أو ضجر مما لا يراه حسناً فكان يظهر في أقواله ما ربما يחדش نفس الجنب الخديو. وقد كن يأتي في بعض مقالة ما يشير الى التهديد

بالاجانب ووكلاتهم كما اخبرني به الصادق في روايته. ورأى الرابضون حول الاريكة الخديوية لوائح الانفعال تظهر مرة بعد اخرى على وجه جنابه ففتح لهم بذلك باب يلجونه لشفاء ما في نفوسهم، فأخذوا يستنزلون الجنب الخديوي الى بث ما في نفسه فيفيض بما كان يجده، وهم يفيضون في شرح الاقوال وتوسيع دائرة المقصود منها وتحميلها مالا تحتمله، كأنهم مشايخ محققون، يلقون دروساً على طلبة في الازهر مدققين، والجنب الخديو يسمع منهم ويسرع الى ما يقولون. وقد انتهى به الامر رحمه الله الى انه كان يسمح لبعضهم بتقليد رياض باشا في كلامه وحرركاته أثناء خطابه وهيأة جلوسه وما يرى في مشيته من دلائل الخيلاء في زعمهم، وما شابه ذلك. وكان رحمه الله يجد في ذلك نزعة لخطاره، ونوعاً من التسلية تسر بها نفسه، ويتضي بها وقته. وكان غيظه يزداد على رياض باشا كلما بدت منه معارضة في أمر صغير أو كبير بما كان يصوره أولئك المتاملون. وكما رأى رياض باشا علائم الانفعال اشتد ضجره وكما اشتد ضجره وظهر في قوله أو فعله التهب غضب الجنب الخديوي عليه وان لم يكن يظهره له، فوصل الامر في اقل من سنة بعد إمضاء قانون التصفية الى ان الجنب الخديو لم تكن له أمنية إلا اعزل رياض باشا، لكنه كان يظن ان قناصل الدول خصوصاً

قنصلي فرنسا وانكسرتا يعارضان في عزله لو أراد. فأخذ ياتمس الوسائل لفصله من وجه يحمل الدول على الرضاء به بدون معارضة، فاستأفت بعض من حوله نظر جنابه إلى الحادثة القريية العهد التي كانت سبباً في عزل نوبار باشا من رئاسة الوزارة أيام الخديو الاسبق فآها أنجح الوسائل»

إثارة الخديو الضباط على رياض

« أخذ الجاب الخديوي من ذلك العهد يستدني منه أمير الألي الاول الذي كان يحرص السراي وهو علي بيك فهمي ويستدعيه الى مجالسه الخاصة ويمارحه ويزج به في الحديث على اختلاف شؤونه ويظهر له أمانيه في الاحسان عليه وعدم وجود السبيل إلى ذلك حتى قال له مرة: اني أردت الانعام عليك بألف جنيه ولم يمكن ذلك لمعارضة رياض باشا . ومرة اني أردت الاحسان عليك برتبة اللواء فلم يقبل رياض باشا. وأمثال ذلك حتى اعتقد علي بيك فهمي ان الجباب الخديوي ساخط على رئيس نظاره وان رئيس نظاره عدو منفعة ومنفعة إخوانه، وعلى المألوف عندنا لم يخف شيء من ذلك عن بقية الضباط الكبار بل ولا على كثير من الخاصة ومن يحبون الوقوف على حقائق ما كان يجري حولهم

« كل هذا والرحوم عثمان رفيقي باشا يشتد في معاملة الضباط الذين جنى عليهم أبائهم بولادتهم في مصر ويهيء المشروعات لراحة القوة العسكرية منهم، فإذا كان يدور من الحديث بين علي فهمي وبين إخوانه الضباط الفلاحين؟ وماذا يتصورونه في منزلة رياض باشا من الخديو؟ وماذا يتخيّلونه في ميل جنابه الى فصله؟ وماذا جسمته أوهامهم من معاداة رياض باشا للضباط حتى اقتنعوا بأن كل ما يقع من عثمان رفيقي فاتما هو من رئيس النظار؟ ولينظر ماذا بهجسون به من وسائل التخلص من رياض باشا ورفقي باشا معاً على ظن انهم لو فعلوا شيئاً من ذلك فاتما يفعلون ما يرضي خديويهم ، ثم تأمل في الاعاليل التي يمكن أن يتخذوها حجة على ان ما يعملونه في هذا السبيل موافق للصواب آت على وفاق الشرع

سيرة الاجانب من أسباب الثورة

عقد الاستاذ ههنا فصلاً في بيان كون نفوذ الاجانب كان من أسباب الثورة

بهذه بيان أن الضباط وغيرهم لما استرحوا من بعض المظالم انفسحت آمالهم في استكمال الشفاء مما بقي من علائهم والتنبيه لما وزيادة التألم منها كالمريض يشعر بالألم بعدو الأمل في الشفاء . وبهذا انتبه ظهر لهم أن قانون التصفية وضعه الاجانب لصلحة الاجانب وأنه حرم البلاد حريتها، وأن الاجانب يتقاضون رواتب فاحشة من الخزينة في إدارة المراقبة العمومية وصندوق الدين والدومين والدائرة السنية وسائر المصالح التي وظفوا فيها مع ادعاء فقر الخزينة والبلاد . وانهم هم اصحاب الكلمة النافذة في الإدارة والمالية وانما يعملون لمصالحهم لا لمصالح البلاد، فالحكومة الخديوية أصبحت تابعة لحكومات أخرى لانهم بسعادتها ولا شقاؤها إلا من وجه ما تبقى قادرة على تأدية ديون رعاياها وتقديم الرواتب الوافرة الى المندوبين من قبلها، ففسوة الاجانب الثريين وسيرة المحكمين منهم مما أوقع في خواطر الملمين بذلك « ان حقيقة الظلم واحدة وانما طورها الجديد أرسخ أساساً وأضبط نظاماً وأظهر استعداداً للخلود فلا يحيص عنه . فلو استقال سلطانه وامتد من دائرة الى أخرى آكل الامر إلى وقوع البلاد في شدة منظمة وضيق محكم الحلقات »

وذكر في هذا الفصل أن ما كان يقوله الساخطون على رياض باشا وما ينشرونه في الجرائد التي تطبع في أوروبا وما ظهر من المنشورات والرسائل الدالة على أن الحزب الوطني يرى ماقدرته لجنة التصفية وما أشار به المراقبون لا ينطبق على رغبته وأمانيه للبلاد . كل ذلك كان يهيئ الفرص للناقين على رياض . وذكر أيضاً أن الاجانب لم يكونوا راضين عنه لان ربحهم من البلاد قل بحسن سيرته . وقد حصل نزاع بينه وبين البارون درنج قنصل فرنسا الجنرال بشأن قانون المحاكم المختلطة إذ كان الباشا يريد تخفيف امتيازات الاجانب فيه والبارون يأبى ذلك فآخذ يسعى في إيجاد الطرق لفصل رياض باشا

(أسباب تألب الضباط الذي أفضى الى الثورة)

تقدم أن بعض الضباط دفعوا عريضة الى وزارة شريف باشا التي سبقت وزارة رياض باشا ليمسوا بها عزل ناظر الجهادية لعملاء برداء الطعام وعدم النظر في

أحوال المستودعين وأرباب المعاشات . فناظر الجهادية لم يهتم بالبحث في ذلك ولا في أسبابه ولم يسع لتفريق من جمعهم تلك النزعة ، ولم يسلك مسلك رئيس النظار في المصالح التي تولاهما بأن يحمل العسكر على الأخذ بالأعمال العسكرية وتعاليمها ، ولم يلزم الضباط إحياء الآداب العسكرية وإعادة النظام السليم إليها ، بل اشتغل بتقريب زيد والتحامل على عمرو وزيادة التفرقة بين المصري والجزيري - وترك كبار الضباط هملاً بغير عمل

ولما جاء وقت وضع الميزانية وعزمت الحكومة على تنقيص الجيش في أواخر سنة ١٨٨٠ ميلادية وحصر ترقى الضباط في المتعلمين بالمدارس الحربية اضطربت أنفس الضباط المصريين واعتقدوا لسوء ظنهم بالوزارة أن هذا النظام إنما أحدث لقضاء شهوة ناظر الجهادية فاجتمعوا للتشاور في أمرهم

عبد العال بك وعلي فهمي بك

وبينما هم كذلك أحال عثمان رفقي باشا عبد العال على الاستيداع وأقام أحمد عرابي مقامه . واتفق أن انحرف الخديو عن علي فهمي أمير الألاي الاول وأبدى رغبته في نزع سلطته عن تلك الموسيقى الخديوية وفرقة المراسلة - وهو يعلم من سخطه على رياض باشا ما يعلم ويعتقد أن سلطته لا تنهض بالتخلص منه - فخاف أن يحل به ما حل بعبد العال وأن يبدل بجر كسي فانضم الى من مسهم الظلم وكشف لهم حال الحاكم والحكومة كما سمع وعلم من الخديو نفسه

أحمد عرابي بك

قال « أحمد عرابي بك كان ينظر الى رؤسائه من الجرا كسة نظر العدو الى عدوه ، وكان يحقرهم في نفسه لاعتقاده أنهم دونه في المعرفة ويرى أنه أحق منهم بالرتب العالية التي كانوا يتمتعون برواتبها ونفاذ الكلمة فيها ، وربما لم يكن مخطئا في الكثير منهم ، وكان أجراً اخوانه على القول وأقدرهم على إقامة الحجة ، فلما شرعت نظارة الجهادية في عملها الجديد وبدأت باستيداع عبد العال غلب على ظنه أن ما يصل الى عبد العال اليوم يصل اليه غدا فيحرم مما يرى نفسه أحق بالتمتع به ، ووجد هو وإخوانه فيما كشفه علي فهمي من النفرة بين الخديو ورياض باشا سبيلا للجرأة

على مقاومة تلك المشروعات ففرع الى رئيس النظار وشكا اليه مامس عبدالعال
قبلت شكواه بعد تردد استمر مدة أيام وأبقي كل في وظيفته «

أحمد بك عبد الغفار

كان [قائمقام سوارى] وكان بينه وبين ناظر الجهادية منافرة لامور أهمها
تأريهما في درجة الفهم وتزاحمهما على هنة واحدة فكان كل يطلب الخلاص من
الآخر ولا يجده . وعرف الخديو ما بينهما وشكا اليه عثمان رفقي تصرف أحمد
عبد الغفار معه فكان من ثمرات ذلك أن الخديو كان يستدعي احمد عبد الغفار
في طريق منزله الجزيرة ويستوقفه ويحادثه الزمن الطويل مظهرًا ميله اليه ويسمع
شكواه من عثمان رفقي ويعده باشكائه ورفع ظلامته . وهذا مما كان يشجعه على مناوأة
رئيسه ويزيد في حقد رئيسه عليه (وذكر الاستاذ حادثة ضاعفت العداوة) .

وبعد أيام كان عرابي وبمضى شركائه في الخوف من نظارة الجهادية في ولية
بيت نجم الدين باشا دعاهم اليها اثر قدومه من الحج . وبينما هم على المائدة قال
اسماعيل كامل باشا : ان ناظر الجهادية أتى اليوم عملا لا يحمد عليه . عزل أحمد
عبد الغفار من قائمقامية السوارى وعين بدله محمد شاكر بك . فلم يتم أحمد عرابي
عشاءه بل انصرف هو ومن كان معه من الضباط الى بيته وكان فيهم علي فهمي
وعبدالعال ودعوا احمد عبد الغفار وكتبوا تقريراً ضمنوه الشكوى من عزل احمد
عبد الغفار بلا محاسبة على خلاف القانون . وذكروا أشخاصاً آخرين عزلوا واستبدل
بهم شيوخ قانون أو جملة دونهم في المعارف العسكرية ، وعددوا من سبق من
الضباط الوطنيين الى السودان ونحو ذلك . وطلبوا إحالة القضية على مجلس عسكري
ينظر في جميع أطرافها ، فان كان لهم حق منجوه ، وإن استحقوا عقوبة قبلوها .

وطلبوا عزل ناظر الجهادية لاختلال اعماله وميله عن النظام طاعة لميل خاص
رفعوا نسخة من هذا التقرير الى الخديو وأخرى الى رياض باشا بامضاء أحمد

هرابي وعلي فهمي وعبدالعال حلمي بالنيابة عن جميع الضباط المصريين فبقي التقرير
١٧ يوما تحت المداولة بين الخديو ورئيس نظاره وكان من رأي رياض باشا أن

يجاب طلبهم في تشكيل المجلس العسكري ولكن الخديو لم يقبل ذلك

مظاهرة اللاء المصري للضباط.

« شاع هذا الخبر بين الناس على حسب العوائد في مصر ، علم الكثير من الاعيان والعلماء والموظفين باصرار الضباط على طلب ماس بالوزارة وأحسوا بخلاف بين الخديو ورئيس نظاره ، فهب عند ذلك جميع الراغبين في تغيير الحال من علماء وأعيان وذوات كرام ومقرين من الجناح العالي واتحدت وجهتهم في الغاية وإن اختلفت الدواعي والبواعث ، فطلاب مجلس النواب يؤملون في التغيير أن ينالوا تشكيكه ، والمتضررون من استبداد بعض المأمورين والخائفون من أن يؤخذوا بالشبه يرجون بالتبديل كشفاً لكربتهم وأمناً على أنفسهم ، والواجدون على السلطة الاجنبية يرجون شفاء شيء من وجدهم ، والذوات الكرام الطامعون في رجوع سلطتهم على أبدان الرعية وأموالها يطلمعون في ارضاء شرهم ، والاجانب الربويون يتطلعون الى انقلاب تزيد به الشدة المالية حتى تتسع لهم طرق الكسب الماضية ، وقضيل فرنسا البارون درنج يسعى في الانتقام من رياض باشا ويحب أن يأتي خلفه بمكنه بحاراته في مطالبه ، والجناح الخديو لا يكره أن يتخلى رياض باشا عن رياسة النظر بل تلك أمنية من أمنائه

« فأخذت هذه العوامل جميعها تشتغل لتقوية جانب الضباط وتشجيعهم على الالحاح في الطلب ، وكل من وصل اليهم من أولئك بنفسه أو أمكنه أن يبعث اليهم من يعبر عن أفكاره يؤيد لهم عدالة الطاب ، وموافاته للرغائب الوطنية ، وأن ما يأنيه ناظر الحربية لا يمكن الصبر عليه ، ثم كانت تأتيمهم الاخبار بأن الجناح الخديوي لا يأنى إجابة طلبيهم بل يحب أن يمكن لهم أمنيتهم وانما رياض باشا هو الذي لا يريد ذلك ، والله أعلم من أين كانت تأتيمهم هذه الاخبار مع ان رياض باشا كان يريد تحقيق الأمر حسب ما طلبوا في تقريرهم كما قدمنا

« زاد هذا كله في جراءة الضباط وكلمات مدة التردد في حسم المسألة كثرت الاشاعات وقويت عزائم المحركين وغلب الظن بضمف الحكومة وقد حصلت عدة مقابلات بين رئيس النظار وبينهم قال دولته في إحداها لعراي ومن كان معه إن ماؤدعتموه في تقريركم من طلب عزل الناظر يعد خروجاً عما حدده لكم

القانون وتلك مهلكة سياسية فقد يخشى أن يمد الا جانب ذلك سبيلا لزيادة
تداخلهم في الحكومة واشتداد وطأنهم عليها
« وأحسن بذلك البارون درنج فأرسل الى أحمد عرابي واخوانه يقول لهم انه
يسره ما يراه من صلابتهم في عزيمتهم، واشتدادهم في المطالبة بالعدل فيهم ، فعليهم
أن يثبتوا في مطالبهم ولا يضعونهم ما يهددون به ، فهو بصوت حكومة فرنسا يسند
المطالب العادلة وليس في الامكان ان حكومة متمدنة تقيم الموانع في سبيل الناهضين
بطلب حقوقهم ، الساعين في الانتصاف لأنفسهم ولا بناء بلادهم

بدء الثورة بمحاذنة قصر النيل الشهيرة

جعل الاستاذ لهذه الحادثة تمهيداً بين فيه ان الضباط كانوا يتوهمون ان رياض
باشا مؤيد في منصبه بقناصل الدول ذات النفوذ بمصر — وان الخديو نفسه كان
يظن ذلك — ونتيجة ذلك ان مقاومة وزارة مقاومة للدول فلا يتعرض لها الا
بوسائل الرفق واللين ، فلما قال قنصل فرنسا الجنرال لعرابي ما قال « انكشف
ذلك الوهم، وتحول السير من سؤال الخاضع ، الى إلحاح المضارع » فآخذ أحمد عرابي
وعبد العال وعلي فهمي يدعون سائر الضباط للاتفاق معهم على مقاومة كل ما تسنه
نظارة الجهادية من نظام ضار بهم وطلب عزل ناظرها مثار تلك المخاوف
علا نداء الضباط بذلك وكثر الاضطراب فان فقد مجلس النظار برئاسة الخديو
للاسرع بحل هذا المشكل وحضره بعض رجال المعية « فكان من رأي رياض
باشا أن يحال تحقيق ما في التقرير على مجلس عسكري . وكان من رأي ناظر الجهادية
القبض على الضباط الثلاثة عوامل هذه الحركة والحكم عليهم بالعقوبة التي استحقوها
بمجرأتهم هذه . ووافق بعض النظار وجميع من حضر من رجال المعية، وكان الجناب
الخديوي من هذا الرأي . واستمر الجدل ذلك اليوم الى أن جاء وقت الظهر ولم يتقرر
شيء فقاموا الى المائدة ، وبعد الفراغ من الطعام وقبل الرجوع الى المداولة جاء
أحد رجال المعية (طلعت) باشا الى رياض باشا وأسر إليه ان بعض الناس يتهم
دولته بمجاعة الضباط والاخذ بناصرهم طمعاً في ان يملك قلوبهم ثم يستخدمهم في

الاستيلاء على الخديوية المصرية ! فلما عادوا الى الجلسة لبث رياض باشا ساكتاً وصارت الاغلبية على رأي الجنب العالي وانما سأل رياض باشا ناظر الجهادية: هل تتحمل تبعة هذا الامر ؟ فقال نعم . وصدر الامر بالقبض عليهم وسجنهم في ٣١ يناير سنة ١٨٨١ . هذا ما حدثني به أحد النظار في ذلك الوقت ولا أظنه إلا صادقا « لم ينفذ الامر الخديوي بقوة الحكومة وسطوتها كما جرت به العادة ولكن سلك في تنفيذه طريق الحيلة والغدر »

ثم بين الاستاذ ذلك بما حاصله ان ناظر الجهادية كتب الى الضباط الثلاثة يدعوم الى ديوان الجهادية للمذاكرة في ترتيب حفلة زفاف الاميرة جميلة شقيقة الجنب الخديوي أول يوم من شهر ربيع الاول سنة ١٢٩٨ — وهو اليوم التالي ليوم صدور الامر العالي بحبسهم — فلما وصلت اليهم الدعوة دهشوا لان موضوعها لا يحتاج الى مداولة ثلاثة من أمراء الالايات ولا مثله بمعتاد ففطنوا للحيلة في تلك الدعوة في ذلك التاريخ فدعوا من يثقون به من الضباط وأطلعوهم على ورقة الدعوة ففنع الجميع بان خطراً سيحل بالثلاثة ثم بكل من يشايهم — أو بكل ضابط مصري على ما كان يخيل اليهم — « فحملهم الحرص على وظائفهم وأقدم بهم العلم بضعف الحكومة عن الانتقام منهم لمكان الاختلاف الواقع في أمهات عناصرها، وما هاجم من وسوس ذوي الكلمة في مصر وما كانوا يتخيّلونه من رضاء الكافة عما يفعلون — على أن يقاوموا الشر المنتظر بالقوة إذا اقتضت الحال ذلك غير مباينين بعاقبة وكان في الضباط الحاضرين كل من محمد عبيد بكباشي في الالاي الاول — ألي الحرس — وخضر خضر بكباشي في ألي السودان فأخذوا على عهدتها إنقاذ الضباط الثلاثة إذا سقطوا »

بعد هذا التمهيد ذكر الاستاذ حادثة قصر النيل المشهورة وملخصها ان الضباط الثلاثة جاءوا قصر النيل يتبعهم على بعد بعض العيون من جند الالاي الاول فاذا الديوان غاص بالضباط وأمراء العسكرية فلما وصلوا الى حيث الناظر تلي عليهم الامر الصادر بسجنهم وجرّدوا من سيوفهم وألقوا في السجن « وتقاذفت عليهم الشتائم وكان أكثرها وأبلغها في التحقير كلمة (فلاح) فعاد المقتنون لآثرهم وبلغوا اضطباط الالاي

الاول مارأوا قهض محمد عبيد بالعسكر الذي تحت قيادته لا نقاذهم فاعترضه القاء مقام
[خورشيد بك بسمي] فلم يسمع له قولاً وشاهد الخديو حركتهم فأمر [بروجي الحرس]
بأن يدعو ضباط الحرس الى السراي فدعاهم فلم يستجب له أحد . وانطلق بهم محمد عبيد
الى قصر النيل فهجموا على الديوان فيه فأطار الرعب قلوب الامراء فيه ومنهم
الناظر والوكيل ووثب كل منهم من نافذة يطلب الخلاص لنفسه فنهزم من كسر
ومن جرح وفتح الجند مستودع الضباط الثلاثة عنوة فخرجوا ظافرين . وأرسلوا
الى ضباط ألي السودان وكان في طره فحضر حالا وإلى ضباط ألي العباسية وهو
ألي عراي وكانوا قد قبلوا أميرهم الجديد الذي خلفه بعد حبسه والتسوا العفو
عنهم ثم بلغهم ما حصل فوقعوا في حيص بيص . وقد خطب عراي في العسكر
والضباط المجتمعين وأثنى على اخلاصهم في حب أمرائهم ثم أمرهم بوضع السلاح
وأخذ يكتب الى القناصل ويستعد لمخاطبة سراي عابدين

(قال الاستاذ) « كان رياض باشا قد بلغه الخبر وهو في نظارة الداخلية فجاء
الى سراي عابدين — وعراي يرسل شكواه إلى البارون درنج قنصل فرنسا الجنرال
ويلتمس منه أن يبلغ جميع القناصل ان الضباط لم يأتوا عملاً إلا ما بقي أرواحهم
ويضمن لهم إقامة العدل فيهم، وأرسل اليه ورقة الدعوة الى ترتيب الزفاف وبسط
له الحيلة التي دبرها ناظر الجهادية للايقاع بهم . وشرح له ما حصل لهم من سلب
السيوف والحبس على انهم لم يأتوا جريمة سوى أنهم طلبوا عزل ناظر الجهادية
وهو طلب عادل لسوء تصرفه . فورد له الجواب من [البارون درنج] بالثناء على
عزيمته وثباته في مطالبه العادلة وبشره بأنه لا خوف عليه مادام الحق في جانبه .
فسر عراي بذلك . أما باقي القناصل فلم يجيبوه بشيء . »

ثم ذكر ان الخديو أرسل الى عراي يسأله عن سبب هذه الفتنة فاجابه بأنه
لا يريد إلا عزل ناظر الجهادية فقبل منه وعرض عليه عدة أشخاص على أن يكون
أحدهم خلفاً للناظر فلم يقبل أحداً الى أن عرض عليه محمود سامي باشا ناظر الاوقاف
فقبله فعين في الحال ناظراً للجهادية . فأرسل عراي يشكر الخديو على ذلك وطلب
العفو عن العساكر والضباط فيما فعلوا فمعا عنهم . وصدر اليه الامر بان يصرف

المساكر في الحال فلم يمثل بل أجاب بأنها تنصرف في صباح الغد
وانتهت بذلك الحادثة التي تعرف بحادثة قصر النيل

(نتيجة ما تقدم وتبان أفكار عرابي ومشايبه ورياض باشا والحديو فيه)

« كان يمكن لعرابي أن يطلب فصل رياض باشا بل وأكبر من ذلك لاستكمال
الضعف في ذلك الوقت والمحصار القوي فيما بيده ولكن الامر كان غير مدبر فان
طلاب التغيير لم تكن لهم ثقة بعرابي ومن معه حتى كانوا يفضون اليه بما يريدون
بل كانوا يظنون أن مجرد المقاومة والنزوع الى نيل مطلب ما بالعنف والوصول اليه
بالقوة يكفي في أن يقدم رياض باشا استعفاء ولا حاجة الى التصريح به لعرابي
ومن معه خوف الاخفاق فيزداد عناؤهم اذا انكشف أمرهم فكانت الوسواس
منحصرة في تزوين مأمم به الضباط من طلب حقوقهم

« أما عرابي فلم يكن يخطر بباله ولا يهدف به في منامه أن يطلب اصلاح
حكومة أو تغيير رئيسها فذلك مما كان يكبر على وهمه أن يتعالى اليه ، وانما الذي
أحاط بفكره وملاك جميع مقاصده هو الخوف على مركزه مع شدة البغضاء لمن كان
معه من أمراء الجراكسة والمنافرة من عثمان باشا ، فلم يكن له هم سوى الأمن
على مقامه والانتقام من ذلك العدو والتغلب على ما كان بيد الجراكسة من الوظائف
العسكرية قصد التمتع بما كانوا يتمتعون به من رواتب أو نفوذ ، لانه هو وإخوانه
أبناء البلاد أحق من غيرهم بمزاياها الخاصة بأمثالهم

« وجميع المحركين له انما يأتونه من هذا الباب ولم يستلفتوه الى أمر آخر
فظن أن مقال الاعيان والذوات الفخام وما يأتية من الجانب الاعلى وما يسمعه من العامة
ممن بلغهم خبر طلبه من استحسانهم له وتصويبهم للثبات عليه انما هو لعدالة الطلب
واعتدال الرغبة ، فخلل له أنه بعمله هذا يرضي الجناح الحديو والكافة وقضل
فرنسا أيضاً بتظاهر الحربية من ظلم ناظر الجهادية والجراكسة فأنحصر طلبه في عزل
عثمان باشا ، وما بقي من سلطة الجراكسة تسهل إزالته بعد ذلك فأنقضى أرب
عرابي ولم يستعف رياض باشا

«أجال رياض باشا فكر في أسباب هذه الجرة التي أقدمت بهؤلاء الضباط على تمزيق حجاب الهيبة المضروب بينهم وبين الحكومة مع أنهم ليسوا إلا مصريين قد عرفوا بالاستكانة للسلطة وتزويه الحاكم عن أن تتناول إليه الاوهام بالمقاومة فضلا عن اللسن والأيدي، فأنحصرت كل الأسباب عنده في البارون درنج قنصل فرنسا الجنرال وأن صفته هذه وجهره بتعظيمه هو الذي نفخ فيهم هذا الروح ولولاه لم ينبض فيهم عرق، ولم ينطق لهم لسان، لهذا سعى لدى الجناب الخديوي في أن يطلب من رئيس الجمهورية استدعائه من مصر فورد الجواب بقبول الطلب وعين خلفاً له موسيو ستكوفيش

«لم يدر في خلد رياض باشا أن البارون درنج كان العلة المتممة وأن هناك أسباباً أخرى سبقت سعيه وهو ظهور الانحراف عنه من كل جانب، وأن الفتنة لا تسكن مادام في الوزارة غير مرضي للجناب الخديوي، مضايقا لمن يحفون به، أما البحث في تشكيل مجلس النواب، وإثاق بعض ضملاء العقول من الحكام، مناصباً للذوات الفخام بلا محاملة، غير ناظر إلا إلى ما يراه حسناً، وما يعده خيراً للبلاد بدون التفات إلى ما يخفف مرارة الحق أن كان محضاً، ويحلو جمال النية أن كانت صالحة، ولهذا قد اكتفى بعد إبعاد البارون درنج بالتفويض لناظر الجهادية الجديد في إزالة أسباب الشقاق الحميم في المراكز العسكرية والاختد بزمام هؤلاء الضباط ووردهم إلى النظام وتسكين نفوسهم إلى الطاعة، وأما ما بقي من الأسباب الحقيقية للفتنة وهو ما في نفوس أهالي البلاد من الميل إلى تغيير شيء من السيرة الحاضرة وما تمكن في قلب الجناب الخديوي من النفرة منه فلم يلتفت إليه لسقوط ذلك كله عن منزلة الاهتمام من نفس رياض باشا

«لم يكن يخطر ببال الجناب الخديوي في ذلك الوقت أن الأمر يصل إلى هذا الحد، وإنما كان يظهر لبعض الضباط انحرافه عن رياض باشا ويبلغ إلى أن رئيس النظار هو عدوهم وهو الساعي في تقليل القوة العسكرية وفي إيجاد النظامات التي تحرم كثيراً من أبناء البلاد ثمرة أعمالهم في الجندية ونحو ذلك، ثم يميل في مجلس النظار إلى أخذ الضباط الثلاثة غيلة وتجريد هم من سيوفهم قبل محاکمتهم، كل ذلك

حتى يحدث شيء من الالتزام يعز على رياض باشا قبوله فيستعفي . كان الجناب العالي ينتظر أن يستعفي رياض باشا بمجرد الاصرار على صدور الامر بحبس الضباط الثلاثة على خلاف رأيه فلم يستعف ، كان يظن بعد ذلك أن غاية ما يؤدي اليه حبس الضباط الثلاثة أن يجتمع جماعة من الضباط ويتجهروا حول رئاسة النظار يطالبون بالافراج عن اخوانهم ويصروا على ذلك فيستعفي رياض باشا كما استعفي نوبار باشا في حادثة الخديو الاسبق ثم تنتهي بذلك الحادثة ويعود النظام الى مقره . « وغاب عن الافكار أن آثار الحركة على وزارة نوبار باشا كانت لم تزل تشاهد في الجندية تخفى وتظهر على حسب اقتضاء الاحوال كما يعرف من العريضة التي قدمت في وزارة شريف باشا السابقة على وزارة رياض ، ثم لو كان الجناب العالي اظهر رغبته في عزل رياض باشا لهؤلاء الضباط ودبر الامر معهم وقال لهم ان هذا الرئيس يرتكن على الاجانب وهم يسندونه فلا بد من ايجاد سبب يقنع الاجانب ظاهره لكان ما اتاه الضباط صادراً عن أمره ولبقيت هيئة المسند الرفيع في نفوسهم مع اطمئنانهم على ارواحهم ومراكمهم من ناحية جنابه ، ولما وجدت نفوسهم في الظفر بمطالبهم شيئاً جديداً سوى الامتثال لأوامر الحاكم وان كانت سرية ، ولما استشعروا بتلك القوة التي اندفعت بهم إلى خرق ذلك السياج المنيع الذي يحول دائماً بين النظام والفوضى . نقول ان ذلك كان اقل خطراً فقط ، أما سوء عاقبة مثل هذه الافاعيل فما لا يحيد عنه غالباً

« ثاني يوم الحركة استشعر الجناب العالي أن في الحادثة ما قد يمس سلطته ، وأن الضباط قد جنوا على مقامه ، فأصبح في هين عظيمين بعد أن كان في هم واحد — هم رياض باشا وهم الضباط — فبادر الى أخذ الاحتياطات لأهمها خطراً وأشدها وهو الثاني ، فاستدعى علي فهمي أمير الالاي الاول وذكره بما كان له من الزاني عنده ، وأظهر له غاية الرضى عنه ، وأمره باستدعاء جميع ضباط الالاي الى سراي عابدين ليقسموا للجناب الخديوي يمين الطاعة والفداء ، ويقسم لهم جنابه يمين التامين من كل عقوبة على ماضى

« اراد بذلك الجناب الخديوي أن يتخذ هذه الفرقة من الجيش قوة يخيف

بها ما بقي منه ، فاذا أراد أن يريح نفسه من عبد العال مثلاً ، لم يستطع ألايه أن يفعل مثل ما فعل الألاي الاول مع الضباط الثلاثة ، لوجود من يقاومه ، وهكذا لو أراد أن يبعد عرابي . ثم إذا استراح من كليهما رجع على علي فهمي وضباطه ، وبذلك ينتهي القلق ، لكن عرابي أحسن بالامر ، فالتمس من الحضرة الخديوية أن يدخل فيما دخل فيه علي فهمي من يمين الامان ، فدخل برضاء الجنب الخديو - أو على غير رضاه - في رابع يوم الحادثة وتقاسما الايمان

« إلى ما قبل الحادثة بيوم كان عرابي يخاف على مركزه في العسكرية ويخشى شماتة أعدائه من الجرا كسة مضطهديه فكان كل هم كما قدمنا ، أن يأمن علي وظيفته ويتقي من عدوه ، ومع هذا فقد رفعه طلاب تغيير الحل إلى إعداد الضباط لفعل ما فعلوا يوم قصر النيل . أما وقد هتك حرمة القانون وقلب قوة الحكومة ، وحولها عن وجهتها ، وجعل الآلة فاعلاً ، والفاعل آلة ، وذلك بما يمدجر ما في نظر كل واحد حتى إن سريره مهما عميت لا يمكن أن تغفل عنه ، ثم رأى من الجنب الخديوي تخصيصاً لعل فهمي بتقاسم اليمين معه - فقد ولت عنه السكرة ، وآبت اليه الفكرة ، ومثل له جرمه ، وشعر بأن حاكمه لا يسمح له بقوة تعلق قوته ، والنظام يقضي باهلاك هادمه ، وخيل له أن المخاطر تهدد روحه بعد وظيفته ، ولا ريب أن الروح عليه أعز ، وأن الشماتة بعدها أدهى وأمر ، وأن دخوله في يمين الخديو لا يكتفي في وقايته ، لانه لم يكن يجمل قيمة الايمان ، ولو كان اليمين (٢) عنده يلزم الخالف بما حلف عليه لما جاء هو بما نقض الايمان العسكرية التي حلفها عند استلام علم الامرة على فرقته ، فاخذ يحتاط لنفسه ولمن شاركوه في الجرم ، ويلتمس العضد من كل طرف ، ويفر من الموت في كل سبيل

« ركب به العجين طريقاً عمياً ، يخبط فيها خبط العشواء ، يسوقه الرعب ، ويقوده الوهم ، وضعف الحكومة يمدده ، والرغائب الخرقاء تساعد الى أن أودت به وبالبلاد خطيته

« أول ما أخذ به من الاحتياط أن أقام الحرس على بيته وبيوت مشاركيه ليلاً ليحموهم من الغيلة المبتذلة في أرض مصر ، علمته حادثة قصر النيل كيف يلاقي (٢٦ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

ما قد يوجه اليه من سلطان الحكومة فلجأ الى ضم القوة العسكرية اليه واخلاء الوظائف الجندية من كل من حدثته نفسه بالريب فيه ، وسلك في ذلك مسالك علمت صغار الضباط بل العساكر أنفسهم كيف يخرجون عن النظام الضابط لهم ، وكيف يتدخلون فيما ليس من شأنهم ان يتدخلوا فيه كما ستراه فيما بعد »

ثم بين الاستاذ ما طلبه عرابي باشا لاستمالة الضباط والعسكر اليه ومنه زيادة روايتهم زيادة كبيرة وصدر أمر عال بتشكيل لجنة مؤلفة من عشرين اميراً من كبار الضباط هو احدثهم للبحث في انظمة العسكرية والمدارس الحربية ورقية الضباط وتسوية احوال المستودعين ، ولكنه لم يسلك في ذلك طريق النظام بجمل ناظر الحربية هو الذي يعرض ذلك على الحكومة بل كانت العرائض تكتب في بيته او بيت احد شركائه « ثم ترسل الى الالايات ليختم عليها الضباط صغاراً وكباراً وبعض الصف ضباط ثم تقدم من قبل ضابط ألاي إلى نظارة الجهادية أو الى رئاسة مجلس النظار — فلينظر بم كان يشغل الضباط والعساكر وفيهم بصرفون أوقاتهم ؟ وكيف بذلك تموت رغبتهم في الاعمال العسكرية ويتولد فيهم حب التناول الى ما هو خارج عن الحق المحول لهم بمقتضى القانون وعوائد النظام »

ثم ذكر أن محمود سامي باشا أراد أن يتخذ سرور الضباط باعلاء مرتباتهم وسائر مامنحوه وسيلة لازالة ما وقر في انفسهم من معاداة الحكومة لهم ، وما يحرك في صدر الحكومة من الريب في مساكنهم ، فاحتفل لتلك المنحة احتفالاً باهراً في نظارة الحربية بقصر النيل دعا اليه النظار والمراقبين وأمراء العسكرية وخطب على المائدة خطبة فيما نالته البلاد من الاصلاح ونسب ذلك إلى همه الخديو وإخلاصه ، وصدق عزيمة رياض باشا وجدده ، وسائر النظار ورجال الحكومة ، وبين ان هذه النعمة لا تحفظ إلا بالشكر والطاعة والخضوع للأوامر . ثم خطب رياض باشا فيبين الفرق بين الحالة الحاضرة وما قبلها وخطب الضباط فذكر لهم ما نالوه وذكرهم بوظيفتهم من حيث هم قوة الحاكم وآلته في تنفيذ أوامره ، وقام بعدها عرابي فصديق ماقالا وقال باسان الجند والضباط انهم مقيمون على طاعة الحاكم الذي هو مصدر هذا التقدم وانهم آله

للفتنة في قبضة يده يديرها كيف شاء^{١١} — ثم قال الاستاذ
 « كل مطلع على ما قيل في ذلك الاحتفال يجد منه ان الحكومة كانت تريد
 أن تنفع الضباط بوجوب الطاعة ، وان عرابي كان يعدها بذلك بنفسه وبالنيابة عنهم
 وهو دليل على أن القاق كان لم يزل مستمراً الى ذلك الوقت ، أي ما بعد حادثة
 قصر النيل بنحو ثلاثة أشهر ، وقد كان يؤخذ من حالة عرابي عند ما كان يجيب
 رياض باشا ومحمود سامي باشا انه كان ينطق بخلاف ما يضمن ، وان حجاب
 الطائفة كان يشف عن كامن القلق والاضطراب

مسلك الخديو وحاشيته مع الضباط

« قلنا إن الجناب الخديو أصبح بعد حادثة قصر النيل يطلب الخلاص من
 أولئك الضباط وسطوتهم النافذة في جيشه ، فشفه ذلك وأخذ يدبر الوسائل لكن
 لا مع وزرائه والمسؤولين عن الأمن في حكومته ، بل مع حاشيته وبيض رجال
 معيته ومن كان يختصهم من خدمه — ذلك مهيب البلاء على كل حاكم ، ومنع الشقاء لكل
 أمير : أن يتخذ لنفسه عمالا في الخفية غير الذين أقامهم على الاعمال في الجهر . نعم
 للحاكم بل عليه أن يستشير كل من يراه أدلا لان يشير متى وثق من عقله ، واتضح
 له حسن السابقة في أعماله ، ولكن من المفروض عليه أن يكشف بذلك رجال
 حكومته الذين اتقى عليهم مقابليد أموره وفوض اليهم تدبير شؤونه في رعاياه ،
 فاذا أقروه على العمل بما أشير به عليه ورآه حسنا مضوا فيه بالاتفاق وإلا نبذوه أو
 ادخروه لوقت آخر ، أو عزل من لم ير رأيه وأقام مقامه من هو أقدر منه على تنفيذ
 أوامره المنطبقة على مصلحة البلاد ، بعد التروي في جميع ذلك والثقة بسلامة العاقبة
 فإن اختلاس نفسه شيئا من التدبير بانفراده مع بعض خاصته على غير علم من ملوكهم
 زمام الامر من الحكومة تباينت المسالك ، واختلفت الغاية ، وفسد بذلك نظام الاعمال ،
 وسقطت البلاد في الفوضى وهجرتها العثمانيون ، وتولاها القلق وظهر ضعف الحاكم ، وباد
 سلطانها — عواقب قضت بها السنة الالهية على كل أمة تضاربت فيها القوى
 وتخالفت النيات ، واستبد كل من الوازعين فيها برأيه ، ومضى على ما تزينه له نفسه ،

« لم يأخذ المرحوم الخديو السابق بذلك الاصل الذي وضعه الله نظاما لكل حكومة، بل أخذ يعمل مع بعض خاصته للوصول الى ماهمه من التخلص من سلطة الضباط في الجنود الذين تحت أمرتهم، فبدأ بعبدالعال ظنا منه انه كان أجراًهم وأشدهم نفوذاً في عساكره، وأفضى بسرّه في ذلك الوقت الى يوسف باشا كمال وكان ناظر دائرته الخاصة، فأخذ يوسف باشا على عهده موافاة إرادة مولاه

« استخلص يوسف باشا من صف ضباط ألي السودان باشجاويشاً شر كسيا ودعاه الى بيته في أوائل شهر مارس سنة ١٨٨١ وأكرمه وكلفه أن يلوي العساكر والصف ضباط عن طاعة ضباطهم فيما يأمر ونههم به اذا سيروهم الى حادثة مثل حادثة قصر النيل، وأن يقنعهم بأن ضباطهم لا يريدون بهم خيراً، فاذا صدر الأمر بتقل أمير أليهم أو غيره من كبار الضباط الى ألي آخر فعليهم أن لا يعارضوا في ذلك وأن يقبلوا كل ضابط يعين لهم. فذهب الاحق وكتب عريضة ضمنها ان العساكر والصف ضباط لا يحبون ضباطهم ولا يريدون أن يكونوا تحت قيادتهم، واذا تقل أي واحد منهم الى أية جهة فلا يعارضون أمراً من الاوامر التي تصدر بذلك، وطلب من افراد الجند ان يختموا عليها قائلان انها عريضة طلب فيها زيادة المرتبات لهم فحتم الكثير منهم عليها لانه لا علم لهم بالقراءة والكتابة، وقد ألفوا تلك العادة التي عودهم عليها رؤسائهم من ان المطالب التي يطالبها الجند من الحكومة تكتب بها عرائض ويطلب من الضباط أو العساكر إيقاع الاختام عليها، غير أن أمين أحد البلوكات اطاع على العريضة فأخبر بها اليوزباشى سليم افندي الزيدي، وسلمها اليه وهو سلمها الى عبدالعال، فقدمها عبدالعال الى نظارة الجهادية. فأوصلها الناظر الى الجناب الخديوي فامر بالتحقيق لاظهار منشأ هذا الفساد فصرح الباشجاويش بأن يوسف باشا كمال هو الذي أمره فصدر أمر الجناب العالي بفصله من نظارة الدائرة الخاصة ظناً منه ان ذلك ينفي الشبهة في ان لجنايه يداً في الحادثة، ولكن الضباط كانوا على يقين تام من ان ناظر الدائرة الخاصة لم يعمل عملاً إلا بإرادة مولاه، ويقال ان عزل يوسف باشا كان بناء على طلب عبد العال ومساعدة عرابي له « قال بعض كتاب الحوادث في تلك الاوقات ان العريضة كانت تحتوي على

التماس المساكر والصف ضباط أن يعفو الجناح العالي عنهم فيما أتوه من السير إلى ميدان عابدين يوم واقعة قصر النيل، وإن ما فعلوا من ذلك إنما كان باغراء ضباطهم لهم، ولكن ذلك تأويل للحادثة بما لا ينطبق على الحقيقة، على أنه ظاهر السخافة، فن الجناح الخديو قد أصدر أمر عفو عما وقع في تلك الحادثة عن جميع المساكر والضباط وانتهى الأمر فيها، ولم يكن يخطر بالبال أن أحداً سيؤخذ على ما فعل ولم يحدث من جانب الحكومة ما يوجب الريب في ذلك حتى ياتمس العفو، بل كانت الظواهر جميعها متضاربة عن أن الرضاء من جانب الحكومة على الجندور رؤسائه تام عام « وفي أوائل شهر إبريل سنة ٨١ حدثت حادثة أخرى، وذلك أن رجلاً يسمى فرج بيك الزين من أسراء الأليات المستودعين كان يسكن في طره بجوار مركز الألي السودان، وكان من خدم جناح الخديو السابق رجل يسمى إبراهيم أغا التوتنجي فكان من رأي إبراهيم أغا أن ياتي الخلاف بين المساكر وبين أمير الألي عبد العال بواسطة فرج بك الزيني، فاتفق معه على الأمر، وكان لفرج بك صهر يسكنه في بيت واحد فأتخذه آلة لتنفيذ ما يريد، فتعرف إلى شاويش يسمى عبد الخير فدعاه إلى فرج بك فأكرمه وطلب منه أن يكتم من التردد عليه هو وإخوانه فذهب عبد الخير وأخبر البكباشي خضر خضر بما وقع له فسمح له بالتردد وأمره أن يخبره بما يكون ففعل، واجتمع عند فرج بك اثنا عشر من صفار ضباط السودان في ليلة من ليالي شهر إبريل سنة ٨١ فأبلغهم فرج بك سلام جناح الخديو وإن جنابه يريد أن يؤمر عليهم أميراً سودانياً منهم (وهو فرج بك) وأنه متى صار الأمير منهم رقى الباشجاويش إلى بكباشي، والجاويش إلى قول أغاسي، والاونباشي إلى ملازم، ولا يتم ذلك إلا أن تعملوا على ما أشير عليكم به وموعداً للكلام في ذلك الليلة الآتية بعد العشاء على شاطئ البحر، فتأقوا ذلك منه بالقبول وانصرف عبد الخير وأقضى بالامر إلى خضر خضر فأذن له بموافاة الموعد، ومتى ظهر لهم من كلامه ما يشير إلى الفتنة فعلمهم أن يحضروه إليه، ثم اجتمعوا في الموعد في مزرعة قح على مقربة من البحر فطلب منهم فرج بك أن يرفعوا على ضباطهم شكاية من تصرفهم إلى الحضرة الخديوية لينبئ عليها ذلك التغيير، فعند ما سمعوا ذلك قام

واحد منهم وقال هذا لا يريد بنا خيراً وعلينا أن نكرهه على الوقوف بين يدي ضباطنا في الحال، فاتفقت كلمتهم على ذلك وطلبوا منه أن يسير معهم فأبى فاحتمله عبد الخير وساعده اخوانه حتى أحضروه عند خضر خضر، فكتب الواقعة بالتفصيل إلى أمير الآلاي فحضر وطلب محاكمة فرج الزيني فحوم وظهت معه رسائل من إبراهيم أغا تدل على أنه مصدر هذا الشغب، وحكم على فرج بيك بانزاله عن رتبة القائمقام إلى رتبة البكباشي وبنفيه إلى السودان، فعفا عنه الجناب الخديوي وأرسله إلى السودان موظفاً في وظيفة تليق به

تأثير دسائس الحاشية الخديوية في عرابي

« قدمنا أن سلطان الخوف ملك قلب عرابي بعد حادثة قصر النيل، ودخوله في يمين الأمان مع علي فهمي لم يخفف شيئاً من قلقه، وقد زاد في اضطرابه تكرر هذه الحوادث والوقوف على مصادرها وإن خاصة الجناب العالي هم العاملون فيها وهم لا يصدرن إلا عن رأيه السامي، فأيقن أن العفو الصادر واليمين السابقة لم يكونا إلا ألفاظاً قصد بها إلهاء وإلهاء اخوانه عما يراد بهم، وأن الانتقام على ماصدر منهم ضربة لازب، وأن جميع ما اتخذ من وسائل جاب الجند إليه، وجمع كلمتهم عليه، لا يحميه من الغيلة، ولا يؤمنه من السقوط في فخاخ الحيلة

« لهذا أخذ ينقي الجيش من كبار اضطباط الذين لا يثق بهم ويخشى أن يكونوا عوناً على تدبير كيد يكاد به، فأوحى إلى ضباط آلاي العباسية (الآلاي عرابي) أن يخالفوا أوامر البكباشي (أنفي أفندي يوسف) وأن يهينوه إذا عرضت الفرصة فتجاوزوا الحد في سوء المعاملة معه إلى أن كلفوه يوماً بتقديم استعفائه فأبى، ودافع عنه يوزباشي يسمى خليل أفندي علي، وانتهى الأمر إلى عرابي فالزم البكباشي بأن يستعفي وحوكم البيوزباشي فحكم عايه بالسجن مكبلاً بالحديد، ثم استودع مع اقضاء عايه بأن لا يعود إلى الخدمة العسكرية أبداً، وكذلك أشار إلى ضباط آلاي القاعة فطلبوا إلى النظارة عزل أميرهم حمد بك صدقي فعزل وعين بدله إبراهيم بك حيدر، وكذلك فعل ضباط آلاي الطوبجية فعزل حاكم الآلاي حسين بك وعين بدله اسماعيل بك صبري، وحصل كثير مما يماثل ذلك ولا فائدة في الإطالة بذكره،

« أفراد الجند كثير، وعدد الضباط عديد، وقوة الجناب الخديوي أعلى من قوة عرابي، وليس في الامكان لضابط مثله أو لأعظم منه أن يملك مفاتيح القلوب ومغاليقها في جند مثل هذا مهما قل عدده، خصوصاً بعد أن ألف أفراد وضباطه مناوأة أرباب الامرة فيهم، وعرفوا في انفسهم القدرة على رفع التقارير بالشكوى منهم بحق وبغير حق، وبعد أن ذاقوا لذة النجاح فيما يسمعون اليه من ذلك، فمن الممكن القريب أن الحضرة الخديوية أو الحكومة نفسها توحى إلى بعض أرباب الكلمة النافذة من الضباط العظام بل الى بعض أفراد الجند أن يوقع بعرابي وصاحبيه وأن يأخذهم في مأمنهم على غرة منهم، فإن لم يكن ذلك بازهاق الارواح كان بافساد القلوب عليهم وهم لا يشعرون، ولو اتفق الجناب العالي مع حكومته على ذلك لم لها ما أراداء ولكن كان القضاء وسوء التدبير يسوقان البلاد إلى ماصارت اليه

طلب عرابي مجلس نواب وسببه

« تلك المخاوف استلقت عرابي الى أن يخرج من حوله وقوته الشخصيتين وأن يلتبس قوة تعلو سلطته وسلطة الحكومة معاً ولها من الشأن في مراقبة أعمال الحكومة ومناقشتها الحساب على ما يصدر منها خارجاً عن الدستور أو مخالفاً للعدل مما تخشى عواقبه وتتنى مصايره، وكان يطالع في الجرائد وفي بعض الكتب المترجمة من اللغات الاوربية ويسمع من بعض المطلعين على أحوال ممالك اوربا أن مجالس النواب في تلك الممالك هي القائمة بحفظ اصول النظام، وهي القاضية على كل حاكم بالتزام حدوده، وبها محي الاستبداد في الارواح والاموال، وحفظت الحرية الشخصية في الاعمال، ولعب بعقله هذا الخيال، وظن انه لو كانت في البلاد تلك القوة النيابية، ولو أن حكومتها كانت حكومة شوروية، لكانت الشورى أو مجالس النواب عاصمات لحياته، حافظا لحقوقه في وظائفه، ومأمناً يلجأ اليه، إذا حوم طائر الانتقام عليه، ولم يعلم أنه لو كانت في مصر حكومة دستورية يقضي فيها القانون ولا يستبد فيها الرأي لا أخذ عرابي ومن معه أشد التواخذه، ولتقضي عليهم مجزاء ما هتكوا من حرمة القانون، وما أدخلوا في الجند من الميل إلى الفوضى والاستهانة بالسلطة العليا،

وانما الذي استبقى حياتهم بعد ما فعلوا تلك الافاعيل هو ضعف سلطة القانون وعجزها عن إيقاف الداخلين تحتها عند حدود أحكامه ، وميل صاحب الرأي الاعلى في الحكومة الى تلافي الامر بما ظنه أسد وأنجح مما حده النظام ، ولو كان ذلك الحاكم مقيداً بدستور أو بأراء نواب امته لامتنع عليه ان يذهب الى ما ذهب اليه ، ولقامت الامة بلسان نوابها تطالبه أن يحل اشد العقوبة على من اعتدى على حدود ما شرعته لجندها ، ولكانت قوة الامة قد قضت على قوة الجيش وأبادتها لو خالفتها ، لكن تلك معارف تعلم أن يتناول اليها فكر كفكر عرابي ومن كان معه ، وغاية ماتوهم ان مجلس النواب هو من ابناء البلاد وهم لا يسمحون بأن يقتل واحد منهم او يعزل من وظيفته وإن تعدى حدود كل نظام ما دام يطلب طلباً يظنه هو عادلاً . لهذا اراد أن يستعمل ما بيده من السلطة على الجيش في المطالبة بانشاء مجلس نواب يكون له من الحقوق ما لمجالس النيابات في اوربا ، ثم تخيل انه اذا أنشئ هذا المجلس عرف أعضاؤه ومستنيدوهم فضل من كان السبب في تشكيله فيهتمون بالمحافظة على حياته وعلى نفوذه بما يستطيعون ، بل وثق بانه يستعمل النواب كما يستعمل ضباط الجند ويسوقهم الى الغاية التي يريدونها منهم . ولم يخطر بباله انه إذا فعل ذلك فقد سقط بالقوة التي ياجأ اليها الى هاوية العدم ، فانه إذا لعب بها فقد فتح لغيره باب الاستهانة بامرها ، فيسهل عدم المبالاة بسيطرتها ، وإذا قهرها على أمر فقد مهد السبيل لمن هو أعلى منه سلطاناً في نظر الامة أن يكرهها على عكسه فتتقلب عليه بعد ان كانت له ، واذا كان المجلس تحت سيطرة الجند فما الفائدة من إنشائه مع وجود الجند ، فليستف عن بالقوة العسكرية ولتكن هي الملجأ دونه ، فكيف يتصور أن يطلب تشكيله ليكون واقعياً لم يقو الجند على الوقاية منه ؟

« هذه أحاديث عقل يذو عن فهمها ذهن شخص مثل عرابي تمثلت له جنائته في صور أغوال فاعرة الافواه محددة الانياب ، ولزمه خيالها في يقظته ومنامه ، فهو في فرع دائم يخيل له العزل والموت في كل شيء يراه ، يلتفت يمينا وشمالا فلا يرى إلا سيوفاً مسلولة ، أو حبالاً منصوبة ، ولا يسم من هو اجس نفسه إلا صيحة واحدة : الخلاص الخلاص الهرب الهرب . ولم يتمثل في مخيلته مهرب اوفى له من

طلب تشكيل مجلس النواب على الصورة التي قدرها له في نفسه
 « وشد أمله في نيل أمنيته ان أغلب أهل الطبقة العليا من الناس ككثير من
 أهل الطبقة الوسطى بهم حسون بما يدل على التلق ويشعر بالملل من ادارة رياض باشا
 لأعمال البلاد وسياسته فيما للمآرب التي بينها ، فأخذ يتحسس مافي النفوس ،
 ويتسمع ما تنطق به اللسان ، فوجد ان أمنية تغيير الحال لم تزل تجول في صدور كل
 واحد ممن كان يتابعه ، ولو قيل لطلاب التغيير أن لا سبيل اليه إلا باستدعاء جناب
 الخديوي السابق اسماعيل باشا أو استحياء اسماعيل باشا صديق لاستسهلوا طلب
 ذلك بعد مذاقوا على عهدهما مذاقوا ، فقد نسي الماضي واحتدمت الشهوة في
 القميص من الحاضر ، وككة [مجلس النواب] كانت لم تزل دائرة على اللسنة ، وفي
 وم الكثير ممن نظروا في سير الامم الاوربية ، أن علاج كل داء ينحصر في تحقيق
 معنى هذه الكلمة [تشكيل مجلس نيابي وحكومة شورية] فلما فطق عراقي وهو
 صاحب النفوذ في الجند بانه يريد انشاء مجلس النواب سمع دوي الاستحسان
 من كل جانب ، وصفت له الاحشاء بين الجوائح قبل أن تصفقه الايدي ، فاشتد
 بذلك عزمه وازداد طعمه ، وخيل له أن الامة ستكون سنده

« ولعله أن علاقة مصر بالدولة العثمانية قد لا تسمح له أن يجاهر بإيجاد شكل
 في الحكومة المصرية ليس معروفا عند السلطان العثماني بدأ بتحرير عريضة أمضاها
 هو وعدد كبير من الضباط ختمها بالشكوى من استبداد الحكم في الاقطار
 المصرية وأن ذلك الاستبداد قد أضعف الامل في الامن على الانفس والارواح
 كما عاد بالقوة على نفوذ الاجانب حتى أصبحت مصالح البلاد في أيديهم وتحت
 تصرفهم وكاد اسم [الدولة العثمانية] ينسى ، وأشرفت علاقاتهم بمصر على الاندثار
 والانحفاء . فورد له الجواب من بعض رجال [المابين] يحمل اليه تحية الخليفة
 العثماني ويحكي له أقاصيص رضاه السامي عن كل ما يجري في مصر لمقاومة نفوذ
 الاجانب في ادارتها ومصالحها

« أخذ عراقي بعد ذلك يمهر بطلبه هذا وخاطب رياض باشا في شأنه فإياه
 عليه ، فأخذ يخاطب بعض العلماء ويكشفهم بمقصده من ثلم النفوذ الاجنبي ورد ما

صلبته أيدي الأجانب إلى أربابه ، وفي أثناء ذلك كان يصور لهم السلطة الأجنبية الحاضرة إذ ذاك كأنها نسر حوم في جوها لاختيار خير الفرائس لينقض عليها ، ثم اختار من بينها الدين والعوائد الموروثة عنه لينشب مخالبه فيها ، وإنه لو دامت سياسة رياض باشا في منهجها لقضي على الدين وسننه ، وفي خلال هذا كان يزين لكل ذي شهوة منهم ماتميل إليه نفسه ويمنيه بذيله إذا تغيرت حياة الحكومة الحاضرة ، فوجد من [حضرات المشايخ] وهم على ما نهض من السذاجة والبعده عن معتك السياسات اصفاء لقوله وتأييداً لرأيه ، وكذلك كان يخالط بعض الأعيان ومشايخ العربان ويقرر لكل من لاقاه أن لا سبيل لمبتغاء إلا بتأييده في طلب مجلس النواب فيجد ذهاناً مقتنعة ، وارادات مستسلمة ، وذلك لأن القوة في يده ولأن نفوسهم تفتن منتهى راحتها في التغيير على أي صورة جاء

« استحثه الحرص على إدراك المطلب أن يفضي به إلى ضباط الجيش وأن يثير في أحلامهم الضعيفة تماثيل الأمان من العزة والسلطان ، والصعود إلى أعلى مراقب الرتب والمناصب ، وأن كل ذلك لا ينال إلا بمجلس النواب ، ولم يكنه أن يكون ذلك مطالباً لهم يشتهونوه ويساعدون عليه عند القيام للالزام به ، ولكنه كان يطلب إلى بعض الضباط أن يكتبوا به عرائض يبينون فيها ضرورة إنشاء المجلس وإنما يقام الدليل على تلك الضرورة بالظن في هيئة الحكومة وبيان عدم كفايتها في كفالة الأمن على الأنفس والأموال والأعراض ، وبينما هو في ذلك إذ أحس الجناب الخديوي بسعاه وعرفه بعض حاشية جنابه الكريم ، وبعد قليل ظهرت مسألة تسمى [مسألة التسعة عشر ضابطاً]

مسألة ١٩١ ضابطا

« كتب البكباشي عبد الله أفندي الكردي تقريراً أمضاه هو وضابط [قول أناسي] ستة عشر من اليوزباشية وملازمان وقدمه إلى ناظر الجهادية ومحصل ما فيه الشكوى من تصرف عرابي ومحالفيه وتعديهم حدود القانون واشتغالهم ببيت الدسائس بين ضباط الجيش وحماهم على تقديم عرائض للجناب العالي يطالبون فيها فصل وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس للامة وزيادة عدد الجيش والتصديق

على القانون الجديد، وان عرابي قد صرح لهم بما معناه «ان القوة في يدينا، والعلماء والاعيان ومشايخ العربان يعضدوننا ولا مندوحة للخديو عن اجابة طلبنا، فان لم يفعل خلعهنا واقمنا حكومة جمهورية مستقلة» فلما وقف الناظر على ما في التقرير أمر بتشكيل مجلس عسكري لتحقيق ما زعمه الضباط فقالوا انهم لم يكتبوا إلا ما سمعوا وزادوا على ذلك ان في الجيش كثيراً من النظام والخيانات وطلبوا تحقيقها، ثم قدمت إلى المجلس العسكري تقارير من ضباط الالايات تنسب فيها تهم كثيرة إلى هؤلاء الضباط الواقفين موقف الخاصة مع عرابي وجماعته، وانتهت المحكمة بآيات انهم كانوا مدفوعين من ابراهيم أغا التنجي على كتابة ذلك التقرير فحكم عليهم بمقوبات شديدة قابلاً الجناب الخديو بعفو الكريم غير أنهم فصلوا من الجند « وفي أثناء هذا الاضطراب كان محمود سامي ورياض باشا خطبان فيما يجب على الجند ان يؤدوه للحكومة وعرابي يجيها بتسديق ما قالوا وينادي بان الجيش آلة الحكومة المنفعة : كلا الطرفين خادع مخدوع :

« في حوالى تلك الايام كان قيام ضباط الالاي الرابع (الاي عرابي) لطلب انفصال (ألني بك) البكباشي لانه المانع للالاي من الالايين الآخرين يوم حادثة قصر النيل فحموله على الاستمعاء فاستغنى وأحيل على الاستيداع وكذلك فعل ضباط الالاي القلمة في طلب عزل أميرهم محمد بيك صدقي فعزل وعين بدله ابراهيم بيك حيدر، وتبعهم ضباط الالاي (الطبيعية) في طلب فصل قائدهم حسين بك ففصل وعين بدله اسماعيل بيك صبري — كل ذلك ليستوثق عرابي لنفسه ولياً من على ان القوة الجندية بأسرها معه

« على ان ذلك لم يثمر عزيمة المحاصرين من حاشية الجناب العالي فقد قيل ان بقية مما ترك جناب الخديو الاسبق اسماعيل باشا من الجواري السود كانت تحت تصرف الخاصة من الخدم فاخذوا يزوجونهم ببعض المساكرو والضباط من الالاي السودان، وكان اغوات سراي الاسماعيلية يدعون أولئك المساكرو ويمنحون الواحد منهم نقوداً لا تعطى عادة لامثالهم بحجة ان ذلك مساعدة لهم على معيشتهم مع زوجاتهم عتيقات السراي ولكن المساكرو كانوا يقولون لضباطهم ان الاغوات يفرقونهم

بقتل رؤسائهم فيهبج غضب الغباط وتضفف ثقتهم في الامن على أنفسهم ويشتد الرعب في قلب عرابي ومن معه وسواء صح قول المساكر أو لم يصح فآثره في ازدياد القلق والاضطراب لا رية فيه والاشاعات التي تتولد عنه لا تقل قيمتها عن الحقائق الثابتة وإنما وقود الفتن ما يقال لا ما يفعل

» في ٢٥ يوليو سنة ١٨٨١ حدث أن عجلة (عربة) لاحد تجار الاسكندرية يقودها قائد أوربي كانت تمر في الشارع المؤدي الى سراي رأس التين فصدت جنديا من عساكر الطبية فتقتله فاجتمع ردهقه على ان يحملوه الى السراي حيث يقيم الجناب الخديو ويلتمسوا منه الاهتمام بمعاقة الجاني فحماله مخلصين في ذلك رؤساءهم وساروا به في ضجة وولولة، وصاحوا بطلب الانتقام من القاتل، فكبر الامر على الخديو ورآه تطاولا مخلفا لا داب الجندية - وله الحق فيما رآه - فامر المساكر بالانصراف فانصرفوا ظانين ان شكواهم قد قبلت، وبعد ايام صدر الامر بتشكيل مجلس حربي لمحاكمة وحكموا وصدر الحكم على الجندي الذي بدأ بدعوة رفقائه الى الاشتراك في حمل الميت الى السراي بالاشغال الشاقة مدة الحياة وحكم على رفقائه وهم ثمانية بالاشغال الشاقة مدة ثلاث سنوات، وبأن يقضوا مدة العقوبة في السودان ثم يكونوا بعد ذلك من أفراد الجند في الاقطار السودانية. ثم قدم الحكم الى ناظر الجهادية فرفعه الى الجناب الخديو فامر بانفاذه وسبق المذنبون الى السويس ومنها الى سواكن ثم الى داخل البلاد السودانية

» بعد هذا كتب عبد المال حلمي أمير الفرقة السودانية تقريراً طويلاً يشكو فيه ما أصاب هؤلاء المساكر من قسوة الحكم ويبين قلقه من الحوادث التي تجري في آلايه والفتن التي لا تنقطع ولا تجف ينابيعها واطهر استغرابه لشدة الحكم في حادثة مثل هذه مع مقابلة الجانبين بالعفو فيما هو أعظم منها واهم كحادثة فرج الزيني وغيرها)

» قدم التقرير الى ناظر الجهادية، رفعه الناظر الى الحضرة الخديوية، اشدد كدر الخديو لذلك وعده جرماً لا يقل عما اجترمه حاملوا القتل وملتمسو عقوبة القاتل، فاستدعى الناظر من القاهرة بالتلغراف فاجتمعوا في حضرة تودا ولو في الامر

استعفاء محمود سامي من نظارة الجهادية واصرار رياض باشا على عدم الاستعفاء ٢١٣

بوقرر (أي جنابه) وواقفه الاغلب من رجال النظارة على أن بقاء محمود سامي في نظارة الجهادية مع ميله إلى عرابي ومن معه هو منشأ هذه الفوضوية، وأن لا سبيل لايقاف سير هذا الداء ورد المتطاولين على السلطة العليا إلى الحد الذي رسمته لم وظائفهم الا عزل محمود سامي ، فقدم استعفاءه قبل في الحال ، وعين [داود باشا يكن] ناظرا للجهادية وأعقب ذلك صدور أمر آخر بعزل [أحمد باشا الدره ملي] من ضبطية المحروسة وتعيين عبد القادر باشا مأمورا لها

« هنا أذكر ما أخبرني به بعض الثقات وهو أن من أسباب ميل الجناب الخديوي إلى استعفاء وزارة رياض باشا أنه كان ينتهز فرصة تعيين داود باشا يكن ناظرا للجهادية لمكان المصاهرة الجديدة، وأنه لما لم يتمكن من ذلك في حادثة عابدين لم يزل يتخذ له الوسائل حتى تهيأ له أن يتقدم عزم عليه من هذه الحادثة التي لا تتمتاز في شيء عما سبقها من أمثالها ، ومع ذلك فقد أظهر جنابه شدة قلقه من رياض باشا وأشيع في الاسكندرية بل وفي القاهرة أنه قدم استعفاءه لتحقيق من عدم رضى مولاه عنه ، وعلم رياض باشا بعد انصرافه من سراي رأس التين بضجر الخديوي من بقاءه على ما أخبره به بعض الأوربيين ، فرجع إليه وسأله في ذلك فأكده أنه لا صحة لما سمعه ، وأنه في المحل الأعلى من رضاه ، وظاهر رئيس النظارة اقتناعه بما سمع مع قيام آلاف من الأدلة على ما يخالفه

« من المبعث أن يقال أن رياض لم يكن يحسن بوجد الخديوي عليه ورغبته في اعتزاله للسلطة ولكن لذة المنصب والشغف بالناس وثقة دولة الرئيس بنفسه وظنه أن لا صلاح للبلاد الا اذا كان هو صاحب سياستها والقائم بتدبير شؤونها ، كل ذلك كان يفاط احساسه ويدافع وجدانه ، ويلتمس له العذر في البقاء ويصرف نظره عن أدلة الانحراف عنه على قوتها ، ويقبل به على موهبات الركون إليه على ضعفها ، ولو حكم عقله وأنصف نفسه وبلاداه لا ينصرف عن مقام السلطة مختاراً قبل أن ينصرف عنها مكرهاً ، فقد كان من المحتمل أن لا تبلغ الفوضى بالبلاد مبلغ ما وصلت إليه ، أو لم يضطر الضباط إلى حشد الجنود في ساحة عابدين لا كراهه على التنازل عن رئاسة النظارة

« أراد داود باشا أن يقوم ما اعوج من النظام او يرمم ما تقوض منه فأخذ يصدر الاوامر الشديدة إلى الالايات يلزم بها أمراءها وضباطها كافة بأن لا يفارقوا مراكزهم العسكرية، ويحظر بها على جميعهم ما اعتادوا عليه من الاجتماع في المنازل، والتردد على المحافل، ويطالبهم بإبقاء الاعمال "مسكرية حقها من الدقة، وأمر بإنشاء مكاتب في مراكز الالايات لتعليم القوانين العسكرية ظناً منه بأن ذلك يذكر الضباط والعساكر بأحكام النظام فيقبلوا على طاعته، وتأخذهم الرهبة من مخالفته، وكان يذهب بنفسه إلى ثكنات العسكرية ليلاً ونهاراً ليراقب تنفيذ تلك الاوامر. واهتم سعادة مأمور الضبطية بمعرفة حركات ضباط الجيش خصوصاً الرؤساء منهم وهم عبد العال وعرابي واحمد عبدالغفار ليخبر ناظر الجهادية بما يكون من أمرهم خطوة بخطوة، فأرسل العيون والجواسيس على بيوت الرؤساء منهم وكبار الضباط ولم يخف شي، من ذلك على عرابي ورفقائه

القوة التي اعتمد عليها ناظر الجهادية ومأمور الضبطية

« ما القوة التي كان يستند إليها ناظر الجهادية في إصدار اوامره ومأمور الضبطية في بث جواسيسه؟ هي القوة التي يشير إليها اسم الوظيفة (ناظر جهادية . مأمور ضبطية) وهي من القوى المعنوية التي لا يظهر أثرها إلا بعد اليقين بأن قوة الجند من ورائها عند التواء الامور عليها، كسائر الوظائف في الحكومة لا تخضع الأنفس للقائمين عليها، إلا ومثال القوة القاهرة متمصب أمامها، وماتلك القوة القاهرة إذا لم تكن سلاح الجند؟ فان كان الجند وهو حفاظ الوظائف في كل حكومة خصماً لها أصيت بالشلل كما يصاب به المخ تمزقت عنه عظام الجمجمة . غفل كل من ناظر الجهادية ومأمور الضبطية عن هذا الاصل المعروف عند الامم كافة، وظننا ان اسم الوظيفة له من السلطان في إنفاذ الاوامر ما يغلب قوة الجيش ويخمد نيران مدافعه وبنادقه، وربما صار هذا السهو منها مثالا حذا حذوه كثير من السذج في مصرفياتنا آخر من الزمان . نعم قد لا يبالى بقوة الجيش متى استعصى على النظام إذا قامت الامة بأسرها للمحاربة عن دستورها، وهمت بمعالجة جسمها بقطع ما فسد من أعضائها واستعاض الحاكم بقوة الرعية عن قوة بعض أفرادها (وهم الجند) وأخذ لذلك من

الوسائل ماهو أشد أثراً من كتابة المنشورات ، ونشر الوريقات ، ووسوسة الجواسيس ، وحشد الاخبار يترام كاذبها على صادقها ، ويغلب باطلها على صحيحها ، ليكافح بذلك حشد الجيوش وصلصلة السلاح

« لكن الأمة كانت لا تزال في النقاهاة من مرض التفرق وشلل الارادة (وأرجو أن تكون اليوم قاربت الشفاء) فهي ان حكمت على متمرد فانما تحكم أفذاذاً ، كل يصدر حكمه لصديقه همسا يرجو أن لا يسمعه ثالث ، وقديماغ الاغلب فلا يقضي قضاء إلا في نفسه ، وإن جهر بالقول لم يبلغ من نفوس السامعين إلا مجرد استحسان ، قد لا ينطق به لسان ، وإن نطق كان على طريقة القائل : فرما اجتمعت أصوات ، وعلت ضوضاء ، ولكن كل في مكانه لا تتحرك قدماء ، ولا تمتد يداها ، وأول صيحة من مدفع تخرس لها جميع الالسن وتخفت جميع الاصوات ، ويتبدل الزئير بالانين . ذلك شأن كل أمة لم تقوم نفوسها بالترية السليمة . ولم تثقف عقولها بالمعارف الصحيحة ، ولم يبلغ بها حب وحدتها المليدة أو الشعبية الى حد أن يسهل عايتها بذل المال والروح في سبيل صيانتها . كل أمة تفرق المطامع بين أفرادها ، ويصرف كل منهم شأنه عن شأن مجموعها . ويلهبها العاجل عن الآجل . ويذهب بها الحاضر عن المستقبل . فلا سبيل للاعتماد عليها في دفع غائل ، ولا في مقاومة صائل ، وعلى ولي أمرها أن يبتدىء فيها قبل كل عمل بهذيمها واصلاح طباعها ، حتى تنشأ فيها اثقة بنفسها ، وتعلم منزلتها في نظرها ، ويغلب لديها أمر عامتها على أمر خاصتها ، عند ذلك تكون ينبوع سعادته في السلم ، وسياحه المنيع لصد عدوه في الحرب

« كان الجند طوع عرابي ورققائه لا تحت طاعة الناظر ولا المأمور ، وكانت الامة على حالها التي ذكرنا طالبة لتغيير الحال كما قدمنا ، فالجند والامة كلاهما كانا في جانب عرابي . أرقام المنشورات وأشباح الجواسيس قامت عند عرابي واخوانه مقام انذار لهم بسوء المصير ، فاشتد جزعهم ، فاستجمعوا كل قواهم لحفظ أرواحهم ومناصبهم . وكانت الليالي ليالي رمضان تكثر فيها الزيارات ، وتيسر الاجتماعات ، وتنتشر الاشاعات ، فازداد عرابي ومشايعوه من الحراس تحفظاً مما عساه يقع من الغيلة ، وواصل اجتماعه مع اخوانه ومع كثير من أعيان القاهرة ، وتابع

وسائله الى بعض من يظنهم على ولائه في الاطراف، وهو في كل ذلك يدعو إلى تشكيل مجلس النواب، لتوهمه انه الوسيلة الباقية لاتقاء شر الحكومة، وكان يتردد في أغلب الاوقات على منزل سلطان باشا ويستمد منه المعونة بالقول والفعل « سلطان باشا لم يكن من أغبياء الاغنياء في هذه البلاد، بل كان فيه شيء من الفطنة يزينه الفنى وتعلي قيمته مظاهر الثروة، كان يفهم ما يقال، ويرضى السامع اذا قل. ولكن هبهات أن يكون له بصر بالعواقب أو علم بمصائر الانقلاب في الحكومات وتغير الاشكال عليها وما يصيب الأمم في مجاري الحوادث من تقدم وتقهقر — أفادته مناصبه السابقة أيام اسماعيل باشا شهرة وعلو صيت — حافظ على مكانته في النفوس ببسطة في الكرم امتاز بها على أمثاله، فكان ينتاب منزله الاعيان والعلماء وأرباب المناصب، وكان يمد في نفسه لهذا علواً على أقرانه. كان مثله مثل الكثير من الاعيان في استئصال يد رياض باشا فيما استأثر به من السلطة، وفي استنكار تلك البدع التي جاء بها في وزارته خصوصاً ابطال السلطة الشخصية، والأخذ على يد الاقوياء، أن تطاول الى استخدام الضعفاء رغم إرادتهم، ووضع حدود يلزم الاعيان وأهل الثروة بالوقوف عندها في علاقتهم مع غيرهم فكان ممن يأنم لهذه القيود ويعدها من الضربات التي أصيبت بها البلاد على يد رياض باشا وشركائه. توسم الفرج والخروج من هذه المضايق والوصول الى مقام تعلو فيه كنيته على كلمة مثل رياض باشا، ويتمكن فيه من أن يعيد نفوذه الشخصي فيمن دونه من عامة أهل بلاده، عند ما لاحته بوارق الثورة ولامع في عينه شرر الفتنة — عندما أحس ان عراقي يتلصص المعين على انشاء مجلس النواب لوقاية روحه ومنصبه — ظن وصدق ظنه ان عراقي لا بد أن يصل الى ما يريد يوماً ما فن الحزم أن يتفق معه في البداية، ليكون له النصيب الاشراف من الفائدة في النهاية، فكان أول من مد يده اليه وواثقه على التعاون في طلب مجلس الشورى، وأخذ سلطان باشا يستنزل بعض أعيان الوجه القبلي والبحري في رأيه ويحثهم على الاجتماع لتأليف وفد يطلب الى رياض باشا ويأج عاياه في الطلب أن يستصدر من الجبابر الخديوي أمراً باستدعاء مجلس النواب ونحويله حق النظر في وضع قانون يضمن له البسطة في

حقوقه حتى يكون كمجالس النيابات في أوروبا ، ثم يكون ذلك دستوراً للبلاد تمضي عليه حكومتها ، فانصاع له بعض وعارضه آخرون ، ولم يتم له تأليف ذلك الوفد ، ولم من الحزم أن يتولى الطلب بنفسه من رياض باشا خشية الخيبة ، فانقلب إلى عراقي وحالفه على أن يجمع له أعيان القطر من الوجهين البحري والقبلي وعلماءه على تعضيد طلبه متى انفصل رياض باشا ، ثم بارح سلطان باشا مدينة القاهرة وتوجه إلى المنيا في أواخر شهر رمضان سنة ١٢٩٨ وقت اشتداد الاضطراب وتلاطم القوى

« كنت معروفا بمناوأة الفتنة واستهجان ذلك الشعب العسكري وتسوؤة رأي الطالبين لتشكيل مجلس النواب على ذلك الوجه وبذلك الوسائل الحق ، وكنت أذهب لزيارة سلطان باشا أحيانا فأري من لدن الباب عراقي وبعض رفقاته جالسين معه ورؤسهم بادية من النوافذ ، فاذا استأذنت للدخول وسمعوا اسمي أسرعوا بالفرار من محل الاستقبال العام إلى محل آخر ليختفوا ثم ينصرفوا . مررت بييت (طلبة) ثالث يوم عيد الفطر فسمعت جلبة ورأيت بعضاً من صغار الضباط يحولون من جانب إلى آخر من البيت ، فدخلت للزيارة فوجدت عراقي وجمعاً غفيراً من الضباط ، ووجدت معهم أحد أساتذة المدرسة الحربية (ل بيكس) وكان من الناقمين على الوزارة لأمر لا يستحق الذكر ، فجلست واستمر الحديث في وجهته ، وكان موضوعه الاستبداد والحرية ، وتقييد الحكومة بمجالس النواب ، وان لا سبيل للأمن على الأرواح والأموال إلا بتحويل الحكومة الى مقيدة دستورية ، فأخذت طرفاً من البحث ، فأقننا على الجدال ثلاث ساعات كان عراقي والاستاذ من طرف ، والكاتب من طرف ، هما يقولان : ان الوقت قد حان للتخلص من الاستبداد وتقرير حكومة شوروية ، والكاتب يقول : عاينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض سنين ، وان نحمل الحكومة على العدل بما تستطيع ، وان نبدأ بتزجيتها في استشارة الاهالي في بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات ، ويكون ذلك كله تمهيداً لما يراد من تقييد الحكومة ، وليس من اللائق أن نقاضي البلاد بأمر قبل أن تستعد له فيكون من قبيل تسليم المال للناسي ، قبل بلوغ سن الرشد يفسد : المال ويفضي إلى الهلكة ، وختمت قولي بأنه لو فرض أن البلاد مستعدة لان تشارك الحكومة في إدارة شؤونها

(٢٨ ج ١ تاريخ الاستاذ الامام)

فطلب ذلك بالقوة العسكرية غير مشروع، فلو تم للجند ما يسعى اليه ونالت البلاد مجلس شورى لكان بناء على أساس غير شرعي فلا يلبث أن يهدم ويؤزل، وأرى أن هذا الشعب قد يجر إلى البلاد احتلالاً أجنبياً يستدعي تسجيل اللعنة على مسببه إلى يوم القيامة، فتبسم (عرابي) ابتسام الساخط وقال: أبذل جهدي في أن لا أكون مورد هذه اللعنة، وليس الجند هو الطالب لتشكيل مجلس النواب وانما هو مؤيد لطلب الاعيان ووجوه البلاد. فسأله: وعلى من تعتمد؟ ومن أخذت الميثاق على ذلك؟ فهمس إلي بصوت لا يسمعه إلا ثالثنا: أن سلطان باشا قد عاهدني على أن يجمع أعيان القطر من الوجهين ليتقدموا بالطالب متى سقطت وزارة رياض باشا، ثم انصرفنا «بعد أن استوثق عرابي لنفسه من سلطان باشا وأيقن بما وعده أن أهالي البلاد وأرباب الكلمة فيها سيكونون معه، وبذلك يتحول عمله من عصيان غير مشروع إلى طاعة للأمة غير ممنوعة. فقد تخيل أن يضع نفسه ومن معه من الضباط موضع الآلة المنفذة لرغبة الأمة، كأن الأمة هي التي استعملتهم، فالثورة ثورة الأمة لا ثورة الجند، وكل ما تأتي به الأمة في سبيل حريتها وتقوم ما اعوج من حكومتها لا يصادف منكراً ولا يستوجب عقاباً. هذا هو الحجاب المرق الذي كان يسدله على أعين الناظرين إليه، والحجة الساقطة التي يقيمها للناقدين عليه، وبعد أن استحكم هذا الخيال من نفسه أخذ يترقب الفرصة لجمع رجاله لالزام رياض باشا بتقديم استعفائه، وكان يصل ليله بنهاره في التفكير والتدبير والمشاورة مع إخوانه، وكلما عقدوا عزمًا على شيء عرض لهم ما ينقضه

« كل ذلك والجناب الخديوي بالاسكندرية وهم ينتظرون عودته، وكان يزيد قلقهم ما كان يبلغهم من أن الجناب الخديوي استمال ألي الحرس وأميره علي فهمي وعاهده على أن يكون قوة تقضي على من يخالف الأوامر من بقية الولايات، وقد كانت الاشاعات في ذلك لا تخلو من صحة، فقد أخبرني المرحوم علي باشا مبارك يوم مجيئه من الاسكندرية في ممية الجناب العالي أن اقتراق ألي الحرس عن بقية الولايات واستعداده لتنفيذ ما يصدر إليه من الأوامر مما لا ريبه فيه، وأنه عما تخيل سيؤخذ في تقرير أمر فاصل تنحسم به هذه الفتنة وتباد به جرائمها

« عاد الجناب الخديوي من الاسكندرية في أوائل شهر شوال وبعد عودته بأيام تحلى ذلك الامر الفاضل الذي سمعت خبره من علي باشا مبارك ، فاذا هو من غرائب التدابير ، بل من عجائب الالاعيب ، ذلك أن الحضرة الخديوية بعد ان استألت علي فهمي ورجاله وأعدتهم لمغالبة من يستعصي عليها من سواهم ، استألت أيضا أمير الالاي الخامس الذي كان مقيما في الاسكندرية بجهة [باب شرقي] فأرادت أن ينقل الالاي الثالث الذي كان مقيما بقاعة العزب بالقاهرة الى الاسكندرية ، وان يؤتى بالالاي الخامس الى مصر بدلا عنه ، وبذلك يكون في مصر ألابان تحت طاعتها ، والله أعلم ما ذا أرادت الحضرة الفخيمة بعد ذلك ان تفعل بهذين الالابين بعد استقرارهما في مصر

« هل كان الخديوي يريد أن يصدر أمراً بالقبض على رؤساء الفتنة فاذا قامت جنودهم لحمايتهم صدر الأمر بالحرب والقتال بين الطائعين والمعاصين ؟ ما أظن أن ذلك خطر بالبال ، ولو مر ذلك بذهن جنابه لسهل عليه حسم الفتنة ثاني يوم واقعة قصر النيل ، ولكنها هواجس كانت تجول في الازهان ، ثم تصدر عنها حركات وأعمال لا يدري صاحبها نفسه ما الغاية التي يريد منها ؟

« ولما استحکم اليأس من نفس عرابي وظن ان الخطر حائق به كتب هو وجماعة من الضباط عريضة الى السلطان يشكون فيها من الظلم ويلتمسون ارسال مأمور خاص لتحقيق ما يشكون منه » وكان ذلك قبل حادته عابدين بثلاثة أيام

حادثة عابدين

« أصدر ناظر الجهادية أمرين في يوم واحد أحدهما الى ابراهيم بيك حيدر أمير الالاي الثالث الذي كان يقيم في القلعة بالتوجه الى الاسكندرية ، والآخر الى حسين بيك مظهر أمير الالاي الخامس ان ييارح الاسكندرية الى القاهرة ليحل محل الالاي الثالث » ثم أصدر أمراً الى أمير الالاي الثاني أن يرسل من الضباط من يستلم الحافر من ضباط ألابي القلعة عند سفرهم ، فعند ما وصل الامر الى ابراهيم بيك حيدر وعرفه الضباط أسرع اثنان منهم الى عرابي وأخبروه به ،

ففرع لذلك هو ومن معه وهالم الامر وتمثل لهم سوء العقبي، وأيقنوا ان في ذلك القضاء عليهم. فأمر عرابي أولئك الرسل أن ينادوا في ضباط ألاي القلعة بعدم التسليم وبالإقامة في مواقعهم وان يمسكوا من يأتي اليهم من الألاي الثاني للاستلام ففعلوا واجتمعت كلمتهم على ذلك. وعند ما حضر ضباط الألاي الثاني كتب محمد أفندي الرملوي ومحمد أفندي السيد الى عرابي بما حصله ان اربع بلوكات حضرت لاستلام مواقع الألاي. وأمتعة ابنائكم قد ربعت فاحضروا بنصف الأيكم والأفحن قائمون. أما النصف الآخر فيبقى تحت قيادة محمد أفندي الزمر الى المعسكر ثم يحضر عند ذلك كتب عرابي «إلى نظارة الجهادية يفتشها بان جميع الألايات ستكون في ميدان عابدين في نهاية الساعة التاسعة من ذلك اليوم وهو يوم الخامس عشر من شهر شوال سنة ١٢٩٩ بعد ان كتب الى جميع الألايات ان توافيه في الموعد وكتب إلى الجناب الخديوي يحيطه بذلك علما. وإلى فواصل الدول يؤكد لهم ان الغاية من جبهة الجند داخلية محضة لطلب أمور عادلة فليكونوا مطمئنين على أرواح رعاياهم وأموالهم وأعراضهم

« أرسل الجناب الخديوي رضا باشا ليسأل عرابي عن السبب في اجتماع العساكر بساحة عابدين فأجاب عرابي أن للجند مطالب يريد انفاذها. فجاء رضا باشا وعرض الامر على الخديوي فأرسل طه باشا ليطالب إلى عرابي أن يسكن ويرجع عما عزم عليه ويحذره العاقبة. فكان الوقت قد حضر فقام الألاي بمحضرة طه باشا وقام معه ألاي الطبعية. أما الجناب الخديوي فقد توجه بنفسه إلى ألاي الحرس (الألاي الاول) واخذ ينصح الضباط ويدكرهم بأنهم أبناءه وحرسه الخاص وينذرهم بمواقب مثل هذه العصبية العصبية الجاهلية فصاحوا جميعاً: نحن جميعاً فداء لولي نعمتنا. فعند ذلك امر جنابه أمير الألاي أن يوزع العساكر داخل السراي وأن يقيمهم على نوافذها ليقوها من الهاجين عليها. ثم استصحب رياض باشا وذهب إلى القاعة. وعند وصوله طلب الضباط وسالمهم عن الحامل لهم على مخالفة الامر الصادر اليهم فأنكروا المخالفة فالتفت إلى أمير الألاي إبراهيم بك

حيدر يستنهم منه فأجابه أن [فوده بيك حسن] هو الذي أغرى الضباط بالمخالفة ومنعهم من التسليم وكان فوده بيك على القرب من رياض باشا لجذبه من طوقه وقال له : مثلك يقاوم أوامر الحكومة ويمنع من تنفيذها ؟ وبينما هم في الكلام اذ ضرب أحد البروجية نوبة [سنكي ديك] فأسرت العساكر الى تركيب الحراب على البنادق وأحاطوا بالخدو ورئيس النظار وصاحوا « أطلق البكباشي » فأمر الخديو بتركه وأخذ يخاطبهم : ألسن خديويكم ؟ ألسن ولي أمركم ؟ هل تأخر لاحد منكم راتب ؟ أو نقصت له مؤنة ؟ أو حرم من حقه في ملابس أو نحوه ؟ فلم جهرتم بالعصيان وخالفتم أوامري ؟

« فأجابوه بقولهم نحن جميعاً مطيعون لا وأمر ولي نعمتنا ولكن قيل لنا ان الغاية من الامر بسفرنا هو اغراقنا في البحر عند مرورنا فوق كوبري كفر الزيات فأسف الخديو لذلك وانصرف على ان يذهب الى العباسية لمنع عرابي من المجيء الى ميدان عابدين فبلغه وهو في الطريق ان الالاي قد سبق إلى ساحة السراي فرجع هو ورياض باشا فوجد الساحة غاصة بالعساكر من كل فريق فدخلا من الباب الشرقي

« واول من حضر من الالايات الالاي السواري تحت قيادة احمد عبدالغفار ثم الالاي عرابي والالاي الطوبجية تحت قيادة اسماعيل بك صبري ثم الالاي الثاني تحت قيادة البكباشي لان أميره محمد بيك شوقي أبي أن يحضر معه ، ثم الالاي عبدالعال ، وهو الالاي السودان تحت قيادة امير الالاي ، وفرقة المستحفظين يقودها ابراهيم بيك فوزي واجتمعوا جميعاً في مبتدأ الساعة التاسعة حسبما كتب عرابي « وصل عرابي يقود الالايه ومعه الالاي الطوبجية تتخلل بطاريات مدافعه فرق العساكر وهو ممتط جواده شاهر سيفه ويحيط به عشرة من ضباطه شاهري السيوف كخرس له . أنباء بعض الضباط أن علي فهمي قد أدخل عساكره في السراي للدفاع عنها إذا دعت الحال وقد ادخر كمية وافرة مما يحتاج اليه لذلك فاستدعى علي فهمي واشتد في توبيخه ورماه بالخيانة فاعتذر بأنه فعل ما فعل إدارة

منه للخديو وتديرآ الحيلة سياسية، ثم أمر بالنداء في الاي بالانزول فنزلت العساكر جميعاً واصطففت في الساحة مع بقية الجنود

« كانت قناصل الدول ومستشاروا الحكومة ونظارها قد حضروا الى سراي عابدين وعند مارأى عرابي أن الجيش قد اجتمع بأكله ماعدا ألي القاعة فإنه بقي في مقره بأمره — أمر باقامة الخفر على أبواب السراي لمنع من يدخل اليها ومن يخرج منها

« أشرف الجناب الخديوي على العساكر وأمر باحضار عرابي فحضر راكباً جواده سالاسيفه محفوظاً بضباط السواري بحرسونه فأمره باغماد سيفه والنزول الى الارض وابعاد الضباط عنه ففعل ثم أخذ يخاطبه « ألم أك سيدك ومولاك ؟ أأست الذي رفيتك الى رتبة أمير ألي ؟ » فيجيبه عرابي « نعم » ثم سأله « لم حضرت بالجند الى هنا ؟ فقال لطلبات عادلة ، وهي عزل وزارة رياض باشا ، وتشكيل مجلس النواب ، وزيادة عدد الجيش ، والتصديق على قانون العسكرية الجديد ، وعزل شيخ الاسلام (الشيخ العباسي) فقال الخديو كل هذه المطالب ليس من شأن الجند أن يطلبها فسكت عرابي ولم يجيب بشي .

« ثم أشار القناصل على الخديو بالرجوع إلى داخل السراي خوفاً مما عساه يعقب هذه المخاطبة مما لا يحمد ، ثم تولى [المستر كوني] [المستشار الانكليزي في المرافقة الثانية وقنصلا انكلترا والنمسا أمر المخابرة مع عرابي في مطالبه ومطالب الجند فقال المستر مالت قنصل انكلترا لمرابي ان عزل الوزارة من خصائص الخديو وطلب تشكيل مجلس النواب من حقوق الامة لا الجند ، ولا ضرورة لزيادة عدد الجيش فإن البلاد آمنة مطمئنة وليس في الامم من يريد بها بسوء ، أما التصديق على قانون العسكرية فسيكون بعد اطلاع الوزراء عليه ، وأما عزل شيخ الاسلام فقد يحصل بعد بيان أسبابه »

« أجاب عرابي يا حضرة القنصل ان ما يتعلق بالاهالي من هذه المطالب لم أنهض اليه الا بالنيابة عنهم فقد أقاموني نائباً عنهم في طلبه وتنفيذه بواسطة هذه

العساكر الذين هم أبناؤهم وأخوتهم، واعلم أننا لانفارق هذا المكان ما لم تنفذ جميع تلك الرغائب التي أبديتها

« قال القنصل تصرح بانك تريد الوصول الى ما تطلب بالقوة وهذه هي الهمجية التي تجر الخطر إلى بلادك وربما تفضي إلى ضياعها . فقال عرابي وكيف ذلك ومن الذي يعارضنا في شؤون داخلتنا ؟ ولئن تحرش لذلك أحد فاعلم أننا نقاومه بكل ما لدينا من الحول والقوة ولو أدى ذلك الى فنائنا عن آخرنا . فقال مالت وأين تلك القوة التي تكافح بها وتناضل عن بلادك ؟ فقال أستطيع أن احشد في زمن قصير مليوناً من العساكر كلهم يسمعون قولي ويتبعون إشارتي، فان كانت دولة انكسرت هي التي تستعد لخصامنا فلتكن على حذر من ثورة عامة في الهند تقضي على حياتها فيه، فقال القنصل وماذا تفعل لو لم نجب على طلبك ؟ فقال كلمة واحدة أقولها ، فأجاب مالت: ماهي ؟ فقال عرابي أقولها عند اليأس والقنوط

« ثم انقطعت المحادثات بين الجناب الخديوي وعرابي مدة ثلاث ساعات استولى فيها الضعف على جميع من كانوا داخل السراي من نظار وقناصل وغيرهم وظنوا ان من وراء هذا الاجتماع نيرانا تلتهب، وحراراً تنتشب، ولذلك أقضت مداولاتهم الى التسليم والرضى باجابه عرابي الى ما يطلب لكن على شريطة التدريب في التنفيذ، وأرسلوا اليه يخبرونه بذلك فقبل ما عرض عليه واشترط أن تعزل الوزارة قبل انصراف العساكر فجاءه انابر في الحال بقبول استعفائها فطلب أن يعين شريف باشا رئيساً للنظار ومحمود سامي باشا ناظراً للجهادية فقبل شرطه وانصرف العساكر

« استدعي شريف باشا لقبول رئاسة النظار فتردد في ذلك أياماً لاحساسه بالضعف عن القيام بأعباء الوظيفة اذا استمر الجند على مناوئته للحكومة واستبداده بالسلطة فيما يطلب واستعداده عند الإبطاء في موافاة مطلبه الى إحاطة كرسي الحكم بالسلاح، وتهديده بالوثبة عليه، اذا لم يسارع في سوق رغائبه اليه، ولظنه ان دولتي

فرنسا وانكلترا ربما كانتا معضدتين لرياض باشا وبهما أن يبقى في مسند الوزارة، فاذا اتولاها غيره خشي أن تنصب إليه المكاييد وتقيا له العثرات في سيره، ولما سبق علمه بالخبايا التي كانت بين الضباط وبين الأستانة وبما في بعضها من الثناء عليه وأنه ورياض باشا على طرفي نقيض فرياض باشا هو ممثل النفوذ الاجنبي في مصر وشريف باشا هو الامام المنتظر لتخليص مصر من ذلك النفوذ واعلاء الكلمة العثمانية فيها ويحتمى أن تظهر الحوادث مجزه عما يؤمل فيه

« كان شريف باشا رحمه الله من أقوى عوامل هذه النهضة التي انقلبت إلى فتنة ، كان من القائلين بأن النفوذ الاجنبي قد بلغ حداً لم يكن يمكن أن يباغته لو لم يتساهل رياض باشا بالتسليم للأجانب في كل ما يطلبون . كان شريف باشا يقنع جلساءه بأنه اذا ملك فيها أو قف الجانب عند حدودهم سار بالوطن شوطاً عظيماً في مجده ، كان هو ورؤساء الفتنة يرأسون ويتواعدون ، ولهذا طابوره رئيساً للنظار ولو عرض عليهم سواه لما قبلوه . كان وجه الرئاسة يهش له على بعد ، وجمالها يخدعه وهو منها على موعد حتى اذا دنا منها ألفاها شكسة شرسة

انتهى ما لخصناه مما كتبه الاستاذ الامام من كتاب (الشوردة العراقية) الذي لم يتمه وهانحن نثبت ما كتبه المحامي الانكليزي الشهير (المستبرودي M . voidaorB) في كتابه (كيف كان دفاعنا عن عرابي How we defended Orabi) في ترجمة الاستاذ وهو نفسه الذي تولى الدفاع عن الاستاذ الامام ، وفيما كتبه ترجمة اللامحة التي كتبها الاستاذ الامام دفاعاً عن نفسه (أنظر ص ١٤٩) قال — :

الشيخ محمد عبده

العالم الصحفي - المحرر - *

ربما كان الشيخ محمد عبده أعظم الناس موهبة بين الرجال الوطنيين المصريين وقد أثر في الطبقة المتهذبة من أهل وطنه تأثيراً ظاهراً لأنه كان كاتباً لطيفاً، وعالماً بالعربية ضليعاً، وخطيباً فصيحاً يعمل في القلوب . ولا شك أنه ساعد من قبل كثيراً على جعل الرأي العام عاملاً حقيقياً في الترقى المصري . ولم يكن متعصباً ذا خطر أو متعصباً في الدين . بل هو من المسلمين القائلين بالتوسع الشديد . وكانت أفكاره السياسية تنطبق على الرأي الجمهوري الحر، وكان رئيساً نشيطاً من رؤساء الراية ووطنيته التي لا شائبة للانانية فيها هي التي منعت بعض رفقاءه المتحمسين من استيائهم من خطته الدينية الشاذة استيائاً عظيماً ، حتى أن عرابي باشا صديقه قال مرة « أن رأس الشيخ عبده أصلح للقبعة منه للمامة »

وتعد أخلاق الشيخ محمد عبده كلها مثلاً للقوة العقلية العظيمة التي تلبدت عليها سحب من ضعف البنية والأخلاق مدة من الزمن . والظاهر أن عقله وجسمانه معاً سحقا سحقاً لا أول يشفاه بعد انفعاله الشديد انشائي عن الآمال الضائعة وغصص القنوط . وقد سب وأهين في السجن مثل رفقاءه لكنه يختلف عنهم بحيث أن أخباره عما أصابه من المحن ضعيفة مبهمه إذا قيس بأخبارهم . والظاهر أنه

(*) هذا الفصل ترجمة ما كتبه مستر برودلي تحت هذا العنوان

(١) أخطأ هذا المحامي الانكليزي في قوله : أن الشيخ قد سحق جسمه وعقله من غصص القنوط . فقد دلت قصيدته التي نظمها في السجن (ص ١٥٠ من هذا الجزء) وكتابه المطول الذي نشرناه في جزء منشأته من هذا التاريخ (ص ٥٢١ ج ٢) على ضد ما زعمه هذا المحامي وهو أن المصائب لم تذهب بأمله ولم تزد أخلاقه إلا كلالاً . ثم ثبت هذا بسيرته بعد السجن في منفاه وبعد عودته الى وطنه أي في سائر عمره . ولكن أكثر الأفرنج لا يستطيعون أن يتقدروا الشرقي الكامل حق قدره

(م ٢٩ ج ١ تاريخ الأستاذ الامام)

لم يتخلص من تأثير الصدمة الناشئة عن توقيفه إلا في أواخر أيامه في السجن — حينئذ أخذ يعاملنا بتلك الثقة التي سعيننا لاستحقاقها . . . وكاد يتعذر علينا في بعض الاحيان أن نصدق أن الشيخ محمد عبده هو كاتب تلك الايضاحات البراقة الدالة على غايات الوطنيين المصريين التي كان قد أرسلها إلي المستر بلنت قبل ذلك بستة أشهر فقط . وكذلك يتعذر على البريطانيين وهم في بلادهم أن يفقهوا الانحطاط الاخلاقي التام الذي يفعله الفشل مع التهديد والتعذيب في نفوس المصريين حتى في أقوامهم عقلا وأجرئهم أدبا . . . ولا شك في أن مرتب الزيارات اليلية المنزلية للمعتقلين السياسيين بعد نقلهم للسجن المصري كان شاعراً بمقامها وشأنها في نظر الشرقيين وعارفاً قدرها من حيث النجاح في المرافعة القادمة . إلا أن هذه الزيارات أدت الى نتيجة مضادة كل المضادة للغاية التي وضعت لها

كتب الشيخ محمد عبده مذكرة في الدفاع عن نفسه بلغة عربية فصحة كانت باعثة بارهاقاً أدبياً ايضاً عظيماً نور أفكار ترجماننا (المستر سنثلانا) لكي يراها ويا للأسف قرينة جداً من نوع الاعتذار^(١) والنقطة التي يستند عليها استناد النبهاء الحكماء هي من حيث الشريعة والصناعة تكاد تكل دونها الابصار . وكان سلوكه في رواية الثورة المصرية من أولها الى آخرها سلوك التابع الطائع الخالص^(٢) وأصبح قبل أن يرفع الستار محرراً للجريدة الرسمية وأظهر في هذه الوظيفة من أولها الى آخرها الطاعة لأوامر من تقدموا عليه بالحق الواحد تلو الآخر^(٣) ولا تصير اخباره لذينة إلا حينما تتصل بآرائه وتجاربه الخاصة . أما ما يختص بقيامه بواجباته العامة فإن المسوغ الذي استند عليه هو طاعته التامة للعمدة من ذوي الاقتدار، ويتحول

(١) يقول مؤلف هذا التاريخ : ان هذا المحامي قد تمذر عليه وهو في مصر ما زعم انه تمذر على قومه في بلادهم . بل كان أحدهم منهم فيما ادعاء من فقه ما أنزه التهديد والتعذيب في نفس صاحب الترجمة . فكان جهله مركباً لانه يحسبه علماً وفقهاً . وكذلك شأنه في كثير من القضايا التي استبسطها من تقريره كما يعلم من مقابلاتها بما في هذا الجزء من تاريخه (٢) قضايها باطلة ، وقد علم مما تقدم انه كان مسيطراً على الحكومة كلها حتى رؤسائه فيها

محور دفاعه عن سلوكه الوطني الى قضية منطقية مبتكرة مقنعة كما يأتي :-
 « ان وطنيتي ووطنية سلطان باشا واحدة وكلانا عمل وفكر تفكير الرجل الواحد ، وقد أصبح سلطان باشا ذا لقب «سير» وحصل أيضاً على مكافأة قدرها عشرة آلاف ليرة ، لذلك وجب أن تكون وطنيته حسنة وأهلاً للثناء عليها. إذن يكون سلوكنا كائناً أهلاً للثناء عليه . فلماذا ياترى أزج في السجن منتظراً محاكمتي على وطنيتي بينما يصبح سلطان باشا حائزاً رتبة الشرف الانكليزية وحاصلاً على مكافأة قدرها عشرة آلاف ليرة ؟ »^(١)

« ان ما ذكره الشيخ من شدة الارتباط بين سلطان باشا وعرايي باشا فصل مهم في تاريخ الحركة الوطنية. وقد كانت آراؤه الى يوم عصيان عابدين مخالفة كل المخالفة لآراء عرايي المعتبرة عنده مثلاً لآراء عسكرية صرفة ، ويقول ان الاجتماعات العامة المتنوعة التي عقدت بعد ذلك مباشرة للحصول على دستور برأسه سلطان باشا حوِّلت في الحال مقام عرايي من قائد جيش الى قائد مضر . وإليك ما قاله الشيخ :-
 « وحينئذ أصبحت و سلطان باشا والبلاد المصرية قاطبة من أتباع أحمد عرايي الى آخره » وهاك ما كتبه الشيخ عبده في حوادث الحرب :-

« هل يقدر أحد ان يشك في كون جهادنا وطنياً صرفاً بعد أن آزره رجال من جميع الاجناس والاديان فكان يتألب المسلمون والاقباط والاسرائيليون لنجدة بحماس غريب وبكل ما أوتوه من حوله وقوة لا اعتقادهم أنها حرب بين المصريين والانكليز ؟
 « اني لم أعلم أنه قيل إن الخديو كان يحارب جيشه بل المعروف عند الناس أن الحرب وقعت برضاه وبأمره — وقد رسخ هذا الاعتقاد عند ما علم الناس أنه أقال عرايي من منصبه لانه لم يمثل امره بالاستمرار على المقاومة وتحصين بعض المراكز اتقاءً لنزول غزاة من البحر

« وفي أثناء ذلك طفق العلماء يقرءون البخاري في الازهر ومسجد سيدنا الحسين

(١) في مذكرات الاستاذ الخاصة بحوادث الثورة بيان اسباب مانائه سلطان باشا من اللقب والمكافأة وهو خيائه لوطنه وخدمته السرية الانكليز كما سيأتي : ولا ندري أكان في مذكرته التي قدمها للمحامي شيء من ذلك كتبه المحامي أم لا ؟

ويدعون بالنصر لمساكر عرابي والهزيمة للانكليز - وكان إمام الخديو الشيخ الصالح العالم الايباري في طليعة الملتهمين غيرة ووطنية، فنشر قصيدة ابراهيم دريد في غارة التتار على بغداد في أيام الخليفة العباسي المعتصم، وهي عبارة عن دعاء وابتهاال، وقد أضاف اليها أبياتاً من نظمه فكان من الناس من يقرؤها ويتلوها بعد قراءة البخاري. وقد طلب إليّ أن أنشرها في الجريدة (الوقائع) حتى يطلع عليها الجيش أيضاً - وقد كان عمله هذا مشروعا إذ أن المعروف عند الناس أن هذه الحرب حرب إسلامية ضد الكفار - وعند رجوع الخديو الى مصر بعد انتهاء الحرب خطب هذا الشيخ حاثا الناس على طاعته -

« وقد تبرع الامراء والاعيان والعلماء وسائر أفراد الحاشية الخديوية - حتى النساء - بالخليل والحبوب والنقود والميرة اللازمة للجيش - وأظهر المديرون والموظفون على اختلاف مراتبهم والكتابة غيرة وحمية في جمع الميرة المطلوبة وحشر المتطوعة للجيش وسائر الاعمال العسكرية -

« وقد أرسل عثمان باشا غالب مدير اسيوط في ذلك الزمن ورئيس شرطة (بوليس) العاصمة الآن بضعة ألوف من ارادب الحبوب من مديريته ماعدا الخيول وغيرها من الحيوانات، وقام بأمر التجنيد بهمة ونشاط استحق عليهما ثناء وزارة الحربية - وهاهوذا كما قلنا آنفا (رئيس بوليس العاصمة) بأمر الخديو « وهذا شأن خليل بك عفت الذي تعين مديراً بأمر وزير الحربية فأظهر غيرة ونشاطاً استحق عليهما الشكر الجزيل في الجريدة الرسمية - وهاهوذا نراه الآن مدير المنيا بأمر الخديو

« وقد بذل من اذكر اسماءهم فيما يلي اموالهم بسخاء في سبيل الحرب إما مباشرة وإما بواسطة دوائرهم وهم :

البرنس جميلة	أخت الخديوي وحرمة المرحوم سعيد باشا
خيري باشا	الامين الاول
علي باشا مبارك	وزير الاشغال العمومية الآن
يوسف باشا جديدي	احد اعضاء لجنة التكوين

محمود بك
علي حيدر باشا
كاتب (أو أمين) أسرار الخديو
وزير المالية (الفعلي)

« وأسماء هؤلاء وردت في أعداد الجريدة الرسمية . وإذا كانت سجلات القديرات لاتزال موجودة فيمكن استقراء ما تبهر به كل واحد منهم بالتحديد » وقد رأيت الناس من فلاحين وبدو ذاهبين الى الحرب برضاهم واختيارهم متشوقين لمقاتلة الانكليز وقد شمل هذا الحماس الاقباط وكان يشجعهم على ذلك رؤساؤهم . وكان شبان القاهرة يمرحون في المدينة ليلا يتغنون بمدح عرابي وفي قمي اجتماع ذكرت فيه الحرب كان الناس يدعون الله طالين النصر لجيوشنا »

.
[قال المحامي]

وكتب الشيخ محمد عبده بعد حين مذكرة في حوادث الاسكندرية التي حدثت في الحادي عشر من يونيو كانت هي وعبارتان أو ثلاث على نخطها سبباً لامتعاض شديد ، ربما لا يرجح تحقيق الحق وابرازه، لكن ثمة مسألة في البحث ناصعة لا ريب فيها ، وهي أن مثل هذه المصيبة التي نزلت كانت مخالفة كل المخالفة لمصالح عرابي للهمة ، وتكاد تكون بالنسبة اليه فشلاً سياسياً وخذلانا قومياً تاماً، وإذا كانت قد تمت بإشارته فإنها تعد حينئذ انتحاراً أدبياً حدث عمداً ، على أن نتائج هذه الحادثة من الجهة الأخرى تكون ربما عظيماً لاعدائه ، ويتخذ هذا الموضوع شكلاً مختلفاً جداً باختلاف النظر اليه من الوجهتين السياسيتين المتباينتين - السياسة الفرية والسياسة الشريعة - فالأولى تعتبر العمل السائق الى المذابح بل المحرك على تجمهر الغوغاء جنابة لاتغتفر، على حين تعتبره الثانية جائزاً ، أو ربما حسبه « قلة » في الشطرنج السياسي حاذقة ، وبعد ما أصبح عرابي الحارس المسؤول عن الأمن العام لا باختيار مصر وحدها بل برضا أوربا كلها رأى الشيخ عبده بصورة واضحة ان سياسة الخديو ورجال قصره في سلب الثقة به هي سياسة موت أو حياة لهم، واعتقد انهم لم يجمعوا عن التوسل بهذه الوسيلة المشقة فيها كثيراً للقضاء على خصمهم المفرط في النجاح

والقوة . ويوجد رجال آخرون ذهبوا هذا المذهب أيضاً وصرحوا به . وإلى القراء ما قاله الشيخ محمد عبده

« لما وقع الخلاف بين الخديو ووزارة محمود سامي باشا شاع في القاهرة أن الخديو سيسعى بواسطة بعض أتباعه ليحدث شغباً في نفس القاهرة الى حد أن الوزارة احتاطت لمنع الفتنة وبالغت في ذلك طول مدة قيامها بأعباء الامر ، واستدعى الخديو ابراهيم بك توفيق مدير البحيرة وطلب اليه أن يجمع مشايخ قبائل البدو ويحضرهم اليه - ففعل - وبالغ الخديو في حسن استقبالهم وأكثر لهم من المواعيد ثم أوعز الى المدير أن يأمرهم بحشد ٣٠٠٠ بدوي وباحضارهم الى العاصمة بطريق الجزيرة ليحدثوا فتنة في البلد لعدم وجود النظام بينهم ولكنه تعذر على المشايخ حشد العدد المطلوب من البدو فحذف هؤلاء من العسكر - ولما فشل مساعاه هذا أرسل تلغرافاً رمزياً (شفره) الى محافظ الاسكندرية هذا نصه:

« قد ضمن عرابي أمر الامن العام ونشر ذلك في الصحف وجعل نفسه مسؤولاً لدى القناصل واذا نجح في ضمانه هذا وثقت به الدول وصغر شأننا - أما الآن وأساطيل الدول في مياه الاسكندرية وعقول الناس متهيجة فوقع الخلاف بين الاوربيين وغيرهم أمر محتمل فاختر لنفسك إما خدمة عرابي في ضمانه أو خدمتنا » وفي يوم هذه الحادثة توجهت الى السراي فرأيت موظفيها في جدل عظيم مما حدث وكانوا يبالبون في رواية الاخبار ويضحكون من عهد عرابي بالمحافظة على الامن العام - ومن المعلوم ان موظفي السراي لا يقولون إلا ما يسر الخديو ، فذا كانت الاخبار سارة تكلموا وضحكوا وإلا تظاهروا بالحزن والكآبة جهدهم - » وبعد ١٢ يوماً من هذا التاريخ كنت في الاسكندرية فسمعت الناس أجمع يقولون ان المحافظ (عمر لطفي) سمح بانتشار الفتنة الى هذا الحد لانه كان مقبلاً في البلد ولم يصدر أمراً بتوقيفها ولم يذهب الى مكان الفتنة إلا بعد مضي وقت - ولم يطلب مساعدة العسكر النظامي مع انهم كانوا على مقربة منه - وأجمع الناس على ان عمله هذا موعز به من الخديو - وعلمنا أيضاً انه لما كانت المذبحة على وشك النهاية وكان المحافظ يتمشى من مكان الى آخر واذا بأوربي في شباك وفي يده

مسدس فقال أحد البدو : أأرمني هذا الرجل يا باشا ؟ فقال له « ارمه » فأطلق البدوي عليه الرصاص فقتله — وكثير من المنهوبات دخلت بيته وبيوت أقربائه في ذلك اليوم الاسود —

وقد سمعت أيضاً انه حرض بعض الناس أثناء المذبحة وشجعهم على ذلك ، وانه أشار الى البوليس [المستحفظين] أن لا يتدخلوا قثلا « دعوا أبناء الكلاب يموتون »

« ولم تسأل اللجنة التي تألفت للاظر في أسباب هذه الفتنة عمر لطفي عن شيء مما حدث مطلقا ، بل كان الخديو أوعز اليه بأن يستعفي بدعوى المرض »
« كان عمر لطفي محافظ الاسكندرية زمن الفتنة وقد أهمل امر القيام بحفظ

الأمن العام على أنه هو الشخص الوحيد المسؤول عنه . هذا إذا لم تقل أنه هو
المحرض عليها - فإذا كان فعل ما فعل ! أئة لأمر عرابي كما ادعى مع أن وظيفته
تابعة رأساً إلى الخديو - لأن الخديو أصدر أمراً مخصوصاً صرح فيه أنه بعد
استفتاء وزارة سامي أفضت أمور الداخلية وشؤونها إلى العرابي - فكيف نعمل تعيينه
(أي عمر لافي باشا) وزيراً للحربية جزءاً لطاعة العرابي وعصياناً لسيده الخديو؟ وإذا
كان الأمر أهلاً من فكيف يصح مع إهماله وعدم كفاءته تعيينه وزيراً للحربية؟ ولماذا
لا يسأل سؤالاً واحداً عما جرى مع أنه كان يجب أن يكون أول من يسأل؟

« لا ريب في أن استقراء سير هذه الحوادث يظهر أن الظهور أن الخديو بالاشتراك مع عمر لطفي كانا سبب هذه الفتنة — أي مذبحة الاسكندرية اهـ هذا وإن الحذر والاحجام الباديين على الشيخ دأنا يزيدان في قيمة تصريحه وهي قيمة لا أكاد أضدها على تصريح يقوله أي رجل من درجته ، وما لم يحدث انقلاب جوهرى في الحالة الاجتماعية المصرية فإن حل لغز الحادي عشر من يونيو يبقى مستحيلا ، وكل التهورات التي تحوم حوالها تبقى أدامن باب التخمين والترحيح على أنه يصعب علينا أن نقول إن رجلا كالشيخ عبده وضع لكتابته التي شكها فيها من البصق عليه في الحبس مقدمة معتبرة أهداها لسوء الخديو يذهب هذا المذهب النظري ما لم يكن مطالعا أشد الاطلاع على المعانيات في دسيسة « السراي المصرية »

وانني أشهد شهادة عرفتها بنفسي ان جماعة آخرين : أثبتوا هذه الرواية ولم يكن لهم اتصال ممكن بالشيخ

وفي مساء اليوم الاول من يونيو سنة ١٨٨١ ودعت في الظلام محمد عبده الذي ذهب أخيراً منفياً عن القطر المصري مدة ثلاث سنوات . وعلمت منذ ذلك الحين انه يعيش عيش الفقر والشقاء في بيروت [هذا غير صحيح كما يعلم مما يأتي في هذا التاريخ]

واذا جاز لمصر ان تفسر منفردة أو يكون لها بداية خير يوماً من الايام فانها لا يسهل عليها الاستغناء عن مثل الشيخ محمد عبده العالم المحرر

[المؤلف] هذا ما كتبه محامي العراقيين الانكليزي في كتابه وكنا نود أن نقف على تقرير الاستاذ الامام الذي ذكره المحامي بنصه العربي الاصلي ، ولكننا نفهم من هذه الترجمة عين ما فهمه المحامي الانكليزي لدقة ترجمته ، وبممكننا أن نجزم بأنه أخطأ فيما فهمه من التقرير من انه أريد به الاعتذار لما اعتري كتابه من ضعف النفس وشدة اليأس ، ليس الكلام اعتذاراً عن نفسه ولا تنصلاً من عمل عمله وندم عليه ، وانما هو إقامة حجج وبراهين على ان مؤاخذته وحجسه مع زعماء الثورة ومحاولة الانتقام منه انما هي اغراء من الخديو توفيق باشا به لانه يكرهه كراهة شخصية من حيث هو خليفة السيد جمال الدين في نشر الافكار الحرة ودعوة ترقى الامة في مصر . وكان الخديو يعلم انه كان خصماً لعراقي وحزبه العسكري إلى ان أصبح عراقي صاحب الامر والنهي وقائد الجيش الوطني المدافع للاجانب عن البلاد . وفي هذه الحال لم يكن له أن يقاوم عراقي إن استطاع وآنى يستطيع ؟

إذا كان هذا الرجل قد لزم مع زعماء الثورة لانه منهم فلماذا ترك سلطان باشا بل لماذا كان أقرب المقربين إلى الخديو والانكليز جميعاً وهو الزعيم الاكبر للثورة بعد عراقي أو معه أو قبله ؟ هذه حجة بالغة أراد الاستاذ أن يلقيها للمحامي البارع فلبس

مقلوبة كما يلبس الفرو ، وكأنه توهم عن فهم أو عن غير فهم ان الشيخ اعتذر بها عن نفسه، وأحب أن يكون من الخديو والانكليزي في مكان سلطان باشا ، ولو انه كاشف المحامي بكل ما يعلمه من خيانة سلطان باشا لما كان لذلك التوهم الى عقله من سبيل

خيانتة سلطان باشا لمصر

كان الاستاذ الامام يعتقد ان أكبر المصريين خيانة لوطنهم سلطان باشا وولييه في الخيانة عمر لطفي باشا محافظ الاسكندرية في ذلك العهد ، سلطان باشا كان موقد نار الفتنة ومحض نارها، حتى إذا ما اشتعلت نار الحرب بين أهل وطنه بتحريضه وبين الانكليز نكص على عقبيه، وكان أكبر مساعد للانكليز على قومه بالرشوة مع أنه من أكبر الاغنياء ، وأما عمر باشا فهو الذي مهد السبيل لمذبحة الاسكندرية ونهبها ليقم الاجانب الحجة على عجز عرابي عن حفظ الأمن كما جاء في آخر ما نقله المحامي الانكليزي عن الاستاذ آنفا وأقره عليه وعلى سببه، وهوانه تنفيذ لارادة السراي وسيأتي بيان ذلك نقلا عن مذكرات الاستاذ اليومية المحفوظة عندنا بخطه وفيه النصوص النصيحة بتعمده لذلك ، وبأنه كان يمكنه أن يمنع الشر ، ويحفظ الأمن ، وبأنه طوب بذلك فامتنع بل كان هو الذي طالب من قائد الاسطول الانكليزي التدخل بقوته العسكرية . وهو انما كان عبداً مأموراً ، لذلك كان سلطان باشا شراً منه لانه كان منافقا مذنباً

والذي زاد في استياء الاستاذ من أعمال سلطان باشا غير الخيانة انها كانت على عكس أعماله هو ، فلاستاذ كان ينهى عن اثورة ويسعى لمنعها الى أن نزل الجيش الاجنبي في البلاد محارباً لأهلها حينئذ صار عوناً لهم على قتال عدوهم ، وسلطان كان داعية الثورة وزعيمها، وعدو أمير البلاد المحرض على قتله واتهامه ببيع البلاد للاجانب — الى أن جاء الاحتلال الاجنبي فصار نصيراً له وعدواً لوطنه وخائناً له يشترى به ثمنا قليلا

وهذا يبينها

سلطان باشا

فهذا الهمام الوطني الذي أوقد نار الفتنة في البلاد، وجمع لها وقودها وخطبها حتى امتد لهاها وعم جميع الانحاء، ثم هرب من طريقها عند ماخاف أن يلذعه لسان لهاها = جاء في آخر الامر نائباً عن الحضرة الخديوية في حبس كثير من الناس ولم يفرق بين الابرياء وغيرهم. نال المكافأة^(١) من الجنب العالي بالاحسان جزاء ايقاد الفتنة ثم الهرب منها، ليتعلم كل مصري هذه الطريقة المفيدة لكسب الشرف ونيل الاحسان أولاً وآخراً

إلا أن العدل الالهي سيقوم بمجازاته حق المجازاة على ما صدر منه أول الامر وآخره (يوم بعض الظالم^(٢) على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً * يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً * لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولاً) وكما ان العدل (الالهي) سيأخذه بما قدم من عمله، أظن ان محاكم العدل والانسانية تميز له خطاه في زعزعة راحة البلاد المصرية في أول الامر في رمضان سنة ١٢٩٨ دعا شريعي (باشا) للتوجه معه الى الخديو لطلب مجلس النواب، فامتنع ونصحه بأن لا يسعى في ذلك (حاكي الحكاية سليمان أباطه وكان فيمن دعاهم لذلك)

قال سلطان في بيت علي باشا مبارك بحضوري : ان مصر يمكنها أن تجمع ثلاثمائة ألف عسكري فتحارب أي دولة كانت . وأجابه علي (باشا) بعدم كفاية المال ، وانتهى الامر بقوله « نسمع المغني أحسن »

علي باشا رأى الضباط يهربون من أودة (أي حجرة) إلى أودة في بيت سلطان ، وحكى لي الحكاية ثلاث مرات

(١) أنعم الخديو توفيق باشا على سلطان باشا بعد الاحتلال بعشرة آلاف جنيه من المال جزاء إخلاصه كما في كتاب (مصر للمصريين) وهل هذه هي المكافأة التي عناها الاستاذ أم غيرها؟ فهناك مكافآت (٢) الاستاذ لم يكتب تكملة الآيات هنا الخ

جاء شواربي (باشا) عند محمود سامي (باشا) وهو ناظر الداخلية وقال ان جميع النواب متكثرون من تعيين فريد باشا مأموراً للدائرة البلدية تكثرت النواب جداً لاني أشرت بانتخاب سليمان باشا أباطه وكيلا للداخلية وذكر لي ذلك أحمد محمود فتبت على يديه الخ

تعدى مجلس النواب ماضرب له من الحد، وتذاكر في إبطال مصاريف الابراهيمية، مع انها داخلة في إيراد مديريةه اسيوط المرهونة للدين الموحد، وردت المالية القرار، ثم حكم المجلس بتوقيف الاطباء الذين كانوا في الكورنتينة بناء على عرض حالات قدمت اليه، وظن سلطان أنني الذي أئين هذا الخطأ للنظار مع انه كان بحيث يفهمه الصبيان ، فاشتكى سلطان باشا الى ناظر الداخلية مني، وقال له قل للشيخ محمد عبده لا يبيدي ملحوظات على محاضر النواب^١

كتب سلطان وهو رئيس النواب كناية رسمية يطلب فيها من إدارة المطبوعات أن تعترف أن جريدة الطائف هي لسان النواب المعبر عن أفكارهم ، فاعترفت الادارة بذلك تنفيذاً لامره، ونشر ذلك رسمياً بامر ناظر الداخلية (وزارة سامي) ثم إنني عطلت الطائف^٢ شهراً لنهيجه. ومع ذلك لم يكتب الباشا ما ينقض ما كتبه أولاً، وهو الذي حمل النواب على الاشتراك في ذلك الجرنال، واكتبوا له بمبلغ كبير إشارتي بعدم الاهتمام بمسألة الجراكسة — تقرير راغب باشا بطلب العفو عن جميع من اشترك في الحوادث ما عدا الجانبين في مذبح الاسكندرية — وقبول الخديو وصدور العفو —

(١) ينفي في الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية)

(٢) جريدة الطائف كان يصدرها السيد عبد الله نديم الموهج الشهير بمقالاته وخطبه ، حدثنا أحمد فتحي باشا زغلول قال كنت في عهد الثورة تلميذاً في مدرسة رأس التين الاسكندرية فبلغنا ان السيد عبد الله نديم سيخطب الجمهور في مكان كذا ، فحضرت خطبته مع كثير من الطلبة وغيرهم فكان مما قاله ما خلاصته : إن طوائف الاسكندرية اذا أطلقت مدافعها على البحر يبلغ مرماها جزيرة قبرص من هذا الجانب ومدافع الاسكندرية اذا أطلقت تبلغ هذه الجزيرة من الجانب الآخر فكيفما جالت الاساطيل الانكليزية فهي تحت رحمة مدافعنا - فعلا هتاف الناس وتصفيقهم له !!!

يوم الحرب ذهبت للتكلم مع ناظر الداخلية في طريقة نشر جريدة المونيتور
الفرنساوية الرسمية لسفر محررها . اهـ

(هذا كل ما في الورقة المفردة وهو عناوين كان الغرض منها تفصيل
الكلام فيها في فصول تفيد العبرة بها وإياها مذكرات الدفتر أسردها
بنصها الا انني أضع لها أرقاما تضبطها بالعدد)

(١) الدائنون يريدون أن تدفع لهم الفوائد على فداحتها فعدل سير الادارة
على أن يؤدي الى هذا الغرض . ورسم على المصري أن يخضع لاستبداد
إداري مختلط ، بل هو في الحقيقة أوربي لا شائبة للعدل فيه ، وهو الاستبداد
الذي اقتحمه الخديو المعزول

(٢) كل الامم من كل الاديان تفتني من عمله (أي الفلاح المصري المشار اليه
في الجملة الاولى) وعلى نفقاته وهو في ذلة الفقر والفاقة
(٣) ما يقصر من أداء الديون من الدومين والدائرة السنية يوفي من
الخزينة (تدبير ولسون)

سنة ١٨٨١

(٤) في أواخر سنة ١٨٨١ قصد غمبتا إرسال ٢٥ ألف عسكري لتقرير النظام
في مصر مع انه لم يكن حصل فيها شيء وكان ذلك في وقت الحاربة بين فرنسا
وانجلترا في عقد معاهدة تجارية

(٥) البارون درنج رأى الفرصة مناسبة لتقرير نفوذ فرنسا في وادي النيل
لكنه لم ينجح في إعداد المراقبة الثانية لقبول خلع الخديو وإيجاد نظام جديد
وكان قد عرض على حكومته خطر استقلال المراقبة الثانية وخطر مركز الخديوية
(لعل غمبتا قنع بما قاله درنج أخيرا)

(٦) في ٤ فبراير سنة ١٨٧٩ نشر منشور ضد رياض باشا طبع منه عشرون
ألف نسخة وفيه مطالب وطنية ، ولم يعثر على ناشره وكاتبه . ونسب الى الجمعية
التي تألفت لمعارضة رياض باشا (جمعية حلوان) شريف . شاهين . عمر لطفي .

راغب . ويقال ان سلطان باشا كان فيها

(٧) يقول شريف باشا بعد حادثة عابدين انه لايقبل الوزارة حتى تكون لديه ضمانات تكفل انه لايمتدي الضباط أو الجند على النظام مرة أخرى — كأنه لم يعلم بسير الفتنة مع انه كان من مدبريها

(٨) حصل سلطان باشا على عرائض ممضاة من الاعيان والعلماء قبل حادثة عابدين وأطلع عليها عرايبي وأبي عرايبي إلا أن تكون تحت يده ، فهرب سلطان الى المنيا ، وبعد الحادثة ظهرت العرائض والمحاضر

(٩) لم يبق داع لبقاء أديب (إسحق) في أوروبا ، فألغيت (جريدة) القاهرة وأعيدت على هيئة جديدة وفي موضوع جديد ، وكوفئ محررها بتعيينه رئيس قلم ترجمة أولاً ثم سكرتيراً لمجلس النواب بعد ذلك

وصاح الخديو عند إمضاء الأمر بتعيينه من شدة الفرح : « الحمد لله الذي خلصني من رق شخص كنت أبغضه »

خلاصة خطاب سياسي لعرايبي

(١٠) لم يذهب عرايبي الى رأس الوادي إلا بعد أن صدر الامر بتشكيل مجلس النواب على طريقة جديدة . وقد كان الخديو حاول أن يستدعي أعضاءه على مقتضى النظام القديم فأبى إلا نظاماً جديداً ، وعند سفره ألقى على مودعيه خطاباً طويلاً شكاه فيه من العقبات التي تصادفها مطالب الشعب من وضع دستور يكفل له الحرية ويؤمنه من الاستبداد . وصرح فيه بأن الخديو والنظار ومن على شاكلتهم كلهم لايميلون إلى مساعدة الأمة على ما تطلب ، وبأن أعداء الأمة هم الدائنون ومعاونوهم من الأجانب ، يدفعهم الطمع الى الاستيلاء على جميع موارد الرزق في مصر ، وان من الافتراء أن يقال ان البلاد تريد سلب الأموال والاستثمار بالمنافع وسلب حقوق الدائنين . وإنما الحق ان هناك شعباً يطالب بأن يكون على اثر بقية الشعوب تحت حماية قانون عادل يؤمنه من الاعتداء على الاشخاص والأموال

تواطؤ فرنسا وانكلترا على المصريين

(١١) قال غمبتا في محادثته مع اللورد ليون فيما يتعلق باستدعاء مجلس النواب « قايي ممتلى ، رعبا ، ليس من الممكن الحزر والتخمين على ما عساه يقرره ما يسمى بالحزب الوطني، من الجائز أن يعمد الى تقرير طريقة مختلفة تخالف مصالح الاوربيين، لا أجد وسيلة للاحتياط لمنع نهضة جديدة أفضل من إفهام المصريين ان انكلترا وفرنسا لا يمكنهما أن تحتلأ شيئا من هذه المطالب ولا تلك النزعات »^{١)}

اتفاق غمبتا والورد ليون من التعصب إذ لم يعرف مثل هذا الاتفاق على اسبانيا وايونان مع كثرة ديونهما وانهما أحط شر ، (?) في الوفاء من مصر

سنة ١٨٨٢

(١٢) في ١٢ يناير سنة ١٩٨٢ سأل اللورد غرانفيل مالت: اخبرني بالتلغراف ماهي حدود سلطة مجلس النواب في المالية المصرية على حسب ماقدرته الجمعية العمومية والشروط التي تطلبها ؟
فاجابه في ١٣ منه

مرتبات الموظفين الذين لم يكن تعيينهم بمقود مع الحكومة تكون تحت مراقبة المجلس وعلى ذلك يمكنه أن يلغي مصلحة المساحة مثلا لانها لم يكفل تشكيلها باتفاق دولي، ويمكنه الاستفتاء عن عدد كبير من موظفي الاوربيين في الادارة المصرية (١٣) قال مالت (في ديسمبر سنة ٨١) اذا حاز مجلس النواب حق تقرير الميزانية فقدت المراقبة سطوتها في الامور المالية

(١٤) في ١١ يناير سنة ١٨٨٢ قال مالت. انه قد تقرر عنده ان المصريين قد دخلوا بحق أو بغير حق في طريقة الدستور وان اللائحة التي يريد المصريون تقريرها لمجلس شورا هم تمثل في الحقيقة شرائط حريتهم وحيث قد تقرر هذا المجلس بحالة نهائية فلا شيء يمكن أن يبطله ولا أن يلغيه إلا أن يكون تداخل وهو آخر ما ينتهي اليه العمل

(١) ليعتبر المصريون والشرقيون عامة بهذه الانارة التاريخية

مقاومة فرنسة وانكلترة لمجلس النواب في تقرير الميزانية

(١٥) سلطان اكد لقنصل انكلترة أن النواب لم يوافقوا الا آمال الشعب وليس من ضغط عسكري ، ولا يمكنهم أن يعدلوا عما يوافق رغبة الاهالي فاجابه : لا انتظار لأدنى مساعدة بما يختص بهذه المسألة (تقرير الميزانية) لما في ذلك من الخطر وما قولونه وما يطلبه النواب لا طريق لنيله الا القوة واستعمالها اعلان للحرب . وقد علمت ارادة انكلترة وفرنسا فيما يتعلق بذلك

(١٦) في ٢ يناير سنة ١٨٨٢ في مجموعة اعمال البرلمان نمرة ٣٠٢٣٠ تلغراف من مالت في ٢٠ يناير سنة ٨٢ اذا تمسكنا بابائنا على مجلس النواب ان ينظر في الميزانية كانت المداخلة العسكرية امرا اضطراريا فان اصرار مجلس النواب على رأيه في ذلك جزء من مشروع تام أعد لثورة

(١٧) في ١٧ سنة ٨٢ يناير قدم المراقبون طلبهم فيما يتعلق بمجلس النواب ومطالبه قائلين : إن الاوامر الخديوية السابقة قد ربطت الادارة المالية بدولتي فرنس وانكلترة فاليهما يرجع السماح للمجلس بحق إعطاء رأيه في الميزانية وعدمه وهما لا تسمحان بذلك لما ظهر من مقصد المجلس في تنقيص عدد الموظفين الاوربيين وفي ٢٧ منه امضوا المذكرة بذلك باسم الدولتين "

(١٨) في ٢ فبراير سنة ٨٢ استعفى شريف وعين محمود سامي

(١٩) مجلس النواب قرر تعيين لجتين لتخفيف بعض الشكاوى التي رفعت على مصلحة المساحة وعلى ادارة الجمارك وظهرت وجوه الخلل في أعمال الموظفين الاوربيين ، ونحقق ما كان يخشاه المراقبون من مقاصد المجلس ، وقد رفض موسيو كاليار مدير الجمارك ان يحضر جلسات التحقيق وعارض في أعماله

(٢٠) وقف المجلس على تقرير قدم للمراقبين من أحد موظفي الدومين المسمى

(١) ليعتبر بهذا كله من يمكنون أي أوربي من الدول الاستعمارية من أي منصب أو عمل في بلادهم وخلاصته أن هؤلاء الموظفين يعملون لسلب استقلال البلاد بطريقة ادارية سلمية حتى اذا ما عاقهم عائق برزت القوة العسكرية من ورائهم تؤيدهم

(روفسل) يطلب فيه مراقبة المجلس حيث أعطى الفلاحين آمالاً في أن يصلوا بالظفرة الى مايقال من حريتهم ، واشتكى من ان المدير لا يحبس في الحال من يطلب منه حبسهم لتوقفهم عن العمل ، ومن ان كل شخص يحبس بغير أمر قضائي يرسل بالتغراف الى نائبه ، وعلى ذلك يُسأل المدير عن السبب في الحبس. وهذا تظاهر من الاهالي بالاحوال الجديدة التي يبنون عليها حريتهم وخلاصهم (٢١) غوردون باشا يكتب الى التيمس في يناير سنة ١٨٨٢ :

يقال ان مصر تسرع في الغنى والسعادة وانه (كذا) فرحة مسرورة . ولا أظن أن شيئاً قد تغير عما كان الا ما كان من ضمانه الدين فانها اليوم أوثق اما الجبوس (السجون) فخاصة بأولئك المساكين من الفلاحين

مسألة الشراكسة وغش القنصلين للخديو

(٢٢) في مسألة الجراكسة قدم عرابي الحكم وطلب العفو بتخفيف العقوبة فأرسل الخديو (الحكم) الى الآستانة فطلب السلطان الاوراق. وكان مافعل الخديو بناء على نصيحة القنصلين. ساء الوزارة ذلك وبدأ اختلاف ، وطلب من الخديو تسوية المسألة فأشار عليه القنصلان بالاصرار وطلب استعفاء الوزارة

(٢٣) في ٢٠ مايو — أرسل موسيوسنكوينس (?) احد موظفي القونسلاتو موسيو مونج عند عرابي ليذاكره في المسائل الحاضرة فكان من قول عرابي ان المجلس الآن هو الحاكم وهو أول خاضع له ، ونقل هذا مسيو مونج الى رئيسه . وعند ذلك ابتداء القنصلان في المحاربة مع سلطان باشا

وفي ٢٥ مايو قدموا المذكرة التي ذكر فيها ان المجلس بلسان رئيسه نصح عرابي بالابتعاد عن الاقطار المصرية حيناً من الزمن
سأت النظرارة سلطاناً فأنكر

ولكن الخديو قبل المذكرة فاستعفت الوزارة بعد إقامة الحجة على كل ما جاء فيها . لم يقبل أحد النظارة فرجع عرابي ناظراً للجهادية وأحيلت أعمال بقية النظارات على وكلائها

﴿ ما يتعلق بالمذكرة التي استعفت الوزارة عقبها ﴾

(٢٤) جاء في الكتاب الازرق الانكليزي ان مستر مالت كتب أولاً أن رئيس المجلس لا يمكنه بعد الآن أن يعتمد على أعضائه فان كراهتهم لكل تداخل أجنبي تزداد كل يوم عما قبله

ثم يقول في رسالة أخرى ان المذكرة التي قدمها لم يطلب فيها إلا تنفيذ ماأراده أعضاء مجلس النواب، وقد صرح المجلس بأرادته على لسان رئيسه سلطان باشا (٢٥) يقال ان قنصل الروسياموسيو ليكس نصح مراراً ان أحسن طريقة

لمعاقبة الشره الاوربي كان امتناع الاهالي كافة عن إعطاء الضريبة الخ لكن كان عرابي ورفاقه يثقون بالدول غروراً ولا يعلمون ما كان يجري حولهم (كذا يقول القنصل) فقد كتب موسيو مالت في ٧ مايو سنة ١٨٨٢ قبل وصول المراكب يقول لحكومته : « ليس من الممكن الوصول الى أي حل كان للمسألة المصرية قبل أن تحصل أزمة شديدة في البلاد »

(٢٦) حصلت مذاكرة في المذكرة التي قدمها وكلاء الدولتين بحضور سلطان باشا والنظار فوضع سؤال: هل يمكن لنا ان نجمع المجلس؟ فأجاب سلطان أظن أن ذلك لا يكون الا بأمر الخديو فتسأل في ذلك ولا ريب انه يوافق عليه . فقال له أحد النظار : الخديو الذي كنت تطلب خلعه إن لم يمكن قتله قبل أيام؟

(قبل هذا^١) جاء كلام في الخديو في جلسة فطالب سلطان باشا قتله وأبى عرابي

وكان سلطان يقول اقتلوا الثعبان سلالة الجناة الناهيين الذين باعونا للاجانب) هذا هو سلطان الذي كان رئيس الحزب الوطني وهو لا يريد الآن إلا

(١) هذه الجملة كتبها النقيذ في حاشية المذكرة لانه تذكرها بعد كتابها

فوضعناها بين هلالين لذلك

معاملة الخديو — ذلك الخديو الذي لا ينبغي إلا بيع البلاد للأجانب^(١)
اجتماع مجالس النواب حق للشعب ونحن نوابه ولا بد لنا أن نطلب النواب
إلى القاهرة حتى لو أراد عرابي أن يوافي ما طلب من إبعاده إرضاء للسياسة
الأجنبية فافعل، أما نحن فلا نخضع لمثل هذه المطالب مهما أدى إليه الخلاف
سلطان رجع عن رأيه إلى رأي الحاضرين مع الحيرة فيما وعد به الخديو
والتنصلين وفيما اضطر إليه من موافقة الثأرين

(٢٧) يؤكدون أن ضرب الاسكندرية لم يكن خطر بيال الوزارة الانكليزية
ولا وضع في مداولاتها إلى الرابع من شهر يوليو سنة ٨٠ وإنما وضع بعد ذلك انتقاما
من مؤتمر الاستانة وليس من البعيد أن يكون السبب صلات عرابي مع الاستانة

(المشير درويش باشا مندوب السلطان)

(٢٨) مقاصد الاستانة من إرسال درويش باشا (١) إبطالة من الخبرات (٢) أن
يعلم قلب المراقبة وتوفيق من جهة تأكيد سلطة الخديو (٣) أن يستمال قلب
عرابي وأخوانه بطريقة أبوية إلى زيارة الاستانة قصد التنزه على شواطئ البوسفور
(٤) تقرير سلطة الباب العالي بمصر . وكان من السهل إدراك ذلك كله لو أرسلت
من هو أقوم من درويش الخ

(٢٩) درويش يذكر بسلطة السلطان ويثني على الخديو وينصح بالخضوع
لنظام . وإذا جاء الكلام في النهضة المصرية يقتصد في القول ويقتصر على قوله أن
السلطان مولانا وأبونا وهو الذي سينظر في ذلك

(٣٠) أرسل الخديو لاستقباله ذو الفقار باشا ، وأرسل عرابي من قبله يعقوب
سامي ، وقد حصل خلاف بين الرسلتين في الركب (الباخرة) عند المقابلة لتكدر
ذو الفقار . لكن درويش استقبل كليهما بالبشاشة

(١) أي بحسب رأيه . فيقابل هذا وأمثاله بما ذكره مستر برودلي المحامي عن
التفكير في سلطان باشا ليعلم أنه رحمه الله تعالى لم يكن حاسداً لسلطان باشا بل كان
محتجاً عليهم باتباع الهوى السياسي في ترك محاسن الفتن كلها

جاء الاسكندرية في ٦ يونيو وسافر إلى القاهرة في ٨ منه
(٣١) أقوال بعض العلماء في إظهار مطالب في رأيهم وتصريحهم لدرويش
بما يجب أن يفعل أغضبه ، ومن ذلك الوقت مال الى توفيق فلما أحس بذلك
(أي الخديو) أرسل اليه ما يزيد إقبالا (*)

(المحاوره المهمة بين درویش باشا التركي وعرابي باشا ومحمود سامي باشا)

(٣٢) في يوم السبت ١٠ يونيو قابل درویش باشا عرابي ومحمود سامي لأول
مرة فجرى الحديث بينهما على ما سندكره

(قال درویش) نحن جميعاً رجال جنود يحترم بعضنا بعضاً وأنتم اولادي
المكاني من السن . وقد أرسلني مولانا السلطان لتقرير الاتفاق بين عائلته
المصرية العزیزة ، وستسهلون علي هذا العمل ، انا اعلم شكواكم ستشكون (١)
صبراً قليلاً ، سيكون هذا العمل بعد رحيل هاتين الدولتين (٢) اللتين تضايقانا
جداً ، فقبل كل شيء يلزمنا إبعادهما ، هذا ما تكفل به لو عضدتموني فيه ، انا ارى جيداً
من جهة وقع الخطأ ليس الخطأ من قبلكم ، يجب التوسل الى المطلوب مع الحزم والبصيرة
ثم التفت الى عرابي وقال له : أنت أنت وحدك الأمر الناهي في مصر .
أنت مع كونك لست الا ناظر الجهادية بيدك السلطة العليا بأسرها . هذا ما أغضب
الدول المتحدة ، يلزم أن يرين المساهلة معهن . وما بقي بعد هذا عملنا فيه يبتنا
وحدنا . استعف من وظيفتك العسكرية بحجة حضوري حيث إني مشير مرسل
من قبل السلطان ، وكن نائباً عني مأموراً تحت قيادتي ، لكي تسهل علي الخبايرة
مع الاجانب عليك أن تذهب مع الضباط الكبار من اخوانك الى الآستانة
حيث أن مولانا الخليفة العادل يرى الخير في مفاوضته معكم

(*) أي أرسل اليه رشوة قدرها خمسون ألف جنيه وحليا قدر ثمنه بخمسة
وعشرين ألف جنيه

(١) تشكون بضم التاء وفتح الكاف أي ستقبل شكواكم ويزال ماتشكون منه

(٢) العاريتين من الاساطيل الانكليزية والفرنسية اللتين في الاسكندرية

فأخذ محمود سامي يترجم المقال وعراي يسمعه ، ثم قال
 (عراي) مشروعكم هذا في غاية الحسن ، وانا نختاره مع الشكر ، لست
 حريصا على السلطة التي تريد ان تنسبها الي . هي سلطة غير مقتضبة ، الامة هي
 التي أفضت الي بها ، فالواجب ان ينظر الى الامة ويفكر في شكواها
 أعترف بأن يديك ابرع من يدي في العمل لتذليل المصاعب التي أمامنا
 الآن . سيفي ووظيفتي تحت تصرفك . انا مستعد للانسحاب واتباع نصيحتك
 انما اشترط شرطا واحدا : أعطني باسم السلطان واسم الخديو واسمك كتابا
 تصرح فيه ببراءة ذمتنا من التبعات جميعا في كل ما جرى الى الآن ، كائنا ما كان ، سواء
 كان ذاك مني أو من اخواني ، وحيث اني تعهدت للقناصل بحفظ الامن في الديار المصرية
 وتحملت ثقل ذلك على كاهلي فأرجو ان تعفيني من ذلك بطريقة رسمية معروفة
 أطلب ذلك لان الاحوال ان جرت على وجه حسن لم يعرف لنا فيها صنيع
 وان جرت على العكس من ذلك كنا الجانين

مالت وكولفني وسندويش عاملونا معاملة الخارجين على النظام وذلك في
 بلادنا وهم الاجانب الذين لا يحرمون لنا شيئا ونحن نحترم لهم كل شيء
 فوعده درويش بانائه مطلبه يوم الاثنين ١٢ يوليو وهو اليوم المحدد لجلسة
 يحضرها درويش باشا تحت رئاسة الخديو . وانما طلب أن يعلن هذا القول الذي
 جرى بينهما من قبلها جميعاً وطلب من عراي أن يكتب إلى الاسكندرية ذلك
 بالتلغراف فأبى عراي أن يعلن شيئا إلا بعد أن ينال ذلك الامر الخاص له من كل تبعة
 (استعداد الاوربيين وتسليحهم استعداداً للمذابح)

(٣٣) مسألة تسليح الاوربيين وإيهام موسيو كوكسن ان حوادث ستحدث (*)
 (٣٤) مالت أخبر حكومته نقلا عن سكرتير الخديو الاوربي (كودار بك)
 ان محمود سامي وعراي دخلا ثاني يوم استغفاء وزارة سامي والسيف في يد كل
 يهدد الخديو بفقد حياته

(*) كوكسون هو قنصل الانكليز في الاسكندرية

(٣٥) سمع مكاتب التيمس من عرابي قبل ضرب الاسكندرية انه يحترم القتال مالم يخرق العدو حرمة البلاد والا هدمه ، ولكنه ضعف عن ذلك وقت الحرب (٣٦) أكثر الجرائد والتلفرافات من الاشاعات التي أفرغت الاوربيين وأخافتهم من المصريين وطلبوا من مديريهم في الاعمال أن يأذنوا لهم بالتسلح فمنهم من أبى ومنهم من أذن (٣٧) خدمة (لاسترن تلفراف) طلبوا التسلح فأبى رئيسهم فكتبوا له عريضة فعرضها على رئيس (الكبانية) في لندرا فاذن بذلك وسمح بثمانية وثلاثين (لوفلير) وعائلات الموظفين أرسلت إلى قبرص على نفقة الكبانية (٣٨) الاوربيون أصبحوا متكدين من عداوة الشعب لهم لاحتسابهم من ضمايرهم بسوء أعمالهم اليه

بدء المذبحة في الاسكندرية في ١١ يونيو سنة ١٨٨٢

(٣٩) ١١ يونيو سنة ٨٢ كان يوم الاحد والقهاوي كانت غاصة بطالبي الراحة من الاشغال الطالبين للهو باللعب والسكر . فحدثت مشاجرة على قرب من قهوة القزاز في آخر شارع البنات نحو الساعة واحدة بعد الظهر حيث يوجد ازدحام كثير من الكراسي والطرايبزات وأشخاص منهم القائم والقاعد :مالطي يقال انه خادم مستر كوكسن أخذ (ركب) عربية وطاف بها من محل الى محل يشرب ويتنزه إلى أن وصل الى خمارة أحد مواطنيه وهو سكران فطلب منه العربي الوطني أجرته فأعطاه المالطي قرشا واحداً ودخل القهوة (الخمارة) فتبعه العربي وتبادلت الكلمات بينهما فتناول المالطي سكيناً كانت معاقدة في مائدة الدكان معدة لقطع الجبن وطمن بها العربي فسقط لاجراك به ، فاجتمع بعض الوطنيين وحمار من أقارب العربي وأرادوا القبض على القاتل فجاء يوناني خباز مجاور للخمارة ومعه بعض مواطنيه بالسكاكين والطبنجات وأخذوا يضربون يمينا وشمالا ، ومضى نصف ساعة قبل أن تصل عساكر المستحفظين من قراقول اللبان أول من جاء منهم مع المعاون قتل ، فجاء آخرون وصارت معركة عمومية

ولكن لم يتدخل العساكر في القبض على الجناة فتمكنوا من الفرار (الاروام والمالطية) وكان يكفي لحسم المعركة تدخل المحافظ لو اهتم بذلك لغيبة الضابط لمرضه وبعد نصف ساعة حصل نزاع بين العامة وعساكر المستحفظين فتفاجم الخطب لان كلا منهما كان يريد ان يقتل الآخر (وذلك لعدم القبض على الجانين) لكن مسألة الجانين لم يبق لها ذكر في اذهان المتنازعين وانما بقي النزاع

(٤٠) والمسلمون والمسيحيون دخلوا في خصام حقيقي بين أهل الدينين وأخذ الاروام والمالطيون يطلقون الرصاص من أعلى البيوت مع انهم كانوا في مأمن من وصول الشر اليهم . وعند ذلك أخذ المسلمون ينفذون من كل جانب مسلحين بعضهم بالعصي والبعض بأرجل الطرايبزات أو هشم الكراسي وبعضهم بالنايت اشتروها من الخازن القريبة خصوصا من السوق الجديد

في هذه الحالة رؤي موسيو كوكسون نازلا من بيت أحد المالطين بلباس ملكي ومعه قواصه فتبعه المتشاجرون وضربوه ضربا خفيفا عند ما أراد أن يركب

العربة ففر ونجا منهم - وصحبه (عمر لطفي) في أثناء الطريق (٤١) لم يكن المسيحيون مدافعين بل كانوا يهاجمون أيضا . وقد طارت الفوضى ، ورؤيت عربة تمر حاملة قتلى من عساكر المستحفظين . وعلى القرب من شارع الميدان جاء جماعة من الاروام المسلحين على حسب الاوامر المعطاة لهم وأخذوا يطلقون الرصاص على الجموع بدون تمييز

ولم يأت أحد من العساكر ولا من البوليس (ولا المحافظ) لاطفاء النار (٤٢) على القرب من تمثال محمد علي حيث لم توجد مقتلة وجد نحو اثني عشر قتيلا ليس فيهم أوربي إلا واحد

(٤٣) وعلى القرب من زبرينيا رؤي (عمر لطفي) فسأله سائل كيف

تكون هنا والمذابح على خطوات منك؟ فقال لست بقائد وهذا لا يعني . فسأله

لم لم تحضر بلباسك الرسمي على حصانك شاهراً سيفك في خمسين من عساكر

المحافظين وبذلك كان الامر ينتهي؟ فاجابه انصرف ليس هذا من شأنك ،

وهل أنت محافظ البلد ؟

وبعد ذلك مر أحد موظفي المحافظة فسئل ماذا يفعل الضابط ؟ فقال انه مريض وقد طلب من المحافظ مراراً أن يرسل العساكر فلم يفعل (١)

(٤٤) سليمان سامي كان مستعداً لارسال العساكر إذا ورد له الامر من نظارة الجهادية ولكن لم يكتب أحد بذلك إلى النظارة لان الامر بيد المحافظ وقد بدأ في المخابرة التلغرافية مع القاهرة من بدء الحركة ولا جواب على ما يظهر

(٤٥) ذهب نينه عند قنصل الروسية وحدثه بما رآه من المحافظ فمجب وقام للمخابرة مع اخوانه القناصل وبعد ذلك كتب للخديو ودرويش وعرابي وكانت الساعة ٤ بعد الظهر

(٤٦) نحو الساعة ٥ بعد الظهر فابله من اخبره ان عرابي ارسل الاوامر لاعادة النظام ، كانت الشوارع غاصة بالرعاة والاباش يحملون الاسلاب ويصيحون ويسبون وبعد نصف ساعة عاد النظام الى ما كان

(٤٧) لم تقتصر المذبحة على شارع البنات بل وقع ذلك جهة الجمرک وشارع رأس التين وأبو العباس (أيضاً) . واتفق مع ذلك أن بعض المسلمين في هذه الحالة خاصوا نساء أوربيات وأوصلوهن إلى بيوتهن

(٤٨) يقال ان أخوين انكليزيين كانا مسلحين بلوفرفير (مسدس) ولم يكونا يحسنان استعماله قتل أحدهما بضربة عصا أطارت سلاحه من يده

(٤٩) ظهر في اليوم الثاني أن عدد القتلى الوطنيين كان ١٦٣ غير من أخفاهم المتشاجرون اذ حملهم سرا من وسط المعركة

ومجموع ما وجد من جثث المسيحيين أوربيين وغيرهم ٧٥ كثير منهم مصاب برصاص في قعر رأسه * فمجموع القتلى ٢٣٨

(*) لهذا كان عمر لطفي باشا وساطان باشا أبغض البشر الي صاحب الترجمة رحمه الله
(*) هذا يدل على ان هؤلاء قتلوا بالرصاص الذي كان يلقيه الاروام والمالطيون من أعلى بيوتهم بغير حساب

(٥٠) لم يصل الخبر عرابي الا الساعة أربع وربع بعد الظهر مع أن القليل من موظفي التلغراف الذين يشتغلون بعد الظهر لم يكن عندهم وقت للعمل الا في تلغرافات **(المحافظ)** حتى ان رسالتين مهمتين من أحد الميرالايات في اسكندرية لم تقبلا لاشتغال العدة بتلغرافات **(المحافظ)**

(٥١) عمر باشا لطفي طلب إنزال عسكر انكليزي لعجز عرابي عن الامن (١٢ يونيو سنة ٨١)

(٥٢) موسيو كليكن كويسكي القائم بأعمال قونسلاتو فرنسا رجع الى عقله وأخذ في طلب تحقيق عن أسباب الحادثة فصدر الامر في الحال بذلك وبعد هذا امتنع الاعضاء الاوربيون من العمل : وألح الوطنيون على التحقيق مع حبس من تظهر الشبهة عليه من الاوربيين ، فعارض في ذلك مندوبو اليونان والانكليز وأبي مندوب فرنسا الحضور " وطلب بعض وكلاء الدول شق عشرين شخصاً من المذنبين وبهذا تنتهي المسألة في رأيه (١١ يونيو)

(٥٣) جيش صادق بك وكيل الضابط (سيد قنديل) لم يمكنه أن ينفذ شيئاً من تعليمات الضبطية لأن **(عمر لطفي)** كان يعمل بعكس تلك التعليمات وبعد ذلك عين وكيل حكمة ارية السودان بناء على توصية **(عمر لطفي)** فهل لا بعاده حتى لا يشهد أو مكافأة له على المشاركة في الجناية ؟

(٥٤) بعد الحادثة نبه القناصل على الرعايا بالهجرة مع الطلب من كل ان يكتب ما عنده فكتبوا دفاتر وزادوا فيها ماشاؤا . ذلك أن القناصل كانوا يعتقدون أن البلد ستضرب وازادوا أن يربح رعاياهم ما يشاءون (١)

(١) ليعتبر الشرقيون بهذه الذمم وهذه التصرفات ولا سيما الذين يعرفون ما يمدح به هؤلاء الافرنج انفسهم وما يذمون به المصريين وسائر الشرقيين وما يصفونهم به من التعدي والعصب

(٥٥) في الاسبوع التالي للحادثة اشيع خبر ان سيمور لا يعتقد ان للحزب الوطني دخلا في الواقعة فاهتم الخديو وأمر عمر لطفي ان يخبر سيمور ان تعهد عرابي بالأمن أصبح لا يعتد به ويخشى من مذبة أخرى - ففعل ولكن لم ينل جوابا شافيا (أخبر الكاتب نبيه عرابي بذلك وطلب منه عزل * عمر لطفي * ولم ينسر)

(٥٦) ثم عينت وزارة راغب واصدرت عفوا عن الجرائم السياسية غير ان القناصل لم يعترفوا بها تبعا لقنصلي فرنسا وانكلترا

(٥٧) بعد ضباط سيمور خبر الطوابي (١) وانها ليست بشيء (هذا الباعث له على الضرب)

(٥٨) عساكر الطبجية كانوا في بلادهم بتعلة الاقتصاد ، كان في الطوابي مائة مدفع وواحد ، منها ٦٩ كانت في مواضعها الحربية والباقي كان مرميا بعضه بجانب بعض وذلك من نحو اثنتين وثلاثين سنة قبل الواقعة

وأما البمب (أي القذائف أو القنابل) فلم يفارق مخازن الترسانة، قبل الضرب بيوم واحد لم يكن جهاز مدفع من المدافع بما يلزمه من بارود وعاب
غيره الاهالي يوم الضرب

(٥٩) تحت مطر الكلل ونيران المدافع كان الرجال والنساء من أهالي الاسكندرية هم الذين ينقلون الذخائر ويقدمونها الى بعض بقايا الطبجية الذين كانوا يضربونها وكانوا يعنون بلعن الاميرال ومن أرسله

(٦٠) لورد نورثبروك أرسل البروفسور بلير (بالمر) ليفي قبائل عربان غزة من شهر يونيو وقابله نبيه وكان لا يذكر اسمه لتكره . وقال له يوما قبل الضرب بمدة : ليهاجر فان المدينة ستضرب

(١) المؤلف : هذه الجملة ليست واضحة في مسودة المذكرات وتدل القرينة على سقوط شيء منها ، والمراد منها أن سيمور قائد الاسطول الانكليزي عرف حقيقة حال طوابي الاسكندرية بالاختبار وانما غير مستعدة لضرب بوارج الاسطول ولكن لا يعلم من أخبره بذلك . وكلمة بمد في أول الجملة لا يعلم متعلقها ، ويحتمل أن يكون أراد بها « بعض » أي ان بعضهم اختبر الطوابي . ولكن كيف كان ذلك

(٦١) قبل الضرب بمدة صدر أمر من مدير شركة التاخرافات الانكليزية بتعديل في بعض الخطوط وطلب وكيلها في مصر مد خطوط إلى بورسعيد والسويس تحت الماء، وأذن له عرابي ولكن لم يتم
مدير الشركة في لوندرا طلب من وكيله بمصر في شهر مايو أن يتغيب بالاجازة إلى أن تنتهي الحوادث فإن ميله إلى الوطنيين قد يضر به عند الغالين إذا حدث حرب (٦٢) فنصل الروسية أكد لنيه ان الاسكندرية ستضرب وسأله أن يسعى على الأقل في عزل عمر لطفي . عزل عمر لطفي وعين ذو الفقار وهو لا يريد إلا ما أراد الخديو

﴿ شهر يوليو سنة ١٨٨٢ ﴾

تمرحش الاسطول لضرب الاسكندرية

(٦٣) في ٩ يولييه : كتب سيمور لطلبه (باشا) في شأن وضع المدافع وتجهيز الدفاع وتوعد بالضرب
(٦٤) في ١٠ منه : كرر ذلك الاشتكاء وقال انه سينفذ تهديده ان لم يسلمه طابية رأس التين لتجربتها من السلاح (لم يكن شيء من التجهيزات قد وصل في ذلك اليوم) فارسل اليه قرار من مجلس النظار تحت رئاسة الخديو حضره أيضا كثير من الاعيان محصله ان مصر لا يمكنها تسليم موقع من مواقعها إلا قهراً ، وان شيئاً مما يدعيه لم يحصل من يوم صدور أمر السلطان بمنع ذلك . وما كان قد حصل (فهو) من الترميمات السنوية . وان المدافع لم تزل على حالها من سنين وصل الجواب اليه ضابط قال له ان شاء فليزر بنفسه الطوابي وليتحقق مما يدعيه . فأجاب بانه مصر على وعيده ، وان عرابي لم يزل يحول بينه وبين مصر الخ
﴿ رأي الخديو توفيق باشا في ضرب الاسكندرية واحراقها ﴾

(٦٥) ١١ يولييه : أحد الميرالايات الذين في معية الخديو قال له : مامصير

الاسكندرية لو ضربها الانكليز؟

فأجاب (أي الخديو) ستين سنة !! وهز كتفه

فقال الضابط . لكن السكان سيحرقونها فأرجو أن تتوسط لدى الاميرال

والوقت لم يزل يسمح بذلك ، استدع ذو الفقار وأمره أن يحافظ على المدينة فعنده من الرجال الكفاية

فأجاب (اي الخديو) فلتحرق المدينة جميعها ولا يبق فيها طوبه على طوبه حرب بحرب ، كل ذلك يقع على رأس عرابي وعلى رؤوس أولاد الكلب

الفلاحين ، وسندوق الاوريون الملاعين عاقبة هروبهم مثل الارانب (٦٦) الخديو ذهب من رأس التين إلى الرمل والمحافظ وموظفو المحافظة انسحبوا واختفوا

﴿ حرق الاسكندرية وضربها والمهاجرة منها ﴾

(٦٧) بين من حرقوا الاسكندرية أروام بلباس عرب رؤيت جثثهم بتلك الثياب أثناء الحريق ، ومنهم عربان من أولاد علي ممن كانوا على صلة بالخديو - ومنهم من أهالي الاسكندرية - ومنهم أوريون بقصد المبالغة في التعويضات . وذلك بعد ما أخليت الاسكندرية ممن يخشى عليهم

(٦٨) في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ الساعة ٧ صباحا ضربت الاسكندرية ، وكان قد أوصى عرابي ضباطه ، ألا يضربوا الا بعد خامس طلقة من المراكب (٦٩) قتل كثير من النساء وهن حاملات أطفالهن على ايديهن ومات الاطفال أيضا ، وحمل النساء والاطفال وهن على هذه الحالة .

(٧٠) هدم المسجد الذي في طابية قائد بك عمداً وجهت اليه النار على قصد

المهاجرون من الاسكندرية

(٧١) نحو مائة وخمسين ألفاً من السكان مجردين من كل شيء أخذوا في الحركة لغير قصد ولا لماوى . الموت والفرع ملء نفوسهم . على شطوط الحمودية . الى دمنهور وجسر السكة الحديد من دمنهور الى القاهرة ،

كانت المهاجرة تكون خطوطا سوداء تارة عريضة وأخرى رقيقة ، متحركة في كل جهة ، أشبه بسلسلة انسانية طويلة ، هنا ينزلون ، هناك يمشون ببطء ، لا وقاية ولا عيش ، على طرفي تضاد مع سماء صافية وأرض خضرة نضرة ،

عود الضرب ثاني يوم .

(٧٢) في ثاني يوم الساعة ٨ صباحا عاد الضرب إلى الساعة الحادية عشرة وأصاب
 المستبالية وهجرها كثير من المرضى والجرحى وكان عليها العلم الأبيض بالهلال الأحمر.
 (٧٣) طلبة (باشا) بعد أن رفع العلم الأبيض على نظارة البحرية ذهب إلى الاميرال
 يسأله عن سبب عودة الضرب فاجابه أحد الضباط عن لسان الاميرال أنه يطلب
 تسليم الطوابي والقشلاقات أيضاً . طلبة أراد المخاطبة مع مجلس النظار ، انتشر
 الخبر في المدينة ، أخذ العساكر في إخلائها ، هلع الناس وأخذوا ثانية في الهرب
 (٧٤) دخل اولاد علي للنهب . سليمان سامي سلم محافظة محلة الاوربيين إلى
 عساكر الرديف الذين لم يكونوا أفضل من العربان فانضموا اليهم في النهب آخر النهار .
 * عود إلى وصف المهاجرين من الاسكندرية *

(٧٥) اما الهاربون فكانوا كالأعاصير أو كما انكسر سده فاندلق ، يتصل
 بعضهم ببعض مزدحمين متراكمين ، في حالة عقلية أشبه بالجنون ، سائقين امامهم
 أو حاملين على ظهورهم ماخف حمله من امتعتهم : حيوان ، اثاث ضئيل ، ثياب
 رثة ، حتى بعض المفروشات التي لا قيمة لها .

في هذه الحالة - حالة شعب طرد من بيته - كان الحر شديد او غيم من الغبار سد
 الأفق ، وأظلم الجو ، نساء يبجن عن أولادهن ، يتشاجرن بعضهن مع بعض ،
 يتضاربن ، في أخلاط لا يمكن التعبير عنه - عربات بلا عجل استعملت مساكن -
 عربات من كل نوع بعضها ساقط في المحمودية ، بعضها مقلوب ، بعضها بخيل ،
 بعضها بغير خيل - روائح شني اللحم - صياح على المارة : الخبز الخبز

(٧٦) ابتداء الحريق في المدينة الساعة ١١ مساء من ثاني يوم الضرب

(٧٧) في ١٣ يوليو توجه الخديو من الرمل إلى رأس التين ، وعسكر

عرايبي في كفر الدوار

(٧٨) في ١٤ يوليو عندما وصل عرايبي لكفر الدوار اجتمع عليه النساء

والرجال ياعنون العالم ويطلبون الخبز ، فوعدهم بالقوت وبما يحملهم مجاتا إلى داخل
 البلاد وقد أرسلوا مع تواصي للمديرين ليقبضوهم ويضعوهم في أعمال بقدر الطاقة

﴿ كتاب تاريخي من الخديو إلى عراي ورد عراي عليه ﴾
(٧٩) في مساء ذلك اليوم (١٤ يوليو) ورد لعراي كتاب من الخديو
محصله بعد العنوان .

سعادتو عراي باشا ناظر الحرية في معسكر كفر الدوار —
« إنك تعلم ان الاميرال الانكليزي لم يرد حرب مصر وانما اطلق المدافع على
الطواي بسبب ما كان جاريا من التجهيزات كما انذر به ، وقد اعلنا أنه يجب
اعادة العلائق معنا ، وانه مستعد لتسليم الاسكندرية لجيش منظم مطيع ، فان
لم يكن فالى جيش عثماني ، وقد قرر مؤتمر الاستانة ان للسلطان وحده حق المداخلة
بقوة السلاح في المسألة المصرية . فعليك ان تحضر مع رفاقك الى رأس التين
للمداولة في ذلك ، وأمرك بالكف عن التجهيزات التي لا فائدة منها بعد الآن »
فاجاب عراي بعد التعظيمات

« ان الاميرال انما اطلق المدافع بعد التأكيدات من الوزارة ومن سموكم
بانه لا تجهيز ولا تحضير ، وقد عددنا جميعا (وسموكم معنا) ان انذاره بالضرب
اهانة لمصر واعلان بحربها بلا سبب ، ومع ذلك فلم يقتصر الضرب على الطواي
كما قال بل قذف قذابل مفرقة على الاملاك حتى قتلت ودمرت كثيرا ، وان
عسكركم المنظم مستعد لان يأتي المدينة عند الاقتضاء ، وانا لا ارفض أي مخافة
في الصلح ، لكن يلزم ان يتذكر ان التعدي وخرق سياج السلم وتدمير المدينة
انما جاء من المراكب الانكليزية ، وان الطواي لم تجاوب إلا بعد خمس ضربة
من المراكب حسب القرار الصادر من المجلس المرءوس بسموكم وحضور درويش باشا
« ومن المعلوم ان انكلترة أصبحت بذلك محاربة لمصر ، اذ بعد اطلاق
النيران اثنتي عشرة ساعة واضطرار العساكر المصرية لاخلاء المدينة وإشغالها
بعساكر انكليزية لا يمكن ان يقال ان البلد في غير حرب

« سموكم يعلم أنه في هذه الحالة لا يمكن ان تكون مداولة حرة ما دامت
المراكب الاجنبية في مياه الاسكندرية بل يجب ان تبعد عنها ، فاذا حصل ذلك
فاني مستعد لاجابة الدعوة حالا . اما التجهيزات فيجب ان تستمر الى ان تبعد

عراي ك ب عن الاسكندرية. تلك التجهيزات التي يشير اليها شموكم وهي جمع ٢٥ ألف
مماثل هي التي امرتم بها وما انا الا لمنفذ لامرهم

﴿ عزل الخديو لعرابي باشا ﴾

(و اتفاق الناس على مخالفته واستمرار الاستعداد للحرب)
(٨٠) بعد أيام صدر الامر بعزله ووزعت بذلك منشورات لهذا السبب
وصرح فيها بأنه كان ناظر الحرية إلى تاريخ الدعوة إلى رأس التين
(٨١) طبعت نسخ من تلك الخطابات ووزعت في البلاد فجاء الناس لعرابي
طالبين بقاءه والاستمرار في الاستعداد ، وأخذت الهدايا تتوارد عليه من كل جانب
ثم شرع في بناء الاستحكامات ، وأغرق الجانبان من جهة الملاحات ،
وانتهت القلاع في قليل من الزمن ، وساعد على ذلك ان العدو لم يكن يعمل شيئاً

﴿ الجيش المصري والمتطوعون فيه والجيش الانكليزي ﴾

(٨٢) كان الجيش مؤلفاً من ثمانية آلاف منظمة مع ثمانين مدفعاً من كروب .
وكان يوجد في أبي قير ثلاثة الاف وخمسةائة ، والفان وخمسةائة في رشيد ، وخمسة
آلاف في دمياط ، المجموع أحد عشر ألفاً (١) اما الخيالة فلم يكن لهم وجود إلا قليلاً
(٨٣) كان من عمل المراكب ان تهدد في حركاتها النقط المذكورة لمنع

عرابي ان يرسل جيشاً إلى الوادي

(٨٤) أدخل العربان في الجيش على علم من عرابي بمضرة دخولهم . شرع
في جمع عساكر الرديف ولم يكونوا يصلحون لشيء . شرع في جمع غيرهم . ودخل
كثير من المتطوعين ولكن لم يكن يكفي لجعلهم جيشاً صالحاً للدفاع وراء
الجدران أقل من ثمانية أشهر مع الاجتهاد ، واما في الفلا فلا أقل من سنة لمسكري
ألماني ومن سنتين لمسكري انكليزي

١ أي مجموع العساكر التي في الثغور المذكورة فتكون مع الجيش المنظم الذي

يقوده عرابي ١٩ ألفاً

(٨٥) قالت التيمس : أرسلت الحكومة الانكليزية ٣٥ ألفاً وستبلغها ثلاثين ألفاً لمقاتلة الجيش المصري

﴿ طلاب التطوع في الجيش المصري من الاوربيين ﴾

(٨٦) كثير من ضباط التليان والالمان والسويس عرضوا انفسهم ومعهم عدد وافر من المتطوعين والبعض كان يطلب وسيلة للنقل والبعض لم يكن يطلب (كالا لمان) إلا تعيين الضابط الاكبر باسم رفيع في الجيش . أما الفرنسيون فجاء من بعض المفلسين منهم شيء لا يلتفت اليه

غير أن البحر كان مأخوذاً تحت مراقبة المراكب الانكليزية ، والمواصلات كانت منقطعة تقريباً بين مصر وأوربا

﴿ آراء عرابي في حالته وفي عدم الثقة بالفرنساويين ﴾

(٨٧) لم يكن بهم عرابي عند ما رأى في بعض الجرائد الفرنسية والانكليزية تلقيه بمص - إلا مخافة أن يصدر بذلك أمر ، وكانت له ثقة بالسultan إلا إذا أكره . وتذكر البارون درنچ وكان يلومه على عدم مساعدته له عند حكومته مع أنه كان موظفاً في خارجيتها . ثم بعد ذلك أخذ كرمصائب الاحتلال الفرنسي في مصر أيام نابليون وما احتال به هذا ومنو * على المصريين من الاكاذيب ، وما حصل من الفرنسيين في تونس ، واستنتج أنه لا يمكن الاعتماد على فرنساوي في شيء (١)

(٨٨) عند ما ضبط الاسير الانكليزي واستنطقه عرابي وسأله (٢) عما كان مكتوباً على بعض الكلال (٣) من اسم «اسكندريا» فأجابه حصل تحريف والحقيقة «اسكندرا» اسم المركب ، فاعتذر عرابي بعدم معرفته الانكليزية . ثم قال له

(* هذه كلمة مبهمه لم نستطع قراءتها قد تدل القرينة عليها

(١) المؤلف : ولكن عرابي اعتمد بهد هذا على داسبس الفرنسي في حماية القتال من الانكليز كما راه في عدد ٨٩ (٢) وقوله واستنطقه عرابي وسأله الخ لا بد أن يكون أحد الفعلين بغير او العطف (٣) الكلال تنطق بالكاف المفخمة واصلاً قاف ولما هم كتبوها بالكاف حتى لا تشبه بقلة الماء واصلاً واحداً

لعلك رأيت ما يخالف عما قرأت عن المصريين ؟ فأجابه نعم ولسكني عسكري ما علي إلا أن أطيع

﴿ انخداع عرابي بنفش دلسبس في تركه القنال ﴾

(٨٩) عرابي اعتمد على دلسبس في حماية القنال وكان يظن أن مس القنال يهيج عليه جميع الأمم لهذا ترك تلك الناحية عوراء ، وعند ما أحس دلسبس بأن الجيش المصري قد يتحرك ناحية القنال كتب تأمرافا لعرابي يقول له من المستحيل أن عساكر الانكليز تمر من القنال

وبعد واقعة مهمة في ناحية كفر الدوار جاء الخبر عقيها بأن اثنين وثلاثين مركبا توجهت إلى القنال فورد تلغراف من دلسبس يقول : لا تشرع في شيء بمس القنال ! لا يمر عسكري انكليزي الا ومعه جندي فرنساوي ! أنا مسئول عن كل ما يحصل . فأجيب بأن هذا غير كف وتقرر ارسال جيش ثم أرسل الجواب ببطء وقبل أن يتحرك عسكري إلى ناحية القنال كان الجيش الانكليزي قد احتله وذلك لتأخر الجيش ١٥ ساعة في مخابرة دلسبس ، ويظهر أنه كان في الحاضرين خونة حملوا الاخبار وأبطأوا في المخابرة

(٩٠) قال ولسلي لو قطع عرابي القنال كما قرر لم يكن لنا إلا حصر مصر ، والضرب في البحر أربعة وعشرين ساعة خلصتنا وأنجتنا

﴿ أخبار القتال بين المصريين والانكليز وضعف عرابي وجيشه ﴾

(٩١) في ٢٣ و ٢٤ أغسطس كانت واقعة نفيسة وأسر محمود فهمي (باشا) فجاء سامي (باشا) بنفسه وطلب من عرابي أن يذهب الى ناحية الوادي

(٩٢) جيش الجهة الشرقية كان أغلبه من العساكر المجموعة حديثا التي لا تساوي شيئا . خسارة محمود فهمي كانت جسيمة لا تعوض وليس من السهل تمويضه . عرابي وجميع الضباط ومحمود سامي شعروا بالضعف والوهن عند ذلك

(٩٣) قررت مشورة حربية اغراق المنطقة الشرقية مما وراء الزقازيق .

ذلك أخاف عرابي وأرهبه فلم ينفذ . وتقرر سحب بعض الضباط من دمياط . ورشيد وارسال مثل عبد المال إلى جهة الوادي ، فنفذ شيء وأوقف شيء ولم يحضر عبد المال وكان حضوره مفيدا

(٩٤) ذهب عرابي إلى الوادي في حزن وانكسار قلب . وقد اعترف أنه في مدة الستة أسابيع لم يأت اجتهاده بتنظيم قوة من المشاة يمكن الاعتماد عليها . أرسلت عساكر إلى الوادي وجاء إلى كفر الدوار من عساكر الرديف الهرمون والمؤفون (١) (٩٥) مع حركات الجيش التتالية ، وتلك الدهشة المستولية ، كان النظام والخضوع مستوليا على الجميع

﴿ عود إلى خيانة سلطان باشا ﴾

(٩٦) في ٢٧ أغسطس جاء خبر بأن فارسين خرجا من الاسكندرية وتوجها من الناحية الشرقية من البحيرة وهما بدويان من قبيلة أولاد عي من عائلة شهيرة بالفيوم فقبض عليهما عند مرورهما على قريب من معسكر كفر الدوار

ووجد معهما منشورات من سلطان باشا ورسائل منه إلى رؤساء القبائل وبعض الضباط يدعومهم إلى ترك عرابي والاتحاق بالجيش العثماني الذي جاء لاختضاع العصاة

استنطقوا فاعترفوا بكل شيء : وذكروا أن جنديا بحريا انكليزيا يسمى

(جيل) حمل ثلاثين الف جنيه من سيمور ليالحق بالاستاذ (بالمر) يستميل معه

عربان غزة ، وحمل معه رسائل من توفيق ومن سلطان باشا إلى رؤساء العربان

في الشرقية - وان مبلغا لا يقل عن المبلغ السابق سيصبح القائد الانكليزي

إلى الزقازيق ، وبعد أن سلم الضابط أوراق المرور إلى القائد ذهب إلى السويس لمقابلة (بالمر) وقد قطع سلك التلغراف الذي يصل بين مصر والآستانة . وكان

(١) أي الذين ادركهم الهرم والمصابون بآفات العاهات فلا يستطيعون عملا . مؤفون

جمع مؤف وأصله مؤوف اسم مفعول من أوف الشيء أو الشخص أي أصابته آفة أو عاهة

كل ذلك حقا فان قائد الفرقة البحرية في القنال أخذ المبلغ من (جيل) وسلم منه أربعة آلاف جنيه إلى (بالمر) وحجز الباقي على حسابه وأرسل معه جيل وضابطا آخر قتلوا جميعا بين العربان

(٩٧) مركز الدسائس والمخابرات كان في اسكندرية في مكتب يسمى (قسم المخابرات العسكرية) اجتمع فيه كثير من الانكليز من موظفي الحكومة المصرية ومن المقيمين بمصر

وكان روح الجميع سلطان باشا

(٩٨) عرف سلطان باشا أن توزيع النقود باسم الانكليز لا يفيد، وعرف مقدار سلطة النقود على الارواح، فأخذ في التوزيع باسم الخديو والسلطان، واختار لبث الافكار الحاوي الطحاوي أحد ثقة عرابي، فكان الحاوي يسطر اخوانه العربان بعضيان عرابي وقوة الجيش المحارب ونحو ذلك، وكانت القيم التي تدفع إلى الافراد متفاوت من جنبيين إلى ثلاثة. ولم يكن عرابي يقتنع بخيانة العربان وكان الحاوي مع ذلك يخبر عرابي ببعض حركات العدو على وجه الصدق وعرابي كان يفضي اليه بجميع ما عنده

(٩٩) في واقعة القصاصين كان الرسم كما ينبغي وكانت العساكر المصرية يجب أن تزحف في الساعة الثانية بعد نصف الليل على الجيش الانكليزي، وما راع القواد المصريين الا وجود الفرق الانكليزية زاحفة وأخذة جميع الطرق في الساعة واحدة. وجرح علي فهمي وراشد باشا وانهزم الجيش، وما ذاك إلا من الجواسيس العربان. وكانت الخيانة وصلت والنقود قد وصلت إلى قلب

الجيش وإلى كثير من الضباط بسعي سلطان باشا ومراسلة العربان (١٠٠) في ١١ سبتمبر جاء عرابي مراسله يذبه بخيانة العربان. فأبى قبولها

هائلا انهم مسلمون (!!!)

(١٠١) في ١٢ سبتمبر أنبىء عرابي من المنيع نفسه (بعض رؤساء العربان

أيضا) بأن الانكليز سيضربون التل الكبير ويرمون إلى بليس (جوة حصنها
الفرنساويون من قبل) ليأخذوا هذا الموضع ويفتحوا طريق القاهرة . اقتنع
عراي بصحة الخبر فأرسل إلى طلبة يطلب منه ارسال فرقة من الجنود لتكون
في التل الكبير صباح الثالث عشر من شهر سبتمبر . جاءت الفرقة ماشية، وصلت
الزقازيق في صباح اليوم المذكور بعد الهزيمة

(١٠٢) يقول أحد الضباط إنه في الساعة الثانية بعد نصف الليل لم يشعروا
إلا بصياح العربان ، وبضرب النيران ، ولم يعرف من كان لهم ممن عليهم ،
ووقع الاضطراب العام ، والجيوش الجديدة انهزمت فكان الانكليز يقتلونهم
كانهم في الصيد ، وقاوم ثلاثة آلاف فني نحو نصفهم . وبعض الضباط كان في
عجز عن المشي عن الفرار (لعلها عند الفرار) لثقل النقود التي كان يحملها فهب
من بعض السودانين

(١٠٣) يقال ان عراي كان يحب اطالة زمن الحرب (أي رجاء أن تتدخل
الدول في المسألة كما قاله الاستاذ في موضع آخر — المؤلف)

[يقول المؤلف محمد رشيد رضا] هذا ما عندنا من المذكرات الخاصة بالفتنة
المراية أثبتنا بحروفها كما كتبها رحمه الله في تلك الايام الحالكه الظلام، المشتبهه
الاعلام ، المثيرة للاوهام ، حتى انني لم أصحح ما أقطع بانه من عنبر القلم وان كتب
في بعض المواضع على الاصل الصحيح ، وفي بعضها على المشهور الدائر على السنة الناس
كلفظ الاسكندرية واسكندرية وسكندرية . وأما وضعت قليلا من العناوين
لبعض المسائل المهمة في سطر مستقل للتنبيه والترويح فيها وبعض الخطوط على
بعض الاعلام أو الجمل من فوقها وقائلا من الكلمات المفسرة والموضحة بين
علامتي الادراج هكذا () وأما الجمل التي وضعت بين هاتين العلامتين فهي
له رحمه الله تعالى الا الاخيرة منها التي ختمنا بها كلمة المؤلف وفي هذه المذكرات
عظات وعبر لو اتبع لا استاذنا رحمه الله تعالى أمام تاريخ الفتنة المراية وشرحها
لاستفاد قراؤه منها مالا يوجد له نظير الا في كلام حكماء المؤرخين الاعلام الذين
يقل عددهم حتى في الامم الحية العزيزة ، وكان لدى الاستاذ ملخصات مترجمة من

الجرائد الاجنبية فيما كانت تكتبه من الاخبار والآراء في المسألة المصرية في أثناء تلك الفترة، كانت تترجم بأمره لادارة المطبوعات التي هو رئيسها ولدينا بعضها ولكن لا حاجة لنا بنشره لاننا نكتب تاريخ الرجل لا تاريخ الثورة العرايية، وقد جئنا بما علم به وايضا في اسبابها ونتائجها وسيرته في اولها وآخرها .

ولما كان غرضنا من كتابة تاريخه استفادة الامة مما فيه من المهرة حسن منا أن نذكر القارئ ببعض الفوائد التي تؤخذ مما كتبه في هذه المسألة كتابة للورخ الصادق الحكيم والوطني الصميم .

﴿ بعض فوائد ما كتبه في المسألة العرايية ﴾

(الفائدة الاولى) ان الاوربيين كانوا يتصرفون في الدولة المصرية وبلاد المصرية أسوأ التصرف وأشد إفسادا للنظام ، وكلبا في جمع الحطام ، وسوقون للحكام والرعية كما تساق الانعام ،

(الفائدة الثانية) ان أسراء البلاد لم يكن عندهم من العلم بطبائع الامة وحقوق الدول وأخلاق البشر وتاريخهم وسنن الاجماع ملهديهم الى السياسة المعقولة والادارة القويمة في حفظ ملكهم الاستبدادي ، لذلك كان اسماعيل باشا هو المحتاح لثروة الامة والدولة ، الممكن اننفوذ الاجانب فيها ، والمهد للثورة التي هي موضوع بحثنا ، وهو يظن أنه سيجعل مملكته كمالك أوربة . وكان توفيق باشا هو الموقد لثارها ، والداعي للانكليز الى احتلالها ، من حيث يظن أنه يحفظ سلطته من عبث الرعية بها .

(الفائدة الثالثة) إنه لم يكن في رجال هذه الدولة وأصحاب النفوذ فيها أوفي الشعب رجل كبير العقل بعيد الرأي قوي الاخلاص والعزم يتلافى الثورة على علم وبصيرة ، بان يحقق ما حققه الشيخ محمد عبده من أسبابها ، ويقنع الخديو توفيقا بما يجب فعله في امرها ، وقد كان هذا ممكنا مع توفيق لما كان عليه من الدماثة وضعف الارادة ، مع حب الخير والتدين ، ولو كان لهذا الشاب الازهري محمد عبده مدير المطبوعات ورئيس تحرير الجريدة الرسمية ما كان لرياض باشا وشریف باشا من المكانة في الدولة أو ما كان لسلطان باشا من الجاه والثروة في الامة ، لتقام بهذا

الواجب. كان سلطان باشا يعلم ان عرايي وأخوانه الضباط المصري المرق مافكروا قبل تفاقم خطب هذه الحوادث بالخروج على الحديو ولا في تقييد سلطته الاستبدادية بمجلس نواب ولا بغيره ، وكان يعلم ان غرضهم الاول من طلب المجلس الامن على أنفسهم ثم على وظائفهم العسكرية ، وان غرضه هو من المجلس الذي اتخذهم وسيلة له ان يكون وزيراً أو رئيساً له ، فكان يمكنه بهما استفحال الخطب وقرب وقوع الخطر على البلاد بالاحتلال الاجنبي — وقد رست بوارج الاسطول أمام مدينة الاسكندرية — ان يقنع الحديو توفيقاً بحقيقة أمر العرايين وان اخضاعهم ممكن ، وأنه خير له والبلاد من الاستعانة عليهم بالانكليز ، فان هؤلاء اذا احتلوا البلاد احتلالاً عسكرياً بظهورهم على قواتها العسكرية فان سلطانه الحقيقي يزول ، وانما يبقيه الانكليز كالشبح المائل ليستعينوا باسمه على حكم البلاد كما يريدون ، كما فعلوا في بعض الممالك الهندية أو دون ذلك ، ولكن سلطان باشا كان أصغر نفساً وأقل علماً وأضعف وطنية من ذلك ، بل كان خائناً خان اميره أولاً بشبهة خدمة الامة وجعل حكومتها مقيدة بالشورى النيابية ، ثم خان أمته بشبهة خدمة أميرها والمحافظة على امارته ، وانما خدم الانكليز وحدهم

فاين هو من الشيخ محمد عبده الذي كان ساخطاً على عرايي وجماعته منكراً عليهم افتياتهم على حكومتهم وأميرهم ، محذراً آياه من سوء العاقبة بانتهاء فتحه باحتلال عسكري يوجب لمسيه لعنة التاريخ الى يوم القيامة ، ومنكر أعليه وعليهم التعجيل بطلب الحكومة النيابية قبل اعداد الامة لها ، على أنه كان هو واستاذ السيد جمال الدين أول من نبه الافكار ووجه القلوب اليها ، ثم لما آل الامر الى تدخل الاجانب في أمر البلاد بطلب الحديو اضطر إلى ان يكون مع الامة عليه ويساعد الامة ما استطاع من رأي ، وقد تقدم ما ثبت ذلك بالتفصيل

(الفائدة الرابعة) ان من أهم أسباب هذه الفتنة ، وما آلت اليه من المحنة احتقار الحديو ورجال بلاطه وكذا وزراؤه وكبار ضباط جيشه من الترك والجركي المصريين الخالص ، والتعير عنهم بالفلاحين للتحقير والتعير . وعدم غير أهل لمناصب الدولة ، ولذلك عظم على توفيق باشا ان يطلب منه هؤلاء الفلاحون حقاً وقوة

خلقوا على رأيه ورأي البيئة التي تربى فيها ليكونوا عبيدا ، حتى آل به الامر الى الاحتفال بانتصار الانكايذ على جيشه وقبوله التهانى من الوجهاء على احتلالهم لبلاده . وسلبهم للملكه ! كما يراه المطلع على كتاب (مصر للمصريين) وعلى جرائد تلك الايام . والواقع أن البلاء وقع على رأسه هو لانه سلب منه ملكه الاستبدادي ، وان الفلاحين كانوا في عهد الاحتلال آمن على أموالهم من السلب ، وعلى أنفسهم من الاهانة والضرب ، مما كانوا عليه من قبل ، وهذا من أكبر ما أصاب الشعوب الاسلامية بعد زوال ملك العرب العادل ، الذين كانوا يعدون جميع المسلمين أخوة لهم في الاسلام ، وكانوا يساوون في العدل بين جميع رعاياهم على اختلاف ملاتهم ومجملهم واجناسهم ، وملاحدة الترك يعدون هذا من عيوبهم ، جاهلين انهم لولاه لما تم لهم إخضاع تلك الشعوب الكثيرة لسلطانهم . وإدخال تلك الملايين في الاسلام باختيارهم . (الفائدة الخامسة) ان الشعب المصري في جملة قد قام بكل ما يجب عليه من الحقوق المالية والوطنية ، فقد بذل كل ما استطاع من المال والرجال في سبيل الدفاع عن بلاده ، وأما خانه بعض كبار رجاله كسلطان باشا وبعض الضباط وهمج البدو ، لارجال الحكومة والقصر (السراي) من الاعاجم الاصل وخدمهم . وقد استفاد الشعب المصري من هذه الفتنة أن شعوره بوجوده وبحقوقه قد انتشر في المدائن والقرى ، وضعف به ما كان مستحوذا على القلوب من هيئة الأمراء والحكام ، بعدما كان من جرأة العرايين عليهم فان الاسباب الخفية الخاصة التي جرأت ضباطه على المطالبة بحقوقهم التي هي حقوق لشعبهم لم تكن معروفة للجمهور ، على انها كانت أسبابا شخصية ، دخلت في طور الحقوق العامة ، فكانت كما قال بعض أئمة العلم : طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون الا الله واستفاد عقلاء الشعب من الحكم وغيرهم أنه لا قوة في هذا العصر للدولة الا بالامة ، وان الحكومة الشخصية الاستبدادية اذا لم تسقط بقوة الامة فانها لا بد ان تسقط بقوة الاجانب ، وتكون آلة لهم يذلونها ويذلون الامة بها ، وأنه لا يرجى استقلال لهذه البلاد الا بعد تمكن هذه العقيدة فيها ، وعملها بمقتضاها .

(الفائدة السادسة) ان الدولة العثمانية العريقة في الحكم وممارسة السياسة

الدولية لم تحسن التصرف في المسألة المصرية ، وكان يسهل على مندوبيها المشير
حرويش باشا درء الخطر ، وحل الاشكال ، ولكنه كان خائفا أيضا فاخذ
الرشوة من توفيق باشا وواقفه على هواه ، فابن هو من فؤاد باشا في حل مشكلة
سورية ولبنان سنة ١٨٦٠ واخراجه للجيش الفرنسي منها بدهائه وحكمته

(الفائدة السابعة) أن الاستاذ كان مؤيداً لوزارة رياض باشا الاصلاحية ويرى
أنها صورة حسنة للمستبد العادل الذي يرجى أن ينهض بالامة في مدة خمس عشرة
سنة كما بين ذلك في مقالة اجتماعية عامة وجيزة يراها القارىء في الجزء الثاني من
هذا التاريخ ، وكان يفضاها على إنشاء حكومة نيايية قبل استعداد الامة لها . وإن
كان اول من نبه الامة لها هو وأستاذه السيد جمال الدين ودعواها اليها كما تقدم .
ولكنه كان يرى ان رياضاً قد افراط في العدل والاصلاح بعدم مراعاة

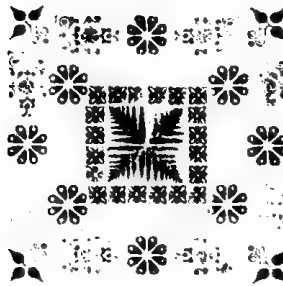
استعداد الخديو ورجاله وأركان حكومته الذين استمروا مرعى الاستبداد وطبعوا
على الاسراف في استعباد الرعية الضميعة الجاهلة ، وأنه كان ينبغي له مداراتهم
والرفق بهم ، وأنه لما علم بسخط اميره عليه وكرهته له كان ينبغي له ان يستقيل
من منصبه أو يرضيه ان أمكن ، لأن طاعة الأمير واجبة عقلاً وشرعاً مادام أميراً ،
فان ظلم وفسد وتعذر اصلاحه جاز السعي لاسقاط إمارته بالوسائل التي سنّها الخالق
الحكيم للاجتماع البشري ، ولكن لا يجوز الاستبداد عليه والعصيان له مادام أميراً ،
(الفائدة الثامنة) أنه كان يعتقد أن عمل عرابي خطأ وخطر على البلاد ، لان

• تصدي رجال الجيش لادارة الحكّام وإرغام ممثّل السلطة العليا ومن دونه على
ما يريدون ، قلب النظام ، وافساد للحكم ، وافضاء بالدولة الى الفوضى ، ولان الثورة
العسكرية في مصر قد تفضي الى احتلال اجنبي يذهب باستقلالها ، وكان يعلم
تلقاه عن السيد جمال الدين ما كان من سيرة الانكليزية في الاستيلاء على الممالك الهندية ،
ويعلم أنه ليس في البلاد من القوة العسكرية المنظمة ومن الثروة ما يمكنها من
الظفر بدولة قوية غنية كاللدولة الانكليزية — وقد تقدم عنه التصريح بهذا

وكان مع هذا كله يعتقد أن عرابي باشا غر ساذج ينخدع للاجانب ولا
لايصح أن يخفى على رجل متعلم في الدرجة الوسطى ، وذكر عنه أنه انخدع

يقتصل فرسة الجنرال أولا وبموسيو دلسيس آخراً ، وإنما فهم بعد خراب البصرة
 أنه لا ينبغي لاحد ان يثق بفرسة ولا باحد من رجالها — وأنه انخدع لأعراب
 تولاد علي وكان يطلع الحاوي جاسوس الانكليز على أسراره العسكرية ولا يتصور
 وقوع الخيانة منه ولا من احد منهم « لانهم مسلمون » فيالله العجب من فهمه لاسلامهم
 ومن ارتقائه بانفسهم فيه الى مقام الصحابة من المهاجرين والانصار ، والى درجة
 الاولياء والابرار ، بل عرج بهم الى أفق الانبياء المعصومين عليهم السلام . وأكثرهم
 لم يعرف من الاسلام الا اسمه ، ولا من القرآن الا رسمه ، كما يقول خطباء
 الجمعة في مسلي هذا الزمان من أهل الحضارة ، بله هيج البدابة . فهل يرجي
 لجيش ان ينتصر على مثله أو ما دونه في العدد والعدد اذا كان قائده يبني
 أحكامه وأعماله الحربية على هذه الاوهام ؟ كلا ، فكيف يرجي ان ينتصر على
 جيش يفوقه في كل شيء من الاسباب كالعدد والعدد والسلاح والنظام ؟

وإنما كان الاستاذ مع هذا كله يشد أزرهم بما استطاع بمد وقوع العداء بينهم
 وبين الانكليز لان هذا واجب شرعا ووطنية ، ولو استطاع درء هذه الفتنة بمنع
 الثورة قبل استفحالها ، وبصلاح شريف بعد وصولها الى آخر حدها ، لفعل . والله
 في خلقه سنن مطردة ، والموفق من الافراد والشعوب من اعتبر بها وراعاها في عمله ،
 (ولن تجد لسنة الله تبديلا * ولن تجد لسنة الله تحويلا)



خاتمة هذا المقصد

(في اتهامه وسجنه ، وما كان من تأثير السجن والوشاية في نفسه ، والحكم عليه بالنفي من بلاده)
لا تكمل تربية الرجال ، إلا بمكافحة الاهوال ، فمعادن الانفس لا تصفو من شوائب الضعف في الحق ، ولا تتمكن من مقعد الصدق ، إلا بعد ان تعرض على نيران المحن ، وتذاب في بواتق الفتن (فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض) ولذلك يبتي الله سبحانه وتعالى عباده المصلحين بفتن المفسدين ، ليعلم الصابرين والصادقين (وليرخص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) فالفتن والكوارث تمحص أنفس المؤمنين بالله السائرين على سننه فتزكيها وتعليها ، وتمحق الكافرين بنعمه ، والتنكين لسننه ، فتدسيها أو تفتنيها .
وقد اتهم الاستاذ الامام في الثورة بما هو بريء منه ، وتفتن المناقون يومئذ باخبار سوء عنه ، وتقديم تقارير السعاية فيه ، فسجن وأهين كزعماء الثورة الذين كان يعارضهم ، ويحذرهم وينذرهم عاقبه جهلهم ، وحوكم كما حكموا بجرمة العصيان ، ولكن ظهر بعض حقه في الحاكمة فحكم عليه بعد سجن ثلاثة أشهر وأيام ، بالنفي من القطر المصري لمدة ثلاثة أعوام ، وقد زعم مستر برودلي محامي العربيين الانكليزي ما تقدم عنه من سوء تأثير السجن في نفسه ، وحكمنا عليه بالخطأ في زعمه ، وقد نشرنا قصيدته التي نظمها في السجن ، وبين فيها رأيه في الثورة ورجائها ، وانا ننشر هنا ما كتبه رحمه الله لبعض أصدقائه وهو في السجن لا يدري ما الله صانع به ؟ ففيها الحجة البالغة على خطأ برودلي بما كشف من الحجاب عن كبر نفسه ، وعلو همته ، وصفاء سريرته ، وحسن نيته ، وبعد آماله ، وثقته بمواهبه ونعم ربه . لانه كتب ونظم تحت سلطان تأثير السجن واحتمال القتل .

﴿ الكتاب الذي أرسله من السجن الى احد اصدقائه او مردييه ﴾

وفيه من وصف حاله فيه وما بلغه من الوشايات فيه ممن كان يعدهم من اصدقائه
أو مردييه ويحسن اليهم، وتأثير ذلك في نفسه - ومن وصف شعوره وآماله ونيتته -
ما هو أصدق تصوير عنها . قال :

في ٩ المحرم سنة ١٣٠٠

عززي

تقلدني الليالي وهي مدبرة فأني صارم في كف منهزم
هذه حالتي : اشتد ظلام الفتن حتى تجسم بل تحجر ، فأخذت صخوره
من مركز الارض إلى المحيط الأعلى ، واعتضت ما بين المشرق والمغرب ،
وامتدت إلى القطبين ، فاستحجرت في طبقاتها طباع الناس ، اذ تقلبت طبيعتها على
المواد الحيوانية أو الانسانية ، فأصبحت قلوب الثقلين كاللحجارة أو أشد قسوة ،
فتبارك الله أقدر الخالقين *

انتشرت نجم المهدى ، وتدهورت الشمس والاقمار ، وتفتيت الثوابت النيرة .
وفر كل مضي . منهزماً من عالم الظلام ، ودارت الافلاك دورة العكس ، ذاهبة
بنيراتها إلى عوالم غير عالمنا هذا ، فولى معها آلهة الخير أجمعين * وتمحضت
السلطة لآلهة الشر ، قلبوا الطباع ، وبدلوا الخلق ، وغيروا خلق الله ، وكانوا
على ذلك قادرين * (١)

(١) قوله آلهة الخير وآلهة الشر - يراد بهما عوامل الخير والشر وأسبابهما
ويخرج على الحكاية لخرافات اليونانيين ، كما يقال اغتاثهم التيلان - فيمن هاكوا
بأسباب مادية تجوزاً مبنيًا على المعروف من خرافات العرب . ويعد بعض المفسرين
من هذا القبيل قوله تعالى « يتخبطه الشيطان من المس » - كما في انبيضاوي وغيره
وتوم بعض أدعياء العلم باللغة وفنونها وبالشريعة ان ذكر الآلهة ولو بأسلوب
الحكاية اثبات لها ، فإنه لم يقرأ في كتاب الله تعالى ذكرها حكاية عن العرب واستقلالاً ،
ومن الثاني قوله تعالى (فما أغنت عنهم آلهم التي يدعون من دون الله)

رأيت نفسي اليوم في مهمه لا يأتي البصر على أطرافه ، في ليلة داجية ، غطي فيها وجه السماء بغمام سوء ، فتكاثف ركاما ، لا أرى إنساناً ، ولا أسمع ناطقا ، ولا أتوم مجيئاً ، أسمع ذئاباً تعوي ، وسباعاً تزار ، وكلاباً تنبح ، كلها يطلب فريسة واحدة ، هي ذات الكاتب ، والتف على رجلي تنينان عظيمان ، وقد خويت بطون الكل ، وتحكم فيها سلطان الجوع . ومن كانت هذه حاله ، فهو بلا ريب من الهالكين *

تقطع جبل الأمل ، وانفصمت عروة الرجاء ، وانحلت الثقة بالاولياء ، وضل الاعتقاد بالاصفياء ، وبطل القول باجابة الدعاء ، وانفطر من صدمة الباطل كبد السماء ، وحققت على أهل الارض لعنة الله والملائكة والانبياء وجميع العالمين سقطت الهمم ، وخربت الذمم ، وغاض ماء الوفاء ، وطمست معالم الحق ، وحرقت الشرائع ، وبدأت القوانين ، ولم يبق إلا هوى يتحكم ، وشهوات تقضى ، وغىظ يحتدم ، وخشونة تنفذ ، تلك سنة القدر ، والله لا يهدي كيد الخائنين *

ذهب ارباب السلطة في محور الحوادث الماضية ، يفوضون لطلب اصداف من الشبه ، ومقذوفات من التهم ، وسواقط من اللوم ، ليموهوا بمياه السفسطة ، ويفشوها بأغشية من معادن القوة ، ليرزوها في معرض السطوة ، ويفشوا بها عين الناظرين * لا يطلبون ذلك لغامض يبينونه ، أو لمستور يكشفونه ، أو لحق خفي فيظهورونه ، أو خرق بدا فيرقعونه ، أو نظام فسد فيصلحونه ، كلابل ليثبتوا أنهم في حبس من حبسه غير مخطئين *

وقد وجدوا لذلك أعوانا من حلفاء الدناءة ، وأعداء المروءة ، وفاسدي الاخلاق ، وخبثاء الاعراق ، رضوا لانفسهم قول الزور ، وافتراء البهتان ، واختلاق الافك ، وقد تقدموا إلى مجلس التحقيق ، بتقارير محشوة من الابطال ، يكونوا بها علينا من الشاهدين *

كل ذلك لم تأخذني فيه دهشة ، ولم تحل قلبي منه وحشة ، بل أنا على أتم أوصافي التي تعلمها ، غير مبال بما يصدر به الحكم أو يبرمه القضاء ، عالما بان كل ما يسوقه القدر وما ساقه من البلاء ، فهو نتيجة ظلم لاشبهة للحق فيه ، لان الله يعلم — كما

أنت تعلم — أنني بريء من كل ما رموني به ، ولو اطلعت عليه لوليت منه رعباً
أو كنت من الضاحكين *

نعم خفتي الغم ، وأصمى فؤادي الهم ، وفارقتي النوم ليلة كاملة ، عند
مارأيت اسمك الكريم ، واسم بقية الابناء والاخوان المساكين ، تنسب اليهم
أعمال لم تكن ، وأقوال لم تصدر عنهم ، قصد زجهم في المسجونين * لكن اطمان
قلي ، وسكن جاشي ، عند مارأيت توارخ التقارير متقدمة ، ومع ذلك لم يصلكم
شر الشر ، فرجوت أن الحكومة لم ترد أن تفتح باباً لا يذر الأحياء ولا الميتين *

قدم فلان وفلان ^(١) تقريرين جملا فيها تبعات الحوادث الماضية على عني ، ولم
يترك شيئاً من التخريف إلا قلاه ، وذكر أسماءكم في أمور أنتم جميعاً أبعاد الناس
عنها ، لكن لا حرج عليهما ، فاني أعدهما من المجانين *

ولم أتعب من هذين الشخصين ، إذ يعملان مثل هذا العمل القبيح ، ويرتكبان
هذا الجرم الشنيع ، ولكن أخذني العجب كل العجب ، غاية العجب ، بالغ ما شئت
في عجبني ، إذ أخبرني المدافع عني بتقرير قدمه فلان (٢) الذي أرسلت إليه
السلام ، وابلغته سروري عند ماسمعت باستخدامه وأنا في هذا الحبس رهين *
إلى هذا الوقت لم يصلني التقرير واسكن سيصل إلي ، إنما فيما بلغني أنه
شهادة باقبح شيء ، لا يشهد به الأعدوميين *

هذا اللائم الذي كنت أظن أنه يالم لائي ، ويأخذ الاسف الحلي ، وينزل وسمه إن
أمكنه في المدافعة عني ، فكم قدمت له نفعاً ، ورفعت له ذكراً ، وجعلت له منزلة
في قلوب الحاكمين *

كم سمعني أقوم هييجان (٣) الجرائد ، وأوسع محرريها لوما وتقريباً ، وأهزأ بتلك
الحركات الجنونية ، وكان علي في بعض أفكاري هذه من اللامعين *
كان ينسب فلانا لسوء القصد اتباعاً لرأي فلان ، وأعارضه أشد المعارضة ، ثم

لم أنقض له عهداً ، ولم أنجس له ودّاً ، وحقيقة كنت مسروراً لوجوده ، وظفأ ، فإباليه أصبح من الناكثين ؟

آه ما أطيب هذا القلب الذي يملئ هذه الاحرف ! ما أشد حفظه للولاء ، ما أغيره على حقوق الاولياء ، ما أثبتته على الوفاء ، ما أرقه على الضعفاء ، ما أشد اهتمامه بشؤون الاصدقاء ، ما أعظم أسفه لمصائب من بينهم وبينه أدنى مودة ، وان كانوا فيها غير صادقين *

ما أبعد هذا القلب من الايذاء ، ولو للاعداء ، ما أشده رعاية للود ، ما أشده محافظة على العهد ، ما أعظم حذره من كل ما توابع عليه الذم الطاهرة ، ما أقواماً على العمل الحق ، والقول الحق ، لا يطلب عليه جزاء ، وكم اهتم بمصالح قوم و كانوا غافلين *

هذا القلب الذي يؤلمونه بأكاذيبهم ، هو الذي سر قلوبهم بالترقية ، وملاها فرحاً بالتقدم ، واطف خواطرهم بحسن المعاملة ، وشرح صدورهم بلطف الجمالة ، ودافع عنهم أزماناً - خصوصاً هذا اللئيم - أقدر شرح "صدورهم وهم يخرجون !! ونشفي القلوب وهم يؤلمون !! ونفرحهم وهم يحزنون !! تالله قد ضلوا وما كانوا مهتدين *

هذا القلب ذب معظمه من الاسف على ما يلم بالهيئة العمومية من مصائب هذه التقلبات ، وما ينشأ عنها من فساد الطباع ، الذي يحمل العموم في قلق مستديم ، وما بقي من هذا القلب فهو في خوف على من يعرفهم على عهد مودته ، فان تسللوا جميعاً بمثل هذه الاعمال وأصبحوا من مودته خالين ، واتخذوه وقاية لهم من المخررة ، وجملوه رسماً يعرضونه لتلقي سهام النوائب التي يتوهمون تفويقها اليهم ، كما اتخذوه قبل ذلك سهماً يعيرون به أغراضهم ، فينالون منها حظوظهم ، فقد أراحوا تلك البقية من الفكر فيهم ، والله يتولى حسابهم ، وهو أسرع الحاسين *

آه ، ما أظن ان تلك البقية تستريح من شاغل الفكر في شؤون الاحبة ، وان جادوا في تصرفهم ، ان طبيعة هذا القلب لطيفة ناعم الخبز ، إذا اتصل بذئ الود ، وان كان خشناً فصعب أن ينفصل ولو مزقته خشونته ، وان هذا القلب في علاقه مع الوداء ، كالضياء مع الحرارة ، أيما حادث يحدث ، وأيما

كياوي يدق، لا يجد للتحليل بينها سبيلا ، وأظنك في العلم بثبوت تلك الطبيعة فيه كنت من المحققين *

أي عزيزي

الآن وصلي تقرير اللثيم ، فقرأته بأول نظرة ووجدته كما بلغني ، وسأرد عليه في بضع دقائق بما يسود وجهه ويخجله ان كان إنسانا ، ولكن تصادف فراغ الخبر من الدواة ، فسانتظر بالرد عليه وتتميم رقيمي اليك بعض ساعات فكن معي من المنتظرين *

* *

وددت على التقرير ، وكان كل ما فيه الغش والتعريف ، وذكر فيه فلانا ... باشنع ما يؤاخذ به انسان في هذه المسألة كما ذكره الخيستان قبله ، ولكن دفعت ماقاله في جانبه أيضاً . وأخذت على نفسي كل مسئولية تنسب اليه أو اليكم ، فماعليكم ان سئلتهم الا ان تكونوا منكرين *

ربما يسألكم (القومسيون) عن معلوماتكم في شؤوني أيام الحوادث ، فلا يدخل عليكم غش السؤال والارهاب ، ولكن عبروا عما كنتم تشهدون وتملنون من أفسكاري وأقوال التي كانت تهزأ بالحكومة الفلانية ، ومن كانوا الهامن الطالبين * إلى هذا الحد قفوا ، فان سئلتهم فقولوا ما نحن بتأويل الاحلام بهالين * في هذا الوقت وصاني الرقيم مبشراً بيقائكم في مركزكم ، فقامت ورفعت يدي ورجلي وناديت : الحمد لله رب العالمين * وأخذني الاسف على حبس فلان لكن دل إطلاقه على حسن حالة الباقيين *

ياعزيزي ، أعود إلى ذكر ما لأولئك القوم ، كأنما قذف بهم من شاحق جبل فسقطوا على رؤوسهم ، ففشيهم من شدة الصدمة ماغشيهم ، فقاموا ينطقون بما لايعون ، ويتكلمون ولايفهمون ، مابالهم يقذفون من أفواههم أخلاطا أفقر من البلغم . وامر من الصفراء ، وكأنما جرعوا جرعة من السم فقلبت أمعاءهم فاستفرغت من حلاقيهم أخبث ما يحملون *

مابال دنان قلوبهم تفيض من اللؤم أشد من فيضان بئر بهوت ، تقذف بسائلات

بشعة الطعم، خبيثة المنظر، كريهة الرائحة، تضطر معانيها للفرار منها؛ لكن اعضاء التحقيق من زكام الحوادث الاخيرة لا يشمون ولا يذوقون، ومن ظلماتها لا يبصرون * هل بطل يا عزيزي ماجاء على لسان النبوات: الانسان أسير الاحسان؟ هل نقض ماجاء من ذلك: المعروف بذر المحبة يفرسها في أعماق القلوب؟ هل هدمت قاعدة: ان الحيوان يقاد بالزمام، والانسان يقاد بالصنعة؟ هل كان خرافا ما قرره الحكماء من الفصول الطويلة تقسيما للمحبة وبيانا لفضائلها ومنافعها في الاجتماع الانساني الخبيث؟ هل كان خرافا ما حوته الكتب متعلقا بموجبات روابط النوع البشري؟ أم صح كله لكن الناس به جاهلون؟ *

هل أتأسف أن كنتُ سباقا الى الخيرات؟ هل أتأسف أن كنتُ مقداما في السمكرات؟ هل أتأسف ان كنت شجاعا في الدفاع عن ذوي مودتي؟ هل أتأسف ان كنت أيبأ أغار أن ينسب مكروه أو ذل لأولي صلتني؟ هل استحق العقاب على حبي لبلادي والناس لها كارهون؟ *

كلا والله لن يكون ذلك لم أزد في سبيل الفضيلة الا بصيرة، ولم أزد في الماظة عايها الا ثباتا، ولئن عشت لا أضنع المعروف، ولا أغش الماهوف، ولا تقذن الهاوي في حفرة القدر، ولا آخذن بيد المتضرع من ضغط الظلم، ولا تجاوزن عن السيئات، ولا تناسين جميع المضرات، ولا بينن لقومي أنهم كانوا في ظلمات يعمهون *

ولا أظهرن الصديق في أجمل صورة، ولا أجلونه للناس في أبهج حله، ولا ثبتن لهم ببرهان العمل أنه فكرك الثاني في روحك الواحدة، وأنه جسمك الآخر في حياتك المتحدة، وأنه صاحبك اذا طال ليل الكدر، ومصباحك اذا غسق دجى الموم، تستضيء به في حل ما انعقد، وتستعين بقوته في تيسير ما عسر، وتذهب به الى أوج العالي، والناس من معجزات الصديق يتعجبون *

إنني اليوم أعجز من المقعد عن طلوع النخل، ومن المفلس عن حرية التصرف. وقد صار سقوط الجاه كمرض يصيب الجميل الفاتن. فينحف الجسم، ويغير اللون، ويقاخص الشفاء، ويضعف القوى، ويقعد عن الحركة، ويبعد عن نيل المطلوب. ويثقل على الاهل والعشائر في التمريض. ويسثمهم ان طال زمن

مساناة العلاج، فيصبح المريض منهم في أدنى المنازل، وقد كان رباهم وهم له ساجدون*
 يذهب عنه البهاء، وينكشف من وجهه الضياء، وتنكره الرؤية
 أعين العشاق، وتمجه طباع ذوي الاذواق، وتمحى من جبينه تلك الاسطر
 الجليلة العبارة، الصادقة النسبة، الناطقة بالحق، القائلة: ههنا كنز الرغبات،
 ههنا منال الحاجات، ههنا ما يروح الروح، ههنا ما يقضي وطراً في الانفس،
 ههنا ما يخشى منه على الارواح والافئدة، فينحرف عنه السالكون اليه، وقد
 كانوا قبل على آثار غباره يتدافعون* وقيسوا على مرض الجليل مرض صاحب
 جاه، ولا أظنكم بالقياس تجهلون*

لكن أقول لكم: ان الحوادث الريعة سوف تنسى، وإن هذا الشرف
 سوف يرد، واثن أبت طبيعة هذه الارض بخستها ان يكون لها من عوده نصيب
 فليعودن في بلاد خير منها، ولا جذبن الى المجد أحمتي، ومن الى المجد ينجذبون*
 كل ذلك إن عشت وساعدتني صحة الجسم، ولا أطلب شيئاً فوق هذين
 سوى معونة الله الذي عرفه بعض الناس، وبعضهم له منكرون*

أطلت عليك الكلام فلا تسأم، وظنه آخر كتاب مني اليك في السجن إلا ان
 يحدث حادث يسمح بالكتابة مرة أخرى. فان تلاقينا بعد اليوم كنت المشافهة أركى،
 والا كانت المراسلة أجل وأعلى. ولا تجزع، فليس في الامر ما يفزع، وهو
 أهون مما يتوهمون* وأسأل الله أن يغض عنكم أبصار الظالمين، ويحفظكم من
 نكايه الخائنين، ويسرقلي بالطمأنينة عليكم وعلى سائر الاخوان والابناء أجمعين* اه
 | يقول محمد رشيد | لولم يكن لنا من فئدة سجن الامام الذي كان نعمة
 في صورة نعمة، ومنحة في جلباب محنة، إلا كتابة هذا الكتاب البليغ الذي
 وصف به نفسه الزكية، وسريره الصديقية، أصدق الوصف وأبلغه وأجمله -
 لكنني بها فئدة. وما كان لولا تلك الشدة العاتية ليكتب هذا أو يقوله وقد عهد ناد
 ينأى عن الفخر بجانبه. ولعمري الحق لقد صدق فيما قال عن نفسه وصدقه فيه الزمان، وكل
 من عرفه من الناس، حتى أسوأ الناس ظناً بالناس وأشدّهم انتقاداً لهم. ومن كلام
 ابراهيم بك المويلحي الكاتب النقاد الشهير فيه: «باطنه خير من ظاهره»

الفصل الخامس

في الظور الثاني من حياته العملية

وهو ما عمله في اثناء النفي

وفيه مقدمة في بيان تلقي سورية له بالتكريم ، وأثر ذلك في مردييه وأصدقائه مصر ومقصدان (أحدهما) في عمله السياسي في أوربة مع السيد جمال الدين و (ثانيهما) في عمله العلمي الادبي في سورية

المقدمة :

حكم على الاستاذ الامام بالنفي من القطر المصري وملحقته مدة ثلاث سنين و كان ذلك في ١٣ صفر سنة ١٣٠٠ الموافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ وحكم كذلك على كثيرين من الذين اتهموا في تلك الحوادث الممر عنها بحجة العصيان بالنفي إلى خارج القطر إلى مدد مختلفة من سنة إلى ٢٠ سنة و كان ممن حكم عليهم مثل الحكم على الاستاذ ابراهيم بك اللقاني وكان من أصدقائه وأخوانه الجاليين بل كان يعد المرید الثاني للسيد جمال الدين ، ومنهم الشيخ امين أبو يوسف من أصدقائه أيضا . وقد سافر هؤلاء مع كثير من رفاقهم من ازهرين وغيرهم إلى سورية فطاب لهم المقام فيها لما قابلهم به كرام أهلها من العلماء والادباء والوجهاء من الحفاوة والاكرام ، فكأنهم استبدلوا اهلا باهل وجيرانا بجزيران ، وخلانا بخلائ ، وأقام الشيخ محمد عبده واللقاني وكثيرون من أصدقائهم في بيروت ، ثم سافر الشيخ إلى أوربة وكان سبقه اليها السيد جمال الدين ، وكان من عملهما فيها ما نبينه في المقصد الاول من هذا الفصل ، ثم عاد الى سورية وأقام في بيروت وكان من عمله فيها ما نبينه في المقصد الثاني منه .

مقدمة الفصل

قلنا ان أهل سورية الاكرام قد تلقوا الاستاذ الامام ، بما يليق بمقامه العلمي والادبي والعقلي من الاجلال والاكرام . حتى كان فيهم وهو منفي من بلاده ، بعيد عن صنائعه ومردييه وتلاميذه ، اعزما كان في وطنه ، على ما كان

له في عهد الوزارة الرياضية من النفوذ الذي شرحناه في المقصد الثالث من الفصل السابق، كما كتب بذلك لتلميذه النجيب، ومريده الصادق، وصديقه الوفي (سعد زغلول) وتأثير ذلك في أنفس خلانته بمصر كما يعلم مما كتبه إليه هذا جواباً عن ذلك. وهاك الجواب الأول من أجوبته، ومنه يعلم بالأجمال ما كتبه الإمام له :

﴿ بعض مكاتبات سعد زغلول النذب المهام إلى الاستاذ الامام ﴾

(الكتاب الاول وهو مرجوع اول كتاب كتبه اليه من بيروت عقب وصوله اليها)

من مصر ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٣٠٠ إلى بيروت

مولاي الافضل، ووالدي الاكل، أحسن الله معاده

بعد تقبيل الايدي الكريمة : قد ورد الكتاب الكريم على طول تشوقنا اليه، فقلونا ووعينا في الفؤاد، وحمدنا الله تعالى على أن شرقت تلك الديار سالمين، مبالغاً في اكرامكم والاحتفال بكم من كرام أعيانها المسلمين، وأماجد نبائها المؤمنين، جزاهم الله عن كل مصري يعرف مقداركم خير الجزاء، ولهم منا معشر أتباعك ومريدك بما تقبلوك به من كريم الاحتفال، وعظيم الاجلال، السنة مرطبة بالثناء عليهم، وضائر مطوية على مزيد احترامهم وفاق تعظيمهم

صحتي البدنية معتدلة، أما فكري فقد تولاه الضعف من يوم أن صدع الفؤاد بالبعد، وتمثلت فيه بعد تلك الحقائق التي كنت تجلو مطالعها معان، نعرفها أوهاما يضيق بها الصدر ولا ينطلق بردها اللسان، مخافة فوات مرغوب أو لحاق مكروه مما تعلمون

توجهت إلى البيك صاحب تاريخ العرب وسأله إعارته فأجاب بأن محمود سامي أخذه منه وسافر ولم يرده اليه، ثم هو يسلم عليكم أطيب السلام، ويقول إنه مستعد لخدمة جنابكم في أي شيء تريدون حسياً كان أو معنوياً. وسأتحري هذا الكتاب في كتب سامي عندي بها فإذا وجدته فيها اشتريته وأرسلته في الحال إلى حضرتمكم أو أحضرته معي إن وافق ذلك استجماعي لوسائل السفر

الحال العمومية على ماتركتها ، غير أن الناس أخذوا في نسيان ما فات من
الحوادث وأهوالها ، وقلت قلوبهم فيها ، وخفت شماتة الشامتين منهم ، وأصبح
المادحون للانكليز من القادحين فيهم ، وبالعكس . والكثير يتوقع انقلاباً أصلياً
والله أعلم بما يكون

رفعت تحيتكم لجميع من ذكرتم في الكتاب تصريحاً ونلوباً فتقبلوها بمزيد
السرة والانشراح . يسلم على جنابكم الصادق في صداقته ومودته حسين أفندي
وهو في غاية من الصحة والعافية وقد عاد من الريف فراراً من شروره ، آسفاً
على ما وقع لجنابكم أكثر من أسف على نفسه . الشيخ محمد خليل والشيخ عامر اسماعيل
والشيخ حماده الخولي والسيد عثمان شبيب والشيخ حسن الخويل وو الذي عبد الله
وأخوأي شناوي وفتح الله (هو أحمد فتحي) وكثير غيرهم يقبلون بديكم ، ويسلمون
عليكم ، ويقدمون مزيد تشكرهم لحضرات أولئك الكرام الاماخذ الذين أحسنوا
وفادتكم وأكرموا مشواكم ، زادهم الله بكم ما وكلا

مولاي : ذكرت لحضرتك أن الضعف ألم بفكري فبالله إلا ما قوته بتواصل
المراسلة ، غير تارك فيها ما عودتنا على سماعه من النصائح والحكم التي تهتدي بها
إلى سواء الدليل ، ونتمكن بها من السير في العالم المصري الذي اختبرت حقائقه ،
وعرفت خلايقه ، وما يناسبها من ضروب المعاملة . وفقنا الله لمناجعتك ، ولا
أطال على بلادك مدة غيبتك ، انك إمامها وإن اقتدت بغيرك ، ومحبتها الصادق
وإن لم تعرف بقدرك ، والسلام
ولدم

سعد زغلول

﴿ كتاب آخر جوابي منه اليه في ٨ جمادى الاولى سنة ١٣٠٠ ﴾

مولاي الافضل ، وو الذي الاكل ، أحسن الله ما به
أكتب إلى السيد الاستاذ بعد تقميل يده الشريفة عن شكر مزيد لمكارمه
التي لم يمنع من تواترها على صنائه تباعد الديار ، ولا تنائي البلدان ، معترفاً بالعجز
عن وفاء واجب الحمد ، مع الاعتقاد بأن هذا لا يثنيه عن المكرمات يولجها ، والمبرات

يسديها ، فما يفعل الخير التماس الثناء ، ولا يصدر البر ابتغاء الجزاء ، إنما يحسن محبة في الاحسان ، ويبر شفقة بالانسان

تفضل أدام الله فضله على خريج حكمه ، النامي في نعمه ، بكتاب هو المحكم آياته ، المعجز دلالاته ، الشافي لما في « صدور » الكاشف لحقائق الامور ، الهادي إلى سبيل الرشاد وإلى صراط مستقيم ، فسر لمرآه ، مرور الليل بالشفاء واقاه ، وتلاه متدبراً دقيق معناه ، مكرراً رقيق مبناه ، فازداد إيماناً بفضل مولاه ، ويقيناً بحكمة من أوحاه ، وشكر الله على صحة من أهداه ، دامت نامية وارفة الظلال . وتكرم أبقي الله كرمه ببيان بعض أسماء الكملة الكرام الذين دارسوه فصولاً من المروءة ، وأبواباً من النجدة ، وما لهم من كمال الفضل ، وما فيهم من تمام العقل فرسمنا أسماءهم على صفحات القلوب ، وحفظنا أمثلة فضائلهم في الصدور ، وتشوقنا لأن نتشرف أبصارنا برؤياهم ، كما تحلت بصائرنا بمعرفة أعلامهم ومزاياهم ، وما يحتاج في اقناع النفوس بضعف تلك الحجة وإن كانت تمكنت في الازدهان ، إلى قوة البيان ، فمعرفة مقام فضله ، ومقدار حكمته ، ونبله ، كافية بذاتها في الدلالة على نزاهة نفوسهم ، وطهارة قلوبهم ، وغزارة فضاهم ، وسمو عقولهم ، ورجاحة همهم ، وسجاجة شيمهم ، وفي توجيه ماثبت من الفساد في أخلاق غيرهم ، إلى أسباب أخرى نود أن يبينها الاستاذ الجليل في كتاب مخصوص اذا وجد من الوقت مساعداً ، إنما نحتاج إلى قوة البيان في هذا الموضوع لتبين كيف يكون تدارس المروءة بين الافاضل ، وتداول النجدة بين الكرام الامثال فما رايتنا من قبل لدينا إلا فاضلاً كرمياً يدرس الفضائل بين من لا يعرفون للفضل مقداراً ، ولا يفقهون للكرامة اعتباراً

ولقد زادني ميلاً في السفر ، وبغضاً في الحضر ، ماجاء في وصف أولئك الاماجد ذوي النفوس الزكية ، والحمد العملية ، وما تلاه من بيان حقيقة غوازي (١) الكلمة في الاصل هكذا « رايتنا » ولعل المراد فما رايتنا الخ والخطاب الاستاذ الذي بث الفضيلة بالعلم والعمل في جماعة نكثوا عهدهم وخانوا ودهم ، ووشوا به عند الشدة

الامم، ساقطي الهم ، سافلي القيم ، جاهلي مقادير النعم ، غير أني عدلت عن داعية هذا الميل امثالاً للأمر، وفي النفس حسرات لا يقاومها صبر ، وبها الى السفر أشواق لا يتناولها حصر

وأحسن خلد الله احسانه على صنيع آدابه ، اليتيم في اترابه ، بحكم من مثل التي تعودها غذاء للعقل ، ونوراً للفكر، فتلقاها بقلب شاكر ، وتقبلها بفؤاد حامد، وحفظها في الوجدان ، راجياً من الله التوفيق الى الاخذ بممانيتها ، والهداية إلى اتباع مافيه ، آملاً من مكارم موليتها، دوام تواليها

أسفت بل خجلت مما بلغ المقام الشريف عن الشيخ عبد الكريم الفاضل^١ ثابتاً صدقه بشهادة من سئلوا من الصادقين ، ولولا التحقق من سعة بال الاستاذ الكريم ، ومن وثوقه بي فيما أرويه لكان الاسف مضاعفاً

إني كما تعلمون كثير الاجتماع بهذا الشيخ وما سمعت منه ما يقصد به مس مقامكم الكريم ، ولم يتكلم أمامي يوم أن بلغه خبر الاعتراف باليمين المعروف بالا بما معناه الاسف والاشفاق من عاقبة هذا الاعتراف ، فلعل ما بلغ السامع الشريفة من هذا القبيل ، والسامعون لشدة حرقتهم وبلوغ الاسف من فؤادهم مبالغه ، انصرف خاطرهم عن رعاية مقام القول فتوجه ذهنهم إلى مفهوم الكلام الحقيقي وطبقوا المقام على مافهموه، ولهم العذر ، فهم لم يتعودوا سماع كلام مثل هذا في جانب حضرتكم ولو مراداً به غير حقيقة معناه ، ولم يألوا تأويل العبارات وصرفها عن ظواهرها ، ولم يعرفوا عادة ذلك الشيخ في كيفية تأدية مراده ، والعبارة في حد ذاتها يصعب تأويلها إلى غير المتبادر للافهام منها كل الصعوبة على من لم يكن أزهرياً متعوداً من الشيخ سماع أفطع منها مفهوماً وأشنع تركيباً

(١) ذكر لي الاستاذ الامام رحمه الله أيام غضب الشيخ عبد الكريم سلمان علي أنه كان بلغه في أثر الفتنه العراية أنه طمن فيه يتبرأ من كونه من حزبه فكتب في ذلك كلمة في كتاب لا آخر - قال فيه : أكنننه كني وأدنبته مني ، وجملته في مكان النحو من ان جنبي، ثم هو يصرح بسبي ولا يبغي اه فظهر أنه كتب بهذا الى سعد وان سعداً دافع عنه بهذا الكتاب

وكيف يتأتى له إرادة الظاهر مع علمه بكون ذلك لا يصدر إلا عن لؤم طبيعة وخراب ذمة وسفاهة عقل ؟

أنسى مأويلته من كرائم النعم ، وجلال الامم (؟) التي لا يزال متمتعاً بها متفتياً ظالها ، وانك المؤرق أسفاً، المحترق حزناً، المشفق عليه يوم وجدت اسمه مكتوباً في تقارير اللثام، حتى شغلك همه عن همك ، وسعيت وأنت مسجون في تنجيته من التهمة بواسطة المحامين

مانسي كل هذا وما قدم العهد عليه حتى ينقض ولائك ، ويبتكر هجاءك ، ويمس مقامك . في بيت أواه . ومنزل طالما رتع في بحبوحة نعماء

فهذه العبارة إن صح النقل لا يمكن أن يكون المراد بها شيء وراء إعلان الاسف والاشفاق ، أما كونه لم يرسل خطاباً فلولاي يرى انه من الأدلة الصادقة على كون ذلك لشيخ الفاضل صادقاً في ولائه ، حريصاً على دوام ذكر أوليائه ، إذ لم يدعه الى ذلك إلا تمام رغبته في المحافظة على النعمة التي غرستم أصولها ، وأنتميم فروعها ، ليكون على الدوام متذكراً لحقيقة مبدئها ، متصوراً صورة مذمتها

أما كتاب الشيخ محمد خليل ، فقد علمت ما في إرسال صورته من حسن التعليل وكال انتلطف في التأديب ، على ما جرت به عادتك التريفة . وقد طالعت هذه الصورة فرأيت انها من أقوى الأدلة على شدة ميل صاحب الاصل الى الصدق ، ورغبته عن التمويه ، حيث أوضح حاله صادراً في الايضاح عن الحق برهانا على شدة إخلاصه باثبات العبارة التي نفيها بين يدي حضرته في الدائرة

فان إثباتها لا يصدر إلا عن تمام إخلاص لا يشوبه تمويه ، ومن هنا يتبين لحضرتكم سلامة نيته ، وحسن طويته

أما عنوان الجواب فما أداه الى نسجه على ذلك الاسلوب الا اعتماده على معرفتكم بكونه من الصادقين العظمين لجنايتكم الكريم . وعلى كل حال فنحن لا نستغني عن كريم عفوك ، وجميل صفحك ، فان لم تعف عنا وتصفح كتمان الخاسر بن ان ظنكم فيما رأيتموه في جريدة البرهان هو الموافق للصواب ، وبحق

لحضرتكم السرور بما نال ولدكم (١) فهو المتربي في نعمتكم، المعترف من بحار
حكمكم، المحفوف بعنايتكم، الشمول بعين رعايتكم. البالغ ما بلغ ويبلغ من
مراتب الكمال بحسن توجهاتكم، وكرم تعطفاتكم، أدامكم الله الكل خير مبدأ
رفعت تحياتكم إلى حضرات من ذكركم أسماءهم وأشركم اليهم فتقبلوها
بالاحترام وهم جميعاً يقبلون ידיكم. ويسلمون عليكم، وأخص بالذكر منهم منبع
الصفاء، ومصدر الوفاء، الذاكراً لفضائلكم في كل حين، والذي حسين أفندي.
وحضرة ولدكم الصادق في متابعتكم الشيخ عامر اسماعيل الذي امتن غاية الامتنان
بما اختصاصتموه به في كتابكم الشريف، وحضرة الشيخ سليمان العبد، والسيد أمين
أفندي. ونحن جميعاً نرفع أحسن التحيات وأزكاها لحضرات الكرام الذين تشرفنا
بمعركة أسماؤهم من الذين دارسوكم فصول الكرامات ونقدم لهم واجبات الاحترام
أدامهم الله مثالا للفضل وعنوانا للكمال. ونسلم على حضرات أخينا الفاضل ابراهيم
أفندي اللقاني و ابراهيم أفندي جاد ونجلكم الكريم وجميع من بمعيتكم حفظهم الله
أحوالنا العمومية أنتم أعلم بها منا فلا حاجة إلى بيانها. نرجو تفصيل أحوالكم
وما تشغلون به من قراءة وتأليف إذا حسن لديكم ذلك

كتب سامي لم تشهر إلى الآن في المزاد ولا زلت مراقباً لاشهاره
حضرة البك صاحب الكتاب توجه قبل ورود كتابكم الى البلد ولم يحضر
الى الآن. وعند العلم بحضوره أتوجه اليه وأرفع لحضرته مزيد تشكراتكم دامت
معاليكم. أفندم ٨ جاسنة ١٣٠٠ صنعكم — سعد زغلول
أرجو عدم انقطاع المراسلات وأنتمى أن لا أحرم كل أسبوع من كتاب تطميناً
للخاطر وترويحاً للفؤاد. ولولاي في إجابة هذا الرجاء النظر العالي (سعد)

(١) يعني سعد نفسه، والخبر المشار اليه هو اشتغاله بالمحاماة

المقصد الاول من الفصل الخامس *

عمد في أوربة مع السيد جمال الدين

تقدم في ترجمة الحكيم الاكبر ، والموقظ الاعظم للعالم الاسلامي ولساثر شعوب الشرق الادنى والاوسط ، (السيد جمال الدين الحسيني الافغاني) أن حكومة الهند البريدانية حجرت عليه في كلكتة (عاصمة الهند) مدة الفتنة العراية ، وأنها أطلقت له الحرية بعد انتهاء الفتنة واحتلال الجيش الاكلبزي لمصر وأنه ذهب بعد ذلك إلى أوربة ، وأن الاستاذ الامام سافر اليه ، وانهما أنشئا هنالك جريدة العروة الوثقى وقاما بعمل عظيم

وهذا العمل هو الذي نبسطه في هذا النقصد ونبدأ القول بسفر السيد من الهند واستئناف اتصاله بالشيخ فنقول :

كان سفره من الهند بحراً من طريق البحر الاحمر ، ولما وصل إلى بورسعيد كتب إلى الاستاذ الامام كتابا أخبره فيه بسفره وأين يقصد وفتح باب المراسلة معه ، وترتب على ذلك سفر الاستاذ إلى أوربة بدعوته ، وانا ننشر هنا نص كتاب السيد لانه أثر تاريخي من موضوع هذا الكتاب ، وهذه صورته بخطه منقولاً بعكس الشعاع الشمسي مع بيانها بحروف الطبع

(*) قد كتبت الفصول الاربعة السابقة عقب وفاة الاستاذ رحمه الله تعالى وطبعت كلها ماعدا مذكرات الثورة العراية ، ولما كان يتمذر نشر الكتاب في تلك السنين أمسكت عن اتمام تأليفه وطبعه ولم يتح لي ذلك إلا في أواخر سنة ١٣٤٨ م (٣٦ تاريخ الاستاذ الامام ج ١)

كتاب السير بمجال الربيع الى الشيخ محمد بهر

برط سعيد

٢٣ سبتمبر

إلى الشيخ الفاضل الكامل الشيخ محمد عبده أطال الله بقاءه
 الابتهاج بجميل الصنع جزاء تفيض به جامعة الكون على النفوس، كما قامت
 بوظائف الوجود، والمحملة شهادة تبعث ما كوت وحدانية الهيئة على شهادت شخصات
 الطبيعة في مشهد العالم، تخليداً للجزاء وتعظيماً للأجر، فلك بجميل صنعك مع
 (العارف) (١) الجزاء الاوفى. وأنا أحمدك على البر والمعروف أداءاً للشهادة،
 وأشكر صنوك الفاضل الكامل الشيخ عبد الكريم، وأثني على الشاينين الأديين السيد
 ابراهيم اللقاني والشيخ سعد الزغلول (٢) والافندي الكريم الذي أنساني اسمه الزمان،
 وأذكر كلا بالخير في مشهد العالم قياماً بفريضة الشكر على الصنع الجميل والعمل الصالح
 وأنا الآن في (برط سعيد) أذهب إلى لندره - ترسل جواب هذا
 الكتاب إلى إدارة جريدة (الشرق والغرب) أو إلى (مستر بلنت)
 ان أخبار العالم وحوادثه كانت انقطعت عني مدة سبعة أشهر، ولذا لا أدري
 مستقر (العارف) الآن. أخبره بسفري. وانتفصيل في مكتوب آخر يصلك
 من لندره إن شاء الله

سلم على كل من عرفنا وعرفناه، واعترف بنا وسلمنا له. والسلام
 (حاشيتان)
 جمال الدين الحسيني الاقناني
 تسلم على صاحب النفس الزكية، والهمة العلية، دوانلو رياض باشا أيده الله تعالى
 أرسلت مضمونا (٣) الى صديقتنا الحاج المرزا علي اكبر والغرض درجه في
 الجرائد المصرية بعبارة فصيحة. وأرجو الاهتمام في هذا الامر لانه ضروري جداً
 البدار البدار

(١) هو عارف أبو تراب خادم السيد الذي جاء معه من بلاد الافناز وكان
 بقي في مصر بعد تقيته منها وكان السيد يحبه جداً ولقبه بالفيلسوف الاي
 (٢) كان السيد كثيراً ما يعلى الاعلام بالاتف واللام كما ذكر في علماء الاعاجم
 (٣) أي كتاباً أو مقالا مضمونا يعني مسجلاً

جمعية العروة الوثقى السياسية

السرية

كان الاستاذ في تلك الاثناء في سورية ولا أدري ما دار بينهما من المكاتبة بعد وصول السيد إلى لندن ولا تاريخ سفره اليه بالضبط، وأما (جمعية العروة الوثقى) فهي جمعية سياسية سرية قد بينا مقصدها في مقدمة العدد الاول من الجريدة، ولكن لم يطلع أحد على قانون الجمعية الاساسي ولا على الميثاق الذي كان يقسمه الأعضاء إلا خواص رجال الجمعية وكلهم من خواص المسلمين

أعلم أن الجريدة كانت ترسل الى كبار العلماء والامراء والزعماء في جميع الاقطار الاسلامية وقد كان من أعضائها الأمير عبيد القادر الجزائري ومن اختار من أنجاله ورجاله، وقد وجدت بعض أعدادها في محفوظات والذي ووجدتها كلها عند استاذنا الشيخ حسين الجسر في طرابلس

وانني أذكر هنا ما لم ينشر من تعاليمها وبمبناها، ولم يذكر لي الاستاذ الامام رحمه الله تعالى شيئاً عن القانون الاساسي لها، وقد فاتني أن أسأله عنه، وأظن أنه لم يكن مكتوباً لئلا يقع في يد غير أهله

وانما كان الغرض البعيد منها إعادة الحكم الاسلامي وهداية الدين إلى ما كان عليه من الطهارة والعدل والكمال في العصر الاول، بتأسيس حكومة اسلامية على قاعدة الخلافة الراشدة في الدين وما تقتضيه حالة العصر لمجد الاسلام في أمور الدنيا، ويتبع هذا انقاذ المسلمين وغيرهم من الشرقيين من الاستعمار المذل لهم. وأما الغرض القريب فهو انقاذ مصر والسودان من الاحتلال

وكانت الجمعية مؤلفة من عقود وهذا ما كتبه نائب الرئيس وهو الاستاذ الامام نفسه من الاصول العملية الداخلية للعقد الرابع ونص الميثاق الذي كان يحملونه كل من انتظم في عقد من عقودها

﴿ بمض الاصول العملية ، لاعضاء جمعية العروة الوثقى ﴾

العقد الرابع للعروة الوثقى

- (١) ينعقد بثلاثة يسمون اليمين المهود
- (٢) مذاكرة المجتمعين عند الالتئام المعتاد تكون في أمور: التذكير بآيات الله - النظر في حالة الاسلام عند بدنه وما كان عليه النبي وخلفاؤه فقط - البحث في السبب الذي امتدت به سطوة الاسلام حتى صال على جميع الاديان وكاد يتلهمها في زمن قصير - كيف اقلب الحال وآل إلى ما نراه ؟
- (٣) يلاحظ كل باحث أن ذاته في موضوع البحث فيطلب العلة من نفسه قبل أن يطلبها في غيره، ويتقارن بين حاله وحال السلف بوجه الدقة والانصاف
- (٤) مدارس أحكام الجهاد وحموق السلم وما هو مكاف به في معاملة غيره وما يفرض عليه إذا زحف الاعداء لخضد شوكة الاسلام
- (٥) النظر في حال المسلمين لهذا الوقت أخذاً من أقوالهم وأعمالهم الوقوف على احساسهم الديني ومقدار الداعية الاعتقادية ليعلم النداء ويالج بالدواء اللائق به.
- (٦) كتب كل فكر وتدوينه منفصلاً ثم مجعلاً مع ما تستقر عليه الآراء
- (٧) العمل في الدواء بالقول (وفيه الكتابة والتأليف) وبذل المال في مساعدة من يقوم بنصر الدين وحمل السلاح المعاتلة بين يديه عند المكنة
- (٨) كل واحد من أهل العقد مكاف بالعمل واعداد أسبابه وما لا يتم إلا به ، وبدعوة الناس إلى عقده والارتباط به مع الاحتراس التام من كل ما يفيد أن هناك عقداً . والثقة بمريد الانضمام إنما تتحقق عند اتفاق آراء أهل العقد عليها
- (٩) يكون معظم الاهتمام بختم الصالحين الأمر من ذوي المسكنة على اختلاف طبقاتهم من علماء وأمرأ ورؤساء عشائر وغيرهم . وفريضة

- كل منهم أن يعمل للإسلام فيما خوله الله
(١٠) في كل حالة يراعى تمكين الفكر وتأسيس الارتباط حتى يكون عند كل واحد ان مصلحة الكل بمنزلة مصلحة الشخص أو أعلى ، ولا يقبل قول من قائل حتى يكون عمله أزيد من قوله أو مساويا . العمل بدل المال والروح ، والاول أقرب الدليلين .
- (١١) على أهل العقد أن يرسلوا رسالا إلى نواحي الوطن الحاليين به وإلى المواطن المستعدة من غيره متى أمكنهم ذلك
- (١٢) لا يكون الشخص رسولا حتى يكون سير العقد مملكة راسخة فيه ، ويكون على قدرة كاملة في تصريح القول ، وتوفيق النصيح مع طباع المنصوحين وحالة السلطة المعارضة عليهم ، فيكون حكيما في عمله لا يحتاج لوصية من غيره ، ولا لقيم بالاحظ عمله
- (١٣) يسمح للعقد أن يبعث رسالا من المزارعين عنه على أنهم وعاظ يعلمون المعروف من الدين ويؤيدون منطبق القرآن ، وعلى العقد أن يرسم لهم طريق النصيحة بدون أن يعرفوا أن هناك عقداً .
- (١٤) على لرسول إن كان من أهل العقد أن يكشف عقده بما يحس به من انفعالات الناس ، وما يأخذ قوله من قلوب السامعين لدعوته ، وما أثر تعليم الوعاظ المبعوثين من طرف العقد .
- (١٥) من استحق باستعداده الدخول في العقد فعليه أن يقدم رسما مالياً أقله مائة فرنك وأوسطه مائتان وأكثره ثلاثمائة ، ولا يستثنى من ذلك إلا عالم أو معتقد عند الناس لا يستطيع أداء على شريطة أن يبذل العالم وسعه في تبين الحق وبثه ، والمعتقد جهده في حمل معتقديه على العمل في مقاعد العقد ، فإن استطاع هذان الصنفان تأدية النقد فهم أولى الناس بها
- (١٦) يجتمع أهل العقد في كل أسبوع مرتين للمذاكرة فيما سبق بيانه في الفصل الاول وما بعده .

(١٧) يجب على كل واحد أن يؤدي في آخر كل جلسة مقداراً من النقد على حسب استطاعته قليلاً أو كثيراً يدور على الحاضرين من أصغرهم سنّاً بصندوق صغير له فوهة ضيقة يضع فيها كل واحد ما تيسر خفية حتى لا يعلم من أدى أقل ومن أدى أكثر . لا يستثنى من ذلك أحد ويسمى هذا الصندوق صندوق التبرع

(١٨) يحفظ النقد المجتمع من الرسوم الابتدائية والتبرع عندهم ينتخبه العقد أميناً

(١٩) يودع في ظرف تكتب عليه هذه العبارة : هذا مال حق التصرف

فيه لعقد الاخلاص تحت رئاسة فلان (يذكر اسم الرئيس)

(٢٠) يستعمل هذا المال في النفقة على محل الاجتماع ولوازمه ، وفي سبيل

نشر المشرب وارسال الرسل الداعين إلى الحق ، وفي إغاثة المقصرين

ما ترجى منهم فائدة لمقصد الجمعية ، وما يفضل عن ذلك فالنظر فيه

للجمعية العليا (جمعية العروة الوثقى) اما مباشرة أو على يد أحد نوابها

(٢١) يكون للعقد أربعة دفاتر (أحدها) لخصر أسماء رجاله (ثانيها) لأسماء

رسله (ثالثها) لخصر النقد المجتمع (رابعها) لأحصاء النفقات

(٢٢) إذا توفر في الصندوق مبلغ من النقد وافر وأمكن تنميته على وجه شرعي

مأمون الخسارة فعلى أهل العقد أن يديروا أمر نموه

(٢٣) على القائم بضبط الحساب في الإيراد والصرف أن ينهج الطريقة

المعبودة في مركز العقد أن يضموا لها نظاماً حسب المعروف في بلادهم

(٢٤) لا يصرف شيء إلا بقرار من أهل العقد يتفق عليه جميعهم أو أكثرهم

(٢٥) إذا قصت لحوادث بعمل عاجل يقرب من مقصد الجمعية وخيف فوات

الفرصة بفوات الوقت واجتيج إلى نفقة تقتضي زياد عن الموجود وجب

على أهل العقد أن يبذلوا ما في وسعهم لاتمام العمل .

(٢٦) لا يباح لأحد من رجال العقد أن يذكر شيئاً من أحوالهم ومقاصدهم

ومذاكراتهم عند من ليس من مقصده في شيء ، بل لا يباح التصريح

باسم العقد وأهله إلا لمن حصلت الثقة بحاله عند رجال العقد

- (٢٧) على رجال العقد أن يحمي بعضهم بعضا ويعين كل منهم باقيهم بقدر الاستطاعة
- (٢٨) الاستطاعة لا تفسر بالاھواء حتى بعد كل وهم عجزاً وانما هي المعروفة عند المتخلصين التي لا يعدمها الانسان مادام حياً قادراً على الحركة
- (٢٩) اذا رأى أهل العقد أن يزيدوا شيئاً فيما وصلهم من قانون الجمعية حسب حالة بلادهم فمليهم مخابرة من يتولى مواصاتهم فيما يريدون
- (٣٠) القانون الداخلي للاجتماع يضمه أهل العقد

اليومين الثماني بحلفه المرتبط به بالعقر

أقسم بالله العالم بالكلية والجزئية ، والجالي والخي ، القائم على كل نفس بما كسبت ، الآخذ لكل جارحة بما اجتاحت ، لا حكن كتاب الله تعالى في أعماله وأخلاقه بلا تأويل ولا تضليل

ولا أجيب داعيه فيما دعا اليه ولا أتقاعد عن تلييته في أمر ولا في نهى ، ولا أدعون لنصرتي ، ولا أقوم بها مادمت حياً ، لا أفضل على الفوز بها مالا ولا ولدا

أقسم بالله مالك روعي ، ومالي ، القابض على ناصيتي ، الصرف لاحسامي ووجداني ، الناصر لمن نصره ، الخاذل لمن خذله ، لا بذلن ما في وسعي لاحياء الأخوة الاسلامية ، ولا نزلنها منزلة الآبوة والبنوة الصحيحتين ، ، ولا عرفنها كذلك لكل من ارتبط برابطة العروة الوثقى وانتظم في عقد من عقودها ، ولا راعينها في غيرهم من المسلمين ، إلا أن يصدر عن أحد ما يضر بشوكة الاسلام ، فاني أبذل جهدي في إبطال عمله المضر بالدين ، وآخذ على نفسي في أثره مثل ما آخذ عليها في المدافعة عن شخصي

أقسم بهيبة الله وجبروته الأعلى أن لا أقدم إلا ما قدمه الدين ، ولا أؤخر إلا ما أخره الدين ، ولا أسعى قدماً واحداً أتوم فيها ضرراً يعود على الدين جزئياً كان أو كلياً ، وأن لا أخالف أهل العقد الذين ارتبطت معهم بهذا اليمين في شيء يتفق رأيي أكثرهم عليه ، وعلي عهد الله وميثاقه أن أطلب الوسائل لتقوية الاسلام والمسلمين عقلاً وقدرة بكل وجه أعرفه ، وما جهلته أطلب علمه

من العارفين، لا أدع وسيلة حتى أحيط بها بقدر ما يسهل أمكاني الوجودي . وأسأل الله نجاح العمل، وتقريب الأمل، وتأيد القائم بأمره، والناشر لواء دينه، آمين.

النائب

محمد عبده

[المؤلف] من تأمل هذه الأصول وهذه اليمين حق التأمل تجلى له أن كاتبها الداعي إليها المجاهد في سبيل غايتها من أقوى المؤمنين بالله وبما جاء به محمد رسول الله وخاتم النبيين إيماناً، وأشدّهم في إيمانهم إيقاناً، وأرسخهم وجداناً، وألهمهم بمقاصد هذا الدين وتاريخه وإصلاحه لأمور البشر، وأعظمهم غيرته عليه وجهاداً في سبيل الله لإعادة مجده، وتجديد ملكه، وإحياء شرعه، وإنقاذ أهله من الذل . . . ومن قرأ مکتوباته قدس الله روحه لبعض العلماء والكبراء من المنتظمين في سلك العقيدة في الفصل الأول من الباب الخامس من منشأته المصدر أكثرها بكلمة شعاره « لا إله إلا وحده لا شريك له وبه الحول والقوة » رأى فيها شرحاً جليلاً لهذه الأصول الجلية - وعلم من هذا وذاك إن خدمة الجعم الفقير من كبار علماء الأزهر وغيرهم من المصنفين في العلوم الإسلامية المختلفة منذ عدة قرون للإسلام لتتصرف وتتضاءل في جانب خدمة هذا الرجل وأستاذة فان علومهم ومصنفاتهم كانت في العهد الذي تهدم فيه ملك الإسلام وضعفت هدايته ولم يكن لها أقل تأثير في العلم والعمل - لأنها كلها مباحث لفظية، ومناقشات في عبارات بعض كتب المقلدين، وليس لأحد منهم فيها كلمة تدل على الشعور بذلك، فضلاً عن الدعوة إلى تداركه، والجهاد في سبيله. ولو شئنا شرح هذه الأصول وما أدمج فيها من الحكم والعبر لزدنا القاريء إعجاباً بأمر هذين الحكيمين وجهادهما، ولا تظن أن بين ما في الأصل الثاني من التذكير بما كان عليه النبي ﷺ وخلفاؤه فقط، وما في الأصل الثالث من الاعتبار بسيرة السلف، وما في الأصل الرابع من الإشارة إلى أحكام الفقه - لا تظن أن بين ما ذكر شيئاً من التعارض فإن لكل نوع منها غرضاً خاصاً فالأول الاعتبار بنشأة الإسلام وتأسيسه، وما بعده ظاهر لا يحتاج إلى بيان وقد كان هو ومرشده الحكيم على هذه الخدمة الإسلامية الخاصة يعطيان

الجامعة الشرقية حقها، والرابطة الوطنية حقها، حتى ان الاستاذ دافع عن بطرس باشا على حين طعن فيه بعض الجرائد المصرية ونسبته الى التعصب للقبطي في بعض أعماله. وكان الاستاذ يومئذ منفياً في سورية (راجع الجزء الثاني ص ٣٦١ من الطبعة الثانية) وقد كان: السيد جمال الدين أول من وضع أساس الجمع بين الرابطة الشرقية السياسية والجامعة الإسلامية وتولية العاملين لكل منهما وجهته من غير تعارض وكل من ترجمه من المسلمين والنصارى يعترف له بذلك وكذلك الشيخ محمد عبده معه ومن بعده وقد اشتباه على بعض الناس أمر الالهجة الإسلامية في جريدة العروة الوثقى وظنوا أن خدمتها خاصة بالمسلمين فازالوها. هذه اشبهة بعبارة نشرت في العدد الثامن الذي صدر في باريس في ١٨ رجب سنة ١٣٠١ (١٥ مايو سنة ١٨٨٤) وهذا نصها: (العروة الوثقى) لا يظهروه أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها للمسلمين بالذكر أحيانا ومدافعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يحاورهم في أوطانهم، ويتفق معهم في مصالح بلادهم، ويشاركهم بالمنافع من أجيال طويلة فلا يس هذا من شأننا ولا مما نميل اليه، ولا يبيحه ديننا ولا تسمح به شريعتنا. ولكن افرض تخذير الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا من تطاول الأجانب عليهم، والافساد في بلادهم، وقد نخص المسلمين بالخطاب لأنهم المنعبر الغالب في الاقطار التي غدر بها الاجنيون وأذلوا أهلها أجمعين، واستأثروا بجميع خيراتها. وسنكتب مقالة مفردة في هذا الباب ان شاء الله تعالى اهـ

أنشأت جريدة العروة الوثقى في باريس وصدر العدد الاول منها في ٥ جمادى الاولى سنة ١٣٠١ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ وكان مدير سياستها الفيلسوف العظيم السيد جمال الدين الافغاني ورئيس تحريرها فقيدنا الاستاذ الامام (رحمهما الله تعالى). وانبأني الامير شكيب أرسلان أنه سمع الاستاذ يقول ان الافكار في العروة الوثقى كلها للسيد ليس لي منها فكرة واحدة، و"مباركة كلها ليس للسيد منها كلمة واحدة. وإنني أنشرها فأنحتها وما يليها من بيان منهاجها، ثم أذكر بعده ما كان من تأثيرها ومقاومة الانكاز لها، ثم أبين تلخيص ذلك المنهاج وحضر مقاصده وتطبيق القول والعمل عليه للاسلام والشرق عامة، ولمصر والسودان خاصة.

فاتحة العدد الاول من جريدة العروة الوثقى

وبالله بيان منهج الجريدة وخطتها

بسم الله الرحمن الرحيم

(ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير) هذا ما تمده العناية الالهية من قول الحق ، متعلقاً بأحوال الشرق ، وعلى الله التكل ، في نجاح العمل خفيت مذاهب الطامعين أزماناً ثم ظهرت ، بدأت على طرق ربما لا تنكرها الا تقس ثم التوت ، أو غل الاقوياء من الامم في سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا بيدها الفكر ، وسحروا ألبابهم حتى أذهلهم عن أنفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظام ، وبلغوا بهم من الضيم حداً لا تحتمله النفوس البشرية

ذهب أقوام إلى ما يسوله الوهم ، وبغرى به شيطان الخيال ، فظنوا أن القوة الآلية وإن قل عمالها ، يدوم لها السلطان على الكثرة العددية وإن اتفقت آحادها ، بل زعموا أنه يمكن استهلاك اللحم الففير ، في النزر اليسير ، وهو زعم يأباه القياس بل يبطله البرهان ، فإن تقابلات الحوادث في الأزمان البعيدة والقريبة ناطقة بأنه إن ساغ أن عشيرة قليلة العدد فنيت في سواد أمة عظيمة ونسبت تلك العشيرة اسمها ونسبتها فلم يجز في زمن من الأزمان أمحاء أمة أو ملة كبيرة بقوة أمة تماثلها في العدد أو تكون منيها على نسبة متقاربة ، وإن بلغت القوة أقصى ما يمثل الخيال .

والذي يحكم به العقل الصريح ، ويشهد به سير الاجتماع الانساني من يوم علم تاريخه إلى اليوم ، أن الامم الكبيرة اذا عراها ضعف لا تقراق في الكلمة ، أو غفلة عن عاقبة لا تحمد ، أو ركون إلى راحة لا تدوم ، أو افتتان بنعيم يزول ، ثم صالت عليها

قوة أجنبية ، أزعمتها ونهبتها بعض التنبيه ، فإذا توالى عليها وخزات الحوادث زلزلتها آلامها ، فزعت إلى استبقاء الموجود ، ورد المنقود ، ولم تجد بداً من طلب النجاة من أي سبيل ، وعند ذلك تحس بقوتها الحقيقية وهي ما تكون بالتثام أفرادها ، والتحام آحادها ، وإن الإلهام الإلهي والاحساس الفطري والتعليم الشرعي ، ترشدها إلى أن لا حاجة لها إلى ما وراء هذا الاتحاد وهو أيسر شيء عليها ^(١)

إن النفوس الانسانية وإن بلغت من فساد الطبع والعادة ما بلغت إذا كثرت عييدها تحت جامعة معروفة لا تحتمل الضيم إلا إلى حد يدخل تحت الطاقة ويسعه الإمكان ، فإذا تجاوز الاستطاعة كرت النفوس إلى قواها ، واستأسد ذنبها ، وتتمر عليها ، وانحسرت خلاصتها ، وإن تعدد عند الطلوع رشاداً .

ربما تخطيء مرة فتكون عليها الدائرة ، لكن ما يصيبها من زلة الخطأ يلهمها تدارك ما فرط والاحتباس من الوقوع في مثله ، فتصيب أخرى فيكون لها الظفر والغلبة . وإن الحركة التي تبعث لدفع مالا يطاق إذا قام بتدبيرها قيم عليها ومدبر سيرها ، لا يكفي في توقيف سرها أو محو آثارها فهدم ذلك القيم وإهلاك ذلك المدير ، فإن العلة ما دامت موجودة لا تزال آثارها تصدر عنها ، فإن ذهب قيم خلفه آخر وسع منه خبرة وأنفذ بصيرة ، نعم يمكن تخفيف الأثر أو إزالته بإزالة علته ورفع أسبابه جرت عادة الأمم أن تأنف من الخضوع لمن يباينها في الاخلاق والعادات والمشارب ، وإن لم يكلفها بزائد عما كانت تدين به لمن هو على شاكلتها ، فكيف بها إذا حملها مالا طاقة لها به ، لا ريب أنها تستنكره ، وإن كانت تستكبره ، وكما أنكرته بعدت عن الميل إليه ، وكما ابتعدت منه بحجة كونه غريباً تقرب بعضها من بعض فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة وما كان ذلك بفريب

إن مجاوزة الحد في تعميم الاعتداء تنسي الأمم ما بينها من الاختلاف في

(١) أن هذا العلاج لا كبر الاوهام التي أذلت الأمم الكبيرة للعدد القليل من أصحاب القوة الآلية وقد كانت نتيجة هذه ثلاثة الأمم وقد بدأت تعتمد عليه في هذه الأيام ، وإن ما بعده من القواعد الاجتماعية يبان لوسائله وشدة الحاجة إليه ، وإزالة الموانع من طريقه

الجنسية والمشرّب، قمرى الاتحاد لدفع مايعمها من الخطر، ألزم من انتحزب للجنس والمذهب، وفي هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية إلى الاتفاق أشد من دعوتها إليه للاشتراك في طلب المنفعة.

أبعد هذا بأخذنا العجب إذا أحسننا بحركة فكرية في أغلب أنحاء المشرق في هذه الأيام؟ كل يطلب خلاصاً ويبتغي نجاة وينتحل لذلك من الوسائل والأسباب ما يصل إليه فكره على درجته من الجودة والافن، وإن العقلاء في كثير من أصقاعه يتفكرون في جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها القيام بمقوق الكل^(١)

بلى، كان هذا أمراً ينتظره المستبصر وإن عي عنه الطامع، وليس في الأمر مكن اقناع العاممين بالبرهان، ولكن ما يأتي به الزمان من عاداته في أبنائه ما يجري به القضاء الإلهي من سنة الله في خلقه سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون



بأنجح الجحاف بالشرقيين غايته، ووصل العدوان فيهم نهايته، وأدرك التغلب منهم نكايته، خصوصاً في المسلمين منهم، فمنهم من أنزلوا عن عروشهم جوراء وذوو حقوق في الأمرة حرروا حقوقهم ظلماً، وأعضاء باتوا أذلاء، وأجلاء أصبحوا حقراء، وأغنياء أمسوا فقراء، وشعراء أصبحوا سقماً، واسود تحولت انعاما، ولم تبق طائفة من العائلات إلا وقد مسها الضر من افراط الطامعين في اطاعتهم، خصوصاً من جبر، هذه الحوادث التي بذرت بذورها في الأراضي المصرية من نحو خمس سنوات بأيدي ذوي المطامع فيها

حملوا إلى البلاد ما تعرفه فدهشت عقولها، وشدوا عليها بما لا تألفه فحارت ألبابها، والزموها ما ليس في قدرتها فاستعصت عليه قواها، وخضدوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة ليمشوا بكل ذلك وسيلة لتبيل الطعم، فكانت الحركة المرائية المشوّهة، فنخذوها ذريعة لما كانوا له طامعين، فاندفع بهم سبل المصاعب بل طوفان المصائب على تلك البلاد، وظنوا بلوغ الأرب، ولكن أخطأ الظن وهما بما لم ينالوا

(١) هذا تبيينه لوجوب تأليف جامعة شرقية لمقاومة الاستعمار الغربي ولم يكن يفكر فيه أحد قبله

لم تذكر تحمد تلك الحركة في بادي النظر حتى خلمتها حركة اخرى ، وفتح باب كان مسدوداً ، وقم قائم بدعوة لها المكانة الاولى في نفوس المسلمين ، بل هي بقية آمالهم ، ولا ندري الآن ماذا تستعقبه هذه الحركة الجديدة ، وربما يوجد من يدري ان مسببها في حيرة من تلافياها ، نعم انهم غرسوا غرساً إلا انهم سيجنون او هم الآن يجنون منه حظلاً ، وبضعمون منه زقوما . لاجرم هذه هي العواقب التي لا محيص عنها لمن يغالي في طمعه ، ويغفل في حرصه ، ولو انهم تركوا الامر من ذلك الوقت لأربابه ، وفوضوا تدارك كل حادث للخبراء به ، والقادرين عليه العارفين بطرق مدافعتهم ، او اقتناء فائدتهم ، لحفظوا بذلك مصالحهم ، ونالوا ما كانوا يشتهون من المنافع الوافرة ، بدون أن تنزل لهم قدم ، أو ينكس لهم علم

غير أنهم ركبوا الشطط وغرهم ما وجدوا من تفرق الكلمة وتشتت الاهواء وهو أنفذ عوامهم وأقتلسها ، وما علموا أنه وإن كان ذريع الفتك إلا أنه سريع العطب . وما أسرع أن يتحول عند اشتداد الخطوب إلى عامل وحدة يسدد لقلوب المعتدين ، فإن بلاء الجور اذا حل بشر من الامة وعوفي منه باقياها ، كانت سلامة البعض تعزية المصابين ، وحجاب غفلة المسلمين ، يحول بينهم وبين الاحساس بما أصاب اخوانهم ، أما اذا عم الضرر ، فلا محالة يحيط بهم الضجر ، ويعز عليهم الصبر ، فيندفعون إلى مافيه خيرهم ، ولا خير فيه لغيرهم

*

إن الحالة السيئة التي أصبحت فيها الديار المصرية لم يسهل احتمالها على نفوس المسلمين عموماً ، إن مصر تعتبر عندهم من الاراضي المقدسة ، ولها في قلوبهم منزلة لا يحلها سواها نظراً لموقعها من الممالك الاسلامية ، ولأنها باب الحرمين الشريفين . فان كان هذا الباب أميناً كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع ، وإلا اضطربت أفكارهم وكانوا في ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الاسلامية ان الخطر الذي ألم بتصر نفرت له أحشاء المسلمين ، وتكلمت به قلوبهم ، ولئن نزال آلامه تستفزهم مادام الجرح ناعاراً ، وما هذا بغريب على المسلمين ،

فان رابطتهم المالية أقوى من روابط الجنسية واللغة . وما دام القرآن يتلى بينهم وفي آياته مالا يذهب على أفهام قارئيه ، فلن يستطيع الدهر أن يذلهم .

إن الفجيرة بمصر حركت أشجاننا كانت كامنة ، وجددت أحزاننا لم تكن في الحسبان ، وسرى الألم في أرواح المسلمين سريان الاعتقاد في مداركهم ، وهم من تذكرا الماضي ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء ، ولا نأمن أن يصير التنفس زفيرا ، بل نفيرا عاما ، بل يكون صاخة تمزق مسامع من أصم الطمع

إن أولى المتغلبين بالاحتراس من هذه العواقب جيل من الناس لا كتاب له في فتوحاته إلا المداواة ، ولا فيالقي يسوقها للاستملاك سوى المحاباة ، ولا أسنة يحفظ بها مائتد اليه يده إلا المراضاة ، يظهر بصور مختلفة الألوان ، متقاربة الاشكال ، كحافظ عروش الملوك والمدافع عن ممالكهم ، ومثبت مراكز الامراء ومسكن الفتن ، ومخلص الحكومات من غوائل العصيان ، وواقى مصالح المغلوبين ، فكان أول ما يجب عليه ملاحظته في سيره هذا أن لا يأتي من أعماله بما يهتك هذا الستر الرقيق الذي يكفي لمزيقه رجح البصر ، وكر النظر ، وأن يتحاشى العنف مع أمة يشهد تاريخها بأنها اذا خنقت خنقت ، وليس له أن يفتر بعدم مكنتهم ، وهو يعلم أن الكلمة اذا اتحدت لاتعوزها الوسائط ، ولا يعدم المتحدون قويا شديدا البأس يساعدهم بما يلزمهم اترويح سياسته ، وأن المغيظ لا يبالي في الايقاع بمناوئه أسلم أو عطب ، فهو يضر ليضر ، وإن مسه الضر

إلا أن غشية النهم ذهبت بعقول المتهمين ، ووقرت أسماعهم عن حسيس الهجمات المتراصلة من الهند الى مكة ، ومن مكة الى مصر ، والكرير^(١) الممتد من مصر الى مكة ، ومن مكة الى الهند ، وكلها تتلاقى بين تراقي المفرورين بقوتهم ، المسترسلين في جفوتهم

(١) الكرير صوت في الصدر كصوت الخشق أو المجهود وقد استمارها هذا المراسلات الخفية الصادرة عن شدة ضغط العدواني الاجنبي . ولا يوجد في لغات العالم كلمة أليق بهذا المقام وأحسن موقفا وأشد تأثيراً فيه من هذه الكلمة وهي من الدلائل على ان البلاغة تكون في المفردات كالركبات لكن عند وقوعها في التركيب

إن الرزايا الاخيرة التي حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط ، وقاربت بين الاقطار المتباعدة بحدودها، المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها ، فأيقظت أفكار العقلاء ، وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم ، مع ملاحظة العلل التي أدت بهم الى ما هم فيه ، فتقاربوا في النظر ، وتواصلوا في طلب الحق ، وعمدوا الى معالجة الحق وعال الضعف ، راجين أن يترجعوا بعض ما فقدوا من القوة ، ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلا حسنا يسلكونه لوقاية الدين والشرف ، وان في الحاضر منها النهضة تغتم ، واليها بسطوا أكفهم ولا يحاولونها تفوتهم ، واثن فانت على فكم في الغيب من مثلها ، والى الله عاقبة الامور .

تألفت عصبات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجليل في عدة أقطار خصوصا البلاد الهندية والمصرية ، وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه ، ويوحدون كلمة الحق في كل صقع ، لا ينون في السعي ، ولا يقصرون في الجهد ، ولو أفضى بهم ذلك الى أقصى ما يشفق منه حي على حياته .

ولما كانت بدايتهم تستدعي مساعدة من يسارعهم في مثل حالهم ، رأوا أن يعقدوا الروابط الاكيدة مع الذين يتعلمون من مصابهم ، ومحجون العدالة العامة ويحامون عنها من أهالي أوربا ، وكتبوا على أنفسهم النظر في أمر السلطة العامة الاسلامية وفروض القائم بها . وبأن مكة المكرمة منبعث الدين ، ومناط اليقين ، وفيها موسم الحجيج العام في كل عام ، يجتمع اليه الشرقي والغربي ، ويتآخى في موافقها الظاهرة الجليل والحقير ، والغني والفقير ، كانت أفضل مدينة تتوارد اليها أفكارهم ثم تنبث الى سائر الجهات ، والله يهدي من يشاء الى سواء السبيل .

*

ولما كان نيل الغاية على وجه أبعد من الخطر ، وأقرب الى الظفر ، يستدعي أن يكون للداعي في كل قلب سليم نفثة حق ، ودعوة صدق ، طلبوا عدة طرق لنشر أفكارهم ، بين من خفي عنه شأنهم من اخوانهم ، واختاروا أن يكون لهم في هذه الايام جريدة بأشرف لسان عندهم ، وهو اللسان العربي ، وأن تكون في مدينة حرة كمدينة باريس ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم ، وتوصيل أصواتهم ،

الى الاقطار للقاصية ، تنبيهاً للغافل ، وتذكيراً للذاهل ، فرغبوا الى السيد جمال الدين الحسيني الافغانى أن يذشىء تلك الجريدة ، بحيث تتبع مشربهم ، وتذهب مذهبهم ، فلبى رغبتهم ، بل أدى حقاً واجباً عليه لدينه ووطنه ، وكلف الشيخ محمد عبده أن يكون رئيس تحريرها ، فكان ماحمل الاول على الاجابة حمل الثاني على الامتثال ، وعلى الله الاتكال في جميع الاحوال .

الجريدة ومنهجها

ستأتي في خدمة الشرقيين على ما في الامكان من بيان الواجبات التي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات ، والاحتراز من غوائل ما هو آت

ويستتبع ذلك البحث في أصول الاسباب ومناشئ الملل التي قصرت بهم الى جانب التفريط ، والبواغث التي دفعت بهم الى مهامه حيرة عميت فيها السبل ، واشتبهت بها المضارب ، وتاه فيها الخريث^(١) وضل المرشد ، حتى لا يدري السالكون من أين تفجهم الطوارق المفزعة ، والمزعجات المدهشة ، والمدهشات القتلة وتكشف الغطاء ما استطاعت عن الشبه التي شغلت أوهام المترفين ، ولبست عليهم مسالك الرشد ، وتزيج الوسوس التي أخذت بعقول المنعمين ، حتى ثورثهم اليأس من مداواة آلائهم وشفاء أدوائهم ، وظنوا أن زمان التدارك قد فات ، وأن العلة بلغت حدها

ومحاول إثراب الافهام أن لا حاجة في الوصول الى نقطة الخلاص المرغوبة الى قطع دائرة عظيمة تصورها يوجب فتور الهمم وانحطاط العزائم . وأن تخيل تلك الدائرة الواسعة إنما عرض من الادبار عن المغلوب وهو تحت الجناح . يكفي في الوصول اليه عطفة نظر ، وقطع بعض خطوات قصيرة . وأن الظهور في مظهر القوة لدفع البكوارث إنما يلزم له التمسك ببعض

(١) الخريث بكسر الحاء المعجمة وتثنية الراء الدليل الحاذق بنحرت الارض

وهو معرفة طرقها ومضايقتها

الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم ، وهي ما تمسكت به أعز دولة أوربية وأمنها ^(١) ولا ضرورة في إيجاد النعمة الى اجتماع الوسائط ، وسلوك المسالك التي جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى ، ولا ملجئ للشرقي في بدايته ، أن يقف موقف الأوربي في نهايته ، بل ليس له أن يطلب ذلك ، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوفر نفسه وأتمه وقرا أعجزها وأعوزها وتنبه على أن التكافؤ في القوى الذاتية والمكتسبة ، هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية . فن قد التكاثر لم تكن الرابطة إلا وسيلة القوي لا ابتلاع الضعيف . وتجميل إهاب الوداد المرقش بألوان الملائكة ، المديح بأشكال الحمامة ، شفاقة ينم عما وراءه ، وتنقب عن المسالك الدقيقة ، التي يسري بها الظالمون في دياجير الغفلات ونهتهم بدفع ما يرمى به الشرقيون عموماً المسلمون خصوصاً من التهم الباطلة التي بوجهها اليهم من لا خبرته بحالهم ، ولا وقوف على حقائق أمورهم وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون الى المدنية ماداموا على أصولهم التي فازبها آباؤهم الأولون ولا تبين في تبليغ الشرقيين ما يحسهم من حوادث السياسة العمومية ، وما يتداوله السياسيون في شؤونهم ، مع اختيار الصادق ، واثقائه الثابت

وتراعي في جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة في أفرادها ، وتأيد المصالح المشتركة بينها ، والسياسات القوية التي لا تميل الى الحيف والاجحاف بحق الشرقيين

ومع كل هذا فهذه الجريدة تتبع سير الداعين اليها ، والهاملين عليها ، لا تظهر إذا أدجوا ، ولا تتجد إذا أغوروا . وتذهب مذاهب الرشد ، وتصيب بحول الله مواقعهم عند من سبق في أزلي علم الله هدايته . والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم وترسل الى الذين نعرف أسماءهم مجانا بدون مقابل ليتداولها الأمير والحقير ، والغني والفقير . ومن لم يصل اليها اسمه فما عليه إلا أن يكتب الى ادارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل إقامته على النهج الذي يريده والله الموفق اهـ

(١) يريد الدولة الروسية التي جرت كلاء شيوخها وغنيت يجعلهم أمة حرة مسالمة بأحدث آلات القتال وأخذة بأحدث نظمه كما هو مبين في مقالة أخرى (م ٣٨ تاريخ الاستاذ الامام ج ١)

دعاب الانكليز من العروة الوثقى ومقاومتهم لها

لما استقرت قدم السيد جمال الدين في مصر سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) وأنشأ برني التلاميذ والمريدين لاعدادهم للعمل السياسي الذي هو غرضه من الحياة كان من أول ما نشره في جريدة مصر التي أنشأها بعض مريديه من السوريين مقالات عنوائها البيان، في الانكليز والافغان اوصف فيها قومه الافغانيين بقوله : « هذه الامة المعروفة بعزة النفس ، وشدة البأس ، التي لم ترض الدخول تحت حماية الحضجر (١) المبلى بجوع البقر والاستسقاء ، الذي لم يشبعه ابتلاع ماتي مايون من النفوس (٢) ولم تروه مياه الكنج والشمس ، بل فغر قذاليتهم بقية العالم . ويجرع مياه النيل ونهر جيحون هـ

وكان من تأثير هذه المقالات أن ترجمتها بعض الجرائد الانكليزية وأظهرت الاعجاب به وبها وردت عليها كما تقدم تفصيله في ترجمته من هذا الكتاب فكان أول كاتب شرقي اهتمت الجرائد الانكليزية بكلامه

ولما عزم على نشر جريدة العروة الوثقى في باريس كان قد اشتهر أمره عند ساسة الانكليز بما كان له من الاثر النعل في السياسة المصرية في آخر مدة اسماعيل باشا حتى كان قصاصهم الجنرال هو الذي أغرى توفيق باشا باخراجه من مصر بعد أن كان من مريديه - وحتى أن حكومة الحمد حجرت عليه في كلكته مدة اشيرة العراية وحجبت عنه اخبارها كما تقدم ايضا

لهذا كله حسب الانكليز اجريده كل حساب وجهه بعض ساستهم بتحريض حكومتهم عليها قبل صدور شيء منها كما بينته في العدد الخامس الذي صدر في ٤ جمادى الآخرة سنة ١٣٠١ (١٠ ابريل سنة ١٧٨٤) وهذا نصه :

(١) الحضجر بكسر ففتح الواع البطان وهو من اسماء الضع

(٢) يعني اهل الهند وكان هذا إحصاءهم في ذلك الوقت وأما الآن فهم ٣٢٠

مايونا او يزيدون

الجراند انكليزية والعروة الوثقى

لونا دينا الغافلين أن انتبهوا . والثامنين أن استيقظوا . واللاهين يحظوظهم
 أو ثمانينهم أو أو هامهم ان التفتوا . ولو أنذرنا أهل مصر بأن الانكليز لو ثبتت
 أقدامهم في ديارهم ، لحاسبوا الناس على هواجس أنفسهم وخطرات قلوبهم .
 بل على استعداد عقولهم لما عساه يخطر ببالهم - لقال الناس اننا نبالغ في الانذار
 ونغرق في التحذير . ولوبينا لهم أن الانكليز يؤخذون الالباء . بذنوب الآباء ،
 والاحفاد بجرائم الاجداد ، ويطالبون الذراري بدفائن اسلافهم - وان لم يكن
 الخلف علم بما ترك السلف - اعدوا هذا البيان مناشططا في المقال ، وميلاعن الاعتدال
 ولوروبنا لهم أن في قلوب الانكليز حقداً وضغينة على كل إيراني
 سواء كان من الافراد او الوجوه ، ويسيثون معاملتهم حينما وجدوا من بلاد
 الهند ، ويمقتونهم مقتا شديداً لأن نادر شاه من ملوك العجم جاء إلى الهند فاتحاً
 على عهد السلطنة التيمورية ، واستولى على خزائن الاموال في دهلي ، وأخذها
 إلى بلاده قبل استيلاء الانكليز على تلك المملكة بما ينيف عن قرن . ويعضون
 الانامل من الغيظ ويحرقون الأرم من الاسف على ما أخذ نادر من أموال
 دهلي ، وحرمانهم من تلك الاموال ، ويحملون هذا الوزر على عاتق كل إيراني -
 لحسبوا ذلك منا تعالياً .

ولو قصصنا عليهم مايسامل به الانكليز رعاياهم في الهند عموماً
 والمسلمين خصوصاً ، وأنه يكفي انني عالم من علماء المسلمين إلى جزائر (اندومان)
 أن يعترف بأنه معتقد ببعض آيات من القرآن - لانكروا علينا ما نقول ،
 لبعدهم عن تلك الاقطار وعدم وقوفهم على أحوالها . ولسنا الآن بصدد اقناع
 المصريين بما نعلم من أحوال الانكليز ولا نريد إقامة الدليل على ما نعرفه من
 أحكام ساداتهم ، فلا نذكر ولا نبين ولا ننحكي ولا نقص . ولكن نعرض عليهم
 نموذجاً من المعاملة لعله يكون المتبهرين مرآة تحكي ما يغيب عنهم من لوازم
 السلطة الانكليزية

عزمتنا على إنشاء جريدتنا هذه فلم بذلك بعض محرري الجرائد الفرنسية . فكتبوا عنها قبل صدورها ، غير مبينين لمشربيها ، ولا كاشفين عن حقيقة سيرها . فلما وقف على الخبر محررو الجرائد الانكليزية المهمة أخذتهم الحدة ، واحتدمت فيهم نار الحمية ، وانذروا حكومتهم بما تؤثر هذه الجريدة في سياسة الانكليز ونفوذها في البلاد الشرقية . ولجوا في إغرائها بها ، وألحوا عليها أن تعد كل وسيلة لمنع الجريدة عن الدخول في البلاد الهندية والبلاد المصرية . بل تطرفوا فنصحوها ان تلزم الدولة العثمانية بالحجر عليها . كل هذا كان منهم قبل صدور أول عدد من جريدتنا وقبل أن يقف ولا واحد منهم على مذهبها السياسي . مع أن هذه الجريدة لم تنشأ لأثارة الخواطر ، ولا لايقاد الفتن ، وانما أُنشئت للمدافعة عن حقوق الشرقيين عموما ، والمسلمين خصوصا . وتنبيه أفكار بعض الغفلين منهم . لا فيه خير لهم . ولقد صدرت سالككة جادة الاعتدال ، ذاهبة مذهب الاستقامة والعدل ، كما يظهر لكل من اطلع عليها .

فالمعتبر المعتبرون بهذا الاجحاف . والاعتداء والقصاص قبل الجنائية ، ومن كان سمندلي الطبع فليهنأ له العيش (في ظل ذي ثلاث شعب * لا ظليل ولا يغني من اللهب *) ولكن فلنعلم الحكومة الانكليزية أننا لا يعجزنا بث أفكارنا في البلاد الشرقية سواء كان بهذه الجريدة او بوسيلة أخرى إذا دعا الحال . فان أنصار الحق كثيرون . اهـ [المؤلف] قوله سمندلي الطبع في الاصل سمندري بالراء وهو محرف ، والسمندلي نسبة الى السمندل (كسفرجل) وهو كما قال في القاموس : طائر في الهند لا يحترق بالنار . وهذه استعارة والمراد ان من كان لا يشعر بالظلم نار الذل والامتهان بان كانت طبيعته النفسية كطبيعة السمندل الجسدية الذي لا يألم من مس النار فليهنأ له العيش في ظل الاجنبي الذي يشبه ظل محمود جهنم الذي وصفه الله تعالى بقوله المجرمين (انطلقوا الى ظل ذي ثلاث شعب) الخ

فإذا كان هذا شأن خوف الانكليز منها قبل صدورها فهل يستغرب من الحكومة البريطانية بعده أن تمنع دخولها في مصر والهند ؟ وهذا ماورد في منع الحكومة المصرية لها في العدد التاسع الذي صدر في ٢٥ رجب ١٣٠٢ (٢٢ مايو *)

العروة الوثقى

انضمده مجاس النظار المصري في القاهرة واهتم بالبحث في شأن (العروة الوثقى) ثم أصدر قراره إلى نظارة الداخلية المصرية قاصياً عليها بأن تشتد في منع هذه الجريدة عن دخول الافطار المصرية ، وتراقب جولانها في تلك الديار ، فصدر أمر الداخلية إلى إدارة (عموم البوسطة) يلزمها الدقة في ذلك ، وبلغنا أن الجريدة الرسمية بعد نشرها صورة الاوامر أعلنت أن كل من توجد عنده العروة الوثقى يغرم مبالغاً من خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيهاً (وهي غرامة جسيمة ربما دعا اليها عسر المالية المصرية بركة تصرف الانكاي في مصر) أما نحن فلا نغان أحداً من النظار المصريين له رأي اختياري في هذا القرار ، بل لا نتوهم في المستوي على كرسي الخديوية ميلا إلى مثل هذا الحكم ، ولا يحتاج في صدورنا أن مصر يا من أي مشرب كان سواء المسلم أو غير المسلم منهم بل ولا شرقياً ممن يسكن تلك البلاد يرى فيه جانباً من العدل

هذه جريدة قمت بالدفع عن المصريين والاسنن جادلهم ، وطاسعي بل كل الهيحية آمال أعدائهم ، ولا ترى من مشربها مدح زيد ولا نقدح في عمرو ، فإن المقصد أعلى وأرفع من هذا ، وإنما عملها سكب مياه النصيح على طب الضغائن للاقى قلوب الشرقيين عموماً على الصفا والوداد . قلتمس من أبناء الامم الشرقية أن يلتقوا سلاح التنازع بينهم ، يأخذوا أحذرهم وأسلحتهم لدفع انضواري التي فقرت أفواهل الاتهامهم ومن رأبها أن الاشتغال بداخل البيت إنما يكون بعد الامن من طروق الناهب هذا منهاج العروة الوثقى علمه كل مطلع على ما نشر فيها من يوم نشأتها إلى الآن فكيف يخطر ببال عاقل أن شرقياً مسلماً أو غير مسلم يميل لحجبها عن دياره . ولكننا نعلم أن حركات الآمرين في القطار المصري هذه الايام قهرية لا يتخاطبها شيء من الاختيار ، والمدير لرحى القهر عليهم هم عمال الانكاي

ولا نريد أن نقول للانكاي إنهم ظلموا في هذا الحكم فإن الجريدة لم يوجد فيها إلى الآن ما يزيد على ما تنشره الجرائد الوطنية والاجنبية من كشف مسايرهم ، وبيان الرزايا التي أصيبت بها الديار المصرية من حلولهم . لانهم الانكاي الذين إذا

أحسوا بشهرة عالم من علماء المسلمين في الهند واقبال الناس عليه بالاعتبار أسرعو
بجابه الى ديوان الشرطة (الضبطية) فعند وصوله اليه يفتح له الضابط مصحف
قرآن أو كتاب حديث من الكتب الشهورة ثم يشير الى آية من آيات الجهاد أو
حديث مما يدعو اليه، ويسأله هل أنت معتمد بهذه الآية أو الحديث ؟ فإذا قال
نعم - قال له فبناء على ذلك يكون من رأيك وجوب الجهاد فينا . فإذا أجابه بأنني
درويش ملازم العزلة عن الناس وليس اعتقادي بهذا إلا لانه كتاب ديني، ضرب
له الضابط أجل أربعة أيام أو أقل يبين فيها رأيه في الآية أو الحديث ، فان مضى
الأجل ولم يحرف العالم دينه، ولم يبدل عقيدته، ولم يبادر بارسال تحريغه وتبديله
وخروجه عن دينه الى مطبعة من المطابع ليطلع وينشر - بعثت به الحكومة الى جزيرة
(أندومان) نفيًا مؤبدًا . ولو رأيت تلك الجزيرة لرأيتها غاصة بأهل هؤلاء المظلومين
فدولة الاسكندر التي تحاسب رعاياها المسلمين على خطرات قلوبهم ، وما
يمكن أن يمحس في حديث نفوسهم ، لا ريب انما تعد وجود لفظ الاسلام في جريدة
كافية لمنعها عن الدخول الى بلادها فيه ، قدم ثابت ، أو تسعى في تثبيته ، بل تحسب
أن من أعدائها شخصاً علق عليه هذا الاسم من أي جنس كان . فلا غرابة
في صدور مثل هذا الجور منها ، غير أننا نعلم لها أن هم الرجال لا تقطعها أمثال
هذه المظالم ، وليس يعجزنا ادخال هذه الجريدة في كل بقعة تحوزها الساحة
الانجليزية الظالمة ، ذلك بمزائم أولى العزم الذين قاموا بانشاء العروة الوثقى
بأنهم أن بعضاً من الناس يسل سيفه ويثخنه لئلا يمتدحوا بالحميم ، ويقابل ثمة
بالذم ، ومدحه بالقدح ، واحسانه بالاسدة ، ويواجه نصيحته بالظنة . ولا ننظر أن هذا ما
عن عمد ولا اغراء عدو ، وانما هو اشيء حجت نظره عن ذلك الحقيقة فإذا كشفت له الايتم
عن الواقع رجع الى الندم على ما صدر منه ، وكانت له مثابة الى الحق وركون الى الصواب
لا يحزنن أهل الحق القائمون بأمر هذه الجريدة على ما صدر عن الحكومة المصرية من
منع العروة الوثقى عن دخول القطر المصري وإيعاموا أن الحكومة المصرية لا دخل لها في
هذا المنع ، فان حكومة مصرية لا تسمح لها غير منع جريدة لاشي ، فيها سوى الدفع عن
الشرقيين ، وانما منشور حكومة الخبر او شئنا معلوم عند كل عارف بأحوالها .

تأثير العروة الوثقى في العالم الاسلامي

انني لا أزال أتذكر أنه كان بدارنا في القلمون بجوار طرابلس الشام (في سنة ١٣٠٢) ضيوف من المصريين المنفيين بسبب الحوادث العربية فجاءت جريدة العروة الوثقى مساء فأخذها الاستاذ الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي المشهور، وقد وضع بين يديه مصباح من مصابيح زيت البترول، وأنشأ يقرؤها بصوت جهوري كأنه خطيب، وإنما كان يقف عند بعض الجمل، ليعبر عما يحلج من شعور العجب، ولم يتركها حتى أتى على آخرها، ولم أكن في ذلك الوقت أعنى بشيء مثل هذا بل كانت تلك السنة اثناثية لاشتغالي بطلب العلم.

ثم انني رأيت في محفوظات والذي به نسخ الجريدة فكان كل عدد منها كسلك من الكهرباء اتصل بي فأحدث في نفسي من الهزة والانفعال، والحرارة والاشتغال، ما قذف بي من طور إلى طور ومن حال إلى حال، وقد سبق لي وصف تأثير الجريدة في نفسي بوجه الاجمال (١) وإنما كان الاثر الاعظم لتلك المقالات الاصلاحية الاسلامية، ويليها تأثير المقالات السياسية في المسألة المصرية، والذي علمته من نفسي بالخبر ومن غيري بالخبر ومن التاريخ أنه لم يوجد لكلام عربي في هذا العصر ولا في قرون قبله بعض ما كان لها من إصابة موقع الوجدان من القلب، والافئاع من العقل، ولا حد للبلاغة إلا هذا

وكان هذا التأثير هو الذي أوحى إلى صديقنا الامير شكيب أرسلان قوله في مدح السيد جمال الدين الذي أفاض الله تعالى حكمها على جنانه

ومعان لو أوحيت لجاد هزه الشوق نحوها والغرام

حيرت كل ذي حصاة إلى أن قيل لاشك انها إلهام

وقوله في كلام الشيخ محمد عبده الذي أبرزها باجمل الحلي والحلل من بيانه

كلام إذا ألقىته في جماعة غدا منك مثل اللؤلؤ الرطب يذوق عليه من النور الالهي مسحة تكاد على أرجائه تتألق كذلك كان تأثيرها في نفس كل من كان يطلع عليها ، وناهيك بالمطالعين عليها في زمن صدورها ،

ذلك بأنها قد تجلت فيها تلك الأفكار الجمالية السامية ، بتلك العبارات العبدية العالية ، وجمعت بين الحكمة ونصل الخطاب ، والاخلاص في مجري الحق ، ومخاطبة القلب للقلب ، فلا غرو أن يكون لها ما علمنا من عجب التأثير ، الذي لم يعهد له بعد ما كان من تأثير اقرآن في العصر الاول نظير ، وانما كان تأثيرها مستمداً من تأثير القرآن ، فهي قد أحيت تدبره والجماد به ، والدعوة اليه والدعوة به ، والمعاني الاجتماعية والسياسية من تفسيره ، فكان قارئها يشعر بالروح الملوي الذي كان يفيض من نور على ذينك القمرين النيرين ، وينعكس من فلكهما على العالم الاسلامي فيحدث فيه من قوة التأثير ما كان يجزم أهل الرأي في الاقطار المختلفة بأنه سيحدث ثورة اسلامية قريبة في العالم يعقبه انقلاب عظيم في الشرق

سمعت أستاذنا الشيخ حسين الجسر عالم سوربة الوحيد في الجمع بين العلوم الاسلامية ومعرفة حالة العصر السياسية والمدنية يقول : ما كان أحد يشك في أن جريدة العروة الوثقى ستحدث انقلاباً عظيماً في العالم الاسلامي لو طال عليها الزمان

وسمعت محمد بك علي المؤيد يقول كنت في بغداد في عهد صدور العروة الوثقى وكانت ترسل إلى الزعيم العربي الاكبر في العراق السيد سلمان الكيلاني نقيب الاداة الاشراف وكان يقول كلما جاء عدد منها يوشك أن تقع ثورة من تأثير هذه الجريدة قبل أن يجي ، العدد الذي بعد هذا . وكان السيد سلمان من زعماء المسلمين أصحاب النفوذ الكبير في قبائل العراق المسلحة التي لم تكن تخضع للدولة العثمانية - وأما نفوذه الروحي في الملايين من مسلمي الهند فهو يشبه العبادة أو هو ضرب منها .

وانما أعد القلوب لذلك التأثير سوء وقع احتلال الانكليز لمصر والامل بانقاذها منه بسعي هذين الزعيمين الحكيمين ، فلا غرو أن يكون لذلك الزمان ولاختيار ذلك المكان ، وامتلاك الآمال والآلام ، من السلطان الروحاني على ذينك

العقابين المالكين ، والقلبين الخالصين ، ما تجلى نوره في مرآة العروة الوثقى وانعكس عنها على الشرق ، فأضاء ما فيه من ظلمات بعضها فوق بعض ، وظلمة الجهل بالقرآن ، والجهل بتاريخ الاسلام ، وظلمة استبداد الحكم ، وظلمة فساد الاخلاق العام ، ولقد عاد المسلمون بعدها يتسكعون في تلك الظلمات الحالكة ، وتلك المصاييح بين أيديهم ينظرون اليها ولا يبصرونها ، فاني لهم الاستضاءة بنورها ؟

وقد رأينا الكل من هذين الحكيمين مقالات كتبها بعد ذلك فلم تر لها من الروعة والدهشة والسلطان على الارواح ما لمقالات العروة الوثقى ، بل قال لي الاستاذ الامام نفسه : اني لا أستطيع الآن أن أكتب مثله ، وعلم ذلك بما أشرت اليه من تأثير الزمان والمكن والحل والانفعال والآمل ولوعادت تلك المؤثرات لتتب ما هو أبلغ منها ، لانه قد ازداد علوا وإيمانا وبيانا ، ألم تر كيف كن ما كتبه من افصول في آخر رسالة التوحيد من ذلك الطراز المبقرى ، والالهام الالهى ، ولأن موضوعه اعتقادي لاعلمي ، وسبب ذلك أنه كتبها في حالة وجدانية استوائت على النفس ، فجذبتها من عالم الحس الى عالم القدس زرتة رحمه الله تعالى في ضحوة يوم من أيام رمضان سنة ١٣١٥ بداره التي كانت بحى الناصرية فقيل لي انه موعوك لم ينزل من سريره . قلت أخبروه بمجئى فأخبروه فاذن لي فسأله عن شكاته فقل انني أطلت الفكر ليلا في حال المسلمين وما أصابهم من الشقاء بترك دينهم فداورتنى آلام عصبية يعتادني . مثلها كما أطلت الفكر في هذا الامر ، حتى خطر في بالي أن أنزل من الدار وأذهب الى مجامع لهوم وفسقهم العامة في حي الازبكية وأصبح بهم : أيها الناس ماذا رأيتم في دينكم .. حتى تركتموه ؟ ثم انني لم أجد نفسي إسعافا يسكن الالم إلا الكتابة فكتبت هذا الفصل الملحق برسالة التوحيد ، « انتشار الاسلام بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ » وما يليه من الاراد والجواب عنه

(١) اني لا عجب لفقلة معلمي الانشاء في مدرسة دار العلوم وغيرها من المدارس العالية ، كيف لا يلتقون الطلاب هذه المقالات ، ولا يرشدونهم الى مطالعة غيرها مما اودعناه جزء المنشآت ، ثم يزول عجبى بتذكر إحاطة هذه الظلمات وكان بعض من أنار الله بصيرتهم من أساتذة مدرسة المعلمين العليا قد طالبوا من وزارة المعارف تقرير هذا الجزء لمطالعة الطلبة فيها فقررت ، ثم طلب غيرهم أن تستبدل به كتاب مقامات الحريري فاستبدلته !!! وانما استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير .

مقاصد العروة الوثقى

الموضوعات التي تنحصر فيها مقاصد العروة الوثقى أربعة : الجامعة الاسلامية ،
 الرابطه الشرقيه ، المسأله المصريه ، المسأله السودانية ، والرابطه الشرقيه مرتبطة
 بالجامعة الاسلامية في مذهبها ، فليس فيها فصول خاصة ، بها وقلم تخلو مقالة في الجامعة
 الاسلامية من ذكرها ، ووجوب الجمع بينهما . وكذلك المسأله السودانية مع المسأله
 المصريه إذ السودان جزء من المملوكه المصريه . ولكن كان للحكيمين سياسة خاصة
 بالسودان سيأتي بيانها وانني ألخص مذهبها في هذه المسائل اثلاث

الجامعة الاسلامية

كان الغرض منها إرشاد المسلمين بالقرآن ونشأة الاسلام الاولى إلى
 وحدته ، وسيرة النبي ﷺ وخلقائه الراشدين في اقامته وتأسيس حكومته ،
 وسيرة السلف الصالحين في هدايته . وسيرة القواد الفاتحين في تشييد صروح سيادته ،
 ومذاهب الأئمة المجتهدين أي طرقهم العلمية الاستقلالية في تدوين شريعته ، ومناهج
 الحكماء والفنانين في تكوين حضارته ، وتوجيه جميع شعوبهم الى استقلال بلادهم وأحدها
 وتعاونها على إحياء مجده ، بترك عضيبات المذاهب والجنسيات المفرقة لكافة أهله

واما ما اشتهر عن السيد جمال الدين من كونه يريد بالجامعة الاسلامية أن
 يكون للمسلمين كلهم دولة واحدة ، فلم أره في شيء من العروة الوثقى ولا في غيرها
 مما كان يرويه عنه الاستاذ الامام وهو أعلم الناس بمقاصده وأعماله ، بل قال في
 المقالة التي وضعنا لها عنوان (الوحدة الاسلامية) التي نشرت في العدد التاسع
 من العروة الوثقى « لا ألتبس بقولي هذا أن يكون مالك الامر في الجميع شخص
 واحداً فان هذا ربما كان عسيراً . ولكنني أرجو أن يكون سلطان جميعهم
 القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذي ملك على ملكه يسمى بجهد لحفظ
 الاخر ما استطاع ، فان حياته بحياته ، وبقاءه ببقاءه ، ألا إن هذا بعد كونه

أساساً لدينهم تقضي به الضرورة وتحكم به الحاجة في هذه الاوقات « اهـ (راجع
المقالة في ص ٢٧٦ من الجزء الثاني - الطبعة الثانية)

وضرب لهم في المقالة التي أنشأها الدعوة الايرانيين والافغان للاتفاق
والاتحاد مثلاً الشعوب الجرمانية الذين كانوا مختلفين في النصرانية على نحو
من اختلافهما وقال : فما كان لهذا الاختلاف الفرعي أثر في الوحدة السياسية
ظهر الضعف في الامة الالمانية وكثرت نايها عاديات جيرانها ولم يكن لها كلمة
في سياسة أوربة . وعند ما رجعوا إلى أنفسهم وأخذوا بالاصول الجهورية ،
وراعوا الوحدة الوطنية في المصالح العامة ، رجع اليهم من اقوة والشوكة ماصاروا
به حكام اوربا ويبدعهم ميزان سياستها اهـ (راجع ص ٣١٦ ج ٢ طبعة ثانية)

والظاهر أنه كان يكتفي بالوحدة الدينية وتجديد الاصلاح الاسلامي المدني
والحربي في كل شعب له دولة او تصير له دولة ، وعقد المحالفات بين هذه الدول
(كالترك والفرس والافغان في ذلك الوقت) ثم الاعتراف لاقواهن برباسة
الحلف بتمثيله للخلافة الاسلامية ، كجعل الدول الالمانية ملك بروسية امبراطورا
للمملكة وعاصمته مركز الوحدة العامة ، مع بقاء كل دولة مستقلة بنفسها في بلادها
أنشأ لهذا الغرض بضع عشرة مقالة صدر أ كثرها بآيات من اقرآن وأقلها
بمحدث أو عنوان يناسب موضوعها ، ولم يضع لا كثرها عناوين غير هذه الايات
وقد نشرناها ومقالات أخرى أدبية واجتماعية في الفصل الثالث من الجزء الثاني
(منشآت الاستاذ الامام) وجعلناها عناوين تليق بها

وأرى أنه لا يتم لقاريء هذا التاريخ ما كان الحكيمان يريدان من فكرة الجامعة
الاسلامية والاصلاح الديني إلا بقراءة تلك المقالات ، التي نشرناها في الفصل الثالث
من جزء المنشآت ، وحسبي هنا أن أصف بعضها ، وأذكر بعض الشواهد منها .

مقالة (١)

الجنسية والديانة الإسلامية

بدئت هذه المقالة ببيان ضاف في عصبية الجنس ونعوته ومكانتها في الأمم ،
والحاجة اليها في الاجتماع ، ونجواز الناس حد الحاجة فيها إلى النفقة من سلطان
المخالف في الجنس وان كان عادلا مصلحا ، لان في قبول حكمه مهانة وذلا ، واستثنى
من هذه الضرورة للمصيبة الجنسية ما تزول به فائدتها ، بوجود عصبية أعلى وأنفع
وأعم وأشمل منها ، وهي العصبية الدينية ، ووصف سلطانها على النفس ، وأثرها في
الوجدان والحس ، وضرب لها عصبية الدين الاسلامي مثلا وبين حال المسلمين فيها ، وعملها
بما ينقض دعوى بعض ملاحدة هذا الوقت أن الاسلام رابطة روحية ، ليس له تشريع
ولاسياسة مدنية اجتماعية ، وفيه بيان قاعدته في الساطعة العليا وهي الخلافة فقال :
« لان الدين الاسلامي لم تكن أصوله قاصرة على دعوة الخلق إلى الحق ،
وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الأدنى
إلى عالم أعلى ، بل هي كما كانت كافلة لهذا جاءت وافية بوضع حدود المعاملات
بين العباد ، وبيان الحقوق كليها وجزئها ، وتحديد الساطعة الوازنة التي تقوم
بتنفيذ المشروعات وإقامة الحدود وتعيين شروطها ، حتى لا يكون القابض على زمامها
الا من أشد الناس خضوعا لها ، ولن ينالها بوراة ولا امتياز في جنس او قبيلة
او قوة بدنية ، او ثروة مالية ، وإنما ينالها بالوقوف عند أحكام الشريعة والقدرة
على تنفيذها ، ورضاء الأمة ، فيكون وازع المسلمين في الحقيقة شريعتهم الالهية
انقدسة التي لا يميز بين جنس وجنس ، واجتماع آراء الأمة ، وليس للوازع أدنى
امتياز عليهم إلا بكونه أحرصهم على حفظ الشريعة والدفاع عنها »
ثم استدلل على ما ذكره بشيء من الكتاب والسنة ، وذكر جريان المسلمين
على ذلك في القرون الحالية ، واستقامة أمورهم باستقامة الوازعين فيهم على ما ذكر
واخته لالهها باخلاله ، ومنه قوله :

« وكلما أراد الوازع أن يختص نفسه بما يفوق به غيره في ابهته ورفاهته مديشته وأن يستأثر على المحكومين بمحظ زائد ، رجعت الاجناس إلى تعصبها ، ووقع الاختلاف ، وانقبضت سلطة ذلك الوازع »

(نم انتقل من هذه المقدمات إلى المقصد الاسمي ، وهو تأسيس حكومة اسلامية تكون مركز الجاذبية العامة للوحدة فقل) :

« ان المسلمين اختصوا من بين سائر ارباب الاديان بالتأثر والاسف عند ما يسمعون بانفصال بقعة اسلامية عن حكم اسلامي بدون التفات الى جنسها وقبيلها ، ولو أن حاكماً صغيراً بين قوم مسلمين من أي جنس كان تبع الاوامر الالهية واثابر على رعايتها ، وأخذ الدهماء بمحدودها ، وضرب بسهمه مع المحكومين في الخضوع لها ، وتجنفى عن الاختصاص بمزايا الفخفخة الباطلة ، لا يمكنه أن يحوز بسطة في الملك وعظمة السلطان ، وأن ينال الغاية من رفعة الشأن في الاقطار العمورة بآرباب هذا الدين ، ولا يتجشم في ذلك أتعاباً ، ولا يحتاج إلى بذل النفقات ، ولا تكثير الجيوش ، ولا مظاهرة الدول العظيمة ، ولا مداخلة أعوان التمدن وأنصار الحرية ، ويستغني عن كل هذا بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع الى الاصول الاولى من الديانة الاسلامية . ومن سيره هذا تنبعث القوة ، وتتجدد لوازم النعمة » ثم ختم المقالة ببيان ما يخالف هذا المقصد فقال

« ابيضت عين الدهر وامتع لون الزمان حتى أصاب ان بعضا من المسلمين على حكم الندرة يميز عليهم الصبر ويضيق منهم الصدر لجور حكماهم وخروجهم في معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية ، فيلجئون للدخول تحت سلطة أجنبية ، على ان الندم يأخذ بأرواحهم عند اول خطوة يخطونها في هذا الطريق ، فمثالهم مثل من يريد الفتك بنفسه حتى اذا أحس بالآلم رجع واسترجع . وان بعض ما يطرأ على الممالك الاسلامية من الانقسام والتفريق انما يكون منشؤه قصور الوازعين وحيدانهم عن الاصول القويمة التي بنيت عليها الديانة الاسلامية ، وانحرافهم عن منهاج اسلافهم الاقدمين ، فان منابذة الاصول الثابتة والنكوب عن المناهج المألوفة أشد ما يكون ضررها بالسلطة العليا

« فاذا رجع الوازعون في الاسلام الى قواعد شرعهم وساروا سيرة الاولين السابقين لم يمتض إلا قليل من الزمان الا وقد أنعم الله بسطة في الملك وألحقهم في العزة بالراشدين من أئمة الدين، ووقفنا الله للسداد وهدانا طريق الرشاد » اهـ

مقالة

ماضي الامة وحاضرها وعلاج عللها (١)

مقالة طويلة تزيد سطورها على ٢٣٠ سطراً ، تزين ٩ ص ونيفاً ، افتتحها بآية (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً) ثم قال « أرايت أمة من الامم لم تكن شيئاً مذكوراً ، ثم انشق عنها عماء العدم ، فذا هي بجمية كل واحد منها كون بديع النظام ، قوي الاركان ، شديد البنيان ، عليها سياج من شدة البأس ، ويحيطها سور من منعة الهمم ، تحمد في ساحاتها عاصفات النوازل ، وتنجل بأيدي مدبرها عقد المشاكل ، نمت فيها افنان العزة بعد ما ثبتت أصولها ، ورسخت جذورها ، وامتد لها السلطان على البعيد عنها والداني اليها ، ونفذت منها الشوكة ، وعلت لها الحكمة ، وكملت القوة ، فاستعلت آدابها على الآداب ، وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقيها ومعاصريها ، وأحست مشاعر سواها من الامم بان لا مساعدة لها إلا بالتهاج منهجها ، وورود شريعته ، وصارت وهي قليلة العدد كثيرة الساعات ، كأنها للعالم روح مدبر ، وهو لها بدن عامل

« وبعد هذا كله وهي بناؤها ، وانتثر منظومها ، وتفرقت فيها الالهواء ، وانشقت العصا ، وتبدت ما كان مجتمعاً ، وانحل ما كان منمقداً ، وانفصمت عرى التماون ، وانقطعتم روابط التعاضد ، ونصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجوده . ودار كل في محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه ، لا يلمح في مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية »

وأخذ بعد هذا في وصف حال هؤلاء الافراد الذين فقدوا السلك الذي به كانوا أمة في حياتهم الفردية وما فعلت بهم قناعة البهم ، وما حشا أدمقتهم من جهالة الوهم ، حتى حاق بهم انقنوط واليأس ، فسلك أعناقهم في سلاسل الجبن وحبس أرجلهم في مقاطر العجز ، وغل أيديهم عن العمل ، وأقداهم عن السعي ، ثم قل « نعم رأيت كثيراً من الأمم لم تكن ثم كانت ، وارتفعت ثم انحطت ، وقويت ثم ضعفت ، وعزت ثم ذات ، وصحت ثم مرضت ، ولكن أليس لكل علة دواء ؟ بلى وأسفاد ! ما أصعب الداء ! وما أعز الدواء ! وما أقل العارفين بطرق العلاج ! » ثم طفق يتسأل عن الدواء وطرق العلاج :

« كيف يمكن جمع الكلمة بعد افتراقها وهي لم تفترق إلا لأن كلا عكف على شأنه ؟ أستغفر الله ! لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشد أرضائه اتصالاً به ، ولكنه صرف أشؤون غيره وهو يظنها من أشؤون نفسه » كيف تبعث الهمم بعد موتها - وما ماتت إلا بعد ما سكنت زماناً غير قصير إلى ما ليس من معاليها ؟ هل من السهل رد التائه إلى العرصات المستقيم - وهو يعتقد أن الفوز في سلوك سواه ؟ خصوصاً بعد ما استدبر المقصد ، وفي كل خطوة ، يظن أنه على مقربة من الخطوة ؟ كيف يمكن تنبيه المستغرق في منامه ، المتبهج بأحلامه ، وفي أذنيه وقر ، وفي ملامسه خدر ؟ هل من صيحة تقرع قلوب الآحاد المتفرقة من أمة عظيمة تتباعد أتحاؤها ، وتتناهى أطرافها وتتباين عاداتها وطبائنها ؟

« هل من نبأة تجمع أهواها المتفرقة وتوحد آراءها المتخالفة بعد ما تراكم جهل وران غين وخيل للعقول أن كل قريب بعيد وكل سهل وعرة ؟ أيم الله أنه لشيء عسير يعيا في علاجه النظامي ويحار فيه الحكيم البصير

(وههنا أخذ يبحث في حقيقة الدواء ومرض الأمة والفرق بينه وبين معالجة مرض الافراد الجدي ويستعرض الآراء في ذلك ، ومنها ذهاب بعض الناس إلى فائدة الجرائد ، وآخرين إلى الاعتماد على إنشاء المدارس على نحو ما في أوربة ويبحث في كل منها من حيث الامكان والاتقان ومسألة الزمان ووضع تلك العلوم الغربية في مواضعها على الوجه الموصول إلى مقاصدها مع مراعاة استعداد الأمة وطبائنها)

- وضرب المثل لقلّة غنائها في ذلك بما في مصر والدولة العثمانية منها وما كان من سوء تأثيرها في توسيع مسافة التفرق والانقسام وتبديد بقايا الالتئام وجعل النوافذ والخصاص في بنيان الامة أبواباً « لتدخل الاجانب تحت اسم النصحاء وعنوان المصلحين ويذهبون بأمهم إلى الفناء والاضمحلال وبئس المصير »

(وانتقل من ذلك إلى وصف المتخرجين في هذه المدارس المصرية والعثمانية الذين أضعفوا الامة بدلا من أن تنال بهم من المنعة والقوة ما يرد عنها الطامعين فيها خاسئين ، وتهكم بما يتفقهون به من الفاظ الحرية والوطنية ، وسخر بما يفخرون به من الاسراف في الافاق والزينة محاكاة للاجانب في بداية تقليدهم لهم بما هو نعمة ونهاية لعلومهم وفنونهم لا وسيلة لها ، وأشار إلى مانسفوا بذلك من ثروة بلادهم إلى غيرها وما أمتاوا من الصناعات الوطنية وأبادوا من أهلها ونعت هذا التقليد السيئ ، التأثير بانه « جدع لأنف الامة يشوه وجهها ويحط بشأنها وما كان هكذا إلا لان تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها ولجاتهم قبل أولائها » ومما قاله في هؤلاء المتفرنجين المقلدين :

وصفه المتفرنجين المقلدين

« علمتنا التجارب ، ونطقت مواضي الحوادث ، بان المقلدين من كل أمة المستحلين أطوار غيرها ، يكرنون فيها منافذ وكرى لتطرق الاعداء اليها ، وتكون مداركهم مهابط الوسوس ، ومخازن الدسائس ، بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قدروهم ، واعتقاد من ليس على مثلم ، شؤما على أبناء أمهم - يذلونهم ويحقرون أمرهم ، ويستهبون بجمع أعمالهم ، وإن جات - إلى أن قال - وبصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالين وأرباب الغارات ، يهدون لهم السبيل ويفتحون الابواب ، ثم يثبتون أقدامهم ، ويمكنون ساططهم ، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلا لغيرهم ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم »

(وهنا ذكر أنه لو كان في البلاد الافغانية عدد قليل من تلك الظالمة عند ما تغلب الانكايير على بعض أاضيها (حتى عاصمتها) لما بارحوها إلى أبد

«لَا بَدِينَ» لَأَنَ الْاِجْتَانِبَ مَا طَرَقُوا اَرْضًا لَا يُةَ اُمةٌ اِلَّا اَقْبَلَ هَؤُلَاءِ الْمُتَعَلِّمُونَ عَلَيْهِمْ
يَعْرِضُونَ اَنْفُسَهُمْ لَخِدْمَتِهِمْ وَيَكُونُونَ بَطَانَةً لَهُمْ وَمَوَاضِعَ لَتَتَمَتُّهُمْ وَيَعْدُونَ الْعَلْبَةَ
الْاِجْنَبِيَّةَ مِبَارَكَةً عَلَيْهِمْ وَعَلَى اَعْقَابِهِمْ)

(ثم أجمل ما فصله من تنفيذ ما قيل من علاج هذه الامة وانتقل منه إلى العلاج
الصحيح الذي قال فيه: إنه سبب يجمع كل الاسباب ووسيلة تحيط بجميع الوسائل
وحصر ذلك فيما أشار اليه في أول المقالة من حياة هذه الامة وقوتها وعزتها في
نشأتها الأولى فكان ذلك شرحاً لقول الامام مالك: لا يصلح آخر هذه الامة
الا بما صلح به أولها .

مقالة

النصرانية والاسلام والمقابلة بينهما في طلب السيادة والسلطان

والقوة العسكرية والتنظيم (١)

عنوان هذه المقالة (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد)
ويليهام مقدمة فلسفية في «خلق الله الانسان عالماً صناعياً» في أطواره المعاشية والطبية
والادبية والاجتماعية، ليس فيه من تأثير الطبيعة في شخصه ولا فيما يحيط به الا ما يكون في
الاستعداد والاقابلية فكل ما يناله من علم وعمل «فهو ثمرة ما غرس ونتيجة ما كسب فهو
مصنوع يتبع مصنوعاً» فالانسان في عقله وصفات روحه عالم صناعي «ثم انتقل إلى
مكان الدين من نوع الانسان وما له من الكسب فيه فقال

«هذا ما لا يرتاب فيه العقلاء والسذج ولكن هل تذكرت مع هذا أن
الاعمال البدنية انما تصدر عن الملكات والعزائم الروحية؟ وأن الروح هي
السلطان القاهر على البدن؟ أظنك لا تحتاج فيه إلى تذكير لانه مما لا يعزب عن

(١) نشرت في العدد الرابع بتاريخ ٧ جمادى الآخرة

الاذهان ، انما قبل الدخول في موضوعنا أقول كلمة حق في الدين ولا أظن أن منكرًا يجحدها :

« إن الدين وضع إلهي ومعلمه والداعي إليه البشر تتلقاه العقول عن البشرين النذرين فهو مكسوب لمن لم يختصهم الله بالوحي ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين وهو عند جميع الأمم أول ما يمتزج بالقلوب ويرسخ في الافئدة وتصطبغ النفوس بعقائده وما يتبعها من الملوك والعادات ، وتتمرن الابدان على ما ينشأ عنه من الاعمال عظيمها وحقيرها ، فله السلطة الاولى على الافكار وما يطاوعها من العزائم والارادات فهو سلطان الروح ومرشدها إلى ما تدبر به بدنها وكأنما الانسان في نشأته لوح صقيل وأول ما يخط فيه رسم الدين ثم ينبعث إلى سائر الاعمال بدعوته وارشاده وما يطرأ على النفوس من غيره فانما هو نادر شاذ حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عما أحدثه فيه من الصفات حتى تبقى طبيعته فيه كأثر الجرح في البشرة بعد الاندمال » بعد هذا شرع في الموضوع « وهو الملة النصرانية والملة الاسلامية » فثبت ان الاولى بنيت على المساومة والياسرة في كل شيء ، وجاءت باطراح الملك والسلطة ونبت الدنيا وبهرجها ، ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بهاء وترك أموال السلاطين للسلاطين والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية وكذا الدينية « الخ وأشار إلى بعض الشواهد على ذلك من الانجيل وانتقل منه إلى التعجب أو التعجب من أطوار الآخذين بهذا الدين السلمي في المفاخرة بزيينة هذه الحياة واستيفاء لذاتها والمصارعة إلى افتتاح الممالك والمسابقة إلى اختراع آلات الحرب والتوسع في فنونها والمبالغة في تنظيم الجيوش وسوقها الى ميادين القتال » حتى صار الفن العسكري من اوسع الفنون وأصعبها ، وان أصول دينهم صارفة لعقولهم عن العناية بمحفظ أملاكهم فضلا عن الالتفات الى غيرها »

(وقفي على ذلك بالكلام في طبيعة الديانة الاسلامية فقال)

« الديانة الاسلامية وضع أساسها على طلب الغلب والشوكة ، والافتتاح والعزة ، ورفض كل قانون يخالف شريعتهما ، ونبت كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب

الولاية على تنفيذ أحكامها، فالناظر في أصول هذه الديانة ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل يحكم حكماً لا ريب فيه بأن المعتدين بها لابد أن يكونوا أول أمة حربية في العالم، وأن يسبقوا جميع الملل إلى اختراع الآلات القتالة واتقان العلوم العسكرية والتبحر فيما يلزمها من الفنون كالطبيعة والكيمياء وجر الاثقال والهندسة وغيرها « ومن تأمل في آية (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) أيقن ان من صبح بهذا الدين فقد صبح بحب الغلبة وطلب كل وسيلة الى ما يسهل له سبيلها، والسعي اليها بقدر الطاقة البشرية، فضلا عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه. » (ثم انتقل من بيان هذه الاصول الى بيان حال المتممين إلى هذه الديانة في هذا العصر من هوانهم بالقوة وعدم عنايتهم بالبراعة في فنون القتال ولا في اختراع آلاته، ودهشته من اضطرارهم إلى تقليد أولى الديانة السلمية فيما يحتاجون اليه من تلك الفنون والآلات وبنى على ذلك أسئلة كثيرة نذكر بعضها)

« لم لا يحار الحكيم وان كان نفاسيا ؟ لم لا يقف الخبير البصير دون استكناهم الحقيقة ؟ هل القرون الحالية والاحقاب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين في نفوس المستمسكين بهما ؟ هل نبذت كل ملة من الملتين عقائد دينها ظهريا من أجيال بعيدة ؟ هل اقتصر النصارى في دينهم على الاخذ بشريعة موسى واقتفاء سيرة يوشع بن نون ؟ هل تخللت بعض آيات الانجيل من حيث يدري ولا يدري بين الخطب والمواعظ التي تتلى على منابر المسلمين ، او ألقي شيء منها في أمانى معلمهم وناشري شريعتهم ، عند ما يتربعون في محافل دروسهم ؟

« هل تبدت سنة الله في الملتين ؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيهما ؟ هل استبدت الابدان فيهما على الارواح ؟ او وجد الارواح دبير سوى الفكر والخيال ؟ او انفانت الافكار من سلطة الدين ؟ او تعاضت النفوس على الانتقاش بنقشته وهو اول حاكم عليها واقرى مؤثر فيها ؟ هل تتخلف العال عن معلولاتها ؟ هل تنقطع النسب بين الاسباب ومسبباتها ؟ ماذا عساه يرشد العقول الى كشف المسائر وحل المعميات ؟ »

(وهنا فنحن ننبه الى اختلاف الاجناس او طبائع البلدان ، واحتج

عليه بما حفظه التاريخ للعرب والفرس والترك عند ما كانوا في شبيبة دينهم من الاعمال العسكرية التي ادهشت الالباب) ثم قال

« كان للمسلمين في الحروب الصليبية آلات نارية أشباه المدافع فزع لها المسيحيون وغابوا عن معرفة أسبابها ، وذكر ملكهم سرجم (انكايزي) في تاريخ فارس ان محمودا الفزنوي كان بحارب وثني الهند بالمدافع وكانت هي السبب في انهزامهم بين يديه سنة ٤٠٠ من الهجرة ، وما كان المسيحيون لذلك العهد يعرفون شيئاً منها

» فأني عون من الدهر أخذ بأيدي الملة المسيحية فقدمها إلى ما لم يكن من قواعد دينها ؟ وأي صدمة من صدماته دفعت في صدور المسلمين فأخرجهم عن نطاق الوسائل لما هو أول مفروض في دينهم ؟ مقام الحيرة وموضع للعجب ، ويظن أنه لا بد لهذا التخالف من سبب ، نعم وتفصيله يطول ولكننا نجمل على ما شرطنا »
أجاب عن الاول بما تلخصه في القضايا الأربع الآتية

(١) ان الدين المسيحي انما نشره في أوروبا أبناء الرومانين الذين ورتوا ملكات الحرب والقتال عن آباءهم فجاء مسالماً لعاداتهم ومذاهب عقولهم ، وداخلهم من طرق الاقتاع ومسارقه الخواطر لا من مطارق البأس والقوة ، فكان كالطراز على مطارفهم ، ولم يسلبهم شيئاً مما ورثوه عن أسلافهم

(٢) ان صحف الانجيل الداعية إلى السلامة والسلم لم تكن مما يتناوله الناس كافة ، بل كانت مذخورة عن الرؤساء الروحانيين

(٣) ان الاحبار الرومانين لما أقاموا أنفسهم في منصب التشريع ، وسنوا لقومهم حرب الصليب ، ودعوا اليها دعوة الدين ، التحمت آثارها في النفوس بالاعتقاد الدينية وجرت منها مجرى الاصول

(٤) ان هذه الحرب أعقبهم زعزعة في العقائد المسيحية [فافترقوا شيعا ، وذهبوا مذاهب تنازع الدين في سلطته ، وعاد وميض ما أودعه أجدادهم في جراثيم وجودهم ضراما] الخ

وأجاب عن الثاني بأربع قضايا يجمعها أمر عام هو الاحداث في الدين (الاولى) عقيدة الجبر التي اخترقت الاذهان وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بمناهلها عن

الاعمال (اثانية) ما أدخله الزنادقة فيما بين اقرن الثالث والرابع — وشهرهم فرقة الباطنية — من البدع في الاسلام (اثانة) شبهات السفطائية (الرابعة) الاحاديث الموضوعة [وفيها السم القاتل لروح الغير ءوان ما ياصق منها بالعقول يوجب ضعفا في الهمم ، وفتوراً في العزائم]

وعزز هذه الأربع بخامسة لولاها لم يكن لمن ذلك التأثير في تشويه الاسلام وإضعاف المسلمين وهي [النقص في التعليم والتقصير في إرشاد الكافة إلى أصول دينهم الحق ومبانيه الثابتة التي دعا اليها النبي وأصحابه ، فلم تكن دراسة الدين على طريقها القويم إلا منحصرة في دوائر مخصوصة وبين فئة ضعيفة . لعل هذا هو العلة في وقوفهم ، بل الوجوب لتقمقرهم ، وهو الذي نعانى من عنائه اليوم ما نسأل الله السلامة منه]

وهذا نص صريح من نصوص كثيرة في إثبات أن الإصلاح الديني الذي كان يدعو إليه الحكيمان كلاهما هو الرجوع بالاسلام إلى ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه (رض) قبل حدوث البدع والمذاهب

ثم ختم المقالة بموضوع الدعاية فقال « الا ان هذه العوارض التي غشيت الدين، وصرفت قلوب المسلمين عن رعايته — وان كان حجابها كثيفاً — لكن بينها وبين الاعتقادات الصحيحة التي لم يحرموها بالارة تدافع دائم ، وتغالب لا ينقطع، والمنازعة بين الحق والباطل كالدافعة بين الرض وقوة المزاج ، وحيث إن الدين الحق هو أول صفة صبغ الله بها نفوسهم ولا يزال وميض برقه يلوح في أفئدتهم بين تلك الايام المارضة فلا بد يوماً أن يسطع ضياؤها ويقشع سحب الاغيان » وما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل وإمامهم الحق وهو القائم عليهم بأمرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم ومغالبة المعتدين وطلب النعمة من كل سبيل لا يهين لها وجهها ولا ينحصر لها طريقا ، فاننا لا نرتاب في عودتهم إلى مثل نشأتهم، ونهوضهم إلى مقاضاة الزمان ما سائب منهم، فيتقدمون على سواهم في فنون الملاحمة والمنازلة والمصاولة، حفظاً لحقوقهم وضناً بانفسهم عن الذل: وملتهم عن الضياع، وإلى الله تصير الامور » اهـ

مقالة

المخطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك *

جعل عنوانها آية (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) وهي تفصيل أو كالتفصيل لخاتمة المقالة التي قبلها. وبدأ القول فيها ببيان ما امتاز به المسلمون من الشدة في دينهم والقوة في إيمانهم والتباطؤ بعضهم ببعض عمتدتهم وغيرة القريب منهم على البعيد بحيث لو سمع أي مسلم في أي بقعة من الأرض أن مسلماً ارتد عن دينه لعد ذلك من أعظم المصائب وأن طال عليه العهد وانطوت عليه القرون، — وذكر ما يوجب الدين عليهم من حفظ ملكهم وبذل المال والروح في سبيله ومن الهجرة من دار الحرب التي يكون فيها السلطان لغيرهم

وانتقل من هذا إلى بيان حال مسلمي هذا العصر في التقصير بهذه الواجبات وضرب المثل له بما كان من اعتداء الانكليز على أفغانستان ورؤية جيرانهم من أهل بلوچستان ذلك — ومن اعتداءهم على بلاد فارس ورؤية جيرانهم الأفغانين لذلك — وعدم تحرك النعرة الدينية من هؤلاء ولا أولئك. ثم ضرب مثلاً آخر ما جرى في مصر في ذلك العهد فقال

« ان جنود الانكليز تضرب في الاراضي المصرية ذهاباً وإياباً تقتل وتفتك ولا ترى نجدة في نفوس اخوانهم المشرفين على مجاري دمانهم ، بل السامعين لخريرها من حلاقيمهم ، الذين احمرت أحداقهم من مشاهدتها بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن إيمانهم وشمالهم »

وقف على هذه المقدمة بالمتعجب من الجمع بين هذه الحال وما ينافيها ولا يتفق معها من عقائد المسلمين . وأشار إلى القاعدة التي بينها في المقالة التي قبل هذه من سلطان العقائد الدينية على النفس الباعثة لها على أعمالها ، وقيدتها بقوله

في شرط تأثيرها « لكن الاعمال تثبتها وتقويها وتطبعها في الانفس وتطبع الانفس عليها حتى يصير ما يعبر عنه بالملكة والخلق وتترتب عليه الآثار التي تلائمها »

وشرح هذا الموضوع شرعاً علمياً فلسفياً بين فيه أن شأن جميع الروابط الطبيعية والجنسية كشأن الرابطة الدينية والافكار العقلية في تأثير كل منها في النفس بما شأنه أن يبعث على العمل، وأن ذلك لا يتم إلا بالتربية والعمل بمقتضى تلك الشؤون النفسية، فإذا لم تدع الضرورة الاجتماعية إلى العمل بها ضعف أثر الرابطة « ولم يبق منها إلا صورة في العقل تجري مجرى المحفوظات من الروايات والمنقولات » ثم قال « بعد تدبر هذه الأصول البينة، والنظر فيها بعين الحكمة، يظهر لك سبب سكون المسلمين إلى ما هم فيه مع شدتهم في دينهم، والعلة في تباطؤهم عن نصره إخوانهم، وهم أثبت الناس في عقائدهم، فإنه لم يبق من جامعة بين المسلمين إلا في العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الاعمال، وانقطع التعارف بينهم، وهجر بعضهم بعضاً هجراً غير جميل .

« فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس إليها لا تواصل بينهم ولا تراسل، فالعالم التركي في غيبة عن العالم الحجازي فضلاً عن يبعد عنهم، والعالم الهندي في غفلة عن شؤون العالم الافغاني وهكذا . بل العلماء في قطر واحد لا ارتباط بينهم (الى أن قال)

« كانت الملة كجسم عظيم قوي البنية صحيح المزاج، فنزل به من العوارض ما أضعف الالتئام بين أجزائه فتداعت للتناثر والانحلال، وكاد كل جزء يكون على حدة، وتضمحل هيئة الجسم

« بدأ هذا الانحلال والضعف في روابط الملة الاسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقما اقتنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه في الدين، والاجتهاد في أصوله وفروعه كما كان الراشدون رضي الله عنهم » كثر بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة الى حد لم يسبق له مثيل في دين من الأديان . ثم أثقلت وحدة الخلافة فانقسمت الى أقسام : خلافة عباسية في بغداد وفاطمية في مصر والمغرب وأموية في أطراف الاندلس . تفرقت بهذا كلمة الامة وانشتت عصاها، وانحطت رتبة

الخلاقة الى وظيفة الملك ، فسقطت هيبتها من النفوس ، وخرج طلاب الملك والسلطان يدأبون اليه من وسائل القوة والشوكة ، ولا يرعون جانب الخلافة ثم ذكر ما كان من ظهور جنكيز خان وأولاده ، وتيمورلنك وأحفاده ، وإيقاعهم بالمسلمين قتلا وإذلالا ، وما كان من انفصال عرى الائتلاف بين الملوك والعلماء جميعا ، واقتراق المسلمين فرقا كل فرقة تدعو الى ملك أو مذهب ، « فضعفت آثار العقائد التي تدعو الى الوحدة ، وصارت صورا ذهنية تحويها مخازن الخيال ، وتلاحظها الذاكرة عند عرض مافي النفس من خزائن المعلومات ، ولم يبق من آثارها إلا الأسف وحسرة يأخذان بالقلوب عندما تنزل بعض المصائب بالمسلمين بعد أن ينفذ القضاء ، وما هو إلا نوع من الحزن على الفائت لا يدعو الى تدارك النازلة . ثم عطف على العلماء فذكرهم بما يجب من العمل لتأسيس الوحدة الذي هو موضوع جمعية العروة الوثقى وسيلة ومقصدا فقال :

« وكان من الواجب على العلماء قياما بحق الوراثة التي شرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا لاهياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذي وقع فيه الملك بتمكين الاتفاق الذي يدعو اليه الدين . ويجعلوا معاقد هذا الاتفاق في مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهبطا لروح حياة الوحدة ، ويصير كل منها كسلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر . » ويرتبط العلماء والخطباء والائمة والوعاظ في جميع أنحاء الارض بعضهم ببعض ويجعلوا لهم مراكز في أقطار مختلفة يجمعون اليها في شؤون وحدتهم . يأخذون بأيدي العامة الى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر — ويجمعوا أطراف الوشائج الى معقد واحد يكون مركزه في الاقطار المقدسة وأشرفها معهد بيت الله الحرام حتى يتمكنوا بذلك من شد أوزار الدين وحفظه من قوارع المدوان والقيام بمحاجات الامة اذا عرض حادث الخلل وتطرق الاجانب للتدخل فيها بما يحيط من شأنها ، ويكون ذلك أدعى الى نشر العلوم وتوير الافهام وصيانة الدين من البدع ... فلو أبدع مبدع امكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل فشاها بين الامة الخ

مقالة التعصب *

جعل عنوانها آية (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء) ، وكانت الحاجة إليها شديدة لأن الجريدة قامت بدعوة قوية إلى عصبية اسلامية عامة لم يعهد لها في الاسلام نظير بعد العصر الاول ، وكانت سبقتها في التاريخ دعاية صليبية في أوربة استنفرت جميع شعوبها لقتال المسلمين وابدانهم من البلاد المقدسة بل من الشرق كله ، ففروا خفافا وثقالا ، واستعرت نيران تلك الحروب قرونا وأحرقت أجيالا ، كما أن التعصب المذهبي في النصرانية نفسها أثار حروب أخرى لم يحمد سعيها إلا بتوازن القوى بين الدول التي تدبى بالكاثوليكية والدول التي تدبى بالبروتستانتية ، وما تلا ذلك وأعقبه من الحرية والاحاد في الدين ومناهضة عصبية والهرج بدمها والتحذير من ضررها

ثم ظهر السيد جمال الدين بسياسة جديدة في الشرق كان الغرض منها احياء جميع شعوبه وتعاونهم لدفع استعباد الغرب لهم ، واستقلال بلادهم بنفسها ، وعمرانها بأهلها ، ولما كان دين الاسلام هو الغالب في ممالك الشرق الأدنى كبلاد الترك والفرس والافغان والعرب وشرق أفريقية الشمالي كله وكان أعظم أسباب ضعف شعوبها التفرق والتعادي باختلاف المذاهب والاجناس المحظور في دين الاسلام ، وكان سبب هذا الاختلاف والتفرق الجهل بمحقيقة الاسلام نفسه والابتداع فيه ، وكان السعي لتلافي ذلك فرضا دينيا — لما كان ماذكر كما ذكر — كان من مقاصد السيد جمال الدين الأساسية ، بل أهمها تجديد الاسلام واصلاح ما أفسدت فيه البدع والمصيبات المذهبية والجنسية باحياء الرابطة الاسلامية الاولى التي عنوانها قوله تعالى (انما المؤمنون اخوة) كما تقدم بيانه في اصول جمعية العروة الوثقى وفيما لخصناه من المقالات الخمس من جريدتها

وكان من حكمته البالغة التي جري عليها بالقول والعمل الجمع بين الرابطة الاسلامية والرابطة الوطنية في البلاد التي تتعدد فيها الملل بحيث لا يتجدد (* نشرت هذه المقالة في العدد السادس الذي صدر في ٢٨ جمادى الآخرة .

الاقليات غير المسلمة أدنى امتعاض ولا شكوى من الاصلاح الاسلامي الذي جرى عليه كما كان شأنه وعمله في مصر بل أجمع أرباب الاقلام على تلقيه بفيلسوف الشرق ، ولما كانت ضيحة الدعاية الاسلامية في هذه الجريدة شديدة كالمصاعمة وكانت تشتبه بما عرف عنه وتعارض ما ذكره في بيان منهاجها من الجامعة الشرقية العامة ، والرابطة الوطنية الخاصة ، أجاب المشتبهين بما تقدم بيانه بعد بيان أصول جمعية العروة الوثقى وبقي عليه أن يبين بطلان ما شتهر بين الناس من معنى التعصب ومن تخصيص الديني منه بالذم والمقت وبجلي حقيقته ويشرح فائدته وهو ما عقد له هذه المقالة في العدد السادس من الجريدة فكانت هي الحكمة وفصل الخطاب ، وقوبات بالخطوة والقبول من أولي الالباب . ولم يعترض عليها أحد من أهل الاهواء ، وتلخص في بضع مسائل :

(١) تجهيل الذين يتفهبون بدم التعصب والتهمك بهم

(٢) بيان معنى التعصب في اللغة وفي الاجتماع البشري

(٣) بيان كونه من الصفات والروابط الذشرية النافعة التي لها وسط هو الكمال الذي لا يقوم أمر اجتماعي عام في تكوين الامة وحياتها بدونه — ولها طرفة افراط وتفريط كلاهما نقص ضار ، فالافراط فيه ما يحمل أصحابه على الدفاع عن الملتحمين معهم بلحمة العصبية بحق وبغير حق ، وعلى هضم حقوق غيرهم . والتفريط هو اهمال ما تدعو اليه من التعاون والتناصر على حفظ حقوقهم والدفاع عنهم الذي يفضي إلى اضمحلال الامة اعدوان غيرها عليها .

(٤) الرد على الذين يخصصون التعصب الديني بالمقت والذم من الافرنج ومقلداتهم ، وبيان عدم الفرق بينه وبين التعصب للجنس في حقيقته وفائدته في حالة الاعتدال ، وفي ضرره في حالتي الافراط والتفريط

(٥) في سيرة المسلمين وتاريخهم في هذا التعصب واثبات كونهم أدنى الالم الى الاعتدال والانصاف مع المخالفين لهم وشهادة التاريخ لهم بذلك

(٦) عناية الافرنج الطامعين في بلاد المسلمين ببث الدعاية لتفجيرهم من العصبية الدينية لعلهم أنها لا تسكون إلا بالعقيدة فهم يزينون لهم « هجر هذه

الصلة المقدسة وفصم حباها لينقضوا بذلك بناء المسلة الاسلامية ويمزقوها شيعاً وأحزاباً» — إلى أن قال « وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلاً وتقليداً ، فساعدتهم على التنفير من العصبة الدينية بعد ما فقدوها ، ولم يستبدلوا بها رابطة الجنس (الوطنية) التي يبذلون في تعظيمها حقاً منهم وسفاهة . فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل أن يهيء لنفسه مسكناً سواء فاضطر إلى الإقامة بالعراء معرضاً نفوا على الجو وما تصول به على حياته »

(٧) نصب الدول الاوربية الحباثل في البلاد العثمانية والمصرية وغيرها لاصطياد من يساعدها على سياستها هذه (قول) « ولم تعد صيداً من الامراء والنتسين إلى العلم والمدنية الجديدة استعملتهم آلة في بلوغ مقاصدها من بلادهم » وليس عجبنا من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الاسلام أن يملوا مع هذه الاهواء الباطلة ، ولكننا نعجب من أن بعضاً من سذج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم في ايمانهم يسفكون الكلام في ذم التعصب الديني ويهجرون ^(١) في رمي التعصبين بالخشونة والبعد عن معدات المدنية الحاضرة ، ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بهذا يشقون عصامهم ، ويفسدون شأنهم ويخربون بيوتهم بأبليسهم ويدي المارقين « الخ

(٨) بيان عصية الافرنج الدينية ومنها أن من قواعدهم الاساسية في حكوماتهم السياسية الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره ومساعدتهم على نجاح أعمالهم ، «واذا عدت عادية مما لا يخلو عنه الاجتماع البشري على واحد ممن على دينهم ومذهبهم في ناحية من نواحي الشرق سمعت صياحاً وعويلاً ، وهيئات ونبات ، تتلاقى أمواجه في جو بلاد المدنية الغربية ، وينادى جميعهم : ألا قد ألت ملة ، وحدثت حادثة مهمة ، فأجمعوا الامر ، وخذوا الالهة لتدارك الواقعة والاحتياط من وقوع مثالا ، حتى لا تنخدش الجامعة الدينية (وذكر أن دولهم تتفق على هذا مع اختلافهم فاعداه وتحاقدهم ثم قال)

« أما لو فاض طوفان الفتن وغمر وجه البسيطة من دماء المخالفين لهم في

الدين والمذهب فلا ينبض فيهم عرق ، ولا يتنبه لهم احساس ، بل يتغافلون عنه ويذرونه وما يحرف ، حتى يأخذ مده الغاية من حده ، وليس هذا خاصاً بالتدينين منهم ، بل الدهريون ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون التدينين في تعصبهم الديني الخ (أي لان الدين رابطة اجتماعية وسياسية فهو لا يتعصبون له من هذه الجهة) وضرب للتدينين منهم مثلاً الوزير غلادستون رئيس أحرار الانكليز الذي لا تخلو خطبة من خطبه من نفثة من نفثات بطرس الناسك مضمرة ان الحروب الصليبية وختم المقالة بوصية المسلمين بالاعتصام بالرابطة الدينية التي يجتمع فيها التركي بالعربي والفارسي بالهندي والمصري بالمعربي فتحفظ بها حياة الجميع المالية مع العدل ورعاية الرابطة الوطنية والتزام أوامر الله « في حفظ الذمم ومعرفة الحقوق لأربابها وحسن المعاملة وإحكام في المنافع الوطنية بينهم وبين جيرانهم من أرباب الأديان المختلفة الذين لا تقوم مصالحهم إلا بمصالحهم الخ » وبمباراة الأمم في القوة والمنعة والشوكة والسلطان ومنافستهم في اكتساب العلوم النافعة والفضائل والكمالات الانسانية »

مقالة القضاء والقدر^(١)

كانت الحاجة داعية الى هذه المقالة كما كانت داعية الى مقالة التعصب أو أشد . ذلك بأن الافرنج والمتفرنجين يزعمون ان عقيدة القضاء والقدر من العقائد الضارة التي كانت أهم الاسباب لضعف المسلمين وتخلفهم عنهم في الكسب والعلوم والفنون والملك والغلب ، لانها تعطل المدارك والقوى بجعل صاحبها ينتظر نيل كل مطالبه وحاجاته الشخصية والقومية من الله تعالى فيقعد ذلك عن علو الهمة في العمل . والامر بضد ذلك فن هذه العقيدة تعلي الهمة ، وتنفع في الانفس روح الشجاعة ، وتصغر عندها العظائم ، وتهون عليها مصارعة الشدائد ، وانما

(١) نشرت في العدد السابع بتاريخ ٤ رجب ١٣٠١ هـ اول مايو سنة ١٨٨٤ هـ

العقيدة التي لها ذلك الأثر الرديء عقيدة الجبر وهي بدعة حدثت في الاسلام كما بين هذا في مقالة المقابلة والموازنة بين الديانتين الاسلاميه والمسيحية في طلب السيادة والاخذ باسباب المنعة والقوة الحربية .

فالغرض من هذه المقالة بيان حقيقة عقيدة القضاء والقدر والاستدلال على حقيقتها بالبرهان ، والفرق بينها وبين عقيدة الجبر ، ودحض شبهة من سوى بينهما ، وبيان ما كان للايمان بالقضاء والقدر من التأثير العظيم في رفعة المسلمين وعلو مكانتهم ، والدعوة الى سلوك سبيل الله فيها ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإقامة الحجة على المسلمين الحاضرين المستضعفين ، بما كان من عظمة سلفهم الأغرة الغالين ليحيوا سنتهم ، ويبنوا بناءهم ، وقد وفّت هذه المقالة هذه المباحث حقها من البيان والتحقيق بما عجز عن مثله جميع العلماء المتقدمين والمتأخرين وبما قاله في هذا :

« الاعتقاد بالقضاء والقدر اذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجراءة والاقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة ، ويبعث على اقتحام المهالك التي ترجف لها قلوب الاسود ، وتتشق منها مرائر النمر ، هذا الاعتقاد يطبع الانفس على الثبات واحتمال المكارة ومقارعة الاهوال ، ويحليها بحلي الجود والسخاء ، ويدعوها الى الخروج من كل ما يعز عليها ، بل يحملها على بذل الارواح والتخلي عن نضرة الحياة ، كل ذلك في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة

« الذي يعتقد ان الاجل محدود ، والرزق مكفول ، والاشياء بيد الله يصرفها كيف يشاء ، كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أو ملته . والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشيد المجد على حسب الأوامر الالهية وأصول الاجتماعات البشرية » (وذكر ههنا بعض آيات القرآن في بعض الغزوات النبوية وقرنها وصف الفتوحات الاسلامية بمبارات خطائية شعرية ولكنها حقيقية ، ثم قال)

« بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالشرق ، وانقضت شبهها على الحيارى في هبوات الحروب من أهل المغرب ، وهو الذي حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق في سبيل إعلاء كلمتهم ، لا يخشون فقراً ولا يخافون فاقة

«هذا الاعتقاد هو الذي سهل عليهم حمل أولادهم ونساءهم ومن يكون في حجورهم إلى ساحات القتال في أقصى بلاد العالم كأنما يسرون إلى الحدائق والرياض، وكانهم أخذوا لانفسهم بالتوكل على الله أمانا من كل غادرة، وأحاطوها من الاعتماد عليه بمحصن يصونهم من كل طارقة وكان نساؤهم وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم وخدمتها فيما تحتاج إليه، لا يفترق النساء والأولاد عن الرجال والكحول إلا بحمل السلاح، ولا تأخذ النساء رهبة، ولا تغشى الأولاد مهابة

«هذا الاعتقاد هو الذي ارتفع بهم إلى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب ويبدد أفلاذ الكباد، حتى كانوا ينصرون بالعرب يقذف به في قلوب أعدائهم، فينهزمون بجيش الرهبة قبل أن يشيخوا يروق سيوفهم ولمعان أسنهم، بل قبل أن تصل إلى تخومهم أطراف جحافلهم»

وختم المقالة بما ظهر من بوادر الرجاء في عودة المسلمين إلى ما كانوا عليها عند ما كانت تلك العقائد الإسلامية سليمة من مخالطة البدع لها، وطروء الوهن والزوال عليها، واستدل على ذلك بازدياد أنصار جمعية العروة الوثقى يوما بعد يوم (وقال بعد الدعاء لها) ورجاؤنا من كرمه أن يترتب على حسن سعيها أثر مفيد للشرقيين عموما، والمسلمين خصوصا اهـ

مقالة الفضائل والرزائل

وأثرهما في الأفراد والأمة (*)

عنوان هذه المقالة آية (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) والكلام فيها منتظم في سلك الدعاية بالحكمة، لاسلك القضايا العلمية الفلسفية المحضة، فهو يصور للقاري تأثير الاخلاق في الافراد ومجملها مع الشاعر مثالا لتأثيرها في الأمم، وينتقل من الكلي الى الجزئي فيشرح ما كان من تأثير الفضائل الإسلامية في المسلمين، وما نالوا بها من الملك والعظمة العلمية والعملية، وما آل اليه أمرهم بملء

(*) نشرت في العدد الثامن بتاريخ ١٨ رجب سنة ١٣٠١

طراً على أخلاقهم ويصف العلاج له ، ومما ابتكره في تشبيه مكانة الفضائل من الأمة قوله بعد ذكر حياة الانسان الفردية والنوعية والقومية وتشبيه الفضائل في الأمة بقوى الحياة في الفرد المحصنة لكل حاسة وجارحة بوظيفة تؤديها لحياة البنية كلها قوله « وان شئت قلت الفضائل في عالم الانسان كالجذبة العامة في العالم الكبير ، فكما ان الجذبة العامة يحفظ بها نظام الكواكب والسيارات ، وبالتوازن في الجاذبية ثبت كل كوكب في مركزه وحفظت النسبة بينه وبين الكواكب الأخرى ، وانتظم بها سيره بتقدير العزيز العليم ، حتى تمت حكمة الله في وجود الاكوان وبقائها - كذلك شأن الفضائل في الاجتماع الانساني ، بها يحفظ الله الوجود الشخصي الى الأجل المحدود ، ويثبت البقاء النوعي الى أن يأتي أمر الله »

(ومما قاله في سوء تأثير الرذائل في إفساد الأمة بعد بيان سوء تأثيرها في إفساد الافراد قوله) :

« هذه الرذائل اذا فشت في أمة نقضت بناءها ، ونثرت أعضائها ، وبددتها شذر مذر . واستدعت بعد ذلك طبيعة الوجود الاجتماعي أن تسطو على هذه الأمة قوة أجنبية عنها لتأخذها بالقهر ، وتصرفها في الأعمال بالقسر ، فان حاجاتهم في المعيشة طالبة للاجتماع ، وهو لا يمكن مع هذه الارصاف (أي الرذائل التي ذكرها ومنها الجبن والمهانة والفحش والبذاء الفاشية الآن) ولا بد من قوة خارجة تحفظ صورة الاجتماع الى حد الضرورة

هذه صفات اذا رسخت في نفوس قوم صار بأسهم بينهم شديداً تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، تراهم أعزة بعضهم على بعض أذلة للاجنبي عنهم ، يمهدون السبيل للغالين إلى النكابة بهم ، ويمكنون مخالب المفتالين من احشائهم ، ويرون كل حسن من أبناء جنسهم قبيحاً ، وكل جليل حقيراً » الخ

وختم المقالة بالرجاء في هم العلماء الراسخين وغيرتهم أن يتداركوا ما عرض للمسلمين من الضعف في أخلاق دينهم وإهمال فضائله ، ويسيروا بهم في سبيل يجمع كلمتهم ، ويوحد وجهتهم ... ويكشفوا لهم حقيقة وعد الله ووعد الحق — في قوله (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)

مقالة الوحدة الإسلامية *

عنوان هذه المقالة في العروة قوله تعالى (وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا
مفతشلوا وتذهب ربحكم) ويليه وصف لما بلغت دولة الاسلام وفتوحه في نشأته
الاولى وبيان حدودها في خريته الارض ، وما كان فيها من العمران والعلوم
والعلماء ، وما كان لها من الجيوش والاساطيل ، ويليه وصف لحلم في هذا
العصر على كثرة عددهم وبيان سبب هذا الهبوط والسقوط والوهن ووصف علاجه
وقد نوهنا بها في أول هذا البحث عند الكلام على بيان المراد من الجامعة
الاسلامية وقلنا شاهداً منها

ومما قاله في هذا

« نعم يوجد للتقصير في انماء العلوم والضعف في القوة أسباب أعظمها تخالف
طلاب الملك فيهم ، لانا بينا أن لاجنسية المسلمين إلا في دينهم ، فتعدد الملكة عليهم
كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة والسلطين في جنس واحد ، مع تباين الاغراض
وتعارض الغايات فشغلوا أفكار الكافة بمظاهرة كل خصم على خصمه ، وألهوا
العامة بتهيئة وسائل المغالبة وقهر بعضهم لبعض ، فأدت هذه المغالبات وهي أشبه
شيء بالمنازعات الداخلية الى الذهول عما نالوا من العلوم والصناعات فضلاء عن
التقصير في طلب مالم ينالوا منها ، والاعسار (١) دون الترقى في عواليها ونشأ من هذا
مانراه من الفاقة والاحتياج ، وعقبه الضعف في القوة والخلل في النظام وجلب تنازع
الامراء على المسلمين تفرق الكلمة وانشقاق العصا ، فاهوا بأنفسهم عن تعرض
الاجانب بالعدوان عليهم

« هذا كان من أسراء المسلمين مع ما فيه من الضرر الفادح عندما كانوا منفردين
في ميادين الوغى لا يجاريهم فيها سواهم من الملل ، ولكن ضرب الفساد في نفوس
أولئك الامراء بمرور الزمان ، وتمكن من طباعهم حرص وطمع باطل فانقلبوا مع

(*) نشرت في العدد التاسع بتاريخ ٢٥ رجب

(١) الاعسار جمع غسر ككثف وهي الامور المتبسة المشككة

الهلوى، وضلت عنهم غايات المجد المؤثل، وقنعوا بألقاب الامارة وأسماء السلطنة، وما يتبع هذه الاسماء من مظاهر الفخفة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان، واختاروا موالاة الاجنبي عنهم المخالف لهم في الدين والجنس، ولجؤوا للاستنصار به وطلب المعونة منه على أبناء ملتهم استبقاء لهذا الشبح البالي والنعم الزائل «هذا الذي أباد مسلمي الاندلس وهدم أركان السلطنة التيمورية في الهند ومحا اطلالها، وعلى رسومها شيد الانكليز ملكهم بتلك الديار . هكذا تلاعبت أهواء السفهاء بالملك الاسلامية، ودهورتها أمانيتهم الكاذبة في مهاوى الضعف والوهن، قبح ما صنعوا وبئس ما كانوا يعملون، أولئك اللاهون بلذاتهم، العاكفون على شهواتهم، هم الذين بددوا شمل الملة وأضاعوا شأنها، وأوقفوا سير العلوم فيها، وأوجبوا الفرة في الاعمال النافعة من صناعة وتجارة وزراعة بما غلوا من أيدي بنيها» ألا قاتل الله الحرص على الدنايا والتهاك على الخسائس، ما أشد ضررها، وما أسوأ أثرها، نبذوا كلام الله خلف ظهورهم، وجحدوا فرضاً من أعظم فروضه، فاختلّفوا والعدو على أبوابهم . وكان من الواجب عليهم أن يتحدثوا في الكلمة الجامعة حتى يدفعوا غارة الابعاد عنهم، ثم لهم أن يعودوا لشؤونهم . ماذا أفادتهم المغالة في الطمع والمنافسة في السفاسف ؟ أفادتهم حمرة دأمة في الحياة، وشقاء أيديا بعد المات، وسوء ذكر لا تمحوه الايام

«أما وءزة الحق وسر العدل، لو ترك المسلمون وأنفسهم بما هم عليه من العقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم، اتعارفت أرواحهم، واثلت آحادهم، ولكن وأسفا تخلاهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السمادة في لقب أمير او ملك ولو على قرية لا أمر فيها ولا نهى، هؤلاء هم الذين حولوا أوجه المسلمين عما ولاهم الله، وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم، حتى تماكرت الوجوه وتباينت الرغائب . « الخ
(م ٤٢ — تاريخ الاستاذ الامام ج ١)

مقالة الوحدة والسيادة ، أو الوفاق والقلب

عنوان هذه المقالة حديث « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »
 قكلم فيها عن الوحدة والسيادة والطريق الموصل اليهما ، وما يرجى من علماء
 المسلمين من السير بهم في هذا الطريق ، أثبت فيها أن هذين الامرين هما السببان
 لنشأة الدول ، وبقاء الامم ، وانها يحصلان باحدى ثلاث علل : الضرورة
 أو الدين أو التربية والتعليم ، وأثبت أنها ركنان من أركان السياسة والاجتماع
 للعملة الاسلامية فرضهما الدين ، وجعل العقاب على إهمال هذه الفريضة خزي
 الدنيا وعذاب الآخرة . وأورد بعض النصوص على ذلك مع شرح كل ذلك
 بما لا يستغني مسلم عن تدبره

مقالة استعانة القانحين على الامم بأصرائها

وهي أخصر المقالات لما تقدم من بيان هذه الرزية في المقالات السابقة ،
 وينبغي لقاريء هذا الجزء اذا بلغ هذا الموضع أن يرجع إلى الجزء الثاني فيقرأها
 فيه . وهي المقالة الحادية عشرة من مقالات العروة الوثقى (ص ٢٨٨ ج ٢ طبعة
 ثانية) وحسبنا ماخصناه وما أشرنا إلى موضوعه من تلك المقالات ، وانني أنصح
 لشبان المسلمين أن يطالعوها كلها ، ويكرروا ذلك حتى يتمكن من قلوبهم كل
 ما فيها ، فزادوا إيماناً وحكمة ، وعلماً وبلاغة ، وعلموا في الهمة ، وغيره على الامة ،
 واعتصاماً بمجلد الملة .

وليعلموا أن كل ربح يربحه الانسان في الدنيا فهو دون ربح نفسه ، وكل
 خسارة يرهقه فهو دون خسران نفسه ، وانه انما يربح نفسه بتركها وجعلها أهلاً
 لجلائل الاعمال ، التي تنال بها الامم معالي الآمال ، ويبلغ بها الافراد مقام الكمال



المسألة المصرية

بذت سياسة جريدة العروة الوثقى في المسألة المصرية على ثلاثة أمور (أحدها) ان الدولة صاحبة الحق الرسمي في مصر هي الدولة العثمانية صاحبة السيادة المعترف بها من جميع الدول على هذا القطر (ثانيها) ان هذه المسألة من الامور الدولية التي تهم جميع دول أوربة لما لها من المصالح المالية فيها ولان مصر الطريق البحري الاعظم الاقرب بين الشرق والغرب (ثالثها) ان في الدول العظمى دولتين تنتين ترجى مساعدتهما لمصر والدولة العثمانية على حمل الانكليز على الجلاء عن القطر المصري (أولاهما) فرنسة ذات المصالح المالية الكبرى فيه وذات النفوذ الادبي والسياسي الذي يعز عليها زواله (والثانية) الروسية التي تعد الدولة البريطانية أقوى خصم لها في سياستها الشرقية ومقاصدها البحرية ،

فكانت مقالات العروة الوثقى في الدفاع عن مصر والسعي لانقاذها من الاحتلال الانكليزي تنحصر في خمس وسائل (١) تهيج مصر والهند والرأي الاسلامي العام عليها - (٢) حث الدولة العثمانية على السعي لخراجها من طريق السياسة والقوة معا - (٣) محاولة إقناع فرنسة بمساعدة مصر والدولة على ذلك حفظا لمصالحها الاقتصادية ونفوذها السياسي والادبي - (٤) إغراء روسية بالزحف على الهند والاعتماد في ذلك على نفوذ الدولة العثمانية الديني هنالك باستمالها اليها ، وعلى مساعدة دولتي الافغان وإيران على ذلك باتفاق يعقد بينها وبينهما إذا أمكن وإلا انفردت بالعمل . وهنالك أمر آخر عظيم الشأن ، وهو (٥) تعظيم خطر ادعاء محمد احمد السوداني للهدوية ، وما يتوقع من تأثيره في العالم الاسلامي كله وكان الغرض الاول من هذه الوسائل كلها إقناع الدولة الانكليزية نفسها بالجلاء عن مصر وتسليم حكومتها الى « اولي العزم من المصريين » والاعتماد على صداقتهم في حفظ طريق الهند (قتال السويس) وقد جاء في بعض مقالات العروة وصف الانكليز بانهم على طمعهم الشديد وصلابتهم برأعون طبيعة العمران وتطور

الزمان . وأما إيقاد نيران الثورة عليهم في مصر وبلاد العرب والهند فهو الذي يلجأ اليه اذا تعذر الغرض الاول

وانني أذكر هنا بعض الشواهد في المسائل الاربعة على إدماج بعضها في بعض ثم أذكر لدعوى المهدوية شواهد أخرى عند الكلام على مسألة السودان التي هي فرع المسألة المصرية ، إذ كان للحكيم سياسة خاصة كما كان للانكليز سياسة خاصة فيها ، وأبدأ القول في المسألة الاولى بتلخيص مقالة في وصف حال مصر نشرت في العدد الاول من العروة في (سياسة انكلترة في الشرق) لما فيها من بيان مكانة مصر وما يرجى لها من الاستقبال المجيد وسبب طمع الدولة الانكليزية فيها ،

الوسيلة الاولى اثاره العالم الاسلامي

(مقدمة في ملخص وصف حالة مصر وسبب طمع الانكليز فيها)

مصر

كانت حكومة هذه البلاد في الربع الاول من القرن الماضي (الهجري) تعد من نوع حكومة الاشراف ويحسبها المؤرخون في تلك الاوقات بدرجة لا تعرف هيئتها ، ولا يصل بحث الباحث إلى كنهها ، وإذا عبروا عنها بالتقريب قالوا طرز قديم كان معروفا في أغلب أنحاء المسكونة.

ثم أعجب الدهر فيها بفرائبه بعد ما فوضت أمورها لمحمد علي باشا فلم يمض قليل من الزمن حتى دخلت في طور جديد من أطوار المدنية ، وظهر فيها شكل من الحكومة النظامية ، تقدمت فيه على جميع الممالك الشرقية بلا استثناء ، وعد هذا التقدم السريع من عجائب الامور

هل كان في حسابان أحد أن يستلم زمام الحكومة في مصر رجل من بعض قرى الروملي لم يتربع في دروس العلم ولم يجبل في مصانع السياسة إلا أن طبيعه

الفطرية كانت فائضة بحب الحضارة ، وبث العلوم ، وتأسيس قواعد العمران ، مع تدفق همته لبلوغ الغاية مما يميل اليه ؟

بلى ، كان هذا في الغيب وابرزه القدر الالهي ، ونالت مصر في عهد ذاك الرجل العظيم ، وعهد خلفائه من بعده ، ما كانت تقف دونه أفكار الناظرين : طرقت أبواب السعادة من كل وجه ، فتقدمت فيها الزراعة تقدماً غريباً ، واتسعت دائرة التجارة ، وعمرت معاهد العلم ، وانتشرت في أرجائها مبادئ المعارف الصحيحة ، وتقاربت أنحائها ، واتصلت أطرافها ، بما أنشئ فيها من سكك الحديد ، وخطوط التلغراف ، وتعارفت أهاليها ، واتتاف الجنوبي بالشمال ، والشرقي بالغربي ، وقوى فيهم معنى الاخوة الوطنية ، بعد أن كانوا لبعداً شقة بين بلدانهم كأنهم أبناء أقطار مختلفة ، وتواصلوا في المعاملات ، وتشاركوا في المنافع ، واعتدت المشارب المذهبية ، حتى كان لهم زمن أحس فيه كل واحد بنسبته من الآخر ، وارتفعت بذلك أصواتهم ، بعد ما جالت فيه أفكارهم .

تفجرت من أرض مصر ينابيع النروعة وعمت بقاعها ، وطفحت قفاض خيرها على ما يجاورها من الاقطار الشرقية ، بل وصل مد نيلها إلى اقاصي البلاد الغربية ، وتوارد اليها الغرباء وقصاد الكسب من كل مكان ، وما خاب لها قاصد ، ولا اخفق فيها سعي ساع ، فأثرى في مغانيبها الفقراء ، وعز بها الأذلاء ، وصارت قبلة لأمال كثير من الغربيين ، ومحط رجال الراجين من الشرقيين ، وكل وافد اليها يجد اهلاً خيراً من اهله ، وسكناً خيراً من سكنه ، وتكاثرت فيها العناصر الغربية ، حتى كان الداخل اليها يخيل له انه تحت برج بابل يوم تلبلت اللسن

وساد بها الامن وعمت الراحة ، وضارعت في كل أحوالها نوع ما عليه الممالك الاوربية العظيمة ، وكان التأمل في سيرها هذا يحكم حكامها لم يكن بعيداً من الواقع ، ان عاصمتها لا بد أن تصير في وقت قريب او بعيد كرمي مدينة لاعظم الممالك المشرقية ، بل كان ذلك أمراً مقررّاً في أنفس جيرائها من سكان

البلدان المتاخمة لها^(١) وهو أمالهم الفرد ، كلما ألم خطب أو عرض خطر، غير ان الايام كأنها حسدتها على مامنته، فعثر العاقل ، وفرط اناك ، واغتر المعجب ، وتهور الغبي ، وخار الافين ، فتقرب البعيد ، وبعد القريب ، ونزل بمصر ما لم يكن له أثر إلا في حواشي طوامير الاوهام ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ألحمت إدارة الحكومة بما ليس من نسيج سداها ، وانتقضت منها أصول على وجه غير مألوف ، ففتحت للدسائس ابواب ، وانساب بين طبقات الناس دهاة سياسة وطلاب غايات ، فتفرق اتصال ، وتقطعت أوصال ، فضعفت السلطة الوازعة ، ونبذت الطاعة ، والتهبت نيران الفن

قضاء حل بتلك البلاد فاحتاجت في إعادة شأنها الاول إلى رأي قويم وعزم ثابت ، ووازع قوي تدين لسطوته النفوس . وان من ذوي الحقوق فيها من يجمع هذه الاوصاف وله من القلوب المكانة العليا ، وكان يسهل عليه القيام بما يمهده اليه ، لكن تحكم طمع واخطأ ظن ، فتخلفت النتيجة واشتدت الحاجة

أشقت دولة الانكليز على طريق الهند كما يقال او ظنت ان آن التقدم بعض خطوات قد آن ، فرأت ان اءدة الامن وثبيت الراحة في مصر من فرائض ذمتها فكان من التحريق والتدمير والقتل والشنق والحبس والابعاد والتغريم وما شاكل ذلك ما لا حاجة لبيانها ، وعم بعض انواع الهون ، حتى لم يبق ممن يعرف اسمه أحد الا مسه ضرره ، ما خلا أشخاصا قلانل ، وهذه المهربات على ما بها من القوة لم تبلغ الغرض من تأمين طريق الهند لاشرافه على الخطر من وجه آخر ، ولم تأت بما كان يؤمل منها لنظام البلاد .

الديست المالية هي مرمى أنظار دول اوربا وما وضع نظام في البلاد ولا أحدث تغيير بمشورتهم إلا لوقاية الخزينة من العجز عن أداء ما يتعلق بها من

(١) يعني البلاد العربية ولم يصرح بذلك لأنه يسوء الدولة العثمانية ، ومن الثابت انه لولا الاحتلال الانكليزي لانهت النهضة المصرية بتأسيس دولة عربية كبيرة تعيد الحضارة العربية سيرتها الاولى وما عرض لها من العناد بأمراف اسماعيل وافن توفيق كان من المرجو تلافيه

الحقوق الاوربية؟ اليوم رزئت بالنقص في الايراد، وحملت من تعويضات متالف الحرب أربعة ملايين من الجنيهات، ورميت بنفقات جيش الحلول وحرب السودان ومصاريف اخلائه، وما يضاف إلى كل هذا مما يظهره المستقبل، فاختلت الموازين وبطل قانون الجبايات، وأي مصيبة على المالية أعظم من نوازها الحاضرة؟

عقد العزم على إلغاء الجيش الوطني وهو قوة البلاد وبه فخارها، وكأنه لم يوجد وسيلة لتنظيم عسكر مصري، وقصر الجهد عن مجاراة محمد علي باشا، و ابراهيم باشا، اللذين دوخا كثيراً من الاقطار بوجود مصرية

(وبعد أن أطل في وصف حالة الحكومة وموظفيها ومالياتها والاهالي وققرهم ومخاوفهم وارهاقهم بالضرائب وطرق تحصيلها بالقوة قال)

وزاد الويل بمحق الحرية الشخصية، والاخذ بالشبه وإن ضعفت، واتباع بواطل التهم وإن بعدت، او استحات، حتى أخذ الفزع من القلوب مأخذه، وبلغ منها مبلغه، فلا ترى ماراً بطريق الا وهو يلتفت وراءه لينظر هل تعلق باثوابه شرطي يقوده إلى السجن، او يقتضي منه فداء، وكل معروف الاسم من المصريين ينتظر في كل خطوة عثرة، وفي كل نهضة سقطة، وله من كل شاخص دهشة، ومن كل طارق لبابه غشية، أي شقاء ينتظره الحي في حياته أشنع من هذا؟

هذا ما تنشق له المرائر من أحوال سكان القطر المصري. هذا بعض ما يضيق به الصدر، وتنقبض له الانفس، مما رزئوا به بعد ما تكفل أحباؤهم الاولون بالدفاع عنهم وتخليصهم من الفوضى السابقة، هذه طلائع الاصلاح المبشر به من زمان بعيد على السنة رسله، أصبح الاهالي حيارى في أمورهم، تائهين عن رشادهم، لا يعلمون ماذا يحل بهم، يذكرون من أحوالهم السابقة ما كانت الدول الاوربية تسميه ضيقاً وعناء وتمنيهم بالانقاذ منه فيجنون اليه ويودون لو رجعوا اليه، ويحسبونه غاية سعادتهم بعد هذه الحالة التي هم فيها. الخ الخ

الشاهد الاول

في تحريض المصريين على الانكليز

(بعد اثبات ما يريدون من الاستيلاء على مصر)

ذهب الاستاذ محرر العروة الوثقى الى لندرة ولقي فيها كثيراً من رجال السياسة الرسميين كالوزراء وغير الرسميين كحري الصحفي بمساعدة صديق مصر وصديقهم (مستر بلنت) وقد نشرت الجرائد الاوربية من انكليزية وغيرها بعض ما دار بينه وبين أولئك السياسيين من المناظرات ونشر في العدد الرابع عشر من العروة مقالة في ذلك ذكر فيها ما دار بينه وبين وزير الحربية البريطانية وما في ذلك من العبرة ولكن بلسان السيد مدير العروة وهذا نصها

هؤلاء رجال الانكليز وهذه افكارهم

تأخر صدور الجريدة أياما لضرورة مامسنا من ضعف في المزاج مع مصادقة رداءة الهواء في البلاد الفرنسية في هذه الايام والحمد لله على زوال المانع . إلا أننا مع ذلك لم نقصر في أداء الواجب من العمل الذي قننا به في المدافعة عن حقوق المسلمين فقد خلقنا والشكر لله لهذا العمل وطبعنا عليه ونرجو من ديان السموات والارض أن نموت في هذه السبيل وأن نبعث في زمرة السالكين فيها رأينا أن يذهب الشيخ محمد عبده (المحرر الاول لهذه الجريدة) إلى لندرة اجابة لدعوة من برجى منهم الخير المتنا ومن يؤمل فيهم صدق النية في رعاية مصالح المسلمين من رجال السياسة الانكليزية — وليستكشف مناصب الفخاخ السياسية التي مامرت عليها قدم شرقي إلا سقطت منها فيما يعسر الخلاص منه — وليسبر أغوار المطامع الانكليزية التي لا يدرك منتهاها — تلك المطامع التي بعد ما التهمت ثلث المسكونة ، وطوقت كرة الارض بالفتح والاستملاك .

لم تنزل في مد لا جزر معه ، ولا يزال رجال حكومة بريطانيا في فرم شديد لا ابتلاع ممالك العالم ، وكلما أساغوا قطراً طلبوا اليه آخر - ويستطلع خفايا المقاصد من أثناء الافكار وغضون الاقوال - وليقف على الطرق المألوفة بين أولئك السياسيين في التلوين ويتبين كيف يتمكنون من إبراز محاسن الاعمال في صفات رديئة يستنكرها كل ناظر اليها واظهار السيئات في ألوان بهجة تسر الناظرين ، حتى يمكن بعد ذلك وضع ميزان قسط يتميز به الزيف من النضار الخالص ، كي لا يغتر الجاهل ولا يزل العالم .

لاقى (محرر الجريدة) كثيراً من رجال السياسة الانكليزية وأنفذ الناس رأيا فيها ، وقد جرت بينه وبينهم محادثات طويلة في الاحوال المصرية ، ومن محادثاته الابتدائية ما نشر في بعض الجرائد الانكليزية كجريدة «البال مال غازيت» وجريدة «التروث» التي بحرها النائب الشهير (مستر لا بوشير) وجريدة «التيمس» وسيدكر شيء مما جرى بينه وبين بعض الاكابر من رجال الحكومة الانكليزية مما يستفيد منه الشرقيون عموماً والمصريون خصوصاً . وستأتي جريدتنا على بعض ما استنبطه من فحوى أقوالهم وأدركه من مراحي أفكارهم .

أما الآن فنأتي على جملة واحدة من محادثة طويلة كانت بينه وبين اللورد (هرتنكتون) وزير الحربية الانكليزية ليأخذ كل مصري منها حظه ، ويصيب كل شرقي سهمه ، ويقف جميعهم على مواقع الشرقيين من أنظار رجال الحكومة الانكليزية . سأل اللورد هرتنكتون وزير الحربية الانكليزية : ألا يرضى المصريون أن يكونوا في أمن وراحة تحت سلطة الحكومة الانكليزية ؟ أو لا يرون حكومتنا خيراً لهم من حكومة الاتراك وفلان باشا وفلان باشا ؟ فأجاب الشيخ (محرر جريدتنا) : كلا ان المصريين قوم عرب وكلهم مسلمون إلا قليلاً ، وفيهم من محبي أوطانهم مثل ما في الشعب الانكليزي ، فلا يخطر ببال أحد منهم الميل الى الخضوع لسلطة من يخالفه في الدين والجنس ، ولا يصح لحضرة اللورد وهو على علم بطباع الأمم أن يتصور هذا الميل في المصريين .

فقال الوزير: هل تذكر ان الجهالة عامة في أقطار مصر وان الكافة لا تفرق بين الحاكم الاجنبي والحاكم الوطني ، وان ماذكرته من النفرة من سلطة الاجانب انما يكون في الأمم المهذبة ؟

فأخذت الشيخ حدة تليق بمسلم لا يتهاون في أداء ما فرض الدين وأوجبه حقوق الملة وقال (أولا) ان النفرة من ولاية الاجنبي ونبد الطبع لسلطته مما أودع في فطرة البشر ، وليس بمحتاج الى الدرس والمطالعة ، وهو شعور انساني ظهرت قوته في أشد الأمم توحشا (كلزولوس) الذين لم تنسوا ما كابدهموه منهم في الدفاع عن أوطانهم .

(وثانيا) ان المسلمين مهما كانوا وعلى أي درجة وجدوا لا يصلون من الجهل الى الدرجة التي يتصورها الوزير ، فان المؤمنين منهم ومن لا يقرءون ولا يكتبون لا يفوتهم العلم بضروريات الدين ، ومن أجلاها وأظهرها عندهم أن لا يدينوا لمخالفهم فيه ، وان لهم في الخطب الجمعية ومواعظ الوعاظ في مساجدهم ما يقوم مقام العلوم الابتدائية ، وان جميع ما يتلقونه من النصائح الدينية يحذرهم من الخضوع لمن لا يوافقهم ، ويحدث فيهم من الاحساسات الشريفة الانسانية ما لا ينحطون معه عن سائر الأمم ، خصوصا المصريين الذين ينطقون باللسان العربي ويفهمون دقائق ما أودع في ذلك اللسان وهو لسان دينهم

(وثالثا) ان أرض مصر من زمن محمد علي قد انتشرت فيها العلوم والآداب الجديدة على نحو ما هو موجود في بلاد أوربا ، وأخذ كل مصري نصيباً منها على قدره ، ولا تخلو قرية من القرى الصغيرة من أن يكون فيها قارئون وكاتبون . والاعخبار العمومية توصلها اليهم الجرائد العربية ، ومن لم يقرأ يستنبيء الاخبار من القارئين ، فهذا أضافوا الى الشعور الطبيعي والتقليد الديني ، محبة وطنية منشؤها التهذيب العمومي ، قوي بها الميلان الاولان ولا أظنهم يخالفون في ذلك سائر الامم

أين العلماء الاذكياء ، أين الجهلة الاغبياء ، أين الأتباع الاعلياء ، أين السفلة الالادنياء ، يرى كل واحد منهم منزلة الشرقيين عند رجال الحكومة الانجليزية؟

كل ذي شكل انساني وصورة بشرية يدرك ما وراء هذه الاسئلة وما تشف عنه هذه الظنون المعجبية .

هذا اللورد هرتنكتون وزير الحرية الانكليزية يظن ان الجهل يبلغ من المسلمين عموماً والمصريين خصوصاً الى حد سلب عنهم كل احساس انساني ، وانهم في حضيض من الجهل لا يميزون فيه بين الغريب والقريب ، ولا بين العدو والحبيب هذا دليل على ان الانكليز (إلا من أنار الله بصيرته ووفقه لفهم الصواب) يعتقدون ان الأمم الشرقية والأمة المصرية في درجة الحيوانات السائمة ، والدواب الراحية ، لا تتألم إلا من الجوع وفواعل الطبيعة المادية ، وليس لها من الاحساس إلا نوع من الانفعالات البدنية ، ولا تعرف من شؤونها إلا ما به تقوم حياتها الحيوانية ، فتألف راكبها والعامل عليها ومستخدمها في ابي عمل من الاعمال الشاقة مادام يقدم لها طعاماً وشراباً ، وانها تهش وتبش لرؤية من يقدم لها غداها وعشاءها ، وإن كان من أشد البلاء عليها بما يسومها من مشاق الاعمال ، فاذا عجزت عن العمل ذبحها وتقذى بلحومها :

★ ألع فاعجبوا ★

ان كانت هذه عقيدة رجال الحكومة الانكليزية في الامم التي يتسلطون عليها فأبي معاملة تكون لهم ؟ ألا يعاملونهم معاملة العجاوات والحيوانات الرتع ؟ بلى ، وهكذا يعاملون وهكذا تصرفهم في البلاد الهندية يشهد بأفصح لسان على ما يعملون ، فالمصريون الآن بين أمرين أفضلهما أيسرهما : إما ان يتكاتفوا ويتضافروا وينذلوا أموالهم وأرواحهم في حفظ شرفهم الانساني ومكانتهم العربية ، واداء حق عقيدتهم الدينية ، ويخلصوا أنفسهم من عبودية قوم لا ينظرون اليهم إلا كما ينظرون الى البغال والحمر ، وإن هوأ بذلك وجدوا لهم من اخوانهم المسلمين أنصاراً ينظرون الآن حركة منهم وهذا أشرف الامرين ، وإما ان ينسلخوا عن جميع الخصائص الانسانية ، ويخلعوا حلية الايمان ،

ويتبرأ منهم شرف العرب ، وليجعلوا ناف العبودية على أعناقهم ، وإيقاسموا
الحيوانات في حظوظها ، وليستعدوا لكل ذلة ، وليقبلوا كل ضيم ، وهذا أعسر
الامرين وأدناهما ، وما أظن مصريا يختاره لنفسه ، واثن اختاره (معاذ الله)
فسيزهب الله بهم ويورث الارض قوما آخرين ، فان الله غيور على دينه ، غيور
على العدل ، منتقم من الضالين ، وانا لله وانا اليه راجعون اه

الشاهد الثاني

(في تحريض العثمانيين والمصريين والهنود)

* الوهم

﴿ اللهم اكشف عن بصائرنا سائر الاوهام حتى نرى الحقائق كما هي كيلا
نضل ونشقى ﴾

ألا قاتل اللهم الوهم ، الوهم طوراً يكون مرآة المزعجات ، ومجلى المفزعات ،
وطوراً يكون ممثلاً للسرّات ، حاكياً للمنغشات ، وهو في جميع أطواره حجاب
الحقيقة ، وغشاء على عين البصيرة ، لكن له سلطان على الارادة ، وحكم على
العزيمة ، فهو مجلبة الشر ، ومنقاة الخير

الوهم يمثل الضعيف قويا ، والقريب بعيداً ، والمأمّن مخافة ، والموئل مهاكلاً
الوهم يذهل الواهم عن نفسه ، ويصرفه عن حسه ، يخيّل الوجود معدوماً ،
والمعدوم موجوداً ، الواهم في كون غير موجود ، وعالم غير مشهود ، يخبط فيه
خبط المصروع ، لا يدري ماذا أدركه وماذا تركه ، الوهم روح خبيث يلبس
النفس الانسانية وهي في ظلام الجهل ، إذا خفيت الحقائق فحكمت الاوهام ،
وتسلطت على الارادات ، فتقود الواهمين إلى بيداء الضلالة ، فيخبطون في مجاهيل ،
لا يهتدون إلى سبيل ، ولا يستقيمون على طريق

(* مقالة نشرت في العدد ١٧ المؤرخ في ٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١ (٢٥ سبتمبر

سنة ١٨٨٤)

كان الانكليز أمة مجتمعة القوى ، مستكملة العدد ، مستعدة للفتوحات ، وذلك في زمان بليت فيه الامم الشرقية بتفرق الكلمة ، واختلاف الالهواء ، وحجبت بالجهل عن معرفة أحوال الغربيين وصنائعهم وعوائدهم ، فكان الشرقيون يعدون كل غريبة معجزة ، وكل بديع من الاختراع سحراً أو كرامة ، فانتهر الانكليز تلك الفرصة واندفعوا إلى الشرق وبسطوا سلطتهم على غالب أرجائه ، ومادهموا سكانه إلا ببعض غرائب الصنعة الاوربية التي أثارت فيهم خواطر الالهوام ، ثم زاد الوهم قوة مانصبه الانكليز من حبال الحيلة والمكر ، حتى خلبوا قلوب المساكين وأذهلوهم عما في أيديهم ، بل أخذوهم عن عقولهم وخطرات قلوبهم ؟ فسلبوا أموالهم ، وانتزعوا منهم اراضيهم ، وأجلوهم عن أملاكهم ، فاستغنت الامة الانكليزية بما سلبت ، وأثرت بما نهبت ، وترفت بما ملكت ، واليوم تراها حاكمة على أقطار واسعة ، وأنحاء شاسعة ، وقواها منقسمة على تلك الاقطار متوزعة فيها ، فلا ترى في كل إيالة من إيالاتها الشرقية إلا نزرًا من العدد والعدد ، وهي في جميعها ضعيفة واهنة ، لا تستطيع ذوداً ولا دفاعاً ، وإن أخف حركة في تلك الأنحاء توجب زعزعة في تلك القوة أو هدمها بالمرة ، وقد ظهر هذا الامر على أنفس الامة الانكليزية ، فهي دائماً في رجفة على أملاكها ، في خيفة من تمزقها وضياعها ، تتوجس من كل حادثة في العالم ، وتقلق لاية حركة تحدث في الوجود ، وكل ملمة تلم بالشرق أو الغرب توجب يحدوثها زلزلة في قوى الانكليز المتوزعة في الأنحاء الضعيفة في جميع الارحاء . ومع هذا كله نرى الامر لم يزل خفياً على الشرقيين ، محجوباً عنهم بحجاب الوهم ، يمثل الوهم لكل شرقي أن الانكليز على ما كانوا عليه في ماضي زمانهم مثل الشرقيين مع الانكليز كمثل مار في مفازة يرى بها جثة أسد مطروحة على طريقه فاقدة الحياة عديمة الحراك فيتوهمها سبعا ضارياً ومفترساً قوياً فينكب عن الطريق وهما وريبة بدون تحقيق لما تخوف منه ، يرتعد ويسقط ويموت خوفاً ، أو يضل بعد ذلك عن الجادة وتشبه عليه مسالك الوصول إلى غايته ، ربما صادف مهلكة في ضلاله ومتلفه في غيه ،

بل لانخطيء ان قلنا ان هذا الوهم كان متساعدا على الغربيين كما هو متساعدا على الشرقيين ، فلاوربيون كانوا ينظرون إلى انكليترا في أملاكها البعيدة كما ينظرون إليها في جزائر بريطانيا وكانت حكومة انكليترا متحصنة ممتنعة في هذه القبة الوهمية ، مترتبة على عرش هذه العظمة الخيالية

بحس الانكليز بضعف قوتهم فيجتمدون دانا في ستره ولاستارا اكشف من الوهم ، ولهذا تراهم في كل حادثة يجلبون ويصحبون ويزارون ليثيرو بالضوضاء هواجس الاوهام ، فتحول أنظار الناظرين ، وتعمشى بصائر المستبصرين فتحول دون استطلاع الحقيقة ، وإلا فقليل من الالتفات يكشفها فتقوم قيامة الخراب على الانكليز

ذهب الانكليز إلى الهند في قوى مجتمعة وتسابقوا مع الفرنسيين وهولاندة والبرتغال في ميدان الاراضي الهندية الواسعة ، فحازوا في هذه المباراة قصب السبق ، بما امتازوا به من الدهاء والمكر ، وبما ساعدتهم على ذلك من غفلة الهنديين لذلك العهد او طيب قلوبهم ، فالت النفوس إلى الانكليز اغترارا ، وتغلبوا على تلك البلاد واستقلوا بأمرها شيئا فشيئا ، وما أبقوا لغيرهم من الدول إلا مضايق من الارض لاتذكر ، وأول ما استمالوا به القلوب السالمة ، قولهم اننا نريد تخليصكم من هذه الدول الظالمة (فرنسا وهولاندة وبرتغال) فانها تريد التسلط على ممالككم ، أما نحن (الانكليز) فلا نريد إلا تحريركم واستقلالكم . ثم انا نرى للانكليز الآن في الهند الاصلية والهند الصينية والبرمان سلطة على نحو مائتين وخمسين مليوناً من النفوس جميعها كاره لتلك السلطة الانكليزية ، طالب للتخلص منها ، يفضل أية سلطة سواها ، ظالمة كانت أو عادلة ، كأنما يتصور كل واحد من أفراد تلك الامم انه لا توجد حكومة في العالم تبلغ في ظلمها مبلغ الانكليز ، ولا تصل إلى ما وصل اليه الانكليز في الكبرياء والجبروت . ولكن مع هذه البغضاء الآخذة بقلوب أولئك الرعايا ، ومع سعة ديارهم وتباعد أرجائها ، وشدة ميالهم للتملص من تلك السلطة الظالمة ، لا يوجد فيهم قوة تقهرهم على الخضوع لتلك الحكومة البغوضة إلا خمسون ألف جندي انكليزي ، مع انه

يوجد من الممالك الصغيرة التي لها نوع من الاستقلال وتخشى زوال ما بقى لها
مالو جمعت قواها لبلغت أزيد من ثلاثمائة ألف جندي ، هنيئاً فضلاً عما يمكنه
حمل السلاح من أهالي البلاد التي دخلت في الحكومة الانكليزية وزال استقلالها
بالمرة ، فلولا الوهم الذي استولى على المشاعر والحواس حتى أذهلها عما بين يديها
بل عما هو موجود فيها ، ما بقيت هذه النفوس الكثيرة العدد الفاتكة القوة في
قبضة قوم ضعاف ، يسومونهم عذاب الذل والهوان ، ولو لمح أولئك المساكين
أنفسهم لمح اعتبار ، وأدركوا ما أناتهم الله من القوة الطبيعية ، ونظروا إلى ضعف
الانكليز في الحالة الحاضرة ، لرأوا موت الخلاص بين أيديهم ، وملجأ النجاة
تحت أرجلهم ، وعلموا أن استفادهم لأنفسهم وبلادهم لا يحتاج إلى تجشم تعب
ولا تكلف مشقة ، ولا يدعو إلى بذل أموال وافرة ، ولا سفك دماء غزيرة .
يوجد في الدول الاوربية من يهاب دولة الانكليز اعتباراً لما في سلطتها
من الممالك الواسعة والامم العظيمة مما لم يبلغ عده رعية دولة من الدول وديس
شأنها وقوتها في تلك الاطراف القاصية بما يراه في جزائر بريطانيا ، ويظن أن لها
قدرة على الدفاع عن تلك الممالك تساوي قدرتها عليه في بريطانيا أو تقرب منها
ولم يلتفت إلى أن جسم الانكليز قد مد في الطول والعرض إلى حد لو حصلت
فيه أدنى هزة لتقطعت أوصاله (رق حتى انقطع) تفرقت قواهم في بساط الارض
حتى لم يبق لهم في موضع قوة ، ورعاياهم في كل صقع في ضجر لا مزيد عليه ، يترقبون
في كل آن زحفاً من خارج يعينهم على ما يقصدون من النكاية بحكامهم الظالمين .
لو التفتت تلك الدولة التي تهاب انكلترا إلى حقيقة الامر لما احتاجت في معارضتها
ومنازلتها إلى تدبر ولا مشورة ، فقد وصل الامر من الظهور إلى حد لا يحتاج
إلى دقة الفكر ، لولا حجاب الوهم . قاتل الله الوهم .

ان العثمانيين ينظرون الى دولة الانكليز كما ينظرون إلى دولة الروس مع
ملاحظة ان دولة انكلترا تحكم على مائتين وخمسين مليوناً من النفوس فيظنون
لهذا النظر ان معارضة هذه الدولة ربما تجلب الضرر ، ولتتهم مدبه انظارهم إلى
ما وراء ذلك لينبين لهم قوتها العسكرية ، وماذا يمكنها أن تسوق من الجنود إلى

ميا دین التتال ، ويتضح لهم ان هذه الملايين الكثيرة لا اعتداء بها في قوة دولة انكلترا ، فانما هي في الحقيقة قوة لا أعدائها عليها ، وهي في ارتكاب الفرص لجلع طاعتها ، فمتى ارتبكت دولة انكلترا بالحرب مع دولة أخرى رأيت مائتين وخمسين مليوناً تقاتل عساكر الانكليز ، خصوصاً خمسين مليوناً من المسلمين في حكومة انكلترا يعدون الدولة العثمانية قبله لهم وملاذاً يلجئون اليه ، وهم أول قوم حربيين في البلاد الهندية . ليت العثمانيين يعلمون أن دولة انكلترا انما تستميل المسلمين في الهند بكونها حليفة الدولة العثمانية ونصيرة لها ومدافعة عن حقوقها . أما والله لو علم العثمانيون ما لهم من السلطة المعنوية على رعايا الانكليز واستعملوا تلك السلطة استعمال العقلاء لما انحرعوا مرارة الصبر على تحركات الانكليز وحيثهم في أعمالهم ، وتعدبهم على حقوق السلطان في مثل المسألة المصرية ، التي هي في الحقيقة أهم مسألة عثمانية أو اسلامية .

ان سكنة مصر كانوا أيام عرابي على قسمين : قسم يروم حفظ الحالة القديمة والوقوف عند ما يرسم به توفيق باشا ، وقسم كان يميل باحد جانبيه إلى عرابي ، ويهاب بالجانب الآخر سلطة الرسم القديم ، فكان هذا القسم الثاني في ريبة من أمره . ولا عزيمة مع الريب . والقسم الاول مخلص إلى الفشل ، فدخل الانكليز بلا حرب حقيقية ، نوع من الترهيب ، وقليل من الترغيب ، وخفيف من الدسائس صادف قلوباً مستعدة فأخذ منها مقاما فأنحلت الرابطة وتفرق الناس عن عرابي بزوال جانب الميل اليه من قلوبهم . ومع ذلك ما كان يعتقد واحد منهم أن الانكليز يبتغون من البلاد شيئاً سوى أنهم يؤيدون توفيق باشا وينقذونه من التأثيرين عليه ، فتساهل المصريون في الامر بحسن ظنهم في حكومة الانكليز مع ما جاءتهم به من الحجة القوية القائمة على أن صاحب السيادة الشرعية في رضاء عن تصرفها ، بهذا فاز الانكليز واستقرت أقدامهم ، أما وقد مضى الزمان الكلي لظهور غدرهم ، وسوء نيتهم ، فلا يوجد من الاهالي المصريين من يميل اليهم بل لا يوجد إلا من يفضيهم ويتمنى فناءهم ، ويود لو يعمل عملاً لهما لهما بولكن الوهم يحسم المخافة ويكبح العزيمة

ات أهالي مصر ذهلوا عن الاسباب التي مكنت الانكليز من بلادهم كأنهم يظنون ان المصريين كانوا على كفة واحدة في مدافعة الانكليز ثم تغلبت عليهم القوة الانكليزية وقهرتهم جميعاً . كأن المصريين نسوا ما كان بينهم، وان الانكليز مداخلوا بلادهم إلا بمعونتهم . هذا هو الوهم العجيب

ان الذين كانوا من مدة سنتين سببا في تغلب العساكر الانكليزية وحلولها في وادي النيل ولولاهم ما استقر لها قدم فيه - يظنون الآن أن تلك العساكر قادرة على قهر الاهالي عموماً وإخضاعهم لحكومة بريطانيا، وبهذا الظن الباطل يستسلمون لأعدائهم كرهاً، وبجوارحهم في أهوائهم نفاقاً ، هلا ينظر المصريون نظرة متأمل إلى القوة الانكليزية ليعلموا أن ليس في طاقة بريطانيا لو أفرغت جهدها أن تبعث إلى مصر والسودان أزيد من عشرين الف جندي ، ألا يعلمون أنه إذا اشتغل الجند الانكليزي بالسودان وحصلت حركة خفيفة في الشرقية والبحيرة والفيوم لارتبك الانكليز وخارت عزائمهم والتجؤوا الى ترك البلاد لاهلها ، ألا قاتل الله الوهم

ان للانكليز قوة حربية بحرية لا تذكر ولكن مبلغ تلك القوة البحرية هو الذي ظهر أثره في سواكن ، لا يمكن أن تعمل عملاً فيما يبعد عن البحر أكثر من فرسخين ، فلو فرضنا أن الانكليز أطلقوا قنابرهم على السواحل فهل في استطاعتهم أن يقيموا تحت ظلال القنابر إلى أبد الآبدين إذا كان الاهالي في داخل البلاد يناوؤهم، وليس لهم من القوة العسكرية البرية ما يقهرهم على الطاعة ؟ ليس في الامر شيء سوى الوهم ، هذا الوهم تمزقت حجبه عن بصائر الغربيين فعلموا ماهو الانكليز ؟ ضعيف يسطو على حقوق الاقوياء ، صوت عال ، وشبح بال ، قامت الدول على معارضتهم لعامها ان الانكليز صاروا للامم كالودودة الوحيدة على ضعفها تفسد الصحة وتدمر البنية . لكن بقي أن يزول هذا الوهم عن الشرقيين حتى يستفيدوا من هذه الحركات ويستقلوا بامورهم ، ولا ينتقلوا من عبودية الى أخرى ، ولا يستبدلوا سيداً أجنبياً بسيد آخر ، اللهم ارفع عنا حجب الاوهام ، وهبي لنا الرشد في أمورنا ، واحفظنا من الغواية ، واهدنا إلى خير نهاية اه

الشاهد الثالث

(في تمريض مشترك بين الروس والعثمانيين)

المسألة المصرية دولية*)

انا أنذرنا الانكليز خطراً قريباً على الهند ، ونبها في أول عدد صدر من جريدتنا على أن تغيث التركان في مرو لظل الحكومة الروسية باختيارهم وبما يحمل تركان سرخس على الاقتداء بهم ، وأشرنا الى ما يتبع ذلك مما عاقبته نكال على الانكليز ، واليوم وقع ماتوقعناه فاستولت الروسية على سرخس وتاخمت بمحذودها حكومة الافغان ، وارتعدت فرائض الانكليز وغشيم الفرع والقاق ، واعولت جرائدهم نحياء ، ورددت نسيجا ، وأحست بقرب الاجل ، ولم يسكن روعهم ماذكرته جريدة بطرسبرج الشبيهة بالرسمية من أن سرخس اسم مشترك بين مدينتين قديمة وحديثة وانما دخل في حوزة الروس أولاها ، فن الانكليز يعلمون أن المدينتين متصلتان لا يفصلهما إلا ترعة صغيرة « نهر تجند » عرضها عشرة أذرع بالتقريب ، على أن سرخس - التي حكم مهندسو حرب الانكليز انها باب الهند من طرف الشمال ، وانها ممرفتحية من زمان قديم ، ومن طريقها طرق الهند اسكندر الاكبر ونادر شاه الايراني ، وان وصول الروسية اليها مما يخرق سياج الهند - انما هي سرخس القديمة . ومما زاد الانكليز فزعاً واضطراباً أن التركان النازلين بتلك المدينة وما يليها هم الذين عرضوا أنفسهم على حكومة الروس طوعاً واختياراً ، وبعثوا وفدًا منهم لينوب عنهم في عرض خضوعهم على البرنس دوندوكوف حاكم ماوراء بحر الخزر من الولايات الروسية ، ووصل الوفد الى عشق آباد وأقام بها ينتظر قدوم البرنس اليها

وقع الانكليز الآن بين شرين عظيمين ، خطر عاجل ، وحتف آجل ، أما الثاني فهو أن الروسية اما أن تتحد مع الافغانين وتحالفهم على مطاردة الانكليز وهو

(*) نشرت في العدد التاسع بتاريخ ٢٥ رجب سنة ١٣٠١ (٢٢ مايو سنة ١٨٨٤)

الاقرب المتوقع فتصير معهم يداً واحدة على هدم أركان الحكومة الهندية الانكليزية، وليس بخاف ما يضره كل أفغاني لكل انكليزي من الحق والضعفة، والافغانيون قوم حرب يناطحون الموت بنواصيرهم، فكيف ان وجدوا مساعداً قويا . وإما أن تميل حكومة الافغان إلى الانكليز - وهو من فرض الحال - فما أسرع أن تنتشب مقاتلات بين القبائل المختلفة ممن تحت حكومة الافغان مثل جمشيدي وفيروزكوهي وبين قبائل التركان المتأخمين لهم ويعقبها حرب بين الروسية والانكليز، لان كلا من الدولتين مضطر المدافعة عن حليفه، بل للروسية حق المناضلة عن رعاياها التركان، فاذا زحف الروس إلى الاراضي الافغانية تقطعت حبال حيل الانكليز، وامتنعت عليهم وسائل الدفاع، وهذا آخر حياتهم في الهند

وأما الخطر العاجل فهو أن سماع الهنديين بخبر استيلاء الروسية على سرخس يوقد فيهم نار ثورة عامة ياتمسون في أضواؤها طريقاً للخلاص من الضيق والاضنك الذي شامهم، وسبيلاً للنجاة من الويل الذي جابته عليهم مظالم الانكليز . هذا يكون كما اشتعل لهيب الفتنة سنة ١٨٦٠ عند ما وصل الهنديين خبر استيلاء ناصر الدين شاه الابراي على هراة، بل انتفاض الهند على الانكليز في هذه الايام اقرب، فان خواطر المسلمين من سكانه في هياج شديد بما شاع بينهم من دعوة محمد احمد السوداني، بل بما مكن في اهوائهم من الميل إلى تصديقه، وان لهذه الدعوة حملة على الهند لا يقاومها تدبير دولة بريطانيا

تريد دولة انكلترا ان تصد المسلمين عن حج بيت الله الحرام في هذا العام وربما فيما بعده حتى لا تصل أخبار محمد احمد وتورط الانكليز في مقاومته إلى مسامع الهنديين، ولكن سيحمل هذه الاخبار إلى تلك الاقطار حجاج الافغانيين والبلوجين الذين يسلكون إلى الحج طريق البصرة والكويت بل يبلغونها إلى اخوانهم، على وجه أبلغ مما لو سمعوها بأذانهم .

هذا تأييد إلهي للدولة العثمانية فعلها ان تنهض بعزيمة صادقة وجأش ثابت وهمة تليق بمكانتها في القلوب، وعلى السلطان العثماني ان يتذكر انه خاف لاوائك الاسلاف العظام الذين ماضعوا حقاً ولا أهملوا فرضاً، ويقنضي من الانكليز

حقه ويسترد مصر من ايديهم ويظهرها من جرائم الفساد، ولا يقنع بما دون الحق، ولا يدع لهم فيها شيئاً إلا بما يساوون فيه غيرهم من الدول، ولا تفوتن العثمانيين فرصة هذا الارتباك الذي سقط فيه الانكليز كما فأت الايرانيين الانتفاع بثورة الهند في الايام الماضية لتأخر خبر الثورة عنهم، والانسكانوا اوقعوا بالانكليز ونالوا الغاية من ضرهم. على العثمانيين ان يتلافوا الامر قبل ان يشب الانكليز حرباً صليبية بين الحبش والمسلمين على نفقة الحكومة المصرية. ليس للدولة العثمانية ان تنهاون في مطالبتها او تتحاشى الدفاع عن حقوقها الثابتة، ولا ان تخشى في ذلك تهويل الانكليز وجلبتهم، فان كثيراً من الدول على اختلاف مقاصدها السياسية يوافقونها على تخليص مصر من مخالف الانكليز كما دلت عليه منشورات الجرائد ورواياتها عن مقاصد السياسيين من كل دولة. بل الذي يفهم من جملة مقالاتهم انه لا توجد دولة من الدول ترضى بان يكون المؤتمر وسيلة لاستيلاء الانكليز على مصر او وضعها تحت حمايتهم خصوصاً دولة فرنسا ودولة الروس الخ

الشاهد الرابع

في دولية المسألة المصرية

وعقد المؤتمر الاوربي للبحث فيها

(أرادت انكثرة إلهاء أوربة عن مسألة احتلالها لمصر من الوجهتين السياسية والعسكرية فرغبت الى الدول الكبرى أن تمهد المؤتمر للنظر في المسألة المصرية وأمرت رجائها المالي الكبير (السر بارنج) الذي صار لقبه بعد ذلك (لورد كرومر) أن يعد لها تقريراً عن مالية مصر تجعله شغل المؤتمر الشاغل عن غيره لما للدول من الهم الاكبر في مصالحهم المالية بمصر، ففعل - ولكن المؤتمر لم يشغله ذلك بل أراد طرق المسألة من سائر أبوابها ففشل

(وقد خاضت البروة الوثيق عباب هذه المسألة وكأخت جميع أمواجه، وسبحت في مختلف خابجائه، وأنشأت فيه عدت مقالات رئيسية تأتي على نبذ من بعضها، لتمثيل من كان من سياستها، وتصوير بلاغة محررها فيها

(جاء في فاتحة المقالة الرئيسية للمعد العاشر نبذة في تهويل امر المؤتمر وسياسة الانكليز وبسمازك ومطامح الدول الكبرى ومكايد رجالها فيه هذا نصها :
 هذا ما ساقته اليه الحوادث المعنوية وهي مفتاح الكوارث الشرقية وفيها مغلاقها . العظام من الدول في يقظة لاسنة معها ، وحركة لافطور فيها ، مفاوضات متواصلة بينهما قبل انعقاد المؤتمر ، ومجادلات متلاحقة ، يدأب فيها السياسيون من كل أمة ، بعضها بالمراسلة وشيء منها بالمشافهة ، كثرت خلوات السفراء من كل دولة مع نظار الخارجية من سواها ، يتهامون ويتغامزون ، ويسرون خلاف ما يعلنون ، وينهبون إلى مالا يقصدون ، وقد حملق كل بصره للآخر لعله يلح من غضون وجهه ما ينبئ عن مضمرات سره ، ويصوب كل فكره إلى ما يريد الآخر من قوله ، عسى أن لا يفوته شيء مما ربما يعتل به ، وجل ما انصرفت اليه قواهم تمثيل الرغائب ، وتخيل المطامع ، في صور أبعداها عن الحقيقة أقربها إلى الخيال . يعظمون الحفير ، ويحقرون العظيم ، ويحسمون الوهوم ، ويضلون عن المعلوم ، ويقربون البعيد ، ويبعدون اقريب ، يذهب كل بصاحبه إلى رياض من الاماني باهرة الانوار بزهور الآمال ، ومنابت بهارها إلا على حبال من المكر ، وخواخ من الخديعة ، حتى إذا راقه المنظر وخطا خطوة سقط من حيث لا يشعر .
 هذا سهل صعباً ، والآخريو عر سهلاً ، وكل يتبع لحاظ رصيفه ، إذا أحس منه لما المقصده أبرز له الواناً من الفوائد الموهومة ليستغفنه عن مرامه ، وإذا شعر منه بفكر يوصله إلى ما يحسه ، فتح عليه أبواباً من الفزع ليزعجه عما يطلبه ، ويشوش عليه سيره ، ويقطع سبيل فكره ، منهم من يكسب الاصدقاء بمال غيره ، ومنهم من يستفيد الرققاء بكف شره .

ومن الناس أقوام آخرون ، على غوارب أمواج الحوادث نائمون ، تقذفهم كريمة وتتلقفهم أخرى وهم عنها غافلون ، زلزلت بهم الارض زلزالها ، ودهمتهم الخطوب بارزائها ، وتوالت عليهم المزعجات ، وتناولتهم عواصف المفزعات ، وهم في سكتة تخيل لناظرها أنهم على بساط الراحة مطمئنون ، والقبل على الفوز من هؤلاء ، وأولئك انما هو أحزمهم رأياً وأثبتهم عزيمته ، وأشد هم بشؤونه بصيرة .

يقول الانكليز انا عدونا على الهند من زمان طويل فاغتصبناه وحققت لنا الملكية عليه بما هو مقرر في شرائع القوة وقوانين التغلب . وأين ديارنا في بريطانيا من هذا الملك العظيم في شرقي آسيا ؟ المسافات طويلة، والشقة بعيدة، فلا بد أن يكون لنا في كل مكان موطن . لاقدامنا ، لنحتفظ باملا كنا ، فلنا حق في اغتصاب جل العالم لاجل الهند، خصوصا القطر المصري، فان به السبيل التي لا يماثلها سبيل ، وليس لنا عنها غنى، وكنا في مطلع اليها من زمن قديم، وكثيرا ماتمسكنا بحبال من الوسائل اليها فرثت في ايدينا بقوة حكام تلك البلاد، حتى هيأت لنا حوادث السنين الاخيرة ما أحلنا دارهم، وأقرنا في قرارهم

انا ذهبنا لتقرير توفيق باشا وتثبيتته على كرسي الخديوية المصرية إلا أنه بقتال ونزال فلا يختلف صورته عن صورة الفتح فلنا حق التملك في تلك الاقطار وقد فهم الناس أن مسيرنا إلى مصر كان لغاية إقرار الراحة وازالة الاختلال، وكنا صرحنا بذلك عند عزمنا عليه، لكن الغرض الحقيقي انما هو تأمين طريق الهند، فتمسنى لنا ما قصدنا بحلول عساكرنا في وادي النيل فثبتنا فيما أصبنا وليس لنا ان نتركه بعد الوصول . وحيث إننا عقدنا العزم على البقاء في مصر وأضربنا عن اخلائها الزمنا ضمان الديون المصرية وحملها ثقيل على كواهلنا، فعلى جميع الدول أن تمدنا بالمساعدة، وتكون لنا عوننا على تنقيص الفوائد، ولا نحب ان تكون مذكراتها معنا إلا في المالية خاصة فانه لا نرجو من مفاوضاتها فائدة الا فيها، وأما سائر الشؤون فعليها تدبيرها، والينا مصيرها . - هذه أقوال تصدر عن آمال يمدون أسبابها الى برلين ويرجون أن تكون مواصلها و. ما قدما في تلك المدينة عاصمة الالمان .

وأما البرنس بسمارك وهو مدير السياسة في أوروبا وبيده زمامها فيرى أن هذه فرصة ينتهزها ليستفيد صديقا وينكي عدوا، وليست له علائق سياسية بحمله على المدافعة عن مصر، ولا منافسة له مع الانكليز تبعثه على ما كاستهم، بل له اليهم حاجة في ضمهم اليه وابعادهم عن فرنسا لتكون منفردة بين الدول لاحليف لها، وقد تكون له من صلة الانكليز ما رُب أخرى سوى قطع فرنسا عن الحلفاء ينالها يوم الحاجة اليها وما هو عنه ببعيد، فإذا يضره إذا أذخر عونا وأساء عدواً، والنقطة على

حزينة غيره؟ نعم ربما يظن أن بسمارك يمنعه عن مثل هذه المعاملة رعاية جانب حلفائه من النمسا وإيطاليا لما لهم من المصالح في البحر الأبيض، ويصعب عليه أن يصيب سياسته الجمع بين مراعاة انكثرتا لنيل مصافاتها وبين التمسك بعهوده مع ذوي حلفه، إلا أنه قد يسهل عليه التخلف من هذا المضيئ بالاشارة إلى طرابلس الغرب وبلاد الارنوط (١) والايما إلى الاراضي البلقانية وسلافيك (٢) ويجلوها لانظار معاهديه، فيسكن جأشهم ويطمئن خاطرهم فيستثبت بذلك موالاته الدولتين، ويقلم أظفار الروسية من أوربا الشرقية، ويضيع مصالح فرنسائي بلاد المشرق عموماً ومصر خصوصاً، وفي كل ذلك الرجح له والخسارة على غيره، وليست هذه أول فعلة فعلها بسمارك أو يفعلها، فهي شرعته التي يرد إليها ويصدر عنها من يوم معاهدة برلين إلى هذا الوقت .

وفرنسا واقعة بين مراوغات الانكليز ومكايد بسمارك . لما حقوق سابقة في البلاد المصرية كاد يمحى أثرها بمدخلة الانكليز، وبها حاجة شديدة لعلو الكلمة في طريق منشأتها ببلاد الصين والبحر الهندي ومداغسك . لهذا تبذل الجهد لاجلاء العساكر الانكليزية عن مصر وتخفيض سيطرة الانكليز فيها، ويوجد لها عون من دولة الروسية، ولها من المنفعة ما لو أيدته أفكار المصريين وآراء ذوي العزيمة من رجالهم وميل افئدتهم لمكبتها من تخليص مصر وانزاعها من ايدي الانكليز سعيًا في حفظ مصالحها ووقاية حقوقها

وهذا مما يؤيد سياسة الدولة العثمانية ويشد عضدها في مدافعة الانكليز ومطاردتهم من بلادها، فللدولة العثمانية أن تظهر عزمها في هذه الاوقات لتستنفذ ممالكها من طمع الطامعين، وتعيد ولايتها على الاقطار المصرية خالصة لها من سلطة المعتدين، وان جميع المسلمين ينتظرون منها الخلق في هذه المسئلة ولهم فيها الامل القوي والثقة الكاملة، ورجاؤهم أن لا تفوتهم هذه الفرصة بدون ان ينالوا بها حظهم من الغنيمة، وليس على الدولة من بأس اذا طالبت الانكليز ببرد حقوقها كافة، فانهم بالنسبة اليها أضعف من ان يجاهرها بالعدوان

(١) كان هذان القطران مطامح مطامح ايطاليا (٢) كانت هذه امنية النمسة

وانا نكرر ما قلناه سابقا من ان الانكليز يستحيل عليهم أن يعلنوا على الدولة العثمانية حربا خصوصا في هذه الاوقات التي أصبحت فيها دولة الروسية متاخمة لمملكة الافغان، فان أول إشاعة لهذه الحرب توقد لهيب الثورة في عموم الممالك الهندية، وهذا جلي عند كل انكليزي

ان التغافل والوهن ربما يوسعان مجال الطمع فيفتح باب المسئلة الشرقية أو يكون لها استعداد قريب وليس للمصريين في طورهم هذا ان يركنوا إلى من ليس من أبناء جلدتهم، فان النعمة التي تحمل على الحماية تكاد ان تكون منحصرة بحكم الطبيعة في أبناء الوطن فلا ترجى من غيرهم، فعلى العقلاء من أهالي مصر أن يسارعوا إلى معاضدة الدولة العثمانية والاتحاد معها على تخليص بلادهم مستعنيين بأفكار الدول التي تقضي عليها مصالحها بالسعي في انقاذها واعادة شأنها الأول وتحقيق ما يقال من أن (مصر للمصريين)

وبالجملة فالاطماع فغرت أفواهاها، والافكار في اضطراب شديد، وظنون الناس شتى، فمن قائل ان المؤتمر لا ينعقد لتعسر الاتفاق بين فرنسا وانكلترا على القواعد الاساسية للمداولة فيه، ومن قائل انه ينعقد على ان يضع مصر تحت حماية عموم الدول، ويقرر انشاء مراقبة عمومية مع بقاء العساكر الانكليزية مدة سنتين، وعلى اي حال فلرزية أما تصيب الغافل، والسوء أما يحيق بالمتساهل، والجبان محروم من حقوقه، والعامل بيد غيره خاسر، فعلى المصريين والدولة العثمانية أن يظهروا الشهامة والاقدام، ويرفعوا علم الهمة ابقاء لحياتهم، وصونا لشرفهم، والامر لله يفعل ما يشاء اه

الحقيقة الناصعة في حلك الخيال الرائعة

(نبذة أخرى في تسمية أمر المؤتمر وحل مهمه بخديعة انكثارة لفرنسة)

جاء في المقالة الرئيسية للعدد الثاني عشر ما نصه :

أصفت آذان الراغبين في الوقوف على نهاية الحوادث المصرية، لاستماع ما يتحدث به بين الحكومات الأوروبية، من يوم دعت انكثرا جميع الدول العظام للاجتماع في مؤتمر ينظر في بعض المسائل المصرية، إلا أنها منعت دون حجاب كتمان، وإنما كانت تصل إليها دندنة أو جلبة، أو غمغمة أو جمجمة، وكل حس يصلها يشير رواكد الاوهام، فتتهيج فيها غرائب الصور والاشكال، والمذاعون (١) من أرباب الجرائد في أوروبا وهم أشبه الداعين إلى الالاعيب والكوديات كانوا يذهبون من الكلام وجوهاً مختلفة، ويتنافسون في التمثيل والتصوير، للتغريب والتهويل، حتى أبرزوا الأرض في صورة السماء والسماء في صورة الأرض، خصوصاً فيما يتعلق بالمفاوضات التي كانت جارية بين وزارتي فرنسا وانكثرا، فكان يخيل لمتصفح جرائدهم أن البحار غاصة بالمرالكب والمدركات يصادم بعضها بعضاً، وأن فضاء البر أعزل بالجيوش المتلاحمة لا يجد السالك من بينها سبيلاً، وتجسم الخيال لأرباب الأذهان الحادة فكان منهم مهندسو حرب يعينون مواقع المعسكر وطرق المصاولة، وجموع المتلاحمين تجول في أذهانهم يميناً وشمالاً، ويموج بعضها في بعض، وكأنما كانت مخيلاتهم معرضاً لجيوش العالمين، وكأن في كل فوج داعياً، وفي كل قبيل منادياً، يقول حتى هذا حتى، فمبيعات تتعالى، وزفرات تتصاعد، وإرغاء وإزباد، وتقطب في الوجوه وشرر في المناظر، وفي كل ذلك هول يأخذ بالالباب. والعارفون بقوة فرنسا البرية والبحرية والذين يقدرون حقوقها حتى قدرها كانوا يعتقدون أن تمثال العظمة البريطانية أصبح منكس الرأس منحنى الظهر،

(١) جمع مذاع بالتشديد وهو صيغة مبالغة من مزع (من باب نفع) إذا خبر بعض الأمر كتمه وقيل قطعه. ورجل مذاع متعاق كذاب لا وفاء له والذي لا يكتم سراً

قد هوى بهامته إلى ركبته، يتوارى من الناس خجلاً بما ظهر من ضعفه وعجزه، وإن حكومة انكلترا استعود بالخبية (وإن أعدت فيالق من التهديد وجحافل من الارعاد) وتقوت هذه الاوهام بما يطنطن أرباب الجرائد، وولعت النفوس بالوقوف على الحقيقة، وانبعث رسل الافكار نجوس خلال الشئون والاطوار، لتصل إلى شيء من هذه الاسرار، واجتمعت الارواح في الآذان، لعلها تسترق سمعاً عن تلك المداولات، وكنت كل نفس في مشكاة باصرتها لعلها تستشف من وراء الجباب ما ينبىء عن الحقيقة أو يقربها من الفهم. والجميع واقفون وراء حجاب هذا الملعب الشائق، وبعد طول الانتظار، كشف الستار.

فاذا عائدة الانكلتز جالسة في هيكل آمون ويدها تاج يحكي رأس الثور (تاج الفراغة) متهيئة أن تضعه على رأسها، والموك العظام وقوف بين يديها مستعدون لتهنئتها، كأنما كانت هذه المفاوضات والمخبرات اعداداً وتجهيزاً لاجلاسها على كرسي ميناس الاول ورمسيس الأكبر « لاحول ولا قوة إلا بالله » قام رئيس النظار الفرنسي في مجلس النواب خطيباً لبيان الاتفاق الذي عقده مع وزارة انكلترا يرى النواب فيه رايهم، وقبل ذكره أنفق ماله من البلاغة والفصاحة وحسن البيان لاقتناعهم بقبول ما اجراه، تلطف في الكلام وابدع، وصوب وصعد، واتي على ترغيب يشوبه ترهيب، وبأس يحوطه أمل، وادرج في طي خطابه ان فرنسا قبل هذا العهد الجديد لم تكن على شيء، وبه نالت اشياء، واوماً إلى ان وزارته لو طلبت ازيد مما حصلت لادى الامر الى ممانعة الوزارة الانكليزية، وافضى الخلاف إلى انقلابها، وربما يخافها وزارة تطمح إلى الاستيلاء على مصر.

وجاء في نطقه بما حرك الطباع ومال بالاسماع حيث قال : ينبغي للسياسي قبل ابرام حكم ان يلاحظ جميع أطرافه ولواحقه. فهذه الكلمة الرفيعة بددت في السامعين آمالا، وظنوا ان المراقبة اثنتائية قد اعيدت، أو تقرر اشهر في فرنسا مع انكلترا في الحلول العسكري، أو ابرم الحكم بخروج الانكليز من مصر. وبالجملة انهم فازوا فوزاً عظيماً، وبعد مقدمات طويلات بين الاتفاق فاجاً

هو بعد امان النظر على هذا النحو ! ان الانكليز سادات مصر يفعلون فيها ما يشاءون ، وليس لنا ان نعارضهم ، فلا المراقبة الثنائية عادت ، ولا الاشتراك في التدخل العسكري أو النظر الاداري حصل ، ولا قررت حرية القنال على أصل ثابت ، ولا تحقق جلاء الانكليز على صورة قطعية ، ولا تأصلت مراقبة دولية كما كان يتوهم بعض السياسيين ، بل كما كان يلجأ اليه الانكليز عند نهاية العجز على ما أشار اليه كثير من سياسيتهم . فاذنبضت صدور النواب ، فلما رأى شدة تأثيرهم دفعة واحدة ، واحس منهم القنوط ، حاول احياء آمالهم بقوله انا سلكنا في اتفاقنا هذا مسلك سائر الدول ، ومن السنن المتبعة فيها تنازل كل من طلاب الاتفاق عن شيء مما عليه الاختلاف ، حتى يتقاربوا ويتعادلوا فيسهل اتفاقهم . الخ

[يقول مؤلف هذا التاريخ]

(هذا ما بينه الكاتب من عاقبة المؤتمروخية فرنسة فيه ، ومحاولة رئيس وزارها اقناع مجلس نوابها بتصويب ما فعلته وزاره ، وقد تقي على هذا بتخطئه وذكر دوائه بما سبق من خداع الانكليز اياها في مسألة احتلال الهند واخراجها منها مخفي حنين ، أي كما خدعوها في أصل مسألة احتلال مصر ، ثم قال « والمستقبل أشبه بالماضي من الماء بالماء » فذكرنا بهذا كلمة قالها أستاذ التاريخ العام في المدرسة الحديوية في أواخر القرن الماضي وقد ذكر مثل هذا الخداع الذي عبثت به انكلترة بفرنسة مرة بعد أخرى سنة بعد سنة ، فقال له أحد التلاميذ انك كنت قلت لنا في العام الماضي مثل ما تقول اليوم فكيف تتخذ فرنسة هكذا لها ولدغ من الجحر الواحد مرتين ؟ قال الأستاذ الفرنسي : وهل انتهى هذا الخداع والانهاد مرتين ؟ كلا انها ستخدعنا في المستقبل أيضاً فتخدع !!

فلله در الحكيم الانفاني ، والامام المصري ، ما أبعد نظرها ، وأدق علمها بامور الالام ، وسنن الاجتماع في البشر ، وحقائق السياسة في الدول !!
وقد تقي على هذه المقالة بمقالة أخرى في بيان (الاتفاق) الذي عقد بين وزارتي فرنسة وانكلترة وتواطأنا على أن يكون موضوع البحث في المؤتمر وأشار إليه رئيس الوزارة الفرنسية وهذه خلاصته :

(المادة الاولى) أن يستمر الجيش الانكليزي في الاراضي المصرية الى أول يناير سنة ١٨٨٨ . (أي ثلاث سنين ونصف) ثم لا يتجلى عنها الا بعد انعقاده وتتم جديد من نواب الدول العظام يتفقون فيه على أن الاخلاء لا يضر بالنظام الداخلي لمصر ولا بالعلاقات السياسية بين الدول . فان خالفت في ذلك دولة واحدة كان لانكلترا الخيار بين الجلاء والبقاء ؟

(المادة الثانية) إلغاء المراقبة الثائية على أن يعوض عنها بتوسيع السطة لصندوق الدين العمومي فيمنح مجلسه حق الاطلاع على نفقات الحكومة المصرية ويكون له حق الاعتراض على ما يزيد منه على المقرر في الميزانية من أول سنة ١٨٨٥ الخ
(المادة الثالثة) حياد مصر وحرية القنال

وقد بين في المقالة دخائل كل مادة من هذه المواد وعواقبها ، وسوء سياسة الوزارة الفرنسية فيها ، وكون هذا الأود والاعوجاج فيها لا يقيمه الاحمية الدولة العثمانية ، وحرص مجلس النواب الفرنسي على المصالح الفرنسية .

وقد صدق بذلك رأي العروة في الانكليز من أنهم يبلغون ما ربهم دائماً بالخداع والكيد ، لا بالقوة والايدي . فهي قد خدعت فرنسا وغيرها بالاجل القريب الذي ضربته لانهاء الاحتلال - وهو ثلاث سنين - من حيث وضعت للجلاء بعده شرطاً لا يمكن وقوعه الى يوم الدين ، وهو اتفاق الدول واجتماعهن على أن الجلاء عن مصر لا يضر بالنظام الداخلي لها ، ولا بمصالح الدول المشتركة فيها ، ومتى اتفقت هذه الدول على رأي من الآراء وعمل من الاعمال ، في أمثال هذه المسألة التي تختلف فيها المصالح والاهواء ؟

ثم متى تكون هذه الدولة الداهية عاجزة عن استمالة دولة أو أكثر الى الخلاف في هذا ؟

الشاهد الخامس

في تحريض الدولة العثمانية (*)

الباب العالي والانكليز

يهم المسلمين في كل أرض أمر ما يجري في مصر بل تذهب نفوسهم حشرات كما رأوا أو سمعوا أن جندياً أجنبياً يجول في نواحيها مقاتلاً أو حامياً ، وليس شأن مصر عندهم كغيرها من البلاد فإنها بهرة الاسلام وباب الحرمين الشريفين ، فكل نازلة بها ترزأ الدين وتصدع من أركانه ، والمسلمون في قلوبهم هذا ينظرون الى الدولة العثمانية ويقلبون وجوههم في سماء سلطتها الحسية والمعنوية ، يرجون منها عزمة ثابتة تنقذ بها الاراضي المصرية من تبوي ، الاعداء ، ويحفظ بها شرف المسلمين ومكانتهم بين الامم ، وتصان بها ولاية الاسلام من السقوط في حبال هذه الدولة الداهية « دولة الانكليز » التي أخذت على نفسها أن تبديد ولاية هذا الدين وتحول حابله على نابله * هذا فضلا عما يراه كل مسلم من أن عزة الدولة العثمانية وشوكتها ليس إلا بسلامة ما سكنتها على مصر ، فان قضى فيها الامر لغيرها « والعاياذ بالله » أصبحت حقوق العثمانيين في جميع ممالكهم معرضة للخطر * فهذه دولة الانكليز كمرض الآكلة يظهر أثره ضعيفا لا يحس به عند بدئه ، ثم يذهب في البدن فيفسده وييليه بدون أن يشعر المصاب بالالم ، هكذا شأن الانكليز في لينهم وتلطفهم ، وحلاوة وعودهم ، وتلقفهم وخضوعهم ، يسلبون الممالك ما سكه بل الحى حياته ، وهو مأخوذ بما يشعرون له . ولا ريب في أن الاهانة التي تمس الدولة العثمانية تنال جميع المسلمين في الشرق والغرب ، فان كل مسلم وله الحق يعد هذه الدولة دولته ولو تباعدت الاقطار .

إن الهنديين إلى اليوم وما بعد اليوم يباهون بها ، ويحسبون أنفسهم في عداد الامم التي لم تذهب سلطتها ، ويعتقدون أن لهم سلطانا قويا في الدولة العثمانية ، بل يرون أن خلاصهم

من قيد الرق الانكليزي لا بد أن يكون يوما ما بسميها ، وقد أظهرت أيام الحرب الاخيرة آثار لحتمهم معها بالاحمة المالية بما لم يبق ريبة لمرتاب في شدة صلتهم بها . لهذا كنا نعجب لسكوت الدولة العثمانية في هذه الازمان الاخيرة عند ما اشتدت مقارعات السياسيين من كل دولة ، وتصارعوا في لمفاوضات والمجادلات محاماة عمالهم في المصالح في مصر ، مع أن الدولة كانت أحق وأولى من جميع الدول بالاهتمام وبذل الجهد للمناضلة عن حقوقها الثابتة ارضاء لخواطر المسلمين عموما واستبقاء لحسن عقيدتهم فيها ، وحماية عن تمالكها أو أهم مملكة منها ، إلى أن اطلعنا على إعلان بعث به الباب العالي إلى الدول بطريق التلغراف فيما يتعلق بالاتفاق المنعقد بين فرنسا وانكلترا في المسألة المصرية أتى فيه على بيان العواقب السيئة التي تنشأ من طول مدة الحلل الانكليزي في مصر وأظهر أن مجرد تحديد المدة لا يكفي الانكليز عن حرصهم ، ورعاية ما فيه أنه يستتبع مداعة الدول والدولة العثمانية مع الانكليز ، وبرهن على أن بقاء العساكر الانكليزية في مصر ليس بضروري في حل المسألة فان كانت الدول لا ترى في العساكر الاهلية كفاية لصيانة البلاد من الخلل فالباب العالي مستعد لارسال العساكر اليها على ما تقتضيه حقوقه فيها ، كما عرضه على الدولة البريطانية وجرى البحث فيه ولكن حال دون الاجراء موانع سياسية . فان لم تقبل الدول أن يستقل الجيش العثماني بحل هذا المشكل فانه يعرض عليها أن يحل مصر جيش مختلط يؤلف من عثمانيين وفرنساويين وانكليز وايطاليان واسبانيين وإلى الدول تعيين الاجل في الوجهين وزاد الباب العالي في إعلانه هذا خدشا لخواطر الانكليز حيث قال ان الانكليز قد أنهوا أعمالهم في محو العصيان وثبتت سلطة الخديو الا أنهم لم يأتوا في تحسين حال مصر وتقوم نظامها الا بما فيه إجراء بعض مقاصدهم السابقة

وانا نقول كما يهتف به كل مسلم إن من فروض الدولة العثمانية أن لاتدع وسيلة للذود عن مصر وكف يد الانكليز عنها ، وأن تكون همتها في ذلك كهمتها في الذود عن نفس الآستانة ، وليس لها أن ترهب هذه الرعود وتلك البروق التي لاتعقب مطراً * ومن الحق أن نقول إن في مكنة العثمانيين أن يقوضوا هذا

البيت البلوري « بيت العظمة الانكليزية » بحجر واحد، فاذا اشتدت الازمة تيسر لهم السعي في الوثام بين الايرانيين والافغانين والبلوجيين ولا يكلفهم هذا إلا كبتين يستندان إلى أصل ديني قويم، وعندها يعرف الانكليز مقام أنفسهم في الاقطار الهندية ، والممالك المشرقية .

هل تسلط الانكليز في الاراضي الهندية الواسعة إلا بسبب المحاصمات المذهبية التي كانت بين الافغانين والاييرانيين ؟ ولو نظرنا اليها نظر التحقيق لارأيناها مما يوجب شق العصا وتفريق الكلمة ، ولا ريبه عندنا أن رفع الشقاق وتجديد الوفاق بين تلك الامم أيسر شيء على الدولة العثمانية لما لها من المسكنة العليا في نفوس المسلمين قاطبة . ولا يظن أن اعتصام الانكليز في جزائر بريطانيا والهند يقتصرون بالعثمانيين عن النكاية بهم لا تقطاع السبل بين هؤلاء وأولئك وانسداد مسالك بين الممالك العثمانية والانكليزية ، فإن الظن يخلف عند وجود الاتفاق بين الافغان والاييرانيين ، واتحاد كلمة الفرس مع العثمانيين

هذه طريق محمرة وبتدر عباس إلى بلوچستان مفتوحة للسالك، مطروقة لسابل ، وهي الطريق التي سلكها أول جيش إسلامي بعث به الحجاج بن يوسف لفتح السند . ان هذه لجولة لو كانت لا تارت في وجوه الانكليز غيرة يضلون فيها عن رشادهم . ومعلوم أن الحي لا يسلم نفسه للموت بلا مدافعة عاдам قادراً عليها . يكفي لقيام مليون من المقاتلة الافغانين والبلوجيين تحرك خمسة آلاف عثماني الى أحيائهم .

لست أبالي أن أقول الحق : اذا حصل التساهل في أمر مصر انفتح باب المطامع لكل دولة صغيرة أو كبيرة ، وعزت بعد هذا وسائل التلافي، فلتأت الدولة العثمانية على مافي الوسع ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم اه

الشاهد السادس

خاص بتنبيه الخديو توفيق باشا ورجاله دولته

(ان العروة الوثقى لم تكن ترجو من الخديوي توفيق باشا أدنى عمل ولا أدنى مساعدة لمن يعمل ويسمى لجلاء الانكليز عن مصر وانما كانت تطالب بتسليم أمر البلاد الى أولي العزم فيها، ولكن وصلت اليها اخبار من مصر بأن الانكليز استولوا على قلبه ، فصار يعتقد أن بيدهم أمر بقائه في منصبه، ومما أخافوه به إيمان ارجاع والده- وانهم استألفوا بعض المصريين من المسيحيين وغيرهم الى مساعدتهم على تثبيت اقدامهم في مصر فكان هذا سببا لكتابة عدة تنبيهات منها مقالة عنوانها

عمى بعض الناس في مصر او تعاميمهم عن مقاصد الانكليز فيها) (١)

قال في آخرها بعد شرح طويل في تصرف الانكليز في مصر وما يعملونه به :
هذه كلها آفات يزعمها الانكليز حجابا لما يسمعون اليه من الاستعلاء على عرش السيادة في مصر وخط الرجال في حزنونها وسهولها .

فلم يبق بعد هذا سوى ان ينتبه الغافل ويلتفت صاحب الامر الى ما يحف به ليحترس من هذا الكيد العظيم . ولا يعين الانكليز على مقاعدهم جهلهم او اغترارا بما يخيلون له من نفع يعود على شخصه او بلاده . سبحان الله هل كان مثل هذا الامر يحتاج الى تنبيه ؟ هذا محل العجب من غفلة أمراء الشرق ، لا تفيدهم التجارب ، ولا تربيتهم المحن ولا تعلمهم الحوادث ، ولا تدربهم النوازل ، وتناوب الرزايا والمصائب . من له أدنى خبرة بسير الانكليز في ماضيهم نو حاضرهم يعلم انهم يملكون البلاد بأيدي سكانها ، ويقتلون أمراءها بسيوف أنفسهم

يرى الامير الشرقي هذا في أرض جاره فيظن النازلة خاصة بموقعها فيلهو عنها ولا يخشى السقوط فيما سقط فيه غيره، فيقع في نفس الشرك الذي صيد به جاره، مثلهم مثل الاغنام يسوق الجزار منها واحداً بعد واحد الى المجزرة وسائر القطيع في غفلة عما يجري على آحاده يرعى ويرتع آمنًا مطمئناً حتى يفنى (١)

لا عار على أمة قليلة اعدد ضعيفة القوة اذا تغلبت عليها امة اشد منها قوة واكثر سواداً وقهرتها بقوة السلاح . وانما العار الذي لا يحويه كره الدهور ولا ينسيه تطاول الازمان ، هو ان تسعى الامة او احد رجالها او طائفة منهم لتمكين ايدي العدو من نواصبيهم ، اما غفلة عن شؤونهم ، او رغبة في نفع وقتي وجزاء نقدي على خيانتهم ، فيكونون باحثين عن حتفهم بظلفهم

علينا أن نرفع أعلام المحبة الوطنية ، ونحمل عوامل الشهامة الاسلامية، ونوقد نيران الغيرة الجنسية ، لنخيب آمال الانكليز ونرد كيدهم في نحورهم، ونقذف بأولئك المغفلين الذين يميلون اليهم خارج نخوم هذه الحياة (٢) ليلحقوا بالخائنين ممن سبقهم ويذوقوا عذاب الهون بما كانوا يكسبون ، هذا اذا حصل اليأس من تيقظهم ورجوعهم إلى الحق والصدق في محبة الاوطان ورعاية مصالحها ، فان تابوا وأصلحوا وانابوا كان الحق ظهيرهم ، وكان الله وليهم ونصيرهم ، وهو نعم المولى ونعم النصير

(١) نظم هذا المعنى ابن دريد فقال في مقصورته الشهيرة :

نحن ولا كفران لله كما قد قيل في السارب أخلي فارتعي

اذا احس نباء ربح وان تطامنت عنه نمدى ولها

وهكذا شأن البئس في حال الادبار والانحطاط الاجتاعي . روى المؤرخون ان رجلاً من التتار الخريجين صادف مائة رجل في احد أزقة بغداد فذبحهم واحداً بعد آخر وهم ينظرون ! فم كانوا يخافون ؟ وهل بعد وراه هذا الذبح شيء يخاف منه ؟

انما مثال هؤلاء احقر واصل من الغنم لان الغنم لا تدري ما يدرون

(٢) هذا رأي السيد جمال الدين في الخائنين لاوطانهم بمساعدة الاجنبي عليها

لا علاج له عندم إلا القتل

الشاهد السابع

في سياسة دول أوربية في المسألة المصرية ومكان العثمانية والحكومة المصرية منها

*)

سقوط المؤتمر وسياسة بسمارك فيه

حر كات العقلاء على حسب المقاصد ومقدرة بقدرها ، وأولاها بالاعتبار ما يصدر عن كبار الرجال الذين يدبرون شؤون الممالك على قواعد العقل وأصول الفكر . على رعاة الأمم في كل مملكة أن يكونوا بمصر لكل حركة سياسية ، وبمقرب للنظر في غاياتها والتنقيح عما يث عليها . رب نهضة من سياسي عظيم تيمد لها الراسيات في كل دولة ، وتضطرب لها الروابط العامة بين أمّة وأمة . فليس لحكمتك في السياسة أن يقصر نظره على ماعنده ، ويرد كل حادث سياسي إلى مارسم في مخيلته ، واعتقده موافقا لمصلحته ، فيضل عن الرشد بالقصور ، ويغيب عنه الصواب بالغرور ، بل عليه أن يطالع مقاصد السياسيين في لوح الأمل ، ويتلوها في صفحات المنافع والمضار التي يحمل على جابها أو يدعو إلى دفعها طبائع الأمم ، ولوازم مليتهم ، ومواقع بلدانهم ، وعلائقهم مع من سواهم ، حتى يمكنه أن يكون بين هذه الجواذب والدوافع حافظا لمداره ، واقيا لنظام سيره . يكون على غوارب أمواج الحوادث كالملاح الماهر ، يضرب بسفينته عروض البحار ، في أمن من الاخطار ، يستفيد حتى من العواصف ، وينجو حتى من القواصف .

كانت حكومة فرانسا أشد الدول في دفع انكسارها عن مطالبها المالية وبهذه الشدة سقط المؤتمر ، بعد هذا بذل البرنس بسمارك جهده في اجتماع القياصرة الثلاثة فاجتمعوا في (اسكيارنيا فيس) . ثلاثة ملوك عظام تلاقوا بعد طول التحايرة ومعهم وزرائهم ، رجال تميزوا بين السياسيين بعلو الرأي وبعد الغاية . هل كان هذا التلاقي لاطفاء لوعة الشوق وإجابة داعي المحبة الشخصية ؟ لا . هل كان كما

قاله بعض الجرائد للتداول في الوسائل التي يجب استكمالها لقهر الفوضويين ؟ كيف يكون هذا وليس أعوان الفوضى إلا كلكوص تتمهم السطوة الداخلية، ويكفي لسد أبواب الفرار في وجوههم مخبرات خفيفة بين أولئك الملوك كما هو الشأن في أمثالها من المسائل الجزئية . ماتقوله الجرائد من هذا القليل انما يقصد به التعمية وصرف الاذهان عن النظر في الحقيقة

أي غرض عظيم دعاهم للاجتماع ؟ لم يجتمعوا لنفع دولة واحدة فان حكم المنافسة محافضة الايثار . قد انضم لهذا الاجتماع تعدد الملاقاة بين البرنس بسمارك والبارون دو كورسيل سفير فرنسا في برلين . هل يريد البرنس بسمارك بهذا الاتفاق الامبراطوري أن يجعل لفرنسا ركنا شديداً في معارضة انكلترا حتى يستحكم الشقاق ويفضي إلى حرب توهي القوة الفرنسية ويصيب منها ما يجب ؟ هذه قائدة خاصة بدولة الالمان لو قدرت على نيلها فاذا ينال الدولتين المنافستين لها من الاتفاق معها ؟ أو يريد البرنس مجرد المجاملة لفرنسا وتقريب جراحها بتأييدها في رغباتها فتكون المصافاة بينها وبين المانيا وتنتهي الاحقاد بينهما ؟ غاية لا تطالب والشأن فيها كما بقتها . هل يقصد البرنس مجرد الانتقام من وزارة بريطانيا تشفيا من غيظ الالهة التي لحقته في المؤتمر . ان كان هذا فما بال الدول تتفق معه على انتقام شخصي لا يمس المصلحة المشتركة . هل هذه الحركة الشديدة موجهة إلى ما يقصده بسمارك من التملك والفتوح في الشرق وإلى هذا القصد تنتهي ؟ أيصح أن يكون ذلك الامر الكبير وسيلة لهذا الغرض الخثير ؟ على أن انكلترا كانت أقرب إلى المانيا في هذه الوجهة وأجدر بأن يميل اليها البرنس ويتحالف معها لنيل هذه البغية . هل أراد البرنس أن يخلل الروسية ويلهي فرنسا بالمسألة المصرية لتنام الاعين عن دولة النمسا فتتقدم من طرف هرسك وبوسنه الى ماشاء الله ووسعت القوة ؟ شفقة في غير موضع ، وصنعية في محل القطيعة . هل أحب البرنس أن يتمتع نظره بشهود الفتوحات فبعد ما فتح للنمسا بابا في للشرق من جهة هرسك رسم للروسية طريق هراة وقندهار ، ومد لفرنسا خطا في حدود تونس وهو قرير العين بما يرى ويسمع من توسع هذه الدول في فتوحاتها وان لم تعد من ذلك

فائدة على الامة الالمانية ؟ شيء لا يأتي عليه الفكر ولا يصيبه النظر .
 هذا ولا يصح لنا أن نقول إن الحلف العظيم بين القياصرة واهتمامهم بتأكيد
 الروابط بينهم لمجرد كف يد الانجليز عن مصر وابقاء فائدة الدين ومبلغ الاستهلاك
 على ما كانا عليه، وحفظ قانون المالية المصرية كما ظن مكاتب التان البرليني، قال ان في عزم
 البرنس بسمارك أن يؤيد الحجة الفرنسية بثبات شديد و ارادة صحيحة، وسيكون مع
 فرنسا بدأ واحدة في ابقاء الحالة المالية في مصر على ما كانت عليه، وفي زعم المكاتب
 أن هذا كان باعنا لسياسي انكثرا على بذل الجهد لحل عقدة الاتفاق بين المانيا
 والنمسا وبين فرنسا . فان المسئلة المصرية بمجرد ما ليست مما يدعو الى حملة عمومية
 اني أرى تحت هذا النقع جحافل أهوال ، ووراء هذا الغيم وابلات
 أرزاء ، أرى تنقلا قريبا في حدود الجغرافية السياسية ، وتغيراً عظيماً في الخطط
 الدولية ، وانقلاباً في هيئة الروابط العمومية ، نعم قد يكون من المباديء الاولى
 لهذا العمل أن يتفق البرنس بسمارك مع فرنسا فانه لم يجد خيراً في مناوأتها
 زمناً طويلاً ، وكما رام الوضع منها زادت علواً وارتفاعاً، فريد أن يجرب صداقتها،
 كما جرب عداوتها ، وأن يدفع البرنس دولة الروسية الى آسيا فهو اسلم للدولتين
 الالمانيتين ، ثم يبعث النمسا على التقدم خطوات حيث تولى وجهها وفيما تحلفه
 وراءها فائدة البرنس النقدية

(ثم قال بعد تقليب الآراء ما يأتي وهو ما أردناه من المقالة)

قضت الحوادث أن تكون الدولة العثمانية والحكومة المصرية التي هي جزء من
 أجزاء الدولة في مهب رياح مختلفة فعملها التيقظ التام والاحتراس الشديد كيلا
 يكون خسارهما في استفادة غيرهما . اذا قامت الدولة بعمل كما يليق بها حفظت
 حقوقها وصانت بقية ممالكها . الحكيم اليقظ يستفيد من كل حادثة، والاخرق
 الغافل عرضة لكل خطر . الدول تطالب نكابة الانكليز من كل وجه فما الذي
 يمنع الدولة العثمانية من مجارة الدول العظام وهي أقدرهن على الاضرار بهم،
 فانهم في بلادها يعيشون فيها مفسدين، وسكان البلاد لا ينتظرون الا خطوة من
 دولتهم اليهم، فيقيمون القيامة عليهم؟

الشاهد الثامن

(في تحريض المسلمين عامة والسلاطان والمصريين خاصة على الانكليز)

زلزال الانكليز في السودانه (*)

تقلت الجرائد الانكليزية تلغرافاً ورد إلى جريدة الستندارد من دونقلا
نم كررت ذكره وثبتت مفاده أياماً متواليات ومحصله : ان الاسن تلهج في
مدينة دونقلا وفيما بين الجيوش الانكليزية بقدم جيش محمد أحمد والحديث
مستفيض في جميع المعسكرات بأنه زاحف اليهم بجيشين أحدهما يأتي من الصحراء
والآخر على شواطئ النيل وأنهم لا بد أن يلاقوا منه صدمة شديدة لا قبل لهم
باحتلالها ، وقد استولى بذلك الاضطراب والتشويش على أفكار المعسكر خصوصاً
عساكر مدير دونقلا لا خوفاً وفرعاً فقط ، ولكن لما أيقنوا به واطمأنوا اليه من
أن السلطان راض عن أعمال محمد أحمد بل صدرت منه التنبيهات إلى جميع المؤمنين
في تلك الاطراف بأن يتجنبوا محاربة هذا القائم وأن يعتبروا الانكليز في منزلة
العدو اللد ويقاوموه مقاومة الآيسين اهـ

كنا نعلم أن جميع المسلمين وعموم الوطنيين يرون من فروض ذمتهم السعي
في معاكسة سير الانكليز وإقامة الموانع في طريقهم بقدر الطاقة والامكان قياماً
بما يوجبه الدين والوطن ، ولا يحتاجون في الانبعاث لهذا العمل الشريف إلى أمر
سلطاني ، فان الشريعة الالهية والنواميس الطبيعية في كل ملة وكل قطر من أقطار
الارض تطالب كل شخص بصيانة وطنه والذود عن حوزته وتبيح الموت دونه ،
بل توجه في مدافعة الباغين عليه ، وتدعو كل ذي عقل لاخذ الحذر من حيل
المحتالين ، والتوقي من الارواح الشريرة الخبيثة التي تتجلى في أشكال من الصور
منها ما يخطف برونقه الظاهر لب الالباب ، ويذهب بهاؤه الصوري بنور الابصار ،
وهي منابع الشر ومصادر الفساد ، ومهب رياح التبن والاختلال .

(*) مقالة انشرت في العدد ١٨ بتاريخ ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١ - ١١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤

تلك أرواح الاجانب ونفوس الاباعد الذين يهتكون حرم البلاد، ويخفضون شئون العباد، ويغمطون الحقوق، ويفسدون الاخلاق ويدلون النفوس المدافعة عن الوطن أمر طبيعي وفرض معاشي يكافئ في دعوة الطبيعة اليه الميل إلى الطعام والشراب ، فليس يمدح القائمون به ولا يثنى عليهم في أدائه . نعم تتجلى صورهم الجميلة محلاة بأوصافها الفاضلة في مرايا التواريخ عند ما يمر الناظر اليها على تماثيل الخائنين الذين جاوزوا تخوم الطبيعة ، وصيغت لهم هياكل من اللعن الابدي، مسربة بالحزني والعار السرمدي ، هكذا يعرف الشيء بضده

لسنا نعني بالخائن من يبيع بلاده بالنقد، ويسلمها للعدو بضمن بنحس أو بغير بنحس (وكل ممن تباع به البلاد فهو بنحس) بل خائن الوطن من يكون سببا في خطوة يخطوها العدو في أرض الوطن ، بل من يدع قدما لعدو تستقر على تراب الوطن وهو قادر على زلزلتها ، ذلك هو الخائن في أي لباس ظهر، وعلى أي وجه انقلب . القادر على فكر يديه ، او تدير ياتيه ، لتعطيل حركات الاعداء ثم يقصر فيه ، فهو الخائن . من لم يستطع عملا وأمكنه أن يرشد العامل وتهاون في النصيحة فقد خان . من سوف عمل اليوم إلى غد ، وتواني في تضليل كيد الاعداء بقول او فعل ، فقد ارتكب خطيئة الخيانة ، وكل خائن لوطنه أو ملته فهو ملعون على السنة الانبياء والمرسلين . وممقوت في نظر العالم أجمعين

ما أعظم جريمة الخيانة « المساهلة في شؤون الاوطان » يأتي الزمان بطوله على كل شيء فيمحو أثره ويطمس رسمه ، إلا وصمة الخيانة ، فلا تطوبها الادهار ، ولا يخفيها تطاول الاعصار ، محيت أسماء العظماء والملوك والساطين ولكن لم تمنح أسماء الخائنين . لو ث على وجه الزمان ، ودرن في صفحة الامكان ، مكنته باللعنة محفوفة بالقت إلى أبد الآبدين ، لا يحيط القلم بوصف الخائن وما يتبعه من الشنائع ولكن النفوس مهما تدانت في الادراك تشمر بعظم جرمه فلترجم إلى موضوع كلامنا كئنا على يقين ولا نزال عليه ان الذات الشاهانية وهي الأب الاكبر لعموم المسلمين ، وهي الكافلة للشريعة الحافظة للدين ، هي أجدر الناس بالالتفات إلى حركة الاعداء في البلاد الاسلامية ، وهي لا تألو جهداً في تعويق سيرهم واحباط

أعمالهم ، ولا يمكن أن يطمئن للسلطان قلب وهو يرى أن أمة عظيمة من أخلص
الامم في الولاء له والخضوع لشوكته سقطت تحت السلطة الاجنبية ، وانه لخرج
الصدر من أعمال الحكومة الانكليزية ، وعدوانها على الحقوق العثمانية والاسلامية
والمصرية ، بلغت غشمة الانكليز إلى حد لا يحتمل فليس من الغريب أن تضيق بها
الصدور ، وتفيض بالغيظ منها القلوب ، وتبلى منها دروع الصبر ، وتذوب سابقات الجلد
في أيها المصريون هذه دياركم وأموالكم وأعراضكم وعقائد دينكم وأخلاقكم
وشريعتكم قبض العدو على زمام التصرف فيها غيلة واختلاسا : زحف العدو اليكم تحت راية
الحبة ثم قلب لكم ظهر المحن ، وتناول بيده الظالمة شؤونكم العامة من عسكرية ومالية
وادارة وقضاء ، ولم يبق لكم شيئا إلا الحرمان من خدمة أوطانكم وأنتم أحق بها ،
وطالما دافعت عنها في الايام السابقة ، هذا وهو لم يأمن طوارق السياسة الخارجية ،
ولم يمح القوى الداخلية ، يطلب استمالة القلوب اليه ، وجمع النفوس عليه ، فكيف
به اذا رسخت أقدامه ، وارتكزت أعلامه ، وخلا له الجو من المعارضين ؟

ماذا ترجون من مطاولته ، وماذا تؤملون في ارخاء العنان له ، وماذا تهابون في
معارضته والاخذ على يده ؟ أما رجاء الخير منه فوهم فاسد وخيال باطل ، فقد رأيتم انه
أفسد شؤونكم ، وأقلق راحتكم ، وحرم رجالكم من الخدم ، وأقر آلافا مؤلفة
من العائلات ، ووهب من بلادكم لأعدائكم ، وأضر بمنافعكم العامة من زراعة
وتجارة وصناعة ، فأغلق أبواب الكسب في وجوهكم ، وقصد إلى التدخل فيما يختص
بأمور دينكم (كالأوقاف) وعمد الى خرق سياجكم وازالة قوتكم بطرد جنودكم ،
وهذه أوائل أعماله فكيف تكون نهايتها ؟ فماذا نخشون منه ؟

هل نخشون ان تنقص أموالكم ونمرات كسبكم اذا أدبتم حقوق وطنكم ،

ودافعتم عدوكم ؟ ربما يحتاج هذا بخاطر بعضكم ، وهو من عجيب الخواطر ، أنتم واقفون
بسكونكم فيما تخافون منه ، انتقصت الاموال والثمرات ، وفاضت العبرات ، وزادت
الحسرات ، وإن زدتم في الخضوع زادكم عدوكم خساراً ، وأوسعكم خراباً ودماراً ، ان
رسخت قدم العدو بينكم لا يبقى منكم غني الا افتقر ، ولا عظيم الا احتقر ، وإن
شتم فأنظروا مستقبلكم في مرآة حاضركم ، وافروا حالكم في تواريخ من سبقكم .

هل تخشون اذا قتم بفروضكم أن يأتي الخطر على حياتكم؟ يمكن أن يعرض هذا الوهم بخيال طائفة منكم، ولكن فلتعلموا أن عدوكم في هذا الوقت ضعيف العزيمة خائر القوة. الدول متألبة عليه يترب منها في كل آن مطالبة بنتائج أعماله، ومحاسبته على عواقب تصرفه، ثم هو يخشاكم كما يخشى الدول أو أشد خشية. انه مسرع في سيره منطلق الى مقصده بغاية ما يمكنه ليتخذ لنفسه قراراً مكيناً، ومقرراً أميناً، ولا يخفاكم ان السرعة في جريه يكبه على وجهه عثرة في مدرة، فلو ظهرت منكم في هذا الوقت مقاومة خفيفة، أو مؤاخضة طفيفة، أو تظاهرتم بالنفرة وعدم الرضاء عن سيره فيكم وجهرتم بذلك، لرأيتم أن ماءه سراب، وسحابه جهام، وسيفه كهام، وأوقفتم سيره، واستعلتيم بقوتكم على ضعفه، وأقمتم للدول حجة قوية في كبحه ورد جماحه، وإلزامه باحترام الحقوق العامة والخاصة، ونزع قوة العمل من يد استبداده، ونحويلها لسلطة تحفظها الموازنة بين حقوقكم وحقوق أوربا كافة، أما لو تركتم عدوكم حتى ينتهي لقره، ويقوى على أمره، ويدوخ السودان، ويحيط بجيوشه أعالي البلاد المصرية «لأن الله ذلك» صعب بعد هذا تعريفه بقدره، وإيقافه عند حده، وضعفت حجة الدول في معارضته إن أقوم حجة للدول عليه هي عجزه عن القيام بما كتب على نفسه من تقرير الراحة واصلاح ما كان يظن من الخلل في مصر، فلو تمكن عدوكم بسكونكم من اظهار قدرته، وإقامة الدليل على كفاءته للولاية عليكم، فقد فاز بالسيادة فيكم، وأصبحت دماؤكم وأموالكم وجميع شئون حياتكم في قبضة جوره

في امكانكم الآن أن تضروا بعدوكم وليس في امكانه أن يضر بكم، فاذا مضى زمن انعكست القضية، وأصبحتم في عجز عن مقاواته، وأصبح وفي يده عصى الجبروت لا ذلالكم، ان كنتم تخفون من الموت أو التذليل فهل هو الآن على بعد منكم؟ أليس يؤخذ منكم الارباء بالشبه الباطلة وسها نون ويدلاون، وكثير منهم يقتلون؟ ان عدوكم هذا سيحاسبكم على خطرات قلوبكم، وحركات دمائكم في أبدانكم، كما فعل ويفعل باخوانكم في ديار غير دياركم، ثم لا يبقى على أحد منكم. فانتم اليوم أصحاب أمركم، وهذا قصده اليكم، وفي امكانكم أن تستعينوا الله في التحصن من خطر آجل،

بدون ضرر عاجل ، فان شئتم فارحموا أنفسكم ، والا فانتم ساقطون فيما منه تخافون .
يا قوم يؤثر في كتبكم من كلام سلفكم : الشجاع محب حتى لعدوه ، والجبان
مبغض حتى لأبيه وأمه ؟ تعلمون انه ما عز قوم بالخضوع ، ولا استهين شعب بالاباء ،
لماذا تعدون أنفسكم في الدرجة الدنيا عن سواكم ؟ ألستم تتشابهون في الحلقة مع
أعدائكم ؟ ألستم تمتازون عنهم بالآيمان الصادق ؟ والعقائد الصحيحة ؟ ألستم
تنتسبون الى أولئك الابطال الذين دوخوا البلاد وسادوا العباد ؟ ألستم تدعون
انكم أشرف عنصرآ ؟ وأكرم جوهرآ ؟ فان قتم بطلب حقوقكم فهل يصيبكم أكثر
مما يصيب أعداءكم ؟ ان كان الموت فهم يخشونه ، ان كان الحسار فهم يرهبونه ،
(انهم يألمون كما تألمون . وترجون من الله ما لا يرجون)

لأني شيء يخاطر عدوكم بماله ودمه لتغلب على ما ليس له ؟ ولأني سبب
لا تقدمون بشيء من شهامةكم في حفظ ما هو لكم ؟ ان هذا شيء عجاب . هل
نذكركم بقول شاعركم :

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يرق على جوانبه الدم
ليس هذا مقام التذكير ، وليس المكان مكان المباراة في المجد والمسابقة الى
معالي الامور . انما الكلام الآن في الدفاع عن الحياة وصيانة ضروريات العيشة ،
فان لم يستفزكم طلب العلاء وسمو الهمم ، فليستفزكم تصور الشقاء المنتظر ، الذي
رأيتكم بوادره ، ونعوذ بالله ان تدر ككم أواخره .

استغفر الله لا تزال ترجى فيكم النجدة والشمم والرفعة . لا يزال دينكم
يتربص منكم حمية عليه وغيره لدفع الغائلة عنه . ان صاحب الدين ﷺ ينتظر
فيما يعرض عليه ، من أعمالكم نهضة لاعلاء كلمة الحق وإنقاذه من مخالف أعدائه ،
وان الله في عزة جبروته لن يدعكم على ما أنتم عليه حتى يعلم الصادقين منكم
ويعلم الصابرين (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله * ولا تتبعوا خطوات الشيطان
انه لكم عدو مبين * ولا تمنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلن ان كنتم مؤمنين) اهـ

[المؤلف] هذه آخر ما نشر في العروة الوثقى ونشر قبلها مقالة كأنها نار
جهنم سمعرا ، وتفيظا وزفيرا ، وحسبنا هذا النموذج التمثيلي ، لذلك العمل التاريخي .

مسألة السودان

وسياسة الحكيمين فيها

قدم في ترجمة السيد جمال (ص ٢٨) إشارة إلى ما كان يقصده من العمل في السودان هذا نصها

« وأما ما قصد اليه من العمل في السودان فقد كان السمي اليه مع الاستاذ الامام في لندرة أيام كانا يصدران العروة الوثقى بعد الاحتلال، فقد عطا أمر محمد احمد القائم بدعوى المهديّة بالسودان في نفوس الانكليز، وكان لهما يدان فيما يرسل من مصر والسودان إلى انكلترة من الاخبار، حتى أقنما الحكومة الانكليزية باخلاء السودان وكتبت في ذلك معاهدة أو اتفاقية ما حال دون امضائها إلا بحجىء البرق بنبأ وفاة محمد احمد » وقد كان لهما من المساعي في مسألة السودان وتهديد السبل إلى العمل فيه بعد ترك

الدولة الانكليزية له مالا فائدة في بيانه . ومجدقاري . كتب الاستاذ الامام إلى بعض أعضاء جمعيتهم التي كانت تعرف بجمعية العروة الوثقى اشارات في بعضها الى بعض ذلك كما يرى في الرقيم ٦ من كتبه الاصلاحية (راجع ص ٤٩٠ و ٤٩١ من الجزء الثاني) * اه
هذا ما كتبه في هذه المسألة عند البدء بتدوين هذا التاريخ عقب وفاة

الامام وكنت عازما على الاختصار عليه لعدم الحرية التي كانت تسمح بالتوسع فيه، ثم بدا لي أن أزيد الآن فأقول : يرى القاري، في فاتحة العروة الوثقى ان مسألة دعوى المهديّة في السودان كانت ركنا من الاركان التي يعتمد عليها الحكيمان في حل الانكليز على ترك السودان والخروج منه بما عظم من أمر هذه الدعوة وما كانا يتوقعان من استغلالها إذا استفحل أمرها، وقد تكرر في العروة الوثقى ذكر هذا الموضوع، وانني أذكر هنا بعض الشواهد منها في ذلك لما فيها من الفوائد التاريخية والادبية وآيات البلاغة، ثم أوضح ما كنت أشرت اليه من ذلك السمي

(* هذا الرقيم للطبعة الاولى وقد نفذت نسخها وطبع طبعة ثانية يقع الرقيم

المذكور في ص ٥٥٥ منها

الشاهد الاول

في مقالة نشرت في العدد الاول الذي صدر في ٥١ جمادى الاولى سنة ١٣٠٤ (١٣ مارس سنة ١٨٨٤)

سياسة انكلترة في الشرق

هلع على مافي البيت فهرع لاغلاق الباب فالتلع المصر اعوانقض الجدار من ورائه هذا شأن دولة بريطانية في الهند وقنال السويس . قصارى بغيتها أن تكون حي أمن على هذا الباب ، وكان سهلا عليها أن تخلص النية في مسألة أرباب الولاية عليه فيقومون بارواحهم وأموالهم ، ثم هي تفوز بفوائده إلى الابد الا أن جيشان الاوهام ، وموحشات الاحلام ، دفعتم المباشرة حمايته بنفسها ، فحاذ الامر أصعب من أن ينال ، وأساس البيت أوهى من أن يدوم أرادت انكلترة بعد تبوؤها أرض مصر أن تدخلها تحت حمايتها ، وأن تبدل العساكر الوطنية بانكلتزية ، (١) وأن تقيم في السودان سلطنة مستقلة ، وحاولت في ذلك إرضاء المصريين بأنه صار من الضروريات لتنظيم أحوالهم ، واقرار الراحة بينهم - وتسكين دوع العثمانيين بحفظ الحق وتخفيف الوزر ، وكان لكل أن يستبشر بهذه الخدمة الجليلة ان تمت لولا مالدولة انكلترة من تقسيم الممالك التيمورية في الهند ، وإقامتها لكل قسم حامية من قبلها ، وكان هذا أكبر الاسباب وأصغرها لاستيلائها على الاقطار الهندية وانا لنأسف على التفاوت بين الزمانين ، والتباين بين المكانين ، فلا الاحسان الانكليزي يسهل تميمه ، ولا العثمانيون والمصريون يستبشرون بنيله ، وخطر الامر من غير يسير

(١) الفصيح في مثل هذا التركيب المشهور ان يقال : وأن تبدل العساكر الانكلتزية بوطنية ، لأن الباء تدخل على المبدل منه لا على البديل كقوله تعالى (ومن يبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل) ولكن جرى الاستاذ على التمييز المشتهر بين الناس وفي الجرائد

ظهرت دعوى المهذوية في السودان ، واشتد أزر القاثمها بمسارعة الانكليز الى التدخل في مصر بحجة حفظ باب الهند ، وعظم خطب الداعي بعد مأراق دماء غزيرة ، ودبت روح دعوته الى سواحل البحر الاحمر وحدود مصر الطبيعية ، وأماتت القلوب اليه نفرتها من السلطنة الانكليزية

يقرب من الظن أن نفثاته مازجت أفئدة العرب في فيافي طرابلس أو قاربت وان هذه النيران التي يشعلها بالبكاء على الدين والنواح على امتنانه لانتلبث أن تنقض شرارة منها على جزيرة العرب وفيها يصعد عويل الدين ونحيبه إلى عنان السماء . وعند ذلك يسمي باب الهند بين السنة النيران من ثلاث جهات . أيبعد عند العقل وبريطانية لاهية بانقاذ الباب أن تنقد النيران في البيت ؟ الخ [المؤلف] ذكر بعد هذا في المقالة شيء من عمل غوردون في السودان وبقيتها إنذار بزحف الجيوش الروسية على الهند ، ورسم طريق الزحف من الشمال وذكر اقبال التي في هذا الطريق ومذاهبها وأساليب استمالتها وقد تقدم بيان هذا في محله

الشاهد الثاني

انتصار السودانين على الجيوش الانكليزية (*)

وتأثيره في ضعف هيبتهم الوهمية

أشدها كانت هيبة الانكليز وملكتها على قلوب الشرقيين قبل تكتيب الكتاب وعقد اللوية وسوق المعسكر لما قاتله عثمان دجه على أميال من سواحل البحر الاحمر كان يحيل للسودانيين بل يلبس اعتقادهم أن القوة الانكليزية مما فوق الطبيعة ، وعن مثلها تصدر خوارق العادات ، وكان من ظنون الشرقيين في أقطار آخر ان غرائب القدرة البريطانية بلغت مبالغ السحر ، تدهش الالباب وتحير العقول ، واذا خلج في صدر أمة صغيرة او كبيرة لبعدها عن مركزها أن تغالبها على حق ، او تناوئها في مرغوب ، انشقت الارض وانفطرت السماء

(*) ماخص المقالة الافتتاحية للمدد الرابع والعنوان لنا

عن كآة من الانكليز يصبون عليها أسواط العذاب ، وبذيقونها أليم الوبال ،
ويخلعون الارواح من الابدان ، خصوصاً اذا كان مغالبوهم لا يحملون من السلاح
إلا نوعاً من الصنع القديم مما كان يستعمله أبناء نوح بعضهم في مدافعة بعض
إلا ان هذه الدولة العظيمة ألجأتها حوادث السودان ان تسوق جيشاً للابقاع
ببعض العرب في نواحي سواكن فتحركت الجيوش المنظمة لملاقاة عثمان ورجاله ،
وبنى القوادى في الزحف قلاعاً (مربعات) من المسكر الباسلة مدرعة بلوأم^(١)
من حراب البنادق (السنج) مسيجة بالآلات الجديدة من صنع رمنتون وهنري
مارتين على اجود طراز يكون منه ، وحصنها بآراج من المدافع لاندانيتها من
سكان تلك القفار قوة ، ولا تسمو اليها منهم قدرة

لكن قوة اليقين أو تحكم الجهل دفع على الصنوف الانكليزية جماعة من
عراة العرب وحفاتهم ، فهدموا قلاعها ، وتقصوا بنيانها ، وقوضوا أبراجها ، وبعد
تدافع وتصادم ، وتقدم وتأخر في موقعتين عظيمتين كره الانكليز إلى سواكن
(ساحل البحر) وأخلوا ساحات القتال ، وتقهقر العرب إلى الجبال ، وعج
الانكليز « غلبنا وانتقمنا » !

ماذا أثرت هذه الغلبة المعجبة في نفوس السودانيين ؟ ثبتت أقدامهم ، وقوت
جأشهم ، وجمعت كلمتهم ، وذهبت بما كان يخامر قلوبهم من الهيبة والرعب ، فجمعوا
قواهم واستعدوا للقتال مرة ثالثة ، فحرموا السوء البخت أو حسن الحظ من ملاقات
خصومهم ، لان شدة الحركة كانت من أعدائهم — إلى أن قال —

وما حل بغوردون قد أسقط من شأن الانكليز وقوتها في أقطار السودان
عموماً وجعل كلمتها هي السفلى وبعث على الاعتقاد بأنه إحدى كرامات محمد احمد
ولا حول ولا قوة إلا بالله

خطب يعقوب خطباً ، وكرب يحدث كرباً ، هذه الصدمات المتتالية كشفت
بعض الستار ، وشف بها الحجاب ، وأحدثت هزة في قلوب الهنديين ، فكشروا

(١) اللوأم كعرا ب هي التي يلائم بعضها بعضاً من قولهم سهم لأم : لاريش لوأم
أي متلائمة بوضع بطن كل قذة منها إلى ظهر الأخرى. استعمله في الحراب بدل السهام

التوابون والرجوات^(١) عن أنيابهم ، ومدوا سواعدهم ينظرون إلام تطول ، ويراجع كل واحد نفسه ويمنيها بقرب الخلاص من ضيق الاستعباد ، ويلمح الفرص من خلال هذه الحوادث

انتشرت أخبار المصائب التي حلت بالجيش الانكليزية من مصيبة (هكس) إلى ما بعدها في جميع أرجاء الهند ، وترى الناس زرافات وفرادى يتناجون في هذه المسألة ، ويرجعون على أنفسهم باللائمة فيما فرطوا من قبل ، وهم على ربوة من الامل ، يستطلعون سوانح الفرص ، خصوصاً المسلمين منهم — كما أنبأتنا به الرسائل الواردة اليانا من أقطار مختلفة من البلاد الهندية ، ونفان ان الدولة الانكليزية وعماد قوتها الايهام والتغريب يصعب عليها بعد الآن أن تعيد منزلتها الاولى في نفوس الشرقيين

(وهنا حرض الدولة العثمانية على الاخذ بالحزم وقوة العزم في مسألة مصر والسودان ودين لها ان هؤلاء الانكليز الذين لا يعاملونها إلا بالتهديد والارهاب لنيل أغراضهم لا يمكن أن يشهروا عليها حربالما يعلمون من محبة مسلمي الهند لصاحب السطة الاسلامية ويوقنون بان ذلك مقبوض لسلطتهم في الهند لأول وهلة ثم قال) الاعتقاد بمحمد احمد أخذ سيلا الى قلوب الهنديين حتى كتب اليانا أحد أصدقائنا في لاهور : ان محمد احمد لو كان دجالاً لا أوجبت علينا الضرورة ان نعتقه مهدياً ، وأن لا نفرط في شيء مما يؤيده (ثم ختم المقالة بالنصيحة المرادة منها فقال) فما آخر الحيل ؟ أيكتمنى بحفظ القتال مع ترك القتنة يسري لهيها إلى مصر العليا بل إلى السفلى ؟ اني أخشى كما يخشى العقلاء من شيع هذه الدعوى وكثرة المعتقدين بها أن يلم منها ضرر بدولة انكلترة وبكل من له حق في مصر ، فعلى الانكليز كما نصحننا مراراً أن يصونوا بلادهم ويحفظوا طريق الهند بتفويض الامر إلى العثمانيين وأولي العزم من المصريين قبل فوات الوقت — وإلى الله ترجع الامور اه

الشاهد الثالث

أمانى انكثارة في حركات محمد احمد (*)

صرح اللورد غرانفيل في مجلس اللوردات بان المقاومة الشديدة التي لاقوها من قبائل العرب ورئيسهم عثمان في سواحل البحر الاحمر لم يكن القصد منها إلا الرغبة في تمكين سلطة محمد احمد في البلاد السودانية يريد من هذا انه لم يحماهم على الثبات والتمسك على الموت عدوانهم للانكسار ولا طمعهم في توسيع الفتح وانما كان الحامل هو الدفاع عن شوكة محمد احمد في السودان خاصة . وهذا من اللورد إما غفلة أو تغافل عن لواحق دعوى المهذوية بل لوازمها التي لا تفك عنها ، فان القائم بهذه الدعوى لا يقف في سيرة عند غاية ، ولا يقنع بملك ، وانما يريد بسط دعواه في أقطار العالم ، واخياء الاوامر الالهية التي جاء بها صاحب شريعته الذي يدعي النيابة عنه في تبليغها وصيانتها في نفوس الناس كافة ، وسواء كان صادقا في دعواه أو كاذبا . فلن يتم له أمر ولن تتمكن له سلطة في بقعة من بقاع الارض سودانا كان أو مصرآ أو غيرها من البلدان إلا يتقدمه الى ماوراءها ، حتى يعلي كلمة دينه ، ويرد الى الحق من انحرف عنه ، ويكون له التصرف التام في قلوب المسلمين ، ويأخذ منها مكانا عليا يشرف منه على مطامح دعواه في غيرهم من الامم ، وسواء يسر الله له النجاح في ذلك أو باء بضده ، هذا لا كلام لنا فيه الآن . ولكننا نتكلم في الخصائص الطبيعية لهذه الدعوى العظيمة ، وبعد الوقوف على ماينبأ يسقط من النظر قول اللورد غرانفيل في مجلس اللوردات ان حكومته لم يرد لها خبر بمحماها على الخن باستعداد محمد احمد لقبول إمارة كوردان والاكتفاء بها ولا يعلم هل قبول محمد احمد لتلك الولاية يكون حجابا بينه وبين التقدم الى سواها ، فقد علمت أن محمد احمد لم يتم بدعوى الملك ، ولا طالب حقا له في الامارة كان

(*) مقالة وجيزة نشرت في العدد الرابع أيضا

يرثه عن آبائه وانما قام بدعوى لانهاية لاطرافها إلا عند حدود السطوة الاسلامية فليس يكافي. قوة دعوة اسلامية إلا عزم اسلامي . ولن يكافح هذا المدعي ويرده الى قدره إلا رجال مسلمون . يدافعون الدعوى بما يقوى على اضعافها أو محوها . فان لم يرد الحكومة اللورد خبر الى الآن عما ذكره فليطمئن قلبه لعدم وروده في المستقبل ولا نظن خبراً يأتيه إلا بنقيض ماتوهمه نسأل الله حسن العاقبة بعد تحرير هذه الاحرف جاءت الاخبار مصدقة لما قلنا ففي تلغراف من مكاتب التيمس في خرطوم أن ثلاثة دراويش جاؤا مرسلين من قبل محمد احمد الى الجنرال كوردون وأرجعوا اليه علامات الشرف التي كان بعث بها الى مرسلهم . وبلغوه أن محمد احمد برفض لقب أمير كوردفان وينصح الجنرال أن يدخل في دين الاسلام فهو خير له

الشاهد الرابع

(في مقالة عنوانها (السودان) نشرت في آخر العدد السابع الذي صدر في ٤

رجب (أول مايو)

(بنيت هذه المقالة على أخبار تواترت ونشرتها الجرائد الانكليزية والفرنسية بقرب سقوط مدينة بربر في يد محمد احمد وشروع حاكمها المصري في اخلائها، وانضمام بعض العساكر المصرية المنظمة الى محمد احمد - وسريان الثورة في جميع القبائل وأهالي البلاد فيما وراء بربر ، وعدم امكان الانكليز من ارسال جيش انكليزي الى السودان إلا بعد أربعة أشهر مع عدم رضاهم بارسال جيش مصري ... ووصول مكثوبات إلى ضباط الحامية المصرية في أسوان من زعماء الثورة يندرونهم بها اخلاء المدينة . . . وقول جريدة الطان : اذا اجتمعت قوة محمد احمد عند الشلالة الاولى فلا بد حينئذ أن ينظر في كيفية الدفاع عن القاهرة ثم ختم هذه المقالة بما أودع مثله في غضونهما فقال)

هذا الذي كنا نتوقعه ونخشاه من قبل وأشرنا اليه مراراً جلته الحوادث

ونظمت به الجرائد الفرنسية والانكليزية ، ولم يبق إلا التفات تلك الجرائد الى دواء هذه العلة وعلاج هذا الداء الذي كاد يكون عضالا ، وتنبه حكوماتها للنظر في ذلك بعين الدقة والتبصر ، وترشدها الى أن العلاج الذي ليس وراءه علاج ، إنما هو تسليم الامر لذوي الحق فيه والعارفين بطريقه من المسلمين ، وسنراها بعد أيام تتبع السبيل المستقيم اه

الشاهد الخامس

(في مقالة نشرت في العدد العاشر الذي صدر في ١٠ شعبان (٥ يونيه) بعد استيلاء السودانين على بربر مختصرها بما يلي) :

السودان ومصر

نشرت جريدة (البوسفور اجسيان) التي تطبع في القاهرة خبراً ذكره توفيق باشا نفسه وهو ان الجنرال (غوردون) توعد حكومته الانكليزية بانها إن لم تدمه بجيش ينقذه من الضيق الملم به فانه يرفض الدين المسيحي ويدخل في دين الاسلام ، وضمت جريدة البوسفور صحة هذا الخبر العجيب (كذا وصفته الجريدة بالعجيب)

وغرابة الخبر إن كانت من جهة انه تهديد بما لا يهم الحكومة فنحن نعلم أن الانكليز يفرغونهم خروج أحد منهم عن دينهم ، وإن كانوا يرشدون الناس الى ترك الدين ويعيرون على المستمسكين به ، ولكنهم أشد الناس تعصبا فيه فلا محل للغرابة — وإن كانت من جهة ان غوردون وهو من أشد قومه تمسكا بدينه كيف ينجح الاسلام ، فهو انكليزي الطبيعة كما هو انكليزي الجنس ، يتلون ظاهره بأي لون ويبرز في أي ثوب لاصابة غرضه مع المحافظة على ما طبع الله على قلبه فلا عجب ان قال وفعل (١)

(١) ليعتبر القارىء بانقلاب الحال فان الانكليز يدعون في هذه السنين الى قصير السودانين احياء لذكرى غوردون ويتخذون جميع الوسائل له

(نم قال) جاء الخبر ان أهالي جرجا في هياج شديد يشبه أن يكون ثورة وورد الى تلك المدينة رجل من أشياع محمد احمد قادما من القاهرة ودعا الاهالي للأخذ بطريقته فاذا بينهم جم غفير يحيب داعيه ، ويذهب مذهبه ، وهو مما يدل على ان القائم السوداني مهم بنشر دعوته ، محتاط لنفسه حاذق في عمله ، وله دعاة في ارجاء الديار المصرية حتى في عاصمتها (القاهرة) فان ثبت في هذا السير حل بالحكومة المصرية منه ما كنا نخشى أن يقع بها ويشتد الخطب ، ولربما صار له بقوة ميل الاهالي اليه منعة يصعب على حكومة غير اسلامية أن تقارعها أما ما ذيل به خبر الهياج في جرجا من وجود عداوة بين المسلمين من أهاليها وبين المسيحيين فهو مالا نصدقه ولا ينطبق على الواقع ، لان الايام السابقة شاهدة على حفظ كل من الفريقين ذمام الآخر في جميع الاحوال التي عرضت على بلاد مصر . المسلمون والمسيحيون فيها على وفاق تام في جميع نواحيها . والمقاتل التي وقعت أيام الحرب النقصية انما كان منشؤها افساد الفسدين ، على انه لم يمس فيها قبطني بسوء . والاخبار الصحيحة تؤيد ما نقول

الشاهد السادس

(من مقالة افتتاحية نشرت في العدد الثالث عشر)

(موضوع هذه المقالة الطويلة اثبات عزم الانكليز على امتلاك مصر وتحرير الدولة العثمانية على القيام بما يجب عليها من العمل لاجراهم منها . ومما جاء فيها بشأن مهدي السودان مانصه)

وليس من المبالغة أن نقول إن حلول الجيش الانكليزي كان وسيكون من أعظم الاسباب لقوة محمد احمد ، ولولا وجود العساكر الانكليزية في مصر لما تمكن الرجل من الجهر بهذه الدعوة ، ولقد كان يتبرأ من نسبتها اليه أيام كانت الحكومة المصرية خالصة للمصريين ، بل ما كان يجد أحداً يلبي دعوته ، أو يدخل تحت رايته

هذه توارى بخ الامم وهذا سير طريفة الكائنات ترشد المستبصرين الى ان مثل هذه الدعوة لا يقوم قائمها في أمة إلا عند اشتداد الخطوب عليها ، وزحف الغرباء اليها أي حجة لمحمد احمد في دعوة الناس اليه ؟ وأي نفثة تجمع القلوب عليه أقوى من أن يقول ان الانكليز من نيتهم الاستيلاء على أرض مصر وهي في عداد الاراضي المقدسة وباب الحرمين الشريفين ومهد العلوم الدينية ، ودعامة القوة الاسلامية ، فمن كان يؤمن بالله ورسوله فليجب داعي الله في مدافعتهم . واتقاذ البلاد من رجسهم ؟ وهذا الكلام مما يزعج قلب كل مسلم ويبعثه على الاتفاق مع صاحب النداء

هل يتوهم بمد سقوط خرطوم وجيش الانكليز حال بأرض مصر أن تقف دعوة محمد احمد عند تخوم محدودة وهو الزاعم انه منقذ المسلمين ؟ هل يبعد عند العقل أن يمتد لياق^(١) شعنته إلى أقطار اسلامية يخشى الانكليز منها غائلة الفتنة كما يخشونها في الهند ؟

قد نرى الحالة أقرب الى المخافة منها الى الامن ، وسيعلم الانكليز انهم أحوج الناس الى السلم ، وأقصرهم الى القناعة أي قوة تقف هذه الدعوة وتحجبها عن الانتشار ، بل تردها على قائلها وتذهب بها كأن لم ينطق بها لسان ، أو يذعن لها جنان ؟ ليس لقوة أن تأتي بهذا الاثر على أحسن وجوهه إلا قوة العثمانيين ، وأولي العزم من المصريين اه المراد منه

﴿ إيضاح غرض الحكيمين من سياستهما في مسألة السودان ﴾

بيننا أنه كان للحكيمين غرضان من سياستهما في المسألة المصرية والمسألة السودانية كما أنه كان للانكليز غرضان فيهما . أما غرض الانكليز الاكبر فهو امتلاك مصر والسودان معا والتوسل بذلك إلى امتلاك شطر افريقية الشرقي من الاسكندرية الى رأس الرجاء الصالح ، فان تعذر ذلك واضطروا إلى ترك مصر اكتفوا باخذ

السودان وحده وهو الغرض الآخر ، وانتظروا الفرص لجعله وسيلة لاخذ مصر
وأما غرض الحكيمين الاول فهو اخراجهم من مصر والسودان معا بما شرحتنا
من الوسائل لذلك ، والسعي أخيرا الى اقناعهم بترك السودان بتكبير شأن
دعوى محمد احمد للمهدوية ، حتى اذا تعذر ذلك وتم لها هذا ذهابا إلى السودان خفية
ونظما فيه قوة محمد احمد توسلا إلى انقاذ مصر بها ، وتأسيس دولة قوية يعترف بها
الاسلام والشرق ، وتتحرر شعوبها من الرق

وقد قلنا انهما كانا قد وقتلا لاقتناع الدولة البريطانية بسحب جيوشها من
السودان وتركه لاهله ، وانه ما حال دون تنفيذ ذلك الاموت محمد احمد ، وأشرنا
الى ترك الاستاذ لأوربة بعد الاضطراب الى ترك إصدار العروة الوثقى بالتشديد
في منعها من مصر والهند ، وانه دخل مصر مستخفيا بعد أن ألم بسورية وتونس ،
وكان غرضه الاول التمهيد فيها للذهاب الى السودان على أن يتبعه السيد جمال الدين
اليه اذا نجح في سعيه له

كان آخر عدد صدر من العروة الوثقى وهو الثامن عشر مؤرخا في ٢٦
ذي الحجة سنة ١٣٠١ (الموافق ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤) وبعد تركها انفراد
السيد جمال الدين بالسعي المراد من مسألة السودان واننا نوضح هنا ما أشرنا اليه
قبل من دخول الشيخ محمد عبده في مصر وهو ما في بعض مکتوباته السرية إلى
بعض أعضاء جمعيتهما (العروة الوثقى)

قال في المکتوب الاول من الباب الخامس من منشأته (١) بتاريخ ٧ جمادى
الاولى من هذه سنة ١٣٠٢ ما نصه بعد كلام :

« فتأملت من الامر الجديد أن أكون على مقربة من الصوضاء ، ومسمع من
النداء ، وأمل الله ينهض بالقول هما أو يكشف بالبيان جهالات ، فتعرف أنفس
ما ادخر لها من العمل ، وتلاحظ أنصار مادنا من الامل ، وتنبعث عزائم لتناول
ما حضر لديها ، وابرار ما كمن فيها ، فعناية الله بأسطة أكفها اليهم ، رافعة صوتها
عليهم ، وهم في غشية من الجهل لا يصافحونها ، وغطيظ من الغفلة لا يسمعونها .

هذا ما اندفع بي الى بلاد أستمين الله فيها على تجديد عهوده ، والتوقيف عند حدوده ، عسى أن يتواصل المتقاطعون ، ويتناصر المتخاذلون ، وما توفيقي إلا بالله ، وما اعتمادي إلا عليه ، فكانت أوقاتي من فراقك في أسفار ، واليوم سكن بي قرار ، واني بعد طوافي ببلاد أكتب اليك اليوم من

بلاد بها علق الشباب تمني وأول أرض مس جلدي ترابها
غير انه لا يراني فيها إلا المحلصون ، ولا يعرفني فيها إلا العارفون ، وإن لك بينهم ذكرا يليق بهمتك ، ومكانة تجدد بها عزيمتك ، وقد أبلغت (السيد) من خبر صنيعك ما وفر لك شكره ، وأخلص لك سعيه . الخ
(وكتب الى آخر من الاعضاء في هذا التاريخ نفسه من مصر وهو المكتوب السادس من هذا الفصل مانصه :)

قد يكون لك ظن فيما أبطن بي عن مراسلتك هذا الزمن الطويل من فراقك ، وحاشا ان يكون تساهلا في الحق ، أو ثقافلا عن فريضة الود ، وإنما هو أرقط الحوادث وثب على أوقاتي فزقها ، وغول الكوارث انبسط فيها فضيةها من يوم فارقتك الى الآن .
« ذهبت الى باريس فاعدت أن تلقيت من الرأي الجديد أن المحوجة المشرق ، حيث مسيل الحادثات ، ومخرق الذاريات ، فمرت على بلاد كثيرة منها مدينة (تونس) عملت في جميعها على إحكام العروة وتمكين عقودها . ثم أصعدت بعد ذلك الى بلد خلعت به عذار شيبتي وطرحت في كف الخطوب عناني وأنا فيه أتعرف الوجوه ، وأتذكر للعيون ، وأسأل الله نجاح العمل ، وإقبال الامل .
— الى أن قال —

« واذا رأيت فنبهته ان قوة الاتحاد في الجنوب ، أفرغت قوة النيران في الشمال ، وان نيران القلوب ، أذابت مدافع الكروب (وما النصر إلا من عند الله) يؤتية الصادقين ، ويوليهِ المحنّصين (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) أما والله ان غلب المسلمون عن تفرق وتخاذل فلن يغلبوا عن ضعف وقلة الخ
(يقول المؤلف) وحسي بهذين التصريحين شاهدين على ما قلت

هذا وان محمد أحمد توفي في رمضان من تلك السنة (١٢٨٢) وكان الجيش المصري والانكليزي المساعد له في أسوأ الاحوال، وقد عقد الجنرال غرانفيل بعد موته هدنة مع السودانين مدة ثلاثة أشهر في كسلا وفي ٢٠ ذي الحجة منها أعلن تسليم حامية كسلا بعد حصار أكلوا فيه لحم الحمير ، ولسنا في حاجة الى بسط حال السودان في ذلك الوقت لاننا لانكتب تاريخ السودان وانما نشير اليها من بعد لئلا يستغرب بعض قراء تاريخنا تمكن السيد جمال الدين من اقناع الحكومة البريطانية في عاصمتها بترك السودان بعد ما أذاعه في الهند وسائر المشرق من تعليق الآمال بدعوة محمد احمد والتهديد به لثورة اسلامية عامة

العبرة في هذه السياسة

العبرة التي يجب أن تمثل لقراء هذا التاريخ ان السيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده قد جاهدوا في سبيل انقاذ مصر والسودان من الاحتلال البريطاني جهاداً لم تسم الى مثله همة أحد من أمراء هذه البلاد وعلمائها وكبرائها ولا همة غيرهم من العثمانيين وسائر المسلمين والشرقيين، ولم يكن في قدرة غيرهما أن يعمل مثل عملهما . ولكن كان في قدرة كثيرين ممن ذكرنا أن يساعدهما بالمال وغير المال في هذه السبيل . ويعلم الواقفون على تاريخ مصر في هذا الطور الاخير أن كل ما كتب في جرائد مصر وغيرها في المسألة المصرية الى هذا اليوم لا يعد شيئاً مذكوراً في جانب ما كتبه الشيخ محمد عبده في العروة الوثقى بارشاد أستاذه السيد جمال الدين الافغاني ، وان كل سمي عملي لذلك كان وما زال دون سمعهم . فليحفظ القاري ما أوردنا من الشواهد في هذا المقصد الى أن يجيء الكلام في خطة الاستاذ الامام الاصلاحية في مصر وعلاقته بأميرها واصحاب جرائده

خاتمة هذا المقصد

آفة الشرق أمراؤه والمستبدون

وزعماءه المرشدين

و مرشدوه الجاهلون

نختم الكلام في خدمة الامامين الحكيمين للاسلام والشرق فيما فاضت به حكمة الأول على بلاغة الثاني في جريدة العروة الوثقى بهذه الحقيقة التي وضعناها هذا العنوان ، فلقد كان الناس غافلين عنها فييناها لم يبلغ البيان ، وشر مقاسد هؤلاء الامراء والزعماء في هذا العصر غرورهم بالاجانب الطامعين في بلادهم ، ولو عثروا لم تكن حقيقتها من عقولهم ، وولفقهوها لرست عبرتها في قلوبهم ، ولما تكررت في مشرق العالم الاسلامي ومغربه تلك الرزايا التي انتزعت ممالكهم من أيديهم ، ومن العجائب انها لا تزال تتجدد ، ولا يزال مدعو الايمان يلدغون من الحجر الواحد مرارا كثيرة ، وقد قال رسولهم فيما صح عنه « لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين » رواه البخاري ومسلم

فلا عجب اذا فيما يصدر عن ملاحظة المسلمين الذين لاحظ لهم من حكمة الاسلام وهدايته الصادتين عن هذا الفساد ، ورضاهم بأن يكونوا أعوانا للاجانب على استعمار البلاد ، وهذا ما لا تزال نشاهده في كل عام (أولا يرون انهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون) ؟

طرقت العروة كل باب من أبواب هذا الموضوع ففتح لها ودخلت منه فلم تدع في زوايا خبيثة الا واستخرجتها

انشأت له مقالات خاصة ، وجعلته مضرب الامثال في المقالات العامة. وقد ورد فيما أثبتنا من الشواهد بعض هذه الامثال والاشارة الى بعض تلك المقالات ونأتي في هذه الخاتمة بشواهد وأمثال أخرى وهي

المثال الأول

﴿ استيلاء الانكليز على ممالك الهند بمساعدة أمرائها ﴾

(قال من مقالة افتتح بها العدد الثامن موضوعها طرد الانكليز للجيش المصري وتأليف جنس صغير تولوا قيادته)

دمر الانكليز (دخلوا بلا استئذان) على الهنديين في أراضيهم ، وانابو بينهم ، فتمكنوا من تفريق كلمة الامراء ، واغراء كل نواب أوراجا بالاستقلال . والانفصال عن السلطة التيمورية ، فتمزقت المملكة الى ممالك صغيرة ، ثم أغرو كل أمير بآخر يطلب قهره والتغلب على ملكه ، فصارت الاراضي الهندية الواسعة ميادين للقتال ، واضطر كل نواب أوراجا إلى التقود والجنود ليدافع بها عن حقه . او يتغلب بها على عدوه ، فعند ذلك تقدم الانكليز بسعة الصدر وانبساط النفس ، ومدوا أيديهم لمساعدة كل من المتنازعين ، وبسطوا لهم إحدى الراحتين بيد الذهب . وقبضوا بالآخرى على سيف الغلب . بدؤا قبل كل عمل بتنفيذ أولئك الملوك الصغار من عساكرهم الالهية ، ورموها بالضعف والجبن والخيانة والاختلال ، ثم أخذوا في تعظيم شأن جيوشهم الانكليزية وقوادها ، ومأم عايه من القوة والبسامة والنظام ، حتى اقتنع كل نواب أوراجا بأن لا ناصر له على مغالبه إلا بالجنود الانكليزية ، فأقبل الانكليز على أولئك السذج يضمنون لكل صيانة ملكه ، وفوزه بالتغلب على غيره ، بجنود منتظمة تحت قيادة قواد من الانكليز ، ويكون بعض الجنود من الهنديين ، وبعضها من البريطانيين ، وما على الحاكم الا أن يؤدي نفقتها ثم خلبوا عقول أولئك الامراء بدعائهم وبهرجة وعودهم واين قائلهم ، حتى أرضعهم بأن يكون على القرب من عاصمة كل حاكم فرقة من العساكر لتدفع شر بعضهم عن بعض ، وصار الانكليز بذلك أولياء المتباغضين ، وسموا كل فرقة من تلك الجنود باسم يلائم مشرب الحكومة التي أعدوها للحماية عنها فرقة سموها (عرية) وأخرى سموها (جعفرية) وغيرها سموها (كشتية) أرضاء لاهل السنة والشيعة والوثنيين

كيف خدع الانكليز أمراء الهند حتى استولوا على بلادهم بمساعدتهم ٣٨٥

ولما فرغت خزائن الحكام وقصر بهم الثروة عن أداء النفقات العسكرية فتح الانكليز خزائنهم وتساهلوا مع أولئك الحكام في القرض ، وأظهروا غاية السماحة ، فبعضهم يقرضون بفائدة قليلة ، وبعضهم بدون فائدة ، وينتظرون به الميسرة ، حتى ظن كل أمير أن الله قد أمدّه بأعوان من السماء . وبعد مضي زمان كانوا يومثون الى طلب ديونهم بغاية الرفق ، ويشيرون الى المطالبة بنفقات العساكر مع نهاية اللطف ، فإذا عجز الأمير عن الاداء قالوا إنا نعلم أن وفاء الديون والقيام بنفقات الجنود يصعب عليكم ، ونحن ننصحكم أن تفوضوا الينا العمل في قطعة كذا من الارض نستغلها ونستوفي منها ديوننا ، وننفق من غلاتها على الجيوش التي أقمناها لكم ، ثم الارض أرضكم ردها اليكم عند الاستيفاء والاستغناء ، وانما نحن خادمون لكم ، فيضمون أيديهم على غضروات الاراضي وفيحاشها ، وفي أثناء استقلالها يؤسسون بها قلاعاً حصينة ، وحصوناً منيعة ، كما يفعلون ذلك في ثكن [أما كن إقامة العساكر] عساكرهم على أبواب العواصم الهندية .^(١)

وفي خلال هذا يفتحون للامراء أبواباً من الاسراف والتبذير ، ويقرضونهم ويقتضون قرضهم بالقيام على أراض أخرى يضعونها إلى الأولى ، ثم يحضون نار العداوة بين الحكام لتنشب بينهم حروب فيتدخلون في أمر الصلح ، فيجبرون أحد المتحاربين على التنازل للآخر عن جزء من أملاكه لينتازل لهم الثاني عن قطعة من أراضيه ، وهم في جميع أعمالهم موسومون بالخادم الصادق والناصح الأمين ، لكل من التغالين ، وبعد هذا فلهم شؤون لا يهتمون بها في إيقاع الشقاق بين سائر الاهالي لتضعف قوة الوحدة الداخلية ، ويخرب بعضهم بيوت بعض ، حتى إذا بلغ السير نهايته ، واضمحلت جميع القوى من الحاكم والمحكوم ، وغلت الأيدي فلا يستطيع أحد حراكاً ، ساقوا الحاكم الى المجزرة بسيف تلك العساكر التي كانت حامية له واقية لبلاده ، وكانت تشخذ لجزعته من سنين طويلة وينفق على صقالها من ماله ، ثم خلفوه على ملكه

وكانوا يميلون بقوتهم الى أحد أعضاء العائلة المالكة ليطلب الملك ، فيخلمون (١) وكذلك يفعلون الآن في البلاد العربية التي يريدون أن تكون هنداً ثانية

الملك ويولون الطالب، على شريطة أن يقطعهم أرضاً أو يمنحهم امتيازاً، فيحولون الملك من الاب لابن ومن الاخ لاختيه، ومن العم لابن اختيه، وفي النكل هم الراجون. هذا سيرهم في الهند وهو على بعد من مراقبة أوربا. ما فاجؤا أحداً بحرب، وما اختطفوا ملكاً بقوة مغالبة، بل ما أعلنوا سيادتهم على مملكة صغيرة ولا كبيرة إلا بعد ما أيقنوا أن لا قوة لحاكمها ولا أهلها، ولا بما تطرف به أجفانهم أو تلك الانكليز باقعة العالم، وأحبال الحيل، يريدون اليوم طرد العساكر المصرية، وأرض مصر لا تحرسها الملائكة، فلا تستغنى عن حامية، فإن تم لهم ما أرادوا زينوا لبعض ذوي السلطة في مصر أن يطلب منهم جنداً انكليزياً يكون خادماً له وحافظاً للملك، فإن لم يقبل داروا بحيلهم تحت أستار التوبة على كل من له حق في الولاية على تلك البلاد، يعرضونها عليه حتى يعثروا بمن يقبل نصحتهم أو غشهم ذهبوا عن حقيقة القصد، فيقيمونه حاكماً خلفاً لمن لم تسمح ذمته بالقبول، وتكون رغبة المغرور حجة لهم عند أوربا. هذا سر انقلاب الانكليز على الجند الوطني وقدهم في سيرته بعد الشاء على حسن استعداده، وسعيهم إلى طرده بالادلة الواهية، والعلل الواهنة

المثال الثاني

(استعباد الاجانب للامم بقوة رؤسائها)

(مقالة نشرت في العدد العاشر وهي التي أشرنا إليها في ص ٢٣٠ ثم حدث من الحوادث العامة ما اقتضى نشرها في هذه الخاتمة)

ان في ذلك لعبرة لاولى الابصار

كيف يمكن لقوة أجنبية تصول على أمة من الامم ان تسود عليها وتستعبدها وتذلها للعمل في منافعها مع التخالف في الطبائع والعوائد والافكار ووجود المقاومة الطبيعية، فضلاً عن الارادية ؟ ان الوحشة المتمكنة في نفس كل واحد من الامة، وظن كل فرد أنه في خطر على روحه وماله اذا غلبه الغالبون، تحمله على

المدافعة عن أمته، كما يدافع عن بيته وحرمة، فلا يتسنى للقوة المغيرة أن تذلل الامة إلا بافنائها عن آخرها، أو افناء الأغلب حتى لا يبقى إلا المعجزة والزمنى، هذا أمر طبيعي وحكم بديهي متى كانت الغارة على الامة

نعم يسهل للقوة الاجنبية ان تغلب على أمة عظيمة بدون تناحر إن كان لهذه الامة حاكم أو رئيس روحاني يجتمع عليه قلوبها وتدين له رقابها، لمنزلة له في افئدة ابنائها، ولمكان آبائه من الكرامة في نفوسهم. فلا تحتاج القوة الغالبة الا الى إيقاع الرعب في قلبه فيجبن ويقبل ما تحكم به. أو نصب حباله الحيل له فتخدعه بالاماني والآمال فيذعن لما تقضي به. فاذا خضع للقوة الغريبة خضعت الامة تبعاً له. ولهذا ترى طلاب الفتح وبغاة الغلب ينصبون قبل سوق الجيوش وقود الجنود على قلوب الامراء وأرباب السيادة في الامة التي يريدون التغلب عليها، فيخلعونها بالتهديد والتخويف، أو يملكونها بالخدعة وزين الاماني، فينالون بغيتهم ويأخذون اراضي الامم

وهذا الطريق هو الذي سلكه الانكليز مع السلطان التيموري في الهند، ولولا ما كان للهنديين من عقدة الارتباط بسلطانهم التيموري وقبض الانكليز اول الامر على تلك العقدة لما تيسر للبريطانيين ان يخضعوا الامم الهندية في احقاب طويلة.

هذه قبائل الافغان عند ما انحلت ثقتها بأمرها وصار الامر الى الامة قامت كل عشيرة بل كل فرد الدفاع عن نفسه بعد ما عمئت عساكر الانكليز في قلاعهم وحصونهم، واستولت على قاعدة ملكهم، وفكوا بالمساكر الانكليزية وهزموا قوتها وأجلوها عن بلادهم، وهي ستون الفا من الجيوش المنتظمة مسلحة بالاسلحة الجديدة، واضطر الانكليز أن يتركوا تلك البلاد لأهلها

لا ريب انه يسهل على الانسان ان يأخذ شخصاً واحداً أو اشخاصاً محصورين بالترغيب والتهديد، ويتيسر له ان يقف على طباعهم، ويدخل عليهم من مواقع أهوائهم، ويأتيهم من أبواب رغائبهم، لكن يتعسر بل يتعذر عليه أن يأخذ أمة بتمامها وعقولها مختلفة عالية، ونفوسها في وحشة منه، اللهم إلا بالابادة والتدمير

من هذا تجد الملوك العظام لا يرهبون الاشتباك في حرب مع أقتالهم^(١) بل ومن هو أشد منهم قوة ، ولكنهم يفرقون^(٢) بل تذهب أفئدتهم هواء إذا أحسوا بميل الامة عنهم ، وما هذا الا لان قوة المغالين داخلية تحت الضبط، وأما آحاد الامم وقواها فلا تضبط ولا تستطاع مقاومتها، إذا تعاصت وشحت بنفسها عن الذل لسواها ان الامراء كما يكونون في دور من أدوار الامة قوى فعالة لنموها وعلوها وعظمتها واشتداد عضدها ، كذلك يكونون في بعض أطوارها علة فاعلة في سقوطها وهبوطها وانحلالها ، وإنا نخاف ولا حول ولا قوة الا بالله أن يكون أمراؤنا والأعلن منا آلة في اضمحلاننا وفنائنا لما غلب عليهم من العرف والانهبك في اللذائذ والانكباب على الشهوات مع سقوط الهمة وتغلب الجبن والحرص والطمع على طباعهم ، فانا لله وإنا اليه راجعون اه

المثال الثالث

رأي العروة الوثقى في معاقبة الامم الامراء والرؤساء الذين يكونون أعوانا للأجنبي عليها (قال في آخر مقالة وجيزة موضوعها الامة وسلطة الحاكم المستبد ووصف فيها حال الامة مع الحاكم المستبد المصلح الحكيم وحالها مع المستبد الجاهل اللاحق المتبع للهوى — مانصه)

عند ذلك ان كان في الامة رفق من الحياة وبقيت فيها بقية منها ، وأراد الله بها خيراً، اجتمع أهل الرأي وأرباب الهمة من أفرادها وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة واستئصال جذورها ، قبل أن تنتشر الرياح بزورها وأجزائها السامة القاتلة بين جميع الامة فتميتها ، وينقطع الامل من العلاج . وبادروا إلى قطع هذا العضو المجذوم قبل أن يسري فسادة الى جميع البدن فيمزقه . وغرسوا لهم شجرة طيبة . أصلها ثابت وفرعها في السماء . وجددوا لهم بنية صحيحة سائمة من الآفات (استبدلوا الخبيث بالطيب) وان انحطت الامة عن هذه الدرجة

(١) أي أمثالهم (٢) يفرقون يخافون فهو كبير رهبون وزنا ومعنى

وتركت شؤونها بيد الحاكم الابله الغاشم يصرفها كيف يشاء . فانذرهما بمضض
 العبودية ، وعناء الذلة ، ووصمة العار بين الامم . جزاء على ما فرطوا في أمورهم .
 (وما ربك بظلام للعبيد) اهـ

[المؤلف] خلاصة هذا الارشاد ان الامم لا ترجى لها سيادة ولا سعادة ولا
 حرية ولا استقلال إلا اذا عرفت نفسها ، وجمعت كلمتها ، وكان أمرها بيدها ،
 وكان حكامها خدما لها ، فمن أحسن خدمة أمته بالنصيحة والاخلاص كفافته ،
 ومن خانها أو أساء اليها عاقبته ، ويجب عليها ألا تولي شيئا من أعمالها لأحد من
 المفتونين بحب الرياسة على قاعدة الاسلام : طالب الولاية لا يولي . وقال الخليفة
 الاول (رض) في أول خطبة خطبها بعد مبايعته : ولت عليكم ولست بخيركم
 فاذا استقمتم فاعينوني ، واذا زغت فقوموني »

كانت هذه الحقائق مجعولة عند قراء العربية قبل بيان العروة الوثقى لها
 ففسح العبارات وأقواها تأثيرا ، ثم رأوا مصداقها في مصر وتونس ثم في المغرب
 لا قصى ، ثم في البلاد العربية الاسيوية ، فآفة الشعوب الجاهلة المتفرقة أمراؤها
 و رؤساؤها وزعمائها ، ويليه من دونهم من المتفرجين الذين يتخذ منهم الاجنبي
 السائب لاستقلالها صفار العمال لكل ما يحتاج اليه من عمل في إدارة حكومتها ،
 لا ياتي بالاجنبي أو لا يوجد في أفراد من يكفي للقيام به ، ومن قواعد سياسة
 الاجانب انهم لا يستخدمون في حكومة البلاد التي ترزأ بسيطرتهم عليها إلا من
 يعمون بالاختبار الدقيق أنه مخلص لهم ولو في خيانة بلاده ، وقد سبق في العروة
 الوثقى ان الانكليز لو وجدوا في بلاد الافغان عند ما دخلوها محاربين واحتلوا
 عصمتها (كابل) أمثال هؤلاء الرجال الذين يعرفون لغتهم ، وقد فتنوا بهرج مدينتهم ،
 خرجوا أو يخرجوا من الهند ، ولكنهم وجدواهم وغيرهم في بلاد أخرى من
 بلاد البلاد ولا يزالون يجدون من لولاهم لم يستقر لهم قدم ، ولم يرفع لهم علم ،
 ومن من يعقل ويفهم ؟؟



المقصد الثاني من الفصل الخامس

عمد في سورية

لما عاد الاستاذ الامام الى بيروت وألقى فيها عصا التسيار ، وتصدى للتعليم والارشاد ، كنت طالب علم بطرابلس الشام ، وكنت قد عرفت شيئا من قيمته ، بل كنت داعية له وللسيد الافغاني ، ولكن لم أتمكن من الرحلة اليه والتلقي عنه في المدرسة السلطانية ، وقد زار طرابلس في تلك الايام واتفق لي فيها معه مجلس واحد في المدرسة الخاتونية اذ جاءها لرد السلام على الاستاذ الشيخ عبدالله البركة أحد العلماء المتخرجين في الازهر وكان عرفه من قبل ولم يكن الاستاذ موجودا بل كنت فيها مع أحد الطلبة نذاكر دروسنا ، فتلقينا الامام بالحفاوة والاحلال ، وقدمنا له شرابا مثلوجا فشرب ، وطقق يسألنا عن طالب العلم وأساليب التدريس للعلوم التي تدرس عندنا ، وتوليت إجابته دون رفيقي . ومما سألنا عنه تفسير القرآن هل يدرس للطلبة ؟ قلت لا وإنما يقرؤه رجل واحد للعوام ويعز فيه بالقصص الاسرائيلية والخرافات الصوفية إذ يقرأ تفسير روح البیان لاسماعيل حقي الصوفي وسألته أي التفاسير أنفع لطلبة العلم ؟ قال الكشاف . قلت ولكن فيه كثير من نزغات الاعتزال . قل تلك مسائل معروفة لا تخفى على طالب التفسير الواقف على أقوال الفرق ومذاهب السنة فيها وإنما فضله لدقته في تحديد المعاني ونكت البلاغة بعبارة الدقيقة المختصرة ثم قلت له أما علم الاخلاق فقد اندرس فليس له طاب ولا مدرس . قال نعم واندرس معه الدين ، فأكبرت هذا الجواب وكبر شأن الرجل في نفسي لاني كنت شديد العناية بكتب الاخلاق ولا سيما احياء العلوم

وانني أذكر هنا ما وصل اليه علمي وخصته في ترجمة الاستاذ التي نشرتها في المنار إثر وفاته (١) وأقفي عليها بفصل كتبه لي تلميذه النجيب السيد عبد الباسط

(١) قد استفدت بعض ذلك أولا من تلميذه محمود افندي الكحيل الطرابلسي

ثم من غيره ولا سيما من كلفتهما ان يكتبوا لي ما يعلمان فيما يلي

فتح الله رحمه الله وفصل آخر كتبه تلميذه الامير شكيب حفظه الله
نص ما كتبت في المنار (ص ٤٦٢) من المجلد الثامن معطوفا على الكلام في عمله في أوربة
وبعد الاخفاق في ذلك العمل السري ، دون ذلك الهدي النبوي ، ألقى
عصا السير في بيروت أعظم ثغور سورية وأقربها من العمران ، فأقبل عليه أهل
العقل والفضل ، وأرباب الذكاء والنبل ، يستفيضون منه غيث سماء الحكمة ، ويتلقون
هدي الحكماء والأئمة ، فكانت داره مدرسة عامة يؤمها الأذكياء وعشاق المعارف ،
من جميع الملل والطوائف ، ومما كان يقرأ عليه فيها السيرة النبوية ، على صاحبها
أفضل الصلاة والتحية ، وكان يقرأ التفسير في الجامع الكبير وفي جامع الباشورة
لا يلتزم فيه كتابا ، وإنما يقرأ في المصحف ، ويلقي ما يفيض الله على قلبه وكان الناس
يقبلون على درسه إقبالا لم يعرف في تلك البلاد لاحد من قبله ، حتى حسد النصارى
عليه المسلمين ، فكانوا ينسلون اليه زرافات ووحدانا ، ويقفون بباب المسجد يمدون
أعناقهم ، ويشخصون بأبصارهم ، ويصيخون بأذانهم ، لهمم يلتقطون شيئا من تلك
الدرر . ثم إنهم استأذنوه في دخول المسجد والجؤوس في ناحية من حلقة الدرس
فأذن لهم « فأجره حتى يسمع كلام الله »

وفي أول سنة ١٣٠٣ دعي إلى التدريس في المدرسة السلطانية لآحياء اللغة
والدين فيها فلبى ولم يكن في المدرسة من العلوم العربية الامبادى والنحو والصرف
وما تسميه الترك « علم حال » وهو ما يلقن للولدان من أحكام العبادات فلما
دخل المدرسة أدخلها في طور جديد كما كان شأنه في عامة أعماله : يدخل في العمل
مرسوما فيكون في الواقع رئيسا . ذئك انه أصلح إدارتها بالاتفاق مع مديرها ،
ووضع قانونا جديدا (بروجرام) للدروس وزاد في العلوم التوحيد ومعاملات
الفقه والتاريخ الاسلامي والمنطق والمعاني والانشاء ، زادها لنفسه فكان هو الذي
يدرسها حتي كانت دروسه تستغرق عامة النهار . وكانت دروسه كلها للتلاميذ
على نحو ما ذكر في رسالة التوحيد « أمالي مختلفة تتغير بتغير طبقاتهم ... في
أسلوب لا يصعب تناوله ، وان لم يعهد تناوله » الا معاملات الفقه فكان يقرأ
فيه مجلة الاحكام العدلية ، التي يحكم بها في المحاكم العثمانية . وكان يكلف تلاميذ الانشاء

حفظ شيء من نهج البلاغة وديوان الحماسة والالفاظ الكتابية ويشرح لهم. وكان لهم عظيم وعناية تامة بملاحظة آداب التلاميذ في المدرسة (١) حتى انه كان يزورها لئلا أجل ذلك وقد تخرج على يديه نابتة هي الآن تخدم البلاد بغيرها واستقامتها، وعرفاتها ونبايتها، ثم انه في سيرته كان مرييا للجماعير الذين يترددون عليه، فقد كان يجلس اليه السني والشيعي والدرزي والنصراني واليهودي فيوسع صدره للجميع ويعامل كل واحد بالأدب الذي يليق به، لا يؤذي جايسا، ولا يغمط فضلا مذكرا ولا منظر، على أنه لم يكن يقول غير ما يعتقد سواء كان القول في الدين أو في العلم أو في العادات والامور الاجتماعية، فكان رضي الله عنه نسخة كاملة من رجل سلفنا في التسامح والتساهل وجمع الكلمة واحترام العلم وأهله كما وصف في كتاب (الاسلام والنصرانية) وقد أدهش أهل الفضل بعلمه وأدبه وبلاغته لاسيما في الخطابة الارتجالية التي لم يكونوا يعهدونها

وكان هناك يشتغل بالتأليف فقد نقل إلى العربية رسالة الرد على الدهريين أو المقابلة بين الايمان والكفر في العمران التي كتبها السيد جمال الدين باللغة الفارسية. وشرح كتاب نهج البلاغة ومقامات بدیع الزمان الهمداني. وقد أقبل الناس على هذه الكتب وانتفعوا بها حتى انها طبعت مرارا. وكان يكتب المقالات النافعة في الجرائد وسنشر ما عثرنا عليه منها في تاريخه (٢) ولم يكتب بهذا الاصلاح المعنوي بل كان يسعى لدى الحكومة في اصلاح البلاد الاداري فوضع في ذلك لائحة قدمها للوالي وسنشرها في تاريخه أيضا (٣) وكتب لائحة أخرى في الاصلاح الديني وقع عليها بعض الوجهاء وقدمت بواسطة الوالي الى السلطان (٤) وكان قد جال في أرجاء الولاية واختبرها ثم الاختبار اها ما نشرناه في المنار

(١) اخبرني محمود اقدي الكجبل انه لما طبع ديوان الميفاتي الطراباسي في تلك الاثناء أرسلت اليه نسخة منه فرآه الاستاذ بيده فآخذه منه فوقع نظره على بيت يصف فيه الردف بقوله لا يرتقى الا لتصب سلما * فاستمر وجهه وألقاه بعيدا قائلا : أملاك ينظر في هذا ؛

(٢) راجع الفصل الرابع ص ٣٤٢ من الطبعة الثانية للجزء الثاني (المشآت)

(٣) راجع ص ٥٢٦ منه (٤) ص ٥٠٥ منه وهذه هي الاولى

سيرة الاستاذ الامام في بيروت

بقلم تلميذه وخريجيه النابغة المصلح السيد عبد الباسط فتح الله رحمه الله تعالى

لما غلقت أبواب الهند دون « العروة الوثقى » وفات بذلك جل الغرض من تحريرها ونشرها عاد الاستاذ الامام الى بيروت التي كان اختارها داراً لاقامته مدة بعده عن الوطن، واتخذ له بيتاً في ضاحيتها طلباً لنقي الهواء، واجتناباً للمجامع التي قد تذهب بسلامة الوحدة وراحتها من غير جدوى. إلا ان بعد المقر لم يمنع نور العلم من الانتشار، كما ان العزلة لم تحبس نشر الفضل عن التفتيح في ارجاء الاقطار، بل كان منزله في بعده عن مدار الحركة، وارتفاعه عن مجالات القوم، أشبه بالمنائر تنصب في أعالي الاطراف، فيبتدي بشعاعها الساري ويطمئن اليها الوافد الحيران.

أنى رحمه الله بيروت وهي تتمخض بمجھيض النهضة العلمية الاسلامية التي كان ألقاها اليها مدحت باشا إذ أسس فيها جمعية المقاصد الخيرية بيدي مريده النبيه رائف باشا (متصرف بيروت لذلك العهد) فأنشأت الجمعية مدارس للذكور والاناث في كل حي من أحياء المدينة، ثم سمت بها الهمة بدافع الحاجة الى انشاء مدرسة عالية داخلية، فافتحت « المدرسة السلطانية »، وكان ذلك بعد نجة مدحت باشا وأيام ولاية حمدي باشا — وحدي باشا هو الذي مديده لمساعدة الحامل على الوضع فعجل لها الاجهاض.

ودرى بمقدم الاستاذ الامام نفر من أعضاء تلك الجمعية النبهاء فاقبلوا عليه ففهم عبق فضله، وبهرهم نور علمه وعقله. واذا كانوا في حاجة الى أستاذ يدرس في المدرسة «السلطانية» بعض العلوم الدينية والعربية على طريقة تلامم روح العصر الذي يفيض على الطالب باستيعاب معلومات جمة في أوقات وجيزة، ذكروا له حاجتهم ورغبوا اليه أن يتسلى عن غربته بخدمة مليه هو أعرف الناس بجليل فائدها. فلبى دعوتهم ودخل المدرسة في مبتدأ سنتها الثالثة عام ١٣٠٣ هـ. ولم يكن يدرس

فيها من تلك العلوم الا مباديء النحو والصرف مع شيء من فقه العبادات وقوانين الدولة، فوضع جدولاً جديداً للتدريس أخذ على عاتقه منه علوم التوحيد والمنطق والمعاني والانشاء والتاريخ الاسلامي والمعاملات من الفقه الحنفي، وذلك للصف الاول والثاني حتى لقد كانت تستغرق دروسه في بعض الايام ساعات النهار بتمامه . ومن الغريب ان نشاطه في آخر درس لم يكن يقل عن نشاطه في الدرس الاول، بل كان يرى في تزايد ما تناقص النهار، وكانت دروسه كلها على نحو ما ذكره في مقدمة رسالة التوحيد وأماله يلقها على الصفوف كل بحسب حاله واستعداده «في أسلوب لا يصعب تناوله وان لم يعهد تداوله» ماعدا فقه المعاملات فانه كان يقرأ فيه كتاب (مجلة الاحكام العدلية)

ولما تفتقت اذهان التلامذة وارتقت مداركهم قرأ لهم في علم الكلام قسماً من اشارات ابن سينا وفي المنطق «كتاب التهذيب» واستمر على الاملاء في التاريخ والمعاني . وجرى في الانشاء على شرح ما يستظهره التلامذة من كتاب الالفاظ الكتابية «ونهج البلاغة» و «ديوان الحماسة»

لم تمض على هذا المنوال الشهور الاولى من السنة حتى دخلت المدرسة في طور جديد لم تكن تعرفه من قبل، وما كان إدراكه في تلك البرهة اليسيرة لأحد من عمدتها بالحسبان : كان يجد التلامذة المدرسة حبساً يقضون عامهم في توقع الانفراج وتمني الانطلاق، وكانت لانمضي الايام الاولى من السنة المدرسية التي تستغرق عادة في تنظيم الصفوف وترتيب المضاجع واعداد اللوازم وتأتي أيام العمل، إلا رافقتها السآمة تبدو على النواصي والملل يتولى النفوس . وما كان يحظر لأحد أن ينظر في أسباب ذلك أو يبحث له عن دواء ، بل كان يظن أن هذه الحال هي من لوازم المدارس الداخلية ومن مقتضى طبيعتها .

دخل الاستاذ الامام رحمه الله المدرسة معلماً ولكن نفعة لم ينحصر في التعليم كاشمس تطلع مضيئة ولكن نفعا الخفي في العوالم الحية وتأثيرها في انتظام الكون بأسره لو دريت أجل وأعظم — جال جولة في مناحي الادارة المدرسية وطرق التلاميذ، فوقف على نواقصها وصعابها فاشتملها بنظر حكيمته فأكمل الاولى وذلك

الثانية، وصارت المدرسة وكأنها غير المدرسة، وأصبح علمها وكأنه غير علمها في مدة من الزمن لم يألف التصور حصول مثل ذلك في مثلها .

خالط مدير المدرسة ومعلميها وكانت همهم تقف عند القيام بالوظيفة قياما آليا ، وأنظارهم تنقطع لدى الغاية القريبة من ضبط هيئة التلامذة وتحفيظهم أشياء من قواعد العلم الحافة . فسا بهمهم الى أفق أعلى من التربية الاخلاقية ، ورمى بأنظارهم الى غرض أنبل من مآثر العلم في ترويض النفس البشرية ، فأعظموا إذ ذاك شرف مهنتهم، وجدوا في إدراك مآلذهم من كمالاتها، وما لبثوا أن حمدوا صراهم، وقد تبدلت سامة تلامذتهم بهجة بدت علي وجوههم ، وقام فيهم النشاط والرغبة في العمل، مقام الملل منه والكسل، وغدا الاستاذ هو لا يخرج من درس، إلا ليدخل في مذاكرة أو بحث . والعلمون والتلامذة حافون من حوله يلتقطون منشور درره، ويحنون طيب ثمره . وهو يتلقاهم بمحياطلق، وصدر رحب، متنزلا في محادثتهم الى متناول عقولهم، متلفظا في ارشادهم وتفهمهم، حتى تغفل حبه في خلايا قلوبهم، وصاروا يتلذذون برؤيته في غدوه ورواحه وخطراته فيما بينهم . اللهم إلا كسلان او شرس . فان برق لحظاته كان يخطف ابصارهم ، ورعد زواجره يرعد فرائصهم ويخلم افئدتهم، وبدا لتلك الغرامس انقضة ازاهر دونها نور الربيع، وتفتحت اكمامها عن نثر ييزري بينات المحار، وشعر دون منظومه قلائد العقيان، مع صحة في المبادي، ونباله في المقاصد، وتهدؤ لخدمة الملة ، ورغبة في عمل الخير، مما اعظم العقلاء الفضل فيه لصاحبه، وان تميز اكفاف البصائر من العيظ .

ولما انقضت السنة المدرسية وجرى الاحتفال بنحتمها قام احد الادباء وسأله على مسمع من المحتفلين وكانوا زهاء الالف أن يخطبهم في موضوع يختاره، فدهش الناس لهذه الجرأة ولم يسبق لهم عهد بسماع الارتجال، في مقام لا يقف فيه واقف إلا بعد المبالغة في الاستحضار والاستعداد، ولكن وقفة الاستاذ الامام على ما حفه الله به من السكينة وجلالة الهيئة، أزالا وحدها تلك الدهشة، واندفع تخوض في موضوع جليل يمكن أن يعبر عنه بمثل هذه الكلمات « علة تأخر الشرق مع وجود بعض الاسباب لتقدمه في الظاهر »

فاستغرق كلامه من الوقت ساعة ونيفا حتى اختتمته مخافة الاملال بالاطالة
وسامعوه يودون لو لم يسكت ذلك النهار .

ومما يذكره بعض تلامذته من صفات نفسه العظيمة انه لما توفيت زوجه
الاولى وترك له بنت نفاس وليس في بيته أنثى تقوم بعبائنه، وهو في دار غربة،
رمي بمحنة، ووضعي نكبة، أصابه غم قطعه عن التدريس أياما، وأكبر الاصحاب مصابه
واضطربت له المدرسة، فلما استأنف الحضور تحير التلامذة كيف يقابلونه، وبأي
لسان يعزونه ويخاطبونه، فما هو إلا وقد دخل عليهم فسلم وجلس والكل مطرقون
منصتون، لا يدرون ماذا يقولون ولا ما يصنعون؟ فبادرهم بقوله أظن ان النوبة نوبة
الانشاء، فتلجلجت الالسنه ولم تب، فخل عقدها بقوله اكتبوا وأملى عليهم :
تَمَرُّ قَاتِ الصَّبْرِ بِالْجُرْ أَجْمَلٍ . وليس على ريب الزمان معول

حتى أتى على آخر القصيدة ثم أنشأ بشرحها على عادته في مثل ذلك الدرس،
فأدرك التلامذة انه يلقي عليهم في صورة الدرس المعتاد، درسا أبعد مرعى وأسمى
غاية في الحكمة العملية والاخلاق .

هذا وكانت امه غير على المدرسة لا يعرف قدرها إلا المحاصون، فكان اذا اتفق له
أن مر بها ليلا لا يغادرها دون أن يدخلها ويتفقد شؤونها، حتى لم يطق البعد عنها،
فتبرك منزله في « برج أبي حيدر » ونزل منزلا يقرب منها في « رقاق البلاط » يسهل
عليه اتيانها المرة بعد المرة وفي الاوقات المختلفة، حسبما تقتضيه ساعات الدروس
غير ان ارادة الله الانتقامية في هذه الامة لم تشأ أن ينمق لعملة العزة
المرجوة، إذ ان إزهار المدرسة وفلاحها أشعل نار الحسد في قلوب جماعة من رجال
« العسكرية » على مديرها (١) الذي صار له بفضل الاستاذ وحكمة تديره من النبالة
والسان الصدق في الناس، ما لم يرضه له أولئك الاوغاد، فسعوا به فبدلوه بآخر
تباهيل اللطافة بالخشونة، والخصافة بالرعونة، وجاء خلفه فغير وبدل واضطرب نظام
المدرسة فضلت نهجها القويم وغايتها المثلى، وغلت يد الجمعية عن العمل، وفارق
(١) هو الاستاذ المرحوم الشيخ أحمد عباس رحمهما الله، والظاهر أن أولئك
الرجال من مبغضي العرب من الترك . . .

المدرسة معناها المرسوم فيما تقدم ، فاستقال الاستاذ وقد اصبح العمل ضرباً من العث، وفي غضون ذلك جاء نياً تبدل الوزارة النوبارية بالرياضية، وتلاه بعد قليل صدور الاذن الحديوي له بالعود الى دياره المصرية .
هذا ما يتعلق من سيرته في بيروت بالمدرسة الساطانية ، وأما بقية اوقاته فلم تكن تذهب سدى :

لما ظهر من فضله مظهر، واشتهر من علمه وعمله ما اشتهر، تسابق الناس الى معرفته، وتنافس العقلاء من اهل العلم والوجاهة والادب والنباهة في خطبة مودته، وسأله الكيسون ان يجعل لهم حظاً من الفائدة فاجاب سؤلهم ، وخصص ثلاث ليال من الاسبوع يفسر لهم فيها آيات القرآن الكريم في جامع الباشورة على مثل منهاجه (الخير) في الازهر، هذا عداء عصر يات رمضان من كل سنة، فنسل الناس الى اجتماع درسه من كل حذب، ولم يرض النباه من المسيحيين أن يفوتهم ذلك الحظ العظيم، فكان يقف فريق منهم في باب الجامع الدمري على مقربة من حلقة الاستاذ ، ولكن ازدحام الحاق في الداخل وضوء السوق في الخارج كانت تحول دون مشتهام من الاجتماع، فشكوا اليه ضيق صدورهم من ذلك واستأذنوا أن يقفوا لدى الباب من داخل المسجد فأذن لهم. وكذلك تقطروا أفواجا لاستماع درس المجلة (١) وفيهم الشاب عن طوق التلذذة، وصاحب الاشغال التي لا تسمح له بالانتظام في سلك المدرسة، ولا تسمح قوانينها بقبوله، ولكنهم ألحوا حتى رخص لهم في حضور الدرس في الايام المعينة فقط، ومنهم من حضر درس التوحيد أيضاً .
وأما بيته فكان كمدرسة مطلقة تأوى اليه الفئة المتنورة من كل ملة ، فكثيرا ما كنت ترى طلاب الفوائد وفيهم من نعت بالعلامة يقيدون في دفاترهم شوارد الحقائق، ويدونون في صحفهم أو ابد الدقائق، التي كانت تأتي على لسان الاستاذ في غضون الحديث ، وفي ليالي رمضان كان يستقرى، خصيصاً له من تلاميذه (٢) السيرة النبوية على مسامع س الزائرين مدة ساعة من بعد العشاء، ابتعاداً عن الافو الذي يقضي فيه المتسحرون ساعات الليل حتى السحور ، وقرأ في بعض الايام لطائفة

(١) أي مجلة الاحكام العدلية (٢) هذا التلميذ هو الكاتب لهذا الفصل

من طلبة العلم درساً في المنطق: وقرأ أيضاً لتلميذ له (١) بمضا من « قسم الكلام » من كتاب التهذيب

وما خلا من أوقاته عن شغل في تدريس، أو حديث في مؤانسة جليس، كان يملؤه إما بكتابة الفصول المتنوعة التي كانت تدعو إليها المناسبات الزمنية، أو ملاحظاته الحكمية، ومن تلك الفصول ما تربو قيمته في النفع على كثير من المجلدات، وفي ثمرات الفنون غير واحد منها (٢) وإما بتأليف تمس إليه حاجة طلاب العلم وروام الأدب، أو يرى فيه فائدة للدين

فترجم أثناء إقامته في بيروت « رسالة الرد على مذهب الدهريين » لوليه الحميم الحكيم السيد جمال الدين الافغاني وصدرها بمجمل من سيرته، وشرح « نهج البلاغة » لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ومقامات بديع الزمان الهمذاني، وكتب رسالة مسهبة في اصلاح التعليم الديني وجه بها الى المشيخة الاسلامية عندما بلغه عزم الدولة على شيء من ذلك (٣) هذا تعدا عن الاجوبة والرسائل الخصوصية التي ما كانت تخلو من فائدة عمومية أو شخصية

وقد رحل خلال تلك المدة الى بيت المقدس ودمشق الشام وبعلبك وطرابلس وتجول في انحاء لبنان وهو كيفما رحل وأينما حل ينتهز الفرصة لنفع الخلق عامة، مولياً وجهه شطر غرضه السامي النبيل من نشر العلم الصحيح ونصرة الدين المين، ورفعته المسلمين.

وهو وان لم ينج في بيروت من أذى المشاغبين إلا أنه كان يحبها، ويتوسم الخير في ناس من أهلها. وان أثر فضله فيها لا ينمحي ما تواصلت عقول تدرك الحق، وتماطفت قلوب تحس بحسن الصنيع.

جزاه الله أحسن ما عمل بمنه وكرمه اه

(١) هذا التلميذ هو الكاتب لهذا الفصل نفسه أيضاً رحمه الله

(٢) يننا في حاشية سابقة مكان هذه المقالات في الجزء الثاني من هذا التاريخ

(٣) يننا في حاشية سابقة مكانها في فصل اللوائح من منشئاته في الجزء الثاني أيضاً

نبذة ثانية من سيرته في بيروت

بقلم تلميذه ومريده أمير البيان الأمير شكيب أرسلان

منذ حادثة سني كنت أقرأ الجرائد . ولما حدثت الحادثة العراقية سنة ١٨٨٢ بمصر كنت ابن اثنتي عشرة سنة فكنت أتبع وقائعها، وأتحرّق عند ضرب الانكليز للاسكندرية ونزولهم وتقدمهم في القطر المصري ، وأحسب حساب بقائهم فيه . وعند ما انتهت الفتنة وشرعوا في محاكمة الذين حاكمهم ونفّوهم الى خارج القطر ، قرأت في أخبار المحاكمات نص يمين قيل انها من انشاء الشيخ محمد عبده . وكانت هذه أول مرة سمعت فيها هذا الاسم ، أما نص اليمين فرأيت فيه أسلوباً عالياً غير الذي كنت أعده ، ولم أكن يومئذ بالذي يقدر أن يعرف مرآيا الانشاء ولكنني كنت أميز منها العالي من النازل بمحض الشعور ، فوقع في نفسي شيء من هذه اليمين ، ورأيت ان منشئها الشيخ محمد عبده ليس كغيره من المنشئين الذين نعرفهم . ثم نفي العراقيون الى خارج القطر سنة ١٨٨٣ فورد منهم بيروت الشيخ محمد عبده و ابراهيم افندي اللقاني وعدد من ضباط الجيش المصري أحفظ من أسمائهم مصطفى بك عبدالرحيم وأحمد بك عبدالغفار وحسن بك جاد ومحمد بك الزمر وخضر بك وغابت عني أسماء الباقيين وكلهم بين أميرالاي وقائمقام وقائد ألف . وكنت في ذلك الوقت أحصل العلم في مدرسة الحكمة . ولما دخلت سنة ١٨٨٥ قرأت في مجلة الطيب التي كان ينشئها الشيخ ابراهيم اليازجي والدكتوران بشاره ذلزل و خليل سعادة خبر صدور جريدة في باريس اسمها « المروة الوثقى » من قلم السيد جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده . وكنت بدأت أسمع باسم الافغاني وكانوا يقولون ان أديب اسحاق هو من أخذوا عنه ، وفي هاتيك السنة توفي أديب اسحاق واهتز عالم الادب لموته ، وكنا أصبحنا يومئذ في المدرسة مغرمين بأخبار الكتاب والشعراء والادباء لاهمنا شيء أكثر من هذا ، فكنا نرى الدنيا كلها نظماً وثرّاً ، وكان كل ما خرج عن الانشاء

والشعر والادب لانكاد نقيم له وزنا . فلما سمعنا ان أديب اسحاق كان يفترف من بحر الافغاني صرنا في شوق زائد الى معرفة الافغاني نفسه والى معرفة تلميذه ورفيقه الشيخ محمد عبده .

ولم تمض أشهر حتى سمعنا ان الشيخ محمد عبده عاد من باريز الى بيروت . وكان أهل الفضل في سورية بدأوا يعرفون قدره ، وكثر تردد الناس عليه ولهجهم بذكره ، ومرة زارنا في المدرسة الاستاذ الشيخ سعيد الشرتوني صاحب أقرب الموارد فسألته عنه فقال لي : هذا الرجل اذا تكلم يخرج النور من فيه . فازداد تشوقنا الى معرفته . وفي أواخر سنة ١٨٨٦ جرت حفلة بمدرسة الحكمة كان الاستاذ الشيخ محمد عبده من جملة المدعوين اليها . فهذه أول مرة شاهدته فيها ، وبعد ذلك شاهدته في احتفال آخر السنة بالمدرسة الكلية الامريكانية ، وكان معه الشيخ عبد القادر افندي القباني صاحب جريدة « نمرات الفنون » وأحد أعيان بيروت المشار اليهم بالبنان ، وكان صديقا للاستاذ الامام ، وكنت أعرفه فقدمني الى الاستاذ وسلمت عليه فظهر لي انه كان يعرف اسمي لاني أنا لذلك المهدي كنت أنظم وأثر ، وصارت لي قصائد منشورة في الجرائد ، فأذكر انه قال لي : « أنت ستكون من أحسن الشعراء » فأخذنا من ذلك الوقت نزور الشيخ الى منزله . وكان يسكن في حي زقاق البلاط قريبا من منازل آل حمادة وآل القباني ، ويسمر كل ليلة في دار الحاج محي الدين حمادة رئيس البلدية وعميد بيروت في وقته ، فكنا نحن وكثيرون نقصد السمر هناك لسماع أحاديث الاستاذ . وقد انطوى أكثر من كانوا ينتابون ذلك المجلس من الأعيان والفضلاء ، ولم يبق منهم الى اليوم فيما أعلم سوى الوجه الكبير الفاضل الجليل الشيخ عبد القادر افندي القباني والفاضل الأديب الشيخ محمد البابي . وزارنا المرحوم الاستاذ في منزلنا بالجليل وتعرف الى والدي رحمه الله وسروا الذي كثيرا بمعرفته ، وقدره قدره ، وصار لا ينزل مرة الى بيروت إلا يزوره . وكان الشيخ أيضا يحل والدي كثيرا وقل للاستاذ الشرتوني عنه : انه أعقل من رأيت من أمراء الجبل . ولما توفي والدي الى رحمة ربه في أواخر سنة ١٨٨٧ كان الشيخ من أشد الناس عليه حزنا ولنا مؤاساة ومؤازرة

وكان الشيخ رحمه الله يقرأ التوحيد والفقهاء في المدرسة السلطانية في بيروت. فحضرت عليه أنا والرحوم أخي نسيب درس مجلة الاحكام العدلية، وأما تلاميذه في التوحيد فأذكر منهم أخاه حموده عبده الذي كان نبياً وكان الشيخ يتوسم فيه الخير والسيد عبد الباسط فتح الله الذي هو من انبغ خريجي الاستاذ الامام وأجل من أخرجته بيروت في هذا العصر وكل منهما قد لقي ربه .

وكانت فائدة مقام الشيخ ببيروت عظيمة لأهل سورية فانه مامضت مدة إلا وقد أصبح منزله بصورة دائمة تقريباً غاصاً بالزائرين الذين كانوا يقصدون إلى حضرته لمجرد الاستفادة من محاضراته، والالتقاط من درره، وصار للناس ولوع به، فكنت تراهم يحفظون من كلامه ويقلدونه في لفظه، ويتابعونه في رأيه، وان كثيراً من الافكار والمبادئ، والالفاظ والجل السائدة الآن في بر الشام هي من بقايا آثار مجالس الشيخ محمد عبده، لاشك في ذلك وان كان الآن قد خفي أصابها، وانطوت نسبتها (١)

وانجم السوريون على إجلاله والولوع به إجماعاً لم يقع مثله لأحد، فكنت ترى جميع الفرق والنحل والطوائف بدون استثناء يزدحم حول ذلك النهل العذب، وكان هو بسعة عقله وعلو إدراكه وإحاطة نظره يتفاهم مع كل قبيل منهم، كأنه نشأ فيهم ولم يعرف سواهم، ونظراً لكثرة ترددي عليه أقول اني أعلم من

(١) مما يدل على قول الامير شكيب هذا ما حدثني به الاستاذ الامام قال: ألقى مرة خطاباً في حفلة عامة جمعت موضوعه (العلم الاسماء كلمة الله للإيجاد) فجاءني بعد زمن فسيب سوري من المعلمين في إحدى المدارس بمقالة لمس فيها ذلك الخطاب وقال أرجو ان تصح لي هذه المقالة فاني أريد نشرها فصحتها له وحذفت منها عنوانها الذي هو (العلم الاسماء كلمة الله للإيجاد) وقالت له اختر لنفسك عنواناً غير هذا، قال هذا عنوان عظيم لا يمكن تغييره، قالت اذاً لا آذن لك بنشر المقالة فانها كلها من كلامي وقد صححت لك ما أخطأت فيه من نقله، واستبقيت لنفسى هذه الكلمة فلم تطب نفسي بالسماح لك بها فان لم ترض بذلك فما انا بالذي يسمح لك بشيء من المقالة قال رضيت

هذا الامر ما لا يعلمه غيري، فطالما لقيت بمجلس الاستاذ اصناف الملل والنحل وهي تفهم منه وهو يفهم منها ، وتجلت لي هذه المسئلة (عظمة الفلسفة) بين العلوم وكيف انها تسهل فهم كل شيء، ومزية الادمغة التي حشوها الحكمة وطرأها التصوف، وظهرت لي محاسن الانظار الشاملة التي ألقها اوسع وأعلى من سائر الآفاق . فقد كان يجتمع بحضرته علماء السنة ومجهدو الشيعة وعقال الدروز ، وإلى جانبهم اساقفة النصارى وأخبارهم من كل فريق منهم ، وكانوا يرون التردد عليه أمراً طبيعياً ، ويجدون فيه مرجعاً عاماً

ثم انه لم تكن تلك المجالس تخلو من المباحثات الدينية ، ومن الخوض في أمور كل هؤلاء الناس مختلفون فيها ، وكان الشيخ يجول فيها، ويأخذ ويعطي ويشرح ويوضح على عادته ، وينتهي الامر بأن الجميع يكونون على وفاق، وان كل فئة منهم ترى أن الشيخ قد فهم ما أرادت وانها هي قد فهمت ما أراد

وأغرب من هذا ان ذلك المجلس لم يكن يخلو من الملاحدة والمعتلة الذين كانوا يقصدون إلى مجلس الاستاذ ليسمعوا اقواله في الالهيات والاديان ، ويروا ما عنده في الخالق والخلق وأشياء هذه المباحث، فكان الاستاذ يناظرهم بكل تودة، ويحل لهم المشكلات التي كانوا اذا سألوا عنها غيره من العلماء اعجزهم الجواب عنها ، فكنت تراهم منصتين اليه حيارى أمامه، لا يدرون ماذا يقولون، مع انهم يكونون قبل حضورهم في مجلسه قد آلوا انهم يعجزونه كما اعجزوا غيره . وبالاختصار لم اعلم احداً تمكن من ان يبدي امامه في باب الجحود أكثر من اعتراض او اعتراضين، ثم لم يابث ان وقف حماره في العقبة ، وخرج من حضرة الشيخ إما راجعاً الى الايمان بالغيب، او باقياً على جحوده مع الاعتراف بالعجز عن الاخذ والرد مع هذا الرباني المنقطع النظير

ومن اسرار عبقرية الشيخ في العلم والادب انه كان يتجنب كل التجنب انتقاص مذهب من المذاهب او عقيدة من العقائد التي اصحابها من عمار مجلسه وان كانوا مخالفين له في العقيدة ، وكان من الكياسة وحسن الخالقة بحيث لا يسمع من احد من هؤلاء كلمة واحدة تسوؤه او تشير الى تخطئة مذهبه ، او اظهار ما في

الاسلام أو مافي مذهب اهل السنة والجماعة من الفضل عليه . ولكنه من المحقق
 عن جميع عمار ذلك المجلس كانوا لا يخرجون منه الا وفي انفسهم إماما ميل اكيد
 للاسلام ، وإما تقدير عظيم لمزايا الدين الاسلامي — برغم الاعتقاد بغيره
 وقد طال عجبى من هذا الامر حتى لم املك نفسي ان كاشفت الاستاذ
 حرة بما لحظته من هذا التأثير، فضحك رحمه الله كثيراً الى ان بدت نواجهه، وعلم
 اني ادركت هذا السر وقل لي : نعم وأنا ايضا اشعر بما تشعرون به ، فقد قلت له «مالي ارى
 كثيرين من المسيحيين الذين اعرفهم معجبين اشد العجب بملتهم، محتقرين للاسلام في
 انفسهم، قد عادوا بعد ان عاشروك يذكرون الاسلام باجلال لم يكونوا يذكرونه به
 من قبل ، ومنهم من إخاله قد تحول مسلماً في ضميره ولو لم يعلن ذلك؟ (١)
 فالشيخ قدس الله روحه لم يكن يعتمد لا تصريحاً ولا تلويحاً ان يظهر
 لغير المسلمين من زواره وسماحه شيئاً من فضائل الاسلام او من خصائص القرآن (٢)
 بل كان يتنكب طريق الجدل معهم ، والتعرض لأي شيء يؤخذ منه الرد عليهم ،
 وإنما كان يقول ما يعلم من القضايا التي يسئل عنها ، ويفيض في شرح الغوامض
 وحل المشكلات بالطريقة التي لم يهدوا مثلها والتي عمدتها الفلسفة الاسلامية ،
 فكان مجموع كلامه يؤثر فيهم ، ويعلي مقام الاسلام في نظرهم ، ويربهم انهم لم
 يكونوا يعرفون عن الاسلام شيئاً تقريباً ، والحقيقة انهم كانوا يتصورون الاسلام
 بالصورة التي تركتها في اذهانهم كتب الافرنج من تأليف الفئة التعصبة وهي
 الكتب التي لم يكونوا يقرءون غيرها في مدارسهم في هذا الموضوع ، وكانوا اذا
 اختلطوا مع المسلمين لم يجدوا منهم الا عامياً جاهلاً، او شيخاً جامداً لا يعرف من
 الاسلام الا قصوره ، فكانوا يظنون ان الاسلام هو هذا ، ويقسونه على الذين
 تمثل فيهم ممن لم يعرفوا سواهم ولم يحتكوا بغيرهم .

وربما وجد في البلاد فقهاء وعلماء اجلة من المسلمين ولكنه كان يطلب
 عليهم الجود احياناً، وكان منهم من يخشى العامة فلا يتجرأ على تخطئة خرافات

(١) اظن اننا ان من هؤلاء الشيخ سعيد الشرتوني وسأشعر من مکتوباته ما يشعر
 بذلك ولا سيما تقريره لرسالة التوحيد (٢) بل كان يعتمد ألا يظهره وهو يقصده

الحشوية عانا ، وأكثروا لم يكن له اختلاط بالمسيحيين ولا وقوف على احوالهم ،
واذا راجعه احد من هؤلاء في شيء لم يكن إلا لاستفتائه في مسألة من مسائل
الحقوق أو المعاملات الدنيوية . فالعشرة بين الفريقين كانت محدودة جداً ، ودائرة
الاختلاط كانت ضيقة ، والجود كان غالباً على علماء الاسلام هؤلاء ، والمبادي
الحشوية كانت مستفيضة فيهم

على مثل هذه الحالة قدم الشيخ محمد عبده الى بيروت وظهر فضله وسطعت
شمسه ، فاختلط به ابناء المسيحيين وعلماءهم ورؤساؤهم فرأوا منه غير من عرفوا
الى ذلك العهد ، وبعد أن كانوا يرون في الاسلام شيخاً معهما قصير أمد الفكر ، او
بالكثير فقيها جامداً متورعاً ، صاروا يرون فيه بحسب تمثيل الاستاذ الامام اياه
فقيهاً نيراً وفيلسوفاً كبيراً واجتماعياً محمكاً ، وهناك شاهدوا الاسلام كما كان
عليه مثل الغزالي او كما كان عليه ابن رشد وكما كانت عليه تلك الطبقة العليا

وكما أن المسيحيين في سورية شاهدوا من الشيخ عالماً مسلماً لم يهدوا نظيره ،
كذلك المسلمون أنفسهم على اختلاف طبقاتهم كانوا مقربين بفضل ، موفزين لقدره ،
وكان ناشتهم معترفين بان هذا الاسلوب أسلوب لم يعرفوه من قبل . وقد كان
الاستاذ يجلب من علماء سورية بنوع خاص الاستاذ الشيخ حسين الجسر الطرابلسي
رحمه الله لانه كان عالماً مفكراً واسع النظر مهتماً بالجمع بين الشريعة والادب
العصرية ، وطالما سمعت من فقهائه على الاستاذ الجسر كما ان الاستاذ الجسر كان
معجباً جداً بالشيخ محمد عبده معترفاً بعبقريته . وقد ذكر لي ذلك إحدى المرات ، ولم
ياخذ عليه إلا شيئاً من حدة المزاج . فقد كان الشيخ يومئذ لم يتجاوز الثامنة
والثلاثين من العمر ، وكان من أصله عصبي المزاج ، سريع الانفعال ، مرهف
الاحساس ، وربما جرى لسانه بسائق التأثر بما لم يكن يجري به لو لم يكن متأثراً

وفي سنة ١٨٨٩ ذهبت الى دمشق وكنت في السنة التاسعة عشرة من العمر
حضرت مجلس مفتي الشام العلامة الشيخ محمد الزيني ففي أثناء الكلام جرى
ذكر الشيخ محمد عبده وكان المفتي يعرفه فأثنى عليه كثيراً وقال مامعناه انه مع

"لعم الوافر متصف بالكياسة والرقبة" جامع بين أدب النفس وأدب الدرر ، يشبه في هذا أكبر علماء الشام واستانبول

وقد زار الشيخ إذ هو في بيروت كثيراً من حواضر سورية ومدنها كدمشق وطرابلس وبلبك وصيدا والقدس وغيرها وكان أينما حل معززاً مبجلًا محفوداً محفوقاً بالمستفيدين . وكانت أخلاقه تسير جنباً إلى جنب مع معارفه ، فكان مثلاً تعلم مع العمل ، ولم يقدر أحد مع كثرة اختلاطه بالناس أن يجد في شيء من أعماله مغلماً أو مغمزاً ، أو يلحظ منه ما يخل بالوقار أو الكرامة أو الحشمة ، بل كان له من الهيبة والجلالة ما لم يكن إلا للكبار الشيوخ من المعمرين مع أنه كان شاباً . ولم تكن هذه الجلالة التي فيه ناشئة عن سعة علمه فقط ، بل كانت أثر مجموع خصاله الباهرة من العلم المقرون بالطهارة ، ومن الذكاء المزdan بالعفة ، ومن الفصاحة التحلية بالاحتشام والورع ، فكان التناسب في خصاله تاماً ، وكان عظيماً من كل جهة . ولقد كان المختلطون به بصورة دائمة عدداً لا يكاد لا يحصى من كل طوائف ، ولم أعلم أحداً من جميعهم قدر أن يقول فيه كلمة سوء ، أو أن ينتقد منه قولاً أو عملاً يخل بالكمال ، وهو لا يكاد يوجد وحده إلا في وقت النوم . فأما في سائر أوقاته فقد كان محاطاً بالزائرين . فالذين طعنوا فيه إن كانوا طعنوا عن جهالة بدون عمد أو عن نبأ لم يتدينوه فسأعجبهم الله ، وإن كانوا طعنوا عن حسد أو شتان حياءهم على القول بنير علم أو نبأ لا يعتقدون فحسبهم الله .

وقد سمعت في تلك الأيام بعض أناس يجهرون بعداوتهم للشيخ لكنهم لم يكونوا ينعنون في أخلاقه ولا في دينه ولا في أدبه ، وغاية ما كان ينسب إلى الشيخ من العيوب وجل من لا عيب فيه هو الحدة فقط ، وهو عيب أستاذ السيد جمال الدين فقط . وقد كان تأهل من بيروت وأهله هي كريمة الحاج سعد حماده أخي الحاج محي الدين حماده فكانت صانته بهذا البيت تحمل في المنافسات والمحاصمات السياسية المحلية على الذب عنه بفصاحته وقوة حجته ، مع اعتقاده التام بنزاهة مقصده ، فكان يتحمل بسبب هذه النصرة لهم شطراً من إصرر العداوة وتوابعها . وكان بعض الساخطين من جل ذلك يقولون مالم الشيخ وللتدخل في هذه الأمور التي لا تعنيننا إلا نحن أهل

بيروت فكان الاولى به أن يبقى فوق هذه الاحزاب ؟ ولم يكن أحد يزيد في انتقاده على كلمة انه جاد المزاج ، وكان والذي يقول لي انه لم يجد فيه إلا عيباً واحداً وهو ان لسانه حريف اذا غلب عليه الانفعال .

ومن غرائب مزاياه انه كان مع تلك المهابة التي فيه، وذلك الشمم الذي يتجلى من جميع نواحيه، من أرق خلق الله طبعاً ، وأعظمهم وداعة وتواضعاً ، وأحلامهم عشرة ، وأحبهم للفكاهة ، وأطربهم للنكتة ، وكان للنكات والنوادر من مجلسه نصيب وافر . وكان للطرائف واللطائف من محاضراته حظ سافر، ولكنه لم يكن يشوب تلك الفكاهات كامة بذينة ولا لفظة ينبو عنها المجلس ، ولا قصة يشتمز ذو تربية حسنة من سماعها . فقد كان جلال الاستاذ لا يفارق مجلسه أبداً ، وكان وقاره يرفرف على أحاديثه دائماً فهو نادر زاهر إن عرف النكتة او النادرة فلم يعرف قط اللغو ولا اللهو . وكان أحد أصدقائه الاجلاء من أعيان بيروت قد تعود أن يتلفظ بالسوءات كما هي ولا يذهب فيها مذاهب التورية فكنت أرى الشيخ يتقزز من سماع ذلك ومراراً صرح أمامي باشمئزازه من هذه العادة السيئة، التي تغلب على بعض الاسنة فكان في هذا الامر كثير الاستحسان لطريقة الدروز الذين كان العلامة فاندك الامر بكاني الكبير يقول عنهم : تعاشر الواحد منهم خمسين سنة فلا تسمع منه ولا مرة لفظ سوءة، ولا قصة فيها شيء من الخلاعة . وكان المرحوم الاستاذ يستحسن جداً هذه المزية فيهم، ويعجب بأدبهم في مجالسهم حتى آداب العوام منهم (١)

وكان الشيخ بسيط نوع المعيشة يكره السرف والترف إلا انه كان سخي النفس كثير البر ، ينفق ما بيده ولا يعرف للمال قيمة . وكان يمد سباط الاكل في محل الاستقبال ويدعو أي من حضر اليه، وكان يحب السخاء الدائم والسماحة الفطرية بدون تأنيق ولا تصنع . وكان والده يرسل اليه ما يلزم لمعيشته فلم يحتاج

(١) ذكرت في حاشية قريية انه غاظ في الانكار على محمود كحيل من تلاميذ المدرسة أن رأى معه ديوان شعر فيه بيت في وصف الردف وألناه بعيداً كالقنور

في أنشاء وجوده في بيروت إلى شيء ولا ضاقت ذات يده ولا مرة ، ولكن يوازن موازنة تامة بين الراتب الذي يأته من أبيه وبين نفقاته فلا تجدد بودجة أحسن انتظاما من بودجته ، ولذلك لم تكن نجده عائلا أبداً (١) وكان يصدق على الفقراء ولا يرد سائلا ، ومن مزاياه أنه كان لا يقبل من أحد شيئاً من شدة انفته ، إلا الهدايا التافهة من خلصاء أصحابه لا غير

وكان من السياسة والكياسة بالمقام الأعلى فلا تجدد زائره ولا عشيره إلا راضياً ، ولم تكن تحمله شدة اللفة على اطراح التكلف فقد كان يقوم حتى لتلاميذه ومريديه ، ودخلت عليه مرة وكان عنده المرحوم منح بك الصلاح فتمثل واقفا لي فقال منح بك : ما ظننت الشيخ يقف لك . فقال له : أنا لست ممن يقول اذا وقعت اللفة ، ارتفعت الكلفة

ولم يكن يطرأ على بيروت احد من معارفه او من الاعيان المشهورين إلا وقام بسنة السلام عليه . وقد يحمله ويحتفي به ولو كان مخالفا له في العقيدة ، ولم اجده احتفل بأحد اكثر من احتفاله بعباس افندي البهاء رئيس البابية مع ان الطريقة البابية هي غير ما يعتقد الشيخ وهي الطريقة التي رد عليها استاذ السيد جمال الدين رداً شديداً ، ولكنه كان يكرم في عباس افندي العلم والفضل والنبيل والاخلاق العالية (٢) وكان عباس افندي يقابله بالمثل ، وكان ينصف الناس كثيراً ولا يبغض احداً شيئاً من اشيائه ، حتى انه ذكر لي مرة ما يجده في نفسه من انصاف غيره حتى من اعدائه وقال لي : اني لأحسد نفسي على هذا الانصاف

(١) ذكر لي رحمه الله ان أحد أصحابه المصريين توفي والده في بيروت فجاءه . يقول انه ليس معه ما يجهزه به بما يليق بكرامته وكان مع الاستاذ راتبه الشهري كله فبذله له كله . ولكنه ما علم أن جاءته حوالة برفقة بمبلغ من المال أكثر منه كان ديناً له على بعض أصحابه قبل النفي وكان يعطى به ويسوف

(٢) قد علمت من الاستاذ الامام انه يعتقد ان عباس افندي مسلم محب للاصلاح كما كان يظهر له عملاً بقاعدة الثقة ولا سيما عند أمناله الباطنية . وكان عباس افندي يجلي مع الاستاذ الجمعة والجماعة وسأفصل هذا في موضعه من هذا التاريخ

ومن بعد ان صرت من مريديه لم اسمع منه كلمة تقرّظ لشيء من اعماله او اقوالي، بل كان اذا استحسن يسكت، واذا استهجن ينه ويوقظ. وكان الواحد منا يتجنب اقل التسامح مع نفسه خوفا من توبيخه لشدة ما كنا نوقره ونهابه، وكان من اصدقائه الدكتور ابراهيم صافي وهذا لم يكن طيبا شهير الخسب بل كان فاضلا صدوقا حسن العشرة، فكان الاستاذ يزوره في الاحياء وكنت اصحبه في هذه الزيارات، ففني إحدى المراسله صافي عن ادباء العصر ومن الجملة عن اديب اسحاق. فقال له عن اديب: هو كاتب لا بأس به، فقال له صافي: والشيخ ابراهيم اليازجي؟ فقال الشيخ: هو اكتب من اديب بكثير بل هو اكتب المعاصرين فيما ارى، ثم التفت صافي نحوي مبتسما وقال للشيخ: والامير شكيب؟ فقال له: سيصير في المستقبل، فقال له صافي: اتراه سيكون مثل الشيخ ابراهيم اليازجي؟ قال له الشيخ: لا، قال له صافي: الا يقدر ان يكون مثل ابراهيم اليازجي؟ فتبسم الشيخ وقال: مرادي انه سيصير احسن احسن. وهذه هي المرة الوحيدة التي صرح امامي بتفاوته بحقي

وقد نقلت هذه الجملة لانها من كتاباته لا ادعاء بانني جئت مصداقها، وكان في غالب الاحيان يصبرني عيوبي وينبهي الى تلافي قصوري شأن الاب مع ابنائه ولم يكن يرغبني في الشعر، وقد مدحته بقصائد هي في ديواني الاول المسمى «بالباكورة» وقدمت الباكورة نفسها له وصدرتها بقصيدة مقدمة له (١) ولم يظهر لي الاهتمام بشيء من ذلك، ولم يستمطر عارضي في الشعر إلا مرة واحدة وهي انه كان صديقا للمرحوم عبد الله باشا فكري وكان عبد الله شاعرا ناثرا فثار إليّ بأن اهديه الباكورة واصحبها بأبيات بمدح عبد الله باشا، فنظمت ابياتاً رائية بعثت بها اليه مع الديوان، فاجابني عليها من البحر والقافية بقصيدة رنانة مثبتة في ديوانه

وكان يقول: لا اقول الشعر، وانما كان يعترف بالقصيدة الهائية التي قد وهو في السجن على اثر الحادثة العرابية وأنا احفظ منها:

(١) سأشر بعض هذه النصائد او كلها في الجزء الرابع المتتم لهذا التاريخ ان شاء الله

مجدى بمجد بلادي كت أطلبه وشيمة الحر تابى خفض اهليه
ومنها :

احاول الصعب في رأي فادركه ولا حسام ولا رمح ارويّه
وانما الفكر يغني نفس صاحبه عن الجيوش اذا صحت مباديه
ولم تكن رغبته عن نظم الشعر بالتى تمنعه من الاهتزاز لجيد الشعر والافتتان
بغرد القريض . فقد كان يكاد يسكر من قراءة هذه الطبقة العالية من الشعر
لا سيما الشعر الجاهلي ، وقرأ ديوان الحماسة في اثناء مقامه ببيروت لحفظ منه
الكثير ، وكان يبلغ من شغف حبه ورقة شعوره انه يعيد البيت الواحد مراراً
متعددة وهو يترنم به ولا يرتوي منه ، وأحسبه قد فعل في نفسه سحر البيان
ما تفعله الالحان في السامع ، او بنت الحان في الكارع (١) ولشدها كان يعجبه :
اذا هزه في عظم قرن تهلت نواجد أفواه المنايا الضواحك
وقوله :

خالط ملس الصخر لم يكدح الصفا به كدحة والموت خزيان ينظر
وكان يعجبه في التشبيب قوله

(١) أما دقة فهمه وذوقه للشعر فهو من دقة فهمه للعربية واتقانه لا دأها .
وأما تأثيره في نفسه فهو من رقة شعورها وصحة وجدانها . وكنت في بعض المناسبات
أذكر له بعض الشعر المؤثر في النفس فلم أره اهتز لشيء . هزته لقول بثينة اذ نعى
اليها جميل . ذلك ان جميلاً لما حضره الموت أعطى رجلاً حلة له وأمره بأن
يسافر الى ربيع بثينة ويقف عند بيتها وينشد :

صرح النعي وما كنى بجميل وثوى بمصر نواء غير قفول
فلما سمعته بثينة لم تلاك نفسها أن خرجت حاسرة وقالت له : يا هذا إن كنت
كاذباً فقد فضحتني ، وإن كنت صادقاً فقد قتلتنى . فأخرج لها الحلة فانصرفت وهي تقول
وان سلوي عن جميل لساعة من الدهر لا حانت ولا حان حينها
سواء علينا يا جميل بن معمر اذا مت بأساء الحياة ولينا
فاهز الاستاذ لسامع هذا النثر والنظم وتمير وجهه ثم صار يردد البيت الثاني
مراراً وفقاً لما روى الامير عنه

وقربن اسباب الهوى لمتيم يقيس ذراعا كلما قسن أصبعها

وقوله :

أحقا عباد الله أن لست ذاهبا ولا جائيا إلا على رقيب
وكان يفضل محمود سامي على جميع الشعراء المعاصرين ويقرنه الى كبار
المتقدمين . وهو الذي دلنا على شعره وعرفنا بمقامه واطلعنا على « الوسيلة
الادبية » للمرصفي فحفظنا ما فيها من قصائد محمود سامي باشا البارودي . وأما
مراسلاتي الشعرية مع محمود سامي فيما بعد أيام كان منفياً بسيلان ثم بعد العفو
عنه وإيابه الى مصر فقد كانت بعد أن برح الاستاذ بيروت وعاد الى مصر .
وكان محمود سامي من أحب الناس الى قلب الشيخ فلم أعلم أنه كان يذكر أحداً
من أقرانه بعاطفة حب كما كان يذكر محمود سامي رحمه الله وكان يتأوه على غربته
ونكته مالا يتأوهه على أحد . ومرة كنا راجعين من إحدى السهرات في القاهرة
وذلك سنة ١٨٩٠ عند مازرته إلى مصر فمررنا امام دار فيحاء فوقف ونظر
اليها وقال لي : هذا بيت صاحبنا، وتنهد عند هذه الكلمة تنهداً عميقاً فسألته :
دار من هي ؟ فقال : محمود سامي . وكأنه تنهد لآعلى غربته محمود سامي فقط بل
على غربته مصر كلها واحتلال الاجنبي لها

وكان أيضاً شديد الحب لعبد الله باشا فكري لا يفتأ يذكر محامده ومثانيه
دينه ورقة أخلاقه ويحفظ من شعره ويعجبه منه قوله خطابا للخديو توفيق
ولو شئت كانت لي زروع وأنعم ومال به الآمال اقتادها قسراً
ولكنها نفس فدتك أمانة تعاف الدنيا ان تمر بها مرا
وكان يروي ان محمود سامي وعبد الله فكري كانا يتساجلان في إحدى
السهرات فكان أحدهما يقول شطراً والآخر يقول الثاني فقال أحدهما
وترى الحجرة في السماء كأنها
فقال الآخر رز تبهر في طريق الحجر

وطريق الحجر طريق واسعة معروفة بمصر . وكان يروي لنا نوادر كثيرة
عن مصر وأدبائها وعلمائها ورجالها حتى صرنا كأننا في مصر ونحن بعد لم

نعرف مصر. ومن كان الشيخ يعلمهم كثيراً الأستاذ الشيخ محمد المهدي العباسي شيخ الازهر فقد كان ينوّه باستقامته وعدم محاباته في الدين. وكان يحل الشيخ حسونة النوادي والشيخ حسن الطويل ولكنه بالاجمال كان يكره طريقة التعليم بالازهر ويذكر مساوئها ويتأوه من اشتغال الطلبة هناك بما يسمونه « بعلم الكراس » وما أكثره في وجوه الاحتمالات، وفي تأويل العبارات، مما أضاع أوقات الدارسين فيما لا فائدة فيه. وبقي ينوح على حالة التعليم في الازهر ويندب جمود العلماء الذين فيه وعقم طريقتهم الى أن صار هو صاحب نفوذ في مشيخة الجامع فأصلح من ذلك بقدر استطاعته.

ولما زرته في مصر سنة ١٨٩٠ قال لرفيقه وخليله الأستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان بان يذهب معي الى كبار مشايخ الازهر كالشيخ العباسي والشيخ الانبائي والشيخ عبد القادر الرافعي حتى أعرف اليهم فلما زرنا الشيخ الانبائي وجدنا عنده عالماً اسمه الشيخ الظواهري. فلما ذكر الشيخ عبد الكريم اسمي وقال أي من جبل لبنان قال هذا الشيخ المسمى بالظواهري: وأن جبل لبنان هذا؟ أي الغرب؟ فأجابه الشيخ عبد الكريم: بل في سورية. فأما أنا فكدت أصعق من الدهشة لجهل هذا الشيخ إلى هذا الحد معرفة البلدان. ولما رجعنا الى البيت أخبرنا الأستاذ بما وقع فقال لنا: نعم وهذا الشيخ الظواهري الذي يجهل أن جبل لبنان هو من علماء الطبقة الاولى.

وهذا وأشباهه كان من أسباب نفي الشيخ على جمود العلماء الازهرين ونفورهم من العلوم المصرية وحصرهم جميع قواهم العقلية في دروس معلومة يجهلون كل شيء سواها حتى أصبحوا كأنهم ليسوا من أهل هذا العصر بل ليسوا من أهل هذه الدنيا، ومما جعله يتأوه على فراش موته رحمه الله ويقول

ولست أبالي أن يقال محمد أبل أم اكتظت عليه المآثم
ولكنه دين أردت صلاحه أحاذر أن تقضي عليه العامم

وكان جاء الى بيروت الشيخ ابراهيم التادلي من أكابر علماء المغرب أدى فريضة الحج أولاً ومن الحجاز جاء إلى القدس ثم إلى بيروت حينما كان الأستاذ الامام فيها، فذهب الأستاذ للسلام عليه وذهبنا معه أنا والأستاذ الشرتوني. ولم تكن

لي ألفة يوم مثذبلهجة إخواننا المغاربة فقلما فهمت شيئاً مما كان الشيخ التادلي يقوله .
وانما روى لنا الشيخ بعد انصرافه مآل حديثه ، فقال لنا انه عالم على الطريقة
المعهودة بالازهر والتي ابتلي بها العالم الاسلامي كله فالازهر والاموي والزيتونة
وجامع القرويين كلها واحد ، ولم يفهم منه شيئاً جديداً الا انه أعجبه من كلامه شيء
واحد وهو ان الشيخ سأله : هل في المغرب اليوم مؤلفون في أصناف العلوم
المختلفة ؟ فأجابه التادلي : نعم يوجد مؤلفون في المغرب إلا أن العلم لا ينتشر بقوة
التأليف وانما ينتشر بقوة التدريس وكثرة المذاكرة الشفوية . فاستاذنا وجد
هذا المعنى صحيحاً وقال لنا : هذا أحسن ما سمعته من كلامه . وثاني يوم قيل
لنا ان الشيخ التادلي يريد أن يقرأ درسا في الجامع العمري الكبير فأقبلت الناس
لسماع درس هذا الشيخ المغربي الكبير وذهبنا نحن مع الاستاذ ونحن نرجو أن
نسمع شيئاً جديداً أو بحثاً عانداً إلى أمراض العالم الاسلامي الحاضر وطرق علاجها مما هو
مقدم على كل شيء ، فاذا بدرس الشيخ التادلي في البسملة وما تضمنته من العلوم والمعارف
والفنون مما هو مستفيض في كتب علماء أئمة ارحمهم الله وما لا شك في ان الاستاذ التادلي أتقنه
اتقاناً تاماً ولكن هل بهذا على انه غير مطلع على أحوال زمانه ولا مكانه ولا عارف
بما يوجبه الدين والعلم على العالم المسلم في مثل هذه الاحوال

وكان الشيخ محمد عبده يسمي هذا النوع حفظاً لاعلماء ويقول ان العلم الذي
لا يمزج بالنفس ولا يصير جزءاً من أجزائها لا ينبغي أن يسمى علماً

وقد روى عنه الشيخ علي يوسف صاحب « المؤيد » مجلساً جرى بينه وبين
جمال الدين أفندي شيخ الاسلام في الآستانة من جملة ما ذكر الشيخ فيه ان
أمثال هؤلاء لا يقال لهم علماء وانما يقال لهم حفاظ لانهم يحفظون عن ظهر القلب
أصولاً وقواعد لا يطبقون منها شيئاً على فروعها وقال أيضاً : انه جاء في تعريف بعض
السادة المالكية للعالم انه الخبير بامور قومه المطلع على أحوال زمانه . اهـ

[المؤلف] أرسل إلي الأمير بعد هذا فصلاً آخر في شؤون الاستاذ الامام وآرائه
وأصدقائه وتلاميذه ولا سيما سعد زغلول باشا قد استفاد أكثره من زيارته لمصر
التي أشار اليها آنفاً وسنذكره في موضعه اللائق به من هذا التاريخ . وموضوعنا
في هذا المقصد بيان سيرة الامام وعمله في سورية .

خاتمة هذا المقصد

(في سعيه لاقناع الدولة العثمانية بالاصلاح وتعميم التعليم الديني مع التربية)

ذكرنا في أول هذا المقصد ما كنا نشرناه في النار - ثم ما أشار اليه أخونا المرحوم السيد عبد الباسط في فصله الذي نشرناه بعده - من ان الاستاذ الامام كتب الى شيخ الاسلام في الاستانة لائحة في الاصلاح والتعليم الديني ، وأشرنا في الحاشية الى نشرنا لهذه اللائحة في الجزء الثاني وهو (جزء المنشآت) ومن قرأ هذه اللائحة علم منها أن الاستاذ الامام قد تجدد له أمل كبير في اصلاح الدولة العثمانية من طريق التربية والتعليم الذي لا يمكن الاصلاح إلا بسلوكه ، ورأى انه وصف لها ماهي مستهدفة له من الخطر على مقام الخلافة ، ووحدته الأمة ، وقوة الدولة ، بفشو الجهل في المسلمين وفساد الاخلاق ، وسريان شبهات الحساد ، ثم بنفوذ الاجانب وتأثير المدارس التبشيرية في البلاد ، حتى انه خص المدارس العسكرية بالذكر فقال (ص ٥٠٨ طبعة ثانية) ولهذا رأينا كثيرا ممن قرأوا العلوم في المدارس العسكرية وغيرها خلوا من الدين وجهال الابعقائده ، منكبين على الشهوات ، وسفاسف المذات ، لا يخشون الله في سر ولا في جهر ، ولا يراعون له حكما في خير ولا في شر ، وانحط بهم ذلك الى الكلب في الكسب . الخ

ان الاستاذ لم يكتب لائحة واحدة في ذلك بل لأحتين ، كان سبب الاولى منهما صدور ارادة سلطانية لشيخ الاسلام بأن يؤلف لجنة تحت رياسته لاصلاح جداول الدروس في المدارس الاسلامية وتقويتها حتى تكون كافلة لجميع الوسائل الصحيحة لتعليم أولاد المسلمين وتلقينهم ضروريات الدين الاسلامي وتربيتهم بالآداب والاخلاق الاسلامية على وفق الحق المطلوب ، فقررص أحسن الله جزاءه هذه السانحة لتعليم الدولة ماهي في أشد الحاجة اليه من هذا الاصلاح ، التي لا يرجى لها بدونه بقاء ، فبين لشيخ الاسلام ولجته سوء حال المسلمين في هذا العصر ، وما استحوذ عليهم من الفساد والجهل ، ووصف سوء حال المكاتب والمدارس الاسلامية في بلاد الدولة ، وسوء حال رجال العلم والدين فيها ،

وطبقات الناس الثلاثة ، وما ينبغي من اصلاح التعليم الديني لكل طبقة منها — وهو التعليم الابتدائي لطبقة العامة ، والتعليم الوسط للطبقة المرشحة للوظائف ، والتعليم العالي لطبقة المعلمين والمرشدين . وبين العلوم الدينية التي تدرس لهذه الطبقة ووسائلها وتاريخ الاسلام والتاريخ العام وتاريخ الانقلابات التي عرضت في الممالك الاسلامية الاولى — وهو علم واحد . ومنها فن الاقناع والخطابة وأصول الجدل — وأولها تفسير القرآن وقال فيه مانصه :

« وهو أهم ما يحتاج اليه ليقرأ القرآن تفهما وتطلبا لما أودع الله فيه من الاسرار والحكمة . فالقرآن سر نجاح المسلمين ولا حيلة في تلافي أمرهم إلا ارجاعهم اليه . ومالم تفرغ صيخته أعماق قلوبهم ، وتزلزل هزته رواسي طباعهم ، فالامل مقطوع من هبوبهم من نومهم . ولا بد أن يؤخذ القرآن من أقرب وجوهه على ما ترشد اليه أساليب اللغة العربية ليستجاب لدعوته كما استجاب لها رعاة الغنم وساقاة الابل ممن أنزل القرآن بلغتهم . والقرآن قريب لطالبه متى كان عارفا باللغة العربية ومذاهب العرب في الكلام وتاريخهم وعوائدهم أيام الوحي . فلم ذلك من أجود الوسائل لفهمه . فان احتاج الى وسيلة أخرى فأولها مطالعة كتب التفسير الذاهبة مذهب تطبيق مفاهيم الكتاب على المعروف عند العرب كتفسير الكشاف وتفسير القمي النيسابوري ومن أخذ طريقهما^(١) »

وبعد الكلام في التعليم والعلوم وأسلوب التدريس وغرضه عقد فصلا للاصلاح الديني والدعاة والمرشدين الذين يناط بهم وما يشترط فيهم . وخص بالذكر خطب المساجد . ثم بحث في الكتب التي يجب أن توضع للطبقتين الاولى والثانية . وفي الرجال الذين يصلحون للتعليم والتربية فيبين كل ذلك بمباراة مقننة وأما اللائحة الثانية فقد قدمها الى والي بيروت بعد تقديم الاولى الى شيخ الاسلام وموضوعها (اصلاح القطر السوري) وقد بين فيها وجه الحاجة اليه بالاجمال ثم بالتفصيل . فبدأ ببيان حالة أهالي جبل لبنان وطوائفه من الموارنة وهم الاكثرون ثم الدروز ثم المسلمون السنونيون والشيعة . وقفى على ذلك بفصل (١) راجع مقاله لنا في تفسير الكشاف وما أجاب به عن اعتراضاعليه في ص ٣٩٠

آخر في بيان حال أهالي ولايتي بيروت وسورية . فتكلم عن الطوائف النصرانية وميولهم الى الدول الاوربية ، وعن طائفة النصرانية الشيعية الامامية خدروز حوران فالمسلمين من أهل السنة ، فأهل البادية من الاعراب المتنقلة . وبين علاقة كل منهم بالدولة وما يجب من الاصلاح والتعليم في الجميع الذي تستقر به سلطتها في البلاد وتتقي غوائل التعليم الاجنبي وما يتبعه من النفوذ السياسي ولو ان الدولة العثمانية عقلت تلك النصائح واتبعتها لصلحت البلاد، وارتقى العباد ، وثبت سلطانها فيها ، وانتقل نفوذها الديني والسياسي الى غيرها . ولكن رجال الدين فيها كغيرها لم يكونوا يعقلون معنى لاصلاح مدني يستمد من القرآن ومن السنة الصحيحة ومن مراعاة سنن الله تعالى في الاجتماع البشري وأما رجال السياسة والادارة فكانوا مفتونين بتقليد الافرنج في معيشتهم وحريةهم وظواهر نظمهم ، وانما كانوا يقلدونهم فيما يسهل فيه التقليد كتقليد الطفل لمن يعظم في عينه من الرجال ، وتقليد الاصاغر ، لمن فوقهم من الاكابر ، كالازياء والعادات وشكل المدارس والدواوين ، وقد ترجوا أكثر القوانين ولم يقيموا شيئاً منها ، وأما العلوم والفنون والصناعات وطرق الثروة والنظم المالية فلم يتقنوا منها شيئاً . وقد آل الامر بحمل الفريقين الى زوال هذه الدولة من الوجود ، و انحصار دولة الترك المغرورين في اماره صغيرة فقيرة ضعيفة

وكان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى يخاف على الدولة هذه العاقبة السوء ويخاف سوء تأثير زوالها في البلاد الاسلامية ، وقد صرح في بعض مقالات العروة الوثقى بأن خروج القطر المصري من حظيرة سيادتها يفضي الى ذهاب غيره ، وأشار في هذه اللائحة الى الخطر عليها من جهة فساد التربية وإهمال التعليم الديني وحلول التعليم التبشيري محله والنفوذ الاجنبي ، وقد سأله سنة ١٣١٥ عن رأيه فيها فقال انها سياج المسلمين في الجملة فيجب عليهم أن يعملوا لانفسهم قبل زوال هذا السياج الضعيف وإلا صاروا أسوأ حالا من اليهود ، فان اليهود قد تعوضوا من فقد الملك والدولة بما أوتوا من الثروة العظيمة الخ وسأعود الى بيان هذا في الموضع التاليف به من هذا التاريخ

الفصل السادس

في الطور الثالث من حياته العملية (وهو ماعمله بعد عودته من منفاه الى وطنه)

(وفيه مقدمة وثمانية مقاصد وخاتمة ، أما المقدمة ففي عودته الى وطنه وسعيه للعمل الاصلاحى فيه : وأما المقاصد فهي (١) عمله في القضاء الاهلي (٢) عمله في اصلاح الازهر (٣) عمله في افتاء الديار المصرية (٤) عمله في اصلاح المحاكم الشرعية (٥) عمله في الاوقاف (٦) عمله في مجلس شورى القوانين (٧) عمله في الجمعية الخيرية الاسلامية (٨) عمله في جمعية احياء العلوم العربية — وأما الخاتمة ففي دفاعه عن الاسلام وتدريسه في الازهر ولا سيما تفسيره للقرآن ،)

المقدمة :

ذكرنا في مقدمة الفصل الخامس انه حكم عليه بالنفي من القطر المصري وملحقاته مدة ثلاث سنين وأن ذلك كان في ١٣ صفر سنة ١٣٠٠ هـ (الموافق ٢٤ ديسمبر سنة ١٢٨٢) ومقتضى هذا ان مدة نفيه قد انتهت في أوائل سنة ١٣٠٣ هـ — آخر سنة ١٨٨٥ م وكان في أثناء ذلك في بيروت مجدداً في عمله ، طائراً في جو أمله ، وكن أول أمله تربية نشء جديد في المدرسة السلطانية ، يوجه المستعدين منه الى ما كان ينويه من اصلاح الامة الاسلامية ، وقد كان في آخر عهده مع السيد جمال الدين في أوربة قد ضعف أمله في نجاح سياسة السيد ولا سيما بعد الاضطراب الى تعطيل جريدة العروة الوثقى وتحاذل المسلمين دون مساعدتهما الواجبة ، فقال للسيد أرى أن نترك السياسة ونذهب الى مجهل من مجاهل الارض ، لا يعرفنا فيه أحد ، نختار من أهله عشرة غلمان أو أكثر من الاذكاء السليمي الفطرة فتربهم على منهجنا ، ونوجه وجوههم الى مقصدنا ، فاذا أتيج لكل واحد منهم تربية عشرة آخرين لا تمضي بضع سنين أخرى إلا ولدينا مائة قائد من قواد الجهاد في سبيل الاصلاح ، ومن أمثال هؤلاء برجي الفلاح ، — فقال له السيد إنما أنت مشبوط ، نحن قد شرعنا في العمل

ولا بد من المضي فيه مادامنا نرى له منفذا . أو ماهذه خلاصته من قولها .
ثم انه كان يرجو من وجوده في بلاد الدولة العثمانية أن يتمكن من اقناع
أولي الامر فيها بما يجب عليها من اصلاح التربية والتعليم في المدارس بحسب
رأيه ، وأن يكون له عمل في ذلك اذا هم اقتنعوا بما بسطه لهم من وسائله ، وهو
ماأشرنا آنفا في خاتمة المقصد الثاني من الفصل السابق (الخامس) ولما طال الأمد ،
ولم يستجب لدعوته أحد ، واقتنع بأن الدولة العثمانية غارقة في بحار جهلها ، عاد الى وطنه
وهو يعلم ان الخديو توفيق باشا غضبان عليه كاره له ، وان الانكباذ أصحاب النفوذ
الأعلى في البلاد قد ذاقوا من مرارة قلمه ، وصلوا من نار عصبية المليّة والوطنية مالم
يعهدوا له نظيرا في الطعن فيهم ، واثارة العالم الاسلامي والشرقي عليهم . ولكنه
هو الشجاع الذي لا يعرف الخوف إلا من الله عز وجل :

عاد الى مصر في سنة ١٣٠٦ ولا أذكر الشهر الذي عاد فيه ، فتلقاء أصدقاؤه
ومريدوه بالاجلال ، والسرور والاستبشار ، إلا الجبناء منهم فانهم تجاهلوا
وجوده ، وأذكر مما سمعته منه مثلا للصديق الشجاع ، ومثلا للصاحب الجبان ،
أما الاول فقد أخبرني رحمه الله تعالى انه كان في محطة مصر مع المحتفلين بلقاء
الخديو في عودته من الاسكندرية ، وكان معه صديقه التليد سليمان باشا أباطه ،
فرايا ان بعض الوجوه تتنكره ، والشيوخ تستدبره ، فعمل سليمان باشايمشي بجانبه
متأخرا عنه قليلا ليكون منه كالتابع مع المتبوع ، فجاءه أحد أولئك الجبناء وأسر
اليه : من هذا الذي تمشي معه متأدبا ؟ ألسنت تعلم ان أفندينا غضبان عليه ؟
فأجابه رافعا صوته : ان هذا صديقنا واننا نجله لعلمه وفضله ووفائه ، ولم تكن
صداقتنا له لاجل أفندينا فنتركها لفضبه عليه .

وأما المثل الثاني فقد أخبرني أنه دخل على مختار باشا الغازي يوم العيد
لتهنئته فوجد عنده رجلاين من الوجهاء الذين كانوا يعدون أنفسهم من الاصدقاء له ،
فلما رأياه داخلا تغيرت وجوههما ، وامتنعت الواثما ، واتخذوا قيام الغازي له
سببا لتوديعه والخروج من حضرته بسرعة كأنهما لم يريا الاستاذ
وقد اتخذ دارآ له في شارع الشيخ ريحان بالقرب من سراي عابدين فزاره

مقيا صديقه عبدالعزيز افندي سلطان الطرابلسي وسأله عن سبب اختيار هذا المكان ؟ فقال : نناطح عابدين مناطق !

هذا وانه لم يلبث أن تسابق العطاء إلى توفيق باشا يسألونه العفو عنه ، وكان في مقدمتهم بعض أفراد الاسرة الخديوية كما قلت في ترجمته من النار ، وأخص بالذكر هنا الاميرة نازلي هانم البرزة السياسية المشهورة ، وصاحب الدولة احمد مختار باشا الغازي مندوب الدولة العثمانية السامي في مصر ، وكذا اللورد كرومر ، ولم يكن أحد من هؤلاء يعرفه قبل ذلك معرفة شخصية ، ولكنهم سمعوا بفضله ، فشكر لكل منهم جميله ، وكان لتلميذه ومريده الوطني سعد زغلول سعي حميد في ذلك عفا الخديو عنه بشفاعه هؤلاء التي لا ترد ، وهو يعلم أنه كان خصما قويا للثورة العسكرية ، وإنما ذنبه عنده أنه كان الروح المدبرة لنهضة الاصلاح السياسي والحركة الفكرية ، وأن الحكم العسكري عليه بالنفي لم يكن عادلا . ولذلك قال : ما عفوت عن أحد عفواً هو أشبه بالاعتذار منه بالعفو الا هذا . ذكرت في النار أن الثقة أخبر الاستاذ الامام بهذا ، وأقول الآن ان هذا الثقة هو الشيخ البسيوني مفتي الكلية الخديوية في ذلك العهد - رحمه الله تعالى

فعم ان توفيق باشا كان يعرف رأي الشيخ في التربية المالية والوطنية ، وفيما يجب أن يكون عليه شكل الحكومة ، لان السيد جمال الدين هو الواضع له لذلك ، وكان الخديو توفيق قد انتظم في سلك حزبه الوطني الذي أسسه لقلب نظام الحكومة في مصر ، وعاهده على تنفيذ النظام الجديد الذي أرشده اليه متى صار الامر بيده ، ولكنه لم يلبث بعد توليته ان نفاه من القطر المصري ونفى خليفته الشيخ محمد عبده من القاهرة الى قريته لعله بانه هو الذي يتم ما بدأ به أستاذه كما تقدم في ترجمة السيد من هذا الجزء . ليس من الغريب غير المألوف أن يكره الامير المستبد تقييد سلطانه ، بل هو الممهور من المستبدين في جميع الأمم ، وإنما الغريب أن يسلب الاجانب سلطة أمير من الامراء ويجعلون امارته صورية يسخرونها في سياستهم ومقاصدهم حتى الضارة بها كما يشاؤون ، ثم يكون مع هذا راضيا بهذه الامارة الصورية تحت ظلمهم مفضلا إياها على تكوين بها قوة في أمته لا رجاء في رفع السلطة عنها وعن الاجنبية بدونها

الشيخ محمد عبده كان يريد تربية الامة المصرية وتكوينها حتى تكون مصدر الادارة والسياسة في بلادها ، ويكون أميرها ورئيسها ممثلاً لها أشرف تمثيل ، والخديو توفيق باشا كان يكره هذا ويحول دون تمكين الشيخ منه

كان الاستاذ الامام يجب أن يكون أستاذاً لمدرسة دار العلوم - ان لم يمكن أن يكون ناظراً لها - فلما رأى ان الوصول إلى ذلك من طريق الخديو متعذراً أراد أن يحتمل لنيل ذلك من طريق العميد الانكليزي ، فكتب اللائحة الثالثة من اللوائح التي نشرناها في ضمن منشأته من الجزء الثاني (١) وقدمها إلى العميد الانكليزي (المرافان بارنج) الذي أعطى بعد ذلك لقب « لورد كرومر » وفيها من الخلاصة والكياسة ما كان يمكن عقلاً أن يقتنع به العميد لولم يكن كاتبه والتصدى لتنفيذه هو الشيخ محمد محرر جريدة العروة الوثقى ، وخبر هذه اللائحة مر لم يكن يعرفه أحد ، ولم أصرح به في ترجمة الاستاذ التي نشرتها في المنار ، ولكن التاريخ الصحيح يجب أن ينطق بجميع الحقائق التي لا ضرر فيها على أحد ، وما أشرت نشر هذا الجزء منه إلا لأتمكن من هذه الحرية

ولم يكن الاستاذ الامام مع هذا السعي الخفي لتنفيذ مقاصده الاصلاحية من طريق رسمي مضيقاً لآوقاته في السعي له بل كان أول ماوجه اليه هم هو السعي لاصلاح الازهر من طريق مشيخته كما سيأتي . ثم إنه كان يقرأ درسا في تفسير القرآن ، أخبرني بهذا الدرس في حديث داريني وبينه (في يوم الجمعة ١٣ رمضان سنة ١٣١٥) بداره إذا اقترحت عليه أن يكتب في التفسير فاعتذر بعدم عناية المسلمين بالعلم وبتأويلهم للكتب كما أولوا نصوص الشرع ، وأطال في ذلك بمادونه في فاتحة الجزء الاول من تفسير القرآن ومنه قوله كنت أقرأ التفسير وكان يحضره بعض طلبة الازهر وبعض طلبة المدارس الاميرية ، وكنت أذكر كثيراً من الفوائد التي تحتاج اليها حالة العصر فما اهتم هذا أحد فيما أعلم ، مع انها كان حقها أن تكتب ، وما علمت أحداً كتب منها شيئاً خلا تلميذين قبطين من مدرسة الحقوق وكانا يراجعاني في بعض مايكتبان ، وأما المسلمون فلا !!! والآن أبين أعماله في مصر مبتدئاً بعمله في القضاء الاهلي

المقصد الاول

عمله في القضاء الاهلي

قلت ان الخديو توفيق باشا كان يخاف من الشيخ محمد عبده أن ينشر أفكاره الاستقلالية في الامة بالتعليم وبالمعاشرة ، فأراد أن يشغله عن ذلك فأمر بأن يعين قاضيا في المحاكم الاهلية ، وان يكون في خارج القاهرة ، فلما بلغ الخبر الاستاذ امتعض وقال انني لم أخلق لأكون قاضيا أقول حكمت على فلان بكذا وعلى فلان بكذا ، وانما خلقت لأكون معلما ، وقد جربت نفسي في التعليم فنجحت . ثم رغب الى ناظر الداخلية أن يشفع له عند الامير باستبدال التدريس في مدرسة دار العلوم بالقضاء ، وقال له انني اعلم انه لا ارتقاء في التدريس وانني أرتقي في القضاء إلى أعلى درجة فيه ولكنني لأحبه ، فلم يقبل الامير هذه الشفاعة وصرح بالسبب فقال انني لأحب أن يرربي لي التلاميذ على أفكاره السياسية ، فرضي بالقضاء ، وما زال يرتقى فيه الى أن بلغ أعلى درجة منه كما قال ، وهي درجة المستشار في محكمة الاستئناف

عين قاضيا في محكمة بنها ثم في محكمة الزقازيق ثم في محكمة عابدين بالقاهرة ثم عين مستشاراً في محكمة الاستئناف

وقد كان قاضي العدل والانصاف لا قاضي القانون والرسوم ، وإن شئت قلت القاضي المجتهد لا المقلد ، ذلك أنه لم يكن يحكم بظاهر عبارة القانون وتطبيق الواقع عليها بادي الرأي ، بل كان يتحرى اظهار الحق واصابة العدل في القضايا ، فن انطبقت على القانون ولا عمد إلى وسيلة أخرى ولا سيما الصلح . ومما كان يحكم فيه باجتهاده واعتقاده مسائل الربا فانه كان اذا تمذره عليه الصلح يحكم برأس المال دون الربا ، وكأين من قضية خالف فيها القانون عمداً ، حتى وشى به بعض حساده الواقفين على ذلك وذكر شيئاً من مخالفاته هذه في تقرير طويل قدمه الى وزارة الحقانية . فانه المستشار القضائي السابق (مستر سكوت) عن حقيقة ذلك سؤالاً عادياً غير رسمي

يعد أن أطلعته على التقرير، فقال الاستاذ: هل العدل وضع لاجل القانون أم القانون وضع لاجل العدل؟ قال المستشار بل القانون وضع لاجل العدل والعدل هو المقصود بالذات. فأنشأ حينئذ يشرح له تلك القضايا ويبين أنه لم يحكم فيها إلا بالعدل، فاقنع المستر سكوت وسر منه سروراً عظيماً لأنه كان منصفاً عارفاً بقيمة الرجال، على أن هؤلاء الانكليز أبعد الشعوب الاوربية عن الرسوم في القضاء وأقربهم إلى اعتبار الانصاف ووجدان القاضي فيه

وقد أساء الادب بعض الاجانب مرة في الجلسة فأمر بحبسه فحبس، فاضطرب قنصله الجنرال واحتج وكلم وزير الخارجية ولما وصلت الشكوى إلى نظارة الحتمانية كلم المستشار القضائي الاستاذ في ذلك قائلاً إن هؤلاء القناصل ليس لهم عمل يشغلهم في مصر فهم يفترضون شيئاً مثل هذا يماحكون به الحكومة، ونحن نحب أن لا نجعل لهم سبيلاً إلى القيل والقال، فذكر له الامام ما كان من ذلك الاجنبي في الجلسة من رفع الصوت وعدم التزام الادب المعروف، وقال انني مادمت جالساً على هذا الكرسي لتقرير العدل فانا لا أقصر في احترامه — أوقال — لا أقبل أن يهينه أحد إذ لا يمكن احترام القضاء إلا بذلك الخ ماقال وكان مستحسننا عند المستشار

وقد كان لا يعتقد بمعارضة الاجانب عند تنفيذ ما يصدر من الاحكام. من ذلك أن كثيراً من الفلاحين كانوا اذا حكم على أحدهم بنزع أرض من يده يلجأ إلى رجل أجنبي أو رجل يتمتع بحماية أجنبية فيعطيه الأرض بعقد كاذب نكايه في خصمه فيمنع الاجنبي الحكومة من تنفيذ الحكم، أو ترفع الدعوى إلى المحكمة المختلطة فتحكم فيها. وكان من المحكوم لهم من يترك الأرض للاجنبي لاعتقاده بعجزه عن انتزاعها منه في المحاكم المختلطة، ومنهم من كان يلقي بنفسه في مهاوي الدعاوي ويخسر فيها ماشاء الجهل أن يخسر، فعلى أمثال هؤلاء الاجانب كان ينفذ أحكامه بالقوة متحملاً تبعه التنفيذ، لعله بان ذلك الاجنبي المحتال لا يتجرأ على مقاضاة الحكومة في دعوى هو فيها مبطل يعجز عن اثبات دعواه

من ذلك أنه حكم مرة بنزع أرض من واطع يد وطني وردها الى صاحب

الحق الذي ثبت له في المحكمة - فقليل له ان فيها رجلا انكليزي التابعية رفع عليها علم دولته وهو يعارض في تسليمها . . فأعطى محضر المحكمة أمراً بأن ينزع العلم ويخرج الرجل المدعي للملكية بالقوة ، فلما رأى ذلك الرجل المستأجر لمنع تنفيذ الحكم ان الامر جده، وأنه اذا لم يخرج ممثلاً أخرجه منها لم ير له مندوحة من الخروج . وكان في الشرقية رجل سوري محصن بحماية الدولة الفرنسية قد جعل نفسه ملتجداً للمحكوم عليهم بأمثال هذه الاحكام في مقابلة جعل يكبر بقدر كبر القضية، وكان يدخل في المحاكمات مع خصوم اللتجىء اليه حتى صار ذا ثروة عظيمة، فلما رأى أحكام هذا القاضي الذي شرف القضاء بعلمته، التي كانت عنوان علمه وعدله وقوة إرادته، ترك هذه الوسيلة الدنيئة لكسب السحت إذ صارت مدعاة خيبة وخسارة وإهانة ذلك شأنه في القضاء وقد كان فيه نسيج وحده، ولم يكن مشغولاً فيه عما خاف لاجله من تربية الامة، فقد كان يعاقب المزورين وشهداء الزور حتى ظهر كثيراً من البلاد من شرهم بعد أن استفحل وطغى سيله ، كان يتسقط شاهد الزور حتى يقر فيحكم عليه ويخرجه من الجلسة الى الحبس . ثم ان الحكومة أقرت علمه هذا وأدخلته في القانون بالتعديل له بعده . وكان يجتهد في الاصلاح بين أهل البيوت وذوي القربى ، ويبالغ في حفظ حقوق اليتامى فكمن من أسرة كبيرة قطعت المداوة أرحامها ، واغتالت الخصومات ثروتها ، أصلح بحكمته وأحكامه ذات بينها ، وكل من ثبث عنده باحصاء الدعاوى السنوية ان أكثرها كان بين الاقربين ، وقد قل في خطبة له في الجمعية الخيرية وكان مستشاراً : إن العداوة بين الناس صارت على أشدها للأقرب فالقريب فالبعيد فالأبعد ! أي على خلاف ما تقتضيه الفطرة السليمة ووشيجة الرحم وهداية الدين

وكان يطارد الفحش والفجور حتى كادت الزقاقيق تطهر من رجس الباطل أيام كان قاضياً فيها كما ظهرت من التزوير ، ذلك أنه كان يحكم بأشد العقوبة التي يسمح له القانون بها على كل بغي تبرجت في الشوارع وعلى أعين الناس حتى كاد يجعلهن من ذوات الحجاب . وقد نقل اليه عن بعض المجان هناك أنه قال مرة لبني يعرفها كيف الحال ؟ قالت زي الزفت ، واذا بقي القاضي ابيرة

(أي ذو العمامة) هنا فانه يقطع رزقنا من هذه البلد ، عايز يرجع الدنيا لزمان سيدتنا النبي ، وقالت أخرى مامعناه ان النبي ظهر ثانية

أخبرني أنه كان اذا رأى أو علم بأن واحدة منهم خرجت الى الشارع منتهكة أو جلست أمام ماخورها متبرجة تفازل المارين أو تغني — أمر بعض الشرطة بسوقها الى المحكمة بذنب إغراء الناس بالفسق المحظور في القانون وحكم عليها بالعرامة أو بالحبس في الحال ، فكان يقلن يا ويلتنا بل « يادھوتنا » كيف يعرف الناس بنا اذا التزمنا ما يريد هذا القاضي منا من ستر وصيانة وأدب ؟

وقال لي كانت الفاجرة منهم تأتي المحكمة أولاً قبل أن يعلن مايراد بهن متبرجة بهيئتها المنكرة فاذا سألتها ما صنعتك ؟ — على سنة التحقيق — صرحت بفجورها بملء فيها ، فلما عرفني صرن يجمعن الجواب مرتعدات الفرائص ، فان أفصحت احداهن لم تزد على قولها : أنت عارف .

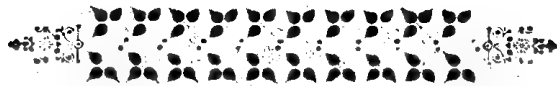
وأخبرني انه لما عين لمحكمة الزقازيق الكلية كانت قضايا العدوان والتزوير كثيرة ألجأته الى أن يعقد الجلسات في الساء حتى انه كان في بعض أيام رمضان يستحضر طعام الفطور الى المحكمة فيأكل ويصلي فيها ثم يشتغل بعد العشاء بكتابة بعض الاحكام . ولما اشتهرت سيرته وأحكامه في المديرية كلها قلت القضايا واستراح من العمل ، على ان صحته حسنت في المدة التي كان يكثر فيها العمل . وقد عرف الذين يختلفون الى جلساته من الخصوم والمحامين وغيرهم عادة من عاداته لم يكن هو يشعر بها وهي انه اذا ثبت عنده إجرام مجرم وأراد الحكم عليه بالمقاب كالقتل وما دونه أمال عمامته على جبهته ، فاتفق انه فعل ذلك مرة فصاح المجرم الذي علم أن سينطق بالحكم عليه « بمرضك اعدل العمة حتى أقول لك الصحيح » فضحك جميع الحاضرين ضحكة الدهشة ، واشتهرت هذه الحكاية في القطر المصري كله .

وأما براعته في تحقيق القضايا وفراسته في تمييز البريء من ذي الريبة فحدث عنها ولا حرج ، وقد كان مؤيداً بالوجدان الصحيح والالهام الصادق ، فان كان كغيره من البشر عرضة للخطأ في رأيه فقد كاد لا يخطئ في وجدانه أو إلهامه ،

٤٢٤ كلمة عالية في الارادة والاختيار ، والتقدير والابداع ، والنشوء والارتقاء

وسمعته يقول في بحث الكسب والاختيار انني كثيراً ما أنظر في قضية فأستخرج من التحقيق الطويل وجوها كثيرة للحكم بالادانة مثلاً حتى اذا ماتت المحاكمة وأردت النطق بالحكم تقوض كل ذلك البناء الذي كنت بنيت في ذهني من وجوه ترجيح الادانة، وظهر لي بغتة أن المتهم بريء حتماً فأحكم بالبراءة ،

وهذا يشبه قول بعض العارفين : عرفت الله بنقض العزائم، والمراد منه ان الانسان غير مستقل الارادة التي هي مناط الاختيار ، فهو مجلي لتجليات من الابداع الرباني غير منتظم في سلسلة الاسباب . وههنا بحث دقيق في إثبات القدر الموافق لمذهب التطور التدريجي في الجملة ، وهو مذهب أهل السنة . وما يعارضه من القول بالأمر الأنف (بضمتين) المراد به ان كل مخلوق مبدع مستأنف وهو مذهب القدريّة ، والحق أن القدر هو المطرد في البشر ، وان الأمر الأنف كالأستثناء في القانون ، وهو واقع في نفس الانسان ، وفي آيات الله للأنبياء ، وحجة على ان سنن النشوء والارتقاء انما تطرد في سلاسل الانواع بعد وجودها ، لا في أصل إيجادها كلها ، وقد تتعارض مع سنن غيرها مما وراء المادة الجارية فيها ، وواضع السنن ومقدرها باقدارها ، قادر على التصرف فيها ، وترجيح غيرها من السنن عليها . ولا يخلو شيء من ذلك من حكمة بالغة ، وهذا استطراد لا محل هنا لتفصيل القول فيه .



المقصد الثاني

عمله في الازهر

كان أول حديث دار بيني وبين الاستاذ الامام (قدس الله روحه) في مصر الحديث في إصلاح الازهر . زرته في اليوم الثاني من وصولي إلى القاهرة بداره (في أواخر رجب سنة ١٣١٥) وبعد التحية والسلام، وما يتصل بذلك من كلام، كاشفته باعتقادي واعتقاد من أعرف من العقلاء فيه ، وانه بقية رجاء المسلمين في السعي للإصلاح والاضطلاع به، وأنه بلغني انه يعمل لذلك في الازهر . فأفاض في كلام خلصته بعد مغادرة المجلس في عشر مسائل . قال (١) إن إصلاح الازهر أعظم خدمة للإسلام فإن إصلاحه إصلاح لجميع المسلمين وفساده فساد لهم . و (٢) ان أمامه عتبات وصعوبات من غفلة الشايخ ورسوخ العادات القديمة عندهم ، و (٣) ان هذا الإصلاح لا يتم إلا في زمن طويل ، وانه إذا رأى حال الازهر قد صلحت قبل موته فإنه يموت قريح العين ، ويرى نفسه سعيداً بل يرى نفسه ملكاً . و (٤) انه لا يرى لدخوله في الحكومة فائدة الا الاستعانة على إصلاح الازهر ، فإنه لولا مكانته عند الخديو والحكومة لما كان يسمع له في الازهر كلام ولا يقبل له رأي ، و (٥) انه لم يحصل شيء من الإصلاح يذكر حتي الآن ، و (٦) انه أراد أن يبدأ بأعمال عظيمة في الإصلاح اغتناماً للفرصة فأشير عليه بوجوب التدريج (!!) وانه لا بد له من المسابرة وإن كان يخشى أن تضعف الفرصة بما يسمونه التدريج ... هذه ست مسائل في موضوع الازهر أطل القول فيها وانتقل منها الى المسائل الأخرى وأهمها تخطيط أذ كساء المسلمين الذين يريدون خدمة الاسلام من طريق السياسة ، أي دون التربية التي توحد قوى الأمة ، وإلى يأس من يعرفه من كبراء المسلمين من نهوضهم وتخطيطهم في ذلك .

وقال لي في حديث آخر ان نفسي توجهت إلى إصلاح الازهر منذ كنت مجاوراً فيه بعد التلقي عن السيد جمال الدين ، وقد شرعت في ذلك فخيّل

بيني وبينه ، ثم كنت أترقب الفرص فما سنحت إلا واستشرفت لها وأقبلت عليها ، حتي إذا مصادفت الموانع لويت وصبرت مترقبا فرصة أخرى . وبعد ان عدت من النفي حاولت اقناع الشيخ محمد الانبائي (شيخ الازهر) بشي . فلم يصادف قبولا . قلت له مرة هل لك أيها الاستاذ أن تأمر بتدريس مقدمة ابن خلدون في الازهر ؟ ووصفت له من فوائد هاما شاء الله أن أصف ، فقال ان العادة لم تجر بذلك . فانتقلت به في شجون الحديث الى ذكر الشيوخ وسألته منذ كم مات الاشموني والصبان ؟ قال منذ كذا ، قلت انهما حديثا عهد بوفاة وهذه كتبهما تقرأ بعد ان لم تجر العادة بذلك . فسكت ولم يدخل في الحديث

وقال لي مرة أخرى ان بقاء الازهر متداعيا على حاله في هذا العصر محال فهو إما أن يعمر وإما أن يتم خرابه . وانني أبذل جهد المستطيع في عمرانه فان دفعني الصوادف الى اليأس من اصلاحه فاني لا أياس من الاصلاح الاسلامي بل أترك الحكومة وأختار افرادا من المستعدين فأريهم على طريقة التصوف التي ربيت عليها ليكونوا خلفا لي في خدمة الاسلام ثم أؤلف كتابا في بيان حقيقة الازهر أمثل فيه أخلاق أهله وعقولهم ومبلغ علومهم وتأثيرهم في الوجود وأنشره باللغة العربية ولفة إفرنجية حتى يعرف المسلمون وغيرهم حقيقة هذا المكان التي يجهلها الناس حتى من أهله

ثم انه لما اضطر الى الاستقالة من ادارة الازهر على الوجه الذي سنبينه عزم على بناء محل بجانب داره بعين شمس والسعي لاختيار نفر من الاذكياء السليمي الفطرة وتربيتهم فيه بمساعدة مؤلف هذا الكتاب وهو ما كان اقترحه على السيد جمال الدين كما تقدم

وأما بدء عمله في الازهر فقد أتيح له بعد وفاة توفيق باشا فانه لما جلس عباس باشا حلمي على كرسي الخديوية تجددت للبلاد المصرية آمال ، وتوجهت إلى أعمال ، كان الغرض منها إزالة الاحتلال ، ولو كان هذا الغرض مما ترجى إصابته يومئذ بسهام المصريين ، لكان الفقيد يكون في طليعة العاملين ، لانه كما نعلم أنفذهم رأيا ، وأقواهم عزما ، وأخلصهم قابا ، ولكنهم كان يعتقد بعد ذلك السعي الذي

شرحناه في الفصل السابق أن المسألة لا يمكن أن تحل بوسيلة السياسة إلا باتفاق الدول العظام وأن الرجا في اتفاقهم بعيد كاتين. فأراد أن يكون حظه من حب الامير الجديد للعمل السعي في إصلاح الازهر بنفسه واقناع الامير بالسعي في إصلاح المحاكم الشرعية والاقواف لأن هذه المصالح الثلاث إسلامية محضة تشمل اصلاح التربية والتعليم واصلاح المساجد والارشاد ، واصلاح البيوت (العائلات) فاتصل بالامير وحظي عنده وكشفه برأيه فيها بأن قل له وقد رآه متبرما ضجراً من استيلاء الانكليز على جميع أعمال الحكومة : ان لدى أفندينا هذه المصالح الثلاث العظيمة فيمكنه أن يصلح الأمة كلها باصلاحها ، وقد تركها الانكليز له لانها دينية فهم لا ينازعونه فيها الآن ، ولا يؤمن تدخلهم في شأنها اذا طال العهد وساعدت الفرص فيجب المبادرة لاصلاحها ، وذكر له كليات هذا الاصلاح . وكشف الحكومة بأمله في اصلاح الازهر بأسلوب آخر ، وجاء بما جاء به من آيات الاقناع حتى توصل الى إنشاء قانون تمهيدي للاصلاح يديره مجلس مؤلف من أكابر علماء المذاهب في الازهر ينتخبون انتخاباً وقد جعل هو وصديقه الشيخ عبد الكريم سلمان من أعضائه على انهما من قبل الحكومة لا رأي لشيخ الازهر ولا للمجلس في انتخابهما ، ولا في استبدال غيرهما بهما. وكان الشيخ محمد الانبائي الذي هو شيخ الازهر لذلك العهد مريضاً وقد كثرت شكوى الشيوخ من إدارته فعين الشيخ حسونة وكيله بعد أن أخذ عليه العهد باقامة النظام والاتفاق مع الاستاذ الامام على الاصلاح وقد أجمعت القول في الاصلاح الرسمي في ترجمته من المنار فقات

عين الشيخ حسونة وكيلاً لمشيخة الازهر ماذونا بادارة شؤونه لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣١٢ و صدر الامر العالي بتشكيل مجلس ادارة الازهر لست خلون من رجب من تلك السنة أي في الشهر الثاني ثم حصل السعي في اقناع الشيخ الانبائي بالاستقالة فاستقال و صدر الامر العالي بتولية الشيخ حسونة شيخاً للازهر في ٢ المحرم سنة ١٣١٣

كان الاستاذ الامام ، روح الله روحه في دار السلام ، يجب أن يجري الاصلاح في الازهر باقناع كبار مشايخه ورضى أهله فبدأ باستمالتهم بتكثير رواتبهم

فسمى لدى المستشار المالي الاسبق لتعيين مبلغ من خزانة المالية لمساعدة الأزهر الذي يخرج للحكومة كذا رجالاً من القضاة الشرعيين والمفتين والمأذونين فأجيب الطلب وعين في ميزانية سنة ١٨٩٥ م مبلغ ألفي جنيه للأزهر على أن تصرف بنظام معلوم لا رأي شيخ الأزهر وميله على ما كان يعهد في الأزهر ، مع الوعد بالزيادة على هذا المبلغ في فرصة أخرى اذا جاء بفائدة ، فكان هذا حجة للفقيد على وجوب وضع قانون للترتبات في الأزهر ليكون لكل عالم حق معلوم يتناول في وقته من غير تزلف إلى شيخ الجامع او غيره . وتلا هذا القانون قانون كساوي التشريف ومرتباتها وكان الرأي فيها من قبل لشيخ الجامع يعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، فصارت تعطى لمستحقها من غير سعي ولا تزلف ، فسر الشيوخ بذلك سروراً عظيماً

بعد هذا وجه الفقيد عنايته في المجلس الى نظام التدريس والامتحان وبيان وسائل العلوم ومقاصدها وجعل التدريس فيها على طريق توصل الى الغاية منها . وبعد اجتماع ومذاكرات طويلة وضع القانون لذلك واحتيج في تنفيذه الى المال فلجأ الفقيد الى أربحية الامير فصدر الامر لديوان الاوقاف بصرف ٣٣٧٤ جنيها للأزهر بينت مصارفها ومنها ٤٦٤ جنيها لانشاء دار الكتب الازهرية ، ثم وضع نظام آخر لتوزيع الجرايات بالعدل

وأما نظام التدريس واختيار كتب العلوم فهو الذي أحب الاستاذ الامام رحمه الله تعالى أن يجعله برأي كبار الشيوخ ليسهل تنفيذه بالرغبة ، ولا يثقل عليهم إزامهم به من جانب القوة ، وليتعود أهل هذا المكان على البحث في الامور المهمة ، والتعاون على ما ينفع الامة ، فوضع مشروع نظام التدريس واختيار الكتب واقترح أن تؤلف لجنة من كبار الشيوخ للبحث فيها وإقرار ما يرونه نافعا ، فألفت اللجنة من أكثر من ثلاثين عالماً وجعل الشيخ سليم البشري أحد أعضاء مجالس الادارة رئيساً لها . ثم انتخب منها لجنة للبحث في كل فرع من المشروع وإبداء رأيها فيه للجنة الكبرى ، وكانت هذه اللجنة مؤلفة من بضعة نفر ، هم أكابر شيوخ الأزهر وضم اليهم الاستاذ الامام من قبل مجلس الادارة ، وبعد أن أتمت هذه اللجنة عملها قدمته إلى اللجنة الكبرى فأقرته هذه بعد تحوير

قليل لا يذكر وكانت مشيخة الازهر قد اسندت يومئذ الى الشيخ سليم البشري الذي أوقف كل ما كان المجلس شرع فيه فأوقف أيضاً مشروع اصلاح التدريس بل كان المجلس يقرر الشيء بالاتفاق مع رئيسه الشيخ سليم ثم انه لا ينفذه ولم يكن القصد من ذلك إلا إحباط سعي الاستاذ لامام وإبقاء التقديم على حاله ، واقد كان قادراً على الالتزام بالتنفيذ بطابعه رسمياً من الحكومة ولكنه لم يكن يجب أن يكون للحكومة تصرف في الازهر بل أن يبقى مستقلاً يصلح أهله برضى واقتناع وهل يبقى كذلك بعده ؟ الله اعلم والايام تظهر ما يعمل

وكان من الاصلاح الذي تم في الازهر بسعيه رحمه الله تعيين طبيب الازهر وصيدلية (أجزخانة) خاصة به في نفس الجامع وإثارة المسجد بالغاز البخاري ، وإنشاء الميضة على الاصول الصحية وتجديد مباني صحية في الاروقة وغير ذلك مما انفصله في التاريخ ، ومن شاء أن يطالع على ذلك بالتفصيل التام ، فليرجع الى كتاب (أعمال مجلس ادارة الازهر) (١)

وقد انتقل الازهر بهذا الاصلاح من خلل عام ، إلى شيء من النظام ، ومن حالك الديجور ، إلى بصيص من النور ، ولم يتم عمل من الاعمال على ما كان يجب رحمه الله تعالى . ولكن الاصلاح الحقيقي الذي كان روحاً محيياً ونوراً مبصراً فهو ما كان يلقيه من دروس التوحيد والتفسير والبلاغة والمنطق فهذه الدروس هي التي حوت نفوساً كثيرة عن السبل المتفرقة الى سبيل الله وصراطه وهي محل الرجاء في هذا المكان اهـ

هذا ما أجملناه في ترجمة الامام عقب وفاته وقد وعدنا بتفصيله في هذا الكتاب ، واننا نتجز وعدنا بتلخيص المهم من كتاب (أعمال مجلس ادارة الازهر - من ابتداء تأسيسه سنة ١٣١٢ الى غاية سنة ١٣٢٢) وهي مدة اشتغال الاستاذ الامام المصلح في المجلس فهو قد استقال في شهر المحرم سنة ١٣٢٣ وتوفي في شهر جمادى الاولى منها ، وان كان في هذا التفصيل تكرار لما في ذلك الاجمال

(١) هو تاريخ يبين ما كان عليه الازهر قبل الاصلاح وما صار اليه بعده صورة ومعنى وصفحاته ١٢٤ ومن النسخة منه ٤ قروش واجرة البريد قرش ويطلب من مكتبة المنار بصـ

كتاب أعمال مجلس ادارة الازهر في عشر سنين

طبعت هذا الكتاب ونشرته في سنة ١٣٢٣ ولم أكتب عليه اسم مؤلفه. وأقول الآن ان الذي كتبه هو الاستاذ الشيخ عبدالكريم سلمان صديق الاستاذ الامام وزميله في هذا العمل ، كتبه في أثناء مرض الامام بامر ، وقد قرأته كله عليه قبل طبعه فأقره ، وأكثر ما يسنده فيه الي « أحد أعضاء مجلس الادارة او بعض الاعضاء » يراد بالعضو فيه الاستاذ الامام ومنه وهو أقله ما يريد به نفسه وانني أسكت عن الاكثر واين الأقل في الحاشية ، ولم يكن أحد منهما يريد إظهار اسمه لان عملهما كان خالصا لوجه الله عز وجل جزاها الله أفضل الجزاء. قال الكاتب رحمه الله

﴿ تشكيل مجلس ادارة الازهر وأسابيه ﴾

(رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي)
في اوائل المحرم من سنة ١٣١٢ هجرية قامت قيامة أهل الفضل من العلماء على المرحوم الشيخ محمد الانبائي شيخ الجامع الازهر اذ ذاك فرفعوا العرائض الى الجناح العالي مفعمة بان شيخهم عاجز عن ادارة شؤونهم وانه خص أهل مذهبه الشافعية بخيرات الازهر وانه قصر عليهم كساوي التشریف على غير إنصاف بين أهل مذهبه وبين بقية اهل المذاهب ، وما زالوا كذلك حتى أوقف الجناح العالي صدور الاوامر العالية بالانعام على من اختارهم الشيخ وخصهم بتلك الكساوي التشريفية وبقيت الكساوي موقوفة الى أن تغيرت الحال

وفي الثامن من شهر جمادى الآخرة سنة ١٣١٢ صدر الامر العالي بتعيين الشيخ حسونة النواوي وكيلا لمشيخة الأزهر ماذونا بأن يدير شؤونه حتى يتقرر أمر جديد . ثم لم يمض الاقل من شهر حتى صدر أمر عال بتشكيل مجلس ادارة الازهر وذلك في ٧ رجب سنة ١٣١٢ وابلغ الى رئاسة مجلس النظار ، وسميت أعضاء المجلس في ذلك الامر الكريم ، فكان منهم اثنان من

موظفي الحكومة وهما الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان وثلاثة من اكابر العلماء الازهريين غير الموظفين أحدهم شافعي وهو الشيخ حسن الرصني والثاني مالكي وهو الشيخ سليم البشري والثالث حنبلي وهو الشيخ يوسف النابلسي شيخ مذهب الحنابلة اذذاك . ومجلس النظر أبلغ هذا الامر الى وكيل المشيخة وهو أعلنه للأعضاء ودعاهم الى الاجتماع أول مرة في الازهر للنظر فيما لديه فيه من الشؤون وكان أول اجتماع لهم في السادس عشر من شهر رجب المذكور وبعد هذا رأي ان وجود شيخ للآزهر بمنزل عنه لا يعلم شيئاً من شؤونه ووجود وكيل هو رئيس مجلس الادارة واليه ينتهي كل شيء مما يدعو إلى توقيف سير الاعمال ، ويوجب بقاء القيل والقال ، فأوعز الى مأمور رسمي عظيم بان يحسن للشيخ الانباي الاستقالة من منصبه ، فتردد الشيخ طويلاً ثم انصاع بعد الى تلك النصائح التي اعتبرها أمراً ، وقدم استقالته الى المقام الرفيع - وكان حينئذ في الاسكندرية المصيف - وصادف ان رأس السنة الهجرية كان قد قرب فتوجه الكثير من العلماء لتأدية التهنئة بذلك الموسم وبالطبع كان فيهم الشيخ حسونة النواوي وكيل المشيخة ، فدار الكلام بصفة غير رسمية في قبول الاستقالة الانباية وفيمن يعين شيخاً للآزهر بدله وبات في حكم المقرر أن يكون الشيخ الاصيل هو ذلك الوكيل

وبينما الحال كذلك في سراي رأس التين واذا بعريضة وقع عليها فوق الثلاثين وتلغراف وقع عليه عشرة ونيف كلهم من اكابر العلماء شافعيين وغير شافعيين طلبوا فيهما من الجنب العالي أن لا يقبل استقالة الشيخ الانباي وان يبقيه شيخاً لانه الرجل الذي وصفه كيت وكيت من العلم والقدرة على ادارة الشؤون، وان لا يعين الشيخ حسونة شيخاً للآزهر لانه الرجل الذي وصفه كيت وكيت ... وقد كاد هذا الامر يفضي الى بقاء القديم على قدمه والى توقيف تعيين الشيخ حسونة لولا ان بعض العارفين بحال الازهر واهليه كانت موجوداً في الاسكندرية وأشار بمراجعة هذه التوقيع التي على العريضة والتلغراف ومقابلتها بالتوقيع التي على عرائض الشكوى من الشيخ الانباي فزوجت فاذا بعضها

موقع به على النوعين ، وهناك تحقق الجنب العالي انه لاقية لمثل هذه التواقع التي توقع على الامرين المتضادين ، وان المصلحة هي المقدمة بقطع النظر عن يضادها وان كبروا وكبروا ، فصدر الامر الكريم بقبول استقالة الشيخ الانبائي رحمه الله ولم يعأ بطلب ابقائه من أولئك الطالبين وفي اليوم الثاني من شهر المحرم سنة ١٣١٣ صدر الامر العالي بتولية الشيخ حسونة شيخا أصيلا على الأزهر ورئيسا لمجلس ادارته ، ثم ذهب الى السراي العامة واستلم الامر وشكر ولي النعمة على ماتفضل به عليه ، ثم استفاض الامر بين علماء الأزهر الموجودين في الاسكندرية فارسل بعض أصدقائه تلغرافا الى مصر أخبر فيه بأنه قد عين شيخا للأزهر وانه عائد الى مصر في الغد ، فلا وربك لم يبق ولا واحد تقريبا ممن طعنوا على تعيينه في تلك العريضة وذلك التلغراف الا وقد استقبله على محطة مصر وانتظره في بيته بقنطرة عمر شاه قبل أن يصل اليه ليهنئوه بالمنصب الجديد الذي هو أحق به ممن سواه وصدقوا فيهم حدس من قال في ذلك اليوم (يوم ورود العريضة والتلغراف) ان أولئك الطاعنين سيكونون السابقين الى تهنئة الشيخ الجديد في المحطة ليعرفهم بانهم كانوا أول المهنيين^١

قانونه المرتبات

قلنا فيما مضى ان أول اجتماع لمجلس الادارة الذي شكل على الوجه السابق كان في السادس عشر من شهر رجب سنة ١٣١٢ ونقول انه في هذا الاجتماع الاول قرر أعضاء خطة سيرهم وما يلزم البدء به من الاعمال وما يقدم من القوانين المحتاج اليها في الوضع ، فظهر لهم ان أول ما يهتم أهل العلم هو ضبط المرتبات وتوزيعها عليهم ، وقد صادف ان نظارة المالية كانت قد وضعت في ميزانية سنة ١٨٩٥ مبلغ ألفي جنيه مصري في السنة معونة للاء فوق ما كان لهم فيها من قبل وذلك بسعي بعض أهل الخير^٢ الذين يحبون أن يتسع رزق أهل الأزهر وأهله يعرفونهم بهذه

(١) ان الشيخ عبد الكريم هو الذي قال هذا اخذ يوما باجاز الاستاذ الامام

(٢) هو الاستاذ الامام الذي أفتع المستشار المالي بذلك كما أخبرني وقال انه تعب تعباً عظيماً في اخذ وفدهم لمقابلة المستشار ليتكلم بلسانهم وانما يشته لان لم يعبر عنه بهضو مجلس الادارة

الصفات وإن أنكروها عليهم أحياناً ، واشترطت المالية أن لا تصرف هذه المعونة إلا بعد أن يوضع لصرفها نظام فإن وضع فيها ، وإلا أبقى معونتها عندها ، وحرم منها أهل هذا المكان الضعفاء — كل هذا جعل البدء بوضع قانون المرتبات أمراً لازماً لا يسوغ معه تقديم غيره عليه ، فكلف المجلس بعض أعضائه بوضع مشروع لهذا القانون فوضعه ، ثم نوات الجلسات لتلاوته والتعديل والتنقيح فيه ، حتى كمل وضعه وجاء وافياً بالحاجة من معظم وجوهه ، وقدم الى هيئة الحكومة ودارت المحابر بين الهيئة الحاكمة وبين بعض أعضاء المجلس في تفهم مواد هذا النظام الذي لم يعهد له عند الحكومة مثيل حتى اقتنعت نظارة المالية بما فيه وتبين لها ان ما كان منه مخالفاً للمألوف في قوانينها المالية انما جاء طبقاً للمألوف في الازهر ومراعى فيه احكام الضرورات وهي تبيح المحظورات ، فقبلته المالية وقرره مجلس النظار وصدر الامر العالي به في اليوم السادس من المحرم سنة

١٣١٣ و٢٩ يونية سنة ١٨٩٥

ولقد ترتب على ايجاد هذا النظام ان طلبت نظارة المالية من الازهر أن يقرر درجات العلماء ويحدد الرتب لكل درجة منها ويبيح اليها بمجداول هذا الترتيب ، فاشتغل المجلس بذلك وأتمه على الوجه الاكمل فيما رآه وأرسل الجداول الى نظارة المالية فلم يسها بعد إلا أن اقوت الامر وأمرت بصرف الالفى جنيه ، وبقي هذا المبلغ في ميزانية المالية يصرف معونة للازهر مشاهرة الى الآن ولا تظهر فائدة هذا العمل (وضع قانون المرتبات) إلا بذكر طرف مما كانت عليه الحال فيها قبل وجود هذا القانون وطرف آخر مما صارت اليه حالها بعد وضعه فلنذكر منها شيئاً وان كان إجمالاً وقليلاً لتجلى الفائدة واضحة التبيان

﴿ حال الازهر ومراتب الشيوخ قبل النظام الجديد ﴾

تنقسم مراتب الازهر الى قسمين : سنوية وهو ما يسمونه بدل الكساوي وشهرية ، ومصرفها معاً العلماء المدرسون وأولاد من يموت من العلماء . وقد كان الامر فيها بنوعها موكولا الى شيخ الجامع الازهر يعطي من يشاء ويمنع من

يشاء . وكانت المراتب السنوية تجزأ اجزاء صغيرة بحيث يمكن لشيخ الجامع أن يعطي منها نحو مائة قرش في العام او اقل، وكانت المراتب الشهرية تمنح لآناس دون آخرين، فكان لبعضهم منها نحو ستة عشر قرشا في الشهر ولكثير منهم الحرمان بالمرّة، وللقليل منهم ما فوق ستائة قرش شهرياً . واذا انحل بموت احد العلماء شيء من هذين القسمين رأيت بيت شيخ الجامع غاصاً بالمتزلفين ، مزدحماً بالراجين، مملوءاً بالشاكين البائسين ، ورأيت مباشر الازهر ^(١) وهو كاتب بسيط تتماوج بين يديه الفرجيات ، ذاهبات آثبات ، كل يرجوه، وهو يعد او يصد، او يؤمل او يقط ، وربما انتهى الامر بعد الجري والعدو بين البغالة والفجالة ^(٢) لتجزئة ذلك المنحل وضم اجزائه الى مراتب بعض الاكابر ، وحرمان الخالين منها بالمرّة. فيتربص الراجون والشاكون ينتظرون موت واحد منهم لعله ينالهم من مرتبه شيء يسير

واني لا أعلم ان مجالس الادارة جاء وفي العلماء من ليس له مرتب اصلا وهم كثيرون، وفيهم من له ستة عشر قرشا في الشهر لا غير، وفيهم من يمني نفسه، وفيهم من ينس ورضي بالخبز القليل ، أعرف منهم واحداً مات رحمه الله وقد عرضت عليه لفقره وعلمي بحاله بعض الشيء . من مالي كل شهر فأني علي ذلك، وطلب مني ان ارجو شيخ الجامع حينئذ في أن يعطيه شيئاً ولو من مراتب صدقات الاوقاف ففعلت ورضي بما توسطت له به عند الشيخ وهو نزر قليل

هذا طرف من تلك الحل القديمة وقد تغيرت والحمد لله بالمرّة بعد وضع

(١) المباشر في اصطلاحات بعض الفقهاء هو الكاتب إذ كان يوقع بالتنفيذ ويباشره وهو هنا كاتب الازهر ولما صار للازهر عدة كتاب صار رئيسهم فهو فيه بمعنى (باشكاتب) في الدواوين اهـ من حاشية الاصل

(٢) البغالة موضع في مصر يقيم فيه بعض العلماء منهم الشيخ سليم البشري شيخ الازهر الاسبق والفجالة محلة كان يقيم فيها المرحوم الشيخ الانبأى اهـ من الاصل

ذلك القانون اذ تقرر فيه ان المرتبات السنوية (بدل الكساوي)^(١) لا يمكن ان ينقص عن اثني عشر جنيتها في العام ولا ان يزيد عن ثلاثين جنيتها وثلاثي جنيه ، وينهها درجات ترتفع الواحدة عما تحتها ثلاثة جنيها (٢) وجعل لاعطاء هذا النوع والترقي فيه بأحلاله عمن يموت من العلماء ضوابط مقرر لا يتعداها أحد ، وان المرتبات الشهرية لا يمكن ان تنقص عن خمسة وسبعين قرشاً ولا ان تزيد عن ثلاثمائة قرش الا اذا تجدد شي ، في المقرر ، وينهها درجات . وجعل لاعطاء هذا النوع والترقي فيه ضوابط كذلك . وبذلك اخذ كل واحد من لم يكن ياخذ مرتب درجته التي وضعه فيها مجلس الادارة أو كمل لمن كان بيده اقل من المقرر لدرجته .

واما من كان منهم فوق هذه الدرجات فقد أبقى على ما كان بحكم الضرورة لانهم ليسوا بالكثير ، ولانه كانت لبعضهم مكانة بالسن والشهرة بالعلم ، ولانه شيء ما اكتسب بالفعل فلا وجه لأخذه ، فاضطر القانون لاستبقائهم على ما كانوا عليه وقرر أن توزع مرتباتهم بعد موتهم طبق القانون ، فاستقر كل واحد في مكانه وانتفع بالمرتب على مقدار ما قسم بدون ان يجهد نفسه في الرجاء او الاستجداء .

واني لأعرف واحداً منهم هوجي يرزق الى الآن قال لما علم بأن ما كان بيده من المرتب قد زاد (اني غير مصدق بانني اخذت شيئاً وكيف اصدق وانالم

(١) كان الممتازون من العلماء يزورون والي مصر في أول ليلة من رمضان فيخلع عليهم الخلع وهي الكساوي . وقد انقطعت هذه العادة مدة من الزمان ثم رأى الولاة بعد ذلك ان يستبدلوا بها نقوداً وصارت من مرتبات الازهر التي تصرف لاربابها من خزينة المالية في أول رمضان والفضل في استرجاعها للمرحوم الشيخ العباسي ولكنها صارت في ايدي مشايخ الازهر يعطون منها من شاؤوا اي مقدار شاؤوا فردها النظام الي أصحابها من حاشية الاصل

(٣) درجات بدل الكساوي سبع (الاولي) ٣٠ جنيتها و ٨٦٧ ملما وهي لاثنتين من العلماء أحدهما شيخ الجامع (الثانية) ٢٧ جنيتها وهي ثلاثة (الثالثة) ٢٤ جنيتها وهي اثنان (الرابعة) ٢١ جنيتها وهي اربعة (الخامسة) ١٨ جنيتها وهي اربعة (السادسة) ١٥ جنيتها وهي خمسة (السابعة) ١٢ جنيتها وهي عشرة اه من حاشية الاصل

اكلم احداً ولم ارج كبيراً ان هذا لمن المحال) ولم يصدق الا بعد ان قبض الزيادة بيده في آخر الشهر وتكرر صرفها بتكرار الشهور وهناك عرف ان الحق يصل الى صاحبه بدون ذلك الطريق المعروف

وأما اولاد العلماء فقد جعل لهم القانون حداً لاستيلائهم على تلك المرتبات المنحلة عن آباءهم وقيد ترتيبها لهم بقيود مراعيًا معونتهم على طلب العلم واستدامة اشتغالهم ليخافوا آباءهم الارلين وقدر لهم سنين يأخذون فيها ذلك المرتب مع مراقبتهم في عمالهم من مجالس الادارة

هذه حال المرتبات بعد القانون وهي وان كرهها الاقلون قد أفرحت الاكثرين، وجعلتهم في مأمن من استقلال الشيخ بالامر وصرف ما يشاء لمن يشاء، واني لا أعرف واحداً من اكابر المالكية قل لبعض اعضاء مجالس الادارة والمجالس يشغل بترتيب الدرجات « كيف يأخذ هؤلاء العلماء الصغار من المرتبات ونحن العلماء الكبار على قيد الحياة؟ » فأجابه المصو « يامولانا ان الصغير يشغل بالتمائم كما تشغل وان اخذت ما في النفع فيحسن أن يكون له في مقابلة عمله راتب قليل، ومثلك يامولانا يأخذ على مقدار عمله الراتب العظيم » فلم يقتنع الشيخ ورأى ان هذا من الاجحاف بمكان، فلاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

بعد أن وضع هذا القانون وجداول الدرجات قامى مجلس الادارة الاهوال في تطبيق كل حادثة وقعت على نصوصه لان اهل هذا المكان لم يتعودوا على شيء من النظام، ولاحظ المجلس انه ربما كان للمالية بعض المراقبة على تطبيق نصوصه فجاء هذا الحساب مضبوطا وأرسلت المالية آخر السنة مندوبا من أمهر عمالها لمراجعة أعمال المجلس ففتش كل صغيرة وكل كبيرة فلم يجد ما يلاحظ عليه ورجع مسروراً، ثم عاد آخر السنة الثانية وفعل كما فعل في الاولى فكان الامر فيها أيضاً على ما رآه

(الحاق التعليم في الجامع الاحمدي بالآزهر^(١))

في ١٦ شوال من سنة ١٣١٢ أي بين زمن توكيل الشيخ حسونة وبين زمن مشيخته صدرت ارادة سنية بالحاق الجامع الاحمدي بالجامع الازهر في التدريس والامتحان وإدارة الشؤون العلمية، فأجهد المجلس نفسه (في الفترة التي كان فيها قانون المرتبات بين يدي الحكومة) في وضع القوانين والنظامات لهذا المسجد وقامى كذلك في تنفيذ تلك القوانين خصوصاً ما يتعلق منها بالامتحان مشاق لا تحتمل عادة، وآخر الامر انصاع أهله للحق وقر قرار شيخه الجديد الذي عينه مجلس الادارة وقبل الامتحان من أهله اكثر من عشرين وهم الذين كان دسهم شيخه السابق قبل فصله بأيام في العلماء بلا امتحان، وسار التدريس فيه سيراً حسناً بقدر الامكان، وتخرج فيه كل سنة كثير من العلماء بالامتحان

(الحاق التعليم في المسجد الدسوقي ودمياط بالآزهر)

وفي يوم ص - دور قانون المرتبات السابق ذكره (٦ المحرم سنة ١٣١٣) أي عقب تعيين الشيخ حسونة شيخاً بأربعة ايام صدرت ارادة سنية اخرى بالحاق التدريس والامتحان في المسجد الدسوقي وفي دمياط بالجامع الازهر فوجه مجلس الادارة عنايته اليهما، ووضع لكل منهما نظاماً خاصاً به وكلف نفسه أوصاباً كبيرة في تنفيذهما، ولم يعبأ بما لاقاه من أهل العلم في دمياط فقد كثر شغبهم ولعبهم في أمر تقرير درجاتهم وعلت شكواهم فوجه اليهم المجلس من أعضائه من عمل بالحق، حتى انحسم الامر فيها بالعدل، وتقررت لهم الدرجات وفرضت عليهم الاعمال، وتكفل نظامهم بما يعوزهم من العمل فسكتوا راضين وأما الجامع الدسوقي فقد عمر بالعلم ونيط التدريس فيه ببعض علماء من الازهر

(١) غرض الاستاذ الامام من هذا الحاق ظاهر وهو توحيد التعليم وقائده في ازالة النساد وتعميم الاصلاح لا تخفى ومن العجيب ألا يشير السكاتب الى سعى الاستاذ الامام او احد اعضاء مجلس الادارة الى ذلك

ارسلوا اليه، وتوارد اليه الطلاب من أقاصي البلدان بعد أن كان لا يتأق في غير
لفيف من اهل البلد لا يهتمهم الا الاخذ من صندوق النذور^(١) ودروسه الآن حافلة
والراغبون فيها كثيرون، وقد جاء منهم الى الازهر طلاب واختبروا فوجدوا أهلا
لأن يتلقوا الكتب العالية فيه، وحسبت لهم مدة الطالب في دسوق

كساوي التشریف

لما كان من عادة اهل الازهر الاهتمام بالماديات قبل كل شيء، وقد فرغ
المجلس من أمر قانون المرتبات توجهت الفكرة الى كساوي التشریف التي كانت
اوقفت في زمن الشكوى من المرحوم الشيخ الانبائي وكانت نحو اثنتي عشرة كسوة
فوزعها المجلس على بعض المشايخ توزيعا روعى فيه جانب الاستحقاق والعدل
من جهة وجانب ما كانت قد جرت العادة بملاحظته من قبل. وصدر الامر العالي
بالاحسان بها طبق ما قرره مجلس الادارة، فكان هذا مع ما سبقه من اعطاء المرتبات
موجبا للفرح والسرور، ثم التفت المجلس بعد ذلك الى انه يجب أن يكون لصرف
هذه الكساوي قانون يراعى فيه تقرير صفات الاستحقاق لكل درجة من
درجاتها حتى تندفع الأثرة ويكون الحكم هو القانون، وتكون الاهلية بالصفات
وبالاعمال، لا بالمحابة والالحاح. فوضع المجلس هذا القانون ثم عرضه على الحكومة
وهي بعد أخذ ورد وطول مناقشة وكثرة اجتماع ببعض الاعضاء أقرته. وصدر
الامر العالي بالعمل به في ١٧ شعبان من سنة ١٣١٣

والذي قيل في بيان الفائدة من وضع قانون المرتبات يقال أيضا في وضع
قانون كساوي التشریف فقد كان الامر فيها فوضى تابعا للهوى وكان لا يمنع
الكسوة من علم وعلم أو عمل بما تعلم ولكن يناها من كثر سعيه أو ظهرت ثروته
او التجأ الى ذي جاه، حتى تعدت الى غير العلماء فأخذها بعض من لا يقدر نق

(١) يعني صندوق النذور التي تنذر للشيخ ابراهيم الدسوقي لاجل قضاء الحاجات
وشفاء المرضى. وهي من سحت الوثنية

بقراً فضلاً عن أن يفهم، وتعلمى بها بعض التابعين للمشايخ من القضاة وقد كانوا في صف كتاب المحاكم، ووصل اليها من مشايخ الطرق والساجيد أناس لا يعرف كيف وصلت اليهم، وترقى في درجاتها من لا مكانة له في الوجود الا بتلك المظاهر. أعرف منهم كثيرين ويعرفهم غيري بما أعرفهم به من الصفات وقد وصل الامر في هذه الكساوي الى ان مجلس الادارة كان يصل اليه الخبر بموت أحد أصحابها اتفاقاً فيحتاج في الوقوف على حاله وموته أو حياته الى استعلامات رسمية من بعض جهات الحكومة في الارياض وبعد اللتيا والتي يعرف اسم الشخص وتاريخ موته فيصرف الكسوة التي كانت معه الى مستحق جديد

اما وقدضع النظام فقد تقرررت الصفات وحددت الدرجات وخص المدرسون من العلماء بانواعها الثلاثة، وجعل لغيرهم ممن ليسوا منهم نوع مخصوص سمي بكسوة المظهرية، وبين المظهرية والعلمية مميزات. وقد تساهل القانون في العلماء الموظفين نوعاً من التساهل فقرر لهم الكسوة العلمية بقطع النظر عن الدرجات. وأما من وصلتهم هذه الكساوي العلمية قبل صدور القانون وهم ليسوا من أهلها فقد اقيمت الحال فيهم على ما كانت الى أن يموتوا لانهم صاثرون الى النقص بالضرورة، وقد كادوا يفرغون فلم يبق منهم الا عدد قليل ثم ان المجلس أراد أن يوفق بين القانون وبين ما كان جارياً من قبل نوعاً من التوفيق فراعى في بعض الاحيان الاقدمية في العالمية بعد مراعاة صفة الانفع في التعليم، وبذلك انتقل الحال في أمر الكساوي كما انتقل في أمر المرتبات وساراً في طريق بحمد العاقل وبرضاء كل محب للنظام (١)

«١» نعم ولكن محبي النظام كانوا هم الاقلين، وأعداءه كانوا هم الاكثرين وقد كان الشيوخ المعمون في سورية يتألمون لدخول النظام في الازهر حتى قال بعضهم أمامي في طرابلس الشام عقب حادثة الازهر التي أثارها بعض مجاوري السوريين فأوجبت تدخل البوايس والجند لازالتها - قال - ان الازهر أدخل فيه النظام، فحكم فيه النظام، وكان قبل ذلك فوق النظام والحكام. أو ما هذا حاصله

نظام التدريس والامتحان

بعد صدور قانون الكساوي توجهت فكرة المجلس الى ما فوق الماديات وهو التدريس والتعليم والامتحان فوضع لذلك مشروع قانون عام ضمنه خصائص الادارة العمومية وما لمجلس الادارة ولشيخ الجامع من الاعمال وشروط الانتظام في مسلك طلبة الازهر ومدة طلب العلم والمساحات والعلوم التي تدرس في الازهر وبيان المقاصد منها والوسائل وما يجب لعلوم المقاصد من العناية توسيع زمن الدرس فيها ، ثم الامتحان بقسميه وهما الامتحان لنيل شهادة الاهلية والامتحان لنيل الشهادة العالمية ، ثم أحكام الضبط والربط والعقوبات . وفي كل باب من هذه أحكام فسيحة تتوجه كلها الى مقصد واحد هو تحصيل جواهر العلوم الدينية في زمن محدود بطريقة سهلة التناول ، والتحلي بشجرة تلك العلوم وهي محاسن الاخلاق والاعمال .

وقد قسمت فيه العلوم الى مقاصد ووسائل كما قلنا وبينت المقاصد بانها علوم التوحيد والتفسير والحديث وافتقه وأصوله والاخلاق الدينية وبينت الوسائل بانها المنطق والنحو والصرف وعلوم البلاغة الثلاثة ومصطلح الحديث وضم اليها الحساب والجبر ، وهذه العلوم بقسميها هي التي يلزم طالب الامتحان لشهادة العالمية بالامتحان فيها ، ثم ان هناك علوماً آخر تستوجب لمحصلها التفضيل على من في درجته في التوظيف والمرتبات ، وهي تاريخ الاسلام ، وصناعة الانشاء ، ومتن اللغة وآدابها ، وتقويم البلدان ومبادئ الهندسة . وهذه لا يلزم الطالب بالامتحان فيها الا اذا رغبه وأراده

ثم ان القانون قضى على معلمي البلاغة ونحوها مما يقصد من تعامه العمل به ان يمرنوا الطلبة على تطبيق العلم فيها على العمل (راجع المادة ١٩) وان يخص علوم المقاصد وهي العلوم الدينية المحضة أوسع أزمان التدريس بحيث يكون ما يصرف من الزمن في تعليم الوسائل اقل من الزمن الذي يصرف في تعليم المقاصد (راجع المادة ٢٠) وان يقتصر في السنين الاربع الاول من سني طلب

العلم على التون والشروح الواضحة العبارة فتمنع فيها قراءة الحواشي والتقارير (راجع المادة ٢٢) وانه يجب على الطالب أن يحصل من علوم الوسائل اولا مايكفيه ويؤهله الى طلب المقاصد (راجع المادة ٢٣) وقد جئنا بهذه النماذج من هذا القانون ليظهر مقصده وتعرف مقاصد المجلس (١) التي رامها العلماء والطلاب في هذا المكان الديني المحض وانه لم يطلب سواها فيه .

وقد كابد المجلس عظيم المشاق واستغرق بحثه النافع طويل الاوقات حتى اكمل المشروع على مارآه مفيداً في هذا المقصد الديني المحض ، وأرسله الى الحكومة فشككت للنظر فيه لجنة من خيار رجالها ، ومن أشهر الصالحين وكبار العارفين فيها بحاجات هذا الزمان ، وانضم اليهم بعض أعضاء المجلس ، فوالوا الجلسات حتى فرغوا من تنقيحه وزادوا فيه مازادوا وحذفوا منه ما علموا صعوبة تنفيذه ، ثم رفعوه إلى الجنب العالي الخديوي فأصدر أمره بالعمل به في ٢٠ المحرم سنة ١٣١٤ وبه صارت مشيخة الازهر مشيخة نظامية ، ولم يبق عليها إلا الجد في العمل بهذه القوانين والمحافظة على ان تكون كل أعمالها مطابقة لها ، ومراقبة تنفيذها على الوجه الاكمل وتمتع العلماء والطلاب بشمراتها ، وان ذلك لم يكن بالامر السهل القريب المنال ، ولهذا كان التعب والعمل للتنفيذ فوق ما يحتمل في العادة ، ولكنها المقاصد القويمة تسهل الصعب وتخفف ثقل العناء ، وتصحح العزيمة للدأب على الاعمال

ولا داعية لتبيان الحال في التعليم والامتحان قبل صدور هذا القانون وما تغيرت اليه فيهما بعده ، فان ذلك يضطربنا إلى تطويل القول مع كونه معروفاً بالبديهة فلا ينكر ان الازهر سار من فوضى في التدريس الى نوع من النظام ، وان كان لم يصل الى الحد المطلوب فيه . وأما في الامتحان فالامر أجلى من أن يبرهن عليه لانه ما من شيخ من الذين تولوا مشيخة الازهر زاد في عدد من يمتحنون في كل عام على ستة نفر . وفي بعض السنين كانوا لا يتجاوزون أربعة ، والذين كان يساعدهم

« ١ » ما المجلس الا الاستاذ الامام رحمه الله فهو الذي وضع القانون وبين هذه المقاصد له وهو الذي كان سبب مساعدة الامير لها أولاً ثم كانت وفقاً ومتها لخطه عليه

الحظ ويؤخذون للامتحان كانوا لا يصلون الا بعناية الراجين ، وإلحاق الملحين ، ولم يكن للدور ولا للاقدمية ولا للذكاء ولا للشهرة بالتحصيل مدخل في نيل الحق ، بل السلطان القوي هو شفاعة أولئك الشفعاء الذين لا يشفعون إلا للفني وان كان غيباً ، ويضيعون حق الفقير وان كان ذكياً ، وبذلك ترام في قلم كتاب الازهر عرائض طلب الامتحان حتى صارت لا يدري أولها من آخرها ، ولا عاجلها من آجلها ، ويئس مقدموها من إجابتهم ، فقوت عزائمهم عن التحصيل ، وانقطع معظمهم عن المجيء الى الازهر الا في القليل من السنة الدراسية ، وتعدى هذا اليأس إلى من يليهم في الزمن ، فجفت آمالهم ، وعلموا ان الدور إن وصل اليهم فأنما يصل بعد الهرم ، وكان ذلك ظاهراً للعيان

وتد تدارك مجلس الادارة هذا الامر وأحب أن يعيد الى الناس آمالهم ، فقرر تصفية هذه التلال المتراكمة من العرائض ليتحقق وجود أصحابها ، فأعان الجميع بأن الامتحان سيكون على غير تلك القاعدة السادسة أو الرابعة ، ولكن جاء الامر في سنة ١٣١٤ على غير ما في الحسبان إذ طرأت فيها حادثة رواق الشوام المشهورة المشؤومة ، ثم اضطر الازهر بحكم قرارات الصحة العمومية إلى المساحة معظم السنة أو كلها تقريباً فلم يتمحن في سنة ١٣١٤ غير شخص واحد ونجح

وهاك بيان عدد من امتحنوا في السنين التي بعدها — سنة ١٣١٥ امتحن فيها ٢٩ نجح منهم ١٨ وسقط ١١ وسنة ١٣١٦ امتحن فيها ٢٨ نجح منهم ١٣ وسقط ١٥ وسنة ١٣١٧ امتحن فيها ٢٠ نجح منهم ١١ وسقط ٩ وسنة ١٣١٨ امتحن فيها ٢٥ نجح ١٦ وسقط ٩ وسنة ١٣١٩ امتحن فيها ٣٧ نجح منهم ٢٣ وسقط ١٤ وسنة ١٣٢٠ امتحن فيها ٣٩ نجح منهم ١٧ وسقط ٢٢ وسنة ١٣٢١ امتحن فيها ٩٥ نجح منهم ٣٤ وسقط ٦١ وفي سنة ١٣٢٢ امتحن فيها ٦٨ نجح ٣٤ وسقط ٣٤ ومن هذا البيان يتضح الفرق بين ما بعد القانون وما قبله وأما كثرة السقوط في بعض السنين فسيبها انقطاع أولئك الذين كانوا قدموا عن التحصيل . فتجددت الآمال ، واجتهد العمال ، وانتظم تقديم طلب الامتحان ، وهذه بعض الزايات للقانون في هذا الباب ، وهي فاتحة الخير عند أولئك الدالاب

﴿ المساحة أو عطلة الدراسة ﴾

ترتب على صدور ذلك القانون تقليل عدد المساحات وتقصير أزمان العطلة الدراسية ، فقد كانت الحال فيها قبله لا يكاد يعرف لها ضابط ، وكان الطالب يمكنه أن يتغيب قبل المساحة الرسمية بأسابيع ولا يحضر إلا بعد انقضاءها بأسابيع ، وكان المشايخ المدرسون يذهبون الى بلادهم قبل الطلبة ولا يحضرون منها إلا بعدهم ، وكانت السنة الدراسية تبثديء من أواخر شوال وتنتهي في أوائل جمادى الآخرة وبين البدء والنهية مساحة العيد الاكبر ، وكانت تقرب من عشرين يوما ، ثم مساحة مولد السيد ، ثم مولد الدسوقي ، وربما تداخلتا فلا تنقص مدتهما عن خمسة وأربعين يوما ، ثم مساحات صغيرة كعاشوراء والمولد النبوي والمولد الحسيني ومولد الشافعي ومولد العنفي ومولد الشرقاوي ، وكل واحدة من هذه لا تنقص عن ثلاثة أيام فمدة الدراسة بعد كل هذه المساحات لا تزيد عن ثلاثة أشهر ونصف متقطعة في السنة ، يخرج منها أيضا يوما الخميس والجمعة من كل أسبوع ويضاف الى ذلك ما يتساهل فيه المشايخ والطلبة وهو كثير

ولما صدر القانون حددت فيه أيام العطلة تحديدا تاما واشتغل المجلس بشدة المراقبة على الطلاب وعلى بعض المشايخ وتقدمت الحال نحو الإصلاح عاما فعاما ، ومع ذلك لم تخل هذه المراقبة من تقصير في بعض الاحايين ، والشدة كل الشدة كانت في تعويد الطلاب على العمل ، وانتهاز فرصة الوقت وعدم ضياعه فيما لا يفيد ، وأشد من ذلك ما يلاقيه المراقبون في تعويد الدارسين أنفسهم على احترام النظام والاستمرار في العمل الى آخر أيامه ، وإلى الآن لم تصل الحال الى الدرجة المطلوبة ، لأن الكثير من الطلاب تعودوا البطالة بلا سبب ، فصاروا يخلقون المعاذير ويقدمونها الى المشيخة والى المتولين أمر الجرايات ، كوت الآباء وهم أحياء ، أو مرضهم وهم أمحاء ، وككونهم مطلوبين للقرعة وقد أخذوا شهادة المعافاة ، أو أن عليهم أو لهم قضايا في المحاكم الأهلية والاعلان بيدهم ، وربما ادعوا لانفسهم

المرض والواحد منهم يأكل خمسة الارغفة في اليوم ، وهذه الاشياء وإن كانت تقل يوما عن يوم إلا أن الباقي منها كثير وهو ما كانت الهمة موجهة الى قطعه بالمرة وجعل الطالب طالبا حقيقيا يرغب بذاته في التعليم وجملة القول ان المساحات قد ضبطت ضبطا تاما، وصارت السنة الدراسية سنة كاملة ، بتدتيء من العاشر من شوال وتنتهي بالخامس والعشرين من شعبان ، ويتخللها اثنان وستون يوما للمساحة الصيفية « منها شهر يولييه وبعض شهر أغسطس » وهي الايام التي اذا اشتغل فيها المشايخ والطلاب كان شغلهم كلا شغل لشدة الحر ووقوف الازهان ، ومنها أيام في عيد الاضحى وغيره ولا يمكن أن يضيع غير ذلك ولا يوم واحد بمثل تلك المعاذير ، ومن أضاعها من الطلاب عوقب عليها بما هو مبين في القانون ، وهذا فيما أرى من أجل المزاي لهذا القانون . وغيرها كثير نضرب عن ذكره صفحا مخافة التطويل

﴿ مساعدة الجنب العالي على تنفيذ القانون بالمال من الاوقاف ﴾

وقد توجهت فكرة المجلس بعد صدور هذا القانون الى أمر تنفيذه فرأى انه لا بد في ذلك من معونة الجنب العالي للازهر بالمال ، فاستقر الرأي على قرع باب المكارم الخديوية توصلا الى هذا الغرض ، لانه بدون المال لا تنجح كبار الاعمال، فكان كذلك واجتمع المجلس مرات لتحديد أقل ما يمكن به السير من القود وترتيب البدء في العمل بعد أن يسمح بها جنابه الكريم . ثم انخط الامر بعد اقدام وإحجام على أن ترفع مذكرة الى ولي النعم ببيان المبالغ المحتاج اليها، فرفعت مينا فيها ما يلزم من المبالغ وطريق صرفها والمنفعة منها، فتقبلها جنابه الكريم بالمسرة والارتياح ، وصدر أمره السامي الى ديوان الاوقاف بتقريرها في ميزانية سنة ١٨٩٧ وسبق ذلك عدة مذاكرات في كثير من الاجتماعات مع بعض العارفين ممن وثق بهم الجنب الخديوي، تقرر فيها خطة السير في علوم الحساب وتقويم البلدان والتاريخ والخط ، وعرضت كلها على الجنب العالي فاستحسنها غاية الاستحسان، ووافق عليها، وأظهر غاية المسرة من تقريرها وادخالها في الازهر

المنيف ، ولم يخطر على باله حفظه الله في ذلك الوقت ولا على بال أحد من رؤساء العلماء وكبرائهم مالكيين وغير مالكيين ان ذلك مما يعطل دروس العلوم المتداولة في الأزهر ، أو انه مما ينهى عنه الدين ، أو انه مما يعود على العقيدة الإسلامية بالضعف أو غير ذلك مما لا كتبه إلا لسن في هذه الايام (١)

وانتهى الأمر بأن قررت المبالغ في تلك السنة وورد الاعلام بها من ديوان الاوقاف الى الأزهر في أواخر ديسمبر سنة ١٨٩٦ وصادف ان السنة الدراسية كانت قد انتهت أو كادت تنتهي فلم تستعمل هذه المبالغ إلا في شوال سنة ١٣١٤ الموافق لشهر مارس سنة ١٨٩٧ وهذا فيما عدا المبالغ التي قررت لدار الكتب الأزهرية فانها استعملت من أول يناير سنة ١٨٩٧ ، لان دار الكتب (الكتبخانة) يمكن العمل فيها في أي وقت بخلاف الأزهر فان سنته الدراسية تبثديء في شهر شوال من كل عام وهذا بيان تلك المبالغ التي قررت لتنفيذ القانون مع بيان مصارفها

جنبه مصري

٦٠٠	لاربعة وعشرين عالما
٦٠٠	مكافأة للطلبة
٦٠٠	لشايخ الأروقة والخارات وللملاحظين
٦٠٠	لعلوم الحساب وتقويم البلدان والتاريخ الإسلامي
٣٦٠	للخط
١٥٠	مصارييف الإدارة العمومية للأزهر
٤٦٤	لدار الكتب الأزهرية

٣٢٧٤

استعمل المجلس هذه المبالغ على الكيفية الآتية فأما المبلغ الذي قرر لاربعة وعشرين عالما فقد انتخب المجلس هذا العدد من بين كبار العلماء على اختلاف

(١) سبب هذا ان الخديو غضب على الشيخ محمد عبده الواضع منهاج الأزهر لهذه العلوم بعد ان كان راضيا عنه فلما غضب صارت تلك العلوم والنظام في التدريس خطراً على العقيدة الإسلامية عند أولئك المنافقين

مذاهبهم ووزع عليهم ستمائة جنيه لكل منهم مبلغ يختلف بين الجنين والثلاثة ونصف زيادة على مرتباتهم الشهرية الازهرية وكلفوا في مقابله بأن يكون تدريسهم للعلوم الدينية المحضة على الطريقة التي قضى بها القانون من ترك الحواشي والتقارير والاقتصار على الشروح والمتون الواسعة العبارة وتوسيع زمن الدرس في علوم المقاصد وتمرين الطلاب على تطبيق العلم على العمل في العلوم التي غايتها العمل بها وغير ذلك مما يفيد في جودة التحصيل ، وقد وضع المجلس لهذا النوع قرارا مخصوصا بين فيه مايجب على كل أستاذ في إلقاء هذه الدروس وخصص لكل واحد من الاربعة والعشرين عالما علوما معينة من العلوم الدينية المحضة وكتبها معينة من الكتب المعروفة ، لانه لاحظ ان ليس في امكان كل شيخ أن يحسن تدريس كل علم او كل كتاب ، وقرر أيضا ان هذا المبلغ يصح انتقاله عن أخذه اذا لم يؤد العمل على ما فرض عليه . وقد جرى المجلس على أن يجمع هؤلاء العلماء في أول كل سنة دراسية ويبين لكل منهم ما اختاره له من العلوم والكتب والطريقة التي يتبعها في التدريس والتمرين ، ثم يوجه نظرهم الى قراءة السيرة النبوية من كتب السنة الصحيحة لانها كانت معدومة تقريبا من الازهر مع أنها من أهم العلوم الاسلامية المحضة ، وكذلك وجه نظرهم الى علم مصطلح الحديث وقد كاد هذا العلم ينقرض من الازهر الا ما كان منه في مقدمات كتب الحديث ، وكانت النتيجة مفيدة اذ تدرج الطلاب في الارتقاء من عام إلى عام ، ولولا هذا المبلغ لما أمكن تكليف أحد من اولئك العلماء بعمل ما لم يتعوده من قديم

مكافأة امتحان الطلبة

وأما المبلغ الذي قرر لمكافآت الطلبة فقد كان الغرض منه بث روح الغيرة فيهم وترغيبهم في تحصيل العلوم المتداولة في الازهر ، وان يكون تحصيلهم لها على وجه يبقى معه ما حصلوه منها راسخا في الذهن لا أن يكون قاصراً على مجرد فهم العبارات والمناقشات اللفظية ، ولهذا وضع المجلس قراراً لصرف هذا المبلغ على الطلاب قرر فيه أن يعمل لهم امتحان اختياري في آخر كل سنة دراسية في نتيجه

علم من العلوم التي تقرأ في الازهر ، وحدد أوقات الامتحان وكيفية وان يكون محررياً وان توزيع المكافآت على الناجحين يكون بنسبة ما حصلوه ونجحوا فيه ، وان توزيع المكافآت يكون في اول العام الدراسي بمحضر من شيخ الجامع وأعضاء مجلس الادارة وكل أفاضل العلماء الازهرين

ولقد جاء هذا الامر بالفائدة المقصودة منه فلم يحن موعد تقديم الطلبات في اول سنة لتقرير هذا المبلغ حتى اجتمع منها لدى قلم الكتاب شيء كثير ، ثم امتحن الراغبون فيما تقدموا الى الامتحان فيه من العلوم على يد لجان شكلت له من خيار العلماء مع مراقبة أعضاء المجلس ونخبة من العارفين بأساليب الامتحانات وتقرر ان تعتبر نمرة النجاح في العلوم الدينية المتداولة في الازهر هي نمرة ١٥ فما فوق ، وان تكون نمرة النجاح في العلوم الحديثة هي نمرة ١٨ فما فوق ، تسهيلاً للنجاح في الاولى وتشديداً في الثانية ، مراعاة لموضوعات العلوم وملاحظة لمنع الظنون. وهذا بيان من تقدموا للامتحان في كل سنة من السنين وبيان الناجحين فيه

ناجحون عدد	ساقطون عدد	مقدمون للامتحان عدد	سنة (لم تحقق منها بالضبط (ولذلك لم تذكرها
٢٩٠٩	٢٧٢٠	٥٦٢٩	١٣١٥
١٨٥٦	١٥١٩	٣٣٧٥	١٣١٦
١٩٤١	١٢٩٩	٣٢٤٠	١٣١٧
٢١٨٤	١٧٢٤	٤٩٠٨	١٣١٨

وليلاحظ ان عدد المتقدمين والناجحين والساقطين المبين هنا كان منظوراً فيه الى العلوم التي يقدم فيها الطالب لا الى كل طالب بخصوصه . مثلاً اذا قدم الطالب الواحد في خمسة علوم ونجح منها في اثنين او ثلاثة عد المتقدمون خمسة والناجحون اثنان او ثلاثة، وليلاحظ أيضاً ان سبب الكثرة في عدد المتقدمين في سنة ١٣١٥ كان لان المجلس أطلق لكل واحد أن يقدم في كل علم شاء التقديم فيه حتى لو قدم في عشرة علوم قبل طلبه ، ثم رأى ان هذا الاطلاق مضر بالطلبة فحدد لهم ان لا يقدم الطالب في أكثر من أربعة علوم من العلوم الدينية مجتمعة واذا

أراد أن يضم اليها شيئاً من العلوم الجديدة فليضم علماً واحداً وبهذا قل عدد المقدمين وما كان أبهج الاجتماع الذي توزع فيه تلك المكافآت على أولئك الناجحين فقد كان يجتمع اليه كل المشايخ تقريباً وكان شيخ الأزهر يعطي بيده لكل طالب من العشرة الأوائل مكافأتهم، والمشايخ يشاهدون فرح الطلبة فيخرجون وكلهم السنة تشكر مجلس الإدارة على هذا العمل الخيري ويبالغون في نتيجته وما يأتي به من الفائدة للطلاب في المستقبل، وكان يحتم كل مجلس بالدعاء للجناب الحديوي الذي كان مصدر تلك النعمة. وقد وجدت في الطلاب روح التسابق وذاقوا طعم العلم وأقبلوا عليه

مشايخ الاروقة والحارات والملاحظون

وأما المبلغ الذي قرر لمشايخ الاروقة والملاحظين ومشايخ الحارات فقد كان الغرض منه أن ينساقوا الى نظام الضبط والربط في الجامع الأزهر ويتمودوا عليه، فأنهم كانوا من قبل في غاية الإهمال. ولما جاءت النقود وعرف مشايخ الاروقة أنهم ينتفعون منها وتحقق المجلس أنهم يقبلون كل شيء ويعملون ما لم يتعودوه متى كان من ورائه المال، وضع المجلس نظاماً لإدارة شؤون الضبط والربط وكلف به مشايخ الاروقة (وسمّي الكلام عليه) وقرر لهم مرتبات شهرية تختلف بين مائتي قرش وخمسة وستين قرشاً بحسب درجة الأهمية وكثرة العدد في كل رواق. ثم زاد عدد الملاحظين فبعد أن كانوا أربعة في كل الجامع صاروا ستة عشر وترقت مرتباتهم حتى صار يمكن تكليفهم المبيت في الأزهر بالدور

وأما ذلك النظام الذي وضع للاروقة فإنه صدر في ٢٤ يناير سنة ١٨٩٧ وقضى بأن يكون شيخ الرواق من العلماء المستحقين فيه فإن لم يكن من علماء الرواق فن علماء أقرب الاروقة اليه، وبأن يراقب الشيخ من في رواقه في سفرهم وحضورهم ويقيد أسماءهم في دفاتر مخصوصة، وأن يكون مسؤولاً عن آداب الطلبة ماداموا في الرواق، وفيصلاً فيما يقع بينهم من المنازعات الخفيفة، ويلاحظهم في أداء الوظائف التي شرطها الواقفون، ويحصل إرادات الوقف ويوزعها على المستحقين بعد أن يقدم عنها حساباً لمشيخة الأزهر، وأن يبيت بنفسه أو يستئيب من يبيت

في الرواق للملاحظة الضبط والصيانة في الليل . وبذلك خفت وطأة المشاجرات
الدلية والنهارية ، وما اجل ماتفعله النقود

العلوم الحديثة

وأما المبلغ الذي قرر للحساب وتقويم البلدان والتاريخ الاسلامي فقد
استجلب به المجلس في أول الامر اساتذة من معلمي هذه الفنون في المدارس
الاميرية وانتخبهم ممن سبق لهم تلقي العلوم الدينية في الازهر حتى لا يكونوا
بميدن عن أهله، وليلاحظوا في تعليمهم عوائد المكان وأهله . وقد وضمت قبل
تعيينهم القواعد التي يسير عليها التدريس في هذه العلوم وحددت السنين لكل
علم منها ، وأرسل هذا إلى اللجنة السنية فوافق عليه الجنب العالي مع إظهار غاية
الاستحسان وبأبلفت للجنة ذلك إلى الازهر ، وهو شرع في العمل من أول السنة
الدراسية الداخلة في سنة ١٣١٥ وسار هذا التعليم في طريق قويم
(معلو الخط) وأما مبلغ الثلاثمائة والستين جنبها المقرر لتعليم الخط فقد
انتخب المجلس عشرة من المعلمين للخط على اختلاف أصنافه وقاط بهم تعليمه
وجعل لهم أوقاتا معينة في أماكن مخصوصة فأقبل عليهم الطلاب في الاوقات
الخالية من الدروس

فائدة الامتحان والعلوم الحديثة

وأما الفائدة التي نجمت عن استعمال هذه المبلغ الثلاثة (مبلغ مكافآت الطلبة،
ومبلغ العلوم الحديثة، ومبلغ الخط) فتعرف مما يأتي
قد كان طلبة الجامع الازهر لا نصيب لهم في صناعة الكتابة والانشاء ولكن
الواحد منهم إذا كتب لأبيه يستمنحه إرسال الزاد والنفقة قصرت صحيفته عن
بيان المطلوب له ولم ينفعه ما حصله من قواعد العربية بشيء ، وجاء خطه في مكتوبه
نقشاً مكسر الخطوط ناقص الحروف ، وإذا أراد أن يبين ما صرفه وما يلزمه
عبر عن ذلك باللفظ لا بالرقم لعدم معرفته به

هذه حالة كادت تكون عمومية بين الطلبة والعلماء وهي باقية في الكثير من
الأكابر الى اليوم ، واني لا أعرف واحداً منهم كان ممن دعاهم المرحوم الشيخ
الانباي الى الافطار عنده في رمضان فاعتذر اليه بالكتابة ، فكان كتاب اعتذاره
على حال لم ير مثلها الراءون ، إذ كتبه اليه في ورق من اوراق المطار والكتابة فيها
غير منتظمة الشكل ، والخط لا يقرأ الا ان تعود قراءة هذه الخطوط ، والاربعة
الأسطر التي كتبها اعتذاراً للشيخ كان فيها أكثر من عشر لحقات نحوية لا يمكن
قطبقتها على قواعد العربية ولو مع التأويل الذي تعودوه ، وهذه الرقعة من عالم كبير
الى عالم أكبر ، فلا يقال ان الاستاذ كتب ما يفهمه المكتوب اليه . وأعرف غيره
وغيره وغيره من أمثاله ، وهؤلاء الاغيار كثيرون وتطويل القول فيهم بما لا حاجة اليه
وقد أصبح الفرق بين تلك الحال وما نحن عليه الآن في الازهر واسع
المدى وان لم يبلغ الغاية المطلوبة ، ذلك أن امتحان المكافأة قد عود الطلاب على
التعبير عما في الضمير ، وعلمهم استنباء المعلومات في ذاكرتهم حتى يكتبوها في
الامتحان ، وعلمهم ملاحظة القواعد في الكتابة وانتقاد أنفسهم في ذلك لتوقع
الانتقاد عليهم — وان تعلم الخط والاملاء جعل خطوطهم مما يقرأ عادة ، وصبر
الاملاء صحيحاً ، وضبوطاً ، وهم الآن في الحساب وتقويم البلدان والتاريخ على
حالة لم تكن تنتظر منهم ، فقد أصبح الازهر وفيه خمسة عشر عالماً يدرسون
الحساب على أحسن ما يكون من تدريسه في المدارس ، وعالمان يدرسان علم تقويم
البلدان كذلك ومن الطلبة من لا يكادون يحصون عدداً من العارفين بالعامين ،
والكثير منهم قد أدى الامتحان في الحساب والجبر العالي وأخذ الشهادة بأكمل
دروسها ، ومن بينهم عدد كثير قد دخلوا في امتحانات الاساتذة في المدارس
الأميرية ومدارس الاوقاف والمدارس الالهية وحازوا فصب السبق فيه على
المتخرجين في المدارس وأحرزوا وظائف الاستاذية في تلك المدارس باستحقاق ،
وهذه احدى النتائج الحسان التي ربما كانت لا يحلم بها ولا تخاطر على البال
ثم ان المجلس تعود ارسال تقرير عمومي يشتمل على نتيجة هذه الامتحانات
في كل سنة الى المية السنية ليعرض على الجنب العالي ومعه الرسوم الجغرافية

هو الخطوط وبعض الرسائل التي يؤلفها الطلبة، وفي كل سنة كانت تجيء الى الازهر مكتبة الديوان العالي الخديوي معلنة عرض تلك النتيجة على جنابه العالي وانها حازت الرضا والقبول، وان جنابه الفخيم مسرور منها مستحسن لها، ومشجعة على استمرار العمل مع الجد والاجتهاد، وفيها انشاء الجليل على المجلس لقيامه بهذه المهمة خير قيام، وفي بعض السنين لاحظ المجلس أن يعرف تأثير هذه الطريقة الجديدة ويستطلع قوة المشتغلين بالعلوم الحديثة مع العلوم القديمة وحال المقتصرين على القديم، فقرر انه لا يقبل طلب امتحان المكافآت في علم من العلوم الحديثة وحده بل لابد أن يصحب بثلاثة علوم على الاقل من العلوم المتداولة، وان من يطلبه في العلوم القديمة وحدها فله ذلك بدون حجر عليه، فكان كذلك في سنة ١٣١٨ وبعد قراءة اوراق الامتحانات تبين منها جلدا ان الناجحين في العلوم القديمة وهم مشتغلون بالعلوم الحديثة أكثر من الناجحين فيها وهم غير مشتغلين بتلك العلوم الحديثة، وهنالك ظهر للمجلس ظهورا لاربية فيه ان هذه العلوم مما يساعد على فهم العلوم الدينية، وكتب المجلس هذا في تقريره السنوي وأوضحه بأدلته المبنية بالأرقام

فهذا هو الفرق بين حالتي الازهر قبل استعمال هذه المبالغ وبعده وهو فرق ظاهر عرفه الخاصة والعامة واعترفت به الحكومة أيضا، لانه كان يرفع اليها تقرير كل سنة بنتائج الامتحان بعد أن يرفع الى الجناب العالي ويتقبله الجناب الخديو بالمسرة والانشراح كما هو مثبت في دفاتر الازهر من مكاتبات رؤساء الديوان الخديوي، وتلقاه الطلبة أنفسهم مع مافية من المشقة عليهم بالاقبال عليه، ولم ينازع فيه أحد من مشهوري العلماء ولا من أكبر صالحهم الى آخر سنة ١٣١٨ هجرية لامنازعة ظاهرة ولا خفية، بدليل حضورهم جميعا في حفلة توزيع المكافأة واعطائها من يد شيخ الجامع نفسه للعشرة الاوائل من الطلبة تنشيطا لهم وحثا لغيرهم على مساواتهم، وما منهم الا من أظهر الاستحسان وبشر بحسن الاستقبال ودعا لمن كان السبب في هذا الخير العميم (١)

(١) راجع حاشيتي ص ٤٤١ و ٤٤٥ وسيأتي تفصيل ذلك في الكلام على معارضة الاصلاح

دار الكتب في الازهر

المبلغ الذي قرر للمكتبة الازهرية وهو ٤٦٤ جنيهها قد خصص لمرتبات الامين والمغير والسكانب والخدام (الفراش) ولأربعة من العمال المؤقتين انتخبوا من العلماء ليعملوا جميعا في جمع الكتب وترتيبها تحت ملاحظة الامين ومنه مبلغ ١٥٠ جنيهها لشراء كتب جديدة ولتكميل بعض النواقص من الكتب الموجودة ولتجليد ما يوجد منها بلاجلود. ثم زيدت هذه المرتبات سنة بعد سنة بحسب مقتضيات الاحوال كما زيد في عدد العمال ووضع مجلس الادارة لهذه المكتبة قانونا عامه سار العمل فيها عليه الى الآن سيرا حسنا

ولاجل أن يعرف ماهي هذه المكتبة وأين كانت كتبها وكيف كان حالها وما هو شأنها اليوم نذكر طرفا من خبرها ليعلم مقدار العناية في جمع تلك الكتب وترتيبها على هذا النظام التي هي عليه الآن

كان في الازهر خزائن كتب وضعت في بعض الاروقة والحارات وبعضها في المساجد القريبة كجامع الفا كفاي وجامع العيني، ونيط حفظها جميعا باشخاص يقال لهم المغيرون، فتصرفوا فيها تصرفا سيئا للغاية صح معه اطلاق اسم المغيرون عليهم، لانهم غيروا وضعها، وشتتوا جمعها، ومزقوا جلودها وأوراقها، وتركوا مالا عناية لهم به منها في التراب، يأكله العث ويبلية التراب. وهذا غير ما تصرفوا فيه تصرف الملاك وصار بأيدي باعة الكتب يباع على نفاسته بالثمن البخس، ولم يبال المتصرف الاول والباعة بما كتب على ظهور تلك الكتب من العبارات التي تفيد وقفها على طلبة العلم والعلماء وبالجملة فلم(?) يكن ليعرف للكتب قيمة ولا لينتفع بها اعدم امكان الانتفاع

ولما جاءت للمجلس فكرة جمع هذه الكتب في مكان واحد واصلاح ما فسدته منها هذه الأيدي، وتسهيل الانتفاع بها، اختار المكان المعروف في الازهر برواق الابتغاوية وكتب لديوان الاوقاف في سنة ١٣١٤ فأرسل من أخذ المقياسة لاصلاحه وانشاء ما يلزم له من الخزائن التي توضع فيها الكتب. ثم

عرض الأمر على الجنب العالي فأقره مستحسناً له وخرج هذا العمل من القوة إلى الفعل، وتهيأ المكان لما وجد لأجله من وضع الكتب وحفظها فيه من الانتفاع بها تحت ضوابط ونظامات، وشرع عملها في إنفاذ مآهده اليهم من أول سنة ١٨٩٧ أفر نكية الموافق شعبان سنة ١٣١٤ وهنالك ظهر العجب العجيب

حملت تلك الكتب من خزائنها السابق ذكرها إلى ذلك المكان الجديد فمكان يأتي بها أولئك المنبرون محشوة في الزكائب والمقاطف، ثم يفرغونها تلالاً وأكواماً عليها خيوط العناكب، وبينها الأتربة، ويتخللها الجلود البالية، وليس بينها من كتاب سليم مستقيم الوضع إلا مالا يكاد يذكر، وجلس بجانبها أولئك الموظفون المكلفون بجمعها وترتيبها، وأعضاء المجلس والأمين يراقبون عملهم ويرشدونهم إلى الطريق الأقوم، فعملوا وكدوا واستخلصوا من بين هذه الدثوث والأوراق المتفرقة كتباً معتبرة في كل الفنون وكان معهم مندوب من ديوان الأوقاف وموظف آخر نيط به تقويم كل كتاب وجد أو جمع بالثمن اللائق به، وقيدت في دفاتر بأعداد متسلسلة، واستلمها الأمين بأنمانها المقدرة لها

ثم اشتغلوا بعد ذلك في توحيد الفنون وقرروا لكل فن موضعاً مخصوصاً من المكان وقد استغرق عملهم هذا زمناً طويلاً كانت كلها أتعاباً ومشاقاً، وإني لأعرف كتباً كثيرة مما تجده الآن كاملاً كان الكتاب الواحد منها بعضها في خزانة فلان وبعضه الآخر في خزانة فلان وباقية في خزانة فلان ولم تجتمع أجزاءه بعضها على بعض إلا بطريق المصادفة الحسنة، وأعرف كذلك أن بعض الكتب النفيسة النادرة الوجود وجد في دشت كان في خزائن الجامع العيني ولم يعبا به أحد ممن تولوا تغييرها للطلاب، ولم يعن بفرز الدشت لتوجد تلك النفائس بين أوراقه إلا بعد أن كان صدر أمر أحد مشايخ الجامع بحرقه، وتدارك الأمر من يعرف قيمة العلم ولا يبالي بالتعب في المحافظة عليه، وقد رأيت بعيني كثيراً من المصاحف الشريفة وهي بين الأتربة مع أنها من أجود المصاحف خطأ وورقا، وفيها من الفوائد وعلوم التجويد مالا يوجد في سواها وغير ذلك كثير، فنكتفي بما ذكرناه فما الغرض إلا بيان حالها قبل جمعها وفي هذا القدر ما يكفي لذلك

بعد أن عرف ان في الازهر دار كتب أقبل عليها أهل البر فأعانوها بهداية من الكتب النفيسة، وأهم هدية قدمت اليها هي هدية كتب المرحوم سليمان باشا أباطه فان ورثته حياهم الله لثقتهم ببعض أعضاء المجلس (١) سمعوا قوله وقبلوا اشارته وقدموا كتب أبيهم الى دار الكتب الازهرية مشترطين أن يجعل لها خزائن مخصوصة في مكان مخصوص فكان كذلك وجاءت تلك الكتب كالعروس تجلى لصاحبها ليلة الزفاف لأن الباشا رحمه الله كان ممن يتعشق الكتب ويحب فنون الآداب العربية والتاريخ وهي في كتبه شيء كثير ، فكان ورثته قدوة لغيرهم من الناس وبذلك كله تكونت مكتبة جميلة منتظمة لا ينقصها الآن سوى الفهرس العام والعمل فيه سائر سيرا حسنا وإن كان بطيئا ولعله يتم فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ولم يكنف المجلس بهذا القدر بل رجع الى الاروقة الشهيرة في الازهر وهي أروقة الترك والشوام والصعايدة والمغاربة وجعل الكتب التي بقيت فيها تحت مراقبة أمين المكتبة الازهرية ، وطلب من ديوان الاوقاف مبالغ أخرى لترتيب كتبها وتنسيقها ، فأجيب الطالب وتعينت العمال، ورتبوا الكتب في تلك الأروقة على الطريقة التي رتب عليها المكتبة ، ثم وضع الكثير منها بعد جمعها وترتيبها في خزائن جديدة صنعها ديوان الاوقاف على نفقته بالاروقة المذكورة تحت مراقبة هذا الأمين، ولا تزال العناية موجهة الى تجديد خزائن لباقيها

واقدر بفضل الجنب العالي زيارة دار الكتب الازهرية عدة مرات وما من مرة إلا وأظهو سروره مما رآه فيها من حسن الوضع والنظام، وهي الآن مطرح أنظار السائحين، ومحط رحال المطالعين ، ومكان النفع العام للعلماء والطلالين

وقد زيد في مبلغ المائة والخمسين جنيتها المخصصة لشراء الكتب واصلاحها وتجليدها مائة جنيه في كل عام فأصلح وجلد كثير مما كان من الكتب بلا جلوه واشترت كتب كثيرة من كثير من التركات حتى ضاق بها المكان على سمنه

(١) تقدم في أول هذا الفصل أن سليمان باشا أباطة كان من اوفي اصدقه الاستاذ الامام وكان أنجاله يعدونه كوالدهم في العطف عليهم فلذلك قبلوا رأيه

فاضطر المجلس الى أخذ مكان آخر من الازهر أصلحه ديوان الاوقاف وعمل فيه ماعمل في الأول، وامتلات خزائنه أيضا بمعتبرات الكتب ونفائسها مما يتجدد شراؤه كل عام .

ولم يصل المجلس الى هذا الحد من صيانة تلك الكتب وجعلها بأمان من الضياع والتلف إلا بعد عناء شديد وجهد جهيد في مقاومة تلك الافكار المتيقة، ومطاردة تلك الاطماع التي كان يقصد منها بيع تلك البقية بذلك الثمن البخس ، واني أعرف كثيراً من أهل الفضل والدين أرجعوا الكتب التي كانوا اشتروها من أولئك الباعة الادنياء الى مكتبة الازهر لعلمهم انها صارت دار الحفظ والصيانة لهذه الكتب الموقوفة على المتعلمين ، وأما بعض أهل الشهرة من كبار العلماء وصالحهم فقد جيء من بيوتهم بالكتب في الزنايل والغرائر ، لا يعرف الكتاب منها أول ولا آخر

اصلاح التعليم

وفي أول السنة الدراسية من سنة ٣١٤ الداخلة في سنة ٣١٥ شرع المجلس في تنفيذ بعض مواد القانون فبدأ بالمادة الثانية والعشرين لانها أساس ترقى التعليم ، وهي القاضية على الحواشي وانتقارير في الاربع السنين الاولى من سني التعليم ، فحدد الكتب التي تقرأ فيها بدون تلك الحواشي وتلك التقارير التي تحول بين الطالب وبين الفهم وتشوش عليه موضوعات العلوم ، فأصدر قراراً في ٦ شوال سنة ٣١٤ بأن الكتب التي تقرأ في السنين الأربع الممنوع فيها الحواشي والتقارير تكون في علم النحو من الاجرومية الى ابن عقيل ، وفي فقه الحنفية من مراقي الفلاح الى العيني ، وفي فقه المالكية من ابن تزي الى الشرح الصغير وفي فقه الشافعية من ابن قاسم الى التحرير بدخول الغاية في الجميع ، وحتم في القرار منع قراءة شرح الكفراوي على الاجرومية لانه أضر الشروح بالطلبة المبتدئين ، ثم ألزم الاساتذة أن يبدأوا دروس الفقه في كل سنة من السنين الأربع برسالة في علم التوحيد قاصرة على سرد العقائد ومجردة عن البراهين الكلامية وأن يختصوا

دروس الفقه في كل سنة منها برسالة صغيرة في علم الاخلاق حتى يشب الطالب متحلياً بالآداب الشرعية وكذلك حتم على الاساتذة أن تكون قراءة الكتب المعتاد قراءتها في أيام العطلة الدراسية مجردة عن الحواشي والتقارير

وقد لاحظ المجلس أثناء تلك السنة الدراسية أن بعض الطلبة وكثيراً من المشايخ قد تعودوا أن يطيلوا مدة البطالة الرسمية فأصدر قراراً في آخرها ليكون عليه العمل من أول السنة التالية الدراسية (١٣١٥ الداخلة في سنة ١٣١٦) أبان فيه مدد المساحات القانونية وحددها تحديداً في غاية الوضوح حتى لا يحتج طالب ولا يتأول عالم . وحتم على كل استاذ وكل طالب أن لا يخلي من أيام العمل القانوني يوماً واحداً من إلقاء الدروس أو تلقيها وقرر العقوبات على كل من يخالف بقطع الجرايات فيما ليس فيه شرط واقف وبقطع المرتبات النظامية التي رتب بمقتضى القانون فيما لا يسمح شرطهم بقطع الجراية فيه

وكذلك لاحظ المجلس في أثناء إلقاء الدروس في تلك السنة الدراسية أن في الازهر عادة مستحكمة وهي إهمال الاستاذ للطالب في آدابه وفي مواظبته على الحضور في الدروس، وإهمال الطالب لانه لم يتعود من مشايخه المراقبة عليه فأهمل في احترامه لهم، وتباطأ في أعماله، ولم يبال بحقوق اخوانه الطلبة، ففسدت أخلاق الطلاب، وضاعت آدابهم الدينية، وتلاشت عوائد حسن المعاشرة بينهم، فأصدر المجلس قراراً في ٢٩ شعبان سنة ٣١٤ ليكون دواءاً لتلك الادواء . بين فيه ما على الطالب من الحقوق ، وما على الاستاذ من الواجبات ، فحتم على الطالب أن لا يتلقى أقل من ثلاثة دروس في اليوم، وأن لا يشتغل أثناء الدرس بغيره ، ولا يكلم فيه غير أستاذه، وأن لا يسأل الطالب أستاذه في الدرس أكثر من ثلاث مرات في الموضوع الواحد. فان بقيت لديه شبهة كاه فيها بعد الفراغ من الدرس، وأن تكون سيرته الشخصية ملائمة لشرف العلم والدين ، وأن يحترم أستاذه في الدرس فلا يرفع صوته عاياه، ولا يجلس بين يديه بهيئة تنافي الآداب وأن يعامل جليسه في الدرس بالحسنى ، فلا يؤذيه بالقول ولا بالفعل ، وأن يستمر في تلقي الكتاب الذي ابتدأ فيه على الاستاذ الذي شرع في تلقيه عنه حتى يتمه ،

فإذا بدا له الانتقال الى شيخ غيره وجب عليه أن يخبر شيخ جهته المنتسب هو اليها ، وإذا شرع الطالب في تلقي كتاب وجب عليه اكمله فلا ينتقل الى كتاب أرقى منه قبل ان يتمه ، وكل هذه الآداب التي قررت للطالب كانت العادة جارية بين الطلبة بمخالفتها ، وضررها بالتعلم والاخلاق لامية فيه

وأما الاستاذ فقد حتم عليه في ذلك القرار أن يكون القدوة الحسنة للطلبة في حسن الاخلاق والسيرة الشخصية ، وأن يتعهد الطلبة الذين يحضرون درسه بنفسه ان كان مبصراً او بمن يستنبيه ان كان ضريباً ، ليعرف من يتغيب منهم عن الدرس فيخبر عنه شيخ جهته المنتسب هو اليها ، ليخبر شيخ الجامع بانقطاعه عن الدروس ، وأن يراقب حال الطلبة اثناء الدرس حتى لا يأتي احدهم بما نهى عنه ، فإذا خالف نبهه الشيخ اول مرة ، فإذا عاد زجره ، فإذا عاد أبعدته عن الدرس ، وأخبر شيخ جهته ليخبر شيخ الجامع ليعاقبه بما يراه ، وأن يجنب الاستاذ حتما تلك العادة القبيحة : عادة سب الطلبة وشتمهم الشتم القبيح بسب الآباء والامهات ، وضررهم بالعصي والنعال . وأن يوجه ذهن الطالب الى تعقل المسائل وفهم المعاني من أقرب الوجوه ، متجنباً الاحتمالات البعيدة وتكلف التعاسيف ، وأن يحضر الاستاذ درسه قبل إلقائه فيراجع ما يحتاج لمراجعته من الكتب لتصحيح ألفاظ الشعر التي تذكر في الشواهد ، حتى لا يضيع وقته في التفاهم مع الطلاب ، وإن كان ذلك لا يمنعه من قبول رأي التلميذ ان كان صواباً ، وإن لا يأتي الاستاذ للطلابين في أثناء الدرس بما يشوش عليهم الفهم ، فلا يغرب بالاكثر من الاعتراضات اللفظية والجواب عنها بتلك الاحتمالات المضطربة للاوقات ، وأن لا يخط مسائل علم بمسائل علم آخر الامسالة جاءت عرضاً وتوقف عليها فهم المقام ، فيتكلم عنها الاستاذ بمباراة قصيرة على قدر ما يدعو اليه الضرورة في الافهام ، وجعلت مدة الدرس بحيث لا تنقص عن ساعة ولا تزيد عن ساعتين ، وكل هذه التكاليف التي نيطت بالاستاذ كانت العادة جارية بعدم ملاحظتها ، وكان هم معظم المشايخ الكبار هو التصدق بالاحتمالات البعيدة وتضييع الاذهان

(٥٨ - تاريخ الاستاذ الامام ج ١)

تفتيقا لها كما يزعمون ، ولا يبالون أفهم الطالب أم أشكل عليه الامر ؟ أصحت القاعدة ام ضاعت هباء ؟

أعرف شيخا من كبار المالكية (١) قد شهر بالتقدم في السن كان يقرأ درسا في علم المنطق أيام المسامحات من كتاب الخيصي وبحضر درسه هذا كل الباقيين من المجاورين في الازهر تقريبا ، وعرض في درسه ان حاشيته اعترضت على الشرح فأخذ الشيخ يدفع الاعتراض بالتمحلات والاحتمالات النحوية ، حتى استقر رأيه على تصحيح كلام الشرح ، فقال له بعض الطلبة وأنا أعرفه أيضا (٢) « يامولانا أنه يترتب على هذا التصحيح تغيير حكم القاعدة المنطقية فبعد أن تكون السالبة الكلية تنعكس جزئية مثلا يصير عكسها كلية ولم يقل بهذا المنطقيون » فأجابه الاستاذ : ليس في هذا من ضرر يا كيت وكيت اذا صح الاعراب اندفع الاعتراض ، فما علينا من القاعدة الاصلية وما يطرأ عليها من البقاء او الانقلاب . وأعرف شيخا آخر من كبار الشافعية قرأ في درسه لعدم مراجعة الكتب قبل القاء الدرس البيت المشهور * كادت نفوس التوم عند الغلصمة * بالفاء بدل الغين ، فقال له أحد الطلاب وأنا أعرفه أيضا انها الغلصمة بالغين لا بالفاء ، فسبه وشتمه وأهانته كثيرا وأصر على انها بالفاء . كل هذا قد لاحظته المجلس ووضع له ذلك القرار ، تخفيفا لتلك الاضرار ، ومراعاة لمصلحة المعلمين والمتعلمين بما يقضي به الشرع الشريف ، ويطالبنا به الدين القويم

نظام الجرايات

وفي ١١ ذي القعدة سنة ١٣١٤ دار في خلد المجلس ان يضع نظاما للجرايات بما تخوله له المادة التاسعة من القانون لتقطع الفوضى في هذا النوع من الماديات ، كما قطعت في مادة المرتبات ، وأمر الجرايات في الازهر لا يخطر مافيه من الهمجية

(١) هو الشيخ احمد الرفاعي المشهور (٢) هو سعد زغلول الشهير وقد سمعت

هذا منه وذكرته في المنار عنه

على بال ، ولا يمكن أن يتصور كيف وجدت على ماهي عليه ولا كيف سارت ولا كيف رضي بسيرها القوم ، وهي التي كانت منبع الثروة للثقباء ومشايخ الاروقة والحاترات ، وسبب التخاصم بين المجاورين بل بين العلماء السكبار ، اذ كانت تعطى في الغالب لغير المستحق وهو يعرف أنه غير مستحق ، فيبيعها للثقيب طول السنة الدراسية او مدة المساحات . ولم يكن الاخذ للجرايات او الحرمان منها مبنيا على طول زمن المجاورة أو على اختيار تبين به حال الطالبين فيقدم المجتهد ويحرم من سواه ، وانما كان مبنيا على حسن الحظ والاهواء ، فكتبت مشيخة الازهر الى مشايخ الاروقة تمهيدا لوضع هذا النظام منشورا مضمونه ان مجلس ادارة الازهر سيشرع في سن النظام لكل الاروقة والحاترات وذلك يستدعي أن يكون لديه كل المعلومات المناسبة لذلك وطابت منهم أن يرسلوا الى المشيخة في ظرف ثلاثة أسابيع بيان ما عندهم من الجرايات والمرتبات ومن هو مصرفها من العلماء والطلاب ، وما هو الأصل في ترتيبها على الوجه الذي هي عليه سواء كان قاعدة عمل قديم أو شرط واقف ، مع ارسال صور من كتب الوقف أو من قواعد العمل القديم ، وصور ما في كل رواق من قانون قديم وضع لضبط المجاورين أو لتوزيع الجرايات والمرتبات ، أو لتعيين المستحقين بالعدد أو بالصفات ، وما يكون موجودا عندهم من شروط الانتظام في سلك الطلبة والمتظرين ، أو طرد من يخرج عنها من المجاورين ، وما يوجد من الوقفيات القديمة الدالة على ان لارواق ديماء سواء كان متحصلا أو غير ممكن التحصيل بسبب من الاسباب وبناء على ذلك وعلى كثرة اللاحاح من المشيخة تكلمات المعلومات وقدمت الى مجلس الادارة ، فقرر تشكيل لجنة للنظر في تلك المعلومات ، واستخلاص مشروع نظام واحد يجمع الاروقة والحاترات ، على اختلاف مقادير الجرايات في كل منها وجهات ورودها ، مراعى في كل واحد منها شروط الواقين عليه ان كان له أوقاف معلومة بشروط معينة ، وأما ان كان أصاها الارصادات أو شروطها غير معلومة فيراعى فيها قواعد الشرع المنيف ، فشكلت اللجنة تحت رئاسة الشيخ عبدالقادر الرفاعي وانضم اليها أحد أعضاء مجلس الادارة ليضع المشروع في القالب المعتاد للنظمات

وقد اشتغلت اللجنة بمجد واجتهاد ، وبحيث طويلا في تلك المعلومات التي وردت من الاروقة والحارات في سجلات الازهر وفي الوقفيات المقيمة بها ، ورجعت في معظم أعمالها الى الكتب الفقهية والنصوص الشرعية في الاحوال التي كانت تستدعي ذلك حتى اكملت المشروع وقدمته الى المشيخة في أواخر سنة ١٣١٦ تضمن هذا المشروع فصل معظم الاروقة بعضها عن بعض في الحكم لان شروط بعض الواقفين مخالف لشروط البعض الآخر ، وضم بعض الاروقة والحارات الى مماثله في الحكم ، وجعلت فيه الجزاية العمومية التي تصرف الآن من الاوقاف لغالب الاروقة تحت حكم واحد لانها من قبيل الارصادات أو من قبيل ماهو مجهول الشروط ، وجعل للغرباء أحكام خاصة بهم من جهة تقدير الكفاية لكل شخص من الجزاية في كل يوم لانهم منقطعون وليس لهم أهل في البلد ينفقون عليهم ، ثم بين فيه مدد المساحات والمدد التي يسمح للطالب بالتغيب عن الازهر فيها أيام العمل والتحصيل محافظة على شروط الواقفين ، وحددت فيه العقوبات بقطع الجرايات بما ينطبق على شرط الواقف وغير ذلك من الاحكام وبعد الفراغ من وضع هذا المشروع قدمته اللجنة الى مشيخة الازهر ليعرض على مجلس الادارة ويقرره بعد تعديل ما يحتاج منه الى التعديل وقد طرأ على المجلس أمور كثيرة عاقته عن النظر فيه وأقلها انه يحتاج الى مراجعة الاصول التي أخذت عنها اللجنة التي وضعتها وأكبرها ما يؤخذ من الكلام فيما يأتي عن مدة مشيخة الشيخ سليم البشري والعوائق التي كانت تعترض سير المجلس في مدة هذا الاستاذ

امتحان التدريس وشهادة العالمية

وفي ٤ جمادى الآخرة سنة ١٣١٦ قرر مجلس الادارة النظر في شؤون امتحان طالبي التدريس ، فأول اصلاح بدأ فيه أن أعلمت مشيخة الازهر طلاب هذا الامتحان بأن (المادة الثانية والعشرين) من القانون تقضي بأن الطالب والاستاذ مخيران بعد الأربع السنين الأولى في النظر في الحواشي وعدمه ، ومع هذا التخيير لا يصح أن يلزم الطالب بأن يؤدي الامتحان في الحواشي انعقد

تأديته فيها ، وما عليه إلا أن يكون على علم تام من الفن الذي يمتحن فيه ، وان (المادة الثالثة والعشرين) من القانون تقضي بأن كل طالب علم في فقه مذهب يتلقى أصول مذهب ولا يصح من هذا إلزام طالبي الامتحان بأن يؤدوا امتحان الاصول في كتاب جمع الجوامع اذا كان الطالب مالكيًا أو حنفياً، فان ذلك الالتزام يفضي الى ترك العمل بمادة (٢٣) السابق ذكرها ، فما على طالب الامتحان إلا أن يمتحن في علم الاصول غير مقيد بكتاب جمع الجوامع المذكور

وبعد هذا تحقّق المجلس من أن كيفية امتحان التدريس جارية على غير قاعدة معينة وان كل عضو من أعضائه يسأل الطالب كما يشاء في أي وقت أراد على غير نظام ، وهذا يؤدي الى تشويش ذهن الطالب ، فأصدر قراراً في ٢٨ شوال سنة ١٣١٦ كان هو النظام الداخلي لامتحان طالبي التدريس ، ومتنضاه ان السنة الدراسية كلها ظرف للامتحان ، وأن يعقد مجلسه في كل أسبوع مرة على الأقل ، ولا يمتحن في المجلس الواحد أقل من اثنين ، وأن لا يسأل الطالب في أول قراءته بل بميل حتى يسكن روعه وينطاق لسانه ، وأن لا توجه اليه الاسئلة إلا بعد أن يقرر المسألة على حسب فهمه ، ولا يكون السؤال في العبارات ، إلا بعد الاسئلة في الموضوعات ، وأن لا يعتمد السائل في سؤال واحد ، وأن لا يتداخل سائل آخر في سؤال السائل الاول حتى يتمه ، وأن لا يناقش أعضاء المجلس بعضهم بعضاً بل تكون المناقشة قصيرة على العضو السائل والطالب المستول ، فاذا وقعت المناقشة بين الاعضاء بحضرة الطالب فلا يعد عجزه عن الجواب فيها طعناً على اقتداره ، وان لرئيس اللجنة أن يخصص كل واحد من أعضائها للسؤال في علم من العلوم ، وان الاستغوار ممنوع لما يترتب عليه من الخلط في موضوعات العلوم ، فلا يسأل الطالب وهو يقرأ الفقه مثلاً في علم النحو والبيان ، وغير ذلك من اختصاص رئيس اللجنة ببعض الاحكام ووجوب العمل بهذا القرار في العام الدراسي الذي صدر فيه (وهو عام سنة ١٣١٦ الداخل في سنة ١٣١٧)

وكل ما أوجبه هذا النظام كان لمعنى مخصوص مشاهد في الامتحان ، سبب الشكوى منه في كل زمان ، ومع شدة مراقبة رؤساء اللجان والمحافظة على تنفيذ

ماقضى به هذا القرار فقد كان يغلب على بعض الاعضاء ما تعودده قديماً فيحتاج الى التنبيه في كل مرة ، وما رسخ من أزمان ماضية لا يزول إلا بالتكرار

العلوم والكتب ونظام التدريس

وفي ٩ رجب سنة ١٣١٦ صدر قرار من مجلس الادارة تنفيذاً للمواد ١١ و١٢ و١٧ و١٩ و٢٠ و٢١ و٢٢ و٢٣ من القانون وهي متعلقات بتوزيع العلوم التي تدرس في الازهر على الاساتذة المدرسين فيه، وبتعيين الكتب لجميع العلوم التي تدرس في الازهر خصوصاً غير المتداولة فيه، وبتحديد نوعي العلوم من المقاصد والوسائل وبتمرين الطلاب في العلوم الآلية على تطبيق العلم على العمل، وبتخصيص الزمن لكل نوع من النوعين وبمنع قراءة الحواشي والتقارير في الاربع السنين الاولى. وبالزام الطالب بأن يبدأ اشتغاله بعلوم الوسائل حتى اذا جاء الى المقاصد كان لديه ما يجعله أهلاً لتلقيها ولقد كان في وسع المجلس أن يصدر قراره بذلك كله ويصير بمجرد صدوره واجب التنفيذ كما قضى به القانون ، لكنه أراد أن يشرك معه كبار العلماء ليساورهم في الامر ويقف على آرائهم في كل باب من هذه الابواب " فلذلك قرر تشكيل لجنة من اكثر من ثلاثين من أفاضل العلماء من كل مذهب تحت رئاسة الشيخ سليم البشري ، وكان إذ ذاك من أعضاء المجلس ، وضم إلى أعضائها بعض أعضائه الآخرين ، وكتب شيخ الازهر إلى رئيس هذه اللجنة كتاباً بذلك ودعا العلماء إلى الاجتماع في إدارة الازهر فاجتمعوا جميعاً ، وافتتح شيخ الجامع الجلسة بعد الحمد لله والثناء عليه بأننا قد دعوناكم لا بلاغكم ان لجنة تشكلت منكم للنظر في أمر الكتب وطريقة التعليم ، ولا يخفى عليكم أن تلك علم غاية، ولكل غاية وسيلة ، ومن وسائل العلوم الكتب والتعليم ، ومن الكتب

(١) كان غرض الاستاذ الامام من هذه المشاورة ان يكون كبار علماء الازهر مقتنعين بهذا الاصلاح ليرجى دوامه وعدم رجوعهم عنه اذا زالت السلطة القافية التي كان هو القائم بها ولم يكن وانما بدوامها

ما هو سهل الايصال إلى الغاية أو واف بما يؤدي إليها ، ومنها ما ليس كذلك ، ومن طرائق التعليم ما يوصل إلى فهم ما يلقي على الطلبة ومنها ما ليس كذلك ، ولا يخفى عليكم أيضاً أن من الاساتذة من يتصدى إلى تدريس علم والافضل له أن يقتصر على غيره ، ولقد رأينا في امتحانات طالبي التدريس أن بعض طلبة العلم بعد إقامتهم الزمن الطويل في الازهر يوجد فيه قصور ظاهر ، وأغلبهم لا يكون عنده من المعلومات أكثر مما يعرفه بعض طلبة العالم المتوسطين ، ولأجل هذا شكلنا هذه اللجنة وكتبنا لحضرة رئيسها هذا الكتاب وتلاه بنصه وهذا ملخصه :

من العلوم أن الكتب المتداول قراءتها في كل العلوم التي تدرس في الازهر محتاجة للنظر فيها من حيث هي موصلة للمطلوب منها من تعليم الطالب ما فيها من العلوم لأن نظام التعلم والتعليم مفتقر الى معرفة الوسائل من المقاصد والغاية المطلوبة من كل علم ، وبمراعاة ذلك يصلح ما هو معلوم لنا ولكم من نقص محصول الطلبة في كثير من العلوم ، وفضلا عن ذلك فإن ما نشاهده وتشاهدونه من عدم وقوف كل استاذ عند حده في قراءة الكتب والفنون محتاج كذلك الى الاصلاح ، وفي علمكم ان القانون يقضي باصلاح ذلك كله وجعله على نظام مقرر مضبوط ، ولهذا شكلت لجنة من اكابر العلماء تحت رياسة فضيلتكم للنظر في امر العلوم التي تدرس في الازهر ، وتحديد الغاية المطلوبة من كل علم ، وفي امر الكتب المتداولة قراءتها وتقدير ما يلزم إدخاله عليها سواء كان بتغيير بعضها أو الزيادة على الموجود أو تنقيصه ، والنظر في قراءة حواشي الكتب التي يستقر الرأي عليها والزمن الذي يخصص لقراءة كتب المقاصد والذي يخصص لكتب الوسائل ، والنظر في توزيع العلوم على حضرات الاساتذة المدرسين ، حتى يحصل بذلك طلاب العلم بالازهر على المقصود منه ، وتستقيم طريق التعلم والتعليم ، مع تطبيق علمكم في سائر الامور كلها على قانون الجامع الازهر ، وتقييد جميع الآراء التي تبدى في جلساتكم وتحريرها واضحة في محضر يعد لذلك

وبعد الفراغ من تلاوته اجتمعت كلمة كل الاعضاء على استحسان هذا المشروع ، وعلى وجوب النظر في الموضوع ، ورأوا ان الاسهل لا كمال الامر أن

تنتخب لجنة فرعية من هذه اللجنة العمومية للنظر في كل جزء مما حواه هذا المشروع وتقرير ما تراه فيه ، فكان كذلك ، وصادفت أغلبية الاصوات لأعضاء اللجنة الفرعية كلا من الشيخ عبد القادر الرافعي والشيخ عبد الرحمن البحراني من الحنفية والشيخ أحمد الرفاعي والشيخ محمد أبي الفضل من المالكية والشيخ محمد البحيري والشيخ محمد النجدي من الشافعية ، وضم اليهم الشيخ محمد عبده على أن يكون عضو مجلس الإدارة ، والشيخ يوسف الحبلي عند الكلام على كتب فقهاء الحنابلة ، وتقرر أن تعرض هذه اللجنة الفرعية أعمالها على اللجنة العمومية لتقرر فيها ما تراه

ولقد ابتدأت اللجنة الفرعية جلساتها يوم الاحد ١٣ رجب سنة ١٣١٦ واستمرت على الاجتماع والبحث والعمل الى يوم الاحد ٢٥ جمادى الاولى سنة ١٣١٧ وكان أعظم همها وما دار عليه بحثها هو تعيين كتب الدراسة وبدأت عمدة بتلاوة الفصل الاول من الباب الثالث من القانون وهو ما يحتوي على ماشكات لأجله اللجنة ، وما زالت تنظر في كل جزء جزء حتى أكملت مأموريتها وقدمت تقريرها الى اللجنة العمومية في ذلك اليوم ، واللجنة العمومية لم تعدل في تقرير اللجنة الفرعية إلا بعض الشيء ، وذكرت في بعضه انه مستحسن وان كان غير لازم ، إلا انني في مواد تافهة لا تذكر ، ثم رفعته الى مشيخة الازهر - وقد كانت امتنت الى الشيخ سليم البشري - فرقد هذا التقرير المسكين مع ما رقد من الاعمال الجامعة - سمح المشيخة بتقديمه الى مجلس الادارة ولا أظن الا ان نومه سيطول إن شاء الله " وأما تقرير اللجنة الفرعية الذي أقرته اللجنة العمومية فاني ذاكر ما خصه سمياً للفائدة وتبيننا لتلك المقاصد التي كان يقصدها مجلس الادارة وليعرف الناس في كل لا يقصد بالعلم وأهليه غير الخير

[المؤلف] وهما تفصيل لما اتفقوا عليه في تدريس كل علم لا تطيل بشرة ، ومن ثم الاطلاع عليه فليرجع الى ذلك الكتاب ، ولكنني أذكر انه بين في التقرير

(١) كان سبب توقيف الشيخ سليم لاعمال المجلس العلم بانحراف الخديو عن الشيخ محمد عبده وارتياحه أو ابعاده بمقاومة عمله كما سنفضله في الكلام على مقاومة الامم

يكون الغرض من درس كل علم ما وضع العلم لأجله والتأهيل للعمل به ومن ذلك وهو أنهم، أن يكون درس التفسير « لبيان ما أودع في القرآن من الاسرار والحكم والمفاسد التي يرمي إليها في القصص والأوامر والنواهي ووجوه العظة بأخبار الماضين وأحوال الحاضرين ، والمعارفة بين ما جاء فيه وما عليه الناس الآن . وبيان ما فيه من أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز » وكان مما قررته اللجنة درس كتابي أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز من كتب البلاغة ، وكذا درس رسالة التوحيد للاستاذ الإمام في العقائد ، ولكن لم يقرأ هذه الكتب فيها غيره . وفي هذه السنين يقرأ رسالة التوحيد بعض اخواننا الذين نشأوا على مشربه رحمة الله (نعم قال الكاتب)

نم اتفقت الآراء على عدة من العلوم التي لم تكن تدرس في الجامع الازهر ومنها (التاريخ الاسلامي) واختاروا له كتاب الخيس والمواهب للندنية في تاريخ السيرة النبوية . وكان من رأي الجميع وجوب قراءة التاريخ وأن يكون المقصود منه بيان الحوادث وتعليقها لا مجرد ذكر القصص والحكايات وكذلك اتفقت الآراء على تقرير علم (تقويم البلدان) وأن تكون كتبه ما يختار مدرسه نم اتفقوا أيضا أن يقرأ في الازهر (علم المحاضرات) وأن يكون الكتاب الذي يقرأ فيه هو العقد الفريد لابن عبد ربه نم تقرر أيضا بالاتفاق أن تدرس فنون (روايات القرآن) ولكن لا يكون ذلك إلزامياً بل لمن يختار

مسألة زاوية العميان

فصل الشيخ عبد الكريم رحمه الله هذه المسألة في خمس صفحات وقال انها أهم عمل إداري لمجلس الادارة . وملخصها أن زاوية العميان هي أحد أروقة الازهر خاصة بالعميان ، كان للمجاورين فيها استحقاق في وقف (المرحوم عبد الرحمن بك كتحداي) الذي يديره ديوان الاوقاف وقد مضت عدة سنين والديوان لا يعطيهم استحقاقهم في الوقف فوكل شيخ الزاوية أحد كبار

المحاميين بارشاده في رفع قضية على الديوان في المحكمة فحكمت المحكمة على الديوان بمبلغ ٣٦٠٠ جنيه وأيدت الحكم محكمة الاستئناف فتوقف الديوان في الدفع فاضطر المحامي الى حمل المحكمة على التنفيذ القهري ففتح محضرها خزينة الاوقاف بالقوة القاهرة (في ٢٦ أغسطس سنة ١٨٩٧ الموافق ربيع الاول سنة ١٣١٥) وأعطى المبلغ للمحامي فأخذه ووضع في صندوقه ولم يعطه لشيخ الرواق الذي هو وكيله ، فكان هم مجلس الادارة حفظ المبلغ من الضياع وإيصاله الى مستحقيه بالعدل والانصاف . فكلّف شيخ الزاوية أن ينذر المحامي بدفع المبلغ من قبل المحكمة . فلما بلغه الانذار اتفق مع بعض الاجانب على بيع حصص العميان اليه لاجل منع التنفيذ في مقابلة مبالغ معين يدفعه له ، فأنذر الاجنبي شيخ الزاوية وشيخ الازهر والمحامي طالبا دفع المبلغ له بما اشتراه به من المحامي الوكيل الشرعي عن المستحقين . وبلغ المحامي أصحاب السلطة والنفوذ الفعلي في الحكومة من الانكليز ان مجلس ادارة الازهر يريد أخذ مال العميان الفقراء المساكين ليرده الى ديوان الاوقاف ارضاء للخديو فعزموا على عدم تمكين الازهر من أخذ المبلغ وأما سمو الخديو فكان قد اعتقد أن الازهر استعمل سلطته القانونية بما يعد إهانة وإساءة الى ديوان الاوقاف التابع لسموه وهو صاحب الفضل والنعمة على الازهر فيما دخل فيه من النظام وبما أفاض عليه من الاموال ، فوقع مجلس الادارة في مشكلة ذات ثلاث شعب: الخديوي سيء الظن فيه بأنه خارج عليه مهين لديوانه - والانكليز يسيئون الظن فيه بأنه آلة للخديو يريد ارضاءه باموال العميان المساكين ، وهو بريء من هذا وذلك وانما هو القيام بالواجب عليه من حفظ حق العميان ان يضع وايصاله اليهم بالعدل والانصاف

فذهب أحد أعضاء مجلس الادارة الى الاسكندرية لشرح المسألة لسمو الخديو . وهذا العضو هو الكاتب الشيخ عبد الكريم رحمه الله إذ كان الاستاذ الامام مسافراً بالاجازة ولو كان موجوداً بمصر لما وصلت المسألة الى هذا الحد المشكل . فقابل الخديو وشرح له الحقيقة وان القضية رفعت على الديوان قبل تشكيل مجلس الادارة وان المجلس وجد نفسه أمام حكم نهائي لا مرد له فكان الواجب

عليه حفظ هذا الحق لاهله وهو عرضة للضياع ، ثم قابل رئيس مجلس النظار وكان عنده ناظر الخارجية فشرح لها المسألة ، فافتنع كل من الجانبين بعض الاقتناع ، وظلت المسألة معلّقة حتى عاد الاستاذ الامام من إجازته وعاد في تلك الاثناء المستشار القضائي الانكليزي وكان يحل الاستاذ الامام كل الاجلال كما تقدم في الكلام على عمله في القضاء ، فبين له حقيقة المسألة ثم بينها للعميد المسيطر على الجميع (لورد كرومر) ففوض هذا البت فيها الى المستشار ، فجمعه الاستاذ الامام بشيخ الجامع الازهر وكان المحامي قا تردد عليه ايستعين به على ما يريد فقضى بأن يوزع المبلغ كله على مستحقيه في الحال وأن يضرب بانذارات ذلك الاجنبي الذي ادعى شراؤه عرض الحائط ، وأزم المحامي رده كله ، وان يكون توزيعه بمقتضى كشوف يحررها مجلس ادارة الازهر باسماء المستحقين ومقدار حصصهم ، وأن يتولى التوزيع عثمان بك مرتضي مدير الاقلام العربية في نظارة الحماينة . وكذلك كان ، ولما وصلت الدنانير الى أولئك العميان الذين كادوا يرضون بعشرها انطلقت ألسنتهم بالدعاء لمن كان سبب ذلك . . .

الحاق الاسكندرية في التعليم والنظام بالازهر

في ٢٩ المحرم سنة ١٣٢١ و ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٣ صدرت الارادة السنية بالحاق التدريس والامتحان في ثغر الاسكندرية بالجامع الازهر ، ومضمونها (ان الجنب العالي وافقت ارادته العلية أن تكون الاسكندرية ملحقة بالازهر في التدريس والعلوم والامتحان وان مجلس ادارته يضع لها القوانين والنظامات ويرتب درجات العلماء الموجودين فيها وقت صدور هذه الارادة ويحصر الاماكن التي تدرس فيها العلوم هناك وان يكون ترتيب درجات علمائها بحضور ثلاثة من مشهورهم (الأقدمين) فبلغت نظارة الداخلية الازهر هذه الارادة ، ولم يكن إلا ان سافر شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية الى الاسكندرية وشكلا لجنة تحت رئاسة شيخ الازهر من أكابر علماء الاسكندرية ودعوا اليها الشيخ احمد باشا ليعلم هل يقبل ان يكون الجامع الانور الموقوف للتدريس من قبل جدم الاعلى

خاضعا لهذه المنظمات الجديدة في الاسكندرية أم لا ؟ فتردد في الامر أولا ثم عاد اليهما وأمضى على المحضر بأنه قابل هذه التنظيمات ، وان مسجد جده تسري عليه الاحكام التي توضع لها ، ثم اشتغلت اللجنة بعد ذلك في حصر العلماء الموجودين وجعلت عمدتها في عملها قائمة وقف الغزي الذي اشترط واقفه ان يصرف جزء من ريعه الى العلماء ، ودقتر الجامع الانور التابع لوقف أولاد الشيخ ، لانه لم يكن ليدرج في قائمة وقف الغزي مستحق على أنه من العلماء الا بعد امتحان واذن بالتدريس ممن له الولاية في ذلك ، ولان دقتر الجامع الانور يقيد فيه من يؤذن له بالتدريس على ما وضعه واقفه من القواعد ، سواء كان بالامتحان أو الاختيار المصحح لصدور إذن شيخه للطلاب بالتدريس فيه ، فكل من اندرج في أحد هذين النوعين فقد حاز صفة العالمية في ذلك انشعر ، فله حق اطلاق هذا الاسم عليه فيه ، أما ترتيب درجاتهم (أولى وثانية وثالثة) فكانت عمدة اللجنة قد طابت التثبت من حالة العالم في العلم والاشتغال به ومقدار عمله بالسؤال من أعضاء اللجنة الاسكندريين لانهم أعرف بأنفسهم ، ودرجة الاشتغال لا تعرف إلا منهم ، فلا يعول في تقدير الدرجة للعالم إلا على أقوالهم ، خصوصا وانهم من المشهورين ولهم على معظم علماء الشنر المشيخة في العلوم

أمضى الشيخان في الاسكندرية ثلاثة أيام ، ثم عادا ومعهما محضر عملهم فاشتغل مجلس الادارة بتقرير العلماء في الاسكندرية وحصرهم في عدد مخصوص ، وترتيب درجاتهم العالمية ، فصدر قراره بتاريخ ٢ ربيع الآخر سنة ١٣٢١ (أو آخر يونيه سنة ١٩٠٣) قاضيا بحصر عدد العلماء الاسكندريين في سبعة وأربعين عالما وان منهم أحد عشر في الدرجة الاولى وتسعة عشر في الدرجة الثانية وسبعة عشر في الدرجة الثالثة ، وتضمن هذا القرار أيضا أن لا يدرج في سلك علماء الاسكندرية بعد اولئك المحصورين إلا من ينجح في امتحان التدريس على القاعدة الجديدة التي يوضع لها النظام الجديد ، وان هؤلاء العلماء المحصورين يدرسون في الاسكندرية وغيرها من أما كن التدريس في انظار المصري (عدا الجامع الازهر) وان من أراد منهم أن يدرس في الازهر فعليه الدخول في امتحان التدريس

فيه، وان من يتقدم لهذا الامتحان من علماء الاسكندرية يقدم على غيره من كل طائفة ، وحدد في هذا القرار ما يدرسه أهل كل درجة في الاسكندرية من العلوم المتداول تدريسها فيها

ولما كان تنفيذ هذه الاحكام يتوقف على وجود شيخ للعلماء هناك وكان لاولاد الشيخ ابراهيم باشا المنزلة الرفيعة بين أولئك العلماء لما لهم من الاوقاف وملكانتهم من العروة وقدم بيتهم في العلم رأى مجلس الادارة أن يعهد بتنفيذ هذه الاحكام إلى أكبر أولاد الشيخ الثلاثة ، فقرر تعيين الشيخ محمود باشا شيخا للعلماء الاسكندرية وتعيين الشيخ احمد باشا وكيله لانه كان في حالة شيخوخة لا يتمكن معها من ضبط الاعمال ، وأرسلت مشيخة الازهر هذه القرارات إلى الشيخ ووكيله وعهدت اليهما بتنفيذها وانتظرت الجواب بأمره السيد ملائيم بما تضمنته هذه القرارات من الاحكام

نم اشتغل مجلس الادارة بوضع قانون لسير التدريس والامتحان في الاسكندرية كما وضع لغيرها من الاماكن الملحقة به ، وبعد الفراغ من وضعه رأى شيخ الجامع تعيين أحد أعضاء الادارة الازهرية ^(١) ليذهب الى الاسكندرية ومعه هذا النظام الجديد فيتذاكر فيه مع شيخ العلماء ووكيله هناك حتى اذا كان لما عليه ملاحظات اصاح الحال فيها قبل التصديق الاتمائي عليه ، فكان كذلك وذهب هذا العضو في شهر اغسطس او سبتمبر من سنة ١٩٠٣ واشترك مع الشيخ احمد باشا في تلاوة ذلك النظام فلم يجد من ملاحظته عليه الا ما يضمن المحافظة على كيان اوقاف اولاد الشيخ والتوقي من أن تمس بمحاسبة أو مراقبة من قبل المشيخة الازهرية ، ثم لاحظوا على قرار حصر العلماء أنه ترك فيه ستة ممن يصح ادراجهم في أولئك العلماء وان ترتيب درجات العلماء يحتاج الى التعديل لان بعضهم أعطي الثالثة وهو يستحق الثانية مثلاً

عنه كل ملاحظات اولاد الشيخ على النظام والقرارات وكلها امور نفسية في اشياء شخصية كما هي القاعدة عند أهل العلم الشريف الآن . فبحث معهم

(١) يغاب على ظني ان هذا العضو هو الشيخ عبد الكريم رحمه الله

مندوب المشيخة فيما طلبوه فتبين له بمراجعة دفاتر مسجدهم والتحقق من حالتها ان اولئك الستة الذين تركوا في حصر العلماء لهم الحق حقيقة في أن بدرجوا في سلكهم فوعدهم بإدراجهم بمجرد رجوعه الى مصر . وأما تغيير الدرجات لبعض اولئك المحصورين سابقاً فلم يوافقهم عليه لان التغيير في البعض بلا سبب يستلزم إجابة من يطلب تغيير درجته في المستقبل والا كان ترجيحاً بلا مرجح ، ثم عاد مندوب المشيخة الى مصر وعرض الامر على الشيخ فقدمه الى مجلس الادارة وهو اصدر قراره بجعل هؤلاء الستة من العلماء وأن يكون واحد منهم في الدرجة الثانية والخسة في الدرجة الثالثة كما اتفق عليه المندوب مع أولاد الشيخ ابراهيم باشا فصار عدد علماء الاسكندرية الذين يسرى عليهم حكم القرار السابق ثلاثة وخمسين أحد عشر درجتهم اولى وعشرون درجتهم ثانية واثنان وعشرون درجتهم ثالثة ، وتاريخ هذا القرار ٢١ ذي الحجة سنة ١٣٢١ و ٨ مارس سنة ١٩٠٤ (وهنا ذكر الكاتب ان اولاد الشيخ ابراهيم باشا بدا لهم رفض ماقدره مجلس ادارة الازهر من جماعهم تابعين له في ادارته ونظامه وترك استقلالهم وانفرادهم بالرياسة العامة في الاسكندرية وان المجلس جاملهم بكساوي التشريف وغيرها الى أن يئس منهم فقرر تعيين شيخ امهد الاسكندرية غير الشيخ محمود الباشا (نم قال)

الشيخ محمد شاكر

ان الله تعالى قد لطف بعباده العلماء وأراد أن لا يبق حالة الاسكندرية على ما هي عليه من الخلف وتعطيل الاعمال ، فساق الشيخ محمد شاكر قاضي قضاة السودان الى مصر بالاجازة فجاء اليها وليس في نفسه إلا الاستراحة من حر السودان ومن العمل فيه أيام شدة القيظ، ولم يكن يخطر على فمكر أحد من شيخ الازهر ولا أعضاء مجلس ادارته انه بمقدمه ينحل هذا المشكل لانه في وظيفة عالية بالسودان مرتبط فيها برأي غير رأي مصر والمصريين، ولكن الحاجة تفتق الحيلة كما يقال ، ولا جليها ففكر فيه بعض أعضاء المجلس وجس نبضه فوجد منه

ارتياحا للقبول فأشار عليه أن يعمل ليصل الى هذه الغاية^١ فقام بالأمر خير قيام ومهد لذلك باسترضاء الجهتين: جهة السودان لتوافق على نقله منها، وجهة مصر لترضى بتعيينه شيخا لعلماء الاسكندرية، وكل سعيه فيهما بالنجاح، فقرر مجلس الادارة في ١٦ ابريل سنة ١٩٠٤ انتخابه لهذه الوظيفة الجليلة وأن يكتب الى نظارة الداخلية لتستصدر الامر العالي بذلك فكان ماطله المجلس وصدر الأمر العالي بتعيينه شيخا لعلماء الاسكندرية في يوم ١٠ صفر سنة ١٣٢٢ و ٢٦ ابريل سنة ١٩٠٤ والنحل ذلك المشكل العظيم

عض أولاد الشيخ باشا بعد ذلك بنان الندم فانه لم يكن ليمر على خاطرم ماساقه الله من حل هذه العقدة وعادوا على الشيطان بالسخط وعلى أنفسهم باللائمة لقبولها وسأوسه، ولكن هذا لم يكن بالنافع فقد فات وقته وما مضى لا يعود قام شيخ علماء الاسكندرية الجديد بعمله أحسن قيام، لما فيه من الفطنة وشدة الذكاء، ولعلمه بما يجب لهذا الزمان الحاضر وعنده مجلس الادارة الازهرية وشيخ الازهر أكبر التعضيد، وسهل له الطريق في استعمال فكرته، ولم يقيد بنظام سوى نظام الازهر نفسه ونسخ له صور القوانين والقرارات التي يجري عليها العمل المستمر، وقرر له كل ماطله في سير الاعمال وضبط نظامها وتكليف العمال بما يطلبه منهم. فأمضى بقية سنته في ترتيب وتنظيم وفي تعويد العلماء على العمل وضبط المواعيد والمواظبة على إلقاء الدروس. واستصدر أخيراً من مجلس الادارة قراراً يحصر المساجد التي يكون فيها التدريس في ثمانية مساجد ليس مسجد أولاد الشيخ ابراهيم باشا منها. والحكمة في ذلك ظاهرة جداً لانه يجب أن لا يوجد

(١) ان العضو الذي أشار عليه بذلك هو الاستاذ الامام، وما أشار عليه به ان يظهر السخط عليه لاسمالة سمو الخديو حتي انه رضي ان يطمئن عليه بهذا القصد، اذ كان من المعروف لدى سموه ان الشيخ محمد شاكر من حزب الشيخ محمد عبده ومن رجاله وانه هو الذي اخاره للسودان وسعى لجملة قاضي القضاة فيه. وهذا حق وان لدي أكثر مكتوباته وتقاريره المهمة التي كان يرسلها الى الاستاذ الامام ليستنير فيها برأيه

معه من يشغله عن الجد في العمل، وأن تزول عوائق المعارضات من بين يديه،
فأصدر المجلس هذا القرار المطلوب وبه استراح خاطر شيخ العلماء الجديد
والمقصد الأكبر والساعد القوي للآزهر والاسكندرية هو صاحب الفضل
والنعم المتوالية على الجهتين أجناب العاليي الخديو، فإنه قد أظهر ارتياحه واستحسانه لما
بذله شيخ علماء الاسكندرية من الجهد في تغيير وجهة التعليم فيها من القديم الى الحديث
وأظهر رضاه العالي عن الآزهر لتعاضد هذا الشيخ في مقاصده ونقل التعليم
من حالة الهمجية الى حالة النظام والدخول بالعلم والعلماء والطلاب في باب العلوم
التي يقتضيها هذا الزمان (١)

وفي آخر السنة الدراسية الموافق تقريباً لأخريات سنة ١٩٠٤ قدم شيخ
علماء الاسكندرية تقريراً الى مشيخة الجامع الأزهر (نشرته جريدة المؤيد في حينه)
فصل فيه أعماله في تلك المدة القصيرة وهي نحو ستة أشهر تفصيلاً تضمن بيان
أحوال العلماء والطلبة وما كانوا عليه وما صاروا اليه وما قريء في تلك المدة
من العلوم وكيفيات التدريس ومواعيده وأمكنته وأنواع العلوم التي قرئت هناك
ومن اختارهم من العلماء لتدريس كل علم منهم، وختمه بأن لابد من إيجاد نقود
كافية لكي يكمل الغرض المطلوب ويتمكن من إلزام العلماء والمتعلمين بالنظام،
لأنه يستحيل تقدم الأعمال بغير نقود. فوقع تقريره هذا عند مجلس الإدارة
أحسن الوقع وتحقق أن العمل في الاسكندرية سيوصل الى ما يرجوه من نفع
المتعلمين، وكلف شيخ العلماء بأن يبين حاجته من النقود ويضع انصرافها ميزانية
مضبوطة فيعاونه في تحقيق أمله بطلبها من لدن أجناب الكريم، ففعل ما كلف به
في أقرب زمن، وقدم منه نسخة الى أجناب العاليي ثم قدم نسخة أخرى الى مشيخة
الأزهر، فلم يكن غير قايلاً من الزمن حتى وردت النسخة المرفوعة من أجناب

(١) لا شك في أن سموه كان يحب هذا النظام الذي وضعه الشيخ محمد عبده
للأزهر ونفذه بمساعدة سموه وأمكنه سخط أخيراً على النظام بما للسخط على
الشيخ. ولما ظن أن النظام في الاسكندرية لا فضل فيه للشيخ وأن الشيخ محمد
شاكر ليس من رجاله وجد مقتضى امروره وتعاضده غير معارض بالمانع منها

العالي على الازهر مع كتاب من رئيس الديوان الخديوي مطلوب فيه نظرها بمجلس الادارة وتصديقه عليها بعد البحث وتحقيقه من الحاجة الى ما فيها، فبحث فيها المجلس ورآها كلها موافقة للصواب فأقرها على ما وضعت وصدر قراره الرسمي بذلك في يوم ٢٨ شعبان سنة ١٣٢٢ و ٦ نوفمبر سنة ١٩٠٤ وأبلغ هذا القرار في يوم صدوره الى ديوان الاوقاف ليقرر المبالغ المطلوبة في ميزانية سنة ١٩٠٥ المقبلة، أما مقدار المبالغ الذي طلبه الشيخ محمد شاكر وأقره مجلس الادارة فهو ٤٣٧٤ جنيهاً مصرياً في العام وقد أقر عليه المجلس الأعلى بديوان الاوقاف المنعقد تحت رئاسة الجناح العالي حسب العادة، وأدرج في ميزانية سنة ١٩٠٥، وجاء بذلك كتاب الى الازهر وهو أبلغ الخبر الى الشيخ العلماء في أواخر ديسمبر سنة ١٩٠٤ وكلفه أن يضع لصرف هذا المبلغ قاعدة منتظمة حسبما يراه مفيداً للعالم والتعليم وضع شيخ علماء الاسكندرية ميزانيته وجعل فيها موضعاً لاربعة من علماء الازهر ليكونوا عوناً له على ادخال العلوم الحديثة التي تعلموها في الازهر بالاسكندرية، فضلاً عن تعليم العلوم الدينية المتداولة في الازهر على الطريقة التي تضمنها قانون الجامع الازهر وقرارات مجلس ادارته فيكون تعليمها مفيداً للطلاب، وخصص قسماً من المبلغ المقرر له ليصرف في جريات العلماء والطلاب، وقسماً منه لاسكان المجاورين، وقسماً بعنوان مرتب شهري للعلماء على اختلافهم في الدرجات، وقسماً بعنوان معونة لبعض العلماء الفقراء غير المشتغلين حق الاشتغال، فجعل مرتب العالم الازهري من الاربعة الذين طلبهم منه ثمانية جنيهات في الشهر، ومرتب العالم من الدرجة الاولى الاسكندرية خمسة جنيهات، ومرتب العالم من الدرجة الثانية منهم أربعة جنيهات، ومرتب العالم من الدرجة الثالثة منهم ثلاثة جنيهات، ومرتب العالم من ذوي المعونة منهم جنيهاً واحداً — وهذا عدا الجريات — وأرسل ترتيبه هذا مع جدول ببيان الدروس التي تلقى في العام الدراسي المقبل (الذي نحن فيه الآن) وأمكتها ودرسيتها وأوقات تدريسها هناك الى الازهر، فبحث فيه مجلس الادارة بحثاً مدققاً وأصدر قراره مصدقاً عليه بتاريخ ٨ ذي القعدة سنة

١٣٢٢ و ١٤ يناير ١٩٠٥ تم انتخاب له العلماء الأزهريين من أفضل علمائه الذين تخرجوا منه حديثاً بعد دخول العلوم الحديثة فيه، وقرر أن تبقى مراتبهم الأزهرية معهم مضمومة إلى الرتب الأسكندرية، وسافروا إلى اشقر الأسكندرية قبيل مسامحة عيد الأضحى، وهام أولاء مع شيخ العلماء هناك يداً واحدة يشتغلون ليل نهار فيما يعود على العلم بالترقي والتقدم، وفيما يعود على المعلمين بالنجاح إن شاء الله تعالى

﴿ مراتب أولاد العلماء وما تنفقه الحكومة على الأزهر ﴾

بعد نحو شهر من تقليد السيد البيلاوي مشيخة الأزهر اتفق هو وأعضاء المجلس على تنفيذ قانون الرتب فيما يتعلق بأولاد العلماء، واتوضح المقام تقدم مقدمة مختصرة نبين فيها ماهو الرتب للأزهر في المالية شهريا وما يصرف منه للعلماء وما يصرف لأولاد المتوفين منهم وما يقضي به قانون الرتب في شأن أولاد العلماء فنقول :
كان الرتب الشهري للأزهريين سواء كانوا علماء أو أولاد علماء قبل صدور قانون الرتب نحو ٣١٠ جنيهات تم انضمام إليه مبلغ الألف جنيه في السنة الذي أعطته الحكومة إلى الأزهر ووزعه مجلس إدارته بعد صدور القانون خص الشهر ١٦٦ جنياً وكسوراً وبضمه إلى مبلغ ٣١٠ السابق ذكره يكون مجموع ما يخص الشهر ٤٧٦ جنياً وكسوراً (وهذا عدداً نحو ٦٢٧ جنياً سنوية تصرف في بدل كسائي التتريف لكبار العلماء وهو لا دخل له في الرتب الشهرية) والذي يصرف من مبلغ ٤٧٦ جنياً الشهري للعلماء نحو ١٤٩ جنياً في الشهر. و كان عدد أولاد العلماء الذين يأخذون هذا المبلغ ١٧٣ شخصا. فهذه جملة ما تصرفه الحكومة المصرية السنية لهذا الجامع الذي هو أكبر مدرسة دينية في البلاد الإسلامية ، وخلاصة ذلك أن أولاد العلماء كانوا ١٧٣ نفساً ومرتبتهم الشهري ١٤٧ جنياً (١)

(١) ليت الشيخان محمد عبده وعبد الكريم يلطمان في برزخها ان ميزانية الأزهر زادت في عهد جلالة الملك فؤاد على ٣٠٠ ألف جنيه في السنة وان الإصلاح الذي كاشنه لم يتقدم ٣٠٠ خطوة ولا ٣٠ ولا ثلاثاً إلا ما بينه بعض المدرسين القليلين المهدين

أما الأحكام المتعلقة بأولاد العلماء في قانون المراتب فهي كما يأتي :

(مادة ٢٠) إذا توفي أحد العلماء عن شيء من هذه المراتب الشهرية وكان له ابن أو أكثر صرف لهم ما يكفيهم من مرتب أبيهم فإن لم يكف البعض صرف لهم الكل ، والمرجع في تقدير الكفاية إلى مجلس الإدارة

(مادة ٢١) إذا كان أولاد العالم المتوفى قسراً عند وفاته اشترط فيهم أن يشتغلوا بحفظ القرآن إلى أن يبلغوا خمس عشرة سنة ، فإذا بلغوها اشترط أن يشتغلوا بطلب العلم وأن يواظبوا عليه ، وإن كانوا عند وفاة والدهم قد بلغوا السن المذكورة اشترط في صرف المرتب اليهم أن يكونوا مشتغلين بطلب العلم مواظبين عليه

(مادة ٢٣) إذا امتحن ابن العالم ولم ينجح على ما قرر في أصول الامتحان أو احترف بحرفة غير طلب العلم في الأزهري قطع مرتبه وصرف إلى مستحقه

(مادة ٣١) مجلس الإدارة ينظر في شؤون من يأخذون الآن مراتب عن آبائهم ، فمن ثبت له منهم أنه مشغول بطلب العلم حتى الاشتغال أبقاه على مرتبه إلى أن يؤدي الامتحان بنجاح وعند ذلك ينقل إلى درجة العلماء ويجري على حكم المادة (٢١) ومن ثبت له منهم أنه غير مشغول أو مشغول غير مواظب أمره رئيس المجلس بالاشتغال أو المواظبة فإن استمر على ترك الاشتغال أو ترك المواظبة أربعة أشهر في السنة متوالية أو متفرقة لتفسير عذر كان لمجلس الإدارة أن يقطع مرتبه ويصرفه لغيره من المستحقين ، فإن عاد إلى الاشتغال بعد ذلك لم يكن له حق في أخذ المرتب إلا إذا امتحن وصار من العلماء وعند ذلك يأخذ مرتب عالم وتجري عليه أحكام الدرجات

(٣٢) تضمنت المواعيد التي يرضيها ابن العالم في الاشتغال بطلب العلم وهذه الأحكام كلها كما تراها روحها اشغال ابن العالم ومعونته على طلب العلم وإلزامه بدوامه ولكن هؤلاء الأبناء قد عكسوا قصد القانون وصارت النقود معونة لهم على البطالة ، وعلى إتيان ما يخل بشرف العلم وأهله كما ثبت بالتجربة ، فإن من لا مرتب له منهم أو من له مرتب قليل يشتغل لينال مركزاً في الوجود وليكون خلفاً لآبيه في الأزهري ، ومن له منهم مرتب يغنيه نوعاً ما اكتفى به عن العمل أو استعمله في غير ما وضع لاجله أو استعان به على ما لا يرضي الله وكان ماساً بالعلم والعلماء والمتعلمين .

لأجل هذا كله ولتجري النفع لأولاد العلماء نظر مجلس الإدارة في شأنهم فقرر في جلسته المنعقدة في ٢ المحرم سنة ١٣٢١ و ٣١ مارس سنة ١٩٠٣ أن يدعى جميع أولاد العلماء الذين يأخذون هذه المرتبات لاختبار بسيط يتبين به حال المشتغلين منهم وغير المشتغلين والموظفين والمعلمين مع مراعاة التساهل إلى الحد الممكن بحيث لا يراعون النسبة بين الزمن الذي أمضوه في الطلب وبين ما حصلوه من العلوم، لأن الغرض إنما هو الاشتغال. وأن يكون اختبارهم أمام لجنة تحت رئاسة أحد أعضاء مجلس الإدارة، وأن تقدم اللجنة جدولاً باسماء من يختبرون منهم وملاحظاتهما على كل واحد مبينة فيه حاله بغاية الضبط، وأن يملهم قلم الكتاب إعلاناً صحيحاً يصل إلى كل واحد منهم بنفسه ويحجب عنه كتابة إمام بالحضور أو إبداء المذكرة أو عدم الانقياد. كل هذا بعد أن ثبت أن رئيس مجلس الإدارة السابق كان أعلمهم بنص المادتين (٣١ و ٣٢ من القانون) ونبه عليهم بدوام الاشتغال والمواطبة

اشتغل قلم الكتاب بإعلان هذا العدد (١٧٣) وبعضهم مقيم بمصر والبعض مقيم بالبنا دار أو الأرياف، وقد كانت العادة من قبل أن تصرف للمعينين خارج مدينة القاهرة رواتبهم إذا أدبت فيهم شهادة من القاضي أو نحوه بأنه مواظب على الاشتغال، وكثيراً ما جاءت هذه الشهادات عن أناس تركوا القرآن أو العلم واشتغلوا بالمدارس أو بحرفة أخرى أو لم يشتغلوا بالمرّة واستمروا يأخذون مرتب الأزهري وهم على تلك الحال

وصلت الاعلانات إليهم وحدد فيها لكل فريق منهم يوم مخصوص بمحضرة فيه أمام اللجنة بإدارة الأزهري، وعلى أثر ذلك وصل إلى الأزهري بلاغات من ثلاثة عشر منهم يقول البعض أنه تنازل عن مرتبه في الأزهري والبعض أنهم اشتغلوا بحرفة غير طاب العلم، والباقيون أنهم لا يقبلون الاختبار مهما كان سهلاً، والإدارة وشأنها في المرتب، فإن شاءت أبقتهم وإن شاءت قطعتهم ولا معارضة لنا فيما تجزئهم. فقرر المجلس الطبع قطع المرتبات عن هؤلاء الذين أظهروا الاستغناء عنها ومالوا إلى عصيان أوامر الشيخة ومقدارها ١٣ جنبها وكسوراً. ووزعها على من لا مرتب له من العلماء الذين كانوا يشتغلون بلا مرتب وهم أولى وأحق من أولئك الذين كانوا يأخذونها وهم لاهون نائمون، أو متمتعون آثمون، ثم تتابع حضور معظم

الباقيين الى اللجنة فكانت تختبر من يقول انه يتلقى العلم وهو يعلم انه كاذب - في اعراب مثال خفيف يحله من يتلقى كتاب (الازهرية) فاقرت قوما وهم على هذا النحو من التحصيل لعلهم يخجلون فيعملون، ووجدت بين الباقيين من هو مشتغل حق الاشتغال فأثنت عليه بما يزيد في نشاطه، ووجدت من هو مشتغل بحفظ القرآن لان سنة لم يبلغ الخامسة عشرة، ومن هو مقدم لامتحان التدريس فلم تختبره ووجدت من بينهم من لا يكاد يقرأ ولا يكتب بعد أن مضى عليه زمان طويل يختلف بين ست عشرة سنة وخمس وثلاثين سنة وهو يأخذ هذا المرتب على انه من المشتغلين

أذكر من هؤلاء واحداً قدم من (جرجا) بعد كثرة الاعتذار وطول التغيب وقد مضى عليه أكثر من عشرين سنة يأخذ المرتب بما يتوالى على الازهر من تلك الشهادات القاطعة بانه مشتغل بطلب العلم في جرجا حق الاشتغال، وقد اتفق كل القضاة والمفتين الذين عينوا في جرجا في ذلك لزم على الشهادة انه بانه طالب علم مشتغل بطالبه مواظب عليه، ولم يخطر ببال أحدهم أن يستدعيه مرة ليعلم من حاله ما يصحح الشهادة له بالاشتغال، وكأنهم فهموا ان أخذه لهذا المرتب خير ولا يجوز لهم أن يمنعوا الخير. واني لا اعتقد انه لو اتفقت أحدهم إلى ذلك واستدعاه مرة وسأله عن أسهل شيء لانتبه هذا الطالب من غفلته وعمل بعض العمل ليحلل أخذ هذا المرتب، وإمكانه جزم بأن لا رقيب عليه فاهل نفسه غاية الاهمال، واشتغل يدل العلم بسفاسف الاعمال. ولو فعل حضرات القضاة والمفتين ذلك لخرجوا من عهدة الشهادة بما لا يعلمون (١)

(١) يقول محمد رشيد: ألم يقرأ أو لم يسمع هؤلاء القضاة والمفتون قوله تعالى (يا ايها الذين آمنوا كونوا قوايين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم او الوالدين والاقرين ان يكن غنيا او فقيرا قاله اولي بهما) الآية؟ بلى كلهم قرأها وسموها مراراً لا تعصي وحفظوا لفظها ايضاً ولكن لم يخطر ببال احد منهم انه مخاطب من ربه بالمباينة في القيام بالقسط والشهادة بالحق مهما تكن حال المشهود عليه، لأنهم لم يتعلموا في الازهر ولا في غيره وجوب تدبر القرآن والاهتداء به، ولما قام الشيخ محمد عبده يطالبهم بهذا ويحاول اصلاح فسادهم وابطال تزويرهم حتى في طلب العلم مادونه وطعنوا في دينه كما سيأتي

وبالاختصار قد حضر هذا الشخص إلى إدارة الأزهر وجلس لامتحانه بعض من يشفقون عليه من أهل جلدته بل سكان بلدته بل ذوي قرابته وهم أخوف الناس عليه فلم يسعهم إلا الإقرار بأنه لم يشتغل زمنا ما بأي علم من العلوم ولما انتهى المجلس وعلم هو منهم أو أعلموه بما سيؤول إليه حاله طلب من شيخ الجامع أن يعاد امتحانه لأنه تهيب ذلك المجلس، وهو عذر لم يكن مقبولا لأن الامتحان أمام شيخ الجامع أهيب منه أمام عضو من الإدارة، خصوصا وقد كان في الأولى قوي الظاهر بمن حضره، ولكن الشيخ قبل طلبه قطعا للمعاذير فلم يلبث أن خرج من المجلس الثاني وهو جازم بأنه غير مقبول وبأنه هو انقصر في نفسه وعاد على من كانوا يشهدون له باللوم والتعنيف ورجع إلى بلده يأثما من لقاء الرتب بيده استخلصت اللجنة أولئك المختبرين فظهر أنهم منقسمون أربعة أقسام: الأول يبقى مرتبه، والثاني يكلف تقديم طلب الامتحان لنيل شهادة العالمية ويبقى مرتبه إلى أن يخرج من الامتحان فإن نجح نقل إلى مرتب العلماء وإن سقط قطع مرتبه بمقتضى القانون، والثالث أمر بمداومة الاشتغال والمواظبة، وأعلن بأنه مراقب في عمله، فاما أن يجد ويجتهد وإما أن يقطع مرتبه، والرابع وهو أمثل ذلك الجرجاوي يقطع مرتبه من الآن

وقد استغرق هذا العمل من أول أبريل سنة ١٩٠٣ إلى ١٦ يولييه سنة ١٩٠٤ أي خمسة عشر شهراً ونصف شهر، وفي ١٦ يولييه سنة ١٩٠٤ صدر قرار المجلس بقطع مرتب القسم الرابع وعددهم ثلاثون وهم الذين تبيين للمجلس أنهم لا يصلحون لشئ، معافا، وأنه يحرم أخذهم المرتب المشروط بالاشتغال والمواظبة، وتقرر أن يكون القسط من أول أغسطس سنة ١٩٠٤، أما مقدار ما قطع من الثلاثين فهو ٢١ جنيتها وكسوراً في الشهر. ثم اتبع المجلس هذا القرار بقرار آخر في ٨ ديسمبر سنة ١٩٠٤ بقطع مرتب ثمانية من أضراب أولئك الثلاثين كان بينهم إلى الاشتغال وتحقق أنهم لم يشتغلوا وإن يشتغلوا، ومقدار مرتبهم تسعة جنيهات وكسور، فيكون جملة من قطعوا ٥١ نفسا ١٣ تنازلوا و ٣٨ يفاخوا وجملة مرتباتهم ٤٤ جنيتها وكسوراً فالباقى من أولاد العلماء الذين يأخذون المرتب من أول يناير

سنة ١٩٠٥ - ١٢٢٠ ومرتبههم الباقي لهم مائة جنيه وجنيهان ويضم المقطوع من اولاد العلماء إلى مرتب العلماء يصير ما يأخذونه ٣٧٣ جنيه في الشهر وكسور الجنيه ، وعلى هذا تم الامر في مرتب اولاد العلماء وهو عمل قد طابق القانون والحق من كل الوجوه

سعي الاستاذ الامام لاعانة اولاد العلماء بعد قطع رواتبهم

في زمن الشيخ حسونه قطع مجلس الادارة مرتب بعض اولاد العلماء وهم نحو ثلاثة عشر على ما ظن لم يتحقق فيهم الاشتغال المشروط في القانون، ولكن كان معظمهم من الاغنياء الذين لا يؤثر فيهم قطع هذه المرتبات، وأما هؤلاء فكثير منهم ممن كانوا قد استغنوا بهذا المرتب القليل وقعدوا عن العمل بأقل من الكفاف فصاروا كالا على الازهر والازهرين . ولما رأى بعض أعضاء المجلس - وهو من يعرفه الناس بالسعي الى الخير والعمل للمصلحة العامة - ان في الواحد والحسين المقطوعين بمقتضى القانون من قعده به الدهر عن السعي، وتعود أن يأكل بلا كد ولا تعب ولا عمل، حتى شاخ وهرم، وصار لا يقدر على انتحصيل من جديد وله زوجة وأولاد وقد أخذ القانون بالعدل المر فأخرجه من عداد المستحقين - لما رأى ذلك العضو هذا استعطف بعض أهل الخير والرومة والثروة فأخذ منهم جانباً من النقود وأودعها في خزانة الازهر لتنفق على أولئك المعوزين باعتبار ما كان مرتباً لهم من قبل، فمن جهة قد روعي القانون وتنفيذه ، ومن جهة لم يفت أولئك المحتاجين شيء من حاجتهم التي كانوا يقضونها بمثل هذا المرتب الزهيد، وسعى بعضهم سعيه المحمود فقيد في بعض الاوقاف الخيرية ورتب له مبالغ مستديم، ولا يزال يجمع لهم النقود ويرسلها الى الازهر ايصرف عليهم منها الى الآن ، واقد فعل هذا حتى بعد استقالة من عضوية مجلس الادارة بل بعد مفارقه الازهر فبعث الى خزانة الازهر بمبلغ كبير يكفي أولئك المستحقين سنتين ان شاء الله . وقد سعى لترتيب مبالغ غير قليل في وقف خيرى واسع لا علاقة له بالاوقاف العمومية لبعض هؤلاء المساكين، الذين أفسدهم إهمال المشايخ السابقين، ولو كان ممن يعملون كما يعمل الناس لغرض مخصوص لما اهتم بعد بهذا الجمع، ولكنه رجل المصلحة، ورجل الخدمة العامة، ورجل الشفقة على البائسين في أي مكان وجد وفي أي زمان. فجزاه الله أحسن الجزاء

حالة الازهر الصحية وتعيين طبيب له

فاتنا ان نذكر شيئين مهمين : تعيين طبيب للازهر واستدراار المسكرم الخديوية لعملاء دمياط والجامعين الاحدي والدسوقي. فأما تعيين الطبيب فقد كان في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٩٨ أي قبل فصل الشيخ حسونة بنحو سبعة أشهر وعشرين يوماً ، والحامل على طلب تعيينه والفائدة منه يتبينان بذكر ما كان عليه الجامع والطالبة في الامور الصحية قبل مجيء الحكيم وما صار اليه بعده ، ولا نذكر منهما غير القليل ، فهو يكفي عن التطويل

كانت أمكنة الجامع الازهر من صحته الى مقاصيره الى أروقته الى مغاطسه وميضاته وكنفه مجتمع أوساخ، ومهبر وأمح عفنة، ومنبع وخامة، وبؤرة أمراض معدية ، فإذا دخل الداخل الى الصحن وجد فيه بقايا الكراث والفجل وقشور البصل وفضلات الخبز العفنة وجلود الفسيخ وقمامات الكنس من مواضع النوم أكواما والى جوانبها ما يراق من مياه الشرب المأخوذة من الصهاريج وما يحمله النعال من وحل الطريق حيث يتأبط المجاور مداسه بلا نفث ولا تنظيف. وبين هذا وذاك كثير من البصاق والنخامة والنخاعة

ثم اذا ذهب الى جهة الميضأة وجد حوالها أمثال ذلك ورأى قطع الخبز المبلول تعوم في مائها وهي تتدفق بما يسيل من أفواه المتوضئين وأنوفهم ساعة الوضوء وربما وجد على جوانبها بعض الفضلات (١) واذا قصد المغاطس وجد على مياهها طبقة كالدهن من الادران، وشم منها مالا تحمل الانوف والابدان ،

(١) بل كان بعضهم يستنجي بمائها من جوانبها وقد اخبرني الاستاذ الامام انه لم يكن قط يتوضأ من ميضأة الازهر بل كان يأخذ الماء من مصبه فيها المسمى بالسلسول على قناته ويتوضأ منه . وكانت ميضأة الجامع الاحدي اقذر من ميضأة الازهر ولا سيما ايام الموالد الثلاثة فقد كان النساء يفسان اولادهن من العذرة فيها حتى ترى ساجحة وراسبة فيها ومع هذا كله كان الخرافيون يعدون ابطال الميضأة المكشوفة واستبدال الانايب بها (الحفريات) من سيئات الاصلاح الذي ذهب ببركات الازهر

واذا وصل الى غرف السكنى في الاروقة وجد هذا يغسل ثيابه ويهريق الماء بين يديه فيمنعه الكسل أن يمضي بها الى البالوعات، وذاك يطبخ والدخان يسود وجهه الحائط ودخل المسكن، وذاك يغسل آنية ويريق ماءها المخلوط بالدهن والزيت، وقد يحملهم الكسل على ترك غرف النوم الاسبوع والاسبوعين بلا كنس فيترام فيها التراب مع بقايا الماء كولات - هذا الى ازدحام السكان في الغرفة الواحدة، ونومهم مزدحمين رأس الواحد عند رجل أخيه، ومعهم فيها على ضيقها متاعهم وفراهم وخبرهم وملابسهم وخزائن كتبهم وأدوات الطبخ والوقود.

واذا طاف الطائف في جوانب الجامع وحل الاساطين وفي الاماكن التي يسمونها بالحارات وجدها كلها مشحونة بخزائن الخشب انقأ بعضها فوق بعض صفوفا بلا نظام، تجري بينها لظلماتها الغير ان، حتى يخذل الراي لقدم عهدها من آثار الاقدمين، واذا فتحت الواحدة منها انتشرت روائح المش وعفن الخبز فلا يملك رائيتها إلا أن ينهزم أمامها ويفر مغلوبا الى حيث ينتهي به الفرار.

هذا حال السكان، وأما حال السكان فقد كانوا لا يخاصون من الامراض المعدية وأهمها الجرب والرمم الصيدي، وفيهم السلول والمجدوم والمصاب بالزهري. وإن كان هؤلاء قايماين، وهم ما كانوا يستعملونه للجرب هو كبريت العامود، ولا تسل عن الدرس اذا كان بين طابته جربان قد طلى جلده بالكبريت والقطران، فقد يختلط هذا بسواه ويزدحمون، ويالله والله أكبر اذا كان الفصل فصل القيظ، فهناك تنتشر تلك الروائح الكريهة وتسري العدوى الى معظم المجاورين، ورحم الله من لا أنف له أو من كان ذوق حاسة الشم فانه هو السعيد فيهم.

وقد ذاق كل من ذلك الألم ونحن في الطالب، ولكن كان يخففه عنا ما يلقى علينا من المتقدمين منا والسابقين في طالب العلم من أن الجرب علامة الفتوح وان الذي لا يلحقه الجرب من المجاورين يعد بينهم مترفها ولا يؤمل فيه النجاح.

ولقد فشت الامراض الوبائية في الازهر كثيراً ولم يشمر بها أحد وبقيت في المجاورين تحصد، ولا يوجد من ينخبر عنهم لجهل الحكام بحالهم، ولجهل أهل المحل بما يلزم للصحة من الاحتياط.

وإن من يكون مسكنه ومبته ومثله ومحل عمله ودرسه ومعيشته على ما قدمناه فلا بد أن تلزمه العدديات من الامراض ، اللهم إلا من كان منهم قوي البنية بأصل الخلقة وكان بدنه غير قابل للتأثر بالعدوى ، وهؤلاء في وسط مثل هذا الجو قليلون . هذا قليل من كثير من حالهم الماضية ، أما وقد جاءهم الطبيب فقد خفت جداً وطأة هذه الامراض لانقطاع معظم أسبابها وزوال بعضها بالمرّة ، فالمبصاة استبدلت بخفيات (١) والكنس مستديم ليل نهار ، والمغاطس أبدلت بمحجّات تقريبا ، والغرف قد اتسعت على السكان بحيث لا يسكن في الغرفة الواحدة إلا عدد يراه الطبيب غير مزدحم فيها ، ووجدت المراقبة على الغسيل ، وأعدت مطابخ في الاروقة بعيدة عن غرف السكن ، وأقفلت تلك الصهاريج وأدخلت المياه النظيفة من مياه الشركة ، واستعملت المرشحات ، وتعود الطلبة على الدواوي من الامراض ، فقد أعدت للطبيب بينهم غرفة في الرواق العباسي يجلس فيها وقتا معينا من النهار فيفد عليه فيها مرضى الطلبة فيبحث في أمراضهم ويعطيهم الدواء من صيدلية (أجزخانة) الازهر التي ينفق عليها ديوان الاوقاف ، ويصف لهم كيفية استعماله ، ولا يتكلمون في العلاج نقودا ، وإذا كان بعضهم في حال لا تمكنه من المجيء الى موضع الطبيب ذهب هو اليه بنفسه في محل سكنه داخل الازهر أو خارجه وقد أعقب هذا ان النظافة في الجسم والسكان والثوب والأكل والشرب قد وجدت على الجلة في غلب الجوارين بنصائح الطبيب وهي مناطق الصحة كما هو معروف ، ثم ان النور الذي كان يمرض العيون قد ذهب بالمرّة واستميض بأنوار الغاز ، وهي تستعمل الآن في المطالعة والتدريس الليلي ولونها أبيض وضوءها عظيم ، وأما النور الذي كان يستعمل قبل ذلك في النظافة فكان على سرج الزيت توقد بجانب العمود ولونها أحمر كدبر ودخانها يعمي السليم ، وإذا رأى الطبيب بعض المصابين بالزهري أو السل أو الجذام كتب إلى المشيخة بأعطائه رخصة طويلة جداً بحيث ينقضي الاجل قبل انقضائها ، ولا ترى المشيخة إلا فاعلة ما يشير به ، وفي هذا من شدة الاحتياط ما لا يخفى وهي الدواء الحثيث لمثل هذه الامراض

(١) الصواب أن يقال استبدلتها الاثايب المعروفة بالخفيات

هذه جزئيات من حال الازهر بعد وجود الطبيب يستدل منها على الكليات والفضل في ابتكار هذه الفكرة - فكرة إيجاد الطبيب - لمجلس الادارة، والفضل كل الفضل لمن ساعد على تحقيقها واستحسنها وأمدّها بالمال وهو الجنب العالي حفظه الله، فانه لما عرضت عليه هذه الفكرة فرح بها وأيدها، وأمر بأن ينتخب للازهر طبيب مسلم عارف بأحوال هذه البلاد وأمرأها، فانتخبه المجلس وكتبت عنه المشيخة إلى الاوقاف وهو عرض الامر على وليه، فصدر الامر على الفور بتعيين الطبيب وما يلزم من الادوية، وورد مكتوب الديوان بذلك إلى الازهر بتاريخ ٢١ نوفمبر سنة ١٨٩٨ - نمرة ٧٤ ولم يكن إلا يوم حتى جاء الطبيب وأخذ في عمله بفاية الجهد والاجتهاد، وهو إلى الآن يعمل بكل نشاط

واند زاد المجلس في هذا النوع ترقياً فطلب في سنة ١٩٠٤ بناء مستشفى لطبية العلم الفقراء يقيمون فيه مدة العلاج، فارتاح الجنب العالي إلى هذا الطلب وأمر بانتخاب قطعة من أرض الاوقاف قريبة من الازهر يبني عليها هذا المستشفى، فكان كذلك فشرع الديوان في بنائه على الأرض التي في آخر السكة الجديدة بمابلي شارع الدراسة وهي أحسن موقع صحي يبني عليه مثل هذا المستشفى

(وهنا عقد الكاتب فصلاً لبيان كل ما كان من إعانة ديوان الاوقاف

للأزهر وهي حثيرة جداً بالنسبة إلى ميزانيته في هذا العهد . ثم فل)

هذه الاعمال الماضية كلها التي شرحناها من أول هذه الرسالة إلى هذه النقطة هي الاعمال المستديرة التي قام بها مجلس الادارة من عهد تشكيله، وقاسى في وضعها وفي تنفيذ معظمها أكبر الاهوال على ما تبين مما ذكرناه، وتضاف إليها الاعمال الجزئية اليومية من ترتيب المرتبات وتوزيع كساوي التشریف والترقي فيها وما كان يتحراه في ذلك من وجوه المصاحبة البعيدة عن الغرض، فاننا لم نعهد عليه انه أعطى أو منع الا لما يراه نافعاً في التعليم . . .

(ثم عقد الفصل الآتي في محافظة المجلس على حقوق الازهر وشرفه)

محافظة المجالس على حقوق الازهر وشرفه

(كان) من الأعمال اليومية المحافظة على كيان الازهر وشرف الازهرين ، ومكافحة كل جهة من جهات الحكومة وديوان الاوقاف إذا جاء منها ما يمس حقاً من حقوق الازهر وأهليه ، والشواهد على ذلك كثيرة لا تحصى (فمنها) المحافظة على حقوق الازهر وطلبته في أمور القرعة العسكرية إذ كثيراً ما كانت (نظارة) الحربية تعامل الطالب خطأ بما تراه مجالس القرعة في العاصمة وبلاد الارياف ولا يساعد عليه القانون، فتتكرر المكاتبات بين الازهر والحربية متضمنة للحجج والبراهين ويذهب ذلك المضمون المعروف إلى النظارة وينتهي الأمر برد المظلمة وتقرير قاعدة لمعاملة الطلبة في المستقبل ، فينتفع بها العموم (ومنها) انه إذا وقع عالم أو طالب فيما يوجب المحاكمة ناضل الازهر عنه بوجه الحق كما حصل في حادثة من شهدوا من العلماء لطالب في بليس وذلك ان هذا الطالب انتحل لنفسه صفة العالمية وعقد عقد زواج بلا حضور المأذون خلافاً للأنحة ، ولما وقع بين يدي النيابة استشهد كثيراً من علماء الازهر على ورقة ليقدمها إلى النيابة بأنه عالم شهير حتى يخرج من التبعة بمقتضى الأنحة ، فقدمها إلى النيابة فاشتبكت فيها وأرسلتها إلى الازهر وطلبت منه أن يرسل اليها كل من وقعوا عليها لسؤالهم عما شهدوا به ، والتدقيق في البحث معهم فيه . فرأى الازهر أن لا رسامهم دفماً للآهانة عنهم ، واستحضر أولئك الشاهدين من العلماء فقرروا جميعاً انهم لم يعاموا بما شهدوا عليه ، وانهم إنما ختموا على تلك الورقة لان كاتبها أفهمهم بأنه يريد التوظيف في مسجد ببلده وانه يليق لتلك الوظيفة . ثم أرسلت المشيخة نتيجة التحقيق إلى النيابة في الزقازيق وبها دين التهم . ثم نشرت المشيخة إلى عموم العلماء منشوراً تحذرم فيه ان يشهدوا بما لا يعلمون . ونظائر هذه كثيرة الوقوع

(ومنها) مقاومة ديوان الاوقاف في استئثاره على الازهر ومن فيه خصوصاً في مسائل التوظيف والامامة ومستخدمي الجامع وما ألحق به . والشاكل بين

الازهر والديوان في هذا الباب عديدة وأقربها مسألة الاسكندرية الاخيرة ومسألة المنصورة ولا نطيل فيهما الكلام .

ومما كان بين الازهر والاقواق مسائل من يموت من العلماء وله مرتب في الديوان رتب له لانه من العلماء فان المادة (٢٥) من قانون المرتبات تقضى بانه اذا انحل عن أحد العلماء شيء من هذا القبيل لا يعود الى الديوان ولكن يوزعه مجلس الادارة على علماء الازهر في منفعة التعليم وقد مات في زمن الشيخ حسونه بعض العلماء ممن لهم هذا المرتب وكذلك في زمن الشيخ سليم وفي زمن السيد الببلاوي وكما قرر الازهر توزيع مرتب واحد منهم على العلماء وأرسل قراره الى الديوان ليأمر بالصرف بموجبه قامت قيامة أهله كلهم يصرفونه من خزائهم، ويضطر الازهر الى كثرة الاخذ والرد، والى تردد بعض أعضائه على الديوان حتى ينتمى الامر باجابة الازهر الى ما أراده من المحافظة على القانون (١)

وقد كان من الراجب على الديوان ان لا ينازع ان كان لا بد من المنازعة الا في المرة الأولى ثم يجعل ما انتهى عليه الحال فيها قاعدة للعمل في المستقبل، ولكن هكذا كان يقع النزاع في كل مرة بخصوصها.

إني لا تذكر ان مشيخة الازهر كانت كتبت الى الديوان في اواخر عهد السيد الببلاوي بما مضمونه (اننا علمنا بان مولانا الجنب العالي قد فضل على بعض علماء الازهر في هذا الزمن الاخير فاحسن عليهم برواتب مختلفة من جنبيين الى عشرة جنيهات في الشهر وصدرت اوامره العلية بذلك، والازهر يهيمه ان يعرف اسماء من رتب لهم هذه المرتبات ومقدار ما رتب لكل منهم ليقيدھا في دفتره وليقبضھا مباشر الازهر مع المرتبات الاخرى ويسلمھا الى أربابھا كما هو متبع في سواھا) فحفظ الديوان هذه الكتابة عنده زمنا الى ان جاء هذا التغيير الحديث في مشيخة الازهر ومجلس ادارته فكتب الى الازهر جوابا عن تلك الكتابة مضمونه « قد علمت كتابة الازهر المتضمنة طاب اعلامه بمن رتب لهم مرتبات

(١) لولا هذا المصو وهو الاسناد الامام كما هو معلوم لم يتجرأ الازهر على معارضة ديوان الاوقاف ولا مطالبته، ولما كان يستفيد من المطالبة ما يريد

حديثه من علماء الازهر ومقدار ما رتب لكل منهم ، وقد تحقق الديوان ان الازهر يريد ادخال هذه المراتب الجديدة تحت حكم المادة (٢٥) من القانون ولذلك استسلم من المعية السنية عنها فأجابت بان هذه المراتب لهؤلاء العلماء هي شخصية وعلى ذلك فهي لا تدخل تحت قانون المراتب الازهري « وهو جواب من الاوقاف غير مقنع كما تراه لا يقتنع به الا من يريد السكوت

(ومنها) تعويد الطلاب والعلماء المواظبة في العمل ، والمحافظة على مواعيد الدراسة الرسمية ، وتعليم الطلاب انه لا يتقدم أحدهم في الجرايات الا بالجد . فشرعت لهم نظم الانتساب والانتظار ، وحددت لهم فيها المواعيد ، وسنت لهم الامتحانات ليتقدم أهل الاعمال على أهل البطالات فسادت هذه الروح بين الطلبة خصوصا طلبة الحنفية المقيمة أماؤهم في الرواق وفي الدفتر ، ومستحق وقف المرحوم سليم باشا اتوزير الشهير من الشافعية والمالكية والحنفية ، وكل هؤلاء تحت نظر مفتي الديار المصرية (١) ، يقتضي شروط الواقفين أو قرارات المشايخ السابقين ، فقد فهموا ان الاستحقاق لا يكون الا بالاشتغال ، وان الاشتغال لا يتبين الا بالاختبار ، فصاروا يتقدمون اليه ، ويتهافون عليه

(ومنها) فصل ما يقع من المشاكل كل يوم بين الطلبة وبين مشايخ الاورقة والحرارات بتحقيق ما يشكو منه الطالب أو الشيخ وتقرير ما يقطع الشكوى وما يحسم النزاع واكثر ما يكون وقوع هذا في رواق الصعايدة والشوام ورواق المغاربة ورواق البرابرة ، واما غيرها فوقع النزاع فيها قليل

(ومنها) المراقبة الشديدة على سفر الطلاب والعلماء في غير المواعيد المقررة حتى صار من البديهي عندهم ان السفر لا يكون الا بعد الاستئذان من الجهة المختصة باصدار الاذن به وصدور أمرها كتابة الى مريدي الاسفار وشدة الملاحظة والمراقبة على أمر النظافة في الجامع وأروقته وفرشه وخزائنه وكل هذا وغيره مشاهد معلوم

(١) أي وهو الاستاذ الامام المنفذ للنظام فيهم ومن أجدر بتنفيذ النظام من واصله لقوة شعوره بالحاجة اليه

تمهيد لبيان الشغب قبل الانقلاب

لا يشك عاقل متدين في ان هذه الاعمال كلها كلها وجزئها ما يرضاه الدين الحنيف، ويأمر به الشرع القويم، ويقبله العقل السليم، وليس فيها ما يقلق طالبا أو عالما، ولا ما يوجب شغبا أو لغبا، ولا ما يولد شقاقا أو خلافا، ولا ما يفتي زعزعة في العقيدة أو فسادا في الاخلاق، ولا ما يوجب نزوعا الى الثورة، أو شغلا عن العمل النافع، ولا ما يستدعي ترك علوم الدين واهمال تعليمها، ولا ما يخرج بهذا المكان عن كونه مدرسة دينية محضة، تدرس فيه العلوم الدينية المحضة، ولا ما يجلب على هذه المدرسة عارا في بلد من البلدان، ولا ما يدعو الى الاضطراب والهاج، ولا ما يخالف نظام الهدوء والسكينة والاطمئنان، ومن ادعى شيئا من هذا فمليه ان يميز بين الدين وعدم الدين، فان لم يستطع وأراد محو ما وضع وان كان هو النافع للدين، واحداث ما يغيره وان كان هو الضار بالدين، فما عليه الا أن يعمل ليستصدر امرا عاليا بالغاء كل ما كان بناء على انه مخالف للدين، وارجاع الازهر الى ما كان عليه من قبل، وهذا أمر غير ميسور لان الجناح العالي أيدته الله قد تحقق من نفع هذه الاعمال وموافقتها للدين، وأنها مفيدة للعالم والمتعلمين، موطدة لاركان علوم الدين، لانه كما سبق قد استحسناها جميعا، باستحسان كل واحدة منها عند صدورها، بل ان جناحه العالي هو الابتكر للكثير منها، وأهمه تشكيل مجلس الادارة وصدور الاوامر بموضع (المجلس) من القوايين، وهو المؤيد لما فيها المساعد على ايجادها بما أمدها به من المعونة بأموال الاوقاف الخيرية، وهو أفضل ما تنفق فيه. ولا يرضى جناحه العالي وهو الامام، بان تحل الهمجية محل النظام، ولا تسمح نفسه العلية أن يحكم بأن ما أمر به لاصلاح الدين مخالف للدين ومماحب الفرض وان كان يقتدر على تصوير الخير بصورة الشر، وعلى تمثيل الحق بالباطل، والنافع بالمطل، وتشويه المذبح، وتزيين القبيح. الا انه لا يلبث أن يظهر مقصده فيقع في شراعه. وان للبيت ربا يحميه (وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون) .

ندع هذا كله ليحكم فيه من يطالع عليه ونرجع بالسيد البيلاوي الى ما بعد

تسعة أشهر من تعيينه سار فيها مع أعضاء مجلس الإدارة بغاية الوثام والوفق كما قد مناه واتخذ العمل الصالح إمامه وجعل مقصده خدمة العلم والعلماء والطلاب [ثم ختم الكاتب كتابه بعد هذه المقدمة بذكر الشغب الذي كان السبب المباشر لاستقالة السيد البيلاوي من مشيخة الأزهر ، والفقي الشيخ محمد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان من مجلس إدارته فنشره وتوفي عليه ببسط الحقائق التي لم يكن يستطيع هو التصريح بها - قال]

الشغب الذي انتهى باستقالة البيلاوي

(والعضوين العاملين بالمجلس)

بعد مضي تسعة أشهر من تعيين السيد علي البيلاوي - والناس في هدوء وسكون ، وجميع المدرسين بلا استثناء في وفق على طاعة رئيسهم ، والطلاب قد وضعوا أيديهم أملاً يقصدونه بعمائمهم - سمع الناس فجأة بضجة بين بعض المدرسين وهياج إلى الشكوى من أمور كانوا من مقتضى الأمر العالي الصاد بنظام الأزهر وما عدا ذلك مما سمع ليس له حقيقة بالمرّة ، ووجد بعض الزعّاف من بينهم يدعون الناس إلى الختم على عرائض الشكوى ، وموضع تلك العرائض التي يؤند الناس للختم عليها منزل شيخ كان معروفاً من قبل بالبعد عن الناس والابتعاد عن أبواب الأمراء ، وكان يظهر من التعفف والتشف ما يمثل به سيرة الصالحين ولم يكن يطالب من حظوظ الدنيا إلا أن يكون شيخ المقاري بمصر (١) يأخذ جرائبها ويتساقط على قرائنها إلا أنه من عدّة سنوات نصّح بعض المزافين للجناب العالي الخديوي أن يذهب في معيته درساً للتفسير في شهر رمضان على نحو ما يحصل من سلاطين آل عثمان فأمّر الجناب العالي شيخ الأزهر الشيخ سليم البشري بانتخاب اثنين من العلماء لذلك وانتخب ذلك الشيخ والاستاذ الشيخ عبد الرحمن الشربيني شيخ الجامع الحالي

(١) في مصر طائفة تعيش بقراءة القرآن اللواتي في القبور وفي غير القبور ولها

رئيس يسمى شيخ المقاري

على ان من نحن بصدده يقرأ كل يوم من رمضان في سراي القبة ، وأما الآخر وهو شيخ الازهر الحالي فانه يقرأ كل يوم جمعة منه فقط في سراي عابدين من ذلك العهد خلع الشيخ القصير ثوب التقشف الطويل ، وارتقى على سنه وشيئته إلى درجة من حب الزلفى أقسم فيها بالله: إن أفندينا العباس ولي من أولياء الله. وذلك في حضرة أحد مشايخ الازهر السابقين، ثم ساق له بعض الكرامات، وحكى عنه مشاهد من خوارق العادات (١). ثم ان الشيخ سلما استعمله في السعي لابطال مكافأة طلاب الازهر التي سبق الكلام عنها، ونحو ذلك من مقاصده التي مر عليك خبرها. أصبح هذا الشيخ وسيلة من الوسائل يتوسل بها من شاء إلى ما شاء. وهو الذي أرسل بعض من يجتمع عليه يدعو بعض المشايخ لحتم العرائض بالشكوى من السيد علي البيلاوي ومجلس إدارة الازهر، فأخذوا يوفدون الناس إلى منزله وهو ومن معه يقولون لمن يحضر: إن هذه عرائض بطلب زيادة مرتبات وعدأفندينا بمنحها للدرسين ، ومن طلب قراءتها ليعرف ما فيها اضطروا أن يقولوا له ان هذه الشكوى على رغبة أفندينا ومن ختم نال المكافأة ومن لم يختم صار مفضوفا عليه، وهو يصدق لان الشيخ من الحاشية بحث الباحثون عن السبب في هذه الضوضاء وقيام الشيخ من يسمع قوله للشكوى وقد كان من الهدوء والسكينة بحيث يضرب به المثل ، والذين هاجوا معه كانوا من المنتسبين لشيخ الجامع ولاعضاء مجلس الادارة ومن سبق احسان هؤلاء اليهم ، فوجدوا أن ذلك كله كان عقب قرار صدر من مجلس الاوقاف

(١) وهو ان سموه كان بالاسكندرية فكلم الحاشية في سراي القبة : ان الشيخ يحضر لقراءة الدرس فلا تدعوه يذهب حتى يفطر، فعلم سموه ان الشيخ سيحضر وهو غائب وهذا من المكاشفة وعلم الغيب الظاهر، وما كان يقول هذا الذين يجهلون أن محبته الى السراي كان معروفا للخدوي لاجل الدرس بل يقوله لمن يعلم ذلك ؟ وما كان الخديو مكاشفاً وإنما كان كاشفاً لدجل الشيخ وتلبسه اذ ادعى انه يجمع له الجن ويريه بعض أعمالهم فأدرك الخديو حياته في ذلك وأظهرها له

الاعلى في مسألة استبدال أرض للوقوف في الجيزة وقد اشتهر أمرها ولا يزال مشتهراً إلى اليوم . وقال قائلون ان الغرض من هذا كله الانتقام من المفتي لان هذا القرار صدر بموافقته . وسواء كان السبب معقولا أو غير معقول فهذا هو الذي كان يقال ولا يزال يقال

مع العمي والتحريرض والترغيب والترهيب لم يوافق الشيخ على الختم أكثر من خمسين مدرسا (من عدد أربعمائة ونيف) قام هؤلاء نفر وحملوا عرائضهم وقدموها إلى الجناح العالي فدرجت في الادراج ، وظهر بعد ذلك ظهور الشمس في ضحاها ان مبعث الحركة كان السراي العامرة ، لازالت ببركة الميل الى الوفاق عامرة وحدث في أثناء ذلك مسألة الزوجية المشؤومة على البلاد والعباد ، فظن قوم برجال الازهر التقصير في معونتهم أو انهم يعاونون خصومهم ، ولا والله ما أصابوا ، فما رجال الازهر من أولئك الطرفين . فمن ثم كان لهذه الحادثة ما كان لها من التمكيد على ادارة الازهر ، ولا يدري اقل ما العلاقة بينها وبين هذا الاثر وقد قيل ما قيل (*)

وقعت هذه الاحن كلها موقع التصديق ، فأحب الجناح العالي على زعم البعض أن يستقيل أعضاء مجلس الادارة أو بعضهم حتى ينتهي المشكل ، ولكن جنابه العالي لم يصرح بذلك لاحد من الاعضاء بطريق رسمي أو شبه رسمي . وإنما كان يذيعه بعض أولئك العلماء ومن أعانهم حتى يصلوا إلى غرض مخصوص ، وأما الحكومة فقد صمت أذنها في ذلك الوقت عن سماع مثل هذه الاصوات ، وتركت

(*) عقد الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد نكاحه على صفة بنت السيد عبد الحالق السادات بدون إذن ابها ، واخرجها الى بيته ورفع والدها عليه قضية طاب فيها فسخ العقد لانه غير كفؤ لها ، فحكم القاضي اشعري أولا بالحيلولة بينهما الى أن يتم النظر في القضية ، وآخرا ببطالان العقد لعدم الكفاءة . وعدت الامة المصرية عمل الشيخ علي إفسادا لآداب الامة وهاجت عليه الجرائد ، وكانت القضية شغلا للشامل ، وأمين صاحب المؤيد إهانة قبيحة عامة ، وكان الخديو نصيراله بالطلع ، واتهم هو الاستاذ الامام بأنه عون للسيد عبد الحالق السادات عليه ، فهذا ما أبهم المؤلف كما أبهم كثيرا من المسائل أو أظهر الريب فيها تقية واحتراسا

الشاكين والمشكوكين يقولون ويعملون ما يشاءون . فطال الزمن على هذه الضوضاء ولم يشأ رجال الازهر رفع أولئك المحركين باجراء العقوبات المنصوص عليها في قانون الجامع الازهر لانهم جزموا بان أولئك النفرا آلات في أيدي أولئك المعينين لهم الالاعبين بهم ، الذين يذيعون ان جميع أقوالهم وأعمالهم إنما تصدر عن رضى واستحسان من ولي الامر ، وما هم في ذلك إلا موهمين

كبرت كل هذه الاحوال عند السيد على البيللاوي ورأى انه معطل عن العمل ولا فائدة من وجوده ان لم تترتب عليه الآثار ، فحاك في خاطره أمر الاستقالة وأقضى به إلى بعض أعضاء المجلس فلم يوافقوه عليه ، فكن في نفسه يترقب الوقت ويتحين الفرص ، حتى رأى ان قد رتب للبعض من أولئك الساعين بالازهر (ومنهم الشيخ المنصوري الذي كانت معونة الشيخ سليم له سببا في عزله من المشيخة) مرتبات من الاوقاف على غير علم منه ولا مذاكرة معه ، ولا أخذ رأي له فيمن يرتب له ومقدار ما يكفيه ، وتجسم خاطر الاستقالة في نفسه وجعله نصب عينيه ، لانه جزم بأن ترتب هذه المرتبات هو تشجيع لاولئك الناس واستحسان لما يعملون . وانه يحط منزلته بين العلماء ، ويكون عقبة في طريق أعماله التي لا يقصد منها غير فائدة الازهر والازهرين

حدثت بعد ذلك حادثه رواق المغاربة وهي ان فريقا منهم قد احتلوا بعض غرف خالية من السكان في الاروقة العباسية الجديدة ، فأراد مجلس ادارة الازهر إخراجهم منها واجراء التحقيق فيما صنعوه ، فلم يمتثلوا وأبوا الانقياد وتدابروا بالقسلاية الفرنسية ، فدارت المجاربة بين بعض أعضاء المجلس وبين ناظر الخارجية وبينهما وبين القنسلاتو ، حتى استقر الرأي على أن يعمل الازهر بمقتضى قانونه ان لم يمتثلوا لأوامره . فكان كذلك وصدر قرار مجلس الادارة بقطع عدة أشخاص منهم بمقتضى قانون رواقهم ، وطلبت الخارجية امهال تنفيذه حتى تعلم حال القنسلاتو في شأنهم ، فلم يكن منها أدنى ممانعة للحق والقانون . ولما دعي شيخ رواق المغاربة للمفاوضة معه في شأنهم لم يصبر عليه إلا بعد يومين كان فيهما حيث لا يعلم مكانه أحد من الازهر ، ثم عاد فأخبر أن القنسلاتو غير معارضة للازهر في شيء

وانها تحب أن يعمل الأزهر. معهم بالبين أولاً فان لم يفعل فليجر أحكام القانون
خرج المغاربة من الاماكن التي احتلوها وانتهت حادثتهم، ولكن شيخهم
هرب ولم يخبر المشيخة بما وقع، فبحثت عنه فقبل انه في حلوان مرة، وقيل انه
في غيرها أخرى، ولم يزل غائبا حتى حضر الجناز العالي من الاسكندرية وظهر
أن غيبته كانت في سراي القبة. ولم يزل فيها حتى انتهى الامر في المشيخة وجاء
يخبر بان الجناز العالي رأى حلاً آخر غير ما اقتضاه القانون وجرى عليه مجلس
الادارة، ولا ضير فان أمره أعلى من القانون

في أثناء هذه الحركات الاخيرة تردد بعض الحواشي على بيت السيد الببلاوي
فكاشفهم بما يريده من أمر الاستقالة، فما أظنهم إلا قد حسنوها له خصوصاً وأنه
قد ضجر من تكرار هذه الملمات، وجزم بأنه معطل عن العمل لا محالة، وأنه لا يرجي
من بقائه أن يعود إلى عمله المفيد. فكتب في يوم ١٥ مارس سنة ٩٠٥ استقالته
وسلمها إلى رئيس الديوان الخديوي العربي والافرنجي، وهو أبقاها عنده إلى أن
شرف الجناز العالي من بعض تنقلاته، وجنازه العالي تقبلها وأمر بان يكتب
اليه كتاب القبول، وفيه غاية التلطف والعطف والاحسان، ثم استقر الرأي على
تعيين الاستاذ الحالي الرجل الزاهد المعتد الجليل، فصدر الامر العالي بتعيينه بتاريخ
١٣ محرم سنة ١٣٢٣ (١٩ مارس سنة ٩٠٥) وعقب تعيينه استدعي إلى السراي
العامة في محفل حافل من العلماء، لا لباسه الخلمة المعتادة لمن يعين شيخاً للجامع الأزهر
وفي هذه الحفلة قال الجناز العالي قوله المروقة في الأزهر وما يقصده فيه
وما يحبه له، وعلى أثر ذلك جزم العضوان الموظفان بأنهما ربما لا يلائمهما العمل
في هذه الهيئة الجديدة، فاستقالا بعد تعيين الشيخ الجديد بنحو ستة أيام، وقبلت
استقالتهم وسدرت الاوامر العالية بتعيين بدلهم. وعلى ذلك استقرت الحال

وبالجلة فقد كان زمن الشيخ حسونة كله على الأزهر خيراً وبركة، وكان
زمن الشيخ سليم البشري كله زمن وقوف حرمة، وكان زمن السيد الببلاوي
كله زمن ونام ووفق، وعمل بقدر ما يطاق، ونسأل الله أن يكون هذا الزمن
الجديد زمن نجاح وفلاح آمين (كتب في أوائل سنة ١٣٢٣)

(هذا آخر مادونه الشيخ عبد الكريم رحمه الله من هذا التاريخ)

خلاصة الكلام في مسألة اصلاح الازهر

قد لخصنا ما كتبه الاستاذ الشيخ عبدالكريم سلمان من تاريخ الاصلاح للازهر الذي سمي الاستاذ الامام اليه ، وكان هو أكبر أعوانه عليه ، وملخص ما كتبه - وهو وقائع رسمية مقرونة بأسبابها ونتائجها - ان الخديو عباس حلمي باشا كان مقتنعا بما بسطه له الشيخ محمد عبده من الحاجة إلى اصلاح الازهر من كل وجه ، ومخلصا في مساعدته عليه ، وان الشيخ حسونة الزواوي أمثل من غيره من الشيوخ استعداداً لقبول الاصلاح وتنفيذ ما يقترحه الشيخ محمد عبده على مجلس الادارة ويقنعه به فيحمله على تقريره ، وانما كان البطء في الضي في الاصلاح من ضعف استعداد أعضاء مجلس الادارة لتغيير تقاليدهم ، وكان الاستاذ الامام يريد أن يكون الاصلاح برأيهم واقتناعهم واقتناع جمهور العلماء وألفتهم النظام فيه ليكون ثابتاً . وكان الشيخ حسونة لا يعارض الاستاذ الامام رأياً ، ولا يخالف له قولاً ، ولكنه يطالبه بأن يسير بالتدرج إلى الاصلاح المؤبداً ، ولولا لساار فيه شوطاً بعيداً ، فتخرج فيه بأغاء الكتاب ، ومصاتم الخطباء ، وغول العلماء ، وكبار رجال القضاء ، والدعاة إلى الاسلام ، ولوعاظ المرشدين للعوام ، بما تقتضيه حال هذا العصر في كل العلوم والاعمال ، وانشر ذلك في العالم الاسلامي وغيره . كان الاستاذ الامام صاحب عارضة لا تعارض ، وحجة لا تنادى ، وعزيمة لا يفل لها حد ، وهمة لا يعرض لها فتور ولا يأس ، وكان أعضاء الادارة يعامون أن أمير البلاد يؤيده ، والحكومة تنصره ، وقوة الاحتلال لا تقاومه ، فلا يجاؤون لهم تفصيلاً مما يطالبهم به بعد سقوط شبهاتهم دونه ، الا استمانة صديقه الشيخ حسونة عليه بمطالبتة بالرفق واتباع سنة التدرج حتى إنهم ألقوا هذا الرأي إلى الأمير ومن أمثلة كبحه لجدلهم بالشدة ان الشيخ محمد البحيري - وكان من أذكاهم - قال له في مجلس الادارة في الدفاع عن المنهاج الازهري في التعليم : اننا فعلهم

كما تعلمنا . قال الاستاذ الامام وهذا الذي أخاف منه . قال البحيري ألم تتعلم أنت في الازهر وقد بلغت ما بلغت من مراقي العلم ، وصرت فيه العلم الفرد ؟ قل الامام إن كان لي حظ من العلم الصحيح الذي تذكره ، فاني لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغي ما علق فيه من وساخة الازهر وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة ...

وقد اغتر الشيخ حسونه بما كان من الضوضاء في مسألة قاضي مصر الشرعي المشهورة ، فخرج عن رأي الشيخ محمد عبده في سيرته فيها ، فكان ذلك سبب عزله من مشيخة الازهر وافتاء الديار المصرية معا ، وسيأتي شرح هذه المسألة في مكانها اللائق بها من هذا التاريخ ، وولي المشيخة بعده الشيخ عبدالرحمن القطب والافتاء الشيخ محمد عبده نفسه كما سيأتي ، ولم يلبث الشيخ القطب أن توفي ، فبادر الخديو إلى تعيين الشيخ سليم البشري شيخا للازهر

وفي أثناء عهد الشيخ سليم تغيرت نية الخديو وأفكاره بسبب ما ذكره وراجت لديه دسائس العلماء وغيرهم ، فكان ذلك مجرئا للشيخ سليم على وقف سير الاصلاح في الازهر ، حتى انه كان يمتنع من تنفيذ قرارات مجلس ادارته ، التي تقرر بالا اتفاق معه في الجلسات التي تعقد برياسته ، وكان الشيخ محمد عبده يصبر على ذلك وهو قادر على إكراهه أو عقابه إذا أصر على عدم تنفيذها

قال لي مرة عند الحديث في هذه المسألة : ان الشيخ سليما مسكين لا يعلم ان مادة كذا من قانون العقوبات تقضي بمحاكمة كل رئيس مصلحة رسمية يمتنع من تنفيذ ما يقرر من أحكام قانونها محاكمة جنائية ، وانني لو بلغت النائب العمومي أن مجلس الادارة قرر كذا وكذا في تاريخ كذا بمقتضى قانون الازهر وامتنع رئيسه من تنفيذ هذه القرارات فانه لا يسمه إلا أن يدعو للتحقيق في محكمة الجنايات ، ولكنني انما أريد أن يكون اصلاح الازهر برأي شيوخه واقتناعهم لا بسلطة الحكومة الكافلة لتنفيذ القوانين ، ولا فرق فيها بين قانون الازهر وسائر قوانين الحكومة ، إذ هو صادر بمقتضى دبرك تو خديوي كغيره

[أقول ولدى مذكرة بخطه في مواد قانون الازهر التي امتنع الشيخ من تنفيذها سأنشرها بعد]

(قال) وانا ما دمت في هذا المكان لا أدع للحكومة مجالا للتدخل في شؤونها لأنها حكومة واقعة تحت سلطة أجنبية

وقد أراد الانكليز التدخل في شؤون الازهر في تلك الفرصة ليرفعوا عنه سلطة الخديو ويجعلوه تابعا لمجلس النظار، فكان الاستاذ الامام حائلا دون ذلك أخبرني مرة أن لورد كرمر أرسل اليه أنه يريد أن يزوره - وقد علم رحمه الله أن الغرض من هذه الزيارة الكلام معه في حالة الازهر إذ كان قد بلغه ما يفعله الخديو من الدسائس فيه ، واستخدام الشيخ سليم فيها ، ويريد أن تتدخل الحكومة في عزل الشيخ سليم كما فعلت في عزل الشيخ حسونه - قلت له وماذا تنوي أن تقول له ؟ قال أقول أحسن ما أعلم ، وأسكت عن شر ما أعلم ، ولا أقول إلا حقا ، ولا أدع منفذاً لنفوذ الاجني أن يتسرب إلى هذا المهدي الديني قلت : حياك الله ، ما أشد جهل قومك بمقامك ، وعلو درجة إيمانك ووطنيتك !

ولكن الازهر صار بعد وفاة الاستاذ الامام خاضعا للحكومة في جميع شؤونه وكذلك مصلحة الاوقاف صارت وزارة مرتبطة بالحكومة بسعي الانكليز، وهو ما كان أنذر به الخديو كما تقدم في أول هذا المقصد فصيح فيه المثل :

بذلت لهم نصحي بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصيح إلا ضحى الفد
ولقد كان على شدة عنايته بالازهر وأهله والدفاع عنهم ومباغتته في تكريمهم شديد الاحتقار لهم في نفسه - إلا أفراداً منهم - وكان الازهر عنده ثلاثة ألقاب يطلقها عليه المرة بعد المرة أمام بعض الخواص عند شدة تأله من فساد حاله وهي : الاصطبل . المارستان . المحروب (بهذا اللفظ العامي)

ولو أنه هو الذي كتب الكتاب الذي كتبه الشيخ عبد الكريم ولخصناه فيما تقدم كما كان ينوي لفضح هذا المكان المشهور بفضله وعظمته وخدمته للعلم والدين فضيحة لا أستطيع وصفها ولا تقدير سوء تأثيرها في الشرق والغرب ، ولعجز أن يزيل ذلك التأثير المحزني كل أحد ، وناهيك بما ذكره الشيخ عبد الكريم

آفنا من شهادة الزور حتى من قضاة الشرع والمفتين . الذين لقب المحقق ابن القيم أمثالهم « بالموقعين عن رب العالمين » وكان قد اطلع على ما لم يطالع عليه أحد من محازيهم بعمله في إدارة الأزهر وتفتيشه للمحاكم لشرعية كأكل السحت من الرشوة على الأحكام والفتاوى ، وعلى ما هو أشد ضرراً منها وهو المحاباة في امتحان شهادة العالمية ، نعم ناهيك بما هو الممد لهذه المحازي كلها وهو الذلة والمهانة أمام كبراء رجال الدنيا من الحكام وغيرهم الذي مكن الخدبو مما ذكر من العبث بهم ، والعزة والكبرياء على المجاورين المساكين والاهانة لهم ، وقد أشار الشيخ عبد الكريم إلى شيء من شتمهم البذيئة المزرية التي لا تبق في النفس أثراً للكرامة الفطرية الموروثة ، ولا عزة الايمان المكتسبة ، وقد كان لكثير من أبناء أولئك الفقراء المساكين من الفلاحين نصيب وافر منها . دع تأثير القذارة والأمراض في توطين النفس على الذل واحتمال الضيم

واقعد قلت الاستاذ الامام : كيف استطعت أن تعيش نظيف الجسم والثوب والمقل والقلب عزيز النفس في هذه البيئة التي نشأت فيها ؟ فذكر لي ان السيد جمال الدين استغرب هذا منه قبلي ، وذهب الى ان له وراثته ممد لفطرته فيه فكان يقول له : بالله قل لي أي أبناء الملوك أنت ؟ وسأبسط هذا في الكلام على أخلاقه . وقلت له مرة : انني جاهدت نفسي في التصرف على تعمد ترك لذائذ الطعام والنوم على الارض ، وبذل ما في اليد ، حتى لم يعد يشق علي من ذلك شيء . ولكنني حاولت أن أعود نفسي احتمال الوساخة بترك تغيير الثياب من العرق ، وترك الاستحمام غير الواجب مدة من الزمن ، ففر علي ذلك . إذ كان يضيق صدري منه حتى انه ليفسد علي عبادتي ، فلا أراني فيها مذشرح الصدر ، ولا حاضر القلب ، . . فقال وأنا كذلك من كل وجه

وشر من ذلك كله تمكن الخرافات والالوهام من أكثر القوم ، حتى ان الشيخ حسونة الذي كان يمدد الاستاذ الامام أمثلهم كان يقبل به أحد أدعياء الولاية من الدجالين الذين كانوا يخدعون العوام ، بما يلبسون عليهم ويوهمونهم من المكاشفات والكرامات ، فيؤمنونه على فسائهم حتى انهن كن يدخلن معه الحمام .

وناهيك بما يفعلونه في احتلالات الموالد المبتدعة ، وشاركتهم لسدنة القبور المعبودة فيما يندرها من المال والنفول الغابت وغير ذلك
إنني أذكر هذه الاشياء وأنا متألم من ذكرها لأئين للقاريء أهم الابواب التي كان يريد الاستاذ الامام أن يصورها بقلمه البليغ ، ويذكر أسبابها ونتائجها وسوء تأثيرها في إضاعة الاسلام ، وهداية القرآن ، وسنة محمد عليه الصلاة والسلام ، وما تبع ذلك من اضاءة ملك المسلمين وعزهم ومجدهم .
على أنه قد كان لذلك الاصلاح على ضعف وسائله ، وقوة غوائله ، تأثير عظيم في اصلاح اخلاق الازهريين وصحتهم ونظافتهم ، وكثر فيهم المقاومون للخرافات والأوهام ، والاستعانة على مصالحهم ومنافعهم بالاموات ، وأعود الى ايضاح ما أشار اليه الشيخ عبد الكريم من سبب غضب الخديو على الاستاذ الامام وانتقامه منه بما عمله في الازهر

الغضب على الاستاذ الامام ورئيس الديوانه وما اقتضاه من الانتقام

كان أنكى ما أحفظ سموه على الشيخ محمد عبده المفتي وعلى صديقه حسن باشا عاصم رئيس الديوان الخديوي ما أشار اليه الشيخ عبد الكريم (في ص ٤٨٩) ، وأهمه كالمثال وهو مسألة أوقاف الجيزة . ويأينه بالإنجاز أنه عرض على مجلس الاوقاف الاعلى طلب استبدال بعض أراضي الاوقاف المدة للبناء في الجيزة من ضواحي القاهرة بمزرعة من مزارع الخاصة الخديوية ، وبني الطلب فيها على تقدير ريع المزرعة وكونه أكثر من ريع تلك الارض ، بما يقتضي أن يزداد عليها ثلاثون ألف جنيه ومع هذا تكون أنفع للوقف ، فقال الشيخ المفتي : الانفع للوقف في مثل هذا إنما يعرف بتقدير الثمن لا باللفة السنوية ، فلا بد من تعيين لجنة من أهل الخبرة برياسة (باشمهندس) الاوقاف لتقدير ثمنها وثمن تلك المزرعة . وكان أول من وافقه على هذا حسن باشا عاصم الذي هو نائب سمو الخديو في المجلس ،

ومن ذا الذي يعارضهما فيه ؟ تقرر تأييد اللجنة فقامت بعملها فكانت النتيجة أن الفرق الذي تتحقق به الانفعالية للوقف إعطاؤه عشرين ألف جنيه مصري فوق المزرعة فكانت جملة الخسارة خمسين ألفاً

بهذا اشتدت حفيظة سموه على مفتي الديار وعلى رئيس ديوانه ، وآلى حلقة لا تحلل ليخرجنهما من منصبيهما أو يخرج هو من منصب الخديوية فاما منصب رياسة ديوانه فأمره اليه وحده ليس للحكومة ولا للاحتلال المسيطر عليها رأي فيه ، ولكن قوانين الحكومة لا تبيح العزل بغير ذنب يحكم فيه مجلس تأديب . وكان سموه يكره احالته على المعاش لانه يحب أن يخرج من عمله عاريا عادما ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاستقالة ، فكان سموه يعمل كل ما من شأنه أن يسوءه ليستقيل ، يعمل ذلك بنفسه وبالايعاز إلى موظفي الديوان ، وكان حسن باشا على عزة نفسه وإبائه يتجاهل كل هذا ويصبر عليه حتى لا ينال الخديو أربه منه ، فلما أعياه أمره ، وعيل صبر سموه وما عيل صبره ، أحاله على المعاش وأما منصب الافتاء فله علاقة بالحكومة والمفتي عندها من موظفي وزارة الحقانية لامن موظفي المعية ، فرأى سموه انه لا بد من التوصل إلى النيل منه بارتضاء العميد البريطاني ودولته .

وقد دونت خبر إحالة حسن باشا عاصم على المعاش وخبر استرضاء سمو الخديو للانكليز متعاقبتين في مكان واحد من جزء المنار الذي صدر في غرة شوال سنة ١٣٢٢ (٨ ديسمبر سنة ١٩٠٤) من المجلد السابع

وذكرت في الخبر الاول اجماع الجرائد على اثناء على حسن باشا عاصم واستغراب إحالته على المعاش من غير سبب ، إلا اللاواء فانه رجح أن سبب الاحالة غضب الامير على رئيس ديوانه « منذ حدثت مسألة استبدال مزرعة الامير المعروفة (بمشهر) بارض لديوان الاوقاف في الجزيرة . والمسألة مشهورة وملحها أن طالب الاستبدال كان طالب من ديوان الاوقاف ثلاثين الف جنيه زيادة ، فما رضي الديوان حتى أخذ منه عشرين الف جنيه . وكان ذلك بموافقة حسن باشا الخ . وأما مسألة استمالة سموه للانكليز فقد كتبت فيها مانصه (ص ٧٥٩ م ٧) :

﴿ استعراض الامير لجيش الاحتلال احتفالا بجلوس ملك الانكليز ﴾

جرت عادة المحتلين بأن يستعرض عميدهم جيش الاحتلال في ميدان قصر عابدين لما لا يخفى، وقد سبق من توفيق باشا الخديو السابق الترائي للجيش من شرفة القصر، ولكن عباس باشا الخديو الحالي أعرض عن ذلك حتى كان في احتفال هذا العام، وكان في أول أيام الصيام، أن خرج بملاسه العسكرية وحضر الاستعراض مع اللورد كرومر تحت العلم الانكليزي، فكان لذلك تأثير عظيم في النفوس واحمى بهذا مع ماسبقه من قبيله ما كان يتوهمه الدهماء من أن الامير هو المعارض للمحتلين وأن النظار هم المشايعون لهم؛ وعلموا أنه أشد من نظاره وفقاً معهم، لأن أولئك يوافقونهم لمكان القوة فيما يريدون، وهو يمنحهم أكثر مما يطعمون، ولا نقول إلا ان مظهر وتبين نافع، وان خفاء الحقيقة قبله كان ضاراً لما فيه من غش الامة والقذف بها في معامي الفرور والوهم، فللامير - وفقه الله تعالى لكل ما يرضيه - الشكر أن كذب بعمله أولئك المفررين الخادعين الذين شغلوا قلوب الناس بمسألة وهمية وهي مقاومة المحتلين، ونسأل الله تعالى ان يوفق أهل هذه البلاد إلى الاستفادة من هذه الحلة بالمحافظه على أرضهم وتشجيرها وعمارتها، وبالاعناية بتربية أولادهم وتعليمهم العلم النافع ليحيوا حياة اجتماعية شريفة يرتقون بها إلى أن يكونوا أمة عزيزة، فان الحرية المأداة لا يرتقي فيها إلا المذهب المقتصد، ومن اتبع فيها هواه، خسر دينه ودنياه اه وقد كان المؤيد وغيره من الجرائد لبسوا على الناس هذا النبأ الغريب وجعلوه من فلتات المصادفات، ونوادير الاتفاقات، فكان ما كتبته آنفاً فضيحة لتليدسهم، ولما اطلع عليه الامير استشاط غضباً، وحرق الأرم حنقاً، لأن صيته بمقاومة الاحتلال هو رأس ماله في التجب إلى الشعب وتبغيض النظار اليه، واستحضر بطرس باشا غالي وزير خارجيته فأعطاه المنار وأمره أن يذهب به إلى نورد كرومر ويترجمه له ويبين له ان الذي أغرى صاحب المنار بهذه الكتابة هو الشيخ محمد عبده لانه يكره الاتفاق معهم هذا ما كان من التهيد السياسي لاخراج المفتي من منصب الافتاء ومن ادارة الازهر، وأما التهيد الديني فدشير اليه بما يأتي:

﴿ النهيد الدينين ، بعد النهيد السياسي ، للانتقام من المهني ﴾

غيرة شيوخ الازهر على الدين

في هذه الاثناء كثر خوض العلماء في مسألة الازهر والتبرم مما يسمى الاصلاح فيه ، واطافة ما يسمى بالعلوم الجديدة إلى دروسه ، وتبارت أقلام الكتاتيب منهم في الجرائد في الشكوى من هذه العلوم ، والخوف منها على الدين القويم والشرع الشريف ، ومن امتحان الطلبة فيه ، ومن مكافأة الناجحين منهم بالدرهم ومن مفاصد ذلك عندهم ان هؤلاء الناجحين المكافئين يؤلفون حزبا جديداً لبعض العلماء (يعني الاستاذ الامام) وقد كتبت في تلك الايام مقالات كثيرة في الجرائد رددت فيها على ما كان ينشر من ذلك وكنت أضع لها امضاء (أزهرى) أو غيره

وكان من تلك المقالات ما نشره الاستاذ الشيخ محمد الاحمدى الظواهري في المؤيد في المحرم بمنوان (كتاب مفتوح الى سمو مولانا الخديو العظم) من الانتقاد على طريقة الازهر القديمة في التعليم لبنائها على « التقليد وضيق الفكر » والتسليم لما يقرره المشايخ في تفسير الكتب ، وينتقد طريقة الاصلاح الجديد في مدارس المعاهد الدينية ويقول فيه « وارجو ويرجو المسلمون أن تشملوا هذه المدارس بمعانيكم وان تقطعوا منها جرائم الفساد والانحطاط » . وأذكر ان المؤيد تعقب هذه المقالة بانها مخالفة لما كتبه الشيخ الظواهري في كتابه (العلم والعلماء) من مدح طريقة الاصلاح الجديدة والترغيب في العلوم الجديدة الخ وانه عاد فكتب مقالة أخرى يؤيد بها رأيه الجديد بنصوص من ذلك الكتاب ، ولا غرض لنا في بيان الرأيين هنا وقد نشرنا في ذلك الوقت أهم ما جاء في كتاب العلم والعلماء من فساد التعليم في الازهر وفساد علمائه وما يجب أن يكونوا عليه ، وضربه النثل العالي لهم بالاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وما قيل من سبب مخالفتة لذلك ومجاراته للشيوخ المعارضين للاصلاح ، فليراجعه من شاء في صفحة ٧٢ و ١١٠ من مجلد المنار الثامن

وانما نقول هنا ان التمهيد السياسي المشار اليه لم يشر لسموه إلا عدم معارضة الانكباب والحكومة المصرية له في التبديل الذي يريده في الجامع الازهر باستقالة شيخه السيد علي الببلاوي والشيخ محمد عبده والشيخ عبدالكريم سلمان (رحمهم الله تعالى) وأما إفتاء الديار المصرية فقد صرح لورد كرومر بان الشيخ محمد عبده يظل مفتيا في مصر ما ظلت بريطانيا العظمى محتلة لها ، فأنحصر انتصار الخديو في هذه المعركة بما ذكر من استقالة الشيوخ الثلاث بتأثير التمهيد الديني الذي علمه القراء ، ولكن هذا النصر كان صوريا لا حقيقيا ، بل هو شر انكسار الامير نفسه ، لأنه أضاع به ما كان يستقل به من الامور الدينية العامة حتى الازهر - وشر خيئته للشيخ الذين يسخرهم الامير لمقاصده كيف يشاء والازهر نفسه ، لأنه بني على حرمان الازهر من اصلاح وعلوم لا ارتقاء فيه بدونهما ، وحرمانه بذلك من تخرج القضاة الشرعيين حتى لا يكون للمتخرجين فيه نصيب من تنفيذ ما بقي الامة من أحكام الشريعة الاسلامية ؟ إذ لم ترض الحكومة به إلا بعد أن رضي الامير معها بانشاء مدرسة خاصة لتخرج القضاة الشرعيين وموظفي المحاكم الشرعية ، ولكن أكثر أولئك الشيوخ لم يكونوا يعقلون هذه الخيبة والكسرة ، وما عقلوها إلا بعد سنين كثيرة ، أجمعوا فيها على ان إنشاء مدرسة القضاء الشرعي انما كان قضاء على الازهر نفسه وبذلوا جهدهم لانقاذها ، واعادة النظام الذي حاربوه وسعوا لابطاله مسخرين مدللين

تمام التمهيد بشخص الشيخ الشرييني

كان الشيخ عبد الرحمن الشرييني رحمه الله من أشهر شيوخ الازهر في علومه ومن أشهرهم بالصلاح والزهد في الدنيا ومناصبها ، وأبعدهم عن التفكير فيما يرتقي به اهلها ، وقد عرضت عليه مشيخة الازهر مراراً فأعرض عنها وما قبلها ، ولكنهم في هذه المرة أقنعوه بأنه قد أنحصر في شخصه إزالة الفساد الذي يسمى بالاصلاح ، وتوجيه تعليم الازهر الى ما يليق بعلماء الدين من التقوى والصلاح ، وكان أول من أظهر للمسلمين قبوله لذلك الشاعر الكاتب خليل مطران (السوري المسيحي) فلتقى من فمه حديثاً نشره في جريدته (الجوائب المصرية) رددت صداه الجرائد ،

وفي مقدمتها جريدة المؤيد التي كانت مذبذبة في هذه الحادثة^١ لان الشيخ علي بوسلفه كان يعتقد وجوب إصلاح الازهر وأن الشيخ محمد عبده هو القادر على هذا الإصلاح دون غيره من العلماء وغيرهم، ولكن سياسته كانت تقديم إرضاء الخديو على كل ما سواه إذا تعارض معه، وكان قد أساء الظن بالاستاذ الامام في قضيته الزوجية كما تقدم فأثر الانتقام منه لنفسه أيضاً وهذا نص الحديث

حديث الشيخ عبد الرحمن الشرييني

هذا نص ما نشره خليل مطران في جريدته (الجوائب المصرية) في ٧ المحرم ونقله المؤيد عنها في صدر العدد الذي صدر منه في ٩ المحرم وعنوانه (حديث مع عظيم من علماء المسلمين) قل بعدوصه بحجة وقته وإمام عصره... الخ «ماذا يرى مولانا فيما قام ياتمه اليوم الشيخ الظواهري من الجباب الخديو؟» الاستاذ: الظواهري انما نطق بلسان كل محب لخير الازهر عالم بالعرض الذي أسس له والخدمة التي أداها للدين ولا يزال يرجي منه أداؤها مادام فيه جدار قائم قلنا: وما ذلك الغرض وما تلك الخدمة يا مولاي؟

الاستاذ: غرض السلف من تأسيس الازهر إقامة بيت لله يعبد فيه ويطلب فيه شرعه ويؤخذ الدين كما تركد لما الأئمة الاربعة رضوان الله عليهم^٢ وأما الخدمة التي قام بها الازهر للدين ولا يزال يؤديها فهي حفظ الدين لاغير. وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم العصر فلا علاقة للازهر به ولا ينبغي له. وقد خرج منه

(١) يعني ما نشره المؤيد للشيخ محمد الاحمد الظواهري في خامس المحرم

بعنوان (كتاب مفتوح الى سمو مولانا الخديو المعظم) وتقدمت الاشارة اليه

(٢) المعروف في التاريخ أن الجامع الازهر قد بناء جوهر قائد المعز العبيدي

إمام الباطنية وهؤسس دولتهم في مصر، وهؤلاء الباطنيون كما قال النزالي: ظاهرهم الرفض، وباطنهم الكفر الخض. فالجامع الازهر وجامع الحاكم قد أسسا لنشر مذهبهم الظاهر وكفرهم الباطن لافقه مذهب أهل السنة الاربعة كما قال الشيخ، وان وافقه الاستاذ الامام في رده الاتي عليه جدلاً أو بناء على الظاهر

بحمد الله في كل زمان ومكان من أدى هذه الخدمة الشريفة حق أدائها فعلاؤه في مشارق الارض ومغاربها هم هداة الخواص ومرجع العوام في الكثير من أمور دينهم.

قلنا : وهل حدث يا مولاي ما يقف للازهر في الخدمة المطلوبة منا ؟

فتبسم الاستاذ ثم قل : بل ان الذي حدث من شأنه أن يهدم معالم التعليم الديني فيه ، ويحول هذا المسجد العظيم الى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفي نوره في هذا البلد وغيره من البلاد الاسلامية التي تبعث اليه بالطلبة المستفيدين ، ويبعث اليها بالعلماء المرشدين ، ولقد جاوزت خمسين حجة أطلب العلم وأخدمه بالازهر فلم أعلم ولا سمعت ان مقام الائمة الاربعة وضع في موضع الشكوك والريب الا في هذا الزمن الاخير حيث كثر بين أفراد الطلبة ممن نجح فيهم سعي المفسدين المتهمجين على مقام الائمة ، الطاعنين بكفاءتهم ، المنكرين علمهم ، عليا مراتب الاجتهاد

« اني أسمع منذ سنوات بشيء يسمونه حركة في الازهر ، أو اصلاح الازهر ، واكنيتي لم أر لهذه الحركة وهذا الاصلاح حتى الآن من نتيجة تذكر سوى انتشار الفوضى في ربوعه ، وذهاب ما كان من مودة ورحمة ومهابة بين الطلبة وبين شايخهم الاجلاء ، حتى أصبح الائمة الذين كان يفضو في الازهر من مهابة لمكانتهم في العلم ، وجليل خدمتهم له ، وما يحملون من شريف شرع الله - عرضة للسخرية من بعض الطلبة المخدوعين الذين سمعوا بسببهم وفلسفته ففرغوا بما لم يعرفوا ، واشتغلوا بما يلهيهم من هذا وأمثاله ، عما وجدوا في الازهر من أجله ، وهو طلب علوم الدين لا غير » عرضت علي مشيخة الازهر مراراً فاعتذرت وتنصت لعملي أن العلماء في هذا المسجد أخوة في خدمة الله وشرعه ، فلا يليق بأحدهم وهو خادم الله والعلم أن تأخذه العزة بالرياسة والزعامة (١)

وقد رأيت الكثيرين من اخواني خدمة العلم في منصب المشيخة فوجلتهم أبعد الناس عن الاستغفال بالسياسة وأشدهم فراراً من مظاهر الدنيا الباطلة . كانوا ينقطعون لخدمة العلم وينجاسون للتدريس كسائر العلماء لا يميزهم إلا فضلهم الباهر ، وذكرهم العاطر

(١) الرياسة ضرورية للدين والدنيا وهي لا تستلزم أخذ العزة بالانتماء . ثم لماذا قباها الشيخ آخرأ بعد أن رفضها مراراً؟

قلنا مقاطعين : واليوم يامولاي

قال الاستاذ : اليوم نسمع بوجود أحزاب في الازهر ونرى الطلبة منقسمين مشغولين عن طلب العلم الشريف باحاديث أهل النفوذ والجاه والتأثير فيما يزعمون مشغوفين بالفلسفة ، حتى ان من العلماء من ينزل وهو في موقف الخدمة للعلم الشريف الى دلالة الطلبة على جريدة فلان ليقرأوها أو مجلة فلان ليتصفحوها (١) ومثل هذا في تاريخ الازهر من قبل ماسمعت ولا رأيت

قلنا أياذن لنا الاستاذ في نشر هذا الحديث لعل في ذلك زاجراً لفريق من الطلبة ومنهم الحكومة الجناب العالي الى تلافي الخطب قبل تفاقمه ؟

قال الاستاذ : انشر ماشئت وقل ماشئت ، وأنت نظر الجناب العالي والحكومة والناس الى أمر واحد جدير بالتأمل والاعتبار ، وهو ان الازهر انما وجد لحفظ الدين ونشر علومه ليس إلا ، فليتركوه كما هو حصنا للدين ، وذخرا للمسلمين في اطراف البلاد . وإن أرادوا به اصلاحا فايكن اصلاح منحصرأ في حفظ صحة الطلبة والسهر على راحتهم وتقديم الغذاء الصالح لهم ، وما سوى ذلك من مبادئ الفلسفة والعلوم الحديثة العالية فلتدخله الحكومة إن شاءت على مدارسها الكثيرة التي هي في حاجة ماسة اليه اه بحروفه

وقد أثنى المؤيد على هذا الحديث وصرح بموافقة الاستاذ على كل ما قاله فيه من هدم ما يسمى الاصلاح للدين - إلا ادخال العلوم الحديثة فانه لا يرى ضرراً منها ولما نشر المؤيد هذا الحديث كتب الاستاذ الامام مقالا فند فيه كلامه كما بما يعرفه تقديراً لكل ما كتب الشيوخ المسخرون لتلك الفتنة وأقام عليه وعابهم الحجة التي لا تدفع ، فبيضت المقال ونشرته في النقطم في ١٣ المحرم (١٨ مارس) وأبقيت الاصل عندي وهذا نصه :

(١) يظهر أن الشيخ رحمه الله لم يقرأ كتاب العلم والعلماء للشيخ الظواهري الذي أيد رأيه في كتابه المفتوح للخبير ذكر في كتاب العلم والعلماء أن الاطلاع على الجرائد والمجلات من الضروريات للعلماء وذكر من أسماء هذه المجلات المقتطف الفلسفي والحلال التاريخي والمنار الديني

الازهر الشريف

والغرض منه اصلاح طرق التعليم فيه

(لاحد علماء الازهر الاعلام)

ما كنت لأخط سطرًا واحدًا في موضوع ما يكتبه بعض الناس في هذا الوقت . متعلقًا بالازهر الشريف لولا ما نسب ناسب كلامًا لاجدثيوخه بعد ما وصفه بأوصاف تعين شخصه ، ولولا ما جاء في ذلك الكلام مما يمس الازهر ويمس كثيرًا من شيوخته .

لأنتكلم فيما بحث الناسب على ملاقة الشيخ ، ولا مادفع الناقل الى النقل عنه ، فذلك مما عرفه كل قاري . لأول الاطلاع عليه ، ولكن أقول بعض كلمات فيما نسب الى الشيخ دفعًا للبس من الباطل قد يستر عين الحق عن يهيمهم أن يعرفوه لاننكر على الاستاذ مقاله في الغرض من انشاء الازهر فذلك غرض كل من يبني مسجدًا لله في أي مكان وأي زمان ، لا يبني مسجدًا إلا ليعبد الله فيه ويعلم فيه دينه ، ولا ننكر عليه ان الخدمة التي يلزم أن يؤديها الازهر هي تعليم الدين ولكن لم نفهم قوله « وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم العصر فلا علاقة للازهر به » فان كان يريد ان التعليم في الازهر يجب أن يكون قاصرًا على الفقه وأصوله والحديث ومصطلحه ، وعلم تقرير القائده ، كما ورد به الكتاب والسنة ، وعلم آداب الدين والاخلاق المؤسسة على ماورد منه . وأما ما عدا ذلك وان كان من مقدمات هذه العلوم السابق ذكرها فلا يصح أن يدرس في الازهر - إن كان يريد ذلك فكنت أكون أول موافق في رأيه لو كان التعليم في الازهر قاصرًا على ذلك في القرون الماضية ، ولو كان حضرة الاستاذ نفسه لم يتعلم ولم يعلم في الازهر غير هذه العلوم . لكننا عرفنا الاستاذ يقرئ فنون البلاغة والنحو والمنطق وعلم الكلام على مافي علم الكلام من المذاهب الفلسفية وغيرها ، وعلى مافي مقدمات

الأدلة التي يأتي بها المتكلمون من التعرض لمعنى الوجود وهل هو عارض للممكنات أو عين الممكنات؟ والتعرض لاحكام الجواهر والاعراض مما لا يمكن فهمه إلا ببحث دقيق في حقائق الكون ، وقد ذكر لي بعض عشاق الاستاذ ان له براعة في علم الكلام والوقوف على مذاهب الناس في العقائد بما لم يساوه فيها غيره . وقال لي: انه يعرف من كتاب المواقف وشراحه ويقف على اسراره ،الم يتفق لغيره أن يعرفه ويقف عليه . ولقد شاركنا الشيخ في أربعين سنة من الحسين التي ذكرها ولم نجد للاهتمام في الازهر وجهة الا تعليم فنون الوسائل من النحو والصرف والمعاني وغيرها مما ليس في علوم الدين وإن كان من مقدماتها ، واني أعرف للشيخ طريقة في تدريس تلك الفنون من أغرب الطرق، فاذا قرأ شرح التلخيص في المعاني والبيان للسعد التفتازاني أقتى فيه بضع سنين يحقق معاني ألفاظه والروابط بين كلماته ، وقلده بعض الناس في ذلك حتى أصبح آباء الطلبة يشنون من طول الإقامة في الازهر الشريف دون أن يحل الطالب منها بطائل، والفضل في ذلك لمذهب الشيخ في التحقيق والتدقيق ، كأن كلام المؤلف قد أنزل من السماء على معصوم فلا يصح أن تقع فيه أداة إلا ولها من أسرار المعاني ما لا يعرفه إلا مثل الاستاذ من عليية المحققين

أما كتاب الله فلا نعهد للشيخ فيه درساً يموت في من التحقيق ما يستوفيه أحد شروح السعد على التلخيص ولا أخص الشيخ بذلك بل هذا كان شأن الازهر الذي وجدناه عليه ولا يزال الى الآن

كنت أوافق الشيخ على ما رآه إن صح أن يكون ذلك مراده لو سعى -حفظه الله- هو واخوانه من خدمة العلم في انشاء مدارس لتعليم الوسائل التي يرتقى بها الى فهم علوم الدين وبعد أن يستعد الطالب فيها لتلقي العلوم الدينية وينال الشهادة بذلك يأتي الى الازهر ويتعلم الدين خاصة

كل ذلك لم يكن فلم يبق إلا ان الشيخ أراد من علوم الدين ما يجمع مقاصده ووسائله حتى علم المنطق والكلام ، فاذا أراد الشيخ ذلك -ولا محيص له عن أن يريد- فاذا يقول في امام الحرمين والامام الرازي وغيرهما من أئمة مذهبه وفي

جاءنا بالتواتر من كتبهم، وما احتوت عليه من البحث في حقائق الاكوان لينتوا عليها الادلة التي رأوا اقامتها لاثبات مكوئها ؟ وفي العلماء الاجلاء الذين كانوا يقرؤنها في الجامع الازهر في كل زمان وقد يعرفهم الشيخ كما نعرفهم ؟ إن سمح الشيخ لنفسه باللوم على متقدم قانا لا نسمح لانفسنا بلوم أحد منهم على ما رأى من المصاحبة في ذلك . فذا صح معنا ان أعتنا سبقونا الى اضافة هذه العلوم- علوم البحث في حقائق الاكوان- الى علوم الدين لانهم عرفوا ان لا سبيل الى اقامة الأدلة الصحيحة على العقائد- التي شرط في العلم بها اليقين إلا بذلك البحث وقد شاركهم الاستاذ في العمل على تلك الطريقة - فما الذي ينكره الاستاذ من علوم سماها « علوم الأعصر » أو أمور سماها « أمور الدنيا » ؟

هل يعد الحساب من ذلك ؟ وهو باب من أبواب الفقه في قسم من أهم أقسامه وهو علم الميراث أو علم الفرائض ؟ هل يحسب من ذلك سيرة النبي ﷺ التي أمر كثير من المشايخ بتدريسها وهي قسم من الحديث ؟ هل يدخل في ذلك علم الآداب الدينية والاخلاق التي تكتسب من الدين وهو الفقه الحقيقي ولا قوام لعلم من علوم الشريعة بدونه ؟ هذه الفنون التي كانت تقرأ من قبل في الازهر لكن لا على سبيل الالتزام فالزم بها الطلبة وأصبح كل واحد منهم يعرف انه لا ينال درجة العالمية إلا بتحصيلها ، وما عدا ذلك فهو لا يزال على ١٠ كان ، فهل هذه الفنون هي التي يسميها الاستاذ مبادئ الفلسفة ؟

ان من الغريب عندي أن يكون الاستاذ الذين يشيرون اليه قال هذا الكلام الذي نقل عنه ،

الأمر العالي الصادر بتنظيم الازهر موجود والاطلاع عليه سهل فهل منعت التقوى أهلها من أن يطلعوا عليه حتى يعرفوا ماهو الاصلاح الجديد ؟ جاء في ذلك الأمر العالي ما يوجب على العلماء والطلبة أن يصرفوا في المقاصد (وهي علوم الدين) أكثر زمنهم وانه لا يباح أن ينفق في تحصيل الوسائل ما يساوي زمن تحصيل المقاصد أو يزيد عليه ، فهل هذه هي الحركة الفلسفية التي أرادها الشيخ ؟ ان الذين أرادوا الاصلاح لم يكن يهمهم إلا أن تكون وجهة

الطلبة والمشايخ هي تحصيل الدين والوقوف على أسرارہ والتخلاق بأخلاقه .
والامر العالي الصادر في سنة ١٣١٤ وهو مايسمونه الاصلاح كان كافلا لذلك
لو كان حضرة الاستاذ واخوانه ممن ساعدوا على تنفيذه ، ولكن مثل هذا
الكلام الذي نشر في هذه الايام وأمثاله مما نشر في أوقات أخرى لمقاصد خاصة
بعد الذي حال دون الاصلاح ، وعاق طلابه عن الوصول الى مايقصده حضرة
الاستاذ من جعل التلميم دينيا ، ومن اشرب كل عمل من أعمال الطلبة والاساتذة
روح الدين ، فليهنأ الاستاذ ببقاء الازهر على ما هو عليه قبل الاصلاح وبمده إن
كان لم يبلغه ذلك أو باغه ما يخالفه ممن لم يصدق الحديث

أما قول الاستاذ : ان في الطلبة من يحط من مقام الائمة وينكر عليهم
مراتب الاجتهاد فذلك مما لم أسمع ولا اظن أحدا يعرفه إلا من بلغه ، غير أنا
نعرف أن كثيراً من الطلبة يختلف الى من لا دين له ممن يسمون بالمسلمين
ونحوهم معهم فيما لا يليق ، لا متعلقا بالائمة فقط ولكن قد يصعدون الى من هو
أعلى وأقدس ، وهوشيء يشكي منه طلاب الاصلاح ويحاولون دفع ضرره بتعليم
الطلبة تاريخ سلفهم الصالح من الصحابة والتابعين والائمة رضوان الله عليهم
أجمعين ، فان الذي يخدع الطالب ذلاقة لسان المنافق ، وجهل الطالب ونقص
علمه ، فتروج عنده الاباطيل بسهولة ، ولو علم حال من مضى من سلفه كان من
السهل عليه أن يهدي الضال لا أن يتبعه في ضلاله ، فهل يسمح الشيخ بتعليم
تاريخ السلف في الازهر حتى يعرف الطلبة من أحوال الائمة ما يدفعون به المطان
فيهم ؟ وهل علم الاستاذ أحداً من هو الامام الشافعي ؟ وكيف حصل العلم ؟
وكيف عمل على نشره في الآفاق ؟ وكيف كان يعيش في بعد عن مشاغبات
الخاصة وغوغاء العامة ، مع الوقوف على أحوالهم ، وتقرير الاحكام بما يتفق مع
مصالحهم في شؤون دينهم وديارهم ؟ فليطاعني حفظه الله على واحد أخذ عنه هذه
السيرة الجليلة سيرة الامام الشافعي محررة بما صح من الاخبار ، لا محشوة بما
لا يعقل من الاوهام ؟

أما الفوضى المنتشرة في ربوع الازهر كما يقول فاننا لم نفهم لها معنى ، لله

يعني ما حصل من المغاربة وعصيانهم أو أمر المشيخة في هذه الايام ، لو أراد الشيخ أن يقف على حقيقة السبب فيها لصعب عليه أن يعرف أن ذلك من تأريث بعض اخوانه لسبب يسوءه أن يعرفه ، وهي حركة ضد الاصلاح لا ناشئة عنه

يقول الشيخ: انه لا يعرف الا ما أضاع المحبة والرحمة بين الطلبة ومشايخهم ، متى كان هذا ؟ اما انتقاد الطلبة على أساتذتهم فقد كان معروفا مدة الاربعين سنة التي أفتت بها في الازهر والمشرة التي سبقني بها الشيخ بل قلما توجد مدرسة من مدارس العالم لا ينتقد الطلبة فيها أساتذتهم في بعض أعمالهم (واقوالهم)

وأما وصول الانتقاد إلى حد الاهانة والتقاطع فذلك لم يكن الآن اللهم إلا ان يعني الشيخ ما وقع من أحد حذاق المحامين من الشدة في نقده لبعض كلامه (١) ولكن ذلك ليس من الطلبة الآن ، وان كان قد سبق له طلب مدة الحسين سنة الماضية أظن ان مجلس الشيخ مطروق باوائك الذين ينقلون له مالا تعرف له حقيقة من أين جاء للشيخ لفظ سبئسر وأي طالب نقل اليه هذا الاسم ؟ وأي مبدأ من مبادئ سبئسر دخل في الازهر ؟ وماذا يعني الشيخ بهذا الاسم خاصة لو كان هو الذاكر له ؟ - سبحان الله ما كان أحق بالتقوى أن تنهى أهلها عن الزواله من ان الذي يلزمه الشيخ بهذا الكلام طالما نادى في درسه بأن الذي أضرب بالعقائد وباللغة ادخل الفلسفة في الاولى والخذو خذو أهلها في الثانية فهو وأن تعلم شيئا مما تعلمه لم يحصله إلا ليدفع الشر بالشر إذا لم يمكن وسائل الخير

لم لم يقبل الشيخ مشيخة الازهر بعد حضرة الشيخ حسونه النواوي وقد ظهر له ان ما ادخله الشيخ حسونه كان شراً على الازهر ، وكانت مشيخة الاستاذ كافلة بازالة ذلك الشر ؟ زهد في المشيخة حتى لا يعلمو على بعض اخوانه كما يقول ، سبحان الله ! أفما كان له أسوة في سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر بن الخطاب في قبول الرياسة على اخوانهم ليحفظوا نظامهم ؟ هل هو أزهدهما في الرياسة او أعلم منهما بما فيها ؟

(١) هذا المحامي هو السيد احمد الحسيني - رحمه الله - كان يحضر درس الشريفي

في فقه الشافعية واعترض عليه وناقشه في بعض المسائل بما يبدى تجهيلاً له

مدح المشايخ الذين رأهم في خمسين سنة لا يشتغلون بالسياسة ؟ ومن الذي يشتغل بالسياسة الآن ؟ هل كان الشيخ حسونه يشتغل بها او الشيخ سليم من بعده أو حضرة الشيخ البيلوي اليوم ؟ وأي سياسة يعني الشيخ ؟ ان كان ما يريد منها سياسة الازهر وتنظيمه وتأسيس العمل فيه على قواعد يلزم السير عليها فالباديء بوضع هذا الاساس هو الشيخ العباسي رحمه الله ، ولقد هاج عليه الناس وفيهم كثير من اخوان الاستاذ لانه وضع قاعدة الامتحان على انه كان يفضى من مهابته كما يعرف الشيخ وأضرت نصائح المشايخ بكثير من الطائفة إذ حقروا لهم أمر الدخول في الامتحان حتى حرموا من نيل درجة العالمية وهم يندبون حظههم إلى اليوم. وقد كنت ممن خدع بتلك النصائح ولولا حادثة حدثت مداخلت في الامتحان ولذهبت متاعبي سدى

وإن كان يريد للسياسة معنى آخر فما هو ومن هم المشتغلون به ؟ أظن ان الشيخ نفسه قد دخل في الاشتغال بالسياسة من حيث لا يشعر حيث سمح بنشر هذا الحديث أو لعله يشعر بأنه عمل سياسي لكن يستبيح منه لنفسه ما لا يستبيحه لغيره ثم عهد لعلماء الازهر ولطالبته تبعاً لهم شغل بالسياسة قبل أن يدخل فيه مايسمونه بالاصلاح . ذلك في أيام الفتنة العراقية ، فقد انقسم المشايخ الى قسمين أكثرهم مع عراقي ، وأقلهم مع الخديو السابق ، وكانوا يسمحون لعبد الله افندي نديم أن يدخل الازهر ويخطب فيهم بفتنة السياسة ، وكانوا يحيطون به وينادون : اللانحة مرفوضة (يعني اللانحة التي قدمها قناصل الدول بطلب نفي كبراء الضباط) كان هذا في مدة الخمسين سنة التي ذكرها الشيخ ، وأما ما كان في زمن الفرنسيين وأول مدة محمد علي فلا نتكلم فيه لانه مضى عليه أكثر من مئة سنة وصار أوائك المشايخ سلفاً رضي الله عنهم

ألم يكن الاجل بحضرة الاستاذ في صلاحه وتقواه أن يبذل جهده أولاً في لقاء الذين يعينهم بكلامه ويبحث معهم فيما يعملون وما يقصدون ، فان رأى خيراً ساعد عليه وإن رأى شراً وعظ ونصح ، فان لم ينجح النصيح كان له الحق فيما ينشره في جرائدسيارة بحسب كثير من الناظرين فيها أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا

اللهم ألهم الاستاذ واخوانه أن يقرأوا سورة الحجرات ، وأن يعظموا قول
 الله فيها ، فاذا جاءهم فاسق بنبأ تبينوا ولم يصيبوا قوما بجهالة حتى لا يصبحوا نادمين
 أما مانشره بعض الناس في تلك الجرائد التي لأشك في منازعة ضماؤها أربابها
 لألستهم وأقلامهم من الكلام في الاحاد ، او وجوه الاصلاح ، فهو مما لا يصح
 النظر فيه بل هو مما يمر به العقلاء كراما . سامح الله هؤلاء المخاطرين بشرف
 الازهر وأهله الطالين للاحاق أشد المضرات به ، ونظر الله جل شأنه بمعانيته إلى
 هذا المسجد الشريف وقبض له من يتغلب على هذه المصاعب كلها حتى يصبح
 مؤديا للوظيفة التي تطلب منه ويتمناها الشيخ الفاضل
 واذا كان أصحاب الجرائد التي نقلت كلام الشيخ احراراً فليقلوا هذا كما
 قل ذلك بعضهم عن بعض تأدية للأفكار الى قرائتهم اهـ

استدراك على مقالة الرد على الشيخ الشرييني

في اشتغال علماء الازهر بالسياسة

تم نشر المقطع في ١٥ المحرم (٢١ مارس) مقالة عنوانها (علماء الازهر
 والسياسة ، او السياسة والازهر) بامضاء (مؤرخ) استدرك فيها على المقالة السابقة
 بان علماء الازهر قد ثبت عنهم الاشتغال بالسياسة الداخلية للحكومة في مدة
 السنين الخمسين التي نفي الشيخ العظيم نفي اشتغالهم بالسياسة فيها ، وذلك « عند
 ما أرادهم رب السياسة (الخديو) عليها ، ولم ينج من شرها إلا الشيخ العباسي .
 حفني الديار المصرية وشيخ الجامع الازهر يومئذ »

وذكر الكاتب حادثة محاولة اسماعيل باشا اسقاط وزارة نوبار باشا ونجاحه في ذلك
 وان تلك الوزارة كانت تسعى لتخفيض ربا ديون الحكومة المصرية من سبعة في المائة
 إلى اربعة فرأى الخديو ان هذا التخفيض لا يليق بالحكومة ولا بالامة المصرية الشريفة
 فأمر بوضع لائحة سميت (اللائحة الوطنية) كان من أحكامها أن تضمن الامة المصرية
 سداد الديون ورباها الفاحش . واستعان على ذلك بعلماء الازهر فوقم اللائحة أكثر
 من يعرف له اسم من العلماء ومشايخ الطريق ووجوه الامة وأعضاء مجلس نوابها

وبعد أن وضعوا أختامهم بعث بها إلى المرحوم الشيخ العباسي لامضائه وختمها فتعمل بالمرض وكان في حلوان فلم يأذن للرسول بمقابلته... وما زال الخديو يلح عليه في وضع اسمه على اللائحة حتى كتب عليها هذه العبارة « اوافق على المشروع من هذه اللائحة » يريد بالمشروع ما وافق الشرع دون ماخالفه من دفع الربا على النحو الذي طلبه الخديو . فاكتفى الخديو بذلك لان الذي كان يهمه ان يوجد اسم المفتي وشيخ الازهر على اللائحة
ثم قال الكاتب:

« ولعل الشيخ لا يسمي ما كان من أولئك العلماء دخولا في السياسة لانه يشترط في الدخول المذموم أن لا يكون وسيلة للحاكم في الوصول الى رغبته: ولذلك برأ الازهر وعلماءه من الدخول في السياسة في تلك المدة

« واذا صح هذا يكون قضاء على العلماء بان يكونوا آلات في إيصال السياسيين إلى حظوظهم ورغائبهم بلا حرج عليهم ولا لائحة تتوجه اليهم ، سواء وافقت السياسة الشرع أم خالفته ، وحصر السياسة في نقطة واحدة وهي أن يفتق العالم معنى السياسة ويكون بصيراً بتصرفها ، ولو ليتقي شرها ، ويأمن مكرها ، ولكن السادة المالكية جعلوا هذا المعنى تعريفاً للفتية إذ قال فيه أحد أئمتهم « الفقيه هو المقبل على شانه ، البصير بأهل زمانه » اهـ ملخصاً

وأقول الآن ان سر الاستاذ الامام رحمه الله الذي اشار بكتابة هذا الاستطراء على المقال الاول

وجلة القول ان هذه التمهيدات السياسية والدينية قد انتهت بما تقدم من استقالة السيد البيلاوي وتولية الشيخ الشريفي مشيخة الازهر كما تقدم . فكان هذا الشيخ الزاهد كفيره آلة لسياسة الخديو الضارة بالازهر وبالدين ، ثم لم يكن موفقا في مشيخته لشيء من خدمة الدين ، ولا راضيا ولا مرضيا من العلماء ولا السياسيين . ونذكر الآن ملخص خطبة سمو الخديو في حفلة لباس الخلة للشيخ الشريفي وبعض ما كان لها ولترك الاستاذ الامام لادارة الازهر من سوء التأثير في العالم الاسلامي

ملخص خطبة الخديو بقصر عابدين

(في حفلة الانعام بالخلمة على الشيخ عبد الرحمن الشرياني)

شيخ الازهر في ١٧ المحرم سنة ١٣٢٣

قل سموه بعد مقدمة :

« ان الجامع الازهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية اسلامية .
تنشر علوم الدين الحنفي في مصر وجميع الاقطار الاسلامية . يأتيه المسلمون من
كل جهة ليأخذوا أمور دينهم وليكونوا علماء بالشريعة القراء ، ولينفعوا قومهم ،
ويرشدوهم للدين الصحيح متى رجعوا اليهم .

« واما كنت أود أن يكون هذا شأن الازهر والازهرين دائماً ، ولكن
من الاسف رأيت أنه وجد فيه من يخلطون الشغب بالعلم ، ومسائل الشخصيات
بالدين ، ويكثرون من أسباب اقلال .

(وهنا ذكر حادثة رواق العزبة التي تقدم ذكرها في ص ٤٩١ ، وأشار إلى
ما سبقها من حادثه رواق الشوام وهما من حوادث الشغب الذي أحدثه وشكاه من ثم قل) ،
« وأول شيء أطلبه أنا وحكومتي أن يكون الهدوء سائداً في الازهر الشريف ،
والشغب بعيداً عنه ، فلا يشتغل علماءه وطلبته إلا بتقني العلوم الدينية النافعة البعيدة
عن زيف العقائد وشغب الافكار لأنه هو مدرسة دينية قبل كل شيء .

« إن كل ما بهم الحكومة من الازهر شيئان . الاول استتباب الامن فيه وهو
ما أوصي به دائماً . والثاني تخرج القضاة الشرعيين ، وهو ما سينشأ له مدرسة
مستقلة يقصدها كل من يتحصل على شهادة العالمية في الازهر ، ويريد التوظيف في
القضاء . وستشتغل الحكومة بابرار هذا المشروع من القوة للفعل قريباً

« واني أول من يقدر السيد علي البيلوي شيخ الجامع الازهر السابق
حق قدره ، ويعرف فضله وتقواه ، وبمحترمه مزيد الاحترام ، ولكنه رعاية
لصحته رأى أن يستقيل من وظيفته ، وقد جريت منذ اثنتي عشرة سنة على هذه

القاعدة ، وهي أن أقبل استقالة كل من يستقيلي من وظيفته ، فبناء على هذه القاعدة قبلت استقالته ، ومن يستقيلي من وظيفته سواء فانا مستعد أن أقبل منه جريا على العادة التي اتبعتها في ذلك . والآن قد اسندت وظيفة مشيخة الازهر للاستاذ الشيخ الشريفي المعترف له من جميع الطبقات - ازهرين وغيرهم - بالعلم والتقوى والصلاح . وأنا مستعد أن أساعده بكل ما في وسعي لتأييد كلمة العلم والدين في الازهر . وأطلب منكم أيها العلماء أن تكونوا دائماً بعيدين عن الشغب ، وأن تحثوا اخوانكم والطلبة على ذلك . ومن يحاول بث الشغب بالوساوس والاهوام أو الايهام بالاقتوال أو بواسطة الجرائد والاخذ والرد فيها فليكن بعيداً عن الازهر ، ومن كان أجنبياً من هؤلاء فأولى أن يرجع إلى بلده ويبت فيها ما يريد من الاقتوال والآراء الغريبة للدين ، ولمصلحة الازهر والازهرين » اه بنصه الرسمي المنيف الذي نشره المؤيد

يرى قاري خطبة الامير انه يتكلم بلسان الفاتح الظافر ، والملك المستبد القاهر ، كأنه لا يدري ولا يشعر بانه هو المفلوب المقهور الخاسر ، وان الازهر نفسه هو الذي خسره نهائياً في هذه المعركة ، فان أمر الازهر كان من خصائصه التي لا تتعرض له فيها الحكومة ولا سلطة الاحتلال ، فأصبح لا يملك الاستقلال فيه بشيء ، وقصارى سلطته أن يقبل استقالة من يستقيل منه ، وأي شيء هذا ؟ وأما قوله (ومن كان أجنبياً من هؤلاء فأولى به أن يرجع إلى بلده) الخ فهو يعني به هذا العاجز صاحب المنار - كما صرحت بذلك جريدة اللواء - لانه كان أخلص نصير للاستاذ الامام في كل ما كاد به الامير له ولا سيما مسألة الازهر ووسائلها ، وقد أشار بهذه العبارة إلى ما كان ينويه من اخراجي من مصر منفياً بعد أخذ كتابته من شيخ الازهر بان ما أكتبه في المنار مخالف للعلم والدين ، او اعتداء على علمائه العاملين . وقد بلغ هذا السكيد يومئذ كبار الحكومة وتحدث به مصطفى باشا فهمي رئيس النظار مع الاستاذ الامام فقال انه يريد نفي السيد رشيد رضا من مصر ولكن من ينفذه . وسأذكر في مقام آخر بعض ما كان من سموه في شأني وأوله التفريق بيني وبين الاستاذ الامام ، ومنه السعي لاجراحي من هذه البلاد

وأكتفي هنا بذكر بعض ما كتبه في المنار عقب هذا العيث والتغيير في الازهر من بيان ما بني عليه ، ثم أنشر بعده فصلاً فيما كان من تأثير استقالة الاسناد الامام من ادارة الازهر . وهذا نص ما نشرته في ص ٧٧ من المجلد الثامن

﴿ غرض الحكومة الخديوية من الازهر ﴾

قد شاع وذاع أن سمو الامير اتفق مع حكومته على ان كل ما يهيم الحكومة من الازهر شيئان (الاول) أن يكون أهله في أمان (والثاني) تخرج القضاة الشرعيين . ولما كان التعليم في الازهر غير كاف لتخرج القضاة الذين تصلح بهم حال المحاكم ، وينفذ حكم الشريعة عازمت الحكومة الخديوية على انشاء مدرسة خاصة لتخرج القضاة يكون تلامذتها من طلبة الجامع الازهر ، ولم يكن أحدي صدق هذه الاشاعة لولا أن المؤيد ذكر أن الامير قال ذلك في كلامه الذي خاطب به مشايخ الازهر في حفلة لباس الخلعة للشيخ الشريفي ووافق المقطم في معناه (١) وأسندته إلى أولياء الامور وقد كثر التساؤل بين الناس عن سبب استقالة الشيخ محمد عبده من ادارة الازهر على عنايته العظيمة بخدمة الازهر وحرصه على تخرج رجال فيه يقدرون على خدمة الشرع وتأييد الدين . وكان ينبغي أن يكون أول سبب يخطر في البال ، بعد الاطلاع على تلك الاقوال ، هو بلوغ الشغب في هذه المدرسة غايته ومثله من رجال الجد لم يخلق للعب بالشغب ، بدون فائدة تكفي ، إنفاق الوقت في التعب . ثم اكتفاؤه بعناية أولياء الامور بتربية جماعة من طلبة الازهر في مدرسة خاصة ليتخرج منهم أساتذة وقضاة وهو شيء مما كان يميل اليه ، وقد تيسر الوصول اليه ، ويقول المقطم ان الحكومة ستنوط بالشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية أمر هذه المدرسة فان صح ذلك فحسبه تربية البعض من الكل ، على أن تتركه لادارة الازهر ليس ترك الازهر كله ، فانه شبح رواق الحنفية وهو أكثر الاروقة طلاباً فهو يثبت فيهم النظام ويرشدهم الى روح العلم والدين وهذا بعض آخر من كل و « كل ميسر لما خلق له »

(١) غبت بقولي في معناه أن المقطم لم يوافق المؤيد على أن تلك الخطية هي نص ما نطق به الخديوي بل نازعه في ذلك مؤيداً نزاعه بشهادة من كان حاضراً للحفلة وسمع الخطبة بأذنه .

تأثير ترك الاستاذ الامام الازهر في المسلمين

نشرنا في (ص ٢٣٧) من مجلد المنار الثامن تحت هذا العنوان مانصه :

لقد اضطربت قلوب عقلاء المسلمين ووجهت نفوسهم لهذا النبا في كل قطر ، فقد جاءتنا الكتب والرسائل في ذلك من السودان وسورية ومن بلاد المغرب والمشرق ما بين شاكية وباكية ، منها ما يعرف مرسلوها عن الامام ، ويرون أن لا عتب عليه ولا ملام ، لو قوفهم على حقيقة أحوال هذه البلاد ، فأبهم في ذلك كرأي اكثر العقلاء في مصر الذين استشار الامام بعضهم فأشاروا بوجوب تركه (١) ومنها ما يتضمن اللوم لاعتقاد أصحابها أن الاستاذ الامام قد يش من إصلاح المسلمين ، فتترك خدمة الملة مللا من مقاومة الجامدين ، أو علما بأنهم غير مستعدين ، وقد آلمهم ذلك لأنهم يعتقدون أنه اكبر زعيم للإسلام في هذا العصر وأقوى نصير له في علمائه ، ويشعرون بأنهم يستمدون منه الهمة والغيرة والرأي الصحيح على بعد الديار ، وتناهي الاقطار ، ولا أنكر انني أعرف من أذكىاء المسلمين الاقربين داراً بل من المصريين انفسهم من سرى اليه شيء من هذا الوم وقد آلمني وسيؤلم كل ذي غيرة وشعور قول (النواب محسن المالك) ان اليأس والقنوط قد تمثل لأهل النهضة الاسلامية في الهند ، وشعروا بأن قد طفى نور الإصلاح المنبعث من هذا الامام ، فوقعوا في حنادس الظلام - يحزننا وبعضنا هذا القول من قوم نعتقد أن نهضتهم أعلى من نهضتنا ، وهمتهم أعلى من هممتنا ، والامل فيهم أقوى من الامل فينا ، ولا نفضلهم الا بهذا الرجل وباتقان اللغة العربية ، لاننا نراهم يرجوننا اكثر مما يرجون انفسهم ، كما انه يسرنا شعورهم بارتباطهم بنا ، ولا يأس منا ولا منهم إن شاء الله

ان من أغرب ما كتب اليانا في هذه الحادثة نبذة لا حد الفضلاء في قس وهي :

(١) من هؤلاء جل تلاميذه ومريديه من كبار رجال الحكومة كسعد زغلول

وفتحي زغلول وقاسم امين ومحمد راسم الخ

«قد ساءنا وإيم الله ما بلغنا من استقالة حضرة جناب الاستاذ الامام، وعالم علماء الاسلام، فريد هذا العصر، وغرة جبين الدهر، ذروة جهابذة الآفاق، ونخبة كبراء المصلحين بالاتفاق، مولانا وسيدنا الشيخ محمد عبده أدام الله بقاءه مرشدا للعالمين - من عضوية إدارة مجلس الازهر الشريف الذي كان متعنا الله بوجوده مجتهداً في إصلاحه، كما ساءتنا تلك الخطبة... ولكن (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وقد كدر ورود هذا الخبر جميع محبيكم ومحبي الاستاذ الامام لعلنا بأنكم من المجددين في إصلاح الامة الاسلامية. الخ

وإنما كان هذا غريباً لأن تلك البلاد أبعد بلاد المسلمين عن التفكير في الإصلاح أو الشعور بالحاجة إليه، ولكن هذه الافكار قد سرت في كثير من أهلها من بعض المهاجرين اليهم من المسلمين، ومن قراءة بعض الصحف كالتار. وقد ختم هذا الكاتب كلامه بقوله: وأدام الله بقاءكم رغباً عن أنف الجاهلين والمستبدين، والمفسدين والمقلدين اهـ

تأثير الاستقالة في الهند

ذكرت نبذة من كتاب عالم فاضل في المغرب الاسلامي الأقصى في سوء تأثير هذه الحادثة حذفت كلمات الطعن منها، وأكثرنا كتب إلي في ذلك يتضمن طعناً شديداً في الخديو لم يكن نشره ممكناً - واقفي عليه بما كان من تأثيره في أرقى الشرق الاسلامي

كتب إلي زعيم مسلمي الهند وعميد نهضتهم الاسلامية الاكبر، العلامة الكاتب الأشهر، النواب محسن الملك عميد المدرسة الكلية الاسلامية في عليكرة ورئيس الشرف لادارتها كتاباً طويلاً أثني فيها علي وعلى جهاد المنار في سبيل الإصلاح الاسلامي، ثم قال في هذه المسألة ما نصه نقلاً عن ص ٢٣٣ ٨٣ «وقد أدهشنا خبر هائل وصل الينا من الجامع الازهر وأوحشنا وأقلق جل

أصحابنا والامة، وأراق الدماء من الخفون والمقل، وكادت القلوب لها ان تنهبل^(١) وقد انصدعت له الصدور، وتصدعت لها المهج في شلو كل مصدر، وذلك ماشاع عن هذا الفيلسوف السرسور والحلاجل الوقور^(٢)، والنبراس في ظلمات الديجور، من رفض ما كان اليه من نظارة الجامع المذكور، أسفا على ما تجرب من جفاء اهل عصره، ولا سيما علماء مصره، ومساعدة الحضرة الخديوية للعلماء، وقضاها بخلاف ما كان يرجى من تلك الحضرة الفراء، لما كان أيده الله تعالى يريد من إشاعة العلوم الحديثة، وإذاعة المعارف والحكم الجديدة، زيادة على ما كان يجري فيه من دروس العلوم الشرعية والمسائل الفرعية. ولما لم يصغ احد الى رأيه ومقالاته، ولم يكثرث رجل الى ما كان فيه من محض نصاحته، تمثل لنا عند ذلك الياس، وتجسد لنا شبح القنوط والابلاس^(٣) لحدود هذا النبراس، فقد كنا نظن قبل ذلك أن سوف يرحل به عنا ايل الحزن، ويقامع عنا دماس الفتن، وتقوض عنا خيام البلاء، وتعطف عنا سهام الضراء، ويتنفس علينا صبح الاقبال، ويطلع على وجهنا فجر الآمال من اجل ذلك البارع الحكيم المفضل، وكنا نظن انه قد توقد في الاسلام مصباح يستوقد منه آلاف الوف من المصابيح، ومفتاح يفتح به معالق أبواب الفرج والبرايح، ولكن قد تبين الآن أننا لم نبرح عرضة للبلاء، ودرة لرماح الضراء، وجزراً لسيوف البأساء، ما زالت هذه الحضراء تدور على الغبراء. وما أشبه حال هذا الحكيم الرزين، في المصريين، بحال السيد احمد الذي أعثرناك على حاله في الهنديين، فقد عظمت الرزية وجلت المصيبة، فإننا لله وإنا اليه راجعون (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)

ولما وصلت جريدة المؤيد إلى الهند ورأوا فيها خبر الانقلاب وخطبة الخديو كتبوا في ذلك مقالات شديدة في الانكار على سموه، لم نوز بترجمة شيء منها في ذلك الوقت لتعذر نشره ونكتفي منه بما نشر في جريدة (الرياض) التي كانت

(١) يقال تهبل لعياله واهتبل اذا اكتسب. ولعل الكلمة في الاصل تهبل من هبل ولده واهتبه اذا نككه (٢) السرسور بالغم الفطن العالم الدخال في الامور. والحلاجل السيد في عشيرة الشجاع الركين في مجلسه (٣) الابلاس هو الغم من اليأس والحيرة

تنشر بالافتين العربية والاوردية في عليكره وكنا جنظناها لاعتدالها ،وهذا نصه
من العدد الذي صدر في ١٠ صفر سنة ١٣٢٣

(خطبة الجنب العالي الخديوي واصلاح الازهر)

ألقى الجنب العالي الخديو خطبة أنيقة على جمع حافل من العلماء والفضلاء
والمشايخ عند استقبال حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد عبد الرحمن الشرييني
شيخ الجامع الازهر الجديد صرح فيها بأرائه وأفكاره السامية في مسألة الاصلاح
الازهرية فقال حفظه الله :

« إن الجامع الازهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية اسلامية
تنشر علوم الدين الحنفي في جميع الاقطار الاسلامية يأتيه المسلمون من كل جهة
ليأخذوا أمور دينهم وليكونوا علماء بالشريعة الغراء ، ولينفعوا قومهم ويرشدوهم
للدن الصحيح متى رجعوا اليهم »

ولكن الافادة والارشاد يتوقفان على أن تكون علومهم ومعارفهم أعلى وأرقى
من معارف قومهم سواء كان معارف الاديان ،أو معارف الاكوان .
« وأول شيء أطلبه أنا وحكومتي أن يكون الهدوء سائداً في الازهر الشريف
والشعب بعيداً عنه فلا يشتغل علماءؤه وطلبته إلا بتلقي العلوم الدينية النافعة البعيدة
عن زخ العقائد وشغب الافكار لانه هو مدرسة دينية قبل كل شيء »

(وقال حفظه الله في ختام الخطبة)

« وأطلب منكم أيها العلماء أن تكونوا دائماً بعيدين عن الشغب وتحثوا إخوانكم على
تأييد كلمة العلم والدين ومن كان يحاول الشغب بالوساوس والاهام أو الايهام بالاقتوال
أو بواسطة الجرائد والخذ والدفيها فليكن بعيداً عنه ، ومن كان أجنبيا من هؤلاء
فأولى له أن يرجع الى بلده ويبحث فيها ما يريد من الاقوال والآراء المتعارفة
للدن ، ولمصلحة الازهر والازهرين »

بعد إيراد تلك الكلمات من الخطبة الملوكة لا يسعنا إلا ان نقول بأسف
زائد : ان حركة الاصلاح قد قضى عليها ، وان هذه المدرسة العظيمة تبقى على

تقاليد قديمة، وأوضاع عتيقة، وطرق غير نافعة، وجود ووجود وهبوط، يبقى مستقبل التعليم الديني مظلماً الى ما شاء الله تعالى . فليسكت المنار ولا يرجع الشيخ الطواهري عن الآراء والاقتراحات التي نشرها في كتاب العلم والعلماء والكتاب المفتوح فقط اه ثم نشر في العدد الرابع الذي صدر من هذه الجريدة في ١٠ ربيع الاول سنة ١٣٢٣ المقال الآتي :-

عجب واسف على قضية الخربو في الجامع الازهر

لحضرة الفاضل العلامة النواب محسن النظام الاعزازي اعليكم كالج
قد استحرنا وتضجرنا ونحسنا وتخيرنا من النطق الفاضل والحكم الفاضل،
الذي قضى به سمو الخديو المصري على جامع الازهر، من جهة ما هو عليه من
مكانته في العلم بالمعارف الجديدة والخبرة الواسعة المنسعة بالعلوم الحديثة، وما كان
يمرأى منه من الترقيات الحالية في أرض اروبا، وعلى معرفة تامة بما يستتبع التعليم
النافع من الآثار الجيدة، والنتائج الحسنة، والفوائد المستحسنة، فليت شعري
كيف بدا له أن يقضي بمثل هذه القضية؟ أم كيف عن له أن يحكم بمثل هذا
الحكم الذي تنسد به ذرائع الارتقاء والصعود على وجوه المسفين، وانه بنفسه
لينظر إلى باقي الجامع الازهر من ضياع النفقات الكثيرة وضعية الاموال المنفسة
القيمة التي تنفق فيها، وهو بعد على خبرة تامة بحال الطلبة الخارجين عن هذا
الجامع، والذين يتحللون من نصاب دروسهم منه لا يكونون إلا صاعاليك وسائلين
وفي الرقاب، وهم مع ذلك من أرباب الجهل البحت، وأصحاب التعصب الذميم
المحض، وليس للجامع الازهر حظ من التعاليم الدينية الاصلية الحقيقية النافعة،
ولا يوجد فيه ضرب من الدروس التي تنفع الناس، نظراً إلى ارتقائهم في معارج
الفضائل الخلقية، والمدارج الدنيوية، ومع كل ذلك فان السعادة الخديوية قضت
على الجامع الازهر أن تدوم له تلك الحال التي كان عليها إلى الآن في التهج القديم
الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، ولا يقصد فيه إصلاح حال، ولا يرام منه
رعاية الجانب انواقب والمآل

وأعظم من ذلك أن الحضرة الخديوية لم تقنع بمجرد هذا الامر، ولا بمحض هذا الحكم، بل أخذت تنبذ بالالقباب من أراد منهم الاصلاح في أحوال الجامع، وزاد الخديو على ذلك بان وعدمه بالاجلاء عن حوزة ملكه، وهددهم بالنفي عن حومة دولته، وأجبر أمثال المفتي محمد عبده الذي من حق العالم الاسلامي أن يفتخر بوجوده، ويختال مرحا بكونه وشخصه، لعلو كعبه في العلوم، وسعة معرفته وخدمته للمعارف، ودراسته وصفاء سريره، وتوقد قريحته، وجملاء قلبه ووحدة ذهنه، أنجاه سمو الخديوي إلى الاستقالة وترك العضوية والنظارة، والذي ظهر لنا ان الخديو لا يريد بذلك إلا تطيب نفوس العوام، وإرضاء شيوخ الازهر الاعلام، وتنشيط قلوب هؤلاء الكرام، الذين لا يعرفون من العلم إلا الدارس، ومن الدرس إلا الخلق البالي، كما يحسبهم الجاهلون أنهم هم المسلمون حقاً، وأهل الديانة صدقاً، ويكون محلهم في أعين الخلق محل حاة الاسلام، وموقعهم موقع الذين عن حمى شريعة خير الانام

(وهنا استغرب عدم تدخل لورد كرومر في هذه المسألة؛ وعلمه بما عن له. ثم قل) فأما اذا كان الامر كما وصفناه فهل يرتجى من أهل مصر أن يعرجوا بشيء في معارج الارتقاء، بعد ذلك القضاء المقلق، والحكم الوبق، الذي تصدعت له قلوب الحازمين من أهل الاسلام كانتهم؟ وهل يرتجى لهم بعد تلك الحادثة الهائلة أن يتمكنوا من الصلوحية للارتقاء في العلم والحكمة، بعد ولوعهم في مثل تلك الدروس الخاوية، وعكوفهم على تلك التعاليم الخلقية البالية، في الجامع الازهر؟ وهل في الوجود أحد أعرف بذلك من سمو الخديوي؟ الخديوي يعرف ان المسلمين الذين يتعلمون في الجامع الازهر في تلك الهيئة الرثة الخلقية، لا يزالون ينحدرون بها في غيابة الجهل والظلمة، ومنتهى غاية الذل والمسكنة، ولا يقدرّون على شيء غير التقمص بقمص التعصب والجهالة، والارتزاق والاستيكال في وجوه الذلة والمهانة، ومن الآن لا يولد في أرض مصر رجل يكون له هوى في الوطن، ووله في ارتقاء القوم، وحرية في العزم والرأي، وان يخلق في هذه الارض نسمة يكون من شأنها ادعاء الصلوحية، ودعوى القابلية للامور الحكمية،

والملكية لنفسها ، وقد تبين ذلك عند أهل مصر وهم قد افهموا من هذا الحكم الهائل ان سمو الخديو قد آثر رضا الشيوخ ومشايخ الازهر على فلاح القوم وصلاحهم ، وقرب على ذلك بمثل لهذا القربان والله المستعان على ذلك وفي كل فائزلة . ولو ان أهل مصر كانوا يتوقعون من المستر دنلوب بعد قنوطهم وإياسهم من جامع الازهر أن يؤسس لهم كليات وجوامع في أرض مصر ، ويكون فيها نشر التعاليم العالية واشاعة النصاب الاعلى في العلوم والحكم ، لكان في ذلك بمض تعزية عما قد فاتهم من ذلك في الجامع الازهر ، ولكن الذي ظهر لنا انهم لا يتوقعون ذلك من هذه الجهة أيضا كما قد يتسوا من ذلك الجانب ، وعسى أن ينكشف لديهم ان اعضاء الدولة والذين بأيديهم زمام دولة مصر وملاك أمرها وسلطانها لا يرضون بان يتاح لهم من التعاليم ما تستشير به قلوبهم ، وتستضيء به أدمغتهم ، ويظلمون به على حقوقهم المالية والسياسية ، ويعزمون به على طلبها والاجتهاد والجد في تحصيلها ، واحراز الفائت منها .

فأما الدولة الانكليزية فقد أخذت أزمة الحكومة المصرية وأعتتها في يدها لمحض النصيح اتام الكافة أهلها ، وأن لا تألوا جهداً في تحسين صورتها وتحجيد حالها ومنظرها ، ولكننا نسلم ذلك الى الوقت الذي ليس لأهل مصر اطلاع على أحوال السياسة ، وإلمام وممارسة بفنون التمدن ، وما فيه قوام الدولة وقيامها ، أو هم ذاهلون عن اكتساب العلوم النافعة التي امتلكت بها أرض أوربا سائر البلاد ، وذلك لنفسها كل صواب الامصار والاقطار . ومعلوم ان هذه الذلة والهوان ، وان ذاك النعاس والنسيان ، وهذا الحرمان والخذلان ، وغيرها من المعايير التي توجد في أهل مصر من أجل تلك التعاليم الدارسة البالية في الجامع ، أصلها من هؤلاء الاررار من أهل العلم والمشيخة المقدسين ، وهم السبب الاصيل والعملة انتامة لهذه الحل المتهنة ، وانما يكفي من تعليم الدين محض اسمه لاجل ارضاء المسلمين ، ونفريج خواطر العامة الجاهلين .

فأما نحن فقد أحطنا خبراً من الجرائد المصرية ان أهل مصر وان كانوا قد أحسوا بما فيه ملكهم ودولتهم من الارتقاء والاصطعاد من أجل النظام الحاضر

البريطاني واخضرار عود المملكة به واستقامة عمودها لاجله ، وهم عارفون بفضل الحرية التي اكتسبوها ولم يرزقوها من قبل - فهم بعد غير راضين بنهج التعليم الذي وضعه لهم المستر دنلوب رئيس ادارة التعليم وأمسسه لهم وأنفذه بينهم في أرض مصر ، وبحسبون ان هذه الطريق لا تأذن لهم بشيء من الارتقاء والصعود . وهم لا يكتفون ذلك ولا يسرون رأيهم هذا ، بل يجاهرون به ويتصارخون في الجرائد المصرية ، ولكن لو أمكن في الوجود سبيل الى اصلاح الجامع الازهر وتسبل اليه اشاعة العلوم النافعة ، أو وقع رأي مثل المفتي محمد عبده وغيره ممن ينتفي الاصلاح في موقع القبول ، لكفت هذه الكلية وحدها لاصلاح المصريين ، وتخرج من هذه الكلية الباهرة متعلمون كانت أرض مصر تصير كمثل أوربة باجتهادهم في نشر التعاليم العالية وإحسان التربية ليني أوطانهم ممن يتعلم فيها .

أوليس انه لو أصلاح حال كلية مثل الجامع الازهر الذي يتعلم فيه عشرة آلاف أو اثنا عشر ألف نفس ، ونشرت فيه العلوم الحديثة على مناهج كليات أوربا ، وأتيحت لهم الدروس الدينية مع العلوم العقلية ، وكان هناك نظم جيدة لتربية الرجال المتعلمين فيه - أفلا يتخرج منه في كل سنة مائة نفس يحامون عن الاسلام والمدنية ، وتستثير قلوبهم وأدمغتهم بأنوار العلوم الحقيقية ، ويمحون بذلك عن المسلمين نسبة الجهالة ، ورسام فقد القابلية للارتقاء والتمهضة ؟

الحق ان الحاكم الذي قضى به سمو الخديو انما هو غضب من الله وعذابه حل على أهل مصر ، وقد تمثل وتصور في هيئة هذا الحكيم المائل الخديوي ، وللمصريين أن يقنطوا من الآن ويثسوا منذ الساعة من ارتقائهم في معارج الصعود ، ويقيموا المآثم بالبكاء والعويل على ما فاتهم من تعليم العلوم النافعة والفنون المفيدة لهم . ولشيوخ الازهر وأساتذتها أن يتصيدوا بمثل هذا العيد العظيم ، وأن يبارك كل واحد منهم الآخر ويهتته على انه من الآن لن يتطرق الخلل الى ملاذ هؤلاء المعتمدين ومنافعهم المزخرفة ومعايشهم الدينية والدنيوية ، وان كان يستتبع ذلك هلاك قومهم ، وطفل اخوانهم وتلف أبناء أوطانهم

نم إن علماء الازهر قد وصفوا هذه العلوم الجديدة بأنها مظفئة لنور الاسلام

وإن الخديوي بنفسه وصف العلوم التي تتلقى الآن في الجامع الأزهر فقال إنها تبعد الرجل عن عقائده الدينية ، وتحول بينه وبين تركها ، والانصراف عنها ، وقد عبر عن أشاعة العلوم الجديدة الشائعة في تلك السنين والاعوام ، وادخالها في مصاب التعليم بالسواوس والاعوام ، ووصف الذين يبتغون الإصلاح ، ويسعون من أجل تلك الأمصار والبلاد ، بأهل الشر والفساد ، وهذه الأقوال والكلمات وإن هي انحلت في مذاق القوم ومطعمهم ، وزاقهم زخرفها وزبرجها لما يحسبون فيها من أحياء رميم الدين ، وأعلام كلمة الشرع المتين ، فإنه بعد قد تبين للعاقل أن مر الحق غير ما ارتآه هؤلاء ، وخلاف ما زعمه وذهب اليه أولئك الناس ، وإن قولهم ضد ما يقوله الاسلام بنفسه ، أو رأه سلفنا الصالحون به من قبل ، فهو لاء كأنهم قد صرحوا بخطأ باتهم وكلماتهم تلك أن الاسلام أشد مبغض وأمر قيل المدنية ، والارتقاء للعلوم الطبيعية ، مباغض لها ولمدلوها أى مباغض ، ومعاد لها ولنطوقها أي عدا ، وكان المسلمون في رأي هؤلاء بمعزل عن الاستعداد والقابلية في الارتقاء والاصطدام ، فقد طعن هؤلاء في الاسلام طعنة ما طعن بها أشد المبغضين له ، ولا رماه بها أعظم المعادين معه ، وقد عادى هؤلاء إخوانهم معاداء لا يستطيع أن يزيد عليها أكبر أعاديهم ، ولا يستزيدها أعظم مبغضيه

وإنما يزيدك عجباً إلى عجب أن سمو الخديوي ألى علم باستقراره على عرش الملوك الذين سبقوه وتسلطوا في أرض مصر ، وكانوا ممن أشاعوا العلم والحكمة لافي ملكهم خاصة بل في سائر البلاد والاقوام ، وأست بخير بما صنعه الكلدانيون (١) وتلاهم في ذلك البطالسة الاقدمون ، وجاء على أثرهم الفاطميون ، وهذا مضافا إلى ما سبقهم في ذلك من جماعة آل عباس الذين امتلكوا هذه البلاد وأشاعوا فيها العلم والحكمة أو ما دار في خلدانه خليفة هؤلاء الملوك الماضين ، ومن خلف هؤلاء الساف الفاضلين ؟ وإن أرض مصر أرض تخرج منها أناس كانوا أول من تكلم على صناعة حيو مطرنا (٢) وحسبوا حركات النجوم وتقويمها وسيرها ورجوعها واستقامتها

(١) لعله أراد أن يقول افروعونيون فوقع في ذهنه اقرانهم الكلدانيون أهل مدينة

العراق فرسم قلعه هذه موضع تلك ، أو أراد الجمع بينهما

(٢) كذا في الاصل غير منقوط والمراد تخنيط الموتى

وتداولها وجور جرائها وحواملها ومتماتها . واليونانيون بأمرهم على جلالهم في هذا الشأن عيال على هؤلاء المصريين فان تأليسهم (١) أول من أخذ هذه العلوم منهم، وأخذت الهند علومهم من الفينيقيين الذي كانوا في نوبتهم تعلموا هذه العلوم من المصريين فيما هو مبين من المقالة الرابعة البديعة الحكيمة الشهيرة (بالاولائل العالوية ، في الحكمة العربية) التي نشرت في المرة السابعة من الجزء الاول من البيان الاغر فليرجع اليه

وأرض مصر بنفسها الى الآن مكتنزة لعجائب علوم المصريين وعماراتهم البديعة التي أعجزت الفلاسفة الافرنجيين عن اكتناها سرها، واعتيمهم عن الوصول الى نخوم حقيقتها، وفيها الى الآن من تلك الآثار المغربية والعلوم المبهرة مالا يعلم حدها إلا الله عز وجل

هذا وان سمو الخديوي لا يرى حقاً في ردم باب الحكمة على وجه رعيته، ولا يحسب ذلك ضيماً في شأن صعاليك قومه وملته، ولا يستحي من النظر الى مكانته واستقراره في عرش مملكته ، في أي أرض يملك ؟ أم على عرش من هو جالس ؟ أم خليفة من هو من الملوك الماضيين الفاضلين ، أم رئيس من هو ممن تخرج من الحكماء الكاملين، من تلك الآفاق والارضين

ونحن منمقون شيئاً في هذا الباب في الزمن القابل ونبين للناس غلط الخديو وشيوخ الازهر من الكتاب والسنة ، وأقويل حكماء الاسلام في العهد القادم . وعما قريب سنوضح للناس أن سعادة الخديوي وعلما الازهر قد أضروا بانقوم والملة ضرراً لا يستطيع أحد ان يكافئه بشي . أو يكفي شره بنوع (٢) وهؤلاء الشيوخ والخديو وإن فرحوا الآن بما قد صنعوه في الحال فمما قريب يدوقون من مرارة سمومه في مواخره وصعاب عواقبه ومعائره (لعلها مصايره) ، مالا غاية له إلا موت القوم والملة، ولانهاية له إلا فوات العلم والحكمة (وسيله الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)

(١) هو طالس أقدم فلاسفتهم السبعة (٢) قد أرسل الينا هذا المقال وقشذ وتشره فيما يلي بعد مقدمته له فيما كان سببه

﴿ تعاقب جريدة الرياض على مقالة النواب ﴾

[الرياض] الازهر أكبر كلية اسلامية في العالم فكان أجدر به ان يخرج منه رجال يفتخر العالم الاسلامي بهم وبعلمهم ، ويستفيد المسلمون من أدوار معارفهم ، ويرتفع بهم الدرجة العلمية الاسلامية التي ألحظت منذ عدة قرون أفليس هذا محل الاسف ؟ ان هذه الكلية الاسلامية مع كثرة المعلمين والمتعلمين فيها لاتفيد المسلمين إلا تعصبا وجهالة ، ولايزيدهم إلا خساراً في العلم والتقدم والمحطاطا في العلوم الحديثة والقديمة ، وخسرانا في المعارف الكونية والالينية فأني شخص أعلم من حضرة الخديوي بسوء تربيته ، وتقص تعليمه ، وفساد نصابه ، فان سموه قضى معظم عمره الشريف في سياحة البلاد الاوربية ، واختبر بنفسه نتائج الكليات الغربية ، فهو عالم بالعلوم الحديثة والقديمة عارف بأسباب تقدم الاقوام وتأخرهم ، وترقيهم وتدهورهم وحياتهم وموتهم

بناء على هذه الوجوه عجبنا وعجب كل مسلم في الهند من حكم سموه الذي قضى به في جمع حافل من العلماء ، وشدد التنكير على حزب المصلحين وجماعة المتخلصين ، وعنفهم وأنذرهم بسوء عاقبة هذه الوسوس والاوهام ، فان اقتضت المصالح المصرية بإلغاء العلوم الجديدة من الازهر فكان الانسب عندنا أن يرتفع النصاب الديني إلى الدرج الاعلى في جميع العلوم المتعلقة بالديانة الاسلامية كالمققة وأصول المققة ، والتفسير وأصولها ، وعلم الحديث بأسانيده وأصوله ، وعلم الكلام الذي هو الفلسفة الالهية الاسلامية إلى النهاية التي بلغت إلى الآن ، والعلوم التي هي مثل المبادئ ، لهذه العلوم كالادب والبديع والبيان والانشاء والبلاغة بحيث من يتم دروسه يكون على بصيرة تامة في جميع الاصول الاسلامية وفروعها ويقدر على اثبات العقائد الاسلامية بأبراهين القاطمة ، ويكون له نفوذ عظيم في العالم الاسلامي ، فان ارتفع تعليم الازهر على هذه الدرجة يستحق أن يقال له انه نافع للمسلمين في دينهم ، ويبقى الضرورة الدنيوية على حالها ، وإلا فلا أن يصدق على من يخرج من الازهر: ليس له في الدنيا نصيب ، وما له في العلوم الاسلامية من خلاق اه

دفاع المنار عن علماء الازهر

فيما نهزم به النواب محسن الملك

نشرنا فيما تقدم ما جاءنا في كتاب طويل من النواب رحمه الله تعالى خاصا بترك الأستاذ الامام الازهر بعد اطراء طويل للمنار ولنا ، وقفنا عليه بمقالته الحافلة في هذا الموضوع التي نشرها في جريدة الرياض الهندية ووعد في آخرها جالرد علينا فيما دافعنا به عن علماء الازهر

واننا ننشر هنا ذلك الدفاع عنهم بنصه ونقفي عليه برد النواب فنقول :
 كنا بدأنا جواب المنار على كتاب النواب الجليل بما يتعلق باقتراحه علينا الاستمرار على كتابة المقالات الحازة للقلوب ، الحفازة للهمم ، الموكفة للديم ، ثم عطفنا عليها الجواب عن أقواله الهازة الهازة لعلماء الازهر التي أملاها عليه تأمله وتبرمه بما كان من خطبة الحديو وحديث شيخ الازهر السابقين ، وهذا نص عبارتنا (في ص ٢٣٥ من مجلد المنار الثامن)

وأما ترك الأستاذ الامام للازهر فهو لم يكن من يأس ألم بنفسه الكبيرة ، ولا عن ضعف في همته العلية ، ولا لمقاومة علماء الازهر لما يريد من اصلاح التعليم ، أو اضافة علوم جديدة على ما يقرأ في الازهر من العلوم ، وانما هو ما تنسمتموه من الجرائد المصرية ، ونزیدكم فيه بيانا بمكاتبه شخصية ، وقد ظلم العقلاء عندنا وعندكم علماء الازهر فانزلوهم من درجتهم في العلم والفهم ، كما أعطوهم اكثر من سهمهم من الشعور والاخلاق

أما ظلمهم ايهاهم فهو اعتقادهم وقولهم فيهم انهم يعتقدون أن العلوم الدنيوية قروض بناء الدين ، وتفسد العقائد في قلوب المسلمين ، وان اصلاح طريقة التعليم خروج عن صراط السلف المستقيم . وكل هذه الظنون فيهم باطلة فان من أصحاب الدرجة العلمية الاولى فيهم من يعلمون أولادهم العلوم الدنيوية في المدارس الاميرية وغيرها ، فكيف لا يخافون الكفر والضلال على أفلاذ أكبادهم مع عدم تمكنهم من العلوم الدينية ، ويخافون ذلك على طلاب الازهر المتوغلين في علوم الدين ؟

ان هذا شيء لا يعقل . ثم كيف يطعنون باكابر علماء الاسلام الاعلام الذين تمكنوا من علوم الدنيا وصاروا يعدون من الفلاسفة كالامام الغزالي والامام الرازي وفلان وفلان؟ ثم كيف لا يطعنون بدين أكابر أمرائهم وحكامهم في هذا العصر وهم قد تعلموا هذه العلوم في مدارس مصر وأوربا وقلما يوجد فيهم من تلقى عقيدة الاسلام ببراهاينها ، أو عرف مهمات أحكامها ، ولو غفلا من دلالتها وحكمها ، وان منهم من يصف بعض هؤلاء الامراء بالتقوى والصلاح . فظلم وألف ظلم لعلماء الازهر أن يقال فيهم انهم يعدون علوم الدنيا خطراً على الدين أو عائقاً عن علومه ، وانهم يجهلون ان الاسلام جمع بين مصالح الدارين ، وأنه دين عام وأن لادين بعده أو فوق لمصلحة جميع البشر منه ، مع استلزام هذا لكون الاسلام يتفق مع علوم البشر ومدنيته في كل زمان وإلا كان متضمناً لتكليفهم ما لا يطيقون نعم انه يوجد فيهم بعض الاغبياء الذين يعبث بهم هذا الوهم ، ولكن الحكم على جميعهم أو أكثرهم بذلك ظلم وجور . وانني اقول ان الاستاذ الامام لم يقرر في إصلاح الازهر شيئاً إلا برأي جماعة من كبرائهم واستحسانهم ، وقد نفذ بعض ما طلبه وحاوله برضاهم وموافقتهم ، وأوقف بعض الإصلاح للأسباب التي لا اصرح بشرحها بعد رضاهم به واعترافهم بفائدته (١)

وأما وصفهم بأكثر مما يستحقون من الشعور بالمصلحة وإرادة الخير فهو تابع لذلك الظلم ، وهو اعتقاد كثير من العقلاء في مصر وفي أقطار أخرى ان هؤلاء الناس أعداء الإصلاح الذي عرف سراة الامة وعقلاؤها شدة الحاجة اليه لما في قلوبهم من الشعور بضرره ، ولما عندهم من الارادة القوية والعزيمة الصادقة والغيرة الملتزمة على الاسلام والمسلمين وانهم لا يخافون في ذلك لومة لائم ، ولا سطوة حاكم ، ولا حرماناً من منفعة مالية ، أو كسوة تشريف قصبية ، والحق أن هذا الصنف الشريف الذي كان له من قوة العزيمة بالاتحاد والاتفاق ما يقيم به محمد علي باشا حاكماً على البلاد المصرية قد استضعف فضعف حتى صار لا يجهر برأيه الا اذا أيقن ان قويا بمده ، أو حاكماً يسندوه وكثيراً ما يستحسن أمراً ثم يستهجنه ، أو يستحب شيئاً ثم يستحسنه ، ولقد كان

(١) أعني إغراء الحذب لهم ، وهذا شر ما شكوته من ضعف أخلاقهم

أكابر علماء الازهر موافقين للشيخ محمد عبده في كل شيء يقتصر به لاصلاح الازهر أيام كان مؤيداً بنفوذ الأمير، وإنما كانوا يرغبون اليه في أن يكون ذلك بالتدرج البطيء، لأنهم لم يتعودوا ويثقل على المرء لاسيما الكبير المضي فيما لم يتعود ولما بدا للأمير في تأييده ومساعدته وقف كل اقتراح، وعورض كل اصلاح حتى لم يبق للحكومة الخديوية ثقة بتخريج القضاة في ذلك المكان فهي ستبني مدرسة جديدة لتخرجهم فيها، ولم يبق لها من العناية بالازهر الا حفظ الامن فيه كما هو حق كل أحد وكل شيء على الحكومة لاجل هذا ترك الازهر ولكن آثاره الصالحة لن تتركه، فهو قد وضع أساس النظام الذي قد يضمف تارة ويتوى تارة وقد يزاد فيه وينقص منه ولكنه لا يزول. وهو قد نفخ في نفوس كثير من الاذكياء فيه روح الشعور بالحاجة الى اصلاح التعليم وإصلاح الاخلاق وخدمة الاسلام والمسلمين والسعي في ازالة ما غشهم من البدع والفتن فاضمفهم وأذلهم فلن يموت هذا الشعور. ثم انه لم يزد دالار جاء بالله وهمة في خدمة ملته بالامل والتدريس والتأليف لا يثنيه عن ذلك أن الامايل به من المرض أحياناً شفاه الله ونفع به آمين

هذا وان العبرة الكبرى فيما كتب هذا السري الكبير هو احساس المسلمين الخاصين الذين يعرفون الاسلام ويفارون عليه بان الاصلاح اذا ظهر في أي قطر ففائدته لا بد أن تكون عامة لكل البلاد الاسلامية، وان النور اذا ظهر في هذه الامة من أي مطلع فانه ينبسط على جميع البقاع لان هذه الامة امة واحدة، ربها واحد، وكتابها واحد، ونبيها واحد، والهدى في دينه على ملته واحدة وهي ما جاء به نبيه (ص) عنه، ومصلحته لذلك واحدة، فما يضرها يضر جميع المؤمنين لها وما ينفعها ينفعهم أجمعين. لاجل هذا أحس الاحياء من مسلمي الهند بان ما دهي به الاصلاح في الازهر هو مصيبة على الاسلام والمسلمين في جميع الارض لانه كان يرجى أن يكون خيره متى ثبت ونجح عاماً لجميع مسلمي الارض ولو بعد حين. فاذ يقول أولئك الذين يريدون أن يقطعوا أوصال المسلمين بنزعات «الوطنية» الفاسدة في هذا الاحساس الشريف من إخواننا في الهند وكذا في غيرها؟ اه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وإياه نعبد وإياه نستعين ﴾

سعادة الفاضل الحكيم العلامة ، دمتم بالعرز والكرامة

سلام عليكم ، فاني أحمد اليك الله الذي لا إله الا هو ، وأصلي على نبيه النبي
الكريم ، وعلى آله وصحبه السادة الالهاميم (وبعد) فانا قد سررنا وتنشطنا بحسن
صنيعكم اليان من نشر رسالتنا المشبعة الطويلة التي كتبناها اليكم في قضية علماء الازهر
واستقالة الاستاذ الامام الكبير محمد بن عبده في مجلتكم الباهرة الغراء التي صدرت
في السادس عشر من شهر ربيع الاول الماضي . وقد سرني أيضا ما قد استتبعت
ذلك بانتقادكم الحافل البديع عقيب هذه الرسالة تحامون فيه عن علماء الازهر
واستفراغكم النوسع بذلك في دفع ما وقع من الغلط والخطأ في الآراء التي ارتأها
الناس فيهم ، ولكن الذي آمل من طيب خلقكم وطهارة سريرتكم ، هو أن
تعمو غني مما قد تجاسرت في الانتقاد على هذا الانتقاد ، فانه يا أخي ليس فيما
أحسب مما يطمئن به بال أحد ، أو أن يفند به ما قد رآه أكثر اهل النظر في هؤلاء
العلماء من انهم لا يحبون إشاعة العلوم الحديثة ، ولا يجوزون لها السبيل والتطريق
في المدارس والكليات ، ولا واحد عندي بمقلع عن رأيه ذلك فيهم فيما أحسب ،
فقد علمت ياسيدي أن تعسف علماء الازهر وتعصبهم للعلوم الحلقة البالية ، وخلافهم
للاصلاح في شؤون التعليم والاخذ بالعلوم الحديثة ليس مما يرتاب فيه أحد ، فقد
شجنت بذلك الجرائد المصرية كلها لاسيما مجلتكم الباهرة التي نصت على انهم
لا يجوزون المدول يسير عن المنوال العتيق الذي يجري عليه نصاب التدريس
في الجامع الازهر ، ويتخرجون من تشكيل صناعة التاريخ والجغرافية في نصاب
الدرس الحاضر ، فما ظنك بالعلوم العالية الافرنجية وما هي فيه من المنهاج
الجديد في أرض أوربا ؟

أنحسبت ياسيدي ان الذين لا يزالون يقرءون ويتلون الجرائد المصرية ، ولا
يفترون عن مطالعة جريدتكم الغراء ليلا ونهاراً ، أقدرهم يقلعون عن رأيهم في شأن

هؤلاء العلماء؟ أم ترى ان اعتقادهم في هؤلاء فيما أفدتم بنفسكم بأنهم يعتقدون ان العلوم الدنيوية تقوض بناء الدين، وتفسد العقائد في قلوب المسلمين، وان إصلاح طريقة التعليم خروج عن الصراط المستقيم - أقترى أن هذا الاعتقاد منهم يزول أو يحول أو يضمحل بشيء عن قلوبهم مما كان عندهم من قبل؟ أم تراهم يوافقونك في قولك: وكل هذه الظنون فيهم باطلة؟ كلا ولا كرامة، وحاشاهم عن ذلك

فأما انتم فلمعمرى لم تألو جهداً في المحاماة عن هؤلاء العلماء، وأنيتهم في بيان ذلك بحجج، وكتائبها ننتقد عليها، وننظر في وزنها ورجحها، على منهاج أصحاب النظر، أما الحجة الاولى فقولكم: ان من أصحاب الدرجة العلمية الاولى فيهم من يعلمون أولادهم العلوم الدنيوية في المدارس الاميرية وغيرها الخ وأما الاخرى فقولكم: ولا يطعنون بدين أكابر اسرائيل وهم قد تعلموا هذه العلوم في مدارس مصر وأوربا الخ. ولكن هذا الكلام منكم لا يجد فيهم نفعاً، ولا يحامي أو ينسب عنهم شيء، فقد عرفتم ما هو من دين علماء هذا العصر انهم يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يقولون. وهم الذين قال فيهم الشاعر العارف الحكيم مصلح الدين السعدي الشيرازي وهو من معاريف الشعراء ومشاهير أهل النظم - قال:

ترك دنيا بمردم آموزند خویشان سم و غله اندوزند

يعني بذلك انهم يعلمون الناس ويحملونهم على رفض الدنيا وترك زخارفها وهم بأنفسهم يكتزون الذهب والفضة ويحتكرون الطعام لانفسهم* ومن دينهم أيضاً ان لا يطعنوا بشيء على الاسراء والولاة كيلا لا يجرموا من صلاتهم، ولا يأسوا من استجلاب خيرهم ومبرراتهم، بل وإنا تراهم يوافقون العامة في بدعهم ولا يشنعون بشيء على أفاعيلهم، ويشاركونهم في الاحداث الفظيعة التي يأتون بها في الدين، فتراهم لا ينكرون عليها بل يماضونهم بموافقتهم ومشاركتهم فيها. وشاهد ذلك قولكم في هذه النمرة التي صدرت في السادس عشر من شهر ربيع الاول الماضي « فشاخ الازهر يقرءون في كتب الحديث نهى الشارع عن بناء

(*) قال الشاعر العربي:

وذو لنا الدنيا وهم يرضونها أقابق حتى ما يدر لها ثمل

القبور واتخاذ المداح عليها ، واتخاذها أعياداً وتمظيمها . ثم انهم يشاركون العامة في هذه الاعياد التي يسمونها موالد على ما فيها من المنكرات التي نهى عنها أئمتهم في الفقه . ثم انهم يقرءون في شمائل نبيهم انه كان يسدل شعره الشريف ويفرقه ، وهم ينكرون على من يفعل ذلك من اهل العلم والدين ، وقد أمرني بذلك بعضهم وكان شيخنا للازهر قائلاً : انك من اهل العلم لا يليق بك أن ترسل شعرك فاحلقه ، فحججته بالسنة ، فحاجني بأن ذلك شعار العلماء الآن » وقد صرحتم قبل ذلك بشيء في قولكم ص ٢٢١ من هذه النمرة الحاضرة » وانما صرح العلماء بكراهة حلق الرأس وكونه مخالفاً للسنة لانه كان في الصدر الاول شعار الخوارج ، فلما إذا أخذنا باطلاقهم كان اللوم في ترك هذه السنة موجهاً في هذا العصر إلى علماء الدين فانهم بمخلة ، بل ينكرون على من لم يحاق وهم مخضون »

هذا — أم كيف يوافقكم أحد في قولكم « ظلم وألف ظلم العلماء الازهر أن يقال فيهم إنهم يعدون علوم الدنيا خطراً على الدين أو عائقاً عن علومه ، وانهم يجهلون ان لاسلام جمع بين مصالح الدارين » الخ - وقد ساف منا مراراً انا قد رأينا في (الجواب المصرية) انها قالت في شأن رجل عظيم من العلماء « انه محترم المقام بين علماء المسلمين بحله كبيرهم وصغيرهم لعلمه وفضله ، ويعدونه حجة وقته وإمام زمانه في علوم الدين وأصول الشريعة » فهذا العالم الجليل الذي ترأس العلماء في عصره ، ومن رأيه ما يقول لمدير الجواب ما تلك أفاضله « غرض الساف من تأسيس الازهر : إقامة بيت لله يمد فيه ويطلب فيه شرعه ويؤخذ الدين كاتركه لنا الأئمة الاربعة رضوان الله عليهم ... وما سوى ذلك من أمور الدنيا وعلوم الأعصر فلا علاقة للازهر به ولا ينبغي له »

ولما راجعه المدير واستحفاه بالسؤال قائلاً « هل حدث يا مولاي ما يقف للازهر في الخدمة المطلوبة منه ؟ » فتبسم الاستاذ ثم قال « بل ان الذي حدث من شأنه أن يهدم معالم التعليم الديني ، ويحوّل هذا المسجد العظيم إلى مدرسة فلسفة وآداب تحارب الدين وتطفيء نوره في هذا البلد وغيره من البلاد الاسلامية » الخ وبجاءه في آخر كلامه متظاهراً قائلاً « ان الازهر انما وجد لحفظ الدين ونشر علومه ليس لإلحاد

وليتزكوه كما هو حصن للدين ، وان أرادوا به إصلاحاً فليكن الإصلاح منحصراً في حفظ صحة الطلبة والسهر على راحتهم وتقديم الغذاء الصالح لهم ، وماسوى ذلك من مبادئ الفلسفة ، والعلوم الحديثة العالية ، فلتدخله الحكومة إن شاءت على مدارسها الكثيرة التي هي في حاجة ماسة اليه »

أم كيف نصدقكم في قولكم هذا وأنا نرى هؤلاء العلماء قد ثاروا وشغبوا الناس وأناروا في إصلاح الأزهر بما اضطر الخديوي إلى إخماد الفتنة وخاطب شيخ الجامع الأزهر قائلاً « إن الجامع الأزهر قد أسس وشيد على أن يكون مدرسة دينية إسلامية تنشر فيها علوم الدين الحنيفية في مصر وجميع الاقطار الإسلامية . » وتقد كنت أود أن يكون هذا شأن الأزهر والأزهريين دائماً ، ولما كان يخل ان هؤلاء الرهط الذين يرومون الإصلاح كلهم مفسدون قل فيهم » أول شيء أطلب أنا وحكومتي أن يكون الهدوء سائداً في الأزهر الشريف والشغب بعيداً عنه فلا يشتغل علماءه وطلبته إلا بتلقي العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيف العقائد وشغب الأفكار لانه هو مدرسة دينية قبل كل شيء ، ومن كان يحاول بث الشغب بالوساوس والاهام او الايهام بالاقتوال ، وبواسطة الجرائد والاخذ والرد فيها فليكن بعيداً عن الأزهر ، ومن كان أجنبياً من هؤلاء فأولي به أن يرجع إلى بلده ويبحث فيها ما يريد من الاقوال والآراء المغايرة للدين ولمصاحبة الأزهر والأزهريين » (١)

فهل في الوجود أحد يقف على هذه الاحوال ويعرفها حق المعرفة ثم يرتاب في أن هؤلاء العلماء أكثرهم لا يجوزون الإصلاح في النهج القديم للتعليم ويحسبون أن العلوم الحديثة بأسرها مظنة لنور الاسلام ، ولعمري ان هؤلاء العلماء هم الذين اتخذوا جامع الأزهر الذي كان من حقّه أن يكون رحمة وبركة للمسلمين مركزاً للنكبة ، وموطناً للمذلة ، ومعقلاً للمترية ، وموضعاً للمسغبة ، ولو نظرت إلى العلوم التي تدرس فيها لوجدته بأسرها علوماً بالية عتيقة اتخذها المقلدة من العلماء علوماً دينية ، ولا تجد فيها إلا تلميذين نبذ من المسائل التي تشتمل منها العقول ،

وتتمج قبولها أحلام الفحول ، وذلك من أجل مخالفتها لقواعد الحكمة وأصول الفطرة ، ولا يوجد فيها غير تعليم ماعداها من المطالب التي لا تستنير بها أدهنة الرجال ، ولا يتسع بها فضاء علمهم ومعرفتهم ، بل يتركز بها التقليد في تخوم قلوبهم ، وقد امتلأ القرآن العزيز بدمه ، وشحن الكتاب المجيد بدمه ، وجل همهم في أن يحمل الناس على منهاج يمتقدون به أن الاسلام بدع هذه البدع ، ونفس هذه الاحاديث التي ليست بأدون من أحاديث خرافة ، بل عين الشرك الجلي ، فضلا عن الشرك الخفي ، وإنما جهدهم في المنع عن تعليم صنعة تنفعهم بشيء ، إنما في الدنيا أو في الدين ، هذا شيء من حالهم في تعليم العلوم . فأما سبل التعليم ومنهاج تدريسهم ونظم الامور فيه فأمره أشهر من أن يذكر ، وأبين من أن يوضح ، ولقد تفجع له بعض فضلا الهند الذي كان حل بالقاهرة وكتب في ذلك كتابا إلى حيدرآباد عاصمة دكن ولقد نشرتموه في الجزء الماشر من المجلد الخامس من مجلتكم النوار وبعد ذلك فهل تحسبون اننا نحسن الظن هؤلاء العلماء ونضعهم في ميزان علمائنا السلف الذين مضوا إلى رضوان الله كالامام الغزالي وابن رشد الاندلسي والامام ابن الخطيب الرازي وغيرهم ، فقد كانوا يمتقدون ان العلوم الكونية والعقلية عين هذه العلوم الدينية ، وكانوا يحضون المسلمين وبحوثهم وبحرؤنهم على تحصيلها في تأليفهم وكتبهم وأسفارهم ووزبرهم التي كانوا يعملونها لنشر تلك العلوم ويخاطبون فيها اخوانهم المسلمين قائلين « معاشر الخلال اني آنست نارا في وادي هذه للنفون ، لعلي آتيكم منها بخبر أو قبس لعلكم تصطلون »

أوليس هؤلاء العلماء قد عمروا على قضية عمر بن حسام فيما أخرج الخبر به الامام الرازي في التفسير الكبير من ان عمر بن حسام كان يقرأ كتاب المجسطي على عمر الانهري فقال بعض الفقهاء يوما ما الذي تقرأونه ؟ فقال افسر آية من القرآن وهي قوله تعالى « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها » فأننا أفسر كيفية بنائها . ولقد صدق الانهري فيما قال : فان من كان أكثر توغلا في بحار مخلوقات الله تعالى كان أكثر علما بجلال الله وعظمته . انتهى كلام الرازي بعبود ألفاظه ولم يعثر علماء الازهر على فصل المقال للحكيم الفيلسوف القاضي أبي الوليد بن

رشد (الذى) نص فيه على وجوب معرفة الموجودات والعلم بحقائقها من جهة الشرع وان القرآن العزيز قد أمرنا بذلك أمراً أكيداً في كثير من الآيات وكتب في آخر ذلك ماتلك عيون أفاضله « وقد تبين من هذا ان النظر في كتب القدماء واجب بالشرع وان من نهى عن النظر فيها فقد صد الناس عن الباب الذى دعا الشرع منه الناس الى معرفة الله وهو باب النظر المؤدى الى معرفته حق المعرفة وذلك غاية البعد عن الله تعالى » ولم يدرك هؤلاء العلماء ان الامام الغزالي كان من قوله في علم الهيئته فيما نقل عنه الفاضل عصمة الله في (التصريح شرح التصريح) للشيخ العلامة بهاء الدين العاملي من انه من لم يعرف الهيئته والتصريح فهو عتيد في معرفة الله (١)

وأعظم من ذلك كله الاثر للأثر المشهور عن سيدنا علي فيما أشار به على سيدنا عمر رضي الله عنه بعدم احراق خزانة الكتب بالاسكندرية قال انها علوم ليست تخاف القرآن العزيز بل تعاضده وتفسره حق التفسير لا مراره الغامضة الدقيقة. وهو قول معروف عنه وقد أخرج الخبر به مفصلاً الحكيم المؤرخ الاسلامي القاضي الصاعد الاندلسي في طبقات الامم فيما نقل عنه العلامة المحدث ابن يعيش اقرئني التيمحي في بعض مقاطيع القسم الاول من الجزء الاول من كتاب الكشف عن الغثاة فليرجع اليه

هذا وانما ان يذهب عنا الاسف والكمد الذى نجد في أنفسنا من جهة قضية الخديو وآرائه ومن جهة الحال التي نحس في علماء الازهر ونحن بهذا المصري حاجة إلى مثل الرازي والغزالي وابن رشد الاندلسي وأمثالهم من العلماء ومن كانوا في ميزانهم في الدهر الحاضر مثل الاستاذ الكبير محمد بن عبده وأضرأ به الذين يضيئون العالم بنور الدين وضياء الاسلام، ويبينون للناس ومن في قلوبهم مرض وزيف عن الحق ان الديانة الاسلامية كلها تطابق العقل والفطرة حذو القذة بالقذة، وان العلوم العقلية والكونية بأسرها في الاصل علوم دينية يجب على المسفين تعليمها والاخذ بها وتعلمها، فيخرجوا بذلك عن قعر الذل وغيابة الهوان والصغار التي ألقوا

فيها وهم صاغرون ، وقد لزم الاسلام بهم عار قبح به منظره ، وساءت بذلك هيئته ، وهم يظنون من أجل ذلك ان الاسلام هو الرادع للناس عن التمدن والارتقاء ، في معارخ العز والاعتلاء ، فأما نحن فلسنا في حاجة إلى أمثال هؤلاء الذين يقولون ان العلوم الحديثة مطفئة لنور الاسلام ومخمدة لناره ، ومطامسة لآثاره ، ومجلية له عن عقر داره ، ومحله وقراره

أوليس ان الحال التي انتهت اليها هيئة المسلمين مما يتضحك بها الاعداء ، ويتصارخ لها الاولياء بالعويل والبكا ، وتسكب الدماء ؟ أو ليس قد تراكمت على المسلمين سحائب الذل والهوان ، وجللتهم غياهب العدم من كل جانب ومكان ، أي نقطة في الوجود من نقاط الارض يكون فيها من حال المسلمين مالا يتصدع لها القلوب وتنفطر بها الأكباد ، وتجود لها المحاجر والآماق بأنهار الدماء السائلات ، وتنسكب لها قاني الأمطار من المقل الفئرات ، خرجت للمالك من أيمنهم ، واضمحلت الدول التي بقيت في أيديهم ، كأنهم لا حراك بهم ، وصاروا في العالم كأنهم اللعبة تتداولها أيدي الأجانب ، وتلاعب بها أكف الأبعاد ، بما خرجوا عن امتلاك الأقارب ، لا يحس فيهم شيء من آثار الثروة ، ولا عندهم ميل إلى التجرة والصنعة بل هم زاهدون فيها ، وراغون عنها ، يستقبحون شكلها ومنظرها ، ويستنفثون محلها ومصدرها ، ورضوا بالافتقار ، في تحصيل كل شيء حقير وجلب كل ما عون يسير ، من أرض أوربا يستجلبون الفرش والسرير والمصانع من أرض افرنج ولا يتخذون من ذلك شيئاً بانفسهم وأيديهم . لم يبق لهم عزة ولا صولة ، وما بقي عندهم امرة ولا دولة ، وأما عددهم فهم وإن كانوا يبالغون إلى ألف مليون نفس في العالم فهم بعد ليسوا في قطر من أقطار الدنيا ممن يفتخر هناك بوجودهم ، ولا ممن يتفاخر بهم على لسان ولبيهم وودودهم ، أو يفرح الرجل بالظفر إلى عيونهم وأشخاصهم ، أو يسير اخوهم إذا كان يرمق إلى عدهم وفرادهم — فماذا يكون من السبب الاصيل في ذلك ، ويبد من رهنت ذمة هذه الامور

والذي أحسب ان جل السبب في ذلك ليس إلا نفارهم عن العلوم الحديثة وتعاميهم عنها ، واثم ذلك كله على عاتق هؤلاء العلماء الذين يزرون تلك الاوزار ،

ويجوزون للمسلمين أن يخرجوا عن غمار الذل والصفار . ومن ثم تراهم يرفعون
عن التعاليم الذففة ، ويردعون الناس عنها بفتاوى التكفير لمن ولع بهذه العلوم
الحديثة، ويحولون بينهم وبينها، وعلى أبصارهم غشاوة فهم لا يبصرون ، ولا يشعرون
ان ارتقاء الاوربيين الذى يضرب به المثل اليوم ليس إلا من جهة توغلمهم في
العلوم الجديدة، ونموغهم في الحكم الحديثة ، وكل دولتهم وقوتهم منسوبة في الاصل
الى تجارتهم وحر فمهم، وهي في نوبتها منسوبة الى تناغيمهم في هذه العلوم الجديدة الذاففة
دع عنك أوروبا وانظر الى هذه الامة الحقيمة التي يقال لها أمة جابان ؟ أفلا
يرونها كيف ارتقت في مدة لاتنيف على عدة سنين ، لا تعد إلا على أنامل
الآدميين، ارتقاء مبهرأ بهرت الانظار، وخطفت لها النواظر والابصار، أفليس انها
لم تستكمل انفسها مدة خمسين سنة، وكانت تعد من قبل ذلك في الاقوام المتوحشة،
وتستحقها الامم المتمدنة ، وهي اليوم في كل شأن على أعلى مراتب الصعود
والارتقاء، وقد أدهشت الدنيا بأسرها بأعمالها ابدية التي صدرت منها في هذه الازمان
وكل واحد يحترمها كل الاحترام ، وحرمتها مركززة في طبع كل انسان، فماذا الذى
قلبا عن حالها القديم، وانعكس أمرها عن شأنها الفاسد الميم ؟ ماذلك إلا من أجل
تناغيا في العلوم والحكم ، والازهريون على خبرة من حالها، ومنهاج ارتقاها
ومنوالها، وانما الاسف عليهم من أجل انهم لا يقبسون أنفسهم هؤلاء ولا ينظرون
في علل تلك الاشياء ، ولا يفكرون في أسبابها التي أورثتهم الارتفاع ، وأورثتنا
الانحطاط والانخفاض . ولو كان عندهم صواب في الرأي وحزم في الروية ومعرفة
صحيحة بالقرآن والاسلام لكانوا يستحيون مما هم فيه ، ولكان كل واحد منهم
مثلكم ومثل الاستاذ الكبير محمد بن عبده يخرج نفسه من شرك التقليد الذى
أضل الناس كثيراً، ولكان يسلك في منهاج التحقيق الذى هو الصراط المستقيم،
ويضيء فضاء الارض برحبه، وينور العالم الاسلامي بسعته كلها، بمشعلة الاسلام،
ونبراس كلام الله الملك العالم

وليت شعرى ماذا الذى علمنا القرآن والاسلام ؟ هل هو بعض هذه الحركات
البدنية ؟ أم نبذ من تلك المراسم الظاهرية ؟ أو مطالب عديدة من مسائل النفاس

والحيض (التي) يعنون بها التعليم الديني لا غير لا مادون ذلك ؟ كلا ولا كرامه ، وحاشاها عن ذلك ، بل قد دلانا على ما فيه جل الخير وتمام النفع في الدين والدنيا وكال الربح في الاخلاق والمدنية ، وعلمانا الاصول التي بها نهتدي الى تحصيل تلك العوائد الثمينة والفوائد الغالية ، وأوجبنا علينا اكتساب العلوم الكونية والعقلية بأسرها . ولو كان علماء الازهر مشاركين في آرائهم لمثلهم ومثل محمد بن عبده وينظرون بنظر الامعان في امضا آتكم (١) البديعة الرشيقة التي علمت الدنيا أن الاسلام من بين سائر المذاهب هو المذهب الواحد الذي يرغب الناس ويشوقهم في تحصيل الفوائد الدنيوية ، والعوائد الملية والقومية ، وهو الذي يخذ العلم والمقل عين الايمان والدين ونفسهما في الاصل ، ولو لم يكن الازهريون يظنون ظناً باطلا ان العلوم الدينية بأسرها منحصرة في الفقه ومقصورة على جزئيات المسائل الفرعية التي لا يعتد ولا يعابها ، واكثر هذه المطالب ليست بجذرة للعمل في هذه الاعصر والدهور (٢) ولو عرفوا ما في تعليمها من ضياع العمر وتضييع الوقت ذلك ما هو معلوم عند كل ذى حجي وهم يزعمون ان الولوع بها مما يشيد بناء الدين - لما رؤي الطلبة الازهريون كما هم اليوم في غايتهم من الذل والهوان ، ونهايتهم من الصغار والخذلان ، ولو كانوا يعلمون أن العلوم العقاية والكونية عين العلوم الدينية ، لكات كلية كيمبرج واكسفورد ومحمد كلية الازهر وتغبطها غبطة ما كان يجحدها أحد ولتخرج منها في عرض عدة سنين رجال كانوا يصعدون بالبلاد الاسلامية ويحلقون بها الى أعلى ذرى الارتقاء ، التي وصلت اليها أمة جابان في هذه الاعصر والازمان ، هذا رأيي ورأي سائر الافراد الذين لهم خبرة باحوال الدنيا ووقوف على أخبارها وإلام بتواريخها ، واني لقاطم بصحة هذا الرأي ورأي هؤلاء ممن عدائي ان العلماء هم العلة الاصلية لكل هذا الصغار والهوان ، وتتمام تلك النخبة والخذلان ، وهم موقوفون غداً بين يدي الرحمن ، ومسؤولون من لدنه فليستعدوا للجواب ، فهم الاصل الاصيل لجل هذه الفاسد وكل تلك الشنائع وأنت يا أخي لا تستطيع وإن جهدت كل جهدك للمحاربة عن علماء الازهر

(١) يعني بهذه الامضاءات ، مقالات المنار الاصلاحية (٢) يعني مثل أبواب الرقيق

أن تغسل هذا العار عنهم ، وتدفع هذه التبعة والنقيصة منهم ، فانك لا تستطيع أن تكذب الحس والعيان ، ولا أن تدفع الوقائع التي حدثت في الازهر والازمان . أفهذه السكينة التي مضت لبنائها الف سنة ونخرج منها مليون ، بل أضعاف مليون طلبة ، ولا يزال يخرج منها كل عام آلاف من هؤلاء الطلبة ، أفيمكن أن يكون نهج التعليم في هذه السكينة بحيث يتخرج منها طائفة من صعاليك الناس وسائلين في الرقاب يتخذون غذاءهم بالذلة ، وعشاءهم بالمسكنة ، ويبيتون وهم مخدولون بالمسغبة ، أو يجدر بها أن ينفر فيها عن طريق التعليم التي يتخرج منها أناس يرتفع بهم مشار الدين ، ويتقد به نور الاسلام ويعلو قدر المسلمين ، ويتهدي بها المسلمون إلى واجب الصمود والارتقاء ، ويزيدهم عزة وبهاء ، ويهيء لهم ذرائع الاصطفاء والاعتلاء ،

وانما يحزننا أولا انا نجد المسلمين في أي مصر وأية نقطة من تقاطع الارض كانوا بأسرهم ذاهلين عن استجلاب العلم واكتساب الحكمة ، غافلين عنها غير مكترئين بها ، وثانيا انه حيث ما نجد لهم وسائل التحصيل حاضرة ، ولو احب الاكتساب متسعة ، ومناهج التدريس مطروقة متفتحة ، وحيثما يوجد لهم كلية قديمة مثل هذه الكلية التي هي أقدم كليات العالم ، يكون فيها مثل هذا التعليم الفاسد الضار ، الذي تضع فيه الأعمار ، ويضاع فيها الغضة والنضار ، ويصطلح الناس فيه على أن يسموا مثل هذا النهج الباطل العاقل العتيق الذي لا ينبعث المسلمون به للنهضة ، وينسلب من أجلها مادة التحقيق عن قلوبهم الخاوية ، ويبغض اليهم النظر في العلوم النافعة ، يصطلحون على أن يسموه تعلما دينيا - وعلى أن يسموا الرجل العارف بمسائل شتى من الطلاق والرجعة والنفاس والحيض رجلا عالما ولا غير

هذا واني است بمسهب مقالتي في هذا الشأن ، ولا بمطنب في شكائتي من علماء الزمان ، نظراً إلى ما حوت مجلتكم الباهرة الغراء من أحوال هؤلاء العلماء وشؤونهم واخبارهم ، فنحن في غنى عن إطالة الكلام عليها ، وبمزل عن إسهاب المقال فيها ، وعلى كل حال فان الاحوال الحاضرة للعلماء ومدارسهم ومكاتبهم مما قد تبين واتضح للناس ضررها وفقدان نفعها للمسلمين وضوح للشمس في كبد السماء ، وانما بني

وحزني على ذلك من جهة ان الازهر كان هو المدراس الواحد في الدنيا من قديم
الاعصر والاعوام الذي كان يرجى فيه اصلاح جميع المفاصد الملية والمدنية في
الاسلام ولا غير، ولو تقبل الناس آراء المفتي محمد بن عبده وبادروها بالقبول لكننا
تأمل منه خروج المسلمين عن غيابة الذل والنكبة ، ونترقب صمودهم إلى أعلى
قنن الفوز والسعادة ، ونسكن عليكم بعد أن لا تأسوا من روح الله ، وتجدوا كل
الجهد في اصلاح المساميين ، وأحسنوا ان الله لا يضيع أجر المحسنين . وكتب
يوم الخميس ٢٥ خلون من شهر ربيع الآخر (سنة ١٣٢٣)

وأنا مخلصكم الصفي الوفي

(محسن الملك)

[المؤلف] انني نشرت لصديقي أمير العلماء والمصلحين في الهند مقالته هذه
في السنة التالية ولم أناقشه في شيء منها ، وهو محتج علي بالنار في كثير مما انتقده
علي . ولكنه لم يفهم مرادي من الدفاع عن علماء الازهر في تلك الحادثة بعد
حملاتي الكثيرة عليهم من قبل لأنني لم اقدر أن أبينه البيان التام كما بينته هنا ،
وهو أن الذين هبوا لمقاومة الاصلاح في الازهر لم يكن الباعث على ثورتهم جهلهم
بالحاجة إلى الاصلاح ولا الفيرة على الدين وانما كان الخديو هو الذي سخرهم
واستخدمهم لذلك وروجت له جرائده هذا الابهام وهي المؤيد واللواء والجوانب
المصرية والظاهر ، وكان هو يظن أنهم هم الذين بعثوا الخديو بل الجأوه إلى ما
فعل . وقد كتبت في تلك الاثناء مقالة في حقيقة حال الازهر واصلاحه لم أتمكن
من نشرها ولو رأها النواب رحمهم الله تعالى لما اشتبه في شيء من كلامنا الاول ،
فننشر ههنا مقدمتها وهي

حقيقة الازهر*)

❦ واهام الناس في علمه وتعليمه ، وما عرض حديثا في محاولة إصلاحه ❦

للناس في وظيفة الازهر وحاله آراء وخواطر مختلفة يقل فيها الصواب . كان الازهر مدرسة كسائر المدارس الاسلامية الكبرى في الشرق والغرب يشغل فيها المسلمون بجميع العلوم التي كانت معروفة في الارض أيام لا علم إلا عليهم ، ولا عمران إلا عمرانهم ، ولا مدنية إلا مدنيتهم . ولما فتكت الادواء السياسية والاجتماعية بعمرانهم ضعف فيهم العلم ، ودرست مدارس العراق والاندلس وهما جناحا عمران الاسلام ، وبقيت مدرسة الازهر في القلب او الوسط عضوا اثريا ليس له وظيفة حية لها أثر في العمران الاسلامي ، ونعني بكونها عضواً اثرياً أنها حفظت بعض التصانيف التي ألفت في آخر عهد حياة العلم ، وكتبت أخرى كتبت في عهد موته ، نسخ بها كاتبوها المقلدون ، ما أنشأه وسواه المتقدمون .

يظن بعض الناظرين إلى الظواهر أنه لو لم يحفظ الازهر هذه الكتب بمدارسها لدرست رسوم الاسلام ، ونسيت لغته ، وجهات علومه ، إلا بقايا لا يعتد بها في جامع تونس وجامع فاس ، وبعض البلاد التي غلبت عليها العجمة كببلاد الهند والروم ، فللازهر - على رأي هؤلاء - الفضل الاكبر على الاسلام والمسلمين وخاصة العرب منهم . ولو دققوا النظر لرأوا أن فائدة الازهر في هذه القرون الاخيرة فائدة تاريخية لاحبوية ، كما هو شأن الاعضاء الاثرية ، فيها يعرف المؤرخ البصير كيف انحط العلم في المسلمين وإلى أي هوة هبط ؟ وما كل ما يفيد المؤرخ لامة يكون مفيداً لها ، إذ المؤرخ يبحث عن الضار والنافع ، وعن أسباب الترقى وأسباب التبدلي والانحطاط .

ان الطريقة التي جرى عليها الازهر في مدارسها بعض كتب الفنون العربية والعلوم الشرعية غير موصلة إلى الغاية التي وضعت لها تلك الفنون والعلوم ، ثم

(١) مقالة كتبناها في وقت الانقلاب لبيان اسبابه نشر هنا مقدمتها فقط

هي عقبة في كل طريقة يمكن أن يشرعها محبو الإصلاح الذين ينكشف لهم قبحها وانحرافها عن جهة الغاية . ذلك ان اهل الازهر جحدوا على التقليد لما يفهمون من عبارات تلك الكتب فلم يعودوا ينظرون في المقاصد والغايات من العلوم ، ولا في كون الغايات موافقة لمصلحة الامة العامة التي هي روح الشريعة ، وقد اتخذهم الناس رؤساء في الدين وظنوا كما ظن بعض الامم قبلهم انه لا يحل للامة الا ما يحلون ، وانه يحرم عليها كل ما يحرمون ، فحرم المسلمون بهذا الاستفادة من روح الحياة المنبثة في القرآن لان علماءهم حجاب بينهم وبينه ، كما ان تقليد الكتب حجاب بين هؤلاء وبين القرآن . وحرّموا أيضا الاستفادة مما وصلت اليه حالة العصر من الارتقاء الصوري والمعنوي ، لان من لاحياة له لا يستفيد من غيره شيئا . ولذلك ترى المسلمين لم يستفيدوا من الارتقاء الاوربي الذي يحيط بهم فائدة جوهرية تعطيهم حياة حقيقية ، ومثل ما أصابهم منها كمثل الزينة التي تعلق على الجدران ونحوها من الاجسام غير الآلية لا تخاط جوهرها ولا تدخل في كنه حقيقتها ليس ضرر الطريقة الازهرية في التعليم قاصرا على المسلمين بل هو يعم معهم جميع سكان البلاد التي تسير على هذه الطريقة ، لان البلاد التي يتألف أهلها من عناصر كثيرة تكون صفات العنصر الاكبر فيها هي الغالبة ، ويمسر على الاقل فيها أن ينهض بالاكثر ، وعلى الضعيف أن يؤثر في القوي . بل كان الجمود على تلك الطريقة هو الحائل دون اقتباس ما قضت الضرورة على الشرق أن يقتبسه من الغرب ، والسبب في طول العهد على التباعد والتباغض بين شعوب في الاوطان البعيدة والقريبة بل في الوطن الواحد ، فهي طريقة ضارة بأهلها وضارة بحجيراتهم وأهل أوطانهم ، ، وضارة بسائر الناس ، لانها عائق عن ارتقاء طائفة من أبناء الانسان وجمالهم فتنه لآخوتهم ، وعقبة في طريقهم

وجد في مصر وفي غيرها أفراد من اهل العلم والفهم نشأوا على الطريقة الازهرية ، ويظن من لم يعرف تاريخهم أن هذه الطريقة على وعورتها قد توصل إلى غاية صحيحة ، ولكن من يعرف تاريخهم يعرف ان ذكائهم الفطري قد هدام إلى طريقة أخرى في التحصيل بواسطة أخرى أصابوها بسمي او بغير سمي ، على

أنه لم ينهض من هؤلاء أحد إلى مرتبة المصلحين إلا عالمنا الحكيم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية لهذا العهد ، فقد كان هذا الرجل ممن نشأ في الأزهر غريباً عن أهله ، وكان له واسطة غريبة لمعرفة الطريقة المثلى للعلم ، فنشأ في بلاده ، وكنى بالسياحة في افريقية وآسية وأوربة ، وعرف أحوال الامم الحاضرة ، وتاريخ الامم الغابرة ، ثم سمت به همته إلى السعي في إصلاح الأزهر ، معتقداً ان اصلاحه خير اصلاح لحال المسلمين الدينية والدنيوية ، ولإصلاح كل من يساكنهم في بلادهم بالتبع لهم ، وأنه خير وسيلة للتعارف بين الشرق والغرب ، وخير صلة بين المدينة القديمة ، والمدينة الجديدة ، لانه علم ان السبب في التقاطع بين أوربة والمسلمين هو جهل الاوربيين بحقيقة الاسلام ، وعجز المسلمين عن افهامهم تلك الحقيقة ، لانهم غير متحققين بها لاعلماء ولا عملاء ولا تخلقاً ، ثم جهل المسلمين بحقيقة مدينة أوربا وبكنه ارتقائهم العلمي والاجتماعي . ولو صلح حال التعليم في الأزهر لطلب المسلمون إلى طلب العلوم الصحيحة ، والمدينة العزيزة ، كما هبوا لذلك في اول نشأتهم ، فأحيوا ما امانته الزمان من علوم الهند واليونان ، ، فلا يجدون امامهم إلا أوربة وعلومها الحية ، ويفهمونها انهم خير عون لهم على تكميل مدنييتهم ، فيتمارفون ولا يتناكرون . وإذا عارضت السياسة تعارفهم ، فإنه يسهل عليهم من إزالة معارضتها مع التعارف والعلم ، مالا يسهل عليهم مع التقاطع والجهل

كان هذا الرجل سعى في بث شيء من الإصلاح في الأزهر على عهد الخديو السابق (توفيق باشا) رأى من جهود اهل المكان مالا يمكن معه العمل إلا بمساعدة منه ، ولم يجد عنده ايجابية لذلك وإنما وجد اشد المعارضة . ولما ولي الخديو الحالي وهو قد تربى في أوربا وعرف من الحاجة إلى الإصلاح مالم يعرفه سلفه ، عرض عليه الشيخ محمد عبده رأيه في إصلاح الأزهر والخروج به عن كونه تكية للفقراء ، وملجأ للكسالى وجسلة مدرسة حقيقية تؤدي وظيفتها كما يجب ، فتخرج للبلاد قضاة عادلين ، ومعلمين ماهرين ، ووعاظاً هادين ، يملجون بروح الدين هذه الامراض النفسية التي أفسدت الاخلاق والعقول ، حتى عمت الخرافات ، وفشت الفواحش والمنكرات فصادف من الامير الجديد أذناً واعية ، وهمة سامية ، وعهد اليه الامير أن يضع

المشروع للإصلاح ، فوضع للأزهر قانوناً وجعل له مجلس إدارة يدير فيه نظام التربية والتعليم ، فأنفذ الخديو ذلك وخصص الأزهر مبلغاً صالحاً من مال الأوقاف إعانة على الإصلاح ، وراق ذلك لحكومته فخصصت له مبلغاً آخر من خزانة المالية ، وكان صاحب مشروع الإصلاح الشيخ محمد عبده عضواً في مجلس إدارة الأزهر من قبل الحكومة وكذا زميله الشيخ عبدالكريم سلمان وباقي الأعضاء ينتخبون من علماء الأزهر ، والفرض من هذا أن يكون هذان العضوان دائمين لا يعرض لهما التبديل ، لأن مدار الإصلاح عليهما . فسار العمل بالتدرج الطبيعي اللاتقبح طال قوم طال الزمان على جمودهم . ولم يكن في الأزهر أحد يعارض الإصلاح عناداً ، وإنما كانوا يطلبون إرجاء بعض المشروعات بحجة وجوب التدرج في العمل بدأ الإصلاح (أولاً) بتحديد مدة الدراسة وكان الرجل يقضي عمره في الأزهر فلا يستل ماذا قرأ ولا ماذا حصل (وثانياً) بالامتحان السنوي لمن يختاره مع مكافأة الناجح بالمال وكانوا لا يمتحنون طالبا لأجل نقله من كتاب إلى كتاب ولا لغير ذلك ، وقد ظهرت فائدة هذا الامتحان و كان يكثر عدد الراغبين فيه عاماً فعاماً (وثالثاً) بإلغاء بعض الكتب الضارة وتقرير بعض الكتب النافعة وقد عقد لذلك عدة لجان برئاسة الشيخ محمد عبده وتقاريره بما تم فيها مطبوعة محفوظة (ورابعاً) بجعل مدة دراسة المقاصد كاللغة والتفسير أطول من مدة دراسة الوسائل كالنحو والصرف ، وقد تقر هذا قولاً ولم ينفذ فعلاً (وخامساً) بزيادة علم الأخلاق وعلم التاريخ وعلم تقويم البلدان وعلم الحساب والجبر والمقابلة في العلوم التي تدرس في الأزهر ، وكل هذا قليل من كثير ، مما يحتاج إليه الأزهر لنهضة المسلمين سار الأزهر بالتدرج على هذه الطريقة بقاية الهدوء والسكينة وبدأت تظهر ثمارها ، وتوجهت نفوس بعض الطلاب إلى التماس علوم أخرى ، ولكن سمو الخديو تغير في أوائل السير على الشيخ محمد عبده الذي يدير بيده المكان بالاتفاق مع شيخ الأزهر الذي عين بأقراحه الخ

ولا حاجة إلى نشر بقية هذه المقالة فقد نشرنا معناها آنفاً قبل أن ننشر بين محفوظاتنا على هذه المقالة ولكننا نقفي على هذا بنشر مذكرة بخط الاستاذ الامام

في بيان ما لم ينفذ من مواد قانون الازهر بما نفخ فيه روح المقاومة والشقاق ،
وكان يمكن للأستاذ الامام محاكمة شيخ الازهر في محكمة الجنايات بامتناعه من
تنفيذها وانما لم يفعل لما ذكرناه قريبا من مذهبه ومشربه في الاصلاح

﴿ مذكرة الأستاذ الامام ﴾

في مواد قانون الازهر التي لم تنفذ

(المادة الثانية من قانون الازهر)

(شيخ الجامع ينفذ الاوامر وقرارات مجلس الادارة ، ويتخذ الوسائل
لتحسين حالة الازهر وترقية التعليم ، ويدير الاعمال بما لا يخالف القوانين
وقرارات مجلس الادارة)

صدرت قرارات من مجلس الادارة متعلقة بما يجب على مشايخ بعض الازوقة
وقرارات متعلقة بالتعليم وأهمها القرار الصادر بتعيين مدرسين يدرسون العلوم
على طريقة جديدة عملية توافق أحكام هذا القانون ، ورتبت لهم مرتبات مقدارها
سماية جنيه في السنة من الاوقاف الخيرية ، وشرط في ذلك القرار ان من لم يقم
منهم بما عهد اليه ينزع منه المرتب ويعطى لغيره والاعول على الاختبار ، ولكنهم
من يوم عينوا إلى هذا اليوم لم ينظر في كيفية تدريسهم ، وهم في التدريس كغيرهم
لم يمتازوا عن بقية المدرسين بشيء سوى أخذ المرتبات ، والقرارات المتعلقة بمشايخ
الازوقة لم ينفذ منها قرار واحد

(المادة السادسة)

(مجلس الادارة ينفذ كل ١٥ يوم مرة على الاقل)

لا ينفذ المجلس إلا عند موت شخص لتوزيع مرتبه أو اعطاء كسوته
التشريعية لغيره ، أو عند شكوى أو مشاجرة أو نحو ذلك ، اما للنظر في حالة التعليم
أو في وضع شيء مفيد له فلا ينفذ ، غاية الامر انه ينفذ في شهر شوال من كل
سنة لتوظيف أو نقل معلمي الحساب والجغرافية والخط لاغير

(المادة الثامنة)

(مجلس الادارة يقترح طريقة توزيع النقود التي ترد إلى الجامع الازهر سواء كان ورودها بصفة دائمة أو مؤقتة)
 ظنت المشيخة ان المراد من ذلك النقود التي تأتي للتوزيع على انها نقود، أما ما يرد في شرط الواقفين من النقود التي يشتري بها جرايات فيوزعها الشيخ بدون مدخل للمجلس وهكذا جرى العمل مع ان المراد عموم ما يخص للازهر من النقود سواء اشترى به خبز أو وزع نقوداً

(المادة الحادية عشرة)

(مجلس الادارة يوزع العلوم التي تدرس في الازهر على الاساتذة وعلى السنين ولا يجوز لاستاذ أن يتعدى ما يقرره المجلس)
 لم يشتغل مجلس الادارة بتنفيذ هذه المادة قط في العلوم المعهود تدريسها في الازهر ، وإنما الذي وزع ولا يزال يوزع إلى الآن هو بعض العلوم التي أضيفت أي الحساب والجغرافيا والجبر لاغير . وبقية العلوم تحمل لا يعرف ما يدرس أولا ولا آخرأ إلا ما جرت به العادة في قديم . والمادة المذكورة انما وضعت لاصلاح القديم لانه صار ضرراً ظاهراً

(المادة السابعة عشرة)

تنضمن تقسيم العلوم إلى مسائل ومقاصد، وأضيف فيها علوم الاخلاق الدينية والحساب والجبر، وعدت هذه العلوم الثلاثة الجديدة من العلوم الالزامية التي يمتحن فيها الطالب حتماً عند طلبه الامتحان لئيل شهادة العالمية وجاء في المادة ٦٠ ان من مضى عليه أقل من ست سنوات وقت صدور القانون أو من يدخل الازهر بعد ذلك يكون امتحانه على حسب هذا القانون

ومع ذلك لم يلتفت إلى الزام الداخلين بعد صدور القانون بتعلم هذه الفنون ولم ينشر ذلك على الذين دخلوا من قبل ومضى عليهم أقل من ست سنوات بل

لم يقننه إلى ذلك إلا في هذه الايام حيث قدم بعض الطلبة ممن تنطبق عليهم المادة ٦ طلبات الامتحان فرفض طلبهم بناء على أنهم لم يتمموا الحساب والجبر ولكن ذلك بعد فوات الوقت

(المادة التاسعة عشرة)

المعلوم التي يقصد من تعليمها العمل بها كعلوم البلاغة يجب على مدرسيها تمرين الطلبة على تطبيق العلم على العمل
هذه المادة لم يعمل بحرف منها قط

(المادة ٢٠)

يخصص لعلوم المقاصد أوسع أوقات الدروس ولا يصرف في الوسائل من زمن الدراسة مايساوي الزمن الذي يصرف في المقاصد
لا يزال معظم الزمن يصرف في النحو وهو من الوسائل ، وأما المقاصد مثل تفسير القرآن والحديث فلا يصرف فيها إلا الزمن القليل

(المادة ٢٢)

تمنع قراءة الحواشي والتقارير منعا باتا في جميع العلوم في الاربع سنوات الاولى ويكتفى بالمتون والشروح الواضحة ، وبعد الاربع السنوات يحجر الطلبة والاساتذة في النظر في الحواشي ، وأما التقارير فتمنع قطعاً إلا بقرار من مجلس الادارة حصل اجتهاد مدة سنتين فقط بعد صدور القانون في تنفيذ هذه المادة بجمع المشايخ الذين يدرسون في السنين الاربع الاولى وإلقاء التنبيهات عليهم لمراعاة هذه المادة ولكن لم يقع تفتيش ولا مرة واحدة لينظر هل يعملون بمقتضى التنبيهات أم لا ؟ نعم بعد ذلك أهمل الامر بالكلية والمشايخ يقرءون الآن ما يريدون كما كانوا قبل صدور القانون

(المادة ٢٣)

(لا يباح للطالب أن يشتغل بعلم من علوم المقاصد قبل أن يستحضر من وسائله ما يمكنه من فهمه وعلى كل طالب أن يتلقى أصول مذهبه)

هذه المادة لا يمكن تنفيذها إلا بتفاد حال كل طالب في دروس المقاصد لمعرفة إن كان تلقى من الوسائل ما يؤهل لفهم كتاب من المقاصد أو كان لم يتلق ما يكفي وهذا أمر لم يقع من يوم وضع القانون إلى اليوم ، بل لم يشتغل مجلس الإدارة بتحديد وسائل كل علم ودعوة الطلاب إلى الاخذ بما يقرره

(المادة ٢٤)

أكثر مدة الطلب ١٥ سنة

مقتضى ذلك ان الطالب لا يقيم على انه طالب في الازهر أكثر من ١٥ سنة ويوجد طلبة لهم أربعون سنة فما دون ذلك ولم يلتفت مجلس الإدارة إلى النظر في تصفية الجامع من هؤلاء البلقاء بل منهم من يطلب الامتحان والشيخه لانه إلى طلبه

(المادة ٣٧)

تقضى بان طلبات الامتحان تقدم إلى الشيخه في الشهور الاربعه الاولى من كل سنة ، وانه بعد ذلك يشكل شيخ الجامع لجانا لامتحان الطالبين ومقتضى ذلك أن يتختم على الشيخ تشكيل اللجان لامتحان جميع الطالبين وإلا فلا معنى لذكر اللجان بصيغة الجمع ولا معنى لتحديد مدة الطلب بالشهور الاربعه ، والآن يوجد ما يزيد على خمسمائة طلب من سنين عديدة ولا يمتحن من الطالبين أكثر من ثمانين شخصا في السنة وفي ذلك قتل للطالبين وهضم لقواهم بتناول السنين عليهم بلا فائدة

أما المواد ٤٣ و ٤٥ و ٤٦ و ٤٧ المتعلقة بكيفية الامتحان فلم يعمل بها ولا مرة واحدة

وقد كان الشيخ محمد عبده شرع في تطبيقها عند ما عين عضواً في لجنة الامتحان من نحو ست سنوات فلم يقبل المشايخ الجري عليها واستمر العمل على اهمالها إلى اليوم

والحاصل ان هذا القانون قد عدته مشيخة الازهر ومشايخه وطلبته من قبيل الوصايا التي يجوز للشخص أن يعمل بها ويجوز له أن لا يعمل وهم يحبون أن لا يعملوا بالضرورة لعدم تعودهم العمل اه نص المذكرة من هذه المذكرة يعلم أن مشيخة الازهر كانت معادية للنظام حتى مادة جعل جل العناية في الازهر تحصيل علوم الدين المقصودة بالذات وفي مقدمتها التفسير والحديث ، ويعلم منها ان الذين اتهموا الاستاذ الامام بأنه أضعف علوم الدين في الازهر من المنافقين ان الذين يفترون الكذب وهم يعلمون ونعود الى ما كان من تأثير استقالته في العالم مما نشرناه يومئذ في النار

صدى الحادثة في أوربا

(أو مقاومة النفوذ الفرنسي والانكليزي للاستاذ الامام في الاصلاح)

(نشرت تحت هذا العنوان ما يأتي في النار بعد بيان تأثير ترك الاستاذ الامام للازهر في العالم الاسلامي . ووقيت عليه بانتقاده وهو)

نشرت جريدة اللواء في عدد يوم الخميس (١٣ ربيع الاول) خبرا قالت انه مترجم عن جريدة (الغلوب) الانكليزية بغير تصرف وهذا نصه بغير تصرف : « اختلف العلماء من عهد قريب بشأن التعليم في الازهر ، وسبب ذلك ان رئيسهم الشيخ محمد عبده حاول ادخال نظام للتعليم أوسع من النظام الحاضر - الذي وضع من قرون مضت والذي لا يتضمن غير محض تعليم مواد الاجرومية وقليل من بعض العلوم الاخرى - بقصد تكوين قوة جديدة في الاسلام ، ويريد الشيخ محمد عبده السالف الذكر ادخال العلوم الحديثة في بروجرامه الجديد ليستعين بها العلماء على اكتساب أرزاقهم من طرق العمل والجهد لا الكسل والتواكل

» وقد قاومه العلماء في مشروعه هذا مقاومة شديدة وأصل بنا انه قال في حديث له : ان السبب في عدم نجاحه وفشله النهائي راجع إلى محاربة النفوذ الفرنسي والانكليزي السياسيين له ، واستشهد بعبارة نشرت في بعض الكتب

السياسية الفرنسية مؤداها ان سوا من فرنسا من الحزب الاستعماري لا يقبلون بوجه من الوجوه تنور المغاربة بنور العلم » اهـ

(اقول) نعم علمت بعد نقل هذا عن جريدة اللواء انها تركت من الاصل كلمة أخرى ذكرتها جريدة (الغلوب) وهي ان الشيخ محمد عبده قل لمحدثه « فهل يسر الانكليز بتخريبجي لهم رجالا مستعدين يفهمون حقوقهم ويعرفون كيف يدافعون عنها بقوة مستمدة من العلم والمعرفة ؟ » وانما ترك اللواء هذه الجملة لانه يسر المسلمين من الشيخ محمد عبده أن يقول هذا في مقاومة الانكليز وسوء الظن فيهم . وما كان صاحب جريدة اللواء يحب أن يسر المسلمون من الاستاذ الامام بشيء

ملاحظة النار او انتقاده على ذلك

(أي على ما نشرته جريدة اللواء)

يعجب المصريون أن يروا في الجرائد الانكليزية من يخط في المسائل المصرية على غير هدى ، مع وقوف الانكليز هنا على حقائق الامور ، وقد ذكرنا وذكر غيرنا ممن قرأ تلك النبذة في جريدة اللواء ما كان أشيع هنا بعد ترك الشيخ محمد عبده لمجلس ادارة الازهر من ان بعض المصريين الذين لم يحظ فيما حدث في الازهر كلّفوا أحد مكاتبي الجرائد الانكليزية أن يكتب لجريدته التي يكتبها شيئاً يفيد معنى ما كتب في بعض الجرائد المصرية التي لها هوى في الحادثة من أن جميع علماء الازهر مضادون للشيخ محمد عبده فيما يريد من اصلاح التعليم وزيادة العلوم في الازهر ، ويتضمن شيئاً آخر يفيد سحق الانكليز على الشيخ وأتذكر ان بعض الجرائد الاسبوعية في مصر كتبت شيئاً عن هذه الاشاعة وقالت ان ذلك سيكتب ثم ينقل في بعض الجرائد المصرية اليومية

مالنا ولما أنشيم في سبب الكتابة ولما قيل في مصدرها ؟ انما نحن أمام قول يتضمن خبرين (أحدهما) ان علماء الازهر كارهون ومقاومون لما يريد الشيخ محمد عبده من النظام وتوسيع دائرة العلم في الازهر ، وقد بينا في كلامنا على رسالة « محسن الملك » ان هذا غير صحيح ، وان علماء الازهر برآء مما يرمون به من

الغلو في بغض العلم والنظام ، والجهل بما يعلي شأن الاسلام ، و(ثانيها) ان الشيخ يقول انه لم يخفق فيما حاول من اصلاح الازهر إلا بمقاومة النفوذ الفرنسي والانكليزي له ، لان ترقية المسلمين تناقض مصلحتهما في استعمار بلادهم . ونقول ان هذا النقل عن الشيخ غير صحيح ، وإن كان أكثر المسلمين يعتقد صحة علته المذكورة . ولا يعقل أن يقول الشيخ ذلك لان فرنسا لا نفوذ لها في الازهر ولا في مصر فتقاوم ولان الانكليز لم يقاوموه لما هم عليه من الحرية وعدم التعرض للمصالح الدينية . على ان المصريين الذين لم يقدرُوا حرية الانكليز حق قدرها ولم يعلموا انها تمثلت مع الفضيلة في الورد كرومر في أبهى صورها ، يتعجبون من عدم مقاومة الانكليز لاصلاح الازهر في السنين الماضية ، ويظنون ان لم بدأ في المقاومة الآن . وأما الشيخ محمد عبده فقد سمعناه غير مردي يقول : انما قصد إلى خدمة المسلمين في شيء . واتي مقاومة فيه من غيرهم لامن انكليزي ولا من افريقي ولا من قبلي ولا من شامي . ولا غرو فان جهل المسلمين ونحاذلهم في هذا النمصر كافيان لاجباط كل سعي لترقية شأنهم ، لا يحتاجون إلى مساعد في ذلك ، ومن يسعى بعقل لا يقاومه العقلاء هذه فرنسا التي كان منهاجها في مقاومة تعلم المسلمين في الجزائر أمراً معروفاً قد أنشأت ترجع الى منهج الانكليز في التساهل وقد تكلم الشيخ محمد عبده مع رجالها في تونس والجزائر في مساعدة المسلمين على التعليم فوجد منهم ارتياحاً الى ذلك وقد نشرت جريدة الطان من عهد قريب مقالة في الاحتفال بمدرسة الجمعية الخلدونية ذكرت فيها ان مصدر هذه الحركة العلمية في تونس هو الشيخ محمد عبده وبعض المجلات العلمية المصرية التي تبحث المسلمين على الجمع بين علوم الدنيا والدين وترد فيها رأي الذين يظنون أن تعليم النساء يضر بفرنسا لان هؤلاء المعلمين يكونون دعاة لاستقلال البلاد وقيامهم على المستعمرين لها ، وترجت الازهرام مقالة الطان فسر بها المسلمون هنا . اهـ

والمراد ببعض المجلات العلمية المنارة ، وقد نشرنا فيه مقالا طويلا مترجماً عن جريدة الطان لا محل لبسطه هنا ، ولكننا نقول مع الاسف إن ما أظهره بعض رجال فرنسة للاستاذ الامام في الجزائر من ميلهم الى اعطاء المسلمين ما يجب من حرية العلم والدين لم يصبح فكان إما خداعاً وإما وأياً شخصياً ممن أبداه له هنالك

استطرد

في بيان حال الازهر في عهد الشيخ عبد الرحمن الشريفي

قد ظهر للناس عجز الاستاذ الاكبر، الشيخ عبد الرحمن الشريفي عن إدارة الازهر، فلم يستطع أن يعمل فيه عملاً، ولا أن يحقق لسمو الخديو وقدماء الشيوخ الجامدين أملاً، ولا أن يسير كما أراد الشيخ الظواهري سيراً يكون فيه [بين بين] أو مذبذباً.

وقد خُصت حالته في هذا الطور الاخير في ورقة واحدة جعلتها مقدمة لمقالة النواب محسن الملك قلت فيها بعد خبر تعيين الشيخ الشريفي وما بني عليه مما ذكره الخديو في خطبته مانصه (ج ٩٩ في رمضان سنة ١٣٢٤)

« كان مدار ذلك الكلام على ان كل ما يهم الامير وحكومته من الازهر أن يكون في أمان وهدوء، وبعد عن الشغب والقلق، وأن يظل مدرسة دينية كما كان، وربما كانوا يظنون أن سكون الازهر وراحة أهله ورضاء كبار شيوخه عن الامير وإخلاصهم له هو مما ينتج به جمال الشريفي شيخاً للازهر لانه في مقدمة العلماء الازهريين الذين يرون وجوب بقاء الازهر على حاله التي كان عليها في زمن تعلمهم فيه، ويتوقف هذا على ترك الشيخ محمد عبده له وهو هو الذي يريد تغيير نظام التعليم وزيادة العلوم والفنون فيه، ولكن جاء الامر على نقیض ما كان يظن أولئك الظانون. فاستاء محبو الاصلاح من اهل الازهر ترك الاستاذ الامام لادارته كما استاء عقلاء المسلمين في كل مكان.

« وأما المحافظون على الحالة العتيقة فقد رأيناهم على عهد الشيخ الشريفي أشد استياء من إدارة الازهر منهم على عهد من سبقه. كما أشرنا إلى ذلك في العدد الماضي وكثير في هذا كلام الناس وكتابة الجرائد بالشكوى من حال الازهر والطعن في علمائه حتى ان بعض الافندية كتب في بعض الجرائد اليومية يقول في جهل علماء الازهر وقد الثمة بهم مامعناه : ان الناس لا يقصدون في حل مشكلات الدين والدفاع عنه إلا بعض حملة الطرايش، وفي ذلك هضم لغير الازهريين من حملة العلم كساتذة المدارس الاميرية وغيرهم » اهـ

وكتبنا قبله في آخر الجزء الثامن من المجلد ٩ (شهر شعبان سنة ١٣٢٤) مانصه :
 « كثر الخوض منذ سنة في الازهر ومشيعته ومجلس إدارته ، وكتب في
 الجرائد بعض ما يتحدث الناس به من الخلل في الإدارة ، والمحابة في الامتحان
 وشهادة العالمية ، وبيع الشهادات بالدراهم ، وما بين شيخ الازهر ومفتي الديار
 المصرية من المغاضبة والمناسبة . ومما أشيع ان المفتي شكاً شيخ الجامع إلى رئيس
 النظار وإلى السيد البدوي (!!) وقد بلغنا أن شيخ الجمع ضاق صدره فاستقال ،
 وانه سيقال بعد أن يعين الشيخ محمد شاكر وكيل الازهر تمهيداً لعمله أصيلاً بعد
 استشارة الامير لحكومته في ذلك ، وسنعود إلى ما نراه نافعاً من الكلام عن
 الازهر في الجزء الآتي اهـ

نم كتبنا في آخر الجزء التاسع منه ما نصه :

« ذكرنا في الجزء الماضي ما كان بلغنا من استقالة شيخ الازهر وعزم الامير
 على تعيين الشيخ محمد شاكر وكيل الازهر تمهيداً لعمله أصيلاً ، وقد تحقق ذلك
 ولكن استقالة شيخ الازهر حفظت وحمل على طلب اجازة ثلاثة أشهر ، وعين
 الشيخ محمد شاكر وكيلاً لمشيخة الازهر ، فعظم ذلك على أهل الازهر واستنكره
 كبراء الشيوخ واستكبروا أن يكونوا مرءوسين له على حدائته في السن والعلم .
 وانتهى الامر إلى الحكومة أولاً إلى أولي الامر ، فخطبوا الامير في ذلك ، وتقرر أن
 الشيخ شاكر لا يكون شيخاً للازهر ولا وكيلاً ، وقد سمي الآن نائباً ، وقد زاد
 الشغب والاضطراب في الازهر في أيام نيابته ، على امداد الامير إياه بنفوذه ،
 ويتوقع أن ينتهي هذا التلاعب في الازهر بعمله تحت مراقبة نظارة المعارف إذ
 لا قرار إلا مع السلطة الثابتة المنتظمة ، واملنا نتكلم عن اصلاحه في جزء آخر اهـ
 وأقول الآن : ان هذه الكلمة الاخيرة كانت انذاراً للخدو ، سببه أن بعض
 الناس كانوا يسمون إلى هنا كما سموا من قبل ، ولكن الانكليز لم يرضوا بذلك ،
 وقد بلغنا أن بعض المصريين المتعاقبين لهم قل لمستر دنلوب مستشار المعارف :
 لماذا لا تصاحون لنا الازهر كما أصلحت وزارة المعارف ؟ فقال له المستشار : إن

الازهر بناء متداع للسقوط من طبعه ولا بد من سقوطه ، فاذا وضعنا يدنا فيه قال الناس اننا نحن الذين أسقطناه

ثم كتبنا في آخر الجزء العاشر منه - شوال سنة ١٣٢٤ ما نصه :

ألفت ادارة الازهر ثلاث لجان أو أربعة لامتحان الذين أنموا مدة الدراسة وهم كثيرون جداً . فامتنع كثيرون من كبراء الشيوخ أن يكونوا من أعضائها لان الشيخ شاكر نائب شيخ الازهر هو المؤلف لها والرقيب عليها ، فكان أكثر أعضائها من غير المشهورين ، وفيهم من صاروا مدرسين من عهد قريب ، ولكن هذه اللجان قامت بالامتحان بنظام واهتمام . وقد رأينا الازهريين المنصفين يفضلون نظام هذا الامتحان على ما كان قبله ، ولم نسمع الآن ما كنا نسمع في السنة الماضية (الدراسية) من أخبار المخابة والرشوة . والفضل في ذلك لمراقبة الشيخ شاكر ويقظته ، فله الشكر والثناء الحسن . ولعل ماسمعناه من أخبار التساهل واعطاء الدرجات لافراد لا يستحقونها مبالغ فيه ، ولعل الشيخ شاكر يعنى بتحقيق الحق في ذلك » اهـ

بعد هذا قبل الامير استقالة الشيخ عبد الرحمن الشريبي وولى مكانه الشيخ حسونة للمرة الثانية برضاء حكومته . وعلى يده نفذ مشروع مدرسة القضاء الشرعي . وقد كتبت في الجزء الاول من مجلد المنار العاشر الذي صدر في الحرم سنة ١٣٢٧ المقالة التالية :

ضر من الله وفتح قريب

(الازهر ومدرسة القضاء الشرعي)

قال الاستاذ الامام عليه رضوان الله تعالى « يستحيل بقاء الازهر على حاله فاما أن يصلح واما أن يسقط » وكان أكرم الله مشواه باذلاجل عنايته في اصلاحه حذراً من سقوطه وحرمان المسلمين مما يرجى باصلاحه ، و كان أقدر من عرفنا من الناس على هذا الاصلاح : وسائله ومقاصده ، وأحكمهم في تنفيذه ، الا انه أخطأ

في امر واحد لولاه لم له ما أراد من الاصلاح وهو فوق ما طلب منه . ذلك الامر هو محاولة اصلاحه برضى كبراء شيوخه واستمالهم فيه بالاقناع دون السلطة الا مابداً به من وضع قانون لادارته ، والسمي في اصدار إرادة من الامير به ، بناء على قرار من مجلس النظر لعله أن العمل بدون ذلك متعذر ، ولا محل لشرح ذلك هنا ، بل موضعه الجزء الاول من تاريخه الذي نعتني بطبعه الآن وانما يريد أن نبين انه كان يحاول تنفيذ هذا القانون بدون استعانة بسلطة التنفيذ في البلد بل بمجرد اقتناع شيخ الازهر وأعضاء الادارة

كان الشيخ حسونة النواوي اول من ولي المشيخة واختير للعمل بهذا القانون مع المرحوم وسائر من اختيروا للادارة ، وكل المرحوم هو الذي اختاره وسعى لدى الامير بتعيينه وكيلًا للشيخ الانبائي المرحوم ثم أصيلا . وقد استعان على هذا ببعض صدقاته كالمرحوم امين باشا فكري . ذلك انه كان يعتقد ان الشيخ حسونة أميل الشيوخ وأرجاهم لقبول الاصلاح . علمت ذلك منه اول مقدمي مصر سنة ١٣١٥ اذ قلت له : سمعت من بعض مجاوري الازهر الطرابلسيين ان شيوخ الازهر قد اتمضوا من جعل الشيخ حسونة شيخا للازهر لانهم لا يعدونه من كبار العلماء ، فقال ان كانوا يعنون بذلك انه لا يقدر على ايراد الاحتمالات الكثيرة في مثل عبارة جمع الجوامع ، فهذا صحيح ، ولكن هذه الاحتمالات التي يوردونها ليست من العلم في شيء ، والشيخ حسونة أمثالهم . وقد دلت التجارب على صدق هذا القول — ولا ننسى فضل المرحوم السيد علي البيلوي الذي ظهر من فضله فوق ما كان يظن فيه — فان ماجرى على يد الشيخ حسونة أولا وآخرآ لم يجر على يد غيره مثله

نعم كان الشيخ حسونة رجلي . بعض ما يقترح المرحوم ، عملا بالتدرج عن رأي واعتقاد ، ولكنه لم يكن يقرر الشيء ولا ينفذه كما فعل من جاءوا بعده ماعدا البيلوي ، وقد قلب على الازهر في هذه المدة عدة شيوخ كان أشهرهم في علوم الازهر أهدم عن الاصلاح . فالشيخ سليم البشري من — أشهرهم — لم يجر على يده شيء من الاصلاح بل كان معارضا لكل شيء ، فأرضى أمثاله من المحافظين

على القديم وأغضب طلاب الجديد ، والشيخ عبد الرحمن الشريفي أشهرهم على الإطلاق وهو لم يفعل شيئاً ولم يرض طائفة من الطائفتين

قلت للاستاذ الامام مرة : ان قرار مجلس ادارة الازهر هو كقرار كل مجلس رسمي وكل محكمة يطالب القانون بتنفيذه ويماقب على تركه ، فلماذا لا تطالب بتنفيذ هذه القرارات الكثيرة التي يمتنع شيخ الازهر من تنفيذها بصفة رسمية ، فلو فعلت هذا مرة واحدة لنفذ كل قرار (١) فقال : ان هذا لا يكون إلا بسلطة الحكومة وانني أرجو أن لأدع الحكومة تتدخل في الازهر مادمت فيه فكيف أكون أنا الذي يدعواها الى ذلك ؟ فنحن ندعو الشيوخ بالاقناع معتمدين بالصبر وكان يكره أن يكون « للمعية » أصبح في الازهر كما يكره أن يكون للحكومة يد فيه ، لاعتقاده ان خير الاصلاح في العلم والدين ما كان بعيداً عن السياسة ناشئاً عن اقتناع العلماء به واستقلالهم فيه ، ولكن « المعية » ولعت بالازهر ولوعا كاد يكون عشقا وغراما ، ولما رأيت أن تمتعها بهذا المعشوق لا يتم مع وجود هذا العذول الرقيب ، طفقت تناهضه حتى كان ما كان من أمر استقالته من ادارة لاهر ، وكان ما كان بعده من الخلل في هذا المكان ، حتى أدى ذلك إلى اقامة نائب عن شيخه الشريفي يدير الامر من دونه عدة أشهر ، ثم إلى استقالته واعادة الشيخ حسونه إلى المشيخة ، وعلى يد الشيخ حسونة تم مشروع مدرسة القضاء الشرعي وصدر به الامر العالي فصدق قول المرحوم فيه « انه أمثلهم » في حياته وبعد مماته

بما كان ينويه المرحوم الامام من اصلاح الازهر إنشاء قسم قضائي فيه يرشح فيه الطلاب لمنصب القضاء ، زاده حرصا عليه اقتراح المستر سكوت المستشار القضائي الاول اصلاح المحاكم الشرعية وجواز جعل المتخرجين في مدرسة الحقوق الخديوية قضاة شرعيين . ولم أر الاستاذ مهتافا بمقاومة شيء كاهتمامه في حمل الحكومة على الاغضاء عن جعل متخرجي الحقوق قضاة للشرع ، سعى في ذلك وحاول اقناع كبراء الشيوخ بأن يسموا معه فلم ير منهم مبالاة فكان يتململ ويقول إذا نفذ

(١) هذا السؤال وجوابه هو عين ما كان قاله لي في شأن الشيخ سليم كما تقدم حاولت بعد مدة أن أقنع هذه الشدة فرأيت رأيه لم يتغير

هذا المشروع قضى على الازهر . وقد نجح سعيه فلم ينفذ
وعند ما حاولت الحكومة تعيين قاضيين من محكمة الاستئناف الاهلية للمحكمة
الشرعية العليا بمصر ولم يتم ذلك قوي عزمه وظن أن الفرصة سنحت لانشاء القسم
القضائي وقد فتحنا كوة للبحث في ذلك، إذ أنشأنا مقالة في المنار الذي صدر في ذي الحجة
سنة ١٣١٦ نترح فيه انشاء هذا القسم القضائي ، ولكن حل دون إنشائه عزل
الشيخ حسونة من المشيخة وتولية الشيخ عبد الرحمن القطب في ٢٤ المحرم سنة
١٣١٧ ولم يلبث هذا أن توفي بعد شهر من توليته ، وولي الشيخ سليم البشري
الذي وقف في عهده سير الاصلاح ، وكان من أمر « العمية » من اول عهده إلى
الآن ما أشرنا اليه آنفاً، إلى أن انتهى باستقالة المصلح العظيم من إدارة الازهر، وبهذا
انقطع رجاء الحكومة من إصلاح حال القضاة الشرعيين الذين ضجت منهم الامة
طالبة باسان الجمعية العمومية ، ولسان مجلس الشورى إصلاح المحاكم الشرعية ،
فعمدت اليه بوضع مشروع إنشاء مدرسة قضائية يتولى هو بنفسه أمرها ، وكان
هذا المشروع آخر عمل إصلاحي عمله، إذ تم في أوائل مرض الموت، وما كان يؤمله
من هذا المشروع إلا انفصاله عن الازهر ، وقصارى ما أمكنه من وصله به جملة
تحت نظر مفتي الديار المصرية دائماً ، وكان للحكومة معه وقفة في هذه المسألة
تبارك ناصر المحللين ، أحياء وميتين ، فقد قضت حكيمته عز وجل أن يقوم بتنفيذ
المشروع ويجعله أشد صلة بالازهر سعد باشا زغلول ناظر المعارف لهذا العهد ،
ولا يجهل أحد من المصريين من هو سعد باشا من الاستاذ الامام ، وان يكون
ذلك في عهد مشيخة الشيخ حسونه ، وبعد موافقته عليه وجعله تحت نظره ، وقد علم
القراء اعتقاد المرحوم في الشيخ حسونة وما كان من نيته في أيام مشيخته الأولى . اهـ

ما أخطأه الاستاذ الامام في إدارة الازهر

قلت في أول هذه المقالة انه أخطأ في اعتماده على اقناع علماء الازهر بالاصلاح
وذكرت في أثنائها انه كان يجب عليه التنفيذ بقوة القانون ولو أفضى إلى تدخل
الحكومة . وسأذكر في الفصل التالي رأي خليل باشا حمادة وانه لو قبله لثم له
ما أرادته ولكن صده عن هذا دينه وعما قبله وطنيته

الوسائل الخديوية للانتقام من المفتي

قد توسل سمو الخديو بكل ما يقدر من الوسائل للانتقام من الاستاذ الامام وعزله من منصب الافتاء ومن إدارة الازهر ، وكل منها يتوقف على موافقة مجلس نظار الحكومة ، وموافقة المجلس يتوقف على موافقة مستشار المالية والعميد البريطاني من فوقه ، وكان من أسخف التدبير لاقتناع لورد كرومر بذلك انهم لفقوا صورة شمسية له مع جماعة أو أسرة من الرجال والنساء ونشروها في جريدة الحمار الهزلية مع طعن في المفتي بأنه يجالس نساء الافرنج وذلك بعد إزراء بمنصبه الديني . وقد أرسلوا هذه الصورة الى لورد كرومر مع رجل أراد إقناعه بأن هذا بعد إزراء بمنصبه في عرف المسلمين وينبغي خروجه منه مراعاة لشعورهم ... فتبسم اللورد سخرية من هذه السخافة وقال : ان هذه الصورة لا يثبت لها عندى أصل ولكن الاستاذ يزورنا هنا ويحضر مجلسه لادي كرومر وغيره من عقائنا ، فهل يصح ان نعد هذا إهانة له أو لنا ؟ أم يصح أن نهتم بشعور المتعصبين الجهلاء ونبني عليه عملاً مهماً كهذا ؟

والذي اشتهر أن تلك الصورة ملفقة أخذت عن صورة منفردة المفتي وضعت بجانبها تلك الصور فكان المأخوذ عنهما كأنه مأخوذ عن أصل واحد . وقد نظم الاستاذ ابراهيم بك اللقاني المحامي الشهير والاديب الكبير أبياتاً في ذلك قال فيها :

مكيدة لفقوها بصورة مستعارة

ودبروها وكانوا بقبة الاستشارة

ولطخوا بعد هذا بالطين وجه الحمار

يعني بقبة الاستشارة سراي القبة محل إقامة الخديو . وبتلطبخ وجه الحمار بالطين وهو مثل ما أعقب نشر جريدة الحمار للصورة وطعنوا من محاكمة النيابة لصاحبها والحكم عليه بالسجن

ومن هذه الوسائل مسألة منم الحج اتقاء للوباء فقد ابتكر هذه الوسيلة سموه وعرضها على لورد كرومر مباشرة ، بأن قال له إنه يمكن ذلك بأجازة العلماء

وإفنائهم، وهو يعلم أن الحكومة لا تعمل إلا بفتوى المفتي الرسمي فإن هو أفتى أقام عليه قيامه العلماء والجراند، وأسقط قيمته عند الأمة كلها، وإن لم يفت اسخط الانكليز ذكر اللورد ذلك لرئيس النظار، وهذا أخير به المفتي وسأله عن رأيه فيه ففطن لمراد الخديو فرد مكيدته عليه ووضعها في عنقه بأن قال لرئيس النظار: إنه ليس لذلك إلا طريقة واحدة وهي أن يقول أمير البلاد وولي أمرها الشرعي إنه قد ثبت عنده أن السفر إلى الحجاز في هذه السنة موقع للحجاج في خطر وتهلكة فحينئذ يفتيه العلماء بأن له منعهم من القاء أنفسهم في التهلكة مادامت معلومة ثابتة عنده. قال له الرئيس وهل يكفي ثبوت هذا عند الحكومة؟ قال المفتي: لا بد أن يثبت هذا عند ولي الأمر النائب عن السلطان وتكون مسؤوليته عليه وحده. والاستاذ يعلم أن الخديو لا يقبل حمل هذه المسؤولية ففشلت الدسياسة ويشبه هذه المسألة ما جرى بيني وبين سموه في أثناء انكسار الجيوش البريطانية في حرب الترانسفال، قابلت سموه في قصر القبة وقلت له: إنه خطر في بالي أنه يمكن لأفندينا في هذه الأيام أن يسمى لجلاء جيش الاحتلال عن مصر بأسلوب ودي يمكن أن يرضي الانكليز، وهو أن يقول أفندينا للعميد الانكليزي: إذا كنتم في حاجة إلى إرسال من لديكم من جيش الاحتلال عندنا إلى الترانسفال فيمكنكم ذلك بمقتضى اتفاق معنا ترضونه لتأمين مصالحكم في مصر بدون وجود هذا الجيش، بل إذا شئتم أخذ جيش متطوع من المصريين لمساعدتكم فانا نقبل ذلك... أو ما يستحسنه أفندينا من الأسلوب بعد استشارة من يثق بهم من رجاله لاغتنام هذه الفرصة للاتفاق مع الانكليز الخ

فتهلل وجه سموه، وقال هيه! وما هو رأي الشيخ محمد في هذا؟ قلت له انني لم أذكر هذا له وإنما هو رأي خطر في بالي فأريت أنه يجب علي عرضه على صاحب البلاد. قال طيب. إذهب من هنا إلى عين شمس واذا كره للشيخ ثم ارجع إلي فأخبرني برأيه فيه

فذهبت إلى دار الاستاذ الإمام وقصصت عليه القصة فقال أتدري لماذا

أرسلك إلي ؟ إنما أرسلك لاجل أن يقول للورد كرومر إذا وافقت على هذا الرأيه ان الشيخ محمد عبده يغريني بأن أغنم هذه الفرصة لطرد الجيش الانكليزي من البلاد ... قلت انه ينتظري لاجل له جوابك فإذا أقول له ؟ قال قل له إن هذه مسألة مهمة يجب على أفندينا أن يتفكر فيها كثيراً قبل أن يبرم فيها رأياً ومن تلك الوسائل مسألة صندوق التوفير الذي أرادت الحكومة إنشاءه في مصلحة البريد فسألت المفتي عن وجه شرعي له فقال يمكن اتخاذ طريقة شرعية لانتفاع الفقراء بما تريد الحكومة ان تعطيه إياه في مقابلة توفير نقودهم في صندوق البريد . ولما ذكر ذلك لسموه قل بل أنا الذي أتولى هذا الامر وبيان الطريقة الشرعية مع العلماء ، وطلب جماعة من علماء المذاهب إلى قصر القبة وذكر لهم المسألة وكان يظن أنهم يتفقون على أن ما أشار به المفتي مخالف للشرع ومبيح للربا ، فخاب الظن وكان رأيهم عيز رأي المفتي ، فلما بلغ ذلك الحكومة فطنت لمراد سموه وأما الوسيلة الكبرى فقد كانت الفتوى الترانسفالية المشهورة فهذه هي التي أقاموا لها القيامة ، وقالوا إن المفتي أحل ما حرم الله من كل الموقودة . وأرادوا استفتاء شيخ الاسلام في الآستانة او استفتوه بالفعل ليحتجوا بفتواه على بطلان فتوى مفتي الديار المصرية فلم يفهم . ومنه - ط الكلام على هذه المسألة في المقصد الآتي وهو عمل الاستاذ الامام في منصب الافتاء وفي أثناء ذلك رفعت تقارير إلى السلطان عبد الحميد بالظمن في مفتي مصر ورميه بعداوة الخليفة والسعي لخلعه ، وقابل ذلك آخرون بتقارير في الظمن في سمو الخديو وإثبات انه هو القائم بما يتهم به المفتي بل هو يطمع في منصب الخلافة والمفتي هو الذي يعارضه وحده . ومن أدلة ذلك أنهم لقبوه في مجلس شورى القوانين بصاحب الجلالة فاعترض المفتي الشيخ محمد عبده على ذلك وأمر كاتب المجلس بشطب لقب صاحب الجلالة ووضع لقب الجنب العالي في موضعه ، وقد اشتهر ذلك ونشر في الجرائد . وكذلك فعل أحد الخطباء في خطبة الجمعة على مسمع من سموه ولم يعترض على ذلك إلا المفتي وقد اطلعنا على تقرير رفعه الى المايين سمادة يوسف باشا طلعت صاحب جريدة الراوي نذكر هنا اهم مواده الخاصة بهذه الدسائس وما في معناها وهي :

مواد التقرير الذي رفعه إلى المايين الهمايوني

صاحب السعادة يوسف طلعت باشا صاحب جريدة الراوي اليومية

(البند الأول) ان الخديو يحاول أن يجعل الازهر آلة سياسية دينية يهدد بها مولانا السلطان وغيره لقضاء مآربه وهو متمكن من التأثير على مشايخه البسطاء ونسكن وجود المفتي في الازهر يحول دون غرضه فانه رجل قوي المزيمة ويعتقد أن استعمال رجال الدين في السياسة يضر بالاسلام والمسلمين ، ويعتقد أن المحتلين يتدخلون في كل شيء يتداخل الخديو فيه ، فيخاف أن تمتد أيديهم إلى الازهر فهو يقاوم ذلك وله حزب في الازهر يؤيده حتى ان شيخ الازهر الحالي على رأيه

(البند الثاني) ان الخديو يستعين على استمالة المشايخ والتأثير عليهم بالالاقواف العمومية والخصوصية . والمتمني يعاكسه في ذلك بما له من النفوذ في مجالس الاوقاف الاعلى . وطريق الاستمالة هو أن ماهيات المدرسين والخطباء كلها من الاوقاف ، هذا فضلا عن المطايا الخصوصية السرية ، ويدل على هذا البند وما قبله البنود الآتية

(البند الثالث) وضع المفتي مشروعاً في الاوقاف يسدي مشروع المساجد اقترح فيه أن يكون جميع الخطباء من المدرسين في الازهر ، وأن تكون ماهياتهم معينة مقررّة ، وكذلك رواتب المدرسين والوعاظ لكي يقوموا باداء وظائفهم على الوجه النافع ، ولا يكون لاحد سلطة عليهم ولا تأثير لئلا يفريهم بشي سياسي كما أغرى بعضهم بترك اسم السلطان في الخطبة غير مرة . وقد رضي الخديو من مشروع المفتي أن يكون الخطباء من المدرسين ، ولكنه عارض أشد المعارضة في أن تكون ماهيات الخطباء والمدرسين مقررّة لتكون في يده دائماً

(البند الرابع) لما كانت الخاصة الخديوية عقدت اتفاقاً مع الخواجه يدساكي الرومي وشركاه لاستخراج معادن طشيز ومنعت الدولة العملية الشركة من ذلك عاد يدساكي إلى مصر وأراد دفع قضية على الخاصة الخديوية يطالبها فيه بالتعويض المالي فأمر الخديو فيضي باشا مدير الاوقاف العمومية يومئذ بصرف سبعة عشر ألف

جنيه إلى يساكي حتى لا يرفع القضية فدفعها المدير بدون استشارة المجلس الاعلى فعارض المفتي في ذلك واحتج عليه ، وأخيراً قرر عدم المسئولية على فيضي باشا لانه مأمور من الناظر الحقيقي على الاوقاف وهو الخديو ، وعلى ان هذا هو المسئول وحده .

(البند الخامس) لما أرسل الخديو المهندسين الى طشيز لفتح الطرق للجبال والغابات أمر لهم بستائة جنيه من الاوقاف فصرفت بدون اذن المجلس الاعلى فاحتج المفتي على ذلك كالذي قبله . وكان هذا وذلك سببا في فصل الاوقاف الخصوصية عن الاوقاف العمومية . وإبراد هذه الاوقاف بزيد على خمسة وثلاثين ألف جنيه في السنة يصرف عليها منها نحو سبعة آلاف جنيه ويستعين بالباقي على مقاصده وهذا ماعدا وقف خليل أغا المظيم الايراد الذي ضمه أخيراً

(البند السادس) انه أراد من مدة قريبة أن يربح من الاوقاف العمومية مبلغا عظيما فاتفق مع الخواجه زرفوداكي الرومي على أن يكون هذا واسطة استبدال أبنية للخديو اسمها مشتهر تبلغ نحو ١٢٤٧ فدانا بارض للاوقاف في الجزيرة تبلغ ١١٢ فدانا ونصف قرر المجلس الاعلى بان تباع للمباني وذلك بان يعرض زرفوداكي أرض مشتهر على ديوان الاوقاف بسعر ١٣٠ جنيتها في الفدان وأن يحسب سعر الفدان من أرض الاوقاف بمبلغ ١٢٥٠ جنيتها ثمن الفدان ليكون ربح الخديو من ذلك ثلاثين ألف جنيه ، وكلم في ذلك أعضاء المجلس الاعلى واستمال كثيراً منهم . ولما عرضت المسألة على المجلس عارض فيها المفتي ووافقته حسن باشا عاصم رئيس الديوان الخديوي فاضطر الباقون لموافقتها لان الحق معهما ، وكانت النتيجة أن ديوان الاوقاف لم يكتف بالتخاص من دفع الثلاثين ألف جنيه إلى زرفوداكي بل أخذ منه عشرين ألف جنيه وبذلك يرى الخديو أنه خسر في هذه الصفقة خمسين ألف جنيه

(البند السابع) لما رأى الخديو أن المفتي هو العقبة في طريق اتخاذ الازهر والخطباء آلة سياسية أراد أن يزيله من الازهر ، فرأى النظار والمختارين لا يرضون بذلك ، فأراد أن يستعين عليه بشيخ الازهر وبعض أعضاء إدارة الازهر فرأى

أن نفوذ المفتي هو الغالب وان شيخ الازهر وأعضاء الادارة لا يمكنهم معا كسة المفتي . ومن ذلك انه أرسل الشيخ توفيق البكري إلى شيخ الازهر يبلغه أمره بأن يوجه كسوة تشريفة من الدرجة الاولى كانت منحلة الى الشيخ محمد راشد امام الميية وكان مجلس إداره الازهر قرر توجيه الكسوة الى شيخ آخر قيل للخديو انه من حزب المفتي ولذلك أراد منعها عنه ولكن المفتي لم يقبل الا بتنفيذ قرار المجلس وواقفه الشيخ والاعضاء ولم يعمل بامر الخديو

(البند الثامن) رأى الخديو أن يعزل ثلاثة من أعضاء مجلس إدارة الازهر ويضع بدلهم ثلاثة له امل في موافقتهم له على كل ما يريد منهم امام معيته ، فاعز الى شيخ الازهر بأن يعزلهم فلم يقبل فأرسل اليهم الشيخ توفيق البكري يرغبهم في الاستعفاء ، فقال لهم المفتي : ان البكري لا ثقة به ولا يعمل بتبليغه والالزام ممنوع فاذا قال لكم الخديو بصفة رسمية استعفوا فلا بأس ، وعند ذلك يكون لكم عذر عند الحكومة إذا سألتكم عن سبب الاستعفاء ، فلم يقبل احد منهم أن يستعفي . وقد باع عضو آخر بان الخديو يريد مقابلته « لاجل إقاعه بالاستعفاء » فقال لا أذهب إلا بطلب رسمي . ومعلوم ان الخديو لا يمكنه أن يعمل عملاً رسمياً هناك وانما يريد ان يكون ذلك خفية ويرى أن المانع الوحيد هو المفتي

(البند التاسع) ان الخديو تمكن من إقناع احد الاعضاء بالاستعفاء وذلك بان وعده بزيادة ماهية له في جامع غير الازهر جنبيين ونصفا في الشهر فاستعفى . ولكن الخديو لم يقدر أن يمين بدله أحد الذين يثق بهم وبظن أن المحتلين هم الذين حالوا دون ذلك لانهم يعرفون جميع مساعيه وبما كسونه فيها وهو الذي يساءلهم على نفسه فانه لا يكتم شيئاً فاذا عزم على شيء يبوح به لجميع من يجتمع به اولئك كثيرين منهم وان كان يعتقد بعدم إخلاصهم وإذا قال له الورد كرومر : لا تفعل فانه لا يفعل

(البند العاشر) ان الخديو بعد أن رأى نفسه عاجزاً عن عزل المفتي الذي يعارض مساعيه في الازهر والاوقاف شرع في ما كسبه بأمرين : أحدهما الاستعانة بمولانا الخليفة الاعظم على عزله بحجة انه أفتى بما يخالف الشرع . وثانيهما : إنشاء جريدة اسمها (الظاهر) لاجل إسقاط نفوذه الديني وإضعاف حزبه المؤلف

من طائفة من العلماء ومن أكثر رجال الحكومة والمدارس (البند الحادي عشر) أن الخديو يظن أنه إذا أمكن غش شيخ الإسلام في دار الخلافة العالية وأخذت منه فتوى ضد المفتي فنها لا تاتي معارضة ، ولكن الأرجح عندنا أنها تلقى أشد المعارضة من المختلين نظراً لسياستهم المعلومة ومن الحكومة لأنها تؤيد المفتي . ومن أكثر العلماء وأهل الفهم في مصر لأنهم مقتنعون بصحة الفتوى ، وقد زادتهم الجرائد تحزبا للمفتي . وقد تحقق أن اللورد كرومر قال للخديو : إن كان تحريك بعض الشايخ ضد المفتي لاجل فصله من الافتاء فاسمح لي بأن أقول أنا مادام ابريطانيا المعظمى نفوذ في مصر فإن الشيخ محمداً عبده يكون هو المفتي حتى يموت . واننا نعلم الآن أنه لا يوجد في مصر حزب ضد مقام الخلافة ويخشى أن يوجد ذلك إذا فرضنا مداخله سباحة شيخ الإسلام في هذا الامر لاسيما إذا لم يعمل بقوله كما هو الأرجح عندنا

(البند الثاني عشر) ان جريدة الظاهر التي سلطتها المعنية على تخطئة فتوى المفتي جريدة غير منتشرة ، وقد قامت ضدها أكثر الجرائد اليومية والاسبوعية ولم تقتصر لها جريدة الا اللواء كتب فيها جملة مختصرة وجريدة اسبوعية أخرى من الجرائد التي تسمى الساقطة تطبع في مطبعتها ، وان أكثر الجرائد التي ردت على جريدة الظاهر لم تذكر اسمها لئلا تشتهر . وان صاحب هذه الجريدة جاهل بالشرع ، ومن الذين يقضون معظم أوقاتهم في شرب الخمر جهارا ولعب القمار فليس اسكلامه في الدين أدنى تأثير . وان الحكومة قد سلبت هذه الجريدة الامتياز فاعتبرتها من الجرائد الساقطة وكان يكتب على كل عدد منها « قررت عموم المحاكم الاهلية جريدة الظاهر رسميا لنشر الاعلانات » فصدر الامر بعدم كتابة هذه العبارة فسقطت بذلك قيمتها بالارة وقد ردها كثير من الذين كانوا قبلوها

(البند الثالث عشر) أن الخديو كان قد اتخذ عدة وسائل قبل الطعن بالفتاوى التي اعترضت عليها جريدة الظاهر لايجاد نفوذ ديني في مصر ولاسقاط المفتي ولم ينجح في شيء منها لوقوف الحكومة على أنها مدبرة من قبله . أهمها

مسألة الحج فان الحكومة في العام الماضي لم تكن تفكر في منع الحج حتى قابل سموه اللورد كرومر وقال له انه يمكنه أن يتخذ طريقة لمنع المصريين من الحج بعد مشاورة العلماء فباع اللورد النظر ذلك فسأل هؤلاء المفتي فقال لا طريق لذلك إلا أن يستفتى الخديو بصفته أميراً للبلاد ، ويقول انه قد تحقق عنده بأن الحجاج المصريين اذا ذهبوا إلى الحجاز يكونون على خطر وانه يريد تأخير الحج إلى أن يزول هذا الخطر المحقق عنده هو . فاذا استفتي على هذه الصورة فان المفتي والعلماء يقتونه بالجواز والمسئولية عليه . فقال النظار واذا طلبت الحكومة هذه الفتوى بهذه الصورة فيماذا تجاب ؟ قال المفتي إن العلماء لا يعرفون في مثل هذا الامر إلا الامير نائب السلطان على البلاد . وبعد ذلك علم الخديو بجواب المفتي للحكومة فغضب غضباً شديداً ثم انتهى الامر باجتماع مجلس النظار تحت رياسته وأقر على الضرورية التي ضربت على الحجاج في العام الماضي ، وخففت في هذا العام ، وكان الخديو أراد أن يكتب في المؤيد ان الحكومة كانت تريد منع الحج وأن الخديو حامي دين هو الذي عارضها في ذلك ولكن الذي منع من ذلك هو العلم بان الحكومة كانت عازمة على تكذيبهم في الجريدة الرسمية وبيان الحقيقة (البند الرابع عشر) أن من جملة وسائله للظهور عند العامة بمظهر المحامي عن الدين مسألة صندوق التوفير في البوستان ، فهذا الصندوق جماعته الحكومة لحفظ ما يوفره الفقراء مما يزيد من إيرادهم على مصاريفهم ومصلحة البوستان تستغل هذه الدراهم التي تحفظ فيها . وقد تبين لها أن نحو ثلاثة آلاف فقير لم يقبلوا أن يأخذوا ما تقرر في الديكرتو الخديوي من الربح ، فسألت الحكومة المفتي هل توجد طريقة شرعية ؟ فأجاب شفاهاً بإمكان ذلك بتطبيق استقلال النقود المودعة في الصندوق على أحكام شركة المضاربة . ثم ذكر رئيس النظار الخديو بتحرير الديكرتو الخديوي وتطبيق المرسوم على الشرع فأظهر سموه الارتياح ولما قال له رئيس النظار : إننا استشرنا المفتي غضب غضباً شديداً وقال كيف يبيع المفتي الربا ؟ لا بد أن استشير غيره من العلماء ، ثم جمع جمعية من مشايخ الازهر في سراي القبة وكافهم بان يضمنوا له طريقة شرعية لصندوق التوفير ليظهر أمام العامة

بأنه هو المحامي عن الدين والمطبق له على الشريعة ، وأن الحكومة كانت عازمة على إلزام المسلمين بأكل الربا والمفتي مساعد لها ، ولكنه لم يتمكن من ذلك فإن المشروع الذي وضعه العلماء قدمته المعية لنظارة المالية فعرضته نظارة المالية على المفتي لتأخذ رأيه وتعمل به فوجده المفتي هو عين الرأي الذي كان قاله شفاها (البند الخامس عشر) جاء رجل من الترنسفال وسأل المفتي عن ثلاث مسائل : عن جماعة يلبسون البرنيطة لقضاء مصالحهم عند النصارى ، وعن أكل الذبائح التي يذبحها النصارى هناك مع العلم بأنهم يضربون البقر قبل ذبحه بالبلطة ثم يذبحونه بغير تسمية كما يظن فيهم وفي أمثالهم ، وعن صلاة الشافعية خلف الحنفية فأفاد المفتي بأن لبس البرنيطة لا يكون كفراً إلا إذا قصد لا بسها بلبسها الخروج من الاسلام والدخول في غيره ، ولا يكون مكروهاً إلا بقصد التشبه بالكافر ، ويجوز أكل ذبيحة أهل الكتاب ، وصلاة الشافعي خلف الحنفي لأن الجميع مسلمون . فعلم الخديو بذلك وظن أن الفتوى مخالفة للشرع أو للمذهب فأوعز إلى جريدة الظاهر واستكتب بعض المشايخ عريضة فيما قل ذكرها فيها الاسئلة والاجوبة على غير وجهها فيما يقال أيضاً ، وكان يظن أن مجرد ظهور الفتوى كاف في اسقاط نفوذ المفتي الديني أو التوصل الى عزله فظهر له خلاف ذلك

(البند السادس عشر) ان النتيجة من كل ما تقدم أن سمو الخديو بريدان يجعل لنفسه سلطة دينية آلتها الازهر وماليتها الاوقاف وقد حدث بهذا كثيرين وقال ان أوربا تهاب البابا والسلطان لاجل السلطة الدينية وهذه سهلة علينا، وأنه مادام الشيخ محمد عبده مفتياً للديار المصرية وعضواً في الازهر وفي مجلس الاوقاف الاعلى وفي شورى القوانين ، فإن يتم له في ذلك عمل إلا العمل الرسمي القانوني الظاهر لكل أحد . وان الشيخ توفيق البكري الذي حسن له هذا الرأي لا نفوذ له في هذه البلاد (١) ، وقد ساءت الناس قصيدته التي كان زين للخديو فيها دعوى الخلافة ورضي عليه هو وحده بسببها واتخذها الآن ساعياً فيها بينه وبين مشايخ الازهر ولكن بدون ذكر لفظ « الخلافة » (٢)

فالمفتي هو العقبة في طريق هذه السلطة وحزبه كبير جداً اه المراد من هذا التقرير

خلاصة الخلاصة

في اصراع الازهر

ان الاصلاح الذي كان ينشده الاستاذ الامام في الازهر قسمان : صوري ومعنوى ، فاما الصوري فهو (١) النظام الذي يقضي على ما كان فيه من الفوضى في التعليم والحياة البدنية والاجتماعية ، و(٢) توسيع دائرة العلوم والمعارف ، و(٣) ترقية اللغة العربية . وأما المعنوى فهو (١) اصلاح العقل بالاستقلال في العلم والفهم و(٢) صحة القصد فيه بما يقضي إلى ارتقاء الامة في دينها ودنياها ، و(٣) اصلاح الاخلاق بالصدق والاخلاص وعزة النفس والسخا والوفاء الخ

فاما الاول فقد شرحنا مافاساه في وضع قوانينه وتنفيذ نظمه مع اعداء النظام ، ولكن النظام وجد ولا يزال يصارع ماتربي عليه القوم من الفوضى والخلل في كل شيء ، ولا بد أن ينتهي الامر بانتصاره ولو بعد حين

وأما الثاني فعمدته فيه ما كان يبش به في دروسه التي تفيض روحا محييا ، وتتألق نوراً ساطعاً ، وقد قال فيه مائة مرة : اني بذرت في الازهر بذراً إما أن ينبت ويشمر ويؤتي أكله المغذي للعقل والروح فيحييا به الازهر حياة جديدة ، وإما أن يقضي الله على هذا السكان قضاءه الاخير ، وقد نبت ذلك البرق فصار زرعاً أخرج شطأه واكن قل من يتعاهده بالسقي ومنع الحشرات الضارة ليستوي على سوقه ويؤتي أكله وقد أشرت إلى هذا فيما زدت به بعد موته في (المقصورة الرشيدية) فقلت بعد وصفه ، وما قام به من الاصلاح مع السيد جمال الدين ومن بعده ، مقاباً فيها الرجاء في الازهر على اليأس :

ماتم للامام ماأراد من خطتي الاصلاح هدماً وبناء
ولم يفته كل ماشاء فقد خرج من يتم كل مابنى
إذا استجاب الله ما به دعا وزال ما حاذره بما رجا (١)

(١) اشارة الى الايات التي قالها قبيل وفاته

وعلم الازهر كيف يفقه ال	دين ويطلب العلوم واللقى
من غير بحث في مقال من خلوا	يكتر فيه الاحتمال والمرا
علمه التوحيد كي يفقهه	بعقله لا بعقول من مضى
علمه التفسير كما يهتدي	به على علم صحيح يقتنى
وعلم (أسرار البلاغة) التي	(دلائل الاعجاز) منها تبتنقى
علم (بصائر المنطق) كي	يقم ميزان العلوم للحجى
وهل وراء الدين واللسان وال	مقل إذا أصلحت منتهى
فان يك الازهر لم يصلح بها	فقد نأى عن سبل من كان مأى (١)
ونبتت من غرسه نابتة	ستلأم الصدع وترأب الثأى (٢)
وترفع الحجر عن المعبد او	يعود جحر الضب رحبا كالفضا (٣)
حتى ينال وهو قد أشفى الشفا	من مرض بات به على شفا
ثم يولي المسلمون شطره	ينحونه من كل فج ورجا
ماوردوا حياضه وصدروا	إلا يفيضون علوما وهدى
فأحيوا الاسلام في أنفس من	واصلهم بهجره صرف الردى
فعاد أهلا إلى موطنه	من غربة طال بها عهد النوى
واستقبت غربته المجد كما	كان فعاد الامر مثلا بدا (٤)

(١) مأى بالغ وتعق، والمعنى أنه قد نأى وهد عن طرق أولئك الشيوخ المتعطين في التعق بالمناقشات اللفظية في عبارات الكتب (٢) لأم النبي أصلحه والصدع جمعه وشده فالنأم وزال، وفي معناه رأيه وأصلحه، والثأى الفساد (٣) إشارة إلى حديث « لتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال «فن؟» والمعنى أن تلاميذه ومريديه سيقفون الحجر عن العقول فيفهموا العلم والدين إلى أن يخرجوا أهله والمسلمين من الضيق الذي يشبه جحر الضب (٤) إشارة إلى حديث « بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ » وفي رواية بمعناه مع زيادة « فطوبى للأغربة الذين يحبون ما أمات الناس من سنتي » وبأحيائها تتمر هذه الغربة المجد، كالغربة الأولى



دار الفضيحة

للمنشر والتوزيع والتصدير

الإدارة : القاهرة - ٢٣ شارع محمد يوسف القاضي - كلية البنات
مصر الجديدة ت وفاكس ٤١٨٩٦٦٥ رقم بريدي ١١٣٤١ هليوبوليس
المكتبة : ٧ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة ت ٣٩٠٩٢٣١
الإمارات : دبي - ديرة . مرب ١٥٧٦٥ ت ٢٦٩٤٩٦٨ فاكس ٢٦٢١٢٧٦

تَارِيخُ الْأُسْتَاذِ الْإِمَامِ

الشيخ محمد عبد الله

(١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م)

الجزء الأول

القسم الثاني

وفيه تفصيل سيرته وخلاصة سيرة موقظ الشرق وحكيم الإسلام

السيد جمال الدين الأفغاني

(١٢٥٤ - ١٣١٥ هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م)

جامعة

السيد محمد رشيد رضا

مُنشئ مجلة المنار

(١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ = ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م)

الطبعة الثانية لدار الفضيلة

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

علاقة الامام بالامير

رأينا من المناسب في هذا المقام أن نعقد فصلاً خاصاً نبين فيه ما كان من علاقة الاستاذ الامام (رح) بسمو أمير البلاد يكون فاصلاً بين عمله في الازهر وعمله في منصب الافتاء ، فنقول :

توفي المرحوم محمد توفيق خديو مصر في ٦ صفر سنة ١٣٠٩ (الموافق ١١ سبتمبر سنة ١٨٩١ م) وكان ولي عهده عباس حلمي في النمسة يتعلم في المدرسة التي يتعلم فيها أولاد الملوك والامراء في النمسة ، فصدر الفرمان السلطاني بتقليده منصب الخديوية لانه اكبر أنجاله ، فعاد الى مصر وتولى أريكتها وهو ابن ثمانى عشرة سنة قرية و ١٧ شمسية فننفخ في البلاد روحاً جديداً من الوطنية والشجاعة المعنوية ، جرأت الامة على مناهضة الاحتلال ، وقوت الآمال بالاستقلال ، فجذب اليه الرجال المحلصين الجامعين بين العلم بحال العصر وسياسته ونظامه ، وبين الاخلاق العالية ، كقوة الارادة والثبات والايثار والتفاني في سبيل المصلحة العامة ، وكان في مقدمتهم الشيخ محمد عبده من علماء الدين والدنيا ، وحسن عاصم وحزبهما من رجال القضاء والادارة في هذا العهد نال الاستاذ الامام الخطوة عند الامير الشاب المتحمس وأقنعه بما تقدم بيانه في أول هذا المقصد من فوائد اصلاح الازهر والمحكم الشرعية والاوراق (ص ٤٢٧) فعهد اليه بالنهوض بالاول ، وأمدّه بالنفوذ وبالمال من خزانة الاوقاف العامة كما شرحناه فيه

ولكن لم يلبث الامير الشاب أن حوم حواه أولو التملق والتناق من رواد المنافع الشخصية الذين يتزلفون الى الملوك والامراء ، بما يلذ لهم من الاطراء والتذلل والاستخذاء ، فصادفوا منه اذناً صاغية ، ونفساً واعية ، فكانوا كباقربوا منه ، يجتهدون في إبعاد أولئك المحلصين عنه ، وفاقا لسنة الله في تنافي الاضداد ، وهو عين ما وقع لو لدنه من قبله ، اذ ولي الاريكة وهو متشبع بآراء السيد جمال الدين الاصلاحية . وعازم على النهوض بالبلاد إلى ذروة الحكومة النيابية ، وبهذه النية

عاد رياض باشا من اورية الى مصر وألقى اليه مقاليد الوزارة ، وأسلس له قياد التصرف في الاصلاح ، فضى فيه بعزيمة ثابتة ، حتى أيقن الاوربيون أن مصر ستدرك مقام الدول الراقية ، ولكن لم يلبث أن ألقى سممه الى المتزلفين من عباد المنافع الشخصية فغير واقلبه عليه ، وورطوه فيما أفضى به الى إضاعة استقلال البلاد ، كما شرح ذلك الاستاذ الامام في أسباب الفتنة العرابية^(١)

كان من أولئك المتزلفين بعض شيوخ الازهر الذين اتصلوا بالخديو الشاب فاغتر بشهرتهم وسمتهم وشكلهم ، وخضوعهم وخشوعهم وخنوعهم ، فشككوه أولاً فيما كان أقمعه به الشيخ محمد عبده من فساد التعليم في الازهر وفساد الاخلاق في رجال العلم والدين ، والحاجة الى تجديد التربية والتعليم فيه ، شككوه حتى شك أو كاد ، ثم اقتنع بأن الشيخ مبالغ في وصف سوء حاله ، ولكنه لم يشك في حسن نية مما قام به ودعا اليه من النظام الاداري والصحي والبيداجوجي لانه يفهم هذا أكثر من جميع علماء الازهر

وانني أنقل عن سموه كئنين سمعتهما منه بأذني ولا بد أن يكونا على ذكر منه ، فانه قوي الذاكرة قلما ينسى شيئاً مر به ، قال لي في سنة ١٣١٩ وأنا مائل بحضرته في قصر القبة مامعناه : ان الشيخ محمد عبده يقول لي ان علماء الازهر ليس لهم عناية بأمور المسلمين العامة ، وما يصلحها من نظام التعليم والتربية ، وانما جل عنايتهم محصور في أمر معيشتهم ومصالحهم الشخصية ، اي الجارية والراتب وكسوة التشريفية ، وهل يعقل يا شيخ رشيد أن يكون هؤلاء الأئمة المحترمون كما يقول ؟ وقد أخبرني الامام في ذلك العهد انه انما قال له هذا لعلامه بان شكواهم من الادارة والنظام في الازهر ليس لاجل المصلحة وان سموه إذا صرح لهم بأنه راض عن ذلك ويحب مساعدتهم عليه فان الشكوى تنقطع في الحال ، ويجري الاصلاح بسهولة جريان الماء الزلال . قال ولكنه هو يلتذ بالشكوى له فهو يغريهم بها من جهة ، ويساعدنا على الاصلاح من الجهة الاخرى

ثم قل لي سموه في أول مقابلة مثلت بها بين يديه في قصر القبة سنة ١٣٢٩ بعد غضبه

عليّ مدة تسع سنين بالتبع لتصبه على الشيخ رحمه الله : تعال يا شيخ رشيد تعال .
الله يرحم الذي كنت تعمل معه أينما ذهب . انه قد ثبت عندي أنك تعمل لخدمة
الاسلام لانفسك وانه ليس لك مصلحة شخصية ، أنك لم تطلب مني شيئاً لانفسك
قط . واني قد جربت هؤلاء العلماء ١٨ سنة (١) وكنت أحسن الظن بهم ، ولكنني لم أر
أحداً منهم يهتم إلا بالجرارية والجنيه أو كسوة التشريف . فمئذ ما قال كلمته الاخيرة
خطرت بيالي كلمة سموه الاولى التي أنكر بها على الاستاذ الامام ما هو نص كلمته الثانية التي
ثبتت له من التجارب الطويلة بضع عشرة سنة ، ولكنني لم أذكره بها لثلاث أغضبه ،
وهو انما طلبني لاجل أن يقنعني بعدم العودة إلى الآستانة لانشاء (مدرسة
الدعوة والارشاد) وبأن انشاءها في مصر خير وأنفع ، وانه مستعد لمساعدتي عليها .
وقد فعل ، ولم يكن يكره أن يكون هذا العمل العظيم في الآستانة بل قال لي ان
وجود هذه المدرسة وجمعيتها في مصر سيقنع الدولة بانشاء مثلها في الآستانة
ويمكن حينئذ توحيد المشروع هنا وهناك ...

هذا واني لا مندوحة لي عن اعطاء هذا التاريخ حقه من بيان الحقائق في هذا
الموضوع العظيم الشأن ، وهو التصريح بان سمو الخديو عباس قد عرض له بعد
الطور الاول من إمارته الذي نفخ روح الحياة الاستقلالية في بلاده أمر آخر ظن
أنه يكون أعظم عون له على سياسته التي تغافل فيها فكان أعظم أسباب فشله
وهو الاستكثار من المال ، فعني بهذا الامر حتى كان شغله الشاغل الذي
صغر أمامه كل شيء . وكان ديوان الاوقاف امامة رهن تصرفه فأراد اللورد كرومر
أن يحول بينه وبين ما شاء من تلك الاموال الكثيرة ، فسمى لافشاء المجلس
الاعلى للديوان الذي لا يجوز التصرف بشيء ذي بال من أمواله إلا بقرار منه
ولما ولي الاستاذ الامام منصب افتاء الديار المصرية صار بمقتضاه عضواً في مجلس
الاوقاف الاعلى . وكان بتأثير تدينه وورعه معارضا لما يراه غير حق مما يريد
الخديو من الاوقاف . فكان هذا أعظم أسباب سخطه عليه ومعارضته فيما يريد

(١) او قال كلمة بمعنى انه لعبهم هذه المدة

من إصلاح الازهر، بل هو السبب الاصيل الذي وطأ السبيل لتيره من أسباب الاستياء التي كان يستغلها الدساسون .

ومن الأدلة على ذلك أن أعلم الناس بحال الخديو كانوا يقولون للشيخ رحمه الله : أترك له الاوقاف ولا تعارضه فيها ونحن نضمن لك أن يطلق يدك في إصلاح الازهر ويساعدك عليه بكل ما يستطيع . ومن هؤلاء الناصحين العارفين أو أمثام خليل باشا حماده الشهير الذي تولى إدارة الاوقاف العامة في مصر . ثم وزارة الاوقاف في الآستانة

خرجت معه ليلة من الازهر بعد العشاء كمادتنا في ليالي دروسه، فقال لي ان حماده باشا عندنا فاذهب بنا إلى عين شمس نتعشى معه ونحدث ، فذهبنا ، فكان جل حديث الباشا معه فيما جاء من الاسكندرية لاجله وهو اقناعه بترك الخديو يتصرف في الاوقاف كما يشاء لاجل أن يتركه يتصرف في إصلاح الازهر كما يشاء ، وكان يقول له على المائدة مراراً « ياسيدي الاستاذ أبوس إيدك ، والله ان اطلاق الحرية لك في إصلاح الازهر خير لك والاسلام والمسلمين في الدنيا والآخرة من كل ما توفره من مال الاوقاف لديوانها .. » قال الاستاذ الامام عفا الله عنه : أنا أعلم هذا واسكن وجداني ومراقبتي لله تعالى لا يمكنني من إقرار ما لا يبيحه الشرع . والباطل لا يكون وسيلة إلى الحق

(أقول) وهذا ما كان يعد ضعفا في سياسة الامام رحمه الله تعالى ، فالصالح العامة تبنى على قاعدة ارتكاب أخف الضررين ، وتقديم أرجح المصلحتين ، ويتفق هذا مع مذهب الامام مالك رحمه الله الذي نشأ الاستاذ عليه .

هذا هو السبب الأول وعلة العمل لتحول قلب الخديو عن هذا الرجل المصلح الذي كان يجب أن يجعله عمدته فيما يصلح شعبه وبلاده ولما تنكر قلبه تجددت عنده أسباب أخرى للكره تنحصر في ثلاثة

(الاول) ما كان يراه من عزة نفسه ، على ضد ما يراه من كبار علماء البلاد من الذلة له ، بل لم يكن يرى من أحد من الامراء ولا من الوزراء ، ما يراه منه من الشعم والاباء ، وقد كانت آداب الشيخ معه تحجب عنه كبر نفسه في طور

رضائه عنه ، فلما سخط عليه صار يراها بمنظار ذي عدسية زرقاء مكبرة ، حتى صار يقول : انه يدخل علي كأنه فرعون . ولما باغ الشيخ هذا القول من صديقه حسن باشا عاصم رئيس الديوان الخديوي قال : انه يجزيه ، أهو فرعون أم أنا ؟ انني لست إلا رجلا من رعيتيه

وكذلك أثر سخط الامير عليه في قلبه ، ومقاومته إياه في عمله ، بما نقص من آدابه معه في مجلسه ، بالتبع لنقص قيمته في نفسه ، وكثرة انكاره عليه في سيرته ، حتى كان يتمثل بقول المتنبي في كافور :

أَمِينًا وَإِخْلَافًا وَغَدْرًا وَخَسَةً وَجَبِينَا . أشخصا لحُتلي لأم مخازيا ؟

وربما استبدل كلمة لؤما بكلمة جينا وأذكر هنا حادثة واحدة مما صدمه به في مجلسه : انحلت كسوة من الدرجة الاولى من كسى التشريف بموت أحد كبار العلماء فأرسل الخديو إلى شيخ الأزهر من يبلغه أمر سموه الشفوي بتوجيه هذه الكسوة إلى الشيخ محمد راشد الامام الخاص لسموه كما تقدم (وسيعاد) فلم ينفذ أمره ، فاستاء أشد الاستياء . فلما اجتمع عنده علماء الأزهر في مقابلة التشريفات الشهيرة قال سموه لشيخ الأزهر بصوت الاستياء واستهزام الانكار : ألم أمرك بتوجيه كسوة فلان إلى فلان ؟ فتلعثم الشيخ في الاعتذار ، فقال الشيخ محمد عبده بصوت جمهوري جريء : إن الذي قرره مجلس إدارة الأزهر هو التنفيذ لأمر أفندينا ، لأنه مقتضى نص عليه القانون المتوج باسم سموه . وأما الأوامر الشفوية فلا نعرفها ، فإذا شاء أفندينا أن تكون (كساوي التشريف العلمية) بمقتضى إرادته الشخصية فليصدر بذلك قانونا آخر يذسخ هذا القانون أو مادة قانونية نصها : كساوي التشريف للعلماء توجه بأمر منا

فلما سمع سموه هذا الجواب بمحضر العلماء آخر وجهه حتى كاد يتفصد دما ووقف — إيذانا للحاضرين بالانصراف فانصرفوا

أظن أن كل قارئ لهذه الحادثة يقول انه لا يعقل أن يحتمل أمير مجري في عروقه دم الحكم الاستبدادي الموروث مثل هذا الجواب الثقيل في السمع ، المستفز

للطبع ، فكيف اذا كان الامير صاحب مصر ؟ وكان الذي جبهه بهذا الجواب في مثل ذلك الجمع ، أحدعلمائها المشهورين بالخضوع والخشوع والخنوع ؟

(السبب الثاني) اتهم بعض الوشاة النمامين للشيخ بأنه غير مخلص لسموه ولا راض بامارته ، وانه «يعاكسه» أو يشاكسه ، بل اتهمه بتأهو أكبر من ذلك ، بانه يكره آل محمد علي ويؤلف عصبية في مصر لنزع الامارة منهم وجعلها جمهورية . أنا أعرف بعض الذين كانوا يقولون هذا القول للخديو ، وفاتني أن أسأل الشيخ علي يوسف عن مبلغ تأثيره في نفسه ولو سألته لأخبرني ، ولكن الاستاذ الامام رحمه الله تعالى كان أكبر عقلاً وأصدق وطنية من أن يفكر في مثل هذا في وطنه الساقط تحت ضغط دولة أجنبية قوية مسيطرة عليه

وكان له من أمراء هذا البيت العلوي اصدقاء يحبهم ويحبونه ، ويحلمهم ويحلمونه ، أكبرهم قدراً وأعلامهم نسباً الامير حسين كامل عم الخديو الاكبر ، وكان الخديو يعد من ذنوبه معه صداقته لعمه لما كان بينهما من الالحنة والنزاع ، ثم كان يعد من أكبر ذنوب عمه اهتمامه بمرض الشيخ محمد عبده وكثرة عيادته له فيه ، والحزن على موته الخ . وعاتبه على ذلك أحز العتاب وألدعه ، فذكر ذلك لرياض باشا فقال لو عاتبني أنا كما عاتبك لما سكت له ..

وكان من اصدقائه الامير محمد ابراهيم ، وهو الذي حبب اليه الاشتغال باللغة العربية واقتناء كتبها ، وأقنعه بان الشرف لبيتهم أن يكونوا أمراء لشعب عربي يعارون على لغته وجنسه ، فيحبهم حبه لنفسه .

حدثني الاستاذ الامام قال : ذكر لي الامير محمد ابراهيم ان الامير محمد علي شقيق الخديو دخل عليه مرة في مكتبه فألقاه مكباً على المطالعة والكتابة ، فسأله عما يشغل به ؟ قال فأجبتة : اشتغل بالادبيات العربية وأحب ان أتأدب بها وأتقنها . قل وهل أنت عربي ؟ فقلت له اخبرني ايها البرنس هل الترك يعدوننا منهم ؟ قل لا . قلت هل الافرنج يعدوننا منهم ؟ قال لا . قلت فهل الشرف لنا ان نكون أمراء لا شعب لنا ولا أمة ؟ قال : لا . قلت إذاً يجب ان نكون من جنس شعبنا . نحن أمراء في مصر ، والمصريون عرب فيجب ان نكون عرباً مصريين . اهـ

أقول ثم اشتهر بعد ذلك عن الامير محمد علي حب العرب والعربية فلمل هذا الحديث هو الذي أيقظ في نفسه هذه الفكرة وأعود الى أصل الكلام فأقول : ان الاستاذ الامام كان مخلصا للخديو عباس غيوراً عليه ، يسره ان يكون على خير حال في نفسه وفي منصبه ، ويسوءه كل خذلان يحط من قدره ، على ما عرض له من كراهة شخصه ، وقد قل لي مرة في محطة كوبري الليمون بمناسبة حادثة من الحوادث الخاذلة : انه يظن انني اسر لخذلانه وكيف ذلك وهو رأس لنا؟ ولا يمكن أن يهبط الرأس ويكون مادونه من الاعضاء عالياً رفيعاً ، فانا أشعر بأنه كلما سقط يسقطنا معه اوقال تحتة ، ولا سيما سقوطه تحت الانكليز (فليتأمل العاقل) ؟ ولكن المشاكسات ، تولد كثيراً من الحوادث والشبهات . وقد استغل بعض المشتغلين بالسياسة بين الاستانة ومصر هذا الجفاء وكتبوا في ذلك من التقارير ما سنلم ببعضه

(السبب الثالث) ما كان من حسن العلاقة بين الشيخ ولورد كرومر فقد كان اللورد يحله ويقدره قدره ، ويستشير في بعض المسائل الحكومية المهمة ويتحامي أن يهيج وجدانه ووجدان حزبه الراقى على الانكليز وكان الاستاذ يداريهم لعله انه لا يستطيع البقاء في مصر بدون ذلك (وسنذكر هذا في محله من هذا التاريخ) وكان المفسدون المحالون (الثامون) بصورون هذه العلاقة للخديو بأنها تأيد للاحتلال البريطاني على البلاد أو على شخص سموه على الاقل وأظن ان الخديو لم يكن يشك في وطنية الشيخ واخلاصه لبلاده ، ولا يرتاب في ترفعه عن التقرب الى اللورد بمسأته ، فان لم يكن هذا الترفع للاخلاص لاميده ، فهو اكرامة نفسه وابانها

شاهراة على تأييد الامام الامير ضد الانكليز

والدليل على هذا ان سموه كان يلجأ في المهمات الى استشارته حتى في المسائل التي تقع المادة والشادة فيها بينه وبين سلطة الاحتلال ، وانما تكون المصارعة فيها بينه وبين عميد الاحتلال لورد كرومر ، وأهم هذه المهمات التي

لم يجد عند غيره المخرج من مأزقها مسألان هما شاهدا عدل في القضية (الأولى) ما كان قرره الانكليز من اكرام الخديو على تعيين قاض مصري لرياسة المحكمة الشرعية العليا واخراج القاضي التركي من البلاد ، والثانية مسألة اتهامهم لسموه بحبس ليون فهمي الارمني في قصر المنزه وتمذيبه فيه ، وايدان به لابد من تفتيش القصر ،

مسألة قاضي مصر

عزم لورد كرومر على قطع أقوى صلة دينية للسلطان عبد الحميد بمصر وهي اختصاصه بتعيين قاضي المحروسة عاصمة الديار المصرية من علماء الترك وهو يعتبر رئيس الامور الشرعية الذي يولي سائر القضاة الشرعيين في البلاد وكان يلقب بقاضي القضاة ثم سمته الحكومة رئيس المحكمة الشرعية العليا ووضعت نظاما لاختيار القضاة الشرعيين ينط تنفيذه باجنة يعينها وزير الحاقانية ولكن القاضي التركي كان عضوا فيها وتعتبر موافقة على من يختار للقضاء اذنا له فيه من قبل الخليفة عزم اللورد على قطع هذه الصلة باكرام الخديو على تعيين قاضي مصر الا كبر من علماء الازهر وكان ذلك على اثر رفض القاضي لما قرره وزارة الحاقانية من تعيين قاضيين من مستشاري محكمة الاستئناف الاهلية عضوين في المحكمة الشرعية العليا بحجة اصلاح المحاكم الشرعية التي كثرت الشكوى من اختلالها كما سنبينه في الكلام على عمل الاستاذ الامام في منصب الافتاء

عظم هذا الامر على سمو الخديو لما فيه من قطع أقوى الصلات بينه وبين الدولة العثمانية وشخص السلطان ، وهي مستنده وملتجده الوحيد في مناهضة الاحتلال ، وبقطعها يكون للعميد البريطاني السيطرة على المحاكم الشرعية من طريق الحكومة وهو مما كان أنذره إياه الاستاذ الامام ، وما ذا يعمل سموه ؟
لجأ إلى الجرائد التي تؤيده وإلى علماء الازهر فأنشأوا ينشرون المقالات المؤثرة المستفزة للرأي الاسلامي العام ، بأن هذا اعتداء على دين الاسلام وشرعه القويم الذي يستمد سلطته التنفيذية من خليفة المسلمين ، وأيد احتجاجهم الشيخ

حسونه النواوي شيخ الازهر ومفتي الديار المصرية في مجاس شورى القوايتين، ولم تبال الحكومة بذلك كله لان اللورد كرومر كان اذا جزم بشيء لا يعارضه احد . وقد كان بعض كبار فقهاء الحنفية في الازهر افتى الحكومة فتوى شفهوية بان هذا العمل جائز شرعاً ، وايس فيه عدوان على الدين الاسلامي مطلقاً

ولما رأى قاضي مصر الشيخ جمال الدين افندي ان الامر جد ، ولا يستطيع تلافيه أحد ، باع داره وعزم على مغادرة هذه البلاد بعد صدور أمر الخديو بتعيين قاض من علماء الازهر لرياسة محكمتها الشرعية العليا ، وكان ذلك في شهر المحرم سنة ١٣١٧ (يونيو سنة ١٨٩٩)

وفي أواخره قررت الحكومة عقد مجلس النظار برياسة سمو الخديو في قصر التين بالاسكندرية لتنفيذ هذا الامر بعد أن باع سموه رئيس النظار انه ورد على جناب اللورد كرومر برقية من وزير الخارجية بانندن ناطقة بوجوب تعيين قاض مصري في منصب القاضي التركي وقطعت جبهة قول كل خطيب

عندئذ اظلمت الدنيا في عيني سموه وضاعت عليه الارض بما رحبت ، فاستشار رجاله وكل من له ثقة به في المخرج من هذا المضيق فأعوزهم الرأي ، وأخيراً اتفق رأيهم مع بعضهم على ان هذه المشكلة لا يرجى وجود حل لها إلا عند الشيخ محمد عبده وإلا فهي (قضية ولا أبا حسن لها) فأمر حسن باشا عاصم أن يرسل برقية إلى الاستاذ يقول فيها ان أفندينا ينتظر في قصر رأس التين صباح غد

وصلت البرقية مساء يوم الاربعاء وهو موعد درس التفسير فقرأ رحمه الله الدرس وذهب بعده إلى داره في عين شمس فتعشى وجاء قبل نصف الليل إلى محطة مصر فسافر إلى الاسكندرية في القطار الذي يسمى قطار الصعيد فصبحها بكرة فذهب من محطاتها إلى قصر التين نواً فألقى سمو الأمير منتظراً له فتلقاه بأهبة قائلاً : انني وقعت في مشكلة او أزمة ليس لها غيرك يا أستاذ ، وذكر له ان لورد كرومر سيحضر في هذه الساعة ليبلغه برقية وزير خارجيتهم بوجوب انهاء مسألة قاضي مصر وتعيين عالم مصري بدل القاضي التركي . وان مجاس النظار ينعقد

بعد خروجه لتقرير ذلك (قال) وأنا ايس من مصاحتي ولا من مصلحة مصر قطع هذه الصلة الدينية بالسلطان والعداوة النهائية للدولة العثمانية

قال الاستاذ الامام الامر سهل يا افندينا . قال سهل ، سهل ، هيه ، هيه

قال الاستاذ ان انكليز أشد شعوب الارض احتراماً لحرية الضمير والوجدان الديني ، ولا سيما الطبقات الراقية منهم ، وقد بلغ من احترامهم له انهم لما سنوا قانون التلقيح بمادة الجدرى للوقاية منه وضعوا فيه مادة خلاصتها انه يجب على كل انكليزي أن يقبل عملية التلقيح إلا من يقول ان وجدانه الديني لا يسمح له بذلك . فهذا استثناء لم يعهد له نظير في شيء من قوانين الدول ، وسببه ان بعض رجال الدين كان يرى ان هذا التلقيح حرام

فاذا جاء لورد كرومر الآن وباع افندينا ما ذكر وكان هذا اعتقاده فقال له ان وجداني الديني لا يسمح لي بان أعين القاضي ورئيس الامور الشرعية لانني أعتقد ان هذا حق السلطان بما له من صفة الخلافة - فاني لا أشك في أن اللورد بما نعرفه من تربيته السكسونية الاستقلالية ومن اصولها احترام الوجدان فانه يقبل من افندينا هذا الجواب ، ويبلغه لرئيسه وزير الخارجية فيقبله الآخر ويكون هذا فصل الخطاب قل سموه : كده ، كده . قال الاستاذ هكذا أعتقد

وحينئذ جاء الحاجب يستأذن الامير للورد ، فقام الاستاذ ودخل في حجرة أخرى ، ودخل اللورد على الامير وبعد تبادل التحية ، بلغ سموه البرقية ، فأجاب سموه بما لقنه اياه الاستاذ الامام ، فقال اللورد إذا كانت المسألة مسألة ضمير ووجدان فلا كلام لنا فيها . ثم انصرف

وكان النظار ينتظرون خروجه لعقد الجلسة وقد بانهم ما جرى بينه وبين الامير ، فقرروا في جلستهم إبقاء قاضي مصر التركي في منصبه ، ووغض النظر عن مشروع انتداب القاضيين من مستشاري الاستئناف الاهلي عضوين في المحكمة الشرعية العليا ، وعاد كل شيء إلى أصله ، وعلى اثر ذلك عزلت الحكومة الشيخ حسونة من مشيخة الازهر وإفتاء الديار المصرية

مسألة ليون فهمي

ليون فهمي رجل من دهاة الارمن استخدمه سمو الخديو في بعض أموره السياسية السرية وكان يهطيه مكافآت كبيرة وقد حفظ على سموه وأوراقه سرا وأصار يهدده بها لسلب المال الكثير ، وفي أثناء ذلك اختفى عن الانظار ، فبلغ العميد الانكليزي ان الخديو معتقل له في سراي المنزه ، او في بيخته (المحروسة) وانه يريد أخذه معه الى الآستانة - فأراد ان تفتش باخرة المحروسة وسراي المنزه بناء على هذه التهمة ، وانها لأ كبر اهانة لسموه ، ولما علم انهم فاعلون ولم يجد عند أحد من رجاله رأيا فيما يعمل لدرء هذه الاهانة ومنعها . أمر بارسال برقية الى الشيخ محمد عبده بمصر لمقابلته - كما فعل في مسألة قاضي مصر من قبل - فحضر الاستاذ فذكر له سموه المشكلة ، فقال له ان عندي رأيا يشترط في نجاحه أن يخرج ليون فهمي من السراي أو من المحروسة إن كان في احدهما . وبعد إخراجهم يكتب أنفدينا بلاغا إلى معتمدي جميع الدول المتفرفين باستقلال مصر تحت سيادة الباب العالي وبخديويته عليها بان السلطة الاحتلالية تريد الاعتداء على استقلاله واهانت بهتمة اجرام باطلة ويحتج عليها ويحملهم تبعة تفتيش قعره ويختتم بهذه التهمة وان يبلغ لورد كرومر انه سيفعل ذلك اذا تجرأ أحد على محاولة تفتيش السراي ولما باغ العميد الانكليزي هذا علم ان الخديو لا يقدم عليه إلا اذا كان عالما بان المقتشين عن الرجل لا يجذونه ، فتمكروا تفتيش السراي بعد تفتيش المحروسة وقد علمنا يومئذ ان سموه لم يستطع تنفيذ رأي الاستاذ باخراج ليون فهمي من السراي إلا ببذل مبلغ كبير من الجنيهات وقد أرسله يومئذ مع احد افندي اوبك المريس إلى بور سعيد ومنها إلى بلاد اليونان ليقيم فيها برضاه واختياره هكذا كان شأن الشيخ محمد عبده في بذل النصيحة وصدق الخدمة للخديو عباس فيما كان يقنازع فيه نفوذه مع نفوذ عميد الاحتلال وفي غير ذلك إلى أن تغيرت سيرته امامة في الجدد ، وسيرته الخاصة مع الشيخ ، حينئذ صار يحترس فيما يقوله له من غير خروج عن النصيحة الواجبة وسأذكر بعض الشواهد على هذا في الفصل الآتي

علاقة المؤلف بسمو الخديو

قد علم من الفصل السابق انه كان لمؤلف هذا التاريخ صلة بسمو العباس كانت حسنة ثم ساءت بالتبع للفضب على الاستاذ الامام ، ثم حسنت في آخر الايام ، فاقترضت المناسبة إعطاؤها نصيباً من البيان ، الذي لا يتعدى العبارة في هذا المقام كان الشيخ علي يوسف رحمه الله تعالى هو الذي قدمني وقربني إلى سمو الامير عباس وعرفه بي تعريفًا حسنًا ، وكان الاستاذ الامام قدس الله روحه يذكرني له إذا عرضت مناسبة للذكر الحسن ، ولعل أول مرة منها كانت يوم ترجم المنار من مذكرات البرنس بسمارك كتبه في الدين والحرب والسياسة التي نشرت في ٩ رمضان سنة ١٣١٦ (ص ٨٤٦ من مجلد المنار الاول)

أخبرني انه ذكرها لسموه وذكر له انه نشرها في جريدة المنار بعبارة تشعر بأن المنار موضع الثقة عنده حتى قل له سموه : أنت لك جريدة في هذه الايام ، فأخبره بما أنشئ له المنار من الاصلاح ، والظاهر انه صار يثق بي من تعريف الشيخين اللذين كان يثق بهما منتهى الثقة ، وصرت أحضر جميع مقابلات «التشريقات» في الاعياد ، وكذا المقابلات الشهرية في الغالب فان تخلفت مرة عاتبني ، وكان يستوقفني كثيراً مع الشيخ علي يوسف عند انصراف الناس من المقابلة ، ويتحدث معني في بعض الشؤون الحاضرة ، وقد يستوقفني وحدي احيانا وكان المرحوم حسن باشا عاصم يستاء من هذه الوقفات في أثناء المقابلات لإيلاها بنظام الترتيب الذي حدده لها واقتضاها انتظار من يدخلون بعدنا اكثر مما ينبغي أن يفتظروا كما أخبرني بذلك وكان يومئذ رئيس التشريقات - وكذلك صار يقابلني في كل من قصر عابدين وقصر القبة ، وقال لي أنت ما ذون بالحجيء اليهما في أي وقت شئت ، واذن رئيس التشريقات بذلك ، ثم زاده رغبة في ذلك علمه بمناصبه الشيخ محمد أبي الهدى افندي الصيادي لي وسعيه لاصدار إرادة من السلطان عبد الحميد بمنع المنار من جميع البلاد العثمانية ، وعلمه ايضا بأن ابا الهدى يكانبني

ويحاول إقناعي بترك مصر والذهاب الى الاستانة ويمدني بالرتب العلمية والوظائف الرسمية ، وكانت هذه المسألة من أهم المهمات عند سموه

أطلعت الشيخ علي يوسف مرة على بعض مكاتبات أبي الهدى في ذلك فذكرها سموه فأراد أن يتوصل بها الى تغيير قلب السلطان على الشيخ أبي الهدى أفندي لعله بأنه لم يمكنه استصدار الارادة السنية بمنع المنار الا بطعنه فيه وفي مذهبه لدى جلالته بأنه عدو لشخصه ول منصب الخلافة ، وجاء في تلك الاثناء من سفير الدولة البريطانية في الآستانة إلى لورد كرومر نبأ بأن رئيس كتاب السلطان (الباشكاتب) زاره وأخبره بأن في مصر جريدتين عدوتين للجلالة السلطان يساعدهما الخديو ومختار باشا الغازي ، أحدهما المنار العربية والثانية الميزان التركية . (جريدة الجون ترك) وان السلطان يود من الانكباب إبطال هاتين الجريدتين فلما علم الخديو بهذا الكتاب وهو لم يكن يساعد الجريدتين اعتقد أن الذي وشى للسلطان بهذا هو الشيخ أبو الهدى ورأى أنه إذا أخبر السلطان بأنه مع هذا يتودد إلى صاحب المنار ثبت عنده عدم إخلاصه لجلالته . وقد ذكر لي الشيخ علي يوسف رأي سموه هذا وأنه لا يتم الا باعطائهم أهم مكاتبات أبي الهدى فقلت له ان المكاتبات الشخصية أمانة لا يجوز أن تتخذ وسيلة لا يذاع صاحبها . قال أوليس صاحب هذه الامانة قد آذك فكيف لا يجوز أن تنتقم منه وهو البادى بالشر ؟ قلت نعم هو قد آذاني وآذى اهلي وأصدقائي في بلادى ايضا ، ولكن الانتقام منه بهذه الوسيلة المنافية لأمانتي الشخصية يمز علي . فسكت غير مقتنع

ثم كان أول مرة قابلت فيها سمو الامير بعد ذلك حفلة العشريف الكبرى لعيد الاضحى سنة ١٣١٦ فلما وقف إبدانا بانصراف من كنت معهم وصاروا يخرجون مسلمين بالاشارة المعتادة التي يقابلها سموه بانظر لكل واحد وتحريك يده - صرف نظره عني لأبقى ثم أقبل علي فدنوت منه فكلمني في المسألة وقال : هذه فرصة للانتقام من عدوي وعدوك فاذهب انت من هنا الى شفيق وافق معه علي ما يجب وأنا قد كلمته - فخرجت قاصداً حجرة احمد شفيق بك (باشا) وكان يومئذ رئيس القلم التركي عنده - فذكر لي ما كان سبقه اليه الشيخ علي

يوسف وقال لي ان أفندينا يمكنه أن يوصل هذا الكتاب الى شخص جلالة السلطان بما له من الوسطة في سراى يلدز ، وأفندينا يمد هذا اكبر خدمة لك عنده . فأجبتة بمثل ما قلته للشيخ علي يوسف من مسألة الامانة والحياة . فقل بعد عدة مراجعات : ان هذا إحساس شريف جداً ولكنه لا يخطر في بال احد ولا يقول بمثله احد . قلت له ولكنني انا اقوله عن شعور واعتقاد وأعدة من أخلاقي التي لا يمكنني الجناية عليها لاجل أفندينا الذي أجده ولا لاجل نفسي . فأكبر احمد شفيق الفاضل هذا فوق ما اكبره الشيخ علي يوسف الذي قد غلب على نفسه شعور السياسة فكان يقدم ما تقتضيه على كل شيء .

والحق ان المنار لم يكن من خطئه الطعن في السلطان عبد الحميد لافي شخصه ولا في خلافته وسلطنته ، وانما أنشأته لاجل الاصلاح الديني والمدني ، وانما شاء الشيخ أبا الهدى منه إنكاره خرافات أهل الطرق المنتحلين للتصوف وهو من كبارهم الذين ترقوا في معارج الجاه بانتحال الطريقة الرفاعية وهو قد صرح بهذا في كتبه الي - فايراجع ذلك من شاء في أول المجلد الثاني عشر من المنار

هذا - وان سمو الامير لم يظهر لي أدنى امتعاض ولا انحراف بما كان من عدم امتثال أمره وموافاة رغبته في هذه المسألة بل لم يقل عطفه علي ومقابلته لي وكان من ذلك العطف بعد ذلك بسنين أن دعاني مرة إلى قصر القبة وبعد مقابلة طويلة أخذني بسيارته إلى بعض مزارعه وبعد الطواف فيها على انعامين في الزراعة وعلى ما يربي فيها من دود الحرير دخلنا في دار له هنالك فيها كسرة موسيقية جامعة لجميع الآلات المعروفة في هذا العصر فعزف عليها بيده أنواعاً من العزف ثم عاد بي إلى قصر القبة

وكان أول إعراضه عني ما ظهرت لي أمارته في استقباله بمحطة مصر مع المستقبلين وكان عائداً من سفر فلم يقبل علي كهادته وصرح لي في إثر ذلك صديقي حسن باشا عاصم بأنه نحول عني فيجب ان أقطع زيارته ، فأنقطعت عنه وأنا لا أعلم سبب إعراضه . ثم ظهر لي انه كان تابعا لفضبه على الاستاذ الامام رحمه الله تعالى ، وفي هذه الاثناء كنت أكتب في المنار وفي غير المنار ما يسوءه جدا حتى قال لي

حسن باشا عاصم : ان بضمة أسطر مما تكتب في المنار مرة في السنة هي اشد عليه مما يكتب في المقطم ضده مدة سنة، كأن ما يكتب في المقطم حصى تلقى مرة بعد مرة على القصر ، وكأن سطورك القليلة كرة من الديناميت . ونموذج ذلك ما كتبه في حضوره حفلة عيد الجلوس الممكة الانكليز ونشرته آنفا في الكلام على التمهيد لانتقامه من المفتي ومن رئيس ديوانه

وأزيد عليه لا يفاء الموضوع حقه انه لما تم في سنة ١٣٢٠ ١٩٠٢ م مائة عام لتأسيس محمد علي باشا ملك مصر وهو مفخره ومفخر أسرته بلا نزاع - احتفل ديوان الاوقاف لذكراه بتزيين المساجد وما ذنها بالانوار ولا سيما جامع القاعة حيث اقيم احتفال ديوان الاوقاف، وجامع الازهر حيث اقيم احتفال العلماء فانتقدت ذلك بأن المساجد بيوت العبادة لله وحده لا يصح أن تزين للاحتفال بذكرى الملوك والامراء المستبدين ، ولا يجوز شرعاً أن ينفق في ذلك شيء من مال الاوقاف ، وذكرت ان لمحمد علي ثلاثة أعمال كبيرة كان كل منها موضع خلاف هل كان نافعا أو ضارا بالمسلمين في سياستهم العامة ودينهم (١) تأسيس حكومة مدنية بمصر كانت مقدمة لاحتلال الاجانب لها (٢) قتاله للدولة العثمانية بما أظهر به للعالم كله ولدول اربعة خاصة ضعفها وعجزها وجراهن على التدخل في أمور سياستها وهي السياج الامنع الاقوى لاستقلال ملك الاسلام في وجوهين ، وما زالت بعد ذلك تدحرج في مهاوى الضعف والانحطاط (٣) قتال الوهابية والقضاء على مانهضوا به من الاصلاح الديني في جزيرة العرب مهد الاسلام ومقله وكانت الكتابة شديدة ترتب عليها خوض في الجرائد

ولما رأى الاستاذ الامام هذا في الجزء الرابع من المجلد الخامس من النار كتب مقالة طويلة في مساوي حكم محمد علي في مصر ومقاصده منه نشرتها في الجزء الذي يليه بامضاء مؤرخ ، واتفق أن اطلع الخديو على الاول في يوم صدور الآخر فأرسل احمد بك العريس الى دار الاستاذ الامام في عين شمس يبلغه شدة استيائه مما كتبه صاحب المنار ويقول انه اشد عليه من كل ما يكتب من الطعن في سموه لانه ليس لهم مفخرة غير محمد علي ، وقال له ان أفندينا يقول انه لا يستطيع أحد إسكات

صاحب المنار غيرك ، وهذه خدمة لسموه ينتظرها من فضيلتكم
أجابه الاستاذ ان المنار جاءني اليوم فرأيت فيه مقالة في الطعن على محمد علي باشا
أشد من الاولى يظهر ان أفندينا لما يطالع عليها ، وأنا سأكلم صاحبه « وأرجوه »
بان لا يعود إلى مثل هذا مما يسوء أفندينا

ثم إن كثيراً من الوجهاء اقترحوا أن يقيم الشعب المصري ذكرى نافعة دائمة
لمحمد علي باشا بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس ملكه ، ورجحوا بعد المذاكرات
أن تكون هذه الذكرى مدرسة للصناعة تضاف إلى اسمه ، وألغوا لجنة لجمع المال
بالاكتتاب العام واختاروا الرياستها وزير مصر الاكبر ورجلها المجمع على الثقة
به مصطفى رياض باشا ، فنهض بالعمل ، وطلب من سمو الخديو أن يتوج
الاكتتاب باسمه الكريم فلم يجد نفسه بأكثر من مائة جنيه فكان ذلك محبطاً
للعمل وسبباً لاستياء القائمين به ، وكل من يرى انه عمل خيري نافع ، حتى إن
بعض أمراء البيت العلوي قد امتنعوا من الاكتتاب وفي مقدمتهم الامير
أحمد كمال باشا من اكبر أغنيائهم فانه لما عرضت عليه جريدة الاكتتاب قال
اكتبوا بجانب اسمي ثلاثة قروش ! قيل له اتمرح يا دولة البرنس ؟ قال لا والله
لا أزيد على هذا وهذا كثير في مقابلة اكتتاب الجاس على عرش محمد علي بمائة جنيه
وكان رياض باشا كلم لورد كرومر في المشروع وورغب اليه أن يأذن مستشار
المالية . وافقة مجلس النظار على إعطاء أرض كافية لبناء المدرسة فيها من أراضي
الحكومة الثمينة بالاسكندرية فأجابه إلى ذلك وتبرع للعمل بمائة جنيه من جيبه ووعد
بمساعات أخرى ليس هذا محل بسطها ، فثنى عليه رياض باشا في خطبته التي
ألقاها في الموضوع بمدينة الاسكندرية وعبر عنه بصاحب المقام الأرفع .

وكان سمو الخديو يكره رياض باشا ويستاء من تعظيم الشعب له وثقلته به ،
فسلط جرائده على الطعن فيه بهذه المناسبة وهي اللواء والمؤيد الذي يعرف الناس
فضل الوزير عليه وعلى صاحبه ، فبالعوا في الطعن فيه حتى قالوا انه التبحر ومرق من
الوطنية . . . فلما رأيت ذلك كتبت في آخر جزء المنار الذي صدر في غرة ربيع
الاول سنة ١٣٢٢ (ص ٢٨٠ م ٧) مانعه :

(قول رياض باشا - أو عبيد الكلام)

رفع العلم الانكليزي باذن الخديو على السودان وخطب الامير تحته مدعياً
 انه فلم يؤثر في المصريين ، وعقد الوراق الانكليزي الفرنسي بناء على ذكريتو
 خديوي ، ومن لوازمه تأييد الاحتلال في مصر فلم يؤثر فيهم ، ولونت خريطة
 مصر في مدارس حكومتها بلون المستعمرات الانكليزية فلم يؤثر فيهم - واستشار
 الامير اللورد في تعيين شيخ الازهر فلم يؤثر فيهم ، ووكل إلى اللورد النظر في
 لائحة المساجد وأئمة الصلاة فلم يؤثر فيهم - ويقول اللورد جهراً انه هو المسئول
 عن ادارة هذه البلاد فلا يؤثر فيهم . وقال رياض باشا في خطبته في احتفال
 تأسيس مدرسة محمد علي الصناعية ان اللورد هو صاحب النفوذ الشامل ، والمقام
 الارفع ، ورغب اليه في تعاهد المدرسة حتى تبلغ أشدها - فقام احداث الوطنية
 ياعطون في ذلك ويمدون حادثاجللاً - فانظر علام يسكتون ، وبماذا يلفظون . اه
 ثم شرحت هذه المسألة في الجزء التالي لهذا شر حازاد الامير استياء لان
 قبلاته أكبر من هذه القنبلة فانها بلغت صفحتين كاملتين أو أكثر

محاولة الخديو الانتقام من صاحب المنار

والتفريق بينه وبين الاستاذ الامام

اخبرني أحد المستخدمين في الخاصة الخديوية ان سمو الخديو جمع مرة جميع
 مستخدميها عنده وكنهم في بعض الامور الخاصة بوظائفهم ثم قال لهم : يجب
 عليكم أن تعاكسوا مجلة المنار وصاحبها « من تحت تحت » اي خفية بحيث لا يظهر
 عملكم . وبلغني من بعض المطالعين على دخائل السراى السرية ان بث بعض
 الجواسيس حولي ، عسى أن يطاعوا على هفوة منى تنافي صفتي الدينية الارشادية
 فيشبهوني بها فلم يعثروا والله الحمد والفضل على شيء ؛ الا انني أضع عماتي عن
 دنسي في أكثر محاسني وأركب في الدرجة الثانية من الترام كثيراً
 ثم توجهت عنانيه إلى أمرين كبيرين لا أدري بايهما بدأ ، وانما أعلم انه

كان يجمع بينهما (إحداهما) التفريق بيني وبين الاستاذ الامام . (وثانيهما) اخرجني من مصر ولكن هذه امتدت الى ما بعد وفاة الاستاذ

أما التفريق فقد بذلت له مساع متعددة ربما أشرحها في بيان علاقتنا من آخر هذا الكتاب . وأهم الواضح الصريح منها ان سموه أمر كلا من الاستاذ الشيخ محمد شاكر وبطرس باشا غالي بالسعي لذلك لدى الاستاذ الامام ، وأذن له بالتصريح له بان سموه يرضى عنه كل الرضا ويساعده كل المساعدة على اصلاح الازهر بشرط أن يبعد عنه صاحب المنار ويقطع صلته به ، وقد جاءه كل منهما في وقت غير الوقت الذي جاءه فيه الآخر إلى داره في عين شمس وكبه في ذلك أخبرني الاستاذ رحمه الله تعالى انه قال لبطرس باشا يومئذ : اذا كنت أنا انساناً

ذاقمة في الوجود فأنما ذلك باخلاقي لا بوظيفة الافتاء ولا بغيرها ، وأي خلق يكون لي اذا كنت أترك محبة السيد رشيد رضا لأجل الخديو ، وكيف لا أترك صحبتك أنت أيضاً لأجل الخديو اذا أراد ؟ أحب ان تعلم ويعلم الخديو انني أفضل أن أعيش أنا والسيد رشيد رضا ههنا في رمل عين شمس على البقاء في منصب الافتاء وعضوية مجلس ادارة الازهر لان هذا الرجل متحد معي في العقيدة ، والفكر ، والرأي ، والخلق ، والعمل ... وأما فضيلة الشيخ شاكر فقد أخبرني انهما باغ الاستاذ شرط سموه في الرضا عنه قال له : كيف أرضى بابعاد صاحب المنار عني وهو ترجمان افكاري ؟ ولما لم ينفع السعي لدى الاستاذ في ذلك وجاء وقت الحملة الكبرى عليه في

موضوع الفتوى الترانسفالية الشهيرة جاء دور السعي لدي بهذا التفريق ، وقد عهد به سموه إلى سماحة الشيخ محمد توفيق البكري فارسل هذا إلي عبد الله افندي المغيرة لمهد السبيل له ثم جاءه بنفسه وأخبرني بان سمو الخديو يحبني ويحترمني ويود مساعدتي على خدمة المنار الاسلام بالمال والنفوذ ، واتي أنا الذي قطعت الطريق على نفسي بتسليمي للشيخ محمد عبده ... وقال انه قد أعد الآن حملة قوية من أشهر كتاب مصر وعلمائها للظمن في الفتوى الترانسفالية (وان صاحب جريدة حديثة المهد غير مسلم قد أخذ منه ٧٠٠ جنيه دفعة واحدة) قال وهو لا يكلفك أن تظمن على الشيخ مع الطاعنين لانه يعلم كما نعلم ان هذا مما لا سبيل اليه معك ، وانما يكلفك السكوت عن الدفاع عنه فقط ، فاذا كنت ترضى بهذا فافندينا مستعد لمقابلتك ...

قلت له إن هذه مسألة دينية وهي من أخص مباحث المنار فلا يمكنني السكوت لمن يخوضون فيها بغير علم إذا رأيتهم مخطئين فانا أدافع عن الحق لأعني المفتي شخصه ، وإذاً لاجابة الى مقابلي لا فدينا

قل ما معناه وماذا تفعل أنت وحدك مع هذا الجيش من الكتاب ؟ قلت مثل من ؟ قال في مقدمتهم ابراهيم بك المويلحي . قلت ابراهيم بك المويلحي كاتب نكت وهزل ، وتقد في المدح والذم ، ولا أقيم له ولا لاحد ممن تشير اليهم وزنا في تحقيق مسائل الشرع الخ ، بل قلت له ما هو اكبر من هذا . والسيد البكري أديب كبير لو ذعي بجمل الامام ، وقد تاقى عنه ويقول عن نفسه انه منه كالذين آمنوا قبل الفتح ، وبجل النار ويسميه صحيفة الخواص

وقد ذكرت حديثه للشيخ علي يوسف فاستحسن امتناعي عن مقابلة الخديو لعله بانه يستحيل علي أن أرضيه في هذه المقابلة وهو من أعلم الناس بحاله وحالي لم أذكر هذه المسألة للاستاذ الامام الا بعد انتهاء الفتنة فقال لي لو استشرتني لأشرت عليك بمقابله وأخذ ما تستطيع لعمالك النافع من مال هذا البخيل ، الذي لا يندل إلا في مثل هذه السبيل ، ويتفق على ترك التلاقي مدة من الزمن ثم يعود ، قلت : وهل كان يمكنني أن أرضى بهذا الرأي ؟

وقد كان الشيخ علي يوسف قال لي في غير هذه الحادثة كلاما في هذا المعنى قد يحمله سيء الظن فيه علي صدي عن الاستاذ الامام بما دون التفريق (قال) انك رجل غير عادي ، وان جميع المسلمين في حاجة إلى الاستنارة بمنارك في هذا العصر ، وان المانع من انتشاره كما يجب انك بتشجيعك للشيخ محمد عبده أوجدت لنفسك أعداء أقوياء يصدون عن المنار أقوام الخديو ورجاله ، ومنهم العلماء الذين يحدون الشيخ ويألمون من تفضيله عليهم ، وهو نفسه أهل لما تقوله فيه ولكنه في غنى عنه ، فحسبك أن تذكره بأعلى الاقارب العلمية المألوفة كما يفعل المؤيد عند ذكره وذكر شيخ الازهر الخ وبهذا تنقي ضرر أعدائه وهو لا يخسر شيئا فقامه معروف عند العارفين ... قلت أنا أعلم ان كلامك هذا صحيح وان كان كثير من يظنون خلافه وان لي من هذه الجهة نفعا ماديا . ولكن لي غرضا من تعظيم قدر الشيخ وتفضيله هو فوق فائدة انتشار المنار بكثير ، وهو ان الاصلاح الاسلامي الذي أدعو اليه لا ينهض

إلا بزعم تثق به الامة . ولا أعرف أحداً أجدر منه أو يساويه في استحقاق هذه الزعامة ، فأنا أدعو إلى تعميم الثقة بزعامته . قال هذا غرض صحيح لا أعارض فيه وأما مسألة سعي سموه لنفي من مصر فلمل أول من أخبر الاستاذ الامام بها مصطفى كامل باشا ، وقد ذكرت في فاتحة المجلد الثاني عشر من المنار أنه قال له ان افندينا يريد نفي صاحب المنار من مصر ويطلب منك أن تسكت على ذلك ولا تحمل لورد كرومر على المعارضة فيه ... وهو الذي صرح في كلامه على خطبة الخديو يوم لباس الكسوة للشيخ الشريفي ان سموه يعني بقواه « ومن كان أجنبيا من هؤلاء الخ » صاحب المنار كما تقدم قريبا (ص ٥١٤)

وأخبرني الشيخ علي يوسف انه كان عند سموه في سراي القبة وجرى ذكر في فجاج وغضب وصخب وقال فيما قال : لابد من اخراجه من هذه البلاد ... قال الشيخ علي فقلت له أظن ان افندينا لم يعلم بان السيد رشيدا أسناذ لجناب مدظل انس وكيل المالية يتلقى هذا عنه العربية ؟ (قال) قلما نطقت بهذه الكلمة سكنت حديثه فجأة كما يأتي قليل ماء على القهوة عند ارتفاع غليانها فيهبط في الحال ، سكن غضبه ، وسكت لسانه ، إلا انه قال هذا من فعل الشيخ محمد عبده . . . (١)

وبعد وفاة الاستاذ الامام تجدد هذا السعي لدى سموه وقوي الامل فيه بعد استبدال الدولة البريطانية صديقه الممر غورست بلورد كرومر ، وقد ذكرت هذا الخبر في فاتحة المجلد الثاني عشر أيضا . ولما بلغ هذا الخبر رياض باشا في وقته ذكر لي ليلة كنت اسمر فيها معه في داره ، وقال لي ماذا تفعل انت ؟ هل تغير شيئا من خطة المنار ؟ قلت حاش لله ما كنت لأغير عملي التابع لمعقدي وخاقي ، وكل فضيلة لمصر عندي أنني أستطيع فيها خدمة ملتي وأمتي بما اعتقد انه الحق النافع ، فإذا زالت هذه الحرية منها لا يبقى لها مزية عندي ولا يحزنني الخروج منها وانال املك فيها شيئا . قل : هكذا او (كده) اريدك . عند الافرنج مثل يقول : الشجاع ان خسر بخسر عشرة في المائة والجبان ان يرجع بربح عشرة في المائة

(١) طلب وكيل المالية من الإمام أستاذاً مشوقاً بعلمه وأخلاقه يقرأ عليه العربية فأعني الإمام بأن أقبل تلك لأنه يريد أن يرى هذا الانكليزي الممر المشغل الفكر عالماً مسلماً بخلافه فقلت وقد حقق أمتي أمل أستاذي حتى أتى بيئت لهذا الرجل من فضائل الإسلام ما حمله على التصريح لي بثلاث مرات بأن اعتقاده عين اعتقادي وقد بسطت ذلك في المنار ، ودرستني كنت أوافق عن الخديو أمامه .

وكن بلمني أن سموه يريد التوسل إلى طلب نفبي بفتوى من شيخ الأزهر أو مفتي الديار المصرية يقول فيها أحدهما أو كلاهما أنني أنشر في المنار ما هو مخالف لعقائد الإسلام وأصوله . أخبرني بهذا الدكتور مهدي خان الأيراني الشهير وأنه سمعه من الشيخ علي يوسف أو في مجلسه . فقلت له غاضبا صاخبا ان صح هذا فاني اطعم مائة ألف نشرة وأوزعها على أعضاء شورى القوانين وقضاة المحاكم ووزراء الحكومة وكبار رجالهم في المحافل العامة، أقول فيها أنني كنت ادعو إلى اصلاح مافسد من عقائد المسلمين وأخلاقيهم بالدلائل في المنار وأحدى العلماء البارز على ما كتب فلم يرد علي أحد ، واذ وقع كذا وكذا فانا ادعو شيخ الأزهر ومفتي الديار المصرية إلى المناظرة في معنى شهادتي الإسلام وأطلب ان تكون هذه المناظرة في مجلس بمحضره بعض كبار القضاة ومستشاري الاستفتاء وأعضاء شورى القوانين ، وان يكتب كل ما يقال فيها بمحضرتهم وأوقع عليه أنا ومناظري ونشره على العالم الإسلامي ليحكم فيه ، ثم أسافر إلى الهند فقد دعيت إلى التدريس في مدرستها الكلية في عليكرة براتب شهري قدره ثلاثون جنيتها وأن يطع لي المنار بالعربية والاوردية بغير أجره وتكون حريتي هناك اوسم

لكن كانت تلك كلها أقوالا ، وكان من المستحيل أن يفتي شيخ الأزهر أو مفتي الديار المصرية بما كان يريد الخديو منها ، إذ لا يجدان له في المنار مستنداً لهم ، وقد انتقدت في المنار الشيخ الشربيني وانتقدت قبله الشيخ البشري وغيرهما من كبارهم ، على كثرة ما كتبت في انتقاد التعليم الأزهري وضرره فلم يجدوا في ذلك ما يردونه علي . وهذه فضيلة لعلماء مصر ، ومن فضل الاستاذ البشري ان الخديو أرسلني إليه مع احمد شفيق باشا ليبايعه رغبة سموه في الموافقة على ما يطلب من المال لمدرسة الدعوة والارشاد عند ما تعرض الميزانية على مجلس الاوقاف الاعلى فكان مما قاله لاحد شفيق باشا في الثناء علي ان السيد محمد رشيد هو الآن اسان الاسلام . وهذه كلمة لم يقاها لاجل الخديو بل هي من فضله وانصافه رحمه الله وعفا عنا وعنه

بل أقول ان من فضل أدباء مصر وشعرائها وكتابها مع علمائها انه لم يوجد أحد منهم سفه نفسه لاجل الخديو بالظمن في الاستاذ الامام كما فعل دجال بيروت المتجر بدينه

الشيخ يوسف النبهاني الخرافي الشاعر فانه تقرب إلى سموه بهجور الامتاز الا امام الذي كان يحمله (ولدي كتاب بخطه ثبت ذلك) وأستاذ السيد جمال الدين وتلميذه محمد رشيد رضا في قصيدة طويلة غلافي البهتان والافتراء عليهم فيها والاحتجاج على ذلك بأحلامه المنامية فتحه سموه راتباً شهرياً من الاوقاف، ولم يكن لهجوه واقترانه ادنى رواج في مصر لان أقل المتعلمين فيها فهموا علما ارقى من الدجال النبهاني عقلاً وأدباً، ويعدون الشيخ محمد عبده أعظم رجل انجبهت بلادهم في هذا العصر ان لم أقل في كل عصر. وقد ثبت ذلك باجلالهم له في حياته وماتته بما لم يفتق كثير موقد تولي بعض تلاميذه مشيخة الازهر وافتاء الديار المصرية ومؤدبه هذا الدجال ونهى المسلمين عنه تفسير النار الذي كنا نقبس فيه أنوار حكته وما امتاز بفهمه وناليته يعلم مكانة هذا التفسير عند ارقى علماء الازهر وسورية وغيرهم (كفضيلة مفتي بلده بيروت) وما فرطوه به مفضاين له على تفاسير الاولين والآخرين وأنا ملوقع بالفطن من وسائل اخراجي من مصر فهو ان المعية الخديوية السنية بلغت وزير الداخلية أنه جاءها كتاب من المايين الهمايوني بطلب ارسال محمد رشيد رضا الثماني المقيم بمصر الى الاستانة لأنه مطلوب من جانب العسكرية لاداء الخدمة العسكرية بلتقي هذا الخبر وزارة الداخلية وسألني عن جوابي عنه فأجبت بانني كنت مستثنى من الخدمة العسكرية في مدتها القانونية بكوني من طلاب العلوم الدينية وقد أدت الامتحانات العملية الرسمية الثبته لذلك في تلك السنين ومع شهادات رسمية بها. وبعد انتهاء هذه المدة صرت من العلماء المدرسين ومع شهادات من علماء بلدنا بذلك، ولا جله لم أطلب لاداء خدمة الرديف في العسكرية وقد انتهت هذه المدة ولم يعد للمصرية وجه لطلي للخدمة كما يعلم من المستندات الرسمية التي معي. وقد طلبت وزارة الداخلية مني هذه الشهادات والمستندات لتقديمها إلى المعية السنية وقال مصطفى باشا فهمي وزير الداخلية ورئيس النظار يومئذ من علم من أين جاء هذا الطلب وفلم يسيبه ولكن لا بد لنا من جواب رسمي وهذه المستندات ابلغ جواب. فاعطيتها إياها واخذت وصولاً رسمياً بوصولها وتعهد وزارة الداخلية باعادتها الي. فأرسلتها الى المعية وهي أرسلتها الى الاستانة ثم أعيدت إلي ومن الاحياء الذين يملكون هذا عبد الله باشا صفيه فهو الذي تولى العمل به من قبل وزير الداخلية

استطراد

(في العبرة بسيرة الخديو بعد الاستاذ الامام وماله وعليه ، ومبدأ أمره ومنتهاه)
(ونصر الله للامام وحزبه حياً وميتاً)

من الغريب ان سمو الامير العباس ظل حاقداً على الاستاذ الامام بعد موته وقد امتنع واستاء أشد الاستياء من اهتمام القطر المصري بمرضه وموته ، وظل حاقداً على لوفائي له بعد موته بأنهم مما كنت وفياء له في حياته ، وقد قوي حزب الامام الحكومي بعد وفاته بدخول سعد باشا زغلول أقدم تلاميذه في الوزارة وجعل مدرسة القضاء الشرعي تابعة لوزارته وطوع تصرفه ، وتولي شقيقه احمد فتحي باشا زغلول وكالة وزارة الحفانية ونوط الحكومة به وضع قانون لاصلاح الازهر بالاشتراك مع لجنة خاصة وبذلك صار رجال المعارف ورجال القضاء الشرعي والاهلي كلهم وشيوخ الازهر تحت نفوذ حزب الامام رحمه الله تعالى

ثم تألف حزب الامة بعده من أركان أصدقائه من كبار رجال الحكومة ووجهاء القطر وأنشأوا صحيفة (الجريدة) لحزبهم فكانت مناصبه لسموه مقاومة لاهوائه بنفوذ حزبها وكتابتها . وظل صاحب المنار ينشر افهام الامام العالية في تفسيره ، ويشيد باسمه واصلاحه في جميع الافطار ، فبهذا كله كان الاستاذ الامام هو المنصور على الخديو حياً وميتاً . واسكن الذي لم يكن بممكننا هو نشر هذا التاريخ الحر في عهد سموه بعد هذا كله بلغت عبر الزمان من عقل سموه مبلغها فلم انه كان مخطئاً في نزوله الى ميدان الكفاح والنزال مع أفراد من أمته ، جعلهم قرناء وخصماء له وهم من رعيته ، يتمنى أبهم أعلى مقاماً أن يقوم بخدمته ، فصار يستميل من تسنح الفرص لاستمائه ، ومنهم صاحب المنار وأحمد لطفي بك السيد مدير (الجريدة)

وطنية الخديو وسيرته الاولى فيها

ومن انصاف التاريخ أن أذكر هنا أفضل محاسن هذا الامير الكبير . وقد ذكرت مساوئه . حتى لا تكون المساوي هي التي تستقر وحدها في نفس قارىء هذا الكتاب وهو ظلم فأقول

أول ما عرف الناس من محاسنه ما يسمى في عرف هذا العصر « بالوطنية » وقد أثمرت إلى أطوار وطنيته في تأبين المرحوم مصطفى كمال باشا بقولي في الجزء الاول من مجلد النار الحادي عشر (الذي صدر في آخر المحرم سنة ١٣٢٦) وكان ذلك في عهد غضب سموه علي - ما نصه :

« بعد أن قضى الامير توفيق وولي الامير عباس دخلت البلاد في عهد جديد من الحركة الوطنية ، تجلت فيه كتجلي الحقيقة السكايه ، فكان تجليها الاول هو التجلي العام ، الذي ظهر في الخواص والعوام ، وكان لسانه الناطق جريدتا المؤيد والاهرام ، ثم قتر التجلي في جميع الطبقات ، ثم ظهر في طبقة الضباط وقتاً من الاوقات ، ثم قتر طائفة من الزمان ، ثم ظهر في مظهره الذي هو عليه الآن ، بان نفخت روحه في الناشئين ، ففعلت فعلها في غير أصحاب العام من المعلمين ، لان هؤلاء لا يعرفون لهم جنسية إلا في الدين ، وقد كان مصطفى كامل هو المجلي ، في ميدان هذا الطور من أطوار التجلي ، ثم صار داعية النابتة الى هذه الوطنية وهادياً ، او سائقها وحاديها ، وهي هي فوق المدعو والهادي ، واما الماسوق والهادي » اه واعني بهذه الاشارة ان البلاد المصرية كانت في عهد توفيق في فتور واستسلام يشبه الموت بالتبع لاستسلامه وخضوعه للاحتلال البريطاني فلما جاء عباس بعدمه كان كسيال من السكهرباء طلق جوها ، وكهرب جميع أهلها ، فشعرت بانها أمة يجب أن تكون مستقلة بامرها ، وكانت زيارته للسلطان في الآستانة أكبر ظاهرة لتلك الكهرباء او مضت بروقها ، وقصفت رعودها ، وقد ذكرت سبب فتور هذا التجلي في أول هذا القصد ، وانه ذهب بثقة عقلاء البلاد بسموه . وأما التجلي الثاني في ضباط الجيش الوطني فقد كان من تدبير جمعية مصرية سرية من قبل سموه لم يلبث حاكم السودان ان كشف سرها ، وحمل الخديو على معاقبة الضباط الذين عرف انتظامهم فيها ، ففعل ، وزالت ثقة الضباط به . وأما التجلي الثالث فظهر في طلبة المدارس الاهلية دون الازهر والمعاهد التابعة له ، وكان مصطفى كامل وجماعته هم الذين يتولون ادارة هذه الحركة وفي آخر سنة من سني حياته أسسوا الحزب الوطني

الخديو ومصطفى كامل وحزبه

الخديو عباس هو الذي أوجد مصطفى كامل واستعمله في الحركة الوطنية وهو تلميذ فقير مع مسيو دلونكل مندوب حزب الاستعمار الفرنسي الذي كان مناوئاً للاحتلال البريطاني في مصر إلى عهد مسألة فشودة الشهورة وما أعقبها من اتفاق الدولتين سنة ١٩٠٤ وقد جعل سموه مصطفى افندي كامل راتباً شهرياً قدره خمسة وعشرون جنيهًا ثم مازال يزيده حتى بلغ مائة جنيه في الشهر، عندما كان يأمر به المقربين من مساعدته، وفي مقدمتهم الأمير محمد ابراهيم والاميرة شويكار هاشم، وما كان من ذلك الا كتاب الكبير لانشاء مطبعة تصدر مع اللواء العربي جريدتين باللغتين الفرنسية والانكليزية. ومع هذا كله لم يكن مصطفى مخلصاً له اخلاص الشيخ علي يوسف بل انقلب عليه هو والحزب الوطني باطناً، وكان يظهر لهذا الباطن امارات، وتكتب فيه نبد ومقالات، حتى قطع سموه عن الحزب الوطني مساعداته المالية بعد اتفقه مع السرغودست الذي خلف لورد كرومر فصاروا يصرحون بكرهته وبعادونه خائفاً لوطنه مارقاً من الوطنية

وكان مصطفى كامل يود الاتفاق مع الاستاذ الامام والعمل معه او برأيه لمصر والاسلام، ولكن الاستاذ ورجاله لم يكونوا يقيمون له وزناً لاثرتة واعجابه وكونه مسخراً للخديو بالمل، وكان سمدباشا زغلول يقول إنه مجنون، واما الاستاذ الامام فقال في وصف مقالاته انها مجموع نوبات عصبية بعضها شديد وبعضها خفيف. ثم اتفق ان التقياً في باخرة حملتهما من اورية إلى مصر فصارا يتكلمان واهدى مصطفى إلى الاستاذ كتباً فرنسية كانت معه فيها كلام عن الاسلام قبلها شاكرًا، وقال له إذا قبلتني في مريدك فإن خدمتك للاسلام ومصر تكون مضاعفة، وصار بعد ذلك يزوره بمصر ويكلمه بالهاتفون كثيراً، ولكن لم يدم اتصالهما، لعدم الشاكلة بينهما، ولا حاجة إلى بيان ذلك هنا

وقد أخبرني رفيق بك العظيم وكان من أصدقاء مصطفى باشا كامل ومحمد بك فريد الركن الاعظم له وللحزب الوطني بعد تأسيسه انهما يتخذان الخديو وسيلة لتوحيد سياسة الامة المصرية على مقاومة الاحتلال فان ظفرت البلاد بجلاء الجيش

الانكليزي عنها فان الحزب الوطني يؤسس لها حكومة لا يكون للخديو ولا لامثاله أدنى حظ منها ...

ويؤيد هذا ما أخبرني به صديق وزميل لمحمد بك فريد هو (ا . ل . س) انه قال له بعد وفاة مصطفى كامل بزمان : انا وانت نعلم ان سبب تعلق المرحوم مصطفى بالخديو المال ، فالمال كان عنده كل شيء (بل قل كلمة لا يمكنني كتابتها بنصها) واما انت فالمال عندك لا قيمة له وقد أضعت ثروتك الشخصية في الخدمة الوطنية ، فما الذي يبعثك على موالاة الخديو والتنويه به ، او قل غش الامة به ؟ فأجابه محمد فريد : ان الامة متعلقة به فنحن نستميلها من طريقه الى أن نستغني عن ذلك ، او ما هذا حاصله

الشيخ علي يوسف بين الخديو والاستاذ الامام

وأما الشيخ علي يوسف فقد كان أخلص للخديو من مصطفى كامل ولكنه كان موالياً وفاقاً للشيخ محمد عبده ورجال حزبه ولا سيما حسن عاصم وسعد زغلول منهم ، وكان يخبرهم بجميع أسرار الخديو وما ينكره من أعماله وآرائه ويستشيرهم فيها ذلك ليقينه انه لا يصل الى سموه شيء من مكانفته ، وكان يحاول التوفيق والتقريب ما استطاع ، ولا يظن في أحد من أركان هؤلاء الرجال كما يفعل مصطفى كامل بدون تفرقة بين الحق والباطل ، حتى انه نصر اليهود على الاستاذ الامام فيما قرره في دروس الازهر من بيان مساوى اليهود في تفسير الآيات التي انزلها الله فيهم فان بعض الجرائد نقلت عن المنار شيئاً من ذلك فانتدب بعض اليهود للانكار على المفتي باسم الماسونية وتهوروا فيما كتبوا ولم يجدوا لهم نصيراً من الجرائد المشهورة إلا جريدة اللواء ، ولم يلبثوا ان ظهر لهم خطؤهم فيما كتبوا وجاء رئيس محفلهم الماسوني من الاسكندرية إلى القاهرة وقابل الامة ذالامام واعتذر له عما كتب باسم محفله . وزاره الرئيس الاعظم للماسونية واعتذر له أيضا بعد أن خطأ المحفل الذي احتج على فضيلته بأنه خرج عن حده وما يتبجح به الجمعية . ولكن مصطفى كامل باشا هو الذي أصر على خطيئته دون اليهود والماسون وقد فصلنا ذلك في (ص ١٩٦ - ٢٠٠) من مجلد المنار السادس ولم يندفع الشيخ علي مع الخديو في مضارة الاستاذ الامام في مسألة الازهر

الآخيرة بكل شر اشره على ما كان له من هوى . وقد رأيت جماعة الامام مستغربين لهذا منه ولا سيما الشيخ عبد الكريم سلمان فقال لهم حسن عاصم باشا: سبحان الله ! أتريدون من صعيدي فقيير صار جليس خديو مصر ومستشاره وامين سره ان تسمو نفسه إلى تركه لاجلكم لان لكم فضلا عليه في مؤيده ومطبعته وكتابته ؟ ولما قلت الاستاذ الامام ان أكبر أسباب استياء الشيخ علي منه اعتقاده انه هو الذي حمل صديقه الشيخ أحمد أبا خطوة القاضي الشرعي على الحكم بعدم كفاءته لبنت السيد عبد الخالق السادات ، قال انت تعلم انني موافق لك فيما كتبت في المنار ونقله عنك المؤيد في مسألة الكفاءة . وأما رأيي في الشيخ علي والسادات في شخصهما فهو انهما كفؤان لكن في الخسة لافي الشرف !! قال هذا من باب النكتة المصرية ولعلي أذكر ما كان من مودة الشيخ علي الاستاذ الامام في موضع آخر من هذا التاريخ وأكتفي هنا بأن أقول ان الشيخ عليا أخبرني في أثناء الفتنة الآخيرة التي اقتضت الجفوة والقطيعة ان الاستاذ الامام أرسل اليه انه يرغب منه أن يساعد الشيخ محمد شاكر عند الخديو ، ويتوصل الى ذلك باخباره بأنه غير موال للشيخ محمد عبده ولا من حزبه . قال لي فلم أخيب ظنه في وساعدت الشيخ شاكر آ جهـد طاقتي . وكذلك أذن الاستاذ الامام للشيخ محمد شاكر أن يتوصل إلى الخديو باظهار الانكار عليه والبعد عنه ، واحل له أن يقول فيه كل ما يرى فيه المصلحة حتى الطمن لتمكينه من خدمة العلم في معهد الاسكندرية ، فقال : انا لا أقبل ان اعرض لك بطعن . وقد كان يتوصل الى قضاء غرضه بأن يخبر سموه أن هذا ليس على ما يحب الشيخ محمد عبده فيقضيه سموه له بهذا الاعتبار

الخديو وبطانة قصره

ومن الغريب انه لم يبق للخديو أحد من أصحاب الرأي أو العمل في البلاد يثق به حتى عبد الحليم باشا عاصم من خاص رجاله العسكريين وقد كانوا على خدمته بمجمله مديراً للأوقاف العامة وهي أكبر المناصب التي كانت لا تزال خاصة به دون الحكومة قبل جعل مصلحة الأوقاف وزارة لحرمانه منها . اقترحت على عبد الحليم باشا هذا وهو مدير الأوقاف العامة أن ينصح لسموه في مسألة لها علاقة بالانكليز ،

فأجابني ان هذا اقتراح حسن ولكنني أخشى ان نقوله له فيعرب بي إلى الانكليز!!
وأما احمد شفيق باشا فقد قضى عمره في خدمته بعد خدمة والده بالاخلاص
التمام ، وكان أدخل رجله في سياسته الرسمية وأعرفهم به وبكل أعماله وسياسته غير
الرسمية ولكن استمداده الطبيعي أميل إلى التاريخ والادارة منه إلى السياسة، وكان
له فيه وإنصاف يحب الشيخ محمد عبده وبجده ويحده من أخلص أصدقائه ، ولما زار
الشيخ الاستاذة اضطرب السلطان لزيارته ورجع من تقارير الجواسيد فيها ولا سيما
بعد اجتماعه بشيخ الاسلام هناك ونحاورهما في حلة الاسلام والمسلمين، وأراد الانتقام
منه ، وحينئذ سمى أحمد شفيق أخلص السمي لدى رئيس كتاب السلطان (باشكاتب
اللايين) ولدى سفارة الانكليز لاجل أن يخرج الاستاذ من الاستاذة من غير أن
يمس شرفه ، وكان ذلك بدون إذن الخديو وهو بمعيته في الاستاذة ، فلما علم
بذلك عابه أشد العتاب. وعندي كتاب من أحمد شفيق إلى الاستاذ الامام بذلك
لملي أنشره في موضعه الا انني به وقد انتهت خدمته الطويلة لسموه بالسخط...
وغرضي مما ذكرته من أمر هؤلاء انهم يكن الخديو أحده قيمة إلا وكان يحمل الاستاذ
الاسم في نفسه، ويذكره من وقع بين الخديو وبين الاستاذ الامام من المداوة والبغضاء ،
ويعتد أنها من سوء حظ مصر والاسلام . ولكن الخديو لم يكن يعلم هذا على شدة
عنايته بتسقط الاخبار، وأنى لئله أن يعلم الحقائق وعمدني نقل الاخبار للزدافون
للتلقون أو الجواسيس وكل منهما لا يقول لئله إلا ما يوافق هواه

واند قال الاستاذ الامام في الدرس العام الحافل في الازهر بمناسبة عرضت:
ان ضيحة للوك والامراء السفيدين تكاد تكون متعذرة لاهم يتوهمون انهم
يحتضون منصبهم أعلى من جميع رعاياهم رأيا وأوسع علماً ، فقلبي يريد أن ياتي اليهم
رأيا أو يفيدهم علماً بشي. لا يمكنه ذلك الا بحجة في الاسلوب لا يشمر من تلقى
اليه بأنه في موقف للاستفيد كأن يقول الناصح: لاشك ان مولانا ايداه الله يعلم من
أمر كذا ما لا يفهمه غيره - أو ما لا نفهم - ولا يبرز عن رأيه وحكمته انه لو وقع
كذا لكانت عاقبته ضارة أو نافعة الخ وهذا تمرى بالخديو فهمه الاذكياء كلهم

العبرة التاريخية في سيرة الخديو الأخيرة

من المعروف المشهور أن سموه كان لودعي الذكاء ، قوي الهمة ، عاملاً لا يمل ولا يكل ، وطنياً حريصاً على الاستقلال ، شديد البغض للاحتلال الإنكليزي ورجاله ، وازيد على ذلك أنه كان حريصاً على الاتفاق مع الدولة العثمانية ، وكل ما فعله مما يسوء السلطان أو حكومته فهو لاقناعهم بأنه يستطيع أن يضر وينفع ليعتمدوا عليه ويتفقوا معه . وإنما أحبط أعماله الوطنية حرصه على جمع المال والاستكثار من العقار من أي طريق كان ، واشتغاله بالتحايز الجواسيس ومعاداته لكبار الرجال ، وحيه للانتقام حتى بأفشاء الاسرار ، وذلك هو الذي اضطره إلى موافاة الاحتلال في كثير من الاعمال بطريق المساومة

وقد كانت السياسة هي الباعثة الاولى له على الاستكثار من المال والتصرف في الاوقاف لما تحتاج اليه أعمالها السرية (التي كان في غنى عنها) من النفقات ، ثم صارت مهمة المال ملكة راسخة فيه مستغرفة لجل اوقاته ، ولكن كانت العاقبة أن حرم أخيراً أكثر ما تأمله بالتبع لحرمانه مما هو أعظم منها وهو ملكه

سألته مرة في أوائل العهد بمطفه ولطفه : لماذا يشتري أفندينا الاراضي الواسعة في الضلعان من الاناضول وبلاد الدولة أكثرها خراب والامل في عمرانها ضعيف ، ولا يضع ثمنها في اطيان مصر الآمنة المطمئنة ؟ قال انني معاد لدولة قوية قاهرة معتدية على بلادتي ولا أدري هل تكون عاقبة مناوأتي لها الظفر بأخراجها ام تغفر هي بأخراجي ، فأنا أحاط لنفسي بأن يكون لي شيء أعيش منه في بلاد الدولة اذا دارت الدائرة علي . ولقد دهشت من جوابه هذا في ذلك الوقت ، وتذكرته بعد ما حل به ما لم يكن يخطر في بال أحد غيره

ومن الانصاف ان يقال انه على كل ما عرض له من الغواشي المتقدمة التي أحبطت أعماله الوطنية (ولم نجد احداً صرح بها مثلاً) قد بقي ذلك الشعور الوطني قوياً في نفسه حتى كان هو الحامل له على الاتحاد الى الدولة التركية وأحلافها في الحرب الكبرى على شدة عداوتها له ومحاولتها لاغتياله في عاصمتها ، فقد أطلق عليه الرصاص بقرب الباب العالي وأصابه ولم يقتله ، ولا يشك احد من طرفي سياسة

الاتحاديين وتعدد اغتيالهم المخالفين لهم انهم هم الذين أغروا من اطلاق عليه الرصاص بقتله وقد بالغ سفير الانكليز بالاستانة في اسمائنا وحملة على العودة إلى عرشه في مصر قبيل دخول الدولة العثمانية في الحرب فلم يقبل، فهذا اجمع الشعب المصري على حبه وان أقوى البراهين وأنهمض الحجاج على وطنيته ومقته الانكليز ومشاكسته لهم طول عمره كتاب لورد كرومر الذي سماه (عباس الثاني) وهو أعلم الناس بسياسته فهو قد أثبت فيه أنه لا يمكن أن يتفقوا معه لاجل مقاومة حزب في لندن كان يسمى لاسمالة الخديو والاتفاق معه وإعادةه الى مصر

فهرسته للبريه ومساعدته لمدرسة الدعوة والارشاد

وأختم كلامي بما ثبت عندي في العهد الاخير من حرصه على خدمة الاسلام وإحياء دعوته وبث عقائده وفضائله، وانه هو الذي حمى على دعوته إياي لمقابلته في قصره بعد عودتي من الاستانة سنة ١٣٢٩ لاقعاني بإنشاء جمعية الدعوة والارشاد ومدرستها في مصر وكفالته لها لكن بعد إنشائها كما تقدم في أول الكلام على علاقة أستاذنا بسموه (ص ٥٧٠) وإن اعتقد من كانوا يسيئون فيه الظن انه فعل ذلك لحرمان الدولة من هذا المشروع العظيم . فهو قد صرح لي بأن نجاح هذا العمل في مصر قد يقنع الدولة بنفعه لها (قال) وحينئذ ننشيء مدرسة أخرى في الاستانة ثم ننشيء نسخة من المنار باللغة التركية أيضا

وقد أهمه الشيخ عبدالعزيز شاويش تقربا للاتحاديين بأنه انما ساعدني على هذا العمل بالاتفاق مع الانكليز وانه كان يود مساعدتهم بهذا المشروع . وهذا أفظع بهتان رمي به وأبعده عن العقل، والله انه كان يخاف منهم غاية، وهاك ما يدل على ذلك قال لي انه لا يمكن له الظهور أمام الانكليز بالمساعدة على إنشاء هذا العمل العظيم فانهم يعارضونه قطعاً . وأما إذا أمكنني جمع الاعانات من المسلمين وفتح المدرسة له فانه يقوم بمساعدتها بعد ذلك كما ساعد مدرسة الجامعة المصرية وغيرها من مال الاوقاف ، وهي أولى بالمساعدة منها لانها دينية محضة

ولما أنشأنا المدرسة كبر أمرها على دول الاستعمار الاوربي عامة والانكليز

خامة وكلم بعضهم سموه في أمرها، مصرّحين له بتشاؤمهم منها، بزعمهم انها ستلقى الشقاق بين المسلمين والنصارى !! فكان سموه يجيب من كلامه في ذلك بأنه مستعد لحل كل مسئولية تنشأ عنها بشخصه ، لثقتة من مؤسسها ومن اخوانه . وأما العميد البريطاني وهو صديقه (!) السر غورست فقد كلمه في أمرها منذ أعلناه وقال له ان قناصل الدول الجنراية كاموه في شأنها فلم يثنه ذلك عن عزمه ، بل أقنعه بأنه يضمن بشخصه كل تبعه

وقد أمر مدير الاوقاف العامة في السنة الثانية لتأسيسها بان يضع لها مبلغاً في الميزانية ولكن الميزانية كانت قد تم وضعها وكان فيها مبلغ ٥٠٠ جنيه قد وضع لاجل قسم الوعظ والارشاد في الازهر وهو لم يتم تأسيسه فأعطيت المدرسة . وفي السنة الثالثة فوضع في صلب الميزانية ٥٥٠ جنيها باسم المدرسة ودفعت الي مرة واحدة ، ومثلها من الاوقاف الخديوية الخاصة . ثم حوت مصلحة الاوقاف بسمي لورد كتشنر الى وزارة وعين محمد محب باشا وزيراً لها في وزارة حسين رشدي باشا ففاوضه الخديو قبل سفره إلى الآستانة بان يضم في ميزانية الوزارة كل مقررده مجلس إدارة المدرسة لنفقاتها في ميزانية سنتها المدرسية القابلة . وقد زار الوزير المدرسة واطلع على كل شيء فيها وقرأ قانونها ، وجالسي عدة مرار للذاكرة في أمرها ، ورأى ان المبلغ المقدر في ميزانيتها لفقة السنة للمدرسية القابلة أربعة آلاف جنيه ، فوعده بان يجتهد لتوفيره كله او اكثره ، وانه سيقابل سمو الامير في الآستانة ويتلقى أمره الاخير بشأنها . ثم سافر الى الآستانة . وفي أثر ذلك اشتعلت نار الحرب العامة وكان من أمرها ما كان . وفي أثنائها جعل الانكليز صنيعتهم ابراهيم فتحجي باشا وزيراً للاوقاف وأوعزوا اليه بقطع المخصص للمدرسة في الميزانية ففعل ، بعد ان كان عدلي باشا وزير المعارف بالفعل ووزير الاوقاف بالنيابة أمر بان تدفعه أقساطا وبديء بذلك . وهذا هو البرهان الفعلي المؤيد للبراهين العقلية على بطلان اتهام الشيخ شاوليش للخدوي ولما بالاتفاق مع الانكليز ومن الشواهد على عناية سموه بخدمة الاسلام في غير مصر مساعدته للاستاذ

السيد محمد وجيه السكيلافي الذي كانت أرسلته مشيخة الاسلام في الآستانة الى (فيليني) بطلب جمهورية الولايات المتحدة الاميركانية ليتولى ادارة امور المسلمين الدينية فيها ، ثم اهتمت امره وقطعت راتبه ، فماد من هنالك ليقم في بلاده من (سورية) فلما علم الخديو بوصوله إلى بور سعيد أمر من بلغه ان سموه يرغب أن يجي مصر ويقابله في قصر عابدين ، فجاء الاستاذ وكان سمو الخديو قد أمرني بالجيء إلى عابدين في الوقت الذي يجي فيه السيد وجيه ، فاجتمعنا في حضرة سموه وبعد بحث طويل في حال مسلمي تلك الجزائر وما تحتاج اليه إقامة الدين فيهم وعد سموه بان يقوم بدفع تلك النفقات إلى استاذهم بعد عودته ، وأنجز له بعض المساعدة ومنها أن صديقنا القديم السيد محمد بن عقيل كان قد أسس في جاوة مطبعة ومجلة تصدر بلغة الملايو على مشرب المنار وتقتبس كثيراً من مقالاته ومباحثه ، ثم اضطر إلى تعطيل المجلة والمطبعة لقلة الدراهم ، وقد جاء مصر في تلك الاثناء فأخبرت سمو الخديو خبره فأمرني باحضاره إلى قصر القبة في صبيحة اليوم التالي لاجباري إياه بأمره فجئنا فأكرمه سموه وسأله عن أحوال مسلمي تلك الجزائر الدينية والاقتصادية والسياسية ، وعن مشروع مطبعته ومجلته ، فأجابه عن كل ما سأله عن معرفة - فقال له لا تترك عمالك واكتب لي تقريراً بما يحتاج اليه من النفقة كل سنة وعلى تسديد المال اللازم له بنظام مطرد

العبارة الختامية العامة

والعبارة العامة الكبرى من سيرة الخديو أنه لو ثبت على سيرته الاولى في الخدمة العامة والثقة بكبار العقلاء المصاحين لنهض بمصر نهضة أحييت العالم الاسلامي كاه - كما قال الامير الهندي محسن الملك - وان العاقبة الفضلى في كل عمل من الاعمال هي لمن يتحرى الحق والخير والمصلحة العامة ، والاعتماد في كل عمل على خيار أهله ، وان شر ما يفتن به الملوك والامراء إشار المفاقيين انتملقين ، على الصادقين النخلصين ، وهذا نص قوله تعالى (واما قبة للتقوى) وقوله (والعاقبة للمتقين)

استدراك على المقصد الثاني

﴿ والوعد بكتابة ذيل لهذا التاريخ ﴾

بقي لدينا من تاريخ عمل الاستاذ الامام في اصلاح الازهر مواد كثيرة يطول بنشرها كلها هذا الجزء ، على ما بقي من مواد عمله في القضاء الاهلي والافتاء والاوقاف والجمعية التشريعية والجمعية الخيرية وسائر المباحث ، فاخترنا ان نرجى ، كثيراً من هذه المواد إلى الجزء الرابع من هذا التاريخ الذي سيكون ذيلًا جامعاً لما له علاقة بالاجزاء الثلاثة ومن مواد تاريخ اصلاح الازهر القوانين والتقارير التي وضعها مجلس الادارة لاصلاح التعليم ولجان اختيار الكتب ، وذكرنا مجملها في أعمال مجلس الادارة (ومنها) مقالات كثيرة نشرناها في مجلدات المنار وفي غيرها من الصحف كنا نؤيدها الاستاذ الامام في عمله بالتصريح تارة وبالتلويح اخرى . ولعل أولها ما نشرناه في شعبان سنة ١٣١٦ بعنوان (محاورة في اصلاح التعليم في الازهر) أشرت فيها إلى قول بعض أكابر شيوخ الازهر : ان من ترك قول فقهاء مذهبه للاخذ بحديث نبوي فهو زنديق . وأجابه بعضهم (وهو الشيخ محمد عبده) انما الزنديق هو من يعلم صحة حديث عن رسول الله ﷺ ويستحل أن يؤثر عليه قول شيوخ مذهبه أي من غير علم بأن لهم نصاً من القرآن ومن حديث الرسول معارضاً له ومرجحاً عليه (ومنها) المواد المثبتة لتعاقب الامل الاصلاحية به وقيامه بأهم شؤونها بنفسه (ومنها) التقارير و المكتوبات التي كان يرفعها اليه الازهريون فيما يشكون منه وما يرجونه لانفسهم والازهر ، كطلب جماعة منهم تعيين معلم لأحدى اللغتين الاوربيتين الانكليزية او الفرنسية . وهؤلاء قد صاروا كلهم مدرسين في الازهر (ومنها) اوراق أخرى كان يحفظها رحمه الله أغربها كشف بأسماء أشهر علماء المذاهب الاربعية في الازهر وفي جانب اكثر الاسماء إشارة بخطه إلى من يوثق بعلمه وعمله منهم وما يقابل ذلك . ومنها صورة عريضة رفعها زهاء ٣٠٠ طالب من الازهر الى سمو الامير بالشكوى من العلماء الذين سعموا لابطال الامتحان والظلم فيهم وأما وصف دروس الاستاذ الامام وآثيرها في الاصلاح الديني واللغوي رفواندها ، وارجاف الحاسدين بها ، فسيأتي لها موضع في هذا الجزء إن شاء الله تعالى .

المقصد الثالث

من الفصل السادس

عمله في منصب افتاء الديار المصرية

صدر الامر العالي من سمو الخديو بناء على قرار مجلس النظار بتعيين الاستاذ الامام مفتياً للديار المصرية، لست بقين من المحرم سنة ١٣١٧ (الموافق ٣ يونيو سنة ١٨٩٩) وكان الامير هو الذي اختاره لذلك عقب حادثة قاضي مصر وفصل الشيخ حسونة من الافتاء ومشيخة الازهر — وقد توقع سموه منه أن يرفض الافتاء بدون المشيخة ، فكلف صديقيه مصطفى باشا فهمي رئيس النظار وحسن باشا عاصم رئيس التشريعات أن يحسنا له القبول وقال للثاني : اخبر صديقك بأنه إذا لم يقبل الافتاء الآن فاني أعد ذلك منه إيقاعاً لي في صعوبة شخصية مع الاحتلال ، وأنا أعترف بأنه قليل عليه ولكن الامور مرهونة باوقاتها

أظن انني كنت أول من قابل الاستاذ بعد العلم بهذه المسألة . ذهبت إلى داره في عين شمس فألفيته واجماً كئيباً فلم أهنئه فظن انني لم اعلم فساأني ألم تعلم بما جرى في الاسكندرية ؟ قلت بلى ومالي أراك واجماً ؟ قل هذه وظيفة ليس فيها عمل . وذكرو لي تفصيل ما حصل من أوله إلى آخره . وأن الخديو قال لمستشار الحفانية : الآن أوجدت لك مفتياً تستطيع أن تفهم منه ويفهم منك بلا واسطة ولا ترجمة قلت : إذا لم يكن لغيرك في هذه الوظيفة غير إفتاء الحكومة فيما تستفتي فيه ، وإفتاء محاكم في مسائل الحكم بالقتل ، فأنت ان تكون كذلك ، وخطر في بالي ما كتبته بعد ذلك في المنار وهو ان الرجل الذي أمكنه أن يجعل التحرير في جريدة الحكومة الرسمية وسيلة إلى الاصلاح في جميع أعمال الحكومة ولا سيما وزارة المعارف ، ووسيلة إلى الاصلاح الاجتماعي والديني في الامة — لا يعجزه أن يجعل أكبر منصب شرعي وسيلة إلى الاصلاح الاسلامي العام من نواح كثيرة . وكذلك كان قد خدم بهذا المنصب القضاء الشرعي والاوقاف والمساجد وجمعية الشورى فأذكر عمله في هذه الثلاثة وأقفي عليها بالكلام على فتاويه وأبدأ الكلام بتأثير تقليده هذا المنصب في الامة

تأثير تقليده منصب الافتاء في الامة

وتنهائها له ﴿

توقع العارفون بفضل الاستاذ الامام من الخير والاصلاح بتقليده منصب الافتاء العام فوق ما توقعه هو بتواضعه وهضمه لنفسه ، ودون ما أهله الله تعالى له بنعمته وفضله ، وأكتفى هنا من التهاني الشعرية التي نظمت له بثنتين منها ، وأرجىء سائر ما اختاره منها للنشر الى ذيل هذا التاريخ

التهنئة الاولى

﴿لاديب العلماء صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ عبدالرحمن قراءة الشهير﴾

(وهو من أوائل تلاميذ الاستاذ الامام ومن اخوانه ، وقد تولى منصب الافتاء من بعده)
بهديك في الفتوى إلى الحق نهدي
ومن فيض هذا الفضل نجدني ونجدي
سمت بك للعلياء نفس أيبسة
وعزمة ماض كالحسام المجرد
ورأي رشيد في الخطوب وحنكة
ونجربة في مشهد بعد مشهد
وعلم كنور الشمس لم يك خافيا
على أحد إلا على عين أرمـد
فضائل شتى في الافاضل فرقت
ولكنها حات بساحة مفرد
ولو جاز تعدادي لها لعددها
ولكنها جازت مقام التعدد
فقيم أطيل القول والشعر قاصر
وماذا يني قولي ويعني تزدي؟

أمولاي يا مولاي دعوة مخلص
للكل زمان من بنيـه مجدد
نقول فيصغى أو تؤم فيقتدي
وقد علم الاقوام ان محمداً
لما أبلت الالهواء من دين أحد
عينا بن بالفضل خصص (عبده
مجدد هذا الدين في اليوم والغد
محمداً) الداعي لهدي محمد
وقلده عقد الفتاوى فأصبحت
تتبعه به الغفيا بخير مقلد

لتخترقن الحجب بالرشد لا الهوى
فتوضح من إشكاله كل غامض
إليك أرف المدح شـمراً مقصداً
لأبلاغ نفسي بامتداحك سؤلها
فجاء على قدري ولكن شافعي
وهنأت نفسي ثم هنأت معشري
وقلت لمصر: هنئيه وأرخي
سنة ١٣١٧

قد سبق التاريخ عسراً فلم أجد
فزدت كما أبغي ومن يُلف مخلصاً
فلا زلت يا مولاي فينا محسداً
من الياء بدأ بعد طول تردد
من النقص يطلب للكمال ويزدد
وحاسدك المغبون غير محمد

﴿ التهنئة الثانية لشاعر النيل محمد حافظ بك ابراهيم ﴾

(وكانت هذه الايات مبدأ اتصاله بالامام وشهرته بالشعر الاجماعي الراقى
كما توقعت ذلك في المنار)

باعتك لم أنسب ولم أتغزل
ولما اصف كأساً ولم بك منزلاً
فلم يبق في قامي مدبحك موضعاً
رأيتك والابصار حولك خضع
وخفضت من حزني على مجد امة
طاعت لها باليمن من خير مطلع
وجردت للفتية حسام عزيمة
محوت به في الدين كل ضلالة
لن ظفر الافتاء منك بفاضل
فما حل عقد المشكلات بحكمة
ولما أفف بين الهوى والتذلل
ولم أتجمل فخراً ولم أتنبل
تجول به ذكرى حبيب ومنزل
فقلت أبو حفص بهرديك ام علي؟
تداركتها والخطب للخطب يمتلي
وكنت لما في الفوز قدح ابن مقبل
بجديه آيات الكتاب المنزل
وأثبت ما أثبت غير مضلل
لقد ظفر الاسلام منك بأفضل
سوانك ولا اربى على كل حوّل

عمده في تفتيش المحاكم الشرعية وإصلاحها

كان أول عمل عهدت به إليه الحكومة بعد تقليده الافتاء تفتيش المحاكم الشرعية وبيان رأيه في إصلاحها، بعد أن ضجت البلاد كلها من كثرة الشكوى من خللها، وارتأى بعض الباحثين وجوب إلغائها، وتحويل اختصاصها إلى المحاكم الأهلية بمجة توحيد القضاء، وإدعاء أهلية قضائها للحكم في الاعمال الشخصية الدينية لأنهم يتعلمون الفقه الاسلامي في مدرسة الحقوق الخديوية، ومن يتعلم القوانين في غيرها كفرسة لا بد له من أداء امتحان في الشريعة قبل جملة قاضيا أو قبوله محاميا، وقد كتبت في ذلك الوقت في جزء النوار الذي صدر في ١٦ صفر سنة ١٣١٧ (٢٤ يونيو سنة ١٨٩٩) ما نصه:

﴿ إعطاء القوس باربها ﴾

لا خلاف في ان المحاكم الشرعية في القطر المصري كله في اختلال عظيم تحتاج بسببه إلى اصلاح عظيم، ولكن اصلاحها أعيأ أطباء النظام، والجالسين على أرائك الاحكام، فسماحة قاضي القضاة على فضله ونبله لم يداو لها عللا، ولم يصاح خلا، واقد مكث في منصبه هذا بضع سنين، بحيث يصح أن يقال له (اولم نمرمك مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير) وحوتم الحكومة حول الاصلاح غير مرة ولكن لم تقع عليه، ودمت إليه عدة حكام فأخطأت كلها الفرض، فاجعت آراء أولي الامر، عقب ذلك الامر الامر. وبعد إجالة فداح الفكر، على إعطاء القوس باربها، علما بأن صاحب الدار أدري بما فيها، اتفق الجميع على تفويض العمل إلى علامة الشرع والاحكام، وحكيم الادارة والنظام، الذي لم يعرف له ثاب متبحر في علوم الدنيا والدين، جامع بين الارادة الفعالة والفيرة على مصلحة المسلمين، الا وهو استاذنا الاكبر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ناطت الحكومة بفضيلته تفتيش المحاكم الشرعية ووضع الاصول التي يراها كافية لإصلاحها، فتلفت جميع الجرائد هذه البشرية بالبشر والارتياح، واتفقت

على اختلاف منازعها ومشاربها على أن هذا هو طريق النجاح ، وأعربت عن
الامل باصلاح الخلل ، وإزالة العلل ، فدل هذا على أن الاستاذ هو الرجل الفرد
الذي نال الثقة الكاملة من مجموع الامة حاكما ومحكوما ، فليتأمل هذا بعض
المخدوعين ، الذين يأخذون ترجمته من أفواه الحاسدين وخرص المذاعين " اهـ

تقريره في اصلاح المحاكم وموضوعاته

طاف الاستاذ اكثر محاكم الوجه البحري وصحب معه الاستاذ الشيخ احمد
ادريس من أعضاء محكمة مصر الشرعية ، ففتشها تفتيشاً دقيقاً ووضع تقريره فيما
رأى من خلل ، وما ارتأى ل مداواة العلل ، فبدأ الكلام مرتباً هكذا (١) الحاجة
الى هذه المحاكم ووظائفها (٢) أماكنها وتقصير الحكومة فيها مع اشادتها لاماكن
المحاكم الالهية (٣) المكتبة (٤) القضاة (٥) الحجاب (٦) الاعمال الكتابية (٧) ما يكفل
السرعة في العمل (٨) الدفاتر (٩) العقود التي ترد على المحاكم الشرعية من المحاكم
المختلطة (١٠) الدفترخانات أي خزائن الدفاتر المحفوظة (١١) الاعمال الحسابية
(١٢) تقييد القاضى كل ما يرد عليه (١٣) تشكيل المحكمة (١٤) اختصاص المحاكم
الشرعية مادة ومكاناً - وفي هذا الفصل اقترح أن يزداد في اختصاصها في مقابلة
من يريدون النقص منها ، دع من يسمعون لالغائها (١٥) الرافعات (١٦) الاعلان
أو الطلب والاعذار (١٧) التوكيل في المحاصمات (١٨) الجلسات (١٩) حضور
الخصوم (٢٠) المرافعة (٢١) ما ينطّل به الدعوى بدون سؤال الخصم (٢٢) الشهادات
والادلة (٢٣) الدفع وما يتبعه من المعارضة في الحكم على الغائب (٢٤) الاحكام
(٢٥) ما لا تسمع فيه الدعوى (٢٦) التنفيذ وفيه الشكوى من مفساد كثرة الزوجات
للفقراء (٢٧) التفتيش (٢٨) المحامون (٢٩) ما ذنوب عقود الزواج (٣٠) اللاتخمة
أو اللوائح التي وضعتها وزارة الخفائية لهذه المحاكم وما فيها من النقص
بين هذه المسائل في ٨٣ صفحة وقل في آخرها انها اجمالية يفصلها لوزير

الحقانية بالمذاكرة الشفاهية. وانني أنشر في هذا التاريخ مقدمة هذا التقرير الذي اجتمع الناس والجرائد على الاعجاب به مع الفصل للذي عقده لبيان الحاجة الى هذه المحاكم . ثم اقفى عليه بالمقدمة التي بينت فيها مقاصده الاصلاحية

(قال بعد صيغة الخطاب الرسمي التي خاطب بها ناظر الحقانية)

علمت عقب تعييني في وظيفة افتاء الديار المصرية ان سأكون عضواً في اللجنة التي عازمت الحكومة الخديوية ان تكل اليها النظر فيما يجب ادخاله على المحاكم الشرعية من الاصلاح الشرعي والنظامي ، فرأيت من الواجب علي أن أكون على بصيرة من الامر العظيم الذي سأدعى إلى البحث فيه ، وانه لا يتم لي ذلك إلا بالاطلاع على ماهو جار في هذه المحاكم والبحث في الملل التي عم الكلام فيها ، وما يجب أن يوضع لها من الدواء ، مع الحرص على قواعد الشرع وأصوله ومراعاة مصالح العامة ، والآخذين باحكام الشريعة المطهرة في عقائدهم ومعاملاتهم ، وازالة ما عمت منه شكاوهم ، مما ينسب إلى اعمال المحاكم او العوائد المتبعة في سير أعمالها ، ورأت نظارة الحقانية ما رأيت فسالنتني أن أمر على المحاكم مدة الصيف الماضي وأنظر في أعمالها وأقدم لها نتيجة ما يتيسر لي من البحث في أحوالها ، فطفت على كثير من محاكم الوجه البحري واطلمت على ما أمكن الاطلاع عليه من سجلات ومضابط ومرافعات وسير في الاعمال ، وعرضت ذلك على ما تقر من أحكام الشريعة الغراء ، وما وضع من اللوائح للمحاكم الشرعية ، واستخلصت مجموع آراء أقدمها بين يدي سعادتك وأرجو أن تكون موضوع نظر يأتي بالفائدة إن شاء الله ، وسألم في تقريري هذا بام ما يجب النظر فيه الآن ، وأدع مادون ذلك إلى المستقبل ، وأبدأ مما أقصد بمقدمة قصيرة في بيان موضع المحاكم الشرعية من بناء الحكومة المصرية ، ومنزلتها من مصالح الامة الاسلامية :

(الحاجة الى المحاكم الشرعية)

تدخل المحاكم الشرعية بين الرجل وزوجته ، والوالد وولده ، والاخ وأخيه ،
والوصي ومحجوره ، وما من حق من حقوق القرابة القريبة او البعيدة إلا ولها
سلطان السيطرة عليه والقضاء فيه ، وانها تنظر من ذلك في أدق الشؤون وأخفاها ،
ويسمع قاضيها مالا يسمح لاحد سواء أن يسمعه سوى ما يكون من الزوج لزوجته
او الزوجة لزوجها ، فكما انها هياكل عدل ، هي كذلك مستودع سر وأي سر ،
فمنزاتها من نظام الامر (العائلات) تلي منزلة المحبة وروابط القرابة ، فاذا تراخت
تلك الروابط ومرضت المروآت تعلق حفظ نظام البيوت بالمحاكم الشرعية .
وللشرعة الاسلامية في ذلك دقائق لايسهل الالتفات اليها إلا على من أحاط علماً
بكليات أحكامها ، ووقف بالبحث الصحيح على مقاصدها ، ووصل إلى أدق معانيها ،
وكان من العلم باقتها في منزلة يعرفها له أربابها ، وان يكون الرجل كذلك حتى يأخذ
الشرع عن أهله ، وتكون تربيته على السنة الدينية الصحيحة ، ثم لا يكون القاضي
حافظاً لنظام الاسر والبيوت - بعد الاحاطة بأحكام الشرع - حتى يكون للشرع
وأحكامه سلطان أي سلطان على نفسه .

رأيت أغلب اهل الطبقة الدنيا ، وعدداً غير قليل من اهل الطبقتين الوسطى
والعليا ، قد ودعوا عواطف انصهر والقرابة ، ولجأوا في علاقتهم الدينية إلى المحاكم
الشرعية ، فحق النفقة والسكنى ، وراحة الزوجة من منازعة اهل الزوج ومن في
مؤنته ، والقيام بشؤون الاولاد وتربيتهم إلى سن معلوم ، وما يلزم لذلك كله ، مرجعه
الآن إلى المحاكم الشرعية عند من ذكرنا ، ولا يخفى ان الشعب انما هو مؤلف من
البيوت التي تسمى عائلات ، وأساس كل امة عائلاتها ، لضرورة ان السكل انما
يقوم باجزائه ، ولما تعلقت مصالح البيوت في أدق روابطها بالمحاكم الشرعية كما
هو الواقع اليوم ، تبين مقدار حاجة الامة في صلاحها إلى صلاح هذه المحاكم ،
وظهر ان منزلتها من بناء الحكومة المصرية منزلة الركن الذي لو ضعف ظهر
أثر ضعفه في البنية بتمامها

إذا ظهرت هذه المحاكم في مظهرها الديني الجليل، وسارت سيرتها الشرعية القويمة، أدخلت أصول النظام في اصغر البيوت فضلاً عن أعلاها، وأعدت بالمعادلة الابوية ما فقدته الناس من نظام الالفة، وقد رأينا ان الرجل يدخل المحاكم الاهلية مخافاً، فيخرج منها محامياً، فأحر بمن يقوم بين يدي قاض ينطق بالعدل الالهي أن يتقلب وفي نفسه أثر من خشية الله

للمحاكم الشرعية بعد ما تقدم نفاذ في حقوق الميراث وأصول الاوقاف والاستحقاق فيها، وإليها وحدها انفصل في ذلك، والمحاصمات في هذه الطائفة من الشؤون ليس عددها بقليل، وكم رأينا من قصايا أوقف النظر فيها أمام المحاكم الاهلية حتى يقضي الحاكم الشرعي فيما بني عليه الحق المتنازع فيه. هذا إلى ما عهد إلى تلك المحاكم من تحرير العقود الرسمية في كل باب من أبواب المعاملات ولا تزال ثقة الناس بها أشد من ثقتهم بالمحاكم المختلطة، ويعدون التسجيل في أقلام كتاب المحاكم المختلطة ضرباً من التساهل يأتيه من لا يريد بناء أمره على أساس متين. ههنا هم قوم بتضييق دائرة اختصاص هذه المحاكم وجدوا عقبات في طريقهم

وصعب عليهم المال، ولئن نجحوا فلن يستطيعوا أن يضعفوا من حاجة الناس إليهم، فن الحق أن يشتكي الناس من الاعتلال الذي عرض لها، ومن الحق إن ارتفعت أصواتهم بطالب الإصلاح، ومن العدل بل من الواجب الذي لا تبرأ الذمة إلا بأدائه، أن تسمع الحكومة شكوى الكافة وإن تنهض لتخفيف آلام الشاكين، وتدخل إلى الإصلاح من أبوابه، وجزى الله كل من اهتم بشأن هذه المحاكم خيراً

سبق لي سعي لدى الجنب العالي الخديوي في اصلاح المحاكم الشرعية في سنة ١٨٩٦ يوم لم يكن لي ناقة فيها ولا جمل^(١) ولم أكن إلا واحداً من الناس أشعر بالآلامهم وآلام الشريعة مما كان جارياً فيها إذ ذاك، وتفضل جنابه الفخيم بقبول ما التمس منه وناط بي وبجماعة من الفضلاء وضع مشروع لازالة ما فيها من العمل وتقديم تقرير يبين ما فيها من العيوب، فتمت اللجنة عملها ووضع المشروع وقدم

(١) يعني أنه لم يكن له يومئذ صفة رسمية يخاطب بها الخديوي في ذلك. وقد بينا في أول المقصد انني انسمي لدى سموه لاصلاح المحاكم الشرعية والازهر والاقواف

للتقرير ومضت مدة ، ثم نهض المستشار القضائي المستر سكوت لوضع اللائحة الجديدة فأرشدته إلى ذلك المشروع لعله يأخذ منه ما يراه حسنا ، وقد فعل وظهرت اللائحة الجديدة وفيها الدواء الكثير لبعض ما وصفته من العمل

لكن اللائحة وضعت على عجل واختلاف فيها النظر ما بين النظارة وبعض المشايخ ، فاهملت قيود كان يجب اثباتها ، وأغضت نصوص لمداواة بعض من يزعمون أن العدالة شيء ، والشرعية شيء آخر (برأ الله الشريعة مما قالوا) فاشتبه الأمر على منفيها ، وكثر الخطأ في تطبيقها على العمل ، وتنوعت ملاحظات القضاة على كثير من موادها ، وأصاب المتقاضين عظيم من الضرر ، وساعد على هذا كله إهمال المحاكم وعدم تهديدها بالمراقبة والتفتيش ، ودخول النظارة في كثير من الأعمال القضائية التي يرجع فيها القضاة والمتقاضون إليها ، وعذر النظارة أن القائمين بأعمال هذه المحاكم متمسكون بمبادئ يزعمونها شرعية ، وما هي منها في شيء ، ويحافظون على رسوم وألغاز إن اقتضاها حال لم يقتضها آخر ، مع أن روح الشرع إنما هو الحق والعدل ، والتزام الصدق في القول ، والاخلاص في العمل ، فلا يباح في ديننا لأحد أن يكذب كذبة واحدة لتقوية حجته ، والدين كافل لكل بالوصول إلى حقه من أقوم الطرق وأهداها ، على أن حل المحاكم بعد صدور اللائحة الجديدة خير منها قبل ذلك وأرفع بدرجات

وشكوى الناس تنحصر في صعوبة المعاملة مع الكتاب ، وطول الزمن على القضايا خصوصا إن كانت مهمة ، وخفاء طرق المرافعات حتى على العارفين بأحكام الشريعة ، فضلا عن سائر العامة ، وهوى القاضي أو ضعف يقظته ، وشكوى القضاة تنحصر في رداءة مقامهم ، والتقتير عليهم في المرتبات وسائر النفقات التي لا بد منها ، والنظام يشكو من التساهل في المحافظة عليه . وسيا في الكلام على جميع ذلك لكن على ترتيب آخر . فاني سأبدأ في عرض ما ينبغي أن يكون بما بدا لي على ترتيب ما يلاقي الذاهب إلى المحكمة لشأن من شؤونه اه

[المؤلف] لقد كان كل كاتب وكل عالم في مصر يعجز عن كتابة مثل هذه المقدمة بل لم يكن أحد يحيط علما بما يدته بالاجمال فكيف لو كان كاتبها شرحا أو فصلاها

مقدمة الناشر للتقرير

نشرت التقرير في المنار وطبعته على حدته ووضعت لنشره المقدمة التالية

بسم الله الرحمن الرحيم

فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ *
وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ

ان من طبيعة الناس وعادهم الشكوى مما يتألمون منه لضياح مصالحهم ومنافعهم
ووقوع الحيف والظلم عليهم إذا وجدوا لذلك سبيلا ، وقد كثر في هذه السنين
الاخيرة الخوض في أمر المحاكم الشرعية في مصر ، وعمت الشكوى منها - الرعية
تشكو من ضياع حقوقها ، والحكومة تشكو من القضاة ، والقضاة تشكو من الحكومة -
وقد أرادت نظارة الحفانية أن تشرع في اصلاح هذه المحاكم في هذه السنة فابتدأت
بوضع المشروع المشهور ، وهو انتداب قاضيين من قضاة محكمة الاستئناف الاهلية
ليكونوا عضوين في محكمة مصر العليا ، فقامت لهذا المشروع قيامه المسلمين في مصر ،
ولم يرض به أحد من خاصتهم ولا عامتهم ، وكثر الطعن في الحكومة بسببه قولا
وكتابة في الجرائد ، ثم انتهى الامر بتوقف الجناح العالي الخديوي أعزه الله عن تنفيذه ،
وبقيت الشكوى عامة من سوء حال هذه المحاكم مجما عليها ، حتى من قضائها والوظائف فيها
نم عهدت الحكومة إلى رجل من أكابر علماء الشرع الاسلامي ، ومن
واسعي الاطلاع في القوانين الوضعية ، والعارفين بأحوال الزمان . ألا وهو الاستاذ
العلامة الشهير الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية لهذا العهد بان ينظر في أدواء
المحاكم الشرعية ومزاجها ، ويبين دواءها ويصف علاجها ، ويضع في ذلك تقريراً ،
فحق الناس في أمر صريح (١) حتى ظهر التقرير ، فإذا هو لم يغادر صغيرة ولا كبيرة

(١) اعني أنهم كانوا مضطرين في خطة الاستاذ وما سيقدره بعد تفتيشه لها

لاختلافهم في نيته وغرضه كما يعلم من الصفحة التالية

إلا أحصاها ، وبين مبتدأها ومنتهاها ، ووصف علاجها ودواها . وأظهر تماماً أن خال هذه المحاكم بعضه من تقصير الحكومة نفسها ، وبعضه من تقصير القضاة والكتبة . وقد أجمع المظالمون على التقرير من أهل العلم الشرعي وغيرهم على أنه جمع قواعي ، وإرشاد إلى الإصلاح الحقيقي وهدى ، وأثبت عليه الجرائد كلها على اختلاف مشاربها ومذاهبها ، وتشوفت نفوس سائر الناس للاطلاع عليه ، وهذا ما حملنا على طبعه ، قصد تميم نفعه

يقول بعض الناس : إن الحكومة لو لم تكن تقصد الإصلاح الحقيقي للمحاكم الشرعية لما طلبت من هذا الاستاذ بيان الإصلاح ، وهي تعلم أنه لا يجايبها ، لأنه لا تأخذه في الحق لومة لائم ، والسواد الأعظم لم يزل سيئ الظن بالحكومة معتقدين أنها مدفوعة من القوة المحتلة إلى إلغاء هذه المحاكم ، لأنها أكبر شعار ملي للامة الاسلامية^(١) ويقولون أنها لم تكن تتوقع من هذا الاستاذ بيان تقصيرها وحماها على الإصلاح الحقيقي ، وقوي عندهم هذا الظن بتأجيلها النظار فيه ، ويتحدثون بأنها لا بد أن تغري بعض من يعينهم الامر حتى من رجال الشرع بالانتقاد على بعض ما جاء فيه ، وتتخذ ذلك حجة أمام الامة على عدم تنفيذه ، وسيظهر لهم عن قريب فساد الظنة ، وخطأ التهمة ، ويرون الحكومة إن شاء الله تعالى مجتهدة في تنفيذ ما يسمح الوقت بتنفيذه منه ، كما يجب عليها لدينها وأمتها . وأرجو أيضاً أن يروا من المحتلين مساعدة لا معاندة ، ولا سيما فيما يطلب للمحاكم من المال ، فإن التوسيع في النفقة على محاكم هذا شأنها وهذه مكائدها من نفوس الامة أولى من الاتفاق على اختبار الاسماك وتأليف كتاب فيها وهو ما سمحت له الحكومة بالفجنية ولا يمكن أن توجد فرصة يبرهن فيها المحتلون لمسلمي مصر بل وسائر المسلمين

(١) أصرح الآن بأن الاستاذ الامام نفسه كان يعتقد ان مشروع تعيين قاضين من مستشاري الاستئناف للمحاكمة الشرعية العليا كان تمهيداً لإلغاء المحاكم الشرعية بتعويد الناس على رؤية المترين باللباس الافرنجي والطربوش يتولون الاحكام الشرعية وقد صرح لي بأن الذي وضع ذلك المشروع هو بطرس باشا غالي لاجل سبب المسلمين آخر ما بقي لهم في الحكومة من امورهم المالية

على احترام الدين الاسلامي وارادة الاصلاح الحقيقي في مصر مثل هذه الفرصة، وليس من الحكمة أن تضع ولا يغتصبها القوم الذين قاعدة سياستهم هذه الكلمة « نحن لا نوجد الفرص ولا نضيعها »

ان الغيرة الدينية المتدفقة من روح واضع التقرير قد غمرت المحاكم الشرعية وقاض معينها على الازهر الشريف ، وما يتبعه من معاهد العلم الشرعي، فكما أشار باصلاح أما كن المحاكم وأثاثها، والتوسعة على القضاة والكتابة في الرواتب، واستقلالهم في الرأي ، والعناية بتنفيذ أحكامها الخ أشار أيضاً بمحصر موظفي المحاكم في المتعلمين في الازهر وما يتبعه ، وباصلاح التعليم فيه بإنشاء قسم للتعليم القضائي يتخرج منه القضاة (راجع صفحة ١٤ منه) وآخر يتخرج منه الكتاب (راجع صفحة ١١ منه) وبأن يكون مأذونو العقود من طلاب العلم في هذه المعاهد أيضاً (راجع صفحة ٨٠)

جرى صاحب التقرير في تفتيش المحاكم وابداء رأيه في اصلاحها على مبدأ حكيم ، وهو كون الاحكام والنظام على وفق المصالح والمنافع الوجودية، إذ لا تقدر الحكومة على تغيير شؤون الوجود بنظامها، كما ان الشريعة لم توضع لتحويل سنن الـكون باحكامها (وان تجد لسنة الله تحويلاً) فتصاري ماطلبه من الحكومة أن تجعل عنايتها بالمحاكم الشرعية كعنايتها بالمحاكم لاهلية، وان توسع دائرة اختصاصها كما سنبينه . وقصارى ماطلبه من القضاة أن يفهموا أقوال الفقهاء ومقاصدهم في الاحكام التي استخرجوها من الشريعة لوقاية مصالح الخلق وحفظ حقوقهم ومنافعهم، لا ان يأخذوا بظواهر ألفاظهم ظانين انهم متعبدون بها، فان القاعدة المتفق عليها في العقود والمعاملات هي « ان العبرة بالمقاصد والمعاني، لا بالالفاظ والمباني » والفقه هو الفهم فمن يأخذ بظواهر الالفاظ فهو ليس بفقيه، ولا يجوز أن يكون غير الفقيه قاضياً يحكم بين الناس . وليس عندنا كتاب نتعبد بالفاظه إلا كتاب الله تعالى ، ومع ذلك نرى جميع العلماء من المتكلمين والفقهاء وغيرهم (رضي الله تعالى عنهم) قد أجزوا فيه التفسير والتأويل ، ولم يأخذوا بظواهر ألفاظه كلها مع انها منزلة ومتواترة ومحفوظة من التحريف ، فكيف نأخذ بظواهر

ألفاظ الفقهاء من غير فهم ، وليس لها مزية من هذه المزايا .
يتبرم بهذا الطلب القضاة الذين لا فقه لهم ، وإنما ألفوا الألفاظ تعلمها أكثرهم من
كتاب المحاكم ، ويتبرم به بعض من يعلم منهم أنه الحق الذي لا تقوم للشرع قائمة إلا
به ، ولكنه يغمطه حسداً وكبراً ، ويحاربه هؤلاء بسلاح التمسك بطواهر الألفاظ بعض
الفقهاء على أنها متعبد بها لا يعقل معناها ، فإن لهم في هذا غرائب ، بين التقرير كثيراً
منها ، كظنهم أن ذكر اسم الأب والجد في تعريف المدعي والمدعى عليه مطلوب لذاته
(راجع باب المرافعة وما بعده من التقرير) وسمعت أن بعض القضاة أنكر أن
الشهادة مطلوبة للعلم بالمشهود به !!!

الشريعة الإسلامية شريعة عامة باقية إلى آخر الزمان ، ومن لوازم ذلك
أنها تنطبق على مصالح الخلق في كل زمان ومكان ، مهما تغيرت أساليب العمران .
وشريعة هذا شأنها لا تنحصر جزئيات أحكامها ، لأنها تتعلق بأحوال البشر ما وجدوا ،
ولا يحيط بذلك علما إلا عالم الغيب والشهادة ، وهو الذي جعل أساسها حفظ
الدين والنفس والعقل والعرض والمال ، إذ مصالح البشر في كل آن مبنية على حفظ
هذه الأشياء التي فيها السعادة في المعاش والمعاد . وقد استخرج الأئمة والفقهاء
رضي الله عنهم أقواعد الكلية والأحكام الجزئية ، وبنوها على أساس هذه الأصول
الخمسة . ومن القواعد المتفق عليها بينهم أن العبرة بالمعاني لا بالألفاظ ، كما مر آنفاً
وأن الضرورات تبيح المحظورات ، وأن المشقة تجلب التيسير ، وأن الأمر إذا
ضاق اتسع ، وأن الضرر الخاص يتحمل لدفع الضرر العام ، والضرر الأشد يزال
بالأخف ، وأن الحاجة تنزل منزلة الضرورة عامة أو خاصة ، وأن الأحكام تتغير
بتغير الأزمان ، وأن التعيين بالعرف كالتعيين بالنص ، ومن فهم كلام أئمة الفقه
حق فهمه ألفاه لا يتعدى هذه القواعد ، فيجب على القضاة جمعها آلة لفهم كلامهم
والحكم به لتحفظ الحقوق . على أن فضيلة صاحب التقرير على علم بعجز أكثر القضاة
الحاليين عن ذلك ولذلك طلب ما تراه في الأمر الثاني والثالث من التقرير
من أهم ما طلب في التقرير أمران يتعلقان بحاكم مصر أشد تتعلق ، وأمر
يعتبر إصلاحاً إسلامياً عاماً :

(الامر الاول) توسيع دائرة اختصاص المحاكم الشرعية ، وفي هذا مخرج للحكومة من كثرة شكوى المحاكم الاهلية الجزئية من كثرة القضايا حتى ان الحكومة اضطرت إلى تحويل عمد البلاد الحكم في بعض القضايا المدنية ، ولما رأت ان سيرهم ومعارفهم لا تمكنهم من اقامة العدل فيها عدلت عن تعميم هذا المشروع إلى انتخاب بعض منهم للتجربة ، والمعارفون بحل البلاد يعلمون ان الحكومة لا تنجح في هذا ، ولا سبيل لخروج الحكومة من هذه الحيرة إلا بتحويل المحاكم الشرعية الحكم في كثير من القضايا المدنية . ولا يوجد مانع للحكومة من ذلك الا تمسك بعض المنتظمين ممن ينتسبون إلى الشرع ويجهلون مقاصده بعوائد وأفاظ في المرافعات الشرعية ليست من الشرع في شيء وبها يجهلون الحكم بالشرع متعذراً وهذا أعظم جناية عليه .

(الامر الثاني) عدم حصر منصب القضاء الشرعي في الحنفية لما بينه في صفحة ١٥ وليس هذا قولاً بالحكم بغير مذهب الحنفية ، فقد صرح هناك بان فقه المذاهب الاربعة متقارب ، والاختلاف في الفروع مذكور في أغلب كتب الفريقين ، فيمكن لمن برع في فقه الشافعية مثلاً أن يفهم فقه الحنفية بسهولة . وقالت جريدة المؤيد الغراء : ان هذا وقع بالفعل فان فضيلة الاستاذ صاحب التقرير يعد في مقدمة القضاة الحنفية وهو مالكي المذهب ^(١) والاستاذ الشيخ عبدالكريم سلمان أحد قضاة المحكمة الشرعية العليا من أمهر القضاة وهو شافعي المذهب ، بل نقول ان العلماء كانوا يقولون ان من برع في علم من العلوم يمكن أن يهتدي به الى سائرها ولهم في هذا آثار مشهورة

وقد رأيت في فاتحة كتاب (أقضية الرسول) عليه السلام للعلامة أبي عبدالله محمد بن فرح المالكي مانصه « وافق مالك والشافعي وابوخنيفة رحمهم الله تعالى على انه لا يجوز لحاكم أن يحكم بين الناس حتى يكون عالماً بالحديث والفقه معاً مع عقل وورع . وكان مالك رحمه الله يقول في الخصال اني لا يصلح اقاضي الا بها :

(١) كان الاستاذ قد طاب فقه المالكية أولاً ونزى عليه ولكنه تعام فقه الحنفية في الازهر وامتنح فيه امتحان العالمية واخذ شهادتها به

لا أراها اليوم تجتمع في أحد، فإذا اجتمعت في الرجل خصلتان رأيت أن يولى - العلم والورع . قال عبد الملك بن حبيب « فإن لم يكن فعقل وورع ، فبالعقل يسأل وبه تصلح خصال الخير كلها ، وبالورع يعضد ، وإن طلب العلم وجدته وإن طلب العقل إذا لم يكن فيه لم يجده » اهـ وهو حجة للاستاذ صاحب التقرير في تحميمه اختبار جميع موظفي المحاكم في سيرتهم وأخلاقهم ، لا في الفقه فقط بالنسبة إلى القضاة ، وفي الكتابة لحسب بالنسبة إلى الكتاب :

وقد صرح في كتاب الأحكام السلطانية بأنه « يجوز لمن اعتقد مذهب الشافعي رحمه الله أن يقلد القضاء من اعتقد مذهب أبي حنيفة » الخ ، وقد طلب أهل الساجانية وكلهم شافعية من مولانا السلطان عبد الحميد خان أن يولي عليهم قاضياً من أهل مذهبهم ففعل (الأمر الثالث) أن تؤلف لجنة من العلماء لاستخراج كتاب في أحكام المعاملات الشرعية ينطبق على مصالح الناس في هذا العصر - ولا سيما الأحكام التي هي من خصائص المحاكم الشرعية - يكون سهل العبارة لا خلاف فيه كما عملت الدولة العلية في مجلة الأحكام العدلية ، ولا يكون هذا الكتاب وافياً بالقرض وأقياً للمصالح إلا إذا أخذت الأحكام من جميع المذاهب الإسلامية المعتبرة ليكون اختلافهم رحمة للأمة . ولا يلزم من هذا التلويح الذي يقول الجمهور بيطالانه كما لا يخفى . وقد أشير في صفحتي ٤٠٣٨ من التقرير إلى عدم التقييد بالمذهب الحنفي ، وتوهم بعض الناس أن هذا يمس حقوق مولانا الخليفة وأن الأحكام يغير مذهب الحنفية لا تصح ولا تنفذ لهذا ، ونحجب عنه بأمور

(١) جاء في كتاب الأحكام السلطانية مانصه « فلو شرط الولي وهو حنفي أو شافعي على من ولاء القضاء أن لا يحكم إلا بمذهب الشافعي أو أبي حنيفة فهذا على ضربين (أحدهما) أن يشترط ذلك عموماً في جميع الأحكام فهذا شرط باطل سواء كان موافقاً لمذهب الولي أو مخالفاً له ، وأما صحة الولاية فإن لم يجعله شرطاً فيها وأخرجه مخرج الأمر أو مخرج النهي وقال قل ذلك القضاء فحكم بمذهب الشافعي رحمه الله على وجه الأمر ، أو لا يحكم بمذهب أبي حنيفة على وجه النهي ، كانت الولاية صحيحة والشرط فاسداً ، سواء تضمن أمراً أو نهياً ، ويجوز أن يحكم

بما أداه اليه اجتهاده سواء وافق شرطه أو خالفه، ويكون اشتراط اللوآي لذلك قدحا فيه ان علم انه اشترط ما لا يجوز، ولا يكون قدحا ان جهل، لكن لا يصح مع الجهل أن يكون مولايا لا واليا، فان اخرج ذلك مخرج الشرط في عقد الولاية فقال قد قلدتك القضاء على ان لا تحكم فيه الا بمذهب الشافعي او بقول ابي حنيفة كانت الولاية باطلة لانه عقدها على شرط فاسد . وقال اهل العراق: تصح الولاية ويبطل الشرط « اه المراد منه

(٢) لا يمدل عن مذهب الحنفية الا في الاحكام التي لا تنطبق على مصلحة الناس في هذا العصر إذا حكم فيها بمذهبهم، وهذه حالة ضرورة أو حاجة تنزل منزلة الضرورة، وبهذا الاعتبار تكون من مذهبهم، لان الحكم الذي تمس اليه الحاجة أو يضطر اليه، يصير متعقبا عليه (١)

(٣) ان مذهب الحنفية واسع متشعب جدا بمعنى ان فيه كثير آمن الاقول في كل مسألة، حتى قال كثير من قهاتنا انه لا يوجد قول لمجتهد في مسألة الا وهو موجود في مذهبنا لأحد أئمتنا او مشايخنا ولو ضعيفا، ومن المقرر عندنا أيضا ان القول الضعيف أقوى بأمر الامام بالعمل به . وقد ألفت لجنة من العلماء بمجلة الاحكام المدلية وأخذوا فيها ببعض الاحكام التي لا تصح في مذهب الامام ابي حنيفة رحمه الله تعالى ولكنها صحت في مذهب غيره وقالوا انها وافقت أقوال الاضعفة لعلماء الحنفية تقوّت بأمر السلطان فوجب الحكم بها واذا ألف علماء الازهر الكتاب الذي اقترحه فضيلة الامام مفتي الديار المصرية في هذا التقرير ولم يجدوا الوجهين اللذين قبل هذا كافرين لجواز الحكم بموجبه فيمكن طلب صدور الامر به من السلطان او نائبه اذا كان له هذا الحق، ولا يمكن ان مولانا السلطان عبد الحميد أو سمو عزيز مصر الحالي يتوقفان في امر رأى أكابر علماء الازهر ان فيه صيانة مصالح المسلمين وحفظ حقوقهم

هذا ما اردت التنبيه عليه في هذه المقدمة، وأسأل الله تعالى أن يوفق رؤساءنا من الحكام والعلماء الى ما فيه خير الامة انه سميع مجيب محمد رشيد رضا
مفتي الشام

(١) وقد جرت الحكومة المصرية اخيرا على رأينا هذا

كلمة لاهل كبر قضاء الشرع في عمده لهذا

قال العلامة الشيخ احمد ابو خطوة في تأييده للاستاذ الامام في حفلة ذكرى الاربعين ما نصه :

« ولما أن ولي الاستاذ رحمه الله منصب افتاء الديار المصرية في أوائل سنة ١٣١٧ هجرية الموافق لشهر يونيو سنة ١٨٩٩ افرنجية لم يجعل هذا المنصب قسراً على اعطاء الفتوى على ما يرفع اليه من الاسئلة في الحوادث، بل نظر فيه إلى ما هو أرفع من ذلك ، وأول فكرة عرضت له هي التفتيش على المحاكم الشرعية ليتحقق بنفسه حال من فيها من القضاة والعمال ، وكيف يسيرون في الفصل بين عباد الله بمقتضى شرع الله، فعاونته عليها نظارة الحقانية وذهب إلى التفتيش في كل أرجاء القطر ، ولم يدع محكمة مديرية أو مركز إلا شاهداً بنفسه وبمبحث أعمالها بمحنتا دقيقا ، وتعرف حال قاضيهما من قوة أو ضعف ، وضبط العمل أو الإهمال فيه ، ثم عاد ووضع تقريره المعروف عن المحاكم الشرعية ، وطلب فيه ما يطلبه من الإصلاح ، وحثه في ذلك أنه شيخ الحنفية من جهة ، وأنه من أعضاء المجلس الذي ينتخب القضاة من جهة أخرى ، فلا بد أن يعرف حال الموجودين منهم في الوظائف وأن يهيئ لها في الأزهر من يخلفهم عند انفصالهم منها ، وقد تضمن هذا التقرير كل وجه من أوجه الإصلاح ، سواء كانت متعلقة بمجهر القضاء أو بترقية حال القضاة واحترامهم في نفوس المتقاضين أمامهم

« ولما وصل تقريره هذا إلى الحكومة أحلته من الاهتمام بشأنه المحل اللائق به وشكلت في نظارة الحقانية لجنة للبحث فيه . وتقرير ما يمكن تقريره مما فيه من أوجه الإصلاح

« وبعد هذا صار عضواً في مجلس شورى القوانين فوجه فكرته إلى هذا الغرض المهم عنده ، وهو إصلاح المحاكم الشرعية ، وساعده على هذه الفكرة رجال من عقلاء الأمة وأكابرها ورفعوا الصوت جبهة بطلب هذا الإصلاح وحصروه في أموريينها رسمياً للحكومة . فاهتمت الحكومة لذلك وكلفت رحمه الله بأن يؤلف

لجنة تحت رياسته للبحث في كل طرق الاصلاح . وعرضها على الحكومة لتنفيذها واشتملت هذه اللجنة بالفعل ببض الشغل وقدمته إلى الحكومة للعمل بما فيه « وقد كان رحمه الله شديد الحرص على أن تكون هذه المحاكم محترمة موقرة في أعين الامة بتمامها ربيعها ووضعها ، وأن تكون محفوظة الحق لا يتعدى عليها غيرها من الجهات التضائية . وحادثه المحكم في قضية وقف الرحوم راتب باشا التي حكمت فيها محكمة الاستئناف الاهلية للدولة بهية هانم بانها ناظرة لذلك الوقف بعد حكم المحاكم الشرعية فيها . أصدق شاهد على ما قلناه . فانه رحمه الله جزم ان حكم محكمة الاستئناف الاهلية في هذه المادة جاء من غير جهة مختصة ، فاشتغل بالامر حق الاشتغال حتى صدر الامر العالي بتشكيل هيئة تحت رياسة ناظر الحاقانية كان هو من أعضائها للفصل في الخلف الذي وقع بين المحاكم الاهلية والمحاكم الشرعية في هذا الموضوع ، وقد جاء حكم هذه الهيئة موافقاً لرأيه . فقضى بان الذي ينفذ هو حكم المحكمة الشرعية دون حكم المحاكم الاهلية . وبهذا انتهى الخلاف . . وحفظت كرامة المحاكم الشرعية حفظاً لا خفاء فيه

« ولما استقال رحمه الله من ادارة الازهر لم تقعد به تلك الهمة العالية عن النظر فيما يصلح الازهر والازهرين خصوصاً ما يتعلق بانجاح المحاكم الشرعية وإيجاد العمال الذين يكونون امام الناس مثال التوقير والاحترام ، فاشتغل مع الحكومة السنية في انجاز المشروع القاضي بفتح مدرسة يتخرج منها القضاة والكتاب والمحامون الشرعيون ، فرضيت منه الحكومة بذلك . وشكلت لجنة تحت رياسته لتضع نظاماً لهذه المدرسة يبين فيه ما يصرف عليها كل سنة وما يعلم فيها من العلوم . والمدة التي يمكثها المتعلم فيها وكيفية إدارتها . ومراقبة سير التعليم فيها . فأكمل ذلك في أقرب وقت على أحسن ما يكون من الوضع ، وقدم المشروع إلى الحكومة قبل سفره إلى الاسكندرية بايام قلائل . وقد علمنا ان الحكومة تقبلته أحسن قبول ولم تلاحظ عليه شيئاً لا في مبناه ولا في معناه ، ولا نظماً إلا عاملة به إن شاء الله » اهـ

(المؤلف) ان العمل بتقريره رحمه الله في اصلاح المحاكم لم يسلم من معارضة السياسة وحمل عييدها على مقاومته وهالك ما كتبه في ذلك في ص ٢١٢ من مجلد المنار السابع .

علماء الازهر والمحاكم الشرعية

(يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَآتَتْهُمْ مِنْهُ آيَاتٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

قعد أهل الازهر عن إجابة طلب اسماعيل باشا الخديو تأليف كتاب في الحقوق والعقوبات موافق لحال العصر سهل العبارة مرتب المسائل على نحو ترتيب كتب القوانين الاوربية، وكان رفضهم هذا الطلب هو السبب في إنشاء المحاكم الاهلية، واعتماد الحكومة فيها على قوانين فرنسا، وإلزام الحكام بترك شريعتهم وحرمانهم من فوائدها، وفي توجيه عزائم الكثيرين من نابتة الامة إلى درس تلك القوانين في مصر وأوربا، وبذل النفقات العظيمة من الحكومة ومنهم لاجل تحصيلاها، ولولا جود أهل النفوذ من علماء الازهر لكانت كل هذه المحاكم شرعية أهلة بالعلماء التي يتحاسد حمايتها على الشيء اللقي، ويتنافسون فيما يرغب عنه غيرهم لقلّة ذات يدهم، وكانت تلك العلماء موضع الاحترام والاحلال كما يليق بها، كما هي اليوم في نظر أكثر الناس

ثم إنك تجد بعض أصحاب هذه العلماء يتشدقون بتلاوة (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) يمرضون بأهل المحاكم الاهلية، ثم لهم يتعاجلون اليهم عند الحاجة وبتملقون لهم في الجامع ليس بإبطال هؤلاء العلماء للشرعية بعدم إجابة طلب اسماعيل باشا السابق بأعجب من اعتذارهم عنه وتعللهم فيه — أنهم تعللوا بل احتجوا بأنهم يحافظون بذلك على الشرع وطريقة سلفهم لازم في كيفية التأليف، وهو أن يكون الكتاب مؤلفا من متن وشرح وحاشية، وعند زيادة البيان والتحقيق تضاف اليه التقارير — فهذه هي سنة المشايخ المألوفة، وتأليف كتاب أو كتب يقتصر فيها على القول الصحيح، ويجعل العبارة سهلة مقبلة إلى مسائل تسرد بالعدد على كيفية كتب القوانين، من البدع الهادمة لتلك السنة التي جرى عليها الميثون من عدة قرون!!

حدثني علي باشا رفاعة قال: إن اسماعيل باشا لمساخ بالمشايخ ذرعا استحضر والده رفاعة بك وعمه داليه بأن يجتهد في إقناع شيخ الازهر وغيره من كبار

الشيوخ باجابه هذا الطلب وقال له : انك منهم ونشأت معهم ، فأنت أقدر على إقناعهم ، فأخبرهم ان أوربا تضطرنى - اذا هم لم يجيبوا - إلى الحكم بشريعة نابليون فأجابه رفاة : اني يامولاي قد شخت ولم يطعن أحد في ديني فلا تعرضني لتكفير مشايخ الازهر إياي في آخر حياتي وأقلمي من هذا الامر ، فأقاله . وكان إنشاء هذه المحاكم التي يرى المشايخ انها مؤسسة على الكفر والظلم وفسق أثر المحافظة (منهم) على الدين ، وصونه من عبث الحاكمين ، وما هذا الدين الذي حافظوا عليه إلا بدعة سيئة ، وهي كيفية التأليف التي أليفوها كما تقدم ، ولم ينزل بها كتاب ، ولا وردت بها سنة ، ولا جاءت في أثر عن الصحابة والتابعين . والكيفية التي دعوا اليها - فحسبوا خرقا في الاسلام - هي أفضل وأنفع مما حافظوا عليه - فالنتيجة انهم أضاعوا الشريعة لاجل الجود على هذه الكتب الحديثة الضارة المضية للعلم ، فكانوا من الخاطئين . وأعني بما أقول جمهورهم لا كلهم كما لا يخفى

حدثت المحاكم الاهلية فكانت قسيمة للمحاكم الشرعية ، ولكن ظهر للناس بالاختبار ان المحاكم التي يحكم فيها بقانون فرنسا أضمن للحقوق وأقرب للانصاف من المحاكم التي تسند شريعتها إلى الوحي السماوي ، حتى كان شيوخ الازهر يتحكون إليها ، فاشيخ العباسي رفع اليها بعض القضايا ، وكان شيخ الازهر ومفتي الديار المصرية . وكذلك شيخ الازهر ، السابق « الشيخ سليم البشري » محاكم اليها في قضية تتعلق باوقاف الازهر وكان له مندوحة عن ذلك . فكانت جنايتهم على الشريعة انهم كانوا السبب في إضاعة القسم الاكبر منها ، وانهم سلكوا في القسم الثاني الذي بقي للمحاكم الشرعية - طريقة سوءى ذهبت بثقتهم وثقة الناس منها - وكل ذلك بحجة حماية الدين وحفظ الشريعة الذي هو خرم ولو بالباطل ، يبالغون به الزاني في نفوس عامة المسلمين المقلدين لهم الذين لا يعلمون بماذا يقلدون

تسكاد حماية الدين والمحافظة على الشريعة عند هؤلاء تذهب برسومها كما ذهبت بروحها ، فان السماء والارض تستغيثان من حال المحاكم الشرعية ، وتلجآن إلى الحكومة طالبا لاصلاحها ، ولكن الشيوخ عقبه في طريق كل إصلاح ، وحجتهم الوهمية المحافظة على الدين الذي لا يعرفه سواهم ، وقوتهم غرور العامة

بهم وتصديق دعاويهم، والحكومات تحترم دائماً عقائد العامة وعاداتها وتقاليدها حقاً كانت أو باطلاً، لئلا تهيج عليها الرأي العام، ولذلك كان صلاح حال العامة بالتربية الصحيحة والتعليم النافع مفضياً إلى صلاح حال الحكومة بالطبع، لأن رأي الامة يكون حينئذ صحيحاً، وقوة الامة لا تقاوم، لأن يد الله مع الجماعة

هذه بعض آثار التقليد الاعمى للميتين والجمود على العادات الموروثة، وليس كل علماء الازهر على هذا الجمود بل السواد والدهماء منهم، وإنما العامة مع الاكثرين حتى يظهر الزمان خطأهم، الذي لا يعلو حكمه حكم انسان، هذا أحدهم الشيخ محمد عبد مفتي الديار المصرية اليوم قدر أى منذر من طويل فساد هذه المحاكم، وشعر بتألم العدل من سيرة القضاة الشرعيين، وسعى في صلاحها وصلاحهم، محاولاً إقناع امير البلاد به، وما زال يلح عليه حتى عهد إليه الامير بأن يضع بمساعدة بعض الفضلاء تقريراً في ذلك سنة ١٨٩٦، ولكن كان نصيب التقرير الاهمال، حتى قام المستر سكوت الانكليزي مستشار الحقانية بمحاول وضع لائحة لاصلاح سبر هذه المحاكم التي كثر تألم الناس منها وشكواهم للحكومة، فأرشده الشيخ لذلك التقرير، فطلبه من أحد حاشية الامير واستفاد منه واضعوا اللائحة الحديثة كثيراً من الفوائد ولكنها لم تكن كافية وفي سنة ١٨٩٩ حاولت الحكومة المصرية عمل شيء في المحاكم الشرعية على انه من الاصلاح فقامت قيادة العلماء والجراند وتهيجت العامة لاعتقاد الجميع ان ما كان يحاول غير جائز شرعاً (وفي الحقيقة انه لم يكن هو الاصلاح المطلوب للمحاكم) ولكنهم لم يطلبوا شيئاً غيره يجوز عندهم شرعاً. وكنا قبل هذه الفتنة قد كتبنا في المنار الصادر في آخر سنة ١٣١٦ هـ مقالة في (انتعاش القضاء) بينا فيها ان اصلاح المحاكم الشرعية لا يكون الا بقضاة صالحين للقيام باعباء القضاء. وأن هذا لا يتم الا بتعليم خاص بينا طريقته، واقترحنا على شيخ الازهر ومجلس إدارته تنفيذه، ولكن أنى ينفذ وحماة الدين من مشايخ الازهر أصحاب النفوذ لا يرضون بشيء جديد غير ما اتبعوا عليه آباءهم؟ الا الشيخ محمد عبد وهو صاحب هذا الرأي، ولكن لا موافق له منهم عليه في مجلس الادارة الا الشيخ عبد الكريم سلمان، وأكثر الآراء كانت على ضد ما يطلبان

انتهت فتنة المحاكم بسكوت الحكومة عن المشروع الذي أعدته ولكن المتقاضين لم يسكتوا على حقوقهم تضيع. وفي أثر هذه عهد بمنصب إفتاء الديار المصرية الرجل الذي كان أول ساع في الإصلاح والمشهود له بأنه أعرف الناس بطرقه ، فكلفته الحكومة تفتيش هذه المحاكم ووصف خللها وبيان ما يحتاجه من العلاج ففعل ، ووضع في ذلك ، تقريره المشهور الذي أجمع الناس على استحسانه ، حتى ان الذين يعادون الإصلاح باسم الدين لم يجهروا بنقده ولا بالاعتراض عليه . ثم ألفت الحكومة لجنة للنظر فيما يمكن العمل به من التقرير ، رئيسها ناظر الحقانية ، وكان في أعضاء اللجنة مع المفتي قاضي مصر السابق وشيخ الأزهر واخترمت المنية القاضي ^(١) في تلك الاثناء فوقف سير اللجنة واستمر على وقوفه ، وعذر الحكومة في ذلك العامة ، وبلاء العامة العلماء . وهاك ماقاله اللورد كرومر عن هذه المحاكم في تقريره عن سنة ١٩٠٢ وهو :

﴿ المحاكم الشرعية ﴾

« يقول المفتشون من العلماء التابعين لنظارة الحقانية ان أحكام قضاة المحاكم الشرعية في الاحوال الشخصية وانجازهم للقضايا قد تحسنت بعض التحسن ، ولا ريب ان زيادة انفاق المال تفضي إلى إصلاح مهم في هذه المحاكم ، ولكن لا ينتظر أن يجري حتى يلح الاهالي في طلب الإصلاح من أنفسهم ، وذلك يكون بتقديم العلم والمعرفة . والشكاوي الآن كثيرة ولكن المعارضة شديدة في كل تغيير مهما كان لازماً وخالياً من الضرر . والغالب أن تلك المعارضة تنجح بدعوى أن الإصلاحات مخالفة للشرعية واعدة القوم » اهـ

فانظر تجد ان هذا السياسي الواقف على حالة البلاد أتم الوقوف بصرح بان الإصلاح لا يمكن إلا بعد أن تتحول العامة عن اعتقاد مايقوله المشايخ في مقاومة الإصلاح ، وأوضح منه ماقاله في تقريره عن سنة ١٩٠٣ الماضية . وانك تجد شيوخنا يظلمون عليه ويعرفون مايقول الناس في جمودهم ولا يرجعون عنه رحمة بالشرعية - التي انتحلوا حملها - وبأنفسهم ، وهذا هو نصه :

(١) هو المرحوم جمال الدين افندي وكان عاقلاً عالماً بما يجب من حال الزمان

﴿ المحاكم الشرعية ﴾

« هذه ترجمة محضر مأخوذ عن الجريدة الرسمية وهو يتعلق بأعمال مجلس شورى القوانين في جلسة حديثة العهد . والحديث فيها بين احمد بك يحيى من أعيان المصريين وحضرة الشيخ حسونة النواوي وهو عالم جليل من علماءهم تولى منصب الافتاء فيما مضى

« حضرة احمد بك يحيى : ان الطريقة المتبعة حتى الآن في المحاكم الشرعية في أمر المرافعات وتأجيل القضايا أوجبت شكاوى كثيرة فلذا أقترح على مجلس شورى القوانين تأليف لجنة تدرس هذه الامور وتضع فيها تقريراً
« فضيلة الشيخ حسونة النواوي : اني لأعلم ان المحاكم الشرعية تحتاج إلى الاصلاح في أمر من أمورها

« تقرر بالاغلبية التصديق على رأي الشيخ حسونة النواوي » انتهى
« فهذه الاعمال مشددة للعزائم لانها تدل على أن في مجلس شورى القوانين نفسه بعضاً من الاعضاء الاذكياء الذين يشعرون بوجوب الاصلاح المحاكم الشرعية
« أما كون الاصلاح ضرورياً تتشوق اليه النفوس فذلك أمر ثابت لا شك فيه إذ ليس للناس أقل ثقة بهذه المحاكم الشرعية وقد علا الضجيج من أعمالها ، وكنزت شكاوى المتقاضين بين يديها ، وحججهم عليها ترجيح يوماً عن يوم .
والاصلاح يطلب من وجه معروف لا يختلف فيه وهو بسيط سهل المنال ، وذلك أن الشرع نفسه لا يمكن ان يطرأ عليه تغيير مطلقاً فقاية ما يطلب إذن هو أن يقضى به بين الناس بطريقة معقولة على يد قضاة جمعوا من العلم والاستقلال ما يتنع معه تأثير كل مؤثر خارجي أيا كان مصدره

« وكانت الحكومة قد شرعت منذ خمس سنوات تقريباً في معالجة هذا الداء ولكنها عدلت عنه لان الغرض الذي كانت تقصده من الاصلاح انما هو صيانة المصريين أنفسهم ، فلم نجد منهم التأييد الكافي فأغفلته . أما الحكومة البريطانية فلا تبدأ بالسير في هذا السبيل ولكنها تنظر بعين الرضى إلى كل اصلاح يبدأ به ذرو

الشان أنفسهم الذين يعنيهم أمر المحاكم الشرعية أكثر من سواهم ، وتؤيدهم وتشدد عزائمهم . ورأيي الخصوصي هو ان مجلس شورى القوانين يحسن صنعا بالعودة إلى هذا الموضوع وإيفائه حقه من البحث، لاسيما ان التعجيل في اصلاح هذه المحاكم خير من التأجيل . ففي مصر جيل جديد يختلف عن أجداده في أمور

كثيرة فيمكن أن تحدثه نفسه يوما بان يمد إلى تلك الاركان القديمة يدّا لا تعرف حرمة القديم، فتكون أشد عليها من يد حكومة تمدها اليوم طبقا لارشاد قوم لاشان لهم في الامر، لانهم لا يدينون بالدين الاسلامي، فذا كان لهذا الحساب نصيب من

الصواب فلا جذر بأبناء اليوم أن يشرعوا في الاصلاح ويتلافوا الأمر قبل حلوله ^(١) وعسى أن المصلحين من أبناء القطر لا تضعف عزيمتهم لأول فشل حل بهم، فان الرأي العام لأبناء دينهم هو في جانبهم، وهو ينمو ويزداد، وإن كانوا لا يجاهرون به، فعليهم الثبات إذن، لاسيما إذ لم يكن أحد ينظر أن الناس تتغلب على أميالها وتوافقهم على مرادهم بعد أول حملة

«ويجدر بي أن أذكر في هذا المقام ان مجلس شورى القوانين اقترح على الحكومة في الملاحظات التي أبدتها على ميزانية السنة الحاضرة أن تزيد مصروف المحاكم الشرعية، فرفضت الحكومة هذا الاقتراح . وعندي انها احسنت في رفضها لان كل زيادة في هذا الباب تمد تبذيرا لاموال الامة حتى يجيء الوقت الذي تبأثر فيه مسألة الاصلاح بالجد والاهتمام» اه كلام اللورد

مناقشة مجلس الشورى في إصلاح المحاكم الشرعية

قبل أن يظهر تقرير اللورد هذا اجتمعت الجمعية العمومية المؤلفة من نظار الحكومة وأعضاء شورى القوانين ومندوبي البلاد المصرية واقترح غير واحد من أعضائها مطالبة الحكومة باصلاح المحاكم الشرعية فأحيل الطاب على مجلس شورى

(١) ينذر اللورد مسلمى مصر بهذا ما وقع مثله في الدولة التركية اذ غلبت الملاحدة عليها فقصوا على المحاكم الشرعية وعلى الشرع والاسلام نفسه في حكومتها

القوانين، فأجمع الشيوخ أمرهم، وأرادوا أن يداؤموا عن الحاضر حسب عادتهم، فانتصر من يعينهم الأمر مع أنصارهم في مجلس الشورى، وكبيرهم هو قاضي مصر الذي خلق في بلاد الروم مصرياً، وتعلم في الاستانة ولكنه كأنه تخرج أزهرياً^١ وكثر السعي قبل الجلسة وانفقوا على شيء يدافع به القاضي الأكبر

ولما طرحت المسألة في المجلس قال القاضي الأكبر كلمته المزورة وهي :
« قد سمعنا المقترحات المتعلقة بالمحاكم الشرعية، ونقول: ان أعمال تلك المحاكم ترجع (أولاً) الى الشرع الشريف، وهذا لا يمكن مسلم أن يقول انه يحتاج الى اصلاح - (وثانياً) الى قضاة يحكمون بذلك الشرع، وهؤلاء تنتخبهم لجنة من كبار العلماء الخبيرين تشكل بنظارة الحتمانية بحضور ناظرها، وطبعاً انما تنتخبهم من العلماء الاكفاء - (وثالثاً) الى لوائح سنتها الحكومة بعد أخذ رأي مجلس شورى القوانين . فان كان هناك اعتراضات توجهت أو تتوجه في المستقبل فطبعاً انما هي متوجهة على تلك اللوائح ولو رجعت الحكومة في جميع أعمال المحاكم الشرعية الى قواعد الشرع ونفذت بالطرق الشرعية جميع ماصدر من تلك المحاكم من الاحكام لم يوجد أدنى اعتراض، فلذلك أطلب استلغات الحكومة الى ما ذكر .

هذا نص ما كتب، وتناقل الناس عن قاضي مصر يومئذ زيادة منها أنه قال في الجلسة: ان القضاة يدرسون علومهم في الازهر ويتمتحنون فيه بحضور جماعة من كبار العلماء، وانه لم يعرف عن أحد من قضاة المحاكم ما يشكى منه . وجاء في آخر كلامه: أما اذا أرادت الحكومة تكميل المرشحين للقضاء باضافة بعض دروس مثل أدب القاضي وشيء من التمرين فلا بأس . وذكرت جريدة المؤبد: ومثلاً أنه قال ما ينبغي لمثله في مقامه أن يقوله، وكان له حزب مستعد لتأييد رأيه، ولكن مفتي الديار المصرية تعقبه بعد ما أمر الكتاب بكتابة جميع ما قاله وقرر المفتي ما ملخصه :

أما كون الشرع نفسه لا يحتاج الى اصلاح فسلم لكنه في كتبه التي في أيدي الناس بعيد عن افهام الخصوم، فهو في أشد الحاجة الى التقريب من الافهام، فيجب النظر في ذلك، ولا نطالب فيه إلا عملاً سبقتنا الى مثله الدولة العثمانية في كتاب المجلة التي عليها العمل في محاكمها

المسماة (بالعدلية) وفي المحاكم الشرعية في أبواب المرافعات جميعها ولم يقل أحد ان الدولة في علمها ذلك قد خرجت عن الدين (عند هذا قال الشيخ حسونة النواوي : كتاب الاحوال الشخصية الذي وضعه قدري باشا موجود وهو من أحسن ما يكون) وأما مسألة امتحان القضاة في لجنة من علماء الازهر وانتخابهم بلجنة فيها كبار العلماء فيجب بيان ما فيها لقيادة المجلس لانني من اللجنتين - لجنة الامتحان ولجنة الانتخاب أما الامتحان فيجري في موضوعات خاصة من عدة فنون يبتدأ فيها بالاصول فالعلماني فالبيان وهكذا ولا يأتي الفقه الا في آخر الدروس عند ما يكون الممتحن قد مل السؤل ، والطالب قد مل الجواب ، فيكتفي الاساتذة من الطالب ببعض كلمات ، ثم ينقلونه الى فن آخر . على أن الامتحان في الفقه كان ولا يزال في أبواب العبادات مثل التيمم ونحوه ، وقد ألح في المدة الاخيرة على لجنة الامتحان لتعين مواضع الامتحان في المعاملات ، فحصل ذلك لكن كثيراً ما يرجع عنه ، فهل مثل هذا الامتحان له علاقة بالقضاء الشرعي ؟ وهل تعرف به درجة القاضي إن كان أهلاً للقضاء أو غير أهل ؟ (قال) أنا عضو في اللجنتين كما قلت لكم وربما كنت أعرف الناس بمن ينتخبون للقضاء ولكنني أقول لكم إننا نعمل في الانتخاب على قاعدة ارتكاب أخف الشرين ، فنختار أخف القاصرين قصوراً ، وكثيراً ما تكون الأغلبية على انتخاب المتقدم في الزمان ، وإن كان متأخراً في العلم والاستعداد

(قال) وأما لوائح المحاكم التي يتوهم من لم يعرف تاريخها ان الحكومة وضعتها من عندها فهي بعيدة عن الشرع ومذاهبه ، فأنا أذكر لكم حقيقة أمرها ، كانت الحكومة في عهد أمراء مصر السابقين تاركة للمحاكم الشرعية تمام الاستقلال ، وكان الناس يستغيثون من ظلمها وظلمها ، وشيوع الرشوة فيها ، فلما أقبلت الحكومة أمر سعيد باشا بوضع لائحة لدير هذه المحاكم ، وقد كان ذلك باقرار لجنة من علماء الازهر مؤلفة من علماء المذاهب الاربعة ، فاللائحة الاولى كان متفقا عليها من علماء الشرع - طال الزمان وظهر ان اللائحة لم تأت بالمطلوب ، واستمرت الشكوى من أعمال المحاكم ، فوضعت اللائحة الثانية بمعرفة الشيخ العباسي شيخ الازهر ومفتي الديار المصرية لذلك العهد ، وأما اللائحة الاخيرة فقد عرضت كذلك على شيخ الازهر ومفتي الديار المصرية

وأقراها كما أقرها قاضي مصر السابق . فاللوائح لا تعاب إذن بمخالفة الشرع، ولكنني أقول مع هذا أنها قاصرة وفي حاجة إلى الإصلاح، فتعين أن المحاكم الشرعية في حاجة إلى الإصلاح من كل جهة، وهذا الإصلاح ينحصر عندي في خمسة أمور وهي : (أولها) تقويم طريقة التعليم لعمال المحاكم الشرعية من قضاة وكتبة ، وإضافة ما يحتاج إليه وظائف القضاء الشرعي وما يتعلق بها من المعلومات إلى ما يتعلمون الآن ، وذلك يكون بإنشاء فرقة خاصة بهذا الغرض من طلبة الجامع الأزهر بالجامع الأزهر ثم تكبل قاعدة انتخابهم بما يكفل التحقق من كفاءتهم

(ثانيها) تعديل لوائح المحاكم الشرعية على وجه يكفل انتظام سيرها ، وسرعة الفصل في قضاياها ، وإزالة كل ما يشتكى منه بشرط المحافظة على الشرع

(ثالثها) لاتفاق مع جماعة من شيوخ الحنفية على إيجاد طريقة لتقريب فهم الأحكام الشرعية التي يتقاضى الناس على حسبها حتى يمكن للخصوم أن يعرفوا إلى أية قاعدة شرعية يرجع الحكم فيما يتخاصمون فيه ، ويسهل على القضاة أنفسهم خصوصاً في بدء أمرهم الرجوع إلى ما يحكمون بمقتضاه ، ويكون ذلك شاملاً لجميع أبواب المعاملات من الفقه (رابعها) وضع قاعدة لتنفيذ الأحكام الشرعية تكفل انتفاع المحكوم له

بالحكم ضد أي شخص كان بما لا يخالف الشرع

(خامسها) ترقية مرتبات عمال المحاكم الشرعية وإلحاقهم بباقي موظفي الحكومة : اقترح المفتي هذا وأمر بكتابته فكتب وظهرت على المجلس أمارات الإعجاب والرضى به ، فقال بعض المؤتمرين : إن هذا لا ينافي قول القاضي والرأي مارآه القاضي . قال المفتي لك أن تقول إن رأيك موافق لرأي القاضي ، وليس لك أن تقول هذا عن غيرك ، وإن كان القاضي يقر هذا الرأي فهو مانعي ، ولا فرق بين أن ينسب إلي أو إليه . فقال ذلك العضو لا بأس بموافقة القاضي على هذا ولكن تحذف المقدمات . قال المفتي وتحذف مقدمات القاضي أيضاً . قال بعض الأعضاء الأولى ببقاء المقدمتين والموافقة على الرأي الأخير (رأي المفتي) مع اتفاق القاضي . وبعد ذلك استقر الرأي على أن يمحى ما كتب عن القاضي والمفتي ويستبدل به : إن المجلس يقترح على الحكومة الإصلاح بالأوجه الخمسة المذكورة وكذلك كان

هذا ملخص ما كان في الجلسة ولهج به الناس يومئذ كتبناه كما سمعناه من كثير من الاعضاء ومن يجتمع بهم ، ولكن الجرائد خلطت في المسألة ، ومنها ما نسب الاقتراح للقاضي ، وانما كان رداً عليه ، ثم انه لم يرداً من موافقة المجلس ، والذي يهمننا اننا وصلنا بعد جهاد المجاهدين في سبيل الاصلاح الى أن مجلس الشورى طلب باتفاق الآراء ان تبادر الحكومة الى اصلاح هذه المحاكم فليس لها بعد هذا عذر بالارجاء وهو أقصى أو فوق ما كان يتعنى اللورد كرومر

أرايتك هؤلاء القضاة الشرعيين هل اعتبروا باجماع اهل الرأي والحل والعقد وغيرهم على فساد امرهم وسوء سيرتهم ؟ كلا انهم لم يزدادوا إلا غياً وتنادياً ، حتى ان المحلة العليا التي تشرف على جميع مجاري العبر ، هي أوغل من محاكم الواحات في الغرور والخلل والزلل ، ومن أعجب ما صدر عن قاضي مصر في هذه الايام بركة مستشاره أو

مشيرته التصدي لمنع ديوان الاوقاف من تنفيذ لائحة المساجد التي وضعها مفتي

الديار المصرية واقراها مجلس الاوقاف الأعلى بعد مباحثات طويلة . اهـ

(المؤلف) نقف هنا عن هذه المسألة من المقال الطويل الذي كتبناه في ذلك الوقت تحت ضغط الألم ونشرناه في الجزء السادس من المجلد السابع من المنار الذي صدر في ١٦ ربيع الاول سنة ١٣٢٢ (أول يونيو سنة ١٩٠٤) ونرجي ببقيته وهي الخاصة بمسألة لائحة المساجد الى المقصد الخامس من هذا الفصل لانه هو الخاص بعمل الامام في الاوقاف ، وسيرى القاري اننا ختمناها بما افتتحنا به المقال ، وهو قوله تعالى (يحربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الابصار) ولكن أن أولو الابصار ؟ لقد مرت هذه الحوادث الكوارث على علماء الازهر الذين وجهنا اليهم التنبيه والتذكير في وقتها ، وأكثروا لا يشعرون بوطنائهم ، وأكثروا الذين قرأوا أخبارها لم يميزوا بين من يعبت بشرعتهم ومصالحهم ومن يدافع عنهم ويحاشدوهم ، وانما غرهم مظهر قاضي مصر التركي الجديد ، وماضي الشيخ حسونة النليد ، ووطنية صاحبي المؤيد واللواء اللذين لبس عليهم الحق بالباطل وهما يعلمان ، ولكن مرضاة الخديو مقدمة عندهما على مرضاة الديان ، وكان الواقفون منهم - وأعني علماء الازهر - على الحقائق كالسيد البيلوي والشيخ احمد أبي خطوة يخوفون ويسترجعون ، وهائم اقرؤا تنمة فصول هذه الرواية الخديوية العبدية أيها الحاضرون ، فان لم تعتبروا بها فسيتم بها الآتون .

المقصد الخامس

من الفصل السادس

عمله في الاوقاف العامة واصلاح المساجد

لما صار الاستاذ الامام عضواً في مجلس الاوقاف الاعلى بالتبع لمنصب إفتاء الديار المصرية دخلت الاوقاف في طور جديد من الاصلاح المالي والاداري والشرعي، وقد فتح له بذلك باب العمل لاصلاح الاوقاف والمساجد الذي كان يفكر فيه ويوجه عنايته الامير اليه كما تقدم بيانه — وكان أئمة المساجد وخطباؤها أحقر الموظفين في مصر في الاوقاف وغيرها، لان أكثرهم من العوام الخرافيين، وأفقرهم بقلة رواتبهم إلا من له مال موروث كإرث لامامة والخطابة، فما القول في سائر خدمة بيوت الله من مؤذنين وملاحظين ومرتلين ؟ وهن أغرب الشواهد على هذا انه لما تم بناء مسجد الرفاعي وفرشه النفيس ، فكان أخف المساجد الجامعة في العاصمة وأنزهها موقعا (وبجانبه مدافن أمراء الاسرة المالكة) قال الشيخ علي يوسف رحمه الله تعالى لسمو الخديو لو امرتم بحمل السيد رشيد رضا خطيباً لهذا الجامع وواعظاً فيه فانه ينفع البلاد نفعا عظيماً لانه خطيب مفوه ... فقال له سموه : هذا قليل عليه ولا يليق به ، وسننظر فيما هو خير له منه !!!

فكر الاستاذ الامام في ان الاصلاح للمساجد وما نوه به الذكر الحكيم من عمارتها الصورية والمعنوية لا يتم إلا بوضع نظام يقرر رسمياً لها وأساسه أن يجعل لها في مصلحة الاوقاف العامة ادارة خاصة تسمى ادارة المساجد، وأن يكون خطباؤها وأئمتها من العلماء المرشدين ، وأن تقام بها الدروس والمواظع للامامة فتكون وسيلة للإرشاد العام في القطر كله ، ومدارس لهؤلاء العوام الذين هم السواد الاعظم من الامة ، وقد استحوذ عليهم الجهل وأفسدت الخرافات عليهم فطرتهم وأخلاقهم وصحتهم ولا يبالي بهم أحد ، وخطبة الجمعة التي شرعت لتكون درساً عامي كل أسبوع لجميع المسلمين بما فرض عليهم من صلاة الجمعة وسماع خطبتها - اذا لم تزدهم

جهلاً وفساداً - فانها لاتصلح من فسادهم شيئاً ، فان أكثرها في فضائل الشهور والمواسم والاغراء بالكسل والتواكل والاعتماد على مكفريات الذنوب المجرئة على المعاصي ، وأكثر ما يذكر فيها من الاحاديث النبوية من الموضوعات أو الواهيات التي يجرم اسنادها إلى النبي ﷺ كحديث اعتاق الله ستمائة ألف عتيق من النار في كل ليلة من ليالي رمضان « حتى اذا كان آخر ليلة منه أعتق بقدر ماضى » وقد ذكر لي الاستاذ الامام رحمه الله تعالى في حديث لنا في هذا الموضوع ان عمان باشا غالب العالم الطبيعي المشهور صاحب المصنفات عرض له في شبابه شك في الدين بشبهات من هذه العلوم (قال) فما زلت أدحضها له وأقيم له البراهين العقلية والعلمية على حقية الاسلام حتى اقتنع ، وذهب معي إلى صلاة الجمعة في الجامع الازهر فلما سمع الخطبة ، وكان موضوعها وصف الوقاع في الجنة . . . قل لي : أهذا هو الدين الذي جئت بي لتكميل تهذيبي به ؟ أو ما هذا معناه — وانصرف مؤلياً أن لا يعود .

أقول : هذا شأن الخطبة في الازهر ، معهد العلم الاكبر ، فما القول في غيره ! ؟ صليت الجمعة مرة في مسجد من مساجد مصر فكان موضوع الخطبة أن من يطلق امرأته ثلاثاً ثم يعود اليها يكون كافراً « بعشرة أوجه بالاتفاق » وذكر الخطيب وجوهاً جهلية كاذبة مكررة يصف كلامها « بالاتفاق » فاضطرت بعد الصلاة إلى إلقاء درس في أحكام الطلاق على المصلين علموا به ان كل ما قاله خطيبهم كان افتراء على الله في دينه ، وسيأتي مزيد بيان لحالها .

مشروع اصلاح المساجد

وجملة القول ان الاستاذ الامام وضع مشروعاً لاصلاح المساجد بما هو أوسع أبواب الاصلاح الديني في لامة ، وما جاء وقت عرضه على مجلس الاوقاف الأعلى إلا في الوقت الذي عرضت فيه على المجلس مسألة استبدال أراضي البناء التابعة للاوقاف في الجزيرة بمزرعة سمو الخديو العروفة باسم مشتهر ، وقد تقدم ذكرها ، واشتهر أمرها ، فتوجهت عنابة سموه الى معارضة مشروع إصلاح المساجد

لان مقترحه والواضع له هو الشيخ محمد عبده، ويقال ان شياطين الانس وسوسوا الى سموه بأن الشيخ محمد عبده اذا نجح في هذا المشروع فان حزبه الديني يتجاوز بعض علماء الازهر وجهور الاذكياء النابهين من طلابه الى أئمة المساجد وخطبائها في القطر المصري كله، فيكون له من السلطان الديني في البلاد ما لم يتفق مثله إلا بعض خلفاء الاسلام في القرون الماضية

لهذا اكتفى الاستاذ الامام من مشروعه بالتمهيد له في لائحة سماها (لائحة ترتيب المساجد) عرضها على المجلس في خريف سنة ١٩٠٣ فشرع المجلس ينظر فيها. وكان طلب موسيو زرفوداكي استبدال أراضي الجزيرة بمزرعة سمو الخديو في أواخر نوفمبر من هذه السنة. وفي أوائل ديسمبر منها قرر مجلس الاوقاف الأعلى ماقرره فيها وقد تقدم ذكره، ومن ذلك الوقت كنا نقرأ في الجرائد في كل أسبوع يجتمع فيه المجلس انه نظر في قسم من اللائحة وفي أكثر الاسابيع انه أجملها، وفي أثناء ذلك ظهرت الحملة على الفتوى الترنسفالية وكثرت مقالات الجرائد فيها في ديسمبر سنة ١٩٠٣ ويناير سنة ١٩٠٤ وما بعده، وقد تقدم ذكر معارضة الخديو في هذه المسألة في اللائحة التي رفعها يوسف باشا طلعت الى المايين الهايوني، وأشار الى افضاء معارضة سموه فيها الى أخذ رأي لورد كرومرفيه (!!) وذكرها كل من حسن باشا عاصم والاستاذ الشيخ أحمد أبوخطوة في تأييده للاستاذ الامام قال حسن باشا عاصم وهو زميله وعضده في مجلس الاوقاف الأعلى: وكان من مقتضى منصب الافتاء ان كان رحمه الله عضواً في مجلس الاوقاف الأعلى فكان نبراساً يستضيء برأيه في تطبيق أعماله على أحكام الشرع الشريف وفي حل المشكلات. ومن اقترحاته المفيدة ان تشكلت لجنة تحت رياسته وضعت نظاما للمساجد لو عمل به كما هو امرت بيوت الله وبيوت خدمتها ولكانت عوناً على احياء علوم الدين اه

وقال الاستاذ الشيخ أحمد أبوخطوة (رح) في سياق الكلام على عنايته باهل الازهر والسمي انفعهم: ومن أجل ما نفعهم به فكرة مشروع المساجد فانه رحمه الله سعى في وضع لائحة يجمعها ديوان الاوقاف نظاما للأئمة والخطباء والوعاظ

والمدرسين فوضعت على حال يجعل الامام والخطيب من المدرسين في الازهر ويكلف الامام بان يدرس في الجامع الذي يوظف فيه درساً لعامة الوافدين عليه والمصلين فيه، ويكون مرتب الامام والمدرس من ثلاثة جنيهاً إلى ثمانية في الشهر. ومع كل ملاقاه هذا المشروع من الصعوبات الكثيرة المعروفة أراد الله ببركة الاخلاص في العمل تنفيذه بمعناه، ونفذ في كثير من المساجد، والوجهة الآن متجهة إلى تنفيذ باقيه. وهو مع اشماله على منفعة أهل الازهر اشتمل كذلك على نشر الدين بين طبقات الامة من طريقه الصحيح اه

(الؤاف) وجملة القول ان المجلس مازال يرجيء النظر فيها الى أن أفر ما يأتي منها بنصه الرسمي في ٨ فبراير سنة ١٩٠٤ وشرع في تنفيذه في العاصمة في أوائل مايو من هذه السنة الموافق لشهر صفر سنة ١٣٢٢ ولكن صدر الامر العالي الحديوي في ٣١ مايو بايقاف تنفيذه الى ان ينظر فيها من جانب سموه !! وكان تعرض للاعتراض على تنفيذه بايعازه قاضي مصر، وتنوقش فيها بمجلس الشورى حتى انتهى ذلك بمرضها على عميد الاحتلال. وقد فصلت ذلك في المنار بما أثبتته هنا وهو :

لائحة المساجد

(منقول من الجزء السادس من مجلد المنار الساج الصادر في ١٦ ربيع الاول سنة ١٣٢٢ (أول يونيو ١٩٠٤) وهو تممة المقال الذي تقدم في ص ٦٢٠ — ٦٢٩)

ماهي لائحة المساجد، وما وجه الحاجة اليها؟ هي لائحة تدور على جعل أئمة المساجد وخطبائها من أهل العلم بالدين يؤدوا الفرائض على وجهها، وجعل مؤذنيها وخدمتها من أهل الكفاءة للقيام بعملهم على وجهه. ولا يجمل أحد أن أكثر الائمة في هذا العهد من الجهال حتى باحكام الطهارة والصلاة، وأكثر الخطباء يغفلون على المنبر حتى بآيات القرآن، ويأتون في وعظهم بما يتبرأ الدين منه من الفس والكدب على الله ورسوله ودينه بسرد الاحاديث الموضوعية، والخرافات المصنوعة. أليس من العجائب أن يوجد في المسلمين من يحافظ على هذه المنكرات ويطلب بقاءها وعدم إزالتها باسم الدين، وهو يدعم هذا من علماء المسلمين؟ بل

وانهم ليجتجون بانهم يحافظون على شروط الواقفين ، وهل وجد واقف اشترط ان يكون الائمة والخطباء من الجاهلين ؟ رب أعوذ بك من هزات الشياطين أوقاف المسلمين تزداد ريعا ونمواً ، ومساجد المسلمين في خراب حسي ومعنوي ، إلا ما عمرت جدره وزخرفت سقفه لجنة الآثار العربية ليتمتع بالنظر اليها السائحون من الافرنج الذين يحبون الاطلاع على مباني الاولين ، وراتب الخطيب والامام اليوم كما كان منذ قرن أو قرون ، اذ كان مالك الالف يعد غنياً كبيراً ، والالف لاتشعب في سنيّنا الحمار شعيراً ، لهذا يضطر ديوان الاوقاف أن يجعل الجاهلين الكسالى المعدمين أئمة وخطباء ، اذ لا يرضى العالم الفاضل أن ينقطع لعمل لا يزيد راتبه في الشهر على مئة قرش وقد يكون خمسين قرشاً . هذا وان مساعدة أهل العلم والدين على معاشهم من أفضل المبرات التي تنشأ لها الاوقاف الخيرية- لهذا كان من موضوع لائحة المساجد أن يجعل للامام والخطيب راتب يتراوح بين خمس مئة قرش وثمان مئة قرش ، وللمؤذن والخادم راتب يرتقي إلى ثلاث مئة قرش ، وذلك بعد انتقائهم بحسب الشروط التي تؤهلهم للقيام بعملهم على أكمل وجه . وقد رفقت اللائحة بحال الحاضرين على ما بهم فلم تقض بعزل أحد منهم وانما جعلت مبدأ الاصلاح فيمن يتجدد

بهذه اللائحة تصرف أموال الاوقاف المكنوزة في أفضل مصارفها ، بهذه اللائحة تقام صلاة الجماعة على وجهها ، بهذه اللائحة تكون الخطابة مؤدية للحكمة التي شرعت لاجلها ، بهذه اللائحة تكون بيوت الله نظيفة طاهرة كما يليق بها ، بهذه اللائحة ينمو علم الدين بما وجد لاهله من المعاش الطبيعي الذي يليق بكرامتهم ، بعد أن أفلت في وجوه المنقطعين له أبواب الرزق ، واحتقرم الناس ولو بغير حق ، ومع هذا كله نجد في أصحاب المائتم من يسعى لالغاء هذه اللائحة بحجة أنها مخالفة للدين ، وانها وضعت للافساد وهم من المصلحين ، يحاولون الغاءها بسلطة المحكمة الشرعية التي ضجت السماء والارض من فساد حالها ، وشدة اختلالها ، فلماذا لا يصلحونها و يقيمون حكم الله فيها ، إن كانوا صادقين ؟

كتب قاضي مصر إلى مدير الاوقاف يطلب اللائحة لينظر فيها ويأمر

بتنفيذ ما يرى تنفيذه منها وإلغاء ما يرى إلغائه ، وذكرت الجرائد انه مدد المدير بعمره اذا لم يفعل ، فعرض المدير كتابته على مجلس الاوقاف الاعلى فقرر المجلس اجابة القاضي بان هذا امر لا يعنيه ، وانه ايس في اللائحة امر مخالف للشرع كما قرر مفتي الديار المصرية ، وأن الامر العالي الصادر في سنة ١٢٩١ يميز للمجلس سن أمثال هذه اللائحة ، ولهذا يرفض المجلس طلب القاضي ويأمر بتنفيذها كما قررها . هكذا ورد في جريدة الاهرام وقد أندرت القاضي بان لا يلعب بالنار ونعم ما فعلت ، فان الامر خطير كما ذكرت

هذا نموذج من سيرة هذه المحكمة بعد ماعمت البلوى ، وعظمت الشكوى ، يلعب أهلها بالنار ، ويسخطون الديار ، ويفقدون الانصار . ولا نسمع من علماء الازهر كلمة انكار ، بل يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الابصار . اهـ

(ثم نشرنا في الجزء السابع الصادر في غرة ربيع الآخر (١٥ يونيو) مانصه)

لائحة المساجد

جاء في (ع ٧٩٦٥) من جريدة الاهرام الصادر في ٢ يونيو تحت هذا العنوان مانصه :

« أننا في أعدادنا السالفة فائدة لائحة المساجد التي يعمر بها الازهر ونعمر بها الجوامع ، ويقام عماد الدين والعلم والادب . وقلنا ان معاداة هذه اللائحة والقيام في وجهها هو عبارة عن معاداة صالح الازهرين وتقدمهم ، والوقوف في وجههم . ولقد اتفق بعض رصفائنا أمس على ان انفاذ هذه اللائحة قد أجل إلى العام المقبل ، أي حتى عودة رجال الحكومة من الاجازة ، فأخذنا نبحث عن سبب التأجيل فعرفنا ان فضيلة القاضي الاكبر رفع عريضة إلى سمو الجناب الحديوي يشكو فيها من بعض ما جاء في اللائحة ، ويدعي انه مخالف لشروط بعض الواقفين ، كأن يكون بالمسجد مبخر وسقاء وكناس ، فاللائحة جمعت وظائف كثيرة في شخص واحد ،

فالمعية ترجمت شكوى فضيلة القاضي وأرسلت هذه الترجمة إلى الوكالة الانكليزية ، فأجابتها الوكالة ان الوقت قد انقضى وان جناب اللورد لا يقدر الآن على درس الشكوى واللائحة ، وانه ينعم نظره فيها بعد عودته من الاصطيفاف ، فاهذا أجل الانفاذ . واقد دهش العقلاء لهذا العمل لان المحتلين أعلنوا صراحة وجهاراً انهم لا يتعرضون لأمر من أمور الدين ، فما الذي حمل المعية اذن على ارسال تلك اللائحة إلى الوكالة الانكليزية ؟ ألا توجد في البلاد سلطة دينية عاقلة عالية تقدر على درس اللائحة وتمحيصها ؟

ولقد دار في جميع الاندية ان ذلك كله نتيجة التسابق لارضاء المحتلين فكما ان دولتلو رياض باشا جعل جناب اللورد كرومر صاحب المقام الارفع كذلك المعية أحالت على جنابه شكوى العلماء وشؤون المساجد والجوامع !! فما أكبر حظ دولة تجمد مثل هذا من أمة تحكمها وبلاد تحتلها !! وما أعظم الفرق الذي بحده الانكليز بين كبار المصريين وكبار البوير !! فاذا كنا نحن قد لما رياض باشا على كلامه فانا نحن نلوم المعية على فعلها . ويقيننا ان الانكليز أنفسهم يوافقوننا على هذا اللوم » اه

[المنار] حسب الناس من العبرة الكبرى بهذا الخبر الصادع أن يعرفوه ، واننا لو أردنا أن نبدي رأينا فيها لما استطعنا أن نقف عند الحد الذي تجيزه الرسوم المتبعة . ونم عبرة أخرى وهي سكوت الجرائد اليومية التي تلقب بالاسلامية عن هذا ، وبيان الاهرام - التي يصح أن نلقبها بجريدة الامة - له (١) وسببه انه جاء من قبل الامير وحده وهو الذي يرضيها منه كل شيء ، ولو كان للنظار فيه رأي لقامت قيامة هذه الجرائد وأكثر الطعن والامن ، وحملت النظار وخدم المتبعة ، كما هي عادت في كل أمر يقوي نفوذ المحتلين ، مع انه لم ينفذ شيء من ذلك إلا بأمر الامير

(١) كان يقال : المؤيد جريدة الحديدو لانه يقدم ما يرضيه على كل ما سواه ، واللواء جريدة مصطفى كامل لان نفسه مقدمة عنده على كل شيء . والمفطام جريدة الاحتلال والاهرام جريدة فرنسة ، وكل يخدم البلاد فيما لا يعارض سياستها الخاصة . فلما تجرأت الاهرام وحدها على التصريح بما ذكر صححت لها هذا اللقب

وهو وحده كان القادر على معارضة الاحتلال بالحق وأوربا عضده ، وأما النظار فلا عضد لهم إلا الامير ، وهو الذي يقدر على عزلهم اذا خالفوا ، ولا يقدر على إلزامه اذا وافقوا ، فكل ما أخذه الانكليز منه وعليه ، وعلى الامة المسكينة التي أضعافها أمراؤها في كل زمان اهـ

(المؤلف) أزيد الآن في هذا التاريخ على ما قلته وما علقته أنه يجب على كل مصري مخلص لبلاده ولا سيما المسلم ان يتمثل موقف هذا الرجل (الشيخ محمد عبده) المجاهد في سبيل إصلاح البلاد بين أميرها وعلمائها وجرائدها ، يكافحهم ويكافحونه ، وينافحهم وينافحونه ، هو يطلب المصلحة العامة للامة في دينها ودنياها وحكومتها وعامتها ، ابتغاء مرضاة الله وحده لا شريك له ، وهم يطلبون مرضاة الامير وحده لا شريك له ، بالانتقام له ممن منعه من أموال أوقاف المسلمين ان يتصرف فيها كما يشاء هو اهـ ، هذا والبلاد واقعة تحت سيطرة أقوى دولة على وجه الارض ، فكيف كان يكون عملهم لو كان الامير مطلق الحكم والتصرف ، لا راد لامره ولا معقب لحكمه ، ولتذكر كل مصري - يقرأ هذا - قول الاستاذ الامام ان مصيبة هذه الامة بفساد اخلاقها أكبر من جميع مصائبها ، وقوله انه لم يعمل عملا لمصلحة المسلمين ووجد له من يعارضه فيه من غير المسلمين ، لا من الافرنج ولا من القبط ولا من السوريين !!!

(فان قيل) وماذا فعل لورد كرومر بهذه اللائحة بعد عودته من اجازته؟ (قلنا) ان سمو الامير لم يعد يكتفي بعد عودة جنابه من نكابة الشيخ محمد عبده بإيقاف تنفيذ لائحة المساجد ، بل وجه عزمته إلى إخراجهم من منصب الافتاء نفسه ومن الازهر بعد ان ثبت له أنه لا يمكن ان ينجح بمعارضته في أعماله فيهما ، ولا بد ان يكون بعض رجاله قد بين له ان تحويل لائحة المساجد الى اللورد قد ساء جميع المسلمين ، وقد كان من سعيه لاجراجه من الافتاء والازهر ما شرحناه في موضعه ، وتلا ذلك مرض الاستاذ الامام ووفاته ، فلم يعد للبحث عن لائحة المساجد فائدة ، إذ زالت تلك الارادة القوية ، المصرة على تنفيذها بالرغم من إرادة الامير صاحب السلطة الرسمية ، وماله من الاعوان والوسائط في معارضتها

وكان الاستاذ الامام قد أعطاني صورة ما اقره مجلس الاوقاف الاعلى من اللائحة . وصورة المذكرة التي حمل مدير الاوقاف العامة على تقديمها للمجلس في اقتراح تنفيذ بعضها بشكل آخر . فنشرتهما في جزء المنار الثامن من المجلد الثامن الذي صدر في ١٦ ربيع الآخر سنة ١٣٢٣ (١٩ يونيو سنة ١٩٠٥) وكان ذلك في أثناء اشتداد المرض على الامام وقد توفي بعده بشهرين فنشر ذلك مع مقدمة المنار له . وهو:

لائحة المساجد وما أنفذ منها

(منقولة من مجلد المنار الثامن ص ٣٠٧)

واضع هذه اللائحة ومقترح إصلاح المساجد معروف وهو الاستاذ الامام فانه بعد أن صار عضواً في مجلس الاوقاف الاعلى. وأشرف على أحوال هذه المصلحة الاسلامية العظيمة رأى أن غلات الاوقاف تزيد عاماً بعد عام وان مرتبات المستخدمين في هذه المصلحة عظيمة تضاهي نفقات مصالح الحكومة، ورأى من ناحية ثانية ان المساجد التي وقفت عليها الاوقاف العظيمة مهمة والمستخدمين فيها من الأئمة والخطباء فن دونهم لا يرضخ لهم إلا بالقليل جزاء على خدمتهم ، فمنهم من راتبه خمسون قرشاً في الشهر ، ومنهم من يعطى أقل من ذلك ، والامام والخطيب الذي يرتقي راتبه إلى مئة قرش أو يزيد قليلا يعد من ذوي الطبقة العليا . ورأى هذا المصلح - أيده الله بروه - حمنه - ان أكثر المستخدمين في المساجد لا يدرون على أداء وظائفهم على وجهها ، وان استبدال القادرين بالعاجزين متعذر مع قلة الرواتب ، إذ ينبغي أن يكون الامام والخطيب من أهل العلم ، والخادم منقطعاً للخدمة قادراً عليها ، ولا يكون هذا مع قلة المرتبات

أجال هذا المصلح الغيور قداح الفكر في هذه المسألة فرأى ان السعي في اصلاح حال المساجد يستتبع إصلاحاً آخر وهو خدمة العلم والاعانة عليه بالمجاهد مورد جديد لرزق أهل الازهر يرغب الناس في طلب العلم . ذلك ان أول ما بهم الانسان في هذه الحياة الدنيا أمر رزقه ، ويرى الناظر في تقلب الزمان أن الاقوات تغلو في هذا البلد حتى ان نمن أكثر الاشياء قد تضاعف في زمن قليل ، فاذا استمرت هذه الحال في مصر كان المقام فيها عسيراً على غير المومنين ، وقلت الرغبة في طلب العلم بالازهر . هذا ما بحث المصلح على البحث عن أحوال المساجد والمستخدمين فيها ووضع تلك اللائحة التي اشتهر أمرها . وانني أثبت هنا نص لائحته التي وافق المجلس الاعلى على تنفيذها بعد البحث والتعديل ثم أوقفت بأمر الامير في العام الماضي وأتبعها بما أخذ منها وصدر الامر في هذا العام بتنفيذه وهو :

*)

مشروع ترتيب المساجد

الذي قرره مجلس الاوقاف الاعلى

عرض للمجلس مشروع ترتيب المساجد وبعد المداولة تقرر ما يأتي :
(المادة الاولى) ان هذا الترتيب لا يترتب عليه رفت أخدمن وظيفته الا بوفاته أو وقوع أمر يستوجب رفته حسب الجاري ، كما انه لا يقتضي الاخلال بشيء من اختصاصاته الحالية

الباب الاول في ترتيب الخدمة

(المادة الثانية) توحد الامامة في جميع المساجد، ماعدا الجامع الازهر والمساجد التي فيها عدة أماكن يمكن اعتبار كل منها مسجداً مستقلاً ، ويجب في هذه الحالة أن يؤدي الصلاة أحد الأئمة بعد الآخر ، ولا يجتمع إمامان للصلاة في آن واحد إلا إذا اختلفت الأماكن بحيث لا يشوش أحدهما على الآخر ، ومع ذلك فتعدد الامكنة لا يستلزم تعدد الأئمة ، بل لا يكون ذلك إلا للضرورة

الامام هو رئيس المسجد في جميع شؤونه ماعدا المساجد التي فيها دروس منتظمة مثل الازهر وما يلحق به مما يكون له شيخ خاص يديره من حيث هو مدرسة
(المادة الثالثة) يقوم الامام بوظيفة الخطبة ، والمساجد التي تتعدد فيها الأئمة - وهي المذكورة في المادة الثانية - يقوم بالخطبة أوفر الأئمة راتباً ، فان تساوا في الراتب قدم أقدمهم في وظيفة الامامة

(المادة الرابعة) توحد وظيفة المؤذنين في كل مسجد إلا عند تعدد المآذن فيكون لكل مأذنة مؤذن واحد لجميع الاوقات

(المادة الخامسة) يعين ملاحظ في المساجد التي يرى لزوم وجود ملاحظ فيها وهذا الملاحظ يكون رئيس الخدمة ، وعليه القيام بمراقبتهم في جميع أعمالهم تحت رئاسة إمام المسجد

(*) هذا العنوان هو الذي أخذته من الأستاذ الامام. ولما نشرته في المنارة قبل وفاته بشهرين وضعت له عنوان اللائحة الاولى ، ووضعت للمذكرة التي تليه اسم اللائحة الثانية

(المادة السادسة) أعمال الميقاتية تضاف إلى المؤذنين

(المادة السابعة) يضاف عمل المبلغين إلى المؤذنين . وفي مساجد القسم

الرابع التي لا منارة فيها تكون قراءة السورة على المؤذن

(المادة الثامنة) العمل الذي يؤديه المرقى الآن وفي المستقبل يعوض بما يعبر

عنه شرعا بالأذان الثاني ويحول على المؤذنين

(المادة التاسعة) تالي القرآن في المسجد يعطى ما يرتب له على سبيل الصلة

(المادة العاشرة) ملاحظو المساجد هم عهدتها ، ويستثنى من ذلك بعض

المساجد التي لها خزنة مخصوصون في جدول الترتيب ، ويدخل في وظائف

الملاحظين ما كان للنقيب

(المادة الحادية عشرة) يدخل تحت لفظ الخدمة أرباب الوظائف الآتية ولا

يقيدون بتسمية: الفراشون . والوقادون . والملاءون . والسقاؤون . والبوابون

والسعاة، وخدمة الاسبلة في المساجد، وما أشبه ذلك

(المادة الثانية عشرة) الوظائف الآتية لاعلاقة لها بترتيب الخدمة وليس

النظر فيها من عمل المجلس الآن: خدمة الاسبلة المستقلة عن المساجد . والفقهاء

والدلايلية والساعاتية، ومتعهدو السواقي، وخفراء القبور والتربية والخدمة المختصون

بالأضحية من جهة كونها أضحية بأنواعهم وشيخ الليثية وقراء الربة وكتابة النذور

(المادة الثالثة عشرة) وظيفة المبخر (البخورجي) تكون من أعمال أحد

الخدمة والمبالغ المرتبة لها تكون من ضمن مرتبه

(المادة الرابعة عشرة) وظيفة الداعي (الدعجي) لا تكون مستقلة وإنما تضاف

إلى عمل أحد موظفي المسجد ومرتبتها يحسب في مرتبه

﴿ الباب الثاني في المرتبات ﴾

(المادة الخامسة عشرة) أئمة الجوامع بجميع أنحاء القطر يحملون أربع درجات

الاولى بثمانية جنيهات والثانية بخمسة والثالثة بأربعة والرابعة بثلاثة

الملاحظون يكونون بمجنيين . الخزنة يكونون كذلك بمجنيين

المؤذنون ينقسمون إلى أربع درجات: الاولى ١٥٠ قرشاً لمصر والاسكندرية

والثانية ١٢٥ قرشاً لعواصم المديرية ومحافظات بورسعيد ودمياط والسويس .
والثالثة ١٠٠ قرش لعواصم المراكز والبلاد التي عدد سكانها عشرة آلاف نسمة
فما فوق ، وان لم تكن عواصم مراكز . والرابعة ٧٥ قرشاً لبقية القرى
سائر الخدمة يكونون كالمؤذنين ماعدا المستثنين مثل خدمة الجامع الازهر ونحوه
قراء القرآن في الجوامع يكونون أربع درجات الاولى ٥٠ قرشا والثانية ٤٠
قرشا والثالثة ٣٠ قرشا والرابعة ٢٠ قرشا على حسب درجات الجوامع

(الباب الثالث في شروط التوظيف)

(المادة السادسة عشرة)

الامام يشترط أن يكون عالماً حائزاً لشهادة العالمية فان لم يوجد مرشح حائز
لشهادة العالمية يكتبني بشهادة الاهلية ، فان لم يوجد أيضاً مرشح حائز لشهادة
الاهلية ينتخب اللائق بالامتحان ، على حسب القواعد المتبعة الآن

(المادة السابعة عشرة)

الملاحظون يشترط فيهم أن يكونوا أقوياء البنية ، ويفضل أولاً من يقرأ ويكتب
ويحفظ القرآن ثم من يقرأ ويكتب فقط

(المادة الثامنة عشرة)

الخازن يشترط فيه أن يعرف القراءة والكتابة ومبادئ الحساب

(المادة التاسعة عشرة)

المؤذنون يشترط فيهم مثل الملاحظين ولا يمنع فقد البصر من التوظيف
بوظيفة المؤذنين .

(المادة العشرون)

يشترط في الخدمه أن يكونوا سليمي البنية ، وأوجه التفضيل تسري عليهم

وهي المذكورة في الملاحظين

(أحكام عمومية)

(المادة الحادية والعشرون) عدد الموظفين ومرتباتهم في كل مسجد يكون على حسب الجدول الذي قرره المجلس وأرفق بهذا

(المادة الثانية والعشرون) اذا وجد في شروط الواقفين زيادة في عدد الموظفين عما هو وارد في الجدول فيعطى لازائده ما هو مقرر له بشرط الواقف فقط ، كذلك اذا وجد في شروط الواقفين زيادة في مرتب أية وظيفة عما هو وارد في الجدول فتعطى الزيادة بحسب شروط الواقف .

(باب توزيع العلاوات)

(المادة الثالثة والعشرون) يلاحظ في اعطاء العلاوات على حسب الترتيب الجديد في كل مسجد أن لا يتجاوز مجموعها على ما هو جار صرفه الآن مجموع ما يخصه على حسب هذا الترتيب: يبدأ في التوزيع لكل وظيفة على الوجه الآتي :

(أولاً) الأئمة الحائزون لدرجة العالمية والشهادة الاهلية أو الذين يحصلون على إحدى هاتين الشهادتين بعد الآن

(ثانياً) من يقرأ ويكتب ويحفظ القرآن من الملاحظين والمؤذنين والخدمة ثم من يقرأ ويكتب فقط منهم

(ثالثاً) الخازن الذي يعرف القراءة والكتابة ومباذئ الحساب

وحيث ان مبلغ الاحد عشر ألف جنيه لم يكن مقررأً فقط لمساجد القاهرة بل لمساجد عموم القطر فيشترط أن لا يزيد مجموع هذه العلاوات هذه السنة في مدينة القاهرة على سبعة آلاف جنيه، فان زاد يقطع من كل وظيفة بنسبة الناقص اذا بقي شيء من مبلغ السبعة الآلاف الجنيه بعد التوزيع على الوجه المشروح فيما سبق فهذا الباقي يوزع على من يتلوهم ممن هم حائزون لشروط هذا الترتيب ومع ذلك اذا خلت في مسجد وظيفة زائدة عن المقرر في هذا الترتيب يوزع مرتبتها لتكملة مرتبات موظفي ذلك المسجد الذين تنطبق عليهم قواعد هذا الترتيب من جهة العدد والمرتب وشروط التوظيف اهـ

(تنبيه) تركت نشر الجداول التابعة لهذه اللائحة لعدم العمل بها

مذكرة

مرفوعة الى مجلس الاوقاف الاعلى


يعلم حضرات أعضاء المجلس حالة خدمة المساجد وقرهم وقلة المرتبات المقررة لهم مقابل خدمة هذه المحلات الطاهرة وقد ترتب على اهتمام الديوان بشدة المراقبة في نظافة المساجد وترتيب انارتها وأدواتها ان صار أولئك الخدمة مسئولين عن أعمال كثيرة ربما كانت سبباً للتضييق عليهم عن السعي في الكسب والارزاق من الخارج ، وقد كثرت شكاويهم لجانب المية السنية وللا ديوان وعلى لسان الجرائد المحلية من عدم كفاية مرتباتهم خصوصاً مع غلاء الاسعار في الوقت الحاضر ، والتمسوا زيادتها لمساعدتهم في معاشهم ، وبالبحث في مرتبات هؤلاء الخدمة تبين ان عددهم في مساجد مصر وبولاى بلغ ١٦٢٧ منهم ١٣٦٠ رواتبهم تنحصر بين الحسين والخمس وسبعين قرشاً فأقل وهذه ماهية لا تنفع فرداً واحداً في أمور معيشية فكيف بهم وهم ذوو عائلات

وحيث ان ميزانية الديوان وارد فيها مبلغ احد عشر الف جنيه لزيادة ماهيات خدمة المساجد ومخصص منه مبلغ سبعة آلاف جنيه لتوزيعه على مساجد مصر على الطريقة المذكورة في قرار المجلس الصادر بتاريخ ٨ فبراير سنة ١٩٠٤ عن ترتيب المساجد

وحيث ان هذا الترتيب صدر لنا أمر عال بتاريخ ٣١ مايو سنة ١٩٠٤ بايقاف تنفيذه لحينما ينظر فيه من طرف جناب ولي النعم الاخفم . وحيث ان ترك هؤلاء الخدمة بتلك المرتبات القليلة وهم يصيحون ويستغيثون مما لا يليق بمصلحه خيرية تجود بالكثير من أموالها في وجوه البر والخير وعلى الفقراء والمساكين وأجدر بها أن تفيض شيء على من يقيمون شعائر الدين ويقومون بخدمة تلك المحال الطاهرة فبناء على كل ذلك رأينا أن نضع مشروعا لعلو تلك المرتبات حتى إذا وافق عليه المجلس انفذ وارتفع الضرر نوعاً عن أولئك المساكين وما هو

الائمة والخطباء

حيث ان الائمة والخطباء بالمساجد تختلف حالتهم بعضهم عن بعض فقد
رؤي تقسيم مرتباتهم إلى ثلاث درجات :

(الاولى) الائمة والخطباء الحائزون لدرجة العالمية وماهية كل منهم أقل من
جنبيين ونصف شهريا تكمل إلى هذا القدر بشرط ان الوجود منهم ولم يكن مكلفا
باعطاء دروس لتعليم العوام يكلف به مثل غيره لانتفاع العامة بالامور الدينية
(الثانية) الائمة والخطباء الحائزون لشهادة الاهلية وماهية كل منهم أقل من
جنبيه وخمسة مليم شهريا تكمل إلى هذا القدر بالشرط المقدم ذكره 
(الثالثة) الائمة والخطباء غير الحائزين لدرجة العالمية ولا لشهادة الاهلية
وماهية كل منهم أقل من جنبيه واحد شهريا تكمل إلى هذا القدر

المدرسون

المدرسون الموجودون في بعض المساجد من كان منهم ماهيته أقل من جنبيين
اثنين ونصف شهريا تكمل إلى هذا القدر

مشايخ الخدمة

هؤلاء من كان منهم مرتبه أقل من جنبيه ونصف يكمل إلى هذا القدر

المؤذنون

من كان منهم ماهيته أقل من سبعمائة وخمسين مليم شهريا تكمل إلى هذا
القدر ماعدا المؤذنين في المساجد الشهيرة وهي الجامع الازهر ومسجد سيدنا
الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة والسيدة فاطمة النبوية والسيدة سكيته
والامام الشافعي والسلطان ابو الملا فتكون ماهية الواحد منهم جنبيه شهريا

قراء السورة

هؤلاء من كان منهم ماهيته أقل من مائتين وخمسين مليم شهريا تكمل إلى هذا القدر

وظائف الخدمة

الخدمة مثل الوقاد والكناس والبواب والملاء وغيرهم من كان منهم ماهيته
أقل من سبعمائة وخمسين مليم شهريا تكمل إلى هذا القدر

متعهدو اقامة الشعائر

المتعهدون المكلفون بالصرف على بعض المساجد من جميع اللوازم من كان مرتبه اقل من جنبيين اثنين يكمل الى هذا القدر وبناء على ذلك فالزيادة الممكن اضافتها على مرتبات هؤلاء الخدمة جميعهم بمساجد مصر وبولاق بحسب هذا الترتيب هي ما ياتي:

الذين لم يصبه شيء من هذه الزيادة بحسب القاعدة عدد	الجاري المقضى ربطه بحسب المشروع القيمة الشهرية	الآن	قيمة الزيادة المطلوبة	
			مفردات	جملة
١٠	متابعي خدمة مارسين	١١	١٩٨	٨٩
٥	حائزين لشهادة العالمية	١٩	٥٧٠	٢٨٩
٠	غير حائزين لشهادات ائمة وخطباء	٤	٩٣	٢٧
١	حائزين لشهادة العالمية	٤٦	١٣٨٠	٨٩١
٨	حائزين لشهادة الاهلية	٩٤	١٦٩٢	٩٦٣
٢٠	غير حائزين لشهادات مؤذنين وميقاتية بالمساجد الشهيرة	١٤٨	١٧٧٦	٨١٤
١٣	بباقي المساجد	٤٠	٤٨٠	١٥٥
٢٥	قراء السورة والمرقيين	٢٥٠	١٦٢	٤٨٦
١١٤	خدمة	٥٨٣	٥٢٤٧	٣٤٧٢
١	متعهدى اقامة الشعائر	٢٩	٦٩٦	٢٣٣
عدد	عدد	جنيه	جنيه	جنيه
١٩٧	١٤٣٠	١٥٢٩١	١٦٠٨	٦٦٨٣

فبلغ الستة آلاف وستماية وثلاثة وثمانين جنيا هو اللازم زيادته على ماهيات خدمة المساجد بمصر على الكيفية التي توضح وتؤمل التصريح لنا بمبلغ ٣١٧ جنيا لتوزيعه بمعرفتنا على بعض الوظائف التي لم ينالها شيء من هذه القاعدة بحسب ما نراه من الضرورة والاهمية فيكون المقضى التصريح به من المجلس بمبلغ سبعة آلاف جنيا وهو المخصص لمساجد مصر في القرار السابق بناء عليه قد تحررت هذه المذكرة للنظر وتقرير ما يترأى. اهـ

فتاوى الاستاذ الامام

هذه الفتاوى قسمان : رسمية وغير رسمية ، فالرسمية مقيدة بمذهب الحنفية ، وغير الرسمية تختلف باختلاف طلب المستفتي ، فمن المستفتين من يسأل عن حكم الله تعالى ، وعلى المفتي أن يجيبه بما يعلم من حكم الله تعالى في كتابه وما ثبت عنده من سنة رسوله ﷺ نصاً أو اقتضاء

والحكومة تستفتي مفتي الديار المصرية في الحكم بالاعدام الذي تصدره محاكم الجنايات لا يبيح لها القانون تنفيذه إلا بعد استفتائه ، لأنها عند وضع قانون العقوبات أرادت تقييد هذا الحكم بموافقة الشرع الشريف

وكان المفتون السابقون قد تابَعُوا على كتابة عبارة واحدة في جواب كل استفتاء يأتيهم من قبل محكمة الجنايات بحكم الاعدام حاصلها « اذا ثبت على هذا الرجل انه قتل الآخر عامداً متعمداً بشرطه حكم بقتله وإلا فلا » فلما جاء الاستاذ الامام عرض عليه كاتِبُ الافتاء أول استفتاء في ذلك مع الجواب المحفوظ عنده عن المفتين السابقين ، ظاناً انه لا يلبث أن يوقع عليه بامضائه ! ولكنه فاجأ بالانكار واستغراب كتابة جواب واحد مبهم عن أسئلة مختلفة في أحكام قد يكون بعضها خطأ وبعضها صواباً ، وأملى عليه كتاباً نحوه : انه لا يمكن أن يفتي في هذا الحكم إلا بعد الاطلاع على وقائع الدعوى وبياناتها والمستندات والحديث التي بني الحكم عليها ، وطلب ارسال صورة صحيحة من ذلك اليه . فأرسلتها اليه المحكمة فقرأها بدقته المعروفة لخواص الناس من القضاة وغيرهم ، ثم أفتى بما ظهر له من الحق فيها مبيناً أدلته الشرعية والقانونية فكانت فتواه محل الاعتبار ، وأمل فتاوى غيره فكانت صورية لا يعتد بها

وقد استفتته وزارة الحفانية فيما يكثر من شكوى الأزواج من أحكام المحاكم الشرعية في النفقات الزوجية في الاحوال المختلفة التي بين المهم منها في تقريره المعروف وما في مذهب الحنفية فيها من الشدة - فأفتاها في ذلك فتوى طويلة شرح فيها مآثرات الضرر واختلال نظام البيوت (العائلات) بها ، وضمن فتواه عدة مواد في

هذا الموضوع مستنبطة من قواعد الشريعة العادلة ، وموافقة مذاهب بعض الأئمة لأجل أن يكون العمل بها بعد أمر ولي الأمر ، ولم يكن العمل بها متيسراً في ذلك الوقت ، ولكن الحكومة اعتمدت عليها في الاصلاح الجديد الذي قرره من عهد قريب ، ولعلنا ننشرها برمتها في ذيل هذا التاريخ .

وقد كنت عازماً على الاقتصار فيه على الفتوى الترنسغالية التي اتخذها سمو الخديو ذريعة للطعن في المفتي كما تقدم شرحه ، ثم بدا لي الآن أن انشر فيه ثلاثاً من الفتاوى العامة الفائدة غير المقيدة بمذهب الحنفية ، وقد كان كثيراً ما يحيل عليّ أمثال هذه الفتاوى دون موظفي دار الافتاء ، فأكتب الجواب فيقره ويمضيه برمته أو يبعث التعديل فيه ، ومنه ما أذن لي بنشره في المنار

الفتوى الاولى

قال الاستاذ الامام في مقدمة الاستفتاء الاول مانصه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .
أما بعد فقد أتني إليّ أستاذ من أساتذة الجامع الازهر ، وهو موظف كبير في المحاكم الشرعية سؤالاً وارداً من الهند الى بعض أنسابه يطلب الجواب عليه .
والسؤال موجه الى العلماء - لا الى عالم واحد - كما هو مذکور في نصه . فرأيت أن يكون الجواب عليه محتوي على مقال كثير من أفاضل العلماء . وقد انتدب حضرة حامل السؤال الى كتابة ما يجده من الكتاب والسنة وأقوال علماء الحنفية في موضوعه . وأرسلت نسخة من السؤال الى حضرة الاستاذ شيخ الحنابلة في الجامع الازهر فورد منه ما رأي أن يجيب به . وكلفت جماعة من أساتذة الشافعية والمالكية أن يكتبوا ما يعتقدون انه الحق في جواب السؤال ، فكتبوا وأشبعوا جزاهم الله خيراً .
واني أبتدي بما أجاب به أفاضل الشافعية والمالكية بعد ذكر السؤال ، ثم اثني بجواب شيخ الحنابلة ، وأختم بمقال الاستاذ الحنفي ، ثم بما يعن لي أن أضمه الى اقوال جميعهم . والله الموفق الى الصواب وهو الهادي الى الصراط المستقيم

استماعة المسلمين بالكفار وأهل البدع والالهواء

لنصرة الملة وحفظ حوزة الأمة

﴿ نص السؤال الوارد من الهند ﴾

ما يقول السادة العلماء في جماعة من المسلمين يقرون أنهم على عقيدة أهل السنة والجماعة ومن تابعي فقهاء الأئمة الاربعة ، ويسمون في تحصيل الألفة والاتفاق بين أهل الاسلام ، ويدعون أهل الثروة واليسار الى تربية أيتام المسلمين وإلى اشاعة الاسلام في مقابلة حملات الكتائبين وصولات الوثنيين ، إلا أنهم مع ذلك يستعينون بالكفار وأهل البدع والالهواء لنصرة الملة الاسلامية ، وحفظ حوزة الأمة المحمدية ، وجمع شملهم واتحاد كلمتهم ، فهل مثل هذه الاستماعة تجوز شرعاً ؟ وهل لها نظير في القرون الثلاثة الفاضلة ، المشهود لها بالخير ؟ وهل يجوز لأحد من المسلمين أن يعارضهم في هذه الاعمال الجليلة والمقاصد الحسنة ، ويسعى في تشييط الهمة عن معاونتهم ، والتنفير من محبتهم ، نظراً الى أنهم يستعينون فيها بالكفار وأهل البدع والالهواء ، ويدخلون مجالسهم ويخالطونهم لمثل هذه المصالح العامة ؟ وما حكم من يرميهم لمجرد هذه الاعمال - بالكفر والتضليل وسوء الاعتقاد والخروج عن أهل السنة والجماعة ؟

أفيدوا الجواب ، ولكم الثواب .

﴿ هذا ما كتبه جماعة من أفاضل المالكية والشافعية والحنابلة ﴾

أما السعي في تحصيل الألفة والاتفاق بين أهل الاسلام فلا نزاع في أنه من أفضل الاعمال الدينية وأعظمها عند الله تعالى ، فإن التآلف والتودد بين المسلمين هو مدار الايمان وأساس الاسلام ، والسبب الوحيد لنظام المدنية وقوام المجتمع الانساني ومدار سعادته في الأولى والآخرة . وقد حث النبي ﷺ على الأخذ به وبيان فوائده في كثير من الاحاديث . فمن ذلك قوله ﷺ « لا تدخلوا الجنة

حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا » وقوله « لا يؤمن عبد حتى يحب للناس ما يحب لنفسه من الخير » وقوله « لا يؤمن أحدكم حتى يحب ل أخيه ما يحب لنفسه » و « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » و « لا يؤمن أحدكم حتى يأمن جاره بوائقه » وقوله « نظر المؤمن الى أخيه المؤمن حباً له وشوقاً اليه خير من اعتكاف سنة في مسجد ذي هذا » وقوله « أفضل الاعمال أن تدخل على أخيك المؤمن سروراً أو تقضي عنه ديناً » وقوله « أفضل الفضائل أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك » وقوله « من أصلح فيما بينه وبين الله أصلح الله فيما بينه وبين الناس ، ومن أصلح جوارئه أصلح الله برأيه » ومن تأمل في قوله تعالى (إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون) وقوله تعالى (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين) مع قوله ﷺ « لا تبغضوا ولا تدابروا ولا تنافسوا وكونوا عباد الله أخوانا » وقوله « دب فيكم داء الأثم ألا وهي البغضاء والحسد » و « البغضاء هي الحالقة ، ولا أقول حالقة الشعر وإنما هي حالقة الدين » من نظر في ذلك كله عرف ما لاسمي في تحصيل الألفة والمحبة بين الناس من المكافحة في الدين ، وأنه من أعظم الاعمال ، وأفضل الخصال ، وعرف وجه حث الشارع عليه وانتويه بشأنه وتعظيم قدره

وأما تربية أيتام المسلمين ودعوة النهرين اليها فن الأمر المعروف في الدين ومن أفضل أعمال البر وأحبها عند الله تعالى ، والسنة مملوءة بطلب الرقي بالايتم والضعفاء والمساكين . ففي الحديث « ابغضني في ضعفائكم فانما ترزقون وتنصرون بضعفائكم » وفيه « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويحل عالمنا » وفيه « من أحسن الى يقيم أو يقيمة كنت أنا وهو في الجنة كهاتين » وفيه « خير بيت من المسلمين بيت فيه يقيم بحسن اليه ، وشر بيت من المسلمين بيت فيه يقيم

٨٢ — تاريخ الاستاذ الامام ج ١

يساء اليه ، أنا وكافل اليتيم في الجنة كهذا (وقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى »
وفيه « أحب أن يلين قلبك وتذكر حاجتك ؟ ارحم اليتيم وامسح رأسه وأطعمه
من طعامك » وفيه « أيما مسلم كسا مسلماً ثوباً على عري كساه الله تعالى من
خضر الجنة ، وأيما مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة
وأيما مسلم سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم »
وكان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إذا ذكر النبي ﷺ بكى . قال كان
رسول الله ﷺ أرحم الناس بالناس ، وكان لليتيم كالوالد وكان المرأة كالزوجة
الكرام وكان أشجع الناس قلباً ، وأوضحهم وجهاً ، وأطيبهم ريحاً ، وأكرمهم حسباً ،
فلم يكن له مثل في الأولين والآخرين . الى غير ذلك من الاحاديث

أما القرآن فكثيراً ما قرن بين اليتامى وذوي القربى والمساكين وابن السبيل
في مقام الأمر بالاحسان والعبادة ، قال تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به
شيئاً وبالوالدين احساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) وقال
(وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين) الى غير ذلك من الآيات

وأما اشاعة الاسلام في مقابلة حملات الاجانب والدعوة اليها فهي أول مشكلة
من مسائل الدين وأساس وجوده وعليها حفظ كيانه وبقائه ، بل هي النوع
اليسير الآن من انواع الجهاد في سبيل الله تعالى كالامر بالمعروف والنهي عن
المنكر . قال تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وإن لم تفعل فإنا

بلغت رسالاته والله يمعصمك من الناس) وقال تعالى (فاصدع بما تؤمر وأعرض
عن المشركين * إنا كفيناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف
يعلمون * واتمم نعم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسيح بحمد ربك وكن من

الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) وقال تعالى (فلولا نفر من كل
فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون)

وقال تعالى (وأُنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفَضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ تَبِعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ *
وقل إني أنا النذير المبين) الى غير ذلك من الآيات .

وفي الحديث عن طارق قال : رأيت رسول الله ﷺ يسوق ذي الحجاز فر
وعليه جبة حمراء وهو ينادي بأعلى صوته «يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»
ورجل يتبعه بالحجارة وهو يقول : يا أيها الناس لا تطيعوه . وعن عويم الداري
رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ «الدين النصيحة» قيل لمن يا رسول الله ؟
قال «لله ولرسوله والكتابه ولأئمة المؤمنين وعامتهم» وقال عليه الصلاة والسلام
« لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا
خياركم فلا يستجاب لهم »

وأخرج أبو يعلى والطبراني والحاكم بسند صحيح عن عوف بن مالك الأشجعي

قال : انطلق النبي ﷺ وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم فكروا

دخولنا عليهم، فقال لهم رسول الله ﷺ «أروني اثني عشر رجلا منكم يشهدون

أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله بحبط الله تعالى عن كل يهودي تحت أديم

السماء الغضب الذي عليه » فسكتوا ، فما أجابه منهم أحد ، فقال «أيتم؟ فوالله

لأنا الحاضر وأنا العاقب وأنا المقفى آمستم، أو كذبتم » ثم انصرف ﷺ وأنا

معه حتى كدنا أن نخرج ، فاذا رجل من خلفه فقال : كما أنت يا محمد ، فأقبل ،

فقال ذلك الرجل : أي رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود ؟ قلوا والله ما نعلم فينا

رجلا اعلم بكتاب الله تعالى ولا أفتقه منك ولا من أيك ولا من جدك . قال :

فاني أشهد بالله أن هذا النبي الذي تجدونه في التوراة والانجيل . فقلوا كذبت ، ثم

ردوا عليه وقالوا سرآ ، فقام رسول الله ﷺ وأنا وابن سلام ، فأنزل الله تعالى

(قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به ، وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين) والآيات والاحاديث في هذا الباب أكثر من أن تحصر ، وليست هذه المسائل الثلاث من محل الخلاف بين العلماء ، بل هي مما اجمع الكل عليه .

وأما الاستعانة بالكفار وأهل البدع والاهواء على مصالح المسلمين فإن كانت بأموالهم وكانت لمصلحة دينية أو منفعة دنيوية ولم تشمل على معنى الاذلال والولاية المنهي عنها فلا نزاع في جوازها ، خصوصاً إذا نظرنا للكفار وأهل الذمة من جهة أنهم نقضوا العهد وتوردوا على الاحكام ، فانه لا بأس بتناول أموالهم والانتفاع بها متى أمنت الفتنة والرديلة ، وقد قبل النبي ﷺ الهدية من المشركين ففي صحيح البخاري قال ابو حميد أهدى ملك أيلة للنبي ﷺ بغلة بيضاء ، وكساه برداً ، وكتب له مجرم . وعن قتادة عن انس ان أكيدر دومة أهدى إلى النبي ﷺ وعن أنس بن مالك أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها فجيء بها فقيل ألا تقتلها ؟ قال « لا » فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ وعن عبد الرحمن بن ابي بكر قال : كنا مع النبي ﷺ ثلاثين ومائة فقال النبي ﷺ « هل مع أحد منكم طعام » فادا مع رجل صاع من طعام أو نحوه فمجن ثم جاء رجل مشرك مشعان طويل بغنم يسوقها فقال النبي ﷺ « بيعا أم عطية ؟ » أو قال « أم هبة » قال بل بيع فاسترى منه شاة فصنعت ، وأمر النبي ﷺ بسواد البطن أن يشوى ، وأيم الله ما في الثلاثين والمائة إلا وقد حز النبي ﷺ له حزة من سواد بطنها ، إن كان شاهداً أعطاه إياه ، وإن كان غائباً خبأ له . وطلب النبي ﷺ من يهودي له دين على صحابي مات وترك أيتاما أن يبرئهم من الدين فما نبل ، وقصته في البخاري وفي الالوسي عند قوله تعالى (وما كنت متخذ المضلين عضداً) مانعه :

وأما الاستعانة بهم في أمور الدنيا فالذي يظهر انه لا بأس بها سواء كانت

في أمر ممتن كنزح الكنائس ، أو في غيره كعمل المنابر والمحاريب والحياطة ونحوها انتهى . وكتب على قوله تعالى (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء . إلا أن تتقوا منهم تقاة) مانصه : قال ابن عباس نزلت في طائفة من اليهود كانوا يباطنون نفراً من الانصار ليفتنوهم عن دينهم ، فقل لا واثك النفر : اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا لزومهم ومباطنتهم لا يفتنوكم عن دينكم ، فأبى أو ائلك النفر إلا مباطنتهم وملازمتهم ، فأنزل الله هذه الآية ونهى المؤمنين عن فعلهم ، وحكي في سبب نزول الآية غير ذلك ثم أفاد ان المنهي عنه من الموالاة ما يقتضيه الاسلام من بغض وحب شرعيين يصح التكليف بهما ، لما قالوا ان المحبة لقرابة أو صداقة قديمة أو جديدة خارجة عن الاختيار ، معفوة ساقطة عن درجة الاعتبار ، وحمل الموالاة على ما يعم الاستعانة بهم في الغزو مما ذهب اليه البعض ومذهب الحنفية وعليه الجمهور انه يجوز وبرضخ له . وما روي عن عائشة رضي الله عنها انها قالت : خرج رسول الله ﷺ ببدر فتبعه رجل مشرك كان ذاجراً ونجدة ففرح أصحاب النبي ﷺ حين رأوه ، فقال له النبي ﷺ « ارجع فلن أستمع بمشرك » فمسخ لان النبي ﷺ استعان بيهود بني قينقاع ورضخ لهم ، واستعان بصفوان بن أمية في هوازن وذكر بعضهم جواز الاستعانة بشرط الحاجة والوثوق ، أما بدونها فلا يجوز وعلى ذلك بحمل خبر عائشة . وكذا ما رواه الضحاك عن ابن عباس في سبب نزول الآية وبه يحصل الجمع بين أدلة المنع وأدلة الجواز ، على ان بعض المحققين ذكر ان الاستعانة المنهي عنها انما هي استعانة الدليل بالعزير ، وأما اذا كانت من باب استعانة العزيز بالدليل فقد أذن لنا فيها ، ومن ذلك اتخاذ الكفار عبيداً وخداماً ونكاح الكتابيات منهم وهو كلام حسن كما لا يخفى اهـ

ومما أشار اليه من أدلة المنع والجواز ما رواه احمد ومسلم ان النبي ﷺ قال للرجل الذي تبعه « ارجع فلن أستمع بمشرك » ثم تبعه ، فقال له « تؤمن بالله ورسوله ؟ » قال نعم ، فقال له « فانطلق » وعن الزهري ان النبي ﷺ استعان بناس من اليهود في خيبر وأسهم لهم

وان قزمان خرج مع أصحاب رسول الله ﷺ يوم أحد وهو مشرك فقتل ثلاثة من بني عبد الدار حملة لواء المشركين حتى قال ﷺ « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » كما ثبت ذلك عند أهل السير ، وخرجت خزاعة مع النبي ﷺ على قريش عام الفتح .

وقد تصدى أئمة الحديث والفقهاء إلى الجمع بين هذه الآثار بأوجه، منها ما تقدم (ومنها) ما ذكره البيهقي عن نص الشافعي رضي الله عنه أن النبي ﷺ تفرس الرغبة في الدين ردم فردم رجاء أن يسلموا (ومنها) أن الأمر في ذلك إلى رأي الامام (ومنها) أن الاستعانة كانت ممنوعة ثم رخص فيها . قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في التلخيص الحبير: وهذا أقربها وعليه نص الشافعي . وجكى في البحر عن العترة ، وأبي حنيفة وأصحابه أنه تجوز الاستعانة بالكفار والفساق حيث يستقيمون على أوامره ونواهيه واستدلوا باستعانتهم ﷺ بناس من اليهود ، وبصفوان بن أمية يوم حنين . قال في البحر : وتجوز الاستعانة بالمتأفق إجماعاً لاستعانتهم ﷺ بابن أبي وأصحابه . انظر نيل الاوطار .

وفي الالوسي عند قوله تعالى (إلا أن تتقوا منهم تقاة) ما مفاده وفي الآية دليل على مشروعية التقية ، وعرفوها بالمحافظة على النفس أو العرض أو المال من شر الأعداء سواء كانت عداوتهم مبنية على اختلاف الدين كالكفر والاسلام أو على أغراض دنيوية كالمال والمتاع والملك والامارة — إلى أن قال : وعد قوم من باب التقية مداراة الكفار والفسقة والظلمة ، وإلانة الكلام لهم والتبسم في وجوههم ، والانبساط اليهم ، واعطاءهم لكف أذام وقطع لسانهم وصيانة العرض ولا يعد ذلك من باب الموالاتة المنهي عنها ، بل هي سنة وأمر مشروع . وقد روى الديلمي عن النبي ﷺ أنه قال « إن الله تعالى أمرني بمداراة الناس كما أمرني بإقامة الفرائض » وفي رواية « بعثت بالمدارة » وفي الجامع « سيايتكم ركب مبعضون فإذا جاءوكم فرحبوا بهم » وروى ابن أبي الدنيا : رأس العقل بعد الإيمان بالله تعالى مداراة الناس . وفي رواية البيهقي : رأس العقل المداراة ، وأخرج الطبراني « مداراة الناس صدقة » وأخرج ابن عدي وابن عساکر :

من عاش مداريا مات شهيداً ، قوا بأموالكم اعراضكم ، وليصانع أحدكم بلسانه عن دينه . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : استأذن رجل على رسول الله ﷺ وأنا عنده فقال رسول الله ﷺ « بنس ابن المشيرة أو اخو المشيرة » ثم أذن له فألان له القول ، فلما خرج قلت : يا رسول الله ، قلت ماقلت ثم ألت له القول؟ فقال يا عائشة « ان من شر الناس من يترك الناس او يدعه الناس اتقاء خشه » وفي البخاري عن أبي الدرداء « إنا لنكشر في وجوه اقوام وان قلوبنا لتلعنهم » وأخرج ابن أبي شيبة عن شعيب قال : كنت مع علي بن عبد الله فر علينا يهودي او نصراني فسلم عليه ، قال شعيب : فقلت إنه يهودي أو نصراني؟ فقرأ علي آخر سورة الزخرف (وقيله يارب ان هؤلاء قوم لا يؤمنون) فاصفح عنهم وقل سلام خسوف يعلمون) .

وقيل لعمري بن عبد العزيز : كيف تبتيدي اهل الذمة بالسلام؟ فقال : ما أرى بأسا ان نبتيديهم . قلت لم ؟ قل لقوله تعالى (فاصفح عنهم وقل سلام) وروى البيهقي : ايس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا بد له من معاشرته حتى يجعل الله له من ذلك مخرجا

الى غير ذلك من الاحاديث غاية الأمر ، لاتنبغي المداراة الى حيث يخذش الدين ، ويرتكب المنكر ، وتسيء الظنون .

اذا علمت ذلك ، فالاستعانة بالكفار واهل البدع والاهواء المشار اليها في السؤال متى خلت عما أومأنا اليه فلا بأس بها ، بل هي من الامر المشرع كما تقدم ، وقد علمت نظيرها في القرون الفاضلة المشهود لها بالخير ، متى كانت الاستعانة من هؤلاء انصرة الملاك وحفظ حوزة الملة ، وحينئذ لا يجوز لاحد من الناس أن يعارضهم في هذه الاعمال الجليلة ، ويسمى في تثبيت الهمم عن معاونتهم ، بل الواجب على كل واحد من أفراد الامة أن يشاركهم في هذا العمل لانه من البر والخير ، وقد قال تعالى (وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) وقال (وتعارفوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) «والؤمن للؤمنين يشد بعضهم بعضا» والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه »

وأما حكم من يرميهم بالكفر وانتزليل وسوء الاعتقاد ، فإن كان يعتقد أنهم كفار حقيقة بمثل هذا العمل ، وإنهم خرجوا عن دين الإسلام بمجرد ذلك فحديث « إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما » ظاهر في تكفير هؤلاء المضللين . وقد نص شراح الحديث وعلماء الأمة على الأخذ بظاهر هذا الحديث بالقيود المذكور ، وإن قصدوا أن هؤلاء بولايتهم للكفار واستعانتهم بهم يفعلون فعل الكفار وليسوا بكفار حقيقة ، فمع اقترانهم وجهاتهم بالدين قد أمروا وارتكبوا جريمة تقرب من الكفر بهذه الكلمة الشذمة التي لا تصدر من مسلم فضلاً عن عالم . وفي الحديث « أبغض عباد الله إلى الله طعان لعان ، وإن من أخلاق المؤمنين أن لا يحيف على من يبغيض ، ولا يأتهم فيمن يحب ، ولا يضيع ما استودع ولا يحسد ولا يظمن ولا يلعن ، ويمترف بالحق وإن لم يشهد عليه ، ولا يتنابد باللقاب ، في الصلاة متخشعاً ، إلى الزكاة مسرعاً ، في الزلازل وقوراً ، في الرخاء شكوراً ، قانعاً بالذي له ، لا يدعي ما ليس له ، ولا يجمع في الغيظ ، ولا يغلبه الشح عن معروف يريده ، يخاطب الناس كي يعلم ويناطق الناس كي يفهم ، وإن ظلم وبغي عليه صبر ، حتى يكون الرحمن هو الذي ينتصر له » هذه هي أخلاق المؤمنين حتى إذا خرجوا منها فسدت أخلاقهم ، وانطفأ نور إيمانهم ، ونقضوا عرى الإسلام عروة عروة ، حتى لا يبقى منه شيء نسأله السلامة

وفي الفروق القرآنية: اعلم أن النهي يعتمد المفسد ، كما أن الأوامر تعتمد المصالح ، فأعلى رتب المفسد الكفر وأدناها الصفائر ، والكبائر متوسطة بينهم وأكبر التباس الكفر إنما هو بالكبائر ، فأعلى رتب الكبائر يليها أدنى رتب الكفر وأدنى رتب الكبائر يليها أعلى رتب الصفائر ، وأصل الكفر إنما هو انتهاك خاص لحزمة الربوبية ، أما بالجهل بوجود الصانع أو صفاته العلى ، أو جحد ما علم من الدين بالضرورة . قال ابن رشد: لا يحكم على أحد بالكفر إلا من ثلاثة أوجه وجهان متفق عليهما ، والثالث مختلف فيه ، فاما المتفق عليهما (فاحدهما) أن يقر على نفسه بالكفر بالله تعالى (والثاني) أن يقول قولاً قد ورد السماع وانعقد الإجماع أن ذلك لا يقع إلا من كافر ، وإن لم يكن ذلك في نفسه كفراً على الحقيقة

وذلك نحو استحلال شرب الخمر ، وغصب الاموال ، وترك فرائض الدين ، والقتل والزنا ، وعبادة الاوثان ، والاستخفاف بالرسول ، وجحد سورة من القرآن ، واشباه ذلك مما يكون علامة على الكفر وان لم يكن كفراً على الحقيقة (والثالث) المختلف فيه أن يقول قولاً يعلم أن قائله لا يمكنه مع اعتقاده والتمسك به معرفة الله تعالى والتصديق به ، وان كان يزعم أنه يعرف الله تعالى ويصدق به . وبهذا الوجه حكم بالكفر على أهل البدع من كفّرم ، وعليه يدل قول مالك في المتبعية : ما آية أشد على أهل الاهواء من هذه الآية (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) انظر فتاوى أبي عبد الله

والحاصل ان هؤلاء المضللين المكفرين قد ارتكبوا بهذه الكلمة كبيرة من الكبائر التي تقضي إلى الكفر إن لم يكونوا معتقدين كفر هؤلاء الجماعة المتمسكين بمقائد أهل السنة وأعمال الاسلام والمسلمين . ولعلهم ان شاء الله تعالى يكونون كذلك غير معتقدين كفر هؤلاء ، وانما نظفوا بهذه الكلمة تمصّباً وعناداً ظاهرياً ، فان باب التكفير باب خطر ينبغي الاحراز عنه ما وجدانيه سبيل ، ولا يدل بالسلامة شيء ، وان كان قولهم بالكفر من الجهل العظيم ، والاقدام على شريعة الله تعالى وأحكامه بالجهالة ، وعلى عباده بالفساد والظلم والعدوان . وأما ان كانوا يكفرون لولئك الساعين في الخير وهم يعتقدون انهم كفار حقيقة فيكونون هم المكفرون كما سبق في أول الكلام للحديث ، ومع ذلك نسال الله سبحانه وتعالى أن يصلح حالهم ويتقدمهم هذه الضلالة ويهديهم إلى الصراط المستقيم

وهذا ما كتبه شيخ الحنابلة :

الجدقة وحده

الحكم عندنا مما شر الحنابلة ان الشرع الشريف أزمانا أن لانكفر أحداً من أهل القبلة إلا اذا عرض نفسه لاكفر وكفر بمخالفة ما شرعه لهذه الامة . سيد البشر ﷺ وكان الخلف فيه مجماً عليهم من علماء أهل السنة والجماعة المتصفون .

هذه الصفات المدوحة شرعا من تحصيل الاتفاق والائتلاف بين فرق أهل الاسلام من غير اختلاف وشقاق وغير ذلك من بقية الصفات التي حث عليها الشارع ليسوا كذلك ، وإن استعانوا بالكفار في تحصيل مصالح المسلمين العامة كالصنائع والجهاد وغيرها . فإن الصنائع مأمور بها شرعا وقد اتصف بها آدم ومن بعده من الانبياء والمرسنيين كما نص عليه ابن عباس

وقد نقل المروذي عن الامام احمد انه قال في قوم لا يعملون ويقولون نحن متوكلون: هؤلاء مبتدعة . واستعانة المسلمين بالكفار جائزة في الجهاد للضرورة كضعف المسلمين ، ولو كان العدو من بغاة المسلمين ، لما روى الزهري أن رسول الله ﷺ استعان بناس من اليهود في حربه فأسهم لهم . رواه سعيد بن منصور . وإذا جازت الاستعانة بالكفار في الجهاد فتجوز الاستعانة من المسلمين بهم في غيره مما فيه مصلحة لعموم المسلمين بجامع أن كلا من المصالح العامة . وتكفير علماء أهل السنة والجماعة بالاستعانة بأهل البدع والاهواء ودخولهم في مجالسهم واختلاطهم معهم في هذه المصالح العامة لا يجوز شرعا .

وإن قال ابن مفلح في الفروع أن الاستعانة بهم مختلف فيها قيل بالجواز وقيل بالمنع ، بل مكفروا هؤلاء العلماء هم الكفار

قال في منتهى الارادات وشرحه للبهوتي وعن الامام احمد : ان الذين كفروا أهل الحق والصحابة كفار ، قال المنقح وهو أظهر من القول بانهم فسقة خوارج بغاة . وقال في الانصاف والقول بتكفيرهم هو الصواب وهو الذي ندين الله به اه . وقال ابن مفلح في الفروع : وعن الامام احمد أنهم كفار ، وقال في الترغيب والرعاية انه الاشهر ، وذكر ابن حامد انه لا خلاف فيه ، وفي الحديث الشريف الصحيح ان من كفر أحداً بلا تأويل فقد كفر

وقال الشيخ برهان الدين الحلبي : ومن كفر أخاه المسلم بغير تأويل فهو كافر يجب عليه تجديد الاسلام والتوبة من ذلك وتجديد نكاحه إن لم يدخل بزوجه ، وكذا إن دخل بها عند أبي حنيفة . وأما عندنا فالصمة باقية إن عاد إلى الاسلام بالتوبة قبل انقضاء العدة ، فيجب على المسلم أن يصون من التكفير بغير

موجب قطعي كل فرد من أفراد أمة محمد ﷺ ومرتكب ذلك لغرض نفسه لا ريب هو من الضالين الممقوتين والله ولي المتقين
وقد روى أبو داود بإسناده عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاث من أصل الإيمان الكف عن قال لا إله إلا الله لا تكفره بذنوب ولا تخرجه عن الاسلام بعمل ، والجهد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمي الدجال ، لا يبطله جور جاز ولا عدل عادل ، والإيمان بالاقدار والله أعلم »
احمد البسيوني الحنبلي بالازهر

وهذا ما كتبه الاستاذ الفاضل الحنفي : *

الحمد لله وحده

قال الله تعالى في كتابه العزيز (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان) وقال عز من قائل (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)
وقول مخاطباً لصفوته من خلفه ﷺ (ادع إلى سبيك بالحكمة والموعظة الحسنة)
وقال في محكم آياته (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوا في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين) وهي آية محكمة لم تنسخ على ما عليه أكثر أهل التأويل . وقال ﷺ « المؤمن ألف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف » وقال عليه السلام « ان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » وهو في الصحيحين

إذا تمهد هذا فنقول : أما تكفير المؤمن فإن مذهب أهل الحق عدم جوازه بارتكاب ذنب ليس من المكفرات صغيراً كان الذنب أو كبيراً ، عالم ما كان مرتكبه أو جاهلاً ، وسواء كان من أهل البدع والاهواء أو لا . نص عليه عبد السلام شارح الجوهرة عند قول المصنف * فلا تكفر مؤمناً بالوزر *
وقل في الدر المختار في باب المرتد : لا يفتى بالكفر بشيء من ألفاظه إلا فيما اتفق المشايخ عليه . وقل في جامع الفصولين : لا يخرج الرجل من الإيمان

(*) هو الاستاذ الشيخ محمد الطوخي رحمه الله

الاجحود ما أدخله فيه ، وما يُشك في انه ردة لا يحكم به ، إذ الاسلام الثابت لا يزول بانك مع ان الاسلام يملو ، وينبغي للعالم إذا رفع اليه هذا أن لا يبادر بتكفير أهل الاسلام اه

وقال في الفتاوى الصغرى : الكفر شيء عظيم فلا أجعل المؤمن كافراً متى وجدت رواية انه لا يكفر . وقال في الخلاصة وغيرها : إذا كان في المسألة وجوه توجب التكفير ووجه واحد يمنعه ، فعلى المفتي أن يميل إلى الذي يمنع التكفير تحسناً للظن بالمسلم . وقال في التتارخانية لا يكفر بالاحتمال ، لان الكفر نهاية العقوبة فيستدعي نهاية الجناية ، ومع الاحتمال لا نهاية

وفي رد المحتار من باب البغاة ما يفيد اجماع الفقهاء المجتهدين على عدم تكفير أهل البدع ، قال وان ما يقع من تكفير أهل مذهب لمن خالفهم ليس من كلام الفقهاء الذين هم المجتهدون بل من غيرهم ، ولا عبرة بغير الفقهاء .

وفي الدرر وحواشيه من باب الامامة : من صلى الى قبائنا لا يكفر بالبدعة حتى الخوارج الذين يستحلون دماءنا وأموالنا وسب أصحاب الرسول ﷺ وغير الشيخين ، ويذكرون صفاته تعالى وجواز رؤيته لكونه عن تأويل وشبهة . والمراد بالخوارج من خرج عن معتقد أهل الحق لا خصوص الفرقة التي خرجت على علي فيشمل المعتزلة والشيعة .

مطالب الاستعانة بالكفار وأهل البدع والاهواء

وأما الاستعانة بالكفار وبأهل البدع والاهواء على نصرة الملة الاسلامية فهذا مما لا شك في جوازه وعدم حظره ، يرشد الى ذلك الحديث الصحيح المار ذكره « ان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » وقال ﷺ « انه ليؤيد الاسلام برجال مالم من أهله » وقال في الدرر المختار في كتاب الغنائم عند قول المصنف : أو دل الذي على الطريق — ومفاده جواز الاستعانة بالكافر عند الحاجة ، وقد استعان عليه الصلاة والسلام باليهود على اليهود ورضخ لهم

وفي شرح العيني على البخاري ان النبي عليه السلام استعان بصفوان بن أمية في هوازن واستعار منه مائة درع وهو مشرك اه

وفي المحيط من كتاب الكسب: ذكر محمد في السير الكبير: لا بأس للمسلم أن يعطي كافراً حربياً أو ذمياً وأن يقبل الهدية منه لما روى ان النبي ﷺ بعث خمسمائة دينار الى مكة حين قحطوا، وأمر بدفعها الى أبي سفيان بن حرب وصفوان ابن أمية ليفرقاها على فقراء أهل مكة، ولأن صلة الرحم محودة في كل دين، والاهداء الى الغير من مكارم الاخلاق

وفي شرح السير الكبير المرخمي: لا بأس أن يصل الرجل المسلم للمشرك قريباً كان أو بعيداً محارباً كان أو ذمياً. وفي الدر المختار من كتاب الوصايا: أوصى حربي أو مستأمن لا وارث له هنا بكل ماله - يعني لمسلم صح، وكذا لو أوصى له مسلم أو ذمي جاز

ثم قل: وصاحب الهوى اذا كان لا يكفر فهو بمنزلة المسلم في الوصية. وقال الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى (انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين - الى قوله تعالى - أن تولوهم) قال أهل التأويل هذه الآية تدل على جواز البرين المشركين والمسلمين وإن كانت الواو الالة منقطعة اه

وفي البخاري ما يدل على وصية عمر رضي الله عنه بالقتال عن أهل الذمة وأن لا يكلفوا إلا طاعتهم اه

هذه هي نصوص الفقهاء وأصحاب الحديث وأهل التفسير في وجهي السؤال وبها تندفع كل شبهة في عمل هؤلاء الموقنين لخير أهل الملة الحنيفية السمحاء العاملين على تحصيل الائتلاف والاتفاق بين فرق أهل الاسلام الداخلين بتربية أيتام المسلمين في قوله ﷺ كما في صحيح البخاري «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» - وقال بأصميه السبابة والوسطى - المجاهدين بمعلمهم هذا لاعلاء كلمة الله ونصرة الموحدين، ولا يمنع من صحة علمهم دخولهم في مجالس أهل البدع واختلاطهم معهم في هذه المصالح العامة متى كانت نيتهم تحصيل ذلك الخير العام. فان الاعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى، والله تعالى أعلم.

(ماحققه الاستاذ الامام نفسه في المسألة)

هذا ما ذكره هؤلاء الافاضل ثم نقول : المطلاع على ما نقله حضرات الاساتذة من علماء الجامع الازهر من نصوص الكتاب والسنة وأقوال الائمة والعلماء من أهل المذاهب الاربعة يعلم حق العلم أن ما يفعله أولئك الافاضل دعاة الخير هو الاسلام ، ومن أجل مظاهر الايمان ، وان الذين يكفرونهم أو يضللونهم هم الذين تعدوا حدود الله وخرجوا عن أحكام دينه القويم

أولئك الدعاة إلى الخير قاموا بأمر الله في قوله (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وأما خصومهم فقد خالفوا نهى الله سبحانه في قوله (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم) وإن كانوا يعتقدون كفر أولئك المؤمنين حقيقة فالمفتى به عند الحنفية انهم يكفرون بذلك لاعتدادهم الايمان وأعماله كفرًا وهو جحد لما جاء به محمد ﷺ . وإن كانوا يقولون ذلك نبرًا بألسنتهم فأخف حالهم ان يدخلوا في الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا وقد قال الله فيهم (ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة) لانهم يضللون من يؤمن بالله واليوم الآخر وبما جاء به محمد ﷺ ويرمونهم بالفسق في أعمالهم ، وهو اشاعة الفاحشة في الذين آمنوا ، وما أعظم الوعيد عليه في قوله (لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة) فهو من فظائع الكبائر .

بقي ان بعض الجهلة المتشدين ربما تعرض لهم الشبهة في فهم قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم) إلى آخر الآية . وقوله تعالى (لم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ، ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) وقوله تعالى (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء) تلقون البهيم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن

تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي، تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعل ذلك فقد ضل سواء السبيل) ، وما لم أتذكره مما قد يكون فاتني من الآيات التي تصرح أو تشير إلى النع من مودة المؤمنين لغير المؤمنين ، على أنه لا شبهة لهؤلاء الجبهة في مثل هذه الآيات تسوغ لهم تفسيق أخوانهم أو تكفيرهم بعد ما جاء في الآية المحكمة من قوله تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) وبعد ما جاء من القصص الذي قصه الله علينا لتكون لنا فيه أسوة إذ قال (وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً) وبعد ما أباح الله لنا في آخر ما أنزل على نبيه ﷺ نكاح الكتابيات ، ولا يكون نكاح في قوم حتى تكون فيهم قرابة المصاهرة ، ولا تكون تلك القرابة حتى تكون المودة .

وحقيقة ما جاء في الآيات الدالة على النهي عن موالاة غير المؤمنين أو مودة الفاسقين والمجادين الله تعالى أنه نهى عن الموالاة في الدين ، ونصرة غير المؤمن على المؤمن فيما هو من دينه ، وامداد الفاسق بالمعونة على فسقه ، وعن اتخاذ بطانة من غير المؤمنين يكون من صفتها أنها تبذل وسعها في خذلانهم وإيصال الضرر إليهم ، فيكون ادلاء المؤمنين بها بأسرارهم واتخاذها عضداً لهم في أعمالهم ، اعانة لها على الإيقاع بهم ، أما إذا أمن الضرر وغلب الظن بالمنفعة ولم يكن في المودة معونة على تعدي حدود الله ومخالفة شرعه فلا خطر في الاستعانة بمن لم يكن من المسلمين ، أو لم يكن من الواقفين الصالحين ممن يسمونهم أهل الأهواء ، فإن طالبا طالب الخير يباح له بل ينبغي له أن يتوصل إليه بآية وسيلة توصل إليه ما لم يخلفها ضرر للدين والدنيا

وقد بينت السنة وعمل النبي ﷺ ما صرح به الكتاب في قوله (لا ينهاكم الله) الخ . ولقد كانت لنا أسوة حسنة في استعانة رسول الله ﷺ بصفوان بن أمية في حرب هوازن وفي غيرها من الوقائع كما هو معروف في السنة ثم كان في

سيرة الخلفاء الراشدين من لدن عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى علي كرم الله وجهه ما فيه الكفاية لمسترشد إذا استرشد ، فقد أنشأ عمر رضي الله عنه الديوان ونصب العمال ، واحتاج المسلمون إلى من يقوم على العمل في حساب الخراج وما ينفق من بيت المال ، واحتاجوا إلى كتاب المراسلات والقوم أميون لا يستطيعون القيام بما كان يطلبه العمل من العمال ، فوضعوا ذلك كله في أيدي أهل الكتاب من الروم وفي أيدي الفرس ، ولم يزل العمل على ذلك في خلافة بني أمية بعد الراشدين إلى زمن عبد الملك بن مروان ، ولا شك في أن هذا استعانة بغير المسلمين على أعمال هي من أهم أعمالهم ، فكيف ينكر هؤلاء الجهال جواز تلك الاستعانة ؟ بل قد استعان كثير من ملوك المسلمين بنير المسلمين في حروبهم ، وإنا نذكر ما قال ابن خلدون في ذلك كله قال في باب ديوان الاعمال والجبایات :

« وأما ديوان الخراج والجبایات فبقي بعد الاسلام على ما كان عليه من قبل ديوان العراق بالفارسية ، وديوان الشام بالرومية ، وكتاب الدواوين من أهل العهد من الفريقين ، ولما جاء عبد الملك بن مروان واستحل الأمر ملكا وانتقل القوم من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة ، ومن سذاجة الامية إلى حذق الكتابة ، وظهر في العرب ومواليهم مهرة في الكتاب والحسبان أمر عبد الملك سليمان بن سعد والي الاردن لعده أن يتقل ديوان الشام إلى العربية فأكمل لسنه من يوم ابتدائه ، ووقف عليه سرحون كاتب عبد الملك فقال لكتاب الروم اطلبوا العيش في غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم

« وأما ديوان العراق فامر الحجاج كاتبه صالح بن عبد الرحمن وكان يكتب بالعربية والفارسية ولحق ذلك عن زاذان فروخ كاتب الحجاج قبله . ولما قتل زاذان في حرب ابن الاشعث استخلف الحجاج صالحا هذا مكانه وأمره أن يتقل الديوان من الفارسية إلى العربية ففعل ، ورغم لذلك كتاب الفرس اه

وقل في الكلام على الوزارة « وأما حال الجبایة والانفاق والحسبان فلم يكن عندهم برتبة لان القوم كانوا عربا أميين لا يحسنون الكتاب والحساب فكلوا يستعملون في الحساب أهل الكتاب أو أفراداً من موالى العجم ممن يجيده ، وكان

قليلا فيهم . واما اشرافهم فلم يكونوا يجيدونه لان الامية كانت صفتهم التي امتازوا بها ، وكذا حال المحاطبات وتنفيذ الامور لم يكن عندهم رتبة خاصة للامية التي كانت فيهم ، والامانة العامة في كتمان القول وتأديته ، ولم تخرج السياسة الى اختياره لان الخلافة انما هي دين ليست من السياسة الكلية في شيء ، وأيضا فلم تكن الكتابة صناعة فيستجدد للخليفة أحسنها لان الكل كانوا يعبرون عن مقاصدهم بابلغ العبارات ، ولم يبق إلا الخط فكان الخليفة يستنيب في كتابته من عماله من يحسنه اه
وقال في الحروب ومذاهب الامم في ترتيبها :

(فصل) ولما ذكرناه من حرب المصاف وراء المساكر وتأكده في قتال الكر والفر صار ملوك المغرب يتخذون طائفة من الافرنج في جندهم ، واختصوا بذلك لان قتال أهل وطنهم كله بالكر والفر ، والسلطان يتأكد في حقه ضرب المصاف ليكون ردءا للمقاتلة أمامه ، فلا بد وان يكون أهل ذلك الصف من قوم متعودين للثبات في الزحف وهم الافرنج ، ويرتبون مصافهم المحدث بهم منها ، وهذا على ما فيه من الاستعانة بأهل الكفر ، وانما استخفوا ذلك للضرورة التي أربنا كلها من تخوف الاجفال على مصاف السلطان ، والافرنج لا يعرفون غير اثبات في ذلك لان عادتهم في انقتال الزحف فكانوا أقوم بذلك من غيرهم اه

وجاء في الاحكام السلطانية لقاضي القضاة ابي اخسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي في الكلام على وزارة التنفيذ « وهذا الوزير وسط بين الامام وبين الرعايا والولاية يؤدي مأمرا ، وينفذ عنه ماذكر ، ويمضي ماحكم ، ويخبر بتنفيذ الولاية ، وتجهيز الجيوش ، ويعرض عليه ماورد من مهم ، وتجدد من حدث ملم ، ليعمل فيه ما يؤمر به ، فهو معين في تنفيذ الامور وليس بوال عليها ، ولا متقلدا لها ، فان شورك في الرأي كان باسم الوزارة أخص ، ثم قال : ويجوز أن يكون هذا الوزير من أهل الذمة وإن لم يجز أن يكون وزير التفويض منهم اه (١)

واستعانة الخلفاء من بني أمية وبني العباس بآرباب العلوم والفنون من الملل المختلفة فيما هو من فنونهم مما لا يمكن لصبي يعرف شيئا من تاريخ الامة انكاره ،

(١) وفي مسودة الامام هنا زيادة في دخول خراعة في حلف النبي (ص) مسلمهم ومشركمهم وهي منقولة من سيرة ابن هشام ولم يقبها عند تبليص الفزوي

وقد كانوا يستعينون بهم على أعين الأئمة والعلماء والفقهاء والمحدثين بدون نكير، فقد قامت الأدلة من الكتاب والسنة وعمل السلف على جواز الاستعانة بغير المؤمنين وغير الصالحين، على ما فيه خير ومنفعة للمسلمين، وإن الذين يعمدون إلى هذه الاستعانة لجمع كلمة المسلمين وتربية أيتامهم، وما فيه خير لهم، لم يفعلوا إلا ما اقتضته الاسوة الحسنة بالنبي ﷺ وأصحابه، وإن من كفرهم أو فسقهم فهو بين أحد الأمرين إما كافر أو فاسق، فعلى دعاة الخير أن يجدوا في دعوتهم، وإن يعضوا على طريقهم، ولا يحزنهم شتم الشائمين، ولا يغيظهم لوم اللائمين، فالله كفيل لهم بالنصر، إذا اعتصموا بالحق والصبر، والله أعلم

الفتوى الثانية

طوفانه نوح، هل عم الارض كلها؟

جواب سؤال ورد على الاستاذ الامام مفتي الديار المصرية من حضرة الاستاذ الشيخ عبد الله القدومي خدام العلم الشريف بمدينة نابلس، وفيه نص السؤال : وصلنا مكتوبكم المؤرخ في ٤ شوال سنة ١٣١٧ الذي أنهيت به انه ظهر قبلكم نشء جديد من الغلبة ديدنهم البحث في العلوم والرياضة والخوض في توهين الأدلة القرآنية، وقد سمع من مقالاتهم الآن ان الطوفان لم يكن عاما لانحاء الارض، بل هو خاص بالارض التي كان بها قوم نوح عليه السلام، وانه بقي ناس في أرض الصين لم يصيبهم الغرق، وإن دعاء نوح عليه السلام بهلاك الكافرين لم يكن عاما بل هو خاص بكفر قومه، لانه لم يكن مرسلا إلا إلى قومه بدليل ما صح « وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعث إلى الناس كافة »

فذا قيل لهم : ان الآيات الكريمة ناطقة بخلاف ذلك، كقوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام (رب لا تذر على الارض من الكافرين دياراً) وقوله تعالى (وجعلنا ذريته هم الباقين) وقوله تعالى (لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) قالوا هي قابلة للتأويل ولا حجة فيها، وإذا قيل لهم إن جهابذة المحدثين أجابوا بأنه صح في أحاديث الشفاعة أن نوحا عليه السلام أول رسول بعثه الله إلى أهل الارض، وانه يتعين

ان يكون قومه أهل الارض ، ويكون عموم بعثته أمراً اتفاقياً لعدم وجود أحد غير قومه ، ولو وجد غيره لم يكن مرسل اليهم - سخروا من المحدثين ، واستندوا إلى حكايات منسوبة إلى أهل الصين . ورغبتم منا بذلك المكتوب كشف الغطاء عن سر هذا الحادث العظيم ، والافادة بما يقتضيه الحق ، وطمئن اليه القلب . والجواب عن ذلك والحمد لله : أما القرآن الكريم فلم يرد فيه نص قاطع على عموم الطوفان ، ولا على عموم رسالة نوح عليه السلام ، وما ورد من الاحاديث على فرض صحة سنده فهو آحاد لا يوجب اليقين ، والمطلوب في تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين لا الظن ، اذا عد اعتقادها من عقائد الدين

وأما المؤرخ ومريد الاطلاع فله أن يحصل من الظن ما ترجحه عنده ثقته بالرأوي أو المؤرخ أو صاحب الرأي ، وما يذكره المؤرخون والمفسرون في هذه المسألة لا يخرج عن حد الثقة بالرواية أو عدم الثقة بها ، ولا تتخذ دليلاً قطعياً على معتقد ديني وأما مسألة عموم الطوفان في نفسها فهي موضوع نزاع بين أهل الاديان وأهل النظر في طبقات الارض ، وموضوع خلاف بين مؤرخي الامم ، أما أهل الكتاب وعلماء الامة الاسلامية فعلى ان الطوفان كان عاماً لكل الارض ووافقهم على ذلك كثير من أهل النظر ، واحتجوا على رأيهم بوجود بعض الاصداف والاسماك المتحجرة في أعالي الجبال لان هذه الاشياء مما لا تكون إلا في البحر ، فظهورها في رؤس الجبال دليل على ان الماء صعد اليها مرة من المرات ، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عم الارض ، ويزعم غالب أهل النظر من المتأخرين ان الطوفان لم يكن عاماً ، ولهم على ذلك شواهد يطول شرحها . غير انه لا يجوز لشخص مسلم أن ينكر قضية ان الطوفان كان عاماً لمجرد احتمال التأويل في آيات الكتاب العزيز ، بل على كل من يعتقد بالدين أن لا يفي شيئاً مما يدل عليه ظاهر الآيات والاحاديث التي صح سندها وينصرف عنها إلى التأويل إلا بدليل عقلي يقطع بان الظاهر غير مراد ، والوصول إلى ذلك في مثل هذه المسألة يحتاج إلى بحث طويل ، وعناء شديد ، وعلم غزير في طبقات الارض وما تحتوي عليه ، وذلك يتوقف على علوم شتى عقلية ونقلية ، ومن هذى برأيه بدون علم يقيني فهو مجازف لا يسمع له قول ، ولا يسمح له ببث جهالاته ، والله سبحانه وتعالى أعلم

الفتوى الثالثة

﴿ هي ترانسغالية التي هاجمتها السياسة الحديوية ، بأقلام كتابها المأجورين ، وشيوخها المداهين ، فتنكرت دولة المال والرب والنياشين ، وفازت دولة العلم والدين ، وكلن النصر لكتابها المخلصين ﴾

قد تقدم ذكر هذه المسئلة (في ص ٥٨٦) وما قاله لي الشيخ محمد توفيق البكري من إعداد سمو الحديو لحلة من فرسان الكتاب للهجوم على الفتى في تنقيد هذه الفتوى ، واحتقاري لهذا التهديد ، ولم يلبث أن ظهر صدق قوله وصحة رأيه في احتقاري لهؤلاء الكتاب ، وكونهم لا يقام لهم وزن في هذا الموضوع ، فقد كتبوا وكتبنا فكنا نحن الغالبين في العلم ، وكأوامر الراجحين في الجهل ، حتى ان ابراهيم بك اللويلجي لم يجد ما يرد به على صاحب النار إلا مثل ما كتبه في نهيج العامة عليه في حكايته لقول المفسرين في قوله تعالى (سأريك دار الفاسقين) انها مصر في عهد فرعون موسى وأمثاله — إذ قلد السيد عبد الله نديم في قوله في أنحب القطم انهم كانوا قراء ، فلما استغنوا في مصر عادوا المصريين ، ولكن قسير اللويلجي في الدم والتهكم أتق وأطرف كقوله في موضع : غني أو شيع . فلما لبس الحرير وتأنع بالكمبره ومثل هذا سطره بعض القراء في وقته ، ويتفكرون بلغظه ، فإذا نقل في وقت آخر كان ثما يسخر منه ، وكذلك إذا ترجم ، فان ما كتبه وكتبناه في هذا الموضوع قد ترجمته جرائد المسلمين في الهند وغيرها وكانوا من أنصارنا كما سيأتي قريباً .

وأما الذي تولى كبار الأرجاف ، وأكثر الأيضاع فيه والايحاف ، وتكاف تنقيد الفتوى ونهيج العالم الاسلامي عليه اقبوه محموبك أبو شادي الحامي في الجريدة التي أنشأها باسم (الظاهر) لو كان بمحمد مظمه الرجل اسمه الشيخ محمد الشرطي كان طالب علم ثم دخل جماعة الدعاة الى عقيدة وحدة الوجود وأنشأ جريدة سماها (النهج القويم) كانت هي التي كتبت ن الشيخ محمد عبد صرح في درس التوحيد الذي كان يلقيه في

الازهر بنفي توحيد الله تعالى فخاكمته النيابة العامة على هذا وحديثه وسيأتي شرح هذه المسألة في محله وكان قبل حادثة الفتوى بوضع سنين ، فلما دعاه أبو شادي بك الى الكتابة في التشنيع على الفتوى في جريدة الظاهر وافق هوى في نفسه وهو لم يكن صاحب مبدأ ثابت بل كان يكتب بالاجرة لجريدتين أو أكثر من الجرائد الاسبوعية التي تعرف بالساقطة فيرد في بعضها على ما كتبه هو نفسه في الأخرى وكانت جميع جرائد مصر اليومية والسياسية تقتصر للاسناد الامام وتشر لانصاره كل ما يكتبون إلا المؤيد واللواء حتى أن أبا شادي بك رفع قضية على جريدة مصورة منها لانها حقرتة فيما صورت به تهجمه على فضيلة المفتي ، ولكن الذي كان يغيبه من هذه الصحف مجلة المزار لقوة حجتها ، وسيأتي ماقاله في صاحبها ، وجريدتا الاهرام والمقطم لسعة انتشارهما ، مع قلة انتشار جريدته وكرهه الناس لها بعد تصديها للرد على الاستاذ الامام ، كما ذكر ذلك يوسف باشا طلعت صاحب جريدة الراوي في التقرير الذي رفعه الى المايين الهمايوني في شأن عداوة الحديو المفتي وقد تقدم (ص ٥٦٤)

تقرير أبي شادي في الفتوى الترانسفالية

ولما وجد ان ما ينشره في جريدته قلما يقرأه الناس كتب في المسألة تقريراً يحرض به العالم الاسلامي كله على المفتي جمل عنوانه (تقرير ملي) يتضمن كذا « مرفوع بكل نجمة واحترام لائمة الدين الاعلام ، وعيالم علماء الاسلام ، في الاستانة العلمية ومصر والهند وتونس والغرب الاقصى وايران وافغانستان وبلاد العرب . من واصله خادم الملة والدين المتفاني في الاخلاص لكافة اخوانه المسلمين !! » وطبع هذا التقرير في ٢٩ شوال سنة ١٣٢١ وهو يشبه التقارير التي يكتبها أمثاله من المحامين في القضايا المهمة التي يوكلون فيها وإن كانوا يعتقدون بطلان موكلهم فيها ، فهم يعتمدون فيها على تأثير المبرات الخطائية والشعرية التي يرجون أن تؤثر في نفس القضاة غير المدققين ، ففي هذا التقرير من مدح نفسه ووصفها بالغيرة على الاسلام وحبه للمسلمين وحرصه على شريعتهم التي وقعت في خطر عظيم من هذه الفتوى ووقعوا هم تحتها أيضا — ما يسخر منه العقلاء

وأما المسائل التي ينقلها فيها من كتب التفسير والفقهاء فيها من الحجة عليه ما ليس يفهمه أو ما يفهم بعضه ويحاول اضلال قراء تقريره عن فهمه بمثل ما يحاول أمثاله اضلال القضاة في مرافعاتهم وتقاريرهم في الدعاوى التي يحامون عن أصحابها وأهم ذلك كله انه جعل البقر الذي يضرب على رأسه ثم يذبح من الموقوذة وكان أكثر ما نشره في جريدة الظاهر بقله أو قلم الشربتلي أو غيره تحت هذا العنوان الذي يوضع بهلم الثلث الكبير (الموقوذة) وإنما الموقوذة ما ضرب بغير محدد كالخشب والحجارة حتى انحلت قواه ومات، وموضوع الفتوى بقر يضرب على رأسه بالبلطة (ويسمى الشاقور) حتى تضعف مقاومته ثم يذبح قبل أن يموت . فالضرب بالبلطة وهي حديدة تشخذ وتتمهى كالكسكين ليس من أسباب الوقت ، فلو مات الثور أو البقرة بالضرب بها لاتسمى وقيداً في اللغة فكيف اذا ذبح كما ان ما يضرب بغير المحدد كالعصي والحجارة اذا ذبح قبل أن يموت لا يسمى وقيداً فهو حلال بنص القرآن فإنه قال في الموقوذة واخواتها (إلا ما ذكيتم) أي أتممت قتله بالذبح مثلاً قبل أن يموت . وهو ينقل هذه الأقوال عن المفسرين والفقهاء ولكنها يزيد على البلطة والشاقور فيعده منها بجعله أو توهمه ان القاري يغتر بذلك ويقبله ، وإنما يقبله العامي الجاهل دون العلماء

ومن الغريب انه جعل التقرير في إنكار الفتوى الترانسفالية برمتها حتى صلاة الشافعي خلف الحنفي ولكنه أجمل الكلام في هذه المسألة مع إنكاره لجوازها وفي مسألة البرنيطة وفصله في مسألة الموقوذة . ووعد بتفصيل المسألتين الآخرين في فرصة أخرى بعد أن يرى تأثير كلامه في المسألة الاولى مسألة الموقوذة

ومسألة صلاة المنتسبين الى المذاهب بعضهم مع بعض قد جرى عليها العمل في بلاد الاسلام سلفاً وخلفاً في جميع الاقطار على صلاة بعضهم مع بعض ولا سيما مذاهب أهل السنة بل صرح أعلام أهل السنة بجواز الصلاة خلف إمام الصلاة المبتدع كالرافضي والخارجي وكذا الفاسق وان كان بعض المنتعطين في التقليد ذكروا وجهين في المسألة بناء على قاعدتين إحداهما ان العبرة في الصلاة برأي الامام والثانية ان العبرة برأي المأموم . ولكن العمل جرى على صلاة بعضهم مع

بعض وعدم التفريق بين المسلمين في أكبر مظاهر الاسلام الجامعة وهو الصلاة. أي على ان العبرة باعتقاد الامام فاذا كانت صلاته صحيحة في مذهبه جاز مخالفته فيه أن يقتدي به بضع جل من تقرير أبي شادي

وانني أنقل بعض عبارات هذا التقرير لاجل العبرة به مع إعلام قارىء هذا التاريخ انه لم يبلغنا انه كان له أدنى قبول عند أحد من علماء المسلمين الذين أرسلت اليهم الالوف منه في جميع الاقطار . وان علماء مصر وغيرها من الاقطار قد أيدوا فتوى مفتي الديار المصرية كما سيأتي . وأبو شادي بك وعد بنشر كل ما يرسله اليه العلماء وغيرهم من الإنكار على الفتوى ولم ينشر شيئاً لانه لم يجثه شيء ، ونحن قد نشرنا بعض ما أرسل الينا من غير طلب وعندنا ما لم ننشره إلى الآن

(١) قال أبو شادي بك في أول مقدمة تقريره « اليكم يا حماة الملة وعلماء الدين وعواهل الامة المحمدية وحراس شريعته يرفع هذا العاجز تقريراً مشتملاً على واقعة حال ترونها أمام أنظاركم من اعظم الوقائع وأشدّها على الافئدة المؤمنة ، ترونها تظهر أمامكم ممثلة بعض ما يتوخاه العبيدون من فرط التهاون بفروع الملة وأحكامها ويدعون انهم نصراء الزمان والمكان وأعوان الحياة الراقية ، وكأنها تستدعي في نظرهم هدماً للملة بمحاول التطرف الشديد ، وزلزلة في أرض الوجود الاسلامي شرقاً وغرباً . ترونها وهي تعلّى عليكم عبارات تسيل بها عبرات العيون ، ويتوجع بها كل فؤاد حي محزون ، هي الواقعة ذات الضجة الهائلة والصلصلة المستمرة ، فصلناها لكم رجاء أن تعيروها آذاناً صاغية ، وأفئدة واعية ، الخ

وتلا هذا ذكر عداوة الغرب للشرق وتربصه الشر به ، وان أدنى بدعة في الاسلام تمكن الغرب من مقتل الشرق بهدمها لاركان الاسلام ، كأن القول بجواز الاكل من ذبيحة نصارى الافرنج بدعة أو أول بدعة حدثت في المسلمين ، وانها وإن كانت في مسالة فرعية لا بد أن تفضي إلى هدم أركان العقائد وتمكين الغرب من ازالة الاسلام من الارض . والواقع ان البدع في بلاد المسلمين قديمة ومنها ما هو مغل بالعقائد وهي على كثرتها في هذه البلاد وغيرها لم يسمع احد من أبي شادي ولم يقرأ أحد من كلامه المكتوب كلمة واحدة في إنكار شيء منها ، وانما القائلون

بهذا في هذه البلاد جم جماعة الاستاذ الامام مفتي الديار المصرية
 (٣) ثم قال « فياحية الله ، وبانصار للرومة والشهامة ، وبأساطين الدين ،
 اليكم نسوق الحديث ونستحث همكم إلى وقاية أحكام دين الله في هذا الوسط المغمم
 بالشرور ، في هذا الوسط الذي اندلع فيه لسان الشرور . هذا الوسط الذي ظهرت
 فيه الرذيلة على الفضيلة . هذا الوسط الذي أصبح الدين فيه أعزل بلا سلاح . هذا
 الوسط الذي سلت فيه الشهوات على القلوب . فتمردت النفوس وآثرت إثارة
 الخطوب . هو هذا الوسط الذي حارب فيه الدين من حاته ، وحوربت فيه الله
 من رجالها . حوربت الشريعة من أنصارها . حوربت فيه الفضيلة من مظاهرها ،
 حوربت فيه الأحكام من أساطينها . حوربت فيه ملة الرسول ، من كل ذي نشأة
 غلب على فؤاده الفضول . قد ذهب مذهب الشفوذ في العقول والمقول
 «رضنا اليكم أيها العواهل هذه السطور تنادىكم بصوت الملة ولسان الدين ،
 وتوجه أقطاركم إلى بدعة لو تركت لاضت إلى ضلال مبين . فالبدار البدار إلى
 مقاومة هذا الصلور . البدار البدار إلى حفظ الدين فهو خير شام . البدار البدار
 إلى ترقية أركان الله التي أخذ المدحون بمدينة القرب في قويضها ونقض بنياتها
 اتقائم على أسس الحكمة «ومثل هذا القل الشري كثير جدا فيه ومنه استصراخ
 خاص بملوك المسلمين وأمراتهم ، ومناجاة لموتاهم

(٣) ذكر انه قد ورد عليه من علماء الأزهري عبارة تقتضي ان الشيخ محمد عبده

صار معزولا من الاقام لان «وظيفة الاقام مختصة لمن يكون مقلداً للامام أبي حنيفة...
 ولما كان الشيخ محمد عبده لم يستد في قنوى القرائن قال على شيء من خصوص
 مذهب الامام أبي حنيفة بل اخذ برأيه مثلا قد أعلن انه مجتهد لا مقلد لمذهب
 وحيث قد خرج عن التقليد للخصوص عليه في أمر التولية فيرى العلماء انه صار
 معزولا شرعا من وظيفة الاقام . بمجرد هذا الخروج لان الحاكم انما ناط الوظيفة
 بالمقلد لا امام مخصوص »

وهذه العبارة هي المقصوفة بالقات من كل هذه الحجة الخديوية على الشيخ محمد

عبده كما تقدم بيانه في محله، ولكن لم يتجراً احد من علماء الازهر على التصريح بها باسمه، ومعناها باطل كما بيناه في المنار قبل كتابة هذا التقرير وطبعه وسياتي

(٤) ثم قال بهذا المعنى في ص ٥٨

« وقد رفع أولئك الائمة اعلام عريضة إلى مقام الخديوية الجايل بالتمسبون بإيقاف تيار هذه الفتاوى التي أرادها الهوى، وحداتها الرأي، واستاقها الغرض واستملت بمناجل الحصاد ما غرس الدين. واتخذت معاول الهوى لهدم معاقل الشريعة الغراء (حماتها الله ذلك) اهـ

نعم هذا هو الغرض من كل هذا الغلو في الغيرة على الدين والشريعة بمجرد الدعوى التي لا يصحبها أدنى اعتقاد، فقاتل الله الرياء والذفاق

(٥) ثم قال «أما وقد صدر من مركز الفتوى أمر بخلف ديننا، وبيان مذهب الية الاجماع من أئمة ماتنا، وكان يشغله أعظم منه عالمية وأكثر فضلاً، لا تتساهل ان نحمل عليه بما في طاعتنا ونوسعه ذماً وهجواً، اللهم إلا ان ثاب إلى الرشد وأعلن خطاه، وأبان انه نزع عن التصميم برأيه، والاستتبداد بفكره، وفي اعتقادنا انه لا كبير إلا من كبره الدين، ولو اننا ممن يريد غير نصرة الدين واحترام أهله مادعونه مراراً إلى بيان حجته التي اعتد عليها فيما ذهب إلى الافتاء به فبخل واستغنى، ولم يرد إلا ان يكون جواب بني سام. من أفواه بني (شام) اهـ

هكذا ذكر كلمة شام بين هلاين وهو يعني بها صاحب المنار الذي بين صحة الفتوى بنصوص الكتاب والسنة وأقوال سلف الامة الصالح وأئمتهم، وان المفتي أهل لا أفتى به والاصل في المفتي أن يكون مجتهداً كما سيأتي، فلو كان ابو شادي بك يطلب الحجة لذاتها لاذم المفتي وهجوه ليكون حجة للخديو على اقناع الحكومة والمسيطرين عليها بموافقته على عزله — لما أعرض عن الحجة لمحيتها على لسان أبناء الشام، وهل هم إلا مثله من أبناء سام، ولكن الله فضاهم عليه بالعلم بدين الاسلام، وبنصره والدفاع عنه ؟

(٦) ثم قل في خاتمة التقرير «إن أشباع المفتي انحصروا في اخواننا السوريين

والمسيحيين المتملقين، ولغيف من ذوي السوابق المعروفة أطوارهم، ولم تنف على

يقول لهالم او شبه عالم او طالب علم غير صاحب المنار، ومكانته من الشيخ مكانة الشيخ من نفسه ، فلا يسمى شيعياً ولا غير شيعي ، ولا بحسب من القوم الماضين او أهل اليوم لانه مع الشيخ مطلقاً »

أما قوله ان مكانة صاحب المنار من الشيخ (يعني الاستاذ الامام) مكانة الشيخ من نفسه فنحمد الله تعالى انه يقول صحيح ومعروف عند الناس ، وأما قوله « انه مع الشيخ مطلقاً » فهذا قول باطل فانه انما كان معه لانه كان على الحق ، وهو لم يكن يرضيه من اخوانا وتلاميذه إلا هذا ، وكانوا يصرون له برأيهم فيما يخالف رأيه فيفسر بذلك ويذكر لم حجة على رأيه ، ويرجع إلى رأي من يراه مصدياً منهم كما سنبينه في الكلام على أخلاقه وآدابه وقوله قبله ان أشياءه انحصروا فيمن ذكرهم باطل فان أنصاره من علماء الازهر وعلماء الآفاق الاسلامية كلها كثيرون ، وكذلك أكثر أصحاب الجرائد كما سيأتي . وأما أنصار سمو الخديو فلم يعرف منهم إلا ابو شادي بك ومحرر جريدته الشربتلي والواء والجوائب ، وقد استغاث بعلماء الاقطار العربية وملوكها وأمرائها وكل ذي مكانة فيها ، فلم يره أحد منهم أهلاً لان يستجاب له أو يرجع اليه قول .

وقد اجتمع بعد نشر هذا التقرير جماعة من علماء المذاهب الاربعة في الازهر وكتبوا تأييداً للفتوى بنصوص المذاهب الاربعة وكان بينهم على ما أذكر الشيخ احمد ابو خطوه والشيخ سعيد الموجي وشيخ رواق الحنابلة ، ولا أذكر أسماء علماء المالكية فيهم ، وسموه (ارشاد الامة الاسلامية) ، إلى أقوال الائمة في الفتوى (الترسالية) وطبع هذا التقرير الاستاذ الشيخ (عبد الحميد حمروش البحر اوي الازهري) ونشره في الاقطار ولعلنا ننشره في ذيل هذا التاريخ . وجاءنا تأييدات أخرى للفتوى من الشرق والغرب ولا سيما علماء المالكية في تونس والمغرب الأقصى وذلك ان فتوى طامم أهل الكتاب قد بنيت على قول القاضي أبي بكر بن العربي من أشهر علماء المالكية وزعم المعارض ان المالكية لا يمتدون قول القاضي أبي بكر المذكور وانني أنشر هنا ما كتبه يومئذ ونشرته في الجزء العشرين من مجلد المنار السادس في تأييد الفتوى وهي فتوى في ثلاث مسائل وعبرنا عنها بالفتاوى الثلاث وما نشرته في (ج ٢١) الذي بعده في الرد على الظاهر ، ثم اقني عليه ببعض ما جاءنا من سائر الاقطار ونشر في المنار .

الفتاوى الثلاث

(في لبس قلنسوة أهل الكتاب وأكل ذبائحهم واقتداء الشافعية بالحفية)

نشرنا ما ياتي تحت هذا العنوان في الجزء ٢٠ من المجلد السادس الصادر في ١٦ شوال سنة ١٣٢١ (٤ يناير سنة ١٩٠٤) وقد جعلنا هذه الفتاوى هنا فتوى واحدة في ٣ مسائل وهذا نص ما نشر :

ذكرنا في الجزء الثامن عشر (أي من ٦) انه شاع ان بعض علماء مصر أفقوا رجلا ترنسفاليا بجواز لبس القلنسوة التي يلبسها أهل أوربا وتسمى (البرنيطة) وان بعض الناس أكبر هذه الفتوى جهلا منهم بالدين ، وذكرنا من هداية السنة السنية ماتبين به ان الاسلام لم يقيد أهله بزي مخصوص لان الزي من العادات التي تختلف باختلاف حاجات الشعوب وأذواقهم وطبائع بلادهم فهو مباح لهم ، فلم يكن من حكمة هذا الدين العام لجميع البشر أن يقيد شعوب الارض كلها بمادة طائفة منهم كأهل الحجاز أو غيرهم ، ولهذا لبس النبي ﷺ من لبوس النصارى والمجوس والمشركين كما ثبت في الاحاديث الصحيحة التي أشرنا الى بعضها في ذلك الجزء ، ولذلك ترى للمسلمين في كل قطر زياً يشاركون فيه غالباً من ليس من دينهم بل اكثر لبوسهم مأخوذ عن النصارى برمته ، ومنه زي العثمانيين الرسمي كما تقدم

ثم بعد كتابة ما أشرنا اليه رأينا في بعض الجرائد ان الذي أفق بما ذكره هو مفتي الديار المصرية وانه أفق بفتويين آخرين كما تا أيضاً موضوع انط الجاهلين الذين لا يعرفون من الدين إلا ما ينسب اليه من العادات والتقاليد الشائعة بين المسلمين في بلادهم خاصة . وقد ذكر في إحدى الجرائد نص الاسئلة التي رفعت إلى المفتي مع أجوبتها ، ويقال ان بعض اصحاب الجرائد اشترى ورقة الفتوى من الترنسفالين بمال كثير لظنه أن فيها ما يثبت مخالفة المفتي في ذلك للشهور من مذهب الحكومة الذي يفق به الحكومة ، والمعروف عند العامة فيؤاخذ !! وسعى بعد ذلك في نشرها في الجرائد وانبرت إحداها ، لارد عليها أو التنويه بخطأها ، بدعوى

المدافعة عن الدين ولو كان صاحبها يتمتع بأن الفتاوى خطأ كلها أو بعضها لكان الواجب عليه أن لا يصرح بأن إماما كبيرا أفتى بها ، لان كثيراً من الناس في مشارق الارض ومقاربها يثقون بفتواه ويعملون بها ، ولا يصدمهم عن ذلك ان صاحب جريدة سياسية لم يرض بها ، فان كان يرى ان المستفتي معتقد بصحة الفتوى فكان عليه أن يقنعه بعدم صحتها إن قدر .

أما الاسئلة التي قدمها الترنسغالي للمفتي فهي بنصها:

(١) يوجد افراد في هذه البلاد تلبس البرانيط لقضاء مصالحهم وعود الفوائد اليهم ، فهل يجوز ذلك أم لا ؟

(٢) ان ذبحهم (أي نصارى الترنسغال) مخالف وذلك لانهم يضربون البقر بالبلط وبعد ذلك يذبحون بغير تسمية ، والغنم يذبحونها بغير تسمية أيضا ، هل يجوز ذلك أم لا ؟

(٣) ان الشافعية يصلون خلف الحنفية بدون تسمية ويصلون خلفهم العيدين ومن المعلوم أن هناك خلافا بين الشافعية والحنفية في فرضية التسمية وفي تكبيرات العيدين ، فهل تجوز صلاة كل خلف الآخر أم لا ؟

هذا نص الاسئلة كما نشرتها الجرائد ، فأما المسئلة الاولى فقد علمت ما فيها ، وأما الثانية فظاهر السؤال انه عن جواز فعلهم وائس من شأن المسلم أن يبحث عن افعال غير المسلمين في نفسها فلا بد أن يكون المراد الاستفهام عن جواز أكل المسلم من تلك الذبائح ، وقد أفتى المفتي بالجواز واستدل عليه بالآية وهو موافق في ذلك للجماهير من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ، كما ستعلم ذلك بنصوصه . وأما المسئلة الثالثة ففتواه فيها بالجواز موافق لعمل سلف الامة الصالح بلا استثناء وانما استنكرها الجاهلون لان بعض الفقهاء من الحنفية والشافعية حكى في ذلك خلافا مبذياً على استنباطاتهم المعروفة الناشئة عن التعصب للمذاهب الذي يفرق بين المسلمين ويمعلمهم شيماً كل شيعة تبطل عبادة الاخرى ، وكأنهم يرون أن يكون لكل أهل مذهب مساجد خاصة بهم كالنصارى

وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف
كان الامام احمد يرى الوضوء من الفمصد والحجامة والرعاف فليل له فان كان
الامام قد خرج منه الدم ولم يتوضأ هل تصلي خلفه ؟ فقال كيف لأصلي خلف
الامام مالك وسميد بن المسيب ؟ هكذا كان السلف الصالحون ، حتى جاء الخلف
المتعصبون المفرقون ، ولكن سورة التعصب للذاهب قد سكنت في هذا العصر
لذلك لا يرى المفسدون وجهاً للفظ في هذا الجواب

﴿ طعام أهل الكتاب ﴾

وأما مسألة ذبيحة أهل الكتاب فهي التي أكثرت الالفاظ فيها الجرائد
السياسية ، والسؤال ناطق بأن أهل تلك البلاد (الترسفال) يذبحون البقر بعد
غربها بالمطلة ولكن موضع المخالفة لبعض المسلمين انهم لا يذكرون اسم الله عليهم
والمفتي أفتى بالاختلاف بنص آية « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم » فقد قال
الله هذا بعد آية تحريم الميتة وأحل طعامهم وهو يعلم ما يقولون عند الذبح ويعلم
ما يعتقدون بعزير والمسيح .

واننا ننقل بعض كلام أئمة السلف من الصحابة والتابعين في ذلك ثم نأتي
بمقوله الدين في تحريم الميتة وما أهل به لغير الله فنقول :

جاء في تفسير الآية من كتاب (فتح البيان ، في فهم مقاصد القرآن) ما نصه
« والحاصل ان حل الذبيحة تابع لحل المناكحة على التفصيل المقرر في الفروع .
والطعام اسم لما يؤكل ، ومنه الذبائح وذهب أكثر أهل العلم الى تخصيصه هنا بالذبائح
ورجحه الخازن . وفي هذه الآية دليل على ان جميع طعام أهل الكتاب من اللحم
وغيره حلال عند المسلمين وان كانوا لا يذكرون اسم الله على ذبائحهم وتكون هذه
الآية مخصصة لعموم قوله (ولانأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) وظهر هذا ان
ذبائح أهل الكتاب حلال ، وان ذكر اليهودي على ذبيحته اسم عزير وذكر النصراني
على ذبيحته اسم المسيح ، واليه ذهب ابو الدرداء وعبادة بن الصامت وابن عباس
والزهري وربيعة والشعبي ومكحول . وقال علي وعائشة وابن عمر اذا سمعت الكتابي

يسمى غير الله فلا تأكل . وهو قول طاوس والحسن وتمسكوا بقوله تعالى (ولانا كلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) وبدل عليه ايضاً قوله (وما اهل به لغير الله) وقال مالك انه يكره ولا يحرم، وسئل الشعبي وعطاء عنه فقالا: يحل فان الله قد اهل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون : فهذا الخلاف اذا علمنا ان اهل الكتاب ذكروا على ذبائحهم اسم غير الله . وأما مع عدم العلم فقد حكى ألكيا الطبري وابن كثير الاجماع على حلها لهذه الآية، ولما ورد في السنة من أكله ﷺ من الشاة المصلية التي أهدتها اليه اليهودية وهو في الصحيح وكذلك جراب الشحم الذي أخذه بعض الصحابة من خيبر وعلم بذلك النبي ﷺ وهو في الصحيح أيضاً وغير ذلك

ثم ذكر أهل الكتاب من هم واستثناء علي (رض) بني تغلب منهم لانهم من العرب الذين لم يأخذوا من النصرانية إلا شرب الخمر، وذكر الخلاف في المجوس ونقل بعد ذلك عن القرطبي انه قال : جمهور الامة ان ذبيحة كل نصراني حلال سواء كان من بني تغلب أو غيرهم وكذلك اليهود . وفي تفسير ابن جرير نحو ما تقدم ومنه روايات عن الصحابة بحل ما ذبحه النصارى للكنائس عملاً بعموم الآية . فعلم من هذه النقول ان ذبائح أهل الكتاب حلال عند جماهير المسلمين وإن لم يكن ذبحها على الطريقة الاسلامية ، بل وان كانت على خلاف الطريقة الاسلامية عملاً باطلاق الآية الكريمة التي هي آخر ما ورد في الاكل نزولاً ، وبذلك استدلل مفتي الديار المصرية وقال في نصارى النرسغال « انهم من أشد انصارى تعصباً في دينهم وتمسكاً بكتبهم - ثم قال « وبجيء الآية الكريمة (اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) من بعد آية تحريم الميتة (وما اهل لغير الله به) بمنزلة دفع ما يتوهم من تحريم طعام اهل الكتاب لانهم يعتقدون بالوهية عيسى وكانوا كذلك كافة في عهده عليه الصلاة والسلام إلا من أسلم منهم . ولفظ أهل الكتاب مطلق لا يصح أن يحمل على هذا القليل النادر ، فإذا تكون الآية كالصرح في حل طعامهم مطلقاً كما كانوا يعتقدونها حلالاً في دينهم دفماً للخرج في معاشرتهم ومعاملتهم » اه وهو موافق للنقول التي قال بها جماهير الائمة كما تقدم

(الفقه في تحريم الميتة وكيفية التذكية)

« قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ - فَإِنَّهُ رِجْسٌ - أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ »

والحق في آية المائدة بالميتة ما في حكمها مما مات بغير قصد التذكية وهو المنخقة بدخول رأسها بين عودين أو في جبل ونحو ذلك، والموقوذة وهي التي ضربت بعصا أو حجر غير محدد لا بقصد الذبح حتى انحلت قوتها وماتت، والمتردة من شاهق، والنطيحة أي التي تموت بالمناطحة، وما أكل السبع، قال تعالى بعد ذكر هذه الأنواع (إلا ما ذكيتم) أي ما أدركتم فيه حياة فذكيتموه بالقصد ثم قال (وما ذبح على النصب) وهي أحجار كانوا يذبحون عليها للأصنام

أما ما أهل لغير الله به فهو أشد المحرمات تحريماً لأن علة تحريمه تتعلق بحفظ جوهر الإيمان لأن ذكر اسم غير الله مما يعتقد على الذبيحة ضرب من الوثنية وعمل المشركين. وأما الميتة فقد قيل إن علة تحريمها أن احتباس الدم فيها يجعل أكلها ضاراً، وهو تعليل ينافي إطلاقه علم الطب كما ينافيه الكتاب والسنة الصحيحة في الإذن بأكل الصيد تصيده الجوارح فيموت من غير تذكية، وكذلك صيد اليد بشرطه قال تعالى (وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم) أي ما أحضره الكلب ونحوه لصاحبه ولم يأكل منه

روى أحمد والبخاري ومسلم من حديث ندي بن حاتم عن النبي ﷺ أنه قال «إذا أرسلت كلابك المعلمة وذكرت اسم الله فكل مما أمسكن عليكم إلا أن يأكل الكلب فلا تأكل، فإني أخاف إن يكون إنما أمسك على نفسه» وفي رواية لهم أن عدياً قال قات: وإن قتلان؟ قال «وإن قتلان ما لم يشركما كلب ليس بها» قلت فإني أرمي بالمرأض الصيد فاصيد؟ قال «إذا رميت بالمرأض فخرق فكلها، وإن أصابه بمرضه فلا تأكلها» وقد اختلف في تفسير المرأض فقل هو سهم لأنصل له ولا

ريش ، وقيل هو خشبة ثقيلة في آخرها عصا محدد رأسها . وقيل : هو عصا في طرفها حديدة وكأنه كان يطلق على هذه الاشياء وكانوا يرمون الصيد بها ، والمراد بالخزق الخدش فاذا جرحت هذه العصا الصيد مات حل أكله . وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة والحكم مجمع عليه إلا ان احمد واسحاق منعوا الصيد بالكلب الاسود البهيم . وفي رواية من حديث عدي بن حاتم متفق عليها أيضاً انه قل عليه الصلاة والسلام « اذا أرسلت كلبك فاذا ذكر اسم الله فان أمسك عليك قادرته حياً فاذبحه وإن أدر كته قد قتل ولم يأكل منه فكله فان أخذ الكلب ذكاة » ومذهب الشافعي انه اذا أكل منه بعد احضاره يحل

وروى احمد ومسلم وابو داود والنسائي من حديث ابي ثعلبة الخشني قال « إذا رميت سهمك فغاب ثلاثة أيام وأدر كته فكله مالم يمتن » وروى البخاري والنسائي وابن ماجه من حديث عائشة ان قوما قالوا يا رسول الله : ان قوما ياتوننا باللحم لا ندرى ذكر اسم الله عليه ام لا ؟ فقال « سموا عليه أنتم وكأوا » وكانوا حديثي عهد بالكفر . وروى احمد وابو داود والنسائي وابن ماجه من حديث عدي بن حاتم قال : قلت يا رسول الله انا نصيد الصيد فلا نجد سكينا إلا الظرار وشقة العصا فقال ﷺ « أمر الدم بما شئت » الظرار جمع ظر بالكسر وظرر ، وهو الحجر للدور المحدد . (أمر) من أمار الشيء . ومار اذا جرى أو من مرى الضرع اذا مسح ليدر فعلم من مجموع الاحاديث ان الصيد يحل وإن مات ولم يذبح وإن التسمية مستحبة غير واجبة ولا شرط للذبح وعليه ابن عباس وابو هريرة والشافعي ، وان اراقه الدم باي شيء جائز ، وان أخذ الكلب للصيد ذكاة شرعية ، وهو يدل على ان ما قالوه في تعليل تحريم الميتة غير صحيح وعلى ان الذبح المعروف الآن وهو قطع الحلقوم والمريء ليس من الامور التي تعبدنا بها في الذبح بحيث لا نصح الذكاة بدونه مطلقاً ، بل الذكاة الشرعية على أنواع (منها) الذبح المعروف وهو للغنم ونحوه من الحيوان الصغير (ومنها) النحر وهو الابل والخيل والبقر جاءت السنة بذلك في الجميع (ومنها) الصيد كما علمت (ومنها) ن الجبين يوجد في بطن أمه ميتة فيؤكل تبعاً لها اذا ذكيت بنوع من أنواع التذكية الصحيحة (ومنها) المقر والجرح

روى الامام احمد. والبخاري ومسلم وابوداود والترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث رافع بن خديج قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فندب بعير من ابل القوم ولم يكن معهم خيل فرماه رجل بسهم فخبسه فقال رسول الله ﷺ « ان لهذه البهائم اوابد كأوابد الوحوش، فما فعل منها هذا فافعلوا به هكذا » والجمهور على ان الرمي تذكية له خلافا للمالك .

وروى من عدا الشيخين من هؤلاء عن ابي العشرام (بضم ففتح واسمه عطارد) عن ابيه قال قلت يارسول الله : أما تكون الذكاة إلا في الحلق واللبة؟ قال « لو طمئت في فخذها لأجزأك » وقد حمل ابو داود هذا على المتردية والنافرة والمتوحشة، وأخذ بهذا الشافعية وكثير من الفقهاء، ولكن السؤال يدل على الاطلاق وإن كان في سند الحديث الاخير مقال

فعلم من هذه الاحاديث الصحيحة أن التذكية الشرعية هي ما كانت بقصد من الانسان إلى امانة الحيوان لا كاله . فإن بأمر ذلك بنفسه فله أن يفعله بكل محدود جازح وإن كان حجراً إلا انه جاء في حديث النهي عن التذكية بالسن والظفر فقد أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأصحاب السنن الاربعة من حديث رافع بن خديج قال : قلت يارسول الله انا نلقى العدو غداً ونيس معنا مدى (جمع مدية وهي السكين) فقال النبي ﷺ « كل . أنهر الدم وذكّر اسم الله عليه فكلوا ما لم يكن سناً أو ظفراً : وسأحدثكم عن ذلك (أي عن سبب استثناء السن والظفر) أما السن فعظم وأما الظفر فمدى الحبشة » وقد اختلف في هذه الجملة هل هي من جملة المرفوع أو مدرجة ، والراجح انها مدرجة لتعليل النهي . ولذلك لم يرض جميع العلماء هذا التعليل، بل قل بعضهم ان علة النهي هي ان في الذبح بالسن والظفر تعذيباً للحيوان، وقيل غير ذلك . وكما تصح التذكية بكل آلة جارحة نصح بأية كيفية ممكنة، كما رأيت في الاذن بأكل ما خرقة للمعراض ، ومن الاذن بالطعن في الفخذ . والبلطة التي جاء ذكرها في سؤال الترنس في لا تقل عن هذه المحددات إنهاراً للدم وعقراً للحيوان ، على انه قل انهم يعقرون البقر أو يضربونه بها ثم يذبحونه ، وظاهر ان الذبح قبل الموت فاذا فرضنا أن الضرب بالبلطة وقد (وهو

ليس بوقد لانها آله محدودة ولان الفرب بها يقصد به التذكية للاكل لا الاهلاك
فهو داخل فيما استثنى الله تعالى بقوله (إلا ما ذكيتم) فانهم يذبحونها كما قال السائل
فان مكان الغيرة على دين أهل الترنسفال أن يأكلوا الموقودة ممن لا ينفار
على دين نفسه فهو يفتي بغير علم ...

ثم ان هذه الاحكام كلها خاصة بالمسلمين ، وأما أهل الكتاب فغير مكلفين
بها عملاً ، لان الذين يقولون من العلماء : انهم مكلفون بفروع الشريعة كالشافعية
يريدون بذلك انهم يعذبون على تركها في الآخرة عذاباً زائداً على عذاب ترك
الايمان ، لا انهم يطالبون بها في الدنيا ، فالمسلمون متفقون إذاً على أنهم غير مطالبين
بهذه الاحكام ، وطعامهم مع هذا حلال بنص الكتاب كيفما كان ، إلا ما حرم لذاته
عندنا وعندهم كلهم التحزير إذا آكلوه . وقد علمت ان جماهير أئمة السلف
والخلف أباحوا ذبائحهم وان لم يذكروا اسم الله عليها ، بل وان ذكروا اسم غيره
عملاً بعموم الآية التي اعتبروها مخصصة للامر بالتسمية وملاحظة لقاعدة عدم
مطالبتهم بفروع الشريعة . وعلمت أيضاً أن ما أهل به لغير الله هو أشد المحرمات
لانه من أعمال الشرك ، وأنه مع ذلك قد أحل أكله أكثر المسلمين من طعام
أهل الكتاب ، فلأن يحملوا ما ذكاه أهل الكتاب على غير طريقة التذكية عند
المسلمين أولى

فقد رأيت من الاحاديث الصحيحة التساهل في أمر التذكية وكثرة أنواعها
حتى يكاد يتمذر أن توجد طريقة للتذكية لا تشملها هذه الاحاديث

ان سلف الامة الصالح من الصحابة والتابعين اعتبروا كل من ينسب إلى
اليهودية والنصرانية من أهل الكتاب الذين تحمل ذبائحهم سواء تمسكوا بدينهم
أم لا ، إلا ما نقل عن علي كرم الله وجهه من استثناء بني تغلب من متنصرة العرب
معملاً ذلك بقوله : انهم لم يأخذوا عن النصارى إلا شرب الخمر ، واكتفى الجماهير
بنسبتهم إلى النصارى . ومن هنا تورع بعض أئمة المالكية كالقاضي أبي بكر بن
العربي واشترط في حل ذبائح النصارى أن يأكل منه قسيسهم وعامتهم ، فلم يكتف
بعمل من ينسب اليهم دون علماء دينهم ورؤسائه ، وجرى على هذا التورع مفتي

الديار المصرية في فتواه لآثرانسفالي فقال مانصه كما نشر في الجرائد
« وأما الذبائح فلذي أراه أن يأخذ المسلمون في تلك الاطراف بنص كتاب
الله تعالى في قوله (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) وان يعملوا على ما قاله
الامام الجليل ابوبكر بن العربي المالكي من ان المدار على أن يكون ما يذبح مأكول
أهل الكتاب قسيسهم وعامتهم ويمد طعاما لهم كافة »

ثم أوضح هذا بما نقلنا بعضه من قبل . وقد تقدم ان القرطبي قال : جمهور
الامة على ان ذبيحة كل نصراني حلال سواء كان من بني تغلب أو من غيرهم .
وعمن صرح بحل ذبيحة بني تغلب سعيد بن المسيب والحسن البصري وهما أعلم
أئمة التابعين وأورعهم، فلعل الفتى زاد في الورع عليهما تأثراً بقول المالكية الذين
تأق مذبههم أول اشتغاله بالملم، وان كان لا يعمل الآن إلا بقوة الدليل، أو أراد
موافقة الاجماع في فتواه من حيث العمل بها، لا من حيث اشتراط ما قاله ابن العربي
فان الجماهير لا يشترطونه كما علمت

﴿ نص فتوى القاضي أبي بكر بن العربي ﴾

قل في تفسير آية (اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب
حل لكم) من كتابه (أحكام القرآن) مانصه
« هذا دليل قاطع على أن الصيد وطعام الذين أوتوا الكتاب من الطيبات
التي أباحها الله وهو الحلال المطلق، وانما كرهه الله تعالى ليرفع الشكوك ويزيل
الاعتراضات عن الخواطر الفاسدة التي توجب الاعتراضات ومحوج إلى تطويل
القول . ولقد سئلت عن النصراني يقتل عنق الدجاجة ثم يطبخها ، هل تؤكل
معه ؟ أو تؤخذ منه طعاما ؟ - وهي المسألة الثامنة - فقلت تؤكل لانها طعامه
وطعام أحباره ورهبانه ، وان لم تكن هذه ذكاة عندنا ولكن الله أباح لنا طعامهم
مطلقا ، وكل ما يرونه في دينهم فانه حلال لنا إلا ما كذبهم الله فيه . ولقد قال
علمائنا : انهم يعطوننا نساءهم أزواجا فيحل لنا وطؤهن فكيف لنا كل ذبائحهم
والاكل دون الوطاء في الحل والحرمه » اهـ

وقد استنكر هذه الفتوى بعض الطلاب الذين لا يعرفون من الاسلام إلا ما يرون عليه قومهم من العادات الدينية فسأل عنها أبا عبد الله الحفار أحد علماء المالكية فأجاب بما نصه :

« لا إشكال فيه (أي قول ابن العربي) عند التأمل لان الله أباح لما أكل طعامهم الذي يستحلونه في دينهم على الوجه الذي أبيح لهم من ذكاة فيما شرعت فيه الذكاة على الوجه الذي شرعت . ولا يشترط أن تكون ذكائهم موافقة لذكائنا في ذلك الحيوان المدكى ولا يستثنى من ذلك إلا ما حرم الله سبحانه علينا بالخصوص كالخنزير و كالبئرة التي لم تقتل بقصد الاكل ، وأما ما لم يحرم علينا على الخصوص فهو مباح كسائر أطعمتهم ، وكل ما يقتدر إلى الذكاة من الحيوانات فإذا كان على مقتضى دينهم حل لنا أكله ، ولا يشترط في ذلك أن تكون ذكائهم موافقة لذكائنا ، وذلك رخصة من الله وتيسير علينا . وإذا كانت الذكاة تختلف في شريعتنا - فتكون ذبحاً في بعض الحيوانات ، ونحرّاً في بعض ، وعقراً في بعض ، وقطع عضو كرأس وشبهه كما هو ذكاة الجراد ، ووضعاً في ماء حار كذلك كالخزون - فإذا كان هذا الخلاف عندنا بالنسبة إلى الحيوانات فكذلك قد يكون شرع في غير ملتنا سل عنق الحيوان على وجه الذكاة ، فإذا أجاز الكتاني ذلك أكلنا طعامه كما أذن لنا ربنا سبحانه ، ولا يلزمنا أن نبحث عن شريعتهم في ذلك ، بل إذا رأينا أهل دينهم يستحلون ذلك أكلنا كما قال القاضي أبو بكر لأنها طعام أبحارهم ورهبانهم

« وإنما وقع الاستشكال في هذه المسئلة لان سل عنق الحيوان عندنا لا يستباح به أكل الحيوان بل يصير ميتة ، فصارت الطباع نافرة عن الحيوان المفعول به ذلك فحين أباح القاضي ذلك من طعام أهل الكتاب وقع استشكله ولا إشكال فيه على ما قررته . وعلى المحمل الذي ذكرته حمله بعض أئمتنا المتأخرين المحققين « أه ولم يذكر الحفاري نوع الذكاة الشرعية من أخذ الكلاب وغيرها من الجوارح المعلة للصيد وإتيانها به ميتة ، ومن الرمي بالسهم والصيد بالمعراض وما ذكرناه كاف

(كلام الشيخ محمد بيرم في مسألة الخنق)

ذكر الفقيه الحنفي الشيخ محمد بيرم الخامس في كتابه (صفوة الاعتبار) مبحثاً طويلاً في ذبائح أوربا ، ونقل عن أهل مذهبه أن ذبائح أهل الكتاب حلال مطلقاً. وجاء بتفصيل في أنواع المأكول في أوربا ثم قال مانصه :

« وأما مسألة الخنق فإن كان مجرد شك فلا تأثير له كما تقدم ، وإن كان لتحقق ، فلم أر حكم المسألة مصرحاً به عندنا وقياسها على تحقق تسمية غير الله أنها محرمة عند الحنفية ، وأما عند من يرى الحل في مسألة التسمية كما هو مذهب جمع عظيم من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين فالقياس عليها يفيد الحلية حيث خصصوا بآية (وطعام الذين أتوا الكتاب حل لكم) آية (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) وآية (وما أهل لغير الله به) وكذلك تكون مخصصة لآية المنخنة ويكون حكم الآيتين خاصاً بفعل المسلمين ، والاباحة عامة في طعام أهل الكتاب ، إذ لا فرق بين ما أهل به لغير الله وما خنق ، فإذا أبيح الأول فيما يفعله أهل الكتاب كذلك الثاني وقد كنت رأيت رسالة لأحد أفاضل المالكية نص فيها على الحل وجلب النصوص من مذهبه بما يحتاج به الصدر ، سيما إذا كان عمل الخنق عندهم من قبيل الذكاة ، كما أخبر كثير من علماءهم ، وإن المقصود التوصل إلى قتل الحيوان بأسهل قتلة للتوصل إلى أكله بدون فرق بين طاهر ونجس ، مستندين في ذلك على قول لا نجيل على زعمهم . فلا مزية في الحلية على هاته المذاهب

فإن قلت : كيف يسوغ تقايد الحنفي لغير مذهبه ؟ قلت : أما إن كان المقلد من أهل النظر وقاد الحنفي عن ترجيح برهان فهذا ربما يقال إنه لا يسوغ له ذلك (أي إلا أن يظهر له ترجيح دليل الحل ثانياً) وأما إذا كان من أهل التقليد البحت - كما هو في أهل زماننا - فقد نصوا على أن جميع الأئمة بالنسبة إليه سواء ، والعامة لا مذهب له وإنما مذهبه مذهب مفتيه ، وقوله : أنا حنفي أو مالكي : كقول الجاهل : أنا نحوي : لا يحصل له منه سوى مجرد الاسم ، فبأي العلماء اقتدى فهو ناج . على أن الكلام وراء ذلك . فقد نصوا على الجواز والوقوع بالفعل في تقليد المجتهد

لغيره . والكلام ببسوط في ذلك في كثير من كتب الفقه ، وقد حرر البحث
أبو السعود في شرح الأربعين حديثاً النووية وألف عبدالرحيم المكي في ذلك
رسالة فليراجعهما من أواد الوقوف على التفصيل

« فان قيل : قد ذكرت ان الخنزير محرم وإن كان من طعامهم فلماذا لا يجعل
مخصصاً بالحلية بهذه الآية - أي آية طعامهم ؟ واذا جعلت آية تحريمه محكمة غير
منسوخة فكذلك تكون المنخقة ؟ ولماذا تقيسها على مسألة التسمية ولا تقيسها على مسألة
الخنزير ؟ وأي مرجح لذلك ؟

« فالجواب ان المأكولات منها ما حرم لعينه ومنها ما حرم لغيره ، فالخنزير وما
شاكله من الحيوانات محرمة لعينها ، ولهذا تبقى على تحريمها في جميع أطوارها
وحالاتها ، وأما متروك التسمية أو ما أهل به لغير الله والمنخقة فان التحريم أنى
فيه لعارض وهو ذلك الفعل ، ثم أنى نص آخر عام في طعام أهل الكتاب وأنه
حلال ، فأخرج منه محرم العين ضرورة وبالإجماع ايضاً ، وبقي المحرم لغيره وهو
مسألتان (احدهما) مسألة التسمية (والثانية) مسألة المنخقة فبقية تاني محل الشك ان يجاذب
كل من نصي التحريم والاباحة لهما ، فوجدنا إحداهما - هي مسألة التسمية - وقع الخلاف
فيها بين المجتهدين من الصحابة وغيرهم وذهب جمع عظيم منهم الى الاباحة . وبقيت
مسألة المنخقة التي يتخذها أهل الكتاب طعاماً لهم مسكوتاً عنها فكان قياسها على
مسألة التسمية هو التمين لاتحاد العلة . وأما قياسها على مسألة الخنزير فهو قياس
مع الفارق فلا يصح ، إذ شرط القياس المساواة ، وانما أطلنا الكلام في هذا المجال
لانه مهم في هذا الزمان وكلام الناس فيه كثير . والله يؤيد الحق وهو يهدي السبيل » اهـ

﴿ توضيح القول في الموقوذة وادراك ذكاتها ﴾

قال القاضي البيضاوي في تفسير الموقوذة : هي المضروبة بنحو خشب أو حجر حتى
تموت ، من وقذته إذا ضربته : وتبعه في ذلك أبو السعود الحنفي في تفسيره ، وكذلك السيد
محمد صديق حسن في تفسيره فتح البيان . وزاد أن الوقذ هو شدة الضرب حتى يسترخي
ويشرف على الموت (قال) وشاة موقوذة ضربت بالخشب ، وهذا هو للنصوص في
القاموس وشرحه وغيرهما من المعاجم . وفي مجمع بحار الانوار « الوقيد والموقوذ هو

الذي يقتل بغير محدد من عصا وحجر» وقد صرح الامام الرازي بأن الموقوذة في معنى الميتة والمنخقة قال «فانها ماتت ولم يسئل دمها» وهذا لا خلاف فيه فان الوقذ هو الضرب بغير المحدد ، وقد ذكر في تفسير قوله تعالى (إلا ما ذكيتم) : انه استثناء من جميع ما تقدم (من المنخقة - الى قوله - وما أكل السبع) وهو قول علي وابن عباس والحسن وقتادة (قال) فعلى هذا انك اذا أدركت ذكاته بان وجدت له عينا تطرف أو ذنبا يتحرك أو رجلا تركض فاذبح فانه حلال فانه لولا بقاء الحياة فيه لما حصلت هذه الاحوال اه بحروفيه

والتعبير بالتذكية يؤيده فان أصلها - كما قال الرازي وغيره - اتمام الشيء ، ومنه الذكاء في الفهم وهو تمامه ، ومثله الذكاء في السن ويقال ذكيت النار أي اتممت اشغالها، كأنه يقول إلا ما اتممت أنتم اماتته بذبح ونحوه .

وقال في فتح البيان في مقاصد القرآن في قوله تعالى (إلا ما ذكيتم) استثناء متصل عند الجمهور وهو راجع على ما أدركت ذكاته من المذكورات سابقا وفيه حياة ثم ذكر خلاف غير الجمهور . وقال في ادراك الذكاة : وأما كيفية ادراكها فقال أهل العلم من المفسرين ان أدركت حياته بأن توجد له عين تطرف أو ذنب يتحرك فأكله جائز ، وقيل اذا طرفت عينا أو ركضت برجلها أو تحركت فاذبح فانه حلال . وقال الآلوسی في تفسيره : أي إلا ما أدركتموه وفيه بقية من حياة يضطرب اضطراب المذبوح وذكيتموه ،

وعن السيدین الباقر والصادق رضی الله عنهما ان أدنى ما تدرك به الذكاة أن يدركه وهو يحرك الاذن أو الذنب أو الجفن وبه قال الحسن وقتادة وإبراهيم وطائوس والضحاك وابن زيد ، وقال بعضهم يشترط الحياة المستقرة وهي التي لا تكون على شرف الزوال وعلامتها على ما قيل أن يضطرب بعد الذبح لا قبله : اه وأطال ابن جرير في رواياته عن الصحابة في تأييد الاول

فعلم بهذا ان ما يضرب بمحدد كالبلطة لا يسمى وقيداً ويبدل على ذلك حديث صيد الأمراض في الصحيحين وغيرهما «وان أصاب بمرضه فقتل فانه وقيد فلا تأكله» وانه لو كان من الوقيد فان ما يفعله أهل الترسف من ذبحه واسالة دمه بعد ضربه محلل له كما تقدم

وانما ذكرنا هذه النقول لاننا بعد كتابة ما تقدم وتمثيله للطبع رأينا الجريدة السياسية تدعى ان ما يفعله اهل الترنسفال من الوقذ وانه لا يحل وإن ذبح وسال دمه. وقد زادت على كلام الترنسفالي قولها «نم يذبحونها تنميما لقتالها فيسيل منها الدم مصفراً دالا على حصول الارتجاج الحفي المفسد للدم» الخ والسائل لم يقل ذلك ولو قاله لما كان مانعاً لصحة التذكية وحل الذبيحة، إذ لم يشترط احد من المسلمين أن يسيل الدم احمر او اسود، وإنما اشترطوا علامة تدل على الحياة حتى حركة أصغر الاعضاء كالجفن. وسيلان الدم باي لون من اقوى علامات الحياة، ولكن السياسة إذا تلاعبت بالدين لا تباني بكتاب ولا سنة، ولا تقول إمام ولا مفسر ولا فقيه ولا لغوي، فقد خالفت جميع العلماء في الموقوذة

(الخلاف في التسمية)

خلص لنا مما تقدم أن كتاب الله تعالى أباح لنا طعام أهل الكتاب مطلقاً. لم يشترط في ذلك أن يأخذوا بأحكام الاسلام في التذكية، وإن أكثر المسلمين من السلف والخلف أخذ بهذا الاطلاق، فأكل النبي وأصحابه من اللحوم التي طبخوها والجن الذي عملوه، إلا أن الحنفية اشترطوا أن لا يعلم الأكل أن ماعرض له من اللحم قد أكل به لغير الله أو ترك ذكره عليه. وكل ما نقلته الجريدة فهو عن مفسريهم وفقهائهم، وخالفهم في ذلك أكثر العلماء كما تقدم. ونص على ذلك مفتي الحنفية في بغداد الشهاب الالوسي في تفسيره

وقال الطبري في تفسير (ولا تاكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) الآية «واختلف أهل العلم في هذه الآية هل ينسخ من حكمها شيء أم لا؟ فقال بعضهم لم ينسخ منها شيء وهي محكمة فيما عنت به. وعلى هذا قول عامة أهل العلم. وروى عن الحسن البصري وعكرمة ما حدثنا به ابن حميد قال حدثنا يحيى بن واضح عن الحسين بن واقد عن يزيد عن عكرمة والحسن البصري قال قال (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين) * ولا تاكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وانه لفسق) فتنسخ واستثنى من ذلك فقال (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم)

«والصواب من القول في ذلك عندنا ان هذه الآية محكمة فيما انزلت لم ينسخ منها شيء وان طعام أهل الكتاب حلال وذبايحهم ذكية، وذلك مما حرم على المؤمنين أكله بقوله (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه) بمنزلة، لان الله انما حرم علينا بهذه الآية الميتة وما أهل به للطواغيت . وذبايح أهل الكتاب ذكية سموها عليها أو لم يسموا ، لانهم أهل توحيد وأصحاب كتب لله يدينون بأحكامها ، يذبحون بأديانهم كذبح المسلم بدينه ، سمي الله على ذبيحته أو لم يسمه إلا أن يتكون ترك من ذكر تسميته على ذبيحته ، على الدينونة بالانتظيم أو بعبادة شيء سوى الله فيحرم حينئذ أكل ذبيحته سمي الله أو لم يسم » اهـ

ويعني بالآخر من يترك التسمية ترك الدين السماوي بالمرة أو للدخول في الوثنية . ويؤيد تخصيصه الآية بالذبح للطواغيت ان الآية مكية ، وآية حل طعام أهل الكتاب مدنية ، وهي من آخر القرآن نزولا . والشافعية يحلون ترك التسمية ولو عمداً ، وقالوا ان النهي مقيد بقوله تعالى (وانه فسق) وفسر الفسق بقوله (أو فسقاً أهل لغير الله به) وهو ما كان يفعله المشركون لطواغيتهم وأهل الكتاب يجرمونه مثلنا . وقد أطال الامام الرازي في ترجيحه (راجع التفسير الكبير) أما إذا لم يعلم الآكل انهم أهلوا به لغير الله أو تركوا التحية فأكله حلال باجماع السلف والخلف كاللحم الذي يباع عادة في بلاد اليهود والنصارى ولم يحضر المسلم ذبحه ومنه اللحم الذي يباع في بلاد الترانسغال . وأما ضرب البقر بالبلعة قبل ذبحه ليضعف فهو لا ينافي التذكية الشرعية عندنا لو فرضنا انهم مطالبون بها وقد علمت أنهم غير مطالبين

(تأييد الفتوى وحققتها وما به الافتاء)

فظهر أن الفتوى مؤيدة بالكتاب والسنة وعمل السلف والخلف وأقوالهم وان خلاف الحنفية فيها لا يتحقق في واقعة الفتوى إذ لا يمكن العلم بأن كل لحم يراه المسلم هناك لم يذكر اسم الله عليه . ولو فرضنا انه تحقق فذهب الجمهور أقوى من مذهبهم لقوة أدلته والفتي يجب عليه أن يفتي بما يراه أقوى دليلاً ، وأقوم قبلاً ، وأنفي للحرج باجماع المسلمين من السلف والخلف . وإذا كانت المحاكم الشرعية

تسأل المفتي في مصر عن الصحيح من مذهب أبي حنيفة فليس كل مسلم مكلفاً بهذا المذهب، بل المسلمون مكلفون بكتاب الله وما صح عن رسوله، وعلى العلماء النظر في ذلك والترجيح به بين أقوال العلماء.

وقد نقل عن أبي حنيفة وأصحابه أنهم كانوا يقولون: لا يصح لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعرف دليلنا. وكذلك كان يقول جميع أئمة المسلمين (راجع نصوصهم في مقالات المصلح والمقلد من مجلد المنار الرابع) فلم يبق بعد هذا إلا أن يرجع صاحب تلك الجريدة عن اعتراضه بغير علم، ويعلن ذلك في جريدته ليظهر أنه غير سبيء القصد، وغير متلاعب بنصوص الدين عمداً، ومتهجم على تحريم ما أحل الله قصداً، وثبت أن ما يقوله بعض الناس من أن هذه الجمعية قد انفرد بها صاحب هذه الجريدة الذي ليس من أهل هذا الشأن دون العلماء والفقهاء وسائر الجرائد لفرض سياسي لغيره شخصي له، فهو يتوقع قضاء لبائته منه كما قضاها من غيره.

ونختم الكلام بتذكير المفتي على الشرع بقوله تعالى في سورة النحل بعد حصر المحرمات في الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، إلا المضطر إليه. وهو:

«وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ، لَيَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يَفْلِحُونَ» مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ،

(القول في اجتهاد المفتي وتقليده)

أما اللفظ بان افتاء مفتي الديار المصرية بغير مذهب الحنفية يتضمن دعوى الاجتهاد فيمكن الجواب عنه من وجهين

(أحدهما) أن تقليد أهل النظر الذين يسمون علماء بالمذاهب هو عبارة عن اتباع ما يعتقدون أنه الأقوى دليلاً من أقوال الأئمة وقد أشرنا إلى أن مفتي الديار المصرية لهذا العهد تلقى مذهب الامام مالك في أول تحصيله للعلم فيجوز أن

يكون يستند ترجيحه إلى الآن، وإن كان قد تآق مذهب الحنفية وبرع فيه وعرف صحبته من غيره فان لم يكن يرجح جميع مسائله فيجوز أن يكون يعتقد رجحان بعضها. وقد قال العلماء كافة بان تقليد بعض الأئمة في بعض المسائل وتقليد آخر في بعضها جائز، وما من عالم شهير إلا وله فتاوى فيها يخالف المذهب الذي ينسب إليه. وفي مقالات المصلح والمقلد بيان ذلك

(والثاني) انه مجتهد وما كان لمن يفسر القرآن بمثل ما يفسره به ويقم الحجج منه على بطلان التقليد واستحقاق صاحبه لمقت الله وعذابه ان يكون مقلداً وحسبك من ذلك تفسير الآيات المنشورة في هذا الجزء (١) فراجعوا واعتبر بها إن كنت من المؤمنين. وأما انكار المقلدين الجاهلين عليه الاجتهاد فلا قيمة له إذ ليس للمقلدين من حجة ولا هم من أهلها فهم ينكرون ؟ وقد نشرنا ولا نزال ننشر من الدلائل وإبراهيم على بطلان التقليد في غير التفسير ما فيه منقح لمن لم يختم الله على قلبه وسمعه ويحمل على بصره غشاوة. وقد كذب مفتي الديار المصرية في التوحيد والتفسير ما يقصر عنه كل ما كتب فيهما مما وصل اليان من كتب الاولين والآخرين وفضل الله ليس محصوراً في زمن معين، ولا رحمة متيدة بأفراد مخصوصين، بل تسع كل شيء. ولا يتاني ذلك إفتاؤه الحكومة والمحاكم بمذهب الحنفية فانهم يسألونه عنه لاعن اجتهاده ومن يسأله عن رأيه يفتيه به.

فان قيل ان من علماء هذا العصر من بطعن فيه. نقول ان هؤلاء الطاعنين من الجاسدين او المقلدين الذين أخذوا على أنفسهم تنفيذ من يتبع الكتاب والسنة من غير نظر في أدلته، وقد طعن في الائمة العظام من قبله من هم في طبقتهم علما واجتهاداً. ولهذا قال ابن عباس (رض) « استمعوا قول القراء ولا تصدقوا بعضهم على بعض فوالذي نفسي بيده لم أشد تنظيراً من التيوس في زروها » رواه ابن عبد البر في كتاب العلم. والمراد بالقراء العلماء وبه عبر في الاحياء، وروى مثل ذلك عن مالك بن دينار بلفظ (المعلماء) وقد ذكرت بعض ما طعن به على الائمة الاربعة وغيرهم كالبخاري وأخرابه بعض أهل العلم في عصرهم في كتاب (الحكمة الشرعية) (١) هي قوله تعالى (٢: ١٢١) الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته وما جدها

﴿واقعة تناسب ما تقدم﴾

جاء في ذكر حوادث المحرم سنة ست وثلاثين ومئتين وألف من الجزء الرابع من تاريخ الجبرتي مانصه (ص ٣١٦) :

« وفيه من الحوادث ان الشيخ ابراهيم الشهير بباشا المالكى بالاسكندرية قرر في درس الفقه ان ذبيحة أهل الكتاب في حكم الميتة لا يجوز أكلها ، وما ورد من اطلاق الآية فانه قبل أن يغيروا ويبدلوا في كتبهم ، فلما سمع فقهاء الثغر ذلك أنكروه واستغربوه ، ثم تكلموا مع الشيخ ابراهيم المذكور وعارضوه فقال : أنا لم أذكر ذلك بفهمي وعلمي ، وإنما تاقبت ذلك عن الشيخ علي البلي العربي وهو رجل عالم متورع موثوق بعلمه : ثم انه أرسل الى شيخه المذكور بمصر يعلمه بالواقع فألف رسالة في خصوص ذلك وأطنب فيها فذكر أقوال المشايخ والخلافات في المذاهب واعتمد قول الامام الطرشوشي في المنع وعدم الحل ، وحشا الرسالة بالخط على علماء الوقت وحكامه وهي نحو ثلاثة عشر كراسة (كذا) وأرسلها الى الشيخ ابراهيم فقرأها على أهل الثغر فكثير اللغط والانكار خصوصاً وأهل الوقت أكثرهم مخالفة للملة ، وانتهى الأمر الى الباشا فكتب مرسوماً الى كتبخدا ييك بمصر وتقدم اليه بأن يجمع مشايخ الوقت لتحقيق المسألة وأرسل اليه أيضاً بالرسالة المصنفة . فأحضر كتبخدا ييك المشايخ وعرض عليهم الأمر فطاف الشيخ محمد العروسي العبارة وقال : الشيخ علي البلي رجل من العلماء ، تلقى عن مشايخنا ومشايخهم لا ينكر علمه وفضله وهو بمنزل عن خلطة الناس ، إلا انه حاد المزاج وب عقله بعض خلل والاولى أن نجتمع به ونتذاكر في غير مجلسكم وننهى بعد ذلك الأمر اليكم

فاجتمعوا في ثاني يوم وأرسلوا الى الشيخ علي يدعونه المناظرة ، فأبى عن الحضور وأرسل الجواب مع شخصين من مجاوري المغاربة يقولان انه لا يحضر مع الغوغاء بل يكون في مجلس خاص يتناظر فيه مع الشيخ محمد بن الامير بحضرة الشيخ حسن القويسني والشيخ حسن العطار فقط . لان ابن الامير يناقشه ويشن عليه الغارة ، فلما قال ذلك القول تغير ابن الامير وأرعد وأبرق وتشاتم بعض من بالمجلس مع الرسل

وعند ذلك أمروا بحبسهما في بيت الآغا وأمروا الآغا بالذهاب الى بيت الشيخ علي واحضاره بالمجلس ولو قهراً عنه ، فركب الآغا وذهب الى بيت المذكور فوجده قد تغيب فأخرج زوجته ومن معها من البيت وسمر البيت فذهبت الى بيت بعض الجيران ثم كتبوا عرضاً محضراً وذكروا فيه بأن الشيخ علي على خلاف الحق وأبى عن حضور مجلس العلماء والمناظرة معهم في تحقيق المسألة وهرب واختفى لكونه على خلاف الحق ولو كان على الحق ما اختفى ولا هرب ، والرأي لحضرة الباشا فيه اذا ظهر ، وكذلك في الشيخ ابراهيم باشا الكسندري (كذا) وتمموا العرض وأمضوه بالخطوم الكثيرة وأرسلوه الى الباشا ، وبعد أيام أطلقوا الشخصين من حبس الآغا ورفعوا الختم عن بيت الشيخ علي ورجع أهله اليه ، وحضر الباشا الى مصر في أوائل الشهر ورسم بنفي الشيخ ابراهيم باشا الى بني غازي ولم يظهر الشيخ علي من اختفائه . اهـ

(المنار) هذا ما كان من علماء الازهر في أوائل القرن الماضي ومم شيوخ علماء الازهر الحاضر بن أوشيوخ شيوخهم ، فيجدر بمشبة الازهر اليوم أن تقتصر للحق الذي انتصرت له من قبل ، واذا كان العروسي شيخ الازهر يقول يومئذ في تلطيف أمر من يحرم ذبايح أهل الكتاب من العلماء إن في عقله خللا فإذا ينبغي أن يقول شيخ الازهر اليوم في جاهل بالشرع يحرم ذبيحة أهل الكتاب رداً على فتوى مفتي الديار المصرية بالحل المحتج عليها بالقرآن الكريم ؟ واذا كان أمير مصر في القرن الماضي رأى وهو في كمال استقلاله ، وعدم دخول النصارى في أعماله ، ان العالم الذي قال بعدم حل ذبايحهم يستحق النفي من بلاده ، فإذا يرى أمير مصر اليوم في ذلك — وهو أعلم من جده بوجه الحاجة الى محاسنة الامم النصرانية والاخذ بالاقوال الشرعية التي تقنعها بأن ديننا دين مدنية وعمران ؟؟ لعل الرئيسان العظيمان يريان ويقولان ان سلفنا اهتموا بتأديب الشيخين للذين حرما ذبايح النصارى لانهما من العلماء الذين ينخدع العوام بأقوالهم ، وأما المحرم لها اليوم فهو من رجال القوانين ، فلا يلتفت أحد الى قوله في الدين ، وهو رأي صائب ، وان كان النهي عن المنكر من الواجب .

استحسانه الاستاذ الامام لما كتب المنار

وفكهامة في عبارته في الاستحسان

لما صدر المنار وقرأ الاستاذ الامام هذا البحث فيه قال لي هذا طيب جداً جداً - وكررها - ولم أسمعه قال هذا في غيره ، بل كانت كلبته المعتادة فيما يعجبه من الكلام « موش بطل » وقد يقول في بعض المقالات « طيبة » وكان ابراهيم بك المويلحي يفيظه ان يقول في مقالاته المونقة « موش بطل » فضرب له مثلاً ينبيء بفيظه منه قال :

لو أن رب العالمين جلس على عرشه يوم القيامة تحف به الملائكة المقربون ، وعن يمين عرشه الانبياء المرسلون ، ومن ورائهم جميع البشر ، ويليهم جميع أنواع المخلوقات من الجن والشیاطین والبهائم والوحش والطيور ...

نم قيل للشيخ عبده ماتقول في هذا المنظر ؟ لما زاد على قوله « موش بطل » والشيخ لم يكن يقول هذا نهضاً لحق كاتب أو استعلاء على الناس ، وانما هي كلبته المعتادة فيما يعجبه ، فاذا بلغ العجب منه افاق الاعجاب زاد عليها ، وكذا إذا سئل بيان رأيه فيما هو محل الاعجاب او تكلم بعض الناس في ذلك ، وسمعته يقول مرة في مقال من هذا القبيل « اسلوب رفيع » وقال مرة في نقد للمويلحي لدع به بعض الناس : لو قال هذا في لما نقصت حلاوته في مذاقي ، او ما هذا معناه

﴿ اشتغال الجرائد بمسألة الفتوى ﴾

هذا وانه قد حمي بعد نشرنا لهذه المقالة وطيس المقالات في هذه المسألة في الجرائد ومنها مقالة لنا نشرها المقطم في عدد ٨ شوال سنة ١٣٢١ و٦ يناير سنة ١٩٠٤ عنوانها (عبث السياسة بالدين ، وحل طعام أهل الكتاب للمسلمين) عزاها إلى بعض العلماء الفضلاء ، وتلتها مقالة فيه لاحد الفضلاء مبنية على المقالة الاولى

(ولا أدري من كتبها) وقد نوهت بتأثيرها مستدلة على ان المسألة سياسية بالجريدة المحدثنة (الظاهر) وعززتها مقالة في ٢٧ شوال عنوانها (علام هذا الشغب؟) بامضاء خادم العلم بالازهر ، وجاء في عدد ١٩ يناير منه ان صاحب جريدة الظاهر رفع قضية على صاحبي جريدة النيل وعلى مطبعة المدن لتصويرها مسألة اعتراضه على فتوى المفتي بصورة هزلية . وفي عدد ٢٣ يناير منه مقالة عنوانها (حكم البرنيطة في دين الاسلام) لأحد طلبة العلم بالازهر . وفي اخباره ان جريدة الراوي « أنشأت مقالة غراء أول أمس عنوانها (حوالى الفتوى) راقى الجمهور ونهت المتطفلين على ما ارتكبوا من الخطأ قال « فنحول اليها أنظار الادباء »

وفي عدد ٢٦ منه (٨ - العدد) مقالة طويلة للمقطم نفسه موضوعها تساؤل الناس : لماذا حاكمت النيابة صاحبي الورقة المصورة بتعرضها لفضيلة مفتي الديار المصرية ولم تطلب محاكمتها على تطاولها على مقام الحضرة الفخيمة الخديوية . وفيها نصيحة للمعية وتخطئة لها باتخاذ جرائد تدافع عنها .

هذا بعض ما نشر في المقطم في شهر يناير الذي تقرر فيه ونفذ قرار مجلس الاوقاف الاعلى في مسألة استبدال مزرعة الجنب الخديوي المملوكة باراضي الاوقاف في الجزيرة

وقد نشر في سائر الجرائد المصرية مقالات كثيرة في تأييد الفتوى وتعظيم المفتي ، وكان المؤيد على الحياد في ذلك ، ولما ظهر عجز ابي شادي انبرى لمساعدته مصطفى كامل ، وظهر تقرير ابي شادي في ٢٩ شوال سنة ١٣٢١

وانني لأحب أن أشرح في هذا التاريخ خطة مصطفى كامل عفا الله عنه في هذه المسألة التي كان بطبعه المدني يستحسنها لانه كان يسافر في كل سنة الى أوربة فيلبس فيها البرنيطة وبأكل من ذبائح الافرنج في كل يوم ، وكذلك مولاه الخديو فان له مزبة صار بها من رجال التاريخ المصري ، وحسبي ما رددت به عليه كغيره في المنار في هذه المسألة وفي غيرها كمسألة الدفاع عن اليهود ثم كتبت في تأييد الفتوى والرد على الجاهلين المعترضين ما يأتي :

(مسألة ذبائح أهل الكتاب)

(تأييد الفتوى بالاجماع)

﴿نشرنا تحت هذا العنوان ما يأتي في المنار الذي صدر في غرة ذي القعدة سنة ١٣٢١ (١٩ يناير سنة ١٩٠٤) وهو رد على الجريدة الحديثة (الظاهر) وتأييد الحدث (مصطفى كامل لها)﴾

واقعة الفتوى ان النصارى في قطر من الاقطار (هو الترانسفال) يضربون البقر قبل ذبحه بآلة محددة تسمى البلطة ، ثم يذبجونه ذبحاً ، وانهم في زعم السائل لا يسمون الله على ذبائحهم

(تحرير الجواب)

وتحرير الجواب من حيث صحة الذبح ان ضرب الحيوان قبل ذبحه بمحدد أو غير محدد لا ينافي كون ذبحه بعد ذلك من التذكية التي يحل بها أكله فهو حلال باجماع المسلمين من السلف والخلف ، والمتبادر من تصريح السائل بذبج البقر هو أنهم يذبجونه وفيه حياة إذ الميت لا يذبج . والمتبادر ان هذه الحياة هي التي يسميها بعض الفقهاء من الخلف الحياة المستقرة التي من علامتها انفجار الدم والحركة العنيفة إذ لو ذكي الحيوان وليس فيه إلا الرمق لما اعتد العامي (كالمتفتي في الواقعة) بذبجه بل لما سماه ذبحاً فالحياة هي الاصل ولم يرد في السؤال ما يدل على زوالها أو بقاء الرمق فيها فقط فيقال انها حلال على رأي الجمهور والاكثر كما قال المفسرون (ونقلنا ذلك عنهم في الجزء الماضي) لا بالاجماع كما تدعي

وما قلناه من إطلاق السؤال انهم يذبجون بعد الضرب يقتضي أن يكون المذبوح حلالاً بالاجماع نعرضه على علماء الاسلام في مصر وفي سائر الاقطار ونقول انه لا يمكن لأحد منهم رده ، ومن زعم ان أئمة المسلمين اختلفوا في حل الحيوان يذبج بعد ضربه بأي شيء ، فليكتب اليانا بالبيان المنشور قوله ونحن على يقين من أن كل عالم اسلامي يعلم انه لا خلاف في ذلك وإنما الخلاف فيما إذا ثبت ان الحيوان ذبح بعد عروض سبب يحل عليه الهلاك وليس فيه حياة مستقرة فقال بعض الفقهاء

لا يحل وقول اكثرهم انه يحل وتقدم في الجزء الماضي قول المفسرين في ذلك ،
وعلاوة الحياة المستقرة انفجار الدم والحركة العنيفة كما قاله فقهاء الشافعية وقد علمت
مما نقلنا عن الصحابة وغيرهم في الجزء الماضي انه يكفي في الموقوذة ونحوها علامة تدل
على الرمي من الحياة كحركة الجفن أو الذنب وانه المتبادر من قوله تعالى (إلا ما ذكيتم)

وأما مسألة التسمية في الواقعة فتقول: انه لا سبيل إلى الحكم على أهل قطر من
الافطار بأنهم لا يذكرون الله على ذبائحهم إلا إذا كان دينهم يمنهم من ذلك .
والسؤال عنهم في واقعة الفتوى ليسوا كذلك لانهم نصارى ولو أحل الله ذبائحهم
وهم كذلك لما كان للاختلاف في اشتراط تسميتهم وعدمها وجه من الوجوه .
وقد نصوا على أن ذبيحة الكتابي - لم يعلم أذ كر اسم الله عليها أم غيره أم لم يذكر
شيئاً - هي حلال بالاجماع ، وذلك هو الواقع في مسألتنا ، إذ العلم بعدم ذكر اسم الله
على كل ذبيحة في قطر الترسغال أو في أي بلد من البلاد متعذر ، وانما يتيسر العلم
بذلك في ذبيحة معينة وليس هو واقعة الفتوى . فلمسئول عنه هو في الواقع ونفس
الامر من المجهول وهو حلال بالاجماع .

وانما نعرض هذا أيضاً على علماء الاسلام في مصر وفي سائر الاقطار الاسلامية
ونقول انه لا يمكن رده ولا نقضه . ومن زعم خلاف ذلك فعليه بالبيان . ومن صرح
بالاجماع في المسألة الطبري وابن كثير كما تقدم في الجزء الماضي

وأما محل الخلاف في مسألة التسمية من الكتابي وعدمها فهو إذا علم المسلم
في ذبيحة معينة ان الكتابي لم يذكر اسم الله عليها أو ذكر اسم غيره ، وقد رأيت
النقل من الجزء الماضي عن المفسرين في أن ممن قال بالحل من الصحابة (رض)
أبا المرداء وعبادة بن الصامت وابن عباس ، ومن التابعين الزهري وربيعة (شيخ
الامام مالك) والشعبي ومكحول وعطاء ، وأن الشعبي وعطاء سئلا عن اليهودي
يذكر اسم عزيز والنصراني يذكر اسم المسيح فقالا : ان الله قد أحل ذبائحهم
وهو يعلم ما يقولون . ورأيت ان علياً وابن عمر وعائشة القائمين بالمنع انما قالوا :
إذا سمعت الكتابي يذكر اسم غير الله فلا تأكل ، وهذه العبارة على كونها تشترط

السمع ليست نصا في التحريم إذ يحتمل أن يكون النهي للتنزيه . وإذا سلمنا انه للتحريم فلنا أن نقول: ان المسلم في الترنسفال يسهل عليه أن يأكل من اللحم الذي يجده في السوق لانتفاء الشرط ، وله أن يتورع في الذبيحة التي يسمع النصراني يذكر عليها اسم غير الله فلا يأكل منها ليوافق الاجماع في الحالين ، ولا تنس أن السائل لم يقل انهم يذكرون اسم غير الله . فعلنا من هذا ان الفتوى في واقعها ليست مؤيدة برأي القاضي أبي بكر بن العربي فقط بل هي مؤيدة بالاجماع . ومن الجهل العام أن يستطيع رجل جاهل بالشرع ، معروف بسوء القصد ، تشكيك بعض الناس في حلها

فان قيل : لماذا استدل المفتي بقول القاضي أبي بكر بن العربي من أئمة المالكية ولم يستدل بالاجماع ، إذا كانت المسئلة اجماعية كما قلت ؟

والجواب أن المفتي لم يكن في جوابه في مقام المناظرة والاحتجاج ، وانما سئل عن حكم الله فاستدل بكتاب الله لا بقول ابن العربي ، وبعد الاستدلال بالنص قال « وأرى أن يعولوا على ما قاله فلان في تفسير الآية » والغرض من ذلك الارشاد إلى الاخذ بالاحتياط في شبه مسئلة اختلاف فيها الصحابة (رض) وهي ذبيحة نصارى بني تغلب قل علي كرم الله وجهه : لا تحل لانهم لم يأخذوا من النصرانية إلا شرب الخمر ، وقال غيره منهم : تحل لانهم انضموا إلى النصرانية ولا يجب علينا البحث عن أعمالهم . فأراد المفتي أن يأخذ أهل الترنسفال بالاحتياط فلا يأكلوا إلا من الذبيحة التي يأكل منها القسيسون مع العامة ، وإلى ان الدين يسر يبيح أكثر مما في واقعة السؤال ، ولم يكن قول ابن العربي هو العمدة له في الاستدلال . وما ذكرناه في مقالة الجزء الماضي يتضمن كل ما لخصناه هنا ، ولكن الكلام هناك متشعب والتناجح فيه ممزوجة بالمقدمات والدلائل والنقول ، فاختصرناه هنا ليعقله كل قارئ . والمراد بالاجماع بشرطه : إجماع أهل السنة المحالين لذبائح أهل الكتاب دون الشيعة

(تهافت المرجف في الفتوى)

ما قام أحد بدعوة إلا ووجد من لبي دعوته حتى الذين ادعوا الألوهية من دون الله. وشبيه الشكل منجذب إليه. وقد بدأ بالارجاف في الفتوى رجل من محرري الجرائد الساقطة^(١) عرف بالظمن في المفتي من عدة سنين حتى زعم انه ينكر وجود الله أو توحيده، وحوكم في ذلك وفي مثله وحكم عليه غير مرة وسجن. ولما دفع أو اندفع صاحب الجريدة المحدثه إلى الارجاف استخدمه، فصار يكتب له باسمه وينقل بعض ما يكتبه له في جريدته التي صرح فيها بانه المحرر لها، فصارا اثنين في (الظاهر) ولكنهما واحد في الحقيقة. ثم علمنا الآن ان صاحب (الحماره) الذي حوكم قبل الآن في طعنه بالمفتي وسجن، وحدث السياسة^(٢) المشهور بالظمن في المفتي أيضاً قد انضم اليه أو اليهما فحدث السياسة رابعهم. فهؤلاء حماة الاسلام اليوم الذين يتبجحون بنصره والمدافعة عنه بتحريم ذباح أهل الترانسفال وهي حلال باجماع أهل السنة والجماعة كما تقدم، بل الحنيقة ان المعارض هو لاول وحده والآخران يصدقانه فقط

أما منفذ الارجاف فقد كان في أول الامر تسميته ذبائحهم موقوذة وقد أكثر اللغو في ذلك. ولما نشرت الجرائد المنتشرة المقالات المبينة أن حقيقة الموقوذة هي ما ضربت بغير محدد حتى ماتت قبل أن تذبح وفيها حياة، خرق له منفذاً ثانياً وهو ان أبحار اليهود وقسوس النصارى لا يعتدون بذبيحة أهل الترانسفال. وقد أخذ بخناقه هذا المنفذ فخلط فيه أشد مما خلط في الاول إذ كان ينقل من العبارة فيها بعضها على حد « لا تقربوا الصلاة » يقتصر عليها من يريد تحريم الصلاة. واذا صح أن قسوس النصارى لا يعتدون بتلك الذبيحة ولا يجوزون أكلها فالفاتوى صريحة في تحريمها إذ فيها اشتراط أن ياكل منها قسيسهم وعامتهم ويتفقون على انها حلال في دينهم. فانظر كيف يناقض المرجف نفسه فيؤيد الفتوى من حيث لا يفهم، ثم يفندها من حيث لا يعلم

(١) هو الشيخ محمد الشمر بنلي صاحب جريدة النهج القويم الأسبوعية (٢) مصطفى كامل

نم خرق له منفذاً ثانياً وهو الطعن بان العربي لان المفتي ذكره في فتواه وأيد رأيه في الاخذ بالآية الشريفة مع اعتبار ذلك الشرط المذكور آنفاً . أما طريق هذا الطعن فهو أن بعض الفقهاء بحث في فتوى لابن العربي بحل ما يخذه الكتابي، وقد تهافت قول المرجف وتناقض في هذا أيضاً . ونقل عن المالكية ما يصرح بان فتوى القاضي ابن العربي صحيحة على خلاف، فيها وأن وجه النقد عليها من جهة العبارة فقط، وهو انه أطلق القول ولم يقيده بان يكون قتل عنق الدجاجة المسؤول عنه بقصد التذكية أي الامانة لاجل الأكل فقد جاء في نقله عن المالكية بعد نقل ما قاله ابن العربي مانصه :

« ظاهر كلام ابن العربي التعارض ولكن جمع بينهما ابن عرفة ونصه : وقول « ابن عبد السلام : أجاز ابن العربي أكل ما قتله الكتابي ولو رأيناه يقتل الشاة » « لانه من طعامهم : يرد بان ظاهره نوى بذلك الذكاة أولاً وايس كذلك فنقل « جميع ما تقدم عنه مختصراً وقال مانصه : قلت لحاصله أن ما يروونه مذكي عندهم « يحل لنا أكله وإن لم تكن ذكاته عندنا ذكاة : اه » اه من جريدتي المرجف وما قاله ابن عرفة وهو من أكبر فقهاءهم موافق لما قلناه في الجزء الماضي من أن مجموع الاحاديث يابل على أن الذكاة هي ما كان ازهاق الروح فيه بقصد الأكل لا مطلق التعذيب والاعدام . وظاهره أن مسألة فتوى ابن العربي لم يكن ينقصها إلا النص على أن قتل عنق الدجاجة بعد ذكاة اذا أرادوا به ذلك ؛ وكأنه لم يذكره لدلالة القرينة عليه

نم ذكر قولاً آخر عن (المعيار) في المسألة وأنه أيد فتوى ابن العربي أيضاً وقولاً آخر عن الزياتي وأنه سلمه . فعلم ان المسألة مسلمة عند فقهاء هذا المذهب ونما أورد المرجف هذه المقول وهي حجة ثانية لانه وجد أن بعض المتأخرين قل إن في هذا الكلام نظراً من وجوه . وقد تصفحنا تلك الوجوه فرأيناها غير وجيهة . فانه في أولها يستشكل تصديق أحبار أهل الكتاب ودرهائهم في ان هذا حلال عندهم، ويستدل على ذلك بان القرآن شهد عليهم بالتحريف والتبديل وثبت أنهم كذبوا بمحضرة النبي ﷺ وانه عليه الصلاة والسلام قال « لا تصدقوهم ولا

تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وهذا الوجه حجة على ذلك المتأخر فإن الله تعالى قد أطاق القول بحل طعامهم وهو عالم بذلك منهم وأخبر به نبيه والمؤمنين . فدل ذلك على أنه لا يطالب منا ، بل يحرم علينا أن نتمد على ما في كتبهم المحرفة وعلى أقوالهم فيها ، وإنما يحل لنا أكل طعامهم من غير بحث عن حكمه عندهم ، وإنما طعامهم ما ياكلون إلا ما حرم لذاته كالحم الخنزير . وقصارى هذا أن فتها المالكية كابن العربي أخطأوا في اشتراط كون طعامهم مما ياكل منه رجال الدين عندهم . وهذا صحيح ولذلك قلنا في الجزء الماضي إن ما قاله ابن العربي وعول عليه المفتي هو من باب الورع ، والظاهر ما عليه أكثر الصحابة من حل طعامهم مطلقا وإن لم يتمسكوا بشيء من كتبهم وأحكام دينهم كبنى تغلب من متنصرة العرب (والوجه الثاني) البحث في التفرقة بين لحم الخنزير وما يقتلونه بالاعقر كالضرب بالساخور . ونقول إن الفرق قد تقدم في الجزء الماضي نقلا عن كتاب (صفوة الاعتبار) وباقي الوجوه مناقشات في العبارات . على أن مقتضى هذه الابحاث أن لا يحل من طعام أهل الكتاب شيء إلا ما علمنا أنهم جروا فيه على أحكام الشريعة الإسلامية ومأم بفاعلين ، فيكون قصارى قول الباحث أن الآية لا معنى لها ولم تفد حكما حديداً ، وهو ظاهر البطلان . وإذا اعتبرنا كلام المتأخر فأكثر ما فيه أن تكون مسألة أكل ما يخفقه أو يعقره الكتابي مختلفا فيه عند المالكية ويجب أن يكون من أعظم المرجحات ما كان أبعد عن الحرج المنفي بنص القرآن وهو قول القائلين بالحل . ولا يخفى أن هذا الخلاف ليس في موضوع فتوى مفتي الديار المصرية لأن موضوع الفتوى في حيوان يذبح بعد ضرب بمحدد وهو حلال باجماع أهل السنة والجماعة كما تقدم . وإنما يورد المرجف ذلك في الرد على الفتوى لابهام العامة الذين لا يعقلون

﴿ الفقه في تحريم الميتة وما أهل به لغير الله ﴾

قد علم مما بيناه في الجزء الماضي من أنواع التذكية الشرعية أن الضابط العام الذي يجمعها كلها هو أن يكون ازهاق روح الحيوان بقصد أكله . ويشترط في ذلك

٧٠٢ اهلل بعض المسلمين تير الله في ذياتهم وتسميتهم السوابب لهم

شرط ديني واحد وهو أن لا يكون فستا أهل تير الله بمن مسلم أو وثني مشرك بالله
كلني كانوا يذبحونه على الصب، وهي حجارة تصب ويذبح عليها للاصنام .
وقد نعى بعض الصحابة عن أكل ما أكل به الكتاني تير الله ، وقدم البحث
فيه في مسألة التسمية ولن الجمهور على خلافه . وذكرنا في الجزء الماضي ما يزيد
رأي الجمهور من كون آيت تحريم الاحلال لتير الله مكية الخ وتقدم أيضا ان ما أهل
به تير الله هو أشد المحرم محرماً لان علمه دينية تتعلق بمجهر التوحيد

ومن عجائب جهل علمه السليين بالدين في هذا الزمن أن صار فيهم قوم يهلون
لتير الله من الشيوخ اللين للعتدين بحولا تكلم تجد ذلك منكراً . بل يذكر عن
الامة أن بعض علماء الوقت يأكل من البهيمة (السائبة) للسيد البدوي عندما تدبج
على اسمه في مولده وإن ذكر اسمه عند الذبح . وكان هؤلاء الشايع يكتفون في
التأويل بأن الذبيحة تحمل لان مريق الدم منسوب الى الاسلام ويذكر اسم الله وإن
كانت سبت أولاً وسبت آخرأ لاجل التقرب إلى السيد البدوي ويقصد بها
إرضاءه والباس الخير منه فانه بدون ملاحظة شيء آخر ، كما عليه البعض ، أو لانه
واسعة عند الله يصل الله لاجل ما يريد هو أو يريد للتقرب اليه عند قبره أو في بلدته !
ولكن من يتدبر القرآن ، ويعتقه في الدين ، يعلم أن تحريم ما أهل تير الله به على
للمسلمين حكمه أن لا يصرف في مثل ذلك الذي كلن عليه للشر كون الذين كانوا
يستندون به حكمه الله عنهم بقوله (والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا
ليقربونا إلى الله زلفى) وإذا لم تصدق أن بعض المتسبين لهم يأكلون مما يذبحه
بعض الناس لسيد وغيره فاما قل أن هذا المنكر عثم ولا ينكرونه على العامة ،
ولو أنكروه علماء الازهر والجامع الاحمدي لما استمر الناس عليه ، بل لو أن الجرائد
اليومية ساعدت الناس ورددت قوله في إنكار مقاصد اللوالد لزال كلها أو
بعضها ، ولكن الاهواء السياسية والشخصية لم تهب على هذه الفئات أنواطه ولكنها
هبت على الشجرة الطيبة التي يستظل بها الاستاذ الامام تريد أن ترزعها أو قلعها
ولكنها شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، فلا تقوى عليها هذه الاهواء
بقي من بحث الحق في التذكية ومحريم الميتة مسألة لم تذكرها في الجزء الماضي

لان المقال فيه كان قد طال وهي : ماهو الفقه في تحريم مامات حتف أنفه - وهو المتبادر من لفظ الميتة عند الاطلاق - وما هو في معناه كالمخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما اكل السبع منها إذا لم تذك اى يجهز عليها بقصد الاكل - ؟ وما الفرق بين الصيد يأتي به الكلب المعلم ميتاً فيكون حلالاً، وبين ما أكل السبع منه فاته ولم تدرك ذكاته؟ وما ضرب الانسان بعضاً أو حجر فاته كذلك ولم يذك بالقصد؟ وما الحكمة في جمل القصد محلاً؟

والجواب عن ذلك فيما يظهر لنا بعد اعتبار تعظيم شأن القصد في الامور كلها ليكون الانسان معتمداً على كسبه وسعيه وهو الحكمة الاولى في ذلك - هو أن الميت حتف أنفه يغلب أن يكون قد مات لمرض أو أكل نبات سام وبذلك يكون لحمه ضاراً كلحم الخنزير فان هذا قد حرم لضرره «راجع الجزء الثامن» فهذه حكمة ثانية

وتم حكمة ثالثة غير اعتبار القصد وخوف الضرر وهي ان الطباع السليمة تستقدر الميت حتف أنفه ولا تعده من الطيبات، والدين يربي الانسان على شرف النفس ولذلك أحل له الطيبات وحرم عليه الخبائث . وأما ماهو في معنى الميتة حتف أنفه من المخنقة والموقوذة الخ فيظهر في علة تحريمه كل ما ذكر إلا حكمة توقع الضرر في الجسم فيظهر فيه بدلها تنفير الناس عن تعريض البهيمة للموت باحدى هذه الميتات القبيحة في حال من الاحوال ، وان يعرفوا ان الشرع يأمر بالمحافظة على حياة الحيوان وينهى عن تعذيبه أو تعريضه للتعذيب ويماقب من يتهاون في ذلك بتحريم أكل الحيوان عليه إذا نهاون في حفظ حياته ، فان الرعاة يغضبون أحياناً على بعض البهائم فيقتلونه بالضرب، ويحرقون بين البهائم فيغرون الكباشين بالتناطح حتى يهلكا أو يكادا ، ومن كان يرعى أنعام غيره بالاجرة يقع له مثل هذا أو أكثر . ولو كان أكل ما هلك بتلك الميتات حلالاً لما بعد أن يتمدد الرعاة وأمثالهم من التحوت (١) تعريض البهائم لها لآكلوها بهذر . ويدل على هذه الحكمة أحاديث صحيحة، منها قوله صلى الله عليه وسلم بعد النهي عن الخذف وهو الرمي بالحصى والبنشق (الطين المشوي لذلك) : « انها لا نصيد صيداً ولا تنكأ عدواً ولكنها

تكسر السن وتفقأ العين» رواه احمد والبخاري ومسلم .

هذا ماظهر لنا ومن آتاه الله حكمة وراء ذلك فليتعفضل علينا ببيانها
ذكرنا هذا البحث في فقه الشريعة وحكمتها لان أحكام المعاملات والعادات
معقولة المعنى كلها مبنية على قاعدة دفع المضرات وجلب المنافع ، وأما قول
بعض العلماء ان أحكام الدين على قسمين قسم تعبدي تؤديه امثال الامر الله تعالى
وان لم نعمل وجه فائدته ومنفعته ، وقسم معقول المعنى يمثل فيه الامر من حيث
نطلب به المنفعة المقصودة منه، فلا شك ان التعبدي منهما لا يظهر له وجه إلا في
أحكام العبادات التي يتقرب بها إلى الله على حسب ماوضع وشرع
ومن عجيب أمر علماء الرسوم وأهل الرأي انهم حكموا فياسهم ورأيهم في
مسائل العبادة المحضة حتى زادت على المنصوص أضمافا كثيرة وجدوا على بعض أحكام
العادات ولم يبحثوا عن عللها وحكمها بل منعوا أو كادوا بمنعون القياس فيها فتدبر

(تأييد علماء مصر والجرائد للفتوى (*))

لما قام المرجف يلعظ في الجريدة المحدثه بالانتقاد على الفتوى نفر طائفة من
أهل العلم الى لرد عليه في الجرائد، فنشروا مقالات كثيرة أيدوا بها الفتوى بالنصوص
القاطعة، والادلة الساطعة، ومن هذه الجرائد الاهرام والمقطم والوطن اليومية. وأما
الاسبوعية الاسلامية التي كتبت فلم نحصها ولكن أشهرها جريدة (التمدن) التي يحرر
مباحثها الدينية بعض الازهريين، والفيل، والمنازل، والجرائد العثمانية، وقد نشر كاتب
أديب في المقطم مقالة (عتاب صديق) للعلماء وبعض الجرائد اليومية الاسلامية لعدم
الكتابة في الموضوع فأحسن كل ماكتب إلا تعظيم شأن الخلاف وتكبير المسألة
وهي صغيرة، ولم يخالف فيها إلا المرجف ومستأجره، وأيده الحدث وصاحب الحمار،
ولذلك أجابه أحد العلماء المدرسين المؤافين بجواب وجيز نشر في (عدد ٤٤٩٩)
من المقطم وقد جاء فيه مانصه : « ولعمر الحق انما دعاهم - أي العلماء - الى السكوت.

هذه المقالة رد على زعم جريدة الظاهر ان. ويدي المفتي هم السوربون وهي تابعة

لما قبلها مما تنقله من النار المؤرخ في غرة ذي القعدة سنة ١٣٢١

عنها وضوح السؤال والجواب، وعدم الحاجة لى رد أقوال المعارض على افتاء ليس عليه بنظر الشريعة غبار . أصل المسألة ذبيحة ضربت على رأسها ببلطة ثم ذبحت أنحل أم لا ؟ أفبعد قول السائل ثم ذبحت يقوم أنها ميتة أو موقوذة ؟ كلا «الح أما سكوت المؤيد فالظاهر أن سببه عدم العناية بالجريدة الحديثة وكرهه إشهارها مع اعتقاد أنها ضارة ، ولهذا لم يذكر اسمها الذين ردوا عليها أيضا . وإذا كان هناك سبب باطن أيضا فليس لنا أن نبحث عنه وإنما كلامنا في الظاهر فقط ، واما (الراوي) فقد كتب أخيراً ما يدل على الانتصار للفتوى

وبينا نحن نكتب في هذا المقام وردت علينا جريدة جديدة تسمى (الواعظ) فرأينا فيها مقالة وعظية لعالم مغربي عرج على القاهرة في طريقه الى الحج ، فلما قرأ ما نشرت الجرائد في موضوع الفتوى كتب هذه المقالة وأرسلها الى بعض الجرائد الصامته الساكنة فلم تنشرها فرغب الى صاحب الواعظ أن ينشرها ففعل فكان فعله مما حقق ان اسم الجريدة وافق المسمى . وقد رأينا أن ننقلها تنوياً بالواعظ وتنبيهاً للناس الى مكانة المرجف من نفوس العلماء الغرباء ، بل على مكانة المصريين عند من يتوهم انه بروج فيهم مثل هذا الارجاف ومكانة الاستاذ الامام من نفوس عقلاء المسلمين في بلاد المغرب وهذا نصها :

﴿ المقالة الوعظية لعالم المغربي ﴾

« أيها المسلم . هل أتاك خبر ماشاعت لالبناء من قبل وقال في فتوى الشيخ الامام ، وهل علمت ما كتبه المار مما نص عليه الفقهاء والعلماء والصحابة وصاحب الشرع عليه الصلاة والسلام ، وما حدث في أوائل اقرن الماضي في الديار المصرية ؟ تأمل وانظر كيف انعكست الاحوال وانقلبت ظهر آ لبطن ، وأصبح الدين آلة في أيدي رجال العلم ، يحرمون اليوم ما حله آباؤهم من قبل ، ومعارضين فتوى السيد الامام ، وجهور الفقهاء والصحابة والتابعين وصاحب الشرع عليه الصلاة والسلام . وباليت شعري أهذا دليل على وقوع الامة في شرك الجهالة وانها ستنتدى الى أسفل سافلين ، أم ذلك تنافس بمحى ويذول ؟

» من المسلمين رجال يؤيدون الدين ويقومون بالاصلاح ويحافظون عليه

كالسيد الامام المفتي برأى الجمهور وما اعتمده العلماء ، فهل يرد عليه بما رآه الآخرون ؟ وهل يفترض بمذهب على مذهب ؟

« على ان هذه الشريعة السمحة البيضاء تشعبت فيها الاقوال ، لياخذ العلماء من كل زمان بما يناسب الامة من أحوال ، ولا تكون ضيقا على عباد الله ، إذ هي الشريعة التي ينتظر المسلمون وعقلاء النصارى أن تعم الارض كلها كما قال تعالى (والله متم نوره) وكما قال (ليظهره على الدين كله) فهل يليق أن نسماها بالخرج والضيق ؟ وقد اعتاد العلماء أن يقولوا قولاً ضميماً لياخذوا به عند الحاجة اليه . وليست فتوى السيد الامام من هذا القبيل وانما الكلام في ان الشريعة أوسع مما يضيّقون « وما لنا ولهذا وذاك ! كنا نقرأ في كتب "فقهاء" ان المفتي والقاضي لا يوليان إلا اذا حازا درجة الاجتهاد كالأئمة الاربعة . وإلا كان تقليدنا باطلاً ، فهل يسمح الدهر بهم ، واذا سئل العلماء عن المجتهدين يقولون انقطع الاجتهاد من القرن السادس وكل قاض ومفت بعد هذا الانقطاع فهو قاض للضرورة ، وكأنهم بهذا حكموا على الامة أن تتدلى وتنقرض ، وقد حكموا بتطبيقهم هذا على الشريعة الغراء أن تنقاص عن الاحكام وحل محلها القانون السياسي

« من لنا بقوم يشعرون بما نقول ؟ وأنا رجل مغربي طالما تمنيت أن يكون في المسلمين رجال عظام ، حتى اذا ما رأيت هذا السيد في بلادي قرت به عيني . وها أنا ذا) قد وفدت الآن على مبعث أنوار عرفانه فوجدت لفظاً داني على ان القوم هنا لا يبالون بشريعتهم ولا رجالها

« وباليث شعري هل درى اخواننا العلماء انهم بتحريمهم ذبيحة أهل الكتاب يفتاتون على القرآن ؟

« القرآن أحل ماجرحته كلاب الصيد وقتلته . وعلم الله تعالى ان الانسان أفضل من الحيوان فاستدرك ذلك وأحل ذبيحة أهل الكتاب ، وإلا كانوا في نظر الشرع أقل من الكلاب ، وجل الله أن ينزل الانسان الدّين في شريعة متممة للشرائع على أخس حيوان وأقبحه في نظرنا ، مع ان هذا الدين جاء ليعم الارض كلها . وهو الذي أحل منا كحة الكتاني ومعاشرته ومجاملته ومعاهده وأوجب الديّة في قتله ،

ولم يجوز قط الأكل في اناء وانع فيه الكلب حتى يغسل سبع مرات احداهن بالتراب
« يجوز لنا أن نأخذ الذبيحة من أنياب الكلب ولا نأخذها من بين يدي
الانسان ؟ .. حاشا لله حاشا

« أظن اننا أصبحنا الآن أضحوكة في عيون الافرنج ومضغة في أفواههم ، إذ
يسموننا بالوحشية المطلقة وديننا بدين الوحوش

« ذكر الله الصيد في أول سورة المائدة فلم يشأ أن يسكت عن أهل الكتاب علماً منه
انهم أولى بالحل وهل ينقص النصراني الترسفالي في نظر ديننا عن حيوان
الصيد ؟ أو انه من التعصب الاعمى وعدم التفطن والنظر ؟

« وهل عرف أولئك العلماء حكمة الذبح المعتاد وشيوعه بين المسلمين بقطع
الحلقوم والريء مع قيام غيره مقامه في الصيد والذابة الشاردة والسماك والجراد
والجنين في بطن أمه وغير ذلك ؟

« فليعلموا ان كل قتل بحسب الاصل موصل المقصود ولكن الله لحكمته
ورحمته بنا وبالحيوان جعل بيننا بقسة عادلة ومنة عامة ، فحرم علينا ما قتله الحيوان
وما مات في الخلاء بغير قصد منا ، ليبقى ذلك كله للحيوان يأكله لانها أمم أمثالا .
وكانه تعالى لم يرض ان تأكل ما لم يقصده ولم تفكر فيه . فأما المذكي والصيد
والسماك والجراد ونحوها فانها كلها غالباً لا تؤخذ إلا بالنصب والتمب .

« هذا . ولما علم الله ان الناس منهم الجاهل والعالم والقوي والضعيف وضع قانونا
عاماً يشترك فيه عامتهم وخاصتهم في الذبح وهو ذبح العنق . ولو أباح أي ذبح لثمن
الناس في تعذيب الحيوان . فله الحكمة البالغة

« هذا هو القصد من شيوع قطع الحلقوم والريء مع قيام غيرهما مقامها في أحوال
أخرى كالسماك والجراد والصيد وذبيحة الكتاني
« يا أيها المسلمون هل أنتم منتهون عن هذا ؟

« انه ليحزن العقلاء أن تتكلم في صفات الامور وقد تركنا كبارها ، وهل يجوز
إكبار لبس البرنيطة مثلاً واستصغار تعلم اللغات ؟ وانها القتالة للعواطف القومية ،
المنجثة لأصول المعتقدات الدينية من مفارستها في النفوس . تركنا كبار الامور

واستمكننا بصفاؤها وأنه لعار عظيم . «لما قمنا وقعدنا هذا القيام وهذا القعود لفروض الكفايات كالصناعات والسياسات التي ينطق بها القرآن ؟
«لقد دخلت بلادكم الا فرج مداخلة شربت بها القلوب والاجسام وأصبحت المنازل والابواب والاثياب وكل شيء جديد فيها من آثارهم ، وولاند صناعاتهم ، فكيف تحلون هذا كله وتحرمون البرنيطة على الترنسغالي الذي لا قوة له ولا استقلال ، يلبسها للضرورة - لعل العلم وقف على الظواهر ولم يعبا بالبواطن بل بالمشر دون اللب .

«ان الشيخ الامام حين قرأ الدرس في بلادنا المغربية في هذا العام فهمنا ان مصر كعبة العلم ومنبع الفضل ، مؤيداً لما كنا نسمع من قبل ، ولكن لما زرتها تنزل بقيتي في ذلك ، وما هو عندي بهم في قوله ، فلملي عند رجوعي من الديار الحجازية أستنشق روح الوفاق على تأييد الحق ، وما هو ببعيد»

(المنار) يظهر أن الكاتب صدق المرجف في زعمه ان العلماء خطأ والفتوى وان سبق له القول بان شيخ الازهر وعلماءه لا يخالفون المفتي !! وفي هذه المقالة بيان حكمة رابعة لتحريم الميتة وما في معناها وهو جعلها من حظ الحيوانات التي تاكل اللحم رحمة بها

(تأييد واقعة الفتوى بمذهب الحنفية خاصة)

(تابع لما نقل عن المنار المذكور)

أشرنا في الجزء الماضي إلى أن الفتوى مؤيدة بالكتاب والسنة وعمل السلف وإلى ان خلاف الحنفية في مسألة التسمية ليس في شيء من واقعة الفتوى التي أفتى فيها مفتي الديار المصرية لان الحكم في واقعتهما مجمع عليه . وقد رأينا أن ننقل بعض ما قاله الحنفية إناما للموضوع ، حتى يعلم ان المفتي موافق لمذهب الحكومة المصرية ، وإن لم يكن ذلك واجبا عليه لاسيما في المسائل الدينية الشخصية ، خصوصا إذا لم يكن السائل عنهما من رعية هذه الحكومة . وقد كنا راجعنا ما في الفتاوى الحاكمة ثم جاءتنا رسالة من بعض شبوخ الحنفية المتخرجين في الازهر يذكر فيها نص الفتوى بعدم مقدمة في إنكار إرجاف المرجف ، ثم ذكر ما يؤيدها من كتب التفسير وأقوال السلف وختم الكلام بما نصه :

بقي علينا أن نوضح موافقة الفتوى لفروع الفقه الحنفي فنقول « في كتاب (العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية) للمرحوم المحقق العلامة السيد محمد بن عابد بن رحمه الله: سئل في ذبيحة العربي الكتابي هل يحل مطلقاً أو لا ؟

(الجواب) يحل ذبيحة الكتابي لأن من شرطها كون الذابح صاحب ملة التوحيد حقيقة كالمسلم أو دعوى كالكتابي، ولأنه مؤمن بكتاب من كتب الله تعالى وتحل من أكله فصار كالمسلم في ذلك ، ولا فرق في الكتابي بين أن يكون ذمياً يهودياً أو نصرانياً حريباً، أو عربياً أو تلمبياً، لا إطلاق قوله تعالى (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم) والمراد بطعامهم مذكاهم. قال البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه قال ابن عباس رضي الله عنهما : طعامهم ذبائحهم - إلى أن قال - وهذا إذا لم يسمع من الكتابي أنه يسمي غير الله تعالى كالمسيح والعزير ، وأما لو سمع فلا يحل ذبيحته لقوله تعالى (وما أهل غير الله به) وهو كالمسلم في ذلك . وقال بعد كلام : لكن في مبسوط شمس الأئمة : وتحل ذبيحة المصراي مطلقا سواء قل ثلاث ثلاثة أو لا ومقتضى الدلائل وإطلاق الآية الجواز كما ذكره الميرزا في فتواه

فإذا ما ذكره صاحب المبسوط حل ذبيحته مطلقا سواء سمي عليها أو سكنت عن التسمية أو قل ثلاث ثلاثة لأن قواه : أولاً ، داخل تحت ما إذا سمي الله وما إذا لم يسم أصلاً بدليل قوله بعد ذلك : ومقتضى الدلائل وإطلاق الآية الجواز ، فمن هنا يعلم أن هذا القول موافق للفتوى من غير زاع في ذلك وهو قول صحيح في المذهب يدل على ما ذكره ما قاله صاحب كتاب فتاوى الهندية حيث قال : ثم إنما تؤكل ذبيحة الكتابي إذا لم يشهد ذبحه ، ولم يسمع منه شيء ، أو شهد وسمع منه تسمية الله وحده ، لأنه إذا لم يسمع منه شيء ، يحمل على أنه قد سمي الله تعالى تحميداً للظن به كما بالمسلم - ثم قال بعد ذلك : المتردية والمنخضة والموقوفة ، والشاة المريضة والمطبوخة ومشقوقة لبطن إذا ذبحت ينظر : إن كان فيها حياة مستقرة حلت بالذبح بالإجماع ، وإن لم تكن الحياة فيها مستقرة يحل بالذبح سواء أكل أو لم يمس عند أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه وهو الصحيح وعليه الفتوى ، كذا في محيط السرخسي ، اهـ

فن هذا كله يتبين للقراء ان ما ألقى به فضيلة مولانا الاستاذ مفتي الديار المصرية موافق لاصول مذهب أبي حنيفة رحمه الله ولا خلاف في ذلك، فالواقوذة التي لم تمت اذا ذكيت حل أكلها سواء كان المذكي لها مسلما او يهوديا او نصرانيا لانها قبل موتها لا تسمى واقوذة كما افاد ذلك العلامة الطبري فيما ذكرناه . وفي هذا القدر كفاية لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد» اهـ (التوقيع محفوظ)

﴿ الاستدلال على سوء قصد المرجف ﴾

(منقول من الجزء ٢١ من المجلد السادس من المنار)

(كتبنا هذه المقالة في ذلك الوقت ردأ على ما كتبه صاحب جريدة اللواء الملقب بحدث السياسة تأييداً لصاحب جريده الظاهر الملقب بالمرجف في عدد اللواء المؤرخ في ٢٦ شوال سنة ١٣٢١ أي قبل صدور تقرير المرجف بثلاثة أيام وشهد له في مقالته بحسن النية وصحة القصد في إظهار فساد الفتوى ومخالفتها للشرع الشريف، وأنكر على أنصار المفتي ما يكتبونه من المقالات في الأهرام والمقطم في الطعن عليه واتهامه بسوء القصد، وما جرت اليه المناقشة من مر الكلام، والسب والطعن والخصام، وقال مصطفى كامل بك في هذه المقالة « ان العالم العامل من يسأل الناس مناقشته ومجادلته لا الركوع أمامه والامتنال لاقواله خطأ كانت أو صواباً، ويطالبهم أن يكونوا عبيداً له أو أصناماً، بل رجالاً ذوي افهام ومدارك » وقال انه أمسك القلم عن الكتابة في الموضوع انتظاراً من فضيلة المفتي لتبرير فتواه وتفسير ما أغمض على الناس منها . وذكر أنه إن قال أنصاره انه لا يليق بمقامه أن يقرأ كلام المعارض ويرد عليه فانه يجيبهم بانه ليس أكبر من عمر بن الخطاب الذي قال من رأى منكم في أعوجاجا فليقومه. ورضاه عن جواب الاعرابي له ... وهذا عين ما قاله أبو شادي بك في تقريره ...)

انفرد باللفظ في المسألة صاحب الجريدة المحدثه وهي من الجرائد التي تلعب في مصر بالساقطة ولقبناها في الجزء الماضي بالسياسية انما لما يتحدث به الناس من ان هذا اللفظ يقصده به عمل سياسي في الازهر، واستدلوا على هذا بسكوت حدث السياسة عن مشاركته بهذا اللفظ مع انه كان ينتحل الشبه البعيدة للتعريض والتشهير بالمفتي، لان الحدث متهم بتلك السياسة ومعروف بالفرض. ثم شاع ان الجريدة المحدثه لما أساءت اللفظ وخرجت عن الموضوع الى السباب والمهاترة

والتناقض قبل انها لم تصادف من الجانب الذي كان يظن انها تقترب اليه إلا البعد والسخط، ولذلك تكلم الحدث بعد طول الأزم، فأيد الباطل وخذل الحق، وصور المسألة عن السائل بأن أهل التردس قال « يضر بون الانعام بالباطل فأفتاه المفتي بانها حلال » وقد علم القراء من نص السؤال في الجزء الماضي ان السائل قال انهم يذبجون البقر بعد الضرب بالباطل ويذبجون الغنم من غير ضرب. فانظر الى تحري هذا الحدث البعد عن الصدق، لايهام الناس خلاف الحق، ثم انه يسأل كصاحب الجريدة المحدثه أن يتنازل المفتي لقراءة لغوهم وبجوابتهم عليه. ونحن فلم علم اليقين أنه لم يقرأه ولز يقرأه عملاً بقوله تعالى في صفات المؤمنين (والذين هم عن اللغو معرضون) وانه اذا سمعه يأخذ بقوله تعالى فيهم (واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا واليه المصير) ولو كان الحدث وصاحب الجريدة المحدثه يطلبان الحق في المسألة لما بادر أحدهما الى بذل ٣٠ جنيتها من أصل (١٢٠) ... في ورقة الفتوى ليشتع عليها إذ نوه ان وراءها مؤاخذه رسمية، لي امكن بادر عند العلم بها الى الامام المفتي وسأله ايضاح الاستدلال بالآية الكرمة التي استدلت بها ودفع الشبهة عن الاستدلال ان كانت هناك شبهة. ولولا سوء القصد لما حرقا السؤال بعد ما نشره المرجف. فانه نشره أولاً بنصه ثم نشره ثانياً في تقريره على نحو ما أورده الحدث فانه زاد عليه قوله « حتى تشرف على الموت » ولم يقل السائل ذلك ولو قاله لما كان مانعاً من حل الذبح عند الجمهور، ولولا سوء القصد لما غير المرجف في تقريره سؤال المستفتي عن لبس القلنسوة بعد نشره في جريدته صحيحاً فزعم أخيراً انه قال انهم يلبسونها تشبهاً بالقوم من غير سبب! وهذا كذب صريح. والفتوى صريحة في اشتراط عدم قصة التشبه

ولو كان المرجف يطلب معرفة الحق في المسألة لما ترك النصوص التي أوردها في المسألة ولما ترك استفتاء شيخ الازهر وعلماءه في مصر أولاً كما كتب في بعض الجرائد وزعم انه سيستفتي شيخ الاسلام في الاستئانة وحاخام اليهود وبطريق النصارى، ثم اقتصر على استفتاء حاخام اليهود القرايين في ذبيحة النصارى ثم اكتفى

بمقالة في جريدة يهودية تفصل ما أحل لليهود من حيوان البر والبحر وما حرم عليهم ، وتذكر شروط الذبح عندهم ، ومنها أن يكون الذابح بدرجة من العدالة قلما توجد في الناس اليوم ، وأن يكون مستقبلاً بيت المقدس . ويزعم المرجف أن الله لا يحل لنا ذبيحة النصراني إلا إذا كان مستوفياً لتلك الشروط ، فهو يلزم النصراني بأن يتبع شريعة التوراة ، وأن كان القرآن مصرحاً على لسان عيسى عليه السلام بقوله (ولا حل لكم بعض الذي حرم عليكم) فكأنه يلزمهم بمصيان عيسى فيما نسخه من أحكام التوراة ليكونوا نصارى تؤكل ذبائحهم . على أن الله تعالى أخبر عن اليهود النصارى بأنهم لم يقيموا التوراة والانجيل وانهم يحرفون الكلم عن مواضعه ليوافق أهواءهم ثم انه في السورة التي يذكر فيها هذه الاحكام عنهم يحل لنا طعامهم فهو تعالى أعلم بمقائدهم وابعالهم وبقوالهم ، وقد أحل لنا ذبائحهم ولم يكلفنا أن نقرأ قبل أكلها كتبهم ونطبق أحكامها على الذابح ، بل ورد في الحديث « لا تصدقهم ولا تكذبهم » أي فيما يخبروننا به عن شريعتهم ، ولكن صاحب الجريدة المحدثه يصدقهم ويحتج بكتبهم ويقيدهم بكلام جريدة من جرائدهم بإطلاق القرآن حل طعامهم ، وذلك لان مفتي الديار المصرية قل بوجوب الاخذ بهذا الاطلاق ، ثم يرجع فيقول لا يعمل بأقوالهم ! ولكن المفتي يقدم نصوص القرآن على كل شيء كسائر أئمة المسلمين ، فهل نترك القرآن لان المفتي مستمسك بالقرآن والمرجف لا يرضيه منه ذلك ؟

(اهانة المرجف للعلماء وتعرضه بالامير)

(من جزء المنار ٢١م المؤرخ في غردذي القعدة سنة ١٣٢١ (١٩ يناير سنة ١٩٠٤)

لما قال المرجف انه يريد استفتاء شيخ الاسلام في الاستئانة بكتب بعض المتقدمين في الجرائد يتعجب من اهماله استفتاء شيخ الاسلام وعلمائه في مصر وهم أعلم بالشريعة من علماء الترك ، وجملة شيخ الاسلام مقدسا كابا فاجاب عن ذلك بما نصه (ع ٦٤) :

« أحل لانه انما نؤينا رفع الفتوى إلى مقام مشيخة الاسلام في دار الخلافة ،

ووصفناها بما تستوجبه حياظتها الدينية من القداسة، ولكننا لم نمحط من كرامة مشيخة الازهر الجليلة إلا أننا نعلم أن المفتي وشيخ الازهر توأمان متلازمان فلا يقول أحدهما بما يباين قول الآخر!! ولا نجهل النفوذ الذي للمفتي على الازهر ومن فيه من المستضعفين الذين يخشون الشيخ ويتقون بطشه بهم، وقد رسخ هذا الوهم في نفوسهم وتولدت منه مخاوف هوت بأفكارهم وسقطت بمدارك بعضهم، حتى صغرت قيمتهم في نظر أنفسهم، وعلى ذلك شواهد محسوسة لا يحتاج إلى إيضاح « اه بحروفه

فلي نظر المسلمون إلى هذا المرجف كيف يطعن بفضيلة شيخ الازهر وسائر علمائه، ويزعم أن المفتي قد استخفهم فأطاعوه، حتى في خلاف ما يعتقدونه ديناً، كأنه فرعون مصر المستبد فيها. ثم هو بعد ذلك لا يستحي أن يقول في ورقته إن علماء الازهر قد جاءوا إليه وتبرؤا من الفتوى ومؤيديها، وفي تقريره أن علماء الازهر كتبوا إليه بأن عدم استناد مفتي الديار المصرية في فتواه للترنسفاي إلى نصوص مذهب أبي حنيفة يقتضي أنه مجتهد، وأنه بذلك صار معزولاً من وظيفة الافتاء!! (اه من ص ١٤)

فلي نظر أصحاب البصر والبصيرة إلى تعارض أقواله في العلماء - تارة يجعل رئيسهم مصر، وسهم تابعاً للمفتي وإن أخطأ! وتارة يجماهم - تهجين على القول بعزله من وظيفته! فهل يصدق عاقل نقل هذا المرجف على تعارضه، وبعد ما يرى من تحريفه السؤال والجواب، وتهافته في خلط ما يزعم أنه نقل عن الكتب أو العلماء ومزجه بأقواله؟

وقد ذكر في بعض ما كتب في المقام غير الامير على الدين وإن عزل المفتي وأمثاله بيده. وأن العلماء رفعوا الأمر إلى سموه، وللقاريء أن يستنبط من هذا أن الناقل كاذب في دعواه أو أن الامير أعزه الله قد علم أن الذين كتبوا إليه يدسوا من العلماء الذين يعتمد على قولهم في الدين، ولولا ذلك لما أبقى المفتي في منصبه، ويقول: إذا صح أن بعض العلماء كتب للامير بأن الفتوى غير صحيحة وأن أكل الذبائح المشكوك فيها حرام في مذهب الحنفية الذي يتقلده، وأنه صدقهم (٩٠ تاريخ الاستاذ الامام ج ١)

ولم يصدق النصوص التي أوردناها في اثبات حايها بالاجماع أو برأي الجمهور ومنهم أبو خنيفة، فلا شك ان سموه يترك أكل اللحوم في أوروبا ولو على موائد الملوك والامراء. فان جميع ذبائح أوروبا على الطريقة التي صدرت الفتوى باثبات حلها، بل هي أبعد منها عن النصرانية لان نصارى الترانسفال متمسكون بدينهم متعصبون له كما جاء في الفتيا . وأما أهل أوروبا فقد تساهل أكثرهم بها ، بل مرق الكثيرون منها ، وانهم ايخنقون الطيور خنقا ولا يذكرون اسم الله على شيء من ذبائحهم على ما يقال ، والامير أعزه الله أعلم بحقيقة الحال

ولعلنا نبين في الجزء الآتي شروط المفتي " وما يجب أن يعتمد عليه في الفتوى مؤيدة بنصوص العلماء . وربما ألمنا بشروط صحة الولايات التي يملك صاحبها نصب القضاة والمفتين وأهمها الاستقلال بذلك والقدرة عليه وعلى تنفيذ الاحكام الشرعية . . . وليس الغرض من هذا الذي كتبناه كله وما سنكتبه الرد على المرجف فانه في تهافته بحيث لا يعبأ به ، ولكن الغرض سنحت لبيان أحكام الدين في هذه المسائل وازالة الشبهات عنها فلم نقفلها اه

﴿ كتاب من الترنسفال . في البحث عن حقيقة الفتيا والسؤال ﴾

بعد كتابة ماتقدم جاءنا كتاب من امام المسلمين في الترنسفال وهو من مشتركى المنار يذكر فيه صورة الاستفتاء والجواب على نحو ما نشر إلا ان في الكتابة غلطا أكثره من الاملاء ويقول المرسل انه عرض الفتوى على العلماء وان الشافعية قالوا قد حصل فيها غلط بقوله « إزهاق روح الحيوان بأي طريقة كانت » وقال انه توقف عن ارسالها حتى يصححها من جميع العلماء هناك « على أي حال كانت إن شاء الله تعالى » وقال في رأس الكتاب « ولا نعلم هل هي جوابات الاستاذ الامام حفظه الله أو غيره » اه بحروفه

(ج المنار) قد علم السائل من الجزء الماضي أن هذه الاسئلة عرضت على

(١) قد حققنا هذا الرجاء ولكننا لم نر نشر ذلك كله في التاريخ فمن شاء

الوقوف عليه فلينظره في (ص ٨٩٠ من المجلد السادس)

الاستاذ الامام وانها غير مفهومة كما قال . ولذلك جاءت الاجوبة عن مفهومها لاعتن نصها كما أشرنا إلى ذلك في الجزء الماضي . وقد عهد في السنة ان النبي ﷺ كان يجيب السائلين بمثل ذلك . وأما توقف الشافعية فيما ذكرتم فهو لا يستلزم أن يتوقفوا في حل الذبايح عندكم لان ذبيحة الكتابي التي لاتعلم كيفية تذكيته حلال باجماع أهل السنة . وما علمت كيفيته ففيه تفصيل . والجمهور من الصحابة والسلف على ان ذبايح أهل الكتاب حلال على الاطلاق ، ولغير الجمهور خلاف في بعض الصور . فالشافعية يحرمون ما ذبح وليس فيه حياة مستقرة اذا تقدم ذبحه سبب يحال عليه الهلاك ، فاذا علموا في ذبيحة معينة أنها كذلك فلمهم أن يجتنبوا الأكل منها ، وإن أباحها جمهور السلف الصالح الذين لم يشترطوا الحياة المستقرة ، وانما اشترطوا أن يكون فيها وقت الذبح رمقوا اكتفوا من الدليل على ذلك بحركة أي عضو من الاعضاء ، وذلك ما يعبر عنه الشافعية بحركة المذبح وقد رأيتم النقل عن المفسرين في ذلك

وأما لبس البرنيطة فلا دليل في الكتاب ولا في السنة على منعه . وحديث « من تشبه بقوم فهو منهم » عند أبي داود والطبراني وابن رسلان - اذا سلمنا انه حسن كما قيل - فلنا ان نقول ان معناه أن من يتشبه بقوم يعامل معاملتهم في العادة فينبغي للانسان أن يتشبه بالكرام دون اللثام لكي يكرم ولا يهان ، وقد قال الفقهاء ان التشبه لا يتحقق إلا بالقصد وانه مكروه في الامور العادية كاللبس تنزيها ، واما في الامور الدينية فان قصد به الكفر يكفر وإلا كان حراما . وهذا البحث مفصل في كتاب (الاعلام بقوامع الاسلام) لابن حجر المكي الشافعي فراجعوه ولذلك قال الاستاذ الامام في جواب سائلكم « أما لبس البرنيطة اذا لم يقصد فاعله الخروج من الاسلام والدخول في دين غيره فلا يعد مكفرا . واذا كان اللبس لحاجة من حجب شمس أو دفع مضرة أو دفع مكروه أو تيسير مصلحة لم يكره كذلك لزوال معنى التشبه بالمرءة » اهـ

على ان لبس البرنيطة ليس خاصا بأهل دين من الاديان فالمسلمون قد لبسوا نوعا منها قبل أن يعرفوا الافرنج سموه البرطلة في بلاد النبط ومن جاورهم من

العرب ، وكذلك أهل الافغان ألبسوا بعض المسكر نوعاً منها قبل أن يعرفوا الافرنج ، ومسلمو الفرس يلبسون ضرباً منها أيضاً ، ومثلهم أهل تركستان وخيوه وبخارى والتركمان والافغان والشركس وأهل داغستان ، وكذلك فرسان الترك . ويقال انه لا يزال طائفة من مسلمي المغرب الاقصى يلبسون ضرباً منها يسمونه المظلة . وقد علمتم أن سلطان المسلمين الاكبر وأكثر أمراءهم قد أخذوا زيهم عن النصارى ، بل جعلت الدولة العلية زي العلماء الرسمي شبيهاً بزي القسيسين الديني لا العادي ، فشيخ الاسلام في الاستانة مخصوص بالحلة البيضاء كبطريق الروم ، وسائر لبوس التشريف للعلماء عندها مرتب على ترتيب لبوس القسوس في الكنائس أيام الاعياد . وربما نعود إلى توضيح هذه المسائل ، ونقول لكم الآن ان الفتوى التي وصلت اليكم صحيحة ولا يلتفت إلى قول من يخالفها فانه جاهل بالدين والله أعلم

﴿ تأييد علماء الآفاق للفتوى ﴾

استنجد محمد بك أبو شادي علماء الامصار الاسلامية في الشرق والغرب وطلبهم بالرد على فتوى مفتي الديار المصرية المعروفة بالترنسغالية فاحتقره العلماء ولم يرد عليه منهم أحد لانه طلب منهم أن يلبسوا الحق بالباطل ، ويجعلوا الحلال حراماً بالنعم له . وأما نحن فقد جاءتنا مقالات تؤيد الفتوى وما شرحناه في توجيهها وتفصيل الأدلة عليها ، نشرنا بعضها في المنار ومنه رسالة من فاس للعلامة الفقيه الشيخ المهدي الوزاني ، ورسالة من تونس لم يذكر اسم مرسلها هنالك وهو العلامة الفقيه الشيخ طاهر بن عاشور باش مفتي الملكية في هذا العهد ، وكنت قد وعدت بنشر شيء منها في هذا التاريخ ثم رأيت البحث قد طال وربما قيل قراءه ما نشرناه كله في هذه المسألة فركت زيادة غيره ، ولكنني أنشر مقدمة ما جاء في الجريدة الاسلامية منية التي أصدر في (عيلكرة) منبع النهضة الاسلامية حديث مدرستها الكلية وهذا نصه (من نس ٢٣ من المحل السابع)

هل ولد السيد احمد خان ثانياً في مصر

وظهرت جريدته (تهذيب الاخلاق) بشكل المنار

ان الله قد وهب للمرحوم السيد احمد خان طبعاً سليماً ودماغاً عجيلاً ، فيينا العلماء الاعلام، والفقهاء الكرام ، يشتغلون عامة بوسائل التقليد وطرقه وبنهمكون في البحث بعبارات أمثالهم، كان السيد يبحث في أصول الدين ومقاصده بحث المجتهد المحقق ، وانبرى بهمة (أسدية) قوية لاظهار الاسلام بصورته الاصلية الاولى، ينزع لباس التقليد عنه ، وإزالة شوائبه منه ، إذ كان شيوخ الملة المقيدين بقيود التعصبات والالوهام، قد جعلوا أحكام الحنفية السمحة البريئة من الحرج في غاية الضيق والشدة ، وحكموا فيها الرسوم والعادات فجعلوها مذهاً وشرعية . عني السيد بتحقيق العقائد والاحكام وبيان الحق ، ولم يخف في مخالفة الجمهور لومة لائم، ففصل بين العادة والعبادة، وبين الرسوم الموضوعية، والاحكام المشروعة، ليخرج المسلمين من تلك الالوهام ، ويعود بهم إلى أصل الاسلام ، ولما أنشأ يطبع تحقيقاته وينشرها علت الجلبة والضوضاء ، وصاح مع العامة العلماء والفقهاء: قد كفر قد كفر : وطلبوا من الحرميين الشريفين الفتوى بتكفير السيد، والغالب انه لم يكن في ذلك الوقت أحد من المسلمين في الهند إلا وهو ينظر إلى أفكار السيد وتصوراته بعين الحيرة والتعجب

لعل أكثر الناس يتذكرون ذلك الزمان الذي أجاز السيد فيه لباس الانكليز وأباح الاكل معهم، وقال ان اللباس ليس من الامور الدينية بل من الرسوم والعادات ولم يحكم الشرع بالتزام زي يختص به المسلمون ، وأما الاكل فهو حل بنص الآية

القرآنية ، ويتذكرون كيف هب العلماء للرد عليه واستدلوا بحديث « من تشبه
بقوم فهو منهم » وكفروا السيد . ولكن الاقوال التي قالها السيد منذ ثلاثين
سنة، يقولها الآن أشهر العلماء في الممالك الاسلامية ، والافكار التي أظهرها السيد
في الماضي يظهرها في هذا الوقت مفتي الديار المصرية بالحرية التامة و « النظافة »
ونحن الآن نترجم الفتوى بحل دعام أهل الكتاب ولباسهم، ولكن لا ندرى ماذا
يقول الناس في هذا - اتفاق الحاضر مع الماضي - فان كان المسلمون قائلين بالتناسخ
فليقولوا ضرورة بان السيد قد ولد (ثانية) في مصر وظهرت جريدته (تهذيب
الاخلاق) في شكل (المنار) اه المقدمة

(المنار) لتعتبر الجريدة المحدثه بأقوال علماء المسلمين في مشارق الارض
ومغارها فان كانت كتبت ما كتبه من الطعن في الفتوى عن جهل وكانت تريد
باستنجاد مسلمي الآفاق بيان الحق فهام أولاء قد أيدوا الفتوى فعليها أن
تعترف بخطئها وتتب إلى ربها . وبأليت أصحاب الجود ودعاة التأخير يملون
ان الاستاذ الامام وحزبه هم الذين يخدمون الاسلام والمسلمين في هذه البلاد
دون سواهم ، وأن عقلاء المسلمين في جميع الاقطار معهم ومؤيدون لدعوتهم،
ومرتبطون معهم بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها والله سميع عليم . فلا يفتر
حزب التأخير ، بمال فلان الغني وجاء فلان الامير ، فان الحق يعلم ولا يملى
وان حزب الله هم الغالبون . اه

اكتفي بهذا هنا . ومن شاء ان يطالع على نموذج من الفتاوى التي كان يحيلها
الاستاذ الامام على مؤلف هذا الكتاب وبأذن له بنشرها في المنار فليراجع في ص ٥٧٤
من مجلد المنار السابع تلك الاسئلة التي وردت عليه من (الهند) وهي ستة اهمها
حكم قبول الوظائف من حكومه الهند والحكم بقوانينها واجوبتنا عنها .

المقصد السادس

من الفصل السادس

عمد في مجلس شورى القوانين

صدر الأمر العالي بتعيين الاستاذ الامام عضواً في مجلس شورى القوانين في ١٨ صفر سنة ١٣١٧ الموافق ٢٥ يونيو سنة ١٨٩٩ وبعد ثلاثة أيام حضر جلسة المجلس فقدمه الرئيس الى الاعضاء فنهوه بهذه العضوية مستبشرين، ولما لم يكن في المجلس شغل أجلت الجلسة الى أول أغسطس، وكان رئيس الجمعية عمر لطفي باشا، وهو أبغض الناس اليه بعد سلطان باشا لما علمه من خيانتهم لوطنهما كما تقدم فيما نقلناه من مذكراته (راجع ص ٢٣٣ و ٢٤٧ و ٢٤٩ و ٢٥٠) وقد قال لي يومئذ انه ليشق عليّ أن أحضر جلسات هذه الجمعية تحت رئاسة هذا الخائن لوطنه الجاني عليه، وأنا لا أستطيع أن أراه؟ فكيف أعمل في مجلس هو رئيس له؟ وتوجه الى الله أن يجعل له مخرجاً من هذه الخيرة أو المشكاة، فلم يلبث أن مات عمر باشا فجأة في ٩ ربيع الاول ١٧ يوليو، فما رأيته سرّاً بموت أحد سروره بموت هذا الرجل، لا لخيانته السابقة بل لانه كان يشق عليه أن يعمل في مجلس هو رئيس له ويضطر فيه الى مخاطبته، على ما كان عليه من الحلم وسمعة الصدر والعفو والصفح ولكن عن أسماء اليه لا إلى وطنه، كما سذكه في الكلام على أخلاقه، وفي هذه المسألة فاندتان إحداهما توجه الى العوام، والأخرى الى الخواص (الاولى) لو كان الاستاذ من الدجالين الذين يدعون الولاية لعهذه الحادثة أو لعهدها له من يعنون بهذه الأمور من كراماته، أو لقالوا انه تصرف بعمر باشا لطفي فقتله بالتوجه أو بالهمة أو بالدعاء، كما يقولون مثله فيمن يسمونهم الاولياء المتصرفين في الكون، ولو رويت هي أو مثله للدجال النبهاني الذي تصدى لجمع ألف كرامة لأولياء عصره - كما قيل لنا - وعزيت الى غير الاستاذ الامام من مشايخ

الطريق المعروفين، أو المجاذيب المجهولين، لكتبها وعدّها من أكبر الكرامات، ولكن الامام الحكيم المصلح المقاوم للخرافات، لا يمكن أن يكون عندهم من أهل الكرامات، بل لا يثقون بدينه وإيمانه، لأن الدين في نظرهم عدو للعقل والحكمة، وصاديق للخرافات غير المعقولة، وكيف لا وقد روى لهم بعض الوضّاعين أن نبي الرحمة صلوات الله وسلامه عليه دعا على غلام مريين يديه وهو يصلي فابتلاه الله تعالى بالكساح أو الفالج، وعاش عمرًا طويلاً وهو عبرة للناس ومعجزة بزعمهم للنبي (ص) ولم يستشكل الخرافيون من علمائهم من الرواية إلا أنها عقاب اغلام غير مكلف شرعاً، وانتحلوا لذلك أجوبة تدل على فساد عقولهم لا على جهلهم فقط لولا أن الدين عند هؤلاء حليف الخرافات لاستشكلوا هذا الحديث ببطلان منته، لو فرض أن المحدثين قالوا بصحة سندده، لأن الرسول الذي وصفه ربه وأمن به على قومه بقوله (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) وأمن عليه بقوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) ما كان ليدعو على غلام ولا على رجل كبير يمر بين يديه بأن ينتقم الله منه طول عمره، وقد ثبت في شمائله الصحيحة أنه ما كان ينتقم لنفسه، وأنه لم يأذن بعقاب اليهودية التي أطعمته وبعض أصحابه الشاة المسومة، وأنه قال في المشركين الذين قاتلوه وشجّوا رأسه وكسروا سنه « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » بعد هذا البيان أقول أنه يصح أن يكون موت عمر باشا لطفي فجأة في ذلك الوقت كرامة للاستاذ الامام، لا من باب التصرف المزعوم والانتقام بخوارق العادات، بل من باب توفيق أقدار لا أقدار، بما فيه الفرج والخروج أو الفائدة لبعض الاخيار، فيما عون لهم على نفع الناس

(الفائدة الثانية) المقصودة بالذات الاعتبار بوطنية الاستاذ الامام وأخلاقه، وبيانها أن أكبر عيوب كبراء أمتنا والخواص فيها، أن عيوب الوجهاء عندهم مغفورة، فهما يفعل الامير أو الوزير أو المدير أو الغني من خيانة أو فسق أو ظلم فانه لا يجد في معاشريه ولا غيرهم من أهل عصره من يحتقره أو يهجره أو يتجهّم له لأجل ذلك أو ينكر عليه فعله بالكتابة، بل لا يجد أحداً يقصر في تعظيمه وتكرمه.

هذه جريدة المؤيد الوطنية الاسلامية التي هي أجدر جراند مصر بمعرفة تاريخ
 وقتها ورجال وطنها قد قالت عقب ذكر موت هذا الرجل الخائن الذي كان من مهدي
 احتلال الانكليز للاسكندرية بل طلبه بالفعل: انه كان «في كل وظيفة وعمل معروفا
 بالجد والاجتهاد والحزم والنشاط، وقد اشتهر بالصلاح والتقوى ومكارم الاخلاق»
 فانظر الفرق العظيم بين الشيخ محمد عبده والشيخ علي يوسف في الشعور
 الوطني والاخلاق، قلما يوجد أحد في مصر يغمص الشيخ عالياً في وطنيته، أو
 يصفه بجهل تاريخ مصر وسيرة رجالها في عصره، لكنه قد جرى على ما تعود
 الكتاب وغيرهم من مداانة الوجهاء. في حياتهم او اولي قرباهم بعد مماتهم
 فلو كان أهل العلم والوجاهة وحملة الاقلام في مصر على منهاج الشيخ محمد عبده
 في دينه أو وطنيته — ولا أقول مثله في ذلك أو في درجته — لما استطاع عمر
 لطفي باشا ومحمد سلطان باشا أن يعيشا بعد الاحتلال الانكليزي عزيزين مكرمين
 نعم انه قد حدث أخيراً في مصر ضرب من الانتقاد على الكبراء والوجهاء
 في الصحف ولكنه مفسد للوطنية والاخلاق، لاسباب لها، فإن أكثر أصحاب
 الجرائد والكتاتيب فيها يتبعون في ذلك الهوى، ويستبيحون هناك الاعراض
 واذاعة الفواحش، وهم لا خلاف أهوائهم لا ينسلم من أقلامهم أحد، فالذي لا يعرف
 الناس باختباره لم لا يمكنه ان يعرف من الجرائد حقيقة حالهم
 وأما سيرة الاستاذ الامام في هذا المجالس فقد قالت فيها من ترجمته في
 المنار ما نصه :

عمله في مجالس الشورى

في سنة ١٣١٧ هـ ١٨٩٩ م عين عضواً دائماً في مجالس الشورى فانتقل المجلس
 به من حال إلى حال . كانت الحكومة قلما تحفل برأي المجالس، وكان المجلس
 في نظر الامة وفي نظر أعضائه الوكلاء عنها غير مضطلع بما أوجد لأجله، حتى ان
 جلساته كانت قلما تلتزم على أصول نظامه بحضور جميع أعضائه أو معظمهم. فلما
 خله نفخت فيه روح جديدة زال بها سوء التفاهم بينه وبين الحكومة، فصارت

تجمل برأيه وتحمله من الاعتبار ما لم تكن تحمله ، فتأخذ برأيه فيما يمكن الاخذ به وتبين له سبب عدم أخذها بما لم تأخذ به ، وقوي رجاء أعضائه في خدمتهم وانتظم عقد اجتماعهم ، وعظمت ثقة الامة بهم ، وكان أكثر ما ترسله الحكومة إلى المجلس لينظر فيه يؤلف له لجنة تحت رئاسة الفقيه ، لتدقق النظر فيه وتعرض رأيها على المجلس . وكان له رحمه الله الرأي العالي والصوت المسموع ، في كل مسألة وكل مشروع ، فكنت تراه في المسائل المالية حاسبا اقتصاديا ، وفي المسائل الادارية اداريا ماهرا ، وفي اللوائح والقوانين قانونيا خبيراً ، وفي الامور الشرعية اماما فقيها ، وكان المجلس يعهد اليه مذاكرة الحكومة في الشؤون العظيمة ليكون الحد الاوسط في شكل القياس فتخرج به النتيجة صحيحة في خدمة البلاد

وقد كادت أعمال هذا المجلس تغال معظم وقته فكنت أنا لم من ذلك لاعتقادي ان وقته آمن من أن يتفق في خدمة المجلس ، فلا أكاد أجد فرصة إلا وأرغب اليه فيها بالتخفيف والاقلال من الاشتغال بعمل المجلس ، حتى قلت له مرة ان الحكومة المصرية يشبه ان تكون أعمالها وقوانينها مؤقتة ، فهي عرضة للتغير ، فرب عمل تنفق فيه أياما طويلة لتقره الحكومة على ما ترى انه أنفع للبلاد ، لا تلبث هي بعد ان تقره ان ترجع عنه بعد زمن قصير أو طويل ، ويوشك ان تنفق في تحقيق بعض الامور أياما كثيرة ثم لا يتيسر اقناع الحكومة به . او تقتنع بانه نافع ويمنعها مانع من العمل به ، ولو صرفت مثل هذه الاوقات في الكتابة والتأليف لكان ما كتبت هداية لهذه الامة باقية مابقيت الامة . فقال : إن الغرض الاول من العمل في المجلس هو التعاون مع الاعضاء على الجهد والاهتمام بالبحث في الامور العامة ومصالح البلاد ، وتربية الرأي العام في الامة ليكون ذلك اعداداً لنفوس طائفة منا للفصل في الاحكام بالشورى (اي الحكومة النيابية التي بث فكرتها استاذة الافغانى) فاذا ارتقت هذه الملكة في الهيئة الحاضرة للمجلس فانها تنتقل منها إلى الهيئة التي تخلفها ويكون ذلك جرثومة من جراثيم الاصلاح في البلاد . فقامت من هذا الجواب انه لا يترك مذهبه في الاصلاح من طريقة التربية العملية في عمل من أعماله ، وسيأتي ذكر مذهبه هذا في محله . اهـ

وهاك ما قاله صديقه وزميله في المجلس حسن باشا عبد الرزاق في تأييده في حفلة ذكرى مرور أربعين يوماً على وفاته مصداقاً لهذا مع تلطف مع العبارة :

« اختارت الحكومة الاستاذ رحمه الله عليه - عضواً في المجلس وتعين بأمره »

في ٢٥ يونيو سنة ١٨٩٩ وأول جلسة حضرها كانت يوم الخميس ٢٩ منه وكان إذ ذاك بين أهل الحل والعقد في الحكومة وبين رجال الشورى شيء أشبه بالخلاف في الرأي أدى إلى أن الحكومة نفذت كثيراً من المشروعات التي كان المجلس يرى الخير للامة في عدم العمل بها ، وصرفت النظر أيضاً عن كل أوجه التعديل في المشروعات التي كان يرى أن الصلاح والنفع للامة في تعديلها ، فلما جاء الاستاذ إلى المجلس ونظر في الامر نظرة الحكيم البصير وعرف ان ليس هناك ما يدعو إلى هذا الانفراج ، وانما هو سوء التفاهم باعد ما بين المشارب على تقاربها ، سعى رحمه الله في أن يزيل أسباب هذا الخلاف فكان ما أراد ، وعرفت الحكومة ان المجلس انما يطلب ما فيه السعادة للامة ويبتغي الخير لها ، وان ليس له غرض في مصادمة آراء الحكومة ومطالبها مادامت تتفق مع مقصده ، وعلم المجلس أيضاً ان الحكومة لا تنصد إلى شيء وراء ما يقصده مصلحة البلاد . وبذلك اتفقت الكلمة في الغالب ولم يعد بين الهيئة الحاكمة والهيئة النيابية من الخلاف ما يتعسر حله :

« كان الاستاذ رحمه الله عليه واسطة العقد في مجلس الشورى فالتفت حوله القلوب ، وعرف الكل مكانته من قوة الحجة وسداد الرأي وطهارة النية ، وكان اخوانه من رجال الشورى يلجؤون اليه اذا اشتبه الامر وخفي الصواب ، فينطق بالحكمة وفصل الخطاب ، وكان مع هذا أسرع الناس قبولاً إلى الحق ، وأوسعهم له صدرًا ، فاذا سمت إليه الحق هشت له نفسه ، وقرت به عينه ، ولم يصرفه عنه تمسك برأيي ولا تعصب لمشرب »

« وكثيراً ما كنا نباحثه في أمر اختلف النظر فيه بيننا وبينه فيرجع إلينا ويوافق رأيهم رأينا ، ولم نر مثله في احترام الآراء مادام مصدرها شريعاً لم يشبه الغرض »

« ولقد كنا نختلف معه في رأي ويجاهر كل منا برأيه ويدعو إليه اعتقاداً منه انه الحق ، ولا نزال بعد ذلك أخلص الناس سرّاً ، وأصفاهم ودّاً »

«كان رحمه الله يتألم كثيراً لما عليه المحاكم الشرعية الآن من عدم كفاءة العمال وخلل النظام في الاعمال، ونزارة رواتب القضاة والوظائف وقلة العناية بشؤونهما حتى في محال مراكزها التي لا تليق أن تكون مستقرّاً لاصدار أحكام الشرع الشريف. وكان منذ تقلد وظيفة افتاء الديار المصرية لا يزال يلفت نظر الحكومة ويلح عليها بتلافي هذا النقص، فعمدت اليه أن ينظر في الامر ويبين لها كل ما في نظام المحاكم الشرعية من العلل وما يلزم لاصلاحه، فقام بالامر خير قيام، وطاف لذلك كل المحاكم في الوجهين القبلي والبحري، ودقق البحث في أحوالها وأعمالها وقد أودع ذلك في تقرير بين فيه بالتفصيل حقيقة الداء وما يجب له من الدواء وقدمه للحكومة. وهاهو لا يزال في محفوظاتها كما ان صداه لا يزال يقرع الاسماع إلى الآن

«وكان الشهور باحتياج المحاكم الشرعية إلى الاصلاح قد امتلأت به نفوس أعضاء الشورى أيضاً وانتشر بين أعضاء الجمعية العمومية حال انمقادها، فجاهرت به وطلبت من الحكومة، وأحيل هذا الطلب على مجلس الشورى لبحثه، وهو أحاله على اللجنة التي كان يرأسها الفقيد رحمه الله، وفوض لها مخابرة الحكومة فيما ترى لزومه، وبسبب أن بحثه وقررت مآرائه فيه عرضته على المجلس وهو أقره أيضاً، فانتهز الفقيد واخوانه أعضاء المجلس هذه الفرصة وأظهر للحكومة بأقوى حجة وأوضح دلائل ان الضرورة قاضية باصلاح المحاكم الشرعية وجعلها في مصاف المصالح الاولى للحكومة، فقتنعت بما تقدم من البراهين، وشكلت لجنتين تحت رياسته، الاولى مركبة من نخبة أفاضل العلماء، وكلفتها بجمع ما يلزم لعمل القضاة من الاحكام الشرعية. والثانية مؤلفة من أكابر رجال العلم والعمل أيضاً، وكلفتها بوضع مشروع لمدرسة القضاء الشرعي وجعل نظامها كافياً كافلاً لايجاد العمال الاكفاء، فكان رحمه الله مع ما فيه من شدة ألم المرض يواصل العمل في ليله ونهاره حتى أتمه وقدمه إلى الحكومة قبيل قيامه إلى الاسكندرية ببضعة أيام (١) والله يعلم ماسيؤول اليه بعده أمر هذا المشروع الخطير

«كان رحمه الله واسع الاطلاع ، نير البصيرة ، في كل ضرب من ضروب
الاصلاح ، فاذا عرضت المشروعات القانونية كان بها خبيراً بصيراً ، واذا قدمت
اللائح الادارية لم يكن أقل من أهلها علماً بدقائقها وأسرارها ، واحاطة بمنافعها
ومضارها ، واذا جاءت المسائل المالية رأيته ماهراً بأساليب الحساب ، عارفاً
بفنون الاقتصاد ، فكنا نجد منه في سائر الابواب علماً جماً ، ومعرفة وفهماً ، ورأياً
صائباً ، وذهناً ثاقباً ، ولم يزل هكذا يعمل وهكذا يجاهد حتى غجرت قواه عن
العمل ، وحال بينه وبين مراده الاجل .

« نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْزِلَ حَظَّهُ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَأَنْ يُوَافِقَ أَدَارَ الْكَرَامَةِ، وَأَنْ يَمُوضِ
الْإِمَامَةَ وَالْإِسْلَامَ فِيهِ خَيْرًا أَمَّا

كتمني بهذا الاجمال من عمله في مجلس الشورى ففقيه ما ينبغي من بيان خطته
الاصلاحية ، وخدمته الوطنية ، وأنا لم أكن أعني بالوقوف على تفصيل أعماله في
تلك اللجان التي كان يتولى رئاستها ، وبكون رأيه هم الفاصل فيها . ومن ذا الذي
كان يظن ان هذا الامام الناسك لواءه ، والمصلح القانت العابد ، يحيط بدقائق
الاصلاح المالي والاداري في البلاد ، وقد نسي الناس ان أول شيء فيه صاحب
الدولة رياض باشا لم يفتداه ، ولاه لأجل الحاجة اليه . ثم روي انه تحرير الجزية
لولاية . . . أيام كان سلاسل الارهر . . . هم كتيبه مقالة في قانون تصفية ديون
العموم مقروجه الحاجة اليه كانت فصل الخطاب كما بيناه في عملة (راجع ص ١٢٧)

المقصد السابع

من الفصل السادس

عمله في الجمعية الخيرية الاسلامية

نبدأ هذا المقصد بما نشرناه بشأنه في ترجمته من المنار مع زيادة شيء من العبارة في تاريخها ، ونقفي عليه بعبارة صديقه وزميله في إدارة الجمعية وكيلها حسن باشا عاصم ، ثم نبين مقاصده الاصلاحية فيها بشيء من التفصيل بما ننقله عن المنار من الكلام على احتفالات مدارس الجمعية وما كان ينشره فيها من درر الحكم ، ونوايع الكلم ، في تربية الامم ، فنقول :

جاء في ص ٤٨٩ من مجلد المنار الثامن تحت هذا العنوان مانصه :
يوجد في كل قطر من بلاد المسلمين أفراد تفرقت فيهم الفضائل الكثيرة التي هي مناط حياة الامم ولكن يعوزهم شيء للحياة الاجتماعية في هذا العصر هو أهم شيء وعليه يتوقف كل شيء وهو التعاون على الخدمة العامة والاعمال المشتركة . وانك لا تكاد ترى في قطر إسلامي جمعيات ولا شركات ناجحة يرجى خيرها للامة إلا ما بدأ به مسلمو الهند ومصر في ظل الحرية الانكليزية ، ولا يزال كثيره في مهد الطفولية ، ولم تنجح في مصر جمعية من الجمعيات الكثيرة التي ألفت فيها بأسماء مختلفة لمقاصد مختلفة مثل نجاح الجمعية الخيرية الاسلامية ، ولم تصادف جمعية منها ما صادفته هذه الجمعية من الصدمات ، التي يعز فيهما الصبر والثبات ، وكان الفضل الاول في ثباتها ونجاحها للاستاذ الامام أحسن الله جزاءه

أنشئت الجمعية للتعاون على تربية أولاد الفقراء والمساكين من المسلمين وإعانة العاجزين منهم عن الكسب على شقاء الحياة ، فاتهمها أعداء البشر بالسياسة ، وسعوا بها إلى ذوي النفوذ والسلطة ، ولولا سعيه في الدفاع عنها وإقناع أهل الحل والعقد بأنها خيرية محضة ليس من موضوعها ولا مما تقصد اليه شيء سياسي أو

مري اعفت رسومها . ثم انه خدمها بنفسه وبالتعاون مع أصفياه المؤسسين لها معه كوكيلها وأعضاء ادارتها لهذا العهد خدمة جليلة ، حتى ارتقت عن طور الطفولة وصار ثباتها مضمونا بحول الله وقوته . ومما انفرد به في خدمتها دعوة الامراء والوجهاء والاعنياء إلى الاشتراك فيها ومساعدتها وتحصيله منهم قيم الاشتراك إذا قضت الحال بذلك

أسست الجمعية سنة ١٣١٠ وفي سنة ١٣١٨ انتخب رئيساً لها فزاد اجتهاده في خدمتها وكان من ارتقاؤها في زمن رياسته ان صار إيرادها في السنة الماضية ١٠٣٩٥ جنيتها وكان في سنة (١٣١٧) ٤٤٣٠ جنيتها وصارت أطيانها ٥٣٣ فدانا وكانت قبيل ذلك ٢٨٠ فدانا وصارت مدارسها سبعا وكانت أربما . على انه كان يرى أن الفائدة الاولى المقصودة بالذات من الجمعية هي تمويد المسلمين الاجتماع للخير والتعاون على البر والخدمة العامة وإتمار قلوب الاعنياء عاطفة الرحمة والاحسان بالفقراء كما كان يصرح بذلك في الاجتماع العام السنوي كل عام فهو فيها عامل بمذهبه في تربية الامة كما كان شأنه في غيرها جزاء الله عن هذه الامة أفضل الجزاء

هذا ما كتبه في ترجمة المنار المختصرة ، وأزيد هنا لاجل العبرة التاريخية بحال هذه الجمعية مسالتين من ضعف المسلمين في هذا العصر هما سبب تأليفها ، وبعض ما لقيه من العقبات وهو ما اشرت اليه في ترجمة المنار

(الاولى) ان السبب الاول لانشاء هذه الجمعية أن مشعوذاً روسياً (هو ما يسمى هنا بالحاوي) جاء مصر وأربح منها بألعابه الغريبة أوقافاً كثيرة من الجنهات فخصص دخل آخر ليلة منها لاعانة فقراء البلد كما هي عادته في كل بلد ، وكان يعطي ذلك في بلاد روسية وأوربة وغيرهما من الاقمار للجمعيات الخيرية ، لهذا أعطى دخل ليلة في مصر لمحافظة العاصمة (ابراهيم رشدي باشا) ليوصله إلى جمعيتها الخيرية لاسلامية . فلم يشأ المحافظ أن يوزعه على الفقراء ، بل استشار فيه بعض كبار العقلاء ، فذكروهم ذلك بأن من أكبر العار على مسلمي مصر أن ليس فيها جمعية خيرية لمواساة فقراء المسلمين وإعانتهم على معيشتهم وتربية أولادهم . مع العلم بأن لجميع طوائف

النصارى واليهود المقيمين في هذه البلاد جمعيات خيرية ، فوضعوا نظام تأليف (الجمعية الخيرية الاسلامية) وجعلوا ذلك المبلغ الذي وهبه المشعوذ الروسي رأس مال لها وأظنه زيد على ألف جنيه ، وقرروا أيضا أن تقيم الجمعية احتفالا في حديقة الازبكية يوجد فيه أنواع اللوز المباح والشعوذة ويكون دخولها للتفرج برقاع تباع بالدراهم لاعانة الجمعية

وكان الاستاذ الامام وحسن باشا عاصم وسعد باشا زغلول وأحمد حشمت باشا ودرويش بك السيد احمد رحمهم الله أجمعين قد وضعوا في نظام الجمعية مادة كانت هي الكافالة لنجاحها المالي واستمرارها ، وهي ان نصف الدخل السنوي للجمعية يضاف إلى رأس المال لاجل الاستقلال ، والنصف الآخر يكون أكثره لتعليم أولاد الفقراء وتربيتهم وأقله لاعانة من تثبت عند الجمعية حاجتهم . وسبب هذا ضعف ثقتهم بأهل البلاد أن يمددوا الجمعية بالاشتراك السنوي على قلته وكان حسن باشا أضعفهم ثقة بالناس ، كما بينت ذلك في ترجمته ، وكان هو الواضع لمشروع نظام الجمعية ثم أقره المؤسسون بعد البحث فيه ، جريا على العادة في مثل هذا ، وكان من دلائل إصابتهم في إساءة الظن أن كثيراً من خيار المشتركين ومن أعضاء مجلس إدارة الجمعية أيضا كانوا يعطون في دفع الاشتراك السنوي ، بل يمنعون منه ، حتى ان الاستاذ الامام الرئيس أمر بأسماء بعض أصدقائه منهم فحيت من دفتر المشتركين وقد كنت مرة مع الامام الرئيس والوكيل حسن باشا في إدارة الجمعية (بقبة الغوري) وجرى هذا البحث فقلت لها : إنه لولا هذه المادة التي وضعتوها في النظام الاساسي للجمعية لما ثبتت هذه الجمعية ونمت بما تبذلان من الجهود في العمل لها ، أو لكانت حياتها مرتبطة بحيادكما

وقد اقتسما العمل فيها شق الابلية للشيخ الرئيس كان هو الذي يسعى لاعانة الكبراء لها ويدافع عنها ماتها جملة من الاشرار ، وهو الذي بث روح الدين والتربية الاسلامية في مدارسها ، وكان ينفخ من روحه الاصلاحية في أعضاء إدارتها وجمعيتها العامة كما أراد فيما يأتي والباشا الوكيل هو المدير للمدارس والقائم بالإدارة وحفظ النظام كما بينته في ترجمته من مجلد المسار العاشر

(المبرة الثانية) ان أعداء أنفسهم وملتهم ودينهم ووطنهم قد كادوا لهذه الجمعية وسعوا لدى سلطة الاحتلال لاجل إبطالها فافهموها بأنها تساعد مهدي السودان بالمال وقدموا في ذلك مستندات مختومة بختم الجمعية منور فافضى ذلك إلى تفتيش ادارة الجمعية وكان الاستاذ الامام غانبا عن مصر ولما حضر أفنع لورد كرومر نفسه بأن باطن الجمعية كظاهاها ، ليس فيها أدنى شائبة للسياسة وانه مستعد لحمل كل تبعة تثبت من خلاف ذلك ، وما كان أحد يتجرأ غيره على ذلك . وآل الامر إلى أن صار لورد كرومر يدفع إعانة للجمعية في كل سنة ، فهذا ما أشرت اليه في عبارة الترجمة

(كلمة وكيل الجمعية حسن باشا عاصم في تأيينه له في حفلة الاربعين)

(من ص ٢٤٣ من ج التاريخ الثالث)

« كان رحمه الله يعتقد انه لا يرجى خير لأمة الا اذا دبت في أفرادها روح الاعتماد على النفس بعد التوكل على مسبب الاسباب ، وعلى التعاون على خدمة العامة - الامر الذي لا يتأتى إلا بالترية والتعليم . ولما كان رحمه الله يرى نفسه مخلوقة آتية الامة وتعليمها فقد كان من المؤسسين للجمعية الخيرية الاسلامية في سنة ١٣١٠ هجرية وله من العمل فيها ما يجعله في مقدمة أعضائها ، فانه كان يحض الامراء والعظماء والسراة على الاشتراك فيها ويحصل قيم الاشتراكات بنفسه اذا اقتضت الحال ذلك ، ويعمل كل ما في جهده لارتقائها واتساع نطاقها وكان يرى ان الفائدة الكبرى من هذه الجمعية هي تعويد المسلمين على الاجتماع لاجل التعاون وإتباع قلوب الاغنياء عاطفة الرحمة والاحسان على الفقراء كما كان يدورح بذلك في الاستفول السنوي من كل عام . وله فوق ذلك كله خدمة جليلة في الجمعية ماذك أن ذوي الغايات وشوا بالجمعية عند أولي الحل والعقد لدرجة كادت تقضي عليها لو لا انه دافع عنها حتى أزال سوء الظن فيها ، وحلت محلها الثقة الزامة بها . وقد برأس عليها من سنة ١٣١٨ اغاية وفاته رحمه الله

أما نجاح الجمعية في عهد رياسته لها فيظهر من المقابلة الآتية :

سنة ١٣٢٢	سنة ١٣١٧	الاراد
١٠٣٩٥	٤٤٣٠	جنهبا
٧	٤	عدد المدارس
٧٦٦	٣١١	عدد التلاميذ
٥٣٣	٢٨٠	عدد الاطيان التي تمتلكها الجمعية

هذه هي حياة المرحوم الشيخ محمد عبده ، وقفها على خدمة دينه ووطنه وأمه ، فطيب الله ثراه ، واجزه عنا أفضل ما جازيت به ناصحاً في دينه ، آميناً على مصلحة قومه ، ووفقنا الله لاقتفاء أثره في هذه الحياة . انك سميع مجيب الدعوات يا رب العالمين . آمين

الإصلاح الديني والاجتماعي

(الذي كان يبثه في الجمعية ، وشواهد في احتفال مدارسها السنوية)

(الاحتفال الاول بامتحان مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية)

(منقول من ص ٢٩٤ من المجلد الثالث من المنار الصادر في ١١ ربيع الاول سنة ١٣١٨)

احتفل في اصيل يوم الجمعة الماضي في قبة الغوري الاحتفال الاول بامتحان تلامذة مدرسة مصر القاهرة لهذه الجمعية النافعة تحت رئاسة فضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد عبده افندي مفتي الديار المصرية ، وأحد أركان مؤسسي الجمعية وأعضائها العاملين . وقد حضر الاحتفال سعادة الفاضل الهام ماهر باشا محافظ مصر ، وكثيرون من العلماء والوجهاء . وافتتح الاحتفال بقراءة آيات من الكتاب العزيز قرأها أحد التلامذة بصوت رخيم ، وتجويد وترييل ، انشروحت له الصدور . ثم قام رئيس الاحتفال فشكر الحاضرين عنايتهم بالجمعية وتنشيطها بالسعي لحضور احتفالها ، ورؤية نمرة أعمالها

ثم بين أن الغرض الاول من تأسيس الجمعية : تربية أولاد الفقراء من يتامى وغيرهم تربية يحافظون فيها على عقائدهم وآداب دينهم وأخلاقه وأعماله ، ويستعينون بها على معاشهم ، وتحصيل أرزاقهم ، ومن عساه يوجد في مدارس الجمعية من أولاد الاغنياء... فوجوده غير مقصود بالذات . قال : وإن الامتحان الذي يعرض أمام حضرتكم اليوم هو مطابق لهذا الغرض ومبني على هذا الاصل ، ولهذا لا تسمعون فيه ذكر لغة أجنبية ، ولقد كان من رأي بعض الاعضاء المؤسسين أن تعلم في مدارس الجمعية اللغات الاجنبية لاجل الترغيب في الاقبال عليها ، وقد كان الجواب عن هذا الرأي انه ليس الغرض من مدارس الجمعية التجارة فترغب الناس فيها بما ليس من موضوعها ، وإنما الغرض تربية أولاد الفقراء فلو أمكننا أن نلقتهم من الشوارع ثم نرضي أوليائهم لفعلنا

لم تنشأ الجمعية لمقصد أعلى من هذا في مدارسها ، كأخذ الشهادات والاستعداد للوظائف ، بل من أهم مقاصدها ان تنزع من النفوس اعتقاد ان التعليم لا فائدة فيه الا لاستخدام في الحكومة ، وهذا الفكر كان مستولياً على الامة ، ونحمد الله أن كثيراً من الناس قد انتبه لما في هذا الفكر من الخطأ والضرر . والجمعية توطن نفوس التلامذة في مدارسها على أن يعمل الواحد منهم عمل أبيه باتقان ، ويميش مع الناس بالامانة والاستقامة : فولد النجار يكون نجاراً ، وولد الحداد يكون حداداً ، وولد الفراش يكون فراشاً . والتربية والتعليم يساعدان كلا على إتقان عمله وصناعته ، فيكون أكثر كسباً لانه أكثر إتقاناً للعمل مع الامانة والاستقامة ، ولا شك ان الانسان إذا ظفر بفراش كاتب مهذب يزيد في أجره ، ويطول عنده مكثه . ومن كان فيه استعداد لشيء أعلى مما كان عليه آباؤه وظهر عليه ذلك فانه ينبعث اليه من نفسه والجمعية تساعد عليه ، وقد حصل هذا لبعض التلامذة . والجمعية مهتمة بانشاء قسم صناعي في مدارسها لانه من مقاصدها الاصلية

هذا الاحتفال بامتحان تلامذة مدارس الجمعية لم يكن بمواطاة ، ولا كان تركه في الماضي إلى هذه السنة - وهي الخامسة من سني المدارس - عن قصد ، وإنما هو شيء جاء من نفسه واقتضته طبيعة العمل ، فمثل الجمعية فيه كمثل الطفل

الذي تظهر فيه بعد خمس سنين ثمرة العلم . وقد ظهرت الرغبة فيه قبلا من أعضاء الجمعية على ثقتهم بحسن النتيجة لما فيه من ظهور ثمرة العمل التي يسر بها العامل ، وتكون مدعاة لمساعدة إخوانه الآخرين له ، ومسررة من لم يستطع المساعدة ، فان كل مسلم يسره أن يرى إخوانه المسلمين موقنين للأعمال النافعة للامة التي لا يستطيعها هو . وهذا هو السبب في دعوة حضرتكم إلى هذا الاحتفال ، وشكرنا لكم حسن الاجابة والقبول اهـ ملخصا

امتحان تلاميذ المدرسة

ثم وقف أحد الاطفال فسأله أحد المعلمين أولا : عن وجه حاجة البشر الى ارسال الرسل . فأجاب بأحسن جواب — أجاب بملخص ما هو مذكور في كتاب « رسالة التوحيد » التي لم يؤلف مثلها في بيان حقيقة الاسلام ، فصفق له النادي تصفيق استحسان ، وأعطاه فضيلة الاستاذ الرئيس جائزة مالية . ثم وقف آخر فقرأ نبذة من كتاب (الدروس الحكيمة) واختار الاستاذ مما قرأه جملة أمره بكتابتها وإعرابها وهي « وبلغ بهم هذا الحب المتبادل الى حد من ثقة بعضهم ببعض ان كان أحدهم — ثقة بإخوانه — لا ياتي أمرا إلا بمشورتهم » فأحسن إعرابها الا انه توقف بكلمات ثم فطن لها من السؤال ، فبدل هذا على انه إعراب عن فهمه لا عن حفظ ألفاظ واصطلاحات وعلمت انه كان في نية المعلمين أن يلقوا عليه الإعراب قوله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم) الآية لما فيها من المناسبة لمقام

(١) ذكرني هذا مجاورا في الازهر يطلب العلم فيه من ٢٩ سنة وحضر جميع الكتب العالية وقد أمره فضيلة مفتي الديار المصرية من أيام أن يعرب جملة في غاية الوضوح فاخطأ في البديهيات . العبارة فيما أذكر « ولما كان الفضاء هو المقصود ... قدمه مقدمة للأصل » الخ فقال (لما) حذيفة . و (كان) فعل ماض (الفضاء) فاعل و (هو) ضمير فصل (والمقصود) فاعل الخ واشتبه في كلمة (مقدمة) فقال مرة انها فعل ولكنه لم يعين نوعه فسأله الاستاذ هل هو معرب ام معني فقال بكل فعل معني . ثم أنكر انها فعل فقال انها اسم لكنه لم يعرف ما هو ، ثم أنكر كونها اما كما أنكر من قبل كونها فعلا أو حرفا الخ !! فما هذا العلم ؟

ثم وقف آخر وأقيت عليه مسألة حسابية فخلها قولاً وكتابة، ثم آخر فستل عن مسألة هندسية فاحسن الجواب، وكان موضوع المسئلة بناء حوض صفته كيت وكيت، ثم طلب منه أن يرسمه بحسب الوصف فرسمه رسماً حسناً. ثم وقف آخر وطلب منه أن يرسم قارة آسيا ففعل، وسئل فيها بمض المسائل فاجاب، ثم وقف آخر صغير جداً يظهر انه في السنة الاولى، وان عمره لا يتجاوز خمس سنين، وقرأ في كتاب التعليم قصة المراتين اللتين اختصمتا إلى داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام في الولد المتنازع فيه فاحسن القراءة، وسئل أن يحل المعنى بالكلام البلدي فحله حل الحاذق الفهم، ثم اعتذر بصغره وقصره وانه لولا ذلك لاجاد الكلام وآتى بما يجب به الحاضرون فكانت الوجوه تتدفق سروراً وتللاً بشراً لكلامه وبراعته، وأخذ الجائزة المالية من فضيلة الرئيس وصفق له النادي كما صفق لآخوانه من قبله. ثم قام آخرون تلا الخطاب الآتي، ألقاه إلقاء خطيب متمرن يعطي كل جملة حقها من الاشارات وهو:

« غير خاف ان الانسان محتاج بطبعه في هذه الحياة الدنيا إلى الاجتماع يبني جنسه على هيئة يكون بها التعاون والتعاقد ليحصل بهذا الاجتماع على ما تقوم به حياته من الغذاء واللباس والسكن والدفاع ويتم ما أراد الله به من العمران » ولهذا الاجتماع العمراني علوم وفنون جمعة ولدتها الحاجات وحققتها التجارب حتى صارت حقائق ثابتة يتوقف على معرفتها تمتع أفراد المجتمع الانساني بالراحة التامة والرفاهية الكاملة، وعلى قدر التمسك بهذه العلوم والفنون والعمل بمقتضاها تكون سعادة الامة وغناها، وبمقدار اهمالها والتقاعد عنها يكون ثقاء الامة وعناؤها، ومن قارن بين الامة الغربية والشرقية في هذا العصر تحققت قلنا واعتبره مسباراً يسبر به غور الامة، فتى وجد امة ينمو بين أفرادها حب التربية والتعليم حتى يمتزج ذلك بدمائهم، ويرسخ في نفوسهم، ويصير أسمى مطالب وأنفس ما رُب عندهم، يتيقن انها سائرة إلى مجد شامخ، وشرف باذخ، لا بد وان تبلغه يوماً ما، ومتى وجد امة على الضد من ذلك جزم بانها هاوية إلى البوار، ومتقهقرة إلى الدمار. «واننا نحمد الله حيث نرى ان أمتنا المصرية قد نهضت نهضة سريعة في

الميل إلى الترية والتعليم . واتجهت لذلك أنظارهم ، وتسابقت اليه همهم . فبدلوا في هذا السبيل أنفُسَ الفئاس ، وأسسوا كثيراً من المدارس . حتى صار هذا التقدم في الحال ، مما يبشر بحسن الاستقبال .

«وكان الباعث الاول لهذه النهضة الوطنية . تأسيس هذه الجمعية الخيرية الاسلامية ، وغرسها أطيب المغارس ، بإنشائها هاتيك المدارس . لتربية أبناء الفقراء ، واليتامى الذين ليس لهم أولياء ، مع مواساة من أخنى عليهم الزمان . من بيوت كانت من المجد بمكان ، فما ظهر هذا المشروع المحمود ، من العدم إلى حيز الوجود ، إلا وتلقته أيدي النفوس الزكية بالارتياح ، حيث كان افضل عمل يوصل إلى النجاح والفلاح

«كان تأسيس هذا العمل المبرور ، والفعل الحميد المشكور ، بهمة نخبة أصفياء من العلماء والوجهاء في سنة ١٣١٠ هـ ليلية الموافق سنة ٩٢ شمسية . مؤيداً بالعناية الالهية . ومعززاً بالرعاية الخديوية الصبامية . حيث أساءه البر والتقوى ، وغايته الترقى في معارج السعادة إلى الدرجة النضوى

«وفي مبدأ الامر لم يبلغ عدد الاعضاء المؤسسين له سوى اثنين وعشرين . وما زالت سراة الامة تحنو بالاشفاق عليه ، وتتجاذب نفوسهم اليه ، حتى بلغ عدد الاعضاء العاملين والمشاركين ، ما يزيد عن الستمائة والثمانين ، ولما كان روح النجاح في الاعمال ، هو ملازمة الثبات لبلوغ الآمال ، قد وفق الله الاعضاء العاملين للتمسك بمجبل العزم المتين والاعتصام بروابط الاتحاد ، والدأب على ما فيه الصالح بكل جد واجتهاد ، حتى تم في زمن غير مديد ، كثير من العمل المفيد ، «فأول عمل ينبغي ان يذكر فيذكر ، ويشهر بين العاملين وينشر ، انشاء هذه المدارس الاربع ، الزاهرة في أسيوط وطنطا والاسكندرية والقاهرة رحمة بأبناء الفقراء وانتياشاً لهم من وهدة الشقاء ، وتمهيداً بالتربية الحميدة ، وتثقيف عقولهم بالعلوم المفيدة ، حتى يشبوا على حب العمل ، والاعتماد على الله ثم على النفس في بلوغ الامل . فينتفعون وينتفع بهم ، ولا يكونون عالة على غيرهم ، وقد ائمر والله الحمد هذا الغرس ، وطابت منه كل نفس ، فبلغ متوسط عدد تلامذة هذه المدارس الاربع ٣٥٠

تلميذاً وعدد النابغين منهم منذ الانشاء إلى سنة ١٣١٦ هجرية ثمانين تلميذاً الآن
التحق منهم بقسم الصنائع ٤٣ تلميذاً على نفقة الجمعية وانتظم الباقون في اعمال
أخرى تحسنت بسببها حالتهم الميشية وكلهم من أبناء الفقراء المعوزين.

«واني أيها السادة الكرام، والعلماء الاعلام ممن شملتهم هذه التعطفات الرحمانية
وغرتهم نعمة التعليم في مدرسة مصر من مدارس هذه الجمعية ، وأوصلني الحظ
الجميل، إلى وقوفي هذا الموقف الجليل ، بين يدي الحاضرين من العلماء والفضلاء،
والاعيان والوجهاء ، وهو موقف كان يصعب على مثلي أن يقفه، وان يتلفظ فيه
ببنت شفة فله الحمد والمنة ، على جليل هذه النعمة

« ومن أعمال الجمعية المشكورة ، وآثارها الجليلة المبرورة ، مد يد المساعدة
بالبر والاحسان، لبيوت تقلبت بها صروف الحداث فأصبحت بعد العسر في يسر،
وصارت بعد الشقاء في هناء ، وهذا لعمرك الحق احساس شريف، ومقصد سام منيف
يقوي دعائم الفضيلة، ويشيد أركان الخلال الجميلة، ويرغب النفوس في حب السخاء،
وتوثيق عرى الاخاء.

« هذا — ولما رأى رجال الجمعية ان التربية قسمان علمية وعملية، بدأت بالاولى
تكون كاساس وطبد ، صالح لان يرفع عليه خير بناء مشيد ، وعزمت على ان
تردفا بالانية بقدر الاستطاعة ، فتنشئ قسماً عملياً لما تمس الحاجة اليه من فنون
الصناعة، لتتم الفائدة للنابعين من التلامذة، ويتيسر لهم بهذه التربية الكاملة ، التي
تمت بها قواهم الماقلة والعاملة، ان يعيشوا عيشة راضية ، حائزين في هذه الشركة
الاجتماعية حظوظاً وافية . حقق الله آماني جميعتنا الاسلامية، وأعانها على تميم هذه
المساعي الخيرية ، وجعلها نموذج كمال ينسج على منواله ، وتسابق الهمم السامية
إلى الحذو على مثاله، حتى نرى الوطن العزيز رافلا في حلال البهاء ، بآثار نبل هذه
الايادي البيضاء ، وفق الله الامة للسداد ، ويسر لها أسباب السعادة والاسعاد.
وأبدها بالتعاقد والالتزام ، حتى يبشر المبدأ بحسن الختام

آمين آمين لأرضى بواحدة حتى أبانها آلاف آمينا اه

وقد طلبنا هذا الخطاب ونشرناه لما فيه من الفائدة المتعلقة بتاريخ الجمعية وثمرتها

ثم صعد مرقى الاحتفال ثلة من التلامذة وحنوا نشيداً جليلاً يتضمن شكر الله تعالى وشكر مؤسسي الجمعية ومساعدتها والدعاء للحضرة الخديوية العباسية التي جعلتها تحت رعايتها وأمدتها بالرغد والمساعدة، ثم ختم الاحتفال كما افتتح بتلاوة القرآن الكريم، وشكر رئيسه للحاضرين. فانفض الجمع منشرحاً صدورهم بهذا النجاح الباهر لاسيما بما رأوا من الهدوء والسكينة والنظام التي هي من آثار كمال التربية والتهديب

(احتفال مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية (الثاني) بمصر)

(منقول عن صفحة ٣٤٧ من المجلد الرابع من المنار الصادر في ١٦ ربيع الاول سنة ١٣١٩)

احتفل بامتحان تلامذة مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية في مصر في مساء يوم الجمعة الماضي احتفالاً شائقاً، رأسه فضيلة لامة ذاكبر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ورئيس، الجمعية وحضره كثيرون من العلماء والوجهاء. وافتتح الاحتفال بتلاوة أحد التلاميذ آيات من القرآن الكريم بالتجويد والترتيل، ثم أنشد طائفة من التلامذة انشودة نوهوا فيها بفضل رجال الجمعية ورحبوا بالحاضرين وختموها بالدعاء لمولانا السلطان وللجناب العالي الخديوي. ثم وقف تلميذ وتلا خطبة وجيزة بين فيها الغرض من التربية والتعليم في مدارس هذه الجمعية، وهو تكميل النفس والاستعداد للدخول في مضمار المعيشة وتفضيل الصناعة والحرف على غيرها، وتوجيه النفس لترقية كل تلميذ صناعة والده وحرفته بما يكتسبه من العلم الذي كان والده محروماً منه — ومعلوم ان جميع هؤلاء التلاميذ من أولاد الفقراء المحترفين تعلمهم الجمعية وتربيتهم على نفقتها.

ثم وقف تلميذ آخر فأعطى كتاب « الدروس الحكيمية » ففتحه وقرأ منه نبذة جاءت أمامه بالعرض من الدرس الذي يبين حاجة البشر إلى الدين، قرأ فاحسن القراءة وبين معانيها على وجه الصواب، فناقشه الاسناذ الرئيس في الفهم، وسأله عن معنى الآية التي افتتح بها الدرس فأحسن في الاجابة والتفسير، حتى انه

فسر ما لم يذكر في الكتاب من تنمة الآية الكريمة .
 ثم تكلم تلميذ آخر في حكم فريضة الزكاة وفوائدها للمزكي وللفقراء وللأيتام
 الاجتماعية، ومن ذلك أنها العلاج الواقى من داء الفوضى والاشتراك، وختم كلامه
 بقوله « لا فوضوية في الاسلام » فصفق له الحاضرون كما صفقوا لمن قبله ولمن بعده
 ثم امتحن تلميذ آخر باعراب جملة فيها تقدير دقيق ناجاد في الاعراب، وأنبا
 عن فهم يحالف الصواب، وامتحن آخرون في الحساب وفي الجغرافية والرسم
 حيث رسم أحدهم خارطة أوربا وبين ممالكها وعواصمها . وسأله الاستاذ الرئيس
 هل خطر لك أن تسافر إلى عاصمة من هذه العواصم؟ فقال: نعم تمنيت أن أزور باريس،
 فسأله ان يبين خطة السفر من القاهرة إلى باريس فيبينها أحسن بيان . وعرض بعض
 التلامذة على الحاضرين نموذجات من خطوطهم ورسومهم، وهي في غاية الاتقان
 والجودة . وخطب آخرون من التلامذة في بيان فوائد التربية والتعليم وفوائد الجمعيات
 الخيرية . ثم ختم الامتحان كما بدى بترتيل أحد التلامذة آيات من الكتاب العزيز

(خطاب الاستاذ في مقاصد الجمعية الصحيحة في مدارسها)

(وفساد تعليم مدارس الحكومة)

وبعد هذا وقف مولانا الاستاذ رئيس الجمعية وشكر الحاضرين عنايتهم بحضور
 الاحتفال بامتحان أولاد الفقراء ومشاهدة أثر تربيتهم، ثم تكلم في بيان غرض
 الجمعية من تربية هؤلاء الاطفال الفقراء وهو تهذيب نفوسهم ومساعدة كل
 واحد منهم على احياء صناعة والده وترقيتها، إلا ان يرى نفسه مستعداً لصناعة أعلى
 منها وأرقى، وذكّر ان الجمعية تساعد بالمال من يتخرج من مدارسها ويشغل بصناعة
 والده مدة سنة، وانها تعلم التلامذة بانهم لو اديهم أولاء ثم الأقربين ثم الامة،
 وتعلمهم احترام آبائهم وأمهاتهم، وتنزع من نفوسهم الميل إلى وظائف الحكومة .
 وههنا انتقل الاستاذ لبيان مفاصل التربية في سائر المدارس وحال الذين يتعلمون
 فيها وفي أوربا، وكيف يكون الانسان بعد التعليم مشغولاً بالاماني الباطلة التي

لا تدرك ، محترماً لو الديه وأهله والناس ، يقضي معظم أوقاته في الملاهي ومعاهد البطالة واللغو في الغالب .

ثم بين وجه حاجة الامة إلى تربية الطبقات الدنيا وانها لا ترتقي ولا تسعد إلا بذلك لانهم هم الذين يقومون بمعظم الشؤون وأكثر الحرف التي لا يستغني عنها الخواص ولا يهنأ لهم عيش ما دام أصحابها فاسدي التربية فاقدي الآداب . وقال : ان جرائم الخير التي تلقىها مدارس الجمعية في نفوس التلامذة لا بد ان تنمو وتغلب جرائم الشر التي أصيدوا بها من البيت (الوسط) التي يعيدشون فيها لان الحق دائماً يغلب الباطل ، والخير يصرع الشر ، إلا اذا اضمحل أنصار الحق ودعاة الخير وضاعوا في كثرة الاشرار ، قال : وربما ينازعني بعض السامعين في هذه القاعدة مستدلاً باستحواذ الشرور على الناس : وأكتفي بان أجيب هؤلاء بكلمة واحدة وهي انتوني بعشرة من دعاة الخير في القوم الذين تحكمون بفسادهم ، وتغلب جرائم الشر فيهم على جرائم الخير .

ثم ختم خطابه بتوزيع الجوائز على مجيئه التلامذة مبيناً ان لها مصدرين أحدهما ان اللجنة التي تألفت لايجاد أثر بخلد ذكر الرحوم علي باشا مبارك لخدمته الماعرف ، كانت ارتأت ان تقيم له تمثالا في نظارة الماعرف ، ثم رجعت عن هذا الرأي لان معظم الامة المصرية يعد التماثيل اهانة لا نكرىما ، ويسمون التماثيل « الصورة المسخوطة » أي المسوخة . وترجيح اللجنة ان تعطي هذه الدراهم للجمعية الخيرية تستغلها وتجعل غلتها في كل سنة جوائز للنابعين من تلامذة مدارس الجمعية الخيرية ، بشرط ان يؤلف أحد أعضاء الجمعية كتابا في تاريخ علي باشا وما أثره يوزع مع الجوائز أيضاً ويكون هذا أحسن ذكرى وأثر . قال : وقد تأخر تأليف هذا الكتاب في هذه السنة فرأينا من التعجيل بان نوزع الجوائز ، وفي العام القابل يوزع الكتاب إن شاء الله تعالى ، وهذا ما أصاب مدرسة القاهرة من هذه الجائزة يعطى لأنبع التلامذة في العربية . وأما المصدر الثاني فهو ان الاستاذ الشيخ عبيد الرحيم الدمرداش تبرع بعشرة جنيهات للجمعية شكراً لله تعالى على شفائه من مرض ألم به وجعلها دائمة في كل سنة . ثم انفض الجمع وخرج القوم مسرورين بما شاهدوه من النجاة والنجاح الذي كان فوق ما يؤملون .

(الاحتفال السنوي الثالث بمدرسة الجمعية الخيرية وخطبة الفتى)

(منقول عن ص ٢٧٣ من المجلد الخامس من المنار الصادر في غرة ربيع
الآخر سنة ١٣٢٠)

في أصيل يوم الجمعة ٢١ ربيع الاول احتفل في قبة الغوري الاحتفال السنوي
للمتاد بمدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية في القاهرة ، وقد أجاب دعوة رئيس
الجمعية الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية الجهم الفقير من الفضلاء
والوجهاء فحضروا الاحتفال

ابتداً أحد التلاميذ بترتيل آيات من سورة الفتح ، ثم ارتقى تلميذ آخر
الدكة التي يجتهدون عليها ، فأعطى كتاباً ففتحها وقرأ فيه جملة صالحة قراءة
صحيحة ، فسأله الرئيس بيان معناها فينبه . ثم اختبر آخرون بالاعراب وبالحساب
وبرسم خريطة أفريقية ، وبالتاريخ الطبيعي ككيفية الدورة الدموية ، وقرأ بعضهم
مقالات محفوظة في فوائد الصوم وفوائد التربية وغير ذلك ، فأحسنوا جميعاً وصفق
لهم النادي مرات متعددة . وأنكر الاستاذ الشنيطي التصفيق على القوم انه بدعة
قتركة بعضهم ، وأصر عليه الاكثرون لان بعضهم يراه من العادات المباحة التي
اقربن بها تنشيط التلامذة وإدخال السرور على قلوبهم ، وبعضهم لم يصل اليه الانكار
وكان الرئيس كما دأبه يناقش كل تلميذ فيما يقول ، ويطلب منه التعبير عما
قاله حفظاً بمباراة عرفية . ثم وزع الجوائز وهي على ما ذكرنا في السنة الماضية قسمان
(أحدهما) ربيع المال الذي جمع لاقامة تذكاري لابي باشا مبارك لخدمته المعارف في مصر
(والثانية) تبرع الاستاذ الشيخ عبد الرحيم الدمرداش ، فهذا وزع على نفر من
الناجحين في المدرسة . وأما الاول فاستقر الرأي على أن يشتري به كل عام كتب
نافعة تعطى للتلميذين اللذين يفوقان سائر التلامذة ممن أتموا الدة بشرط أن
يشتغلا بعد المدرسة بتعلم صنعة من الصنائع ، وكذلك كان . وبعد ختم الاحتفال بترتيل
أحد التلاميذ آيات من الكتاب العزيز وقف رئيس الجمعية فشكر للحاضرين سعيهم
في الخير لمشاهدة أولاد الفقراء المتعلمين . ثم قال مامعناه ملخصاً :

خطاب الاستاذ الامام في التربية والتعلم

لا بد أن يكون بعض الحاضرين ممن يشتغلون بعلم التربية ينتقد علينا شيئاً أننا أوافقهم على انتقاده قبل أن أذكره وأجيب عنه: وهو أن يحفظ التلاميذ مقالات في الدين والآداب كالذي سمع منهم الآن فيها من الحكم والمعاني العالية ما لا ترتقي عقولهم إلى الإحاطة به، وما تعجز ألسنتهم عن بيانه بغير العبارة المحفوظة. أعيد القول بأن هذا الانتقاد صحيح، وأن حشو الأذهان بحفظ ما لا يفهم يفسدها ويذهب باستعداد العلم منها. ومدارس الجمعية تهتم بهذا الأمر، فنحن نؤكد دائماً على المعلمين أن لا يملئوا التلاميذ كلاماً لا يفهمونه والعمل على هذا، والتفتيش من وزانته لتحقيقه. وأما ما سمعتم فقد جاء من باب الاستثناء لغرض صحيح يوافقنا عليه المنتقدون. بادي الرأي. ذلك أن التلميذ يخرج من مدارسنا إلى العمل غالباً، ولا ثقة لنا بأنه يسمع في خطب الساجد ولا في دروسها شيئاً من حكم الدين وأسراره التي تبعث النفوس على العمل بأحكامه كالذي سمعتم من حكم الصوم. وكذلك لا نرجو أن يجد معهداً من معاهد العلم يسمع فيه شيئاً من مباحث التربية وعلم الاجتماع والآداب العالية بالاولى، فرأينا أن نحفظ كل تلميذ بعض مقالات في هذه المقاصد يجتهد في إفهامه معانيها بالجملة كما تقتضيه سنه، ويوكل الفهم التفصيلي إلى حوادث الزمان، وارتقاء الفكر فيها، فهذه المحفوظات القليلة المفيدة ذخراً للتلميذ في مستقبله وهي كبذرة وضعت في أرض صالحة يتعاهدها الزمان بالسقي والتغذية حتى تثمر الثمرة الصالحة إن شاء الله تعالى.

إذا أجلتم النظر في أحوال المسلمين ترون أن ترك تعليم الدين على هذا الوجه من بيان فوائده وحكمه وغرسها في النفوس (وهو الفقه الحقيقي في الدين) قد أدى إلى تركه من بعض المسلمين، والالتيان به على غير وجهه من بعض آخر. ولنضرب المثل بفريضة الزكاة التي حفظ تلاميذنا مقالة في فوائدها في العام الماضي كما يذكر من حضر احتفاله، وفريضة الصوم التي سمعتم فوائدها وهي التي تلي الزكاة في الترتيب الزكاة ركن من أركان الإسلام وبذل المال في إقامة هذا الركن يفضل غيره من أنواع البذل، ولذلك قرنت الزكاة بالصلاة في القرآن في أكثر المواضع، وقد

جمل الله إنفاق المال في سبيله آية الايمان . وجمل تركه علامة النفاق والكفران،
وقاتل الخليفة الاول بمواقفة الصحابة كلهم رضي الله عنهم ما نهي الزكاة ومع هذا كله
نرى المسلمين قد هدموا هذا الركن ونسوه حتى كأنه ليس من الدين بالمرّة.

وأطال الاستاذ الكلام في الزكاة وفي مضرة تركها . ثم انتقل الى الصوم وبين أن
بعض المسلمين تركوه وان الذين يصومون لا يؤدّون هذه الفريضة على الوجه الذي
أراده تعالى بقوله (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم اعدكم تتقون)
وأوضح هذا بذكر ما عليه الناس — ثم انتقل الى الكلام في تعليم مدارس الجمعية فقال:
ان مدارس الجمعية وضعت لتعليم أولاد الفقراء ما لا بد منه لكل انسان
وهو أن يحسن القراءة باقّة أتمته ويعرف ما يجب عليه من أحكام دينه، ويترنّى عليه عملاء،
والحساب والتاريخ وتقوم البلدان وطرفا من مبادئ التاريخ الطبيعي وحفظ الصحة
وأدب المعاشرة . ولا بد عندنا من تعليم هذه الاشياء على وجه مفهوم في مدة أربع سنين
وسن التلميذ لا يتجاوز الخمس عشرة سنة . وليس عندنا لغة أجنبية لاننا لا نعد
التلامذة للوظائف والشهادات، وإنما نعدهم للعمل بالحرف والصنائع، وما ذكرنا من
التعليم لا يستغني عنه صانع ولا زارع

قال: كنت أحب أن يكون هذا التعليم عاماً في البلاد، ومنبثاً في جميع الطبقات،
ثم يتسنى بعده لكل طبقة أن تتناول من العلوم والفنون واللغات في المدارس
الثانوية والعالية ما هي مستعدة له . ولكن المانع للمشتغلين بالتعليم والتعلم من
التوجه إلى سلوك هذه الطريقة أمران: أحدهما أن رغبة الناس منصرفة إلى جمل
التعليم ذريعة لأخذ الشهادة لأنها شرط للاستخدام في الحكومة . والسبب في
رغبة الناس في خدمة الحكومة هو أن الناس لعدم ثقهم بأنفسهم ولجهالهم بطرق
الكسب الواسعة، وضمف همهم عن سلوكها، يود كل واحد منهم أن يكون له مورد
من الرزق مضمون يعتمد عليه، وان كان وشلا آسناً فإذا استخدم بمائة وخمسين
غرساً ولو في أعلى الصعيد أو السودان ينم آتفاً ما يشاء، ويبقى هم الدنيا
وراء ظهره، إلا إذا تيسر له السعي في شفاعته تزد في راتبه، أو ينتقل بها الى
مكان غير مكانه، ولو استعمل مواهبه التي منحه الله إياها وكدح في طلب الرزق

من طرقه الواسعة ، لا سيما التجارة ، لجاز أن يكون من أهل اشراف الواسع
 - وشنع الخطيب ماشاء على أصحاب هذه النفوس الحاملة الصغيرة ، ثم انتقل
 الى بيان السبب الآخر في عدم التوجه إلى التعليم النافع فقال :
 أما ثاني السببين فداؤه اقل ، وعلاجه أعسر ، أندرون ماهو ؟ هو قلة المعلمين
 والمربين فاننا نحتاج في التعليم الابتدائي إلى من يبديء التلميذ في السنة الاولى
 (بألف با) فلا تنتهي السنة إلا وهو يقرأ ويكتب ويعرف ما ذكرناه آنفا وعرض
 عليكم نموذج ، والذين يحسنون هذا النوع من التعليم قليلون ، وقد عزمنا على
 تجديد مدرسة للجمعية ولكننا عند المذاكرة فيها كنا نشكو من قلة المعلمين ، اننا
 نحتاج معلما لحدى مدارسنا فنعان ذلك في الجرائد فيجيئنا الراغبون بالعثرات
 فمنتحنهم ونختار من نراه الامثل وإن لم يكن على حسب الرغبة تماما ، ثم يتهرن
 على طريقتنا في المدرسة مع طول التنبيه والتفتيش ، ومثل هؤلاء يجدر بنا أن
 نسميهم معلمي الضرورة

قال : ذكرت هذا لأوجه نفوس العلماء والوجهاء إلى تلافي هذا الخطب
 ومداواة هذه العلة التي هي أم العلل ، وذلك بانشاء مدرسة لتخريج المعلمين ، ولا بد
 في هذا من سعي العلماء ومساعدة الاغنياء ، ثم شكر للحاضرين سعيهم فانصرفوا شاكرين
 (أقول) كتبت هذا بعد أيام من الاحتفال في إثر انحراف في الصحة فان
 نقصت من فوائد الخطاب في غير الفوائد الاصلية وإن زدت فرما كان كلة في
 معنى الكلام تزيد في إيضاحه

— مدرسة الجمعية الخيرية في المحلة الكبرى —

(الاحتمال بافتتاحها والغرض من تعليمها)

(منقول عن ص ٦٧٣ من المجلد السابع من المنار الصادر في غرة رمضان سنة ١٣٢٢)
 ذكرنا في الجزء الخامس من هذه السنة خبر الاحتفال بتأسيس هذه المدرسة
 وقد تم والله الحمد بناؤها وأهلت بالتلاميذ ، وانتظمت عقود الدروس فيها واحتفل
 بافتتاحها رسمياً أول أمس بحضور رئيس الجمعية الاستاذ الامام و ابراهيم بك

المطابوي من أعضاء مجلس ادارتها ومنشئ، هذه المجلة من أعضاء الجمعية وحضور وجهاء المحلة وعمال الحكومة فيها وبدي، الاحتفال بتلاوة أحد التلاميذ لآيات من الكتاب العزيز، ثم وقف الرئيس فبسم الله تعالى وصلى وسلم على رسوله وشكر الحاضرين عنايتهم بحضور الاحتفال الدالة على رغبتهم في نشر العلم ومساعدة الجمعية الخيرية على عملها وذكر الغرض من هذا التعليم الابتدائي فقال ماخلاصته :

خطابه في الغرض من التعليم الابتدائي

المدرسة تعلم المبتدئين القراءة والخط والحساب ومبادئ العربية، وتربيتهم على الاعمال الدينية والادبية، تقدم بذلك للعيشة الصالحة في أنفسهم ومع الناس الذين يعيشون معهم، وهذه المبادئ لا يستغني عنها انسان فقير آكان أو غنياً، فالفلاح يحتاج إلى مكتابة بعض الناس فاذا كتب بيده أو قرأ ما يكتب اليه وحسب ما يبيعه ويشتره بنفسه فهو خير له من الاستعانة بغيره على ذلك، ولهذا التعليم فائدة أعلى من الاستعانة على المعيشة وهي ارتقاء العقل واستعداده لفهم المصلحة وتمييزها من المفسدة، فاننا نرى كثيراً من الناس يقع تنازع بينهم فيعتدي بعضهم على بعض حتى تفنى ثروة الفريقين في التنازع وإذا حاولت اقناعهم بان هذا ضار وأن الخير والصواب في خلافه، لا يسهل عليك ذلك لانهم لا يفهمون .

وأهم ما تقصده الجمعية من التربية في مدارسها تنشئة المتعلمين على الفضائل كالصدق والامانة اللذين عليهما مدار السعادة، ما نبجحت أمة إلا بهما، ولا هلكت إلا بفقداهما، وقد حث الاسلام وجميع الاديان على هذين الخلقين، ونهى عن الكذب والخيانة أشد النهي واننا مع ذلك نرى الكذب والخيانة فاشين في الناس إلى حد سلبت معه ثقة الناس بعضهم ببعض، وقد اشته مؤذن بالخراب والدمار . هذا التعاليم سلم يرتقي عليه الغني إلى التعليم العالي ويجعل الفقير على مقربة من الغني في الفكر والخلق، فاما أن يجد فيلحقه، واما أن يحسن الاستفادة منه بخدمته ومساعدته في أعماله بالصدق والامانة، فهذا التعليم لا يستغني عنه أحد حتى الحمار والجمال

وتعلم المدرسة أيضاً مبادئ العلوم ولغة أجنبية لاعداد من يريد خدمة

الحكومة لها ، وهذا مالا ترغب فيه الجمعية نفسها لكونه من حاجة الناس وانما رغبتهم في الاستعانة به على تعلم الصناعة لمن يريدونها (١) ولها الرجا بهمة وجهاء المحلة وأهل الغيرة من أغنيائها في تأسيس قسم صناعي في هذه المدرسة فان المحلة بلدة كانت معروفة بالصناعة وقد وعد صاحب السعادة احمد باشا المنشاوي بانه مسدد لمساعدة الجمعية على إنشاء القسم الصناعي فلم يبق إلا اهتمام الوجهاء الحاضرين بالاكتتاب في جميع المركز وجمع المال الذي يمكن من أمام العمل .

وقال قد علمت بان أهل المحلة الكبرى ثلاثون ألفاً أو يزيدون وهي قاعدة مركز عدده كثير وليس فيها إلا مدرسة للقبط وأخرى للامريكان وانني قد رأيت في بعض سياحاتي في البلاد الاجنبية مدينة عدد سكانها ستة عشر ألف نسمة ، وقد أنشأ الاهالي فيها مدرسة كلية تعلم فيها جميع العلوم العالية بمساعدة أهل المركز الذي هي قاعدته ، أنفقوا عليها كذا من ملايين الفرنكات (نسبت العدد) على أن فيها عدة مدارس ابتدائية وفي كل قرية من قرى ذلك المركز مدرسة ابتدائية فترجو ان نبالغ من مجازاة أمثال هؤلاء الاحياء أن ترتقي مدرستنا هذه ويكون فيها قسم صناعي ، وأن يكون لنا في القاهرة مدرسة كلية فن القطر المصري كله لم يبلغ من التقدم في العلم ان كانت فيه مدرسة كلية تعلم فيها العلوم العالية

(خطبة صاحب المنار في مدرسة المحلة الكبرى)

ثم دعي كاتب هذه السطور الى أن يخاطب فيهم فليوقم فقال بمدا لافتح بذكر الله : رغبتم اني في الكلام ، بمدا مستحسن من حكم الاساذ الامام ، وإن مثل الذي يمرض ما عنده من ذلك في حضرة الاساذ اذا هو أحسن كمثل ذلك الوزير المعجمي في الاستاذة اذا كانت له منحة من جملة الجواهر والمنطق بها فوق رايه يتراعى أمام الناس ويفتخره ، فليأخذ من ذلك فمر بعض وذر الله ويقل

(٢) انما سمح الاساذ الامام بتعليم لغة العربية في مدرسة المحلة دون غيرها لانهم مدرسة انماؤها اغنياؤها لانها اولادهم من الامم الى القاهرة او غيرها للتعليم فهي ليست منشأة لتعليم اولاد المنراة وحدهم كسائر مدارس الجمعية

انه الامير مصطفى فاضل باشا المصري بان يدعو الى داره ويريه ما يصغر منطقته في عينه، فدعاه الى المشاء والسمر فرأى من الآنية والماعون والآثاث المرصعة بالجواهر ما خطف بصره حتى قيل انه رأى الشباشب (كلة مصرية مفرد لها شبشب وهو الكوس او القفس في العربية) وسيور الققباب في المرحاض مرصعة بالجواهر فسار بعد ذاك يخفي منطقته تحت كسانه - ولكننا نقول شيئاً تلبية للطلب

جرت العادة بأن يكون الكلام في مقام الاحتفال بافتتاح مدرسة محصوراً في مدح العلم والتعليم، على أن العلم غني عن المدح باتفاق الناس على فضله، فلا يوجد جاهل يشكر شرف العلم وشدة الحاجة اليه ولكن الناس في أمتنا كانوا يعقدون أن العلم محصور في أمور مخصوصة يكفي أن يقوم بها بعض الناس فيسقط الطلب عن الآخرين، وكان يصعب إقناع الجمهور بوجود تميم العلم وبانه يحتاج اليه في كل شيء، ولكن قد تغيرت الآن الاحوال في هذه البلاد، وصرنا نرى جميع طبقات الناس حتى الطهارة (الطبائخين) يقذفون أولادهم ذكراً وإناثاً في المدارس لاحساسهم بان التعليم لا بد منه، ولكن هذا الاحساس عند الاكثرين منهم لا يعرفون حقيقة ولا سببه ولا فائدة التعليم الحقيقية . والسبب الحقيقي فيه التأثير بحال الاجانب الذين انتشروا في هذه البلاد، فهو سبب من الخارج لا من النفس، وهذه البلاد الآن في طور الانقلاب من حال إلى حال، إذ حدثت فيها مجاز جديدة للحياة أو تيارات تحرف في طريقها الناس من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون، ومنها تيار تميم التعليم، فالناس يرغبون في تعليم اولادهم وهم لا يدرون ماذا تعلمون ولا ماهي فائدة التعليم، ولذلك لا يميزون بين مدرسة وأخرى

وقد سألت بعض المعلمين التعليم الثاني في المدرسة الخديوية عن رأي التلاميذ في فائدة التعليم مع العلم بأن أعمال الحكومة لا تفي بجميع المعلمين؟ فقال انهم يرون ان المعلم يقدر على أعمال شريفة يستغني بها لا يقدر عليها غيره . فقلت له ان الذي يتعلم ليمدح بعلمه لا غرض له إلا نفسه فهو محترف كالصانع والزارع، وقد رأينا كثيراً من العوام حصوا من الثروة بالزراعة والتجارة ما لم يقاربهم فيه متعلم

كزعزوع بك وفلان وفلان . والذين ارتقوا بالتعلم في مصر قليلون كفلان وفلان من القضاة وغيرهم ، ولم نجد فيهم من حصل بعلمه ثروة كبيرة كأولئك العامة ، فالتعليم في مصر لم يرتق الى درجة يسهل . منها تحصيل الثروة الواسعة به ، على ان نفقات المتعلمين تكون أكثر ، فاذا طلبوا الثروة ولم يجدوها كانوا أشقى من غيرهم في المعيشة . فقال هذا صحيح ،

ثم قلت له ألا يوجد في اخوانك المتعلمين من يفكر في التوصل بالعلم الى خدمة أمته وبلاده خدمة عامة فيكون أفضل من التجار والحداد والفلاح الذين لا يعملون إلا لاجل بطونهم ، وإن كان عملهم الجزئي نافعا للناس ؟ فقال يوجد قليل منهم يفكر في انشاء جريدة لخدمة الوطن . قات وماذا رأوا من خدمة الجرائد للناس ؟ أي شيء ضار كانت عليه الامة فتحوات عنه بإرشاد الجرائد ، وأي شيء نافع كانت منصرفه عنه فتوجهت اليه بمشها وترغيبها ؟ وهل تعرف أنت للجريدة الفلانية والجريدة الفلانية مذهباً ورأياً نافعاً تمتاز بالدعوة اليه لترقية البلاد ؟ فقال لا ، وكان قصارى الحديث معه أنه ليس لاحد غاية مقصودة من التعلم وراء خدمة الحكومة (أقول ويلحق بها الطب والحماية عند نفر قليل)

لهذا التعليم الناقص في مصر سيئات ومضار فان القتن والمعاصي الضارة التي ألت بالبلاد بواسطة الاجانب لم تنتشر فيها إلا بسعي هؤلاء المتعلمين ، وقد قال الاستاذ الامام ان من مقاصد المدارس إفادة المتعلمين الصدق والامانة فسلوه وسلوا غيره من العقلاء المحترمين ألهم ثقة بصدق أكثر المتعلمين وأمانتهم ؟ يجيبوك لا لا . والسبب في عدم إفادة التعليم أمثل هذه الصفات هو أن القائمين بأمر التعليم لا يقصدون ذلك فان الحكومة انما تقصد بمدارسها إيجاد خدم لها يقدرّون على أعمال مخصوصة ، وليس لها عناية بتربية الارواح وترقية الأمة ، هذا وان مدارس الحكومة خير المدارس وأرقاها تعلماً ونظاماً ، وأما المدارس الاهلية فالمقصود منها التجارة والكسب ، وأكثر أصحابها لا يعرفون طريق الجمع بين الافادة المطلوبة والاستفادة ، وقد دخلت مرة إحدى هذه المدارس وسألت أحد المدرسين عن الكتب التي يقرأها في الدين - والدين كما لا يخفى أساس التهذيب - فقال

انني كنت بدأت بقراءة شيء من السيرة النبوية وبمناسبة ذكر المعراج ذكرت لهم فرضية الصلاة وأردت أن أذكر شيئاً من أحكامها فرأيت على وجوه التلامذة ما يدل على عدم الارتياح فتركت درس الدين : يعني ان هؤلاء لا يعلمون الا ما ترواح اليه نفوس التلاميذ وتلذذ به ، أي يريدون أن يكون التلاميذ هم نظار المدارس ^(١) ولا نعرف في البلاد مدارس غرضها تهذيب النفوس غير مدارس الجمعية الخيرية ، وذلك ان رئيس هذه الجمعية ومساعديه في ادارتها هم خيرة رجال هذه البلاد معرفة وغيره ، وأتدبرم على إيجاد التعليم النافع والتربية الصحيحة ، ولا تنتج الامم الضعيفة أئثالهم إلا بعد محض الزمان لها في قرون طويلة ، فيجب أن تفتنم فرصة وجودهم بمساعدة الجمعية على نشر التعليم والتربية على الوجه الصحيح النافع فانه ما قصر بها إلا قلة المال . وقد أحسن وجهاء المحلة صنعا بتفويض أمر مدرستهم الى الجمعية ، وانني أدعو كل واحد من السامعين الى مساعدة هذه الجمعية بنفسه وبدعوة غيره الى ذلك ، فان الامور العامة لا تحيا وتبلغ كمالها إلا بالدعوة فيذبني لكل واحد أن يدعو نفسه وكل من يظن فيه الخير الى مساعدتها على قدر الاستطاعة من غير تفرقة بين غني وفقير فان الله تعالى يقول

﴿ لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ،

أي من كان رزقه واسعاً فلينفق كثيراً يليق بسعته ومن كان رزقه ضيقاً فلينفق بقدر حاله ، والقليل من الكثير كثير ، فلو أن كل واحد من اهالي القطر بذل للجمعية قرشاً واحداً في السنة لكان لها من ذلك ملايين تمكنها من تعميم التعليم في القطر وإيلاء كل من يبذل شيئاً للجمعية ولو قليلاً أنه شريك في الاجر وفي الشرف من بذل الكثير من حيث إن كل واحد بذل ما في وسعه ومن حيث إن العمل العام لم يعم ولا يقوم به واحد وانما يتم بالتعاون والمساعدة وبذل القليل ركن من أركان التعاون اه

(١) نشرنا في صفحة ٦٠٢ من مجلد المنار السادس مقالة عنوانها (المدارس المصرية لآلربي رجالاً مستقلين - رد على المقتطف) فليراجعها من شاء استيفاء هذا الموضوع

خطاب ابراهيم بك الهلباوي

نم دعي الي الخطابة ابراهيم بك الهلباوي فقام وذكر ملخص تاريخ هذه الجمعية وبين انها جمعية عمل لا جمعية قول، وانه أحسن من نفسه بالعجز عن الخطابة في احتفال مدرسة للجمعية على تمرنه على الخطابة . قال انني دخلت في هذه الجمعية في أول تأسيسها منذ اثنتي عشرة سنة ولم أخطب فيها قط، وقد عرضت مناسبات للخطابة فكنت استأذن مولانا الرئيس بالتلويح ووكيل الجمعية وبعض أعضاء الادارة بالتصريح، فكانوا يضعون اصابعهم على أفواههم اشارة الى وجوب السكوت، وقد قامت في هذه المدة جمعيات قولية كثيرة فذهب بها ودرس رسومها القول والخطابة، على انها لم تصادف من المقاومة مالقيت الجمعية الخيرية لاسلامية، وذكر اسماء هذه الجمعيات التي كانت محترمة في أوقات كان فيها ذكر الجمعية الخيرية مخيفا ومزدرى ، حتى كان الداعي الى مساعدتها لا يتوقع إلا الخيبة ، وحتى ان بعض الباشوات هدد محصلها مرة بالضرب بعد أن أهانه بالقول . وقد ثبت رجالها مع هذه الصدوبات على عملهم ليثبتوا للناس ان الساعي بالخير مع الصدق والاخلاص لا بد أن يظفر بالنجاح اذا هو ثبت وصبر وكذلك كانت ونالت هذه الجمعية الثقة في نفوس الناس بعدما تولى رئاستها مولانا الرئيس الحاضر ، حتى أحسن كثير من العقلاء بوجوب كفالتها للمدارس الاهلية التي ينشئها الاهالي ابرية أولادهم، وكان السابق لذلك وجهاء الدنيا فقد أنشأوا مدرسة في بني مزار وعهدوا بإدارتها الى الجمعية رجاء بقائها وثباتها والانتفاع بتعليمها وكذلك فعلتم باوجهاء أهل المحلة فانكم طابتم من الجمعية أن تدبر لكم هذه المدرسة التي أنشأتموها بأموالكم مثل ذلك الغرض بمحض الاحساس بالثقة بالجمعية اه . بعد أن أتم خطبة العيد ختم الاحتفال كما يدي . بتلاوة القرآن الكريم ، ولا صحة لما ذكر في المؤيد أمس من ان بعض المدعويين تصدوا للخطابة فمنعهم مأمور المركز الخ . فبني على وجهها . المحلة طيب الثناء، ونرجو لهم كل الارتقاء اه

خطته الإصلاحية في الجمعية ومدارسها

الذي يؤخذ من خطب الاستاذ الامام في هذه الاحتفالات المدرسية ومن خطبه في اجتماع جمعيتها العمومية السنوية وكان يكرر فيها أن الفائدة العامة الكبرى من هذا الاجتماع هو تجديد شعور الاعضاء بفائدة الاجتماع بقصد التعاون على خدمة الامة الخادمة النافعة فهذا الشعور هو الذي يبعث الهمم ودية ووي العزائم على النهوض والعمل المشترك للامة والامة الخ والذي يستفاد من حديثه معنا أيضا — وهو الذي أشربه وكيل مدارس الجمعية حسن باشا عاصم — هو ان الامة لا تتكون وتكون أمة واحدة في شعورها بحياتها المالية ومصالحها العامة وبحاجتها إلى التعاون على منافعها والدفاع عن حقيقتها في جميع طبقاتها بحيث تكون الطبقات في جسم الامة كالأعضاء في جسد الشخص ، إلا اذا كانت التربية والتعليم والاحداث موجهين إلى اصلاح النفس بالمقائد الصحيحة والاخلاق الكريمة والآداب الحسنة ، والقيام بحقوق الله وحقوق الوالدين والاقربين والعجيران فسائر الامة بحيث يكون مجرى الامة كالسلسلة يهتز بتحريكها جميع حلقاتها — ومصدقا للمثل النبوي القائل « مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتمامهم مثل الجسد اذا اشتكى له عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » رواه الامام احمد ومسلم من حديث النعمان بن بشير (رض) مرفوعا إلى النبي ﷺ في الجسد أعضاء ظاهرة وباطنة ذات وظائف مختلفة عمل كل منها لنفع الجميع وألمها يشعر به المجموع ، فالعينان لا تبصران لأجل منفعة خاصة بهما ، والعدة لا تهضم الطعام لأجل حفظ صحتها وحدها ، وكذلك الدماغ والقلب واليد والرجل . كذلك يجب أن تكون طبقات الامة تعمل عملها بالاتقان لمنفعة جميع الطبقات . ويكون ارتقاء كل طبقة وكلها في وظيفتها العملية ركنًا من أركان ارتقاء الامة وكلها الاجتماعي والسياسي ، فهي لا تكون أهلا للحكومة النيابية مضطمة بها إلا اذا كانت طبقاتها كلها تشعر بحاجاتها المالية والسياسية شعورًا واحدًا ، فتكون أهلا لاختيار نوابها والسيطرة عليهم . ونما وسيلة هذا التعليم الاستقلالي المؤهل للقيام بجميع مصالح

الامة والتربية الدينية المصلحة للانفس الموجهة لها الى الاصلاح الخاص والعام هذا هو الواجب في التربية والتعليم في رأي الاستاذ الامام ورأي كل حكيم، ولكن القائمين بأمر التربية والتعليم في مصر لا يفكرون في هذا ولا يقصدونه سواء في ذلك التعليم الديني في الازهر وملحقاته، والتعليم المدني في المدارس الاميرية والمدارس الاهلية المقلدة لها

فأما الازهر وملحقاته فليس فيها إلا تعليم تقليدي في شكاه وموضوعه وغايته لما جرى عليه آخر السابقين فيها يشبه ما يسميه علماء الطبيعة بحركة الاستمرار لجسم دفعه دافع فانتهدت حركة الدفع القوية له وبقيت حركة الاستمرار تضعف أنا بعد آن، وليس لرؤسائه قصد يوجهون التعليم اليه غير ما يقصده الافراد من نجاة مجاور من الخدمة العسكرية إلى تحصيل شهادة علمية يكون حاملها مدرسا في الازهر او قاضيا شرعياً يعيش كل منهما براتب الوظيفة ويجري فيها على ما جرى عليه من قبله، لا يخطر لاحد منهم ببال أن ينقذ أمته وملته من ضعة، أو يعود عليها بمنفعة. بحيث تغير بسميه ما بانفسها من جهل ورذائل وفساد ليغير الله ما بها من ضعف وظلم واستبداد.

وأما مدارس الحكومة والاهلية فليس فيها إلا تعليم تقليدي صوري في شكله وموضوعه للمدارس الاوربية، وغايته تخرج موظفين للحكومة في جميع وزاراتها ومصالحها يكونون كآلات الميكانيكية لادارة هذا العمل الكبير. وليس فيها شيء مما في المدارس الاوربية من تخرج رجال مستقلين في العلوم والفنون يرفعون قدر الامة بما يكشفون من أسرار الكون ومنافعها، وما يرقون من الصناعات فيها الخ كما انه ليس فيها أدنى فكرة في تهذيب الاخلاق ورفع شأن الفضيلة بالتربية الدينية وقد صار أمرها إلى الانكليز وكان المسيطر عليها أحاً. قسوس البروتستانت فكان جل همهم محو كل أثر اسلامي منها. وللأستاذ الامام لأنحة في اصلاح تعليم الازهر والمدارس بأنواعها في مصر نشرناه في الجزء الثاني من هذا التاريخ (ص ٥٣٣- ٥٥٢) ولأنحة في اصلاح التعليم الديني في بلاد الدولة العثمانية نشرناه (ص ٥٠٥ - ٥٢٢) ودرس عام في التعليم الاسلامي ألقاه في تونس ونشرناه في

صفحة ٧٧٥ و ٧٧٥ من مجلد المنار السادس

وبجانب هذين النوعين من معاهد التعليم مدارس دعاة النصرانية وهي التي لها مقاصد عامة في التعليم والتربية ووجهة إلى جذب التلاميذ إلى دينهم ومذاهبهم أو إلى الاتحاد المحض، وإلى نشر لغاتهم وغرس عظمتهم وثقافتهم في الانفس فجميع معاهد التعليم في مصر حرب للإسلام في عقائده وآدابه وسياسته وتشريعها بقصد وبغير قصد ونتيجة ذلك أنها حرب للإمامة مانعة من ترقيتها واستقلالها وحدثها فوجه الاستاذ الامام عزيمته إلى مقاومة هذا الفساد كله باصلاح التعليم الديني في الازهر وملحقاته وإلى جعل التعليم المدني في مدارس الجمعية الخيرية اسلامي الصبغة يقصد به اصلاح الطبقات الدنيا من الزراع والصناع وأصحاب المهن الحرة من واطئة وعالية، ورقية الصناعات الوطنية ومنع تعليم اللغات الاجنبية منها لكيلا تكون سبباً لجعل غاية التعليم خدمة الحكومة والجري على منهاجها المادي الفاسد المفسد للانفس، وسبباً لعظمة الاجانب في انقلوب والاندفاع لتقليد ما يروج تجارتهم ومصنوعاتهم ويحاولون إيجاد ما يغني عنها من مصنوعات البلاد. ولكن الجمعية قد تنكبت هذا الصراط المستقيم بعد وفاته ووفاته صنوه في الاصلاح حسن باشا عاصم (رحمهما الله) وصار التعليم فيها مادياً صورياً كتعليم المدارس الاميرية والاهلية، حتى ان البنات يملن الرقص ولا يربن على الصلاة بالعمل فأني خير يرجى للأمة من بنات لا يقمن الصلاة ولكنهن يتقن أنواع الرقص؟ الا ان هذا هو الذي يزيد البيوت (العائلات) فساداً. والامة ضعفاً واعتلالاً ولم يكن الاستاذ الامام راضياً من التربية والتعليم في مدارس الجمعية الذي بينا وصفه في خبر الاحتفالات السنوي لها. بل صرح في بعض خطبه بأنه لا يزال تعليم ضرورية، وكان يرى انه لا يبلغ كماله إلا بتخريج المعلمين الراقيين في علومهم الدينية والدينية وفي أخلاقهم، وان هذا لا يتم إلا باصلاح الازهر أو بانشاء الجمعية لمدرسة خاصة لتخريج المعلمين

وكذلك الكتب لم تكن تعجبه وقد عرضت عليه فكرة سنحت لي وهي تأليف كتب للتعليم الديني في درجاته الثلاث من العقائد والعبادات بأن تكون

كتب العقائد على صراط القرآن في الاستدلال بآيات الله في الانفس والآفاق، على الوجه الذي ترتقي فيه علومها في هذا الزمان، وأن تكون كتب العبادات منها مبتدأة في كل باب بمجمل ما ورد منها في القرآن الحكيم، ويتلوه جملة ماصح في السنة، وتذكر في الحواشي مدارك الأئمة، بترتيب سهل العبارة، فاعجبه هذا الرأي وقل لي أوجد هذه الكتب ونحن نقرر تدريسها في مدارس الجمعية الخيرية وقد كتب إلي من الاسكندرية في صيف سنة ١٩٠٢ في هذه المسألة ما نصه:

« رأيت حسن باشا وتذاكرنا في كتابي الفقه والعقائد فرأى رأيا لا يخلو من حسن وهو أن يكتب المجمع عليه في كل باب حتى في النجاسات ثم يكتب في حاشية الفصل من أسفل ما يهمل من اختلاف المذاهب كلها ليكون ذلك هاديا إلى فهم الوحدة في تلك الكثرة، فاذا سهل عليك ذلك فافعل. وأحب أن أراك يوم الاثنين الآتي في عين شمس قبل الظهر اذا تيسر لك ذلك والسلام »

وأقول ان مسألة وضع الخلاف في الحواشي كنت ذكرتها له. وأما مسألة بيان الاجماع فكان من خطتي الأساسية كما بينته في مقالات المصلح والمقلد والعلو لم أذكرها له، وأما مدارك الأئمة فهي عندي غير خلافاتهم الجزئية

نم كتب إلي بعد عودته الى مصر بأيام كتابا أرسله مع ساعي الازهر قال فيه « حسن باشا أرسل يسألني اليوم هل شرعت في العمل لتحرير كتابي العقائد والفقه، وأحب ان أجيبه فهل شرعت؟ وبودي أن يكون الجواب: نعم وأن يتم العمل في مدة قليلة »

وأقول أما العقائد فقد كنت شرعت في كتابة رسالتين أو كتابين فيهما أحدهما للمبتدئين والثاني لمن فقههم ولم أعلمها وأطلعته على الثاني فسر به، ونشرت نبذة منه في معنى صفة الحياة لله تعالى من تفسير آية الكرسي. وأما كتاب الفقه فارجأته لاجل مراجعة كتب المذاهب في الخلاف ولم يتسن لي ذلك وتوفاه الله تعالى ولم أحقق له والامة هذا الامل. ولا تزال هذه أمنيته وإن كثرت الصوارف عن إنجازها، وقد كثرت الشواغل عنها والله قادر على تيسيرها والامر لله العلي الكبير

رسم شمسي لذكره أرسلها حسن باشا عاصم وكيل الجمعية الخيرية الاسلامية

من الاسكندرية إلى الأستاذ الامام رئيس الجمعية بمصر بشأن تأليف

صاحب المنار كتابين في العقائد والعبادات ليدرسا في

مدارس الجمعية . وما كتبه الأستاذ الامام على المذكرة

كتاب العقائد والعبادات

عزى
ارحم الله تذكرا لشيخنا السيد باوعد الله معكم
٨ يوليو ١٩٠٩

يشتغل بهذا الكتاب
ادع بن السكينة في الترتيب المسجل
قد بين وضوحها بين ايديكم كذا في اول
الدراسة الثانية

المقصد الثامن

من الفصل السادس

عمد في جمعية أحياء الكتب العربية

قد كتبت في ترجمه المنار له في هذه المسألة مانصه :

كان رضي الله عنه يرى أن حياة الامة بدون حياة لغتها من المحل ، وان حياة العلوم العربية يمثل هذه الكتب الازهرية محال ، وان لا بد للاصلاح من إحياء كتب أمتنا وكبار علمائنا التي ألفت أيام كل العلم حيا في الامة ، فكان يسعى لذلك سعيه ، ويهديه وإسماعده طبعنا ذلك الكتابين الجليلين اللذين هم روح علم البلاغة - أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز - للشيخ عبدالقاهر الجرجاني مؤسس علوم البلاغة ولولا تصحيح الفقيه لها واستحضاره لنسخها من الاقطار النائية لما تيسر طبعهما . وفي سنة ١٣١٨ أسست في مصر جمعية خاصة لهذه الخدمة تحت رئاسته سميت (جمعية إحياء العلوم العربية) كانت قاتحة أعمالها طبع كتاب (المخصص) لابن سيده في اللغة وهو كتاب لا نظير له في باب ولا غناء عنه في إحياء اللغة في هذا العصر . وقد شرعت بعد طبعه في حياة مدونة الامام مالك وعني الفقيد رحمه الله تعالى باستحضار نسخها من تونس وفاس وغيرها من البلاد ، ولولاه لما تيسر جمعها كلها ، ولنا رجاء عظيم في بقاءها وحسن خدمتها بهمة من كان وكيلها وايس لرئاستها بعد الفقيد سواه الا وهو حسن باشا عاصم .

وقال حسن باشا عاصم في تأييده يوم ذكرى الاربعين مانصه :

عقب تقلده منصب الافتاء عين عضواً في مجلس شورى القوانين فكان المجلس على عهده من الخدمة النافعة والاحترام مالم يكن له من قبل ، فقد كان رحمه الله عامل التوفيق بين المجلس والحكومة وكان أهم غرض له من التعب الشديد في المجلس تعويد الامة على دقة البحث في أمورها وتربية الرأي العام

فيها ، ولا تنس من خدمته للعلوم الاسلاميه رئاسته لجمعية احياء العلوم العربيه
فقد أسست هذه الجمعية في سنة ١٣١٨ لاحياء كتب سلف هذه الامه وأفضل
علمائها، وكانت فاتحة أعمالها طبع كتاب المخصص لابن سبويه في اللغة وهو كتاب
لا نظير له في موضوعه. وقد تولى رحمه الله تصحيحه مع علامة اللغة المرحوم الشيخ
محمد محمود الشنقيطي وان الفضل في خدمة الشنقيطي لهذا الكتاب راجع الى
فقيدنا فانه لولاه لما أقام في هذه البلاد . وقد شرعت الجمعية بعد طبع المخصص
في احياء مدونة الامام مالك رضي الله عنه ، والفقيد من الخدمة في استحضار نسخها
من تونس وفاس وغيرهما من البلاد ما لولاه لم يكل لنا استنساخ الكتاب كله اه
هذا ما قاله زميله ووكيله في رئاسة هذه الجمعية وفي الجمعية الخيرية معا ، والذي قعد
بهما عن المضي في احياء كتب الائمة قلة المشتركين في الجمعية بالدرهم ، وقد حضرت
اجتماعا لهما في ادارة الجمعية الخيرية بقبة الغوري بعد عودة الاستاذ من ميت غمر
عقب توزيعه ما جمع لملكوبي الحريق فيها من الاعانات ، نقل حسن باشا له مما رجا
انني كنت في ايام هذا الصيف أصرف جميع اوقات الفراغ من الديوان في المكاتب
القديمة أبحث عن الكتب النفيسة ولا سيما تكميل نسخة المدونة القديمة ، التي عمرنا
على بعضها وانت تنقل متنزها في البلاد ، والجرائد تنسابق الى ذكر تنقلات فضيلة
الاستاذ ، قال الشيخ هذه هي العادة عندنا : الرئيس يكون قليل الشغل ويلقى اكبر
حملة على الوكيل !! قال الباشا لو اعطينا للجمعية هذه الالوف الجنيهات التي جمعتها
الاعانة اما كنا نخدم بها الامه بما هو انفع لها الف مرة من تمتع اهل ميت غمر بها ؟
ان الذين ماتوا بالحريق ذهبوا الى رحمة الله ، والباقيون من اهلهم ستظل معيشتهم
على ما كانت لا تغيرها هذه الاعانات . قال الشيخ انني انما اقصد عند حدوث
هذه المصائب الى تحريك شعور الرحمة في قلوب الناس وحملهم على مساعدة المنكوبين
بتعويدهم البذل في المنفع العامة ، ومتي تعودوه سهل عليهم في جميع وجوه الخير والبر
كجمعيتنا وغيرهما . فرحم الله هذين الرجلين المصلحين اللذين لم يوجد لهما مثل
في عصرنا ، ولا خلف يخلفهما وفقنا الله للاهتمام بهذا الامام في خدمة الامنة في كل
عمل وكل حال ، ولنا في تاريخه هذا خير مثل وأفضل منوال

الفصل السابع

في شؤون العامة وهو يدخل في بضع مقاصد

(١) تدريسه (٢) مؤلفاته (٣) دفاعه عن الاسلام (٤) اغائته للمتكويين في احداث الزمان (٥) أسفاره الى أوربة والاساتنة وسورية وتونس والجزائر وصقلية والسودان (٦) آراؤه وآماله وأمانيه (٧) شمائله وأخلاقه (٨) مذهبه في الاصلاح ومذهب السيد جمال الدين والظمن عليهما

المقصد الاول

من الفصل السابع

تدريسه

كانت طريقة الاستاذ الامام في التدريس مباينة للطريقة الازهرية التي كان ينتقدها أشد الانتقاد بأنها مناقشة في عبارات الكتب فقد صرنوا على قراءة كتب معينة كل كتاب منها ثلاثة أو أربعة من المؤلفين ، وإن شئت قلت كل كتاب منها في الصورة هو ثلاثة كتب أو أربعة في الحقيقة : المتن ، والشرح ، والhashية ، وقد يزداد عليها التقرير ، كل منها يفسر ما قبله ويذكر ما تحتمله عباراته من المعاني وما قد يرد عليها من الاعتراض ، وما يدفع الاعتراض من الاجوبة والاحتمالات التي تمد كثرتها آية النبوغ في التحقيق ، ولذلك كان يقول رحمه الله ان أهل الازهر يعلمون كتباً لا علماً .

وقد جاهدتم جهاداً كبيراً على ترك قراءة الحواشي ، وكان يكره قراءة الشروح أيضاً ويترى الفرص لتقايها أو ابطالها ، ولم يقرأه في عهد الاصلاح

الاخير في الازهر غير المتون، واما ما وضعه من التعليقات على كتاب البصائر النصيرية في المنطق فلم يكن يلتزم قراءتها في درسه وانما وضعها لتسهيل مطالعة الكتاب على طلبة الازهر لدقة عبارته على كونه لم يبر متناً متوسطاً خيراً منه .

وقد عمدنا المقصدين الاول والثاني من الفصل الرابع في تدريسه في الازهر بعد أخذه لشهادة العالمية وقبلها (راجع ص ١٣٣ - ١٣٧) وتدرسه في المدارس كدار العلوم ومدرسة اللغات. وأخبرني الذي كانوا يحضرون دروسه الاولى كسعد باشا زغلول وحفني بك ناصف ومحمد صالح باشا ان بيانه للمسائل كان في غاية الوضوح بحيث يفتقد من كان يحضر دروسه قراءة سائر المشايخ ويرغب عنها ولكن فاتني أن أسأله عن طريقته وأسلوبه في القراءة في الازهر ثم في دار العلوم وأظن أنهما عين ما عهدناه منه في الازهر أخيراً

وهو انه كان يقرأ عبارة من رسالة التوحيد والبصائر وأسرار البلاغة ودلائل الاعجاز ويبين معناها بعبارة مختصرة مفيدة قلما يحتاج سامعها الى سؤال، فان استشكل مستشكل وسأل سائل أجيب بما يقنعه بالاختصار، في قول فاصل ليس فيه شك ولا احتمال، ثم يضع الكتاب أو الكراس أمامه ويبسط الموضوع العلمي بسطاً تاماً وافياً بتحقيق المسألة والاحاطة بالغرض منها، بعبارات مختلفة سيأتي وصفها في الكلام على ختام درس المنطق. وهذه الطريقة عكس ما كان يجري عليه السيد جمال الدين الافغاني فانه كان يبسط المسألة العلمية بما يجليها للسامع من جميع نواحيها، ثم يقرأ عبارة الكتاب فيها فيفهمها السامع من أول وهلة .

قل لي سعد باشا زغلول ان الذي كان يحضر دروس أستاذنا في الازهر لا يسمعه الا أن يحترق دروس سائر العلماء فيه. وقد علمنا ان الشيخ أحمد الرفاعي يقرأ درساً في المنطق فذهبت الى درسه لا أعلم كيف يقرأ المنطق على طريقتهم — وكان من أكثر المشايخ استنباطاً للاحتمالات في عبارات الكتب، والمنطق لا تحتمل قواعده الاحتمالات — فاذا هو يقرأ في عكس القضايا فقرأ عبارة الكتاب وأورد في إعرابها احتمالاً يقتضي بطلان المسألة وهو عكس السالبة الكلية موجبة جزئية . قلت له ياسي الشيخ ان هذا الاعراب يفسد المعنى ويبطل القاعدة المنطقية فيجب رده .

قال: نحن مألوا. العلماء قالوا اذا صح الاعراب صح المعنى !! فانصرفت منه جبا وقال لي حفي بك ناصف: لما شرع الشيخ محمد عبده يقرأ في الازهر لبعض الطلبة وذاع صيته بين الاذكياء منهم، اشتهيت أن أسمعه وكان أشياخنا يخوفوننا من درسه بأن فيه فلسفة واعتزالا، فقلت في نفسي لا بد أن أسمع منه ولو مرة واحدة على سبيل الاختبار، فلما سمعته دهشت من الإعجاب بفساحته وبيان المعاني بما يتلقاه العقل بالقبول

أقول ولما شرع في عهدنا بقراءة أسرار البلاغة في الرواق العباسي بالازهر بين في الدرس الاول معنى علم البيان والبلاغة. قال الشيخ محمد المهدي: اننا قد اكتشفنا في هذه الآية معنى علم البيان، فاعترف بأن محضره من هذا العلم في مدرسة دارالعلوم لم يفده معرفة حقيقة هذا العلم والمراد منه، وقد كان هو يدرس البيان في المدرسة الخديوية ثم صار مدرسا في دارالعلوم ثم في الجامعة المصرية درس فيها آداب اللغة العربية، ثم في مدرسة القضاء الشرعي، وقد انتقل بحضور درس كتابي أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز على الاستاذ الامام من طور الى طور في البيان والمعاني وآداب اللغة ومن تخرج عليه في الكتابين فكان كاتباً مجيداً وشاعراً بليغاً المرحوم السيد مصطفى لطفي المنفلوطي وله قصائد في مدحه سننشر بعضها في ذيل هذا التاريخ، ومنهم الشيخ عبد الرحمن البرقوقي والشيخ مصطفى عبد الرزاق والشيخ علي عبد الرزاق وكل منهم كاتب بليغ، وكان الشيخ مصطفى يجيد نظم الشعر وقد مدح الاستاذ الامام بشعره والظاهر أنه تركه بعد ذلك، بل كان تدريسه لامتاتين في الازهر بدء عهد جديد في البلاغة سرى تأثيره من تلاميذه الى غيرهم وصار فيه عدد كثير من حسنى الانشاء الذي يعجز شيوخهم وشيوخ شيوخهم عن مثل كتبهم ومنهم الشيخ طه البشري وأخوه الشيخ عبد العزيز والثاني هو الذي اشتغل بعد الازهر بالكتابة واشتهر بها ولكن كان أكثر الناس استفادة من دروسه في البلاغة من غير الازهرين أحمد باشا تيمور والمتخرجون في دارالعلوم وسأذكر أشهرهم عند الكلام على درسه الخاص، وقد كان يحضر جميع دروسه كثير من أساتذة المدارس العالية والقضاة ورؤساء الدواوين

وأما قراءته للبصائر النصيرية فقد أفادتنا في المنطق ما كان يبيح لنا أن نقول فيه ما قاله الشيخ محمد المهدي في علم البيان ، فأنا أول واحد قل إننا لم نكن قبل هذا الدرس نفهم معنى الوجود والعدم ، على أنني كنت حضرت على أستاذنا الشيخ محمد الجسر شرح السلم وشرح الفخاري على إيساغوجي وشرح القطب على الشمسية . وكان لي من الفهم في هذا العلم أن كنت أعنت أستاذنا الجسر في الاسئلة إعنا حتى قال لي مرة في أثناء درس الكتاب الأخير : لا تسألني عن شيء في هذا العلم فإن الذي عندي أقوله كله من غير سؤال . ولا فائدة في سؤالي عما ليس عندي . هذا وإن هذا الأستاذ الجسر كان أشهر علماء بلادنا في هذا العلم وفي غيره من المعقولات ، وهو قد تلقاها في الازهر ولكن طريقته في تدريسها غير طريقة الازهريين . وأنا أنشر هنا ما كتبت في المنار عند ختم هذا الدرس من صفته وفوائده ومن كلام الأستاذ فيه . فإنه هو الذي يجلي لقاري . هذا التاريخ قيمته وقيمة تدريس الأستاذ له في الجملة

(ختم درس المنطق للأستاذ الأكبر في الجامع الازهر)

(منقول من ص ٢٨٠ من المجاد الثالث من المنار الصادر في غرة ربيع الاول سنة ١٣١٨)
لا خلاف في أن العلوم والمعارف بدأ ينزوي نورها ويفيض معينها في بلاد الشرق من عدة قرون ، ولم يكن الشرق إلا الاسلام والمسلمين ، حيث لا علم إلا علمهم ، ولا مدينة إلا مدينتهم . وقد اقتضت حوادث الكون بأن ينتبه المسلمون من رقاهم كما انتبه غيرهم ، وكانوا أحق بالسبق والتقدم ، وكما انتبه فرد انتباهاً حقيقياً يعني بتنبهه غيره سنة الله في الخلق . وشهر المنتبهين والمنبهين لأحياء العلوم في المسلمين لهذا العهد هو مولانا الأستاذ الأكبر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، أخذ حفظه الله على نفسه إيقاظ أهل الازهر الشريف وإرشادهم لطريقة التعليم المتلى ، فبقي في ذلك من العناء ما كان يلقاه المصاحون من قبله في كل زمان ومكان ، وعلم أن الارشاد بالقول قليل الجدوى ، فصار يقرأ الدروس بنفسه مع كثرة أعماله الأخرى في خدمة بلاده . وفي ليلة الاربعاء الماضية

أنتم كتاب (البصائر النصيرية) في علم المنطق ، وقد احتفل بختامه في الرواق العامي كما هي عادة الازهرين احتفالا قرئت فيه الخطب والقصائد في انشاء على الاستاذ ، وكان الأولى أن تتوجه أفكارهم إلى بيان طرق الاصلاح الذي امتاز بها درسه ، والاقطاب التي كان يدور عليها كلامه ، وترمي اليها سهامه ، ومرجعها الى أصلين

(أحدهما) اختيار الكتب ، فإن الناس يختارون في كل طور وحال ما يناسب درجتهم واستعدادهم ، ولضعف العلوم في القرون الاخيرة صار العلماء لا يقرءون الا كتب المتأخرين التي كتب عليها الشروح والحواشي الملأى بالمنازعات والمحاورات في الاساليب العرفية التي تضمف العلم والافعة جميعا كما هو المشاهد . ولا يكاد يتجرأ عالم على قراءة كتاب من كتب الجهابذة المتقدمين التي لم تشرح ولم تعلق عليها الحواشي ويسعونها (غير مخدومة) فعلمنا الاستاذ باختيار (البصائر النصيرية) الذي هو أمثل كتاب رأيناه في المنطق كيف نختار الكتب النافعة ، التي لم تتلقها بالمدرسة ، وعلق عليه شرحا وجيزاً بين غوامضه ، وأصلح ما عساه يوجد فيه من الخطأ مما لا يخلو عنه غير كلام المعصوم ، فعلمنا بذلك كيف ينبغي أن تكون الشروح ، وكيف ان يتمكن من العلم لايهاب الكتب ولا يتقيد بالعبارات التي ألفها وتعلمها (ثانيهما) الالتقاء والتقرير — علمنا بذلك كيف تتجلى الحقائق بالصور المختلفة ، وتتجلى المعاني بالصيغ المتعددة ، ليمتقنا من ريق العبارات ، ويفكنا من أسر الالفاظ التي استبدت بالحكم فينا زماناً طويلاً

علمنا كيف ضلت الافهام ، وغلبت الاوهام ، وكيف أطفأ دخان التقاليد النظرية ، مافي العقول من أنوار العلوم اليقينية ، انطلب العلم ببهائه ، وناخذ الشيء برأيه علمنا كيف تتضال الشبه افتضاحاً ، وتمبخر الحجج اقتضاحاً ، وكيف يفرغ البيان العويص من المناريات ، في قوالب البديهيات ، لتقوى منا العزائم ، وتقدم على العظام علمنا كيف نطالب العلم بالعمل بمسائله ، والتحقق بدلائله ، وملاحظة انطبافه على الواقع ، وموافقته للوجود ، لتحصل نمرة قوله ﷺ « من عمل بما علم ، ورثه الله ، علم ما لم يعلم » علمنا كيف تتمحص الحقائق للوصول الى اليقين بالعلم ، والجزم بالفهم ، ليخرجنا من الخيرة في طريقة التعليم المألوفة لهذا العهد ، طريقة الاحتمال وسرد الاقوال

علمنا بحاله ومقاله كيف يرتقي العلم ، وكيف يأتي المتأخر بما لم تأت به
الاول ، لينزع من نفوسنا التسليم بأن الانسان دائما في تدل وهوي ، لا في
تقدم ورتي ، فان التقدم مع هذا الاعتقاد ، ضرب من الحال

علمنا كيف يكون العلم صفة من صفات العلم تنفعل به نفسه ، وتتكيف به روحه ،
ليرشدنا الى أن الصور والخيالات التي تلوح في الاذهان ، وتترأى في الافكار ،
عند ما تنشر الصحف ، وتعرض على الانظار نقوش الكتب ، ليس من العلم في شيء .
ولو شئت أن أستشهد على كل شيء مما قلته بشيء مما جاء في درس المنطق
افعلت ، وأظن أن نبهاء الطلاب الذين حضروه يكتبون بهذه الاشارات ،
ولا يذنبون كيف فسد الاستاذ كلام أفلاطون ، وأصلح رأي أرسطو في الماهيات ،
ولا يغيب عن أذهانهم ذلك التحقيق العجيب في معنى الوجود ، وأنه جنس
الاجناس وجوهر الجواهر ، ولا ينكرون أنهم لم يفهموا معنى الوجود إلا في ذلك
اليوم ، كما لا يغيب عن عقولهم ذلك التحقيق البديع في معنى العدم ، وأنه لا حقيقة
له ، ولا يمكن تصوره ، فحيا الله من علمنا كيف نفرق بين الوجود والعدم .

وأظن أنهم يتذكرون ذلك السائل الذي سأله منهم عن مفهوم « شريك
الباري » وقول المنطقيين انه من الكليات التي لم يوجد لها افراد ويتذكرون جواب
فضيلته الذي يتدفق حكمة وإيماناً ، وعلماً وإيقاناً ، الذي أثبت فيه أن ذلك المفهوم من
الصور الخيالية المحترمة التي لا حقيقة لها ولا يمكن تصورها . وما جعلها من الكليات
إلا نقص العلم ، وخطأ الفهم الخ مالا محل له هنا لا يضاحه وتفصيله .

تليت القصائد والخطب احتفالاً بختام الدرس كما قلنا والرواق العباسي
غاص بالناس ، بزاحم العلماء والمدرسون فيه الطلاب والمجاورين ، وعلم الاستاذ أن
ما سيلقى كثير فحتم المجلس بخطاب بليغ ابتدأ بهضم نفسه بازاء الاطراء في المدح
مع شكر من يظن به خيرا . وقال أحسن الكلام ما كان صادقا مطابقا للواقع ،
وانما يذهب مذاهب المبالغة في قوله ، من كان مجازفا في رأيه ، وان كان العلماء
توسعوا في التسامح بالمبالغة والتشبيهات والاستعارات ولم يعدوها من الكذب .
وسندكر معلق بالذهن من خطابه في الجزء الآتي . اهـ

(ملخص خطاب مولانا الاستاذ الحكيم)

(في ختام درس المنطق)

(منقول من ص ٣٠٢ من المجلد الثالث من المنار الصادر في ١١ ربيع الاول سنة ١٣١٨)

وعدنا بأن نأتي بما وعيناه من ذلك الخطاب البليغ وما نحن أولاء منجزو موعدنا : قال الاستاذ بعدما تقدمت الإشارة اليه من ذم الاطراء مامثاله ملخصاً سعادة الناس في دنياهم وأخراهم بالكسب والعمل ، فإن الله خلق الانسان وناط بجميع مصالحه ومنافعه بعمله وكسبه ، والذين حصلوا سعادتهم بدون كسب ولا سعي هم الانبياء عليهم الصلاة والسلام وخدم لا يشاركم في هذا أحد من البشر مطلقاً ، والكسب مهما تعدد وجوهه فانها ترجع الى كسب العلم ، لان أعمال الانسان انما تصدر عن إرادته ، وإرادته انما تنبعث عن آرائه ، وآرائه هي نتائج علمه . فالعلم مصدر الأعمال كلها دنيوية وأخروية ، فكما لا يسعد الناس في الدنيا إلا بأعمالهم كذلك لا يسعدون في الآخرة إلا بأعمالهم . وحيث كان للعلم هذا الشأن فلا شك أن الخطأ فيه خطأ في طريق السير إلى السعادة عائق أو مانع من الوصول اليها ، فلا جرم ان الناس في أشد الحاجة إلى ما يحفظ من هذا الخطأ ويسير بالعلم في طريقه القويم حتى يصل السائر إلى الغاية ، وهذا هو المنطق المسمى بالميزان والمعياري ، الذي يضبط الفكر ويصمم الذهن عن الخطأ فيه ، ولهذا كانت العناية به من أهم ما يتوجه اليه طلاب السعادة

اعتنى العلماء في كل أمة بضبط اللسان وحفظه من الخطأ في الكلام ، ووضعوا لذلك علوماً كثيرة ، وما كان لسان هذا الشأن إلا لانه مجلى الفكر وترجمانه ، وآلة لا يصل معارفه من ذهن إلى آخر ، فأجدد بهم أن تكون عنايتهم بضبط الفكر أعظم . كما ان اللفظ مجلى الفكر هو غطاؤه أيضاً ، فان الانسان لا يقدر على إخفاء أفكاره إلا بحجاب الكلام الكاذب ، حتى قال بعضهم إن اللفظ لم يوجد إلا ليخفي الفكر

انما ينتفع بالميزان الذي هو علم الفكر من كان له فكر ، والفكر انما يكون فكر : له وجود صحيح اذا كان مطلقا مستقلا يجري في مجراه الذي وضعه الله تعالى عليه إلى أن يصل إلى غايته ، وأما الفكر المقيد بالمعادات المستعبد بالتقليد ، فهو الرذول الذي لا شأن له ، وكأنه لا وجود له

وقد جاء الاسلام ليعتق الافكار من رقها ويحلها من عقمها ، ويخرجها من ذل الاسر والعبودية ، فترى القرآن ناعياً على التقليد ، ذاكراً لهم بأسوأ ما يذكر به - المجرم ، ولذلك بني على اليقين الذي علمتم معناه ، ووضحاً في درس سابق (١)

لا ينبغي للانسان أن يذل فكره لشيء سوى الحق ، والدليل للحق عزيز . نعم يجب على كل طالب علم أن يسترشد بمن تقدمه سواء أكانوا أحياء أم أمواتاً ، ولكن عليه أن يستعمل فكره فيما يؤثر عنهم ، فإن وجدته صحيحاً أخذ به ، وإن وجدته فاسداً تركه . وحينئذ يكون ممن قال الله تعالى فيهم (فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا) (الالباب) وإلا فهو كالحيوان ، والكلام كالمجسم له أو الزمام ، يمنع به من كل ما يريد صاحب الكلام منعه منه ، ويقاد إلى حيث يشاء ذلك المتكلم أن يقاد إليه من غير عقل ولا فهم

مالذي يعتق الافكار من رقها ، وينزع عنها السلاسل والاغلال لتكون حرة مطابقة : الجواب عن هذا السؤال يحتاج إلى شرح طويل لان تخليص الافكار من الرق والعبودية من اصعب الامور ، ويمكن أن نقول فيه كلمة جامعة يرجع اليها كل ما يقال وهي (الشجاعة)

الشجاع هو الذي لا يخاف في الحق لومة لائم ، فمتى لاح له يصرح به ويجاهر بنصرته وإن خالف في ذلك الاولين والآخرين . ومن الناس من يلوح له نور

(١) قال الاستاذ هو اعتقاد أن الشيء كذا وانه لا يمكن أن يكون الا كذا ، لأنه مطابق الواقع . وهو بمعنى قولهم الاعتقاد الجازم المطابق للواقع . واما قولهم عن دليل فلا معنى له ، لان اليقين اكثر ما يكون في البدييات وهي لا يدال عليها

الحق فيبقى متمسكاً بما عليه الناس ويمجتهد في إطفاء نور الفطرة ، ولكن ضميره لا يستريح فهو يوبخه اذا خلا بنفسه ولو في فراشه .

لا يرجع عن الحق أو يكتم الحق لأجل الناس ، إلا الذي لم يأخذ إلا بما قال الناس ، ولا يمكن أن يأتي هذا من موقن يعرف الحق معرفة صحيحة .

إن استعمال الفكر والبصيرة في الدين يحتاج إلى الشجاعة وقوة الجنان ، وأن يكون طالب الحق صابراً ثباتاً لا ترعزعه المخاوف ، فإن فكر الانسان لا يستعبده إلا الخوف من لوم الناس واحتقارهم له اذا هو خالفهم ، أو الخوف من الضلال اذا هو بحث بنفسه ، واذا كان لا بصيرة له ولا فهم فما يدريه لعل الذي هو فيه عين الضلال . إذن « ان الخوف من الضلال هو عين الضلال » فعلى طالب الحق أن يتشجع حتي يكون شجاعاً ، والله تعالى قد هباً الهداية لكل شجاع في هذه السبيل ولم نسع بشجاع في فكره ، ضل ولم يظفر بمطلوبه

وهنا شيء يحسبه بعضهم شجاعة وما هو بشجاعة وإنما هو وقاحة ، وذلك كالاستهزاء بالحق ، وعدم المبالاة بالحق ، فترى صاحب هذه الخلة يخوض في الأئمة ، ويعرض بتنقيص أكابر العلماء غروراً وحماقة (١) والسبب في ذلك انه ليس عنده من الصبر والاحتمال وقوة الفكر ما يسبر به اغوار كلامهم ، ويمحص به حججهم وبراهينهم ، ليقبل ما يقبل عن يده ، ويترك ما يترك عن يده . وهذا لاشك أجبن من المقلد ، لأن المقلد يحمل ثقل التقليد على ما فيه ، وربما تنبع في عقله خواطر ترشده إلى البصيرة ، أو تلمع في ذهنه بوارق من الاستدلال لومشى في نورها لا هتدى وخرج من الحيرة ، وأما المستهزئ ، فهو أقل احتمالاً من المقلد ، فإن الهوس الذي يعرض لفكره إنما يأتيه من عدم صبره وثباته على الأمور وعدم التأمل فيها .

والحاصل ان الفكر الصحيح يوجد بالشجاعة والشجاعة ههنا (وهي التي يسميها بعض الكتاب المصريين الشجاعة الادبية) قسمان : شجاعة في رفع القيد

(١) المؤلف هذا نفيد صريحاً ما زعمه المقلدون من ان الاستاذ الامام كان يجري الناس على ما هم بالخذ بالدليل على تحقير الأئمة وترك الاستفادة من العلماء ، كان تعظيم الأئمة عندهم لا يأتى إلا من الجهل بأدائهم وعدم فهم عقولهم !!

الذي هو التقليد الاعمى، وشجاعة في وضع القيد الذي هو الميزان الصحيح الذي لا ينبغي أن يقرر رأي ولا فكر إلا بعد ما يوزن به ويظهر رجحانه، وبهذا يكون الانسان حراً خالصاً من رق الاغيار عبداً للحق وحده .

وهذه الطريقة طريقة معرفة الشيء . بدليله وبرهانه ما جاءتنا من علم المنطق وانما هي طريقة القرآن الكريم الذي ما قرر شيئاً إلا واستدل عليه وأرشد متبعيه إلى الاستدلال، وانما المنطق آلة لضبط الاستدلال، كما ان النحو آلة لضبط الالفاظ في الاعراب والبناء كما قلنا . ولا يمكن أن ينتفع أحد بالمنطق ولا بغيره من العلوم مهما قرأها وراجها إلا اذا عمل بها وراعى أحكامها حيث ينبغي أن تراعى ، فالذي يحفظ العلم حفظاً حقيقياً هو العمل به ، والا فهو مفني للاحالة،

وانما نرى الجوار يقضي السنين الطويلة في الازهر يدارس العلوم العربية ولا ينتفع بها بتحصيل ملكة العربية قولاً وكتابة وانما ذلك اعدام الاستعمال . فأنصح لكل من يسمع كلامي أن يستعمل ما يحصله من العلم ، وان يحصل لنفسه ملكة الشجاعة ، وبدون هذا لا ينتفع بعلم ولا عمل ، ويكون الاشتغال بالدروس في حقه من اللغو المنهي عنه المذموم صاحبه شرعاً . بل يقضي حياته كسائر الحيوانات العجم، وربما كان أقص منها .

وأحب أن يكون كل منكم انساناً كاملاً، والانسان يطلب الجليل النافع لانه حسن في نفسه ، لا لانه غيره يطلبه ، فلو كفر كل الناس لوجب عليه أن يكون أول المؤمنين ، وهذا هو الاسلام الصحيح

ثم ختم الاستاذ الخطاب بالدعاء، واشاء على الله تعالى وانفض الاجتماع اه
(أقول) لو عقل عشرة في المائة من سموم هذا الخطاب الذي لخصنا مآثيه، ولم يكن في استطاعتنا ايداعها تأثير إقامته ، وجرس صوته . وقوة روحه، لرأيناه في الازهر اليوم مئات من أساطين العلم المستقلين ، ومدرسيه الشجعان المصلحين، على أنه والله الحمد لم يذهب سدى ، ولم يكن عبثاً ، فقد وعاه بعض من سممه ، وسرى تأثيره الى من لم يسممه ، وروى حامل فقهه الى من هو أفقه منه .

درس التفسير

بينت في مقدمتي لتفسير القرآن الحكيم الذي ينشر في المنار ويجرد منه سبب قراءة الاستاذ الامام له في الازهر فاقله هنا بنصه وهو : (صفحة ١٢ من الجزء الاول)

انصت بالشيخ في الضحوة الصغرى لليوم الذي وصلت في ليله إلى القاهرة فكان انصالي به من أول يوم كاتصال اللازم البين بالمعنى الاخص بملزومه، وكان أول اقتراح لي عليه أن يكتب تفسيراً للقرآن ينفخ فيه من روحه التي وجدنا روحها ونورها في مقالات (العروة الوثقى) الاجتماعية العامة . فقال إن القرآن لا يحتاج إلى تفسير كامل من كل وجه فله تفاسير كثيرة أتقن بعضها ما لم يتقنها بعض . ولكن الحاجة شديدة إلى تفسير بعض الآيات ، ولعل العمر لا يتسع لتفسير كامل ، فاقترحت عليه أن يقرأ درساً في التفسير وكان ذلك في شعبان سنة ١٣١٥ نم كررت عليه الاقتراح في رمضان وكان يعتذر بما أذكر أنه هنا

زرنه يوم الجمعة ١٣ رمضان فقرأ لي عبارة من كتاب افرنسي في الطمن على الاسلام وطفق يرد عليها بعد أن قل : ان هؤلاء الافرنج يأخذون مطاعنهم في الاسلام من سوء حال المسلمين مع جهلهم بمحقيقة الاسلام . قال ان القرآن نظيف والاسلام نظيف ، وانما لوثة المسلمون باعراضهم عن كل مافي القرآن واشتغالهم بسفساف الامور . وطفق يتكلم بهذه المناسبة في تفسير قوله تعالى (هو الذي خلق لكم مافي الارص جميعا) وماذا كان ينبغي للمسلمين أن يكونوا عليه لو اهتموا بها ثم ذكر أن الطاعن ادعى أن المسلمين لم يعلمهم نبيهم من صفات الخالق إلا انه حاكم قاهر وسلطان عظيم قد أوجب الفتح على أتباعه لاجل قهر الامم لا لاجل تربيتها ، وقال فأين هذا من تسمية النصارى خالقهم بالأب الدال على الرأفة والعطف ؟؟ ثم طفق الاستاذ يرد على هذا القول بالكلام على اسم الرب وما فيه من معاني التربية والعطف ، والتفرقة بينه وبين معنى الأب ، وكون طلبه للولد بمقتضى شهوته لا محبته له، وغير ذلك من شؤون الوالد التي ينزه الله تعالى عن الاتصاف بها وأطال في ذلك .

وهنا دار بيني وبينه ما أذكر ملخصه كما كتبت بعد مقارفة ذلك المجلس وهو:
(قلت) لو كتبت تفسيراً على هذا النحو تقتصر فيه على حاجة العصر وترك
كل ما هو موجود في كتب التفسير وتبين ما أهملوه ...

قال : إن الكتب لا تنفيد القلوب العمي فان دكان السيد عمر الخشاب مملوءة
بالكتب من جميع العلوم وهي لا تعلم شيئاً منها ، لا تنفيد الكتب إلا إذا صادفت
قلوباً متيقظة عالمة بوجه الحاجة إليها تسمى في نشرها . إذا وصل إلى أيدي هؤلاء
العلماء كتاب فيه غير ما يعلمون لا يمدقون المراد منه ، وإذا عقلوا منه شيئاً يردونه
ولا يقبلونه ، وإذا قبلوه حرقوه إلى ما يوافق علمهم ومشرهم كما جروا عليه في نصوص
الكتاب والسنة التي تريد بيان معناها الصحيح وما تنفذه .

« إن الكلام المسموع يؤثر في النفس أكثر مما يؤثر الكلام المقروء لأن
نظر المتكلم وحر كانه وإشارته ولهجته في الكلام - كل ذلك يساعد على فهم
مراده من كلامه ، وأيضاً يمكن السامع أن يسأل المتكلم عما يخفى عليه من كلامه
فاذا كان مكتوباً فن يسأل ؟ : ان السامع يفهم ٨٠ في المائة من مراد المتكلم ،
والقاريء الكلام يفهم منه ٢٠ في المائة على ما أراد الكاتب . ومع ذلك كنت
أقرأ التفسير وكان يحضره بعض طلبة الأزهر وبعض طلبة المدارس الاميرية ،
وكنيت نذكر كثيراً من الفوائد التي تحتاج إليها حالة العصر فما اهتم لها أحد
فيما أعلم ، مع أنها كان من حقها أن تكتب . وما علمت أحداً كتب منها شيئاً
خلا تلميذين قطبيين من مدرسة الحقوق ، وكانا يراجعا في بعض ما يكتبان ،
وأما المسلمون فلا

« قرأت تفسير سورة العصر في سبعة أيام وكل درس لا يقل عن ساعتين
أو ساعة ونصف ، بينت فيها وجه كون نوع الانسان في خسر إلا من استثنى
الله تعالى ، وما المراد بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر ، مما لو جمع اركان رسالة حسنة
في تفسير السورة ، وما علمت أحداً كتب من ذلك شيئاً إلا أن يكون عبد العزيز (١)
(قلت) انه يوجد كثير من المنتبهين لحالة العصر والاسلام في البلاد المتفرقة

(١) قرأه بعد ذلك في الجزائر ثم كتبه باقتراحنا ونشرناه في المنار ووحده

وكثير منهم ما بينهم إلا (العروة الوثقى) وأنا لم أنتبه التنبيه الذي أنا عليه إلا بها (قال) ان بعض الناس يوجد فيهم خاصية أنهم يقدرّون على الكلام بأي موضوع أمام أي انسان ، سواء كان يدرك الكلام ويقبله أم لا ، وهذه الخاصية كانت موجودة عند السيد جمال الدين : باقي الحكمة لم يدها وغير مردها ، وأنا كنت أحسده على هذا لانني تؤثر في حالة المجالس والوقت فلا تتوجه نفسي للكلام إلا إذا رأيت له محلا . وهكذا الكتابة ، فأنني ربما أنصّر أن أكتب في موضوع وعند ما أوجه قواي لجمع ما يحسن كتابته تتوارد على فكري معان كثيرة ووجوه للكلام جمة ، ثم يأتيني خاطر : لمن ألقى هذا الكلام ؟ ومن ينتفع به ؟ فأتوقف عن الكتابة . وأرى تلك المعاني التي اجتمعت عندي قد امتص بعضها بعضاً حتى تلاشت ، ولا أكتب شيئاً .

« ان حالة المخاطب تؤثر بي جداً ، ولذلك لا أتكم بشيء عن حالة الاسلام عند ما اجتمع هؤلاء العلماء لأن أفكارهم منصرفة عن ذلك بالكلية ، ولذلك لا يعملون شيئاً مع سمة وقتهم . وعند قراءة التفسير كنت أنكم على حسب حالة الحاضرين لانني لا أطالع عند ما أقرأه (١) لكنني ربما أنصفح كتاب تفسير إذا كان هناك وجه غريب في الاعراب أو كلمة غريبة في اللغة . فاذا حضرني جماعة من البلداء الخاملين الفكر أحل لهم المعنى بكلمات قليلة . واذا كان هناك من يتنبه لما أقول ويلقي له بالا يفتح علي بكلام كثير

(قلت) ان الزمان لا يخلو ممن يقدر كلام الاصلاح قدره وان كانوا قليلين وسيزيد عددهم يوماً فيوماً ، فالكتابة تكون مرشداً لهم في سيرهم . وان الكلام الحق وان قل الآخذ به والعارف بشأنه ، لا بد أن يحفظ وينمو بمصادفة المباحة المناسبة له وهو مقتضى ناموس (أي سنة) الانتخاب الطبيعي ، كما حفظت (العروة الوثقى) فان أوراقها الاصلية الضعيفة قد بليت لكن ما فيها من المقالات البديعة المثل والفوائد العظيمة قد حفظت في الطروس والنفوس . الخ

ولم أزل به حتى أقنعت به قراءة التفسير في الازهر فافتنع وبدأ بالدرس بعد

سنة وثلاثة أشهر ونصف أي في غرة المحرم سنة ١٣١٧ وانتهى منه في منتصف المحرم سنة ١٣٢٣ عند تفسير قوله تعالى (وكان الله بكل شيء محيطاً) من الآية ١٢٥ من سورة النساء فقرأ زهاء خمسة أجزاء في ست سنين إذ توفي لثمان خلون من جمادى الاولى منها رحمه الله تعالى وأثابه

كانت طريقته في قراءة الدرس على مقربة مما ارتآه في كتابة التفسير ، وهو أن يتوسع فيما أغفله أو قصر فيه المفسرون ، ويختصر فيما برزوا فيه من مباحث الالفاظ والاعراب ونكت البلاغة ، وفي الروايات التي لا تدل عليها ولا تتوقف على فهمها الآيات ، ويتوكل في ذلك على عبارة تفسير الجلايين الذي هو أجزالتفسير ، فكان يقرأ عبارته فيقرأها أو ينتقد ما يراه منتقداً ، ثم يتكلم في الآية أو الآيات المنزلة في معنى واحد بما فتح الله عليه مما فيه هداية وعبرة

وكنيت أكتب في أثناء إلقاء الدرس مذكرات أودعها ما أراه أهم ما قاله ، وأحفظ ما أكتب لأجل أن أبيضه وأمدّه بكل ما تذكره في وقت الفراغ ، ولم ألبث أن اقترح علي بعض الراغبين في الاطلاع عليه من قراء المنار في البلاد المختلفة ومن الحريصين على حفظه من الاخوان بمصر أن أنشره في المنار ، فشرعت في ذلك في أول المحرم سنة ١٣١٨ وذلك في المجلد الثالث من المنار ، وكنيت أولاً أطلع الاستاذ الامام على ما أعده للطبع كلما تيسر ذلك بعد جمع حروفه في المطبعة وقبل طبعه ، فكان ربما ينتج فيه بزيادة قليلة أو حذف كلمة أو كلمات . ولا أذكر انه انتقد شيئاً مما لم يره قبل الطبع ، بل كان راضياً بالمكتوب بل معجباً به ، على انه لم يكن كاه نقلاً عنه ومعزواً اليه ، بل كان تفسيراً للكاتب من إنشائه اقتبس فيه من تلك الدروس العالية جل ما استفاد منها ، لذلك أعزو اليه القول المنقول عن إذا جاء بعد كلامي في بيان معنى الآية أو الجملة على الترتيب ، فإذا انتهى النقل وشرعت بكلام لي بعده قلت في بدئه (أقول) ولم يكن هذا التمييز ملتزماً في أول الامر بل يكسر في الجزء الاول ما لا عزو فيه ، ومنه ما هو مشترك بين ما فهمته منه ومن كتب التفسير الاخرى أو من نص الآية على أنني عبرت عنه (في المنار) بأما لي مقتبسة ...

ولما كان رحمه الله تعالى يقرأ كل ما أكتبه إقبال طبعه وهو الغالب وإما

بعدد وهو الاقل، لم أكن أرى حرجاً فيما أعزوه اليه مما فهمته منه وإن لم أكن كتبت عنه في مذكرات الدرس، لأن اقراره اياديؤكد صحة افهم وصدق العزو . وبعد أن توفه الله تعالى صرت أرى من الامانة أن لا أعزو اليه الا ما كتبت عنه أو حفظته حفظاً وصرت أكثر أن أقول : قال مامعناه . أو : مامثاله . أو : ماملخصه . مثلاً، على انني أعتقد انه لو بقي حياً واطلع عليه لأقره كله اها ما كتبت في مقدمة التفسير

صفة درس التفسير في الازهر

هذا وان درس التفسير في الازهر كان أحفل الدروس وأنفعها في الدين والاجتماع والسياسة ، والأدب والبلاغة ، وكان يحضره كثير من علماء الازهر، وأساتذة المدارس الثانوية والعالية، وكبار رجال القضاء الاهلي، وفضلاء الوجهاء ورجال الحكومة، ومنهم محافظ مصر المرحوم ماهر باشا حضر بعض الدروس — فكان الرواق العباسي يكتظ بحاضري الدرس حتى ان بابيه يسد بالواقفين فيه الذين لا يجدون للجلوس مكاناً ، ومنهم من كان يكتب لنفسه مايستطيع ضبطه، ومنهم علي باشا ذو الفقار الذي كان مستشاراً في محكمة الاستئناف الاهلية (ثم محافظاً لمصر) وكان يجلس بجاني بالقرب من كرسي الدرس

ولم يكن الامام يثق بضبط أحد لقوله وفهم مراده منه - دع التعبير الصحيح عنه - الا صاحب المنار (مؤلف هذا التاريخ) بدليل أنه كان يقرأ ما أعزوه اليه مما فهمته وان لم أكتبه فيقره كما هو ، وقد صرح بهذا مرة في الدرس لسبب اقتضاه ذلك بأنه وقع مطر شديد في بعض الايام تصحبه ريح شديدة فدخل المطر الرواق العباسي من نوافذه الكبيرة فتمذرت القراءة فيه أول ليلة بعد المطر فقرأ الدرس في الطريق الذي بين الرواق ومجاس إدارة الازهر لقلّة من حضر في تلك الليلة ، وكنت تأخرت عن أول الدرس فأردت أن أجاس وراء من سبقوني فسكت الامتاز لما رأي و ناداني تعال هنا - لا كون بجانب كرسيه كالعادة - وقال للحاضرين معاً نادائي : إنه يستفيد أكثر من كل أحد منكم - أو كلمة بهذا المعنى - كان درس التفسير مؤثراً جداً وكأني من رجل كان يسيء الظن بالامام.

بتأثير كلام الحاسدين والجامدين ، فحضروا الدرس مختبرين ، فانقلبوا معجبين حشنيين ، وعلى دوام الاستفادة عازمين .

وكان للاستاذ أحسن الله اليه فكاهات في الدرس يقصد بها الاحماض وترويح النفس في إثر بعض الزواجر الصاعدة ، والمواعظ البالغة ، أو التناذر والتثريب على بعض المجاورين الذين يلقون الاسئلة الشاذة ، كقوله لبعضهم مرة وقد قال له : إن ما قلته لا يوافق عليه الجمل - يعني محشي الجلالين - قال الاستاذ : إنني أقر ما يدل عليه النظم الكريم والاسلوب البليغ ولا يعنيني أوافق الجمل أو الجمار عليه أم خالفنا ؟ ومن النوع الاول ما قاله اذ دخلت الرواق بنت لعل منها لا تغل عن ثنتي عشرة فتخطت الرقاب حتى وصلت الى والدها فأمرت اليه كلمة وخرجت ، وقد كثرت التفات الناس اليها استغرابا لجرأتها ، وسكت الاستاذ هنيهة ثم قال باللغة البلدية « إياكم تكون دي المرأة الجديدة اللي بيقلو عنها » يعني لعل هذه المرأة الجديدة التي يتحدث الناس ويكتبون في الصحف وغيرها عن وجوب سفورها واختلاطها بالرجال بمناسبة الكتاب الذي ألفه قاسم بك أمين بهذا الاسم . فضحك جميع الحاضرين انبساطا بكلمته وجملته القول أن درس التفسير كان هو الذي عرف كل ذي فطرة سليمة من أهل الازهر وغيرهم فضل الاستاذ الامام على غيره بالعلم بالله وكتابه وحقيقته دينه وغيرته على تجديد الاسلام ، واهتمامه باصلاح المسلمين ، وطار صيته في الاقطار بنشر المنار لخلاصته في تفسيره وقد كثر المادحون له به نظما ونثرا في حياته وفي رثائه كما يرى القارئون في جزء التأين والمراني من هذا التاريخ وهو الجزء الثالث وكان المنار وصاحبه من الشكر في هذا الاصلاح ان كان هو سبب قراءته ، ثم نشر ما قرره في تلك الدروس تارة بالاجمال وتارة بالتفصيل والايضاح ، بما كان يقتبط به ويقول كما روى عنه الاستاذ الشيخ محمد شاكر كيف أترك صحبة فلان لاجل الخديوي وهو ترجمان أفكاري - كما تقدم - بل قال أكثر من هذا كما سيأتي بيانه ان شاء الله تعالى في موضعه اللائق به

وانني أذكر هنا شهادتين مكتوبتين رفعتا اليه يصف اصحابهما تأثير درسه في انفسهم ووقعتا في يدي بعد كتابته ما تقدم اذ كنت أقلب أوراق شيخنا المحفوظة عندي

شهادتان في تأثير درس الإمام

(الاولى) شهادة أديب غريب ، بما وجد في نفسه من تأثير درس التفسير ،
والظاهر أنه املاه املاء فوق من كاتبه بعض التحريف ، قل مخاطبا
الاستاذ الامام ما نصه :

مولاي : ان نصابك الرفيع الذي اقامك الله فيه لاصدار ما يرد عليك من
شؤون دينه ، وماعهد الى نظائرك (١) من سياسة الناس السياسة الشرعية ، وتقرير
الحكم والوصايا لم — كل ذلك جعلني لا أستبعد صدور امثال تلك الاحساسات
الدينية الصادقة والمواطف القومية الحققة عن فؤاد رفيع حساس ، ونفس كبيرة
حراكة ، شعرت باقدس واجب نحوها فانبرت تناضل مزورائه وتعمل على حياطته
بالنفس والنفيس ، على حين فترة من الحق ومرض من اليقين

سيدي : اني استميتك الاذن لي بالاعراب عن اثر كبير خامر فؤادي بل
حدى رنان تلابت (كذا) به قطار قلبي ثم اسألك العذر في تكليفي اياك اضاعة
جزء من وقتك النفيس بالنظر في سطوري هذه وما هي الا كلمات مثلت بها احاسي
حيال ذلك المهيمن الفعال على النفوس

انحفني الدهر ليلة أمس بتلقي درسك الكريم وكنت احسبني جالسا بين
اخواني ، حتى اذا توقلت كرسيك الرهيب ، واستهللت لأول كلمة مسني اذ ذاك
طائف من الهدوء والطمأنينة ، ونجحت لعيني الحكمة على خاتمها حاضرة لثامها ، وتراءت
لي السليقة العربية في جزالتها وعرامتها كاشرة انيابها ، فاحتملي ذاك الخيالان
الى عالم تعمره ارواح كبيرة ، (٢) وبلغاني مستوى قمت اناحي اليقين وهو بنا جيني
بلا حجاب ريب ، ولا صدفه مرية ، وما زلت بين اجتلاء حكمة بالغة ، وتاقى
موعظة حسنة ، حتى قضيت تلك الفينات وودت لو لم تنقض ، ذلك ما كنت
أحسه ابان استماعي لدرسك الكريم ، واتوسمه في نفوس الكثيرين ، ويعلم الله اني

(١) يعني نظاره في المنصب وانقام لافي العلم والاستعداد

(٢) في هذا الكلام اقتباس من مقدمة الاستاذ الامام لشرح نهج البلاغة

ما افتدت (٢) في تمثيلي هذا قانون الصدق ولا نزعت الا عن اشرف غرض ، بما اثني عليه كل ذي شعور حي ومبدأ قويم حق ، لم تنفعل نفسه اثر التعاليم القديمة ، سمعتك تفسر كتاب الله بنفسه وتنبو به عن تلك الارجيف المدونة ، وقل من تصون عنها من المفسرين ، في حين انهم اهملوا تفسير القسم الاخلاقي من القرآن اهمالاً كلياً ، وبخسوه حقه من النظر الخفي والدرس المدقق ، وانت حفظك الله تمر بالآية فتوفيتها حقها ، خصوصاً الآيات الاخلاقية ، وحبذا لو اهتبل اخواننا الطلبة هذه الفرصة الثمينة ، وعدلوا عن تلك المجادلات اللفظية ، والاسئلة التي يوجهونها خلال الكلام ، واني أرى أن القلم قد شطبي عما كنت ابتغي من الاجاز ، وما حداني الى كتابة هذه السطور الا انني حين انصرافي من ذلك الدرس ألفت له اثرا كبيرا في نفسي ، فخاوات التمثيل عنه بهذه الكلمات ، وودت لو ان لي من معين البيان مادة تنفي بذلك

وفي الختام تقبل مني فائق التجلة والاكرام (سليمان نظمي الفاروقي)

(النانية — شهادة نابني دار الموم في رقعة رفوها الى الامام ، وهي)

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا ايها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم* والذين كفروا فتعسوا لهم وأضل أعمالهم)

ايس العجب من شجاع يكتب الكتاب ، وبجند الجنود ، وبحجوب بهم كل شجرا ، مرداء ، ويصبح الأعداء بفارة شعواء ، لا يصد عن نيرانها حتى يختلس النفوس وينتهب الأعمار ، وانما الذي يستهوي الحازم طربا ، ويكاد يطير له قلب اللبيب شعاعا ، أن ينتضي فرد واحد من عزيمته صارما ما أغفاته الصياقل ، ويسير من قواطع الحجج وسواطع البراهين والآيات البينات وسحر الاعجاز في خميس عرمرم ، همة أن يهدم ما شيد الكفر ، ويمحو ظلمة التوهم الحالك التي كادت تسجل العار على ثلاثمائة مليون أو يزيدون ، فهتك أستار التعمية على العقول ، وفتح أغلاق القلوب ، وأودع فيها من أنوار اليقين ، ماشاء العليم الحكيم ،

إنا نعترف والله يشهد والملائكة يشهدون ، إنا لو تقصينا العالم فرداً فرداً
 نتوسم قريب هذه الصفاة لكان هو سيدنا واستاذنا حجة الاسلام وأسوة المسلمين ،
 وكيف وقد رأينا في قلمه سيف عمر ، وفي مقاله فصل علي (رضي الله عنهما) على اننا
 نستمعين في أداء شكره الجزيل بلسان العلم الذي أخذ يشب في مهده فضله ، وقد كان فريسة
 أسود الجهالة ، بل بلسان كتاب الله تعالى الذي كشف عن وجوه اعجازه ، ودفع
 عنه السوء ، وأفرغه في العقول نورا ، وفي القلوب يقينا ، بل بلسان الاسلام الذي
 نسجت عليه التقاليد حجابا من الباطل كثيفة ولولا فضل الله تعالى علينا وعلى الناس بنور
 هداية سيدنا واستاذنا لما رقت تلك الفشاوات وعماق قليل يحورها بموثة الله ويظهر الحق
 أبلاج ناصعا ، وإن يوما يتحلى فيه جيد الاسلام بأشبال له يحمون ذماره ، ويذودون عن
 حوضه ، ويرفعون علمه ، ليوم ميمون الطالع ، لا يلبس الاسلام فيه الجوزاء الا قاعداً
 كما تبين ان غرسك قد دنا لجنى وزرعك قد أنى لحصاد

ولتلم أن لديك أنصارا يرتلون لك من الشكر بمقدار ما منحوا من قوة ،
 وحسب المشكور عجز الشكور ، فتقبل غير مأمور هذه الرقعة يدفعها الولاء ،
 ويصدها الحياء ، وتجاوز حد التقصير من فئة تراك نورا لبصائرنا

ولو أطاقوا انتقاصا من حياتهم لم يتحفوك بشيء غير أعمار
 كاتبه كاتبه كاتبه

حسن منصور	محمد عز العرب	احمد ابراهيم
المدرس بالمدرسة السنية	المدرس بالمدرسة السنية	المدرس بمدرسة الناصرية
كاتبه	كاتبه	كاتبه
محمد حسنين	محمد المهدي	حامد حسين والي
المدرس بالمدرسة الخديوية	المدرس بالخديوية	المدرس بمدرسة الجيزة

عبد الوهاب النجار

بمدرسة عابدين

وقد كان يحضر درس التفسير غير هؤلاء من الدارين منهم الشيخ عبدالعزيز
 شاويش بعد مجيئه من اوردية والشيخ مصطفى العناني وقد كلفاني ان (اقدمهما)
 اليه واذكر له رغبتهما في الانتظام في سلك مردييه ففعلت

الدرس العالي الخاص

اقترحت على الاستاذ الامام أكرم الله مشواه أن يعقد مجلسا في كل أسبوع أو أكثر لالتقاء بعض الحفاظ الحكيمة العالية ، وتمحيص بعض المسائل الخفية أو المشكلة ، وبيان ما بين الدين وعلم الاجتماع والفلسفة العقابية من الصلة ، وما أشبه هذا مما يعد وراء مستوى دروس الازهر

قل ومن يحضر هذه المجالس ؟ قلت بعض إخواننا المفكرين من أذكى متخرجي دار العلوم أساتذة المدارس الاميرية كفلان وفلاز ، ومن غيرهم كأحمد بك تيمور ومحمود بك سالم ورفيق بك العظيم . فقال لي في واحد منهم انه من الجامدين جداً (١) قلت لعله كان كذلك وانني اعاشره الآن فأراه مستقل الفكر ، ثم اتفقنا على ان يكون هذا الدرس في دار أحمد بك تيمور التي كانت في درب سعادة لانها في وسط القاهرة وصاحبها من أشد الناس رغبة في هذه المباحث وهو كان من الموظفين على جميع دروس الاستاذ الامام في الازهر . وهكذا كان في أول الامر ، ثم صرنا نذهب الى دار الاستاذ الامام في عين شمس ، واشترى احمد تيمور دارا بجوار داره ، لاجل التمكن من اقتباس انواره ، فسكن فيها انتظم عقد هذا الدرس من جماعة قليلة أذكر من احيائهم الآن الاساتذة

(١) هو المرحوم الشيخ محمد مهدي : وقد ذكرت له قول الاستاذ فيه فقال لي في سببه إنني كنت ذهبت مع الشيخ محمد زيد إلى دار سعد بك زغلول فوجدت عنده الاستاذ وفتح لي بك زغلول وقاسم بك أمين وغيرهم وكان الاستاذ يتكلم في أسباب ضعف المسلمين وجهاهم وانتشار البدع والخرافات فيهم وسوء حال علمائهم ، والجميع يوافقونه ويشاركونه في ذلك : فأردت أن أجادهم في بعضه فأعياني الامر : فقلت له : لم لا تكتبون هذه المسائل وتنشرونها ليعرفها الناس - وغرضي الصحيح التوريط ليرد عليه العلماء ؟ فقال قد وجدت جريدة أنشئت لهذا الغرض فطالعها تجد شيئا من ذلك في كل عدد منها وهي جريدة المنار . قال الشيخ مهدي رحمه الله فكان هذا سبب اشتراك في المنار من سنته الاولى فصحبني لك

الشيخ أحمد إبراهيم استاذ الشريعة في كلية الحقوق اليوم والشيخ حسن منصور - وكانا استاذين في المدرسة السنية - ومحمود بك سالم الشهير والشيخ أحمد الحمصاني - الاستاذ في بلدة بيروت الان ، ثم كان يحضره غيرهم ممن علم به من كبار المفكرين من رجال الحكومة وغيرهم من الادباء ومنهم شاعر مصر الاجتماعي محمد حافظ إبراهيم ولما زار مصر صديقنا الاستاذ محمد كرد علي مؤرخ الشام وكاتبها الاجتماعي أخبرته بهذا الدرس ودعوته اليه وكان من حاضريه يومئذ اسماعيل باشا صبري وأحمد فتحي بك زغلول ورفيق بك العظيم وكذا قاسم بك أمين على ما أظن ، فدهش ضيف مصر من روعة ذلك المجلس وجلال استاذه ، وبلاغة إلقائه ، ومكانة تلاميذه في العلم والادب والتقضاء والهيئة الاجتماعية ، فاسماعيل باشا صبري كان وكيل وزارة الحفانية ، وفتحي باشا زغلول كان رئيس محكمة مصر الاهلية ثم صار وكيلاً لوزارة الحفانية إذ كان سلفه المذكور احيى على المعاش

الدرس الاول طبيعة الدين وكونه غريزة في الانسان

كان موضوع الدرس الاول طبيعة الدين ومكانته من الانسان : هل هو حاجة من الحاج التي عرضت له في حياته الاجتماعية كما يقول بعض الفلاسفة وعلماء الاجتماع ؟ أم هو غريزي فيه ؟ بين أولا ما عرف في التاريخ من نشأة التدين وأطوار الدين في قبائل البدو ثم في شعوب الحضارة ، وترقيته بارتقاء البشر في العلوم والفنون والاجتماع ، وما يستدل به أهل المذهب الاول من ذلك على مذهبهم ، واستدل هو به على المذهب الآخر الذي جزم به وعبر عنه بقوله « إن الانسان حيوان ناطق متدين بالطبع » كما يقول بعض الحكماء ، متمدين او متمدين بالطبع قال في هذا المقام من هذا الدرس وغيره ما مثاله : إن روح التدين الغريزي في الانسان هو شعوره الفطري بأن فوق العالم الذي يعرفه باعياته وخواصها ومنافعها ومضارها وكل ما يشابهها مما لم يعرفه - موجودا غيبيا له السلطان والتصرف فيما ذكر كله ، فهو يحيل على ذلك السلطان الغيبي كل ما يجهل سببه في هذا العالم المشهود وإنما وقعت الجماعات البشرية في الوثنية بتأليه بعض أعيان عالم الشهادة من نبات وحيوان وغير ذلك من الاجرام العلوية بسبب الجهل بحقيقة ذلك الوجود

الغيبى وما يجب له من الصفات الوجودية وانتزيعه ، والجهل بحقيقة ما يظهر لهم في هذه الايمان المشهودة من خواص وأفعال : هل هي مخلوقة خاضعة مسخرة لسنن الاسباب والمسببات كأفهامهم أم هي فوق عالم الاسباب فهي مظهر لذلك السلطان الذي هو فوق تصرف الانسان أو عينه ؟ ولما رجحوا الاحتمال الثاني بجهاهم وجهوا عبادتهم الى كل ما اعتقدوا أن تلك القوة الغيبية ظهرت فيه لانه يخشى ضرره ويرجى نفعه - ولا معنى للعبادة الفطرية إلا التعظيم والخوف والرجاء لمن يملك الضر والنفع بسلاطه هو فوق الاسباب التي يملكها البشر

مثال ذلك أن الانسان الساذج الجاهل كان يرى الشيطان الصغير يقتل الانسان وما هو أقوى منه كالثور والفيل ، من غير أن يقطع عنقه أو يهشم رأسه أو يقر بطنه مثلاً ، وهو لا يعقل أن يكون لهذا سبب في هذا العالم لانه لا يعلم أن في هذا الوجود المشاهد مادة تسمى السم هي سبب هذا التأثير في دم الحيوان ، فيرجع به الى ما في غريزته من الاحالة على القدرة الغيبية التي هي فوق الاسباب . وذكر الاستاذ أمثلة متعددة لما توهمه الناس في المخلوقات التي عبدوها في طور البداوة وأطوار الحضارة حتى عبادة الكواكب وهذا الموضوع قد طرقة الاستاذ الامام في رسالة التوحيد وبسطه في درسها ولكنه لم يصرح في الازهر بمثل ما صرح به في هذا الدرس من الشبهات وكشفها ، لعلمه بأن كثيراً من طلبة العلم في الازهر لا يفهمون هذه الموضوعات حق الفهم فيخشى أن يعلق بأذهانهم من الشبهات ما لا يفهمون الجواب الداحض لها . وألم به ايضا في رده المشهور على موسيو هانوتو . وأقول هنا في تأييد هذا : إن بعض المجاورين أطلعني على كراسة له فيها ما فهمه من بعض دروس التوحيد فإذا به قد جعل التوحيد شركاً ، وقلب الحقائق قلباً فبينت له فساد فهمه فاعترف به

وتسكك في درس آخر عن حقيقة التصوف وتاريخه وأطواره ، ومن أحسن ما قاله فيه : كان غرض صوفية المسلمين تربية المرءين بالعلم والعمل الذي غايته أن يكون الدين وجداناً في أنفسهم تصدر عنه الأعمال الصالحة ، ولا تؤثر فيه الشبهات العارضة ، وكان أكثر الدروس الاخرى في المسائل الاجتماعية وفلسفة الاخلاق وحكم التشريع ودحض ما يرد على الاسلام من اعتراض أو شبهة ، بما يقبله العقل ويطمئن به القلب ، فحمد الله تعالى وجزاه خير الجزاء عنا وعن دينه وأمتة ،

المقصد الثاني

من الفصل السابع

مؤلفاته

بموجب تاريخ تأليفها بالتقريب

(١ — الواردات) رسالة في الكلام أو التوحيد على طريقة الصوفية وأسلوبهم وهي أول تأليفه وكان أعطانا نسخة منها في حياته . وقد نشرتها في الطبعة الأولى للجزء الثاني في منشأته ثم طبعتها على حدة وذكرت أنه قد رجع عن بعض ما كان قرره فيها كما يعلم من رسالة التوحيد له

(٢ — رسالة في وحدة الوجود) لم أطلع عليها وهو الذي أخبرني بها وقال أنها ليست بمعنى ما كتب عبد الكريم الجيلي وأمثاله مما هو أقرب الى مذاهب الحلول كالنصرانية منه الى توحيد الاسلام (بل هو أبعد عن الاسلام من النصرانية) ولكنها بأسلوب آخريين فيها مراتب الوجود وتعددتها من وجه ونظامها العام ووحدتها من وجه آخر ، ولعلنا نظفر بها ونطبعها

(٣ — تاريخ إسماعيل باشا) أخبرني بهذا الكتاب أحد تلاميذه الأولين وقال ان السيد عبد الله النديم كان أخذ من الفقيه نسخة في أثناء الثورة العراقية ونشر منه فصولا في جريدة الطائف بتصرف أوبغير تصرف ولم أسمع منه رحمه الله تعالى ذكره لهذا الكتاب وكنت أظن أنه لم يصنف شيئا إلا وقد أخبرني به لانه قص علي تاريخه بالتفصيل وكتب إلي شيئا مجملا منه كما علم القراء

(٤ — فلسفة الاجتماع والتاريخ) هو الكتاب الذي ألفه أيام كان يدرس مقدمة ابن خلدون في مدرسة دار العلوم كما ذكرنا في هذا التاريخ ، وقد فقد هذا الكتاب عند ما عزله توفيق باشا من المدرسة ونفي السيد جمال وأخذت أوداقه . وكان طيب الله ثراه يقول أمني لو يحفظ هذا الكتاب من وقع في يده

ويدعيه لنفسه ولو بمقدوني لينتفع به الناس ، وقد سألت عنه محمد باشا صالح المستشار في محكمة الاستئناف اذ كان ممن حضره عليه ، فقال لي : انني كنت أكتب ما عليه الاستاذ من تلك الدروس ، فطلبتها منه فقال انها بين أوراقى القديمة في البلد وعسى أن أبحث عنها وأجدها عند زيارتي للبلد في الاجازة ، ولكنه توفي ولم يفعل رحمه الله وعفا عنه

(٥ — حاشية عقائد الجلال الدواني) وهي غاية الغايات في علم الكلام وتحقيق مسائله وتحرير الخلاف بين المتكلمين وبين ما هو لفظي منه وما هو حقيقي ، وقد اهتمت في كثير من أبحاثها الى أن الحق في العقائد هو مذهب السلف ، ولكن كثيراً من نظريات المتكلمين وتأويلاتهم ظلت ناشئة في ذهنه زمن طويلاً ، ولا يزول مثل هذا إلا رويداً رويداً . والحاشية مطبوعة تباع في السوق (٦ — شرح نهج البلاغة) وهو شهر جداً وقد طبع في بيروت وفي طرابلس وفي مصر مراراً ، وكان سبب شرحه له حمل طلبة المدارس على مطالعته لاجل تحصيل ملكة البلاغة من كتاب مملوء بالتوحيد وعظمة الاسلام وذكر في مقدمته أنه لم يتعرض فيه لمسألة الخلافة لان الخلاف فيها بين الشيعة وأهل السنة معروف في كتبهما . وهو لم يكن يعتقد صحة اسناد كل ما في هذا الكتاب الى الامام عليه السلام ، ولا كان يعتقد أنه كاه أو جله موضوع كما قال الحافظ الذهبي ، ولم يكن يخفى عليه ان فيه دسائس مدرجة فيه ومنها ما ليس من أسلوب الصحابة وعصرهم في خطبهم وكتبهم كاصطلاحات المتكلمين الحادثة بعدهم

(٧ — شرح مقامات بدیع الزمان اہمذني) وهو مطبوع في بيروت ولم يعرف لغيره شرح لهذه المقامات وقد فرغ منه في ١٦ رمضان سنة ١٩٠٦ (٨ — شرح البصائر النصيرية) في المنطق وهو شرح وجيز أطاق عليه لفظ التعليقات والكتاب عالي الأسلوب وهو من أحسن ما كتب المسلمون في المنطق ولم يسبق لاحد قبله كتابة عليه فيما نعلم وقد قرأه درساً في الجامع الازهر وحضرناه عليه كما تقدم في المقصد الذي قبل هذا واعلم لا يتسامى أحد الى تدريسه بعده ، وإن كان من الكتب التي قرر مجلس إدارة الازهر تدريسيها فيه رسمياً

الا أن يكون بعض من تلقاه عنه ، وقد ذكرنا آنفا مزايا درسه له .

(٩ - نظام التربية والتعليم بمصر) رسالة في الطريقة المثلى لتربية المصريين وتعليمهم وهي على إيجازها من أحسن ما كتب وأنفعه وقد نشرناها في باب لوائح التربية والتعليم من منشآته (صفحة ٥٣٢ ج ٢ طبعة ثانية)

(١٠ - رسالة التوحيد)

وما أدراك ما رسالة التوحيد ؟ هي التي يصدق عليها القول المشهور « لم ينسج اسج على منوالها ، ولم تسمح قريحة بمثالها » هي التي يضح أن تعد معجزة من معجزات النبي عليه الصلاة والسلام ، ظهرت على يد الاستاذ الامام ، وآية من آيات الاسلام ، هي التي ينبغي أن تجمل مادة الدعوة الى هذا الدين ، ويعم تلقينها جميع المسلمين ، وقد قلت للاستاذ الامام رضي الله عنه إنه لولا اسم هذه الرسالة وما في أولها من الاصطلاحات الكلامية الوجيزة لكان انتشارها أضعاف ما هو الآن ، ولم الانتفاع بها كل مكان ، ولكن البعيد ، إذا سمع باسم رسالة التوحيد ، يتوهم أنها عقيدة كالسنوسية ، أو كالعقائد النسفية ، والقريب قد يأخذ نسخة منها ، فيصرفه ذكر الواجب والممكن والمستحيل في أولها عنها ، توهم أنها في علم الكلام ، الذي لا يتأوله إلا نظار العلماء الاعلام ، وأكثره لا حاجة اليه الآن . وقد كان رحمه الله تعالى عازما على بسط الكلام في هذه المقدمات ، وسائر مسائل الالهيات ، وجعل الكلام فيها كالكلام في النبوة ومزايا الاسلام ، موجها الى العقل والوجدان ، لا مجرد تقرير وجيز لا بهرمان ، وقد قرأها درسا في الازهر ولقيناها عنه وأجازنا بقراءتها ، وطبعناها مرارا مصححة على نسخته التي قرأها في الازهر ، وعلى جدول وضعه لتلقيحها في زهاء سبعين موضعا ، وعلقنا عليها بعض الحواشي الضرورية ومنها ما سمعناه منه في الدرس وترجمت باللغة الفرنسية وطبعت ولقد كان لرسالة التوحيد وقع عظيم في انفس اهل العقل والفهم ، وعارفي قدر العلم ، لا من المسلمين وحدهم ، بل صرح بعض المستقلين من نصارى سورية بأشياء عليها ، حتى قال بعضهم : « إذا كان الاسلام هو ما بينته هذه الرسالة فانا

أول مسلم ، ولكن مؤلفها فيلسوف ديني يقول ينبغي ان يكون الاسلام كذا »
فرد عليه أحد المسلمين بان مؤلفها من اكابر علماء الازهر وهو يقرؤها فيه ولم
ينكر أحد من علمائه عليها ، ولا قال انها زادت في الاسلام ما ليس منه
وقال فاضل آخر منهم: اود لو تقرأ هذه الرسالة في جميع المدارس النصرانية
بعد حذف الكلام في نبوة محمد (ص) منها . اي لاجل وقوف نابتة النصارى على سر
الدين المطلق ^(١) وقد نشرت هذا وذاك في المجلد الاول من المنار

وقد جاء مصر في شتاء سنة ١٣٢٢ هـ (١٩٠٥ م) نسيم بك خلاط احد
كبار وجهاء النصارى وفضلائهم في طرابلس الشام واحب زيارة الاستاذ الامام
فذهبت به اليه في دار الافتاء بالازهر فرحب به ، وكان مما قاله نسيم بك في
حضرته . انه قرأ رسالة التوحيد واعجب بتحقيقها وبلاغتها ، وذكر من
اعجاب السوريين بها وتعلقهم بالاستاذ ، وكان في المجلس جماعة من علماء الازهر
فقال احدهم لنسيم بك : هل اشتهرت رسالة التوحيد عندكم حتى قرأها المسلمون
وغيرهم ؟ فقال نعم ولها حظها من حسن الذكر والاعجاب ، كما ان جميع الطوائف
عندنا تجل سماحة الاستاذ ، وتعشق مشربه في الاصلاح والتأليف بين الطوائف
الذي نحن في اشد الحاجة اليه ولا نجاح لنا بسواه . قال العالم : لكنني اخبرك بخبر ربما
تعجب له وهوان بعض علماء الازهر لما يقرأ هذه الرسالة : فنال من اليك العجب
وقال اني اتبرع بخمسين نسخة من الرسالة توزع على الاذكياء الفقراء ، ثم انه امضى
ذلك التبرع بالفعل ، فكان له من حسن التأثير عند المفتي وسائر العلماء ما يستحقه
وقد ذكرت هذا في المجلد السابع من المنار بعد مقدمة وقفيت عليه بهذه العبارة:
لا جرم ان هذه الاريجية فينهاي التي تقرب بعضنا من بعض ، وبامثال
هؤلاء الرجال يغاب فضلاء الصالحين ، عصب المفسدين المفرقين ، الذين لا تجمعهم
امة ولا جنسية ولا قانون ولا دين ، بل اخترعوا لهم وطنية بالبهتان ، لا يشهد لها

(١) اخبرني صموئيل افندي بني الاديب الطرابلسي شقيق الاستاذ جورجى بنى
صاحب مجلة المباحث أنه عني هذا على مطران طرابلس في ذلك العهد غريغوريوس حداد
«الذى صار بطرك الروم الارثوذكس بعد ذلك» إذ كان ناظر المدرسة كفتين المشهورة

شرع ولا برهان ، وانما اساسها الاهواء ، وابتزاز الدرام من الدهماء اه
وقد قرظ الرسالة الشيخ سعيد الشرتوني الكاثوليكي مؤلف معجم أقرب
الموارد في كتاب خاص أرسله الى المؤلف تقرير مؤمن بما فيها . وهذا نصه :

(تقرير الشيخ سعيد الخوري الشرتوني)

أيها الشيخ الفاضل

بيننا أنا في لوعة من طول البعاد ، واليأس من اللقاء ، أتلقى أخبار مولاي
من سيادة الحاج محبي الدين حماده ، إذ وردتني هديتكم التي كسثتم بها عار العصر ،
وجلبتم له بها الفخر ، وهي مؤلفكم الفريد ، في علم التوحيد ، الذي لا ريب عندي
أن الله يشيكم عليه بكرامة الدنيا وسعادة الآخرة ، بعد طول العسر . ولم أتعجب
بما وقعت عليه فيه من البدائع ورأيت من الجواهر ، اصدوره ممن كشف الله عن
بصيرته . وميمزه بالاطلاع على أسرار المعقول والمنقول ، واختصه بفطرة شقيقة
الروعة والكرم ، أخت كل ماثرة ومحمدة . وما اظن ذوب العمل المصنف أحلى
عندي منه . أقرأه ولا أمل ، ثم اعيدته ملتذاً به ولا انتذاذ السامع عند ما يسمع
من المغني نغمة تطرب سمعه وتوأم ذوقه . فياثر في العصر الاسلامي بك ، وبآخر
آدم بمثلك . فكان الذي يطالع الكتاب المشار اليه يرى شخصاً يشخص كل
ما يحتاج الفكر ويدور في الخاطر ، ولا يجد المتفكر طريقاً لاخرجه بعبارة تحمل معناه .
مأنت في كل ما شرع فيه إلا رجل جديد عندنا ، مع طول معاشرتنا وكثرة
مخالطتنا ، فلا غرو أن يكون دماغك مادة لكل بديعة ، ومخزننا لكل دقيقة .
والخلاصة ان مثلك آية من آيات الله تشهد بقدرته وجوده ، وتصدع بأن بين
الناس فروقا بعيدة المدى

هذا وأسأل الله أن يتولى مكافأتك على هذه الخيرية ، ويدعمك شرفاً

الداعي

سعيد الخوري الشرتوني ، بمكة ر ر

سعيد الخوري الشرتوني

بيروت ٦ ربيع أول سنة ١٣١٦

أقوال علماء المسلمين في الرسالة

وأما أهل العلم من المسلمين فقد قرظ كثير منهم هذه الرسالة بقدر أفهامهم وهي تختلف باختلاف ما أوتوا من العلم وما قرأوا من الكتب الإسلامية وغيرها ، ولا يفهمها حق الفهم إلا من كان عالماً بمتهى ما كتبه جهابذة المتكلمين في العقائد الإسلامية والرد على المخالفين لها ، وواقفاً أتم الوقوف على شبهات فلاسفة الأفرنج على الأديان كلها ، وشبهات اللاهوتيين من رجال السكنائس على الإسلام نفسه وما يتكفونه من الطعن فيه ، ويقل في المسلمين من جمع بين الأمرين

سألت أحد كبار الفريق الأول عنها وهو العلامة الشيخ عبد القادر الرافعي الكبير وكان في الذروة العليا من علماء الأزهر وأشهر فقهاء الحنفية: كيف رأيت رسالة التوحيد؟ فقال: عظيمة قوي ، الشيخ ذكي قوي وواسع الاطلاع ، جمع من هنا ومن هناك لفظه وهذا غاية المدح فان غاية العلم عندهم كثرة الاطلاع وأعظم التأليف جمع الأقوال الحسنة من المواضع المختلفة ، ولا سيما النادرة التي يقل من أطلع عليها ، ومن يقدر على تلخيصها وإيداعها في مصنفه ، وكان حظ من دون الشيخ الرافعي في العلم والفهم من علماء الأزهر الجامدين ان قال : إن هذه الرسالة إنشاء لاعلم !! وقال محمد فريد أفندي وجدي - وهو من الكتاب الواسعي الاطلاع على أقوال الأفرنج وفلاسفتهم في الأديان عامة والإسلام خاصة - : ان هذه الرسالة لا يمكن شرحها إلا في عدة مجلدات لأنها تشير الى أكبر معارك الفلاسفة في الأديان مع تقرير ما يوافق الإسلام منها ورد ما يخالفه من غير تصريح بأن هنالك مباحث وشبهات مشكلة اه بالمعنى

وأقول ان الأستاذ الامام رحمه الله تعالى كان متعمدا لهذا الإبهام لانه لم يكن يرى من الحكمة بيان مطاعن الماديين والفلاسفة على الدين المطلق ، ولا مطاعن الملاحدة ودعاة النصرانية على الإسلام بالتصريح ، والرد عليها بالتطويل ، كما كان يفعل فخر الدين الرازي في تفسيره ، إذ كان كثيرا ما يبسط الشبهات ويقصر في الرد عليها فيكون كلامه مقويا لها ، وقد بينت في الكلام على دروس شيخنا الخاصة ببعض الخواص سبب إبهامه هذا في دروس التفسير والتوحيد. بالأزهر ،

وضربت له المثل بمسألة نشأة الأديان وتطورها والخلاف في الدين المطلق هل هو غريزي في البشر أو حاجة من الحاجات الاجتماعية التي عرضت لهم ، وبتبع هذه المقارنة بين الأديان ، وترقيتها بمقتضى سنة الاجتماع ، حتى ختمت بالاسلام ، وفي هذه المباحث شبهات لمنكري الوحي فندها في رسالة التوحيد وقرر الحق بعبارات بليغة لا تثير أدنى شبهة في قلوب ضعفاء الطلبة والأغبياء من قارئها ، وقد قلت له مرة في عبارة منها : لو فهم الجامدون من شيوخ الأزهر معناها أو المراد منها لا اضطربوا فيه وكان سبب القال والقال

ولاجل تعمده طيب الله ثراه لهذا الأسلوب قال في الدرس : إنني لا أسمح لاحد أن يشرح هذه الرسالة ولا أن يضع لها حاشية

وقد بينت في تقريري لها في المنار أنها هي الكتاب الوحيد الذي يصلح في هذا العصر للاعتماد عليه في الدعوة إلى الاسلام على الوجه الذي اشترطه المتكلمون في صحة الدعوة وهي أن تكون على وجه يحرك المدعو إلى النظر فيه ، وهذا الشرط وجيه فإن في الأرض أديانا كثيرة قيل إنها تبلغ الألف ، فلا يمكن أن تتوجه نفس كل أحد بلغه خبر دين أو دعوة إلى دين منها إلى النظر فيه لاجل معرفة حقه من باطله ، وناهيك بمن يريد الدعوة في هذا العصر إلى الاسلام في بلاد يصوره رجال الدين فيها بغير صورته ، ويصفون رسوله بضد صفاته ، ويقترون على كتابه وسنته وتاريخه أقبح القري

وقد نشرت في المنار عدة تقارير للرسالة منها قصيدة لامام اللغة والأدب في هذا العصر الشيخ محمد محمود الشنقيطي رحمه الله تعالى ألقاها على كرسي الدرس في الرواق العباسي والمؤلف حاضر وقد أشار إليه بيده عند ذكر اسمه في قوله :

لقد مات دين الله وانحل عقده فأحياء بالذكرى (محمد عبده)

وسياتي لهذا التقرير ذكر في الكلام على انصاف الاستاذ الامام عند ذكر أخلاقه وتشر القصيدة في الذيل ان شاء الله تعالى

تقريظ الشيخ سامي بوحاجب للرسالة

وهو أكبر علماء تونس وأشهرهم وكان باش مفتي المالكية . كتب رحمه الله
الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وسلم
حيا الله تعالى جناب الجليل الهام ، والعلامة الذي لا يفارق بدر معارفه النمام ،
الامام الذي هو لحل كل عويصة مأموم ، والفد المختص بصرف الهمة لكل ما ينفع
العموم ، زينة المناصب الشرعية ، والمجتهد في حسم كل ما يخل بحقوقها المرعية ،
حضرة مفتي الديار المصرية ، الشيخ سيدي محمد عبده قابل جميع مساعيه بأعز ما
يمنح المولى عبده

أما بعد التحية ، وبث الاشواق الروحية ، للنجاة الشمية . فقد وصاني
على طريق السيد عمر الخشاب ما أتخفتمونا به بل سائر الامة ، وهو تلك الرسالة
الفراء المهمة ، التي هي الملاك الوحيد ، للحصول بسهولة على ما يلزم استحضاره
من علم التوحيد ، فلقد أجدتم حفظكم الله في تحرير واجباته الاعتقادية ، وإفراغ
براهينها في مسائل مألوفة ، وأساليب اعتيادية ، بحيث يسهل نفوذ اليقين الى
القلوب ، ولا تحول الشبه دون وصول النفس الى المطلوب ، ولما أتيت على معظم
الرسالة المذكورة ، وعددتها من مساعيكم التي لا تزال عند الله وعباده مشكورة ،
رأيتني ملزما بواجبين عيني وكفائي ، وان كان قيام الغير بالكافي مما يسوغ بالاول
اكتفائي ، مع أن هاته البطاقة ، ليس لها بكلا الواجبين طاقة ، فحسبنا الآن أن
نعلن بشكر تخصيصكم للعبد بنسخة الرسالة المشار اليها ، ونعلم بأن حسن الرسالة
وحسن نية المؤلف أظهر من أهالينا مبادي الاقبال عليها ، فله المستول أن يشكر
سميكم ، ويدم لنفع الامة بقاءكم ورعيكم

حرره عبد ودكم وكالكم

سالم بوحاجب

٧ شوال سنة ١٣١٧

(أقول) لو كتب هذا الشيخ الكبير هذا الكتاب بعد اتمام الرسالة قراءة
وتأملا لعلم كنه قيمتها ، ولكان كتابه هذا ناطقا بان براهينها فوق المؤلف .
كما ان اسلوبها فوق المعروف .

وقرظها أيضا أحد علماء الشيعة وأدبائهم في سوربة تقریظا حسنا نشرناه

في أوائل المجلد السابع من المنار فقال في آخر تقريظ له للمنار مانصه : (ص ٦٨)

تقريظ عالم أدب شيعي للرسالة

«وحسبك في ذلك ما يقتبس من رسالة التوحيد لاستاذ الكل ، ووحيد هذا العصر أو من نظيره قل ، عليم العلوم الذي عم مده ، الشيخ محمد عبده ، كثر الله في الأئمة أمثاله ، وزاد بين الورى اعظامه واجلاله ، فكم له فيها من حَزْرٍ أصاب المفصل ، ورؤية لم يخطئ بها الغرض ، إن خفي على التأمل ، وتحقيق كشف به الحجاب ، لأولي البصائر والالباب ، ولم يدع بعده عذراً لمفكر ولا مرتاب ، وحاشا أن تخلو الارض من عامل يعمل فيها بخير وهدى ، وداع يدعو فيها الى طريق نجاة ورشاد للورى ، فكم دافع عن الايمان ، بلسان أمضى من السنان ، وعن الاسلام ، بأقلام أمض وقفاً في الكفر من مريشات السهام . وعن الحنيفية البيضاء بمسود مداد أقطع من البيض الحداد ، أوضح مع الايجاز أدلة التوحيد ، بعد اثبات الواجب مالا يتطلب التأمل بعده من مزيد ، وجل جولة في بيان ما يمكن الوصول اليه من الصفات ، أغني بها النصف عن اللجاج والتعرض للهلكات . وأوجز في صفتي الكلام والبصر ، مافيه البلاغ والمبر ، وتكلم في أفعاله تعالى بما يسبق الى القلوب اعتقاده ، وألف بين الفريقين ^(١) بما هو حري أن يتبع وقرب ماتوم استبعاده ، وسلك في الجبر والاختيار جادة الاعتدال ، ومال في مبحث حسن الافعال الى أحسن الاقوال . وبسط القول في النبوة والرسالة ، حتى أوضح الحق وقمع الجهمية ، وألف في مبحث الرؤية بين الفريقين ^(٢) ورفع الوحشة وأزال النزاع من البين . وذلك الفضل من الله يؤتیه من عباده من يشاء ، ويمنحه من سبقته العناية فيه منذ فطر الاشياء . فجدير بمصر أن تفتخر بمن فيها من أفاضل العصر ، وحقيق بحملة العلم في كل قطر ، أن ترفع أيدي الابتهاال لعزة ذي الجلال بالدعاء لكم بدوام التأييد والمجد ، والتوفيق لنصرة الدين ، وإيضاح الحق ودحض الباطل وارشاد الضال . وجمع الكلمة واحكام الألفة بين المسلمين ، انه على ذلك قدير ، وبالإجابة جدير . آمين آمين

(ع ١٠)

(١) يعني بالفريقين أهل السنة والشيعة

تقرير الامير شبيب للرسالة

ومنها تقرير لنا بغيره في الديار السورية الامير شبيب أرسلنا ذكره في كتاب خاص، ولو كتبه لاجل النشر في الصحف لزاد في البيان والابداع قال: « قرأت رسالة التوحيد ولم أزد بكم علما ، الا أنني سررت لكم بذورها بعد أن حجت المحاكم بين الانظار، وبين تلك الآثار، وبعد أن ظن أن القضاء^(١) صرف نظركم عن كل ما سواه ، ولعمري ان أحسن عمل يؤتى هو مثل هذا الاثر ، ولم أقرأ في مكتوب العصر شيئا أبدع من هذه الرسالة ولا ما يداينها ، الا ان كان بعض كلام المرحوم السيد جمال الدين ، وعليه فالدائرة واحدة لا حق لي في الكلام من جهة الفن وتعديل الآراء والمذاهب ، ومع هذا فحيث كان الامر من العقول تأملت فوجدت أن طريقة هذه الرسالة هي أقصد الطرائق ، وانها غاية ما يرتاح اليه العقل ويرتاح فيه ، فما أشكل بعدها من معالقات أسرار الوجود فهو مما حتم الله بأشكله وخبا نوره عن عباده » وأما البيان فقد طالما اعتذرت أن الانشاء مارق به المحسوس حتى كاد يسيل ، أو تجرد منه مثال للتخييل ، ولقد وجدتني من تلك الرسالة في عالم معنوي قادت البراءة أسرارها ومجرداته بزمام التعبير ، الى أن تخيات آني قابض على المعاني بيدي ، فضلا عن آني متمثلها في خلدي ، فهذا غاية الخلق من البيان ، وهو ما أتت به الرسالة اه (١١ - تقرير المحاكم الشرعية) هو على خصوصية موضوعه مفيد حتى لغير القضاة ومستخدمي هذه المحاكم من جميع أهل العلم والادب لا سيما طلاب علم الفقه فانه يعطيهم من البصيرة في طريقة التحصيل على الوجه الذي ينتفعون به وينفعون مالا يجودونه في سواه ، وفيه كثير من الفوائد الادارية ، والاجتماعية ، والادبية ، وأحوج الناس اليه بعد القضاة وكتاب المحاكم المرشحون للقضاء وللكتابة في هذه المحاكم ، وقد طبعناه على حديثه ، ونكأنا عليه في مقصد عمله في اصلاح هذه المحاكم من هذا الجزء ونشرنا فيه مقدمته للمؤلف ومقدمتنا لطبعه ونشره وفيها من بيان مزاياه ما يغني عن اعادته هنا

(١) كان الاستاذ في تلك الاوقات قاضيا في محكمة الاستئناف في القضاء تورية

١٢ - الاسلام والنصرانية مع العلم والمرنية

وهو مقالات كتبها لمجلة المنار ثم جردناها منها وطبعناها على حديثها وسميتها بهذا الاسم باذنه ، فجاءت كتابا مستقلا أعيد طبعه مرارا . وسند كر في مقصد عمله في الدفاع عن الاسلام بسبب كتابته ، وغرضه الا هم منه . وهو ايقاظ المسلمين وإرشادهم الى أسباب تأخرهم وضياع مجدهم وزوال ملكهم ، وإلى المخرج منه ، فهو لم يترك شيئا من هذه الأسباب الا وقد بينه أحسن بيان . مؤيدا بالبرهان ، قترجيج الاسلام على النصرانية في حرية العلم ونشأة المدنية كان هو الغرض الأدنى المحرك للكتابة ، وإرشاد المسلمين المذكور هو الغرض الأعلى

ولكن هؤلاء المسلمين الساكنين الغافلين عن أنفسهم لما يعرف أكثرهم قيمة هذا الكتاب ، ولو عرفوها لوجدته في كل بيت من بيوتهم ولقرأه مرارا كل متملم ومتعلم منهم ، بل قال أحد العقلاء الفضلاء انه يجب أن يقرأ في كل سنة مرارا . وأنا أقول قرأته حين طبعته في السنة الخامسة للمنار مرارا ، ثم قرأته عند تصحيح كل طبعة وأجدني أستفيد منه في كل مرة عبرا كثيرة لا عبرة ، وتنجز لي منه ينابيع للحياة غزيرة .

(١٣ - تفسير سورة المصير) كان رحمه الله تعالى قد فسر هذه السورة في دروس متعددة كما تقدم بيانه في الكلام على سبب قراءته للتفسير العام في الازهر ، ثم فسرها في الجزائر تفسيراً مجملاً مختصراً ، ثم كتبه لينشر في المنار إجابة لرغبتنا ورغبة بعض أهل العلم في مدينة الجزائر الذين حضروا هناك درسه في تفسيرها ، وقد كتب الأستاذ في حاشية تفسير جزء عم عند تفسير هذه السورة ما نصه : « وقد كتبنا تفسيراً لهذه السورة الشريفة نشر وحده بعد ان طبع في مطبعة جريدة المنار وهو ما كنا ألقيناه درسا في مدينة الجزائر في شهر جمادى الاولى سنة ١٣٢١ وفيه تفصيل طويل لما أجملاه في هذا التفسير المختصر فمن أراد بيانا أوسع ، وتفصيلا أبعد ، فليطلب ذلك التفسير ، فهو فيما أعلم غير مسبوق بنظيره اه » أقول اننا طبعناه بالقطع الصغير ليوضع في الجيب وطبعنا معه ملخص درس الأستاذ الامام في تونس وموضوعه العلوم الاسلامية وأقرب الطرق لتعلمها

(١٤ - تفسير جزء عم) قد كتب تفسير هذا الجزء ايقراً في مدارس الجمعية الخيرية الاسلامية وجعل طبعه حقاً للجمعية خاصاً بها - وقد كتبه في بعض أسفاره الصيفية الى أوربة ، وانه في مدينة جنيف من سويسرة في صيف سنة ١٣٢١ هـ الموافق ١٩٠٣ م وطبع الطبعة الاولى في اوائل سنة ١٣٢٢ وهو تفسير أشهر من نار على علم ، وقد كان رواجه أكثر من رواج سائر كتبه على شدة الرغبة فيها كلها ، حتى انه قد وزع منه عدة ألوف في عدة شهور ، وهذا شيء لم يعهد له نظير في المطبوعات العربية افتتح خطبته بيضة أسطر فيها اشارة الى كل ما يحتاج اليه المسلمون من اصلاح في دينهم ودنياهم ، متضمن لكل ما هم عليه من سوء الحال وخطر الاستقبال ، وهو ما يمكن أن يكون موضوعاً لدروس كثيرة ، وخطب مفيدة .

ثم ذكر من الباعث على تأليفه لمدارس الجمعية ما يرشد جميع المسلمين الى ما هم في أشد الحاجة اليه من الاهتداء بالقرآن او كيف يكون ذلك إذ قال « ليكون مرجعاً للامانة لمدارس الجمعية في تفهيم التلامذة معاني ما يحفظون من الجزئين [أي هذا الجزء وجزء (تبارك) الذي كان عازماً على تفسيره بعده] اينشؤا متعودين على فهم ما يحفظون ، وتدبر ما يقرأون ، وليكون ما في تلك السور من دلائل التوحيد والعظائم والمعبر مشرقاً للمقائد السليمة في نفوسهم ، وعاملاً للاصلاح في اعمالهم وأخلاقهم »

أليس هذا هو الواجب على كل مسلم من هداية القرآن ؟ ففي أي مدرسة وفي أي مكان من بلاد الاسلام يلقي أولاد المسلمين هذا ويربون عليه ؟ اللهم اننا لانعلم هذه هي مؤلفاته الثمينة ولا حاجة هنا لذكر ما بدأ به ولم يتمه ، وأنفعه كتاب أسباب اثورة العرابية ، وقد لخصنا بعضه في موضعه من هذا الكتاب

المقصد الثالث

من الفصل السابع

دفاعه عما ابرس من، وكشفه للشبهات والادوهم

كان قدس الله روحه مدافعاً عن الاسلام طول عمره بلسانه وقلبه ، وخير مثل له في أخلاقه وعلمه وعمله، حتى قالت امرأة سويسرية من المجلات المصنفات في علمي التربية والاخلاق : ما كنت أظن قبل معرفة هذا الرجل أن القداسة توجد في غير المسيحية

وكان دفاعه عن الاسلام ثلاثة أنواع يميزها رابع يدخل في مقصد آخر من مقاصده وهو التمييز بين اهل الاديان، ولا سيما النصرانية والاسلام، بما يزيل أكبر شقاق بين الشرق والغرب أو بين البشر، والتأليف بين أهلها، بما يحول دون اتخاذها سبباً لصد ما شرعت له وهو الهداية والخير، وسنلم بهذا بعد بيان الانواع الثلاثة (النوع الاول)

الدفاع اللساني أو الشفوي بكشف شبهات المرتابين ، وأغلاط المخطئين ، واعتراضات الجاهلين ، وكبت الشائنين

المعروف عن أكثر علماء المسلمين الذين نصفهم بالجامدين ، ويصفهم الكثيرون بالمتعصين والمغرورين ، أن من يسأل أحدهم عن شبهة عرضت له في دينه، أو مشكل أوردته على بعض مسائله، يجيبه بما يعرفه في الكتب المتداولة في أصل المسألة التي تتعلق بها الشبهة وإن لم يكن جواباً داحضاً لها ، فإن قبله مدعناً فذاك ، وإن جادله فيه، وقال إن هذا عين المسألة التي لم أعقلها أو لم تظهر لي حقيقتها ، لا جواب عن شبهتي عليها ، أعرض عنه ونأى بجانبه ، ونبرزه بلقب الكفر أو الابتداع ، إلا أن يكون وجيهاً لا يتجرأ على مواجهته بما يكره من فعل أو كلام وأما استاذنا رحمه الله تعالى فكان أشد رفقاً بمثل هذا السائل من غيره، وكان يجيبه بحسب ما يراه من حاله واستعداده في العلم والفهم ، فإن لم يعقل الجواب أو لم يطمئن

له قلبه ، أرجأ الحديث معه فيه الى وقت آخر ان كل من يجتمع به ، وربما أحاله على مطالعة الموضوع في كتاب معين لاجل الكلام معه فيه بعد مطالعته . وقد ذكر لنا في الدرس الخاص مثلين في هذا الباب وقعا بينه وبين بعض أصحابه (أحدهما) أن صديقه محمد بك راسم كان قد رسخ في نفسه مسائل لا تتفق مع المعروف من قطعيات الدين ، وعرضت له شبهات كان بها او فيها من المراتيين ، فما زال يحاور فيها حتى استلها من أعماق قلبه استلالا ، فكان من أقوى النابتة المدنية إيمانا وأحسنها أعمالا ، وصار من قراء إحياء علوم الدين المتدبرين لحكمته ، وسيا في ذكر كل الصداقة بينهما في موضعه

(ثانيهما) أن صاحبه الشيخ سعيداً الشرتوني الذي مر ذكره قريبا في الكلام على رسالة التوحيد ، بعد ان مر فيما كتبه اليه الامير شكيب من سيرة الاستاذ في سورية (ص ٤٠٠) قال له يوما إذ كان مقبلا في بيروت : إسمح لي يا استاذ أن أقول لك إن نهج البلاغة أباع من القرآن . فلم يرد عليه بانكار ولا إقرار ، حتى كأنه لم يسمع الكلمة لما دل عليه قوله من أنه لم يفهم بلاغة القرآن ، ولم يقدر أساليبه قدرها ، على سعة اطلاعه في اللغة وآدابها ، وظل الكلام جاريا بينهما مجراه الاول ، ثم كان يفترض المناسبات فيما كان يدور بينهما مدة وجود الامام في بيروت من الكلام في المسائل اللغوية الادبية والعلمية المختلفة ، فيورد له في كل محاورة ما يناسبها من آيات القرآن ، وما فيها من دقائق نكت البلاغة وروعة البيان ، حتى أدرك أن نهج البلاغة لا يعد في جنب كتاب الله شيئا مذكورا ، واعترف بذلك معجبا فخورا ، بل امتلأ قلبه من عظمة الاسلام ، والعلم بأن ما عده من الاديان لا يبلغ أن يكون بجانبه كنهج البلاغة في جنب الفرقان وذكر الاستاذ الامام في ذلك الدرس أنه كان معه مرة فسمعا جرس الكنيسة فوضع الشرتوني أصبعيه في أذنيه والتفت اليه قائلا انظر أيها الاستاذ الفرق بين الدعاء الى العبادة عندنا والدعاء اليها عندهم بالاذان الذي هو نفسه عبادة . وأقول ثم كان تقريظه لرسالة التوحيد أعظم من هذا وأدل على مكانة الاسلام من نفسه ، وتأثيره في وجدانه وعقله

وهكذا كان أسلوب الاستاذ الامام ومنهاجه مع أهل الأديان وأهل المذاهب الإسلامية وطوائفها ، كان يظهر حقية الاسلام وعلوه بالصفة التي كان عليها الصدر الاول في المناسبات بعبارات فصيحة زهية بعيدة عن التعريض بأديان الحاضرين أو مذاهبهم المخالفة لدين الاستاذ ومذهبه فيه ، حتى كان يكون محل إعجاب الجميع واحترامهم ، واعترفهم بان الاسلام فوق ما كانوا يعلمون منه ، ومباين لكثير مما كان يروى لهم عنه ، كما بين ذلك الامير شكيب في المقال الذي وصف به سيرة الاستاذ الامام في بيروت (ص ٤٠٢)

احالته بعض المستفتين على مراده المؤلف

وكان كثيرا ما يرسل الي بعض السائلين عن الشبهات ، والمستفتين في المشكلات ، لكثرة أعماله ، وثقته بتلميذه ، كما كان يحيل علي بعض الاسئلة المكتوبة على ماسبق في الكلام على فتاويه. وأذكر من الاحياء المعروفين منهم الاستاذ محمد لطفي جمعة المحامي الكاتب الخطيب المشهور كان كتب اليه وهو تلميذ في طنطا مكتوبات فيها أسئلة من هذا النوع ، وكان رحمه الله تعالى يرسلها الي لأجيبه عنها. وأذكر انني كتبت اليه مستحسنا امامه بمصر لفاذكرة الشفوية في مشكلاته وانه حضر ولقي الاستاذ وأراد البحث معه في تلك المسائل : فقال له اذهب إلى فلان صاحب المنار فهو يجيبك عما تسأل بمثل ما أجيبك به - او ما هذا معناه - وكتب لي رقعة أو بطاقة في التعريف به وبمعرضه ، فلما أعطاه إياها قال له أنا أذهب إلى صاحب المنار ولكنني أحفظ هذه أثرا من فضيلتكم عندي . قل لا بأس ، وأنا أكتب لك رقعة أخرى فجاءني ولا اذكر ما دار بيننا بالتفصيل

بعد كتابة ما تقدم راجعت ما أحفظه من أمثال هذه المكتوبات فوجدت فيها كتابين للاستاذ لطفي جمعة رأيت أن أنشرهما لما فيهما من الدلالة على ذكائه وحرية ، وبحبه في زمن التعليم في أعلى مسائل الفلسفة وعلاقتها بالدين ، وحسن إنشائه الذي يقل مثله فيمن كان في سنه وتحصيله ، ومعرفة بكافة الاستاذ الامام وفضله ، وإلهامه الرجوع اليه فيما يهمه من أمره ، ووصفه لتعليم الدين في المدارس الاميرية وأمثالها ، وخلوها من التعليم الديني والتربية المالية التي يجب تنشئة التلاميذ عليها .

﴿ الكتاب الاول ﴾

طنطا في ٢٤ فبراير سنة ١٩٠٤

اللوكندة الخديوية بشارع البورصة — محمد لطفي جمعة

سيدي الاستاذ

يكتب اليك شاب قصم الدهر ظهره ، ونامت عليه المصائب بكلكلها ،
فجلس في مجتمع من الناس لا يعرف منهم إنسانا

فلا صديق اليه مشتكي حزني ولا أنيس اليه منتهى جذلي

جلست وأنا مغمم بالهموم والاحزان ، وصدري يحول به الحزن والضيق ، وفؤادي
حروع ، وعقلي يكاد يطير شعاعا ، فقلت الى من أشكو ، ومن ذا الذي يسمع
تألمي إلا الله . ولكن تلك القوة الهائلة تعلم ما أنا فيه ولا تفرج كربتي ، لانه لم
يأن الأوان ، فقلت إني كاتب لشيخ هذه الأمة ، علي أجدى سلوى في كتابتي اليه
وأنا أشكو في حياتي هذه من أمرين : أمر يتعلق بنفسي ، وأمر يتعلق بجسمي
وأمر نفسي تحته مسائل شتى .

نشأت كما يذشأ كل مسلم مصري ، وأنا لا أعرف من ديني إلا اسمه ، ولا
أعرف من أديان الناس إلا أنها كفر وبهتان . وحفظت قليلا من القرآن في المدرسة
الابتدائية ، كنت أضحك منها عند تلاوتها ، وخرجت من المدارس الابتدائية الى
المدارس الثانوية ، وأنا لا أزال كما كنت لا أعرف الله إلا باسمه ، ولا النبي إلا
(بصلى الله عليه وسلم)

وكان لنا استاذ غرس في نفوسنا حب المطالعة والبحث وأرانا القرآن بشكل
جديد ، وفسر منه آيات كثيرة ، فلم نعد نقول ان تفسيره حرام على غير العلماء .
وقرأت كثيرا في الكتب الانكليزية والعربية وطالعت فلسفة باكون
وفلسفة ابن رشد وندفا مختلفة من هذه العلوم ، فزاد الامر علي إشكالا ، فبقيت
كريشة في مهب الريح ، ثم نظرت في أصل الروح وما هي وكيف خلقت ، وما
أصل الخلق ؟ وهل نحن اجزاء منه ؟ وهل هناك قوة هائلة هي الله ؟ وهل العالم

يسير بنظام؟ وهل وجدت المادة قبل الخالق؟ أو هو الذي خلقها؟ وكيف خلق المادة؟ ثم كيف خلقت النفس البشرية؟ ذلك المخلوق الكبير الذي إذا سار في طريق الخير كان مثالا لله، وإن سار على درب الشر كان صورة للشيطان، وما هو الإنسان؟ ذلك (الحيوان الاله) العجيب، وأين النفس من جسمه؟ وما معنى أنها ملازمة للجسم؟ ثم جاءت مسألة اقضاء والقدر وأعمال الإنسان في هذه الحياة، وأقول بانها زادتني تعباً على تعبي، فلا أنا قادر على أن أقول إن كل شيء من عند الله، ولا قادر على أن أقول إن العالم متروك سدى، لأن في قلبي ما ينقض كلا هذين القولين ثم نظرت في الموت ولماذا هو في وقت معين؟ ولماذا لا يطيل الإنسان عمره؟ ثم نظرت في هل هناك حساب وبأي شكل؟

وأنا لا أعتقد بالبعث بالصورة الموضحة أي أننا نبقى أجساماً ونفوساً. ثم نظرت في الجنة فقلت إن ليس فيها «حورا وولداً» (كذا) بل فيها كالات نفسانية وإننا ننقل إلى عالم أرقى من هذا العالم وربما كان كوكبا من الكواكب. وهكذا حتى نصل إلى أقصى درجات الكمال.

وكذلك ليست النار ناراً كما يقال، بل هي عبارة عن عذاب الضمير لنفسه. أنا مرتبك لا أدري ماذا أكتب؟ ولكن ها هي صورة مني والسلام وما طالمت في الكتب وما سمعته وكل هذا خلط في فكري خلطاً كبيراً وطالمت أخيراً سورتين من القرآن بامعان زائد فخرجت منهما على أن في القرآن أصلاً كبيراً للهيئة الاجتماعية ودونت ذلك في كتاب عندي هذا عذابي من جهة ديني

ومن جهة أمي فأنا حزين لأنها ساقطة ولا يرجي لها قيام. أمة منحلة لا تقدر الناس حق قدرها، ولا تعرف يومها من أمسها، وأحد أمة اليابان التي ارتقت في خمسين عاماً مع أنهم يعبدون الاوثان، فما أجدرنا بترك ديننا لليابان وأخذ دينهم. لانتنا لا نصلح له لأنني لا أزال احترم الدين الاسلامي وإن كنت لأعرفه، ومن جهة عائلتي فألامي شديدة ومن جهة نفسي فألامي أشد وأنا لا أخاف أن أكتب لك بذلك

محمد لطفي جمعه

(الكتاب الثاني)

سيدي الاستاذ العظيم ابقاه الله لنا ذخرا ليحفظ كيان الامة الاسلامية .
انا لا اعلم ان كان ما كتبه قد تشرف بنظركم اليه فنال القبول ام لا ؟ ولكنني
لا ارى لي مندوحة من ان اكمل سؤالي حيث قد طرحت مبادئه على سيدي
الاستاذ فاقول :

﴿ الله ﴾ اول ما يخطر ببالي عند ذكر هذه الكلمة قوة هائلة لا يمكن
تصورها وهي محاطة بملائكة كثيرين . ولكن ما شكلها ؟ لا ادري . واحس
عند ذكره بجلال وخشوع ولكن لماذا ؟ لا ادري .

﴿ المادة ﴾ وهذه المادة التي خلق منها كل هذا العالم . هل خلقت من نفسها
او خلقتها تلك القوة الهائلة ؟ واذا لم تكن هناك مادة فكيف خلقت ؟ اذن هل
المادة جزء من القوة الهائلة ؟ او هل وجدت المادة قبل القوة الهائلة

هاتان هما المسئلتان اللتان تمنعان الكرى عن جفوني

﴿ الكون ﴾ وهذا الكون المتناهي في العظام والكبر والفضامة ما عمره ؟ اني
اراه ايضا متناهي في القدم . وعبثا ان يخلق الله كل هذا الكون وهذه الكواكب
وهذه الاقمار وهذه الشمس عبثا ، فلا بد من ان يكون فيها مخلوقات لله . وكل
هذه الاشياء خلقت من المادة ، اذن فالمادة لها فضل على الخلق كبير .

ولكن هل يخطر ببال احد ان ﴿ المادة ﴾ هي اصل كل هذا الخلق العظيم
وانها تحركت بنفسها وخلق منها هذا الكون الهائل وسار على قوانين منتظمة ؟ ؟

هذا خاطر كنت اميل اليه في بعض الاوقات اما الآن فقد تلاشى من
فكري او كاد . ودليل ذكره انني كنت ارى ان الرجل اذا نالت جسمه السقام
او اصاب قلبه بسهم فانه لا محالة يموت . اذن لم يمت حتى انحل تركيب جسمه
او اصاب العضو الرئيسي فيه ، والجسم مخلوق من المادة ، فهل حياة الانسان
موقوفة على المادة ؟؟؟

وسمعت هذا القول او ما يشبهه مرة من طبيب فشغلت نفسي به شهرا كاملا
ولا يزال عقدة في سلسلة افكاري .

النفس البشرية وخلق آدم

وهنا تأتي أم المسائل التي اعشقها عشقا عظيما . يأتي ذكر النفس البشرية ما هي ؟ اين هي من الانسان ؟ كيف خلقت ؟ وهل هبطت اليك من المحل الارفع ؟ انا اجيب نفسي على هذه الاسئلة بهذه الاجوبة :

النفس البشرية قطعة من الله ولا اقول شعاع من نوره كما يقول الفقهاء والمتكلمون . او ان الله مكون من عدد لا يتناهى من النفوس .

وهي ليست موجودة في أي جزء من اجزاء الانسان ، بل هي تظله ولا علاقة مادية لها به ، مثلها كمثل الحديد الرفيع الذي يوصل التيار الكهربائي الى عربة الترامواي فان هذه الحديد لا علاقة لها بالترامواي الذي هو جسم الانسان واذا حدث للترامواي (العربة) عطل فانها تمتنع عن السير اما الحديد فلا يحصل لها ضرر . وكيفية خلقها يعود بي الى السؤال الاعظم : كيف وجد الله ؟ بل كيف وجدت هذه القوة الهائلة ؟

لان الله والنفس شيء واحد : هذا رب في سمائه ، والنفس رب في ارضها : وهي لم تهبط من المحل الارفع . لكن اين هذا المحل الارفع ؟ ؟ خلق آدم وحواء

كنت وانا صغير شديد الولوج بمطالعة قصة آدم وحواء وكيف طردا من الجنة ، وكيف تقابلا وتناصلا : وانا الآن شغف بقول شاعر كم :

لم تلدنا حواء الا لنشتي ليتها عاطل من الاولاد

ولكن انا الآن أفكر في امر ارقى من هذين الامرين السابقين وان كانت

طريقه محفوفة بالاطار وهالك سيدي رأيت في خلق اول انسان

صورة العالم في اول خلقه كما هي في فكري غريبة جدا : وهذه الصورة

استنبطتها من العلوم التي قرأتها . كان العالم كله مجرا وذلك بعد ان بردت الارض

وانفصلت من النظام الشمسي على حسب رأي لابلان الذي جاء مصداقا لما في

القرآن (كانتا رتقا ففتقناها) . ولما صارت الارض مجرا بقيت كما هي زمنا طويلا

طويلا جدا جدا . وبعد ذلك اخذت اليابسة تظهر شيئا فشيئا . وذلك بدليل الرمال العظيمة الموجودة في كل القارات وهي مصحوبة باصداف لا توجد الا في قاع البحار . ثم من ارقى درجات الجماد خلقت أدنى طبقات النبات مثل الحشائش في الصحراء وغير ذلك ، واخذ ذلك زمنا طويلا طويلا جدا ، ثم ارتقي النبات كثيرا حتي خلق من ارقى طبقاته أدنى طبقات الحيوان . واذكر قول النبي ﷺ - قاله استاذي في الدرس اذكر معناه - « راعوا عمتكم النخلة » (١) لاسها ارقى درجات النبات . ومن ارقى درجاته خلقت الديدان والحشرات وطال الزمن طولا عظيما حتي وصل الحيوان الى ارقى درجاته وتم خلق اول انسان ، وفي هذا الاثناء كان العالم يرتقي من جهات أخرى . اني اميل لهذا الفكر لانه صحيح ادلته علمية استقرائية ولا اميل الآن الى قصة آدم وحواء . والسلام ، والبقية تأتي ان شاء الاستاذ العظيم

طالب الحقيقة
محمد لطفي جمعة

[المؤلف] ليس هذا الموضوع بمكان لهذه المباحث وانما اقول بالاجمال ان هذا العالم الذي نعيش مالم يملئه البشر منه وهو أكثره ، على ما علمه وهو أقله ، هو منفعل لقوة فاعلة فيه لم يصل البشر إلى معرفة كنهها . واذا كان البشر قد عجزوا الى اليوم عن معرفة حقيقة ما يسمونه المادة وما يسمونه القوة المودعة في المادة وهي حادثة ، وان اهتموا أخيراً الى أن القوة تتحول الى المادة او الاخرى أن المادة تصدر عن القوة ، فأخرى بهم أن يعجزوا عن معرفة كنهه الخالق للقوة والمادة معاً ، وعن صفة خلقه لهما ، وقد قال تعالى في خلق العالم وخلقهم (ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم) وكذلك الروح يكثُر ايمان الماديين بها علما بعد عام مع الاعتراف بأنهم عرفوها بأثرها لا بحقيقتها . وليراجع القارئ الى قصة آدم في الجزء الاول من تفسير المنار ومعنى خلق الناس من نفس واحدة في أول تفسير سورة النساء يجد ما فيه الغناء في مسألتهم ومجد في مواضع أخرى منه ومن المنار أجوبة تلك الاسئلة كلها

(١) المؤلف : الحديث رواه ابو يعلى وابو نعيم عن ابن عباس بلفظ « اكرموا عمتكم النخلة فانها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم » وفي رواية « من فضلة طينة آدم » وفيه ضعف وانقطاع في السند

النوع الثاني

﴿ الدفاع القلمي عما يسأل عنه المسلمون من المشكلات ﴾

وبيانه لما فشا فيهم من البدع والمنكرات

كان بعض المسلمين يسألون الاستاذ الامام بالكتابة عن بعض المشكلات في القرآن ، أو في بعض مسائل العقائد أو الاحكام ، وبعضهم يسأله بالمشافهة ولكنه يرغب أن يكتب الجواب وينشر ليستفيد جميع الناس به ، وكان يأمر بنشر بعض ما يكتبه من الاجوبة ويجعل بعضها خاصا بالسائلين

وما نشر في النار منها مسألة الغرائق ، وهي من أعظم المشكلات في كتب التفسير ، لأنها تتعلق بجوهر التوحيد. ومسألة زيد وزينب ، وفي كتب التفسير من الروايات فيها ما جعله دعاة النصرانية وغيرهم مطعنا في النبي ﷺ ومسألة شبه التعارض بين هاتين الآيتين من سورة النساء (٤ : ٨٧) أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة . وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك . قل كل من عند الله ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا (٨٩) ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) الآية . ولكنرة حاجة الناس الى التفسير الصحيح للآيات في هذه المسائل الثلاث جردناه من مجلّة النار ونشرناها مع تفسير سورة الفاتحة الذي طبع عدة مرات ، ومنها ما أدخله في عداد الفتوى الرسمية كمسألة طوفان نوح التي نشرناها في هذا التاريخ وكنا نشرناها من قبل في المنار

وكان رحمه الله تعالى يرسل الى بعض هذه الاسئلة المكتوبة لاجيب أصحابها وقد وقع في يدي قبل الشروع في كتابة هذا الفصل كتاب أرسل اليه يسأله صاحبه عن التحريف في التوراة والانجيل هل هو لفظي أو معنوي — وقد وقع عليه: الشيخ رشيد مجيب عن هذا بكتاب خاص ، وأرسل اليه بعض الناس رسالة مطبوعة « تتماق بصلاة الظهر بعد الجمعة في الامصار » للشبرا ماسي الشافعي ويسأله ما يقول فيها ؟

فأرسلها الي وقد كتب على ظهرها مانصه: اذا وجدت وقتاً وطريقاً لتسفيه صاحب هذه الرسالة وناشرها في جريدة المثار فافعل » وأرسل اليه شيخ سوري اعتراضاً على شيء قاله في التفسير فأرسل الي كتابه وقد كتب على طرفه « الشيخ رشيد مجيب هذا الحيوان » الخ وسبب ذلك ان المترض كان يريد التحرش والجدل بمباراة ظاهرة في ذلك ، فهذا مثال من غضبه رحمه الله من سيئي النية وهو قليل جداً فيما يضاده من حلمه وسعة صدره ، ومن انصاف التاريخ أن نبين كلا منهما

وبدخل في هذا النوع مقالاته في القسم الادبي من جريدة الوقائع المصرية الرسمية في موضوع ابطال البدع من نظارة الاوقاف العمومية ودوسة أهل الطريق و (منتدياتنا العمومية وأحاديثها) ويراها القارى في الفصل الثاني من جزء المنشآت من هذا التاريخ — وكذا ما نشره في الصحف السورية كقاله في كتب المغازي وأحاديث الاقاصيص في (ص ٣٤٦) من المنشآت وغير ذلك

النوع الثالث

(ما كتبه في الرد على الطاعنين في الاسلام من غير المسلمين)

قد عقدت لهذا النوع الفصل الخامس من باب مقالات الاستاذ الامام في الجزء الثاني من هذا التاريخ (جزء المنشآت) وعبرت عنه بالمناظرات الدينية — وقد افتتحت الفصل بهذه الكلمة :

« أشهر ما كتبه في هذا الموضوع رده على موسيو هانوتو — أحد وزراء فرنسا وكتابتها — في الاسلام والعقائد السامية والآرية ، وما يتعلق منهما بالاسلام والنصرانية ، ثم ما كتبه في الرد على مجلة الجامعة في فلسفة ابن رشد ، والمقابلة بين الاسلام والنصرانية في التسامح الديني والعلم والمدنية . وانا نكتفي في هذا الكتاب بالمناظرة الأولى (أي مناظرة هانوتو) لأن الثانية قد نشرناها في المثار ، ثم جمعناها في كتاب مستقل طبع مرارا » وهو كتاب (الاسلام والنصرانية . مع العلم والمدنية)

الرد على هانوتو

ثم بينت كيف كتب الرد على هانوتو ، وما كان له من الشهرة والتأثير في الشرق والغرب ، ونشرت ترجمة مقالة هانوتو الاولى ورد الاستاذ الامام عليها ثم ما كتبه هانوتو بعد وصول الرد إليه وإطلاعه عليه ، ثم ما رد به الاستاذ الامام عليه ، وقد بلغ ذلك ست مقالات واستغرق نشر الاصل والرد ٦٨ صفحة من ٤٠١ — ٤٦٨ (من المنشآت وختمته بهذه الكلمة في العبارة به)

(يقول جامع الكتاب) إن الغرض الذي رمى اليه الاستاذ في الرد على موسيو هانوتو هو تنبيه المسلمين وإرشادهم الى النظر في عيوبهم ، والبحث عن الاسباب التي أفسدت عليهم أمر دينهم ودنياهم ، وعمت ملوكهم وحكامهم ، وسوقتهم ودهاءهم ، والجمع بين بيان أسباب الفساد وبيان المخرج منها — ثم انها على ما كان من حسن تأثيرها ، ولهج الألسن بها ، وطبع الالوف الكثيرة من نسخها ، لم تحمل المسلمين على اصلاح خلل في تربية ولا تعليم ، ولا إدارة ولا سياسة ، وانما كان ذلك التأثير قاعراً على التلذذ بفلج إمامهم في المناظرة ، وظهور حجته في العلم والدين والسياسة ، على كاتب من أكبر رجال أوربة ، وذلك شأن الامة في طفوليتها : سرور كسرور الاطفال ، وغضب كغضب الاطفال ، لا يبعثان على عمل من الاعمال ، ولم يكن نصيب رجال الدولة الاسلامية الكبرى (أي العثمانية) خيراً من نصيب رجال الامة الاسلامية من هذه الآيات والعبر ، فقد صرح الامام بأن سياستها غير دينية ، وان إدارتها غير اسلامية . وأشار الى دابة الالحاد التي تأكل من منسأتها ، فلم يعتبر أحد من رجالها ، فلما خرت صريمة زعم الملاحدة الذين أسقطوها بجهلهم أن اتباع الاسلام هو الذي ثل عرشها وأودى بملكها !! اه

تأثير الرد على هانوتو في الناس

أشرت آنفاً إلى مانشرته في النار من تأثير رد الاستاذ الامام على هانوتو في الشرق والغرب ، وكنت أعد ذلك من مادة هذا التاريخ التي تنشر فيه ولكنه

طال فوق ما قدرته له فكان هذا مانعاً من نشر ما ذكر لكثيرته ولكنني أنوه ببعض ما فيه العبرة في هذا الموضوع بالاجاز في مسائل:

(١) ان الرد كان بأسلوب رفيع من البلاغة ، وفيه من الفردات الصورة لادق المعاني ما هو طريف غير متداول ، وفيه من الدلالة على سعة اطلاع الكاتب على تواريخ الامم وعقائدها في الشرق والغرب - ولا سيما فرق النصرانية - ما ليس للناس عهد بمثله في الجرائد ، وهو قد كتبه بسرعة لا مجال فيها لمراجعة شيء من المكتب ، فانه قرأ المقالة الاولى في المؤيد ليلا فكتب رده عقب قراءته ليلا وأرسله إلى المؤيد في الصباح فنشر في العدد الذي صدر في ذلك اليوم ، وقد عزاه صاحب المؤيد إلى امام من أئمة المسلمين لان الكاتب لم يأذن له بالتصريح باسمه ، فكان مثار الدهشة والاعجاب ، في أنفس جميع القراء من جميع الملل والنحل والآراء ، يبلاغته وبادبه في التعبير ، فهو على شرحه ما بين النصرانية والوثنية الآرية من وشيجة النسب وصلة الرحم ، وتفضيل ملة التوحيد السامية عليها لم يكتب كلمة تسوء أحداً من النصارى لا من رجال العصبية الدينية ، ولا العصبية الدنيوية (٢) ان أكثر أهل العلم والادب في القطر المصري قد جزموا بان الكاتب لذلك المقال هو الشيخ محمد عبده وانه لا يقدر عليه غيره ، وقد قيل له هذا في مكتب الافتاء ، وكان في مجلسه بعض العلماء والادباء ، فتوقعوا أن يتهمل وجهه سروراً ، وان يظهر هذا على لسانه ولو بعبارات التواضع والفخر المعنوي ، ولكنه فاجأهم بقوله ممتعضاً انه لا يسوءه ويحزنه شيء كما يسوء هذا القول المتضمن لمتهمي ذم قومه واهل بلده بالجهل والعجز عن مثل هذا الرد الذي يجب أن يضطلع بمثله أكثر أهل التعليم الوسط وندع التعليم العالي . قال : ومن المصائب على المرء أن لا يستطيع الاستغفاء في هذا البلد الكبير إذا أراد أن يظهر رأيه وأفكاره دون شخصه إذا رأى مصلحة في ذلك !! فليتأمل أولو الالباب ، هذه الارحية القومية والوطنية الجديرتين بالاعجاب !

ومما يحسن ذكره هنا أن بعض أصحابي كان ينكر علي شدة اعجابي بالاستاذ الامام وثنائي عليه (لانه لم يكن يعلم من أمره إلا ما يسمعه من الحاسدين له او جاهلي

مزاياه) قل لي لما قرأ الرد على هانوتو : لو كان الشيخ محمد عبده هو الذي كتب هذا الرد لكنت أعذرك بدلا من عذلي لك على مبالغتك في مدحه - او ما هذا معنائه - فقلت له كان لبعض العشاق صاحب يكسر لومه على الحب ، فأبصر معشوقه يوما ولم يكن رآه قبل ذلك ، فدهش وراعه جماله ، فقل له لو عشقت هذا للملك ولما لامك أحد ، فأشدد العاشق :

ابصره عاذلي عليه ولم يكن قبلها رآه
فقال لي لو عشقت هذا ملامك الناس في هواه
فظل من حيث ليس يدري يأمر بالعشق من نهاه
ففهم مرادي وصار من حزينا

هذا وإنه قد تصدى كثيرون للرد على هانوتو في الجرائد والمجلات ، فمنهم من أساء حتى طعنوا في الديانة النصرانية طعنا لا محل له وهو ضار غير نافع ، ومنهم من لم يحسن ، وأتى يباغ من أحسن غبار الاستاذ الامام فيما سبق اليه وهو لم يدع مقالا لقائل ،

(٣) اقتصر هذا الاضطراب بشارة باشا نقلا صاحب جريدة الاهرام العربية والبيراميد الفرنسية فتصدى للرد على الامام نفسه والدفاع عن موسيو هانوتو ظنا منه أن هذا يحمل الناس على كثرة قراءة الاهرامين العربية والفرنسية ويكون سببا لرواجهما لما جرت عليه العادة في المناظرات المهمة ، ولكن أخطأ الظن وخاب الرجاء ، إذ نفر جماهير المسلمين من الاهرام واعتقدوا أن الحامل لها على الرد على الامام ، إنما هو التمسب وعداوة الاسلام ، فقل قرائها ، وكثر المعرضون عنها . وكان أكبر ما تنسكت به الاهرام في الدفاع عن هانوتو انه أنكر على (كيمون) ما نقله عنه من الطعن في الاسلام واقتراحه اقضاء على المسلمين ونش قبر الرسول الاعظم ونقل عظامه إلى متحف اللوفر في باريس ، وانما كان إنكاره أن وضع في آخرها علامة الاستفهام الانكاري ، وزعم ان ترجمة المؤيد لعمارتهم لم تؤدغرضه هذا . (٤) انني وقفت بالمنار في هذا التنازع والتخاصم بين الجرائد موقف الحيادة على ما علم من خطتي في تأييد الاستاذ الامام ، واقتصرت فيه على كتابة ما يرشد

المسلمين الى الاعتبار والاستفادة من هذه الحادثة ، ومن آداب امامهم وسياسته فيها ، فهو على شدة رده على هانوتو وبيان له سوء معاملة فرنسا للمسلمين في الجزائر وتونس ، قد أشار إلى إمكان التوفيق بين مصالحهم ومصالح المسلمين كما يراه المطلع على مقالاته في الجزء الثاني من هذا التاريخ

وانني أثبت هنا ما نشرته في المجلد الثالث من المنار (ص ٢٥٠) في موضوع ذلك القيل وقال في الجرائد لانه جدير بأن لا يخلو هذا التاريخ منه، وهذا نصه :

هانوتو والاسلام

(تلخيص ماجرى من المناقشات في مقاله والرد عليه)

سأل أحد أفاضل مسلمي بيروت صديقاً له من أدباء المسيحيين مقبلاً في مصر القاهرة (١) رأيه وما وصل اليه علمه في شأن المناقشات التي بنيت على مقالات هانوتو وزير خارجية فرنسا سابقاً في الاسلام لاسيما صحة الترجمة فأجابه بكتاب نذكر منه في هذا المقام ما يأتي :

« مقال هانوتو الذي سبب حركة الافكار واهتزاز الاقلام ، قد طالعت مراراً باللغة الفرنسية ، وترجمة المؤيد غير مغلوطة ، ولكن المسيو هانوتو عند ما نقل كلام كيرون كان غير مرتاح اليه ، وتهكم صريحاً على افكاره ، وعلى الحل المتناهي في الغلو الذي زعم كيرون انه يريد ان يحل به المسألة الاسلامية ، فترجم مقال هانوتو في المؤيد قد حافظ لمحافظة التامة على الاصل ، فاكتفى بان يضع اشارة الاستفهام الانكاري والنقط التي تتبعها ، غير ان قراء لغتنا العربية لم يتمودوا على ادراك سر هذه النقط التي اصطلح عليها الفرنسية ، ولهذا التبس المعنى ، وظن الكثيرون ان هانوتو يصادق على كلام كيرون ، ومع ذلك فقد استأنف الكلام ، وعاد ثانية إلى الاسلام ، وتبرأ مما نسب اليه وصرح بميله واحترامه الاسلام والمسلمين ، وترجم مقالة المؤيد وتبعه في ذلك الاحرام ايضاً

« ١ » أما السائل فهو سمادة عبد القادر بك القباني صاحب جريدة ثمرات

الفنون الشهيرة وأما المسؤول فهو جاد اقندي عيد

ثم دخل اللواء في مضمار المباحثة وتكدر منه محرر الاهرام الفرنسي (وهو شاب استقدمه تقلا باشا من باريز) وطالب مصطفى بك كامل إلى المبارزة، وتبع ذلك أقاويل مختلفة، وأقيمت الدعوى من تقلا باشا على صاحب اللواء، ونشأت المبرقان وانحاز إلى كل فريق انصار ومريدون.

مولاي . لو اكتفى المؤيد واللواء بما كتبه ذاك الامام العظيم لخدما حقيقة الاسلام، لان الحق يصير اذا عمد إلى اظهاره بالسباب والشتائم، ولم يكن لرد الامام الوقع العظيم في نفوس المسلمين فقط، بل ان كثيرين من افاضل النصارى قد أجلوه كثيراً، واحلوه محلاً كريماً، ولا أبالغ اذا قلت لسعادتكم اني قرأته أكثر من عشرين مرة

دين الاسلام كله شهامة ومروءة وحرية ومدنية طاهرة، غير ان كيمون والذين على شاكلة كيمون، قد تلقوا كل ما هو مما كس لروح الاسلام والمسلمين وبعيد عن عقائدهم وآدابهم وأخلاقهم . وكتاب الفرنجة لا يراعون العواطف في اندفاعهم، وقد كتب الكثيرون منهم في الطعن على السيد المسيح وعلى طهارة والدته وعلى كرامة تلامذته، وتصدى منهم فريق عظيم للتوثب على الاحبار الاعاظم، وقالوا فيهم الاقوال الشائنة التي ترتد لها فرائص الآداب والفضيلة، فالقوم الذين باغ بهم التماذي والغرور إلى هذا الحد أيايق ان تترجم أقوالهم ونذبح ترهاتهم على رؤوس الاشهاد، ونحرك ماكن من الاحقاد

انني استحلفك بدينك القوم الذي أشرق بنوره الواضح على البصائر المظلمة فأنازها، وعلى العقول المقيدة فأرشدها وحل عقالها، وعلى القلوب المتسكمة فأيقظها وقوم اعوجاجها، أن تحرك قلبك وتغمزه إلى الغاية المحموده، وذلك في استنهاض هم فطاحل كتاب المسلمين للذود عن الاسلام بالطرق التي يريد بها الاسلام — الطرق التي يريد بها الاسلام لا تخفى على افاضل المسلمين الذين أشربت قلوبهم محبة الائتلاف والمواذعة والمسالمة، وتحريض الامة على اكتساب الفضائل السامية في اكرام الجار، وتعزيز حقوق الجوار، ومعاملة عباد الله بطرق المساواة والعدل والولاء. يوجد كثيرون من الذين لم يتشرفوا بالدين الاسلامي على ضلال مبين في

أفكارهم وظنونهم نحو الاسلام والمسلمين، ولكر ضلالهم لاتعمق آثاره إلا البراهين القاطعة، والحجج الدامغة، التي تثبت لهم ان دين الاسلام دين الحرية المطلقة، والحنان الصادق، والشهامة الحقيقية، والحفاظة على الاعراق، وكرم الاخلاق، والمرض والاخلاص والوفاء.

أنظن بامولاي ان كيمنون يقذف من فيه تلك الاقذار لو كان قرأ في زمانه فصلاً واحداً من الفصول التي دمجتها أنامل الامام علي كرم الله وجهه ؟
أنظن انه يجزأ على التلغظ بذلك الحبل الهائل الذي يزيد ان يحل به المسألة الاسلامية لو كانت سمع بحلم وحكمة العمرين، وكرم ابن زائدة، وعادل الرشيد، وسخاء البرامكة ؟

أنظن انه يحرك قلماً لو علم بان أحقر رجل من المتدينين بدين الاسلام يهرق آخر نقطة من دمه في الذود عن عرض وكرامة الملتجئ اليه عند ما يسأله الحماية ؟
مها كان كيمنون والذين على شاكلة في غرور وضلال فانهم لا يستطيعون بعد معرفة الاسلام إلا اثناء على الاسلام، والافتخار بفضائل الاسلام

و كنت أود من صميم الفؤاد ان أضمر صوتي إلى أصوات مقرري الحقيقة وأنصح أفاضل المسلمين أن يتخذوا الخطط الصائبة في مجادلاتهم، وكسر شرذمة المتوثبين عليهم، فالحق أيدك الله في جانبهم، غير ان بعض جهالهم يريدون ان يصرعوه في تطفلهم على صفة التحرير والتحجير، ولا أكنتم على سعادتهم شيئاً، فان الاقلام التي تحركت من بغرد الامام المعتدل المحكم لم تأت بشيء من الفائدة، بل أضاعت أو أشكت ان تضع الحق الذي بجانبكم، وتسبب حركة لا يرضاها عقلاء الامة الاسلامية

ج ع

عن القاهرة في ٩ يونيو سنة ٩٠٠

[المنار] نحن نحامينا الخوض في المجادلات عندما حي وطيسها، وكنا غير راضين عن الذين نهوروا منا فضعفوا في الديانة النصرانية نفسها بما لا يتعلق بالرد، ورأينا من نعرف من أفاضل المسلمين معنا في هذا الرأي، وقد نشرنا كلام هذا الكاتب الاديب المسيحي لما فيه من روح المودة الذي نحن في أشد الحاجة اليه، ولا شيء ينفخ روح الهدوء ولائلاف، مثل الاعتدال والانصاف اه

الرد على فرح افندي انطون صاحب مجلة الجامعة

تمهيد

كان فرح افندي انطون من أمثل شبان النصارى في وطننا ذكاء وحبا للعلم والفلسفة، تعلم في مدرسة كفتين للروم الارثوذكس - وكانت مدرسة ابتدائية ثانوية - ثم صار معلما لاحدى مدارس طائفته الاولى في ميناء طرابلس الشام، وكنت ألقاه أحيانا عند الاستاذ جرجي افندي يني فيعجبني منه أدبه وامتناعه من ابداء رأيه فيما تدور المذاكرة بيننا فيه من المسائل السياسية والاجتماعية معتذرا بأنه لم يدرسها درس تمحيص يعطيه الحق في الحكم فيها، ولكنه عصي الزاج إذا تألم مما يمس شعوره يفتقد رشده

وكان يحن مثلي إلى الهجرة إلى مصر ويستعد لانشاء مجلة أدبية فلسفية فيها، وقد أعد لذلك مقالات كثيرة ترجمها عن اللغة الفرنسية بما كان أكثرها من كتب (جول سيمون وجان جاك روسو) وغيرها، واتفق ان سافرنا معا في باخرة واحدة، وبدأ هو بالبحث عن عمل له في تحرير بعض الجرائد او المجلات من حيث كنت أنا أجول في الوجهين البحري والقبلي لاجل معرفة البلاد في الجلة، ثم أنشأت جريدة المنار قبل انشائه هو مجلة الجامعة العثمانية، وكلفته مساعدتي في العمل بترجمة بعض المسائل التي تهمني من الجرائد الفرنسية باجرة معينة

ولما أنشأ هو مجلة الجامعة العثمانية وجهت اليها نظر الاستاذ الامام، وقلت له ان منشئها يكتب ما يعتقد فائدته من المباحث العامة في الفلسفة والاخلاق والاجتماع، ورجوته أن ينظر فيها، ويثني عليها في مجالسه بما يراه للترغيب فيها، ففعل، وقابله فرح افندي انطون، مرارا فلقني هذامن عطفه ما كان به راضيا مقتبضا ولما كتب فرح افندي ما كتب في فلسفة ابن رشد مما لم يكن يفهمه حق الفهم، وحكم بان النصرانية أشد من الاسلام تسامحا مع الفلسفة والعلم، ساء ذلك من اطاع عليه من المسلمين وطالبه بعضهم بالرد عليه، فلما رأى الامتعاض والاهتمام افترضه ليعين المسلمين جهلهم بدينهم واعراضهم عنه، كما صرح بذلك في آخر الرد

كيف كتب الرد على الجامعة وأين كتبه

سافر الاستاذ إلى رمل الاسكندرية في أواخر يوليو (سنة ١٩٠٢) وكان مشتغلاً بجمع الاعانات المالية لمنكوبي الحريق في ميت غمر . ووعدني قبل سفره بان يكتب فيه ، وانه يتوقع أن يرى فيها فرح افندي أنطون ويتكلم معه في الغرض من هذه الكتابة ، وكانت المكتبة بيني وبينه متصلة ، وانني أنشر ما وجدت من مکتوباته في هذا الشأن لما فيها من الفائدة بل الفوائد ومن أهمها المله من سوء حال المسلمين الذي يعبر عنه في كل مناسبة

(الكتاب الاول من رمل الاسكندرية في ٥ أغسطس سنة ١٩٠٢)

ولدا العزبز

وصلني رقيمك وأرجو أن يصلني الآخر قبل غروب يوم الخميس إن شاء الله . إلى الآن لم أكتب شيئاً ، وقد أخذت القلم الآن لا أكتب وإذا بداخل يحكي تحية الصباح ويشغلني بما لافائدة فيه . ولا أدري كيف أصيب الوقت الذي أفرغ فيه لما أريد ، وهو يفر مني فرار الخير من أيدي المسلمين . ربما جئت إلى مصر يوم الخميس ان لم يطراً ما يحملهني على الذهاب إلى رشيد والسلام (محمد عبده)

(الكتاب الثاني من الرمل في ٦ أغسطس)

كتب اليوم وختمت المقال فيما يتعلق بمذهب المتكلمين ورأيي الفلاسفة . والناس جلوس يتكلمون ، وأريد مراجعته صباح الغد إذ لا يمكنني مراجعته وهم جالسون وهم لا يفارقوني إلى وقت النوم .

لم أفرح إلى الآن ، ولا أدري هل أراه غداً ؟ كما لا أدري هل ينبغي أن تنشر المقال قبل أن يرسل اليه ؟ وعلى كل حال فلا بد من نقله بخط آخر ولا يكون إلا خطك . وأظن اني أكون بتصر مساء الغد إن شاء الله ، فلتكن عدي بعين شمس صباح الجمعة بعد أن تسأل بالتليفون والسلام محمد عبده
فعلم من هذين الكتابين انه كتب ذلك المبحث الدقيق في الفلسفة وعلم

الكلام في يوم واحد يمكن لا كتب فيه راجعاً ، وهو في شغل شاغل من وفود الناس . وهذا مصداق ما قاله لي سعد باشا زغلول بمناسبة استيائه من أناس قطعوا عليه طريق اتصال الفكر في موضوع كان يكتبه . قل فاضطرت عند الفراغ إلى إعادة الفكرة فيما كنت اكتب من أوله . (قال) وكان لشيخنا رحمه الله من قوة الفكر ما يمكنه من الكتابة او الكلام في أي موضوع كان مع سماعه لكلام الناس ومشاركتهم فيه ، ولا يصعب عليه العود إليه بعد قطعه عليه . وسيرى القارىء مصداق هذا فيما يأتي قريباً

ثم جاء القاهرة وكان قد أتم القسم الاول من الرد الخاص بمسألة ابن رشد ، فنسخته بخطي وأرسلت ما كتبته إلى فرح افندي وكتبت إليه بأن الاستاذ الامام استحسن أن ينشره كل من في وقت واحد (ولكن فرح امتنع من النشر كما سئذ كره) ثم سافر الاستاذ إلى الدقهلية لأجل مسألة إعانة المنكوبين في ميت غمر وكان شرع في كتابة القسم الثاني من الرد واعطانيه وهو المقاتلة بين الاسلام والنصرانية في العلم والمدنية ، والتسامح مع العلم والفلسفة . لأجل أن يكتب في القطار وحيث يكون ضيفاً من كل بلد ، وأذكر بعض مكتوباته الخاصة في ذلك

(الكتاب الثالث من السبلاوين في أول سبتمبر سنة ١٩٠٢)

ولدنا الفاضل

السلام عليكم . رأيت ما كتب في المقطم وهو حسن . حافظ بروج المنار وينجح إن شاء الله ^(١) . تذكرت اني نسيت في قسم المسيحية أن أذكر عند الكلام في البروتستانت ورأيهم في الفلسفة وحكاية ما كان يقوله (ولثير) في (ارسطو) هذه العبارة « وكان علماء السنة يسمون أرسطو العالم الاول » فان كنت لم تطيع الى الآن سب ولثير لارسطو فأضف هذه العبارة بعد ذلك السب . وان كان قد انتهى طبعه فاختر لذلك موضعاً في آخر الكلام على رأي المسلمين في الفلسفة قبل

(١) يعني محمد حافظ ابراهيم بك ، وكان مرافقاً له في ذلك السفر ، ويرغب

الناس في قراءة المنار

تبسم الاسلام من الاديب الذي رماه بضيق الصدر على غير ذنب
الى الان لم اكتب ولا كلمة في الموضوع لاني في شغل شاغل من هؤلاء الناس
المرزوقين في عقولهم أولاً ، وفي بيوتهم ثانياً . وربما فرغت بعد يومين والسلام
محمد عبده

(الكتاب الرابع من المنصورة في ٤ سبتمبر)

ولدا العزيز

انا اليوم في المنصورة وربما فارقتها الى عين المنزلة من طريق النيل طلباً لراحة
الفكر ، وهرباً من جو البلدان في فساد . وقد يخطر ببالي أن أرجع إلى القاهرة
لأهرب في عين شمس ، ولا أدري مايفعل الله بي من اليوم إلى الغد
أصبحت وقد عوقبت عقوبة من بكل أمره إلى غيره على ضعف ثقته بالناس
كافة إلا من اختار نفسه ، بحثت في محفظتي عن تمة ما عندك من المقال المعروف
وهي تلك البقية التي استبقيتها لأصل بها ما يتبعها فلم أجدها ، ولا أرتاب في
أن الكتاب الذي كان يحمل المحفظة أخذها في أوراقه مع أوراق توزيع نقود
الحرقين . فكدرني ذلك غاية الكدر لاني لا أعلم من أي موزم يبتدىء ما كان
فيها ، وأرجو أن لا يكون الكتاب قد أضاعها ، أما نهايتها فاني أندكرها ، ويمكنني
أن أبتدىء مما بعدها ، ولكن كيف بملأ الفراغ بين ماساً كتب وبين ما عندك
إن كانت الورقة قد ضاعت ؟

(نعم عهد إلي أن أذهب الى ديوان الاوقف وأسأل عن ذلك الكتاب وأفتش
الورق الذي معه وأرسل اليه الورقة إن وجدتها كما يعتد . وفي هذا الكتاب مصداق
لكامة سعد باشا فيه فهو يتذكر ما انتهى اليه من الكتابة بعد أيام ، ويمكنه أن يصل
ما يكتبه بعد من الكلام)

(الكتاب الخامس منها في ٦ سبتمبر وهو مرجوع كتاب مني اليه)

ولدا العزيز

وصل رقيمك ، كنت أحب أن يكون اللفظ « عزاء أهل السنة » بدل علماء

المسلمين^(١) لما تعلم من الفرق ورتة الاسم في آذان المخدوعين، لم أبحث عن الورقة الضائعة ولا أظن أنها في المحنظة فإن لم تكن عند أحد الكنايين فقد نسيتها في البيت وعلى كل حال فالكتابة في هذا السفر ضرب من المحال، نعوذ بالله من عطة كالتي أنا فيها^(٢) ولكن المدة قصيرة وأرى في الراحة شيئاً من الفائدة، ولا أراك تحتاج إلى التمتعة قبل رجوعي إلى حيث يمكن العمل، فإن المقال الباقي لا ينشر مرة واحدة فيما أظن (نم تكلم عن عودته وتقدير مكثه وختم كتابه بقوله) أحب أن أعرف أثر المقال في أنفس من تعرف من المسيحيين أو المسلمين والسلام عليكم

(الكتاب السادس منها في ١٦ سبتمبر)

وهو مرجوع كتاب مني إليه ذكرت أنه فيه أن أدباء المسيحيين معجبون بأدب المقال ونزاهته، وإن كانوا يألمون من موضوعه، وإن المؤيد شرع في نشره نقلاً عن المنار ولكنه لم يعزه إليه، وكنت كلفت مسعود افندي وحافظ افندي عوض نشره من قبل فلم يفعلوا، وذكرت له بمناسبة ما ذكره من ترويج حافظ (بك) إبراهيم المنار بطل الاشتراك فيه. فبين رأيه في كل ذلك وهذا نص كتابه :

ولدا العزيز

وصلني رقيمتك أمس في المنصورة وأنا اليوم فيها وربما وصلت إلى مصر مساء يوم الاحد وأصبح في عين شمس إن شاء الله تعالى صباح يوم الاثنين . والذي كنت أحب أن أعرفه هو ما يمجّد المسيحيون في المقال من حسن التأديب، وكنت أخاف أن يكون بدمني ما يؤخذ عليّ فيه من هذه الناحية . أما تألمهم من الحق فذلك مما لا يصح أن أشك فيه ، لأن الباطل إذا لم يألم من منظر الحق فم يألم؟ (٣) وجدت بعض اللحن في المقالة وقد أصلحته في النسخة التي وردت إلي وأندكر الآن أني وضعتها في السنترة . ولو وجدت حيث أنا صمغاً أو نشاء لبعت بها

(١) يعني الذين لقبوا أرسطو بالمعلم الاول، وقد غلطت أنا في استبدال الثاني بالاول الذي كتبه هو (٢) يعني عطائه من الاشتغال بالمع والسكينة مع عمل البر والاحسان الذي سافر لاجله وهو مساعدة منكوبي الحريق (٣) هذه العبارة مما لم يكن بأذن في نشره عنه في حياته

١٠٢ — تاريخ الاستاذ الامام ج ١

إليك ، ولكن أحب ان تنتظر باللمزة الثانية حتى احضر يوم الاثنين إن شاء الله تعالى . واتذكر الآن من الخطأ (وهبهم الله إياها) والصواب منحهم ، لان وهب لم يرد في القرآن إلا متعديا باللام ولا أحب ان اخالغه ولو إلى صحيح .

الناس في عماية عن النافع ، وفي انكباب على الضار ، فلا تعجب اذا لم يسرعوا بالاشتراك في المنار ، فان الرغبة في المنار تقوى بقوة الميل إلى تغيير الحاضر ، بما هو أصلح للأجل وأعون على الخلاص من شر الغابر ، ولا يزال ذلك الميل في الاغنياء قليلا ، والفقراء لا يستطيعون إلى البذل سبيلا ، ولكن ذلك لا يضعف

محمد عبده

الامل ، في نجاح العمل . والسلام

وفيه الحاشية الآتية

لا تعجب مما يصنع عمال المؤيد فالذي أظنه ولا اخاله إلا صحيحا هو أنهم انتظروا بالنشر ورود خبر من الشيخ علي ولذلك لم يحصل النشر إلا بعد ورود البوسطة من اوربا . ولا أستبعد ان يكون الشيخ أوصاهم بنشر المقال بدون ذكر مفرسه الاول إرضاء لمحمد رشيد " وخوفا من احفاظه لو علم ان المؤيد ينقل عن المنار . وحجة الشيخ علي في ذلك ان عدوه الخنث واقف له بالمرصاد فاذا رأى كلمة طار بها إلى سيده واتخذها وسيلة إلى الطعن في الشيخ ، فن شئت عذرت العمال وعذرت الشيخ أيضاً ، ونحن لانريد إلا النشر وايست نسبة المذخور مما بهم اغفاله ، فدعهم وما يعملون والسلام

محمد

﴿ نشر المقالات وتأثيرها ورد الجامعة وردنا عليها ﴾

لما عاد الاستاذ من الاسكندرية اتفقنا على انه يحسن ان أنسخ المقال بخطي وأرسل ما أنسخه إلى فرح أفندي وان ننشره معاً في شهر واحد ففعلت ، ولكن فرح أفندي امتنع من نشر المقال في مجلته ، وكتب في غلاف الجزء الذي صدر بعد إرسالها اليه ما معناه على ما أذكر انها لما وصلت اليه وضع رأسه بين يديه ، وغرق في بحر من الافكار والتصورات ، وعزم على الرد على الاستاذ الامام ، والدخول معه في مناظرة تصور انه يطير بها صيته وصيت مجلته في الانام ، فكتب

أولا مقالة رد بها ردّاً إجمالياً ختمه بالطعن على صاحب المنار ورميه بالجهل وعدم فهم هذه الموضوعات الكلامية والفلسفية التي فُق هو أهلها فيها بزعمه ووجهه شرعت في نشر المقالات في المنار ، فكان لها تأثير عظيم في هذه البلاد وفي سائر الأمصار ، وتناقلتها الجرائد العربية في الاقطار ، وفي مقدمتها جريدة التوحيد بمصر . ومن التزم نقلها برمتها من أدباء النصارى الأحرار (نعوم افندي لبكي) صاحب جريدة المناظر التي كان يصدرها في (سان باولو - البرازيل)

وأما فرح افندي فانه بعد أن كتب مقالة الجامعة انقطع عن كل عمل سوى الرد فألف فيه كتاباً مستقلاً سماه (فلسفة ابن رشد) ولكن خاب ظنه فيما كان يرجو من الفوائد العظيمة وسعة انتشار مجلته في مصر وسائر العالم العربي ، كما خاب ظن بشارة باشا نقلاً صاحب الأهرام ، في تصديه الدفاع عن هانوتو والرد على الأستاذ الامام ، ولكن هذا لم يتورط في الخوض في عقائد الاسلام وفلسفتها مثله

ولما كان رده هذا مشتملاً على الكلام في العقائد الاسلامية بالباطل شرعت في الرد عليه في باب الدفع عن الاسلام من المنار ، والظاهر أن هذا الرد قد حمل كثيراً من المسلمين المشتركين في مجانته على ردها اليه وهذا ما لم أكن أقصده ولم يخطر لي ببالي ، ولكن بعض الناس لا يزالون يقولون ويكتبون ان الجامعة قتيلة المنار ، وإنما قتلها تعرضها لما لا يمينها وما لا تفهمه من شؤون الاسلام ، ولا يمكن أن تعيش صحيفة عربية في هذه البلاد إلا باقبال المسلمين عليها لانهم السواد الأعظم وهو مع هذا لم ير لكتابه تأثيراً وعجز عن استمرار اصدار الجامعة لينتقم بها على حين كان يزعم ان اقبال الناس عليها قد تضاعف وانه انشأ لها مطبعة كبيرة وانه سيزيد ما يطبعه من الآلاف من نسخها ألفاً أخرى لينفي بما يتجدد كل يوم من طلب الاشتراك فيها (وكان هذا في جزء ديسمبر سنة ١٩٠٢) ولم تصدر بعده

الوقفة بين الولد و أبيه والمربي و أستاذه

لما شعر فرح افندي بمجانته على نفسه ، ورأى عاقبة عمله ، وخيبة أملاه ، أراد أن يستعيد احترام المسلمين لمجانبته بمودة الامام ، وينتقم لها من صاحب المنار ، فكتب أولاً كتاباً خاصاً إلى الأستاذ الامام ذكر فيه ميله إلى الجامعة ورضاه عنها

وان الشيخ رشيد رضا يحسده فيطمئن له فيه ويبغضه اليه .. فلما قرأ هذا الكتاب سقط فرح افندي من عينه ، وزال كل ما كان له من القيمة في نفسه ، وعجب من البون الشاسع بيني وبينه ، أمدحه ويذمني ، وأوصي به ويصدعني ، ويرميني بضد ما أنا عليه بمحض سوء الظن ، وتصديق خواطر السوء ، وقد أعطاني الأستاذ ذلك الكتاب ، فحجبت من ظهور خطأ رأيي عنده وغروري بالرجل

(الكتاب المفتوح ، والادب المفضوح)

نم لما رأى الرجل أن كتابه المختوم لم يغن عنه شيئاً أرسل إلى الأستاذ الامام رسالة طويلة مطبوعة في ١٦ صفحة عنوانها (كتاب مفتوح من ادارة مجلة الجامعة إلى فضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبده في مصر القاهرة) افتتح هذا الكتاب بقوله للأستاذ « في شخصكم شخصان » وبينهما بان الاول هو القابض على سلطة الافتاء وهذا الشخص يحترمه - وان الثاني « كرجل من علماء الشرق كتب ردوداً طويلة على مجلة الجامعة » وانه يوجه هذا الكتاب إلى شخصه الثاني لا إلى الاول ، ومخلص هذا انه يحترم منصبه الرسمي لا شخصه العلمي الممتاز. وقد علم القراء قيمة هذا المنصب عند الأستاذ الامام مما تقدم في عمله في الافتاء ، بل علم جماهير العارفين ان شخصه كان فوق منصبه ، وان شرف المنصب ولم يشرف به . نم ذكر ما كان من ميل الأستاذ إلى الجامعة وتنشيطها ، وما كتبه في مقدمة الرد من الشناء عليها ، الدال على انه لم يقصد بالرد عليها الغض من كرامتها . وقفى على ذلك بقوله :

« ولكن من سوء الحظ ان صاحب مجلة المنار الشيخ رشيد رضا الطرابلسي تابعكم ساءه ودادكم للجامعة فلم يدخر وسعاً في إلقاء الفتنة بينكم وبينها ، ولذلك كان يهدد لردودكم ويذيلها بأقوال وأكاذيب فيها عدوان على الجامعة وإهانة لها ، لأسباب منها الحسد وضعف الاخلاق . فالجامعة لم تعبأ بإهاناته وأكاذيبه وعدوانه لأنه أظهر انه من الذي يجب ان لا يعبأ بهم ، ولا يلتفت إلى كلامهم ، إلا متى وجب الالتفات إلى هذيان البله والحقى والبلداء الذي لا يروي غليلهم إلا شتم الناس والتناول عليهم » اه بحروفه .

ثم ذكر انه قد شغل عن هذا الالتفات الذي لا يابق بادبه وحكمته إلى تأليف كتاب (ابن رشد وفلسفته) الضخم الذي بلغت صفحاته ٢٢٥ صفحة وذكر سبب تدخل الجامعة في هذه المواضيع وبالغ في دعوى إعجاب الناس بكتابه وفي احتقارهم لصاحب المنار، وما كتبه اليه بعض فضلاء المسلمين من الطعن في مجلة المنار وجنايتها على الاسلام والمسلمين بمتاجرتها بالدين، وبراءة عقلاء المسلمين منها، وكون صاحبها هو الذي افرد وحده بالاستيلاء من هذا الكتاب !!! ثم قال :

[ولذلك ما كنا لنعبأ به ونكتب اليكم هذا الكتاب بشأنه لولا ما يشيعه بلسانه وقله فانه يقول ان لكم يدأ في الاقدار التي ملأ بها مجلته طعننا على الجامعة وشتمنا لمنشئها] وقال انه لا يصدق ذلك ولو رأى خط الاستاذ في تصحيح مسوداتهم لانه أعطى قابله للجامعة وصاحبها فلا يرجع فيه . بل قال انه ينبغي كلام المنار بطرف نعله ، ثم قال (في ص ٧) مانصه :

[وهنا نستأذنكم بابداء ملاحظة مختصة بهذا الموضوع ، فان تابعكم الشيخ رشيد الطرابلسي صاحب المنار لا ينبغي بتهوره وحمقه على نفسه وعلى قومه فقط . بل هو يجني أيضاً على منصبكم السامي منصب الافتاء الكريم . فانه كل ما (كذا) نشر ذمنا وطعننا في أحد أكابر الناس الذين لانعجبه آراؤهم وأعمالهم يقول لبعض اخصائه « إن الاستاذ المفتي راض عن هذا » أو « هو الذي أوحى إلي هذا الفكر » وهناك على ذلك أمثلة كثيرة نذكرها عسى ان يكون فيها فائدة وتنبيه لكم ولتابعكم فتدفعون هذا الضرر عنكم وعن عباد الله الذين نحن من جملتهم]
وأول ما ذكره من هذه الامثلة ما تقدم لنا ذكره بالتفصيل في صفحة ٥٨٠ وهو ما نشر في المنار في الاحتفال بذكرى مرور مائة سنة على تأسيس محمد علي باشا ملك مصر الجديد ، من مقالة المنار ومقالة الاستاذ الامام نفسه ، قفي على ذكرها بقوله [فبعد انتشار هاتين المقالتين صار تابعكم الشيخ رشيد رضا الطرابلسي يشير إلى بعض تلك الاخصاء ان تلك الآراء منكم ، فانتشر هذا الخبر وصار الناس يتساءلون : ما بين الجناب الحديو وفضيلة المفتي لينشر المنار في محمد علي باشا مثل تلك المقالات ؟]

كتب فرح أفندي أنطون هذا لأنه كان في معزل من معرفة ما كان يعرفه جميع خواص المصريين وكثير من عوامهم وجميع أرباب الصحف في هذا القطر من أمر الشقاق بين الخديو والمفتي. ثم ذكر أن المنار أنكر حضور الامراء الرقص الافرنجي تعريضاً بالخديو ، وأنكر تصفيق الناس لسموه في حفلة افتتاح بعض المساجد وقال إن التصفيق في المساجد من أعمال الجاهلية ، وأنكر على أمراء المسلمين وملوكهم عدم الحج ، تعريضاً بالخديو ؛ وفاته ما هو أعظم من ذلك وأصرح وأهم عند الخديو وهو ما تقدم ذكره في هذا التاريخ ، ولوعرفه لكان غنياً عن افتراء الوشائيات ثم أذكر أن المنار يروم أن يحارب يلدز وعابدين معاً ويقول صاحبه لاي كان انه لا يعترف للسلطان بالخلافة ، ولما خلا عدد من أعداد مجلته من الطعن على رجال الدولة [وأخصهم سماحة أبي الهدى أفندي] وياصق بالمفتي تهمة مقاومة شيخ الازهر كما يعرض به بقوله في مجلته [هذا هو الاستاذ الامام ولا أستاذ امام بمصر غيره] وذكر انه يتهم شيخ الازهر بلسانه قال [ولكنه من حسن الحظ ليس له جراءة على أن يكتب بقله في مجلته كل ما يقوله بلسانه لان ذلك يقتضي قلباً غير القلب الذي بين جنبيه] !! ولو كان يقرأ كل ما كتب في المنار ومنه الانتقاد الصريح على شيخ الازهر لما كتب هذا ولما احتاج إلى القول على صاحبه ثم قال (في صفحة ١٠) بعد أن بين ضرر خطة المنار بالمفتي مانصه :

[ونحن لا نجعل انكم تقولون مالي والمنار فانه لاعلاقة لي بصاحبه إلا كعلاقتي برجل يتردد على منزلي ويقف في بابي - فنجيب أننا نعلم ان لفضيلتكم علاقة بتابعكم المذكور من عدة وجوه] وفسر هذه الوجوه بالمساعدة المالية والادبية قال [حتى صار معروفاً في مصر من دعاكم إلى مادبة فقد دعا تابعكم]

ثم ذكر رد المنار على الجامعة وذكر انه نفعا من حيث أراد أن يضرها حتى انه لو علم بمقدار هذا النفع « بعض أنامله ندما » ومنه انه كثرت مجاملة كرام المصريين ها ، وتدفق عليها سيل الدراهم والدنانير بكثرة طلب الاشتراك « مع الدفع مقدما عن سنة وعن سنتين » إلى آخر ما قاله وكان تأويله ان الجامعة ماتت ولم تصدر بعد ذلك ، والله لم نكن نقصد إلى هذا ولا نفكر فيه

ثم ذكر عبارة أدل على عقله وأدبه من كل ماذكر إذ خاطب الاستاذ الامام بقوله في ص ١٤ بما نصه :

[ولما رأى تابعكم صاحب المنار ان حيلته لم تنطل على أحد من قرائه في دعواه على الجامعة عدل إلى قول آخر فصار يقول ان صاحب الجامعة ليس بغني ، ونعم أيها الرصيف الحسن الذوق العاطر الاخلاق ان صاحب الجامعة مثلك ليس بغني ، وإن كان ينفق في كل شهر على كل جزء من الجامعة أربعين جنبها أي ما يكفي لنفقات مجلة المنار طول السنة ، ولكن ساءحك الله لما ذا لم تتقدم معرفتك به سبع أو ثمان سنوات (١) فانك لو فعلت ذلك لصادفته يومئذ في حالة ترضيك ، ولما كنت يا سليم الذوق تعبره يومئذ بعدم الغنى لان كثيرين مثلك كانوا يترددون إلى منزل أبيه كما تتردد الذنور إلى محل الفرائس] !!

وقفي على هذا بأنه مستعد لارسال أوراق مالية بأني جنبه أو ثلاثة آلاف مما مات ، لايه إلى صاحب المنار ليحصلها « بسيف فضيلة المفتي » !!

وفي الخاتمة من ص ١٥ و ١٦ اقترح على الاستاذ ثلاثة اقتراحات (١) تحكيم رجلين فاضلين عادلين من رجال الازهر ليكونا حكما في هذه المسألة (٢) أن يكذب ما يشيعه صاحب المنار عنه من أن ما ينشره عن الجامعة هو بإيعاز منه (٣) أن يترك تابعه صاحب المنار التعرض للجامعة بعد الآن ، وأنذره بأنه إذا لم يجبه إلى أحد هذه الاقتراحات [فالجامعة تتحقق عند ذلك صحة الاشاعة التي يشيعها تابعكم وحينئذ تضطر كما صدر جزء من المنار وفيه تحكك بها أن ترفع اليك كتابا مفتوحا كهذا الكتاب فتشكوه اليكم ، وتوقف جمهور العقلاء بالتفصيل على اقترائه واعتدائه تحت حمايتكم ، وغني عن البيان أن هذه المسألة لا تقف يومئذ عند حدودها الحالية] يعني انها تكون خطرا على المفتي باظهاره للخديو ان المنار يكتبه ، بإيازه !!!

وأرسل إلى الاستاذ مع هذا الكتاب المفتوح الطبوع كتابا خطيا ذكر فيه انه إذا لم يكف المنار عن الرد عليه فإنه يذشر على الناس مائة ألف نسخة من هذا الكتاب

ولم يكتب فرح أفندي بهذا بل توسط خليل باشا حمادة الشهير بأن يكلم

(١) اني كنت اعرفه في هذه المدة ومن قبلها كما تقدم في التمهيد لهذا البحث

الاستاذ الامام فيما جناه صاحب النار على الجامعة بر دوده عليها، وأنه يعلم أنه لا يستطيع أحد أن يسكته غيره، وأنه يتمنى هو أن يحافظ بمد ذلك على مودة الاستاذ وعطفه . وقد حضر خليل باشا من الاسكندرية وتكلمنا في المسألة وأجمعنا نحن الثلاثة على أن من يكتب مثل هذا الكتاب ويقتري هذا الافتراء الجنوني الذي لا يجوز أن يرد عليه ، ولا أن يخاطب أو يذكر بلسان ولا قلم . وهكذا فعلنا .
ولكن فرح افندي عاديتوسل إلى الاستاذ الامام أن يعود إلى الصلة به ويعاتبه على احتقاره له فكتب اليه الاستاذ ما نصه وهو فصل الخطاب، الذي ليس بعده قول ولا كتاب إلى صاحب الجامعة

لو احتقرتك ما كتبت اليك كلمة ، وانك تسيء الظن بنفسك أكثر مما يسيئه بك غيرك . وكنت أود لو كنت لنفسك أفضل مما أنت لها اليوم . ولكن : اللهم عرفنا بأقدار أنفسنا ، فذلك اللهم أنفس ما تعطي ، وأفضل ما تهب . والسلام

اعتذار للقراء

انني لخصت هذه المسألة لان بعض الادباء لا يزالون يظنون انني كنت مسيئا لهذا الرجل كما سمعوا منه او عنه ، ولأنهم امن أشد ما ابتلي به الاستاذ الامام من إساءة من أحسن اليهم من الناس ، وطاحت بثقته منهم كلهم إلا من اصطفى لنفسه كما تقدم آنفا في أحد كتبه إلي من هذا السياق ، ولم يكن يجهل أحد يعرفنا انني كنت أوثق هؤلاء المصطفين عنده ، الا صاحب الجامعة الذي خسر بأوهامه العصبية وطاعة قلبه لما من صداقته له مالا عوض عنه . وخسر في اثرها مجلته، واضطر إلى كسب رزقه بالاستغلال بالروايات التمثيلية، ولو لم يكن فيما ذكرنا من الفائدة إلا نشر هذا الجواب الحكيم لكفى ، وقد كان عاتبه بعض أصدقائه على ما كان من الخداع بهذا الرجل وعلى الثناء عليه حتى في مقام الرد عليه قبل أن يظهر هذا منه . ومنهم صديقه الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان - فأجابه بقوله « لا خسارة في حسن الادب »

الدفاع عنه الاسلام والمعوة اليه

﴿ من طريق التأليف والتقريب بينه وبين أهل الكتاب، وهو خاتمة هذا المقصد ﴾

تمهيد في ذكر شيء عن ميرزا باقر

لما كان المجددان الكبيران — حكيم الشرق والاسلام السيد جمال الدين والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده — في باريس يصدران جريدة العروة الوثقى أرسل اليهما بطاقة الاستئذان رجل اسمه ميرزا محمد باقر قال انه يعرف السيد معرفة شخصية ، قال السيد: أنا لا أعرف رجلاً بهذا الاسم وأذن له، فدخل فإذا هو رجل قد عرفه في نعر (بوشير) في الخليج الفارسي إذ جاءه السيد مع جماعة من الافغان في طريقهم الى الحجاز ، وكان اسمه ميرزا يوحنا ، وهو ايراني تنصر وصار داعية للنصرانية هنالك مع جمعية المبشرين ، وقد دعا السيد ورفاقه إلى النصرانية فطفق السيد يجادله فبدرت منه كلمة طعن في النبي ﷺ فأمر السيد من معه من الافغانين بضربه فضر به حتى خرج يزحف على استه كما حدث السيد عنه مراراً ، ثم عرفوا بيته فأرادوا إحراقه عليه فحبل بينهم وبين ذلك ثم سافروا

فلما دخل على السيد في باريس عرفه وبادر هو إلى ذكر ما كان من أمر تنصره ثم عودته إلى الاسلام ورجوعه إلى لقبه الاول (باقر) وكان يُعرف أيضاً باسم ابراهيم جان المعطر — وأخبر السيد بأنه كفر عن ذنبه الاول فصار داعية للاسلام ، وعرض عليه استعداده لخدمته في إدارة العروة الوثقى فكان يترجم لها ما يهيمه من الجرائد الانكليزية . ولما ذهب الاستاذ الامام الى لوندرة للسعي لدى ساستها ومحادثتهم في مسألة مصر والسودان كان ميرزا باقر هو المترجم بينه وبين كبار رجال الانكليز الذين قابلهم وتكلم معهم ، وكان يفترض هذه الاحاديث لدعوتهم الى الاسلام فيقول له الاستاذ الامام دع هذا الآن إلى أن نفرغ مما نحن فيه

وقد مدح بعض كبراء الهند ملكة الانكليز بتقصيدة بليغة باللغة الاوردية أو الفارسية فلما ترجمت لها معانيها أمرت بأن تترجم باللغة الانكليزية نظماً فلم يوجد

في لندن من قدر على ذلك بلغة الشعر الانكليزي البليغة غير ميرزا باقر لانه كان متقنا للغتين كل الاتقان ، وقد امرت الملكة المرحم بمخمساته جنيه فردها وقال انه يطلب لها جائزة واحدة هي دخول الملكة في الاسلام !!

هكذا كان يدعو الى الاسلام ويلوح لي أن الاستاذ الامام أقنعه بان هذا الاسلوب في الدعوة منفرد للانكليز ، وان الاسلوب الذي يرجى نجاحه هو ما ألفت له الجمعية التي هي موضوع كلامنا في خانة هذا المقصد

وأزيد القراء بيانا عن ميرزا باقر هذا فأقول انه كان آية من الآيات في الذكاء وسرعة الحفظ وقوة الاستحضار والاستنباط - تلك المزايا التي قلما تجتمع لفرد من الافراد إلا في القرون كالسيد جمال الدين في المتأخرين وأشهر رجالاتها في التاريخ الاسلامي شيخ الاسلام أحمد تقي الدين بن تيمية

كاد يكون حافظا لكتابي المهدين : العتيق والجديد ، فاذا تكلم في موضوع من أمور الديانة النصرانية أو اليهودية طفق يسرد الشواهد المتعددة من تلك الكتب بسرعة غريبة وان كانت كثيرة ويبين معانيها وما له من الاحتماد والرأي فيها وترجيحه على غيره

وكان كذلك يستحضر آيات القرآن . وقد غني بجمعه على ترتيب النزول لا ليقرأ ويتعمد به بهذا الترتيب، بل للاستمانة به على الفهم والاستنباط والعمل ، وكان يحتج بالقرآن دون الحديث على أصول الاسلام التي يدعو اليها ويعمل بها ، وكان له شذوذ في ذلك غريب أخبرني الاستاذ الشيخ توفيق الايوبي أنه حازه في بيروت في تنفيذ ما ارتآه من جواز غسل اليدين إلى الرسغين في الوضوء محتجا بان النبي ﷺ إنما علم العرب غسل اليدين الى المرفقين لانهم كانوا يكشفون سواعدهم فتكون عرضة لتساخها أو لوقوع الغبار عليها . قال له الايوبي تعال نتحاكم الى الشيخ محمد عبده ، قال رضيت فأني الشيخ فقال لميرزا باقر : ألسنت تلزم الاحتجاج بمبارة القرآن وتعتمد في معناه على تفسير معاجم اللغة ؟ قال نعم ، قال فن القرآن جمل غاية غسل اليدين في الوضوء المرفقين فان أتيتنا بنص من كتب اللغة يطلق لفظ المرفق على الرسغ عذرك وإلا وجب عليك التزام حد القرآن في غسل اليدين ، فاقنع ورجع

ومن مزاياه أنه كان من أفدر العلماء على اقناع الملاحدة بالدين الاسلامي ،
 وكان ممن أرجعهم اليه بعد الارتياب فيه احمد مدحت افندي العالم الكتائب
 التركي الشهير صاحب مجلة (ترجمان حقيقت) وكان قد اشتهر بالاحاد ، حتى
 ان السلطان عبد الحميد قد استقرب رجوعه إلى الاسلام ، ذلك ان السلطان أمر
 بتأليف لجنة من كبار أهل الرأي ليستشيرهم في مسألة اعفاء السادة الاشراف
 من الخدمة العسكرية وكان من أعضائها احمد مدحت افندي هذا فلما جاء دوره
 في الكلام قال ان النبي ﷺ وأهل بيته كانوا يكونون في طلائع المجاهدين
 في سبيل الله ، وان وجود هذه الذرية المباركة في الجيش الاسلامي قدوة وبركة
 يرجى به النصر له ؛ فالتفت اليه السلطان قائلاً : أنت إذاً مسلم يا احمد فاجعل خجلاً
 شديداً لانه لم يكن يعلم ان السلطان قد بلغه خبر إعادته ، وهل كان يخفى على
 عبد الحميد حال رجل من أشهر الكتائب في عاصمته ؟ وماذا يفعل إذا جيوش جواسيسه ؟
 حدث احمد مدحت افندي أستاذنا الشيخ حسين الجسر بهذه الحكاية ،
 وقال له انني كنت قد ارتبت في ديني بشبهات كثيرة علمية وتاريخية ثم سافرت
 إلى بغداد فلقيت فيها علماً إيرانياً اسمه ميرزا باقر وقم يدي ويده مناظرات كثيرة
 في هذه المسائل وغيرها أزلت من نفسي كل ما كان علق بها من الشبهات والشكوك ،
 واطمأننت بحقية الاسلام كل الاطمئنان .

جمعية التأليف والتحرير

عرف ميرزا باقر في لندن وغيرها بعض رجال الانكليز المستقلي الفكر
 المحبين لحرية البحث في الدين . ولما وجد هو والاستاذ الامام في بيروت بعد
 تمطيل العروة الوثقى اجتماعاً فيها بالاستاذ بيرزاده وعارف أبي تراب تابع السيد
 الافغاني وبجمال بك نجل دامز بك التركي قاضي بيروت الشهير وكان شاباً ذكياً
 مغرماً بالامور العامة من سياسية ودينية واجتماعية وأفوا جمعية سياسية دينية مصرية
 موضوعها التقريب بين لاديان السماوية الثلاثة وإزالة الشقاق من بين أهلها ،
 والتعاون على إزالة ضغط أوربة عن الشرقيين ولا سيما المسلمين منهم ، وتعريف

الافرنج بحقيقة الاسلام وحقيقته من قرب الطرق ، وقد دخل في هذه الجمعية مؤيد الملك أحد وزراء ايران ، وحسن خان مستشار السفارة الايرانية في الآستانة وبعض الانكليز واليهود ، وكان من أعضائها من رجال الدين في لوندرة القس اسحق طيلر بل كان هو داعيتها هنالك ، ومن رجال الحكومة (جي دبليو لينتر) مفتش المدارس في الهند ، وكان الاستاذ الامام صاحب الرأي الاول في موضوعها ونظامها ، وميرزا باقر هو الناموس (السكرتير) العام لها ، وانني ألخص هنا بعض ما نشر من آثارها

(شهادة المفتش الانكليزي المشار اليه آنفاً لمسلمي الهند ومكاتبهم ومدارسهم)
(وسعيه لانصاف دولته لهم والعناية بدينهم)

نشرت جريدة الدالي تلغراف من جرائد لندن الشهيرة في ٢ فبراير سنة ١٨٨٨
مقالة لهذا المفتش عنوانها (الاسلام والمدارس المحمدية) ذكر في أولها انه أتيح له تعلم العربية والقرآن في مكتب اسلامي بالآستانة قبل حرب القرم وانه فتش مئات من المدارس المحمدية في الهند ووصلت اليه ألوف من الاخبار عن مدارس أخرى - فهو بهذه المؤهلات يشهد بأن ما أشيع عن المكاتب الاسلامية انها « مفارات الانتم » بهتان لا يصح أبداً ، فان الاجتماعات المنزلية (العائلية) والعلمية والرسائل الدينية والاخلاقية التي أوجب المسلمون على التلاميذ قراءتها سباج للآداب حافظ لها

وذكر ان هنالك مكتباً يعلم فيه البنون والبنات التعليم الابتدائي لم يسمع انه وقع فيه أدنى حادثة تنافي الآداب . وان بعض الصبيان رموا مرة بعض أولاد النصارى بالحجارة فعاقب امام الجامع الجاني منهم فلم يعد أحد بعد ذلك الى مثل هذا التعدي . ومدح سلوك شبان الاشراف من المسلمين . والتعليم الديني في جميع مكاتبهم ، واذم مكاتب الدولة (الانكليزية) بعدم تعليم الدين الاسلامي فيها وخطأها في ابطال المدارس الوطنية . ثم قال :

أما السؤال الاوسع عن الفرق بين المسيحية والاسلام وكونهما آلة لظفر

التمدن فسأخبرني أن ألاحظ أن من لا يعرف للسان العربي لا يقدر أن يبحث أو يرى أن تعلق اصول الدين الاسلامي أشد وأربط بقلوب المعتقدين به في معيشتهم اليومية مما هو للنصرانية اسوء حظها ، واذ كان الامر كذلك فلا حجة عندنا في معاشرتنا للمسلمين بأن نترك الكلمة السواء بين الدينين ، ونأخذ بما يفرق بين الامتين . المسلمون يعتقدون أن اليهود والنصارى هم أهل الكتاب أي عندهم كتاب مقدس . الولد المسلم حين خروجه من المكتب يعترف أمام ربه معاهداً بإياه انه مؤمن بهذه الكتب . القرآن يأمر بصيانة المساجد والصلوات والبيع التي يذكر فيها اسم الله الواحد ، كأنها غاية جهاد المؤمن ، ويسمي عيسى كلمة الله وروحه ، وولادته العجيبة ، ورجعته الحميدة ، مقبولتان عند المسلمين ، بمعنى لا يخالف العقائد المعتمدة عند الاحزاب العيسوية .

ثم قال : اقواعد الاسلامية المتعلقة بالزواج تهيب للنساء وتهب لمن حقوقاً شرعية أفضل مما ورثته نساء الانكليز حتى منذ اجراء قانون أموال المتزوجات في سنة ١٨٨٢

« الجنس اللطيف ليس موضوع الكلام بين المحمديين كما هو بين شبان النصارى ، والحجاب صيانة أعطيت لما هو ثمين وضعيف . الارملة المسلمة العفيفة مشهورة انها حامية التربية ، واحسان المسلمين لمواليهم واشفاقهم على البهائم التي ترجع أيضاً الى الرب ، وانفاقهم في سبل الخير والسذاجة التي هي من خصال المؤمنين الصادقين أخرى بأن تميلنا اليهم من أن نصيحب على « النبي الكاذب » وما أحسن عمل مبشريننا لو جاهدوا في التوفيق بين الاسلام والمسيحية توفيق أختين من أم واحدة »

ثم قال « الحرية الدينية ينبغي أن يكون معناها عدم العصبية في الدين الذي نجمل الشرقيين أن يعطوا حصة من خراج أرضهم لافضل المصالح عندهم ، وهو الدين ، وان كنا نريد أن نلصق المسلمين بالدولة الانكليزية فيجب علينا أن نهلم الدين والدنيا ، ونؤمن كما آمن أكبر شاه الهندي ان الملك والدين توأمان ، فكما ان كل دولة تخدم الافكار الدينية بين رعاياها لا يمكن لها أن تدوم ، هكذا كل دولة

لا تعامل عقائد رعاياها بالعدل والسكرم السواء لا تقدر على النجاح
« اما الذي أنا مصر على توكيده فهو الاتحاد بين الاسلام والمسيحية ليس من
جهة الدين فقط بل من جهة السياسة أيضاً »

« مرزبان كان المسلم ينظر إلى الانكليزي كأنه الناصر الطبيعي للعالم الاسلامي
من أجل موادته القديمة للعثمانيين » الذين يعد سلطانهم خليفة المحمديين السنيين «
وأكثر أبناء وطننا من جنسهم . هذه المودة يجب توطيدها . ومن جملة المساعي
التي أؤكد الشروع فيها ادخال الشبان المسلمين (وكذا أولاد الرجوات الراجبوتية
النبيلة) في مدارسنا الحربية على قصد استخدامهم مع تسوية الرتب والارتقاء
بالمأمورين الاورباويين في عساكر الهند المستقبلية التي يجب اكثارها جداً . الخ

خطب اسحق طيلر ومقالاته في الاسلام والنصرانية

وأما القسيس الكبير اسحق طيلر فقد كان يلقي خطبا في لندن ويكتب
مقالات في جرائدها بهذا الموضوع ، وكانت الجمعية في بيروت تترجم ما ينشر
منها بالعربية بقلم ميرزا باقر ويصحح ترجمتها الاستاذ الامام ، وتنشر في جريدة
نمرات الفنون الاسلامية في سنة ١٣٠٥ هـ ١٨٨٨ م وبلغني أن جريدة المؤيد كانت
تنقلها عنها . وقد نشرت واحدة منها في المجلد الرابع من المنار بعنوان (المسلمون في
افريقية) منقولة عن جريدة (البال مال غازيت) الانكليزية ألخص بعضها هنا وهو :

خطبة للقس اسحق طيلر

قرأ القس اسحق طيلر في خطبة له صحيفة بدأها بقوله : ان الاسلام من
حيث هو دين دعوة وتبليغ قد نجح في قطعة عظيمة من العالم نجاحا يفوق نجاح
الديانة المسيحية (تحير من السامعين) وان المسيحية تخنس بالفعل بين يدي الاسلام ،
والمساعي المبذولة لتنصير الامم المسلمة ترجع إلى الخيبة رجوعا ظاهراً ،

ثم ذكر مساحة الاقطار والامم التي انتشر فيها الاسلام من افريقية وآسية
وثباته فيها وكون الوثنيين الذين يدخلون فيه لا يرجعون عنه ولا يقبلون النصرانية
لانه معقول عندهم دون المسيحية التي لا يعقلونها « لما نعلم من دقتها » — وذكر

كيف يهذبهم الاسلام بلبس اشياى والنظافة ، ويمنعهم من السكر والقمار والمراقص الخزية ، واختلاط النساء بالرجال ، والقتل والزنا ، وسائر المفاسد التي تذررها التجارة الاوربية، ويحملهم على الحضارة الصحيحة

ثم قال « تلك احوال يسوءنا مرآها وجهلها حماقة ، فيجب علينا أن نعلم أن الدين الاسلامي لا يناقض الديانة المسيحية بل يتفق معها، فانه صدى إيمان ابراهيم . والمسلمون يؤمنون بان أعظم هداة البشر : ابراهيم خليل الله ، وموسى كليم الله وعيسى كلمة الله ، ومحمد رسول (ص) واسيدنا عيسى مقام جليل في الاربعة »

ثم ذكر ان بعض رؤساء الكنيسة ابتدعوا في المسيحية موضوعات خيالية شركية كعبادة اقدسين والملائكة والشهداء حتى جعلوا الوساخة من صفات القديسين ، فجاء الاسلام فمسح هذه الابطال وأظهر الاحكام الاساسية للدين وهي توحيد الله وتعظيمه ، وبطل الانسانية الرهبانية، وأرشد الناس إلى الاخوة الصحيحة ، والحقائق الاساسية للطبيعة الانسانية ، وانه لا يحمل الانسان على التجرد من الروحانية المحضة ، كاتعاليم المسيحية ، وأطرى الاخوة الاسلامية وقوة رابطتها وتسلم في تعدد الزوجات التي كانت فاشية في جميع الامم والملل بغير حد وتخفيف الاسلام لشرها وإقامته لكل امرأة قبا شرعياً فأثقت البلاد الاسلامية من الفواحش الرسمية وهي أعظم شناعة من تعدد الزوجات في الاسلامية

(قل) « تعدد الزوجات على قواعده المنتظمة عند المسلمين أنجح تأثيراً في صيانة النساء عن الرذائل ، وأخف ضرراً على الرجال من مخالطة امرأة واحدة لرجال كثيرين ، تلك لعنة البلاد المسيحية ولا وجود لها في بلاد الاسلام (أنظر وتأمل) الانكليز الذين يجوزون اختلاف رجال كثيرين إلى امرأة واحدة في المواخير (أي بيوت الفحش) لا يلبق بهم أن ينكروا على المسلمين الناكحين مثنى وثلاث ورباع ، فلنخرج الجذع الكبير من أعيننا قبل أن نهم باخراج القدي من عيون اخواننا » وختم كلامه بقوله « إن الاسلام قد نسخ السكر والقمار والبقاء ثلاث ازمات أهلكن البلاد المسيحية »

« الاسلام قريب جداً من المسيحية » والمسلمون كأنهم مسيحيون ، فتمالوا

بنا نساعدكم على الكمال في دينهم ، لانسى عبثاً لابطاله ، املنا نجر في الاسلام مسيحية ونجد محمداً ﷺ آخذاً بعضد المسيح في دينه (بشاشة من الحاضرين)»

أخبرني الاستاذ الامام رحمه الله تعالى ان اسحاق طيلر هذا لما أكثر في خطبه ومقالاته من مدح الاسلام والمسلمين لم يجد المبشرون وسيلة لاسكانه الا الاحتيال عليه لزيارة مصر فزارها فصاروا يطوفون به على الحانات والمواخير ويرونه حال المسلمين فيها حتى كف عن هذا الاطراء في المدح. ولكنه ظل يدافع عن الاسلام ويدعو الى التقريب والتأليف بين الديانتين وأهلها بما هو دعوة الى الاسلام نفسه على طريقة الجمعية التي كانت تمد به بالمعلومات

(المقالة الأولى للقس اسحق طيلر بعد زيارته لمصر)

نشرها في جريدة (سانت جيمس) من جرائد لندن في ١٨ ابريل سنة ١٨٨٨ بعنوان (الاسلام والمسلمون) وقد اقتصر فيها على أصل الموضوع وهو مدح الاسلام والرد على المطاعن التي يوردونها عليه والتقريب بينه وبين المسيحية والدفاع عن المسلمين أيضاً دون تصويرهم ممثلين الاسلام نفسه كما كان يقول من قبل قال في أولها « اني ذهبت الى مصر أحد اقطار الاسلام ومقصدي الوحيد أن أطلع في ذلك المكان على الاحوال المجموعة في القرآن من الآداب والاخلاق والتقوى والمعرفة . وأعلم على قدر الامكان ماهي العقائد الحقيقية المتعلقة بالمسلمين ذوي التربية »

ثم ذكر أنه وجد المسلمين يتألمون بما يتهمهم به النصارى ويكفرونهم به مع تصريحهم لهم بايمانهم بالله وبما أنزل على جميع النبيين ، وأنه تعجب لما رأيهم راضين بالبحث في عقائدهم والاعتراف بذنوبهم ، وأن أحد علمائهم قال له تعالوا نبحث معكم عما نوافقكم وما نخالفكم فيه عسى أن لا يكون اصلاح البين أمراً صعباً . واعترف له بأن المسلمين ابتدعوا في دينهم ما ليس في كتاب الله كما فعل النصارى. (وقال) فاذ نحن رجعنا إلخ خالص تعليم نبينا ﷺ كما في كتاب الله ورجعتم إلى خالص

تعليم عيسى عليه السلام وحواريه فلا نجد ما يفرق بيننا . ولكننا نفقد أن تعاليم

عيسى قد غشيتها الأباطيل منذ أيام قسطنطين الأول « وسيا في زمان ترك فيه

هذه البدع الفاسدة كلها ويبقى على الأرض دين واحد يقدر كل انسان على قبوله »

ثم ذكر عبادة القبط في مصر لمريم وعكوفهم على التماثيل ورؤية المسلمين

لذلك واستحالة تركهم لعقائدهم وعباداتهم لا يثار هذه العبادة عليها أو قبول

ما يدعوهم إليه المبشرون من العقائد المتناقضة وإن لهم الحق أن يأوتوا كتب

النصارى كما يشاءون، وأن يرفضوا العقائد النصرانية المخترعة كالأصول التسعة

والثلاثين للكنيسة الانكليزية، واعتراف الكنيسة الوستمنسترية المثلثة الاسنان الخ

ثم ذكر خلاصة العقيدة والعبادة الاسلامية ومنها الفاتحة في الصلاة ودعاء

القنوت وأدعية أخرى وقال انه يمكن أن يؤخذ كتاب صلاة من أدعية المسلمين

يكون مقبولا في كل البلاد المسيحية . وفقى على ذلك ببيان أن كل عقيدة اسلامية

قد وجد من الفرق المسيحية من أخذها ثم قال « ولا يمكن أن نرى أحداً من

المسلمين قد تمسك بمفتريات وأباطيل كشيعة كالموجوده بين فلاحي جنوب ايطالية »

ثم تكلم في المقارنة بين الاسلام و فرق أهل الكتاب في النساء وفي الحروب

المقدسة وفضل الاسلام فيها على ما قبله واستطرد إلى المقارنة بين المسلمين والقبط

في مصر وقال ان تقدم القبط أقل . وان المسلمين يمتفرون بانهم كسائر الشرقيين

مقصرون في اكتساب العلوم الجديدة على كونهم يفتخرون بالنهضة العلمية المضيئة

التي كانت للعرب في دولهم . ثم ختم مقاله بقوله :

« ان شيخ مدرسة الازهر الذي مقامه كمقام الويس شنسلر في مدارسنا

الكلية سأل وزير المعارف في مصر حديثاً أن يهيئ وسيلة لتربية الف ومائتين

من تلامذة العلوم الالهية في الفنون الدنيوية . وسمعت من محمدي عالم كان مدرسا

في إحدى مدارس الحكومة أنه ذات يوم أعلن في بعض الجرائد الوطنية ان له

النية أن يعطي درساً لبعض تلامذة مدرسة الازهر وفي أسبوع واحد وصله

أكثر من ستمائة طلب يستأذونه مرسلوها بالدخول في الصف

قال « اتعلم الانفع لهؤلاء التلامذة لعله معرفة التواريخ لسكن الصموبة في هذه هي عدم وجود كتب متينة صالحة نحكي عن الدينين بروح الانصاف والمحبة . سألت يوماً تلميذاً من تلامذة الازهر هل قرأت كتب التواريخ ؟ قل نعم عندي كتاب لكنني لأحبه ، قلت له لماذا ؟ أجاب لأنه يتضمن نبياً محمداً ﷺ بقوله الباطل انه كان مفترياً . ظهر أن الكتاب كان عمل بطرس بارلي وهب له من أحد المرسلين الامركانيين ، فلا عجب أنه لم يحبه . هل نحن نحب أن يهب المرسلون الاسلاميون كتباً لتلامذة مدارسنا الالهية مكتوب فيها أن مؤسس بنيان المسيحية كان مفترياً ؟

ثم قال « إني أترك لمقالي الآتية بيان المذاكرة في موضوع دين المسيح وذكر رغبة كثير من المسلمين في إصلاح احوال حتى قال لي أحدهم لا يبعد أن يحصل بين المسيحيين والمسلمين مودة تامة ونماس بيدي الصداقة والاخوة وزوال أسباب الحرب إن شاء الله » (اسحاق طيلر)

﴿ المقالة التالية لها وموضوعها : القرآن والكتب المنزلة ﴾

نشرت في جريدة (سنت جيمس) أيضاً في ١٣ مايو سنة ١٨٨٨ افتتاحها بقوله « ان المسلمين قد آمنوا بالمسيح عليه السلام وصدقوا ببعثته ، وهو عديم معدود في أولي العزم من رسل الله الى خلقه ، فهم عندنا مسيحيون نصلي لهم كل يوم أحد ، ونسأل الله يهديهم وإيانا الى الحق والى طريق مستقيم » ثم ذكر إيمانهم بالكتب السماوية كلها بشهادة القرآن لها وبأن القرآن خاتمها ومهيمن عليها - وانهم يستدلون على صحة دينهم بحجج القرآن وتعاليمه الصالحة المصلحة للبشر وتأثيرها وسرعة انتشارها بين أرباب الاديان كلها ، وبكون من جاءها أمياً يستحيل أن يأتي مثله بهذه الحقائق بدون وحي من الله - وان عدم احتياج القرآن بغيره على نبوة محمد ﷺ هو أوضح الادلة على صحة نبوته ، على أن في كتب الحديث كثيراً من المعجزات المشابهة لمعجزات الاناجيل ، على أن هذه الاعاجيب التي رويت عن المسيح عليه السلام « مما يعد عقبة في طريق الاعتقاد بدينه ... »

ثم ذكر استدلال المسلمين على نبوته ﷺ بإشارات الكتب السابقة به كما يستدل النصارى على المسيح بإشارات كتب العهد العتيق . وفصل ذلك تفصيلا بالشواهد . وذكر في تفصيله ما ينكره النصارى عليهم من الجنة الجسمانية وما يستدلون به عليه من كتب الانبياء وكذا تأويله مع اثباتهم للنعم الروحاني وعدم اياه أعظم من كل نعم ، وهو ينقل هذه المعلومات عن بعض علماء المسلمين ، وهي مقالة مهمة ينبغي للمسلمين الاطلاع عليها كالتى قبلها أو أكثر

(خريستفورس جباره) على ذكر هذه الجمعية التي انحلت بتفريق مؤسسيها أذكر انني رأيت بعد هجرتي إلى مصر هذا الرجل فعلمت منه أنه قام في نفسه منذ سنين أن سعادة العالم الانساني لا تتم الا باتفاق أهل الاديان السماوية الثلاثة اليهودية والنصرانية والاسلام . ثم صار هذا الخاطروجدانا ملك عليه أمره وحمله على الدعوة اليه بالقول وبالكتابة . أنشأ أولا نشرة سماها شهادة الحق . وبث دعوته في أميركا في معرض شيكاغو وغيره ، وكان يكتب الرسائل الطويلة فيه إلى علماء الدين المشهورين في بلاد الشرق وهو في أميركا أقصى الغرب . ثم جاء إلى مصر وألف فيها كتباً ورسائل كثيرة يوفق فيها بين التوراة والانجيل والقرآن ، فخرمته الكنيسة الارثوذكسية و كان قد وصل من رتبها الكهنوتية إلى رتبة الارشمندريت وكذلك قابله المسلمون بالهزء والسخرية إلا الاستاذ الامام وصاحب المنار ، فاحتمل من الايذاء ما هو معهود في كل من يدعو الناس إلى خلاف مام عليه

كان الفقيد موحداً يقيم الحجة على أنه ليس في الانجيل ولا في رسائل الرسل ما يدل على التثليث ويؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويؤمن بالقرآن وبرسالة سيدنا محمد ﷺ . ومما كان يخالف فيه المسلمين مسألة صلب المسيح و كان يؤول قوله تعالى (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) . وكان استفتى مفتي الديار المصرية عن عقيدته بكلام مجمل يصرح بالابمان بنبوة سيدنا محمد وصدقه في كل ما جاء به ، فأجابه المفتي جواباً قيد فيه اعتبار إسلامه بعدم إنكار شيء مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة ، فجاءني وقال لي إنني لم أفهم معنى هذه الكلمة فينت له معناها

أصاب الفقيد مرض ونقه منه ثم انتكس وعند إحساسه بشدة وطأة المرض جاءني وقال لي إنني منذ سكنت مصر لم أعرف فيها رجلاً رحماً يفعل الخير لغير علة إلا فضيلة المفتي وقد اشتدت حاجتي إلى مبلغ كذا لأجل دخول المستشفى أو السفر ونفسي علي عزيزة فأرجو أن تأخذ لي من فضيلة الاستاذ المبلغ المذكور فأجبتة سمعاً وطاعة، ثم واساه الاستاذ الامام بضعف ما طلب. ودخل أولاً مستشفى القصر العيني بمساعدة أحد الوجهاء ثم المستشفى النسائي بمساعدة وجيه آخر وتوفي فيه بمرض القلب. وكان أمر دفنه مشكلاً فخل هذا الاشكال بعض أذبياء النصارى فشهد عند غبطة البطريق أنه اعترف قبل موته بالكنيسة الارثوذكسية ورجع اليها فدفن دفناً أرثوذكسياً وأخذوا كتبه وفيها رد عليهم متين. وقد كتبت ما يخص ما تقدم في ترجمته من المجلد الرابع، وختمتها بقولي: وأما حقيقة امره وما يصير اليه في الآخرة فذلك مفوض إلى العليم الرحيم اهو أنا أعتقد انه مؤمن ناج عند الله إذا كان قد مات على ما عرفته منه وهو في مسألة الصلب متأول معذور

حظ اليهود من هذه الجمعية

لا أذكر أنني سمعت من الاستاذ الامام شيئاً من اشتراك اليهود في هذه الجمعية ولكنني لما نشرت في المنار مقالات (المسألة الشرقية) بمناسبة عدوان إيطاليا على طرابلس الغرب وبرقة وما لليهود العثمانيين من عمل في ذلك أرسل إلي الدكتور شمعون مويال رسالة من يافا ذكر فيها عن هذه الجمعية وتأليفها وغرضها وكونه من أعضائها ما ينبغي عن معرفة صحيحة لم يعرفها أصداء الاستاذ الامام في بيروت نفسها، قل فيها بعد تحيته مانصه :

« أما بعد فإن ما بيني وبين السيد من صلة الادب والتفكير والخدمة العمومية والالتناء إلى الامام الاعظم أستاذنا الكبير (رض) يفسح لي مجال الطمع بعمل علائقنا الروحية علائق مراسلة وتبادل أفكار وآراء عسانا نصـل معاً إلى الضالة التي يندشدها كل مؤمن »

ثم ذكر مسألة تأسيس الجمعية وانتظامه في عضويتها متوقفاً أن يكون شيخنا

رحمه الله تعالى أخبرني خبره ، وقال إن كونه عضواً في هذه الجمعية يعنيه عن تصريحه لي بعقيدته الدينية . واسكنه بين عقيدته السياسية باجمال يتلوه تفصيل قال « أما عقيدتي السياسية فهي ان الاسلامية رابطة سياسية كبيرة مبنية على جامعة ايمان ، وجامعة فلسفة ، وجامعة تاريخ ، وان اليهودية كذلك .. وان للعنصر العربي الاسلامي جامعة عنصرية كالجامعة العنصرية اليهودية »

ثم فصل ذلك بالشواهد من العهد العتيق ومن التاريخ ، واستنتج من ذلك ان بين العنصرين فوق قرابة النسب والرحم ، ووحدة أصول اللغتين واشتقاقها ، جامعات الاخلاق والعادات والتقاليد التاريخية والشعر والاغاني ، والتنبيه للحقيقة قال انها راهنة وهي ان اليهود الذين تفرقوا في أنحاء الارض وانتصار رومية بعد ثوراتهم المتتابة عليها قد كادوا ينقرضون من العالم ، وان أغلب اليهود الباقين هم من سلالة الذين خرجوا من جزيرة العرب

ثم عقد فصلاً عنوانه (العثمانية واليهودية) بين فيه فضل الدولة العثمانية على اليهود واخلاصهم لها ، تلاه فصل آخر في رأي اليهود وخطتهم في مسألة عدوان إيطاليا على طرابلس وبرقة وهو انهم استاءوا وأبدوا استيائهم بالقول والعمل ، وذكر مايدل على ذلك — وكانت النتيجة لما تقدم كله الانتقاد على المنار فيما ذكره في مقالة المسألة الشرقية من اتهام اليهود « بارشاد صهيونيهيم الالمان » حكومة « اغيلة غلطة وسلانيك » بالتهديد للطلليان في فعلتهم . وانه لايعقل ، وان ما نشر في الجرائد برهان على « ان الاثنى عشر مليوناً من بني اسرائيل المنتشرين في كافة أنحاء المعمور هم ١٢ مليون صديق حميم بل أخ صادق الاخاء للدولة الاسلامية المتمدنة القوية التي بقيت للعناصر الشرقية ملجأ وملاذاً وعزاً وغراً »

ثم ختم مقاله الطويل بذكر ظلم أوربة للجميع وأن مستقبل اليهود مرتبط بمستقبل الاسلام . ولم أنشر له هذا المقال في المنار ولا أجبت عنه لعدم امكان مناظرته كتابة فيما أخالفه فيه من أمر الصهيونيين الذين اجتهدت في السعي لتحويلهم عن الاتحاديين إلى العرب قبل الحرب فلم أفلح ، ثم جددت السعي بعد الحرب فلم أفلح .

المقصد الرابع

(من الفصل السابع)

إغاثة المنكوبين في امهرات الزمانه

كانت هذه الاغاثة نوعين : خفية وجلية ، أما الخفية فقد اشتهر بها في حياته ونوّهت بها الجرائد والوثوبون والرائون له بعد وفاته ، على ما كان من شدة كتمانها ، فقد كان هو يتصدق بكل ما يتيسر له التصدق من ماله على قلته وكثرة نفقاته ، وكان يجمع المال من أصدقائه الاغنياء للمنكوبين ان رمتهم أحداث الزمان ، أو السفه والاسراف في المال ، بالعسر بعد اليسر ، والفقر بعد الغنى

وأما الجلية فهي التي كان يقوم بها بالتعاون مع اللجان المنظمة تحت رياسته وأشهرها في عهد وجودي بمصر لجنة الاغاثة لجرحى الجيش المصري في حرب السودان وأرامل موتاهم وأيتامهم ، ولجنة الاغاثة للمنكوبي الجرحى في (ميت غمر)

والعبارة في هذا العمل الشريف الذي يذكر في هذا التاريخ أمران (أحدهما) ان وجهاء الامة الذين يعنون بعمل الخير كانوا كلما احتاجوا إلى تأليف لجنة لجمع المال لاغاثة المنكوبين يختارونه لرياستها (وثانيهما) انه كان في عمله هذا يقصده معه أمراً غيره هو أعلى منه وهو تربية الامة على التعاون والاهتمام بالشؤون العامة والبذل في هذه السبيل سبيل الله تعالى

﴿ لجنة الاغاثة لجرحى وأرامل وأيتام الجيش المصري ﴾

أرسلت اللجنة إلى جميع الجرائد خطاباً في بيان تأليفها والمنشور الذي كتبته رئيسها في الدعوة إلى الاغاثة هذا نصهما :

في يوم الثلاثاء ٢٦ ابريل سنة ١٨٩٨ اجتمع بمنزل صاحب السمادة احمد سيوفي باشا بالعباسية حضرات أمين فكري باشا ناظر الدائرة المالية ومحمد

ماهر باشا محافظ مصر والاستاذ الشيخ محمد عبده القاضي بمحكمة الاستئناف
ويوسف سليمان بك رئيس نيابة مصر ، والشيخ عبد الرحيم الدمرداش وسيدي
الحاج محمد الحلو وكيل دولة المغرب الاقصى ، واحمد بك ارناؤد ، وعبد الرحيم بك
من أعيان العاصمة ، والحواجه شمعون آرييب واحمد فتحي زغلول بك رئيس
محكمة مصر ، وشكلوا منهم لجنة للقيام بفتح اكتاب عام لمساعدة جرحى الجيش
وعائلات قتلاه وأيتامهم في الوقائع الاخيرة تحت رعاية الجنب العالي الخديوي
وانتخبوا حضرة الاستاذ الشيخ محمد عبده رئيساً وسعادة أحمد سيوفي باشا أميناً
للصندوق وحضرة أحمد فتحي زغلول بك كاتب سر اللجنة وقررت ارسال منشور
لاهل الخير وأولي البر والاحسان

وفي يوم الخميس تشرف وفد من اللجنة بمقابلة سمو الامير المعظم وعرضوا
ماقرروه على مسامعه الشريفة فلقوا من جناحه العالي كل رعاية وتلطف ، فكان
أول المسكتبين ، وجرى على ذلك أيضاً صاحب العطوفة مصطفى فهمي باشا رئيس
مجلس النظار وحضرات النظار ، واجتمعت اللجنة بعد ذلك بمنزل سعادة أمين
الصندوق بالقرية ، وبعد تحرير المنشور والاقرار عليه كاف كاتب السر
بارسالة إلى الجرائد

فقياماً بما تقرر أبث لحضرتكم بصورة المنشور راجياً نشره في جريدتكم
لتعميم العلم به واقبلوا مزيد تحيتي
كاتب سر اللجنة
احمد فتحي زغلول
١٦ الحجة سنة ١٣١٥

المنشور

قد عرف الكافة ما جاء به الجند المصري الذي سبق على البلاد السودانية
مما يخلد له ولبلاده المجد والفخار ، ولم يخف على أحد ما أصاب تلك الجنود في
الايام الاخيرة من قتل بعض ضباطهم وأفراد عساكرهم ، وجرح عدد كبير منهم ،
وإن كان ما أصابهم قليلاً في جانب الظفر الذي نالوه بمعونة الله وثباتهم وشجاعتهم
ومن المعلوم ان من قتل منهم ترك أيتاما وأهلاً فيهم الضعفاء وذوو البأساء

ومن جرح قد يعجز عن الكسب ولو شفي وبحاجة إلى ما يقيم أوده ولو إلى أجل ،
ومكان هؤلاء الشجعان من أهالي البلاد هو مكان الاخ الكريم من أخيه ، أو
العضو الشريف من البدن السليم ، ولا يسمح ذو مروءة أن يدع أخاه في مثل
هذا المصاب يذهب فريسة الحاجة ، والبدن السليم لابد أن يألم لما يصيب أعضائه ،
وهذا كان لأنباء ذلك المصاب هزة في قلوب الكثيرين من أهل الاحساس
الظاهر في جميع الطبقات ، وأفاض كثير من الجرائد في استنهاض الهمم لمساعدة
أولئك الرجال أو أهلهم ، وكان لكل واحد من سكان القطر المصري أن
يبتديء بدعوة باقهم إلى هذا العمل المجيد ، والبادي في الخير الداعي إليه
هو في الحقيقة خادم لمن يستنهضه ، فانه إنما يفتح سبيلا لظهور كرم السجية ،
وسطوع ضوء الحمية .

وقد قام بعض الاعيان من أهل العاصمة بتأليف لجنة للسمي في جمع إغاثة
لمساعدة أولئك الجرحى وأهالي القتلى وعرضوا ما أرادوا الشروع فيه على الجنب
الخديو الفخيم ليكون العمل تحت رعايته ، ففضل جنابه السامي بقبول ذلك على
جاري سنته الشريفة في تقدير الاعمال الخيرية ، فاجتمعوا في يوم الثلاثاء ٥ ذى
الحجة سنة ١٣١٥ الموافق ١٦ ابريل سنة ١٨٩٨ بمنزل صاحب السعادة أحمد
سيوفي باشا وانتخبوا الداعي رئيساً ، وسعادة أحمد سيوفي باشا أمين صندوق
للاغاثة ، وحضرة أحمد فتحي زغلول بك كاتب سر اللجنة ، ثم عرض الامر على
الجنب السامي فسر به ، وكان أول من شرف العمل بالاكتتاب وتفضل به ،
وكذلك اكتتب صاحب المطوفة رئيس مجلس النظار وبقية حضرات النظار ،
ثم أخذت اللجنة تتابع عملها في دعوة أهل الخير للاشتراك في مساعدة اخوانهم
وحيث ان ... تسكن من أهل الفضل وذوى الهمة والمروءة رأيت أن أبث
اليكم بهذا رجاء أن يرى لهمتكم الاثر الجليل ، في هذا العمل الجليل ، مع العلم بان
من يتفضل بدفع شيء من المعونة لآخوانه المصابين فانما يفعل ذلك لمحض الشفقة
والرحمة ، وصدوراً عن الهمة والمروءة ، ومن المعلوم أنه لا ينقص مال من صدقة ،
ولن تخذل أمة كان التعاون من سجاياها ، فارجو أن تساعدوا بما استطعتم ،

وأن تقبلوا المساعدة من يلبكم ويفرب منكم ، وما يجتمع لديكم تفضلون بارساله
إلى سعادة أمين الصندوق أحمد سيوفي باشا بمصر ويرسل الى ... تكم الايصال
حسب العادة ، والله لا يضيع أجر المحسنين رئيس اللجنة

نحريراً في ١٦ الحجة سنة ١٣١٥ محمد عبده

نشرت جميع الجرائد هذا المنشور وحذت المشروع ورغبت الناس في هذه
الإعانة بما لا شائبة فيه إلا جريدة المؤيد فانها شابت التزغيب بشيء من أ كدار
السياسة قالت مانصه:

تعليق المؤيد

نكرر حض القراء الكرام على الا ككتاب في مشروع الإعانة العسكرية للجيش
المحارب في السودان لان أكثر ما يجمع منها سيخصص لارامل وأيتام قتلى الحرب
وهو من خير أعمال البر والاحسان ، والباقي يعطى إعانة للجرحى من الجيش الذي
حارب في السودان وانتصر على قوم كانوا بالامس خارجين على سلطة الحكومة
الخدوية كما هو معلوم

وقد علمنا أن اللجنة القائمة بجمع الاموال لهذه الإعانة أرسلت منشورات شتى
لأعيان الاقاليم ولحكام المديريات الذين وزعوها على حكام المراكز لدعوة القادرين
على الإعانة ، وإن كانت الإعانة اختيارية على كل حال

وهنا يخطر على بالنا أن نسأل صاحب المطوفة ناظر الداخلية لماذا لم يصدر
منشوراً كما فعل عند تشكيل لجنة الإعانة العسكرية الشاهانية يبين فيه للحكام والعامه
أن الإعانة اختيارية محضة ، لكل انسان حرية الاشتراك فيها وعدمه ، إذ
الا ككتاب اختياري ولا شك في الامرين ، ففي الإعانة الاولى بعث عطوفة ناظر
الداخلية ثلاثة منشورات للاقاليم ، الاول يقول فيه: ان الا ككتاب حر لمن شاء ،
والثاني يقول فيه : قد بلغنا أن بعض الممد يتداخل في جمع الإعانة من الاهالي
ويجبرهم على الدفع فنبهوا عليهم بعدم التداخل وأفهمهم أن التبرع حر لا إجبار
فيه ولا إكراه ، والثالث قال فيه « اطعننا في بعض الجرائد على أن بعض الممد
يتأسون لجان الإعانة ، ويتجولون من بلد لبلد لجمع المال ، وهذا تداخل منهجي

عنه ، فأحضروهم وخذوا عليهم التعهد اللازم بعدم التداخل مطلقاً في جمع الاعانة لانهم موظفون ، وكل من يخالف هذا يحال على لجنة التأديب للمحاكمة .. اهـ»
فهل للحكومة مكيا لان في مشروعات الاكتتاب الاختياري ؟! أو ذاك مشروع مبعوض عند الانكباب وهذا زلنى اليهم ??

أما نحن فقد حثنا الاهالي على مشروع الاعانة العسكرية الشاهانية ، ونحثهم الآن على مشروع الاعانة العسكرية للجيش المحارب في السودان ، لاعتقادنا أن ذلك مشروع ملي كاز واجباً في وقته ، والملة عندنا أغلى وأعز الاوطان ، ولاعتقادنا أن المشروع الحالي مكرمة وطنية وحب الاوطان من الايمان ، ولكن سؤلنا امطوفة الوزير حق لا يختلف فيه اثنان اه تعليق المؤيد

إنكار الاستاذ الامام على تعليق المؤيد

غضب الاستاذ رئيس اللجنة من تعليق المؤيد فكتب الانتقاد أو الانكار الآتي وأرسله اليه في صباح اليوم التالي طالبا منه نشره في يومه فنشره ورد عليه ، وهذا نص الانتقاد وطلوه الرد كما نشر في المؤيد

(لجنة مصابي الجيش بالسودان)

ورد الينا صباح اليوم كتاب من صاحب الفضيلة مولانا الاستاذ العلامة الشيخ محمد عبده رئيس لجنة إعانة مصابي الجيش بالسودان فتقبلناه بيد الشكر والاحترام ، ونشرناه بحروفه كما أراد وهو :

حضرة الاستاذ الفاضل صاحب جريدة المؤيد الغراء

اطاعت الآن في عدد جريدتكم الصادر بتاريخ أمس على جملة في الحوادث الداخلية تتعلق بلجنة إعانة المصابين بشجاعتهم من الجيش المصري المحارب في السودان ، فرأيت فيها منحائي على تحرير هذه السطور رجاء نشرها في العدد الذي يصدر هذا اليوم :

أبدأ ببيان مقصد اللجنة من القيام بجمع الاعانة لاولئك المصابين : أظهر الضباط والجند المصري شجاعة وثباتا في قتال محاربيهم حمدم عليهما الاجبي ،

وحق أن يفتخر بهما الوطني ، وقد أجمع علماء الاخلاق على ان الشجاعة من الفضائل التي لا ترسخ في نفوس الافراد من أمة ، ولا تم الاغلب من آحادها ، إلا إذا عرفت الامة مقدارها وسندتها بالقول والعمل ، وهذا كان أول باعث لأول متكلم في هذا المشروع "مشروع الاعانة والله شهيد على ما في نفسه، وهذا الغرض من الاعانة ظاهر من نص المنشور الذي نشرته اللجنة

خلف المقتولون أيتاما ، وقد يعجز المجروحون عن الكسب ، وقد علمنا ان الحكومة لا يمكنها أن تفي بحاجة أولئك وهؤلاء ، ولم يصابوا باليتم أو المعجز في دينية ولا خطيئة ؟ فسواء كانت حرب السودان صوابا في نظر السياسة أو خطأ فهو لاء على كل حال ليسوا بمعجزين ، بل أتوا في إظهار ثباتهم أو جاء في ذلك أولياؤهم بما يمدون فيه من المحسنين ، فلا يلدق بأمة فيها قطرة دم من الحياة أن تدعهم يمدون الايدي بالسؤال ثاني يوم أدوا فيه أو أدى عائلوهم حق تلك الفضيلة الجليلة فضيلة الشجاعة ، فهذا باعث من الرحمة ، وداع من الشفقة ، ليس أعضاء اللجنة أول من يشعر به من المصريين ، بل في ظنهم ان أصغر مصري يساويهم فيه ، وابتدأؤهم بدعوة اخوانهم انما هو خدمة لهذا الشعور الذي لا يسلبه انسان إلا بخذلان من الله

وعلى ذلك أرجو أن لا يتكرر بعد هذا ان الاعانة للجيش المحارب كأنها إعانة للحكومة نفسها على الحرب ، فانا نعلم ان الحكومة تحارب اذا قدرت على الحرب وتركها اذا عاجزت عنها ، وهي أعلم بما تلقاه في الحالين ، وإنما سمي اللجنة في إعانة من أصيب في تلك الحروب ، كما أرجو من حضرتكم اذا سمحتم بكتابة شيء يختص بأعمال اللجنة أن تمنونها بالاسم الذي وضعت له نفسها وقبلها به الجباب الخديوي الاخفم تحت رعايته دون سواء

ثم ذكرتم أنكم علمتم ان أعضاء اللجنة أرسلوا بمشورات الى حكام المديرات الذين وزعوها على حكام المراكز لدعوة القادرين الخ فأبشركم ان هذا العلم غير صحيح فان المدير أرسل اليه منشور واحد كما يرسل إلى غيره من الاعيان لعله

يكتتب بصفة انه مصري ويدعو اصدقاءه إن أمكنه الى الاكتتاب فان وظيفته لا تحظر عليه أن يخاطب صديقا في ذلك

وأزيدكم ان بعض المديرين عند ما وصله ذلك المنشور الواحد تحير فيما يصنع به ، كانه ظن انه لا يباح له أن يدعو ولو أصدقاءه الاحسان ، ولا زال في حيرته حتى أرشده مرشد الى ان من السهل عليه أن يحمل على الاكتتاب أحياء من اهل القاهرة أو بلد آخر ففعل

أما توزيع المنشورات على الاعيان سواء كانوا حكاما أو غير حكام فهو عمل اللجنة ، والناس موكولون إلى اختيارهم فمن شاء قبل ومن شاء لم يقبل ، وكثير من الاعيان طلب من اللجنة أن تعتبره مشتركا بدون دعوة ، ومعارف اعضاء اللجنة من اهل اليسار في القطر ايسوا والحمد لله بقليل ، وايس بقليل أيضا من يجد وجدان اعضاء اللجنة كما ذكرنا

وأما كلمة الزاني التي جاءت في سؤالك لمطوفة رئيس النظار فلا اظنك قد قصدت معناها ، فانك تعلم بما اظن أن اعضاء اللجنة الذين قد بلغتك امأؤهم لا يغمز عليهم بمثل هذه الكلمة

نم لا اخالني مخطئا اذا قلت انك تعلم الفرق بين عمل هذه اللجنة وبين عمل لجنة الاعانة السابقة ، فهذه لاعانة المجروحين والايتام من اهالي البلاد ، وتلك اعانة دولة عظيمة كاللدولة العثمانية على نفقات الحرب قبل وقوعها أو في اثنائها قبل أن يصاب فيها المجروحون بشيء ، ولذلك قد كان للجرحى والايتام معونة أخرى بعد ما وقعت الوقائع ، وربما اختلف شأن الحكومة في العاملين ، فكان الاجدر بمثلك أن يلتبس هذا الفرق دون أن ينبه الحكومة أو يحرضها على أمر كان يلومها عليه في نفسه بقله

ولو سلمنا بتمام المشابهة بين العاملين ، أفما كان من انصافك مايسع السكوت عن الحكومة أو حمدها على ترك عمل لم تسلم من اللائمة فيه في اعتقادك ، ويمكنها أن تتوب عنه وتنيب إلى الله في عدم العودة اليه ؟

فاذا فرضنا ان هذا السؤال كان حقا لا بد من أدائه كما قلت ، أفما كان

الا لابق بدعوتك إلى الاحسان أن توجه إلى ما بهدنهاية العمل الخيري الذي تكرر الدعاء
إليه حتى لا يحدث عن مثله صد عن سبيل تحمل أنت على السلوك فيه والاستقامة عليه .
رجائي في انصافك أن تنشر هذه الكلمات في العدد الذي يصدر في هذا
اليوم دفعاً لما أوهمته عبارتك أسس ، وأن تجري فيما تنشره عن اعمال اللجنة
على حسب ما يقتضيه مقصدها السابق ذكره . وأن لا تجعل للظنون عليك سلطاناً ،
ولا للحق عليك مقالا ، والسلام

رئيس اللجنة

محمد عبده

رد المؤيد على رسالة الاستاذ الامام

كنا نود لو أن فضيلة الاستاذ الذي يعرف هو كما يعرف كل انسان مقدار
مانجه ونحترمه لم يشر علينا بنشر مقالته باهضائه ، لا لأنها تضمنت رداً وملاحظة
وانتقاداً علينا ، بل لأنها تكاد تفهم القارىء اننا على اختلاف في المبادئ والمقاصد
من جهة ، ولأنها تضرنا أن نلاحظ على ما جاء فيها مخالفاً لوجهتنا ، وربما فهم
بعض الناس أن صاحب المؤيد يناقش فضيلة المولى الاستاذ الشيخ محمد عبده
وهو في الحقيقة أجل وأسمى عنده من أن يتطاول إلى مناقشته ، على أن المؤيد
حقاً لا يطلب منه تركه إذا كان ينصف الغير بنشر ما يعترض به عليه فيه

فاولاً — ان المؤيد كان أول جريدة شكرت القائمين بجمع اعانة لمصابي
الجيش المحارب في السودان ، وحضت الجمهور على مشاركتهم في هذا السبيل ،
ولو دعي صاحب المؤيد أن يكون عضواً عاملاً في اللجنة المؤسسة لهذا العمل لا في
الدعوة في مقدمة الملبين ، وهو بلا دعوة لم يدخر وسماً ولن يدخر سعيّاً في سبيل
انجاح هذا المشروع الجليل ، وقد قال بالامس انه يعتقد أن اعانة مصابي الجيش
المصري المحارب في السودان مكرمة وطنية وحب الوطن من الايمان

ثانياً — ان المؤيد لم يقل ان هذه الاعانة تعتبر اعانة للحكومة نفسها على
الحرب ولم يتعرض في معرض دعوة الناس لها إلى كون حرب السودان صواباً
أو خطأ لعله أن الجيش مأمور ومن أول واجباته الطاعة العمياء لقواده ، فلم يكن

تمت موجب لفضيلة مولانا الاستاذ أن يستلقت أنظار القراء إلى النقطة التي تتنازع نفوس الناس في الاكتاب ، وقد تحاشى المؤيد في كل مرة دعاء فيها اليه مثل هذا الاستلغات جهده

ثانياً — ان المؤيد يسمي دائماً هذه اللجنة بلجنة إعانة أرامل وأيتام ومجروحي الجيش المحارب في السودان ، وفي عدد الامس أقرب مذكر ، وليس في هذه التسمية مخالفة كبيرة للعنوان الذي اختارته اللجنة لنفسها وهو (لجنة إعانة مصابي الجيش بالسودان) ولم يكن قصدنا من ذكر أرامل وأيتام التي نذكرها غالباً إلا تنبيه عواطف القراء باكثر الالفاظ تأثيراً على النفوس ، إذ قد يفهم البعض أن افط مصابي الجيش قاصر على جرحاه وهو غير مراد اللجنة حتما كما يؤخذ من نص منشورها العمومي

رابعاً — ان تبشيرنا بان ما علمناه من ارسال المنشورات إلى المديرين فأموري المراكز لدعوة القادرين على الاكتاب الخ غير صحيح ، لا ينطبق على وجهتنا ، فلما قصدنا أن نفهم كافة القراء في الاقاليم أن لدى المديرين والأمورين منشورات — نقول الآن وقسائم — ليعرفوا أن الاكتاب ميسور لهم وقريب منهم في كل بقعة ، ولذلك أردفنا هذه العبارة بقولنا ان الاكتاب اختياري محض حتى لا ينفروا منه نفرتهم من كل شيء يحسبونه بالاكراه من قبل الحكومة ، ولم نقل مطلقاً ان المدير أو الأمور يحظر عليه أن يشتغل بأي عمل خيري بصفته الشخصية ، وان كانت الحكومة قد حظرت عليه ذلك بالفعل قبل الآن ، وأبطلت مسعى المديرين في مشروعات إنشاء المدارس الاهلية بالاكتاب ، كما يعلم ذلك حضرات الافاضل أعضاء اللجنة ، وعلى الخصوص أحدهم الذي كان مديراً في النوفية ، وكما جعلت صف الموظفين من كل الطبقات في الدواوين العمومية والاقاليم لا يشتركون في اكتاب الاعانة العسكرية الشاهانية

وإذا صحت حكاية المدير الذي وقع في الحيرة كيف يفعل بالمشور الذي وصل اليه ، فليس ذلك لكون مافيه من الالغاز التي يعسر حلها حتى يرشده ذلك المرشد بما يزيل حيرته ، بل لانه احتار كيف يدخل إلى هذا المشروع من باب وهو يعلم

ان المنشورات الرسمية وغير الرسمية التي والى الحكومة بها المديرين قد غات
أيديهم، وأغقت كل باب خيري في وجوههم، وجعلتهم يفرون من كل عمل خيري
فرار السليم من الاجرب

على أن فضيلة الاستاذ قد قل ان اللجنة أرسلت منشوراتها إلى المديرين،
وانها أرسلتها كذلك إلى أعيان البلاد حكماً وغير حكماً، فدل هذا على انها
أرسلت إلى المديرين وللاُمُورين أيضاً، ويسرنا أن اللجنة قد عمت منشوراتها
إلى حد شمل كل طبقات الأمة، فإلى المنشورات إلا إعلانات كما عم توزيعها
تحقق معناها أكثر، وكانت فائدها أتم

خامساً — أما تأويل عبارة الزاني بما يصرفها عن عطوفة ناظر الداخلية
- لارئيس النظار - إلى الغمز على حضرات أعضاء اللجنة فلاحق فيه لمولانا الاستاذ
بوجه من الوجوه، اذ لم يخطر بباله ولا يمكن أن أفهم ان كل ساع في هذا الاكتاب
يقصد الزاني للانجلىز إذا كان المؤيد نفسه يدعو الناس إلى الاكتاب، ومولانا
الاستاذ يعتقد حق الاعتقاد بأنه يدعو دعاء خاصاً لذلك، بدليل أنه تفضل فبعث
إلى صاحب المؤيد مع هذه الرسالة دفتر قسائم ليجمع بواسطتها المال ممن يدعوهم
إلى الاكتاب، وان كان له حق العتاب على أن تصل القسائم إلى أعيان البلاد ومأموري
المراكز قبل ان تصل إدارة المؤيد في القاهرة

وأي حاجة للتأويل بهذا الغمز؟ لكون المؤيد لم يعتد توجيه مثل هذا السؤال
أو الانتقاد إذا كان حقاً لعطوفة لوزير؟ أو لان عطوفة الوزير لم يصدر منشورات
يعرقل بها مساعي الاكتاب الاول ولم يبحث على الاكتاب الثاني؟ أو لانه لم يكن
أول داع إلى الاكتاب الحاضر بكلامه مع سعادة المحافظ وسعادة سيوفي باشا؟
الهم ان الفرق بين عمله في الاكتابين يتن ظاهر لا يجهله أحد، وهو قد كان
من المحرضين حقيقة على عدم الدفع في الاكتاب الاول وهو من المحرضين عليه
في الاكتاب الثاني، وكما لمناه على عمله في الاول نشكره على عمله في الثاني، ولكن
ذلك لا يمنعنا أن نسأله عن علة مصادره الاكتاب الاول إذا كان ممن ترجى منهم
المساعدة والتعاون على البر كما هو رأيه الآن في الاكتاب الثاني

على أن مولانا الاستاذ يعضب وبحوله أن يعضب اذا كان المؤيد يوجه لأحد أعضاء اللجنة غمزا مثل قوله (الزلنى للانكليز) وهو مجملهم عن ذلك كل الاجلال ولكن زلنى عطوفة الوزير للانكليز ربما كانت من الصنائع التي يحمد عليها بحسب ما يراه لازما لمنصبه الرسمي ، ولذلك كان أشرف فضيلة مدحه عليها اللورد كرومر في خطبة (شبرد) الاخلاص في العمل معه

وهل يرى مولانا الاستاذ باعثا بغرض لدى عطوفة الوزير مشروع الاكتاب الاول وحبب اليه مشروع الاكتاب الثاني أقوى من ميل الانكليز عن الاول وميلهم الى الثاني ؟

ألا ان مجرد رغبة الانكليز في مشروع الاكتاب الحاضر لا يجعله نقيصة وسبة عند الوطني الحر ، بل ينبغي أن يتخذ ميلهم فرصة لزيادة نجاحه ، وليس في المزيد من المكرمات الاخير المكرمات وأعظمها

سادسا — أننا لا نرى التنبيه الى الفارق بين الاكتتابين في محنه ، فلا كتاب الاول كان واجبا ملئاً في حينه اذا قلنا ان دولتنا العلية كانت في عوز الى معونة رعيها لها عند الشروع في محاربة عدوة لها من الدول غير الاسلامية ، والاكتاب الذي نحن بصدد الان مكرمة وطنية في إبانها بحسن بكل ذي عاطفة شريفة وغيره وطنية أن يشترك في القيام بها ، والفارق بين الاكتتابين بأكثر من ذلك ولا نخل ان وظيفة مولانا الاستاذ تسمح له بالافاضة فيه بعد حتى ندخل من بابها الآن

سابعا — أننا لو كنا نعلم ان سؤالنا عطوفة وزير الداخلية عن علة لفارق عنده بين الاكتتابين ينتج حقيقة صداً عن سبيله او يتوهم منه أن ينتج مثل ذلك لا بقيناه الى ما بعد الفراغ من مشروع الاكتاب الحاضر ، وليكننا نعلم علم اليقين ان سؤالنا هذا لا يترتب عليه شيء ما من هذا القبيل ، ولذلك اعتبرنا كل وقت زمانه ، فلم يكن سؤالنا اياه الآن سابقاً لوانه

وذا صح ما كتبه الجرائد المأجورة التي يفسح لها عطوفة الوزير صدرأ وتزعم انها تنطق باسانيه في كل ما تقول من ان عطوفته من كثرة ما يكره المؤيد يتوخى العمل على عكس ما يريد في كل شيء حقا كان او باطلا ، فلا يبعد أن سؤالنا عطوفته مما

يجرئ من همة على الاخذ بناصر هذا المشروع الحاضر اضعاف ما عرف عنه فيزداد بهمة
العملية نجاحا، ويكون المؤيد قد ساعد بذلك أكثر من كل عامل للنجاح سواء
وفي الختام ان المؤيد بأسف غاية الاسف أن يظهر على صفحاته ما يكاد يومهم
القرء أن يتناول الى مناقشة مولانا الاستاذ المفضل، ولكن باعث الكتابة جاء من
خلال السطور التي طلب المولى الاستاذ أن نصفه بذمها ، ولو أنصفنا لجعلها كما
كنا ننتظر من الخصوصيات اهـ

الحكم العدل بين الاستاذ الامام وصاحب المؤيد

ما كتبه صاحب المؤيد من غمز الحكومة أو ناظر داخلتها ولمزه لم يكن له
موضع مناسب ولا حسن في التعليق على خطاب اللجنة ومنشورها ممن يستحسن
عملها ويدعو اليه معها ، وانما اللائق في هذا التعليق هو تحييد دعوة اللجنة والحض
على اجابتها ، وإذ كان لمز الحكومة مقصداً من مقاصد المؤيد في سياسته الوطنية
بسبب استسلامها لسلطة الاحتلال فلم يكن الاستاذ الامام ولا غيره ينكر على المؤيد
أن يلزم بما ذكره هنا في موضع آخر ، وقد اشتهر عن الاستاذ الامام عند
الوطنيين والاجانب أنه سمي مجلس النظار المصري « جمعية الصم البكم »

ذلك بان وضع الغمز في هذا التعليق ووصف مشروع الاعانة بأنه زلفى
للانكليز يشعّر قراء المؤيد بما يصدّهم عن الاعانة شعوراً يجدونه في أعماق قلوبهم
ولا ينتزع منها قوله إنه يحشّهم عليها ، وكذلك تسميته المشروع في السطر الاول
من التعليق « مشروع الاعانة العسكرية للجيش المحارب في السودان »

ذلك بان المصريين ولا سيما المسلمين منهم وكذا من غيرهم كانوا كارهين
لحرب السودان التي أكره الانكليز الحكومة المصرية عليها ، وموجسين خيفة
من سوء عاقبتها ، ولقد كنت أشعر بهذا على قرب عهدي بالهجرة إلى مصر ،
وكون صحيفة المنار لم تستكمل عند الدعوة الى هذه الاعانة الشهرين الاولين من
سنتها الاولى ، وقد كتبت في شأن السودان كتابة شديدة لولا الحرية المطلقة
للصحف في هذا العهد لحوكت عليها ، بل صرحت في تلك السنة بان الانكليز

يقصدون انتزاع السودان من مصر والاستيلاء عليه ، وبان الاتفاق الذي عقد بين عميد الاحتلال ووزير خارجية مصر خيانة لانفجر ، فكلمة المؤيد المعبر عن الشعور الوطني ولا سيما الاسلامي بان هذا المشروع زلفى الانكليز كان له تأثير شديد في النفوس لا أزال أذكره في نفسي ، ولم أكن منشرح الصدر لرياسة الاستاذ الامام لرياسة هذه اللجنة مع علمي اليقين بانها خير محض

ولم يكن الاستاذ الامام ممن يخفى عليه شيء من هذه الشؤون الروحية ، دع السياسية ، بل كان من أشد الناس شعوراً بما ذكرنا ، ولذلك اقتصر في مدح الجيش الوطني الذي حارب في السودان بالشجاعة الشخصية ، وقال « فسواء كانت حرب السودان صواباً في نظر السياسة أو خطأ فهو لا ، على كل حال ليسوا بمجرمين » الخ ومن أراد أن يعرف رأيه في مسألة السودان وجهاده في سبيلها فليرجع الى

ما أثبتناه في هذا التاريخ من سعيه مع أستاذه السيد الافغاني فيها (ص ٣٧٠) هذا ما آلمه من تعاقب المؤيد فكتب في حال هذا الالم الشديد انتقاده الجارح وأوجب على صاحب المؤيد نشره ، فلم يجد هذا بداً من نشره ومن التعليق الطويل عليه بما يرى به نفسه ويحتج لها ، واقد كان الاستاذ الشيخ علي يوسف يحل الاستاذ الامام في نفسه أرفع الاجلال ، وقد يخل بها في مؤيده لاجل السياسة بعض الاخلال ، وكان لابد له من اثبات على خطئه السياسية في هزم الحكومة ونزها عند كل سانحة وبارحة ، ومن الاحتجاج لنفسه عند النزوات الجاحمة ، وقد أصاب في رده على الاستاذ الامام في شيء واحد وهو تحميمه عليه نشر كتابه الانتقادي بنصه ، فلو أنه وقد بين له خطأه فيما كتب طالبه بكتابة ما يزيل التأثير السيئ للتعليق بما يراه هو لكتب ما يرضيه ويسره

أما قول الشيخ في الوجه الثاني « انه لم يقل ان هذه الاعانة تعتبر اعانة للحكومة نفسها » فهو مغالطة إذ الاستاذ الامام لم يسند اليه هذا القول وإنما أسند اليه قوله « انها اعانة للجيش المحارب » ووجه إنكاره بقوله: كأنها اعانة للحكومة نفسها إلى الحرب » والفرق بين المشبه والمشبّه به ظاهر

وأما قوله في الوجه الخامس « أما تأويل عبارة الزلفى بما يصرفها عن عطوفة

ناظر الداخلية الى الغمز على حضرات أعضاء اللجنة فلا حق لمولانا الاستاذ فيه بوجه من الرجوه « الخ فهو مخطيء فيه من جهة دلالة اللفظ ، ومصيب فيه من ناحية القصد ، ولم يكن الاستاذ الشيخ علي رحمه الله تعالى دقيقا في مدلولات اللفظ ، فنص عبارته « أو ذاك مشروع مبغض عند الانكليز وهذا زلفى اليهم؟ » أي وهذا الماشروع زلفى اليهم ، فهو قد وصف المشروع نفسه بأنه زلفى للانكليز ، والمشروع عمل اللجنة لا عمل ناظر الداخلية. وقد اعتذر بأنه لا يقصد هذا المعنى ولكن اللفظ لا يدل على غيره ، وإنما لامة الاستاذ على لفظه ، لا على قصده ، والناس يقرؤن لفظه لا قصده. فكيف يقول ان الاستاذ ليس له حق فيه بوجه من الوجوه، لولا أنه يجمل المدلول اللغوي أو يتجاهله؟ وما عدا هذين الوجهين مما أطل به فلا طائل تحته

اعانة منكوبي الحريق بميت غمر

ألف الاستاذ هذه اللجنة من الجمعية الخيرية الاسلامية وكان يذهب بنفسه الى منازل أسراء الاسرة الخديوية وغيرهم من الكبراء فيطالب منهم الاعانة لها، لان لزيارته لهم من التأثير المقتضى للبذل الكثير ما ليس للمطالبة بالكتابة ، وأرسل منشوره البالغ اليهم ، وانتي أكتفي هنا بما ذكرته في الجزء الثاني من هذا التاريخ في شأن هذه الاعانة . وهذا نصه :

(الحث على اعانة منكوبي حريق ميت غمر) *

(وتأليف لجنة في الجمعية الخيرية الاسلامية لجمع الاعانات)

عرض لي مامعني من قراءة الجرائد نحو أسبوع كنت أسمع فيه بمحادثة ميت غمر من بعض الافواه كأنها من الحوادث المعتاد حدوثها، حتى تمكنت من مراجعة الجرائد ليلة الخميس الماضي. فاذا لهب ذلك الحريق يأكل قلبي أكله لجسوم أولئك المساكين - سكان ميت غمر - ويصهر من فؤادي ما يصهره من لحومهم . أرق تلك الليلة ولم تنمض عيناى إلا قليلا. وكيف ينام من يبيت يتقلب في نعم الله ،

وله هذا العدد الجهم من اخوة واخوات ، يتقابلون في الشدة والبأساء ، اردت أن ابادر بما استطيع من المعونة، وما استطيع قليل لا يفني من الحاجة ولا يكشف البلاء. ثم رأيت ان أدعو جمعاً من اعيان العاصمة ليشاركوني في افضل اعمال البر في اقرب وقت ، وكان يوم السبت ، فحضر منهم سابقون ، وتأخر آخرون ، وكتب بعضهم يعتذرون ، فشكر الله سعي من حضر ، وجزى خيراً من اعتذر ، وغفر ان تأخر. اجتمعت اللجنة وقررت التماس أن تكون تحت رعاية الحضرة الخديوية . وكنت كتبت من قبل الى سعادة السر تشريفاتي . فوجدت رقياً منه بعد الانصراف يفيد ان الجناب العالي قبل ذلك

سبق السابقون من ارباب الجرائد إلى الدعوة وفتحوا باب الاكتاب في الخير ، فجزاهم الله افضل الجزاء ، ولكن الكثير إذا تفرق قليل ، والوافر اذا تشقت يسير ، لهذا كان من قرارات اللجنة المجمع في مركز الجمعية الخيرية الاسلامية ان يكتب إلى حضرات المكتبة الاولين بالانضمام إلى إخوانهم ، وأن يرسلوا مندوبين منهم إلى لجنة الادارة العاملة إذا شاؤا . شكلت لجان لجمع المال بأسرع ما يمكن ، ودعي أناس كرماء في بعض مراكز الشرقية لأن يقوموا بمثل هذا العمل في نواحيهم . وسيكتب إلى غيرهم من اعيان المديرية الآخر .

ليس الحادث بذئ الخطب اليسير ، فالمصابون خمسة آلاف وبضع مئتين ، منهم الاطفال الذين فقدوا عائلتهم ، والتجار والصناع الذين هلك آلاهم ورءوس اموالهم ، وبتعذر عليهم ان يبتدئوا الحياة مرة أخرى إلا بمعونة من إخوانهم . وإلا اصبحوا متشردين متلصصين او سائلين . والذين فندوا بيوتهم ولا يجدون ما يؤوون إليه . ولا مال لهم يقيمون به ما يؤويهم من مثل بيوتهم المتخربة . لهذا رأيت ورأى كل من تفكر في الامر ان يجمع مبلغ وافر يمكن منه تخفيف المصاب على جميع أولئك المذكوبين

كتبت إلى حضرة مأمور مركز ميت غمر ليفيدني برأيه فيما يجتمع لديهم من مركزي ميت غمر وزفتى هل يمكنني لدفع الضرورة الحاضرة ، ولغذاء الناس ، وستر عورتهم ، ووقايتهم من الموت ؟ ثم طلبت احصاء وقتياً لاصناف المصابين

وطبقاتهم ، حتى يكون ذلك التوزيع على قاعدة صحيحة . ونرسل من تعظم فيهم الثقة للقيام بالتوزيع على أكل وجه ، واف بالمقصود متى اجتمع مبالغ واف بالحاجة سيودع ما يجتمع في خزانة محافظة العاصمة حسب ما رآه المجتمعون بالاتفاق ، وفي ذلك ضمان من الضياع ، ومدع عن مرابي الظنون ، وما بقي من تفصيل يحضر اللجنة فهو على ما تراه بعد .

هذا مارأيت أن اكتبه عن سبب الاجتماع وخبره ، وأختم ذلك بالمشور الذي أوجه به إلى اهل الروءة ايجودوا باناسمح به رجايهم الكريمة ، من بذل مال وبذل سعي

منشور

قد بلغكم ولا ريب من أخبار الجرائد ما عليه اهل ميت غمر بعد الحريق الذي أصاب بلدتهم ، فهم بلا قوت ، ولا سائر ، ولا مأوى ، فليصور أحدكم أن الأمر نزل بساحته ، أفأ كان يتمنى ان يكون كل الناس في معونته ؟ فليطالب كل منا نفسه بما كان يطالب به الناس لو نزل به منازل بهم ، ولينفق من ماله وهمته ما يدفع الله به عنه مكروه الدهر ، إن شاء الله (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون * يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الارض ، ولا تيمموا الحياث منه تنفقون * الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم) فكذبوا وعد الشيطان ، وثقوا بوعد الله ، فكلكم يؤمن الله ، وكلكم يوقن انه اصدق القائلين ، واقدر المقادير . فأرجو من همتكم ان تدفعوا شيئاً من مالكم في مساعدة إخوانكم وان تبذلوا ما في وسعكم لحث من عندكم على مشاركتكم في هذا العمل ، وترسلوا بما تجمعون إلى الداعي

رئيس الجمعية الخيرية الإسلامية

محمد عبده

(فائدة) قال المرحوم حسن باشا عاصم للاستاذ بعد عودته من توزيع هذه الاعانات وكنت معها : لو اعطيني هذا المال الذي جمعته لاجل مدارس الجمعية ... فأجابه بقوله : ما جمع شيء وجب صرفه فيه ، وإننا نفترض الحوادث الموجهة لنعلم الناس البذل في سبيل البر ، ومتى اعتادوا البذل في بعضها ، هان عليهم البذل في سائرها

المقصد الخامس

(من الفصل السابع)

في أسفاره

للسفر والسياحة في الارض فوائد كثيرة في صحة الجسد ، وتهذيب النفس ومشاهدة شؤون الخلق ، ومعرفة سنن الله وحكمته في الارض ، والاعتبار بأحوال الامم في علومها وأعمالها وبادواتها، وحضارتها، وقوتها وضعفها، ومثل الاستاذ الامام في علمه الواسع وعقله المنير من يستفيد من السفر مالا يستفيد من دونه علما وحكمة ، ومعرفة وبصيرة ، وقد كتب في تأثير بعض الاسفار في نفسه ما نشرناه في ترجمته من المنار وهذا نصه (ص ٨٤٦م)

« أما الاسفار إلى البلاد العثمانية ومعاشره كثير من المسلمين غير مسلمي مصر فقد كان من نتائجها عندي أني عرفت حق المعرفة ان مرض المسلمين نشأ من أمرين : الاول الجهل بدينهم وإبداع ما لم يكن منه وإصاقه به ، واختلاط ما هو من الدين بما ليس منه ، حتى صار ما هم عليه ديناً أجنبياً عن أصل الدين الاسلامي الطاهر الرقيق . والامر الثاني استبداد الحكام الظالمين من المسلمين في جميع أقطار الارض » وقد سافرت بعد ذلك مرات إلى أوروبا وأفريقيا فكان أثر الاسفار في بلاد المسلمين زيادة البصيرة في ذلك الذي عرفته لأول الامر ، وأثر الاسفار في أوروبا قوة الامل في إصلاح أحوال المسلمين ، فما من مرة أذهب إلى أوروبا إلا ويتجدد عندي الامل في تغيير حال المسلمين إلى خير منها ، وذلك بإصلاح ما فسدوا من دينهم ، وتشجيع عزائمهم إلى معرفة شؤونهم ، وامتلاك ناصيتهم بأيديهم دون افراد ظلمتهم . وهذه الآمال وإن كانت تضعف في نفسي عند ما أعود إلى ديارى لكثرة ما ألاقى من العنت ، وشدة ما أصادف من المصاعب ، وسوء ما أرى من انصراف المسلمين عن النظر في منافعهم ، وشدة عداوتهم لانفسهم ، وقوة رغبتهم في تمكين ظالمهم

من رقابهم، وجبهم في الاستعباد لهم لغير سبب معقول، لكنني متى عدت إلى أوروبا ومكثت فيها شهراً أو شهرين تعود إليّ تلك الآمال، ويسهل علي تناول ما كنت أعدّه من المحال، ولا تسألني عن السبب في ذلك فاني لا أستطيع تفصيله ولكن هذا ما تحدثه الاسفار في نفسي اه

أقول والمتبادر إلى الذهن ان السبب في ذلك هو ما يسمى في العرف الآن بتأثير الوسط أي البيئة من المكان والمكين، لان كل انسان يحل في مكان ويشاهد حال قوم لا بد أن يتأثر بشيء مما هم عليه بحسب استعدادهم وما وجهت إليه نفسه. وبلاد أوروبا قد ارتقت ارتقاء عظيماً في العلوم والصناعات والكسب والسياسة وغير ذلك، فمن سافر اليها وكان من همم التجارة يزداد معرفة بطرقها ونشاطا في عملها، ومن كان همم غير ذلك يتأثر بارتقاء القوم فيه فتنهض همته اليه، وناهيك بملوكهم القوم في خدمة أمتهم، وإعلاء شأن ملتهم، وما يبذلون في هذه السبيل من الاموال، وما يركبون لها من الاهوال، فمن ير ما هم عليه من العزة والسيادة، وهو يعلم ما كانوا فيه من الضمة والمهانة، فهو جدير بأن يكبر أمله في قومه، ولا ييأس من غده في يومه، وكان تعتمد الله برحمته يقول لي عند ما يريد السفر إلى أوروبا: إنني أذهب لأجدد نفسي: أي فقد أخلقتها معاشر الكسالى واليائسين اه

وقد توجهت همته في هذه السنين الاخيرة لزيارة الشعوب المسلمة فبدأ بزيارة تونس والجزائر وكان عازماً على زيارة الهند وإيران وقزاق والقوقاس في هذه السنة وما بعدها، فصرفه المرض عن عزمه في هذا العام، ثم قطع آماله كلها الحام اه. وقد نسيت هنالك ذكر الآستانة فأبدأ بذكرها الآن

(سفره إلى الآستانة)

كان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى يود ان يسبح في البلاد الاسلامية ليختبر أحوال المسلمين فيها، وقد عن له أن يبدأ بزيارة الآستانة فذكر ذلك للورد كرومر في حديث له معه فكان رأيّه انه لا يظن انه يسر بهذه الزيارة، وانه لا بأس مع

ذلك بان يعرف حال هذه العاصمة القديمة والدولة التاريخية ، والظاهر ان اللورد كان يعتقد انه لاشيء يقطع أمل الاستاذ من حياة الدولة العثمانية إلا زيارته للاستانة وقد سافر هو والشيخ علي يوسف صاحب المؤيد وكان سمو الخديو قد سبقهما اليها ، وانني أنشر هنا ما كتبه عن هذه المسألة في موضعين من مجلد المنار الرابع (أحدهما) ما نشر في الجزء المؤرخ في غرة جمادي الاولى سنة ١٩ الموافق ١٦ أغسطس سنة ١٩٠١ في باب الاخبار التاريخية (ص ٤٣٥) وهذا نصه :

(فضيلة مفتي الديار المصرية في الاستانة العلية)

سافر صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية في هذا الصيف إلى دار السعادة العلية ، ولما أتى مراسيه فيها بادر حالا إلى قصر يلدز العامر حيث مقام مولانا وسيدنا السلطان الاعظم أيده الله تعالى ، وحينما أودن مولانا بحضوره أمر بتبليغه السلام ، ثم انصرف الاستاذ من القصر بعد ان أقام مع عطوفة الباشكاتب السلطاني نحو ساعة . وبعد ذلك صدرت الارادة السنية بان يعد لفضيلته دار مخصوصة من أحسن دور الضيافة السلطانية على ما جاء في بعض الاجوبة من الاستانة ونشره المقطم الاغر . وورد في بعض الاخبار الخصوصية الموثوق بها ان صاحبة الدولة والعصمة والدة الجناح العالي أمرت بان يدعى أيضاً للانزول في قصر بيك ، ثم أكد الخبرين معاً بعض الوجهاء الذين حضروا من عهد غير بعيد من هناك وقال ان الاستاذ أقام في قصر بيك يومين او ثلاثة أيام ، ثم عاد إلى دار الضيافة السلطانية ، ولكن المكاتب التي وردت من الاستاذ نفسه لم تذكر أمر الضيافة بالمرّة

ومما ينبغي ذكره من غرائب ما في مصر من فساد الاخلاق ، والجرأة على مقام السلطنة فما دونه من المقامات الرفيعة ، ان الذين لا عمل لهم إلا السعاية والتجنس والكذب على خليفتهم وسلطانهم أرسلوا إلى المايين الهمايوني وإلى بعض الكبراء في الاستانة تقارير خافوا فيها ماشاؤا من الافك وقول الزور يريدون بذلك ان يتوصلوا ليتوصلوا إلى التباعد بين الاستانة العلية ومصر لانهم يعلمون

ان قول الاستاذ في مصر هو ان قول الفصل، الذي يؤثر ويعول عليه جميع أهل الفضل، من العلماء والوجهاء والموظفين بل الذي لا يشك في صدقه أحد يعرفه كتبوا ما كتبوا وايس لهم شيء يتوكلون عليه وقد اتفق أن سافر في السفينة التي سافر فيها الاستاذ المفتي صاحب المؤيد الفاضل فكان رفيقاً له، وكان لهم (أي أولى السعاية) في هذه المرافقة الاتفاقية القال والقييل، لهمهم بأن جريدة المؤيد أعظم الجرائد تأثيراً في اقطار المصري وهي عمدة جميع مسلمي مصر في السياسة والاخبار، وقد خدمت الدولة العلية والحضرة الخيدية خدمة لها في اقطار اعظم تأثير ومما لا يعزب عن الذهن ان مفتي الديار المصرية وكبير العلماء فيها لا بد أن يزور صاحب أكبر منصب علمي إسلامي وهو شيخ الاسلام وقد كان معه في زيارته له رفيقه وأرسل هذا الى جريدته ما دار بينهما من الحديث، ولا يتحدث هذان الامامان الجليلان إلا في العلم والعلماء ووظائفهم، وقد نشرنا جواهر الحديث في المقالة الافتتاحية، ونقول ههنا ان الجواسيس اعداء الدولة قد كتبوا بمناسبة ما ذكره المقطم من استياء العلماء من الحديث، تقارير برقية وبريدية مزورة على العلماء في ذلك، ومن الناس من يقول ان بعض المتعممين الفرورين وافقهم على ذلك وانه هو الذي غش المقطم حتى كتب ما كتب. ولو ان العلماء استاءوا حقيقة لراجعوا في ذلك شيخهم الأكبر شيخ الازهر، وهو كان يكتب الى الاستاذ المفتي بذلك. ويقال ان أجرة التقرير الذي ارسله (فلان بك) بلغت ثلاثة جنيهات وقد اختلف من سمع ذلك في موضوع التقارير، ويقال ان في بعضها طلب أن يكذب صاحب الدولة والساحبة شيخ الامام الحديث الذي نشر في المؤيد أو يرجع عنه!! وعندنا ان بعض الجرائد هي التي هولت الامر وان شيخ الاسلام إذا علم ان بعض من ينتسب إلى العلم ينكر قوله وقول مفتي الديار المصرية أو يستاء منه فانه لا يرجع إلا عن كلمة واحدة منه، وهي تسمية هؤلاء المستائين «متفنين» ويستبدل بها لقب «ممتوهين» ومثل هؤلاء لا تلتفت الدولة الى كلامهم، ولا تنفذ لهم رأياً، ولا تجيب لهم طلباء، لانها بذلك تفتح على نفسها باب امثال كلام من يحول الزمان وما يستلزمه ويناسبه، وربما يجرتهم السماع لهم إلى طلب ما فيه خراب

الدولة . وقد ذكرنا هذا ليتعجب العقلاء في سائر الاقطار من الخلل والخلل الموجود في مصر، أصلحها الله تعالى وأصلح أهلها آمين

وأما الموضوع الآخر فهو ما أشرنا اليه من حديث المفتي مع شيخ الاسلام في الاستانة وقد مهدنا له بمقدمة طويلة في حال العلم والعلماء ، ونهد له هنا بتلخيص مقدمة المؤيد له

زيارة الاستاذ الامام لشيخ الاسلام

أرسل الاستاذ صاحب المؤيد إلى جريدته مقالة عنوانها (العلماء هداة الامة ومن هم ؟) مؤرخة في ٢٣ يوليو سنة ١٩٠١ فنشرت بتاريخ ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣١٩ الموافق ٣٠ يوليو قال في أولها :

« في اليوم الثاني من وصولنا إلى دار السعادة رأي صاحب الفضيلة مولانا الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ان يبدأ بعد اداء فرض اخلاص الولاء للجلالة الخليفة الاعظم بزيارة صاحب الدولة والسماحة مولانا جمال الدين افندي شيخ الاسلام المعظم وكنت لم أحظ بمجلسته في زوراتي الاولى لدار السعادة فرأيتها نعم الفرصة للتمتع بمشاهدته، والوقوف على آرائه وأفكاره... فلا فرصة لي أعظم من ان أحضر مجلسا جمع بين امام مصري علم القراء ماله من الفضل وسعة الاطلاع وعلو الفكر وبعد الغور في أحوال الزمان ، وبين امام الامة الاعظم شيخ الملة والاسلام في هذا العصر الحميدى لأروي مايقولان »

ثم ذكر سيرهما إلى ما يسمى (باب المشيخة) ومكانه ووصف البناء ، والاستئذان على الشيخ باسم مفتي الديار المصرية ومبادرته إلى الاذن ودخولها عليه وتلقيه المفتي بالترحاب ، ووصف مجلته ومن فيه و اشارته للحاضرين بالانصراف ليخلو المجلس الزائر . بعد هذا قال : ان شيخ الاسلام افتتح الحديث مع فضيلة المفتي بالسؤال عن وقت وصوله إلى دار السعادة بعبارة عربية فصيحة وانتقل الحديث إلى مسألة النطق بالعربية الفصحى وانهم على تعلم فنونها لم يتمعنوا عليها كثيراً ، ومما قاله شيخ الاسلام في ذلك انه رأى في الطوائف بعض اعزاب

الحجاز ينطقون باللغة الفصحى التي لا يحسنها أهل مكة وأمثالهم . وتكلم المفتي في تقصير المسلمين حتى في البلاد العربية في اتقان العربية ...

وذكر المؤيد ان الشيخ سأل المفتي عن قاضي مصري يجي افندي فأنشئ المفتي على علمه وأدبه وفصاحة نطقه ، ثم سأله عما في مصر من المحاكم غير الشرعية فذكر له المفتي أنواع المحاكم وان الذي ألجأ الحكومة إلى إيجاد محاكم غير شرعية هو تقصير العلماء وقد نقلت عن المؤيد بقية الحديث بنص فيما يلي :

(حديث شيخ الاسلام ومفتى الديار المصرية في العلم والعلماء)

قال (المفتي) بمناسبة كلام مع الشيخ (وهو الكلام في المحاكم غير الشرعية) ان كان للمسلمين شكوى مما يرونه ماساً بشريعتهم فاجدر بهم ان يشتكوا من أنفسهم لامن يعتدي عليهم

(الشيخ) لا ريب في ذلك فان حياة كل امة تقوم باستعدادها لكل زمان بما يناسبه ومن غالب الزمان غلبه الزمان . ولكننا نؤمل ان تتغير الحال ويتنبه المسلمون لما فاهم فيحصلوه وذلك لا يكون إلا بهمة علمائهم ، وحمة شريعتهم (المفتي) نعم ذلك لا يكون إلا بهمة علمائهم ولكن العلماء في انصراف تام عن شؤون العامة وقد تركوا أهم تلك الشؤون إلى الحكام ووكلوا بعضها إلى العامة أنفسهم ، وجعلوا نصح العامة والخاصة او الاشتغال بما يهيء لذلك من العمل مما لا يعني ، ولم تبق لاحد منهم علاقات مع العامة ، اللهم إلا أولئك القصاص الذين يسمونهم وعاظا او مدرسي مساجد وما هم من علم الدين وشؤون العامة على شيء ، وهم يفسدون أكثر مما يصلحون

(الشيخ) لاشك ان أغلب المشتغلين بعلوم الدين تنقصهم الخبرة باحوال الناس ويفوتهم العلم بما عليه أهل العصر ، ولو خبروا الزمان وأهله لامكنهم ان يحكموا شرعهم ، ويعملوا شأن أهل ملتهم ، مع ان العالم لا يكون عالماً حتى يكون مع علمه عارفاً ، والعارف هو الذي يمكنه ان يوفق بين الشرع وبين ما ينفع الناس في كل زمان بحسبه ، ومن كان بارعاً في العلوم الدينية ولكن لا يعرف حال أهل

عصره ، ولا يراقب احكام زمانه ، فلا يسمى عالما ولا كنه يسمى « متفنا » اعني انه يعرف فن النحو او فن الفقه او ما شابه ذلك ، ولا يسمى عالما على الحقيقة حتى يظهر اثر علمه في قومه ولا يظهر ذلك الاثر الا بعد علمه باحوالهم وإدراكه لحاجاتهم (المفتي) ما نقوله سماحتكم هو المعروف عند الاولين من علمائنا . وقد جاء في كثير من كتب السادة المالكية تعريف العالم بأنه (العاكف على شأنه ، البصير بأهل زمانه) وهو تعريف للعالم بالغاية من علمه والاكوف على الشأن ان لا يضع العالم زمنه إلا فيما يفيد ويغيد العامة ، لان هذا هو شأن العالم الذي ينبغي ان يعكف عليه . ولذلك اتبعه بالوصف الآخر وهو البصر بأهل الزمان لان البصر بأهل الزمان انما يدخل في الغاية من العلم لأنه وسيلة للتمكن من العمل به في اهل ذلك الزمان . وكان صاحب هذا التعريف يقول من فرط في شيء من زمنه ولم يستعمله فيما من شأنه ان يستعمله فيه ، او اساء استعماله بسبب جهله باحوال هذا الزمان ، فهو ينثر المال نثرًا لا يبالي كيف يقع ، ولا يعرف هل يرفع عليه او ينخفض له ويخشع . ومن كان كذلك فهو خارج عن مفهوم العالم لا ينطبق عليه تعريفه . وغاية ما يمكن أن يصل اليه ان عرف شيئًا من العلم ان يسمى حافظًا له

(الشيخ) نعم ان مما يؤسف عليه الاسف العظيم ان من كان من علماء المسلمين على شيء من العلم فمما يمد في الحقيقة متفنا ولا يصح ان يطاق عليه اسم العالم . وبذلك بقيت الشريعة مدفونة في الكتب وحرمت ارواح اهلها من التمتع بآدابها — ثم تبسم قليلا : واعلم الذي مل بحملة الشريعة إلى البعد عن شؤون العامة هو انهم أرادوا ان يخدموا أنفسهم خاصة دون الناس عامة

(المفتي) وهل تعد سماحتكم ذلك خدمة لانفسهم مع ما تراءى فيه من الضعة والخول ، وحرمان اعاليمهم من الحقوق التي يتمتع بها اسافل غيرهم ، وفرار لدنيا من وجوههم وهم اتعب الناس في طلبها ، وبغضها لهم وهم احرص الناس على حبها . واذا قنع احدكم بشيء منها فهي وقفة العاجز لا قناعة المزيز . انما كانوا اعز واكرم ، ومقامهم اسمى واعلى ، لو كانوا علماء على النحو الذي عرفه اولافنا (الشيخ) صدقت فان من أراد ان يخدم نفسه وجب عليه ان يخدم العامة

لا ندراج المصلحة الخاصة في المصلحة العامة فاذا ضاعت المصلحة العامة ضاعت الخاصة أيضاً ، واذا حفظت الاولى حفظت الثانية

(المفتي) نعم يا مولاي هذه هي القاعدة الحقيقية ولكن مدرسي كتب الفقه لا يهتمون بتقريرها لطلبتههم . فهؤلاء الذين سمعتم سماحتكم متقنين لم يرووا هذه القضية فيما درسوا ، فاعمل ذلك عذرهم فيما نسوا « اه بحروفه عن المؤيد

الفائدة في هذا الحديث هي الارشاد الى العمل بالعلم ونفع الناس به ، فمن كان يصدق عليه من العلماء يسر به ، ومن كان حجة عليه يستاء في نفسه ولكنه لا يظهر الاستياء لئلا يكون مسجلاً على نفسه ذلك ، اللهم إلا أن يغلب على أمره باعتقاد ان الكلام ظاهر الانطباق عليه عند الناس لعلمهم بأنه لم يحصل من العلم إلا حفظ بعض الاصطلاحات التي لا أثر لها في عمله، ولا يمكن أن ينفع بها الناس، أو لحسد شديد لمن ظهر الحق على لسانه ، فهو يكابر الحق ويجادل فيه بعد ما تبين وعلم انه الحق وان ما بعده هو الضلال .

نشر الحديث في المؤيد فذكر المقطم في العدد الذي صدر منه في اليوم التالي لنشره ان العلماء في مصر عموماً وعلماء الازهر خصوصاً قد استاؤا منه ووقع عليهم كالمصاعقة، فنشر المؤيد في اليوم الثالث مقالة لبعض العلماء يقيم الحجة فيها على المقطم بأنه ليس من المعقول أن يعلم باستياء العلماء كلهم في مصر في صبيحة يوم واحد فلم يجد المقطم جواباً إلا أنه استنجد ببعض العلماء المتقنين الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فيكتب له نبذة بعد يومين زعم انه بين فيها سبب استياء العلماء من حديث الشيخين كأنه حقيقة واقعة . وأما السبب الذي كتبه فهو مما يضحك الناس على حماقته ، وقد خدم المقطم الاسلام باظهار سخافته، كأنه يقول هذه أفكار الذين يعارضون كلام الأئمة الراشدين، ولا تدري هل قصد المقطم هذا أم لا ؟

زعم ذلك المتقن ان السبب في استياء العلماء المزعوم انه يوجد فئة ذات عُدّة عظيمة يريدون ابطال مذهب اهل السنة ورأوا أن يسقطوا العلماء من نظر

العامة ليتمكنوا من ذلك ، لان العلماء هم حراس السنة فهم دائماً يذمون العلماء ، وجاء كلام الشيخين في ذم العلماء مؤيداً لكلامهم !!!
لعمري لا يقول هذا القول من بلغ أن يكون متفتناً أو حافظاً وإنما هو غبي لم يفهم معنى الكلام ، وإن كان لم يمزب عن افهام العوام، الشيخان يحثان العلماء على العمل بعلمهم وأن لا يقتصروا على حفظ الاصطلاحات الفنية ، وهل يمكن أن يحرسوا السنة إلا بهذا ؟

هؤلاء البابية قد ألفوا كتاباً يريدون به ابطال مذهب السنة بل والاسلام كله ، وقد نشره حتى في الجامع الازهر ، فهل قام من العلماء الذين سماهم انصار السنة ، من حامى عن السنة ، إلا الاستاذ مفتي الديار المصرية لذي اتفق مع الاستاذ شيخ الجامع على تأديب ناشره ، وغير هذا الفقير الذي رد على كتابهم في المنار ؟ وهؤلاء دعاة المسيحية ينشرون الكتب والجرائد في الرد على الاسلام ، وقد اشتغلت بشبههم الاذهان ، فهل تصدى هو أو غيره من اهل الازهر للرد عليهم ؟؟ وهذه البدع والمنكرات فاشية فهل انكرها منهم أحد ؟

يتخذ صاحب المقالة المقطعية اسم العلماء ترساً يدافع به الحق الذي يكلفه العمل ، ويعد هذا التكليف طعناً بالعلماء جميعاً ، كأنه يحكم عليهم بأنه لا يوجد فيهم عامل عمله خادماً لدينه ، ويسمي الذي يعلق آمال المسلمين بهم طاعناً فيهم ، ويزعم ان الأولى تعليق الآمال بالحكام والامراء وهو يعلم ساطة الاجانب عليهم ، فنعوذ بالله من الجهل ونعوذ بالله من الغش

جمل الله علماء الدين الذين أورثهم الكتاب ليكونوا نواباً عن الرسل في الهدى والارشاد على ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه لا يعمل به ، ومقتصد يشتغل في اصلاح نفسه والعمل بما وجب عليه ، وسابق بالخيرات يعمل ويعلم الناس ويرشدهم الى الاهتداء به (هذا التفسير هو الذي اختاره العلامة البيضاوى وغيره) وهذا القسم الثالث هو الذى تحيا به الملة ، ونحفظ السنة ، وقد ضعف الاسلام والمسلمون بضعفه وكادوا يتلاشون بتلاشيته . وكلام الشيخ والمفتي ينفخ روح الغيرة في القسم الاول والثاني ليرتقوا الى القسم الثالث . وكلام صاحب المقالة

المقطوعة يسجل عليهم بانهم من القسم الاول أو الثاني ويسمى هذا نصراً للسنة وما هو إلا نصر المقطم، وتصديق له بأن العلماء قد استأثروا من كلام الشيخين، وله هو الذي غشه أولاً وصداقه ثانياً

عهدنا بهذا المفرور انه يحرم نشر الآيات القرآنية في الجرائد فلماذا ملأ مقالاته بالآيات التي حرقها عن مواضعها ووضعها حيث شاء الهوى (يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً) وعهدنا به يحرم الكتابة في الجرائد الاسلامية، ولو لخدمة الملة الخيفية والدولة العلية، فكيف استحل أن يكتب في جريدة يعتقد هو واكثر قومه إن لم نقل كلهم أنها ضد الدولة وغير خادمة للملة؟ ألم يجد جريدة يدافع فيها عن السنة والاسلام وعلمائه الاعلام، إلا هذه الجريدة التي لم تنشأ لهذا القصد ولولا إرادة تأييد كلامها لما نشرت مقالاته. لا تريد بهذا طعنًا بالمقطم وإنما تريد تفنيد هذا المفرور بما هو مسلم عنده، وسنبين وظائف العلماء في الجزء الآتي، وإلى الله تصير الامور (١)

ما كتبه مصطفى بك كامل في المسألة

ان جريدة اللواء لم تكتب شيئاً في موضوع حديث شيخ الاسلام والمفتي لان صاحبها مصطفى كامل بك كان في أوربة فلما وصلت اليه جرائد مصر أرسل إلى جريدته مقالة من باريس نشرت في ٧ جمادى الاولى (٢٢ أغسطس) عنوانها (كلمة في سبيل العلماء) ذكر في أولها «الحكم الشديد القاسي الذي نطق به شيخ الاسلام ومفتي مصر بشأن العلماء» واهتمام الرأي العام في مصر بهذا. ثم ذكر انه «لا ينكر أحد في مشارق الارض ومغاربها أن الاسلام في حالة يرثى لها وان المسلمين فقدوا في هذا العصر كل قوة ونفوذ...» واعترف بان لكل باحث الحق في ابداء رأيه بحرية في هذا الموضوع.

ثم انهى باللائمة على شيخ الاسلام ومفتي مصر في حكمهما على علماء العصر ونسيانهما أو تناسيها انهما من هؤلاء العلماء «ومسؤولان مثل الآخرين (بل قبلهم) عما نحن فيه من تأخر وجهالة وسوء حال»

(١) قد وفينا بهذا الوعد ولله الحمد

ثم احتج على شيخ الاسلام بأنه لم يرفع صوته قبل الآن بالنصح للمسلمين الخ
ثم انتقل إلى المفتي وقال انه لا يناقشه « الحساب على ما مضى من أعماله ولا
يذكره بالحوادث المشنومة وشأنه فيها » وانه يتنامى ذلك ويطلبه بالعمل لاصلاح
حال المسلمين بدلا من اعلان الحرب على العلماء - وذلك العمل الذي يطالبه به
هو أن يستقيل من منصب الافتاء وينشئ مدرسة لتربية علماء اللازم للاسلام
المعين للمسلمين » قال « يومئذ يحق له أن يحكم على المقصرين .. يومئذ نحني له
الرءوس تعظيما واجلالا ، ونشهد له أمام الناس واتاريخ بأنه أب الحركة الاسلامية
الحديثة ، وروح الحياة الملية الجديدة » الخ

وقد رددت على هذه المقالة في جزء المار الذي صدر من المجلد الرابع في غرة
جمادى الاولى من تلك السنة فأذكر من الرد ما هو خاص بحديث الشيخين - لان
ما يتعلق بالرد على مقاله في حوادث الثورة العراقية التي دبر عنها بالحوادث المشنومة
قد تقدم في ص ١٤٧ من هذا التاريخ - وهذا نصه (ص ٥١٠ م ٤) :

« صدى حديث مفتي الديار المصرية مع شيخ الاسلام في الآستانه »

طار خبر هذا الحديث في المؤيد. ثم في المار إلى جميع البلاد الاسلامية فتنة ه
العقلاء والفضلاء بالقبول ، ونشرته برمته الجرائد الاسلامية في الشرق والغرب
ليعم نفعه ، ويعرف عامة المسلمين كما يعرف خاصتهم بان أكابر علمائهم معترفون بان
معظم بلاء المسلمين قد جاءهم من تقصير علمائهم في خدمة الامة والملة

« قول صاحب جريدة اللواء في الحديث »

عرف صاحب هذه الجريدة عند الخواص وأهل الرأي بالتجاوز والشذوذ
والافن والخطأ ، ومع هذا لم يشذ عن الجرائد الاسلامية المعبرة في الاعتراف
بصدق الحديث وإصابته الرمي وقرطسته في الهدف واكمنه لم يتردد شذوذ وذو
الحدود عند الكلام عليه فجعل الحديث رأيه الافن حجة على المتحذثين ، وسأل
من لا ينظر في جريدته من شيخ الاسلام ومفتي الديار المصرية عن خدمتهم للاسلام
أما شيخ الاسلام فصاحب اللواء يعرف أن مولانا السلطان أيد الله بتوفيقه

لم يترك له ولا للوزراء استقلالاً يعمل يتعلق بالامة بل وضع جميع اعباء الدولة والامة على كاهله ، فمن كان هناك تقصير فليسأل عنه صاحب الارادة والنفوذا المطلق ، ويالت شعري ماذا يقول صاحب اللواء إذا سأله شيخ الاسلام عن رأيه في الإصلاح الاسلامي الذي ينبغي أن يعمل ؟ هل يشير عليه بمثل ما أشار على مفتي الديار المصرية : أن يترك وظيفته ويذهب مدرسة كمدرسة مصطفى كامل او مدرسة الوطن أو مدرسة باب الخناق !!!

وأما مفتي الديار المصرية فقد سمع الصم نداءه بالارشاد إلى الإصلاح وما العلماء إلا مرشدون ، وأبصر العمي سعيه في خدمة الازهر الشريف والجمعية الخيرية الاسلامية التي لها عدة مدارس كل واحدة منها خير من جميع المدارس الاهلية ، وجمعية إحياء العلوم العربية واعترف المكابرون مع المنصفين بمروءته وبذلجاهه وماله في خدمة المسلمين في الحكومة وغير الحكومة . ومن أعماله القربية تقريره في إصلاح المحاكم الشرعية الذي أجمع على استحسانه العلماء والفضلاء وحزموا بانه لم يحاب الحكومة في إظهار خطأها وانه شخص الاء وبين الدواء ووصف طريق العلاج .

ولكن صاحب اللواء في مصر لا يسمع ولا يبصر ، ولا يحس بهذا كله ولا يشعر اه وأزيد على هذا ان الرجوم مصطفى كامل كان يعلم ويقول أحياناً ان علة العمل لمصائب الاسلام والمسلمين ملوكهم وامراءهم ، وان العلماء لا يستطيعون عمل شيء بدون رضاهم ، وان الاستاذ الامام أرسل عند ما كان ببيروت لائحة الى شيخ الاسلام في ذلك العهد ببيان ما يجب من الإصلاح في الدولة كما سيأتي بيانه فلم يمكنه تنفيذ شيء منها ، وكان مع هذا يقدر السلطان عبد الحميد ، ولو ان شيخ الاسلام أراد أن يعمل شيئاً بالاتفاق مع العلماء وانتقم منه السلطان لحد للسلطان انتقامه ، وحكم باستحقاق شيخ الاسلام له . وكان من أشد أنصار الخديو في مقاومة الشيخ محمد عبده في إصلاح الازهر والمحاكم الشرعية والمساجد ، وهكذا شأن السياسة في اتباع الهوى . وقد اتفق رجوعه من أوربة في الباخرة التي عاد فيها الاستاذ الامام وتعارفا مدة كما تقدم في ص ٥٩٣

(كتاب الاستاذ الامام إلي بعد خروجه من الاستانة الى أوربة)

ولدنا العزيز

لم يصل إلي كتابك إلا هذا اليوم ٢٨ أغسطس وذلك ببركة الآستانة العلمية .
الشيخ اسماعيل (١) قابلني في آخر يوم كان لي بالآستانة وصحبني من البيت الى
الكبري ثم أمرته بمفارقتي وسافرت بعد ساعتين ، أعطيته ورقة زيارة لنجل أحمد
عزت بك ولا أدري هل يساعده أو يواعده .

لا يمكن لشخص مستقيم السيرة أن يجد عملاً أو يصيب خيراً في الآستانة .
وعلى كل ذي دين أن يفر منها بدينه وبيقية نفسه
تعلمت في الآستانة ما لم يكن لي علم إلا بالمشاهدة ، وستسمع منه ما يمكن التعبير
عنه عند اللقاء إن شاء الله تعالى .

بودي لو يشترك الشيخ اسماعيل في عمل المنار ، احدهما يكتب والآخر
يسافر ويدعو الى الاشتراك ويجمع القيمة وهكذا ، ولا أدري هل يوافقك ذلك ؟
ما ذكرت عن الحموي (٢) ليس ببعيد عن اخلاق مثله ممن يذسون انفسهم
متى حلوا وزر لقب من الاقارب . اللقب يتقل عليهم فيزهق ارواحهم من ابدانهم ،
ولا يبقى متملقا باجسامهم إلا خيال لا يعرف شيئاً من انفسهم .
كتبت للشيخ علي الآن ما قيل عنه وعن غيره . لم أر الى الآن شيئاً مما

(١) هو الاستاذ العالم الفقيه الشاعر الاديب الشيخ اسماعيل الحافظ الطرابلسي
أصدق أصدقائي ومن تلاميذ الاستاذ الامام كان مجاوراً في الازهر من قبل هجرتي
الى مصر ، ثم ذهب الى الآستانة لاجل الدخول في سلك القضاة الشرعيين وقد أوصي
الاستاذ به نجل عزت باشا العابد ليوصي والده بمساعدته تطيبها لقلبه وهو لا يرجوه
نجاحاً في الآستانة لدينه واستقامته ، ولذلك استحسن أن يأتي ويشاركني في عمل المنار
وقد كان هذا بوافقي الا أنه مثلي لا يصلح للسفر للدعوة الى الاشتراك وجمع القيمة
فكلانا ليس بمالي ، ولهذا لم يكن من مصلحته هو مشاركتي في هذا العمل

(٢) هو سليم باشا الحموي كان صاحب جرادة تسمى الفلاح تعيش باعانة من الآستانة
لأنها تمدح السلطان ورجاله وتدافع عنهم . وقد قال الاستاذ الكواكبي هنا انه يطعم منها
١٠٠ أو ٢٠٠ نسخة يرسل نصفها الى الجرائد ونصفها الى الآستانة ؟!

كتب في المقطم، والكر رأيت جملة في محليات المؤيد (١) ردأ عليه لا بأس بها وعرفت انها من قلمك، فان كانت التي تذكر فهذا رأي فيها، وإن كانت غيرها فاحفظها حتى اعود، كما احب ان تحفظ ما قال المقطم، وإن امكن ان ترسله إلي فاعطه لمجوده . وليني أعرف ماذا كتب . صغافى كامل، فقد بلغني انه كتب اني حبست في الاسنانة الخ كما بلغني ان ذلك أشيع عنديكم . ولا آسف على شيء أشد مما آسف على جهل قومي بأن السلطان لا يستطيع حبسي لو اراده، وهو يعلم عجزه عن ذلك حق العلم، ولذلك اسباب لا احب ذكرها الآن

قال المويحي لا أحد اصحابي هنا إنك وصاحب الرائد تصبان على العلماء أدلاء التقرير والتعنيف، وان ذلك قد يشير فنة (في رأسه بالطبع) وانه يرى الصواب أن أكتب اليك لتكيف عن ذلك، وأنت تعلم اني لم أر شيئاً مما كتبت ولا مما كتب غيرك، فان كانت شدة خفف، وإن كان قد كذب القائل فدعه يهرف . اكتب مقدمة أسرار البلاغة وانك الذي سمعت بطبعه وانك كتبت عليه ما كتبت في الهامش، واذكر اني قرأته وأصلحت ما في المطبوع من خطأ بقدر الامكان، وانه لا يوجد من خطأ غير مصلح إلا موضع أو موضعان ليسا من الاعتبار في شيء . وان شئت تركت هذا التنبيه الاخير . من رأيي أن لا ينشر الكتاب ولا ينتهي طبع الخطأ والصواب إلا بعد الفراغ من دراسته، أو على الاقل بعد الانتهاء من دراسة هذا العام في شعبان . اكتب المقدمة وابقها الى أن أحضر في آخر الشهر الآتي إن شاء الله (٢)

أنا اشتغل الآن ببعض ما كتب الافرنج على الاسلام وبما وقف عليه الافرنج من خط المسند، وما ظهر لهم في لغة سبأ وحمير . البرد شديد، والمطر لا ينقطع، وأحب أن ينتهي الرقيم، والسلام
محمد عبده

(١) كتب في المقطم يومئذ ان علماء مصر ساء هم حديث المفتي مع شيخ الاسلام لانه طعن فيهم، والذي شرفي المؤيد ردأ عليه هو مقالة افتتاحية لي معزوة الى أحد العلماء وتنويه بها في الاخبار المحلية فذهل الاستاذ عن هذا عند الكتابة
(٢) لما حضر وقرأ مقدمتي لاسرار البلاغة أعجب بها ولم ينتقد كلمة منها

(اقول) كان المراد من الدسائس وسعاية الجواسيس وشرهم (المويلحي) أن يحبس الاستاذ الامام أو يهان ، وهم لا يجهلون ان السفارة البريطانية كانت بالمرصاد ، وانها لا تنسكت للحكومة الحميدية على ذلك لو أقدمت عليه ، والسلطان ورجاله لا يجهلون هذا أيضاً ، وكان لأحمد شفيق بك (هو صديقنا شفيق باشا) سعي حميد في المابين لتلافي هذا الشر ، وبعد أن سافر الاستاذ الامام أرسل اليه أحمد شفيق الكتاب الآتي مع ما كان أرسل اليه بعنوان الاستانة من طريق صاحب المؤيد ومنها كتابي الذي اجابني عنه الاستاذ بهذا الرقيم .

ويعلم من كتاب احمد شفيق باشا ما كان من مراقبة سفير الانكليز لما يحدث - ومن حرص رجال السلطان عبد الحميد على حفظ كرامة الاستاذ الامام ولا سيما رئيس كتابه (باشكاتب المابين) الذي كان عازماً على حمل السلطان على الانعام على الاستاذ برتبة علمية عالية وهو ما يعبرون عنه بالتلطيف . وهذا نصه :

سيدي الفاضل

ها أنا أرسل اليكم جملة جوابات سلمها إلي حضرة الشيخ علي يوسف لتوصيلها اليكم بلغت القول أغامي (١) السلام من طرفكم فسألني عما اذا كنتم توجهتم الى لوندرد حيث كان بلغه ذلك فأكدت له ان هذا الخبر مكذوب بالمرّة بعد توجهكم سألني الباشكاتب عنكم فقلت له انكم سافرتم الى أوروبا ومنها ستوجهون الى مصر ، فأوراني سروره من عدم مساسكم بشيء ، وقال الحمد لله على أن تداركنم الأمر ، أما التلطيف فسيكون عند تشريف الجنب الخديوي عند مقابلة سموه أرجوكم عدم اطالة الشاء فيما قلت به من الواجبات التي يفرضها علي حي لسيدي لانه لاحظ علي في بعض الاعمال التي أجريتها في مسئلتكم سفير انكائرا تأسف على عدم إمكانه مقابلتكم وكلفني أن أبلغكم ذلك ، ولما أفهمته المسئلة على وجه الاجمال تكدر ولكنه استصوب كل ما فعلناه

واني اهديكم وافر التحية والاكرام والسلام افندم

أحمد شفيق

٢٠ أغسطس سنة ١٩٠١

(١) لعله محافظ بشكطاش الذي يعنيه ملاحظة الاستاذ وكل ما له علاقة بالسلطان

عودة الاستاذ الامام

(من الاستانة وأوربة)

لما عاد الاستاذ الامام من سفره هذا لقي من حسن استقبال علماء هذه البلاد ووجهائها ما لم يسبق له نظير عند عودته من أسفاره السابقة ، وهنيء بقصائد كثيرة وكان لذلك سببان (أحدهما) ان فضائله قد ذاعت في السنين الاخيرة بعد ترك منصب القضاء الذي كان شغلا شاغلا له عن كثير مما أتيج له بعد استبدال منصب الافتاء به ، مما تقدم شرحه (وثانيهما) ارادة تكذيب من خاضوا في دعوى استياء العلماء وغيرهم من حديثه مع شيخ الاسلام في الآستانة ، وقد أثبت شيئا من خبر هذه الحفاوة في النار ، وبعض الشعر الذي هنيء به على كراهتي لنشر مدائح الاشعار ، وقد وصل إلى الاسكندرية في ١٦ جمادى الآخرة سنة ١٣١٩ هـ (٢٩ سبتمبر سنة ١٩٠١ م) وهاك ما نشره النار في الجزء الذي صدر بهذا التاريخ من المجلد الرابع (ص ٥٤٩)

(قدوم مفتي أفندي الديار المصرية وحفاوة المصريين به)

جاء الاستاذ الاسكندرية في الوعد الذي ذكرناه في الجزء الماضي فاستقبله في الباخرة علماءها ووجهائها ، وجاء القاهرة في ناشئة ليلة الثلاثاء وكان في انتظاره على رصيف محطة السكة الحديدية الجماهير من العلماء وكبار الموظفين والقضاة والوجهاء وفي مقدمتهم أصحاب السعادة عبدالحليم باشا ناظر الاوقاف وبلغ باشا ناظر الدائرة السنية . وكانت كثرة عمامة الازهرين تستوقف الطرف - كما قال المقطع - وما أشرقت الشمس في اليوم التالي على عين شمس إلا وكانت مورد جماهير المهنتين من العلماء والوجهاء واستمر ورود الوفود بضعة أيام وكان من مسهلات الزيارة عليهم أن مصاحبة السكة الحديدية زادت عدد القطارات التي بين القاهرة والرج من يوم قدومه حتى لا تمر ساعة إلا ويسافر فيها قطاران أو ثلاثة . وجاء كثيرون من البلاد الاخرى إلى مصر لاجل زيارته . واكتفى كثيرون بارسال الرسائل البرقية وقليلون بالرسائل البريدية ، ولم يعهد مثل هذا الاحتفال والحفاوة

في مصر لعالم ولا لامير دون أمير البلاد الاعظم أيده الله تعالى وأيد به العلم وأهله
وقد تبرع السري الفاضل محمد بك أباطه بخمسة جنيهاً لإدارة المنار شكرياً
لله تعالى على قدوم الاستاذ وجماعها عادة مستمرة وهي قيمة الاشتراك بعشر نسخ
توزعها الإدارة على مستحقيها مجانياً

وكتب العلامة إمام اللغة الشيخ محمد محمود الشنقيطي مهنثاً له وأنشدها بحضرته:

(بسم الله الرحمن الرحيم)

للجامع الأزهر المعمور عاد على	رغم الحسود فتى مصر ومفتيها
محمد الفحل عبده بدر هاتمه	خيراته دعة هطلام يؤتيها
ميسر لفعال الخير قاطبة	تأنيده طلابها تترى فؤتيها
سفائن العلم في ذا الشرق لانغدت	أعلامها بيديه وهو نوتها
لم يحسدن على ما الله خوهم	من فضله الناس من نعمي يؤتيها
لن ينكث العهد ان ينكسه ناكسه	بل عفة العهد يحكمها وبختها
وتعلمون جميعاً ما علمت به	من ذي الكارم ماضها وآتيها
هلا نظمتم لكم عقداً مكارمه	اجرتهم خرم فرس حول بختها

(وقال أيضاً مخاطب الامام المفتي)

أيا من قد نأى عنا وغابا	وبعد قضائه الحاجات آبا
تغنينا بشعر الصدق السا	عزمت إلى أباطحك الايا
«وكأس بالاباطح من صديق	يراه لو أصبت هو المصابا
ومسرور بأوبقنا اليه	وآخر لا يحب لنا إياها»

وقال أيضاً هذا اليتيم:

إلى عين شمس عدت يا شمس عصرنا ويا رجل الدنيا ومفتي مصرنا
وحلتي هذه سبيلها سبيل حلة عائشة بنت طلحة رضي الله تعالى عنهما غير أن
هذا الشعر شعري وذلك شعر فيس بن الحدادية

وشرح ذلك ان أم عمران عائشة بنت طلحة أنشدت عينية قيس بن
الحداية الخزاعي الجاهلي فاستحسنها وبحضرتها جماعة من الشعراء فقالت :
من قدر منكم أن يزيد فيها بيتا واحداً يشبهها ويدخل في معناها فله حلتي هذه ،
فلم يقدر احد منهم على ذلك اه

وكتبه محمد محمود الخمس خلت من جمادى سنة ١٣١٩

وهنا بالقدوم الكاتب الشاعر السيد مصطفى لطفي المنفلوطي بقصيدة قال

سار يباري النجم في جده	وعاد كالسيف إلى غمده
رأى السرى والسهد مهر العلى	فجد وارتاح إلى سهده
لا يبصر الخطب جليلا ولا	تلوي به الاهوال عن قصده
مسدد العزم إذا ما مضى	يحار صرف الدهر في رده
كالسيف يجلوه القراع ولا	ياخذ ضرب الهام من جده
من لا يرى المجد سبيلا له	لا يأسف المجد على فقدده
فضجعة الراقد في بيته	كضجعة الميت في لحده
كان لمصر بعد توديعه	صبابة الصادي إلى ورده
واليوم قد عاد لها كل ما	ترجو من النعمة في عوده
واقتر عنه ثغرها مثلما	يقتر ثغر الروض عن ورده
بدا وقد حفت به هيبة	كأنما عثمان في برده
ما فيه من عيب سوى انه	يحسده الناس على مجده
ما حيلة الحساد في نعمة	أسبغها الله على عبده

«ومن قصيدة للاستاذ الشيخ سيد علي المرصفي مدرس الادب في الازهر»

هذا هو العلم لاعلم بمحفظه	محدودة من جلود الشاء والغنم
جوفاء معتلة في جوفها ورم	تشكو لخالفها من علة الورم

« ومن قصيدة الفاضل الشيخ مصطفى حسين مشيط المنفلوطي الازهري »

ان الزمان إذا اعتدى بصروفه لم يبق حبلا في الهوى موصولا
كم ذا يروغني بكل ملامة لا تترك الصبر الجميل جميلا
لولا اعتصامي بالامام محمد كهف الورى لم أبلغ المأمولا

ومنها

شيدت أركان الشريعة بعدما لعبت بها أيدي البلاء طويلا
وشهرت للدين الحنيني سيفه بيد اثبات وكان قبل كايلا
ومن قصيدة للشاب اللوذعي مصطفى صادق افندي الرافي الكاتب بمحكمة شبين الكوم

والصبح ميمون الطليعة قادم مثل (الامام) بطلعة زهراء
يجالو الظلام كما تجلى هدده فأضاء كل سريرة ظلماء
تزهو السماء بشمسها و (محمد) في الارض شمس الملة السمحاء

حديثه عن الآستانة

وعندي الاستاذ في كتابه المنشور آنفا بان يحدثني عند اللقاء بما يمكن التعبير عنه من حال الآستانة وقد فعل ، ولم يكن من الحكمة نشر حديثه ولا كتابه في ذلك الوقت . وأهم ما ذكره من حديثه أنه لم ير بيئة في العالم ولم يكن يعقل وجود بيئة كآستانة في سوء تأثيرها في العقل والفكر والقلب ، وان ذهنه كان هنالك ممسوحاً كأنه لم ينتش فيه شيء من العلوم والآراء . وبهذا كان أحرار الترك معذورين في شرودهم منها وتوطين أنفسهم على كل ما يمكن أن يلقاه الانسان من ضروب البلاء والحزن

وسأذكر رأيه في الدولة والسلطان والخلافة والترك والعرب العثمانيين في

المقصد الآتي إن شاء الله تعالى

أسفاره الى أوربة ومقاصده منها

قد بينا مقاصده من أسفاره إلى أوربة وبعض أعماله فيها (بعد عمله السياسي الكبير مع أستاذه السيد جمال الدين الافغاني) في مواضع أهمها ما نقلناه عنه مما كتبه في سياق عمله للغة الفرنسية (ص ١٠٤) ثم ما نقلناه عنه في مقدمة هذا المقصد ، ومنها ما ذكرناه في المجلد الرابع في أثناء سفره إلى الاستانة وهو ما أخذناه من مکتوباته كالرقم الذي أرسله إلينا بعد خروجه من الاستانة إلى سويسرة وزدنا عليه بحثه في خزائن الكتب العامة في الاستانة والخاصة كالمكتبتين الملكيتين في فينا وبرلين وقد عثر في الثانية على آثار عربية مهمة منها ما يرقى تاريخه إلى عهد الصحابة ، ومنها ما نشرناه في صفحته ٤٨٦ من مجلد المنار السادس وذلك في أثناء سفره الأخير إلى انكلترة وهذا نصه :

يسافر أكثر أمراء المصريين وكبار الموظفين منهم كل عام إلى أوربا بمصطافين فيقضون أشهر الصيف هناك في لهو وامب وتمتع بالذات ، وخيرهم من يسافر لغرض صحيح كنزويض جسمه بالاستحمام في الحمامات المعدنية وصعود الجبال ، أو لاختبار يقينه في صناعته التي بها قوام منافعه الشخصية ، ولم نسمع عن أحد منهم أنه سافر لاختبار حال التربية والتعليم في تلك البلاد — التي أجمع علماءها وعقلاؤها على أنهم ماسادوا الأمم إلا بالتربية والتعليم — والاستفادة من ذلك لتكامل نفسه والاستعانة على نفع قومه إلا الشيخ محمداً عبده مفتي الديار المصرية فإنه قد سافر من قبل غير مرة لتعلم أفصح لغات القوم (الفرنسية) فتعلمها وأحسنها ووقف بها على أهم معارفهم التي تعينه على ترقية أمته ^(١) وقد ولى وجهه في هذه السنة شطر المدارس الكلية التي يتخرج فيها كبار الرجال لاختبر شؤونها ، حتى إذا حقق الله تعالى له رجاءه بإيجاد مدرسة جامعة في هذه البلاد يكون على بصيرة في كيفية تأسيسها ونظامها كما برشد إليه قوله تعالى (أفلم يسيرا في الأرض فتكون لهم قلوب تأسيها ونظامها كما برشد إليه قوله تعالى (أفلم يسيرا في الأرض فتكون لهم قلوب

(١) وكان يحضر دروس آداب لغتها في مدرسة جنيف الكلية التي تعقدها في الصيف للسائحين كما تقدم في موضعه

يمقلون بها او آذان يسمعون بها) - الآية - وكما قال الشاعر :

قد سلك الطريق ثم عادا ليخبر القوم بما استفاد

وقد سبق له رؤية المدارس "الفرنسية العالية وكان في بعض أسفاره قد أخذ
إذنا من ناظر معارف فرنسة بان يزور أي معهد من معاهد العلم في أي وقت شاء "١
ولما كانت التربية ونظام التعليم في البلاد الانكليزية مفضلين عند علماء هذا الشأن
من الفرنسيين على مثلهما في سائر الممالك الاوربية سافر في هذه السنة لزيارة أعظم
مدارس هذه الدولة العظيمة وأعظمها كلية اكسفورد وكلية كبردرج

وقد ذكرت جرائد لوندرة هذه الزيارة وما كان من احتفال رجال العلم في
المدرستين واجلالهما للامة ذ وأثنت الجرائد عليه بما هو أهله من العلم الواسع
والعقل الكبير ، والهمة العالية . وذكرت غير ذلك من نقله في البلاد كزيارته
للـفيلسوف سبنسر أعظم فلاسفة أوروبا الاجتماعيين ، ونزوله ضيفا كريماً على
المستر ويلفرد بلنت في قصر (كرايت بارك) . وقالت ان المستر كوكر نزل قد
صحب فضيلته في زيارة مدرسة اكسفورد ، وان الاستاذ بويل المؤلف الشهير
كان دليله لانه من معلمي التاريخ في تلك المدرسة ، وقالت انه لما زار مدرسة
كبردرج خرج لاستقباله في المحطة طائفة من أساتذتها ، وان المستر ادوار براون
قد دعاه فيها إلى طعام الغداء ودعا لاجله طائفة من الاساتذة وبعض المستشرقين (٢)
وكبار المستخدمين ، وانه تناول طعام العشاء في قاعة المدرسة الكبرى . وذكرت
تفصيل الزيارة بما لاحاجة إلى بيانه هنا وقد لخصته الجرائد اليومية المصرية وذكرت
ثناء الجرائد الانكليزية على معارف الاستاذ الواسعة

وقد كتب الدكتور ادوارد براون أستاذ اللغتين العربية والفارسية في كلية

(١) وكان في أسفاره الاولى اليها يعني بعلم الحقوق واصول القوانين الفرنسية
التي تستمد منها القوانين المصرية حتى انه كان يختار لنفسه مدة وجوده في باريس
حوزيا يحمل شهادة (اليسانسيه) في الحقوق فكان يذاكره في هذا العلم في حال
تنزهه في ضواحي باريس «٢» وقد ساله هؤلاء العلماء عن بعض ما أشكل عليهم
في بعض الكتب العربية فكان يجيبهم بداهة بما يقنعهم ويزيل اشكالهم

كمبردج رسالة إلى جريدة المؤيد ذكر فيها خبر الزيارة بنحو التفصيل الذي جاء في الجرائد الانكليزية ومما جاء في رسالته قوله كما في العدد ٤٠٤٢ من المؤيد :

« ولقد كان كل من في المدرسة فرحاً مسروراً بزيارة هذا الرجل العالم العظيم . وأعجب بمنه وفضله وصمو آرائه جميع العلماء والعظماء ، وتمنوا لو أقام بينهم زمناً طويلاً . وفي اعتقادي ان فضيلة المفتي قد شرف الشرق وعلماءه في هذه الديار » اهـ

فالحمد لله الذي جعل فينا من نفتخر به أمام كبار رجل العلم في أوربا الذين يرون الشرق وأهله في ظلمات من الجهل لا يبصرون . وقد ذكرت الجرائد الانكليزية ان المفتي سافر من انكلترا قاصداً فرنسا ليسافر منها إلى تونس والجزائر . وهذا ما كنا علمناه من هنا قبل سفره وقد كان عازماً على ان ينتهي إلى بلاد اسبانيا (الاندلس) حيث كانت تلك الدولة العربية التي أقضت العلوم على أوربا فانتقم منها التعصب فأفناها عن آخرها ، ولا ندري هل بقي من زمن اجازته ما يكفي لذلك أو يعود من تونس إلى بلاده التي ظمئت لمعارفه ؟ كن الله له وأيده بروحه حيث كان ، ومد في أجله حتى يرتقي بهذه الامة إلى أعلى ما في عالم الامكان .

زيارته للفيلسوف غوستاف لوبون

وانني بمناسبة ما ذكرت في هذه النبذة من اجتماعه بكبار الحكماء والعلماء في أوربة أقول انه في سفره الاخير إلى فرنسة ذهب إلى دار الفيلسوف الاجتماعي الشهير (غوستاف لوبون) للتعرف به والشكر له على تأليف كتابه (حضارة العرب) فلم يحده لانه كان مصطافاً في الارياض ، فترك له في داره بطاقة الزيارة . فلما عاد الفيلسوف ورأى البطاقة أسف لما فاتته من لقاء أكبر علماء الاسلام وأرسل اليه كتاباً يؤذنه بذلك ويشكره تفضله بزيارته

اجتماعه بالفيلسوف سبنسر

قلنا انه في سفره الاخير الى انكلترة سنة ١٩٠٣ زار هذا الفيلسوف ، وكان ذلك في ١٠ أغسطس وكان الفيلسوف مصطافا في (برايتون) من جنوب انكلترة وقد نهاه اطباء عن كثرة مقابلة الناس وعن الحديث مع أحد أكثر من عشر دقائق لمرضه مع شيخوخته ، ولكنه سر من حديث الاستاذ الامام ودعاه الى الغداء معه وأطال الحديث معه في فلسفة الدين والاخلاق والافكار المادية وسياسة أوربة واني أذكر ملخص ما حدثنا به أستاذنا من ذلك وأرمز إلى سبنسر بحرف

(ف) المقتطفة من فيلسوف ، وإلى شيخنا بحرف (م) المقتطفة من كلمة امام

(ف) هل زرت انكلترة قبل هذه المرة؟ (م) نعم زرتها منذ عشرين سنة
(ف) كيف وجدت الفرق بين الانكليز اليوم والانكليز منذ عشرين سنة؟
(م) انني زرت هذه البلاد في المرة الاولى افرض سياسي خاص وهو البحث مع رجال السياسة في مسألة مصر والسودان عقب الاحتلال البريطاني وأقت أياما قليلة لم يتعد عملي فيها ما جئت لاجله ، وقد ألمت بها الآن منذ أيام فلم أدرس حالة الناس ... وانما يجب ان آخذ عنكم ذلك

(ف) ان الانكليز يرجعون القهقري فهم الآن دون ما كانوا عليه منذ عشرين سنة
(م) فيم هذه القهقري وما سببها؟

(ف) يرجعون القهقري في الاخلاق والفضيلة ، وسببه تقدم الافكار المادية التي أفسدت أخلاق اللاتين من قبلنا ، ثم سرت الينا عدواها ، فهي تفسد أخلاق قومنا ، وهكذا سائر شعوب أوربة

(م) الرجاء في حكمة أمثالكم من الحكماء واجتهادهم أن ينصروا الحق والفضيلة على الافكار المادية

(ف) انه لا أمل لي في ذلك لان هذا التيار المادي لا بد أن يأخذ مداه غايه حده في أوربة . ان الحق عند اهل أوربة الآن للقوة

(م) هكذا يعتقد الشرقيون ، ومظاهر القوة هي التي حملت الشرقيين على تقايد الاوربيين فيما لا يفيد من غير تدقيق في معرفة مناهبها

(ف) 'محيي الحق من عقول أهل أوربة بالمرّة وسترى الأمم يختبط بعضها ببعض (وإلهذا كره الحرب) ليتبين أيها الأقوى ليسود العالم - أوفى يكون سلطان العالم ثم انتقل الكلام إلى الفلسفة الإلهية

(ف) ما يقول علماء الاسلام في الخالق (عز وجل) هل هو داخل العالم أو خارجه؟ (م) ان علماء الاثرية يقولون ان الله تعالى فوق كل شيء. بائن من العالم، والمتكاملين يقولون: انه لا داخل العالم ولا خارجه. والصوفية القائلين بوحدة الوجود - يقولون ان كل شيء في العالم مظهر من مظاهر وجوده، وذكر له خلاصة مذهبهم هذا ما يخص ما ذكره لنا الاستاذ الامام، ولسنا في حاجة إلى تفصيل ما أجاب به الفيلسوف عن عقائد فرق المسلمين في الخالق عز وجل لانه معروف في محله، ولستني رأيت في مذكرة جيب له خلاصة حديثه مع سبنسر بأخضر مما ذكره لنا مشافهة وكتب عقبه ما نصه كما نقلته عنها في المجلد الثامن عشر الذي طبع في زمن الحرب الكبرى فلم يكن من الممكن ذكر ما قاله فيلسوف الانكليز الحر في فساد أخلاقهم وفي زوال الحق من عقول أهل أوربة والخطر عليها من سلطان الافكار المادية، وهذا نص ما كتبه في المذكرة (ص ٧٥١ م ١٨)

« ماذا حركت مني كلمة الفيلسوف «الحق للقوة» الخ؟ جاءت منه مصحوبة بشماع الدليل فأثارت حرارة وهاجت فكراً، ولوجأت من ثرائره كانت تأتي مقتولة ببرد التقليد، فكانت (تكون) جيفة تعافها النفس فلا تحرك الا شمشرازاً وغشياناً

« هؤلاء الفلاسفة والعلماء الذين اكتشفوا كثيراً مما يفيد في راحة الانسان

وتوفير راحته وتغزير نعمته (عجزهم) ان يكتشفوا طبيعة الانسان ويعرضوها على

الانسان حتى يعرفوا فيعود إليها، هؤلاء الذين صقلوا المعادن حتى كان من الحديد

اللامع المضيء، أفلا يتيسر لهم ان يحلوا ذلك الصدا الذي غشي الفطرة الانسانية،

ويصقلوا تلك النفوس حتى يعود لها لمعانها الروحاني؟ حار الفيلسوف في حال أوربا

وأظهر عجزه مع قوة العلم فأين الدواء؟ الرجوع إلى الدين المخ الدين هو الذي كشف

الطبيعة الانسانية وعرفها إلى اربابها في كل زمان لكنهم يعمدون في جهلونها! اه

وقد تقدم فيما كتبه إلى الاستاذ بعد خروجه من الاستانة إلى أوربة أنه يشتغل ببعض ما كتبه الأفرنج على الإسلام وبما وقفوا عليه من خط المسند وما ظهر لهم في لغة سبأ وحير « فاما اشتغاله بما كتبوا على الإسلام مدحاً أو ذماً فكان ذلك دأبه في جميع أسفاره ، وأما خط المسند فقد بدأ بدرسه في تلك السنة في سويسرة على أهل الاختصاص فيه كالدكتور هيس وغيره وعندي كتاب فيه بخطه رسم فيه حروف المسند وما يقابلها من خطنا المعروف وتركيب الكلام وتفسيره ، وغرضه منه أن يقرأ بنفسه ما وقفوا عليه في بلاد اليمن وما يرجي أن يُعثر عليه من آثار مدنية سبأ وعاد في تلك البلاد مهد الحضارة العربية الاولى

سفره إلى تونس والجزائر وصقلية

كان الاستاذ الامام رحمه الله قد أخبرنا عند إرادته السفر إلى أوربة في صيف سنة ١٣٢١ هـ ١٩٠٣ م أنه ينوي السفر منها إلى تونس والجزائر للوقوف على احوال المسلمين في هذين القطرين وآثار الإسلام فيهما ، وأن يجعل ذلك مقدمة وتمهيداً لزيارة المغرب الأقصى لمثل هذا الغرض إن امكن

وأذكر بهذه المناسبة أن بعض وزراء مولاي عبد العزيز سلطان المغرب كتبوا إليّ قبل الحماية الفرنسية أن اختار لهم رجلاً مصاحباً جامعاً بين العلوم الشرعية ومعرفة السياسة والادارة ليستعينوا به على اقناع السلطان باصلاح البلاد الذي يدعوه اليه المنار المرة بعد المرة ، فأطاعت شيخنا على ذلك فجنحت نفسه للذهاب بنفسه ولكنه ايقن ان الاوربيين عامة والانكليز والفرنسيين خاصة يحسبون لذهابه واقامته هنالك كل حساب ، وبحولون دونه بما استطاعوا من الاسباب ، وجماعة السلطان يطلبون أن يكون ما اقترحوه عليّ سرّاً لا يشمر به احد ، وقد اخترت يومئذ السيد عبد الحميد الزهراوي فلم يتيسر ارساله

كتمت عزم شيخنا على زيارة تونس والجزائر لثلاثين يوماً الاشرار إلى بث الدسائس لمنع فرنسة إياه من دخول البلاد أو للحيلولة دون ما يريدون منها بعد دخولها كما فعلوا في سفره إلى الاستانة ، حتى اذا ما ذكر الخبر في الجرائد الاوربية

نقلته عنها وذكرت اننا كنا نتوقمه كما تقدم آنفا . ولكن لم يكده يعرف ذلك حتى بادر أولئك الاشرار إلى ما كان ينتظر منهم كما بينته في (ص ٥٣٠ من مجلد المنار السادس الذي صدر في ١٥ رجب سنة ١٢٨١ ٢٢٨١ ايلول سنة ١٩٠٣ م وهذا نصه:

(سماية خاتبة)

لما علم بعض الاشرار بالطبع ان الاستاذ الامام يقصد في صيف هذا العام زيارة بلاد الجزائر وبلاد تونس افترضوا ذلك فكتبوا في السماية به الى حكومة الجزائر رسالتين إحداهما أرسلت من مصر والاخرى من الاسكندرية باسم الحاكم الفرنسي العام وفيهما ما فيهما من قول الزور والاغراء بالامام بزعم انه لا يقصد بالسفر الى الجزائر إلا تحريض المسلمين على الثورة والخروج على الحكومة ونيل طاعتها وانه قادر على ذلك ... كما كتبوا بمثل ذلك الى الاستاذة عند ما توجه الى زيارتها منذ عامين

كتبوا هذا لاعتقادهم ان الحكومة الفرنسية هناك حكومة خرقاء تأخذ بالشبهة، وتنتقم من البرى، لادنى وهم يوسوس به شيطان من شياطين الانس، أو يهيجس به في الخاطر عفريت من الجن، ولظنهم ان الحكومة الفرنسية تجهل قدر الاستاذ الامام ومقامه الديني، ولكن الحكومة الفرنسية فوق أو هامهم واحلامهم، فقد بلغنا انها قد تلقت الرجل العظيم بالحفاوة والاحلال اللاتقين بشخصه وبمقامه الديني والعلمي، كما تلقاه في انكلترا كبراء الانكليز وعلمائهم. فسر بهذه المعاملة الحسنة لاشهر أئمة المسلمين في هذا العصر مسلمو الجزائر ورأوا ذلك دليلا على حسن قصد حكومتهم وحسن سياستها

فليعتبر فضلاء المصريين بهؤلاء الابالسة الذين يعز عليهم ان يوجد في الامة رجل جليل عالي القدر محترم المقام حتى إنهم يبذلون جهدهم في تنميق الكذب ليحملوا الاجانب على اهانة ساداتهم وأئمة الدين الذين ينتسبون إليه وإن كان يتبرأ منهم . ولو شاء الفضلاء الانتقام الادبي من هؤلاء الاشرار لفعلوا ولكنهم لا يتفقون . اهـ

سافر الاستاذ الى تونس والجزائر فكان له من الحفاوة والتكريم عند علماء

المسلمين وكبرائهم ما يليق به ، ولم ير من الحكومة الفرنسية شيئاً يسوؤه بل قابله رجالها في القطرين بالاحترام والاحترام ، على ما بثوه حوله من الجواسيس السريين في كل مكان ، وهو لم يكن بجاهل هذا ولا كان يخشى منه لانه كان يعرف مقام نفسه ومكانته التي تضطر الحكومة الفرنسية إلى إجلاله ، ولم يكن له أدنى غرض سياسي من زيارته وراء ارشاد المسلمين إلى حقيقة دينهم والطريقة المثلى لحياته وحياء لفته مع البعد عن السياسة التي قال فيها «مادخلت السياسة عملاً إلا أفسدته» فسيرها مثلاً وقد نال مراده فاجتمع بخيار العلماء والعقلاء الذين يقدرون الاصلاح قدره ومن خيارهم في الجزائر الشيخ محمد بن الخوجه صاحب المصنفات والاستاذ الشيخ عبد الحليم بن سماية . (وقد نشرنا في (ص ٩١٧ من مجلد المنار السادس تقرير الاول منها لتفسير سورة العصر ، وعشرين بيتاً من قصيدة طويلة للثاني في مدح الاستاذ الامام ، وسننشرها مع غيرها في ذيل هذا التاريخ إن شاء الله تعالى) وقد رأى هذين الغاضلين وغيرهما . مختبطين بالمنار ولا سيما دروس العقائد التي ينشرها تحت عنوان (أمالي دينية) وقد عهد اليه هؤلاء الفضلاء أن يوصي صاحب المنار بان لا يذكر في مجلته دولة فرنسية بما يسوؤها ائلاً تمنع المنار من الجزائر ، وقالوا له : إننا نعدك مدد الحياة لنا ، فإذا انقطع انقطعت الحياة عنا . وقد وجد له في تونس والجزائر حزباً دينياً ينتمي اليه من حيث لم يكن يعلم وإنما الصلة بينهم وبينه مجلة المنار ، كما صرح بذلك كاتب في جريدة الطان (١)

وأتى في تونس ذلك الدرس الحافل العظيم الشأن في (العلم والتعليم) وقد نشرناه في المجلد السادس من المنار . كما أتى في الجزائر تفسير سورة العصر - (وتقدم الكلام عليه في ذكر مؤلفاته) وقد طبعنا هذا وذاك في كتيب صغير يوضع في الجيب ولا يزال الناس يستفيدون منه ونزل في تونس ضيفاً بدار خليل أبو حاجب زوج الاميرة نازلي وهو كبير الوزراء اليوم وكان أحرارها ولا سيما الشبان بودون لو نزل في أكبر القماق لتكون حريتهم بالاستفادة منه أوسع . وقد عرض عليها أخذ الاذن له بزيارة سمو الباي ، فقال هل يمكنك أن أخلو به وأتكلم معه بالحرية؟ (١) قلت هذا جريدة الاهرام وذكروا موضوعه في ص ٧٤١ من مجلد المنار الحادي عشر

قيل لا ، بل لابد من حضور أحد حاشيته من الفرنسيين . قال إذاً لا حاجة إلى زيارته
وقد نشرت في صفحة ٦٠٨ من مجلد المنار السادس سيرة الاستاذ في الجزائر
وتونس ونصائح الحكمة للمسلمين فيها وهذا نصه :

نصيحة الاستاذ الامام لاهل الجزائر وتونس

من يعرف الاستاذ الامام يعرف أن كل حديثه في جميع أوقاته نصيح وتعليم،
فبحالسه ومسايره يستفيد علما وحكمة في كل أمر من أمور الدنيا والآخرة، ولذلك
نعتقد أن الذين عرفوه واجتمعوا به في رحلته الأخيرة إلى الجزائر وتونس قد
سمعوا منه نصائح لا تحصى ولكن النصيحة العامة الشاملة التي كان يشقها أهل
العالم والدراية في القطرين هي :

(١) الجد في تحصيل العلوم الدينية والدنيوية من طرقها القريبة التي أرشد
إليها في الخطاب الذي ألقاه في تونس . (٢) الجد في الكسب وعمران البلاد
من الطرق المشروعة الشريفة مع الاقتصاد في المعيشة . (٣) مسألة الحكومة
وترك الاشتغال بالسياسة . وبهذا الأخير يتم لهم كل ما يريدون من مساعدة
الحكومة الفرنسية لهم على ما قبله ، فإن الحكومات في جميع الأرض يضيقون على
البلاد التي يستعمرونها ماداموا يعتقدون أن أهلها ساخطون عليهم أو لهم ضلع
مع حكومة أخرى . وهذا الاعراض عن السياسة لا ينافي مخاطبة الحكومة فيما يرونها
ضاراً بهم من القوانين والمعاملات ، فإذا لم تكشف ظلامتهم بعد الانتحاء إليها في
كشفها كانوا معذورين إذا سخطوا وتربصوا بها الدوائر

والمشهور عند العارفين بالسياسة العامة أن فرنسا تبحث دائماً عن طريقة
يطمئن بها أهل الجزائر لحكومتهم وتطمئن هي لرضاهم عنها ، ولا شك أن هذه
الطريقة تنفع الحاكم والمحكومين وعدم السير فيها يضر بالمحكوم (١) أكثر مما يضر

(١) كلمة المحكوم والمحكومين بمعنى رعية الحاكم الذي تولى الحكم فيهم كلمة
عرفية ، وبصح أن تكون مجازاً من قول العرب : حكم الفرس بمعنى وضع لها حكمه
(بالتحريك) الاجام التي يملك بها امرها ويمنع جماحها

بالحاكم . ونحن نعتقد أن الطريقة الوحيدة هي حسن المعاملة من فرنسا واعراض
الجزائريين والتونسيين عن السياسة إلى العلم الذي ينير العقول ، والعمل الذي
يشغل عن الفضول ، وقد ذكرنا في الجزء الماضي ان الاستاذ الامام انس من
الحكومة الفرنسية هناك الميل إلى هذه المعاملة وأنس من أهالي الجزائر الرجاء
الحسن بما كهم الجديد (موسيوجونار) وقد ذكرنا في جزء سابق ان الموسيو
(روا) يميل في تونس إلى هذا المذهب . حقق الله الرجاء وأصلح الاحوال بمنه وكرمه اه
وسأبين تحقيق القول في مسألة الاشتغال بالسياسة في الكلام على آرائه من المقصد الآتي

(الملامه بصقلية ، وما كتبه عن عاصمتها - بلرم)

أتيج للاستاذ الامام أن يجعل عودته من تونس والجزائر عن طريق ايطالية
فخرج في طريقه على جزيرة صقلية وشاهد ما في عاصمتها (بلرم) من آثار العرب ،
وكتب في ذلك رحلة نشرتها في المنار ثم في الجزء الثاني من هذا التاريخ (منشآت
الاستاذ الامام - من ص ٤٧٣ - ٥٠٤ من الطبعة الثانية) وصف فيها قصر الملك روجار
وكنيسته في بلرم ، والكنيسة الكبرى والاديار وكنيسة مودالي . وبين في هذا
الوصف ما كان من تساهل العرب وتساءل أين هم الآن ؟

وعقد فصلا لمكتبة العمومية ودار المحفوظات وما فيها من آثار العرب . وبين
حاجة السائح إلى معرفة اللغات الاجنبية وان الانكليزية أعم نفعاً في أوربة ووصف
الصقليين ووراثتهم ووساختهم ، وما بينهم وبين الطبقات الفقيرة من المصريين من الشبه
ووصف دور الآثار وبساتين النيات والمقبرة ، وبين بمناسبة ما فيها من الصور
والتماثيل فائدتها وحكمها في الشرع . وختمها بالكلام على أمير وأميرة من خيار
الاسرة العلوية بمصر نزل في الباخرة التي عاد فيها من مسيني (أو مسينا) قاصدين
الاسكندرية ، فأتى على آدابهما الاسلامية

وقلم الاستاذ في هذه الرحلة أدبي فكاهي ، وتمنينا لو كتب مثل هذه الرحلة
عن تونس والجزائر وغيرهما من البلاد ، يمزج فيها الفوائد العلمية ، والحكم الاجتماعية ،
والمبر التاريخي ، بالفكاهات الادبية

الاستاذ الامام - عودته

من أوربة وتونس والجزائر

جاء في ص ٥٦٧ من مجلد المنار السادس ١٦ رجب ١٣٢١ - ١٧ أكتوبر ١٩٠٣
عاد الاستاذ من سياحته في أوربة وتونس والجزائر فتلقاء في محطة القاهرة الجماهير
من العلماء والوجهاء وهي حفاوة داعبتها المحبة والاحلال . ولم تهدأ لغيره في هذه
الديار ، وقد أثنى على حفاوة أهل الجزائر وتونس وحكومتيهما به ، وقال انه
رأى روحاً جديداً في العلماء ، وتوجهاً جديداً من فرنسة للمسلمين ، وانه يرجو
بذلك للبلادين حياة علمية سميكة ، ونهضة إسلامية قريبة ، فيألف الحاكم والمحكوم ،
ويوجه العلم إلى المعلوم ، وسننشر فوائد رحلته فيما بعد

النزاع إلى السمرية بالعودة من هذه الرحلة

لما قدم الاستاذ الامام من سياحته في هذا العام هنأه بالقصائد الطنانة جماهير
العلماء والادباء في الازهر وغيره ونشر بعضها المؤيد واخترت منها المنار يومئذ
ما عللت اختياره بقولي في (ص ٦٠٧ م ٦) « ونذكر هذه الايات للشاب الذي
زاحم في بدايته أهل النهاية ، تنشيطاً له على العناية بالادب ، وهو الشيخ مصطفى نجل
حسن بك (باشا) عبد الرازق : قال

اقبل عليك تحية وسلام	يا ساهرا ، والمسلمون نيام
تطوي البلاد وحيث جئت لأمة	نشرت لفضلك بينهم أعلام
كابد رأني سار يشرق نوره	والحق أني حل فهو إمام
إن يقدروا في القرب علمك قدره	فلمصر أولى منهم والشام
فيك الرجاء لأمة لعبت بما	يلهي الصغار وجدت الايام
لا زلت غيظاً للضلال وأهله	والله يرضى عنك والاسلام

سفره إلى السودان

كانت حكومة السودان تعتمد على الاستاذ الامام في اختيار قضاة الشرع له من علماء مصر ولا سيما رئيسهم (قاضي القضاة) فيختار لها خير رجال الشرع علماً وأخلاقاً وإدارة ومعرفة بحال الزمان كأصحاب الفضيلة الاستاذين الشيخ محمد شاكر والشيخ محمد هارون والشيخ محمد مصطفى المراغي (ومن حسن المصادفة ان هؤلاء الثلاثة الذين تولوا منصب قاضي القضاة في السودان كانوا على أتم المودة والصدقة، ولبعضهم وشيعة رحم مع بعض) والشيخ اسماعيل خليل، وكذلك كان سائر القضاة الشرعيين وبعض أساتذة مدرسة غردون الكلية من مريديه كالشيخ محمد الحضري والشيخ عبد الوهاب النجار وغيرهم من خواص الاساتذة الشرعيين المصريين المتبعين لطريقته في الاصلاح .

ومن المعقول ان هذا الامام الذي كان ينوي ان يزور جميع الاقطار الاسلامية لا يغفل زيارة قطر السودان شقيق مصر الذي يعمل بأرائه الاصلاحية فيه بغير معارضة . وكان من قدر الله تعالى أن توجهت نفسه الى ذلك في شتاء سنة ١٣٢٢ هـ فأخبر برغبته هذه حاكم السودان العام وهو سردار الجيش المصري في أوائل يناير سنة ١٩٠٥ فجاءه الجواب الآتي من وكيل حكومة السودان بمصر في ١١ يناير

فضيلتو افندم مفتي الديار المصرية

نبدي افضيلتكم ان سعادة افندم السردار أظهر ارتياحه التام من رغبتكم لزيارة السودان وعليه فمرسل طيه الاستمارة اللازمة للسفر بموجبها مجاناً من الشلال إلى الخرطوم بوسطه يوم الاحد المقبل الموافق ١٥ الجاري كما قررتم ، وطيه أيضاً الاستمارة اللازمة للعودة من الخرطوم إلى الشلال مجاناً ، واقبلوا وافز الاحترام

مدير المحابرات بمصر

(الامضاء بالانكليزية)

ولما علم كبار رجال حكومة السودان من الانكليز والمصريين بعزم فضيلته على السفر جاءته برقيات الترحيب ودعوة الضيافة من كثير منهم نذكر ما حفظناه منها بالترتيب وهو :

(الاول) من السكرتير القضائي وهذا نصه :

الخرطوم ١٠ - ١ يناير سنة ١٩٠٥

الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية

سرني انكم قادمون للسودان فهل لكم بقبول دعوتي لتكونوا نزيلي مدة
اقامتكم بالخرطوم
سكرتير قضائي

(الثاني) من قاضي القضاة وهذا نصه :

الخرطوم ١٠ - ١ يناير سنة ١٩٠٥ - فضياتلو مفتي الديار المصرية

بغاية السرور تلقينا نبأ تشريفكم نحن ومنازلنا في خدمتكم محمد هارون

(الثالث) من الشيخ اسماعيل خليل والشيخ عبد الوهاب النجار

الخرطوم ١٠ - ١ - سنة ١٩٠٥ - فضيلة المفتي بمصر

عمنا السرور لتشريف مولانا فان تفضل فنحن ومنازلنا له

(الرابع) من جماعة الموظفين المصريين وكان رأيهم ان ينزل بدار خاصة به

لاضيافاً على أحد وهذا نصه :

الخرطوم ١٠ - ١ - سنة ١٩٠٥ - فضيلة المفتي بمصر

سنهيء منزلاً خاصاً بكم وبمعيبتكم فهل تفضلون بالقبول أولادكم

ولما كان جناب السكرتير القضائي قد سبق إلى الدعوة إلى منزله أرسل إليه

الاستاذ الامام برقية بقبول دعوته فأرسل البرقية الآتية إلى سماحته عند وصول

القطار المقل له إلى حلفا وهذا نصه :

من الخرطوم ١٠ - ١ - سنة ١٩٠٥

سماحة مفتي الديار المصرية - بالاكسبريس - حلفا

سرني قبولكم دعوتي. سأستقبلكم بالحلفاية يوم وصولكم صباحاً. سكرتير قضائي

وبعد وصوله إلى الخرطوم جاءت برقيات ومكتوبات من الوجهاء والموظفين

في أم درمان وشندي وغيرهما بالدعوة إلى زيارة بلادهم أذكر منها كتاب سعادة

الوزير باشا العباسي الشهير لمكانة مرسله وطرافة عبارته وهذا نصه :

﴿ كتاب الزبير باشا إلى الاستاذ الامام ﴾

من الزبير رحمت باشا العباسي بالسقاي ، إلى رئيس العلماء الكرام ، وزين
الاکرمين الفخام ، عزيز الاصل ، وشريف الحس والنسل ، جناب حضرة الشيخ
محمد عبده مفتي الديار المصرية والاقاليم السودانية . دام معززاً مكرماً آمين .

بعد تقديم السلام ، المشتغل على الايادي والاقدام ، بغاية كل أدب وخضوع
وزيادة احترام ، مع سؤال القليبي عن صحتكم وعما أنتم فيه وعليه من الامور الخيرية ،
التي نرجو دوامها عليكم بكرة وعشية ، انه هل ما يشاء قدير ، وبالاجابة جدير .
ثم أحيط شريف علمكم وهو انه قد بلغ مسامعي حلول أقدامكم الشريفة ،
بما صمة بلادي السودانية بالخرطوم ، ولما بيني وبينكم من المحبة والمودة الخالصة
والمخلصة ، فلا شك ولا ريب أن تكون الآن أنت ضيفاً لي خاصة دون أشرف
السودان كلها ، وقد كنت قبل قيامكم من المحروسة فرحاً مسروراً بقدمكم
وتشريف بلادي بها مستعداً لتشريفني بمقابلة ذاتكم مع أول كرام الناس
المستعدين لمقابلتكم . ولكن يا أسفاً يا أسفاً قد منعتني ما منع قبل ابرة (ابرهة) الحبشي
عن البيت الحرام عن مشاهدتكم وتشريفني بمقابلتكم ، بسبب ما حدث لي من اللطف
الشديد ، ولغاية تاريخه ملازم الفراش ، أنتظر العفو من الله عز وجل ،

وأرجو من كرمكم المشهور قبول ما تضمنته هذه الرقعة بالنيابة عن شخصي
مع أسفي وعدم مرادي ، كما وان الامور كلها تجري بحسب مقادير الله تعالى ،
وليست تجري على حسب خواطر العباد .

وأهنيكم ونم أهنيكم وأهني اشرف بلادي كلها من علمائها الكرام وأشرف
قبائلها بقدم اقدمكم السعيدة ووصولها بما صمتها بالخرطوم ، وأهني نفسي غاية
ونهاية ملحوقاً بهم ، أعادكم الله تعالى إلى مصر سالمين غانمين ، معززين مكرمين ،
فرحين مسرورين ، من عالمنا جميعاً ، وأهالينا آمين .

كاتبه

وفي الختام اقبلوا فائق الاحترام

الزبير رحمت باشا العباسي بالسقاي

٢٦ يناير سنة ١٩٠٥

﴿ وصف سيرة الاسناذ الامام في زيارته للسودان ﴾

إنني عند ما شرعت في جمع مواد هذا التاريخ كلفت صديقي الاستاذ الفاضل المؤرخ الشيخ عبد الوهاب النجار أن يكتب إلي خلاصة سيرة الاسناذ رحمه الله تعالى منذ وصوله الى الخرطوم الى عودته منها إلى القاهرة لانه شاهد ذلك عيانا فكتب إلي ما يأتي بنصه :

﴿ وصف إقامته في السودان ﴾

قام الامام رحمه الله من مصر متوجهاً إلى السودان في الساعة التاسعة من مساء اليوم الخامس عشر من شهر يناير سنة ١٩٠٥، وفي اليوم الثامن عشر كان في انتظاره بحلفا صاحب الفضيلة القاضي الشرعي ورجال الضبطية فيها وغيرهم، فاستقبلوه استقبالا فائق الوصف، وزار المدرسة واختبر تلامذتها وتفقد نظامها، حتى أتى ميعاد قيام القطار فركبه فوافى الخرطوم البحرية في منتصف ليلة الجمعة الموافق ٢٠ يناير، وكان النظام في تلك الايام يقضي بنوم الركاب في العربات، فلم يزل بعربة الوابور إلى الصباح ما أصبح صبح يوم الجمعة ٢٠ يناير حتى كان الناس يفسلون من كل حذب مسرعين إلى المدينة التي تجيز بين الخرطوم والخرطوم البحرية، وبعضهم كان أعد الزوارق لقطع النهر الأزرق قبل قيام المدينة وكانت الحكومة قد أعدت السفينة البخارية الخاصة بصاحب السعادة الحاكم العام لتذهب بسكرتير قضائي السودان المستر بونهام كارتر، وصاحب السعادة اللواء السير سلاتين باشا المفتش العام بالسودان، وصاحب السباحة قاضي القضاة الشيخ محمدهارون، وأصحاب الفضيلة الشيخ الطيب هاشم مفتي السودان، والشيخ محمد عمر البنا المفتش بالحاكم الشرعية، والسيد علي المرغني عين اعيان السودان، لاستقبال الاسناذ الامام من قبل الحكومة، فوصلوا إلى محطة الخرطوم البحرية الساعة السابعة والنصف وكانت المحطة غاصة بمن سبقهم من الجماهير، فرحبوا بالاستاذ واستقبلوه استقبالا حسنا، وحياهم أحسن تحية، ثم طلبوا إليه أن يوافي الباخرة ليجوز الى الخرطوم، فصار بدراً يحترف به الوقار وتقدمه الهيبة، إلى أن وصل الى الفلك، فاستوى ومن

معه عليه ، وجميعهم منشرح الصدر ، بادي السرور ، جرت بهم السفينة الى المدوة اليسرى للنيل الازرق ، وكان في انتظاره مأمور المدينة الصاغ محمد غالب افندي (بك الآن) وغيره من المصريين المقيمين بالخرطوم وغيرهم ، وحين نزل الاستاذ ومن معه الى البر وأخذ في السير الى المنزل المد لتزوله ، قدم له صاحب المنزل سكرتير قضائي السودان جواداً مطهما بيده ليركبه الى المنزل فشكر له هذه الحفاوة ، وأظهر له الرغبة في السير على قدميه إلى المنزل

وحين وصل الاستاذ الى باب المنزل وقف للتسليم على الجوع المحيطة به وشكرهم ، وأراد قاضي القضاة الانصراف معهم فأخذ المستر (بونهام كارتر) السكرتير القضائي بيده وأدخله مع الاستاذ الى المنزل ، وقال له أنت تعلم مايلزم للاستاذ من المعدات والادوات والامكنة ، فأرجوك الاطلاع على مارتبة له ، وطلب ما تزيده عليه . فوجده قدهياً له مكاناً خاصاً به للنوم وآخر للوضوء والغتسال ، وثالثاً لتناول طعام الافطار . كل ذلك في الدور الأعلى ، وقاعة فسيحة في الدور الاسفل لاستقبال من يريد استقباله من الناس ، وكل ذلك تام الاثاث والرياش واحتراماً لمقام الاستاذ ولعلمه بما هو عليه من التقوى كان يتركه يتناول طعام الافطار وحده ، وكان المضيف لا يحضر خمراً ولا آتيتها على مائدة يأكل عليها الاستاذ . وهذا كان دأبه ودأب جميع من دعوه من الانكليز وغيرهم لتناول الطعام . مثل صاحب السعادة الحاكم العام واللواء سلاطين باشا ، والميرالاي منسي بك السكرتير الملكي والميرالاي استانتون بك (باشا) مدير الخرطوم ، والقائمقام إمري مساعد المفتش العام .

وكان الحاكم العام مسافراً قبل مجيء الاستاذ . ولما علمت اللادي ونجت بقدم الاستاذ الامام طلبت إليه أن يحضر في المساء إلى مرأى الحاكم العام ليتناول معها الشاي . فأقام بمنزل قاضي القضاة عقب خروجه من صلاة الجمعة بالمسجد الجامع والناس ترد من كل أوب للسلام عليه والاستفادة من محادثته والاصغاء الى كلماته التي هي درر الحكم تنشط عنها اصدافها امامهم ، الى أن حل ميعاد ذهابه الى سراي الحاكم العام .

كان صاحب السعادة اللواء سلاطين باشا عرض على الاستاذ الامام ساعة استقباله وهو على ظهر الباخرة انه يرافقه في اليوم التالي إلى أم درمان (١) يشاهد آثار المهدي كعبة المهدي ويدت الخليفة وبيوت اخوته وأسرتهم ويدت الامانة ومسجد الخليفة وغير ذلك ، فتقبل الاستاذ منه ذلك بالشكر والامتنان

وذهب طيب الله ثراه إلى أم درمان صباح يوم السبت ٢١ يناير سنة ١٩٠٥ يرافقه سعادة اللواء سلاطين باشا وقاضي اقضاة ، وكان في انتظارهم صاحب الفضيلة مفتي السودان ، والشيخ محمد البدوي من العلماء . وبعد ما شاهد تلك الامكنة زار محكمة أم درمان الشرعية فسر بما رأى ، وقصد مدرسة أم درمان واختبر التلاميذ ورأى من التقدم وحسن النظام والتعليم ما لم يكن ليظنه في بلاد السودان . ثم عاد إلى الخرطوم

زيارته للمدرسة الكلية واختباره لطلبتها

وفي يوم الاحد زار مدرسة غوردن الكلية ومعه صاحب السباحة قاضي اقضاة وصاحب الفضيلة قاضي المديرية الشرعي وكان يختبر طلبة قسم المعلمين والاقضاة اختبار مدقق في كل علم من العلوم التي يتلقونها ، فرأى من ذكائهم وكثرة ما حصلوه من العلوم على حداثة عهد المدرسة وقلة ما يكون قد حذقه الطلبة من المعلومات حين دخولهم فيها ما أنعش أمه فيها ، فان الطالب الذي يتم دراستها وإن لم يكن كالذي يتم الدراسة بقسم المعلمين الناصرية إلا أن الاول يدخل حالياً من المعلومات في حين أن الثاني يدخل حافظاً للقرآن والالفية ويؤدي امتحاناً في عدة علوم لا يمكن أن يضارعه السوداني في الحصول عليها ولو أبقى أكثر أيام عمره ، ولو دخل السوداني المدرسة حاصلاً على درجة المصري في قسم المعلمين لسبق المصري عند انتهاء الطلب

وفي يوم الاثنين عاد إلى الكلية وأتم اختبار تلامذة القسم الابتدائي وشاهد الورشة التابعة للكلية التي يتعلم فيها أبناء الاهالي الصناعات المختلفة كالنجارة

(١) كانت صفة العرض هل يحب الاستاذ المفتي ان يأخذني مترجماً له بام درمان لا طعمه على آثار الخليفة والدرابيش ؟

والحدادة والبرادة ، وصب المعادن والنقش وغير ذلك ، وبعد التفتيش طلب أنموذج التعليم بقسم القضاة وصرح بأنه يريد أن يهذبه حتى يكون بحال تناسب الطلبة الذين كان يرجو ادخالهم في مدرسة القضاء الشرعي بمصر . وبالجمله فقد سر بمعارف السودان سرور الاب المشفق بابنه النجيب ، وأثنى على ناظر المدرسة وودرسها بمأهم أهله أطيب اثناء .

ومما يذكر بمناسبة زيارة مولانا الاستاذ رحمه الله أن المستر كرى مدير معارف السودان قال عقب زيارة الاستاذ الامام السككية : إن كثيراً من موظفي المعارف في مصر وغيرهم ممن زاروا المدرسة قد أثنوا عليها ، وقد أثنى عليها فضيلة المفتي فأنا الآن مقتنع بأنها كما وصفها سائرة في طريق نجاح باهر .

(زيارته لدواوين الحكومة وتفتيشه لمحكمة عموم السودان ومحكمة الخرطوم الشرعيتين)

وقد زار الاستاذ في الايام التالية لزيارة كلية غردون ودواوين الحكومة وأفرد كلا من محكمة عموم السودان الشرعية ومحكمة مديرية الخرطوم الشرعية بيوم فتش فيه أعمالها وسير القضايا فيها ، وراجع كثيراً من الاحكام التي نظرت فيها محكمة العموم بصفة استثنائية أو بصفة تمييز ، وقد سر من جميع ما رآه في المحكمتين سرور القارس بياكورة جنى غرسه

اقبال الجماهير لزيارته والاستفادة منه

وقد كان قاضي قضاة السودان وقاضي الخرطوم يخلوان بالاستاذ في عدة أوقات وكل منهما يطرح بين يديه ما يراه من المشاكل في الاحكام والاجراءات والامور التي تجلب على الناس المشاق اذا جرى فيها الحكم على مذهب الحنفية فيشير إلى كل منهما بجل ما أشكل عليه ، ويبين مأخذ ما أشار به من مذهب مالك أو غيره من الائمة جزاهم الله وجزاه عن الاسلام والمسلمين أفضل جزاء .

وقد كان الناس من مصريين وغيرهم يتقاطرون على الاستاذ رحمه الله من كل صوب أينما كان في الاوقات التي كان يفرغ فيها عادة من التفتيش أو من زيارة معاهد العلوم ، وكانت أوقات الاجتماع عامرة بمذكراته لهم في الدين وتهذيب

النفس وتكميلها بالاخلاق الكريمة ، وشحنهم بالهمم وحشها على فعل الخير بما عهد منه من الاساليب التي تأخذ بالالباب ، وتستتوي الافئدة ، وقد كان المسلمون والمسيحيون في ملازمته والاستفادة من حكمه سواء

وبمناسبة ذكر المسيحيين نذكر أن المسيحيين الذين بالخرطوم أوفدوا وفداً من خيرتهم ينوب عنهم بالسلام على الاستاذ الامام والترحيب به ، فأحسن وقادتهم وشكر ما أبدوه من الحفاوة به ، حتى خرجوا وأسلمتهم لاهجة بالشاء عليه حرم إلى الآن يذكرون له حسن اللقاء ، ولين الجانب ولطف المعاشرة ، ولم يكونوا بأقل من المسلمين حزناً عليه حين نعيه طيب الله ثراه

(حادثه جرت أثناء وجوده بالخرطوم)

(بشأن زيارته لنادي الموظفين المصريين)

وذلك أن المستخدمين المصريين (مسلمين ومسيحيين) افتتحوا نادياً سموه (نادي المستخدمين المصريين) ليكون مجتمعاً لهم يستقنون به عن قهاوى الاروام ، ولما حضر الاستاذ الامام دعاه جماعة من أهل النادي أن يزور ناديتهم ويشرب الشاي معهم ، فوعدهم ، فأمر اليه أحد الصادقين في محبته أن هذا النادي يحتمس ببعض أهله الخرفيه ، فحاول الامام أن يصرف أهل النادي عن التشديد في الكون معهم في ناديتهم بالتي هي أحسن ، فزاد تمسكهم به ، ورأوا في انصراف الاستاذ عن طلبهم كسراً لخطرتهم ، وأحسوا بمن أطلع الاستاذ على ما كان سبباً في رغبته عن إجابة طلبهم ، فمدوا اليه ألسنتهم بالسوء ، وأخذت روس الشقاق تبدو من مكانها ، فذهب إلى الاستاذ واحد من المخلصين له ^(١) وأخبره أن أهل النادي قد اشتد غيظهم على من كان سبباً في تخلف الاستاذ عن ناديتهم ^(٢) وأن عاقبة ذلك شقاق وعداوة لا تحمد مغبتها ، ورجاه في أن يتلافى الأمر بلطيف حكمته ، فما كان جواب الاستاذ إلا أن أخذ يسأله عن شؤونه في عمله الذي يقوم به في السودان وعن مقدار النجاح فيه وأحواله مع الرؤساء ، ولم يجبه عما هو بصدده بسلب ولا إيجاب

(١) عبدالوهاب النجار (٢) الرحوم الشيخ محمد هارون قاضي قضاء السودان

وعند غروب شمس ذلك اليوم (الاربعاء ٢٥) يناير أشرقت طلعة الاستاذ في نادي المصريين وكان مزيناً بالاعلام وسعف النخل والازهار، وجلس الاستاذ في قاعة أعدت له ولجماعة من المصريين وأخذ أهل النادي مجالسهم في قاعات أخرى وبعد تناول الشاي قام حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ محمد الحضري وقل خطبة وجيزة هي آية من آيات البلاغة شكر للاستاذ فيها تشريفه للنادي وجبره لخطار أهله، ثم تلاه حضرة الفاضل الشيخ عبد الرؤف سلام المدرس بالكلية وتلا قصيدة غراء في مدحه وتبعهما غيرها

ثم قام الاستاذ الامام فائتي على جميعهم لما لقيه من الحفاوة به وخطب فيهم خطبة بليغة حيد فيها قيامهم بانشاء هذا النادي إذ كان لاجتماعهم فائدة من وجوه وأخذ يعدد فوائد الاجتماع في الاندية عند الامم الراقية، ثم صرح بأنه وصل الى علمه ان بعض اهل النادي يشربون الخمر، وطفق يشرح مضار الخمر وكيف ان العقلاء من أهل أوربا اخذوا يحرمونها على أنفسهم، وان لم يحرمها عليهم كتبهم، وان الضرر منها في السودان وهو قطر حار أشد منه في غيره - وانه لا وجه لمن يحتج لوجود الخمر في النادي بأنه يجمع المسلم والمسيحي وثانيهما يبيعها دينه، فانه لا فائدة في الاجتماع اذا لم ينزل أحد من أهله عن بعض مشتمياته ابتغاء مرضاة أخيه - ثم قال على انه بلغني ان المسيحيين من اهل النادي يتحاشون المجيء فيه لما يألون له من سكر بعض اخوانهم المسلمين. ثم ختم كلامه بالدعاء لهم بالخير وطلب اليهم أن يحققوا أمله فيهم بأن لا توجد الخمر في ناديهم - فعاهدوا الله جميعاً على أن لا تدخل ناديهم خمر، وانهم لا يدخلون النادي اذا استمر وجود الخمر فيه وانفض الجمع على ذلك.

ولكنهم لم يوفوا بالعهد إلا بمدة اقامة الاستاذ بالسودان ثم عادوا لما نهوا عنه، تولى الله بلطفه هدام

(ضيافة الضباط له في ميسهم وحفاوتهم به في ناديه)

وفي مساء يوم الخميس ٢٦ يناير كان الاستاذ رحمه الله مدعواً لتناول العشاء بميس (١) الاورطة السابعة هو وجماعة من خاصة تلاميذه وأحبابه ، فوافى ثكنة الاورطة بعد غروب الشمس وكانت مزدانة بالاعلام وموسيقى الاورطة تصدح بانغامها المطربة طول بقائه ، وكان في انتظاره صاحب العزة قومندانها مرسي بك فهمى والعدد الكثير من الضباط الكبار والضباط الصغار في الاورطة .

وبعد تناول العشاء قام هذا الجمع المحشد في ثكنة الاورطة والشيخ في وسطهم ممتط جواداً مطهما (٢) وكانوا كلهم ركبانا ماعدا الجنود الذين كانوا يسيرون امام هذا الموكب الحافل حاملين الاضواء حيث كان الوقت السابعة والنصف مساءً وعزم جميعهم نادي الضباط المصريين (٣) وكانوا قد أعدوا حفلة عظيمة إكراماً لمولانا الاستاذ احتشد فيها جميع الضباط الموجودين بقسم الخرطوم بين ضباط كرام ، وضباط عظام ، وضباط صغار وهم بملابسهم العسكرية جميعاً ، وقد رجوا صاحب العطوفة حسين فخرى باشا ناظر المعارف والاشغال المصرية أن يشرف النادي في تلك الليلة لمصادفة وجوده بالخرطوم ، وبعد تشريف الامام النادي جاء صاحب العطوفة فخرى باشا وجلس مع الاستاذ بمحادثته في أمور السودان وما رآه من تقدم المدارس والعمران في هذه المدة اليسيرة

ثم دعي الاستاذ الامام وفخرى باشا وجماعة من خاصة الاستاذ والضباط الكرام والعظام لتناول الشاي في قاعة فسيحة على مائدة أعدت لذلك ، وبعد تناول

(١) ليس كلمة انجليزية يعبر بها عن اشراك جماعة في العيشة بآكلون ويشربون جميعاً
ولكل أورطة في الجيش المصري ميس ينتظم الضباط الذين لا يصطحبون أزواجهم
(٢) لم يركب رحمه الله من المطايا في السودان سوى الجياد الكريمة

(٣) هذا النادي بناه نخم من أبنية الحكومة على الضفة اليسرى لنيل الازرق قائم في وسط حديقة جميلة ، قد افتتح تحت رعاية الجناب العالي الحديو حين زار الخرطوم سنة ١٩٠٢ ومن الاصول المقررة أن يكون رئيسه أقدم ضابط بقسم الخرطوم

الشأى هم صاحب العطوفة فخرى باشا بالانصراف وانطلق البكباشى محمود افندى (باشا) عزيمى اركان حرب الحملة المائية بخطبة وجيزة افتتحها بالترحيب بالاستاذ الامام وفخرى باشا وشكرهما على تلبية دعوة الضباط المصريين وتشريفهما ناديهما وختمها بالدعوات لمولانا الخديوي المعظم والحاكم العام . فرد عليه صاحب العطوفة الناظر بخطبة هي غاية في اليجاز بعبارة سهلة بطريقة شكر فيها الضباط المصريين على الحفاوة به وتعنى أن يدوم ارتقاء السودان بحسن اجتهادهم ، والتفات الحاكم العام السير رجنالد ونجت باشا ، فصفق له الحاضرون وانصرف من النادي يشبعه أحد الضباط العظام

وأراد الاستاذ الامام أن يتلو فخرى بالانصراف فاستوقفه الجمع ورجوه أن يروي غلتهم بكلمات يسمعونها منه ، فأتى على هؤلاء الضباط بما هم أهلون العاني التي فاه بها في ذلك المقام مأرويه لك بالمعنى وهو :

خطابه للضباط ونصحه لهم

كنا نسمع عنكم في وقت الحرب ما جعلنا نسميكم شياطين الحرب ، وقد شاهدت الآن من أعمالكم الجليلة وآثار العمران التي تمت بأيديكم في السودان ما يسوغ لي أن أسميكم ملائكة السلام ، لا يشك مطلع على هذا الرقي الذي أراه في السودان في أن العامل منكم يقوم من العمل في السودان بما لا يقوم به أربعة

في مصر ، ولو قيل لي هذا الكلام وأنا في مصر ما صدقت ، لقد قمت أيها الضباط بالأعمال التي عهدت اليكم في السودان أحسن قيام ، وإن مشاهدته من آثار المدنية التي تمت بأيديكم ليجمعني مع شدة ميلتي إلى النظام والدستور أتمنى أن تكون الحكومة المصرية حكومة عسكرية لينالها من التقدم على أيديكم ما ناله السودان ثم حشهم على الاجتماع والائتلاف ، وأنه يود أن يكون هذا النادي ناديا للضباط حقيقة يجتمعون فيه لاسترشاد بعضهم ببعض في المشكلات واستفادة بعضهم من تجارب الآخرين ، وأن لا يكون نصيبه الهجران وقعودهم على قهاوي الاروام وختم كلامه بالدعاء لهم وتوفيقهم للسداد ، وكانوا يصفقون له عند انتهاء الجمل تصفيقا طويلا متمكنا

ثم انتقل هذا الجمع إلى البهو الكبير وجلس الاستاذ بحادثهم إلى منتصف الليل ، كل هذا والموسيقى تصدح بالانغام اللطيفة إلى أن خرج هذا الحفل ، وأما النادي وحديقته فكانا مزدانين بزينة أبهى وأسنى من زينة حديقة الازبكية في ليالي الحفلات

صلاة الجمعة في أم درمان

صلى الاستاذ صلاة الجمعة ٢٧ يناير سنة ١٩٠٥ في المسجد الجامع بام درمان ومعه قاضي القضاة وقاضي المديرية ومفتي السودان ، وعدد من مدرسي الكلية وغيرهم ، وقد بادركل من بالمسجد عقب الصلاة لتقبيل يد الاستاذ وأبدي من معه إكراماً له وكان الزحام شديداً حتى لقد آذى الزحام على التقبيل أيدي بعض من يرافقه

وفي عصر ذلك اليوم ركب الاستاذ ومن كانوا يرافقونه باخرة من بواخر الحملة المائية كان استأجرها حضرة نسيب افندي فليدس باشا كاتب مكتب سكرتير قضائي السودان وأبقاها تحت تصرف الاستاذ ذلك اليوم ، فسارت بهم البخرة إلى قرب كرري موضع الواقعة الفاصلة بين الجيش المصري والدرراويز ثم وصلت بهم إلى أم درمان ليلاً قبل العشاء

رأى الاستاذ في ذلك اليوم مسجد أم درمان بحالة حملته على أن يتبرع بمبلغ عشرة جنيهات لتكون أساساً لعمل اكتاب لجمع مقدار من المال يبنى به ذلك المسجد أو يصلح جزء من مسجد الخليفة ، وأعطى ذلك المبلغ لصاحب السماحة قاضي قضاة السودان ، نسأل الله أن يبعث الهم لتعميم الاكتاب وتحقيق ما كان يقصده الامام

وعلى ذكر مسجد أم درمان جردنا تداعي المعاني الى انه رحمه الله قد وعد أن يسمى لدى ديوان الاوقاف بمصر ليقرر مبلغاً لا يقل عن أربع مائة جنيه لإعادة بناء جامع الخرطوم القديم الذي خربه الدراويز وتركوا جدره مهتمة ، فهل من مسلم يقوم عنه هذا المقام المحمود ، ويجوز الاجر من الله واشاء من الناس (انما يعمر

مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فمسي أولئك أن يكونوا من المهتدين)

وزار الاستاذ الامام رحمه الله مدرسة البنات التي تديرها الراهبات ويشرف عليها قس يسمى القس جون وهو الذي دعاه لزيارتها واحتفل بمقدمه أيما احتفال. وبعد خروجه من المدرسة سأل عن مدرسة للبنات المسلمات فقيل له انه لا ملجأ لمن ولا مناص من التعليم في هذه المدرسة فعقد النية على أن يسمى بأي وسيلة يجدها لانشاء مدرسة اسلامية لتعليم البنات المسلمات في الخرطوم واكن عاجله المنون قبل أن يحقق تلك الآمال

اغتيال البلاد بأيام اقامته فيها واستفادتها منه

كانت أيام إقامة الاستاذ بالخرطوم عند أهلها وأهل أم درمان أعياداً ومواسم وكانت البيوت التي يكون فيها كأنها الكعبة لا تخلو من طائف ، والعلماء والادباء يوافونه من كل فج وناحية ، هذا سائل وذاك مسترشد والآخر مستبصر في كتاب الله أو سنة نبيه أو عقيدة من العقائد أو علم من العلوم

وربما حمل اليه الرجل عدة أسفار يعرض عليه ما أشكل عليه فهمه منها فكان يحيط الاشام عن كل معضلة ، ويدلل صعاب المشكلات بفكرته الوقادة ، وكان يحث الناس على فعل الخير مع أهله وغير أهله ، وجرت لذلك مناقشات طويلة في غير مجلس بينه وبين محبيه وأصدقائه من أفاضل الادباء وقد أربى في رأيه هذا على أبي العلاء في قوله :

كن صاحب الخير تنويه وتفعله مع الانام على أن لا يدينوكا
وكان يقول : يجب على الانسان أن يفعل الخير على انه خير على كل حال سواء صنع مع أهله أو غير أهله * لا يذهب العرف بين الله والناس *

وبالجملة فقد كان في السودان مثال الخير وموضع عناية العامة والخاصة. وقد كان صاحب السعادة الحاكم العام يعني به عناية العارف بقدره، والذي بقدر مساعدته للبلاد السودانية قدرها ، وكان يسأله عن ملاحظته على البكلية والحاكم الشرعية

فاذا أخبره بشيء قيده في مذكرته ليجري الامر على مقتضاه في الوقت المناسب من ذلك أن قانون الحكومة السودانية يقضي أن انتقال الموظف الذي راتبه أقل من خمسة وعشرين جنبها في الشهر يكون بالدرجة الثانية لا يستثنى غير قاضي القضاة والمفتي والمفتش ، فشكا ذلك إلى الاستاذ الامام قاضي مديرية الخرطوم ، فعرض الاستاذ الامر على الحاكم العام وطلابه إليه أن يكون نزول قضاة المديريات بالدرجة الاولى أسوة بقضاة مصر الشرعيين ، فتقبل طلبه بقبول حسن ، ووعد بأن يتم ذلك عند عودته من سفره الى كسلا فمصر وقد تم ذلك في أواخر شهر مايو سنة ١٩٠٥ ولما جاء يوم الثلاثاء ٣١ يناير سنة ١٩٠٥ وهو موعد عودته إلى مصر دعي ل تناول الطعام ظهر أجمع الحاكم العام ومعه قاضي القضاة ومفتي السودان ، وقد أعدت الباخرة لتجيزه ومن معه الى الخرطوم البحرية ، وكان يرافقه قاضي القضاة والمفتي والمفتش وقاضي المديرية وكل من كانت عنده فرصة لوداعه من مدرسي الكلية كاستيخ محمد الخضري وكاتب هذه السطور (عبد الوهاب النجار) وكثير من علماء السودان واهل الوجاهة ، وسافر القطار من الخرطوم البحرية وفيه الاستاذ مشيعاً بالدعوات تحف به القلوب ميمماً مصر وهو ممثلياً فرحاً وسروراً بما شاهد من نماء غرسه رحمه الله رحمة واسعة وجازاه أفضل ما جازى عاملاً مخلصاً لدينه ووطنه .

﴿ استدراك على الكاتب ﴾

فات أخانا الاستاذ الكاتب أن يذكر دعوة أكبر اشراف السودان وأشهرهم للاستاذ الامام وهو السيد علي المرغني لنملم صفتها وفائدتها ، وهذا نص كتاب الدعوة :

الخرطوم في ٢٤ يناير

سماحة الاستاذ الامام

غيب اذكي السلام والاحترام ، أسعد الباري أوقاتكم بالسران ، نرجو التشريف بمنزلنا يوم الخميس في الساعة ٧ ونصف لتناول العشاء

وتقبلوا مزيد الامنية والاحترام

علي مرغني

المقصد السادس

من الفصل السابع

آراؤه وآماله وأمانيه

آراء الناس قد تختلف باختلاف الأحوال والأزمنة والامكنة والأشخاص الذين يلقي اليهم الرأي أو يناط بهم العمل، فرب رأي ينفع امرءاً أو يضر آخر لا يختلف الفهم أو الميل أو الاستعداد للعمل، ومن كلام علي كرم الله وجهه: عند البخاري حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله. ومن كلام ابن مسعود (رض) في مقدمة صحيح مسلم: ما أنت بمحدث قوما حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة.

وقد نقلت فيما سبق عن الأستاذ الإمام أنه كان من طبعه في حديثه ودروسه العلمية والدينية أن يتكلم بقدر ما يشعر به من استعداد السامع، بخلاف السيد جمال الدين، فإنه كان يلقي الحكمة والآراء السياسية لكل أحد ويؤثر في نفسه، ولذلك اختلف الناقلون لبعض آرائه بين النفي والإثبات، وكان المسيح عليه السلام يكثر من ضرب الأمثال، وقال أنه لا يستطيع أن يقول لقومه كل شيء، وأنه سيأتي بعده الذي يبين لهم كل شيء، وهو البارقياطروح الحق (عليه الصلاة والسلام) وقد سمعت في أثناء صحبتي الطويلة القصيرة لاستاذنا قدس الله روحه آراء كثيرة في جميع ما كان يدور بيننا من الموضوعات، وعلمت منه أنه لا يفضي بكل ما في نفسه بدون احتراز إلا لبعض الأفراد، ولكن كان يقول لي في بعض آرائه هذا لا يكتب أو لا يقل لكل أحد. (وأول مرة ذكر لي هذا عند بيان رأيه في الشيعة وكان ذلك سنة ١٣١٥ قبل صدور المنار)

كتمت بعض آرائه وكتبت بعضها، وحدثت ببعض ما كتمت من علمت أنهم ينتفعون به. ومن آرائه ما نقل عنه في حياته أو بعد وفاته صحيحاً، وما نقل محرفاً تحريفاً، ومنها ما اختلف الناقلون له في فهمه أو تأويله بالتبع لاختلاف مشاربهم أو نياتهم. وإني أنبه قارىء هذا التاريخ لسألة مهمة وهي أن بعض آرائه الدينية والسياسية

والاجتماعية مبنية على مذهبه في الاصلاح ، فلا يفهم مراده منها حق الفهم بالإمن عرف مذهبه هذا حق المعرفة ، وقد ذكرنا مذهبه هذا فيما نقلناه من كلامه في أول ترجمته لنفسه (ص ١٢٩١) وسنبينه بالتفصيل في المقصد الثامن من هذا الفصل ، ورأيه المشهور في السياسة مبني عليه ، وقد تقدم نقله عنه في مواضع آخرها نصيحته لمسلمي تونس والجزائر من هذا الفصل ، وهو يجمل يحتاج إلى البيان فأبدأ ببيان اجماله وكونه فرعاً من فروع مذهبه في الاصلاح

رأيه في السياسة

من حكمه الماثورة التي سيرها ملاقوله «مادخلت السياسة في شيء إلا أفسدته» ومن أقواله المشهورة فيها «فإن شئت أن تقول أن السياسة تضطهد الفكر أو العلم أو الدين ، فانا معك من الشاهدين ، أعوذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ، ومن معنى السياسة ، ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة ، ومن كل خيال يخطر ببالي من السياسة ، ومن كل ارض تذكر فيها السياسة ، ومن كل شخص يتكلم أو يتعلم أو يحن أو يعقل في السياسة ، ومن ساس ويسوس ، وسانس ومسوس» (اهـ من كتاب الاسلام والنصرانية ص ١١١ من الطبعة الرابعة)

وغرضه من ذم السياسة ومن نهى العاملين من المسلمين لاجياء العلم والدين عنها ، وارشادهم أن يكونوا في عملهم بمعزل عن تأييدها او مقاومتها ، هو أن السياسة في جميع بلاد المسلمين استبدادية جائرة ، سواء أكان حكمها وساستها من أهلها ، ام من الاجانب المتغلبين عليها ، فتأييد سياستهم بالعلم والدين افساد لهما ، ومقاومتها بهما عرضة لمنع اقامتهما ، والتنكيل باهلها ، فالطريقة المثلى اجتنابها ، ومداراة أهلها ، واقناعهم بكل وسائل الاقناع الممكنة بأن الاصلاح العلمي او الديني المطلوب هو خير لبلادهم ورعاياهم ، ونافع لهم او غير ضار بهم ، وحسب العامل المصلح تمكنه من العمل ، فان استطاع بهذه المسألة والحاسنة أن يجد مساعدة من الحكام بشرط ترك الحرية له في العمل فذلك أفضل وأكمل ، كما فعل السيد احمد خان ثم الشيخ شبلي النعماني في الهند ، والاستاذ الامام بمدارة الانكليز في مصر ، ومن وسائله التي اتخذها لذلك عقب رجوعه من منفاه ، لائحة

نظام التربية بمصر التي قدمها إلى السر افلن بارنج (لورد كرومر) وهي ما نشرناه في الجزء الثاني (المنشآت - ص ٥٣٣ طبعة ثانية) فكان تأثيرها عنده سلبيا لا ايجابيا وكان مراد الاستاذ منها التوصل ليكون معلما في مدرسة دارالعلوم لاعتقاده أن تلاميذها أرجى لقبول الاصلاح من مجاوري الازهر، وقد طلب ذلك فعارض الخديو توفيق باشا فيه، ولم يساعده الانكليز عليه. وكان طلب من الدولة العثمانية أن تقوم بهذا الاصلاح في بلادها وبسط الحاجة اليه في لائحة وقعا هو وبعض وجهاء بيروت إذ كان مقما فيها وأرسلها إلى شيخ الاسلام في ٢٦ جمادى الآخرة سنة ١٣٠٤ (راجع ٥٠٥ - ٥٢٢ من المنشآت ج ٢) ومن ذا الذي يقرأ اللوائح او يفهم ما يقرأ، او يبالي أن يعمل بما يفهم؟

يقول معجبو السياسة او المشتغلون بها ان هذه المسألة للسياسة والداراة لرجاها اقرار ضمني للاستبداد ومساعدة سلبية عليه، ويقال لهم ان هذا لا يمنع غيره هؤلاء المشغولين عن السياسة بعمل آخر نافع للامة أن يعملوا هم لها من طريق السياسة، فتقسيم الاعمال الكبيرة وتوزيعها شرط من شروط اتقانها والنجاح فيها. واما الاستاذ الامام فانه كان يرى ان استبداد السياسة لا علاج له إلا وحدة لامة وجمع كتابتها، واز الطريق المستقيم الموصل إلى هذه الغاية هو تربيتها وتعليمها على الوجه الذي يراه هو وسنشره في بيان مذهبه في الاصلاح قريبا، ولولا هذه الداراة لما أمكن له أن يعيش في مصر، فاذا لم يخرج الانكليز منها لامة حرية لورد كرومر فلا شك في ان الخديو كان يخرج ويخرجني منها كما أخرج أبوه السيد جمال الدين، وقد تقدم ما يثبت هذا - وحسبك انه قاومه في كل اصلاح حاوله، ولم يقاومه الا جانب في شيء، وهم لا يجهدون ان نجاحه فيما يحاولون من الاصلاح وبال على نفوذهم في مصر بل في العالم الاسلامي كله

وانني أذكر هنا ما كتبه محمد حافظ بك ابراهيم في كتابه الادبي (سطيح) من رأي الاستاذ وتلاميذه ومريديه في السياسة، واقفي عليه باول ما سمعته من في ذلك، ونقل الاول عن (ص ٨٤٥ من محلد المنار العاشر) والثاني من مذكراتي التي لم ينشر منها إلا القليل. وهذا نص الاول:

﴿ كلمة شاعر مصر الاجتماعي محمد حافظ ابراهيم في سياسته ﴾

(بين سطيج وأحد تلاميذ الاستاذ الامام)

سطيج - أين أنت من القوم ؟

التلميذ - من أولئك الذين نعموا الرضى على المهدين ، ولم يحمدوا مغبة الحكّامين ، عهد الدولة التركية ، وعهد الدولة البريطانية ، ففي أولهما قاضت المظالم وغاضت الاموال ، وفي ثانيهما أخضبت الارض ، وأجذبت الرجال -

سطيج - وهل أنت في خفص من العيش ؟ - التلميذ - لا أشكو بحمد الله عسراً ، ولا أرجو يسراً ، وانما أتفياً ظل هذا البيت العربي ، لذلك الشاعر الأبي ، مذبذب الرزق لا فقر ولا جدة - حظ امرك لم يحقق ولم يكس

قال - وأين مكالك من العلم ، وأين منك منزلة الحلم ؟ قل حسبي اني من تلاميذ حكيم لاسلام ، الاستاذ الامام ، طيب الله ثراه ، وجعل النعيم مثواه

قال - اني لأرى رأياً حصيفاً ، وأسمم قولاً شريفاً ، فن أي تلاميذه تكون وقد سمعنا انهم فريقان - فريق قد اختصه بسياسته ، وفريق قد اختصه بعلمه ، وقد أثنى عليهم العميد ، وتنبأ لها بالطاع السعيد ؟ قل - لا علم لي بما تقول . وقد كنت ألقى الناس بالامام ، أغشى داره ، وأرد أنهاره ، وأنبط نماره ، فما سمعته يخوض في ذكر السياسة قبجها الله ، ولكن كان يملأ علينا المجلس سحراً من آياته ، ويقتل بنا بين مناطق الافهام ، ومنازل الاحلام ، ويسمو بأنفسنا الى مراتب العارفين بأسرار الخلائق ، وحكم الخالق ، وكان ربما ساق الحديث الى ذكر أحوال هذا المجتمع البشري فأقض في شؤون الاجتماع وحاج العمران ، ووقف بنا على أسرار الحياة ، فان كانوا يسمون تلاميذه احزاباً ، ويقسمون تعاليمه أبواباً ،

فتلاميذه حزب العلم والعرفان ، وتعاليمه سياسة التقدم والعمران

ولكنه كان يحثك بالسياسة مادعت الى ذلك الحال فيرصد حركاتها ، ويصد غاراتها ، خشية أن تقطع على العلم سبيله ، وأن تقف عثرة في طريق الفضيلة ، فلكم تلطف في ابتزاز قواها ، وتحامى جهده طريق أذاها ، حتى اذا ظفر بطليته ، وفاز

برغبته ، واستمد منها ما شاء ، تحت حماية الافتاء ، عطف على العلم بذلك الامداد ، ورد عليه ما سلبت يد الاستبداد ، ولولا أنه كان يمادم جبل الوداد ، ويجاذبهم فضل النصيح والارشاد ، لأصابه ما أصاب حكيم الافغان ، وقضي على أمة النيل بالحرمان قضي النبي عليه الصلاة والسلام فارتدت طائفة من جفاة العرب وكادوا يفتنون الناس لولا حكمة الصديق وعزيمة الفاروق ، فما غضت الردة من شرف النبوة ، ولا نالت من عصمة الرسالة ، ولبت الاسلام اسلاما - ومات الاستاذ الامام فصباً بعض حزبه كما يدعون ، واستغفر الله لهم مما يقولون ، فما غض ذلك من كرامة حكيم الاسلام ، ولا مس من سيرة ذلك الامام . حافظ ابراهيم

أول ما سمعته منه في السياسة

أول كلام سمعته منه في هذه المسألة كان في زيارتي الاولى له في ضحى يوم الاحد ٢٤ رجب سنة ١٣١٥ وقد وصلت إلى القاهرة في مساء اليوم الذي قبله ، وقد تكلم معي في عشر مسائل : ستة منها خاصة باصلاح الازهر ، وقد ذكرتها في 'ول النقصد الثاني من الفصل السادس (٤٤٥)

وكانت السابعة والثامنة منها قوله (٧) اني أعجب لجعل نبهاء المسلمين وجرائدكم كل همهم في السياسة ، وإهمالهم أمر التربية الذي هو كل شيء ، وعليه يبنى كل شيء . (٨) ان السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار عجيب لو صرفه ووجهه للتعليم والتربية لأفاد الاسلام أكبر فائدة . وقد عرضت عليه حين كنا في باريس أن نترك السياسة ونذهب إلى مكان بعيد عن مراقبة الحكومات ونعلم ونربي من نختار من التلاميذ على مشربنا ... فلا تمضي عشر سنين إلا ويكون عندنا كذا وكذا من التلاميذ الذين يتبعوننا في ترك اوطانهم والسير في الارض لنشر الاصلاح المطلوب فينتشر أحسن الانتشار . فقال إنما أنت مشطاه ملخصاً

ثم عدنا إلى هذا الحديث في يوم الجمعة (٢٠ رمضان سنة ١٣١٥) إذ ذهبت معه إلى مأتم الامير عثمان باشا فاضل شقيق الاميرة نازلي هانم وكنا بداره في الناصرية وقد ذكر لي قبل الخروج منها شيئاً عن حال هذه الاميرة وانها تعرفه وتجله وقد عنيت عقب عودته من سورية بعد انتهاء مدة النفي بالسعي لدى الخديو

توفيق باشا للعفو عنه وكلمت في ذلك لورد كرومر وهو كلم رياض باشا (وكان رئيس النظار) فوعده بذلك ولكن سبق صاحب الدولة أحمد مختار باشا فكلّم صموه بذلك فأجابه وأصدر العفو عنه (فالفضل في هذا العفو كان لمختار باشا لا لورد كرومر الذي تبجح به بعد وفاة الاستاذ في كتابه مصر الحديثة)

الاميرة نازلي هانم والسياسة

قلت أسمع عن هذه الاميرة انها ذكية فاضلة سياسية . قال نعم : هي كذلك قلت : لو استعملت هذا الادراك في عمل مفيد لتهديب النساء بتعليم البنات لأمكنها

قال : نعم ولكنها مولعة بالسياسة (كما قلت) فن سوء حظ المسلمين ان كل من كان فيه استعداد لشيء يشتغل بغيره . فاشتغال هذه الاميرة بالسياسة كاشتغال السيد جمال الدين بها . هو رجل عالم وأعرف الناس بالاسلام وحالة المسلمين، وكان قادراً على النفع العظيم بالافادة والتعليم ، ولكنه وجه كل عنايته إلى السياسة فضاع استعداده هذا ...

وهذه الاميرة قادرة على تأسيس عمل يفيد في تهديب البنات . فان من حولها من الاميرات ينفقن نفقات كبيرة إسرافاً وتبذيراً ، ولو انها حملتهن وأمثالهن من النساء القنيات على انشاء مدرسة لتربية البنات وتعليمهن واستحضرت لهن معلمات من الاستانة أو سورية لكن خير عمل تفعله وما كن ليخالفنها . فاذا لم يأت بالفائدة المطلوبة كان غرساً أو بذراً تجنى ثمرة ولو بعد حين قال : وطالما ذاكرتها بهذا المعنى وخطأها في الاشتغال بالسياسة وكان يسوءها هذا مني لان النساء (ولا سيما الاميرات) يحببن الطاعة وعدم المعارضة لهن في آرائهن . وأنا لا أجاريها في احاديثها السياسية فتغضب . واذا حضر مجلسها غيري وتكلمت معه لا ترضى أن أكون ساكناً فتحملني على المشاركة وأنا لا أحب أن أجاريها في شيء اعتقد خطأها به . وقد قلت لها يوماً : إن سكت لأرضيك وإن تكلمت لأرضيك (أي لاني أعارض) فكيف العمل ؟

(اقول : ثم حضرت معه ومع سعد باشا وغيرهما مجلسها بدارها ، وكانت
برزة تضع على رأسها قناعا وتكلم بطلاقة وتمتج)
ثم عدت معه الى مشرب السيد جمال الدين
قلت : ان السيد جمال الدين رأى ان طريق التعليم والتربية بعيد وان
الاصلاح الاقرب يكون باصلاح الحاكم والحكومة

قال : لو انه تقرب من السلطان بمقدار يمكنه من حمله على اصلاح التربية
والتعليم من غير تعرض لفساد حاشيته ولا تدخل في شؤونهم بل مع مساعدتهم
على اغراضهم الخيرية لكان حسنا ولقد ان ينفذ ما ربه - مثلا - بحسن للسلطان
ان يصدر إرادته باصلاح الوعظ في الجوامع والتعليم الديني في المدارس ، ويقترن
هذا السعي باعطاء أبي الهدى خمسمائة جنيه واعطاء نيشان لابنه أو لاخته ، فذا
راه أبو الهدى يخدمه فيما هو مهم عنده فاما أن يواتيه ، وإما ان لا يناويه ، وهلم جرا
لكنه تدخل في شؤون هؤلاء الفاسدي الطباع والاخلاق ، واصلاحهم من
المستحيلات ، فأخفق مسعاه ، اهالحديث وقد ثقلته كما كتبت في ذلك اليوم

كتاب الاستاذ الامام إلى السيد

أقول والشيء بالشيء يذكر ان الاستاذ الامام كان كتب الى السيد كتابا
عقب استقراره في الاستانة يدلي فيه بمثل هذا الرأي الذي ذكره لي من استجسطن
مدارة أعدائه الكثيرين في الاصلاح ، واختار فيه اسلوب الكناية والتعريض
والرمي إلى الغرض من مكان بعيد ، لعدم ثقته بأمانة البريد ، ولا سيما المكتوبات
التي ترسل إلى السيد جمال الدين ، ولم يضع امضاءه في آخره ، لان السيد يعرف
خطه دون مراقبي البريد في الاستانة ، فغضب السيد غضباً شديداً ، وعاتب الاستاذ
عتاباً قاسياً ، بل تنريماً عاتياً ، لتوهمه ان الذي حمل الاستاذ على ذلك الخوف على
نفسه ، وفاته ان المرء في مصر لا يخاف على نفسه إلا أن يكون من نفسه ، وانما
حملة على الابهام ، التعمية على مراقبي البريد اللثام ، والاستاذ لا ينقص عنه في
الشجاعة ، ولكنه لا يفلو فيها إلى طرف التهور

جواب السيد الهمام للاستاذ الامام

كتب اليه كتابا يقول فيه بعد الدعاء له بتثبيت الجأش، ويرميه فيه بالجرع والجن : تكتب ولا تمضي وتمقد الاغاز ؟ من أعدائي ؟ وما الكلاب كثرت أو قلت ؟ انك في آفق مكفهر ، لا يميز فيها الخبيث من الطيب ، ولا الشريف من الزنيم ، ولا الافين من الكيس ، وامامك الموت ، ولا ينفعك الحذر من الاول ولو كنت حريصاً على مقامك ، ولا ينجيك الخوف من اثاني ، فلا تضيق على نفسك ، فكن فيلسوفا يرى العالم أعروبة ، ولا تكن صديقاً هلوها

الرسالة ما وصلت ، ولا بدت لنا موضوعها وجلال منك قوى الله قلبك . وأما تمثال الكمال والجلل حضرة البرنيس التي لها من قلبي المنزل الابهي ، والمقام الاسنى ، فلا أعلم من أمرها شيئاً لالها ولا عليها ولا سمعت »

(يعني بالبرنيس الاميرة نازلي هانم وقد سأله الاستاذ عنها إذ كانت في الاستانة و كان السيد جمال الدين يريد أن يطالب لها من السلطان وسام الشفقة المرمع واستشار في ذلك بعض زائريه من المعربين فلم يمارض فيه إلا محمود بك سالم قال له : يا مولاي السيد ان هذا يسوء افندينا الخديو لانه يراه من حقه)

وفي آخر الكتاب تعريض « بالنتيب ومحبه ، و كلبهما وجروه » وانه لا بأسف إن كانوا من فلتات الطبيعة في خروجهم عليه ، وعلل ذلك بقوله « لان لي إذن في مصر من يصدع بالحق ، وبزبح الباطل ، ويدوس بحجر موقه عرنين كل أفاك أثيم » اه الكلام ، وما بدمه إلا السلام ، وهل كان له بمصر إلا الاستاذ الامام ؟ هذه الحدة وسرعة انفضب التي هي عيب السيد الكبير الاكبر ، هي التي كانت سبب فشله في أعماله الكبرى كما قال وارث علومه وهمة وأفكاره وأكبر أنصاره الاستاذ الامام في ترجمته له في حال حياته لما وصفه بها « وكثيراً ما هدمت الحدة ، ما بنته الفطنة » وقد قلت فيها من المقصورة الرشيدية :

واقسما الاصلاح شقين

فذلك للسياسة التي قضى بها واما وطراً فما قضى
وايتها ودعت الشيخ كما ودعها إذ عاذ منها وقلا

رأيه في مشروع مستر بلنت

(في استقلال مصر بمساعدة الاحتلال)

نشرت جريدة اللواء في أواخر سنة ١٣٢٥ هـ و ١٩٠٧ م ترجمة كتابين أرسلهما الإمام إلى صديقه مستر ولفرد بلنت جواباً عن أسئلة سأله عنها في الموضوع الذي نشره فيما يلي . وذكرت جريدة اللواء أنها نقلت هذين الكتابين عن (كتاب التاريخ السري للاحتلال) الذي ألفه بالانكليزية مستر بلنت هذا ، وتلقاهما المؤيد عن اللواء . ولكن هذا الكتاب ترجم أخيراً باللغة العربية ولم نجد فيه ذكراً لهذين الكتابين ولا لموضوعهما . وقد كثر اللفظ فيهما عند نشر الجريدتين لهما ، ورجع الناس إلي يسألونني فيما اختلف فيه الكاتبون والمتكلمون في ذلك ، فنشرتهما وبينت رأبي فيهما في الجزء الحادي عشر من المجلد العاشر من المنار (ص ٨٣٤) وهذا نصه :

كتابان سياسيان

(للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده)

(أو مطالب مصر « الادارية » من انكترا)

المستر بلنت الانكليزي المستشرق الشهير كتاب سماه (التاريخ السري للاحتلال) جاء في الطبعة الثانية منه ترجمة كتابين أرسلهما اليه صديقه الاستاذ الامام جواباً عن أسئلة سأله عنها ، وقد ترجمتهما جريدة اللواء عن الانكليزية إلى العربية ، وتلقاهما عنها المؤيد . وهذا نص مانشرته الجريدتان :

سأل المستر (ولفرد سكارن بلنت) المرحوم المفتي رأيه في الحال السياسية الجديدة التي نشأت في مصر عن إتمام الاتفاق الودي عقب توقيع فرنسا . وانكترا عليه ، فأجابه فضيلته على ذلك السؤال في كتاب بعثه له في يوم ٦ مايو سنة ١٩٠٤ ، هذا نصه مع تصحيح لغوي قليل :

(الكتاب الاول في شكل الادارة بمصر مع الاحتلال)

« ان رأيي في الادارة المصرية اذا بقيت الخديوية في عائلة محمد علي هو كما يأتي :

١ - أول وأهم قاعدة أساسية في تلك الادارة هو انه يجب أن لا يكون للجناب الخديوي أي سلطة تخوله التداخل في أعمال الهيئات التنفيذية للنظارات ولا إدارة الاوقاف والازهر ، ولا المحاكم الشرعية ، بمعنى أنه لا ينبغي أن يجعل (لتداخله الشخصي) أثر ما في الادارة المصرية مطلقاً

٢ - يجب أن يشكل مجلس على نسق مجلس الشورى الحالي بوجه التقريب ولكن على نظام أفوم ، وترتيب أمثل منه ، وينبغي أن يكون الوزراء وكبار الموظفين أعضاء فيه . وليس هناك ما يمنع من انتظام بعض كبار الموظفين من الانكليز في الحكومة المصرية في سلك أعضائه ، ويكون من اختصاص هذا المجلس سن القوانين الجديدة

٣ - ينبغي أن توضع حدود لتداخل السلطات التنفيذية الذي يدعيه الموظفون الانكليز كالمستشارين وغيرهم لانفسهم ، حتى لا يكون الموظفون المصريون مجرد آلات صماء لا إرادة لهم ولا رأي يبدونه من تلقاء أنفسهم

٤ - أن يشكل مجلس إدارة في كل نظارة من النظارات كالحقانية والداخلية مثلاً ، ينتخب أعضاؤه بواسطة المجلس العام المتقدم الذكر ، وتكون وظيفة كل مجلس من هذه المجالس الادارية البحث في تفصيلات المسائل المهمة ، ووضع المشروعات والقوانين والنظامات لكل مصلحة من مصالح الحكومة

٥ - أن يوضع قانون لنظارة المعارف يكون اجبارياً بالنسبة للشؤون المتعلقة بالمعارف العمومية والتعليم ، وينبغي أن يخص قسم من الدخل العمومي لاقيام بنفقات التعليم يكون كافياً لفتح مدارس للتعليم العام ، وأخرى للتعليم الفني تسكني لاسد حاجات البلاد

هذا هو رأيي بوجه عام قد أبديته لكم »

فكتب له المستر (بلنت) بعد ذلك بشهرين يسأله ان يتوسع في آرائه هذه

ويضع نموذجاً للدستور المروم إدخاله في مصر ، فأجابه إلى طلبه بعد طول روية ومشاورة أصدقائه في ذلك وأخذ آرائهم في هذا السؤال وسؤال آخر عرضه عليه المستر بلنت أيضا يتعلق بما ينبغي أن يتخذ من الاحتياطات ضد ما يتوقع حدوثه من عدم ثقة الجناب الخديوي بالدستور كما وقع على عهد المغفور له والده مما قضى على الآمال الوطنية ، واستفسر منه أيضا عما إذا كان من الممكن أن يقبل المصريون تعيين أمير أوربي بصفة وال تحت سيادة جلالة السلطان إذا صعب الحصول على أمير من العائلة الخديوية متشعب تشبهاً تاماً من الأفكار الدستورية ، فأجاب المرحوم المفتي على جميع ذلك بالكتاب الآتي

(الكتاب الثاني في نموذج الدستور والاحتياط لضمانه)

صديقي العزيز المحترم

أهديك عظيم تحبتي وأعتذر لك عن إبطائي في الرد على كتابك المؤرخ في ٨ يونيه فاني كنت مشغولاً جداً بالامتحان في مدرسة المعلمين والازهر وغيرهما ، ولم أجد وقتاً خالياً لأجيبكم فيه على كتابكم هذا ، لاسيما وان موضوعه دقيق للغاية ويعوزه مزيد ترو ، ودقيق نظر

وقد فكرت طويلاً وتذاكرت مع بعض أفاضل المصريين فوجدتهم مجمعين على ان من أول الضروريات لحسن الادارة المصرية هو قيام الحكومة الانكليزية بضمان النظام في البلاد وكفالتهم ، ومعنى ذلك أنها تراقب استتبابه والحفاظة على استمراره وعلى الدستور الذي يمنح لمصر ، وأن لا تدع ذلك الدستور عرضة لتدخل الخديويين ومتى تمت هذه الضمانة ومنح الدستور لا تبقى حاجة إلى نزع سلطة الحكم من عائلة محمد علي ولا إلى تعيين أمير أوربي فان تعيين أمير أوربي لا يصادف قبولاً من الاهالي ولا يساعدهم على تحسين حالتهم

واما الدستور فينبغي ان يراعي فيه ما سأذكره الآن من المسائل الآتية بصفة خاصة :

(١) أن تناط جميع شؤون الحكومة بسلطة من السلاطين الآتين :

أولاً - تناط بسلطة تشريعية تسن القوانين الادارية والقضائية
ثانياً - تناط بسلطة تنفيذية تكلف بتنفيذ تلك القوانين وان تحصر
السلطة التشريعية في مجلس نواب أو وكلاء يزيد عدد أعضائه عن اعضاء مجلس
الشورى الحالي، وتكون دائرة اختصاصاته الحالية بحيث تحترم قراراته وتكون واجبة
التنفيذ وأن لا يسمح للوزراء بعدم احترامها ومراعاتها مهما كانت ظروف الاحوال
وهذا المجلس هو الذي يسن القوانين كافة وتنتخب الوزارة من بين اعضائه
وأن تحصر السلطة التنفيذية في الوزارة التي تخول حق تقديم مشروعات
القوانين بحيث لا تستأثر بسنّها وحدها، لان حق سنّها هو من اختصاص مجلس النواب
(٢) أن تناط جميع مسائل الحكومة التي ليس لها ارتباط بسن القوانين
بالوزارة حتى منح الرتب والنياشين ، وان لا يترك من اشغال الحكومة
شيء مطلقاً للجناب الخديوي ، وأن يناط بها ايضاً امر المصالح المختصة بالتعليم
الديني وغيره . والمحاكم الشرعية والاهلية وتوزيع الرتب والنياشين دون أن
يسمح لسموه بأي تدخل فيها مطلقاً

(٣) اذا فرض ان كان بعض الوزراء من الانكليز وكان لهم مدسوسون من
المصريين فانه ينبغي أن يعطى هؤلاء المدسوسون المصريون أو الوزراء الثانويون
سلطة تسمح لهم بان يفصلوا في جميع المسائل المختصة بالدين وما أشبه ذلك تحت
مراقبة الوزراء الاصليين بحيث لا يكون الموظفون المصريون مجرد العوبة في أيديهم
كما هو الحال الآن

وينبغي أن تلغى وظائف جميع المستشارين اكتفاء بهؤلاء الوزراء وفي هذه
الحالة تقضي الضرورة بان يكون رئيس الوزراء مسلماً بحيث يكون مركزه الرسمي
محدوداً بوظيفة الرئاسة دون أن يشغل رئاسة نظارة من نظارات الحكومة

(٤) ان يكون جميع الموظفين الآخرين في الحكومة من المصريين أعني
الديرين ووكلاء المديرات وقضاة المحاكم الاهلية ابتدائية كانت أو استئنافية
وأعضاء النيابة وغيرهم يكونون مصريين وبمجرد تعيين انكليز كمفتشين وتعيينهم
أيضاً في بعض وظائف في المصالح الهندسية والمعارف وفي الوظائف الصناعية

التي يحتاج الامر فيها إلى معارف خاصة اذا لم يوجد مصري تتوفر فيه الاحاطة بتلك المعارف الفنية

على انه يجب على كل حال أن يمحصر عمل أولئك الموظفين الاجانب فيما هو داخل ضمن دائرة اختصاصهم فقط وأن يكونوا خاضعين لمراقبة الوزراء بحيث لا يتحولون أقل سلطة ادارية او قضائية تفضي إلى اضعاف نفوذ الموظفين المصريين.

(٥) ان يتحول أعضاء مجلس النواب الحق في ان يسألوا النظار عن تنفيذ القوانين وينتقدوهم على ما يفرط منهم من الخطأ أو يقع من الخلل في الاعمال ، ويتحتم على النظار أن يبينوا أسباب ما يقومون به من الاعمال ، واذا وقع خلاف بين النواب والنظار يوكل أمر حل ذلك الخلاف إلى لجنة تشكل من خمسة أعضاء من مجلس النواب ينتخبون بالاقتراع السري ، وخمسة آخرين من أعضاء محكمة

الاستئناف ينتخبون مثلهم بالاقتراع السري ، ورئيس المجلس ورئيس النظار ورئيس محكمة الاستئناف ويكون حكم هذه اللجنة بالاغلبية المطلقة

وبجوز زيادة أعضاء هذه اللجنة باضافة أعضاء آخرين عليها من مجلس النواب ومحكمة الاستئناف

واني أعتقد انه لو وضع نظام دستوري على هذا النمط وضمنته الحكومة الانكليزية لقام بحاجة البلاد ولالت حكومتها استقلالاً لم تعرف له مثيلاً وينبغي ان لا ننسى عادة تنظيم شؤون المعارف والتعليم فان هاتين المسألتين هما من أمس الامور التي يبدأ مجلس النواب بمباشرة الاشتغال بها الامضاء

محمد عبده

وبعد فراغه من هذا الكتاب وضع في ذيله الحاشية الآتية

« قد نسيت ان أتكلم على الخيرية فأقول : ان السردار الانكليزي وبعض ضباط الانكليز يقولون في الجيش المصري ولكن يجب أن يشغل المصريون ما بقي من وظائف الجيش واذا فرض وقامت بعض صعوبات بشأن ذلك ورأت الحكومة الانكليزية وجوب وجود قواد انكليز فيه أعني « باشاوات » فلا ضرر في ذلك »

﴿ قول المنار في الكتابين ﴾

قد كثر حديث الناس في هذين الكتابين لما نشرا في جريدة اللواء ثم المؤيد وغيره ثم اتسع مجال الآراء فيهما بعد أن استنبط اللواء منهما ما استنبط ولخصهما المؤيد بما لخصهما به ، وزعم أن ملخصه هو رأي الكاتب وناهيك بتقليد الجرائد في دهاء هذه البلاد

قال المنتقدون ان الكتابين يدلان على بغض كاتبهما للاسرة الخديوية كافة وللأمير الحاضر خاصة . وقالوا ان فيهما تحسباً للظن بالانكليز ، وقالوا بل فيهما مشايعة لهم . وقالوا هذا رأي الكاتب في الدستور المصري وأطلقوا: أي انه لو كان الامر كله بيده لرضي لبلاده بما كتبه فيهما . وقالوا ان كاتبهما على غير بينة بالقوانين الاساسية للأثم . وأغرب ما قالوا وما كتبوا هو ما أنبأ عن استنكارهم سلب السلطة الشخصية من الخديويين بمحصر السلطة في مجلس النواب ومجلس الوزراء !! ومن هم المستنكرون لذلك؟ هم الذين يزعمون انهم طلاب المجلس النيابي والحكومة الدستورية لمصر !!! يا لله العجب

وقد استحسن كثير من العقلاء المستملين للطالب التي في الكتابين واستدلوا بهما على غيرة كاتبهما على بلاده وأهلها وسعيه في اصلاح حالها سرراً وجهرآ من كل طريق وكل منفذ ، وأنكر آخرون صحة نسبة الكتابين إلى الاستاذ الامام وقالوا انه ليس فيهما شيء من روحه ولا من أسلوبه

واننا نبين حقيقة معناها الذي حرفته الالهواء عن موضعه الذي وضعت فيه الظروف والاحوال بعد تمهيد نموده لذلك فنقول :

(١) ليعلم القارئ قبل كل شيء أن مانشر في الجرائد ليس هو الذي كتبه الاستاذ الامام بل هو ترجمة لاحد محرري جريدة اللواء عن الانكليزية . وما في الاصل الانكليزي مترجم عن العربية . فاذا ظهر الاصل العربي الذي يقول حافظ افندي عوض انه رآه عند مؤلف الكتاب يكون مراد الكتاب أظهر وأصح والحكم عليه أعدل

(٢) ان المراد منهما لا يفهم تمام الفهم إلا بترجمة ما كتبه المستر بلنت إلى الاستاذ الامام بالحرف لان الفتوى تكون على حسب السؤال كما هو مشهور ومروف
(٣) قد علم مما كتب اللواء والمؤيد أن موضوع سؤال مستر بلنت يتعلق « بالحالة السياسية الجديدة التي نشأت في مصر عن ابرام الاتفاق الودي عقب توقيع فرنسا وانكلترا عليه » فما رآه كان خاصا بتلك الحالة التي أمنت فيها انكلترا معارضة أوروبا لها في مصر . فاذا تذكرنا أن كل ما فعلناه من مقاومة الاحتلال أيام كان ضلع أوروبا كلها معنا ولا سيما فرنسا لم يزد إلا قوة ورسوخا فاننا يمكن أن نعقل ان تلك المطالب التي طلبها الاستاذ الامام بعد اتفاق أوروبا مع الاحتلال علينا كانت كبيرة جداً وان الانتقاد على هذه المطالب ينبغي أن يكون محصوراً في كثرتها او عظمتها حتى جعلت نجاح انكلترا ابوفاق ابريل ١٩٠٤ نجاحاً لمصر وحرماناً لانكلترا من معظم ما كان لها من النفوذ والسلطة

(٤) ذكر اللواء فالمؤيد من موضوع سؤال بلنت كلمة « الدستور الروم إدخاله في مصر » فلم أن هنالك مشروعاً للدستور يد في انكلترا فما هو وما موضوعه ؟ أو ليس هذا نصاً في الموضوع صريحاً في أن ما كتبه الاستاذ الامام في جواب مستر بلنت ليس مشروعاً وضعه لما يجب أن يكون عليه بلاده مقابل هو مطالب وتعديلات لدستور معين يبحث فيه الانكلاز أنفسهم؟ ونحن إلى الآن لم نقف على مشروع دستوري لهم إلا مشروع لورد كرومر بإنشاء مجلس تشريعي لمصر مؤلف من جميع الاجانب . وهل يمكن حينئذ أن يطلب لمصر من انكلترا أكثر مما طلب الاستاذ الامام ؟ وقد تقدم أن ما طلبه كثير

(٥) ذكر اللواء فالمؤيد أن مستر بلنت سأل الاستاذ الامام بالتصريح عما ينبغي اتخاذه من الاحتياطات لمنع ما يتوقع حدوثه من عدم ثقة الخديوي بالدستور كما وقع في عهد والده أي بأن يكون الدستور مأموناً عليه من حل الخديوي له، بله- تصرفه فيه باستمالة أعضائه إلى ما يريد بالرتب والنياشين او بغير ذلك . وهذا السؤال لا يعقل له وجه إلا إذا كان واضع مشروع ذلك الدستور لا يرضون أن يكون للخديويين سلطة عليه، بل لا يعقل وجود دستور حقيقي يكون عرضة لعبث السلطة

الشخصية به . وهل يمكن أن يجاب عن هذا إلا بتمهد انكلترا بحماية الدستور والحال ان انكلترا تكون هي الواهبة له ائامن بحسن الادارة المصرية تحت مراقبتها على طريق الهند وتنال هي شرف إصلاح مصر وتنظيمها ؟ (ان صح ذلك ولم يصح) (٦) ونقل اللواء فالمؤيد ان مستر بلنت سأل أيضا هل يقبل المصريون تعيين وال أوربي عليهم تحت سيادة السلطان ؟ وهذا السؤال مبني على عدم ثقة اولئك المشتغلين بمسألة الدستور المصري بحكم الامراء الشرقيين الذين يعتقدون أنهم أشربوا في قلوبهم الاستبداد حتى لا يكاد يوجد فيهم من يميل إلى الحكم الدستوري ويرغب فيه . فهل تنقذ إجابة الاستاذ الامام عن هذا السؤال بأنه لا حاجة إلى حاكم أوربي مع وجود الدستور المضمون ومنع الخديويين من السطة الشخصية ؟ وهل من الانصاف والحق أن يمد طلبه إبقاء الامارة في بيت محمد علي دليلا على بغضهم ؟ وهل يستنكر عاقل الاحتجاج على من يريدون تولية أمير أوربي علينا بكوننا لا نقبل ذلك وكونه هو لا يمكن أن يساعدنا على تحسين حالنا ؟ ما أغرب الرأي الذي يمليه الهوى وتروجه الاغراض الخسيسة

﴿ تلخيص المطالب التي طلبها الاستاذ الامام لمصر ﴾

من الانكليز فيها كتب الى مستر بلنت

(١) أن يكون للمصريين مجلس نيابي تنحصر فيه السلطة التشريعية أي وضع القوانين كلها ويكون له حق سؤال الحكومة عن تنفيذها ومحاسبتها على خطأها (٢) أن يكون للمصريين سلطة تنفيذية وهي الوزارة المسئولة وتناط بها جميع أمور الحكومة لا يترك منها للخديويين شيء خاص بأشخاصهم كاهو شأن الحكومة النيابية في أوروبا لاسيما انكلترا

(٣) أن يكون رئيس الوزراء مسلما لا كما كان من قبل تارة وتارة (٤) أن يكون جميع موظفي الحكومة من المديرين وكلاء المديرات والقضاة ورجال النيابة وغيرهم من المصريين بحيث لا يبقى من موظفي الانكليز إلا بعض المفتشين ومن لا يوجد مصري يقوم مقامه في عمله

(٥) تنظيم شؤون المعارف والتعليم وجمالهم - أهم الامور التي يبدأ مجلس النواب بها

(٦) قيام المصريين بجميع وظائف الجيش بحيث لا يبقى فيه من الانكليز إلا السردار وبعض الضباط

(٧) إلغاء وظائف المستشارين المسيطرين على الحكومة الآن

(٨) على انكليترا أن تكفل هذا الدستور وتضمن تنفيذه بأيدي المصريين وفسر ذلك بأن تراقب استنباها والمحافظة عليه مراقبة فقط حتى لا يبطله الخديويون هذه هي المطالب الايجابية الاصلية وأنى لمصر بالوصول اليها وإلى الآن لم تطمع الاحزاب بمثلها فلم يطلب حزب ولا جريدة شيئاً يتعلق بالمسكرية ولا يعقل أحد كيف يكون الاستقلال الحقيقي بدون جند وطني يقوم بشؤون الوطنيين وهناك مطلوب مهم مبني على فرض وقوع شيء لا يؤمن وقوعه مادام للانكليز شأن في سلطة البلاد، بل قد وقع مثله في عهد اسماعيل باشا وهو جعل بعض الوزراء من الانكليز، طلب الاستاذ على فرض وقوع ذلك أن يكون للمرء وسين للوزير الانكليزي من المصريين سلطة يفصلون بها في المسائل المتعلقة بالدين وما أشبه ذلك ولا يكونوا آلة في ايدي رؤسائهم من الانكليز . وهذا مطلب لسنا بمدركه اليوم فانه لا يمكن لرئيس ولا مرءوس في الختانية أن يجري في المحاكم الشرعية أمراً لا يرضاه المستشار القضائي .

وأغرب ما سمعت من بعض الاغرار « البسطاء » ان الكتائين تضمنا طلب جعل بعض الوزراء من الانكليز فلما قيل له انه ليس فيهما شيء من ذلك وانما فيهما مطلب مهم مبني على فرض وقوع ذلك بالرغم من انهما كان ينبغي ذكر هذا الفرض والتقدير لانه يذكرهم بهذا الامر !! فتمجب أبها القاري من هذه السذاجة والفرارة والغفلة عن الواقع والاهتمام بالالفاظ دون الحقائق ومما تقدم من البيان يعلم القاري انه ليس في الكتائين شيء ينتقد . وقامت أشهر اعضاء الحزب الوطني حماسة وإخلاصاً يقول: إنه ليس فيهما شيء ينتقد إلا جعل انكليترا كافلة للدستور، لان هذا بمعنى الحماية ولكننا لانشأ

لاجله في إخلاص الرحوم الشيخ : فقلت له كان يصح ان يقال هذا لو كانت هذه الكفالة من مواد الدستور وكان الدستور مصدقا عليه من الدولة العلية، فيكون حينئذ حقاً رسمياً لها . وليس فيما كتب شيء من ذلك وإنما الموضوع أن تسمح لنا انكثرا بهذا الدستور وتكتفي هي بدلا من القبض على أزمة السلطة فينا بمراقبة سيرنا على الدستور والنظام المطلوب ولا تسمح للخديويين أن يغيروه إذا حاولوا ذلك . ومعلوم أنها لا تسمح لهم الآن بتغيير ما في التشريع ، ولا مداخله ما في التنفيذ ، مع قبضها على كل شيء ، وعدم تحملها لتبعة شيء ، فأني الامر من أفضل ؟؟ وعلى ذكر رأي عضو الحزب الوطني ان تلك العبارة التي انتقدها من الكتابين لا تدعو إلى الشك في إخلاص الكاتب : نذبه إلى سيئة فاشية فينا هي من أقبح السيئات وأشدّها ضرراً في الأمة، ألا وهي اتهام كل من نراه اخطأ في مسألة من المسائل العامة بسوء النية وعداوة البلاد وبغض الأمة وحب الانكليز ومساعدتهم على ما يقصدون بنا من سوء !! وتفرع عن هذه السيئة سيئة أكبر منها وهي اختراع بعض الناس الخطأ أو تكلفهم استنباطه من كلام من يكرهونه لاجل إصاق تلك التهمة به .

فشو هذه السيئة مع أختها أعظم أسباب تفرق الأمة وضعفها وانقسامها على نفسها « كما يقولون » لاسيما بعد توجيه الجرائد هذه التهمة إلى الجماعات والأحزاب . وليت شعري أي قيمة لهذه الأمة إذا صح ما ترجف به بعض الجرائد من اتهام حزب الأمة برمته بعدم الإخلاص للأمة وبمشايعة المحتلين عليها بعد الأرجاف بان ذلك النابغة العظيم « الأستاذ الامام » الذي اعترف بنبوغه الشرق والغرب كان غير مخلص للأمة أو لأميرها ؟ بل أي تعريض بالامير أشد من اثبات ان نابغي المستقلين من امته يقاومونه ، وان جمهوراً كبيراً من مرأة الأمة يؤلف حزبا وينشيء جريدة لمقاومة نفوذ ؟؟؟

قد يقول سائل ان النار قد أبرز هذه المطالب بأسلوب يظهر منه مالم يظهر من ترجمة الكتابين على كونه لم يأت بشيء جديد فهلا كتب الرحوم المفتي كتابيه بهذا الأسلوب الذي يتجلى فيه الإخلاص لمصر والتفاني في خدمتها دون

ذلك الاسلوب الذي يلوح منه إرضاء الانكليز أو استرضائهم إن لم نقل محاباتهم وجوابه من وجهين « احدهما » اننا لم نطلع على ما كتبه المرحوم بنصه فتحكم على أسلوبه « وثانيهما » انه لم يكتب ليمتن على قومه بحبه لهم ومقاومته لحتلي بلادهم ، ولا ليظهر للانكليز انه مبارز لهم ، وانما كتب لصديق له يسمى في خير مصر . على انه لو كتب للحكومة الانكليزية نفسها لوجب عليه في شرع البلاغة ان يجعل تلك الكتابة باسلوب يرجى قبوله وعدم اتهام صاحبه بالعداء والمقاومة لها . ولكل مقام مقال

رأى أحد المنوك في النوم ان أسنانه سقطت فعبه الرؤيا معبر بقوله : ان جميع أهلك وأقاربك يموتون في حال حياتك ، فاستاء الملك وعاقبه عقاباً شديداً . ثم جيء بمعبر آخر فقص عليه الرؤيا فقال له تأويل هذه الرؤيا ان الملك يكون أطول أهل عمره . فسر الملك وأجازه اجازة سنية . فالبايع يخاطب كل مخاطب بما يرجو أن يبلغ به مراده من نفسه فن أصحاب الجرائد من يطلب من الانكليز مطالب بصفة الأمر صاحب السلطان ، وما مراده إلا إرضاء من يقرأ هذه المطالب فيحمد كاتبها ويحمله لانه استعلى على بريطانيا العظمى ، فأثال الامة من الاستعلاء عليها بالقول ، ماتلوه به عن الفخر بالاستعلاء أو المساواة بالفعل . ولكنه لا يخطر في باله الاسلوب الذي يمكن ان يكون مقنعاً او مقبولا عند الانكليز لانه لا يريد منهم شيئاً

لو كان الاخلاص والغيرة على قدر كبر المطالب وإن كانت من المحال ، والتعزز على القوي يتحقق بزخرف القول وإن كان غروراً ، لا يمكن كل كاتب أن يكتب كل يوم في اثبات اخلاصه وغيرته وتعززه نحو هذه العبارة : إني آمرك أيتها الدولة الانكليزية الظالمة المعتدية بان تردي مصر إلى المصريين ، وقبرص إلى الدولة العلية . بل ان تردي الهند إلى النوابين والرجاوات من أهلها ، وأن تارزي إلى جزائر كاتارز الحية إلى حجرها . فان لم تحفظي شرفك وتمثلي هذا الامر فانتفق مع أعضاء بضر برلمانك فتؤلف منه لجنة تشاغب المجلس أحياناً في هذه المطالب فتعززه هراً ، وتؤذه أراً ، وتهز الشعور الوطني في هذه البلاد هزة تميد لها جزائر بريطانيا ميدانا ، وتزلزلها زلزالا ، وبما كان من ورائه البلاء النازل ، والخسف العاجل ؟؟

(رأيه في الدولة العثمانية والتعليم فيها)

قد فصل الاستاذ الامام رأيه في الدولة وما يجب عليها من الاصلاح في لائحة كتبها في بيروت سنة ١٣٠٤ ورفعها إلى شيخ الاسلام وقد أشرنا اليها آنفا بعد أن ذكرناها في النقص الثاني من الفصل الخامس (ص ٣٩٢) وقد بين في هذه اللائحة الخطر الذي يندر الدولة إذا لم تبادر إلى اصلاح التعليم باستحواذ الجهل على أكثر المسلمين، ودخول العلم عليهم من طريق الاجانب أصحاب المطامع في البلاد، وقد قال في مقدمتها (ص ٥٠٦ من الجزء الثاني والطبعة الثانية) ما نصه :

« ان من له قلب من أهل الدين الاسلامي يرى أن المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة المقائد بعد الايمان بالله ورسوله ، فانها وحدها الحافظة لسلطان الدين ، الكفالة لبقاء حوزته ، وليس للدين سلطان في سواها ، وانا والحمد لله على هذه المعقيدة ، عليها نحيا وعليها نموت

» ان للخلافة الاسلامية حصونا وأسواراً ، وان أحكم أسوارها ما استحکم في قلوب المؤمنين من الثقة بها ، والحماية للدفاع عنها ، ولا معقد لثقة ، ولا موقد للحمية في قلوب المسلمين ، إلا ما أتاهم من قبل الدين ، ومن ظن أن اسم الوطن ، ومصلحة البلاد ، وما شا كل ذلك من الالفاظ الطنانة يقوم مقام الدين في انهاض الحمم ، وسوقها إلى الغايات المطلوبة منها ، فقد ضل سواء السبيل

» المسلمون قد تحيف الدهر نفوسهم ، وأتحت الايام على معاهد إيمانهم ، ووهت عرى يقينهم ، بما غشيه من الجهل باصول دينهم ، وقد تبع الضعف فساد في الاخلاق ، وانتكاس في الطباع ، وانحطاط في الانفس ، حتى أصبح الجمهور الاعظم أشبه بالحيوانات الرتع ، غاية همهم أن يعيشوا إلى منقطع أجيالهم يأكلون ويشربون ويتناسلون ، ويتنافسون في اللذات البهيمية ، وسواء عليهم بعد ذلك أكانت العزة لله ورسوله وخليفته أو كانت العزة لسائد عليهم من غيرهم ، ثم ذكر تدخل الاجانب ومدارسهم وسوء تأثيرها وخطرها على الدولة - أو يتداركها أمير المؤمنين وتدر كها قوته ، وانتقل من ذلك إلى وصف التعليم الاسلامي فقال (ص ٥٠٨)

«أما المكاتب والمدارس الإسلامية فقد كانت أما خالية من التعليم الديني جملة، وأما مشتملة على شيء قليل منه، لا يتجاوز أحكام العبادات على وجه مختصر، وطريق صوري لا يعدو حفظ العبارات، مع الجهل بالمدلولات، ولهذا رأينا كثيراً ممن قرؤوا العلوم في المدارس العسكرية وغيرها^(١) خلوا من الدين، وجهالاً ببعائده، منكبين على الشهوات، وسفاسف اللذات، لا ينجشون الله في سر ولا جهر، ولا يراعون له حكماً في خير ولا شر، وانحط بهم ذلك إلى السكسب في الكسب، والانصباب على طلب التوسعة في العيش، لا يلاحظون فيه حلالاً أو حراماً، ولا طيباً أو خبيثاً، فاذا دعوا إلى الدفاع عن الملة والدولة ركنوا إلى الراحة، ومالوا إلى الحياة، وطلبوا لأنفسهم الخلاص بأية وسيلة

«وبالجملة فإن ضعف العقيدة والجهل بالدين قد شمل المسلمين على اختلاف طبقاتهم إلا من عصم الله، وهم قليلون. ولهذا نراهم يفرون من الخدمة العسكرية، ويطلبون للتخلص منها أية حيلة، وهي من أهم الفروض الدينية المطلوبة منهم. ونرى غيرهم من الأمم يتسابقون إلى الانتظام في سلك جنديتهم، مع أنها غير معروفة في دينهم، بل مضادة لصريح نصوصه، ونرى المسلمين يبخلون بأموالهم إذا دعت الأحوال إلى مساعدة الدولة، والانفاق على مصالح الأمة، ولا يبخلون بذلك على شهواتهم، بعكس ما نرى في مائر الأمم. هكذا انطلقا من المسلمين مصباح العقل، فلا يعرفون لهم رابطة يرتبطون بها، ولا يهتدون إلى جامعة يلجؤون إليها، وتقطع ما بينهم (تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) ولا حول ولا قوة إلا بالله

«هذه أحوال نذكر منها القليل، والله يعلم أن الواقع منها أكثر من الكثير، نذكرها مقرونة بانفاس الأسف وصعداء الحزن، لما نعلم أن الأجانب قد أرسلوا ذئابهم يتخطفون شاذتهم، وأغابهم شاذة، ويمترسون ناداتهم وجهودهم نادة، ومسارة الفساد فيهم مشهورة، يحس بازديادها كل سنة عما قبلها، وإن عواقب ذلك لتخشى، ولا حول ولا قوة إلا بالله * أه المراد منه

(١) ليتامل القراء هذا الذي كتب منذ نصف قرن وماذا كان من أثره في الدولة والخلافة بأيدي هؤلاء العسكريين وأمثالهم

ثم بين ما يجب من التعليم الديني الذي يدرأ الخطر بدرجاة الثلاث والعلوم والكتب التي تتخذ له ، وعقد فصلاً خاصاً للدعاة والمرشدين فيراجع هذا كله في جزء منشأته

﴿ رأيه الاخير في الخلافة العثمانية والدولة والترک ﴾

لم يجد الامام لنصح سامعاً ، ولا لندائه مجيباً ، وظلت الدولة تتدهور كل عام في هوة ، وتقع في مأزق من نفوذ الدول الاجنبية ، وكثر المتفرنجون في الترك وغيرهم من شعوبها ، فلم يبق لاسم الخلافة ولا للاسلام نفسه مكانة من أنفسهم ، وتجروا على الطعن في السلطان والكيد له في العاصمة وفي البلاد الاوربية ، واشتد السلطان في مطاردتهم ، والانتقام ممن يعجز عن استمالتهم ، فانقطع رجاء الاستاذ الامام من هذه الدولة ، ومن إمكان الاستفادة من منصب الخلافة . وانني أذكر هنا أول ما سمعته منه في ذلك

زرت في الساعة العاشرة قبل الظهر من يوم الجمعة (٢٩ رجب سنة ١٣١٥) عن موعدة في زيارة قبلها ، وكان هذا هو اليوم الخامس من وصولي إلى القاهرة فاستقبلني في حجرة النوم وكان يكتب قترك الكتابة لاجل الحديث ، وجاءه بريد الصباح وبمناسبة ما فيه من الجرائد تكلمنا في فوائد الجرائد ومذاهبها وذكرت طعن جريدة المقطم في الدولة العثمانية وتأثيره في كثير من الناس في سورية على قلة المظلمين عليها فيها لانها ممنوعة منها ، وإنما تنسل من البرد الاجنبية إلى بعض الاجانب وتنقل إلى غيرهم ، وذكرت انه يساعد هذا التأثير كلام الجرائد الاخرى التي تشير إلى ضعف الدولة بلطف كالا هرام وهي غير ممنوعة حتى صار كثير من الناس يعتقد أن الدولة على شفا جرف هار لا مال ولا رجال ولا سلاح ، وانتهت بهم أفكارهم هذه إلى انها لا تقدر على محاربة اليونان . فلماذا أقول ان حرب اليونان ما أفادت الدولة شيئاً إلا نزع هذا الاعتقاد من النفوس - وكذلك كان اعتقاد المسلمين في الممالك الاخرى بما تنشره الجرائد الاوربية عن حالتها بينهم -

ثم ان من الناس من اعتقد بعد هذه الحرب أن الدولة العثمانية من أقوى الدول أو اقواهم وأنها تقدر على تدويخ أي دولة أوربية . وأنا لأحب أن أظهر للدعاه

منهم أن الحقيقة غير ما يتوهمون^(١) فما رأي مولانا في الدولة؟

قال الاستاذ « هذا جهلان يتناطحان (يعني سقوط الدولة بالمرة وكال قوتها) واني رأيت كثيراً من المصريين يمتقدون وصول الدولة إلى هذه الدركة من الضعف ، وانها لم تكن تقدر على مقاومة اليونان ، وعند إعلان الحرب صرح أمامي بعضهم بأن اليونان تنتصر على الدولة ، لخطأته . قال إن الدولة لا مال عندها ولا ضباط . قلت له وما أدراك ان اليونان عندها المال والضباط ؟ أنا أعرف اليونان انهم أجبن الشعوب وأفقرهم ، ولو أن الدولة قلت لأتراك الروملي أو الاناضول ، أو للارنؤط قد أذنت لكم أن تأكلوا اليونان - لما كان اليونان إلا أكلة واحدة لهم ، وقتلهم بالعصي ولم نحتاج الدولة إلى عسكر ولا سلاح

» ان الحرب أعلنت يوم الاربعاء فيما أظن وكان في عزمي السفر إلى الشام لتغيير الهواء لاني كنت موعوكا فجتت الاسكندرية اعتقاداً مني انه لا يأتي يوم الثلاثاء. (موعد سفر الباخرة الحديدية إلى سورية) إلا وتكون الحرب قد انتهت (وتبسم) « ان كثيراً من وجهاء المصريين يكرهون الدولة العثمانية ويذمونها (وإن كان أكثرهم يحبها) وأنا أيضاً أكره أعمال السلطان فان جبنه الخالع وهؤلاء المشايخ الذين قربهم وسلطهم ولا سيما الشيخ أبي الهدى فان شأنه وشأنهم كذا وكذا - وذكر ما نعلم من إفسادهم واستعانتهم عليه بجبن السلطان ووسواسه

قال « لكن لا يوجد مسلم يريد بالدولة سوءاً فانها سياج في الجملة ، وإذا سقطت نبقى نحن المسلمين كاليهود بل أقل من اليهود ، فان اليهود عندم شيء يخافون عليه ويحفظون به مصالحهم وجامعتهم وهو المال ، ونحن لم يبق عندنا شيء ، فقدنا كل شيء . ثم انتقل الكلام إلى رجال الدولة فقال ما حاصله : ان الدولة لديها رجال نبهاء درسوا وعرفوا كل شيء ، ولكنهم أصيبوا بداء اليأس ، فهم يائسون من كل خير وإصلاح . وهذا الداء قاتل وصاحبه يهدم ولا يبني ، لا ينظر إلا إلى مصلحة شخصه وذكر انه تكلم مع كثيرين منهم هذا وفي أوربة فألقاهم يائسين - وذكر أحد

(١) قال لي أحد المربين في ملوي إن ملك المسكوب كتب للمكنا السلطان عبد الحميد إنني مستعد للحرب بعد ٤٨ ساعة فكتب إليه ملكنا إنني مستعد للحرب بعد ٤٤ ساعة

الباشوات من أمثلهم وقل إنه يأس على سعة عرفانه (قال) وكيف نياأس وإن حالة أوربة كانت شرّاً من حالتنا في الجهل ومقاومة العلم (وأطال في ذلك . وقد بسط هذا أخيراً في مقالات الاسلام والنصرانية)

قال « وأما أنا فأنني في يأس تام من طبقة الامراء والحكام ، لا يرجى منهم خير » ثم تكلم فيما يقال من طمع الشيخ أبي الهدى في الخلافة وأنه لا يرجى نجاحه لان مقصده شخصي ووسائله شرور ولا تنجح الاعمال إلا اذا كانت مبنية على مقاصد الخير والمصلحة العامة وإن نجح ما ليس كذلك فلا يكون نجاحه إلا مؤقتاً قصير الاجل وأطال في ذلك الخلافة أو منصب الخلافة

كان يرى ان ما حاوله السلطان عبد الحميد من الانتفاع بقلب الخلافة ومنصبها لا يرجى منه أدنى فائدة للمسلمين لجهله وجهل رجاله بمعنى الخلافة وبالوسائل التي يمكن بها إحياء منصبها والانتفاع به (وهو ما أرشد الدولة اليه بما كتبه إلى شيخ الاسلام) وإنما أعمال دعائه وأعوانه لأحياء هذا المنصب أو اللقب وهمية ، ومنفعته المرجوة منه شخصية ، وهي تخويف دول أوربا من سحق رعاياهم المسلمين عابهم اذا هم عادوا الخليفة ، ولكنه كان يرى السكوت عنهم وغنه ، وأن مشايعتهم غش للمسلمين وجناية على الاسلام ، ومقاومتهم فتنة وتفرق بين المسلمين ولما أطلعته على فاتحة العدد الاول من المنار في منتصف شوال من تلك السنة (١٣١٥) أعجبه كل ما ذكرته فيه من المقاصد والاغراض إلا كلمة واحدة هي تعريف الامة بحقوق الامام ، والامام بحقوق الامة . قل مامعناه ان المسلمين ليس لهم اليوم إمام إلا القرآن ، وان الكلام في الامامة مثار فتنة بخشي ضره ولا يرجى نفعه الآن . واقترح على حذف الكلمة من المقاصد فحذفها

﴿ رأيه في استقلال العرب ﴾

علمت من حديثي معه انه يعتقد ان العرب أجدر الشعوب بالاستقلال والحضارة الرشيدة بطبيعة بلادهم وشجاعتهم ، وبما لهم من الوراثة والتاريخ واللغة الراقية ، ووجود الروح الاعظم للاصلاح الاكمل بلغتهم وهو القرآن ، وما يبينه من

سيرة الرسول الاعظم محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكن الترك سلبوهم كل شيء ففترقوا وتمادوا واستحوذ عليهم الجهل . فيجب أن يبدؤا بالعلم الصحيح وجمع الكلمة وكسب الثروة ، ويستعدوا لسفوح الفرصة ، ولا يجوز لهم بخل من الاحوال أن يخرجوا على الدولة العثمانية ، لما لذلك من سوء العاقبة ، وذكر لي واقعة حال في هذا الموضوع أدلى فيها بحجته على هذا الامر .

قال : وجد رجل مستشرق بريطاني أحب العرب وساح في بلادهم واختبر حالهم فظهر له ان أخلاقهم في بلاد نجد شريفة لم تفسد ، واستعدادهم عظيم فتوجهت رغبته إلى السعي لمساعدتهم على تأليف دولة عزيزة تجدد الحضارة العربية ، وأراد جمع المال الذي يمهّد السبيل ويهيء الوسائل لذلك .

واستشارني في هذا الامر فقلت له إن العرب أهل لذلك ولكن اترك لا يمكنهم منه ، وعندهم من القوة العسكرية المنظمة ما ليس عندهم ، فاذا شعروا بذلك أوراوا بوادره قاتلوهم ، حتى اذا وهنت قوة الفريقين وثبتت دول أوربة الواقعة لهما بالمرصاد ، فاستولوا على الفريقين او على أضعفهما ، وهذان الشعبان هما أقوى شعوب الاسلام فتكون الماقبة اضعاف الاسلام وقطع الطريق على حياته . قال فقتل الرجل وترك ما كان عزم عليه من السعي .

لم يذكر لي اسم هذا الرجل ولما رأيت بعد ذلك صديقه مستر بلنت وحادثة وحادثة زوجته علمت انه هو الذي كان فكر في ذلك وعزم عليه .

ثم لما التقيت بالمرحوم محمود شوكت باشا في الاسكندرية بعد الدستور وتكلمت معه في المسألة العربية رأيت رأيه قريباً من رأي الاستاذ الامام من ناحية مسألة الدولة (رحمهما الله تعالى) قال فمن العرب أقوى من الترك استعداداً لتحصيل العلوم والفنون ، واكسب المال بالزراعة والتجارة والصناعة ، ونحن أكثر عدداً من الترك في الدولة اذا سمحنا باحصاء النفوس في جميع بلادنا ، ولكن الترك متفنون ونحن مختلفون ، وقوة الدولة العسكرية والمالية في أيديهم ، فمعاذتنا لهم خطر علينا ، فيجب أن نقوي أنفسنا بالدولة في ظل الدستور ، فنكثر من ادخال أولادنا في المدارس وفي الخدمة العسكرية ، وتكون عاقبة ذلك ان تكون أغلبية

المبعوثان (النواب) منا ، وأن يكون زمام الدولة في أيدينا .
أقول ولكن الاتحاد بين جملوا الدستور صوريا وتوسلوا بقبضهم على زمام
السلطة إلى تقوية العصبية التركية الطورانية ، والقضاء على سائر الشعوب العثمانية ،
هو قتلوا محمود شوكت باشا منقذهم من الاستبداد الحميدي ، وعزموا على قتل كل
زعيم عربي ، ففضى الله عليهم وعلى هذه الدولة بسوء سياستهم ولم يبق للترك إلا
الاناضول وبعض الروملي منها
وأما رأي الاستاذ الامام وهو الذي جربنا على الدعوة اليه فهو أن يعنى العرب
بترقية أنفسهم بأنفسهم من غير معاداة ولا مباراة للدولة ، وانتظار الفرص للاستقلال
مع اتقاء خطر الاجانب واضعاف الاسلام ، ثم جاءت الحرب الكبرى قبل تمكننا
من ذلك فكان من عاقبتها ما كان .

رأيه في الشعب المصري

قال لي في سياق حديث في حالة البلاد : إن أطفال المصريين أذكى من أطفال
سائر الشعوب ، وإن شبانهم من أنشط الشبان وأمضاهم عزما وهمة وإقداما ، ولكن
المصري يدب فيه الهرم المعنوي منذ استكمال الخامسة والعشرين فيخلد إلى الراحة
والتمتع بالذات ، وتقمع به همته عن الجهاد والكدح في سبيل المصلحة العامة
وقال لي مرة وهو في أشد الغضب والامتناع من حادثة المحاكم الشرعية
عند ما اقترحت الحكومة تعيين قاضيين من محكمة الاستئناف الاهلية عضوين
في المحكمة الشرعية العليا : والله لو أن في مصر مائة رجل لما استطاع الانكسار
أن يقيموا فيها ، أو لما استطاعوا أن يعملوا عملا إذا أقاموا . إن في مصر مئات أو
آلاف من الرجال يفهمون كل شيء ، ولا ينقصهم العلم بما يجب للبلاد ، ولكنهم
فاقدون الإرادة وقوة العزيمة ، فلا تكاد تجد عشرة منهم يتحلون بهما ، وهما
الصفتان التي لا ينفع بدونهما علم ولا يقوم عمل

أرأيت هذا الرجل - مصطفى باشا فهمي - الذي يصفه الوطنيون بالخيانة
للبلاد ؟ انه ذكي نبيه ومحب خير البلاد ومصالحها ، ولكنه ضعيف الإرادة بل

فانقدها ، ولولا ذلك لأمكنه بما نال من ثقة - لطة الاحتلال به أن ينفع البلاد نفعاً عظيماً ، ويدفع عنها أذى كثيراً ، ولكنه لا يدري هذا

وقال لي في حديث آخر : ان الشعب المصري لا يفني ولا يندغم في غيره من الشعوب التي تغلبه على حكومته ، وقد يندغم الشعب المتغلب عليه فيه . ذلك بان ذل الغلب وفقد الاستقلال لا يضعف حيويته ويقال نسله كما وقع لشعوب أخرى ، بل يعيش في كل حال ، يأكل ويشرب ، ويلهو ويلعب ، ويتزوج وينسل ، ويحفظ مشخصاته القومية . والحكومات أعراض تزول ، وهو لا يزول . ولكنني صرت في ريب من بقاء هذه المزية فيه بما علمت من سريان جريمة السكر من الامصار إلى الارياف ، وابتلاء الفلاحين بهذه الاثرية الكحولية السامة وفشو الزنا فيهم ، وكل منهما يمطل الجهاز التناسلي او يضعفه ، فاذا لم يتدارك هذا الخطر بالترقية الدينية والتعليم المشتمل على القواعد الصحية ، وتغذية ذلك باصلاح خطابة المساجد وبث الوعظ والمرشدين فيها ، فان الشعب المصري نفسه على خطر الانحلال والزوال (أقول) انه قد فشا في الشعب بعده ما هو شر من السكر وهو استعمال المخدرات السامة من الكوكايين والمورفين و ...

نم اذ كر بمناسبة الكلمة الاولى في اطفال المسلمين وشبانهم أن أحمد فتحي باشا زغلول كان يتحدث معي مرة في ضعف رجال الحكومة المصرية وفتور همهم حتى في أعمالهم الرسمية فذكر أفراداً من رؤسائهم قال انهم تعلموا احسن التعليم ، وحصلوا أكمل التحصيل ، وكان لهم ما يحمد من الهمة والشجاعة الأدبية في شبابهم ، وتجدد الان كالتماثيل في دواوينهم ، لولا انهم يحركون أيديهم نلخم بعض الاوراق أو لطرذ الذباب .

قلت : أو ما سمعت ما كان يقول أستاذنا في ذلك - وذكر له كنهه - فإذا هو قد سمعها منه إذ قال : أو كما كان يقول الأستاذ شيئاً كنا نفهم كل مراده منه ؟ كلا اننا كنا نفهم مدلول ألفاظه اللغوية وأما فحواها وتأويلها في الخارج فربما لا نفهمه إلا بعد التجارب عدة سنين

﴿ رأيه في التربية والتعليم بمصر ﴾

يفغينا عن بيان رأيه في هذه المسألة مانقلناه من خطبه التي كان يلقيها في احتفالات مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية (ص ٧٣ - ٧٥٢) وما نشرناه من منشأته في الجزء الثاني من هذا التاريخ (ص ٥٢٣) وهو لائحة نظام التربية والتعليم في مصر فقد بين فيها صفة تعليم الأزهر ومدارس الحكومة، وما فيهما من الخلل والفساد. وزد عليه جهاده في إصلاح التعليم في الأزهر، وعندنا كلام آخر منه في ذلك سمعناه في أثناء المذاكرة معه

وخلاصة رأيه في التعليم والتربية أن يكون المراد منهما تجديد تكوين الأمة الذي بطل وانحل منذ قرون كثيرة، بحيث تكون الأمة عزيزة متحدة متعاونة متكافلة يصدق عليها تمثيل النبي ﷺ للمؤمنين بالبيان المرصوص يشد بعضه بعضا، وبالجسد الواحد اذا اشتكى له عضو تداعى له سائر الجسد بالحمل والسهر هذه هي التربية وهذا هو التعليم اللذين كان يجاهد في سبيلهما، ويدعو إلى مسالة الحكام المستبدين والمتغلبين لاجل التمكن منهما، ويعلم ان استقلال الأمة الصحيح لا يكون أولا يتم ويثبت إلا بهما، وكان يقول: يا ويح الرجل الذي ليس له أمة. وكان يفضل القبط على المسلمين في الوحدة والتعاون والعمل لمصلحة طائفتهم، ومعرفة قيمة رجالهم، وقال لي يلجؤون في جميع خطوبهم ومشكلاتهم إلى بطرس باشا غالي من الاسكندرية إلى حلما والسودان

﴿ رأيه في الوطنية والدين ﴾

كان يرى ان الوطنية التي هي عبارة عن تعاون جميع أهل الوطن الواحد المختلfi الأديان على كل مافيه عمرانه وإصلاح حكومته لا يعارض الدين الإسلامي في شيء، كما يثبت شرعه في العدل والمساواة ويشهد له تاريخه كما بينه في كتاب الإسلام والنصرانية وقد كان السيد جمال الدين يرشد تلاميذه ومريديه وحزبه السياسي إلى وجوب اتحاد أهل كل قطر شرقي إلى التعاون على الاعمال الوطنية السياسية والعمرانية وكان حزبه مؤلفا من أذكاء الملل المختلفة، وكان مع هذا يدعو

المسلمين إلى الإصلاح الاسلامي الخاص بهم في فهم العلم والدين وشدوا أواخي الاخوة الإسلامية مع جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم ، ولم تر أحداً من الناس الذين تكلموا في شؤونهم والذين كتبوا عنه في مدة حياته ولا بعد مماته أنهم بالتفريق بين أهل الوطن الواحد ، ولا بين أهل المذاهب الإسلامية ، بل كان داعية اجتماع واتحاد وطني في كل وطن - وشرقي عام في دعوة الشرق كله وإرشاده إلى تحرير شعوبه من سيطرة الغرب - واتحاد اسلامي في الإصلاح الديني وبند الشقاق فيه وكذلك كان الاستاذ الامام كما علمنا من سيرته في مصر وفي سورية ، قد كان من التآلف بين جميع الطوائف في بيروت على عهد مالم يعهد له نظير كما تقدم ، وكان يرى القبط على أنهم الاتحاد والتآلف والتعاون بينهم على ترقية جميع أمورهم الدينية والدنيوية من دون المسلمين ، ولم يصدر عنه قول ولا فعل في مقاومتهم او دعوة المسلمين إلى ذلك ، وإنما كان يحب أن يجتهد كل فريق بنفسه في ترقية مصالحهم المالية ويتعاون الجميع على المصالح المشتركة الوطنية . وقد كان يعلم أن بطرس باشا غالي هو الذي وضع في وزارة الحقانية مشروع المحاكم الشرعية تمهيداً لالغائها وادغام عوامها في عمل المحاكم الاهلية ، وأخبرني بذلك بصفة خاصة كما كان يخبرني بجميع الاسرار ، ولكن معاملته الشخصية مع بطرس باشا لم تتغير

وقد كان بعض كتاب المسلمين طعنوا في بطرس باشا واتهموه بمحاباة القبط في الوظائف وغيرها إذ كان وكيل وزارة الحقانية ، وذكروا أن تمصبه الذي كان سبب الخلاف بينه وبين الوطني المسلم النابغة شفيق بك منصور هو الذي اضطر هذا إلى الاستقالة وكان الاستاذ الامام في ذلك الوقت (سنة ١٣٠٥) في بيروت فلما رأى هذا الشقاق الوطني في الجرائد المصرية كتب في تلافيه مقالة في جريدة نمرات الفنون عنونها (مصر والمحاكم الاهلية) وكتب إلى بعض مريديه بمصر (سمع زغلول) أن يسمى بنشرها في بعض الجرائد الإسلامية فننقل منها هنا ما يثبت مذهبه الوطني شرحناه من جزء المذات (ص ٣٦٥ طبعة ثانية) وهو

أتت جريدة على ذكر ما يشاع من الخلل في المحاكم الاهلية بمصر ، وتذرعتم بذلك إلى الكلام في وكيل الحقانية ، وناطت جميع الخلل بأثره وقطره في الليل

الى ابناء طائفته (القبط) حيث أقام منهم في مناصب القضاء وما يتعلق به من
لا أهلية فيه لاجادة العمل ، واسترسلت من ذلك إلى دعوى أن المسلمين قد
نظروا إلى هذا التصرف بعين الناقم . فعارضتها جريدة أخرى ودفعت ما ادعته
من وقوع الضغائن بين المسلمين وبين اخوانهم في الوطنية من الاقباط ، وأقامت
الادلة على التحامهم بالالفه والمحبة ، وأخذ كل منهم بمضد أخيه عند الشدة ،
ورسوخ ذلك في نفوسهم بالتوارث عن أسلافهم ، وأقوى برهان على ذلك
وقوفهم مواقف القتال مع اخوانهم المسلمين في مواطن الحروب في فتنة كريد
وحرب الحبش والمواقع السودانية ، وما سبق ذلك وما لحقه ، يناصرونهم
ويوازرهم ، فكلوا حرباً لمن حاربهم ، وسلموا لمن سألهم ، وأن الخلاف المذهبي
لم يحدث في البلاد شقاقاً وطنياً في زمن من الأزمان . ولهذا لا نرى للقبط في مصر
مسألة سياسية تعنى بها دول أوربا كما نرى لغيرهم في غير مصر مسائل . وأيدت هذه
الجريدة جريدة أخرى جاءت بتاريخ القبط في الاحقاب الماضية ، وما وصلوا اليه
في الاوقات الحاضرة ، ثم فصلت القول تفصيلاً فيمن عهدت اليهم وظائف في
الحاكم الالهية من الطائفة القبطية وذكرت أسماءهم وسوابق خدمتهم ، فكان أعضاء
الحاكم منهم عشرة من سبعة وستين عضواً والذين في أقلام النيابة منهم ثلاثة من
عدد كثير من النواب وعمالقهم ، والكل في قولها من أهل الاستحقاق لا ينفرد على
أحد منهم في العلم بما وليه ، ولا يرمي بالقصور عن تأدية ما عهد اليه عمله
نم رأينا في مواضع متعددة من جريدة جديدة تطبع في القاهرة تلويحاً
وتصريحاً بالحال الواقع في الحاكم ، وأن مظهره بل كله من تداخل وكيل الحقانية
بطرس باشا غالي في أعمال تلك الحاكم . ونقلت تلك الجريدة إجماع الناس على أن
السبب في زول النازلة الهائلة وهي استعفاء عزتو شفيق بك منصور إنما هو الخلاف
الذي وقع بين بطرس باشا وبينه ووقوف الباشا مانعاً بين البيك وبين الإصلاح
هذا إجمال ما رأيناه فرويناه وعندنا أن التحامل على شخص بعينه لا ينبغي أن يتخذ
ذريعة للطعن في طائفة أو أمة أو ملة ، فإن ذلك اعتداء على غير معتد ومحاربة لغير محارب ،
أو كما يقال جهاد في غير عدو ، وهو مما ضرره أكثر من نفعه ان كان له نفع ، فانه

يشير الساكن ، وينطق الساكن ، ويثاب القلوب المتفرقة على مقاومة رأي الطاعن ، ومخالفته الى عكس ما يريد ، فليس من اللائق باصحاب الجرائد ان يعمدوا الى احدى الطوائف المتوطنة في أرض واحدة فيشملوها بشيء من العلم ، او ينسبونها الى شائن من العمل ، تملأ بأن رجلا او رجلا منها قد استهدفوا لذلك ، فانه مما يرسل العداوات الى عناقق القلوب ، ويدلي بالضغائن الى بواطن الافئدة ، فاذا تنافرت الطوائف تشاغت كل منها بما يحيط شأن الاخرى ، فكانت كل مساعيهم ضرراً على أوطانهم ، فالتوى على الطاعن قصده ، وتمدت عنه غايته ، فقد كان يريد بقوله انتقاص شخص واحد - تأديباً له او استصرافاً لدفع شره ، فأدى سوء استعماله الى خيبة آماله . فنحن نرى رأي الجريدين المحاميتين خصوصاً عن طائفة الاقباط في مصر ، فانها أظهرت بحسن سيرها مع المسلمين من مواطنيها ما أهمل لوجوب المحافظة على وصية النبي ﷺ فقد عهد الى أصحابه اذا فتحوا مصر أن يستوصوا بقبضها خيراً ، وقد كان حسن حال الاقباط مظهرًا لصدق نبأه عليه الصلاة والسلام . على أن كثيراً من أسلاف هذه الطائفة كانوا أمناء على مال الحكومة المصرية في الدول الاسلامية المتعاقبة بما أجادوا من صناعاتي الحساب والكتابة في تلك الاوقات ، ولم تعهد لهم فتنة ، ولم تذكر لهم على البلاد غائلة ، فلا ينبغي لمبغني الحق أن يمس شأنهم بالعنوان العام . وأما مالا تخلو منه طائفة من وجود أشخاص ضعاف العقول أو ميالين الى الشر ، فعلى الناقدين أن يقصروا نقدهم على حال أولئك الاشخاص ، ويستعينوا ببقية الطائفة وغيرهم من مواطنيهم على دفع شرهم ، أو تحويلهم عن القبيح من اعمالهم ، ويجب أن يكون النقد خاصاً بالعمل الذي ظهر فيه الخلل لا يتعدى الى أوصاف خاصة لا تنفذ في البحث . نعم ان كانت الطائفة او الامة من قوم أجانب على البلاد ومتغلبين عليها بقوة قاهرة ، او حيلة غادرة ، وكانت أعمال آحادها مبنية على أصول سننها المتقلبون ، فيكون عمل الواحد كأنه صادر عن الجملة كافي أعمال الانكليز بمصر ، جاز لنا قد أن يأخذ الجماعة باسم الواحد منهم ، ويستصرخ أبناء الوطن جميعاً لكشفهم عن بلادهم ، واستخلاص الحق منهم لأربابه اهل المراد من القالة وبقيتها دفاع عن بطرس باشا

﴿ رأيه في الاحتلال والاستعمار الانكليزي ﴾

والفرق فيه بين الانكليز والفرنسيين

يعلم جميع الواقفين على التاريخ الحديث وسيرة الاوربيين في الاستعمار انهم يسمون فتحهم الممالك واستيلائهم عليها بالطرق السياسية بأسماء خادعة تفر الشعوب وتخدع أعصابهم بتوهمهم ان البلاد بلادهم وان وجود الاجنبي فيها موقت والمصلحة فيه مشتركة بينه وبينهم - كالحماية والاجارة والاحتلال الموقت وغير الموقت ، وزادوا عليها بعد الحرب اسم الانتداب والوصاية - ولهذا التسمية عندهم فوائد احتياطية لان احداث الزمان قد تضطرم إلى تغيير سياستهم فيها حتى يتركوها لاهلها ، كما ان لهذا المظهر فائدة لاهل البلاد بما يعطيهم من حق المطالبة بحقوقهم في الاستقلال بها ، وإزالة صور الحماية او الوصاية او الاحتلال إذا عرفوا كيف يسعون لذلك ويستعدون له

ويعلم أكثر هؤلاء الواقفين العارفين ان الانكليز يراعون من عقائد من يستولون عليهم ومن استعدادهم العلمي والاجتماعي مالا يرعي الفرنسيون ، وأنه يمكن من اقتناعهم والاستفادة منهم مالا يمكن مثله مع الفرنسيين ، لان أخلاقهم أعلى ، وهم إلى مؤاتاة الطبيعة والعقل أدنى ، وخلقهم التجاري ، يؤثر في سيرهم السياسي ، فهذا مما لا يحتاج إلى رأي من مثل الاستاذ الامام في كبر عقله وتجاربه

بيد انني أنقل عنه ما يحتاج إليه غير العارف بما ذكره ويزداد العارف به بصيرة ، ومنه ان الذي يبتلى بسلطتهم على بلاده لا يمكنه أن يقتنعهم بما يراه من مصلحتها أو كف الاذى من ناحيتهم عنها إلا باتيانهم من ناحية أخلاقهم والراستخ في طباعهم ، كما تقدم في مسألة قاضي مصر التركي ورجوعهم عن إيجاب عزله على الخديو ونصب قاض مصري في مكانه (راجع ص ٥٧٦) - او باتيانها من ناحية غريزتهم التجارية في تصوير المنفعة لهم فيما فيه منفعة البلاد ، ومن هذين الناحيتين كان الاستاذ الامام يقنع لورد كرومر بكثير من المصالح الوطنية ، وكان في أول العهد بعودته الى مصر يزيد عليهم ما ان الشعب قريب العهد بشورة فقتال مع الانكليز فيجب اجتناب ما يثير في نفسه ذكرى ذلك

مثال قناعهم من طريق منفعتهم انه بلغ الاستاذ ان اللورد عزم على إلغاء النيابة العامة من المحاكم الاهلية واحالة عمل النائب العمومي ورؤساء النيابة ووكلائها على القضاة وانه أمر الحكومة بذلك ولم يبق إلا تنفيذه بقرار من مجلس النظار فزاره في صباح اليوم الذي تقرر اجتماع مجلس النظار فيه لتقريره ، فأخبره اللورد به وسأله عن رأيه فيه ، فأجابه ان هذا خطأ لا يحتمل الصواب ، وضرر عظيم على الحكومة والبلاد ، وشرح له ذلك من الجهة القضائية وأهمها عجز القضاة عن النهوض بعمل النيابة ، وزاد على ذلك ما هو أهم في نظر اللورد وهو ان رجال النيابة الذين يلقى عملهم هم من أرقى رجال البلاد علماً وعقلاً ولساناً وقلماً ، وستتوجه همه كل من تلقى وظيفته ولا يجد غيرها في درجتها إلى الاشتغال بالسياسة فيتمتعون بالبلاد والمسؤولين عن النظام تعباً كبيراً ، او ما هذا فخواه

قال اللورد حينئذ ان هذا كلام وحيه ونحن قد استشرنا كثيراً من العارفين بالقضاء والادارة فلم نجد عندهم مثل هذه الاعتراضات بل وافقونا ، وان جلس النظار سيجتمع الآن في سراي عابدين برئاسة الجنب الخديوي لتقرير هذه المسألة ولا بد لا يقف ذلك من ذهابي بنفسي الى عابدين بعد إيدانهم بذلك بالتلفون ، وقام فودع الاستاذ وأخبر السراي بمجيئه راجياً تأخير جلسة المجلس الى ما بعد حضوره ، فذهب وابطل هذا العمل

هذا نموذج من أفعاله في خدمة البلاد من طريقهم . ومن أقواله فيهم ما قاله لي وقد كنت راكباً معه فربأنا فلا حايتمتص عوداً من قصب السكر مبالغاً في امتصاصه ، فلا ياتي ما في فيه منه إلا بعد جفافه ، قال الاستاذ أنظر إلى هذا الرجل كيف يمتص هذا القصب ، هكذا يفعل الانكليزي في امتصاص ثروة البلاد واستخدام الرجال المتمردين على العمل فيها ، هم يحافظون على الشيء او الشخص ما وجدوا فيه فائدة لهم ، حتى اذا مارأوا انه لم يبق فيه أدنى فائدة لهم أقوه كما يلقي هذا الفلاح ما يمتصه من ألياف القصب اذا جف ولم يبق فيه شيء من الحلاوة .

وكان ينكر على الخديو اتباعه هذه القاعدة التجارية معهم ببيع مصالح البلاد بمنافعه المادية او أهوائه الشخصية ، كمساعدتهم إياه على عمه في مسألة نظارة الاوقاف

الخصوصية، وذكر مسائل أخرى، وكان هذا الحديث قبل حدوث مسألة محاولة عزله وعزل حسن باشا عاصم من الحكومة وقد تقدم شرحه وهو أوضح المثل وأظهر الشواهد في ذلك

محاورة في الاحتلال وأعماله المنكرة

زاره محمد بك بيرم وأنا عنده في رمضان سنة ٣١٥ وهو من حزب الانكليز وقد رقبوه فجعلوه محافظ مصر وكان يأتيه دائماً باخبار الحكومة والانكليز على حقيقتها فذكر مسألة بيع البواخر لشركة انكليزية وصرخ المؤيد ومن على رأيه في الانكار على الحكومة والانكليز، وقال هل ينتظرون من الانكليز أن يفضلوا على الشركة الانكليزية شركة من غير أبناء جنسهم؟ نعم لو وجدت شركة مصرية وقدموا عليها الشركة الانكليزية لكان لهم الحق في الانكار، ولكن أين الوطنيون الذين يقدمون على مثل هذا؟ اجتمع عند الخديو جماعة من وجهاء الاغنياء وتكلموا في المسألة فوعدهم بانهم اذا هيئوا المال يتم لهم المسألة ويكون شريكهم فيها، وضرب لهم موعداً فانقضى الموعد ولم يكن منهم شيء.

قل الاستاذ ان المعارضين في المؤيد وغيره يتكلمون في المسألة من جهة شرف الحكومة والبلاد بابقاء الراية المصرية في البحر

قال البيك : إن الراية المصرية وكل ما هو بمعناها قد طار مع دخان المدافع يوم ضربت الاسكندرية . وإن الخديو يوم جاء مصر استقبله الانكليز استقبال ضيف (وذكر كلاماً في ذلك لا يعرف عن غيره بل المعروف خلافه) قال : ولكن المصريين لا يفهمون هذا ... يرون ميتاً لم يدفن فيظنونونه حياً

(أقول وقد حضرت مثل هذا المجلس في مكتب الشيخ علي يوسف بإدارة المؤيد وكان عنده ابراهيم بك المويلحي وكان يقول هذا الكلام في المسألة المصرية وان ما يسمى الاحتلال هو عين الفتح والامتلاك ، قال بعض الحاضرين وقد انتهى أمره بمعركة النيل الكبير ، فقال المويلحي بل بضرب الاسكندرية واحتلالها أو قبل ذلك . ولم يعترض الشيخ علي ولا غيره على ذلك بل وافقهم عليه)

ثم ذكر محمد بك بيرم مسألة بيع أراضي الوقف المسماة (تقديش الوادي)

التي وقفها اسماعيل باشا على المكاتب والمدارس الاسلامية
قال الاستاذ : ان هذه المسألة في غاية الخشونة وما كان يليق بالانكليز مثل
هذا العمل المفضوح وإن كانت أزمة البلاد في أيديهم

قال البيك : إن استبدال أرض الوقف جائز ولو بالمال ليشتري به غيره
قال الاستاذ انما يصح هذا في الاراضي التي لاربع لها وهذه الاراضي كان
ربيعها السنوي خمسة عشر ألف جنيه فما زالت تنقص حتى صارت ٧٥٠٠ جنيه
أي نزلت إلى النصف فينبغي الفحص عن السبب . واذا كان لابد من بيعها على
ان دخلها كذا فلا بد في هذا من حكم القاضي الشرعي . وقال في الرد على قول
بعض رجال الحكومة انها من أملاك الميري : ان اسماعيل باشا ورث هذه الارض
من أبيه ابراهيم باشا ووقفها بصفته الشخصية « اسماعيل بن ابراهيم من أصحاب
الاملاك » لا بصفة انه خديو مصر ، فوقفها صحيح لا شك فيه

قال البيك لو ان المصريين يعلمون ان الانجليز قد امتلكوا مصر ووجهوا
نظرهم لمعرفة كيف ينبغي أن تكون حياتهم مع هذا الحاكم الجديد لكانوا انتفعوا
وقدروا أن يحافظوا على بعض ما يجب المحافظة عليه

قال الاستاذ متلطفا في تخطيطه بما ارتآه من وجوب توطين المصريين أنفسهم
على ذهاب بلادهم من أيديهم - : إن العمل لاجراج الانكليز من مصر عمل كبير
جداً ولا بد في الوصول إلى الغاية منه من السير في الجهاد على منهاج الحكمة والدأب
على العمل الطويل ولو عدة قرون ، لانه عمل صغير يكفي فيه الكلام في المجالس
والكتابة في الجرائد ، (هكذا أو مامعناه) وقالوا إن كثيراً من المصالح الاميرية
معرضة للبيع فهل يقدم المصريون على شراء شيء منها ؟

فرنسة والاسلام

ثم قال البيك بمناسبة يوم تفتيش الوادي وحكم الاستاذ بأنه وقف صحيح
وان بيعه اعتداء من الانكليز على الدين : ان الفرنسيين قد باعوا مساجد مدينة
الجزائر لاجل المصالح العامة ولم يبقوا في تلك المدينة إلا أربعة جوامع فقط —
وانتقل الكلام بهذه المناسبة إلى ذكر فرنسة فقال الاستاذ الامام : انه لا توجد
أمة تبغض المسلم لانه مسلم لا لأمراً آخر إلا فرنسة . وأطال في بيان ذلك : ومما قاله

انني لما كنت أجتمع مع احد الفرنس-اويين للمذاكرة في أحوال الشرق أمتعض وينتفضر- أو يرتعش- جسدي كله

وقال ان الفرنسي اوي إذا مدح الاسلام وذكر شيئاً من مزاياء فلا بد أن يكون غرضه من ذلك منفعة فرنسة ، وذكر عدة رجال منهم ألفوا كتباً بهذا المعنى ثم صرحوا ولو في آخر ما كتبوا بحالتهم مع المسلمين في الجزائر وما ينبغي عمله لبقاء سلطتهم فيها ، وذكر أسماء بعض تلك الكتب

كنت قد استغربت هذا القول من الاستاذ ثم رأيت كثيراً من الشواهد والدلائل التي تؤيده وأقواها ما كتبه فيلسوف فرنسة الاجتماعي ومؤرخها الحر الدكتور غوستاف لوبون إلى عبد الغني سني افندي التركي المشهور وهو نص صريح في هذا المعنى مع بيان سببه وهو الدين الكاثوليكي

ذلك بأن عبد الغني افندي هذا قرأ بعد الحرب الكبرى كتاباً لهذا الفيلسوف في أسباب الحرب وفلسفتها ألمحى فيه بالتخطيط على الدولة العثمانية لدخولها في الحرب مع ألمانيا ، فكتب اليه مبيناً عذر دولته في ذلك وهو اتفاق فرنسة مع الروسية من قبل الحرب على تقسيم بلادها وإعطاء الآستانة لروسية . فلم يلبث أن جاء مرجوع الكتاب من الفيلسوف يعترف له فيه بالحق أي بعذر الدولة ويصرح فيه بيفض دولته فرنسة وقومه المسلمين- وهل يقول الحق في السياسة افرنسي إلا أن يكون فيلسوف ولا يقول إلا ما يمتد ؟ وقد نشر هذا الجواب في مجلة الهلال بلغته الافرنسية مع ترجمته وهذه ترجمته (من ص ٦١٦ من العدد السادس من السنة الثالثة والثلاثين)

سيدي

« أراكم فيما كتبتم على تمام الاصابة سأسعى في نشره في إحدى الجرائد الفرنسية . لكنني لست واثقاً من ان أوفق . لان العقيدة الكاثوليكية المتوارثة فينا تجعلنا من ألد الاعداء للمسلمين . وقد كتبت فيما مضى مجلداً ضخماً باسم « حضارة العرب » وذلك لأثبت ان العرب هم الذين مدنوا أوروبا

هذا واقبلوا الدكتور غوستاف لوبون

ثم قال الاستاذ : إني لأعجب لهؤلاء الافرنج كيف يجرحون قلوب الذين يستولون عليهم بالتعدي على أحكام دينهم وامتهان شعائره وتقاليده (كبيع الانكليز لوقف تفتيش الوادي) ويميشون معهم خائفين من ثورتهم وانتقاضهم عليهم ، وفي إمكانهم أن يحبوا أنفسهم إليهم ويميشوا معهم بالراحة وانما ذلك بعدم التعرض لدينهم

قلت : ان اضاف الدين الاسلامي غرض مطلوب لذاته عندهم فهم يؤثرون التعب بفعل ما يحبون ، على الراحة مع ما يكرهون
قال : ليس هذا برأي فان توالي المؤتمرات يبعث على الخروج يوما ما . ثم تكلمنا عن ثورة الهند التي تفاقم خطبها في تلك الايام ، وفي حالة روسية وألمانية وشبابهما ونشاطهما . ولا حاجة الى ذكر شيء من ذلك هنا

(رأيه في اللغة العربية واللغات الاوربية والكتب في كل منها)

قد نوهنا بما عني به الاستاذ الامام منذ انتقل من دور التعلم الى دور العمل من السعي لاصلاح اللغة العربية عند توليه إدارة المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية وفي التدريس بدار العلوم ثم في اصلاح الازهر ، وفي بعض تقاريره الاخيرة عن دار العلوم عند توليه رئاسة امتحانها السنوي تصرح مرضي بتقديم اللغة العربية فيها وقربها من الدرجة المطلوبة وسنشر بعضها في الذيل إن شاء الله تعالى ولكنه كان يرى ان اللغة العربية في حاجة الى اصلاح آخر فوق اصلاح التعليم لفنونها وآدابها ، واتقان الكتابة والخطابة فيها ، وهو ما فعله الفرنسي وغيرهم من شعوب العلم في أوربة من تأليف المجامع لوضع المعاجم اللغوية وتاريخ تطور اللغة وما دخل فيها من اصطلاح ومعرب وغيره ، والمعاجم العلمية ، وفلسفة البيان والانتقاد ، وغير ذلك ، وقد قال لي ان هذا النوع من الاصلاح لا يرجى لنا بلوغ شأو الفرنسي فيه إلا باشتغال جدي مدة خمسين سنة .

وأما كتبنا العربية فقد كان كثير الشكوى والتبرم من سوء أسلوبها وضعف لغتها ، وكان يفضل كتب المتقدمين على كتب المتأخرين ، ويقول مع ذلك إن فن

التأليف والتصنيف قد بلغ الغاية من الارتقاء عندهم، وأنا في أشد الحاجة إلى حذوهم فيه قلت له في أول حديث لنا في اصلاح الأزهر وقد تقدم ذكره وتاريخه اننا في أشد الحاجة إلى تأليف كتب تناسب حالة العصر وحاجته في الترتيب والسهولة ومراعاة عقول المتعلمين، وفي تنقيح العلوم وتمييد طرقها ومسالكتها، ولا سيما تواريخ العلوم وغيرها.

قال نعم: اننا اذا أردنا أن نكتب في تاريخ علم الكلام مثلاً فلا يوجد في تواريخنا مادة تفي بالغرض، يذكرون أن واصل بن عطاء أول من تكلم في العقائد على مذهب المعتزلة واعتزل مجلس الحسن البصري، لكن ما سبب ذلك؟ من أين جاء هذا الفكر الجديد؟ وكيف انتشر هذا المذهب؟ وما الذي حدا بالشيخ أبي الحسن الأشعري للقول بأن الوجود عين الوجود؟ و.... ومتى دخلت الفلسفة في كتب العقائد؟ وماذا كان غرض العلماء في إدخال الفلسفة على القول مع العقائد في وقت واحد؟ كل هذا يعسر علينا أن نعرفه من تواريخنا - ويمكننا أن نعرف كثيراً من شؤون الاسلام وتاريخه من الكتب الأفرنجية فان فيها ما لا نجده في كتبنا.

وقال في وقت آخر ان العالم المسلم لا يمكنه أن يخدم الاسلام من كل وجه يقتضيه حال هذا العصر إلا اذا كان متقناً للغة من لغات العلم الاوربية تمكنه من الاطلاع على ما كتب أهلها في الاسلام وأهله من مدح وذم وغير ذلك من العلوم

﴿ رأيه في الصوفية والفقهاء ﴾

أول حديث دار بيني وبين الاستاذ في هذه المسائل كان في يوم الخميس (٦ شعبان سنة ١٣١٥) كنت على موعد لزيارته فجثته في منتصف الساعة التاسعة صباحاً فكشفتني بعزمي على انشاء جريدة وتكلمنا في هذا الموضوع بما سأذكره في موضعه، وإذ كان المراد من جريدتي هذه الاصلاح الديني تذاكرنا وفيه وفي وجه الحاجة اليه حتى انتهى الكلام الى ذكر الصوفية

قلت: إن الصوفية فلاسفة أخلاق، وان كلامهم نفع كثيراً وأضر كثيراً

قال : (١) انه لم يوجد في أمة من الامم من يضاهي الصوفية في علم الاخلاق وتربية النفوس — و (٢) انه بضعف هذه الطبقة وزوالها فقدنا الدين — و (٣) ان سبب ما ألم بهم تحامل الفقهاء عليهم، وأخذ الامراء بقول الفقهاء فيهم ، فأوائك يكفرون ، وهؤلاء يعذبون ويقتلون ، حتى انه قتل في هذه البلد (القاهرة) في يوم واحد خمسمائة صوفي — و (٤) ان هذا سبب ظهورهم بغير مظهر طائفتهم ان ظهوروا ، ولجؤهم إلى الاختفاء ، وكلامهم في الطريقة وما يحصل لهم من الذوق والوجدان بالرمز والاشارة — (٥) ثم قام أناس يقلدونهم فيما كان يظهر منهم مما كانوا مضطرين الى الظهور به وهو ليس من التصوف ، ولم يعرفوا من أمورهم الصحيحة إلا قليلا . وهكذا كان البعد عن انتصوف رويداً رويداً حتى انقرضت هذه الطبقة انقراضاً تاماً إلا مالا نعلم

قال : وان الفقهاء لبعدهم عن التصوف (الذي هو الدين) جهلوا سياسة وقتهم وحاله ، ولجهلهم بالسياسة لم يعرفوا كيف يمكن تنفيذ الاحكام الشرعية . . . اذا عرفوا ان الحكم كذا ؟ لا يعرفون كيف يعملون الامراء والحكام يلتزمون هذا الحكم وينفذونه ، ولهذا ضاع الدين والسياسة

احتقرهم الامراء والسلاطين في أنفسهم ، واستخدموهم لاغراضهم التي تؤيد سلطتهم ونفوذهم ، وحملوهم على الفتوى بما يؤيد رغائبهم — ولا يوافق الشرع — فدققوا النظر واستنبطوا لهم ما يطلبون ، وأفتوهم بما يشاؤون . وقررت فتاويهم في كتب الفقه على انها أحكام شرعية « أي ان هذا هو حكم الله في هذه المسألة » قلت : ان للصوفية كلاماً غير معقول وما هو مخالف لظاهر الشرع (أو ظاهره

للشرع) وهو الكلام فيما وراء التربية وتهذيب الاخلاق الذي انفتح به الباب لنا ويلات الباطنية، الذين يشبه كلامهم في كثير من آيات القرآن كلام الصوفية ولكون اهل السنة صاروا يسلمون للصوفية أقوالهم صارت الصوفية وصلة بيننا وبين الباطنية قال : نعم صدر عنهم كلام ما كان ينبغي أن يظهر ولا ان يكتب « ومنه ما يوهم الحلول » ولو كنت سلطانا لضربت عنق من يقول به . وأنا لا أنكر ان لهم أذواقاً خاصة وعلماً وجدانياً « بل ربما حصل لي شيء من ذلك وقتاً ما »

لكن هذا خاص بمن يحصل له لا يصح أن ينقله لغيره بالمبارة ولا أن يكتبه. ويدونه علماً. (قال) ان هذا الذوق يحصل للانسان في حالة غير طبيعية وكونه خروجا عن الحالة الطبيعية لا ينبغي (أولاً يجوز) أن يخاطب به المتقيد بالنواميس الطبيعية. اهـ. وقل في حديث آخر ولا يستحيون ان يقولوا: ان كل ذلك حكم الله يدين به عباده. وقل أيضاً: كل ما أنا فيه من نعمة في ديني أحمد الله تعالى فسبها انتصوف. وتقدم بيان ما فوق له من التصوف الصحيح الخالي من البدع والخرافات المرغب في العلوم وتحرير القول في التصوف في أوائل الكتاب

ثم فصل الاستاذ هذه المسألة - التنازع بين الفقهاء والصوفية وما انتهى اليه أمر هؤلاء في تفسير (٢ : ١٦٥) ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) وحق ما كان عليه الصوفية الاولون من الاصلاح وحسن النية فيما أخطأوا ، وافتن الناس بهم ببد فساد أمرهم حتى اتخذوهم أنداداً لله يطلبون منهم ما لا يطالب إلا من الله تعالى فيراجع هذا التنصيل في الجزء الثاني من التفسير وفصله أيضاً في مجلس من مجالسه التي عقدت ليراد الشبهات وحل المشكلات وتفنيد الخرافات في قرية (بهاده) وكنا من حاضريها مع الاستاذ الاكبر السيد علي البيلادي شيخ اجماع الازهر وغيره من كبار علماء الازهر كالشيخ أبي الفضل الجيزاوي الذي صار شيخاً للازهر بعده والشيخ سايان العبد شيخ الشافعية وغيرهم رحمهم الله تعالى ، وكان هنالك شيخ يسمى الشيخ محمد الدلاصي يفتن العوام بالاولياء وكراماتهم ومددهم ، وكان الشيخ عبد المؤمن موسى عمدة تلك البلد من قراء المنار يخالف هذا الشيخ في تعاليمه الخرافية ولم يجد وسيلة لظهار ضلاله لاهل البلد الذين يجتمعون عليه الا دعوة الاستاذ الامام الى البلد هو وهؤلاء العلماء الاعلام (سنة ١٣٢٢)

وهناك أقيمت على الاستاذ الامام الاسئلة المتعاقبة بالموضوع فأجاب عنها بما هو الصواب وفصل الخطاب ، ومما لم نكن نعلمه الا منه في ذلك المجلس مسألة (ديوان الاولياء والتصرف الباطن) للذين ينسبان الى الصوفية فيبينها الاستاذ الامام أحسن بيان وافقه عليه من حضر من العلماء ، وملخصه انه لما أمعن

الامراء في الفتن بالصوفية باغراء الفقهاء كان الصوفية يعقدون اجتماعات سرية للبحث في كف الاذى عنهم ويقررون فيها ما يتفقون عليه ثم يسمعون لتنفيذه بالوسائل الكسبية وقد يكون منه قتل بعض خصومهم - فهذا أصل ما يسمى الديوان والتصرف في الاكوان ، وليس تصرفا بالكرامات ولا بخوارق العادات فليراجع تفصيل هذا من اراده في (ص ٤٣٢ - ٤٤٠) من مجلد المنار السابع

رأيه في البهائية العباسية والشيعة

كنت قد عنيت بالبحث عن حقيقة البائية البهائية وغير البهائية في أثناء طلب العلم بطرابلس الشام ، ولما هاجرت إلى مصر في منتصف سنة ١٣١٥ اجتمعت بميرزا ابي الفضل الجوزقاني داعية البهائية وناظرته مراراً ، وكان عندي رسالة منه كتبها في التمهيد للدعوة الصريحة إلى دينهم وكانوا ممنوعين من هذه الدعوة في بلاد الدولة العثمانية - ومصر منها - بما اشترطته عليهم الدولة عند الاذن لهم في الإقامة بمكا، وحرية التجوال والإقامة في سائر بلادها

وقد دهشت أشد الدهشة إذ رأيت الاستاذ الامام غير واقف على حقيقة دينهم ومصداقاً ما كان سمعه من زعيمهم الداهية عباس افندي نجل البهاء ومنظم دعوته وناشرها حتى أوقفته على ذلك ، كان يجتمع بعباس افندي أيام إقامته في بيروت إذ كان عباس افندي يتردد اليها ويصلي الصلوات الخمس والجمعة ويحضر بعض دروس الاستاذ الامام ومجالسه واستمر على مكاتبته بعد عودته إلى مصر ولدي عدة كتب منه اليه

وكان أول حديث جرى بيني وبينه فهم تمة المحاوراة في الفقهاء والصوفية فأنني لما ذكرت الشبه بين الصوفية والباطنية في التأويل سألته عن رأيه في البائية قال ان هذه الطائفة هي الطائفة الوحيدة التي تجتهد في تحصيل العلوم والفنون بين المسلمين وفيها العلماء والعلماء ، ولا أعلم حقيقة مذهبهم ، ولا أدري هل ما يقال عنهم من الحلول ونحوه صحيح ام لا ؟ بل أستغفره جداً

سألته عن ميرزا فضل الله الايراني ؟ قال سمعت به منذ عهد قريب وانه مؤرخ وفاضل ولم أره

قلت نعم انه بارع في التاريخ وقد ساح كثيراً وهو مهذب الاخلاق وذكوت كل ما عرفت من صفاته وقلت انه يظهر لنا انه من دعاةهم

ثم سألت عن عباس افندي وقلت أسمع انه بارع في العلم والسياسة ، وانه عاقل يرضى كل محلس ...

قال نعم ان عباس افندي فوق هذا ، انه رجل كبير ، هو الرجل الذي يصح إطلاق هذا اللقب (كبير) عليه

قلت له : انني اجتمعت بميرزا فضل الله مراراً وناظرته فألفيته يستدل على صحة تعاليمهم بثباتها هذه المدة وانتشارها ونموها ، وبحجج بآيات من القرآن على انه لا يدوم ولا يثبت إلا الحق كقوله (إن الباطل كان زهوقاً) وقوله (له دعوة الحق) الخ

قال : وانا أقول انه لا يثبت ويدوم إلا الحق والخير ، وان الشر والباطل لا يدومان وإن انتشرا ونميا ، ولكن دعوة القوم لم يطل عليها الا مد بحيث يصح الاحتجاج لها بهذا (ثم قال وقد رأيته مرتاباً في قوله) لا أقول ان كل ثابت حق وخير وانما كلامي في الشيء الذي له حياة ونمو (معنويان) فان من الاشياء المعنوية ما هو ثابت كشبات الحجر الذي تلقى في مكان ولا يحركه أحد أو كالجلبل ونحوه مما يكون ثبوته بالاستمرار لعدم المحرك لبقوة حيوية تمسكه أن يزول

وأما ماله حياة كالدعوة إلى دين او مذهب فلا يثبت ويدوم إلا اذا كانت الدعوة حقاً في نفسها ، وإن احتف بها في بعض أطوارها شيء من الباطل فهو عرض لا يمنع دوامها وبقائها بخلاف الدعوة الباطلة من أساسها ، ولهذا لم تثبت دعوى أحد من الذين ادعوا النبوة بعد نبينا ﷺ لانه خاتم النبيين

(قال) وكونه خاتم النبيين لو لم يرد في القرآن لكانت طبيعة الوجود دالة عليه بمجرد النظر إلى خطاب القرآن وتعاليمه ، وضرب لذلك مثلاً فقال

ان مثل النوع الانساني كله كمثل شخص منه يخاطبه ابوه وصريه في كل

طور من أطوار عمره بما يناسب درجة عقله ، وحاجة سنه ، وكذلك عامل الله النوع الانساني . فخطب قوم كل رسول بحسب درجة عقولهم وحالتهم الاجتماعية في زمانهم ، وكما ارتقى البشر جعل الله التشريع لهم أرقى حتى ختمه ببعثة خاتم النبيين ﷺ الذي هو دين سن الرشد لنوع الانسان

نم شرح المسألة بما نستغنى عنه هنا لانه كتبه في رسالة التوحيد في بحث ترقى الاديان وختمها بالاسلام الذي هو خطاب الله للبشر في سن بلوغ الرشد ولم تكن الرسالة قد طبعت عند إلقائه إليّ بهذا الكلام ولاتم تأليفها (راجع ص ١٨٤ من طبعة الرسالة الخامسة)

قلت : ان اتباع الباب والبهاء قد فتنوا بهما لما رأوا من القوة العقلية الخارقة للعادة (وكان الصواب أن أقول الاحوال النفسية والاقوال الغريبة المخالفة للعادة) ولذلك اتبعوها ، مع ان هذا أمر طبيعي فانه قد عهد في الطبيعة ان أفراداً من الناس تكون قوتهم العقلية خارقة للعادة (كقيصر روسية السابق) وكذلك في بعض الازمان يوجد أفراد تكون قوتهم العقلية خارقة للعادة ، وهؤلاء إذا قام أحدهم بدعوة إلى شيء كدين أو مذهب أو طريقة يتبعه خلق كثير افتنانا به وإعجابا بفكره وادراكه وأقواله المؤثرة ، وإن كان ما يدعوا اليه غير معقول في ذاته ولا يمكنه إقامة البرهان عليه

الإستاذ : انا أعتقد أن صاحب القوة العقلية الخارقة للعادة إذا دعا إلى شيء خيري ونجح فيه فلا بد أن يكون مؤيداً بروح من الله تعالى وان هذه القوة العقلية لا يوجد ما الله تعالى عبثاً

قلت : هل تعتقد هذا عن وجدان فقط ام عليه دليل عقلي
قال : بل هو معقول والتاريخ من أوله إلى آخره شاهد له ودال عليه فان الانبياء ودعاة المذاهب الصحيحة كانوا كلهم من هذا القبيل

قلت : ان كلامكم السابق واللاحق عين ما يحتاج به البايية ولم نخافوهم إلا في شيء واحد (هو كل شيء في المعنى) وهو انكم حققتم انه لا يمكن تغيير شيء من أصول الاسلام وشريعته لانها هي التي خاطب الله بها النوع الانساني عند

جلوغة سن الرشد وطور الكمال العقلي الذي ليس وراءه طور آخر يحتاج فيه إلى تشريع آخر منه تعالى لثبوتته وتكميله ، بل وكله في كل ماوراءه إلى اجتهاده واستقلاله والذي يفهم من كلام هؤلاء كـميرزا فضل الله داعيتهم في تفسير ما تشير إليه رسالته التي كتبها لبعض اخواننا تفسيراً لمقالته التي نشرها في المقتطف (١) هو ان بهاء الله إيمان أن يكون مجدداً في الشريعة الاسلامية . واما أن يكون آتياً بشريعة جديدة ، وان لكل وجهها يحتجون له بالقرآن والاحاديث . والذي علمته من مناظرة فضل الله هذا انهم يعتقدون انه شارع لدين جديد ، وان قولهم باحتمال أن يكون مجدداً في الشريعة الاسلامية هو الدرجة الاولى في دعوة المسلمين الى دينهم فاذا قبلها المدعو نقلوه الى الثانية ، وطريقة تفهم في الدعاية وتأويل الآيات والاحاديث بأهوائهم كطريقة سلفهم من الباطنية كالاسماعيلية وغيرهم ويقولون ان غرضهم من ديانتهم او من أصولها ومقاصدها توحيد الاديان وينظرون في كتب اليهود والنصارى ويتأولونها كما يتأولون القرآن ويرغم ميرزا فضل الله كما سمعت منه أن كتاب كل أمة فيه بيان لكل ما يطرأ على تلك الامّة وان الانجيل فيه بيان لحالة أوربة الآن وان الاوربيين سيمحقون محققاً واستدل بما في الاصحاح الثاني من رسالة بطرس الثانية من ظهور معلمين كذبة يبشرون بدع هلاك ويحلبون على أنفسهم هلاكاً سريعاً واعدن اياهم بالحربة وهم عبيد الفساد الخ قال الاستاذ : لو كان بطرس يعلم ما سيطرأ على المسيحية وأخبر به لأخبر عما هو أهم من ظهور البروتستنتية ومن كل شيء طرأ عليها وهو انقلابها وتحولها إلى وثنية ، فان النصرانية انقلبت إلى الوثنية من عهد قسطنطين بعد المسيح بثلاثة

(١) كان ميرزا فضل الله كتب مقالة في المقتطف موضوعها (الباب والبابية)

وقال إنها مقالة تاريخية ، فقرأتها أنا وبض طلبة العلم في طرابلس ورأيت فيها ما يخالف الشريعة الاسلامية فكتبت إلى أخي الشيخ إسماعيل الحافظ وكان مجاوراً في الازهر أن يبلغ ميرزا فضل الله إنكارنا ما أنكرنا ، فبأنه فكتب رسالة وضع فيها مراده بما نأمننا منه ان البهائية دين جديد وانهم يدعون اليه سرا كدعاية الباطنية من قباهم

قرون، قسطنطين كان ملكاً وثنياً وادعى التدين بالنصرانية سياسة لاجل لاستعانة بمنتحليها على خصمه .. ونجح في ذلك

وقال ان لفظ الحرية في رسالة بطرس ليس بالمعنى المعروف الآن ... الخ وبعد إطالة الكلام في تاريخ النصرانية أعطيت رسالة ميرزا فضل الخطبة وانصرفت . ولم أعد إلى لقائه إلا بعد سياحة في الوجه القلبي عدت منها في أواخر شعبان، وقد زرت في الليلة الثانية من رمضان ولم نفرغ لهذا كرهة العلمية لكثرة الزائرين ثم زرت بعد ظهر الجمعة سادس الشهر فقابلني في حجرة النوم والمطامة وكان أول مأسأته عنه رسالة فضل الله فرأيت مستحسنها لها

قلت نعم ان كلامها أو أسلوبها حسن ولا سيما بيان حاجة المسلمين إلى الاصلاح ولكنه ذكر الدعوة إلى الاصلاح درجتين (الأولى) الاصلاح في الدين الاسلامي به وهذا معقول مقبول، وهو الذي نقول به ونسعى اليه وأريد أن أنشيء لاجله صحيفة دورية (والثانية) الحاجة إلى شريعة جديدة ، وقد سلك في التعبير عنها طريق الابهام كقوله ان فهمها يتوقف على فهم معنى « القيامة وطي سموات الاديان » فقارنه لا يفهم مراده منه وقد باحشاه فيه فعلنا انهم يعتقدون ان القيامة قد قامت وان كل ما ذكر من صفاتها في القرآن قد وقع ومنه طي السماء وقوله تعالى (والسموات مطويات بيمينه) فالسموات عندهم هي الاديان ، والسبع منها هي البرهمية والبوذية، والكونفوشيوسية والزردشتية، واليهودية والنصرانية والاسلام . وذكرت غير ذلك من عقائدهم وتاويلاتهم للقرآن بما هو أبعد من تأويلات سلفهم الاسماعيلية والعبيديين بمصر

قال الاستاذ : أي حاجة إلى هذا البعد عن الحق والصواب وإلى هذا الكلام الذي لا يعقل . أنا لم أفهم من عباس أفندي شيئاً من هذا وإنما صرح لي ان قيامهم لاصلاح مذهب الشيعة وتقريبه إلى مذهب أهل السنة . وفي الحقيقة ان مذهب الشيعة (وذكروا ما لم يأذن لي بنقله عنه في حياته ، وأرى الحكمة في ترك التصريح به بعد وفاته، وإنما أقول ان حكمه عليهم أشد من حكم شيخ الاسلام ابن تيمية) وقال هم أحوج الفرق إلى الاصلاح ولكن من الاسف العظيم أن لا يقوم فينا

مصلحون إلا ويخرجون عن الاعتدال إلى مبالغة وغلو لا تنجح معه الدعوة .
الوهابية قاموا بالإصلاح ومذهبهم حسن لولا الغلو والافراط . أي حاجاً إلى قولهم
بهدم قبة النبي ﷺ والقول بكفر جميع المسلمين والعمل على إخضاعهم بالسيف
أو إبادتهم (١) نعم لا بأس بالمبالغة في القول والخطابة لاجل التأثير بالترغيب أو
الترهيب والتنفير ، لكن ما كل ما يقال يكتب ويبنى عليه عمل . انني كثيراً ما
أتكلم بكلام في مجلس المذاكرة والخطابة لا أحب أن يكتب وينقل عني وإنما
فائدته التأثير في نفس المخاطب ...

(وهذا انقطع الحديث بزيارة محمد بك بيرم التي تقدم ذكرها ثم عدنا اليه بعد ذهابه)
سأني الاستاذ عما أنكرناه من رسالة ميرزا فضل فذكرت له أولاً مسألة
تعدد الزوجات والتسري وان ثريمة البهاء تبيح الجمع بين امرأتين فقط ، فطفق
الاستاذ يشرح مفسدات التعدد والتسري وخروج المسلمين بهما عن هداية الشرع
إلى « الاسراف في استغراق الشهوة بدون ملاحظة الغرض الديني ، وهذه
العادة — أي إكثار السراري — نشأت في زمن العباسيين وامتدت إلى هذا
العصر حتى انك تجد عند سلطان الأتراك وغيره المئات من هؤلاء السراري ،
وقد ترتب على ذلك مفسدات كان لها الأثر الكبير في ضعف الأمة وسقوطها إلى
الدركة التي هي فيها . دع ما فيها من بيع السلوات من الجركس والسودان بدون
أدنى شبهة شرعية »

وتوسع في هذا فذكر ما في التعدد من فساد البيوت (العائلات) بانتقال
التعادي من الزوجتين أو الزوجات إلى أولادهن فيتمتعن معها تهذيبهم ، وقال
في حق السلاطين والامراء إذا كان في قصر أحد هذا العدد الكثير من النساء فتى
يصفو فكره للإصلاح والنظر في شؤون الأمة ؟

وإنما أطال الاستاذ في هذا الاستطراد لانه ظن انني من الذين يستحسنون

(١) هذا ما كان مشهوراً عنهم في مصر وجميع البلاد العثمانية ثم علمنا من كتبهم
ان الناس غلوا في الكذب عليهم لارضاء الدولة العثمانية أكثر من غلوهم فهم لم
يهدموا القبة المذكورة ولا قال علماءهم بكفر جميع المسلمين

تعدد الزوجات وكننا في أول المعاشرة . ثم رجعنا إلى موضوع دين البهاية
قلت : انهم يقولون بصحة جميع الاديان والكتب الدينية ويدعون جميع أهل
الملل الى دينهم دعوة واحدة لاجل الجمع وتوحيد كلمة البشر به ، ويستدلون عند
دعوة أهل كل دين بشيء مما في كتبهم ولا سيما التوراة والانجيل والقرآن
وقد ظهر لي ان طريقتهم أحكم من طريقة الماسون فن هؤلاء الماسون رأوا
من الحكمة أن لا يفرقوا بين الاديان في الدخول في جمعيتهم بدعوى انها لا تمس
الاديان ، وان كانت غايتها هدم جميع الاديان . وأما البهاية فيقولون بصحة كل
دين في نفسه ويستدلون به على دينهم الفاسخ لما قبله

قال الاستاذ : ان التقريب بين الاديان مما جاء به الدين الاسلامي وتلاقؤه
تعالى (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) الخ واستغرب استدلال
القوم على قيام الباب والبهاء بالكتب السماوية اهـ

ولما كتبت ملخص هذا الحديث في وقته ختمته بقولي : والحاصل ان
الاستاذ يقول بضرورة الاصلاح وبغلو المصلحين ، ولولا هذا انغلو من البابية
لكان يجب أن يساعدهم . أقول : ولم يكن قبل حديثي معه يعلم عنهم
شيئا صحيحاً والظاهر انه لم يقرأ ما نقلته دائرة المعارف العربية عن أستاذه
السيد جمال الدين فيهم ، على ان ذلك كان قبل ظهور البهاية ، بل كان غشه داهيتهم
عباس افندي بقوله ان قيامهم لم يكن إلا لمقاومة غلو الشيعة وتقريبهم من أهل
السنة . هكذا قال عباس افندي لشيخنا الشيخ حسين الجسر إذ لقيه في عكا ، وأنا
أيضاً لم أكن أعرف حقيقة أمرهم كما ينبغي

ثم كان من مناظرتي لميرزا فضل الله مألجأه إلى بيان أصل عقيدتهم وانهم
يعتقدون ألوهية البهاء حتى قل لي مرة فيه (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب
والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس) الخ الصفات
في الآيات فحتمها له بقوله تعالى (سبحان الله عما يشركون) وأخبرت الاستاذ
الامام بذلك فعلم انهم نسخة من الباطنية القدماء وشر منهم

ثم رددت عليهم في مواضع من المنار وجاءني بعد الرد عليهم رسائل الباب

من طهران من عربية وفارسية وما يسميه (البيان) الذي تأول به قوله تعالى (ثم ان علينا بيانه) ثم ساعدت الدكتور مهدي خان على تأليفه (مفتاح باب الابواب) في ارد عليهم وكان عنده نسخة (الكتاب الاقدس) للبهاء التي يكتتمونها عن جميع الناس فاطلعت عليها وعرفت حقيقة دينهم بالتفصيل

وكان قد بقي في نفسي شبهة من قول الاستاذ الامام في أوائل حديثي فيه ان تبات الشيء ونمائه وبقائه مما يكون في الاديان والمذاهب لا يكون إلا لما معه من الحق فراجعته في ذلك واحتججت عليه بالاديان الباطلة الثابتة منذ القرون الطويلة وكذلك المذاهب والجماعات الضالة المضلة . فقال إن أصول تلك الاديان والمذاهب حق ثم طرأ عليها الباطل ، فبعضها ثابت بما فيه من الحق ، وبعضها بما وضع له من النظام الموافق لسنن الكون والاجتماع ، والنظام حق وهو ثابت باق بذاته وما في الجمعية او المذهب من الباطل تابع له باق به ، مع عدم معارضة اهل الحق لما فيه من الباطل

ثم اني حررت الحقيقة في أصل هذا الموضوع بما رددت به على كتاب ميرزا ابي الفضل (الدرر البهائية) الذي كان أول كتاب طبعوه هنا في الدعوة إلى دينهم فاعتر بخلافته الباطنية صاحب جريدة الاواء فبادر إلى تقريره والثناء عليه إذ لم يفهم ما فيه الكفر ، فحقت ان ارد عليه يومئذ فيصر على ضلاله وانتصاره للبهائية فذهبت إلى الشيخ علي يوسف في مكتبته بدار المؤيد فوجدت الكتاب في يده ينظر فيه تمهيداً لتقريره وهو معجب بما كان قرأه منه فأخبرته بكنهه دينهم وبما فيه من الخلافة والتلبس على المسلمين ، وكافته ان يحط بمصطفى كامل بتعجيله بتقريره وبما يجب عليه من تلافي هذا الخطأ حتى لا يغتر قراء الاواء به ويقبلوا على الكتاب فيقع المستعد منهم في أحبولة كيد الباطني ففعل

ثم رددت على الكتاب بمقتاتين في المجلد الثالث من المنار عنوان (أحدهما) الدعوة (حياة الاديان) وعنوان الثانية (الدعوة وطريقها وآدابها) بينت فيها بطلان شبهته في الاستدلال على حقية دينهم بما يزعمه من انتشاره وثباته ونموه بما ثبت في تاريخ البشر

من أنهم مَادَعُوا إِلَى شَيْءٍ إِلَّا وَاسْتَجَابَ لَهُ بَعْضُهُمْ حَتَّى عِبَادَةَ الشَّيْطَانِ وَالْأَوْثَانِ وَالْحَيَوَانَ وَغَيْرَهَا، وَإِنْ نَجَّاحُ الدَّعْوَةِ إِلَى شَيْءٍ تَكُونُ بِقَدْرِ اتِّقَانِ الْقِيَامِ بِهِ أَوْ مِرَاعَاةِ شُرُوطِهَا الْخ. وَقَدْ أَعْجَبَ الْأَسْتَاذُ الْإِمَامُ بَهَاتِينَ الْمَقَالَتَيْنِ وَكَذَا غَيْرَهُ مِنَ الْفَضَلَاءِ حَتَّى قَالَ لِي الْمَرْحُومُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْكَافِي مَنْ أَيْنَ جِئْتَ بِهَذِهِ الشُّرُوطِ الْمُدَوَّدَةِ لِنَجَّاحِ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِدْبَانِ فَهِيَ مَعْقُولَةٌ كَأَنَّهَا مَسَائِلُ عِلْمِيَّةٌ مَدُونَةٌ؟ وَقَدْ التَزَمْتُ طَبْعَ هَذَا الْكِتَابِ بِمَجَاوِرِ كُرْدِي فِي الْإِزْهَرِ وَكَانَ يُوزَعُهُ فِيهِ فَأَخْبَرْتُ الْأَسْتَاذَ الْإِمَامَ بِذَلِكَ فَكَلَّمَ شَيْخَ الْإِزْهَرِ بِوُجُوبِ عِقَابِهِ فَسَأَلَهُ الشَّيْخُ فَتَنَصَّلَ وَاعْتَذَرَ بِأَنَّهُ اسْمُهُ ذَكَرَ فِيهِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مَا فِيهِ فَمَاقَبَهُ بِقَطْعِ جَرَايِمِهِ وَرَاتِبِهِ إِلَى مَدَّةِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَقَطَّ، ثُمَّ طَرَدَ مِنَ الْإِزْهَرِ وَمَا رَدَّدَتْ بِهِ عَلَى الْبَابِيَّةِ وَالْبَهَائِيَّةِ بِالْصَّرَاحَةِ بَعْدَ الْإِطْلَاعِ عَلَى رِسَالَتِهِمْ وَكُتُبِهِمْ الَّتِي جَاءَتْني مِنْ طَهْرَانَ مَقَالَ حَافِلٍ عَنْوَانُهُ (اسْتِغْنَاءُ الْبَشَرِ عَنْ دِينٍ جَدِيدٍ، وَمَعْنَى كَوْنِ دِينِ الْفَطْرَةِ آخِرَ الْإِدْبَانِ، وَافْتِحَارُ الْبَابِيَّةِ) نُشِرَتْ فِي الْمَجْلَدِ السَّابِعِ مِنَ الْمَنَارِ (ص ٢٣٥ - ٣٣٨) وَفِيهَا بَعْضُ الشَّوَاهِدِ مِنْ رِسَالَتِهِمْ، وَأَدْلَةُ أَبَابِ السَّبْعَةِ السَّخِيفَةِ عَلَى دِينِهِ. وَبَيَّنْتُ فِيهَا فِرْقَهُمُ الْارْبَعِ (١) الْبَابِيَّةِ الْخَالِصِ (٢) الْبَابِيَّةِ الْإِزْلِيَّةِ. أَيْ أَتْبَاعِ صَبِيحِ أَزَلِ الَّذِي كَانَ فِي قَبْرِ ص (٣) الْبَابِيَّةِ الْبَهَائِيَّةِ (٤) الْبَابِيَّةِ الْبَهَائِيَّةِ الْعَبَّاسِيَّةِ. وَقَدْ أَعْجَبَ الْأَسْتَاذُ الْإِمَامُ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ. وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ هَذَا فِي تَرْجُمَتِهِ لِئَلَّا يَكُونَ فِي بَقِيَّةِ النَّاسِ الَّذِينَ رَأَوْا صَحْبَةَ عَبَّاسِ أَفَنْدِي لَهُ فِي يَبْرُوتِ أَوْ سَمَوُوا ثَنَاءَهُ عَلَيْهِ مِنْ بَظَنِّ أَنَّهُ ظَلَّ يَصْدُقُهُمْ فِي إِظْهَارِهِمُ لِلْإِسْلَامِ، وَدَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَبْغُونَ فِيهِ إِلَّا الْإِصْلَاحَ

(رأيه في اعراض المسلمين عن الاسلام وعقابهم عليه)

لَا أَرَى حَاجَةً إِلَى ذِكْرِ رَأْيِهِ فِي الْمُسْلِمِينَ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنِ الْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُمْ عَنْهُ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنْ هِدَايَتِهِ، وَمَا ابْتَلَاهُمُ اللَّهُ بِهِ مِنْ سَلْبِ الْمُلْكِ، وَأَلْبَسَهُمْ مِنْ سَرَائِلِ الدَّلِّ، جَزَاءَ لَهْمِ أَعْلَمَهُمْ بِرُجْعِهِمْ، فَإِنْ مَا كُتِبَتْ فِي ذَلِكَ فِي رِسَالَةِ التَّوْحِيدِ مُخْتَصَرًا وَفِي كِتَابِ الْإِسْلَامِ وَالْفَصْرَانِيَّةِ مَبْسُوطًا بِعُضِّ الْبَسْطِ، وَمَا تَقَلَّبَتْ عَنْهُ فِي مَوَاضِعَ مِنَ التَّفْسِيرِ يَكْفِي وَبِشْنِي — عَلَى أَنْ لَهُ فِي مَجَالِسِهِ الْخَاصَّةِ مَعْنَا مِنْ التَّصَرُّيَّاتِ فِي ذَلِكَ مَا لَا نَظِيرَ لَهُ فَمَا كُتِبَ وَمَا كَانَ يَقُولُهُ فِي دَرَسِ التَّفْسِيرِ

صرح صراحاً بان انتقام الله تعالى من المسلمين لايعراضهم عن كتابه وعن هدي رسوله اتباعاً لاهوائهم وشهواتهم ، وما فتنهم به ساداتهم وأمرؤهم ، لما يبلغ حده ، بدليل ان هذه النعم لا تنزال تتجدد وتعمد ، وكان يقول ان المسلمين مصابون بالعمى لا يموت أحد من أصحاب المزايا الكبيرة والاعمال النافعة فيهم ويخلفه مثله ، على خلاف ما نرى عليه الامم الحية ، وكان يذكر لي رجالا كثيرين من أصحاب هذه المزايا الكبيرة في مصر وسورية كالشيخ المهدي العباسي والشيخ علي اللبثي في مصر ، والامير عبد القادر الجزائري والسيد محمود حمزة مفتي الشام وغيرهم لا يوجد أحد مثلهم ولا من يقرب منهم . وقد ظن بعض خواصه انه يقول هذا في المصريين لانه ضرب لهم الامثال منهم ، ولكنه ذكر لنا الامثال من غيرهم أيضا على انه قال أخيراً ما يدل على رجائه في حياة المسلمين ، وقد عبر عنه أولاً بمثل يفيد الشك إذ قل : انني أرى في هذه الشجرة الجرداء ورقات خضر فلا أدري أهى من بقايا الحياة الاولى أم هي بدء حياة جديدة ؟ قلت له الدليل على الثاني ان هذه الورقات تزيد ولا تنقص . وأما رجاءه في مستقبل الاسلام في الجملة دون شعوبه الحاضرة ، فكان رجاء كاملاً لانه متصل برجائه في الاسلام نفسه ، وهذا الرجاء لم ينقص قط وانما كان شكه في أول شعب يحيا الاسلام هل هو من المنتمين اليه ، أم من الذين سيبتدون به ؟

(رأيه في الاسلام نفسه)

كان يحزم بان الاسلام — اسلام القرآن والرسول الاعظم ﷺ في سيرته وسنته وسيرة خلفائه الراشدين وعلماء الصحابة (رض) — هو دين الفطرة ودين المستقبل ، وان أمة الحضارة في الغرب سيدوقون من قبن مذنباتهم ومفاسدها السياسية ما يضطرون الى طلب المخرج منها فلا يجدونه إلا في الاسلام — اسلام القرآن والسنة لا اسلام المتكلمين والفقهاء . وقد صرح بهذا في مواضع كثيرة نقانا عنه كثيراً منها في التفسير وغيره

(رأيه في المذاهب وأئمتها)

كان رأيه في المذاهب وأئمتها عين ما يدل عليه هذان اللفظان ، فالمذاهب هي طرق الاستدلال التي سار عليها أئمة العلماء المستقلون في فهم الكتاب والسنة وقواعدها واستنباط الأحكام من النصوص بمقتضى معاني اللغة العربية الفصحى في مفرداتها وجملها وأساليبها وتلك القواعد ، وكان يحل جميع الأئمة المجتهدين ويرشد طلاب العلم إلى تباعهم في اعتصامهم بالكتاب والسنة اعتقاداً وتحققاً وأدباً وعملاً واستدلالاً ، كما صرح به في خطبته عند ختام درس المنطق (ص ٧٦٣) ويقول انه لا معنى لاتباع المذهب إلا هذا : وأما حمل كلام الامام المجتهد ديناً يتعبد به ، فهو ينافي دين الاسلام نفسه ، ويدخل فاعلوه فيما حذر الله عنه من فعل أهل الكتاب باتباع رؤسائهم فيما يوجبون عليهم وبحلون لهم وبحرمون عليهم في قوله (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله)

وكان يرى ان أمور الدين قسمان : أحكام قطعية يجب على كل مسلم معرفتها والتدين بها وهي كلها منصوطة في كتاب الله تعالى ومبينه بالتفصيل في سنة رسوله وتناقلها المسلمون بالعمل ، فهي قطعية مجمع عليها لا مجال فيها لاجتهاد المجتهدين ، فيأتي فيها تقليد المقلدين .

والثاني أحكام غير ثابتة بنص قطعي ولا إجماع فهي محل الاجتهاد ، والتحقيق أنها لا تكون في فرض أحكام عامة في العبادات ولا في المحرمات الدينية بل فيما يشبهه على المكاف من جزئياتها أو طرق العمل بها وفي أحكام المعاملات . وهذه يجب على المشتغلين بالعلم من تدريس وتأليف وإفتاء وإفتاء بين الناس أن يبحثوا عن أدلتها ، مهتدين بسيرة الأئمة ومذاهبهم فيها ، ويكملوا بما ظهر لهم رجحانه منها . وأما العوام فيرجعون فيما يعرض لهم ويشبهه عليهم منها إلى من يثقون بعلمه وتقواه فيسألونه عن حكم الله فيها إن كان فيها نص عنهما ، أو عن اجتهاده وما يطمئن اليه قلبه منها . وهذا معنى قول علماء السلف وأئمتهم : العامي لا مذهب له وإنما مذهبه مذهب مفتيه . والمدار في أساس هذا الموضوع على أصل

الامام مالك في ان مدار العبادات على النصوص ووجوب الاخذ بظواهرها ، ومدار أحكام المعاملات في غير المنصوص القطعي على القواعد واعتبار المصالح العامة وتقدم رأيه في وجوب الانتفاع بفقته جميع الأئمة في أحكام المعاملات في الكلام على تقريره في اصلاح المحاكم الشرعية ، وفي معناه كلامه مع قاضي القضاة في السودان واخوانه ، وكان الاستاذ مالكي المذهب في نشأته الاولى ، تفقه بمذهب مالك ثم قرأ فقه الحنفية في الازهر وامتحان فيه امتحان شهادة العالمية ، وأصل مذهب الحنفية ان فرائض الدين والمحرمات الدينية لا تثبت إلا بنصوص الكتاب والسنة اقطعية ، بل نقل الشافعي في الام عن أبي يوسف ان مشايخه وسائر علماء السلف لا يقولون في شيء انه حرام إلا ما كان بيناً في كتاب الله تعالى بلا تفسير . ونقل شيخ الاسلام ابن تيمية عن السلف انهم لم يكونوا يوجبون ولا يحرمون شيئاً إلا بنص قطعي ، وان الاحكام العامة للامة لا تثبت إلا بنقل الامة المتواتر بالعمل

رأيه في الفقه والفقهاء وسوء حالة المسلمين

قال في المحاورة الطويلة التي دارت بيننا في نهار رمضان سنة ١٣١٥ بعد الكلام في البائية ما خلاصته كما كتبت في ذلك اليوم :

ان المسلمين ضيعوا دينهم واشتغلوا بالالفاظ وخدمتها ، وتركوا كل ما فيه من المحاسن والفضائل ... لم يبق عندهم شيء . هذه الصلاة التي يصلونها لا ينظر الله اليها ولا يقبل منها ركعة واحدة ، حركات كحركات القروء ، والالفاظ لا يعقلون لها معنى ، لا يخطر ببال أحد منهم انه يخاطب الله تعالى ويناجيه بكلامه ، ويسبح بحمده ، ويعترف برؤيته ، ويطلب منه الهداية والمعونة دون غيره

ومن العجيب ان فقهاء المذاهب الاربعة (وربما غيرهم أيضاً) قالوا إن الصلاة بلا حضور ولا خشوع يحصل بها أداء الفرض ويسقط الطلب. ما هذا الكلام ؟ انه لباطل ، كل آية تذكر الصلاة في القرآن تبطله . قالوا النية في الصلاة أن يقصد الانسان فعل هذه الصلاة دون غيرها . وبالع بضعهم فقال : لا بد من تصور جميع

أعمالها عند التكبير ، وفسروا قوله ﷺ «إنما الاعمال بالنيات» بهذا. إنما الفعل عند مباشرته طبعي، فاني اذا قمت أمشي لأقصد بمشي القعود (ضع وحاش لله ان تفرض الشريعة الحكيمة هذا وتجعل عليه مدار الاعمال والعباد ولكن هؤلاء الفقهاء حرفوا كل نصوص الكتاب والسنة، إن اليهود لم تحرف التوراة أكثر مما حرفوا. المراد بالنية في الحديث قصد المرء، وغرضه من فعله وهو إمام الله واتباع مرضاته (وهو النية الصحيحة) وأما غرض آخر كالرياء (قلت) وعلى يدل الترديد في مسألة الهجرة في الحديث نفسه) لا أن المراد قصد هذه الحركات التي لا معنى لها، وما كان الله تعالى ليفرض حركات وأعمالا يجعلها عبادة وقوم المرء يفعل مثلها كثيراً في ترده بأشغاله الدنيوية من مشي وانحناء وقيام وما إن صلاة المستر براون الانكليزي عندي خير من صلاتهم. سألت فقال: هو رجل انكليزي رأى ترجمة القرآن فأسلم^(١) وهو يحملها ويقرأ فيها: عند الفراغ، ويصلي بحسب ما يفهم من القرآن، ويستقبل القبلة كما حرره بحرفه معرفته بعلم الفلك، ويركع ويسجد، فهذا وجد عنده روح الصلاة وكان لا الاوقات وعدد الركعات. قال لي: انني أصلي عند الفراغ بحرارة وخشوع وسألني عن صلاته فقلت له أنا أصلي فصل ممي، وعلمته كيفية الصلاة في قصير بالعمل، فتمت له الصلاة بصورتها وروحها، وقال لي مرة انه يجب للمسلمين المؤمنين بالقرآن لا يسبقون كل الأمم ويكونون خير الناس، وقد سأل من أكثر الناس جناية على القرآن؟ فقلت ذرووه وأحبابه، فمسر بجوابي هذا كظم أوتي كل هذا الاعجاب بالقرآن والاعتبار والاهتمام به مع أن الترجمة الانكليزية له بعيدة عن الصواب في مواضع كثيرة الخ

ثم قال: وقد جملوا (أي الفقهاء) كتبهم هذه على علانها أساس الدين، ولم يخفوا

(١) قد علمت بعد ذلك انه كان ضابطاً بحريا وأنه لما رأى الكلام عن وظلماته وأمواله في ترجمة القرآن سأل بعض المنود من المسلمين ركب محمد البحر وسافر فيه؟ قال لا، قال ان ما في القرآن عن البحر لا يمكن أن عن خبر مخبر من الناس، فكان هذا سبب عنايته في قراءة الترجمة كلها واعتدائه للا

من قولهم : ان العمل يجب بما فيها وإن عارض الكتاب والسنة . فأنصرفت الاذهان عن القرآن والحديث ، وأنحصرت أنظارهم في كتب الفقهاء على ما فيها من الخلاف في الآراء والركاكة .

(قلت له : سمعت بعض الحنفية يقول ان الفقه الحنفي يحتاج في تحصيله إلى عشرين سنة ، فقلت للقاتل ان هذه المدة هي مدة البعثة التي شرعت فيها العقائد وأحكام الفقه وغيرهما من الأحكام التهديبية والسياسية ، والنظم الحربية والمدنية ، مع الاشتغال بالحرب والفتوحات) فضحك الاستاذ وقال : ان قول هذا القاتل صحيح قلت له : رغب إلي الصديقان (الشيخ محمد الرافعي وعبد القادر افندي المغربي) أن أسأل فضيلتكم عن الطريقة التي ترونها مفيدة في تهذيب فقه الحنفية والتأليف فيه على كيفية مفيدة . قال وهل يوجد عندهم اشتغال صحيح ؟ قلت نعم قال (١) ينبغي لمن يؤلف أن يحيط أولا بمسائل الباب الذي يكتب فيه (٢) وأن يعتمد على كتب القرون المتوسطة كالزبلي ، لانه الكتب المختلة العبارة كالكنز والتنوير (٣) وان يرجع أحكام الباب ومسائله الى قواعد كلية (٤) ثم يسرد الأحكام بعدها في غاية الوضوح (٥) وأن يراعي الترتيب الطبيعي بين المسائل فيقدم ما ينبغي تقديمه ويؤخر ما ينبغي تأخيره (٦) وان لا يخلط مسائل باب بآخر وان كان بعض المسائل يشترك فيه بابان كالبيع والاجارة فلا بأس بذكره في كل باب ، ولا بأس بالإشارة الى انه تقدم (٧) وان يذكر القول الراجح بدليله ويذكر بعده القول المرجوح مع الإشارة الى دليله (٨) وأن يختصر في مسائل العبادات ثم قال « إذا رجعنا الى كتب القرون المتوسطة كالزبلي نكون قد خطونا خطوة لإصلاح الكتب والفقه ، ومادنا مقيدين بعبارة هذه الكتب المتداولة ولا نعرف الدين والعلم إلا منها فلا نزداد إلا جهلا . هذا الشوكاني لما كسر قيود التتأيد الاعمى حيث كان وهابيا معتدلا صار عالما وقيما ، وقال ان حالة الفقهاء هذه هي التي ضيعت الدين ، وشرح هذه المسألة ببيان حالة العوام (وهم الامة) وحالة الحكام أمام الفقه قال :

« ان العامي الذي يحتاج الى الكسب والعمل لاسعة عنده اصرف سنين طويلة

في تعلم أحكام الطهارة وسائر العبادات في الازهر من هذه الكتب الطويلة الصعبة، وأي حاجة إلى هذه الابحاث الطويلة، والتدقيقات في مسائل المياه والطهارة والصلاة قال عليه السلام « صلوا كما رأيتموني أصلي » وشرح صلاته ووضوئه يمكن بيانه في ورقات قليلة . وكل ماء يشرب وينقى به البدن يطهر به

« من أين جاءهم ان ماء الزهر والورد لا يصح الوضوء به ؟ وهل فيه زيادة عن الماء إلا شيء من الطيب الذي هو من مقاصد الشريعة ؟ وماء الكولونيا أحسن شيء للوضوء فإنه يمنع آثار المرض أيضا وكان الشيخ الانبائي يقول بنجاسته لان فيه سببرتو ، وهل يوجد شيء مطهر كالسببرتو ؟ والاستدلال على نجاسته باسكاره ضعيف (١) فإنه لا يمكن شربه لانه محرق للجوف - كذلك محلول السابون من أحسن المنقيات والمطهرات (الطبية) وشربه قاتل

ثم ان الناس لمحدث لهم باختلاف الزمان امور ووقائع لم ينص عليها في هذه الكتب فهل توقف سير العالم لاجل كتبهم ؟ هذا لا يستطاع ولذلك اضطر العوام والحكام إلى ترك الاحكام الشرعية ولجؤا إلى غيرها . ان أهل بخارى جوزوا الربا لضرورة الوقت عندهم . والمصريون قد ابتلوا بهذا فشدد الفقهاء على أغنياء البلاد فصاروا يرون ان الدين ناقص (كذا في مذكرتي) فاضطر الناس إلى الاستدانة من الاجانب باريح فاحشة استنزفت ثروة البلاد وحولتها للاجانب ، والفقهاء هم المسؤولون عند الله تعالى عن هذا وعن كل ما عليه الناس من مخالفة الشريعة لانه كان يجب عليهم أن يعرفوا حالة العصر والزمان ، ويطبّقوا عليه الاحكام بصورة يمكن للناس اتباعها (أي كأحكام الضرورات) لانهم يقتصرّون على المحافظة على نقوش هذه الكتب ورسومها ويجعلونها كل شيء ، ويتركون لاجلها كل شيء ،

« يقرءون الاصول ولا يخطر ببال أحد منهم أن يرجع فرعا من هذه الكتب إلى أصله، أو يبحث عن دليله، بل لم ينجحوا أن يقولوا نحن مقلدون لا يلزمنا النظر

(١) ظاهر هذا ان الاستاذ يوافق الفقهاء على القول بنجاسة المسكرات ولكنني

لما اقتبت في المنار بطهارة عينها اعجبه ذلك واقره

في الكتاب والسنة ، دانوا لكتب المتقدمين على تعارضها وتناقضها الذي تشتت به شمل الامة ، ويكتفون بقول (وكلامهم من رسول الله ملتمس)

قلت له ان ابو صيري جـير بالشكر منهم حيث وضع لهم هذه القاعدة التي يرجعون اليها ، كما ان ابن مقلة جدير بشكر الدروز بل يجمله اماما في دينهم لاني رايت لهم كتابا يذكرون فيه أسرار الحروف من حيث رسمها الحالي ، وأول من اخترعه ابن مقلة فرسمه أصل يستنبط منه كثير من الاحكام الدينية على مذهبهم ، فضحك ثم قال :

« كان ينبغي أن يكون للفقهاء جمعيات يتذاكرون فيها ويتفقون على الراجح الذي ينبغي أن يكون عليه العمل ، وإذا كان بعض المسائل رجح لأسباب خاصة يمكن أو زمان ينبغي لهم التنبيه على ذلك ، وان هذا الحكم ليس عاما وإنما سببه كذا ، لأنهم يجعلون كل ما قيل عن فقيه واجب الاتباع في كل زمان ومكان » اهـ الحديث

(أقول) قد فطنت في أثناء طلبي للعلم في طرابلس الشام لانكار قول العلماء إن جميع ما قرره الفقهاء في كتبهم من الاحكام دين أوجب الله علينا اتباعه ونحن نرى بمدارسته أن أكثره آراء للمؤلفين يستنبطها بعضهم من كلام بعض لامن كلام الله ورسوله (ص) والذين يستدلون منهم وهم أقلهم يذكرون في أدلتهم أحاديث ضعيفة أو موضوعة ولا سيما الخفية فكنت أجادل الطلاب ثم العلماء في ذلك ولا سيما الصديقين اللذين ذكرتهما للاستاذ الامام في حديثي هذا فهما اللذان عودتهما حرية البحث بغير احتباس ولا تقية ، حتى كنت أقول في بعض الاحكام أهذا حكم الله تعالى أم حكم التاريخانية والشرنبلالية والولولاجية وأمثالها من كتب الاعاجم والمقلدين ؟ (وكان هذا أول أسباب اشتغالي بعلم الحديث)

وقد ذكرت هذا للاستاذ الامام فاعجبه حتى ذكر أسماء هذه الفتاوي مرة في درسه في الازهر . ومن أغرب أمر علماء الفقه أو كتبه أنهم صاروا يخضعون للمتصوفة بعد أن ضعف أمر اليريقين في العلم حتى أنهم يسلمون لهم خرافاتهم بالتأويل ، بعد ما كان التناكر بين سلفهما كما تقدم

حسبي هذا القدر من آرائه المفيدة في الإصلاح ، وله آراء علمية ودينية يناها في التفسير ، ولا حاجة إلى تدوين آرائه العلمية الخاصة التي لا تدخل في أبواب الإصلاح ككون الجاد له حياة خاصة به ، وكون الانسان له عدة أنفس ، وان في الكون أرواحا منبهة فيه تؤثر في أرواح البشر كأنهم الخفية المسماة بالميكروبات التي تؤثر في أجسادهم .

آماله وأمانيه

بيننا فيما سبق أن أكبر آماله وأمانيه من الحياة إصلاح حال المسلمين في دينهم وديارهم بما يعود به مجد الاسلام ، ويعم نوره الانام ، وفقاً لما يفهمه من وعد الله تعالى في القرآن ، باظهاره على الدين كله ، في العالم كله ، وانه كان يرى ان أقرب الوسائل وأرجاها لذلك إصلاح التربية والتعليم في الجامع الازهر ، لانه مدرسة العالم الاسلامي كله ، وانه كان من مقاصده الاصلاحية فيه تخرج طوائف من الاختصاصيين في كل علم من العلوم يكونون مرجعاً فيه وقائمين بفروض المكفائات العلمية والدينية كلها على أكمل حال يصل اليها كسب البشر ، ولا سيما طائفة القضاة وطائفة الدعاة الى الاسلام والمدافعين عنه ، وطائفة الوعاظ والمرشدين والخطباء لارشاد العامة ، وطائفة المؤلفين لجميع ما يحتاج اليه رقي الاسلام من الكتب المختلفة المواضيع

مدرسة كلية

لما خاب أمله في الازهر فكر في السعي لانشاء مدرسة كلية تغني عنه في تخرج الرجال الذين يقومون بخدمة الاسلام . فاستمال أحمد باشا المشاوي المزي المشهور ليقوم ببذل المال لذلك لما يعلمه من حبه لمعالي الامور . وكان المشاوي قد حوكم في تلك الاثناء بتهمة الاستداء وتعذيب بعض الناس وحكم عليه بالحبس فحبس ثم خرج مبعداً عن الخديو ومكروها من الانكليز والحكومة حتى أعرض عنه جميع الوجهاء . فاعتنم الاستاذ الامام هذه الفرصة وأظهر له العطف والتكريم . وصار يدعو الى طعامه ومجلسه ويزوره في ذهابه . وقد كان حمل من تونس عدة من برانس الصوف والحريز وغيرها من نسيجها البديع . فعرضه كله على أحمد باشا المشاوي ليختار لنفسه برنساً أو دثاراً منها ، فأخذها كلها ، ظاناً انه اليه أهداها ، وحرّم الاستاذ وأهله وأصدقائه كلهم من هذه الهدايا النفيسة التي كان يريد توزيعها عليهم وصار المشاوي كلما أراد أن يجي القاهرة يرسل برقية الى الاستاذ الامام بأنه سيتغدى عنده يوم كذا ، وكان الاستاذ يدعو في لأحضر الغداء معها ، ودعا صرة احمد فتحي (باشا) زغلول فاجتمعنا في عين شمس وتكلمنا مع الباشا في مسألة

إلشاء المدرسة التي توجهت رغبة الامام اليها فقال أنا مستعد لتنفيذ ما تقررونه، ولكن بشرط أن تكون المدرسة خارج مدينة القاهرة « بلد الافيون والمنزل » واختار أن يبنيتها في أطيانه في بسوس ويشترى المعلمين مراكباً بخاريات (رفاصاً) ينقلهم إلى القاهرة كل يوم. وقد عرفته في تلك الاثناء فصرت أكثر الكلام معه في الترويج في هذا العمل، ووصل خبره إلى الجرائد فطفقوا يذكرون المدرسة الكلية أو الجامعة بما يزيد في تشويقه اليه، وقد ألححت عليه مرة حتى أقسم بالله ليقوم من من فوره لشراء قصر في شبرا لا أحد الامراء، لينشيء المدرسة فيه موقفاً الى ان يتم البناء، وقد فعل، ولكن لم يتفقا على الثمن وفي يوم السبت عاشر شوال سنة ١٣٢٢ (ديسمبر ١٩٠٥) كتب الى مجلس النظار كتاباً يطلب فيه أن تبنيه الحكومة عشرة آلاف فدان معينة ليجمعها موقفاً على مدرسة كلية يريد إنشاءها في ضواحي القاهرة، على أن يوقع عقد الوقفية في الوقت الذي توقع فيه المالية عقد البيع. وقد كلم الاستاذ الامام وكيل نظارة المعارف بأن يكتب إلى نظارة المالية توصية بان تجعل الثمن رخيصة جداً كما ادتها فيما تبنيه للمدارس والاعمال الخيرية ففعل. وكلم الاستاذ نفسه مستشار المالية بذلك فوعدته، حتى إذا ما انتهت الوسائل قضى الرجل نحبه في الاسبوع الذي عين فيه موعد العقد كما بينت ذلك في ترجمته من مجلد المنار السابع

الحج والزيارة ورؤية مواضع غزواته (ص)

كان من أكبر آماله أن يحج بيت الله الحرام، وبزور المسجد النبوي وقبره عليه الصلاة والسلام، ثم يزور جميع أماكن غزواته عليه السلام ويضع خريته للحجاز يبين بها مواضع تلك الغزوات، وكان المانع له من المبادرة إلى ذلك ما كان يعلمه من اساءة السلطان عبد الحميد الظن به بتأثير سعاية الجواسيس ولا سيما بعدما كان من أمرهم عند زيارته للاستئانة فتد كان يرجو زوال ذلك ليكون آمناً على نفسه في أثناء أداء الحج وما يتبعه مما ذكرنا وكان يقدر لذلك أربعة أشهر

ولكن سوء ظن السلطان به كان يزداد عاماً بعد عام، وصار الخطر منه بعدما كان من تغير الخديو على الاستاذ أكبر، إذ كثرت تقارير سعاة الشر المفسدين في الطعن فيه وتخويف السلطان به، حتى ان الاستاذ عند ما كان في مرض اللوت، كانت حكومة

سورية تبحث عنه في سواحلها إذ بلغها من طريق الاستانة عن مصر انه عند ما انتقل من القاهرة إلى الاسكندرية كان يريد الذهاب منها إلى سورية لاجل عمل سياسي فيها

تأليف تاريخ الاسلام

لما فرغ من قراءة دلائل الاعجاز في الازهر كثرت عليه اقتراحات الطلاب والعلماء فيما يقرأ بعده ، واقترحت أنا عليه أن يشرع في تأليف كتاب في تاريخ الاسلام ويقرأه ، وكان الاستاذ الاكبر السيد علي البيلاوي شيخ الازهر اقترح عليه ان يقرأ تاريخ الاسلام إذ لا يقدر على ذلك غيره ، فعززت رأيه بهذا الشرط وهو ان يؤلف هو التاريخ وكما كتب شيئاً منه نطبعه ويشرع هو في قراءته ، فالقراءة تتمع الطبع ، والطبع يردف التأليف ، فانشرح صدره لذلك وعزم عليه ، ولكن حال دونه ما كان من الشعب السياسي الذي أناره الامير وانهى باستقالة صديقه شيخ الازهر المذكور واستقالته هو من الازهر وما ولي ذلك من مرضه وفواته ، ولولم يخسر المسلمون بذلك الاحرمانهم من هذا التاريخ لكانت خسارة لا يعرف كتبها إلا من يعلم ان المسلمين أحوج إلى هذا من كل كتب الكلام والعقائد ، إذ ليس لديهم تاريخ مدون على الاصول العلمية الحديثة ، التي ارتقى اليها الافرنج في هذا العصر ، حتى انهم ألفوا في تاريخ الاسلام ما لم يوجد له نظير في مؤلفات المسلمين كتاريخ سيدو الفرنسي المسمى بمختصر تاريخ العرب وقد بدأه بمقدمة فيما كانوا عليه قبل الاسلام ثم ذكر ظهور الاسلام وما كان من تأثير دعوته وفتوحاته فيهم وفي سائر العالم ، وما ترتب على ذلك من احياء جميع علوم الامم القديمة وترقية العرب لها ، على اختلاف أنواعها من رياضية وطبيعية وفلسفة وطب وصيدلة وآداب وفنون ، وما كان وراء ذلك من الحضارة وارتقاء العمران بالصناعة والزراعة ، واشراع طرق التجارة وغير ذلك . وكذا تاريخ حضارة العرب الدكتور غوستاف لوبون الشهير وقد تقدم ذكره وكان الاستاذ عهد الى أحمد فتحي (باشا) زغلول بترجمته فمزم على ذلك ثم توفي الاستاذ ولم يفعل (١)

(١) ترجمه بعد ذلك الا تاذالكاتب المؤرخ محمد اقدي مسعود الشهير ولما بطبعه

ومن العلوم بالبداية ان هؤلاء الافرنج لا يفهمون الاسلام وتأثيره كما يفهمه
أعلام المسلمين ، وأين في اعلام المسلمين مثل الاستاذ الامام ، فهو أوسع منهم
اطلاعا على مادة تاريخ الاسلام والسيرة النبوية ، وأدق منهم فهما ، فهو بعلمه هذا
وعلمه بما كتب المسلمون وبما كتبوا هم بطريقتهم العلمية ، وبقوة إيمانه وسعة
معارفه ، أجدر من عرفنا بأن يكتب للاسلام تاريخا يبين حقيقته وتأثيره الروحي
والدني في اصلاح البشر ، ويثبت فيه بالتفصيل ما نقلناه من رأيه في مستقبل الاسلام ،
ويكون خير معين على الدعاية الاسلامية ، فانه يكون أعظم تأثيرا وأعم نفعا من
كتب العقائد كلها لاشتماله على ما فيها وزيادة ، ولقراءة كل الناس له وفهمهم إياه

﴿ جريدة يومية ﴾

كتبت في ترجمته التي نشرتها في النار عقب وفاته في هذه المسألة ما يأتي :

وكان في عزمه السعي لتأليف شركة تذكىء جريدة يومية في القاهرة تختار
لها طائفة من الكتاب الاختصاصيين يتقاسمون موضوعاتها فينفرد بعضهم في بيان
ما عليه المصريون في المدن والقرى والمزارع من العادات والتقاليد والاعتقادات
وما يطرأ عليهم من التغيير في ذلك ، وبعضهم في المسائل الاقتصادية والزراعية ،
وبعضهم في الموضوعات العلمية والادبية ، ويوضع لهم قانون لا يتعدونه ومن أحكامه
الاقتصار في المسائل السياسية والاخبار الصادقة على ما فيه العبرة والفائدة لاهل
البلاذ ، وعدم المدح والذم الشعري ، وقبول الانتقاد على ما ينشر فيها من كل
كاتب أديب ، ومنها أن يرجع في بيان جميع المصالح ذات البال إلى ما يقرره
مجلس إدارة الجريدة بالمشاورة فلا يكون ما ينشر فيها عبارة عن رأي رجل واحد
ومثلا يتذبذب مع ميله وهواه ، ومنها أن لا تكون الجريدة خصما لجريدة أخرى .
كنت ممن يابح عليه بهذا السعي منذ سنتين واخترت لهذا العمل من الكتاب
المجيدن المعتدين من رضي بهم ، وكشفنا كثيرين من الكبراء والفضلاء في ذلك ،
واخترنا منهم أعضاء لمجلس الإدارة ، ووضعت تقريرا تهيبيا لانشاء المطبعة
ونفقات العمل . ولو بقي الامام حيا لرجونا أن يبرز هذا العمل في هذا الشتاء ، وان
خسارتنا بفقده لا عظم من كل خسارة

المقصد السابع

من الفصل السابع

أخلاقه وشماله ومعارفه

أذكر هنا ما كتبت في ترجمته من المنار مع تفصيل وتنقيح إيضاح فأقول :
الاعمال نمرات الاخلاق فما ذكرناه من أعمال الرجل يمثل بعض أخلاقه
لأنها بعض آثارها، وإن وراء ذلك من أحسن الخلال، وآيات الكمال، ما تنصر عن
تمثيله جلائل تلك الاعمال، واقد كملت الاستاذ الامام اصول الفضائل الاربع ، (العفة
والشجاعة والعذالة والحكمة) وما نشأ عنها وتفرع ، وإننا نشرح بعض أخلاقه
لتكون قدوة للمعتدين

عزة نفسه وعلو همته وتواضعه

طبع الله هذا الرجل على عزة النفس وعلو الهمة هبة ووراثته وتربية، وقد أدركه
السيد جمال الدين الذي درج في حجر السيادة، وترعرع في بيت الامارة، وهو
مجاور في الازهر، ومنقطع الى التصوف، يلبس قيصاً يبدو من أعلا جيبه صدره
الاشعر، وقد ارسل حمة كجمة الدراويش . فراعاه من صاحب هذا الكشف ما عنده
من العزة والاباء، وحفظ الكرامة ورقة شعور الشرف، وأكبر أن يكون هذا أثر
التربية والتخلق في بلاد ساسها الظلم، وتحكم فيها الجور المذلل للارادات المذل
للنفوس . وكأنه سبق الى نفسه أن هذا أثر وراثته لأحد آبائه الاولين، وانهم
لا بد أن يكونوا من الملوك والحاكمين، فقال له مرة أو مراراً « قل لي بالله أي أبناء
الملوك أنت ؟ » وهذا الخلق هو ركن الفضائل الركين، وناهيك بقول الله تعالى
(والله العزة ولسوله وللمؤمنين) وهو الباعث على جلائل الاعمال، والحامل على
الاستهانة بما بين يديها من الاهوال .

وقد يشتهه على كثير من الناس هذا الخلق الكريم، بخلق الكبر الذميم،
ولذلك كان بعض الحاسدين والجاهلين ينز الاستاذ الامام بهذا اللقب ولا سيما

عند ما كانوا يرونه مترفعاً عن الدهان والتملق للكبراء ، معرضاً عن يعارضه في مقاصده وإن كان من الغفلاء . ولو اختبروه ناظرين بعين الانصاف لرأوا حقيقة التواضع مع الرفعة كيف تكون ، ولرأوا كيف كان يخدم الفقير والمسكين ، ويتجافى جنبه عن مضجعه لاجل العفاة والمستفيدين ، وإن كان الخديو كان يقول إنه يدخل عليّ كأنه فرعون !

مهابته ولطفه في المعاشرة

كان مهيب الطامة ، وقور المجالس ، وهذه الصفات تشبهه بصفات المتكبرين ، وإن كان من عاشره يرى من لطفه وتواضعه عن رفعة ، وأدبه وظرفه في ألطف حشمة ، وفكاهته بما دون الدعابة ، ما يلم به أنه كان له أوفر حظ من الورثة الحمديّة التي عبر عنها هندی بن أبي هالة (رض) في حديثه المشهور في شمائل المصطفى (ص) بقوله « من نظر اليه بديهة هابه ، ومن عاشره معرفة أحبه » وما زلت أقول إن نسينا جميع فضائله فإن ننسى حلاوة عشرته ، وأنس محاضراته ، ولذة محاورته . ومن دقائق ملاحظته في التواضع والادب أنه كان يتحاشى صيغة الطلب الجازم في مخاطبة أصدقائه ومحبيه ، وتلاميذه ومريديه ، فيستبدل بالامر - الاستفهام والتخيير ، ويوسمهم مخاطب المذنب قبل أن يحتاج إلى الاعتذار ، ثم إذا أخلف معه يتناسى إخلافه فلا يقابل بلوم ولا عتاب . أذكر من لطائفه في هذا الباب قوله لي مرة : انني كون غداً في مكان كذا بعد الظهیر فان ذكرت ذلك ووجدت فراغاً وأحييت أن تراني فعلت . ذكر كل هذه القيود وأنا أعلم أنه يريد أن أوافيه حقاً ، ولولا ذلك لذكر لي أنه يكون في ذات المكان ولم يزد كماداته معي إذ كان يخبرني في يومه ، بمواقفته في غده سلامة صدره ، وصفاً قلبه .

قد عرف ربه الله تعالى بسلامة الصدر وصفاً القلب ، والحلم والصفح ، فما انتقم من مسيء ، ولا سعى في ضرر أحد قط ، بل كان يحسن إلى من أساء اليه : إذا استنجد به أجبده ، وإذا استرفده أرفده ، وإن عاد إلى الأساءة سبعين مرة كان معني كاد علماء الأزهر الوجهاء ، من أولي المناصب في القضاء ، قد انحرف عنه ، وكان من قبل زميلاً له في طالب العلم ، فحاض فيه ، حتى عرف بأنه من شائتيه ، فاتفق لهذا الرجل أن صدر عنه ما أغضب الرؤساء الثلاثة عليه : الخديو

ورئيس النظار ولورد كرومر . فضاقت عليه الدنيا وضاقت عليه نفسه ، ولم يجد له وسيلة يلتحد اليها لارضائهم أو استمالة بعضهم اليه إلا زميله القديم ، فجاود بعد إعراضه الطويل العريض ، وقص عليه خبره ، فطيب قلبه وطأته ، ولم يلبث أن طاف على الثلاثة وكلهم بما أَرْضاهم عنه في يوم واحد

تغليبه لحسن الظن وتغاييه عن الشر

كان على ذكائه وصدق فراسته يغاب عليه حسن الظن وبذلك دفع أناساً إلى مراتب لم يكونوا أهلاً لها ، والناس يمدون ذلك عليه ، ويغفلون عن عذره فيه ، وهو أن من رفهم ورقاهم كان لابد للأعمال التي رقام اليها من عامين ، فحسن الظن ببعض من يكن أن يمد اليهم العمل وناطه بهم ، فمنهم من ظهر بالاختبار أن ظن الخير فيه صادق فكان صالحاً للخدمة شاكراً للصفيحة . ومنهم من ظهر بعد التجربة مؤمراً ، وتبين فساده وشؤمه ، فلم يصلح عملاً ، ولم يشكر محسنه . ومن هذا الفرق من ساء إلى من أحسن اليه ، وكفر حقوق المنعم عليه . ومنهم من أظهر الوفاء ، في وقت لرحاء ، وأظهر حقده وضعفه ، عند الضرر والخسة . وليت شعري ما حيلة الرجل الذي جبت طينته على الاحسان ، وتوجهت همهته إلى الخدمة العامة ، وقد نشأ في قوم فشا فيهم فساد الاخلاق ، وقل فيهم الوفاء والاخلاص . أيمكن أن يقال له لا تسد إلى أحد معروفه ، ولا تسع لاجل أحد بخير ، الا بعد أن تجر به عدة سنين ، فتعلم انه من المصلحين والشاكرين كيف وإنما يجرب الرجل بما يمد اليه من الاعمال ، وما يعامل به من البر والاحسان وكان أهل الخبث والكر من حاسديه يظنون أنهم يخذلونه بدعائهم ودهائهم ، ولكن فراسته كانت تخترق صدورهم ، وتنفذ إلى سواد قلوبهم ، ويقرأ في صدقهم وجوهرهم الاولى ، مارسم على صحائف وجوههم الاخرى ، وإنما يقبل منهم ما ظنهم والما ويتغابي عما أضمروا ، عملاً بقوله تعالى (ادفع باتي هي أحسن) الآية وما ورد في خبر « اصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى غير أهله ، فإن أصبت أهله أصبت أهله ، وإن تصب أهله كنت أنت من أهله » رواه الخطيب في رواية مالك عن ابن عمر (ص ٨٨٨) وابن النجار عن علي (رض) وهذا ما أوصى به لاستاذ الناس في السودان كما قدم (ص ٨٨٨) وكان يعجبه قول أفلاطون : استصلاح العدو أحزم من استملاكه .

على انني لا انكر انه كان لسلامة قلبه يفيض امام بعض من يعتقد اخلاصهم بما لا تسمعه عقولهم ، ويفضي الى بعضهم بما تضيق عنه صدورهم ، وانه كان لمباغتته في الحلم يعفو عن لا تعفو المصلحة العامة عنه ، ويصفح عن يقضي الاصلاح بالانتقام منه ، وقد كان يكون هذا العفو والصفح مما يخفى على من عفا وصفح عنهم ، كما كان يخفى عليهم الانتقام لو أنه انتقم منهم . ولعله لولا هذا الخلق لكان نجاحه أسرع وأتم ، وإصلاحه أشمل وأعم . وقد تقدم في الكلام على عمله في إصلاح الأزهر أنه كان قادراً على الانتقام من أشد الناس مقاومة له فلم يفعل ، (ص ٤٩٤ و ٤٩٥ و ٥٥٦) وقد وشى به مرة بعض من كان لهم صلة بلورد كرومر فذكروا له انه يجاني في قضائه المسلمين على القبط ، وذكروا ان ذلك وقع له مراراً في تلك السنة ، فسأله اللورد عن ذلك فأثبت له انه لم يتقاض عنه أحد من القبط في تلك المدة كلها ، وإنما كانت جميع أحكامه على المسلمين ، وأحضر له كشفاً رسمياً بتلك القضايا كلها ، فذكر على اللورد أن يكذب عليه هؤلاء الوشاة بما كان سبب خجله مع هذا القاضي العادل ، وصرح له بإرادة الانتقام منهم ، فبالغ الاستاذ رحمه الله في استعطافه وإرجاعه عن رأيه ، بحجة انه يكره أن ينتقم من أحد لاجله ، فرجع عن ذلك . ويقال إن الوشاة عرفوا ذلك للاستاذ الامام وحفظوها له متعبة من مناقبه ومنته عليه .

إيثاره للمصلحة العامة على الخاصة

كان يرجح في المصالح العامة أصحاب الكفاية والاستعداد على المحبين له والمتصلين به ممن دونهم . وقد سمعت صديقه منذ الطلب ، وصاحبه بالجانب ، (الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان) يماثبه في هذا ، ويصفه بأنه لا يعرف أعداءه ... وذكر له رجلاً منهم قدمه على غيره في منصب القضاء الشرعي ، فأجابه : إنما قدمته لانني أعلم انه احق بالترقية ممن قدمته عليهم ، وأقدر على العمل منهم ، ولو جعلته سكرتيراً لي ربه لا يحبني ، لكنني جدير بلموكت لي ، ولكنني لا أخون المصلحة العامة لهوى نفسي ومن استقرأ أعمال الوزراء ورؤساء المصالح في هذه البلاد وأمثالها يرى أن كلا منهم يعني بإيثار أهله وأصحابه ورجال حزبه على غيرهم ، وان كانوا خيراً منهم ، وهذه الآفة شر الآفات التي تفسد الحكومات وتضعف الأمم

وفاؤه لأخوانه وأصدقائه

كان من أشهر صفاته الوفاء لأصدقائه ، يهتم بشأنهم في السر والجهر ، والبعد والقرب ، والغيب والشهود ، بمثل ما يهتم آباؤهم وأبناؤهم أو أشد ، وكثيراً ما يسعى في دفع الشر عنهم وفي سوق الخير اليهم ، بأشد مما كانوا يسمعون لأنفسهم . لهذا كان من أعجب الشعر اليه هذا البيت الذي كان يضعه أمامه على مكتبه مكتوباً بخط جميل ، لأنه يصور حاله مع أصدقائه أدق التصوير

رأى خلاتي من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينيه حتى تجلت

وقد حضر في شبابه مجلساً من أترابه فتمنى كل منهم ماتسمو اليه نفسه من سعادة الدنيا ، فكانت أمنيته هو أن يكون له صديق وفي مخلص ينعم بمعاشرته

وما من صديق ولا محب له الا وكان آمناً من انحرافه عنه ، بل من توانيه في الانتصار له ، تأثراً بقول واش محال ، اورهة من كيد قوي ذي محال ، أو طمعاً في جاه أو مال ، وقد كان في وفاته هذا خير قدوة لمعاشريه والمتصلين به ، يربي نفوسهم باخلاقه وسيرته ، كما يربي عقولهم بعلمه وحكمته ، فريدهم ومحبه الصادقون أشد الناس وفاء لمن يحبون ، وأعظمهم اخلاصاً لمن يصطفون ، وكان من وفاته لأصدقائه أن يحافظ على مودة ابناءهم وأحفادهم من بعدهم ، ويبذل جهده في مساعدتهم ، فقد كان أولاد صديقه المرحوم سليمان باشا أباضه عنده بمنزلة أولاده أو أخيه محمود بك الذي رباه منذ صغره ، وكذلك أولاد احمد بك محمود وجيه الرحمانية وآل الوكيل . وقد بينت أصل هذه الصداقة بين هاتين الامرتين وبينه في الكلام على عمله ورأيه في الثورة العراقية (ص ١٤٨) قضى أحمد بك محمود شتاء بعض السنين في فندق (عدن بلاس) بالقاهرة في اثر عملية جراحية عملت له فكان الاستاذ الامام يزوره فيها بعد الخروج من الازهر في كل ليلة من ابالي الدرس ، فيمكث عنده مدة طويلة وكنت أذهب معه في الغالب كما كنت أصحبه في أكثر الليالي قبل ذلك وبعده . وقد حدثني في

أول ليلة صحبتته فيها لزيارته بما كان من دفاعه عنه عند ما ائتمر به العرابيون لقتله ، كما ذكرته في موضعه ، وذكرته درجة صداقة سليمان باشا أباطله في (ص ٤١٧)

وفاء أصدقائه له وتقرهم به

وكان أصدقائه الذين عرفوا وفاءه وسائر فضائله مغنطين بصداقته ويعمدونها من أفضل حظوظهم من هذه الحياة الدنيا بقدر إدراكهم لنعيم الحياة العقلية الروحية الادبية فيها ، ويودون لو يبدلون في سبيل مرضاته كل ما يستطيعون من مال وعمل ، وكان ممن لم أدرك منهم هنا سليمان باشا أباطله وعبدالله باشا فكري وأمين باشا فكري (وكان هذا مريضاً عنده جرتني إلى مصر وتوفي قبل أن أعرفه) وعلي باشا مبارك والشيخ علي اللبني وكان يذكر هؤلاء ذكر آحسان . وكان من أصدقائه جميع اخوانه من تلاميذ السيد جمال الدين المحلصين ، وقد أدركت طائفة منهم ولما أنشأت المنار عهد إلي أن أرسله إلى الامام تاذ الصوفي الشهير الشيخ ابو شرف قوي في نجع حمادي من الصعيد الطيب وإلى الشيخ داغر القاضي الشرعي في الشرقية على أن لا يؤخذ منهما شيء من قيمة الاشراك قال هذان صديقان لي وحسابهما علي ، أما الاول فهو من بقايا شيوخ الطريقة الصالحين المحلصين ، وأثنى على علمه ومعرفته بالتصوف (١) وأما الشيخ داغر فهو من خيار اخواننا تلاميذ السيد جمال الدين ، وهو فقير (وقد رأيتُه عنده بعد ذلك فاذا هو من خيار الصالحين) وأما أصدقائه ومريدوه الذين عرفناهم وعاشرناهم من العلماء والامراء والوجهاء في مصر وسورية فكثيرون قد مر ذكر بعضهم وسيأتي ذكر آخرين منهم ، وقد وعدت عند ذكر محمد بك راسم في الكلام على درسه الخاص أن أذكر عنايته به في مرضه الاخير فأقول :

لما نقل إلى الاسكندرية لتخريضة فيها أنزله صديقه محمد بك راسم بدارهم في الرمل وكان أخوه الذي يسكنها مسافراً ، وهي من أجمل قصور الرمل بناءً

(١) وقد جاء مصر وزار أستاذنا فيها ولم يتج لي لقاءه ولكنني حظيت بصداقة نجله وخليفته الاستاذ ابي الوفاء فكان من أفضل من عرفت وصادقت

وأثنا ورياشا، فجعل الدور الملوحي له ولاهل بيته، والدور الاول للوافدين لعيادته والسؤال عنه، وللأصدقاء الذين يقيمون الليالي ذوات العدد عنده للقرب منه وتسلية، وما يرجون من الاطمئنان برؤية حاله، وللخدم

وكان في كل طبقة من الدار حجرات للجلوس والنوم وحجرة المائدة وحمام، وكان طاهي الدار يصنع في كل يوم عدة ألوان من الطعام التي لا يعمدهم مثلها إلا عند أرقى طبقات الاغنياء، تزيد على حاجة كل من في الدار.

ثقل أمر هذه النفقة على أهل بيته فرجوا منه أن يرغب إلى محمد بك باسم في الاذن لمجوده بك أخيه بتولي إحضار مادة الطعام، فقال لهم أنا أستحي أن أكله في هذا لانه يشق عليه أن يسمعه مني، وهو يعلم بما عندي من دقة الشعور بشعوره وإخلاصه واحتقاره لهذه النفقة، ويكبرني أن أكله فيها، ولكنني أعهد إلى السيد رشيد أن يتلطف في استئذانه بذلك معذراً بمراعاة شعور كن النسوي، وذكر لي ذلك وعهد إلي أن أبرئه هو من خطور هذا بباله، قائلاً: انني أعلم من نفسي انه لا يمد هذا شيئاً يصح أن يذكر بين الاخوان، فاني لو علمت انك تحتاج إلى داري بما فيها لكان تركي إياها لك مما يلذ لي وترتاح اليه نفسي، ولا أعده شيئاً يذكر فكلمت محمد بك باسم أحسن الله تعالى اليه وأكثر في الامه من أمثاله

وقلت ان زوج الاستاذ الامام عصبية المزاج وكذلك أخوه حموده بك وقد ثقل عاها وعلى بنائه نفقة الطعام، وكنوه في ذلك، فقال لهم انه ليس لي لسان يستطيع ان يقول لمحمد باسم كلمة في هذا، فلما ألحوا عليه أحالمه علي، وقال كيت وكيت، فمظم على محمد باسم بك هذا الكلام وقال واجاً متألماً: أي شئ هذا حتى يذكر؟ إن بذل النفس والنفائس قليل في سبيل هذا الرجل العظيم، انني لا أعطي الطاهي إلا شيئاً حقيراً وهو نمن اللحم والسمك والخضر والفاكهة والمربى، وما عدا ذلك من السمن والعسل والحبوب فانها تأتي من كفر الجاموس (يعني مزرعة لهم بهذا الاسم) قلت يقول حموده بك إن الطاهي والخدم يزيدون في نمن الاشياء، فاذا تولى هو الصرف يتلافى هذه الخيانة. قال وماذا عسى أن يزيدوا؟ أيزيدون عشرة أو عشرين في المائة؟ هذا ليس بشئ. يذكر، وهم في حل منه، فأرجوك أن تقنع

حموده بك ليقنع الحريم بان الاستاذ والدنا ، وانه لا يليق أن يجري هذا الحديث بيننا وأما وصف ثقة أصدقاء الامام به فمن أحسن ما سمعته فيه قول محمد حافظ (بك) ابراهيم : قال لي يافلان اننا لم نفع في حاجة إلى رقد الشيخ لنا في الرزق وضرورات الميشة ، ولا في الدفاع عن حياتنا او شرفنا ، ولسكننا نشعر في أعماق أنفسنا باننا بوجوده في أمنة من الحاجة ومن الظلم ، وان كل ماعسى أن نحتاج اليه نجده عنده ، فنحن لا نحسب مع وجوده حسابا لعدوان ولا حاجة ، او ما هذا معناه واسكن حافظا خشي يوما أن يؤثر في نفس الامام ما كان يدبره بعض الناس من الدسائس والمكائد للفرقة بيننا وبينه في أثناء سفره الاخير الى اوربة فتونس والجزائر ، إذ كان منهم من يكيد لي ومنهم من يكيد له ، وكان هو يتسقط أخبارهم ويكشفني بها ، وقد قال مرة : أترى يا شيخ رشيد تروج هذه الدسائس لدى الاستاذ الامام ؟ قلت له انه لأجل نفسا وأسمى أخلاقا من ذلك ، ونحن إنما نجله لعلو نفسه ، وسمو عقله وأخلاقه ، فان فرضنا ان هذه السعاية الدينية أثرت في نفسه تأثيراً حملاً على ترك مودتنا ونحن أخاص الناس في وده والتنويه بفضله والدفاع عنه ، فنحن نتركه غير آسفين ، إذ يظن لنا بذلك اننا كنا في إجلاله مخطئين ، وقد أشار حافظ الى تلك الدسائس في القصيدة التي هنأ بها بعودته من ذلك السفر ، وقد نشرناها في المنار وسننشرها في ذيل هذا التاريخ ان شاء الله وجملة القول انه كان أوفى الاوفياء لاصدقائه ، وكان له من الاصدقاء الصادقين ما لم يتح بمضه لغيره ، قال له محمد حافظ ابراهيم ، ياسيدي ان لك أعداء كثيرين ، فأجابه ولم تذكر أعدائي وتنسى أصدقائي يا حافظ ! فهل تعلم ان أحداً له مالي من الاصدقاء ؟ قال اللهم لا ، وتأمل هنا حسن موقع قوله يا حافظ !

ثقة بالله دور الخلق

كان على ما علمنا من صفحه عن الاعداء ، وكال الوفاء الاحباء ، والثقة بصدق بعض الاصفياء ، والاحسان بأوائك وهؤلاء ، لا يخاف في طريقه إلى الاصلاح عدوا مبيناً ، ولا يتكل فيه على الصديق وان كان ناصحاً أميناً ، وانما كان مستقلاً برأيه مع الاستشارة ، مستقلاً بارادته مع الاستماعة ، واثقاً بان الله

يؤيده ويسخر له الناس ، لا خلاصه لله وللناس ، يستخدم في سعيه كل من استطاع استخدامه من موافق ومخالف ، ووطني وأجنبي ، ولكنه لا يعتمد في قلبه على أحد من الناس ولا يفتر باحد منهم .

كان في الناس من يظن أن السبب في شجاعته وقوة عزيمته في عمله ونفوذه عند الحكومة وادلاله عليها ، هو اعتماده على حزبه الكبير الذي يضم جماهير العقلاء والفضلاء والكتاب والادباء ، وفيهم من يظن أن سبب جراته ومضائه واقدامه ثقته بتأييد الحكومة له وبالقوة المحتلة من وراء الحكومة . أما هو فكان يعتقد أنه لا حول له ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ثم بما وهبه من العزيمة والاخلاص . وقد كلمته مرة فيما يقل من ثقته بالحكومة ... فأقسم بالله انه يشعر بأنه في هذا الوجود كالعريان الذي ليس له فيه شيء ، وانه لا يعتمد على شيء إلا على الله وحده وهو المسخر لمن يشاء . وقد تقدم بيان رأيه في الانكليز المستعمرين كمحتلي مصر (ص ٩٢٢) وأما رأيه في الحكومة المصرية في عهد الاحتلال فله فيه مقالة أملاها في أثناء مرضه ونشرت باللغة الفرنسية في بعض المجلات وفيها يلقب جماعة النظار (الوزراء) بجمعية الصم البكم ، ولعلي أغتر عليها فأشرها في ذيل هذا التاريخ

صرقه وشجاعته

كان رضي الله عنه معتصما بمجبل الصدق ، متحررا ما يعتمد انه حق ، واذا تذكرت ان علة الملل لفشو الكذب في الناس هي شدة ظلم الحكام ، واستبداد أولي السلطان ، وان أ كذب الناس أكثرهم قربا من الظالمين ، ومعاملة للحكام المستبدين ، علمت ان ملكة صدق اللسان ، لا تترتب إلا في حجر شجاعة القلب وجرأة الجنان ، ولولا شجاعته لما نادى بمقاومة الاستبداد والاستبداد (كما قال) في عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ، ولما حافظ على رأيه واعتقاده وان خالف العلماء والحكام ، وخالف الجماهير المعبر عن رأيهم بالرأي العام ،

هذان الخلقان - الصدق والشجاعة - هما شرطان للتدرة على الاصلاح ، فالكذب والجبن عدوان لله لا يصلحان لشيء من الخير ولا يصلح بهما شيء . وان التزام الصدق في أمة فشا فيها الكذب ، واعتادت الدهان والملق ، من أشق الامور

على النفوس ، وأبدها عن طاعة التهذيب ، لما له من الاثر في احفاظ القلوب ،
والتأثير في إثارة البغضاء ، وتكثير سواد الاعداء ، وتنفير المحبين والاصدقاء ،
فكيف يتكلفه المتكلف مع هذه المنفرات عنه ، والمرغبات في ضده ، ثم كيف
يكون ملسكة نفسية ، لا تكلف فيه ولا روية ؟ لا تحسبن الامر سهلا فان الظهور
بمخالفة اهواء العامة مما يجنب امامه الملوك القاهرون ، وينكش دونه العلماء العاملون ،
ولهذا يدهن الرؤساء للرموسين ، ويدهن الرؤوسون للامراء والسلطين ، فالصدق
فيما لا يرضي العامة ، أشد من الصدق فيما لا يرضي الخاصة ، فما بالك بالصادق فيما
قد يفضب الفريقين ، والصابر على الطعن من الجانبين ، أليس هو في مرتبة
الصديقين ، التي تلي مرتبة النبيين والمرسلين ؟

وقد ذكرت في الكلام على دروس الاستاذ الامام خلاصة خطابه الذي ألقاه
في الجامع الازهر في حفلة ختام درس المنطق وفيه ان الشجاعة الازمية هي التي تعتق
الافكار من رق التقليد ، فتكون حرة مطلقة العنان في ميدان العلم ، جديرة بالسبق
إلى معرفة الحق وبيانها ، وان من فقد هذا الخلق لا ينتفع بعلم المنطق ولا يكون أهلا
للاستدلال ، فلا يكون عالما مستقلا في علمه حق الاستقلال (راجع ٧٦١)

رأيت الاستاذ الامام في النوم بعد موته بايام فقال لي : إن الله تعالى أعطاني
مقعد الصدق او قال : انني في مقعد الصدق . فتذكرت كلام الشيخ محيي الدين بن
عربي في مقام الصدق وحال الصدق ، ومنه ان صاحب حال الصدق يكون كثير
الظهور بالولاية والكرامة كثير الدعوى بحق ، - كعبد القادر الجيلي - وصاحب
مقام الصدق أعلى وأكمل ، ويكون في الولاية مجهولا لا يعرف ، ونكرة لا تعرف ،
- كأبي السموذ بن الشبل تلميذ عبد القادر - وتذكرت جهل الناس بمقام الاستاذ
الامام ، في الولاية والعرفان ، احتجاجا بمظهره الدنيوي ومعارفه الكونية ، عن
مرتبته الروحية ومعارفه الدنية ، واستيقظت وعلى لساني قوله تعالى (ان المتقين
في جنات ونهر ، في مقعد صدق عند مليك مقتدر)

وبعد بضعة أشهر من وفاته كتب إلي الاستاذ الشيخ احمد محمد الاني من
طوخ القراموص كتابا جاء فيه مانصه :

ولمناسبة ذكر الاستاذ الامام أخبركم برؤية منامية حصلت لي معه وهي -
 رأيت كأني في قراقة مصر في يوم عيد ومعني بعض الاخوان فعرضت عليه زيارة
 قبر الاستاذ الامام فامتنع فتوجهت بنفسي اليه فرأيت حوشاً جديداً مبنياً عليه
 باب ذو ضربتين فاستأذنت من عنده بالدخول فأذن لي فدخلت على مكان القبر
 وسلمت على من فيه فاهتز القبر لذلك وانفلق عن الاستاذ الامام فاذا هو شيخ
 موقر ابهى من هيئته التي كان عليها في الدنيا ، وبعد أن رد علي السلام اوماً إلي
 كأن أقبله فقبلته ، ثم قات له ما فعل الله بك ؟ فأجابني بجواب لا أفهمه اولاً وثانياً
 فقلت له سأكرر السؤال حتى أفهم الجواب فقال - أعطاني ملا عين رأيت
 ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر - فقلت له في اي مقام أنت ؟ فأجاب -
 في مقام الصديقية . (وهذه الاجابة كانت لها مناسبة نهائياً إذ جاء ذكر فضيلته
 بين بعض الاخوان وبينني فقال (هل هو ابو بكر الصديق ؟) فقلت نعم انه صديق زمانه)
 ثم قلت للاستاذ الامام ماذا ترى حالي ؟ فقال حسن (والى ان لا يضر
 الناس - يعنى المسلمين منهم - إلا أخذ الربا وأكله) انتهى

هذا - وإن ما ذكرناه من الشجاعة في التزام الصدق ، والمجاهرة بنصرة
 الحق ، هو ما يميز عنه كتاب العصر بالشجاعة الادبية ، وانت لا تجهل ان من
 لا يهاب في الحق صولة الحكام ، ولا يخاف طعن الخواص والعوام ، فهو جدير
 بان لا يخيفه الحسام ، ولا ترهبه السهام

كاشفني رحمه الله مرة بكتاب جاءه بغير توقيع يهدده مرسله فيه بالقتل اذا
 هو ظل مسترسلاً في عمل نسب اليه^(١) ورأيت غير مبال به ولا مكترث له ، فقلت له
 إن لك أعداء لا يخافون الله ، وانك تجيء دارك في الليل وهي في الخلاء بعيدة
 عن العمران ، فلو نظرت في ذلك. فقال أو أنت تقول مثل هذا ؟ انني لم أهنيء
 نفسي الى الآن بأنه وجد في وطني من تجرأ علي بكلمة « أخطأت » ، فأخاف
 ان يتجرأ احد منهم على محاولة قتلي ؟

وسأنته مرة ماذا تصنع إذا هجم عليك لص في الليل أتطلق عليه الرصاص
 (١) هو ما اتهم به باطلا من مشايعة الحكومة في مسألة المحاكم الشرعية وتقديم شرحها

من هذا المسدس - وأشرت الى مسدس سابق بسريره نومه - فقال لا يجوز إطلاق الرصاص في البيت فانه يزعج النساء والعيال ، وليس عندي للص الا القبض عليه والاخذ بقوف رقبته :

وكان في سن الشباب يسير مع والده ليلا في خلاء من الريف فهجم عليهما صائل من قطاع الطريق بيده نبوت مستدير الرأس فيه مسامير كبيرة من الحديد رفعه ليضرب به أحدهما فسبقة الولد بضربة خر بها صريعا ويظن انه مات وأغذاهما في السير

وخرج هو وبعض أصدقائه في بيروت في بعض أيام الآحاد للتنزه في حدائق (انطلياس) من ضواحيها في لبنان وهو المكان الذي يصنف فيه ماء النهر ويدفع إلى مدينة بيروت ، وفي أيام الآحاد يكثُر هنالك المتنزهون ، فيدنا هو يدخن بشيشته (النارجيلة) مع أصحابه أقبل شاب من دعار النصارى الذين يدلون بالفتوة والشجاعة ووضع لفافة من التبع على رأس شيشته فأشعلها بنارها ، وهذا يعد احتقارا في عرفهم ، فأخذ الأستاذ الشيشة وضربه بها في صدره ، فتداعى كثير من شبان النصارى والمسلمين للتناصر والنجدة ، وكادت تكون فتنة ، ولكن وقى الله شرها فشجاعة الأستاذ الامام : نوعيا كانت تجتهد في بعض أوقات الغضب فتحون حلمه وأناته ، فيخاطب أمير البلاد على مسمع كبار العلماء بمثل ما رويناه عنه في (ص ٥٧٣) ويقرب منه قوله لوزير الحقاية وهو رئيسه في إحدى ليالي رمضان بقصر عابدين وهو يحاوره في مسألة قضائية على مسمع من كبار رجال القضاء وغيرهم : يظهر ان سعادة الباشا لا يستوفى حاجته من النوم في هذه الايام فيظل فكره متعباً - يعني انه لهذا لم يفهم المسألة ! بل صرح بما يفيد هذا المعنى : فما كان ينتقده على السيد جمال الدين من الحدة لم يكن بمنجاة منه ، ولكنه كان دونه فيه ، وقد تذاكرنا مرة في هذا الموضوع فقال لي إن السيد كان يقول لي إن في جيبك قرداً يخرج في بعض الاحيان . وقد تقدم فيما كتبه الامير شكيب من سيرته في بيروت انهم لم ينتقدوا من أخلاقه إلا شيئا من حدة المزاج (ص ٤٠٤)

انصافه في الرأي والعلم واذا حكم

كان من خلائقه الانصاف في الرأي والعلم ، كالانصاف في الحكم ، والبعد عن المكابرة ، في المذاكرة والمناظرة ، فلم يكن يزدهيه الغرور والاعجاب ، بسعة العلم وكثرة الصواب ، ولا كان يصده الاعتراف له بالامامة في العلم والدين ، عن الرجوع إلى رأي أحد التلاميذ والمريدين ، فضلا عن العلماء والعارفين ، بل كان رجاءا للحق إذا ظهر له ، يحترم فهم غيره ورأيه ، وهذا الخلق عزيز في العلماء ، لاسيما ذوي الشهرة والجاه ، ومن طلب آية على هذا فليرجع الى ما كتبه الامام الغزالي عنهم في بيان آفات المناظرة من كتاب العلم في الاحياء ، فاذا علم بما كان يجري بينهم والعلم حي والامة عزيزة - ومن لوازم ذلك الانصاف - فما ظن به هذا الخلق في خلف لم يبق لهم من عزة سلفهم إلا الفخر بها ، ولا من علمهم إلا الحكاية عن قلدتهم فيه . من آيات انصاف أستاذنا ورجوعه الى الحق ما هو مدون في مواضع من المنار . من ذلك ما نشرناه له في تفسير (وأما السائل فلا تنهر) إذ اختار قول بعض المفسرين - وهو الحق - أن المراد بالسائل من يسأل عما يجهل ويطلب التفقه في الدين ، وذكر فيما كتبه في تفسير جزء (عم) ان لفظ السائل لم يرد في كتاب الله عنوانا للفقيه والسالكين ، فظن بعض من قرأ ذلك ان قوله يفيد ان لفظ السائل لم يرد في

القرآن بمعنى طالب المال . فذكره رجل مستنير من عهد البلاد " بقوله تعالى : (والذين في أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم) فحسب بادي الرأي انه أخطأ فيما كتب ، فأرسل إلي ورقة صغيرة يصرح فيها بتخطئة نفسه ، وكفني طبع عشرة آلاف نسخة منها بعدد ما طبع من كتاب تفسير « جزء عم » لتلصق بنسخ التفسير ، وأمر الجمعية الخيرية بأن تملك عن بيع الكتاب حتى تطبع الاوراق وتلصق بنسخه ، وكتب بيانا لذلك وأرسله إلي لا نشره في الجرائد ، فرجعت إلى الجزء فرأيت عبارته صحيحة إلا انها مبهمة ليست كالمهود في بيانه ، فراجعته في ذلك ولم أطبع البيان ، فعاد الى التأمل في العبارة ورجع الى مسودات

(١) هو صديقنا المرحوم الشيخ عبد المؤمن موسى الذي تقدم ذكره في (ص ٩٢٩)

تفسير الجزء فتذكر انه ما كتب تلك العبارة في السائل إلا وهو ذاكر لما توهما انه يتأقها من قوله تعالى (وفي أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم) وقوله تعالى (والسائلين وفي الرقاب) ثم كتب ما كتب في إيضاح العبارة واعترف بما فيها من الابهام ، واستغفر الله من العود الى مثله ، وقد نشرنا ذلك في ص ٨١٥ من المجلد السابع من المنار فليرجع اليه من شاء

هذا ما نشرته في ترجمته من المنار بشأن انصافه في العلم وأزيا. على ذلك هنا انه كتب إلي يومئذ و كان موعوكا في فراشه ما يأتي :

ولدنا حضرة الشيخ رشيد رضا

وقع سهو في تفسير سورة (الضحى والليل) حيث ذكرت ان لفظ السائل لم يرد في القرآن بمعنى الفقير مع انه ورد في سورة الذاريات و (سأل سائل) فأحب أن يعرف ذلك ويكتب في بعض الجرائد حتى لا يتعرض متعرض آخر للمذيان في موضوع مثل هذا ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٠٤ محمد عبده

وأرسل مع هذا ورقة فيها تصحيح مفصل لهذا السهو فوجدت فيه الوقفة التي أشرت اليها ووقفة أخرى لانه كتب في حال مرض وكدر شديد لاشتداد المرض على صديقه الاستاذ الشنقيطي الكبير وما جاءني الكتاب الا وكان الشنقيطي قد قضى نحبه ، وواريناه لحده ، فكتبت اليه ما يأتي :

مولاي

جهز فقيدنا الشيخ محمد محمود (الشنقيطي) رحمه الله تعالى وشيع ودفن على السنة التي تحبها له ولغيره كما كان هو يحبها ، فأحسن الله عزاءك ، وعزاء العالم والفضل ومحبيهما بك ، وقد بشرني أخي محروس افندي بان صحة مولاي على أحسن ما كانت أمس ، ولولا ذلك لما صبرت عن الجبيء إلى عين شمس

ثم انني أردت أن أبيض ما كتبتم في مسألة (السائل) ففطننت لامر لم يخطر ببالني أمس ، اذ كنت تصفحت الكتوب على عجل ، وهذا الذي خطر لي الآن هو ان عدم جري سنة الكتاب باعتبار لفظ السائل عنوانا للفقير والمساكين لا يظهر جماله علة او سببا لامتناع كون ذلك اللفظ في الآية لطالب الصدقة -

فكون السائل هو المستفهم عما لا يعلم لا طالب الصدقة ظاهر في نفسه، وكون لفظ السائل لم يرد عنواناً للفقير والمساكين ظاهر أيضاً. ولكن هذا العطف الذي يفيد السببية والتعليل غير ظاهر لي (١)

فهل أكتب النبذة وأنشرها في الجرائد على وقفتي في العبارة وأنتظر اللقاء لتظهروا لي بالقول ما لم يظهر لي من الكتاب؟ أم أرجي النشر انتظاراً لبيان آخر منكم؟
أنتظر الجواب غداً بواسطة حموده بك أو محروس افندي. والامر لمولاي حفظه الله ٢٥ شوال سنة ١٣٢٢ ولدم

محمد رشيد رضا

فكتب إلي على الجانب الآخر من كتابي مراده من عبارة التفسير وكتب بعده مانصه : « فإذا شئت أن تضيف شيئاً من هذا على ما كتبته فافعل واختر موضعه . وعبارة التفسير فيها اجمال جر الى تأليف حاشية كهذه ، فأستغفر الله مما صنعت فيها ، وأرجو أن لا أعود الى مثلها »

وأعني بنشر هذا انه رحمه الله تعالى فوض إلي أن أزيد فيما كان كتبه أولاً شيئاً من معنى ما كتبه أخيراً على جانب كتابي ، وأن أضعه في الموضع الذي أراه لا ثقالاً به مما كتبه أولاً وأنشره بامضائه ، وهذا من تواضعه وانصافه من نفسه ، وإذنه لتلميذه الموثوق به عنده أن يتصرف في كلامه . وحينئذ كتبت الموضوع وزدت فيه ما رأيته وبوضته وعرضته عليه فأمضاه فنشرته في المنار (ص ٨١٥ من المجلد السابع) وفي بعض الجرائد

ولما طبعت الجمعية تفسير جزء عم ثانياً في مطبعة المنار بعد وفاته رحمه الله تعالى وضمت فيه هذه الحاشية عند تفسير الآية ، مع تصحيح ألفاظ أخرى

(١) أصل عبارته في تفسير الآية (وأما السائل فلا تنهر) : والسائل هو المستفهم عمالاً يعلم وإس هو طالب الصدقة فان هذا اللفظ لم يرد في كتاب الله عنواناً للفقير والمساكين « الخ فلا شك في العبارة محصور في قوله « فان هذا اللفظ الخ أي في عطفه على ما قبله بالفاء المفيدة للسببية . وعدم وروده كذلك لا يظهر كونه سبباً لوجوب جعل السائل بمعنى المستفهم عما لا يعلم . وقد قات له أنت كثيراً ما تكون سائلاً تطلب المال من الأغنياء للفقراء والمنكوبين والجمعية الخيرية

قليلة وقعت خطأ في الطبعة الاولى وأمر هو بتصحيحها. ثم طبعته الجمعية مرة ثالثة فحذفت منه الحاشية اذا اعتمدت على الطبعة الاولى، وهذا من غرائب الالهام البني فيما يظهر على المبالغة في حسن الظن بتصحيح المطبعة الاميرية، فلمل الجمعية تنشر الحاشية وتعتمد في التصحيح على مطبعة مطبعة المنار، عند اعادة طبعه إذ هو يطبع مراراً كثيرة وأبلغ من هذا في انصاف الاستاذ الامام وعنايته بتصحيح العلم الذي ينسب اليه انه عند لقاء ذلك الدرس العام او المحاضرة في العلم والتعليم في حاضرة تونس كنيبه بعض من حضره وعرض عليه فصحيحه ونشر في جريدة الحاضرة المشهورة هنالك، ولما أردت طبعه في المنار قلت له ان ما نشر في تونس غير معتنى بصحته فأذن لي بتصحيحه وتنقيحه عند نشره في المنار، وقد صرحت يومئذ بهذا الاذن، وهذه فضيلة له قلما يشاركه فيها أحد من العلماء المشهورين في هذا العصر وان لم ترق شهرتهم إلى أدنى درجات شهرته العالية، وقد نقل عن الامام الغزالي انه أمر تلاميذه بتصحيح ما قد يقع في كلامه من غلط في اللغة العربية لانه لم يبلغ الغاية منها وأبلغ من هذا وذلك ما كان من انتقاد الاستاذ الشيخ محمد محمود الشنقيطي على رسالة التوحيد وعلان الاستاذ لهذا الانتقاد في مجلس الدرس في الجامع الازهر مع الثناء على المنتقد، وقد نشرنا ذلك بوقته في المجلد الاول من المنار (٤٦٥ طبعة ثانية) في أثناء مقال عنوانه (انصاف العلماء) وهذا نص المراد منه :

« هل أتاك حديث علماء الآخرة وأنصار الحق وما كان من شأنهم تلقاء « رسالة التوحيد » قرأ الرسالة العلامة المحدث الذي انتهت اليه رئاسة علوم اللغة والحديث في هذه الديار لاسيما علم الرواية للحديث الشريف ولا شعاع العرب والمخضرمين، ألا وهو الاستاذ الفاضل الشيخ محمد محمود التركي الشنقيطي، فتوقف في بعض الحروف وبعض المسائل منها، فولى وجهه شطريد الاستاذ المؤلف حتى اذا ما جاءه طلب منه أن يقرأ الرسالة معه فقرأها في يومين، وتذاكرا فيما توقف فيه، فأزال له الاستاذ المؤلف بعض ما أشكل عليه واعترف له بالاصابة في بعض ما انتقده، وانتهى الأمر بشكر كل منهما الآخر. ومن حسن أخلاق الاستاذ المؤلف واعترافه بالحق وشكره عليه أنه قص هذه القصة على تلاميذه في

الجامع الازهر، وأثنى لهم على أخلاق الاستاذ الشنقيطي وعلمه ودينه، وقل هذه هي مزايا العلماء. وأما الانتقاد الذي اعترف المؤلف فيه للمنتقد بالاصابة فهو نحو قوله « دعيت لتدريس » وكان ينبغي أن يقول « دعيت الى تدريس » فسبق القلم، هذا من حيث اللفظ وأما من حيث المعنى فمسألة البحث في خلق القرآن . انتقدها الشنقيطي بأن فيها مخالفة لما التزمه المؤلف من سلوكه في العقائد مسلك السلف، قال والسلف لم يبحثوا في هذه المسألة. فاعترف له المؤلف بذلك وقال إنني خالفت في هذه المسألة بخصوصها الشرط لاهيتها واشتباه كثير من الناس فيها.» وذكرت بعد هذا تقريظ الشنقيطي للرسالة بقصيدة علمية وانشاده اياها في مجلس الدرس من الازهر، ونشرت القصيدة برمتها وسأنشرها في ذيل هذا التاريخ كما وعدت إذ ذكرت هذا التقریظ في سياق الكلام على مؤلفاته. وقد كتب الاستاذ في حاشية نسخة الرسالة التي قرأها في الازهر بوجوب حذف تلك الجملة منها في الطبعة الثانية. وكذلك فعلنا فلم نذكرها في شيء من طبعاتنا

مورده وسخاؤه

لا حاجة الى إطالة الكلام في جوده وسخائه فانه صار فيه على اكتتامة الصدقة وإخفائه البذل أشهر من علم، وعرف الناس كثيراً من البائسين والعجزة الذين كان يعملهم ويوصيهم بالكتمان. ولم يكن في أيام السراء، أبسط يداً منه في أيام الضراء، لقيه صاحب له من المصريين المنفيين في بيروت فقل له ان والذي قد توفي وليس لدي ما أنفقته في تشييعه، فأعطاه كل ما كان يملكه من النقد وهو راتبه الشهري من المدرسة السلطانية كان قبضه ولم ينفق منه شيئاً، ولكن الله أخلف عليه بما لم يكن يحسب فقد كان له دين عند رجل في مصر يلويه ويمطله به أيام كان يتقاضاه وهو برام، فيستحي منه ويخشاه، فما مر يوم أو يومان على بذل جميع ما في يده، وإثار صديقه على عياله، حتى آذنه مصرف (بنك) في بيروت بأن حواله برقية جاءت باسمه من مصر، وإذا هي دينه على ذلك الرجل (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وكان إذا وفر شيئاً من النفقة

صرفه في سبل البر، كان يدخن باللقائف المعروفة (بالزنوبية) بعد بالنارجيلة (الشيشة). ثم ترك التدخين بها وجعل ما كان ينفقه فيه صدقة. وكان لبعض أولي الحاجة من اهل المروّة والستر رواتب شهرية فرضها على نفسه. وكان منهم الاستاذ الشنقيطي، والشاعر الاديب الشيخ عبد المحسن الكاظمي. ولما رتبنا أوراقه وحاجه عند السفر الى الاسكندرية وجدت في صندوق الجلد الصغير الذي توضع فيه الاوراق المالية والامانات عسراً من النقود مكتوباً على كل منها اسم من براد إعطاؤه إياها. وقد سألتني عن الكاظمي مرة في الاسكندرية فذكرت له ان عليه ديناً فقال لو اخبرتني بذلك قبل أن يتصرف بمودة بالنفقة التي كنا نعدها للسفر (هي مائة جنيه) لأرسلتها اليه.

غيرته على الملة والامة

لعلني لا أحتاج الى التنويه بغيرته على ملته وأمته، فإن بذل حياته كلها في السعي لتربية الامة على هدي الدين وآداب الملة، لم يكن إلا أثراً من آثار هذه الغيرة، فالذليل وجودي علمي عرفه القريب والبعيد، واعترف به العدو والصديق، ولكنني أذكر في هذا الباب شيئاً لا يعرف نظيره إلا بعض أصفياؤه، الذين لم يغب عنهم شيء من أحواله.

جئته مرة في رمضان (سنة ١٣١٥) بعد الظهر على موعد فقيل انه نائم ولم يكن ينام في مثل هذا الوقت بل كان ينام طائفة من الليل ثم يقوم في السحر ويلبث بعد السحور إلى أن يصلي الصبح ثم ينام حتى ترتفع الشمس، فكشترينا استيقظ فسألته ماأنامه؟ قال مامعناه أرقتي الليلة الفكر في حال المسلمين وما ينزل بهم من البلاء يعدم عن دينهم، واتباع أهوائهم وشهواتهم، وقوي سلطان الفكر فهاج المجمع والمصبي ونبهه تنبيهاً شديداً، حتى حدثتني نفسي بأن أنزل إلى حيث يكثر اجتماع الناس كالوسكي والازبكية فأقف في الطريق أو تجاه أحد مجامع الاهو (كالمقاهي) وأنادي أيها الناس ماذا رأيتم في دينكم من القبيح حتى تركتموه؟ وماذا رأيتم فيما اخترتم بدلاً منه حتى تقلدتموه؟ ثم أخطبهم في حقيقة مام فيه، وأنذرهم عاقبة مام عليه، وأبين لهم طريق النجاة منه. وقد عاجلت النوم

فلم أملك منه شيئاً، فلجأت الى الكتابة وما كنت لأكتب في الليل فجرى القلم بفصل جملته في أواخر فصول رسالة التوحيد . فثابت إلي بعد ذلك نفسي، وراى النوم على عيني ، ولكن الليل كان قد آذن بالرحيل ، وجاء وقت السحور ، فلم أنل من نيلاً ، فكانت هذه النومه في النهار عوضاً عما فاتني في الليل (١)

أقول قد عرف من سبق له قراءة رسالة التوحيد ان الفصل الذي كتبه في تلك الحالة هو الفصل الذي عنوانه (انتشار الاسلام بسرعة لم يمهدها نظير في التاريخ) وما يليه من التفريق بين الاسلام والمسلمين ، ولعمري إن ذلك الفصل لقول فصل . وما هو بالهزل ، أملاه على كاتبه الالهام ، حتى كاد يكون معجزة من معجزات الاسلام . وقد قال في أوائله :

« ابتداء هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان ، ولقي من أعداء أنفسهم أشد ما يلقى حق من باطل ، أودى الداعي عليه السلام بضروب الايذاء ، وأقيم في وجهه ما كان يصعب تذييله من العقاب لولا عناية الله ، وعذب المستجيبون له وحرموا الرزق ، وطردوا من الدار ، وسفكت منهم دماء غزيرة ، غير ان تلك الدماء كانت عيون العزائم تنفجر من صخور الصبر ، يثبت الله بمنظرها المستيقنين ، ويقذف بها الرعب في أنفوس المرتابين ، فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الرب ، وهي ذوب مافسد من طباعهم ، فتجري من مناخرهم جري الدم الفاسد من المفصود على أيدي الاطباء الخاذقين (ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركه جميعاً فيجمله في جهنم أو املك هم الخاسرون)

« تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام ليحصدوا نبلته ، ويخفقوا دعوتهم ، فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للاقوياء ، والفقر الاغنياء ، ولا ناصر له إلا انه الحق بين الباطيل ، والرشد في ظلمات الاضاليل ، حتى ظفر بالعزة ، وتمزز بالمنعة ، وقد وطىء أرض الجزيرة أقوام من أديان آخر كانت تدعو اليها . وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان ، وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع المكره ، ومع ذلك لم يبلغ بهم السعي نجاحاً ، ولا أنالهم القهر فلاحاً » الخ

وجئته مرة في داره بعين شمس (سنة ١٣٢١) وكان قد وعك غداة يومه غرايته ينظر في ثلاثة كتب عربية يقرأ المسألة في كل منها فسألته مابك وما هذا الذي تنظر فيه ؟ فقال هو التهيج العصبي الذي يلم بي أحيانا من الفكر في الامور العامة ، وهذه كتب في أصول الفقه ألهو بمباحثها عن القرآن ، فاني اذا فكرت فيه رأيت بُعد المسلمين عنه فيقوى هذا التهيج العصبي ، ولم أجد شيئا يشغل الفكر مثلها

مروءته ونجدته

قد اشتهر بكمال الروءة والنجدة ، بأعلى مما اشتهر بالسخاء والصدقة ، فان السخاء ببذل المال انما يكون بقدر ثروة الانسان ولم يكن الاستاذ الامام من أرباب الدثور . لم يكن يملك إلا راتب وظيفته وهو لا يفي بنفقاته العادية إلا بالتدبير والاقتصاد ، وكان له قليل من الارض في بلده ترك استغلالها لاختوته ، وانما أكثر صدقاته ، من آثار مروءته ونجدته ، يقصده المحتاج فيكتب له وصية الى بعض الاغنياء الذين لا يردون وصيته كالأمير حسين كامل ، أو يذهب هو بنفسه فيطلب منهم . وكان يصمد اليه كثير من طلاب الوظائف في الحكومة وغيرها من المصالح والدوائر الغنية أو طلاب الترقى فيها . ومن طلاب المساعدة على كشف المظالم ، اضعاف من ياجأ اليه لطلب المال ، فما كان يخيب رجاء أحد فيه ، إلا أن يكون مبطلا ينتصر على ذي حق ، أو ثاملا يلبس ثوب مظلوم . وقد كانت شهرته بالنجدة والروءة مما يشغله عن أعمال أنفع منها ، ولكن طبعه يأبى عليه أن يرد شيئا منها وهو قادر عليه . ومن الشواهد عليها ما تقدم من انتداب لارضاء الحديو والورد كرومر ورئيس المظار في يوم واحد على من التجأ اليه في ذلك . لا يزال في الناس كثير من أهل المروف والروءة ولكننا لانعرف أحدا لا يشك من يعرفه في نجدته إياه إذا عراه خطب بكل ما يقدر عليه في نفسه او في تأثيره عند غيره كما كان يفعل هذا الرجل لمن يلتجئ اليه ولصديقه من تلقا نفسه

ثباته على الحق واستقامته

كان هذا الأواب الرجاع الى الحق، جبلا راسخا في الثبات والاستقامة على الحق، لا يتزلزل في أخلاقه وآدابه، ولا يتحول عن مقاصده وأعماله، إلا اذا ثبت له انه أخطأ في شيء. وكان لا يقدم على العمل إلا بعد الروية والتدبر، والبصيرة والتثبت، وقد كان السيد جمال الدين يقول فيه هو كالفلك لا يتغير، قال هذا بعد ما غاب غيبته في بلاد المشرق ثم عاد إلى أوروبا ورأى فيها جماعة ممن كان يعرف من المصريين قد تغيروا عما كان يعهد من مبادئهم كأزياتهم، إلا الشيخ محمد عبده فإنه لقيه كما تركه خلقا وزيا، وخلقاً وأدبا، وعقلاً ورأياً، وعلماً وعملاً، ووفاء وثباتاً، إلا ما آتاه الله من المزيد في العلم، والحصافة في الرأي

كان أخلص اخوانه ومريديه يرثون لما يكابده في سبيل اصلاح الازهر من العناء وبأسفون على اضاعته وقته الثمين فيما يعتقدون انه عبث لا يفيد، فيجمعون على لومه وتثبيطه واقامة الحجج على استحالة اصلاح هذا المعهد حتى يقتنع، ويحسبون انه ترك، فاذا هم يرونه في اليوم التالي قد عاد إلى عمله انشطاً ما كان وأشد هماً واهتماماً، فقال بعضهم لبعض في غيبته اننا لنعجب أشد العجب من الاستاذ في علمه وفهمه وسمو عقله كيف يقتنع بان عمله هذا تعب غير مجد ثم يعود اليه؟ فقال لهم اعلمهم بحاله وهو سعد زغلول ان الامر ليس باختياره وانما هو شعور وجداني بأنه مسخر لهذا العمل او ملهم به من الله تعالى، فهو لا يستطيع تركه

أخبرني الاستاذ نفسه هذا الخبر، ثم ذكره لي سعد باشا نفسه إذ طالبتة يوماً باصلاح الازهر في عهد رياسته للحكومة مع زعامته للامة. قال لي إذا كان الشيخ قد عجز عن اصلاح الازهر على ما آتاه الله مما لا ندرك شأوه فيه علماً وهمة فماذا أستطيع أنا أن أفعل؟ قلت انه كان يمارض من الامير ومن الشيوخ، وانت لا يمارضك أحد، قال إن العلة في نفس المكان هو غير قابل للاصلاح، فذكرت له مارواه لي الاستاذ من لوم جماعتهم له ومن جوابه هو عنه، قال هذا صحيح ان عمله كان وجدانا دينيا لا اختيار له فيه.

عاداته وزيه

وأما عاداته فقد كان يخالف فيها علماء هذه الديار - يخالفهم فيما يكره شرعا أو عقلا كتطويل الاردان وتوسيعها وجر الاذبال ، فكان زيه أقرب إلى زي علماء سورية منه إلى زي علماء مصر الا العمامة : جبة وقباء من ذوات الزيق للرقبة كما يراها الناظر إلى رسمه الشمسي ومن ذوات الالوان غير البهجة فلم يكن يلبس الاحمر بأنواعه ولا الاخضر ولا الاصفر ولا الحرير ذا اللمعان المعروف بالقطني وكل ذلك مما يلبس العلماء الموسرون في مصر. وكان يكره كسوة التشريفة (الرسمية) ويستحي منها في نفسه ، ولما كان صهره محمد بك يوسف مقبلا بدار وراء قصر عابدين كان يضعها عنده فيلبسها أيام الاعياد عنده ويدخل بها القصر ويحضر الحفلة الرسمية ثم يخرج فيخلعها عنده ، وفي أيام الشتاء يضع فوقها المعاءة والशल الكشمير حتى لا ترى ، ولو لا الضرورة لما لبسها ، ولما حضر الحفلات الرسمية وكان يكره أن تقبل يده بل يصافح الناس مصافحة ، وقد منع الازهرين عن تقبيلها بعد الدرس كما دتيم . ومامدها لي لتقبيلها لإمرة واحدة : وكان قد جاء من سفر فتأخرت عن عادتي في المجيء للسلام عليه مع الفوج الاول من المسلمين أو قبلهم فتلقاني بباب الدار قائلا « قلت ان انسيد قد أبطأ » فأقبلت على يده بلمفة وشوق شعرت بمثلها منه ، فدها لي خلافا لمادته ، فشمرت منه بجنان أبوي خفق له قلبي ، ولا أنسى لذته الروحية ماحييت

وكان يحتذي النعال المدنية التي تسمى (الجزمة) دون سائر العلماء فينكرون عليه ذلك فيما بينهم ، ثم كثر القندون به من شبابهم فكبهولهم ، وكان يركب الخيل حتى انه كان يذهب إلى المحكة وإلى الازهر راكباً فرساً ، ثم ترك ذلك بعدا لا انتقال من القاهرة إلى عين شمس . وقد قيل له انه لا يليق بكبار العلماء امتطاء الخيول ، فقال بل يليق بهم أن يكونوا كالفانيات يجرون الذبول ، ويتوكئون على السواعد عند الركوب والنزول ، ونطق بالكلمة المصرية « ستي هانم »

وكان يحب المشي على قدميه حتى انه اذا تأخر في درس الازهر بمحيث علم

انه فاتته موعد القطار الذي يصل الى عين شمس في آخر الساعة التاسعة ليلا وهو موعد عشاء الاسرة يقول لي قد فاتنا القطار فهل لديك مانع من المشي ؟ فاذا قلت له لا ، قال هلم . فتمشي من الازهر الى المحطة أحيانا وإلى مادونتها أحيانا .

ومن عادة علماء الازهر ان من يصير منهم شيخا الازهر أو مفتيا للديار المصرية يبادر حالا إلى شراء عربة يركبها ويرى انه لا يليق به ركوب عربات الاجرة ، وقد قلت له مازحا: ما بالك تركب عربات الاجرة وتمشي أحيانا مخالفا سنة الشيوخ ؟ فقال ان هؤلاء وأمثالهم من أصحاب مناصب الحكومة الكبيرة يرون انهم يكبرون في أعين الناس بهذا ، وأما أنا فأنني لو صرت خليفة للمسلمين لما استكبرت عن عربات الاجرة ، ولا عن المشي عند الحاجة

ومشينا مرة من الازهر قاصدين محطة سكة الحديد ، فلما جاوزنا شارع الموسيقى مال الى دكان فاشترى منها قليلا من البسكويت وطفق يأكل منه بلطف بعد خروجه من السوق . فقلت له مازحا : أمفتي الديار المصرية يأكل في الطريق ؟ قال : أما قرأت انه قيل لديوجين الفيلسوف : لماذا تأكل في الطريق ؟ فقال لانني أجوع في الطريق . ونحن قد فاتنا عشاء الدار الآن فنزكني بهذا

أما طعامه في الدار فكان من أنفس الطعام وأنظفه ، وأما أواني المائدة فكانت من الوسط في جنسها . ولم يكن نهما ولا مفرما بلذة الطعام بل كان يقول ان من ضعف الإنسان ونقصه حاجته الى الطعام كل يوم ، ولوددت لو أمكنني الاستغناء عنه وقلت له مرة انني عودت نفسي التقشف بترك أطيب الطعام اختيارا ، والنوم على الارض أحيانا ، وأردت أن أعودها احتمال الوسادة تربية لها على قشف الصوفية فلم أستطع الصبر . فأنني اذا عرقت ولم أغير ثيابي يبقى صدرى ضيقا حرجا . قال وأنا كذلك .

وكذلك كان فرش داره ، وسرر النوم فيها من الحديد الوسط ، ولكن حشاياها ومخداتها وملاءتها كانت من النسيج الابيض في أعلى درجات النظافة كان هو يعني بالنظافة من صفره وقد ذكرت هذا من قبل . ثم كانت زوجه الشامية من آل حماده من أكبر بيوت بيروت متنطعة في النظافة الى درجة الوسوسة .

خلقه ومزاجه وأمراضه

كان ربع القامة، أسمر اللون مع وضاعة، عظيم الهامة في اعتدال، عالي الجبهة، كبير الدماغ، أسود العينين برأقهما، كأنهما مصباحان أو شرارتان بارز الوجنتين، أقوى العرنين واسم الفم، منظم الاسنان، جهوري الصوت، أشعر الذراعين والمنكبين والصدر، عصبي المزاج عضليه، ممتليء الجسم في غير ضخامة، قوي البنية. فاجأه مرة حصان جامح فدفعه بيديه في صدره فردده إلى الوراء حتى أقمى أو كاد وحاول بعض رفاقه من مجاوري الأزهر أن يشغله عن المطامعة في الليل ليأب معهم بالورق فرماه بالأرض ووضع بين ساقيه وضغطه بها، فلم يستطع التفصي حتى كان هو الذي أطلقه باختياره. ولكن عرض له ما أضعف هذه القوة الخارقة للعادة منذ سن الشباب، فكان سبباً لما كان ينتابه من الأمراض ذلك بأنه ظهر له خراج تحت إبطه في سن الصبا فلم يبال به حتى كبر وتحول الدم فيه إلى صديد، وكان كعادته يركب الخيل ويطيل الجري عليها في الشمس حتى أقعدته الحمى بل ألقته في الفراش، فامتص دمه ذلك الصديد السام فغاب عن الإدراك أربعين يوماً. وقد تمثل له عند بدء سريان السم في بدنه رجلان واقفان في باب الحجر التي نام فيها في يد أحدهما غرارة (زكية) وأمام الآخر شيء كالخشيش فأخذ قبضة منه ووضعها في الغرارة فشعر هو بأن شيئاً قد دخل في ساقه، ثم وضع فيها قبضة أخرى فشعر بأن شيئاً قد دخل في فخذه، وهكذا كان كلما وضع قبضة شعر هو بدخول شيء في جسمه حتى إذا ما بلغ صدره كانت الغرارة قد امتلأت وغاب شعوره فلم يدرك بعدها شيئاً قط حتى إذا تم له أربعون يوماً عرق عرقاً شديداً فاض منه على فراشه فكاد يفرقه، ففتح عينيه وعاد إليه شعوره وقد ذكر هذا السم الصديدي بعد ذلك لكثير من الأطباء فقالوا له إن النجاة منه والحياة بعده تعد من النواذر التي تقرب من خوارق العادات. وكان يعاوده تأثير ذلك السم في مواعده من كل عام فيمرض مرضاً ثقيلاً أو خفيفاً، ثم حسنت صحته بالسكنى الخلوية في عين شمس — إلا الرثية (الروماتزم) فقد كانت تصيبه في يده حتى يضطر في بعض الليالي إلى رفعها طول الليل، ولم ينفعه علاج إلا صبغة اليود، واظب على أخذ نقط معدودة منها في نصف كوب من الماء بعد كل طعام — وهو لمن واظب عليه خير دواء

المقصد الثامن

(من الفصل السابق)

مذهبه في الإصلاح والتجديد ، ومذهب السير بمجال الربيه

كان السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده من أكبر مظاهر قول النبي ﷺ « إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها » (١) وقد قال المحققون من العلماء في معنى الحديث ان التجديد لا يكون لعلم واحد ولا في عمل واحد ، وان قواه ﷺ « من يجدد » عام يصدق بالقليل والكثير فقد يكون في القرن الواحد مجددون كثيرون منهم المجدد في علم التفسير والمجدد في الحديث وإحياء السنة ، والمجدد في تنقيح علوم الفقه واللغة ، ومنهم المجدد في الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الاسلام وتقوية ملسكه

وقد شرع هذان المجددان الحكيمان في مصر بنوعي التجديد السياسي والعلمي اللذين يشملان جميع أنواع التجديد الذي اشدت اليها حاجة الأمة، ثم اقتصر ا على التجديد السياسي في أوربة بمساعدة جمعية العروة الوثقى التي أسساها لهذا الغرض وأنشأ باسمها تلك الجريدة العربية التي هزت العالم الاسلامي كله هزاً ، وكادت تدع الشرق إلى الثورة دعاً ، فزلزلت الدولة البريطانية زلزالاً شديداً ، وقد تقدم وصف ذلك مؤيداً بالبراهين والشواهد

ثم تفارقا فاشتغل كل منهما بما خلق ميسراً له ، فكان رأييه تبعاً لميله واستعداداه ، وكل منهما ضروري لا بد منه ، الإصلاح والتجديد من طريق السياسة ، والإصلاح والتجديد من طريق التعليم والتربية ، وإن شئت قلت تجديد الأمة بإصلاح الدولة ، وتجديد الدولة بإصلاح الأمة ، لا بد من كل منهما ، وكل منهما يفضي إلى الآخر ، ولكن الاول أدنى وأسرع ، والثاني أثبت وأدوم وقد تقدم شرح عملهما المشترك

(١) رواه أبو داود والحاكم والبيهقي في المعرفة عن أبي هريرة

وعمل كل منهما في محله (راجع ما كتبه الاستاذ عن دعوته لكل من الاصلاحين في ص ١١ و ١٢)

كان بين الرجلين من التشابه الفطري ، والتعارف الروحي ، والاستعداد العقلي ، ومن التربية الصوفية ، واستقلال الفكر في طلب العلم ، ومن علو الاخلاق ، ما كان سبباً لافصال كل منهما بالآخر منذ تلاقيا في خان الخليلي اول ليلة ، ذلك الاتصال الذي عرف به كل منهما قدر الآخر معرفة لم تتفق له مع غيره من كل من عرفا من المعجبين بهما والمستفيدين منهما . وهذا شيء قد عرفه كل من عرفهما وكان بينهما اختلاف في ثلاثة اشياء هن سبب اختلافهما في مسألة السياسة التي ذكرناها في مواضع من هذا الكتاب : الاسرة والامة والحكومة . يضاف اليها ما تقتضيه من كبر الامل وعلو الهمة

نشأ السيد جمال الدين في أسرة من أشهر بيوت شرف النسب وشرف الحسب ، في عاصمة أمة عزيزة النفس ، شديدة البأس ، لم تذلل لحاكم ولا لأجنبي ، وهي تعظم آل البيت النبوي تعظيم العبادة ، في حكومة كان ذا مقام كبير في بيت إمارتها ، وركناً من اركان الزعامة لاحد الوارثين للحكم فيها ، وهو الامير محمد أعظم خان ، كما تقدم بيانه في ترجمته

ونشأ الشيخ محمد عبده في بيت من بيوت فلاحي مصر في قرية صغيرة ، في ظل حكومة مستبدة ، تحقر الفلاحين وتظلمهم ، وقد أصاب أسرته شيء غير قليل من الظلم حتى هاجر والده عبده خير الله من قرية محلة نصر من مديرية البحيرة الى مديرية الغربية فاحتفى بآل المذساوي واعتزواهم بشجاعته ، حتى ان الحكومة طلبته من محمد بك [أو مصطفى بك] المذساوي فأنكر وجوده عنده زمناً ، حتى إذا ما أهتمته الحكومة بالعبث في مسألة القرعة العسكرية وحبسته امكنها أن تقبض على عبده خير الله وتحبسه بتهمة اخرى

فلئن كان بيته اوجه بيت في قريته فهو لم يكن من بيوتات الوجاهة في الامة ولا عند الحكومة ، وأمه نفسها لم تكن لها عزة ولا مكانة لدى حكومتها أيضاً ، وما اوتيه من عزة النفس الفطرية كان دون ما اوتيه السيد جمال الدين ، كما كانت

الوراثية والتربية المغذيتان لغريزة السيد في الافغان ، الناهضتان به الى الآمال الكبار ، الحافزان له إلى مقاومة ظلم الامراء والملوك وإصلاح الدول أو إسقاطها — على الضد من الوراثة والتربية المغذيتين لغريزة الشيخ محمد عبده في مصر — فهذه الاسباب الثلاثة كان استعداد السيد الحسيني الافغاني للعمل السياسي اقوى من استعداد الشيخ الفلاح المصري

فلما جاء السيد مصر ونفخ من روحه في هذه الغريزة الشريفة، سار صاحبها معه في كل خطوها خطاه لقلب نظام الحكم الاستبدادي في مصر، وإقامة نظام نيابي في مكانه ، حتى إذا ما نفي السيد من مصر قال كلمته المشهورة انني تركت لهم الشيخ محمد عبده فهو يتم ما بدأت به

ولكن الشيخ نفي بعده إلى قريته (محلة نصر) لكيلا يشتغل في حزبهما الوطني لانتمام العمل السياسي (الذي كان توفيق باشا أقسم للسيد أغاظ الايمان - إذ كان ولي العهد - على تنفيذه لبرنامج في إنشاء الحكومة النيابية وتعميم المعارف أمم التنفيذ) نفي فأطاع الامر ، واذ لم تمكنه الحياة في الارياض عاد إلى مصر فكان يملك عامة بهاره في دار المرحوم رفاعه بيك يتمتع بكتبه ، ويدخل القاهرة في الليل متنكرًا ولم يعمل عملاً سياسياً

ثم اشتغل في وزارة رياض باشا بالاصلاح الداخلي وتوسل بنفوذه في المطبوعات إلى اصلاح التعليم في وزارة المعارف ، ولما ظهرت بوادر الثورة العربية كان مقاوما لها وفاقاً لميله الغريزي لاخوفاً ولا حبساً ، حتى إذا ما استعان الحديو توفيق باشا بالاجانب على وطنه طفق يساعد الثورة على علمه بضعف استعدادها وعدم امله بنجاحها، كما تقدم شرحه ونصوص ماذا كرت فيه

ثم لما دعاه السيد بعد نفيه من مصر إلى العمل معه في جمعية العروة الوثقى لتحييى العالم الاسلامي والشرق على الدولة البريطانية والسمي لاجلاء الجيوش البريطانية من مصر او ترك السودان ، أجابه ، وكانت بلاغته في ابراز افكار السيد الثورية هي التي أثارت تلك البراكين التي وصفنا تأثيرها في موضعه ، ولما لم يند كل هذا ينس الشيخ من العمل السياسي الذي كان استعداد له مستمداً

من روح السيد، ورجع إلى مبله الغريزي وهو الاصلاح من طريق التربية والتعليم. لتحرير العقل وإعادة هداية الدين ، فكان ما كان من عمله في بيروت ثم في مصر كل هذا كان امراً حسناً في نفسه ، ولكننا لم نوافق استاذنا على تخطيطه لاستاذة بالاشتغال بالسياسة ، وعارضناه في اول مرة فاه فيها بتخطيطه ، قائلين إن طريقة السيد اسرع من طريقته وكلاهما ضروري

كان استاذنا يائساً من ملوك المسلمين وامرائهم، ورؤسائهم من الباشوات وامثلهم ، وزاده يائساً منهم فشل استاذة في الاصلاح السياسي من قبلهم، مع اعترافه له بانه اعلى منه همة واشد تأثيراً ، وان روح كلامه يؤثر في كل من سمعه في كل موضوع كله به . لهذا تخلى لوجه هذه القوة الروحية العليا إلى بعض اولي الفطرة السليمة والقلوب النظيفة من الامة ، وادع فيها ما أوتيته من الحكمة الدينية والاجتماعية والادبية، بذلك اللسان الجذاب الخلاب، الذي أوتي فصل الخطاب وجوابنا عن هذا ان استاذنا كان فصيح من استاذة لسانا وقلما ، ولا يقل عنه في العلم ، وانما هو دونه في قوة التأثير ، وقد سلك طريق التربية والتعليم التي يفضلها، ولكنه اتى من مقاومة اولي الساطن مثل ما اتى استاذة منهم في طريقته السياسية ، ولم يكن تأثيره في إيقاظ الامة واصلاحها اقوى من تأثير استاذة ، فثبت بهذا ان عمل كل منهما كان ضروريا لا بد منه

لقد كانت الشعوب الاسلامية كلها مسبوتة لا تحس ولا تشعر بما يمزقها ويفرقها ويعرقها ، بل كان الشرق الادنى والوسط على اختلاف ملله ونحله في ظلمات حالكة لا يبصر ما يحل به . فكان السيد هو الذي نفخ فيه روح الحياة مبتدئا بالافغان فلهند فمصر فالترك فايران ، ولولا جهل ملوك الشرق وتصرف الاجانب في ملوكهم وامرائهم تصرف المالك بالمملوك والراعي بسائمة الانعام، لاحيا هذه الممالك كلها حياة طيبة مباركة، صارت بها من الدول القوية والامم العزيزة

وقد وصفت في مقصوري الرشيد (١) حال الشعوب الاسلامية ومصابها بملوكها

(١) هي مقصورة عارضت بها مقصورة ابن دريد الشهيرة، وتقدم ذكر آيات منها

وعلمائها ومرشديها، ووصولها بجهلهم وسوء تصرفهم إلى اليأس من الحياة وكيف
نفخ فيها روح الرجاء . وما كان لو ارث حكيمته في عهده ، وخليفته من بعده ، من
تعاهد أحد نوعي الاصلاح ، بما أثبت بهما أنهما كانا المجددين للامة في هذا
الزمان ، وان مافعلها كان منتهى ما في الامكان ، فاذا ذكر منها أياتا متفرقة في
معنى دعوته الاصلاحية ثم ماقلته فيه وفي الاستاذ الامام

قلت بعد ذكر الملوك المستبدين ، والعلماء المذائقين ، والمرشدين الخرافيين :

أولكم سادتنا الذين قد	ضلوا السبيل وأضلوا من قفا ^(١)
والامة التي استذلوا بثست	من نفسها فهي تردى في الردى
لولا صباح منذر أهاب : أن	هي وعر عينيك فامسحي الكرى
قد طلع الصبح فقومي وانظري	ما فعل المستيقظون في الوردى ^(٢)
لا تيا سبي لشدة الضغط فقد	يحدث الانفجار تجمع القوي
وانما تلك قواك جهلت	فعلت حيناً فكانت كالهبا
وصاح بالملوك والسادة أن	حسبكم من الشقاق ماضى
قد كاد ان يحاط يا قوم بكم	ويسرع الزوال فيكم والفنا
فبادروا للاتحاد بينكم	ورأب صدع الشعب من غير وني
لا يرتقي الشعب بلا علم ولا	حياة للعلوم إلا بالافى ^(٣)
والشعب إما يتحد فانه	يخام من يظلمه خلع الخذا
أليس باجتماع ذرات الهبا	كونت الارض وكانت السما
فقوة الشعب له ذاتية	وقوة الظالم منه تقتنى
فجندهم منهم ومنهم ماله	فهو بأيديهم وايدهم بغي

ذاك جمال الدين فيلسوفنا وتناكم دعوته التي دعا

(١) أي قفا أنرم واتبعهم (٢) مضمون هذين البيتين جملته في قائمة العدد

الاول من المزار . وعزوي إياه الى السيد الحكيم كغيره وعرو مضمون لا عزو عبارة

(٣) اللفى جمع لفة وأصلها لفوة - فهو ككفر فجمع غرفة

(والنجم) يهتدى به (إذا هوى) (ما ضل) في دعوته (وما غوى)
 فان يكن ذلك للاستبداد في فارس طوداً كان شامخ الذرى
 فان ركن الظلم في الترك أبى حكمته وسعيه الذي سعى
 ومن أبى الكتاب والميزان لا يقده الا الحديد يمتهى (١)
 او تجعل النار له قدائفاً تقوض الصروح من أعلى الذرى
 أنفذ أهل عصره بصيرة وغير أهل عصره ممن مضى
 إلا من اختار العليم واصطفى فيما له اختار الحكيم واصطفى
 يخترق الحجب شعاع رأيه فيشهد المحجوب كلاً رنا
 كأنما الغيب لديه حاضر إذا ارتأى كان كأنه رأى
 ألم ينبيء باهم ما جرى في فارس ومصر قبل ان جرى (٢)
 أصدق من زمانه عزيمة وعزمه أمضى نصالاً وشبها
 ان قل صارم الزمان او خبا ما فل غضب عزمه ولا نبا
 وان خبا زندله (٣) في قدحه أورى زناد رأيه وما خبا
 وان خوت نجومه في نوها جاءك نوءه بري وحيها
 عنه سلوا مصر وذلك الرجا تنبئكم الآثار ثم والصدى (٤)

(١) يمتهى يحدد ذلك ان تقول إلا الحسام ينتضي أي يسل والاول هو الموافق
 للاقتباس من الآية (وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) وأنزلنا
 الحديد فيه بأس شديد) ومعني البيت أن من لم يكن له وازع نفسي من هداية كتاب الله
 ولا رادع قضائي من ميزان العدل في شرع الله فلا يمنعه من ظلمه إلا قوة الحديد
 يعاقب بها على ظلمه

(٢) إشارة الى قوله في أمته الافغانية فيما نشره من تاريخها بمصر « تلك الامة
 المعروفة بعزة النفس ، وشدة البأس ، التي لم ترض الدخول تحت حماية الحضجر ،
 المبتلى بجوع البقر والاستسقا ، الذي لم يشبعه ابتلاع مائتي مليون من النفوس ،
 ولم تروه مياه الكنج والتمس بل ففر فاه ليلتهم بقية العالم . ويجرع مياه النيل
 وهر جيحون » يعني الانكليز ، وكان عدد أهل الهند وقتئذ مائتي مليون (٣) اي للزمان
 (٤) إنما أشرنا الى مصر اشارة البعد لاننا نظمنا المقصورة في سورية في ايام
 طلبنا للعلم . ثم زدنا فيها بمصر بعض ما هنا وما تقدم من عمل الاستاذ الامام في الازهر

بل ثم من ينشكم بما رأى
إذ جاءها الحكيم وهي دنف
تعد خير من تولى أمرها
وأفسد الانفس فهي عنده
أرقتها من أمرها العسر بما
قد أبسل الظلم والاستبداد من
لا عالم الشرق بدينه ولا
فذا أجير نلامير علمه
وذاك غافل ومغرور بما
فليس فيهم كاتب مؤثر
ولا خطيب فيهم مفوه
ولا سياسي يروض الصعب من
ولا حكيم يحمل الفرقان في
فتلكم مصر وذاك داؤها
وأشرع الطريق للإصلاح من
بما أفاض من دراري حكمة
في خطب يحيي القلوب صدعها
وفي دروس كتب أحياء بها
وفي أمالي بها أنشاء من
يقبسون في ثباً (٥) من داره
ثباً له ينحوه أهل الرشد ما
وفي كؤوس سمر يديرها

بمينه وما رواه فوعى
أعضل داؤها وأعوز الدوا
من اصلاح التربة والماء الروى
بهم تساس بل تساق بالمصا
أفسد من روح الإباء والتقى
ساكنها كل مضيم مزدري
مقتبس العلم من الغرب هدى
له ومنه واليه يبتغى
بحذقه من المراء واللخى (١)
يدني يراعه اليك ما نأى
يختلب القلب ويبعث الأسي
مشاكل السأو ويأسو إن سأمى (٢)
غياهب الخطب إذا الخطب غسا (٣)
إذ جاءها الآسي قطب وأسا
علم وحكم ولسان وحجا
قد زانها فصل الخطاب ونش (٤)
ويكشف الخطب ويبعث الرجا
من دارس العلوم ما كان عفا
معالم الانشاء ما كان أعجى
مريده والشمس ردا الضحى
بين تبات وفرادى وثنى
في سامر (البورصة) ما الليل سجا (٦)

(١) اللخى كثرة الكلام في باطل (٢) السأو الشعب، وياسويداوي، وسأى
الشيء مقلوب ساءه بمعناه (٣) غسا اظلم (٤) ثنا الحديث أشاعه والشيء أشاعه
(٥) التي بالضم المجلس الذي يضم الاكابر (٦) سامر البورصة مقهى في حي الازبكية

لا لغو في شرايها يخشى ولا
تتأزعوها حيث لا تنازع
تخلقوا لها على مائدة
يفذوم سياسة وحكمة
أجفل إذ دعا اليها الجفلى
فما مشى شيخ اليها الخيزلى
لكنما حتا إليها من ذأى الشـيوخ منهم ففاز واغتبـا (٤)
سل العلا والمجد عن تاريخه
فكم سما من المالـي منبرا
مالي وما لعاذلي في حبه
أذكر من كاله فينشني
ذلك شاني مع شانيه إذا
هيـات ما تساويا وان حكت
غول فيفتال الجسوم والنهي
صرفا بأفواه العقول نحتسى
لا يشتكى لها صدى ولا طوى
وغيره سأي بهن فشأى (١)
ازهرهم فأصبحت كالنقري (٢)
إلا عدا فتى اليها الهيدبي (٣)
يقصه المجد عليك والعلا
ليس يسامى فتعالى من برا
فقد أضل قومه وما هدى
يشكر من يحسن منه المشتكى
أربته البدر يربني السـما
صرح القوارير فقاقيع الحجـا (٥)

نمت بالاصلاح قام بعده
من حكمة تكشف أحلاك الدجى
وهمة ان جردت لحادث
مريده الوارث كل ما حوى
وغيره تأكلت فيها الجذى
تريك أسرار تصاريف القضا

(١) سأي في سيره عدا وركض وسأي الشيء نواه وقصده. وأما سأي القوم بالمعجمة فسبقهم (٢) الجفلى الدعوة العامة الى الطعام. والنقري الدعوة الخاصة لبعض الناس (٣) الخيزلى والخوزلى مشبة فيها تناقل وتراجع، والهيدبي ضرب من سير الخيل (٤) حتا حتوا عدا عدواً شديداً، وذأى الرئيس مره وسه طرده واضطهده. واغتبيا بلغ الغاية. ومعنى الايات الثلاثة ان السيد دعا إلى مائدة علمه دعوة عامة فاجفل الازهر من دعوته فاقبلت خاصة، مشى اليها بعض الشيوخ متناقلا وهرول اليها جماعة من الشبان عدواً. وقد سبق الجميع اليها من اضطهده الشيوخ ففاز وبلغ الغاية القصوى في العلم والحكمة، وهي اشارة الى الاستاذ الامام الذي اضطهده الشيخ عlish وغيره (٥) الحجـا بالفتح جمع حجة بمعنى الققاقيع وهي نفاخات الماء الصغيرة المستديرة كأمثال القوارير. والايات تعريض بالشيخ ابي الهدى

إذا تحدث الحسام المنتضى أعيامضاؤها الحسام المنتضى
 وصدق اخلاص غدا يفيض من جوانب القلب فيملاً الحشا
 من كان منه المقول الذي حكي والقلم الذي بعفه جرى
 تآزرا لينقذا الامة من فرعونها الذي استبد وعلا
 تأخيا لينقذا الاسلام من دجاله الذي يبدعه غلا
 قد ورثا موسى وهارون بما تأخيا والمصطفى والمرضى
 واعتصما (بالعروة الوثقى) فذا حرر ما أملاه ذاك وارتأى
 وهل يتبع الله مثل (عبده) (محمد) لها إماما مقتدى
 واقتسما الاصلاح شطرين فذا أثر إصلاح العلوم والحجا
 وذاك للسياسة التي قضى بها وأما وطراً فما قضى
 كادت وما كاد لها السيد بل أعرض عن مكر الجهول ونأى
 لانستجيب الحية الرقطاء لا حكمة لكن لا تخاديع الرقى
 وليتها ودعت الشيخ كما ودعها اذ عاذ منها وقلا (١)

نتيجة الاصلاحين والتجديدين

نتيجة ما تقدم ان السيد الافغاني والشيخ المصري ، هما اللذان جددا الاسلام بعملهما في السياسة والتربية والتعليم الاسلامي ، وأيقظا الشرق كله فهب للحياة والاستقلال القومي، وكان حظ مصر منها أكبر من حظ غيرها، لطول اجتماعهما وعملهما المزدوج فيها

وقد ظهرت فيها ثمرة العمل السيامي، أكبر وأوسع انتشاراً من ثمرة العمل العلمي التهذيبي على انقطاع الثاني له في سنه الاخيرة، فان بذرها لنواة الحكومة النيابية وانشاءها الحزب الوطني له، ونخرجهما الكتاب والخطباء الذين يتماهدونه، مازالت تقوى حتى اذا تم شرط ظهوره بعد اربعين سنة بانتشار الشعور العام في

(١) اشارة الى قوله « أعوذ بالله من السياسة » الخ

ناطقة جديدة من الشعب نهض الشعب فلم يجد قطبا تدور عليه رحاه إلا أحد تلاميذها (سعد باشا زغلول) فسلمه قياده ، وظهر مصداق قول الاستاذ الامام : اذا تم تكوين أعضاء الجنين ظهر فيه الرأس ، ولم يعد يصدق على المصريين قوله : يا ويح الرجل الذي ليس له أمة

ولكن هذه النهضة السياسية لا تزال ناقصة ما يكفل نماءها وزكاه وابقاءها ، وهو نهضة الثقافة التهذيبية التي انحصر جهاد الامام الاخير فيها ، وانما الخطر الاكبر على مصر من ضعفها باجماع العقلاء فيها ، وهي لا تتم إلا بالتربية الدينية التي هي قوام الفضائل وحفظ البيوت من الانحلال بالفسق والاباحة ، وانما سبب ضعفها كثرة الأعداء المهاجمين لها من الاجانب الطامعين ، وملاحدة الوطنيين ، وكثرة عباد الشهوة الاباحيين ، وفساد وزارة المعارف تبعاً لفساد الحكومة بتأثير التربية المادية الاجنبية ، وفوضى الازهر وجوده . وقد تمت أركان هذا الاصلاح العلمية ، وإنما ينقصها زعيم قوي ينهض بها بثورة دينية سلمية كاثورة السياسية ، أو بتأييد الحكومة لها

ولو بقي الاستاذ الامام حياً إلى هذا العصر الذي جعل جلالة ملك مصر فيه ميزانية الازهر والمعاهد الدينية ثلث مليون جنيه ، وأمكنه اقناع هذا الملك في كهواته ونضوجه بمثل ما أقنع سلفه الخديو في شبابه من الاصلاح ، لامكنه إحداث أعظم انقلاب روحي تهديبي في مصر يتبعه فيه الشرق الاسلامي كله ، وتضطر أوربة وسائر شعوب الحضارة إلى اقتباسه لتعصم به من خطر الفوضى المادية التي تتقاذفها أمواجها ، وترى حضارتها عرضة للغرق فيها

على ان الاستاذ الامام لا يزال موجوداً بوجود علمه مدونا ، ورأيه في التجديد مبيناً ، ووجود تلاميذه في الازهر وغيره أضاف ما كان له في عهد حياته الجسدية . فوسائل إتمام النهضة الثقافية المطلوبة موجودة ، ولم يبق إلا النقطة الاخيرة التي يكمل بها الضغط فيحدث الانفجار ، وعسى أن يكون قريباً

الطعن على الحكيمين المجددين

من سنن الاجتماع التي أثبتتها التاريخ ان الناس إذا ألفوا شيئاً وجروا عليه بالتقليد زمناً طويلاً فإن التعصب له يصير من الوجدانات الطبيعية لا يقبل الجمهور في انتقاده أو الدعوة الى تركه أو مخالفته حجة ولا برهاناً لا من العقل ولا من الدين ولا من المصلحة، وإنما يقبل ذلك الافراد بعد الافراد، بحسب تفاوت الاستعداد، فإذا صار هؤلاء الافراد جماعة قوية من الامة سهل عليهم نشر ما يدعون اليه، وضعف الاعراض والصد عنه بقدر ما يبذلون من القوة والحكمة في الدعوة اليه، ولا سيما إذا كان حقا

وهذا ما وقع للحكيم مع علماء الازهر وأمثالهم، جاء السيد جمال مصر في سنة ١٢٨٨هـ (١٨٧١ م) فألقى في عقول الناس وجوب البحث في الاسباب التي أضاعت ملكهم واستذلتهم للأجانب على قاعدة قوله تعالى (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وأثبت لمن أصغى إليه ان ما في أنفس جماهير المسلمين اليوم من الدين والعلم والاخلاق غير ما كان عليه سلفهم، وأنه يجب إتلافي ذلك تغيير نظام العلم والتربية في الازهر وغيره — فكان ذلك طعناً في علمهم وتعليمهم لا يمكنهم الاعتراف به، فلم يبق إلا الطعن على مقرره

أول ما يخطر ببال الذي تخطئه أو تلومه في دينه أو مذهبه أو رأيه أو عادته ذلك تحتقره، فيبادر بغريزة حب الذات الى الدفاع عن نفسه، وإذا كان الموجه اليه اللوم والانتقاد أو الدعوة إلى غير ما هو عليه جماعة أو شعباً بادر افرادهم الى التعاون على الدفاع عن انفسهم ومجاهدة المخالف لهم بما يستطيعون من حول وقوة، في حق أو باطل، وصدق أو كذب، وان شدة زعمائهم في ذلك تكون على قدر ما لهم من المنافع المادية والجاه فيما فيه الاختلاف، وشدة عامتهم ودهائمهم فيه تابعة لشدة الرؤساء والزعماء فيما يصورون لهم من جناية المخالف لهم وعدوانه على دينهم في الدرجة الاولى وعلى دنياهم في الدرجة الثانية

وروايات التاريخ عن تعصب اهل الاديان والمذاهب في الدين الواحد بعضهم

على بعض مشهورة يتخذها الملاحدة حجة على ذم الاديان وزعمهم انهاضارة للبشر، مغرية للمداوة والفتن والحروب بينهم ، والدين الحق لا يأذن بالحرب الا لمنع الفتن ورفع الظلم . والملوك والرؤساء انما هم الذين اتخذوه وسيلة لذلك وقتا ما، كما اتخذوا الجنسية والوطنية له في وقت آخر- وكذا اختلاف المذهب في الدين الواحد ، وما كان ينبغي أن يقع هذا في أهل ملة التوحيد ، لو لا انهم وصموه بالتشيع والتفريق ثم ان لطعن العلماء بعضهم على بعض سببا آخر وهو الحسد فهم أشد الناس تحاسداً . وقد روى الحافظ ابن عبد البر وغيره عن ابن عباس (رض) وعن بعض كبار السلف كمالك بن دينار - النهي عن مماع كلام العلماء بعضهم ببعض وتعليله بأنهم أشد تغاراً من التيوس في زرائبها ، حتى قال بعض الفقهاء بعدم قبول شهادة بعضهم على بعض ما وجد رجل نبغ في العلم والعرفان، وبذ في شهرته الاقران ، إلا وغلا بعض العلماء في إطرانه ، وبعضهم في ذمه وهجائه ، سواء كان من المحدثين او المتكلمين او الصوفية او الفقهاء ، وقد اشد ذلك في العصور الوسطى عند المسيحيين والمسلمين .
عني بعد القرون الثلاثة الاولى من نشأة الدينين

وقد كنت عازماً على بسط هذا المبحث في هذا التاريخ لأبين اقارئيه أن ما قيل في حكيمينا المجددين من الطعن البهم الذي لا يعرف له قائل له قيمة لا يعد شيئاً في جنب ما قاله العلماء المتقدمون المعروفون في الامام أبي الحسن الاشعري ناصر السنة على الاعتزال ، والامام ابن حزم المجتهد المطلق ، وحجة الاسلام الغزالي من أئمة المعقولات والتصوف والفقهاء ، وشيخ الاسلام ابن تيمية من أئمة المحدثين الجامعين بين المعقول والمنقول ، والشيخ أبي الحسن الشاذلي من أئمة الصوفية المعتدلين ، دع غلاة القائلين بوحدة الوجود منهم . وقد جمع الشعراني كثيراً من هذه المطاعن في المشهورين في كتابه اليواقيت والجواهر وغيره

والكنيتي رأيت الطعن في حكيمينا قد ضعف بمد وفاتهما وما زال يتضاءل حتى خفي أوزال ، وأما الثناء عليهما والاعتراف لهما بالاصلاح العام عن علم وإيمان ، وبصيرة وإخلاص ، فما زال ينمي زرعه ، وبخرج شطاه ، حتى استغلظ واستوى على سوقه ، وآتى اكاه ضعفين وسيكون أضغافاً مضاعفة ، فأجمت كلمة أهل العلم

والرأي الذي يخدمون الاسلام وشعبه والشرق وحضارته على أن لها الفضل الاول في النهضة العلمية والدينية والمدنية والسياسية

بعد هذه المقدمة الوجيزة أقول قد اشتهر عن علماء مصر انهم كانوا يطعنون على السيد جمال الدين ثم على الشيخ محمد عبده بعد اتصاله به وأخذ عنه . وأشهر من روي عنه ذلك الشيخ عليش المغربي الاصل كما تقدم في (ص ١٢٣) ومن المعروف ان المغاربة أشد تمصباً وحدة في عصبيتهم من المشاركة . وان المصريين من أشهر المشاركة في التسامح وسعة الصدر . ولذلك كان جل ما قيل في الحكيمين مما يوسوس به في الآذان . ولم نجد لاحد من أهل العلم المشهورين كتاباً ولا رسالة تهمة ما بشيء مسين معروف عن أحدهما أو كليهما مخالفاً لاصول الدين . وأما ما كتب في الجرائد من الطعن في الاستاذ الامام فقد بينا في بحث عداوة أمير البلاد له وإغرائه به انه لم يصدر عن العلماء بل عن سفهاء الجرائد ، وانه لم يكن لشيء منه قيمة . وقد كان كله من أسباب ارتفاع قدره ، وعظم أمره ، كما ذكرته في هذا التاريخ مجلداً ، وفي المثار مفصلاً

وقد أشرت فيما سبق منه هنالك إلى ان أول من طعن فيه من أصحاب الجرائد رجل اسمه الشيخ محمد الشربلي ووعدت ببيان ذلك هنا فأبدأ فيه بما نشرته في ذلك الوقت مجلداً وأقفي عليه بتفصيله ، فأقول :

جاء في ص ٢٣٩ من الطبعة الثانية لمجلد المثار الاول مانصه :

حال الجرائد المصرية . والغميزة بالشيخ محمد عبده

في مصر والا-كندرية جرائد كثيرة لانعرف عددها ، منها بضع جرائد معتبرة تجري مستقر لها معقول ، وتستقي كل واحدة منها من مشرب مورود او معلول ، والبواقي يعيشن بما يأكلن من العوارض ، فان لم يتح لهن منها شيء ، وهن مما لا ينال العبيط ، أنشأن ينهشن الاعراض الطيبة ، ويملأن مواضعهن بلحوم الميتة ، إلا أن يقتدي صاحب العرض عرضه بشيء من المال : يعرضن اولاً لبيع بعض الوجهاء فان جاء انعريض بالفرض فذاك ، والا صرحن بالقول ، وان كان تذقحا وتجوما . من هذا النوع جريدة في القاهرة تسمى النهج القويم عرضت بغميزة حضرة

الاستاذ الكامل والعلامة الفاضل الشيخ محمد افندي عبد الشهير ، فلم يُبَل ، فصرحت بغميزته في مقالة نشرتها عن حال الازهر الشريف قلبت فيها الحقيقة ماشاءت . فقامت النيابة العمومية الدعوى على صاحب الجريدة الشيخ محمد الشربتلي ، ولدى الاستنطاق زعم ان الاستاذ الشيخ سليمان العبد أحد شيوخ الازهر المشهورين هو الذي جاءه بالخبر الذي نشره عن الازهر ، وأغراه بنشره ، ووعدته بترويج الجريدة بازاء ذلك ، فاستحضر الاستاذ الشيخ سليمان العبد للمحكمة وسئل من قبل النيابة عن علاقته بالاستاذ الشيخ محمد عبده وعن صحة ما يدعيه صاحب جريدة النهج ، فاجاب بعد التمين بان علاقته بالاستاذ علاقة صداقة ووداد ، وصفاء ووفاء ، وان صاحب النهج كاذب في دعواه . وأيدت قوله شهادة الاستاذ الشيخ حمزة فتح الله وآخرين ضد شهادة صهر صاحب تلك الجريدة وعمال مطبعتها ، وبعد هذا طفق محرر النهج يستعطف الاستاذ الشيخ محمد عبده ويضمن بالاستاذ الشيخ سليمان العبد زعما انه أغراه ، ثم فذمه وأنكر مدعاه . بسبب هذا كثر الارجاف بان الصداقة بين الشيخين منفصلة العرى ، فلاحظ هذا الشيخ سليمان فكتب رقبا إلى أشهر الجرائد المصرية يقول فيه :

بعد الحمد لله والصلاة والسلام على سيد رسله سيدنا محمد . اني أعلن في جريدتكم الغراء فوق ما قلته امام النيابة العمومية كذب من ادعى أنني حرصت على تنقيص أخي وصديقي الاستاذ الشيخ محمد عبده ، واني أعتقد فيه حسن الخلال ، وصفات الكمال ، وليس بيني وبينه إلا كمال الصفاء والوفاء أدامهما الله بين رجال العلم وأمناء الامة في ظل تعطفات مولانا الخديو المعظم وتحت عناية مولانا صاحب الفضيلة شيخ الجامع الازهر آمين

كتبه بقلمه

سليمان العبد بالازهر

ويقال انه كان بين الشيخين بعض فتور وانهما قد تصالحا على يد فضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع وستبري . النيابة الاستاذ الشيخ سليمان وتقيم الدعوى على صاحب النهج ، وعسى أن يترتب في هذه الكرة وينيب اه
هكذا أبهمت الحادثة بالاتفاق مع الاستاذ واني مبين الآن ظاهرها وباطنها فقول

نحري الاستاذ الامام الازهر بتجهيله بالتوحيد

(المحرك لرميه بانكار التوحيد)

أراد الاستاذ الامام أن يصخ الازهر بقارة شديدة توقف النائم ، وتقدم القائم ، وتزلزل غرور الغرورين بالعلم ، واحتقار المحتقرين لمن عداهم في الفهم ، وثبت لهم بالفعل ان تحليلهم لألفاظ كتب التدريس عندهم وإيراد الاحتمالات والشكوك فيها ، ليس هو العلم المطلوب ، وإنما العلم بتحليل الحقائق ، والجزم بما تثبته الدلائل ، وأن العلم بالتوحيد ، لا يثبت بالتقليد ، وكان يقرأ رسالة التوحيد وابعه عن بعض المشهورين منهم أنه قل ان هذه الرسالة إنشاء لا علم ، فلما بلغ مبحث إقامة الدليل على وحدانية الله عز وجل قال الحاضري الدرس وفيهم كثير من العلماء المدرسين في الازهر ما معناه :

انكم تعلمون ان الايمان بوحداية الله تعالى هو الاساس الاعظم لدين الاسلام ، ولذلك جعلت كلمة التوحيد عنوان الدخول فيه ، حتى اذا ما قالها المشرک في ميدان القتل وجب الكف عنه الخ وسيكون موضوع درسنا الآتي إقامة البرهان على هذه العقيدة ، واني سأحضر معي عند المحبي ، إلى هذا الدرس مائة جنیه وأعدكم بان من أقام أمامي البرهان على البوحداية قبل أن يسمعه مني وأمكنه أن يجيب عما أورده عليه من الاعتراض جوابا صحيحا فاني أدفع اليه هذا المبلغ ، وليبلغ الشاهد منكم الغائب فكانت هذه الصيحة بهذا التحدي العلني الصريح صاخة شديدة دوى صوتهما في الازهر ، ووصل إلى مسامع شيوخه في كل مكان ، فاصم آذانهم ، وزلزلة قوية رجفت لها قلوبهم ، ولعل كل واحد منهم كان يتوقع أن يوجد فيهم من يبرز لهذا الرجل في اليوم الموعد غيره ويقم له البرهان ، وبجيبه عن كل ما يورد على مقدماته وشروط انتاجه من اعتراض ، ثم يأتي أن يأخذ للمائة الجنیهات ، وتلا له انما برزت لك لتعلم أن في السويداء رجالا ، وفي ميادين الازهر أبطالا . لا لاجل جنیهاتك التي أغنانا الله بالقناعة عنها . ولكن جاء اليوم الموعد ، والشاهد والمشهود ، ونادى الاستاذ الحاضرين ، بلسان عربي مبين : ها هي ذي الجنیهات المائة ، فمن

كان مستعداً لإقامة البرهان قبل أن يسمعه مني فليتقدم ، فنكست الروس ، وصمتت اللسنة . قل فاصيخوا إلي إذاً . وشرع يقرر البرهان الذي كتبه في رسالته أنا لا أعتقد أنه لم يكن يوجد في الأزهر من يقدر على إقامة البرهان على التوحيد الذي قال فيه الشاعر :

فيا عجباً كيف يعصى الآله أم كيف يحجده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

بيد أنه ثبت بهذا التحدي ، وعدم التصدي ، أنه لم يكن أحد منهم يجرؤ أن يقف مع الاستاذ الامام موقف المناظر ، في ذلك المجمع الخافل ، ولكنهم يعذرون - بالطبع لا بالشرع - إذا غضبوا منه وحنقوا عليه ، وحاولوا أن يسددوا سهمه إليه ، بأن يوعزوا الى جريدة من الجرائد الساقطة أن تذيع في الناس أن الشيخ محمدا عبده أنكر وحدانية الله تعالى ، وقال انها لا يقوم عاينها دليل ، وكذلك فعلوا وكان نشر هذه التهمة بين العوام ، أسهل من نشر ذلك التحدي الذي لم ينشره لهم أحد ، ولو نشر لما وجد فيهم من يفهمه إلا الأقل . وكذلك كان ، وأعقبه خوض الناس في الاستاذ الامام .

نشر الشر بتلي التهمة في جريدته فطلبت النيابة للتحقيق وزجته في الحبس ، فقل أنه تلقى هذا الخبر من رجل من كبار علماء الأزهر يثق به وهو الشيخ سليمان العبد ، فطلبت المحكمة الشيخ للتحقيق ، فشرع بالاهانة وخاف أن يقرن بالشر بتلي في الحبس . فطفق يطوف على الوجاه من رجال الحكومة وغيرهم ليدفعوا عنه طلب المحكمة ، حتى أنه ذهب الى الاسكندرية وكلم فيها محافظها اسماعيل باشا صبري لانه صديقه وكان صديق الاستاذ الامام ايضاً ، فلم يجد عند أحد نجدة ولا غناء ، فكلّم الاستاذ الاكبر الشيخ حسونة شيخ الأزهر واستنجد به ، فقال له ان وقعتك مع الشيخ محمد عبده ، ولا يوجد في مصر أحد ينقذك منه غيره ، فتعال معي إليه واعتذر له وأنا أرجوه أن يقبل عذرك

ذهب الى الاستاذ الامام فكان مما قاله الاستاذ اني لا يهمني في الدنيا شيء إلا ديني ، ولولا غيرتي على ديني لما دخلت أزهر كم فانه لا يناني منه إلا التعب والعناء . اما تخاف يا شيخ سليمان أن أنقرب إلى الله تعالى باخراجك من وظيفة التدريس

في دار العلوم بسوء نتيجة دروسك التي تظهر لي في الامتحان ؟ (وكان الاستاذ يتولى رئاسة الامتحان في دار العلوم ويضع له تقريراً سنوياً) ولكن يفرك مني انني أعلم أن عندك أولاداً كثيرين يغلب على قلبي الشفقة عليهم . فاعتذر الاستاذ الشيخ سليمان له وقال اننا نعهد الله على الصفاء والوفاء . وتكلم الشيخ خسونه بما قبله الشيخ محمد عبده مع تصريحه بأنه لا يثق بالمعاهدات . وانتهى الامر بنشرناه يومئذ في المنار من انكار الشيخ سليمان ما عزي اليه في المحكمة وفي الجرائد اليومية ، واعلانه بامضائه انه يعتقد الكمال في الشيخ محمد عبده ولكن تأثير تلك الصاخة لم يذته بذلك بل كثر تهامس كثير من العلماء في مجالسهم بالطعن والذم ، حتى كان كثير من أهل الفهم يحضرون درس الاستاذ الامام للاختبار ، متوقعين أن يسمعوا فيه شيئاً من الكفر أو الابتداع ، فيرون ضد ما كانوا يظنون ، وبصيرون من أنصاره ، فهذه النازلة هي السبب لما ذاع من تكفير الازهريين له ، وكنا نراه بين كبارهم موضع الاجلال والاكبار ، وأما صغارهم فكانوا يذلون له ذلاً أستحي أن أهينهم بحكايته عنهم ، فان كانوا يعتقدون مع هذا كفره أو ابتداعه فهم منافقون والحق انهم ما كانوا يتقنون منه إلا الجزم بفساد التعليم في الازهر والسعي لما يتعذر لصلاحه بالتعليم الاستقلالي الاستدلالي ، وبعضهم كان يحسده على ما آتاه الله من الجاه

وجملة القول أن جميع خصوم الامامين الحكيمين المصلحين كانوا من الفقهاء الجامدين ، والشيخوخ الخرافيين ، وكان أنصارها وماز الواعقل العلماء ، والكتاب البلاء ، وطلاب الاصلاح الفضلاء ، ومن المعلوم بالبداهة ان العوام الجاهلين يقبلون كلام الاولين لانهم أركان خرافاتهم وبدعهم وجهلهم ، ولكن العاقبة للمتقين ، والحجة الباقية للعقلاء المنصفين ، فكان هؤلاء يدافعون عن الحكيمين وينشرون مناقبهم في جميع الاقطار ، وتقدم نموذج من ذلك في الكلام على اصلاح الازهر وانتصار علماء الشرق والغرب للاستاذ الامام . وفي مجلدات المنار مقالات كثيرة في هذا الباب ، فاعلمنا بشيء انتقد عليه إلا وقد فندناه كزعم بعضهم في رسالة طبعها انه أنكر وجود الجن ، وبعضهم انه انكر وجود الملائكة ، وسنذكر المهم من ذلك في ذيل هذا التاريخ . ونذكر منها مقالة لعالم تركي نشرناها في المجلد الثالث عشر وهذا نصها :

الشيخ جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده (*)

كنت كتبت رسالة بينت فيها فساد زعم الذين يتهمون الشيخ جمال الدين الافغاني بالمروق وأوضحت بطلان هذا البهتان باجلى بيان، وطبعت تلك الرسالة ونشرتها فتداولتها الايدي واشتهرت بين الناس، وبعد ذلك سمعنا بهتان جديد وهو أن الاستاذ لم يكن مارقا ولكنه كان وهابيا

عجبا هل يعرف هؤلاء الذين يهرفون بما لا يعرفون معنى رميهم الناس بالمروق تارة وبالوهابية تارة أخرى ؟ أم هل درى اولئك الخراصون الاقا كون ناشرو الافك والبهتان أنهم بمعلمهم هذا يدخلون تحت انذار قوله تعالى (ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة) الخ ؟

واما الوهابية فهي بالحقيقة اسم الذين اعتنقوا هذا المذهب وهم معظم سكان بلاد العرب ومذهبهم ليس بينه وبين مذهب الحنبلية فرق كبير

عجبا أصار من الدين عندنا أن نثق بكل كلام يراد به إيذاء أي شخص والطعن عليه ؟ وكيف يجوز أن نعهد إلى رجل صحيح العقيدة صالح الاعمال ونقول إنه رجل صالح ولكنه مارق من الدين، ثم يتلقى الناس هذا القول وينتشر من دون ترو ولا نظر في أعمال وأحوال من نسب ذلك اليه، فلا يمضي قليل زمن حتى يشيع بين الناس بأن فلانا مارق وأن فلانا زنديق

ثم كيف يجوز لنا الحكم بمجرد نقل قوم لا يعرفون من أحوال من يحكون عليه بهذه الافتراآت ولا من كلامه شيئا يصحح حكمهم ؟

اننا نعلم ان اكبر جرم في الاسلام هو أن يحكم الانسان على عقيدة انسان آخر ويتحكم فيها وينسبها إلى الزندقة تارة وإلى الوهابية تارة أخرى بمجرد اختلاف في المشرب، أو لاقبل سبب، مع أن الواجب الاسلامي بأمرنا باحترام عقيدة مطلق انسان

(*) كتب محمد عا كفافندي الكاتب التركي المعروف هذه المقالة ونشرها بمجلة شورى التي تصدر في اورينبورغ في الروسية تحت هذا العنوان فنقلناها عنها

ما دام يوجد دليل واحد على اسلامه ضد تسعة وتسعين دليلاً على الكفر ، وانه لا يجوز الحكم بالكفر مع وجود ذلك الدليل

ان اتهم كبار المصلحين بالوهابية في بلاد العرب وبالفريسيين في بلاد الترك وبالباية في بلاد المعجم وبالدهرية والمروق في بلاد الروسيا صار أمر معروف ومشهوراً جداً . وان تعجب فمعجب نعمت خيرة رجال الاسلام بتلك النعمت مثل جمال الدين الافغاني مع أنهم هم وحدهم المعروفون بالمدافعة عن الدين الاسلامي وهم أنفسهم المجتهدون في ترقية بنده بتربيتهم تربية صحيحة، وهم الذين أفنوا عمرهم الثمين بانشاء المدارس ليجعلوا لابناء أمتهم حظاً من العلوم التي تنهض بهم من حضيض الذل إلى أوج العز وتؤهلهم للجهاد في معترك هذه الحياة ليخرجوا من أسر الغلب (الغلووية) إذا عترض علينا معترض من أهل الملل الاخرى قائلًا: انكم تهمون أفضل رجالكم وأعلمهم واعقلهم وأعلامهم قدراً وأشدهم غيراً على ملتكم بالمروق والدهرية والفريسيين والوهابية مع أنهم لا يريدون لكم إلا الخير والرفق والسعادة فلماذا الآن دينكم لا يجتمع مع العقل والعلم والفضل والادب والحمية وحسن الخلق؟ فماذا يكون جوابنا ياترى؟

إذا بحثنا في تاريخ الرجال الغيورين في القطار المصري الذين يدأبون على منفعة الاسلام ويخدمون المسلمين خدمة صادقة نجد انهم تلامذة جمال الدين الافغاني وانهم انما نبغوا بفضل تربيته القويمة

لو كان الرجل مارقاً من الدين كما يقولون لما قدر أن يوجد رجالاً ممتثلين غيراً على الدين وأهله يخدمونه أجل الخدم (لان فاقد الشيء لا يعطيه) ولا هم لهم سوى ترقى الانسانية بكل همه ونشاط

ان جمال الدين الافغاني رحمه الله تعالى ضاقت عليه الارض بما رحبت سواء كان في افغان أو المعجم أو تركيا أو اورية ولم يسمح له أن يقيم في إحدى هذه البلاد ناعم البال منشرح الصدر ، ولو كان من محبي المال والجاه والمناصب العالية لترك ما اضطره لاجله وهو خدمة الاسلام الجليلة، وإلقاء الدروس النافعة للعالم الاسلامي

ولما حاول إيقاظ المسلمين من نومهم العميق المؤدي إلى النوم الابدي إن لم يسعف بالإنبيات من مثل إرشاد جمال الدين ، نعم لو أن جمال الدين ترك خدمة لاسلام واشتغل ببث أفكاره في العالم ولم يعمد إلى إيقاظهم لأنهاات عليه سحب الدنانير وان كان موضع الاحترام ، وصاحب المقام الذي لا يرام في جميع البلاد

واكن تلك الروح العالية ، والارادة القوية ، والنفس السامية ، لم تنزل به في هذا الحضيض - حضيض المجد الزائل - فما زال مشمرًا عن ساعد الجد مجتهدًا بترويج مقاصده الخيرية ، يصارع الايام ويكافح النوائب غير هيب ولا وجل ، وثبت في موقف يتعذر على غيره الوقوف فيه حتى صبح أن يقال عنه انه كان شهيدًا في حياته وصدقت عليه عبارة كل بك التركي « أحسن شيء وأفضله في هذه الدنيا أن يكون الانسان شهيدًا في حياته »

هذا - وان الذين يفترون على جمال الدين الافغاني بالمروق والوهابية تراهم لا يألون جهدًا برمي الشيخ محمد عبده بأكثر مما رموه به (كأن الكفر والمروق على نسبة النفع للامة) نعم ان لهؤلاء الافاكين مصنع كفر لا يفتأ يصوغ من حلي الكفر أجودها لهؤلاء الرجال العظام ، فأننا ارجو منهم بعد النظر في مؤلفات الشيخ محمد عبده أن يثبتوا لي علامات الوهابية التي ينكرونها عليه ولو بأي صفة كانت ويظهروها للملأ^١ ان بعض الناس يقول « انه لا موازنة بين زهد الشيخ محمد عبده وبين علمه »^٢ وربما كان كذلك . وهل إذا امضى الشيخ محمد عبده عمره معتكفًا بالمساجد ، مواظبًا على صلاة النافلة ، أكان يفيد الاسلام أكثر مما أفاده ؟ اننا لانظن ذلك بل ان رده على عالم افرنجي مثل هانوتو ومدافعة عن حقوق الملايين من المسلمين هي في نظرنا أحسن عملا وأكثر ثوابا من الاعة تكاف وصلاة النافلة

انظروا إلى قول عمر رضي الله عنه لأبي قلابة التابي « ان اكتسباك الرزق

(١) لعل سبب مناقشته لهم في الوهابية مع قوله انه ليس بينها وبين الخبيلية فرق كبير هو انها كانت تخيف السلطان عبد الحميد لان آل الرشيد وبعض الخرافيين كانوا يلقون اليه انهم اعداؤه واعداء الدولة (٢) الواقع ان الشيخ محمد عبده كان ازهد في الدنيا ممن يصفهم المسلمون بالزهد لعجزهم وتواكلهم فقد كان يتصدق بكل ما زاد على قفقه بيته ، ولواراد الدنيا لكان من كبار اغنيائها

«لعلك أحسن عندنا من إقامتك في المسجد» وهل يعجز أبو قلابة عن تربية عياله وأولاده في زمن يعيش فيه الناس بقليل من النفقة عيشة الرفاهية من غير نجش مشاق الكسب؟ ومع ذلك فقد أمره عمر رضي الله عنه بالكسب ونهاه عن الإقامة في المسجد أما محمد عبده فإنه لم يكن مثل أبي قلابة ولا هو في زمن مثل زمنه بل هو في زمن يحتاج فيه أن يشعر عن ساعد الجد لأجل تربية عائلة تبلغ الملايين من الأشخاص هانحن اليوم معشر المسلمين ليس لنا مثل جمال الدين ومحمد عبده وقد مضى إلى خالقها وتركنا كالماشية بالاراع، بل اننا أصبحنا واقفين موقف الحيرة لا ندري ماذا نعمل ولا نهتدي طريق النجاة

فالواجب علينا ان نذكر مثل هذين الاستاذين بالخير لانها خدما الدين وكانا من حماة، وأن نسأل لهما من الله الرحمة والغفران لكي يثابرا لجزاء عملهما الصالح نعم ويجب أن نعترف بفضلها وإرشادها لثلاثيها الاجيال المقبلة وتمعينا بأننا لا نعرف لاهل الفضل فضلهم، ولاجل أن يعرف القوم الآخرون اننا اناس نعرف فضل المصلحين واننا لسنا بمن يكفرون النعم. وبحسن أن أوردنا حكاية صليبو وأجملنا خلاصا لهذا الموضوع وهي انه لما بدني قبل خمس سنوات رجل افولجي وقال لي «إنكم قوم محرومون من معرفة الصناعة وأنتم معذرون في هذا، وأنا في عدم تفكركم في معرفة قدر الرجال فليست معذورين فيه، بل ان هذا ذنب لكم لا يعتفروا هو من أشنع الذنوب» فاعتبروا يا أولي الابصار. (انتهت مقالة العالم التركي) أكتفي بهذا من خبر الطعن في دين الامامين الحكيمين من جهة المسلمين الذين لا يوجد في خيارهم من يدنو منهما في العلم ولا في الدين وأقول ان للافرنج مطاعن اخرى في سياستهما التي كانت كلها جهادا لهم من أهمها طعن لورد كرومر على الاستاذ الامام في كتابه (مصر الحديثة) وقد فندته بمقالات في المنار سنشرها في الذيل الموعود به إن شاء الله تعالى. وقد وقفنا على مناقب أخرى للسيد جمال الدين من أهمها ما سمعناه من الشيخ عبد الرشيد ابراهيم السائح التتري الروسي الذي كان ملازما له في الآستانة الى يوم وفاته، ورأيناه يعتقد انه من كبار أولياء الله تعالى العارفين به، رحمه الله تعالى ونفع المسلمين بسيرته

خاتمة الفصل السابع

صحبة المؤلف للاستاذ الامام

لم يكن أحد يجهل في عهد الاستاذ الامام انني كنت معه في سني جهاده الاخير، كما كان هو مع السيد جمال الدين في مصر وباريس ، كنت معه كما قل هو الاستاذ الشيخ محمد شاكر «ترجمان افكاره» وكنت مستودع أسرارهم، والداعية له والمدفع عنه في كل معركة من معارك جهاده ، أكتب بشأنها في النار ما يليق بعلاقتي به، وفي الجرائد اليومية ما يكتبه من لا يعنيه الاظهار للحق والمصلحة، وفوق ذلك اننا كنا على اتفاق في العقيدة والرأي في جميع ما ينشره المنار إلا مسائل الدولة العثمانية وسلطانها ، فانها من السياسة التي كان يفضها . وقد مررت الشواهد على ذلك في عدة مواضع من أهمها سمعي سمو الخديو للتفريق بيننا ، ومن قول الاستاذ ابي شادي بك اننا رجل واحد . فوجب أن أبسط في هذا التاريخ بدء هذه العلاقة وما انتهت اليه ، ووضعها ههنا لان عملي في الاصلاح والتجديد متم لعمله ، كما كان عمله متما لعمل السيد جمال الدين من الوجهة الدينية والمدنية، وكان عمل سعد باشا زغلول في جمع كلمة الشعب المصري متما لعملهما من بعض نواحيها السياسية ولقد قال له صديقه القديم محمود سامي باشا البارودي في أول تلاقيهما بعد عودة الباشا من منفاه في جزيرة سيلان الهندية : ان السيد جمال الدين قد تركك لنا فقامت بالاصلاح بعده خير قيام، واني لخائف أن تنقطع السلسلة بعدك فبشرني هل عندك أحد ترجو أن يتصل به سير الاصلاح ؟ قال نعم، عندي شاب سوري يقوم بذلك وسأرسله إليك لتتعارفا . أخبرني الاستاذ الامام نفسه بهذا وأرسلني الى الباشا لتعارف، فتعارفنا وتآلفنا وكان رحمه الله أشد الناس عشقا للمنار ، حتى كان يطلب ما طبع من كل جزء منه قبل أن يتم طبعه .

ذكرت في ترجمة السيد جمال الدين من هذا الكتاب (ص ٨٤) خبر عشقي له وكتابي اليه بالرغبة في صحبته لتلقي الحكمة منه ، وأن سبب عشقه وعشق الاستاذ

الامام هو قراءة جريدتهما (العروة الوثقى) وان ذلك كان سنة ١٣١٠ إذ كنت أطلب العلم في طرابلس الشام ثم بينت ما كان من تأثير العروة في نفسي في فصل عقدته للكلام على تأثيرها في العالم الاسلامي (ص ٣٠٣) ثم ذكرت لقائي للاستاذ أول مرة في طرابلس الشام بعد عودته من أوربة وما كان من إكباري له ، وإعجابي بكلامه (ص ٣٩٠) وما كان ذلك إلا ساعة أو سبعة من الزمان

وقد لقيت مرة ثانية في طرابلس إذ كان جاء سورية مصطافا وكان يصحبه أحمد فتحي بك زغلول من خواص مردييه (وكان رئيس نيابة الاسكندرية) فدعاه كبير عشائر لواء طرابلس محمد باشا المحمد الرعبي الشهير إلى ضيافته في مزارعه الواسعة في عكار فأجاب ، ورأى من حفاوة هذا الامير ما لم يره في مكان ، من ذلك أن الاستاذ الامام كان في بعليك على ما ذكره ، ولم يعين الطريق التي يسلكها إلى بلد الباشا التي ينتظره فيها من عكار ، فأرسل الباشا الى كل طريق من الطرق الموصلة إلى بلده (برقايل) كوكبة من الفرسان ممتطية جيادها العربية ، مشرعة رماحها الخطية ، فصادفته إحداها فجاءت في خدمته . ثم كانت الاخريات تعود ترى كلما وصلت واحدة منها قالت : يا سعادة الباشا ما وجدنا للضيف أثرا . وكان الاستاذ الامام في مدة وجوده في عكار متنقلا بين مزارع الباشا وقراه يركب معه ومع آله وعشيرته فرسا من هذه الجياد العربية ، تتوكل به الجبال ، وتهبط الاودية ، وتسبح في السهول ، وقد دعا الباشا لاجله أشهر علماء طرابلس ليأنس بهم

و كنت في طرابلس أننسم أخبار عودته كل يوم فوصل اليها ليلا ونزل في دار صديقه الاستاذ عبدالعزيز افندي سلطان الذي كان مدرسا للقانون في المدرسة السلطانية ببغروت أيام كان الاستاذ مدرسا فيها . ذهبت في الصباح لزيارته فقبل لي انه ذهب الى حمام عز الدين فجئت الحمام وانتظرت في محل الجلوس الخارجي . ريثما يخرج ، وكان في انتظاره بعض العلماء ، فخرج قبله أحمد فتحي بك زغلول فوقفه بي الاستاذ الشيخ خير الدين الميقاتي وذكر له حبي للاستاذ وللسيد جمال الدين وتشيعي لهما ، وكان مما قاله انه أبلغ كاتب عندنا ولا يمدله استاذاً في الانشاء

الا الشيخ محمد عبده، وهو لم يلقه . فقال له فتحي بك : كذلك عندنا الكتاب المجيدون في مصر كلهم يترفون بأنه لا أستاذ لهم في الانشاء الا الاستاذ او السيد جمال الدين . ثم خرج الاستاذ فسلمت عليه وقد تذكر تلاقينا تلك السويمة منذ بضع سنين . وكنت لازمه مدة وجوده في طرابلس من اول النهار إلى وقت النوم ، وكان في مجالس التنزه في حديقة التل وفي السمر ليلا لا تلتفأه الا مسؤولا، فكان سبعة أعشار الحديث له او اكثر

ولكن محمد باشا الحمد اضطره إلى سؤاله والسماع لحديثه في أيام ضيافته له اذ ذكرت انساب العرب فكان الباشا يذكر اتصال قبائل هـ ذا العصر بالقبائل المدونة في الكتب كتاريخ ابن خلدون وغيره وكان للباشا باع طويل في ذلك فكان الاستاذ يسأله التفصيل فيه ويمجّب باجوبته

وقد أظري في بعض مجالسه الشيخ احمد فارس الشدياق في اللغة والانشاء، فقالت له أين هو من اسلوب العروة الوثقى الرفيع ووضعكم امراة اللغة الطريفة في مواضعها منها ؟ قل تلك ألفاظ نديرها اما الشيخ احمد فارس فهو امام في اللغة . واما اسلوبه في الكتابة فغريب قلما فطن له الادباء ، ذلك انه خدم الدولة الانكليزية في الآستانة عشرين سنة بما كان يعتقد جميع قراء جريدته الجوائب انه خدمة للدولة فقط إذ أوقع مسلمي الهند بل العالم الاسلامي كله ان هذه الدولة صديقة للسلطان ودولته ونصيرة لها . وقد عجبنا من تفضيله لاحد فارس على نفسه في الانشاء وهو أبلغ منه وكان مما سأله عنه اسلام مسلمي ليفربول من بلاد الانكليز : أهو اسلام صحيح أم سياسي ؟ قال السياسة لاتأتي من العامة وهؤلاء من العامة . وقد تعارفنا في هذه المرة وكان كلما كتب الى عبدالعزيز سلطان بسلم علي

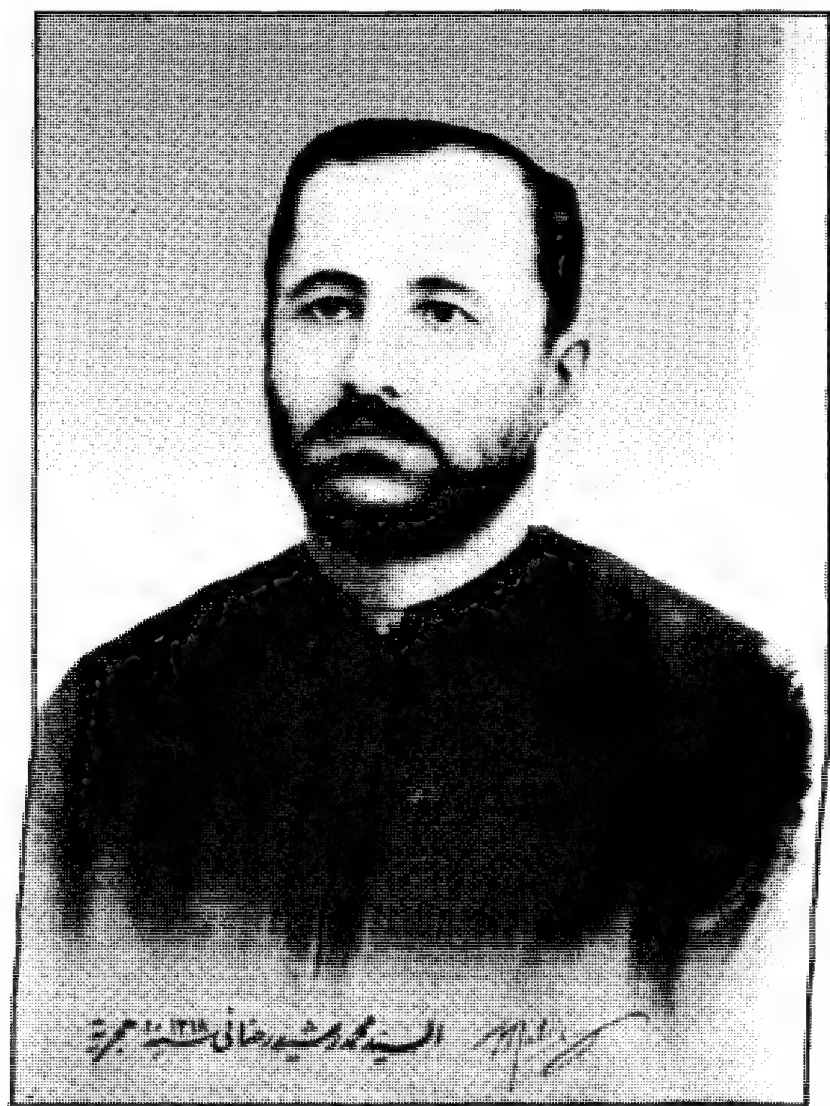
وكان مما أعجبني من كلامه وكله حكم كالدرر انه لما اراد السفر من طرابلس إلى مصر طفق العلماء والوجهاء يلحون عليه راجين أن يطيل إقامته عندهم أسبوعا على الاقل، فقال إذا نصل بعد انتهاء الاجازة بأيام ، قلت له وهل في هذا تبعه أو مسؤولية ؟ قال نعم نحتاج الى الاعتذار الى ناظر الحفانية، فتذكرت حديث «إياك وكل أمر يعتذر منه» رواه الضياء المقدسي في أحاديثه المختارة عن أنس مرفوعا إلى النبي ﷺ

ولما قضى السيد جمال الدين نحيبه بالاستانة في شوال سنة ١٣١٤ (مارس ١٨٩٦) أجمعت الرأي على الهجرة إلى مصر للاتصال بوارث علمه وحكمته الاستاذ الامام لتلقي الحكمة منه ، والوقوف على رأيه ونتائج اختباره في الاصلاح الاسلامي . وكنت قد نلت من شيوخى شهادة التدريس (العالمية) فطقت أهد السبيل لأرضاء والذي بهذا السفر حتى رضي . وأما الوالدة فكانت توافقتني على كل ما أقول لما ان فيه فائدة لي (رضي الله عنهما)

رضي الوالدان بالسفر وبقي أن ترضى الحكومة الحميدية في طرابلس وبيروت وهذا ما لا سبيل اليه ، لاني قد اشتهرت بانني كاتب ومفكر وبمحات في السياسة وإن لم ينشر لي شيء في الجرائد إلا مقال طويل في الاخلاق وصدور الاعمال عنها وعن الوجدان - فاجأت الى الحيلة

أعطيت صندوق ثيابي ومتاعي للشيخ أبي النهى القاوقجي يسافر بها بعد أيام في الباخرة النمساوية وذهبت الى بيروت منفرداً في غرة رجب سنة ١٣١٥ فأقمت فيها أياماً، وأخذت جواز السفر من (ناظر النفوس) فيها وهو صديقي الاستاذ الشيخ صالح الرافعي فلما جاءت الباخرة النمساوية بيروت نزلت اليها في زورق صغير مع الاستاذ الرافعي فلم يرتب رجال البواليس في امري لانه ليس معي شيء يدل على السفر وقال بعضهم لبعض : هذا ضيف عند ناظر النفوس من بلده (طرابلس) يريد ان ينتهز في البحر رست باخرتنا في الاسكندرية مساء الجمعة ٨ رجب [٣ يناير سنة ١٨٩٨] فأقمت فيها أياماً وانتقلت منها الى طنطا فالمنصورة فدمياط فأقمت في كل منها أياماً ثم عدت الى طنطا ماراً بهم وكنت في طنطا ضيفاً على السيد حسين القصبي لما كان بين والده ووالدي من المودة إذ أقام والده بدارنا في القلوعون أياماً كانت أطيب أيام إقامته في سورية صحة وهناء مديدة

وسافرت من طنطا يوم السبت ٢٣ رجب الى القاهرة قبل الظهر . وفي ضحوة يوم الاحد ذهبت إلى زيارة الاستاذ الامام بداره في الناصرية ومعى صديقي الاستاذ الشيخ اسماعيل الحافظ ورفيقي الشيخ أبو النهى القاوقجي ، فلما بلغناها ارسلت اليه بطاقة الزيارة فالبث أن نزل وهي بيده وطفق بعد السلام يسألني عن اصحابه



سید محمد شمس الدین خان ۱۲۱۸ هجری



﴿ المؤلف بعد هجرته إلى مصر في سنة ١٣٢٧ ﴾

في طرابلس : الاستاذ الشيخ حسين الجسر ودروسه وجريدة طرابلس التي
ينشر فيها مقالاته، والشيخ عبد الله البركة والشيخ عبد الله المسقاوي، وعبد العزيز
افندي سلطان، ومحمد باشا محمد

ثم قلت له ان غرضي الاول من الهجرة الى مصر تلقي الحكمة عنه وانني
أعتقد انه بقية رجاء المسلمين، وانه موجه عنايته لاصلاح الازهر، فتكلم في مسألة
الازهر ومسألة إلزام الخديو توفيق باشا اياه أن يكون قاضياً في المحاكم الاهلية.
بما نشرته في أول الكلام على عمله في اصلاح الازهر، ثم تكلم في مسألة السياسة
بما نقلته عنه في موضوع رأيه في السياسة، ثم قال ان المسلمين في يأس من كل
خير ونجاح الا إياي فان لي املا كاملا، ويوجد رجل آخر في مصر له نصف
أمل. وقد علمت بعد ذلك ان هذا الرجل هو صديقه الشيخ عبد الكريم سلمان،
ولكن ما كان عنده من نصف الامل زال بعد ذلك عندما رأى ما رأى من مقاومة الاصلاح
في الازهر، وصرت أجاده في هذا اليأس فيقول سئري مات فعل أنت وأستاذك !
وبينت أيضاً ان أمله الكامل انما هو في الاسلام لا في شعوبه الخاضرة

كلمته في أثر الموالد وثنية

وتكلم في مسائل أخرى ذكرتها في مواضعها إلا مسألة واحدة وهي ماسرى
في عقائد المسلمين من الوثنية وكون أظهرها هذه الاحتفالات الدينية المسماة بالموالد
وقد فاتني أن أذكر هذا في رأيه في إعراض المسلمين عن دينهم فأذكره هنا
استطراداً لفائدته وفكاهته، وان كنت نقلت عنه في التفسير مراراً ما هو في مضاه
قلت له انني مررت بطنطا قرأت في مسجد السيد البدوي ما لم أر مثله من
الطواف بقفص القبر وطلب الحوائج منه ... فذكر لي ان أحد وجهاء المصريين
كان عنده في أثناء مولد السيدة زينب من هذا الشهر (رجب) مع جماعة آخرين
فقام الوجيه وقال انه ذاهب لزيارة السيدة (قل) فقلت له لم خصصت الزيارة بهذا
اليوم ؟ قال لانه يوم المولد - وان هذه الليلة هي الليلة الكبيرة

« قلت : ما هذا المولد ؟ انا لا افهم معنى لهذا اللفظ ، هل يوم المولد او الليلة

الكبيرة من لياليه عبارة عن ليلة تخرج السيدة فيها للقاء الزائرين ؛ قال ونهيتهم عن الذهاب فلم يبتهم وهم بالخروج ، فقلت له انني لست مازحا وإنما أنكلم بالجد وأقول ان هذا العمل من اعمال الوثنيين وان الاسلام يأباه . كل آيات القرآن في التوحيد تنهي عن هذا وتذمه . ان الفاتحة التي تقرأونها كل يوم في صلاتكم مزاراً تنهاكم عن هذا العمل — تخطبون الله تعالى فيها بقوله (إياك نعبد وإياك نستعين) كذبا فانكم تستعينون غيره [وتعبدون غيره] ثم ان عملكم هذا متناقض حيث تهذون الفاتحة الى من تزورونه ، إذ معناه انه محتاج اليكم وينتفع بفاتحيتكم ، ثم تطلبون منه قضاء حوائجكم « الخ

ثم كنت أختلف الى داره باذنه فيقابلني في حجرة النوم والمطاعة والكتابة كما يقابل بعض خواص أصحابه أحيانا ، وأما سائر الناس فكان يقابلهم في حجرة الاستقبال من الدور الاسفل . وقد نشرت بعض ما دار بيني وبينه في بيان آرائه آنفا . وكان عند الانصراف بعد كل لقاء يذكر لي مواعيده في اليوم التالي ، والوقت اندي يمكن ان يلقاني فيه بالدار وهو كل وقت يكون فيها

كثير اجتماعي به قبل إصدار المنار وكنت أكتب خلاصة ما يدور بيننا من المذاكرة وكله في المسائل الإصلاحية التي هاجرت لاجل الاشتغال بها والوفوف على منتهى علمه ورأيه فيها ، ولم نلن نختلف الا في مسائل قليلة ينتهي البحث فيها بالاتفاق كمسألة البابية والمباهية التي شرحتها في الكلام على آرائه وسيأتي غيرها

استشارتي اياه في إنشاء جريدة

لئن كان الغرض الاول الباعث لي على الهجرة الى مصر هو صحة الاستاد امام كما تقدم فقد اقترن به عند اجلة قداح الفكر فيه باعث آخر وهو إنشاء صحيفة اصلاحية أستمده من حكمته واختباره فيما أكتبه فيها اذ ان لي ان اكون مفيداً كما اكون مستفيداً ، وقد جربت نفسي في الكتابة بتأليف كتاب (الحكمة الشرعية) فيمكن كل من سمع شيئاً منه في تحقيق المسائل لاصلاحية الدينية والاجتماعية والمدنية من اهل العلم والفهم يبالغ في الثناء على إنشاءه ،

والاستقلال في تحرير مباحثه ، وفي مقدمتهم أستاذي الشيخ حسين الجسر الذي خالفت بعض آرائه التصوفية وغيرها فيه . وكان من تلك المباحث المتفق على حسنها مبحث الازياء من نواحيه الدينية والاجتماعية والادبية والسياسية ، ومسألة اصلاح الخطابة والاستعداد للارتجال فيها ، ومسألة ضرر الاتكال في ارجاع مجد الاسلام على المهدي . ومسألة طمع الاجانب في بلادنا وفي سلب ثروتنا بمصنوعاتهم ، وكان للعقال الذي نشرته لي جريدة طرابلس في فلسفة الاخلاق والاعمال تأثير حسن عند الادباء في موضوعها وانشائها ، وكنت اشعر بانني مستعد للخطابة الارتجالية في كل موضوع درسته وكل شيء علمته ، لان النطق بالعربية الصحيحة سهل علي ، وقد جربت الالتقاء الخطابي ذلك في مسجدنا بالقلمون فساس لي قياده . وذلك لي صمابه ، وكنت أعتقد ان استعدادي كله يبقى ضائعاً اذا بقيت في سورية ، وانه لا يمكن ان يظهر هذا الاستعداد بالعمل الا في مصر لما فيها من الحرية المفقودة من البلاد العثمانية

نم انني كنت محالفا لجمهور أهل بلادي ولا سيما المسلمين منهم في استقلال الفكر وحرية البحث في المسائل الدينية والسياسية والاجتماعية ، حتى كان أدباء النصارى يستغربون هذا مني ويقولون أتى لك هذا ومن أين جئت به في هذه البلاد؟ وقد أقيمت مرة خطاباً حراً في اجتماع حضره كبار رجال الحكومة والعلماء والوجهاء ذكرت فيه طبقات الناس من الحكام وغيرهم ، وان تفاضلهم انما يكون بالعمل النافع للامة ، خاف بعض من سمع في المجلس ومنهم استاذي الشيخ حسين الجسر ان يكون سبباً لا يذاء الحكومة لي ، ولكن متصرف طرابلس كان من الاثراك العاشقين للحرية (وهو حسن باشا سامي الذي كان والده شيخ الوزراء في الآستانة) فقام وأثنى علي وقال انه يفتخر بان يعد نفسه طرابلسياً لهذا الكلام الذي سمعته وما فيه من الحكمة الخ نم كان يجلني ويحب أن يسمع رأيي في كل شيء يهمه حتى اذا ما زرته في دار الحكومة أمر حاجبه بأن لا يأذن لأحد في دخوله علينا لاعمال الحكومة الرسمية ، وجعلني عضواً في شعبة المعارف

ورأيت في طرابلس رجلاً من أحرار المصريين ذا كرمي في مسائل دينية

قلنا رأني كلمته فيها بأدب وتلطف في الاستدلال قال لي انك لاتستطيع أن تقيم في هذه البلاد انك لابد أن ترحل إلى مصر وقال ان كل من سأله عنها من اهل العلم حكموا بكفره وأهانوه

وجلة القول انني كنت قد عزمت على انشاء الجريدة قبل السفر وعقدت مع رجل آخر اتفاقا عليه، ورأيت أن أختبر حال البلاد وأعرف رأي الاستاذ الامام فيه، ولم أكتشفه بذلك إلا بعد سياحة قصيرة في الوجه البحري قبل دخول القاهرة وسياحة اقصر منها في الوجه القبلي بعده، وكان قد ذم جرائد مصر امامي وقال انها قليلة الفائدة لعدم وجود أحزاب تنطق بلسانها، وتكون هي داعية لها

زرت في سادس شعبان (سنة ١٣١٥) تلك الزيارة الطويلة التي كان من حديثنا فيها مسألة الصوفية والبهائية التي شرحناها في الكلام على آرائه فكان اول حديثه معي ان زائراً بيروتياً من بيت الانسي اخبره ان جماعة جاؤا من طرابلس الشام لانشاء جريدة في مصر، فقال له وهل رأوا الجرائد هناك؟ حينئذ قلت له انه يميني وقد جاءني أنا من طرابلس ان والي بيروت بلغه انني جئت مصر لانثي جريدة لأطمئن في رجال الدولة، وأصل الخبر صحيح ولكن المقصد اعلى من الكلام في الشخصيات والحكومات، وإن رجال الدولة قد ذموا كثيراً ومدحوا كثيراً فما نفع المدح ولا الذم

رأيه في جرائد مصر وقرائنها

قال الاستاذان المصريان في حالة جمات افكارهم موجهة إلى شيء واحد من الجرائد وهو اخبار الحكومة وما يقال عن الخديو وعن الانكليز ولا يلتفتون إلى ما وراء هذا وقد قامت به ثلاث جرائد : المؤيد والمقطع والاهرام، وشرح خطة كل جريدة منها، وذكر انه لا يمكن لي مباراة واحدة منهم في خطتها

قال : واذا كتبت في الموضوعات الادبية كالتربية أو التعليم أو آداب اللغة لا يلتفت إلى كلامك الناس، فاني لا أعرف أحداً في الازهر ولا في المدارس مشغلاً باللغة وآدابها إلا أن يكون في الزوايا من لم نعرف، وهؤلاء إن وجدوا

لا غناء فيهم ، وهذا أمر مهم ومفيد ولكنه لا يأتي منه ما ينبغي بنفقاته ، ولا ينبغي التعب وانفاق المال هكذا

قلت ان صاحب مجلة الهلال أخبرني ان له ٣٥٠٠ مشترك ، فاستغرب وقال ان كانوا يحسبون ان كل من يكتبون اسمه في دفترهم مشترك كما فقد يكون عنده هذا الممدد ، وأما الذين يدفعون الفلوس فلا أعتقد انهم يبلغون الالوف قلت : ان من غرضي الاشتغال والتمرن على الكتابة في المسائل الاصلاحية المفيدة قال يمكنك ان تكتب هذه المباحث في كتاب فهو أرجى لقراءة الناس له

موافقتي على إنشاء صحيفة اصلاحيّة وسُروطه فيها

ثم انتقلنا إلى الكلام في موضوع مرض الامة وضعفها وان أنفع الوسائل في معالجتها التربية والتعليم ونشر الافكار الصحيحة لمقاومة الجهل والافكار الفاسدة التي فشت فيها كالجبر والخرافات ... فقلت ان هذا هو الباعث لي على إنشاء هذه الجريدة وانني أسمح ان أنفق عليها سنة أو سنتين من غير ان أكسب شيئاً قل ان كان هكذا فهو حسن . وهذا أشرف الاعمال وأفضها . وأنا اذا كنت على ثقة من مشرب هذه الجريدة فاني أساعدها بكل جهدي قلت اني أعاهدكم على أن أكون معكم كما أريد مع أستاذي على نحو مما يقول الصوفية . ولكنني أحفظ لنفسي شيئاً واحداً أخالفهم فيه وهو أن أسأل عن حكمة مالا أعقله ، ولا أقبل إلا ما أفهمه ، ولا أقبل إلا ما أعتقد فائدته

قال : هذا ضروري لا بد منه . ومن هنا انتقلنا إلى الكلام في الصوفية

ثم زرته في يوم الاربعاء (١٢ شعبان) وكان معي الاستاذ الشيخ اسماعيل الحافظ فكلمته في مسألة الجريدة فأشار بثلاثة امور (١) أن لا نتحيز لحزب من الاحزاب (و ذكر في حديثه صاحب المؤيد ومصطفى كامل الشاب المتحمس او المتهور) (٢) ان لا نورد على جريدة من الجرائد التي تتعرض لنا بدم او انتقاد (٣) ان لا نخدم افكار احد من الكبراء « هؤلاء الشاغلين للوظائف الكبيرة الذين يدعون بها كبراء ، اننا قد نستخدمهم ولكن لا نخدمهم »

ثم اشار الى أن الطبع ينبغي ان يكون في المطبعة الاميرية لئلا يبعد عن الدسائس

وعن اطلاع جماعة المطابع على شؤون الجريدة الداخلية (وذكري لي مايعلمه من اخلاق اصحاب الجرائد من السوريين والمسلمين)

ثم تكلم عن حرية الجرائد وقال انتم تسمعون ان في مصر حرية ... هذه الحرية ليست للمسلمين ، المسلمون في اشد المراقبة عليهم ، وأبعد الناس على الحرية ، لحرية لهم فيما ينفعهم اصلا ، ولا يمكن لهم الحرية المطلقة في كل ما يضرهم (وقد قال في حديث آخر ان الحرية التي كانت بمصر كافية للنهوض باصلاحها وانما كان العائق فساد الاخلاق) قال : لكن اجر الطبع في المطبعة الاميرية غال ، وانما غلاؤه لاجل التصحيح فاذا كانوا يرضون منا الطبع بدون تصحيح باجرة مناسبة فلا معدل عنها ، وأنا أسأل عن هذا الامر .

وقد سرتني من حديثه هذا انه تكلم عن هذا العمل بضمير المتكلم ومعه غيره وأنه يشعر بانه يعمده منسوباً اليه . ثم سأل بعد رمضان عن ذلك وعلمنا ان الطبع في المطبعة الاميرية غير ميسور ولا من المصلحة ، فطقت أسأل عن المطابع ورجحت أولاً مطبعة الاخبار وأخيراً مطبعة التوفيق القبطية ، وبقى من مقدمات الشروع الوقوف على عناوين القراء الذين ترسل اليهم الجريدة لاجل الاشتراك فيها وكنت عرفت أفراداً منهم في القاهرة وغيرها . فشاورت الاستاذ في ذلك فكتب الى نقولا افندي شحادة صاحب جريدة الرائد المصري (وكان من الذين يجولونه ويدافنون عنه) كتاباً هذا نصه :

عزيزي الفاضل

بعد اهداء التحية أقدم لك حضرة الشيخ محمد رشيد رضا الطرابلسي من افاضل اهل العلم في طرابلس وهو الذي سبق الكلام معكم فيه ، وانه يريد باصدار جريدة أدبية ، وقد ظهر انه اتفق مع مطبعة أخرى غير مطبعة الاخبار . والرجاء أن تساعدوا حضرة باعطائه أسماء المشهورين من مشتركي جريدتكم من مأموري حكومة ومديرين وغيرهم من أعيان ومعتبرين في القطر المصري ، وعندي يقين انه سينال منكم مايجب من ذلك . وأكون لكم من الشاكرين . ١٤ مارس سنة ١٨٩٨

ذهبت بالكتاب إلى الرجل في إدارة جريدته (الرائد المصري) فرحب بي ووضع بين يدي دفتر المشتركين في جريدته وقال اكتب منه ما تشاء ، وانصلت المودة بيني وبينه طول حياته وكان صادقا وفيا : فهذا كل ماساعدني به الاستاذ من رأي وعمل تمهيدي لاصدار المثار

ثم شاورته في اسم الجريدة فذكرت له اسم المثار مع أسماء أخرى ليختار منها او غيرها فاختر اسم المثار وكان احبها إلي لفظا ومعنى ، ثم شرعت في تحريره في الاسبوع الذي صدر فيه فمكتبت فاتحة العدد الاول بقلم الرصاص في جامع الاسماعيلى المجاور لدار الاستاذ بالناصرية وذهبت بها الى داره فعرضتها عليه فأعجبته جدا لاجاب كما تقدم (ص ٩١٣) ولما صدر العدد الاول قال : كان ينبغي أن تكتب فيه مقالة أخرى في موضوع من الموضوعات الاصلاحية التي ذكرتها في المقدمة ، فقامت موعدنا العدد الثاني ، فلما صدر الثاني مفتتحا بمقال طويل عنوانه (اقول الفصل — محاوراة في سعادة الامة) جئت به دار الاستاذ وكان عنده الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان فقرأه هذا كله والاستاذ الامام يسمع ، وبعد الفراغ من قراءته أثنيا عليه ثناء جميلا وقال الشيخ عبد الكريم : انك لم تترك في هذا المقل شيئا يقال في الموضوع ، قلت هذا كله مقتبس من مولانا الاستاذ ، قال الاستاذ كلا اني والله لم أتكلم معك في شيء من هذا ، قلت وأنا لست بالمتعلق انا أعني انني استفدت هذا المذهب ورويت من هذا المذهب ، من قراءة جريدة العروة الوثقى

وماذ كرت هذه المسألة هنا لاجل الثناء على نفسي بل لأبين كيف تأسست الصلة بيني وبين الاستاذ الامام في اتحاد المذهب والمذهب

ترويج المثار بالثناء عليه

كنت كما صدر عدد من المثار آتية بيضة أعداد منه ليراها أصدقائه وزواره من العلماء والفضلاء ، ويهب منها لمن يشاء ، وكان هو يثني عليها لمن رآها ولمن لم يرها عند المناسبة كما تقدم في حكاية الشيخ محمد المهدي (ص ٧٧٤) بل ذكرها

لسمو الخديو بما فهم منه انها له أو تعنيه (٥٨٠) وهذا جل ما كان يروج به المنار، إذ كان خلقه وأدبه يأبى عليه أن يطلب من أحد شيئاً لأجله ، وقد صار المنار كأنه له ، حتى كان بعض الناس يظنون انه هو الذي يكتب مقالاته المهمة وكنت أسر بهذا، حتى اضطرت الى التصريح في المجلد الرابع بأن كل ما ينشر فيه غير معزى إلى أحد فهو لمنشئه

وقد كان من تأثير هذا النوع من الترويج أن المنار قبول بالقبول والاحترام من أعلى الطبقات الاجتماعية في القطر المصري ، ومن ذلك ان أحمد فتحي بك زغلول رئيس محكمة مصر الاهلية استشهد بكلام المنار في مقدمة الكتاب الذي ترجمه وطبعه في ذلك العهد (الاسلام خواطر وسوانح) فانه كتب مقدمته بعد صدور العدد الاول من المنار وهي في بيان حال المسلمين الذي نقل مؤلف الكتاب (الكونت دي كاستري) ما نقل من طعن الصليبيين عليهم وعلى دينهم وبين خطأهم فيه بما علمه بالاختبار ، فقد بين فتحي بك في مقدمته لما كان عليه الاسلام وأهله من المناقب والفضائل وما صاروا اليه من الخازي التي صاروا بها حجة على دينهم ومنها قوله « وأنحل عقد نظام المسلمين فأصبحوا أشعثا يمتتهم الناس ويرمونهم بالأنحطاط، ويعيرونهم بما تنزه عنه شرعهم ولكنهم ألفوه، وبالغوا في التمسك به، حتى تبدلت الاحوال وصار كما قال صاحب المنار (الجبر توحيداً، وترك الاسباب إيماناً، وترك الاعمال المفيدة توكلاً، ومعرفة الحقائق كفرّاً والحداً، وإيذاء الخالف في المذهب ديناً، والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات صلاحاً، واختبال العقل وسفاهة الرأي ولاية وعرفنا، والمهانة تواضعاً، والخضوع للذل والاستبسال للضمير رضى وتسليماً، والتقليد الاعمى لكل متقدم علماً وإيقاناً)

قال لي أحد كبار المحامين الذين اشتركوا في المنار منذ السنة الاولى وظل مشتركاً وفيما طول عمره (رحمه الله) انه لما ظهر كتاب احمد فتحي بك رئيس المحكمة الاهلية العلامة الكبير النفس ورأينا في مقدمته نقلاً عن صاحب (المنار) تساءلنا عن المنار وصاحبه ، وأكبرنا استشهاد هذا الرئيس الكبير بكلامه من أول ظهوره، وكان هذا سبب اشتراكي فيه ولقد كانت طبقة المحامين والقضاة الاهليين

الذين اشتركوا في السنة الاولى من النار أكثر من سائر الطبقات المتعلمة، والظاهر ان السبب الاول لذلك رؤية النار مكرما محموداً عند أعلى رجال القضاء مقاماً : الاستاذ الامام وسعد زغلول بك واحمد فتحي زغلول ، وحسن عاصم باشا، وقاسم بك امين وغيرهم من مستشاري الاستئناف ورؤساء المحاكم

وأخص طنطا بالذكر في هذا المقام فقد كان أكثر المحامين الراقين فيها من مشتركين النار وأنصاره، وكان الداعي لهم إلى ذلك أحدهم مصطفى بك الباجوري من أصدق مردي الاستاذ واخوانه وكان هو الوكيل على أطيان سعد بك زغلول وكان يكتب في حساب نفقاتها اشتراكه في النار وفي الجمعية الخيرية الاسلامية (بأمر الاستاذ الامام) إذ هو الذي يدفعهما عنه

ومهما يكن من كثرة اشتراك رجال القضاء والحاماة بالإضافة إلى سائر المتعلمين المدنيين فلن تنهض بصحيفة أسست للإصلاح الديني قبل كل شيء، فإن أكثرهم لا يحمل بهذا العمل لذاته ، ولم يكن تأثير الاستاذ الامام وحزبه فيهم إلا تأثيراً معنوياً كتأثير الوزير الكبير رياض باشا فقد كان يمدح النار في مجالسه على مسامع زواره (رحمه الله تعالى) إذ لم يكونوا يدعون إلى نشره أو الاشتراك فيه بالصراحة، ولم يوجد أحد اهتم بتعميم نشر النار من كبار رجال مصر إلا ابراهيم باشا فؤاد وزير الحفانية فانه كالم فتحي بك زغلول بل كلفه وضع مشروع لتوزيع ألوف من نسخه بثمان قليل ولم يتح لها تنفيذ ذلك، وقد خبرني الخبر فتحي ولم أحفل به ولا شكرته له ولا حاولت العمل معه لتنفيذه، وهذا مما لا أنكر من سيئاتي وزهدي

مساعدة النار المادية ، وهياكل المالية

لم احتج إلى مساعدة مالية من أحد إلا مرة واحدة : سرق جميع ما في الادارة وأنا غائب في طنطا بسبب سياسي دبره بعض جواسيس الاستانة فاضطرت إلى رفع دعوى على السارق ولكنه فر وفقت داره وحكم عليه ، ولم يكن معي من الدراهم ما يكفي لتجديد العمل ثم اشراء السروق عند العلم بوجوده لدى رجل أجنبي إلا باقتراض خمسين جنيها فقط أخذها لي الاستاذ الامام من محمد بك الوكيل

أحد أودائه (الحاسيب) وأخذ مني سنداً بها ، وكان ذلك في أوائل السنة الثالثة للنار ولم أتمكن من وفاء هذا الدين إلا في السنة الخامسة ، ففي هذه السنة كثر المشتركون في النار من جميع الطبقات وكان من أكبر أسبابه مقالات الاستاذ الامام في موضوع (الاسلام والنصرانية) وكذا نشر سجل جمعية أم القرى بيد أن هذا الانتشار قد تلاه عهد سخط سمو الخديو على الاستاذ وعلي ومقاومته لنا واغرائه العلماء والحزب الوطني وموظفي الخاصة بالصد عن النار ، فكان الضرر المالي علي بهذا أكبر من ذلك الربح بنفوذ الاستاذ الامام ، وقد وقف على ذلك الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد وشرحه لي شرح خبير بصير ، ونصح لي بأن أقتصد في الثناء على الاستاذ والتنويه به لاسلم من أذى خصومه الاقوياء فيسنى تعميم نشره ، وقد صرح بأنه يخدم الاسلام خدمة لم تعهد من غيره ، وبأن المسلمين في أشد الحاجة إلى هذه الخدمة وبأنه يجب أن يوجد النار في كل بيت ، فأقنعت الشيخ علياً بأن التنويه بالاستاذ الامام مقصود لذاته وهو اقناع العالم الاسلامي برعايته ، إذ الإصلاح لا يعم وينتظم إلا بزعيم موثوق به يكون مناط الوحدة له ، فأقنعت بذلك ، وقد شرحت هذه المسألة في ترجمة الشيخ علي يوسف في المنار عقب

موته وذكرتها في الكلام على سعي الخديو للتفريق بيني وبين الاستاذ الامام من هذا التاريخ (ص ٥٨٧)

والغرض من ذكر هذا وما قبله هنا دحض ما ظنه بعض الناس (الذين لا يعلقون أن يكون بين الناس علاقة قوية ولا رابطة متينة إلا بالمنافع المادية) وقاله بعض الخصوم من أن صاحب النار كان متشيعاً للشيخ محمد عبده لاجل المنفعة المادية الشخصية ، وهذا ظلم لتاريخ كل منا ولتاريخ الإصلاح لم يكن أحد منا مادياً ولا ممن يعني بالمال ، ولو كنت أعمل للمال ، لكنت من أبعد الناس عن هذا الرجل الذي يعيش مثلي عيشة الكفاف ، ولقد كان خديو مصر أكثر منه مالاً ، وأقدر على مساعدة من يخدمه بالمال من غير جيبه وقد فعل ، فكيف آثرت عداوته على مودته لأجله ؟

تلك المرة الاولى التي احتجت فيها إلى مساعدة مالية في مصر ، ولم أذكر

حاجتي له وقد كنت عنده كولد الصلي وأخيه النسي أو أعز وأكرم ، بل هو الذي سألني : هل لديك من الفلوس ما يمكنك من استمرار اصدار المنار بعد أن سرق كل مافي ادارته حتى الاجزاء السابقة ؟ قلت لملي أرجي . اصداره ريثما أكتب إلى صديق لي من طرابلس أعرض عليه مشاركتي فيه ، قال لا يجوز تأخير اصداره فكم يكفيك لاستمرار العمل ؟ قلت خمسون جنيهاً . قال يمكنك أن تقترضها ، ثم استكتبني سنداً بخمسين جنيهاً من محمد بك الوكيل فأخذه ثم جاءني بها وأظن انه كان يعتقد انه يكبر عليّ أن أقبل هذا المبلغ منه لو بذله باسم المساعدة ، ويعتقد مع ذاك انه يعز عليّ أن أردّه عليه أيضاً ، وإن كانت علاقتي به كعلاقة الولد بوالده ، وإن أدري أكان يدري أيضاً أنني لم أطلب من والدي لنفسه مساعدة مالية قط أم لا ، فأنني كنت في الصغر أهابه فأطلب من والدي ، وفي الكبر أنحرى أن لا احتاج اليه ، وكان لي كسب أدبي يفي بحاجتي الشخصية حتى ثمن الكتب العلمية وهو كتابة الحجج الشرعية والعقود ، ومنه جمعت نفقة السفر إلى مصر ، ولم أطلب من والدي شيئاً ، وكان لي قطعة أرض أملكها أيضاً ولم أحتج إلى بيعها ، وعرض عليّ بشارة باشا تنالاً بمدنقل الاهرام إلى مصر أن أكتب لها مقالات في مقابلة نصف ايرة لكل مقالة وإن كثرت وقصرت فلم أقبل

لله در الاستاذ الامام ، انه علم من أخلاقي وشعوري ما لم يعلمه أحد الى الآن ، بل علم من شؤوني في خويصة نفسي ما لم أكن أظن انه يعلمه ، حتى حدثني به الامير حسين كامل (الذي صار سلطاناً بعده) بمناسبة حديثي معه في مشروع مدرسة الدعوة والارشاد ، ولما رآني دمعاً من حديثه قال انني عرفت هذا من استاذك وأستاذي الذي تشرف علينا روحه الآن ولولاه لم أكن أنا مسلماً الح وما يناسب هذا الحديث ان السلطان حسين كامل لما علم انني أريد الحج في سنة ١٣٣٤ طلبني الى قصر عابدين فقاماني رئيس الديوان محمود باشا شكري وقال لي ان عظمة السلطان طلبك ليقابلك ويسالك الدعاء له ، ولكن جاءه في هذا الوقت الامير داود وطلب مقابلته لعرض مسألة مهمة عنده فتأسف لهذا التعارض مع ميعادك ، وأمرني أن أبلغك ذلك مع سلامه وأقدم لك هذه الصرة من

الجنيئات للمساعدة على سفرك هذا . قلت له : أشكر مولانا السلطان وأعتذر عن قبول المساعدة . قال لماذا ؟ قلت لانني أريد أن أنفق على حجي من كسي ، وانني منذ سنين مهيء مائة جنيه لا حج بها مع والدتي ، قال زيادة الخير خير . قلت نعم ولكن لا حاجة لي به ، قال يمكنك أن تتصدق بها ، قلت بل أنصدق من مالي بقدر سمعتي ومجال الصدقة عند عظمة السلطان أوسع . قال احسب هذه ثمن دعاء لمولانا . قلت الدعاء عبادة لا يجوز أخذ الثمن عليه . وأنا أدعو للسلطان تعبدًا أيضًا لأن صلاح ولاية الامور مفيد للامة كلها . قال عطايا الملوك لا ترد ، قلت ان كثيراً من علماء السلف كانوا يردونها . قال وماذا أقول لمولانا السلطان عنك ؟ قلت قل له ان هذا مقتضى خلقه الذي تعرفونه بالنقل عن أستاذه كما أخبركموه بذلك ، والاخلاق لا تتغير . وانصرفت ،

ثم قلت لمحمود شكري باشا بعد عودتي من الحج : انني عازم على ذكر عطف مولانا السلطان علي فيما أكتب عن رحلتي الحجازية في المنار ، مع تلطيف ما ذكرته لسعادتك من الاعتذار . قال هذا لا يجوز وهو يسوء مولانا السلطان ، قلت اني أذكره بأسلوب الشاء . قال : الترك يقولون في الشيء الممنوع « أولماز » فاذا كان المنع شديداً قالوا « هيچ اولماز » وهذا من النوع الذي

ولو كان أستاذاً حياً لسرّ مني بهذا الرد ، وقد كان هو يستطيع يوم حاجتي أن يأتيني بمائة جنيه أو أكثر من صديقه الامير حسين ولم أخذ منه مساعدات للناس ، ولكنه كان يعلم انني لا أسف الى هذه الدناءة ولا كان هو يحبها لي على انه لامي مرتين على ماعده مبايعة في الزهد إحداهما رد مساعدة الخديو

عند إرادة الحملة عليه في الفتوى الترانسفالية كما تقدم (ص ٥٨٦) والثانية مساعدة كان عرضها علي الشيخ قاسم بن ثاني حاكم قطر المعروفة علي الخليج الفارسي والشيخ محمد عبد الوهاب شيخ دارين في سواحل نجد الجنوبية ، وهما من أسخى أجواد العرب ، وكانا أرسلنا إلي من طريق الهند رسالة تتضمن بركات ورسائل رفعت إلى السلطان عبد الحميد في الدفاع عن ابن السعود وتفنيده ما زعمه خصومه من عداوته للدولة لاجل ان أبيضها وأصححها وأنشرها في جرائد مصر اليومية مع تأييدها ،

وسألاني عما أطلبه لنفسني وللجرائد التي أشترها فيها . فبيضت منها عدة نسخ وأخذتها بنفسني إلى الجرائد اليومية المعروفة فنشرتها ، ثم كتبت إلى مرسلها أنني لا أطلب لنفسني شيئاً لأن هذا العمل خدمة للأمة والدولة وأنني لم أعط الجرائد شيئاً لأنها لا تأخذ مني مالا للنشر ، فلما علم الاستاذ ذلك لامني وقال إن أحق ما يأخذ مثلك عليه المال خدمة الأمة والدولة ، ومصالح هؤلاء الأمراء والزعماء الأغنياء وتكالييفهم

علاقتي بالاستاذ روحية وإسلامية محض

وجملة القول في هذه العلاقة أنني كنت في عهد التحصيل أطلب العلم ببيعاث ديني محض مرشدي فيه كتاب أحياء علوم الدين للغزالي وقد كان أكبر مؤثر في قلبي ، ولي أن أقول كما قال الاستاذ الامام أن كل ما أحمد الله عليه من خير في ديني فسببه تصوف الأحياء ، إلا أنه مشوب بضرر التزهيد الشديد في الدنيا بما لا يأمر به دين الفطرة الوسط ، ولو أن أسرة روتشيلد وأمثالهم من اليهود أرباب الدثور ، ربوا أولادهم على تصوف الأحياء لفقدوا ثروتهم في الجيل الثاني . وأنا لم أشعر بضرر تزهيد الأحياء لي إلا بعد أن صار لي أسرة ، ولكن علمت قبل ذلك أن مبالغة الأحياء في الزهد مخالفة لهدي الإسلام وانتقدته في المنار

ثم نفخت في أمروة الوثيق روحاً ثانية كما تقدم شرحه فمشقت صاحبها السيد في الدرجة الأولى والشيخ في الدرجة الثانية ، فصرت كما قلت في كتابي إلى السيد « لا أنبأ مجلساً ولا أفيض في كلام إلا ويكون ذكر الجمال قائمته أو ختامه ، أو متخللاً أجزاءه وأقسامه ، إن لم يكن هو موضوع الكلام » ولم يكن أحد من علماء طرابلس وأدائها يستطيع أن يقول في هذين الحكيمين كلمة سوء في مجلس أنا فيه ، إذ لا يكون لي بد من الرد عليه ، وكلهم من أصدقاء والدي أو أهل مودتي ، ويجلون أسرتي فلا يحبون معاضيتي ،

وقد جاء طرابلس بدرى باشا من آل بدرخان متصرفاً بعد حسن سامي الحر ، وبدرى باشا هذا من أصحاب الشيخ أبي الهدى عدو السيد جمال الدين ، فلم يعد أحد يجراً على مدح السيد في طرابلس غيري ، واذ كنا نسهر في مجلس المتصرف بداره

ليلة قرأ قارىء في جريدة (بيروت) خبر ثورة في بعض قبائل الافغان، فطقت أطري شجاعة الافغان، فقال مصطفى باشا الانجا ان السيد رشيد افندي يحب الافغان حباً شديداً يحمله على اطرائهم وما هم إلا وحوش ، فقلت انني أنا أحب واحداً من الافغان هو السيد جمال الدين ، وانما أتكلم عن الافغان بما أعلم من التاريخ (وكان السيد يومئذ حياً) فتعجب الحاضرون من هذه الجرأة ، وغير بعضهم الحديث خوفاً من الفتنة (وقد آذى بنو الانجا وبدري باشا أهلي بعد سفري ايناء شديداً لاجل أبي الهدى)

طار بي هذا العشق الروحي العقلي بعد وفاة السيد جمال الدين إلى الاستاذ الامام، وكان قد علم بحبي له وظن انه كحب الالوف من الناس للعلماء والفصحاء والكتاب والخطباء ، وبعد محاورات ومسامرات كثيرة تباينت من أواخر رجب إلى العشر الاخير من شوال علم ان هذا الحب نوع آخر لم يعرف له ضرباً إلا حبه هو للسيد جمال الدين ،

ثم صدر المنار في ٢٢ شوال فعلم منه ومن استمرار المباشرة ان صاحبه شهبان ريان، مفعم العقل والفكر والخيال والوجدان ، بحب الإصلاح الذي تلقاه هو عن الافغاني ، قوي الاستعداد للجهاد في سبيله بكل مألوفيه من حول وقوة ، وانه وقف حياته على هذا الجهاد ، ويرى من الواجب عليه ديناً أن لا يصد عنه شيء من المخاوف ولا المضار ، ولا من المال والجاه ، ولا يؤثر عليه آخر من فروض السكفيات الاخرى التي يقوم بها كثيرون اذا هي عارضته .

ولم يلبث أن ثبت هذا عنده بما علمه من سعي الحكومة الحميدية لاستمالة هذا الفتى وعرضها عليه ماشاء من الوظائف الكبيرة فيها ، ومن الرتب والنياشين ومن ذلك مكاتبات أبي الهدى افندي التي ذكرت في بيان علاقتي بالخدويو (في ص ٥٨١) ثم سرقة إدارة المنار ، ثم ايناء حكومة طرابلس لوالد صاحب المنار واخوته بعد اليأس من اسمائته ، ثم من ايناء الخديو وحزبه وشيوخه وجرائده وقصارى القول انه رأى منه فتى قد ربى نفسه بل رباه الله تعالى ذلك النوع من التربية التي اقترحها هو على السيد جمال في باريس وهو أن يذهب الى مجمل من

معامبي الارض وأغفالها لا ترمقهما فيها الحكومات الفاسدة الفسدة لاجل أن يربى عشرة من أذكى أبناء المسلمين ويعلمهم ما بعد انهم به لاستمرار العمل الذي شرع فيه لتجديد الامة و احياء الاسلام . ولم يرقبه أحداً من تلاميذها ولا من غيرهم قد رسخ في نفسه هذا المذهب ، وروى من هذا المنهل ، ووقف حياته على خدمته بالعلم والعمل . ثم رأى ان هذا القى هو الذي حمله بالالحاح على قراءة تفسير المنار في الجامع الازهر ، وانه هو جاءه بكتاب أسرار البلاغة من طرابلس وحمله على تصحيحه وتدريبه في الازهر ل احياء البلاغة العربية ، وعني بطبعه بمساعدته ، وانه ينشر في مناره ما يقتبسه من دروسه ومحاسنه بمباراة صحيحة فصيحة لا يأبى أن تعزى اليه ، ثم رأى تأثير ذلك في المجالس والمحافل المصرية ، (في المكتوبات والرسائل والقصائد التي تأتيه من هذه البلاد وغيرها)

ثم سافر الى تونس والجزائر فرأى ان له في كل من القطرين حزبا رينيا ومريدين من أرقى طبقات المسلمين لا يعرفون عنه شيئاً إلا من المنار ومن مطبوعات المنار كيف كانت منزلة هذا القى عند هذا الرجل المصلح الذي قال انه لم يرض بالانتظام في وظائف الحكومة إلا ليجعلها وسيلة للإصلاح الديني في الازهر ، وهو لا يرى لأحد قولاً ولا عملاً يساعده عليه إلا موافاة الشيخ عبد الكريم سلمان له في أعمال الازهر الادارية المحض ، لا يمكن لأحد أن يعبر عن منزلته عنده غيره . وسأيت ما قاله فيه

علاقتنا في المعاصرة العادية

وأما المعاصرة فقد كان يذكر لي في كل لقاء أوقاته التي يفرغ فيها للتلاقي اذا جثته فيها كما تقدم ، فكنا نكثر الاجتماع في الدار والازهر وفي بيوت خواصه كالشيخ عبد الكريم سلمان وسعد بك زغلول وأحمد فتحي بك زغلول وحسن باشا عبدالرازق وغيرهم . والكثرة ما يراني الناس معه كنا كاللازم والملزوم اللذين لا ينفك أحدهما عن الآخر ، ولما كثرت أعمالى منذ السنة الثالثة بالاشتغال بادارة المنار وحساباتها فوق الاشتغال بتحريرها وتصحيحها ، قل هذا التلاقي ، ففطن

لذلك بعض اصحابه فقال له مالي لا أري فلانا معك كالعادة ؟ أظنه قد استغنى عن مساعدتك فتركك ؟

فأجابه الاستاذ : كلا ان فلانا كان قليل الاعمال فكان يقضي جل أوقات فراغه معي لانني أعز أصدقائه، وقد كثر الآن عمله فقل فراغه الذي لا يزال يصرف أكثره معي، ولم يكن للحاجة الى المساعدة أدنى تأثير في اجتماعنا أولاً ولا آخراً كما تظن وكان اذا صادف فراغاً في وقت لا مواعيد يبتنا فيه يزورني في ادارة المنار وقد جاءني مرة بعد الظهر فقال هل عندك شيء يؤكل فان عندي عملاً منعني من الذهاب للقاء في الدار ؟ قلت يوجد نصف رغيف من الخبز الجيد الافرنجي ، وقطعة من الزبد باقية من فطوري، فان شئت ضممتها اليها ابريقاً من الشاي الابيض الصيني، وإن شئت أحضر الخادم لك من المطاعم ماشئت (وكنت في تلك الايام أتغدى وأتغشى في المطاعم لانني وحدي) قال هذا يكفي وهو من خير ما يؤكل أو قال خير ما يؤكل

ولما جاءت والدي لزيارتي مع بعض الاخوة صار كل طامي في الدار وكان الاستاذ الامام يقترح علي أن تصنع الوالدة نفسها لنا بعض الاطعمة الطرابلسية الممتازة ، وأمر أهل بيته أن يسألوها عن بعض هذه الاطعمة كيف تعالج في طرابلس وذكرت له ان والدي انما جاءت مصر لتقنعني بان تزوجني فما رأيك؟ قال إن كان عندك فراغ من العمل تبذل فيه ثلاث ساعات أو أكثر كل يوم في الكلام الفارغ مع النساء فنزوج، وذكر لي طباع النساء وإشغالهن للرجل بكثرة الكلام الفارغ . وان موآلاتهن خسارة والاعراض عنهن مصيبة — وضرب لي المثل بنفسه و ببعض أصدقائه، فعلمت أنه لا يجب أن يشغلني عن عملي بالزواج وذكرت لي الوالدة ان زوج الاستاذ قالت له : لماذا لا تعطي السيد رشيد ابنتك فلانة وأنت لا تحب مفارقتها ؟ فقال لها اذا كان هو لا يريد أن يتزوج أفأقول له أنا تعال أزوجك ؟ وقد صرفته والدي يومئذ عن هذه الفكرة وما أمكنها إقناعي بالزواج إلا بعد وفاته

وكنت اذا عاقتي شيء عن الدرس من شكاة أو غيرها خرج من الدرس إلى رؤيتي في إدارة المنار ولم يصبر إلى الصباح. واشتكي مرة فأرسل إلي رقعة من رقاع

الزيارة يخبرني بشكاته ويدعوني إلى رؤيته، حتى قال أنتظر مجيئك وإن أوغلت في الليل ما شئت ولكن في غير نحويف . ولم آس على شيء ضل عني من آثاره الخطية مثل هذه الرقعة

ولما جاء والذي لزيارتي في السنة الثانية من هجري وكانت الحكومة في طرابلس أرسلته لاجل استمالي والتأليف بيني وبين الشيخ أبى الهدى وصل مساء فشغلت به عن الدرس فسأل الاستاذ عني بعض اخواني . فقيل له جاء والده، فخرج من الازهر إلى إدارة المنار للسلام على الوالد ولم يؤخر ذلك إلى الصباح وقد كتبت للشيخ أبى الهدى كتاب مودة بأمر الوالد وكلفت الاستاذ أن يكتب له مثله ويرسل اليه نسخة من رسالة التوحيد ويكتب اسمه عليها - ففعل على ما كان من كراهته له ، وقد سر بذلك الشيخ أبو الهدى وأرسل اليه كتابا، وتقريظا شعريا للرسالة قل فيه :

أخذت رسالة التوحيد منكم	فصح الاتحاد بلا اتحاد
وأعجبني انتساق الدر منها	وجدد عهدود في الفؤاد
نعم فيها اختيارات ونسج	دقيق فيه درب للطراد
وغايتكم بما قد صين فيها	منزهة بحكم الاعتقاد
قدم نساج در هدى نمين	مفيد للعباد وللبلاد

مكثنا كانت الصحبة بيننا، كنا كأولي القربى الأبرار في البيت الواحد، ليس فيها أدنى تكلف، وما كنت أذهب اليه في أيام الأعياد حيث يكثّر الزائرون إلا عن مواعدة . قل لي مرة انني عازم على عدم الخروج غداً للقاء المهنيين بالعيد ، فاذا جئت فتجاوز حجرة الاستقبال (المندرة) واستأذن علي في داخل الدار، ففعلت فوجدت احمد فتحي زغلول قد سبقني اليه فظللنا نبحث في المسائل الشرعية والاجتماعية إلى ما بعد الظهر والناس يجيئون أفواجا في كل قطار فيجلسون في المندرة ويعودون في قطار آخر

وكان مما دار البحث فيه يومئذ مسألة الاجماع عند الاصوليين أنكر الاستاذ حججه ووافقه البيك فقلت ان الادلة التي يذكرونها على حججه لا تنطبق إلا على

إجماع الامة التي يمثلها أهل الحل والمقد . قال الاستاذ لو أرادوا هذا لما انكروه عاقل وهو ضروري في كل زمن

حياتنا العملية المعنوية في العصر

وأما حياتنا المعنوية فكنتا كروح واحدة في جسدین ، كان يكشفني بميع افكاره وأسراره في علاقته بالحكومة والحدیو واللورد كرومر ورئيس النظار ، وفي أعماله في الازهر ومجلس الشورى ومجالس الاوقاف الأعلى ، وبعهد إلي بكتابة بعض المقالات في الجرائد . لتأييد رأيه وتفنيد آراء مخالفيه في بعض المسائل أو الاعمال ونشر كل منها في الجريدة التي تليق بها باضاء تناسب الموضوع ، كزهري ، أو حقوقي ، أو مسلم وكنت أنشر بعضها في المؤيد وبعضها في المقطم وبعضها في الاهرام وكذا الرائد المصري ، وأحيانا كان يرسل إلي إحدى الجرائد وعليها إشارة منه الى شيء لاجل الرد عليه ، وقد يكتب بجانبه أو على ورقة أخرى موضوع الرد والایماء الى الروح الذي يبرز فيه من شدة أو لطف أو تهكم أو تجهيل ، ولا يزال لدي شيء من هذه الاوراق

وكان يعهد إلي في بعض الاوقات بكتابة المکتوبات الشخصية لاصدقته سواء أكانت مبتدأة كتهمته أو تعزية أم رجع كتاب منهم ، أو جوابا عن سؤال من غيرهم ، وقد ذكرت نموذجا من هذين النوعين فيما تقدم ، وتارة كان يطلب مني أن أكتب له بعض النصوص أو الاحاديث في بعض المسائل ، وسأله بعض الناس لا أدري في أي البلاد أن يرسل اليهم برنامج لمدرسة اسلامية أنشئت أو يراد انشاؤها وطريقة التدريس فيها فعهد إلي بذلك ففعلت ولا يزال لدي بعض أوراق المسودة التي كتبتها لذلك . وقد مر من الشواهد والمثل على هذا في الفصول السابقة ما يفي عن الاطالة فيه هنا

السعاية والدسائس لتفريق بيننا

بعد هذا كله وبعد ما تقدم في معناه طمع بعض الحاسدين في التفريق بيني وبينه بما تقدم بعضه ، وأذكر هنا ما هو أغرب منه

ذكرت في الكلام على وفاته لاصدقائه ووفائهم له أن محمد حافظ (بك) إبراهيم عثر في أثناء سفر الاستاذ الامام الاخير على ائتمار بعض الناس لابمادي وابعاده عنه بعد عودته من هذا السفر ، فأنا أبسط ما يخصني من ذلك هنا بقدر ما فيه العبرة ، وأغرب ما فيها أن المرحوم الاستاذ الشيخ عبد الكريم سلمان ألصق اتراب الامام واصدقائه به كان رئيس هؤلاء المؤتمرين ومستشارهم وعميدهم فيما يرجون من نجاح سمائهم ، وكانوا يجتمعون في دار المرحوم الشيخ عبد الرحيم الدمرداش (باشا) ، ومن حضر مجلسهم وأخبرني بعد خيبتهم انه كلف - أو انتدب - لاشهادة امام الاستاذ ببعض ما دبروه الدكتور عبد الرزاق افندي المنزلي الذي كان طبيباً في المحافظة

فلما عاد رحمه الله تعالى من سفره ذاك مقتبطاً أشد الاغتياب بما رأى في تونس والجزائر من تأثير المنار في نشر أفكاره الاصلاحية ووجود حزب كبير له فيها ، طفق يسمع تلك الاقوال المروزة الزورة ^(١) من أناس لا علاقة بينهم تشعروا بالتواطؤ أو ارادة السعاية ، منها ما سمعته في دار الدمرداش ومنها ما سمعته في عقر داره بين أهله وولده ، فكانت أثقل على سمعه من الكتاب المفتوح الذي أملتة وسأوس فرح افندي أنطون المصيبة

وقد أضاع الشيخ عبد الكريم حلمه الواسع فأظهر ما كان يكتبه منذ سنين من الامتعاض مني إذ ظن أن مادبروه كاف لغوزم فيه ، حتى ان حموده بك أطلعه

(١) روزانه - كلام أو الرأي في نفسه ترويزا أي دبره وتروى في ترتيبه وتقديره ليكون مقبولا. والتزوير معروف

على ساعة نفيسة حملها الاستاذ من أوربة ليهديها إليّ فأخذها ووضعها في جيبه وأقسم بالله لن يعيدها، فسكت حموده ولم يخبر الاستاذ بذلك ولما آن لهم أن ينثلوا كنائهم ، ويؤدوا أمانتهم ، قال أجرؤهم والاستاذ الامام حاضر في دار الدرداش : ان صاحب المنار يطعن في علم الاستاذ ويقول انه هو الذي يحضر له دروس التفسير ، ويقول ، ويقول ، وصدقه غيره وزاد عليه ، وقفا إثرهم الاستاذ الشيخ عبد الكريم (عفا الله عنه وعنهم) فقال : لا غرابة فالشيخ رشيد رضا صار مستغنياً عن الشيخ محمد فهو يقول ماشاء ولا يبالي ، وانما الغرابة في اصرار الشيخ على مودته ورفع شأنه كعادته مع أمثاله ، وهو في غنى عنه ، فان كانت مزيتة انه ينقل عنه التفسير وينشره فانه يوجد كثيرون يقومون مقامه في ذلك

حينئذ غضب الاستاذ وقال - كما حدثني بلسانه - ليس فيكم كـ...كم أحد مثله أو يقوم مقامه ، اثنتوني بواحد مثله وانا أترك صحبته ، انه لم يقل ولن يقول شيئاً مما ذكرتم ، ولو قاله لما صح ان يكون له من الاثر ما تريدون ، وقد آن أن أقول لكم ان الله بعث إلي بهذا الشاب ليكون مدداً لحياتي ومزيداً في عمري ، إن في نفسي أموراً كثيرة أريد ان أقولها أو أكتبها للامة وقد ابتليت بما شغلني عنها ، وهو يقوم ببيانها الآن كما أعتقد وأريد ، واذا ذكرت له موضوعاً ليكتب فيه فانه يكتبه كما أحب ، ويقول ما كنت أريد أن أقول ، واذا قلت له شيئاً مجحلاً بسطه بما أرتضيه من البيان والتفصيل ، فهو يتم مابدأت ، وبفضل ما اجملت . وقد رأيت في سفرى هذا من آثار عمله وتأثير مناره ما لم أكن أظن ولا أحسب ، فهو قد أنشأ لي أحزاباً ، وأوجد لي تلاميذ وأصحاباً ، ولا أفهم معنى لما تقولون من حاجته السابقة إليّ ، واستغنائاه الآن عني ، ماذا كانت تلك الحاجة ؟ وماذا عملت له ؟ أنا والله في خجل من نفسي انني لم أعمل له شيئاً ، وهو قد عمل لي كل شيء ، عمل لي ما لم يعمل له أحد ممن ربيتهم وعلمتهم ومن التزمت طول حياتي خدمتهم الخ ، فسكت الجماعة واجمين مدحورين ، وأحال الشيخ عبد الرحيم الجد هزلاً ، والذم لصاحب المنار مدحاً

ولكن الاستاذ الامام أعلى الله مقامه ، وأجزل ثوابه في دار الكرامة،

أرسل عقب ذلك إلى زميله القديم ، وصديقه الحميم ، الاستاذ الشيخ

عبد الكريم « إما أن تكف عن السيد رشيد واما أن أستغني أنا عن

صحبة أربعين سنة »

أخبرني الاستاذ الامام هذا الخبر وقال لي انني أشعر منذ زمن طويل بان
الشيخ عبد الكريم غير راض عنك ، وقد فكرت طويلا في مخالفته لي في هذا فلم
أهتد إلى سببه ، وأقرب ماخطر في بالي إلى العقل أنه يشعر من حديثك معه انك
لا تعتمد من العلماء ، وما كنت أظن ان مافي نفسه منك يصل معي إلى هذه الغاية
ويضطرني إلى هذا الانذار

قلت واني أشعر بما شعرت به بل أنا أولى بذلك، لان دعايته في التعريض بي
تخزني وخزاً ، وقد تكزني وكزاً ، ولا اشك في انبجاسها من عين آنية ، ونية
غير صافية ، ولسكني أنفابي لأجلك ، ولم أتعمد التعريض بقلة علمه ، ولا الايماء
إلى توهين فهمه ، إلا أن يكون شيء من فلتات اللسان ، ولا يبعد حينئذ أن
يكون عن كاملين الوجدان .

وأقول الآن لقد كان الشيخ عبد الكريم أجدر من غيره بادراك الرابطة
الاصلاحية التي جمعتنا ، والعروة الوثقى التي اعتصمنا بها ، وانه لا حق مني بقصد
المنفعة الدنيوية من صحبة الاستاذ، فانه هو الذي نظمته في خدمة الحكومة أولاً في
الطبوعات معه، وأخيراً في جملة قاضياً في المحكمة الشرعية العليا وهو شافعي المذهب.
وقد تقدم انه لما نكب الاستاذ في عاقبة الحوادث العاراية رأى من مصلحته
المالية أن يتكلم فيه ، وان سعاد أفندي زغلون قد اعتذر للامام عنه (ص ٢٧٨)
فان كان حب المنفعة ينافي الاخلاص في المودة فانا المخلص دونه . ولعل
الاستاذ كان يريد أن يجعل لي وظيفة علمية في الحكومة اذ رغبت في طلب
الجنسية المصرية وتقييد اسمي في دفاتر الانتخاب فلم أفعل (وانما فعل هذا لي

أخي بعد وفاته بسنين) وقد علم أنني أكره خدمة الحكومة ورتبها ونياشينها طبعاً ودينياً ، كما أبيتها من الدولة العثمانية فعلاً

والسبب الصحيح فيما كان من امتناع الشيخ عبد الكريم مني وتبرمه بي في السنين الأخيرة هو أنه رأى قد حلت محله في ضحية الاستاذ بل أريت عليه وفقته في الاتصال به ، حتى أن أكثر الذين كانوا يلوذون به لتقريبهم اليه قد انصرفوا عنه الي ، وإن كانت مودتهم لم تتغير ، وتم سبب آخر يعزز هذا السبب ويقويه ، وهو كراهته للسوريين ، لاستثني منهم إلا الأمير شكيب أرسلان ، فإنه حل من نفسه محلاً كريماً عند مزار مصر ، لفكاهاته الاديبة ، ونوادره اللطيفة ، على مكانته من حب الاستاذ الامام له وتكرمه إياه ، وللدعابة موقع من نفسه معروف يعاوبها عنده صاحب المفاكهة ، وحاضر النادرة ، ولعله لو أقام بمصر لكان نصيبه منه مثل نصيبي أو على مقربة منه

ولم تصف مودته لي إلا بعد وفاة الاستاذ الامام ، لأن سبب الكراهة قد زال ، ورأى أنني كنت بعد موته أشد محبيه أسي وحزنناً ، ومدحاً وثناءً ، وعنايةً باحياء ذكره ، ثم أساء الظن بي لتأخير إصدار هذا الجزء من التاريخ إذ ظن أن سبب ذلك عودة الخديو إلى الاقبال علي ، ومساعدته إياي على مشروع الدعوة والارشاد ، ولما علمت ذلك أعطيتهم ما كنت طبعته منه وهو ينتهي إلى ص ٢٣٢ وأخبرته بما بعده من المواد وسألته : هل يوجد في البلاحية تبليغ لي نشر هذا ؟ قال لا . قلت فأتقول فيما بعده وهو أشد منه على الانكليز وعلى الخديو معاً . وذكرت له ما كان معارضة فتحتي باشا زغلول لي في حرية الكتابة ، واعترف بعذري عن اذعان ، وعاملني معاملة أخلص الاخوان وهذه المسألة قد اشتهرت في ذلك الوقت وأشار اليها محمد حافظ ابراهيم معرضاً بالشيخ عبد الكريم في قصيدته التي هنا بها الاستاذ الامام في عودته بقوله :

شاب فيهم ولاؤهم حين شابوا وولائي في عنفوان الشباب

وانني أذكر بمناسبة قول الاستاذ الامام لي أن الشيخ عبد الكريم ربما كان يهتمني بانني لا أعده عالماً اننا كنا مرة في احتفال وليلة عرس لبعض اصحابنا مع بعض الادباء فظفروا يتناشدون بعض فرائد الشعر ، وما يعن لهم فيها من النقص

فأنكرت بعض ما وقع لبعضهم من الخطأ اللاقوي أو البياني ومنه ما قاله أو وافق قائله الشيخ، ثم خطأني هو في قول قلته فأثبت بالحجة على صحته وأنشدت قول السموأل ونكر إن شئنا على الناس قولهم ولا ينسكرون القول حين نقول

فكان هذا اشد ما واجهت به الشيخ عبد الكريم فيما أذكر

ولما توفي الاستاذ ونشرت الجرائد يوم دفنه الايات التي قالها قبيل وفاته

ساء الشيخ عبد الكريم نشرها لان قوله فيها

فبارك على الاسلام وارزقه مرشداً رشيد يضيء النهج والليل قاتم صريح فيما فهمه كل الناس من انه يعنيني به، وقد تحدثوا بذلك في حفلة المآتم، فهم الشيخ عبد الكريم بان يكتب الى الجرائد بأن تكذب عزو الايات الى الاستاذ، ولكن اخبره مصطفى بك الباجوري وحموده بك وكذا الشيخ احمد المحمصاني انهم سمعوا الايات منه وكتبوها عنه في الاسكندرية فأمسك عن تكذيبها واجماسا خطا وجملة القول اننا عدنا الى الصفاء والوفاء، اللذين يليقان باقرب الناس الى قطب الوفاء والاخلاص، حتى صار الشيخ عبد الكريم يزورني في داري ويأكل طعامي، ويسأل عن اولادي ويكرمهم كماداته الحميدة مع اولاد اصدقائه. عفا الله عنا وعنه

هذا ما كان من كيد الاجنة في آرائها المروزة، وأقوالها المزورة، وعاقبة رازها

الاكبر الذي تولى كبرها، وتفصي مهازلها الامهر الذي تلافى امرها

وكان وراءها ديسة نسائية ظنت انها ابعد عن الظنة، وأدنى إلى إثارة نفع الفتنة، وهي ما نقشوه في صدور بعض السيدات من أولي القربى من تهم صدقنها، علماً منهم بانهم لا يصبرن عن إذاعة سرها: فبينما الاستاذ الامام في داره بين اهله وجماعة أسرته، الذين اجتمعوا للحفاوة بعودته، إذا هو يسمع من بعض النساء وسوسة غير وسوسة الحلي، وإذا بصوت يرتفع بذكر الشيخ رشيد رضا، وإذا بكريمته الكبرى (رحمها الله تعالى) تقول قد تسرب من محافل الرجال، إلى خدور ربات الحجال: ان دخيلة هذا الرجل قد تكشفت، وسريرته قد افترضت، وانه يصحب أستاذة للتجسس عليه، لا لتلقي العلم منه

قال الاستاذ: ما هذا؟ من يقول هذا؟ قالت يقولون او يقلن انه جاسوس عليك

قال لمن؟ ان التجسس في هذا البلد لا يكون الا لاحدر جلين: الخديو وهو قد عاداه لاجلي. واللورد كرومر وهو لم يعرفه ولا يحب ان يعرفه، والا لكنت انا الذي اعرفه به ثم خاف ان يسمع اكثر مما سمع فيغضب فيقول ما يجرح شعور السيدات، فتلافى ذلك بأن التفت إلى اخيه حموده بك فقال له: انظر يا حموده! انك إذا كنت لا تستطيع ان تكون والسيد رشيد كالاخوين المحاصنين فلا يمكنك ان تعيش معي في هذه الدار، فأخذ بهذه الكلمة النار، وهو الذي قص علي الخبر

ما كان ينتقده الاستاذ على المنار

كان أحسن الله اليه ينتقد علي في المنار أموراً يذكرها لي عند وجود ما يذكره بها (أحدھا) الصراحة التامة والشدة في إظهار الحق وكان يعبر عن ذلك بقوله مامعناه: انك كثيراً ما تبرز الحق عرباناً ليس عليه حلة ولا حلي يزينه للناظرين، ويهون قبوله على المبطلين، فينبغي أن تتذكر أن الحق ثقیل، وقلما يكون للداعي اليه صديق، وان لا بد من مراعاة شعور من يعرض عليهم كيلا يزداد اعراضهم عنه. وكان يعجبه من مقالاته ما جعلته بأسلوب المناظرة كمحاورات المصلح والمقلد فوضوعها أشد ما كتب وطأة على الجامدين المقلدين ولم يسمع من أحد منهم شكوى منها ولا قدحاً في كاتبها (ثانيها) كان يقول لي مراراً ان المنار في موضوعه ولغته لا يفهم أكثر ما فيه إلا الخواص فينبغي أن تتحرى من سهولة العبارة وقلة غريب اللغة فيها ما يقربه من أفهام جميع القارئین حتى العوام، وقد تحريت موافقته في هذا حتى إن قارئ المنار ليجدون من غريب اللغة في السنة الأولى ما لا يجدون فيما بعدها ولكن بقي أكثر مباحثه للخواص بالرغم من ذلك التحري

(ثالثها) الخوض في سياسة الدولة العثمانية في بعض الاحيان، وهذا مما كنت أكرهه أنا أيضاً فيعرض لي من الضرورة ما يحتمني عليه وجل علي المهم منها كان سرراً وقد أشرت الى ذلك في فاتحة المجلد ١٢ من المنار سنة ١٣٢٧ بقولي «سألتنا السياسة فساورت وواثت، وأسألتنا لها فجمحت وتقمحت، وكنا نهم بها في بعض الاحيان فيصدف بنا عنها الاستاذ الامام، ولم نزل منها ما نهواه، الا بعد ان اصطفاه الله

بعضه أقواله في خطة الإصلاح والتجديد

(والقائم بها على أثره واثر السيد جمال الدين)

كان الأستاذ الامام قدس الله روحه يصرح في المناسبات المختلفة بهذا المعنى للأفراد أو الجماعات، حتى صار معروفاً عند من يعنى بهذا الامر، من مسلمي الشرق والغرب، ولا سيما بدوفاته، واشتهار أبياته، وصار الناس يكتبون هذا ويقولونه لنا: فأصدقنا ومحبو الإصلاح يقولونه ثناء ودعاء، وخصوصاً يقولونه تهكماً واستهزاء.

ومن ذلك ان مولانا الأستاذ احمد آ زاد المكنى بأبي الكلام، أحد زعماء الهند وعلمائها الاعلام، لما أنشأ مجلته (الهلل) الاوردية الإصلاحية ذكر في صدرها صور الثلاثة مع الكلام عنهم: السيد جمال الدين الافغاني. الشيخ محمد عبده. السيد محمد رشيد رضا. فيبيح لي هذا التاريخ الحراوي وجب علي أن أثبت فيه ماسمته منه أو رويته عنه وهو قليل من كثير لا يزيد على عشر كلمات - أعيد قبله ذكر كلمته الخطية في النار التي سبق نشرها في ضمن كتاب له (ص ٨١٠) وهي

(كلمته الخطية، في خطة المنار التجديدية)

وهب إرادي القرآن لا متمدياً باللام ولا أحب أن أخالفه ولو إلى جميع. ان سرني في انما
وفي انكباب على الضار فندعجب اذا لم يسر عوا بالشرار في المنار تقوى بقوة
الليل الى تغيير الحاضر بما هو اصلح للعمل واعون على الكفر من شر الغابر ولو يزال ذلك الليل في الاغنياء
فذلك وانقره لا يستطيعون الى السبيل سبيلا. ولما ذلك لا يصف الامل في نجاح العمل

والسيد جمال الدين
السيد جمال الدين

« وهب لم يرد في القرآن الا متمدياً باللام ولا أحب أن أخالفه ولو إلى صحيح. الناس في عناية عن النافع، وفي انكباب على الضار، فلا تعجب إذا لم يسر عوا بالاشترار في المنار، فان الرغبة في المنار تقوى بقوة الليل إلى تغيير الحاضر، بما هو اصلح للأجل، وأعون على الخلاص من شر الغابر ولا يزال ذلك الليل في الاغنياء قليلاً. والفقراء لا يستطيعون إلى البذل سبيلاً. ولكن ذلك لا يصف الامل في نجاح العمل »

الكلمات العشر

(الكلمة الاولى) قوله لصديقه محمود سامي باشا البارودي انه يرجو ان اكون خلفه في القيام بالاصلاح الذي خلف به السيد جمال الدين ، وقد ذكرته في أول هذه الحاتمة (ص ٩٩٥)

(الكلمة الثانية) قوله لحسين دانش بك الذي كان سكرتير محمود باشا الداماد صهر السلطان العثماني عند ما كان في مصر مع الداماد ونجليه البرنس صباح الدين والبرنس لطف الله في سنة ١٣١٧ . ثم صار سكرتيراً لمصلحة الديون العثمانية في الاستانة وكان شاباً مجتهداً في الشؤون الدينية ميالاً إلى الاصلاح الاسلامي فاعتم فرضة وجوده بمصر للقاء الاستاذ الامام فصاحب المنار ، وقد أخبرني ان الاستاذ قال له في أثناء حديث معه : انني مارأيت أنهض من هذا الشاب (صاحب المنار) بالتوفيق بين الدين والعقل . وبين الشريعة ومصالح البشر المدنية الموافقة لهذا العصر .

(الكلمة الثالثة) لسماحه السيد محمد توفيق البكري وهو بمعنى كنيته البارودي . قال لي الاستاذ البكري : كنت راكباً مع شيخنا (الاستاذ الامام) في ليلة من ليالي رمضان بشارع درب الجمايز فذكرت ما من الله عليه من العلم والحكمة وخدمة الاسلام وقلت له : إلى من نرجع فيما خصك الله به من ذلك اذا لم تكن موجوداً ؟ (وقد عني بذلك وفاته) فقال له : إلى الشيخ محمد رشيد رضا صاحب المنار

(الكلمة الرابعة) ما صرح به في درس التفسير بالجامع الازهر : تأخرت عن أول الدرس ليلة فأردت الجلوس حيث وجدت محلاً وهو بعيد عنه فناداني تعال إلى هنا ، وخاطب الحاضرين بقوله : انه يفهم اويستفيد أكثر من كل واحد منكم (ص ٧٦٩) وقد ذكرني بهذه الكلمة الاستاذ الشيخ حسن منصور من عهد غير بعيد

(الكلمة الخامسة) للاستاذ الشيخ احمد إدريس رفيقه في تفتيش المحاكم الشرعية وهو من أبرع قضاة هذه المحاكم وقد ارتقى إلى المحكمة العليا . ذكر لي انه لما كان معه في الاسكندرية كلمه بعض أصحابه مستنكرين لشيء نشر في المنار عن الدولة العثمانية فقال له بعضهم نرجو أن تمنع صاحب المنار من نشر مثل هذا

فقال لي اسمع مايقولون ، انني والله لا أعرف أحداً في الناس مستقل الفكر مثل هذا لرجل ، وانما أنا أكلمه في كل موضوع بالدليل

والمراد من ذكر هذه الكلمة هنا انني كنت معه على طريقته وطريقتي في الدين والعلم وهي حرية العقل واستقلال الفكر واتباع الدليل ، وقد اشترطتها في الأخذ عنه من أول يوم (ص ١٠٠٣) فقد استفدت منه حكمة وعفاً ، وأدباً جماً ، ولم أقلده في شيء منها تقليداً ، بل كنت أوافقه بالافتناع كثيراً ، وأخالفه وأناقشه بالدلائل قليلاً ، لاننا متفقان في المبادئ والمقاصد والغاية والنية والله الحمد

(الكلمة السادسة) للاستاذ الشيخ محمد شاكر إذ بلغه عن الخديو انه انما يرضى عنه اذا أبعد صاحب النار عنه فقل : كيف أرضى بأبعد صاحب النار عني وهو ترجمان أفكاري (ص ٥٨٦)

(الكلمة السابعة) لبطرس باشا غالي وزير الخارجية إذ بلغه عن الخديو مثل مابلغه الشيخ شاكر وان سموه أرسله اليه بذلك وانه اذا ترك صحبة صاحب النار يفوض له العمل في الازهر . قال انني أفضل ان أعيش مع صاحب النار في رمل عين شمس على البقاء في منصب الافتاء وعضوية مجلس إدارة الازهر لان هذا الرجل متحد . مي في العقيدة والرأي والخلق والعمل الخ (ص ٥٨٦)

(الكلمة الثامنة) ما قاله للشيخ عبد الكريم سلماز وقد ذكرته آنفاً من عده إياي مدداً لحياته ، في انعام ما بدأ ، وتفصيل ما أجمل (ص ١٠١٨) وأهمه عنده التفسير كما صرح به في آياته الآتية

(الكلمة التاسعة) ما قاله لي في سياق الكلام في الاصلاح وما كان عرض له من كناية وصيته للمسلمين . قال : مرضت مرضاً شديداً اشرفت به على الموت فطلبت دواة وقلما وورقا لا أكتب وصية فيما يجب على المسلمين من الاصلاح بعدي ، فلما أحضرت علم أهل البيت انني شعرت بقرب الاجل ، فطعنت بيكين حتى علا نسيجهن فلم أستطع الكتابة حينئذ

قلت لعلك كتبت بعد ذلك . قال بل شعرت بالصحة ورجوت العمل قلت : هذه الوصية ضرورية للامة وإذا كتبتها في حال الصحة والقوة تكون

آثم. قال «انه لم يبق من حاجة اليها. فالمراد منها صار معروفاً، وأوماً اليه بإيماء لطيفاً...

الكلمة العاشرة - آياته قبل الوفاة ﴿

لما مرض الاستاذ الامام مرضه الاخير كنت أعوده بداره في عين شمس كل يوم وأقرأ عليه ما كتبه الشيخ عبد الكريم من رسالة (أعمال مجلس ادارة الازهر) فيصحح فيها ويزيد او ينقص منها ، وقد أملى علي تقريره عن امتحان مدرسة دار العلوم وهو في سريره فكتبته . ولما سافر إلى الاسكندرية سافرت معه وكنت أقيم عنده أياًما وأعود إلى القاهرة فأنظر في أعمال ادارة المنار ثم أعود إلى الاسكندرية ذوالحج ، ولما اشتد عليه المرض أذيع وأنا في مصر انه توفي ، فكدت أقضي من الغم وبت تلك الليلة بعد تكذيب الخبر ولما استيقظت وجدت على مخدتي دماً قد خرج من فمي وأنا نائم . وفي الصباح عدت إلى الاسكندرية فلما قابلته قال لي :

قد جاش في نفسي الشعر في غيبتك كأنني لا أقول الشعر إلا في الحبس او المرض - يشير إلى القصيدة التي نظمها في السجن في عاقبة الحوادث المرابية وقد تقدمت (ص ١٥٠) وأنشروني هذه الايات فكتبته عنه واحداً بعد واحد وهي:
ولست أبالي ان يقال محمد أبلّ أم اكتظت عليه المآثم (١)
ولكنه دين أردت صلاحه أحاذر ان تقضي عليه المآثم (٢)

(١) أبل المريض شفي من مرضه واكتظت المآثم امتلات وازدحت بالناس والمآثم جمع مآثم وهو مجتمع الناس في الحزن وهو في أصل اللغة عام في الحزن والفرح ثم غلب على جماعتهم في المصائب ثم نسيت هذه الغلبة.

(٢) قضاء العائم يعني أهلها على الدين قد يكون بتركهم اقامة كتاب الله ورسوله في هدايته والدعوة اليه على بصيرة وهي الحجّة ، وبانباعهم للبدع والمادات المضیعة له ، وقد يكون بمداوتهم له لوم والفنون التي هي قوام الدول والامم باسم الدين فيكون المشتغلون بها بداء عن الدين معتقدين انه آفة العمران بل يمرقون منه ويمادونه وأصحاب العائم طاجزون عن الجمع لهم بين صالح الدنيا والدين فلا يبقى على تقاليد الدين الا أفراد لا تقوم لهم قائمة

وللناس آمال يرجون نيلها اذا مت ماتت واضمحلت عزائم
 فيارب ان قدرت رُجعى قريبة الى عالم الارواح وانقضّ خاتم (١)
 فبارك على الاسلام وارزقه مرشدا رشيداً يضيء الزهج والليل قائم
 بمائتي نطقاً وعلماً وحكمة ويشبه مني السيف والسيف صارم

ونشرت الجرائد في خبر وفاته الخمسة الاولى وضبطت الثاني هكذا :

ولكن ديناً قد أردت صلاحه أحاذر أن تقضي عليه العمام

وقال لي بعد كتابتها انه خطر في بابه آيات أخرى فكتبتها عنه . ورأيته
 قد ترك فيها ألف التأسيس في كلمة القافية كأنه أذهله عنه الألم ولم أنشر منها في
 المنار إلا هذا البيت الذي نشرته إحدى الجرائد الاسبوعية أيضاً وهو
 قوله في صفة المرشد الرشيد :

ويخرج وحي الله للناس عارياً عن الرأي والتأويل يهدي ويلهم
 ولما أنشدني الايات طفق الشيخ عبد الرحيم الدمرداش يمازحه كعادته
 لأجل التسلية فقال له : أنا أشتغل ليلاً ونهاراً بخدمتك وتكيس رجليك (وزاد
 على ذلك كلمة دعائية) ثم توصي للشيخ رشيد وتجعله خليفة لك، يا ضيعة الخدمة!!
 وهذا البيت الاخير آخر نص صريح من الاساذ الامام في اتباع مذهب
 السلف في تفسير القرآن وهو ينبوع الاعتقاد وأصل الدين، ومراده بالرأي الذي
 ينهى عنه اتباع الهوى لتأييد المذاهب المقلدة، أو طلب المنافع الباطلة، وبالتأويل
 الخروج في تفسيره عن مدلول النظم العربي البليغ وما يخالف المحكم الذي هو
 ام الكتاب، أو ما أجمع عليه اهل الصدر الاول.

فأسأل الله تعالى أن يتغمده برحمته ورضوانه، وبوقتنا لتحقيق آماله، ويلهمني
 الحق الذي يرضيه تعالى في تفسير كتابه ويقدرني على اتمامه، انه على كل شيء قدير

(١) انقضاء الخاتم عبارة عن مفارقة الروح للبدن وهي من اشارات الصوفية

الفصل الثامن

في شؤونه الخاصة المعنوية ونهاية حياته الجسدية

وفيه ٤ مقاصد وخاتمة أما المقاصد فهي (١) قوة عقله وسعة علمه (٢) إيمانه بالله تعالى وحبه لله ولرسوله وعباداته (٣) مرضه الأخير ووفاته (٤) تأييده

المقصد الأول

قوة عقله وسعة علمه

يصف الناس كل نابغ بالذكاء الفطري، ويعنون به سرعة الفهم وسهولة الحفظ ولذلك كنت تجد الناس مجمعين على وصف الاستاذ الامام بالذكاء النادر، لا يختلف في هذا منصف ولا مكابر، أما هو فكان يقول عن نفسه انه متوسط في الذكاء وانه يوجد في كل مئة رجل ٧٥ رجلاً مثله في ذهنه. وعلى هذا كان يجب ان يكون ثلاثة أرباع الناس أو طلاب العلم منهم خاصة مثله، ولكن الناس لم يروا في الملايين الكثيرة في المصور المختلفة مثله. وانك لتسمع كثيراً من أهل العلم بالتواريخ وسير الرجال الفضل يقولون ان الدنيا انما تلد مثل هذا الرجل في كل عدة قرون مرة، فهو المصداق في عصرنا لقول الشاعر في مدح رجل اسمه كثير * فقل كثير في الانام قليل * وقال الذين يمتحنون أذهان طلاب العلم وعقولهم من علماء الافرنج : ان في كل مائة منهم ٢٥ أذكاء ومشاهم بلداء، والחסون الآخرون يتفاوتون في الوسط بين هذين. واعمري لقد كان هو في الثلاثة الاولى من الربع الاول ان لم يكن هو الاول بل لا اعقل ان يكون في كل مائة مثله في الذكاء.، ولكن السيد جمال الدين كان الاول في كل الف أو الف الف، بل هو الذي لا يكا: يسبقه اولاً يلحقه أحد

وقد قال كثير من أهل الرأي والفضل فيه بعد موته ان الفراغ الذي حدث بفقده لا يملأه أحد في هذا العصر . وقال أحمد مختار باشا الغازي أكبر قواد الترك وعلمائهم الرياضيين : اني أحسب ان دماغ الشيخ محمد عبده اكبر من كل ما عرف من أدمغة كبار الرجال ، ولو وزنه الذين يعنون بهذا في اوروبا لثبت لهم انه أكبر من دماغ بسمارك أدهى ساسة اوروبا في عصره ، ومن أدمغة أكبر فلاسفتهم وقد راجعناه في قوله ان ثلاثة أرباع الناس يساوونه في ذكاء ذهنه ، وقلنا له كيف تحصل في الزمن القصير من العلم مالا يحصلونه في الزمن الطويل ؟ فقال إن الفرق بين الناس في هذا لا يأتي من الاختلاف في الذهن فقط ، وانما يأتي معظمه من الاختلاف في توجيه الارادة إلى الشيء ومعرفة طريقته وغايته قبل طلبه . وهذه حقيقة لا مريبة فيها ولكنها لم تذهب بامرائنا في ان قوله ذلك من المبالغة بمكان ، وإن كان قاله اعتقاداً لا تواضعاً وهضمًا لنفسه . على اننا نعرف من أصحاب الذكاء المدهش من كان ذكاؤهم وبالاً عليهم خاصة أو عليهم وعلى كثير من الناس الذين يعرفونهم . فالعبرة بما قال وهو ان ادراك المقاصد انما يكون بصحة توجيه الارادة اليها وطلبها من طرقها الطبيعية بلغ هذا الرجل من قوة العقل ان عجزت الامراض الشديدة عن منعه المطالعة فكان يقرأ في أيام مرضه أكثر مما يقرأ في صحته التي تشغله فيها الاعمال . أنظن انه كان يقرأ كتب القصص والفكاهات ؟ كلا انما كان يقرأ العلوم العقلية والفلسفة الاجتماعية وكتب التربية والتاريخ العلمي . وقد رابه من مرضه الاخير مله فيه من المطالعة وقال إنه لم يعمد ذلك في مرض قط ، فقلت له هكذا شأن أمراض المعدة ، على ان كثرة الاعمال العقلية هي السبب الفعال في مرضك هذا كما يقول الاطباء . ولم يكن المرض يومئذ قد اشتدت وطأته ولا علم انه سرطان الكبد وقد أصيب بحمى التيفوس مرة في بيروت فبلغت نهاية شدتها ، وأعلى حرارتها ، حتى خشي على حياته منها ، ولم يغب عقله ولم يهذ لسانه ، حتى قال الطبيب الذي كان يعالجه انني لم أر مثل دماغ هذا الرجل ، ولو حدثت عن مثل ما رأيت منه لما صدقت . وكذلك قال بعض الاطباء الذين زاروه قبل موته بايام قليلة (كالكتور زلزل المشهور) اذ وصف له سير مرضه من أوله الى يومه ذاك ، ووصف له أعراضه

لم يفته منها شيء، وكان قد دب السم في جميع جسمه، وبقي عقله حاضرا وذاكرته تملي على لسانه الاجوبة السديدة في وصف مرضه لمن يسأل عنه وفي غير ذلك اتفقنا نحن الذين كنا نلازمه على أن لا نحدثه في الجد ولا مسائل العلم والاجتماع. وأن نمنع عائديه من الحديث في ذلك لا سيما بعد اشتداد المرض عليه على قلة من يؤذن لهم برؤيته، ولكنه كان ينتقل بنا من الفكاهة إلى الجد، فاذا ساق شجون الحديث مسألة عويصة أو عبارة احتجب معناها، أسرع ذهنه إلى كشف الحجاب عن الخفايا فجلاها، ونفت في عقدة العويص منها فحل عراها أذن لنا بذكر الشعر والادب في يوم تواترت فيه نوبات الالم عليه فكان مما أنشده محمد حافظ ابراهيم من مختار محفوظه قول بشار المشهور:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
وقال انني أنشد هذا البيت منذ سنين وأنا لم أفهمه، وسألت عنه غير واحد من الادباء فلم يأت أحد بتفسير ترتاح اليه النفس، فلم يلبث الامام أن قال، والآن لم ينال من كبده ما ينال، ان معناه ظاهر، فانه يريد أنهم اذا غضبوا سلوا سيوفهم، وأشرعوا رماحهم، فكان بريقها ولعانها كاهتلك الحجاب الشمس الذي يظهر به نورها ويتألق شعاعها، إلى أن يمكنوها من طلى أعدائهم وصدورهم، فتخرج وهي قطار دما، وتسيل مهجا، هنالك يخفى ذلك البريق والامعان بستر الدم له وريته عليه. فالضمير في قوله قطرت دما عائد إلى السيوف أو الرماح وإن لم تذكر بالقول فهي معلومة بالقرينة، أي على حد قوله تعالى (إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب) على التفسير المشهور المأثور من ان ضمير (توارت) يرجع إلى الشمس. والصحيح أنه يرجع إلى الخيل

ناهيك بمن كان يقتل عامة نهاره وزلفا من ليله بحل المشكلات وامضاء الاعمال في معاهد كثيرة، ولا يشكو تعباً ولا يخف ملأ، كان يصبح فيندو إلى مجلس الشورى مثلاً فيجلى المسائل الموضوعة للبحث، سواء كانت قضائية أو إدارية أو مالية، وبؤلف بينها وبين مصلحة البلاد، ويؤيدها بالحجج القانونية والمقالية التي تقنع الحكومة بعد اقتناع الاعضاء، ثم يخرج من هذا المجلس فيأكل

طعام الغداء ويذهب الى الازهر، فان كان اليوم يوم جلسة الادارة جلسها، وعمل عمله فيها، ثم ينتقل الى مكتب الافتاء حيث كان ينتظره اصحاب الحاجات المختلفة في جميع مصالح الحكومة وغيرها، والمستفتون والزائرون وكتاب الجمعية الخيرية والازهريون من علماء ومجاورين، فينظر في هذه الامور إلى ما بعد العصر، ثم يخرج الى ديوان الاوقاف إن كان اليوم يوم جلسة المجلس الأعلى، أو إلى مجلس إدارة الجمعية الخيرية إن كان يوم جلسته، ثم يعود عند الغروب الى الازهر فيقرأ الدرس، ويخرج بعد العشاء قاصداً داره فيجد العفاة واصحاب الحاجات ينتظرونه في المحطة وفي البيت يعرضون عليه حاجاتهم، ويقرأ في القطار جرائد المساء، وبعد هذا كله قلما كانت داره تخلو ليلية من السامرين يتكلمون في العلم والادب والمصالح العامة والخاصة. ولا تنس ان الايام التي لم تكن موعد جلسة في تلك المجالس الرسمية كان يقرأ فيها أوراق تلك المجالس. ولكنه كان على ذلك العقل الكبير، والعرفان الغزير، كثير النسيان للامور الجزئية كالارقام، وأسماء الاعلام

علومه ومعارفه

أتقن جميع العلوم الإسلامية، من لغوية وشرعية وعقائية، وكذا الفلسفة القديمة والتاريخ، وعلوم الحقوق والقوانين، وضرب بسهم في العلوم والفنون العصرية. قبل تعلم اللغة الفرنسية، ثم أتقن هذه اللغة في سن الكهولة وتوسع بها في العلوم على طريقة الافرنج. وكان يهوى بالعلم على قدر الحاجة اليه في العمل والاصلاح. فأما علوم اللغة العربية فقد بلغ منها أن كان أدق الناس فهما للقرآن والحديث ولغيرهما من فصيح الكلام، وأبلغ الكتاب، وأخطب الخطباء

قال الشيخ ابراهيم اليازجي اللغوي الاديب النقاد: كان حديثه الذي يلقيه في المجالس كأفصح ما يكتب الادباء المرسلون، وقد تقدم فيما كتبه الامير شبيب عن سيرته في سوربة ما كان من دقة فهمه وذوقه للشعر البليغ وطربه بمطربه وشجوه بمشجيه (ص ٤٠٩)

أما العلوم العقلية فقد ارتقى فيها أن كان فيلسوفاً حكيماً، اعترف له بذلك

من يمتد بعمر فتمهم . واذكر هنا تفسيره لكلمة فيلسوف . حدثنا في طرابلس الشام قال كنا في مجلس بعض الكبراء بمصر (هو علي باشا مبارك) وكان في المجلس بعض اهل العلم وحلة الاقلام من السوريين (هو الدكتور يعقوب أفندي صروف محرر المقتطف) فقال ما معناه ان الناس قد ابتدلوا لقب فيلسوف فصاروا يطلقونه على غير أهله ، وكان أطلق هذا اللقب في جريدة على بعض الحاضرين !! فخرى ههنا كلام في معنى كلمة فيلسوف . قال يعقوب أفندي : الفيلسوف هو الذي يتقن جميع العلوم . قال الاستاذ إذا لم يوجد فيلسوف في الارض . قل هو الذي اتقن بعض الفنون وله إلمام بسائرهما . قال ان جميع الذين يتعلمون على الطريقة الحديثة يخرجون من المدارس العالية وكذا الثانوية على إلمام بجميع العلوم العصرية ثم يتننون بعضها ، فما أكثر الفلاسفة في المهندسين والاطباء وفي التلاميذ أيضاً . ثم سئل هو عن تفسيره فقال : الفيلسوف هو الذي له رأي ومذهب في العقليات والاجتماعيات يمكنه الاستدلال عليه والمدافعة عنه .

وأما علوم التصوف فكان فيها من الراسخين وقد قال لي انني اقرأ الفتوحات المكية كما اقرأ تاريخ ابن الاثير لان لغوامضها مفتاحاً من علمه لا يخفى عليه شيء منها وقد تقدم شرح هذا في الكلام على تربية الاولى بالتفصيل

وأما العلوم الشرعية فقد كان فيها إماماً مجتهداً وإن كبرت هذه الكلمة على الذين سجلوا على انفسهم الحرمان من فضل الله أن يؤتي المتأخرين . من العلم والفهم ما آتاه المتقدمين ، وناهيك بفهمهم في القرآن ووقوفه على اصول الشريعة وحكمها واسرارها ، وقوة حجته في اثبات عقائدها ، ودفع الشبهات عنها ، وتطبيق احكامها على مصالح البشر . واست اعني بكونه إماماً مجتهداً في الشريعة انه صاحب مذهب دونه ، أو كان يريد أن يدونه ، وانما اعني ما ذكرت آنفاً من فهمه الدين اصوله وفروعه بالدلائل والبراهين ، والفقه فيه والوقوف على حكمه ، والقدرة على بيانه بدون تقليد عالم معين من العلماء السابقين والائمة المهديين ، الذين اتبع آثارهم واهتدى بهديهم . وكان يرى ان من يضع للناس مذهبا جديداً فانما يزيدهم عمى وجهاً وتفرقاً واختلافاً ،

هذا ما كتبه في ترجمته من المنار مع تنقيح ما . وازيد عليه هنا ما ياتي فاقول
انه على نصره للسنة لم يكن واسع العلم برواية الحديث ولا حفظه، ولا كثير
العناية بمعرفة الجرح والتعديل فيه — وانما قرأ علم مصطلح الحديث وبعض متون
الصحاح والسنن التي تقرأ في الازهر وهي قليلة وتقرأ للتبرك لا للتفقه فالتقصير من
الازهر لامنه ، وكان هو يقرأ الحديث للتفقه والتادب بالسنة ويشدد النكير على
الازهرين وامثالهم بقراءته للتبرك ويمدحها من جنابهم على الاسلام، وكان يستقصي
أخبار السيرة النبوية والشمال المحمدية، ويمدحها من أركان التشريع والتاريخ الاسلامي.
وكان يرى ان المحدثين قد غلطوا في تصحيح كثير من أحاديث الفتن والفرق لان
اصحاب الاهواء عنوا بترويحها، وكذا الاحاديث الخافعة للقرآن كحديث السحر،
وقد جادلته في بعض هذه المسائل وقلت له : ان علماء الجرح والتعديل يقولون بوضع
الحديث المخالف لنص القرآن وغيره من القطعيات ، قال نعم وانها لنعمت القاعدة
ولكن لا ترى فيهم من طبقها على جزئياتها؟ ورأيت في الاستدلال بها يوافق مذهب
السلف والعلوي ايسر هذه المسألة في ذيل هذا التاريخ فقد طال هذا الجزء جداً

وأما العلوم المصرية فكان يعرف منها الرياضيات، ويلم بالطبيعيات، ويتقن
الفلسفة العقلية وعلوم التربية والنفس والاخلاق والاجتماع وتواريخ الملل والامم
ومذاهبها، وكان يطالع دائماً ما تجد عند الافرنج من المصنفات في هذه العلوم وفي شأن
الاسلام، وكان عزم على تعلم اللغة الالمانية وشرع فيه لان الالمان سبقوا غيرهم الى الاختصاص
في جميع العلوم فما زالت اثني عزمه عن ذلك حتى قبل، وقد درس علم الخط المسند وكتب
فيه كتاباً لاجل تحقيق التاريخ العربي القديم . وسبق هذا في الكلام على اسفاره
يظن بعض الشبان المتفرجين المغرورين ببضاعتهم المزجة من مبادي العلوم
المصرية أن الاستاذ اذا قيس بعلماء أوربة أو حضر مجالسهم كان يكون كالأبكم بين
الناطقين ، وما يدرون انه كان في كل مكان من كل بلد ذلك الامام الذي تشخص
نايه الابصار ، وتصفى اذا تكلم الاسماع ، لما أوتي من الحكمة وفصل الخطاب ،
وقد ذكره بعض ملاحدة مصر في مجلة له فزعم ان بعض الناس ترجم له

بعض ما كتبه في مقالات (كتاب الاسلام والنصرانية) واستبعد لجهله بحاله وترجمته أن يكون قرأها باللغة الفرنسية ، ولم يدرك انه حذق هذه اللغة وكان من أفصح الناس نطقا بها ، وفهما لها ، بل صرح بعض العارفين به وبها ممن ترجموه انه كان كأفصح أهلها . وقد كان يقرأ لي في كتاب فرنسي في فلسفة الارادة كأنه يقرأ في كتاب مؤلف بالعربية . وترجم عنها في أثناء تعلمها كتاب التربية للفيلسوف هربرت سبنسر لاجل التمرن على الترجمة ثم عرض ترجمته على صديقه قاسم بك أمين الذي شهد له بالامامة بأوسع ما في هذا اللفظ من المعاني ، وكان في الذروة من المصريين الذين حذقوا اللغة الفرنسية ففهما ونطقا وإنشاءً ، فأصلح بعض الكلام فيها . ثم راجع بعض المتقنين للفرنسية والعربية هذه الترجمة وما أصلحه قاسم بك أمين منها فوجد أن قاسما مخطيء فيما أصلحه منها ، وان ما كتبه الاستاذ الامام في بدايته من ترجمتها هو الصواب ، وقد أملى في أثناء مرضه الاخير مقالة بهذه اللغة نشرت في بعض المجلات الفرنسية

ومن قرأ رده على موسيو هانوتو ولاحظ أن ما فيه من الكلام على الفرق بين الآريين والساميين في عقائدهم وتأثيرها في حضارة كل منهما ، وما فيها من عقائد فرق النصرانية المختلفة وغير ذلك مما لا يوجد تفصيله الا في الكتب الافرنجية — من قرأ ذلك ولاحظ ما ذكر عرف سعة اطلاعه على كتب الافرنج واستحضاره لما قرأه عند الحاجة اليه

وناهيك برجل كان الاستاذ ادوارد براون من كبار العلماء المستشرقين المدرسين في جامعة (كبردج) يكتب له « أستاذي الاكبر ، وأستاذنا الاكبر الافضل الاعلم ، الاعز الاكرم » ويكتب امضاءه في بعضها (أحقر تلامذتك ادوارد براون) ويقول في كتاب التعمية لآخيه : مارأيت مثل الفقيد المرحوم في الشرق ولا في الغرب فوالله كان وحيدا في العلم ، وحيدا في التقوى والورع ، وحيدا في البصيرة والاطلاع على ظواهر الامور وبواطنها ، وحيدا في جميل الصبر وخلص النية ، وحيدا في البلاغة والفصاحة ، عالما عاملا محسنا ورعا مجاهدا ، محبا للعلم ، ملجأ للفقراء والمساكين » الخ (راجع ص ٢٩٨ ج ٣) من هذا التاريخ

المقصد الثاني

من الفصل الثامن

إيماناً بالله تعالى وبه رسوله ﷺ وعبارته

تقدم ان الرجل قد ربي تربية صوفية شرعية خالية من البدع ، وتقدم قوله ان الغرض من تربية الصوفية أن يكون الدين وجداناً لصاحبه كوجدان الحب والبغض ، واللذة والالم ، لا يزلله شك ولا تؤثر فيه شبهة ، وهو قد طلب العلوم بارشاد مربيه الصوفي (الشيخ درويش) القائل له ان كل علم من العلوم يفيد النفس كما لا يقربها إلى الله تعالى فكان ينوي بطلبه العلوم حتى الرياضية والفلسفة الكمال الذي يقربه إلى الله عز وجل ويدنيه من مرضاته فكان طلبها عبادة لم تزده إلا إيماناً كان يقرر أن الدين فوق العقل ومعارفه الكسبية ، ولكنه صديق له لاعدو ، فهو يرشده الى الكمال في معرفته ، كما يرشد القلب او الوجدان الى الكمال في فضيلته ، ولولا ان ارشاده للبشر من فوقهم لما اذعنوا له ولما كان ديناً .

وكان يرى ان اليقين المطلوب في الايمان هو اليقين المنطقي المؤلف من علمين (أحدهما) ان الحق في المسألة كذا (وثانيهما) انه لا يمكن أن يكون إلا كذا . وقد بينت في التفسير وغيره ان هذا هو الكمال في العلم والايمان وهو لا يشترط في صحة الاسلام بل يكفي فيه اليقين اللغوي وهو الجزم الذي لا شك معه ولا ريب فيه بالفعل وكان هو على يقين منطقي في عقيدته ، ووجدان روحي في إيمانه ، ويعتقد أن الايمان الصحيح ما ظهر اثره في الاخلاق والاعمال ، حتى انه لم يكن يتصور أن يجتمع توحيد الله تعالى مع الذل والصغار وإقرار الباطل والخوف من الاعتصام بالحق في نفس واحدة ، فكنا نرى ثمرات الايمان الكامل يانعة في شجرة نفسه المباركة ، من الخوف من الله ، والرجاء في الله ، والتوكل على الله ، والحفظ لحدود الله ، والخشوع في الصلاة لله ، وعند قراءة كتاب الله ، ولو استطاع أن يتعدى حدود الله متأولاً بالمصلحة لوافق الخديو على ما يريد من الاوقف العامة ليتمكن من إصلاح الازهر (راجع ص ٥٧٣)

وكان يعتقد ان الخشوع وحضور القلب في الصلاة واجب فهو ركن من أركان الصلاة أو شرط لصحتها أو قبولها ، وقد ذكرنا أول ماسمعه منه في هذه المسألة في بيان رأيه في المسلمين والفقهاء وإنكاره عليهم جعلهم الخشوع والتدبر من المندوبات كأنكاره على المفسرين جعل أكثر ما في القرآن من صفات المؤمنين ومزايا الايمان خاصا بالايمان الكامل ، وقوله كأنهم افتوا المسلمين بانهم في اوسع الرخصة من ترك محاسبة أنفسهم على لوازم الايمان التي لا تفارقه ونمراته التي لا تتخلف عنه من الفضائل والاعمال . وقد عاشرنا كثيراً من العلماء الذين بوصفون بكمال العلم والتقوى ، فما كنا نسمع منهم في مجالسهم كلمة مثل كلماته في البر والتقوى وهداية القرآن ، وأخلاق الايمان ، وفوائد عباداته في سعادة الآخرة ، وسيادة الدنيا ، ككون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتنافي الجزع والهلع

تعظيم للنبي ﷺ وبيان لهملو قرره

وأما تعظيمه وتكريمه وتوقيره وتعزيره للنبي المجتبي صلوات الله وسلامه عليه وآله ، وعرفانه لقدره ، واجلاله لمنصبه ، فهو ما لم نسمع من أحد وما لم نقرأ ولم نرو عن أحد مثله من علماء عصرنا ولا متصوفتهم ، بل منه ما فاق به المتقدمين ، من العلماء المحدثين ، والحكماء العقليين ، ومن الصوفية العارفين : استقصى المحدثون ماروي من مناقبه ومعجزاته ﷺ فكان منها الصحيح والضعيف والموضوع ، ومنها ما هو منفرد عن الاسلام ، وشبهة على الايمان ، وجاء الصوفية من اطرائه ﷺ بما يعقل وما لا يعقل ، وما يقبل في الشرع وما لا يقبل ، وأما الفقهاء والمتكلمون فمنهم المنتقدون لذلك ومنهم المقلدون المتأولون

أقم ميزان القسط بين ذلك كله وما بين أستاذنا الامام من فضائله وهدايته ، وأسرار رسالته ، تلك الحقائق التي كان بها ﷺ خاتم النبيين ، والرحمة العامة للعالمين ، والمصلح للفساد الذي فشا في الخلق أجمعين ، من فلاسفة ومليين ، وبدو وحضريين ، وانظر أيهما اهدى الى الايمان ، وأقوم بما يدل عليه القرآن ، وما تفسره السنة النبوية والسيرة المحمدية ، ويؤيده التاريخ العام لجميع الامم والملل ، وتجد هذا مفصلاً في رسالة التوحيد تفصيلاً

كان تأثير سيرته (ص) في قلبه يلي تأثير القرآن العظيم ، دخلت عليه مرة

بدون استئذان ، وكان وحده في حجرة مقابلة الناس ، فاذا بيده كتاب ينظر فيه ، وإذا بدموعه تتحادر من مآقيه ، تشرق بها وجنته ، وتنطف بها لحيته ، فلما رأي وضع الكتاب ومسح وجهه بيديه . قلت ما هذا الكتاب ؟ قل : سيرة النبي ﷺ وقد عقد في مجالسه انخاسة درسا طويلا في عظمة النبي (ص) في نفسه القدسية الكاملة بين فيه استحالة تاثير السحر فيها لعلنا نلخصه في ذيل هذا التاريخ

وكان يعتقد ان الله تعالى خلق روح محمد ﷺ وأودع فيها كليات شريعته الكاملة كما أودع في نواة النخلة كل المواد والخواص التي تنبت نخلة مثاها ، اذا زرعت في الارض الصالحة لها . ثم كان الوحي الالهي له كالماء الذي يد النخلة ويفديها بعد أن تنبت إلى أن تكمل وتؤتي أكلها يانعا طيبا ، يعني ان الوحي كان تعليميا شارحا لمقائد وآداب وأحكام أعد الله لها نفسه الزكية فكانت فطرته تطلبها باستعدادها ، ودليل ذلك نفورها قبله من كل عقائد الوثنية وأعمالها .

وهذا المعنى بعيد أشد البعد عما رواه بعض الوضاعين المجازفين من ان جبريل عليه السلام كان يتلقى الوحي في السماء من وراء حجاب ثم ظهر له بعد ذلك ان الذي كان يلقيه اليه من وراء الحجاب هو محمد ﷺ فان هذه المجازفة مخالفة لنصوص القرآن القطعية في هذا الموضوع ، وتجد الجاهلين باصول هذا الدين وكتابه المنزل وسيرة النبي ﷺ وسنته الصحيحة يقبلون هذا وما اشبهه لان ركن الدين عندهم القلوع في الاطراء ، وهذا شان كل الملل في اطوار زوال العلم والمعرفة وترك العمل ، والاعتماد على الاقوال ، التي لا تمع فيها ولا جهاد ، لا يبقى لهم حظ من الدين الا الاطراء بالكلام ، والاتكال على اشخاص الانبياء والاولياء مع ترك الاتباع . ذكر في رسالة التوحيد خلاصة ماصح من خبر ولادته ﷺ ونشأته في قومه وما كان من استسلام جده عبد المطلب وهو سيد قريش وسيد العرب كلها لأبرهة الحبشي في مسألة مطالبته في رد ما استاق جيشه من إبله ، دون مطالبته بالرجوع عما كان بصدد من هدم بيت الله تعالى وقال « هذا غاية ما ينتهي اليه الاستسلام - وعبد المطلب في مكانه من الرياسة على قريش » ثم قال في إثبات رسالته ﷺ وموضوعها وعظمتها في تبليغها وتنفيذها ما نصه وفيه أبلغ اثبات لما قلناه :

وصفه للنبي ﷺ وما جاء به لاصلاح البشر

«فأين من تلك المكانة محمد ﷺ في حاله من الفقر، ومقامه في الوسط من طبقات أهله، حتى ينتجم ملكا، أو يطلب سلطانا؟ لا مال لا جاه، لا جند لا أعوان، لا سليقة في الشعر، لا براعة في الكتاب، لا شهرة في الخطاب، لا شيء كان عنده مما يكسب المكانة في نفوس العامة، أو يرقى به إلى مقام ما بين الخاصة،

«ما هذا الذي رفع نفسه فوق النفوس؟ ما الذي أعلى رأسه على الرؤوس؟ ما الذي سما بهتمته على الهمم، حتى انتدب لارشاد الأمم، وكفالتهم كشف الغم، بل وإحياء الرمم؟ ما كان ذلك إلا ما أتى الله في روعه من حاجة العالم إلى مقوم لما زاغ من عقائدهم، ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم، ما كان ذلك إلا وجدانه ربح العناية الإلهية تنصره في عمله، وتمده في الانتهاء إلى أمله، قبل بلوغ أجنه، ما هو إلا الوحي الإلهي يسمى نوره بين يديه، يضيء له السبيل، ويكفيه مؤنة الدليل، ما هو إلا الوعد السماوي قام لديه مقام القائد والجندي. أرأيت كيف نهض وحيداً فريداً يدعو الناس كافة إلى التوحيد، والاعتقاد بالعلي المجيد، والكل ما بين وثنية مفرقة، ودهرية وزندقة

«نادى في الوثنيين بترك أوثانهم ونبتد معبوداتهم—وفي المشبهين المنغمسين في الخلط بين اللاهوت الاقدس وبين الجسمانيات، بالتطهر من تشبيههم—وفي الثاوية بافراد إله واحد بالتصرف في الاكوان ورد كل شيء في الوجود اليه

«أهأب بالطيبعين لمدوا بصائرهم إلى ما وراء حجاب الطبيعة فيقتنروا سر الوجود الذي قامت به

«صاح بذوي الزعامة، ليهبطوا إلى مصاف العامة، في الاستكانة إلى سلطان معبود واحد، هو فاطر السماوات والارض، والقابض على أرواحهم في هياكل أجسادهم

«تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الاعلى، فبين لهم بالدليل، وكشف لهم بنور الوحي، ان نسبة أكبرهم إلى الله كنسبة أصغر المعتقدين

بهم^(١) وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لانفسهم من المكنات الربانية ، إلى أدنى سلم من العبودية ، والاشراك مع كل ذي نفس انسانية في الاستعانة برب واحد يستوي جميع الخلق في النسبة اليه ، لا يتفاوتون إلا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة

«وخز بوعظه عبيد العادات وأسراء التقليد، ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له، ويحلوا اغلالهم التي أخذت بأيديهم عن العمل ، واقتطعتهم دون الامل
«مال على قراء الكتب السماوية ، والقائمين على مأودعته من الشرائع الالهية ، فبكت الواقفين عند حروفها بغياوتهم ، وشدد النكير على المحرفين لها الصارفين لا افاظها إلى غير ما قصد من وحيها اتباعا لشهواتهم. ودعاهم إلى فهمها، والتحقق بسر علمها، حتى يكونوا على نور من ربهم

«وافت كل انسان الى مأودع فيه من المواهب الالهية. ودعا الناس أجمعين ذكورا وإناثا عامة وسادات الى عرفان أنفسهم، وأنهم من نوع خصه الله بالعقل، وميزه بالفكر ، وشرفه بهما وبحرية الارادة فيما يرشده اليه عقله وفكره ، وأن الله عرض عليهم جميع ما بين ايديهم من الاكوان ، وسلطهم على فهمها والانتفاع بها بدون شرط ولا قيد إلا الاعتدال ، والوقوف عند حدود الشريعة العادلة ، والفضيلة الكاملة، وأقدرهم بذلك على أن يصلوا إلى معرفة خالقهم بمقولهم وافكارهم، بدون واسطة أحد إلا من خصهم الله بوحيه . وقد وكل اليهم معرفتهم بالدليل، كما كان الشأن في معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع . والحاجة الى أوامرك المصطفين انما هي في معرفة الصفات التي أذن الله أن تعلم منه وليست في الاعتقاد بوجوده - وقرر أن لا سلطان لاحد من البشر على آخر منه إلا مارسمته الشريعة وفرضه العدل . ثم الانسان بعد ذلك يذهب بارادته الى ما سخرت له بمقتضى الفطرة .
«دعا الانسان الى معرفة أنه جسم وروح ، وأنه بذلك من عالمين متخالفين، وإن كانا متمزجين . وأنه مطالب بخدمتهما جميعاً وايفاء كل منهما ما قررت له الحكمة الالهية من الحق .

«دعا الناس كافة الى الاستعداد في هذه الحياة لماسيلاقون في الحياة الاخرى»
وبين لهم ان خير زاد يتزوده العامل هو الاخلاص لله في العبادة ، والاخلاص
للعباد ، في العدل والنصيحة والارشاد .

« قام بهذه الدعوة العظمى وحده ولا حول له ولا قوة . كل هذا كان منه
والناس احباء ما ألفوا وإن كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة ، أعداء ما جهلوا
وإن كان رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة . كل هذا والقوم حواليه
اعداء انفسهم ، وعبيد شهواتهم ، لا يفتقهون دعوته ، ولا يملكون رسالته . عقدت
أهداب بصائر العامة منهم باهواء الخاصة ، وحجبت عقول الخاصة بفرور العزة
عن النظر في دعوى فقير أمي مثله ، لا يرون فيه ما يرفعه الى نصيحتهم والتطاول
الى مقاماتهم الرفيعة بالالوم والتعنيف

« لكنه في فقره وضعفه ، كان يقارعهم بالحجة ، ويناضلهم بالدليل ، وبأخذهم
بالنصيحة ، ويرعجهم بالزجر ، وينبهم للعبر ، ويحوظهم مع ذلك بالموعظة الحسنة ،
كأنما هو سلطان قاهر في حكمه ، عادل في أمره ونهيه . أو أب حكيم في تربية
أبنائه ، شديد الحرص على مصالحهم ، رؤوف بهم في شدته ، رحيم في سلطته
« ماهذه القوة في ذلك الضعف ؟ ماهذا السلطان في مظنة العجز ؟ ماهذا
العلم في تلك الامية ؟ ماهذا الرشاد في غمرات الجاهلية ؟ إن هو إلا خطاب الله
القادر على كل شيء ، الذي وسع كل شيء رحمة وعلما . ذلك أمر الله الصادع يقرع
الأذان ، ويشق الحجب ، ويمزق العاف ، وينفذ الى القلوب ، على لسان من اختاره
لينطق به ، واختصه بذلك وهو أضعف قومه ، ليقم من هذا الاختصاص برهانا
عليه بعيداً عن الظنة ، بريئاً من التهمة ، لا تيانه على غير المعتاد بين خلقه .

« أي برهان على النبوة أعظم من هذا ؟ أي قام يدعو الكتابين إلى فهم
ما يكتبون وما يقرءون ، بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ليمحصوا ما كانوا
يعلمون ، في ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء ، ناشئ بين الواهمين
هب لتقويم عوج الحكماء ، غريب في أقرب الشعوب الى سذاجة الطبيعة
وأبدها عن فهم نظام الخليقة ، والنظر في سننه البديعة ، أخذ يقرر للعالم أجمع

أصول الشريعة ، وبخط للسعادة طرقاً لن يملك سالكها، ولن يخلص تاركها
 «ما هذا الخطاب المفحم؟ ماذا لك الدليل الممج؟ أقول ما هذا بشرّاً إن هذا
 إلا ملك كريم؟ لا لا أقول ذلك . ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه ،
 أن هو إلا بشر مثلكم يوحى إليه . نبي صدق الأنبياء ، ولكنه لم يأت في الاقتناع
 برسالته بما يلهي الأبصار، أو يحير الحواس ، أو يدهش المشاعر . ولكن طالب كل
 قوة بالعمل فيما أعدت له . واختص العقل بالخطاب، وحام إليه الخطأ والصواب ،
 وجعل في قوة الكلام وسلمان البلاغة وصحة الدليل مبالغ الحجة، وآية الحق لذي
 لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » اهـ

[المؤلف] أنحدى علماء الاسلام كأنهم باتياناً عن غيره بمثل هذا البيان لرسالة
 خاتم النبيين، والرحمة العامة للعالمين، في حقائق جمعت كل ما يحتاج إليه البشر لصلاحهم،
 على اختلاف درجاتهم في العلم والفلسفة والحضارة والشرائع، لا يستطيع أن يردّها
 عاقل، ولا يمارى منها مجادل، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم .

عبادته وتهجده

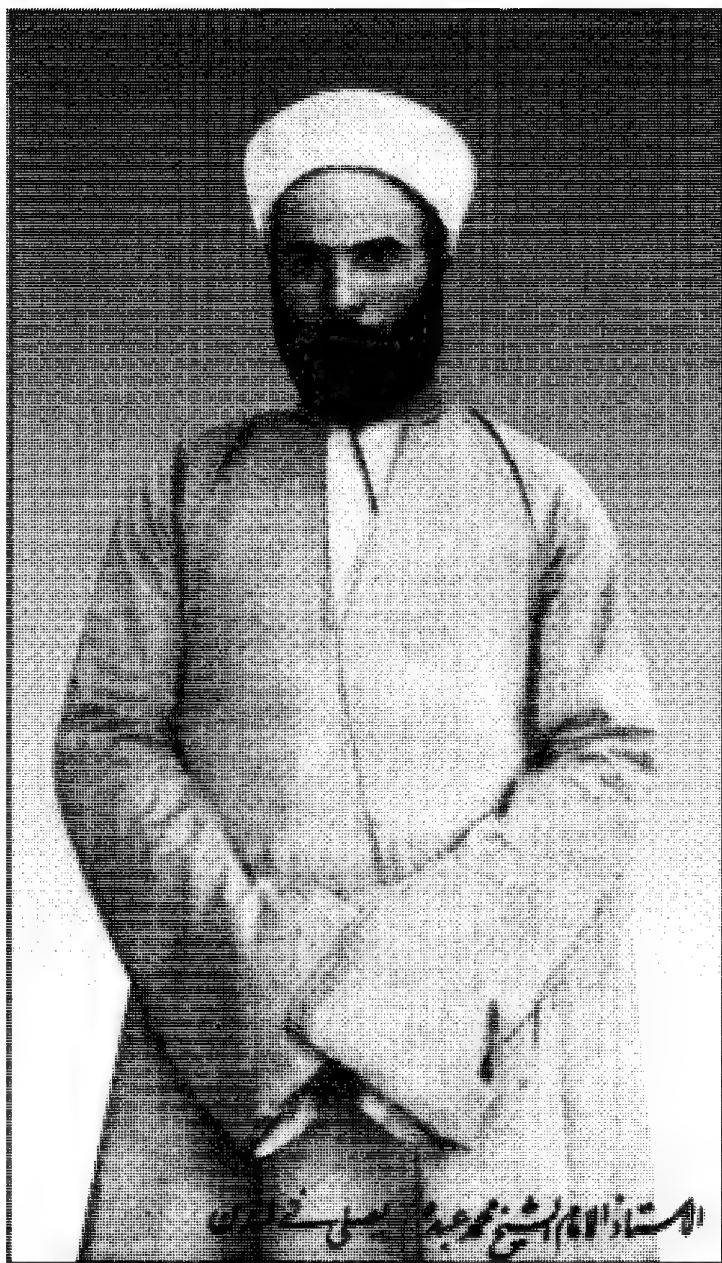
قد علم مما سبق من سيرته الشريفة، أن أكثر أعماله عبادة، فإن ساعات نهاره
 كانت مقسومة على الأعمال المتعدية النفع التي هي أفضل من نوافل العبادات، إلا في
 شهر رمضان فقد كان يقول أن هذا شهر لا يتسع لغير العبادة . المحضة، كالدكر والصلاة
 والتلاوة ، وحدثنا الشيخ عبد الرشيد عن السيد جمال الدين أنه ما كان يصلي النوافل
 إلا في ليالي رمضان . ولكن استاذنا كان مواظباً على التهجد في كل ليلة لا يتركه
 في سفر ولا حضر

أنا لم يتح لي أن أبيت بقر به إلا مرة واحدة كناضياً وفاقلي المرحوم إبراهيم باشا
 خليل في بلدة فقوس فكنا مها بطل سهرنا في الليل أجد الاستاذ يقوم من آخر
 الليل يصلي ويتفقدني عند طلوع الفجر لأجل صلاة الجماعة وكنا نبيت في حجرتين
 متلاصقتين ، وكان من عادته أن يقدمني للإمامة في كل مكان نصلي فيه جماعة
 وقد أراد أن يفعل ذلك مع محمد حافظ إبراهيم إذ صحبه في سفره إلى الدقهلية

في اثناء حادثة حريق ميت غمر . حدثنا حافظ قال كان عندي شكوك او شبهات في كثير من امور الدين فاسمعت لي الفرض في صحبتي للاستاذ الامام فكنت اسأله عنها فيكشفها بما يقمنى وينشرح له صدري ، وكان يبيت بالقرب من مبيتي حيث نكون ضيوفا فينفض علي نومي بصلاته في آخر الليل . ثم يطرق باب حجرتي عند الصباح لاجل صلاة الفجر ويناديني بقول الشاعر * يراقد الليل الى كم تنام * قال حافظ فقلت له يا مولاي انني لا استطيع ان احمل الاسلام كله في سفرة واحدة ، حملت هذه المرة عقائده ، وسأحمل في الثانية ماشئت من صلاة وصيام : وقد اشار حافظ في مرثية التائبين الى تهجده بقوله :

وكم لك في اغفاء الفجر يقظة نفضت عليها لذة الهجمات
ووليت شطر البيت وجهك خاليا تناجي ايله البيت في الخلوات

وحدثني الاستاذ مصطفى بك الدمياطي عن بسوي بك الخطيب وكيل وقف المنشاوي باشا ، قال له كان الاستاذ الشيخ محمد عبده يكون ضيفا عندنا في سراي المنشاوي بالقرشية ومن عادي أن أنزل في أواخر الليل للتفتيش ، فكنت أسمعه في حجرة نومه يصلي وحدثني الاستاذ السيد محمد الببلاوي نقيب السادة الاشراف لهذا العهد قال كنت مرة في دار صديقنا احمد باشا تيمور بداره المجاورة لنا بالحلمية فذكرنا الاستاذ الامام وكان في المجلس رجل يكرهه فطمع فيه وهو لا يعرفه ، فقلنا ما تنقم منه ؟ قال انه لا يصلي ، قال السيد فقلت له نحن نشهد انه يصلي وقد صليت انامعه ، ويدنا نحن نتكلم معه دخل علينا فلان - وذكر خادما كان يتردد أحيانا على أحمد (باشا) تيمور بخدمة عنده مدة ويغيب مدة - فسأله اين كنت ؟ قال كنت عند علي باشا رفاعة قال ولم تركته ؟ قال فررت من ضيف ثقيل اسمه الشيخ محمد عبده ، قال وماذا رأيت من ثقله ؟ قال انا خادما السلامك فكانوا يسهرون سهرا طويلا ثم ينامون فلا يمضي على نومهم الا مدة قليلة حتي يقوم هذا الشيخ ويطلب الضوء ثم يصلي الى ان يطلع الفجر فيصلبها ، فيؤرقني فلا يدع لي من الليل مدة استريح فيها . فلما سمع الرجل الطاعن حديثه قال من اين جئتم بهذا الرجل ؟ فقال له صاحب الدار اننا منذ شهور كثيرة لم نره حتى فاجأنا الآن ، فاستغفر الرجل ربه وأتاب ،



استاذ الامام الشيخ محمد باقر مجلسي

وكان مثله كثير من الناس يسمعون من بعض الحاسدين او الدجالين المتعجرين بالدين ، أقوال الطعن بمطلي دجلهم من الحكماء الراسخين ، والائمة المصلحين ، كاشر بتلي بمصر ، والنهباني في سورية ، فيأخذونها قضية مسلمة ، وبذيعونها بغيرتهم الجهلية الخاطئة ، فمن كان منهم حسن النية ، سخر الله له من يظهر له الحقيقة ، فيتوب الى الله تعالى ويكون حسن الخاتمة . وقد كتب اليه العلامة الشيخ سليم البخاري لما اطلع على رسالة التوحيد مامضومه : إنك كنت أبغض الناس لسوء ظن في دينك فأصبحت أحبهم إلي لما علمته من دينك و فأجابه إنني أشكر لك بفضك وحبك كليهما لانهما عن حسن نية .

بل بلونا الكذب على أمثل هؤلاء الغيورين ، وقد اتهم بعضهم الاستاذ بترك صلاة في أيام طلب العلم ذ كان ناسكا يتوب الى الله تعالى اذا حدث انسانا بشيء من مر الدنيا ، أنهم بذلك لدى الشيخ المهدي العباسي شيخ الازهر ليحرمه من شهادة مالية ، فسأل عنه رفوقه في طلب العلم فشهدوا له بأنه أشدهم محافظة على الصلوات قال له الشيخ محمد بن حنيت منهم اننا دائما نقدمه فيؤمننا في صلاة الجماعة لتقواه صلاحه ، سمعت هذا من لسان الاستاذ الشيخ محمد بن حنيت الشهير منذ بضع سنين وقد عثرنا على صورة شمسية للاستاذ الامام أخذت عنه وهو يصلي على ضفاف ر التيمس في لندره من حيث لا يدري وقد أهدي الي نسخة منها بعض أصدقائنا ، بيروت ثم أرسل الي صديقنا الامير شكيب نسخة أخرى . وهاهي ذي مثبتة هنا وأصرح مع هذا بأنه كان كثيراً ما يجمع بين صلاتي الظهر والمصر والمغرب امشاء حتى في الحضر اذا لم يتيسر له صلاة الاولى بالخشوع والحضور الذي تقد وجوبه . وحديث ابن عباس في صحيح مسلم وسنن الشافعي وغيرها صريح في ل النبي ﷺ لذلك وكونه رخصة كما عله ابن عباس (رض) بقوله : لا يخرج عنه ، فهذا كان يعده شبهة من لم يعرف ذلك ولا سيما اذا كان سبي الظن أو الفصد وجملة القول ان كل من عرفه معاشرة من أهل دينه وغيرهم من وطني جنبي شهدوا له بكمال التقوى والورع والعفة والاستقامة حتى وصفه بعض فرنج بالقداسة أيضا .

المقصد الثالث

من الفصل الثامن

مرضه ووفاته

كتبت في اثناء اشتداد المرض عليه في الجزء التاسع من مجلد المنار الثامن الذي صدر في غرة جمادى الاولى سنة ١٣٢٣ (ص ٣٥٥) ما نصه :

مرض الاستاذ الامام

لقد مرض استاذنا منذ أشهر مرضاً كنا نظن انه من الامراض الهينة التي كانت تفتاده ، ولكن طال الزمان ورأينا كل من عرض عليه من الاطباء ينهاء عن الاعمال العقلية واجهاد الفكر ويأمره بالحمية والراحة التامة وهو لا يزداد إلا اجهاداً لنفسه وجهاداً لامته ، وكان موضع المرض المعدة والامعاء فانقل إلى الكبد فاختلاف الاطباء حينئذ بين قائل ان المعدة هي الاصل والكبد تأثرت منها ، وقائل ان الكبد بتمددتها تضغط على المعدة فتضعفها من وظيفتها ، وأجمعوا على اختلافهم في أي العضوين هو الاصل على وجوب ترك العمل بقائاً والتعجيل بالسفر إلى أوربا ، وكل منهم أشار بترجيح بلاد واختيار أطباؤها ، فرضي الاستاذ بالسفر ولكن لم يرض القدر إذ كانت السفن الدورية التي تنقل الناس إلى أوربا لا تقبل زيادة على من سبق إلى أخذ جوازاتها من السائحين والمصطافين إلى ١٤ من الشهر الافرنجي الماضي (يونيو) فأخذ جوازاً وصبر عن السفر ولكنه لم يصبر عن العمل كدأبه وعادته ، فكان يبيت على فراش الآلام ويدو إلى محل عمله فينتظر في الفتاوى وفي أعمال مجلس الشورى ومجلس الاوقاف الاعلى وأعمال الجمعية الخيرية الاسلامية وأوقاف الحنفية وبشتغل مع اللجنة التي برأسها لوضع نظام لمدرسة القضاء الشرعي وبحضر امتحان مدرسة دار العلوم وينظر في حاجات العقاة وطلاب المساعدة والشفاعة عند الحكام فيقضي حاجاتهم ، حتى ثقلت عليه وطأة المرض وعجز عن

الخروج ، واشتدت عليه الآلام حتى كان - والذي خلقه حجة على هذه الامة التي زرئت بالكسل والخمول - يشتغل على فراشه عند سكون نوبة الالم؛ ولم يكن شيء من ذلك الشغل لنفسه ولا لاهله وولده ولكنه للناس ، وهل كان الناس يشفقون عليه ادخاراً له أو تأديباً معه ، أو عملاً بالذوق الذي يفخر به أهل هذا البلد ؟ كلا انهم كانوا يكلفونه النهوض بأثقالهم وقوفاً على سريره وهو مضطجع أو مستلق عليه ، وكان يعمل ما قدر ، ويعتذر عما يعجز طالبا الانظار والامهال إلى أن تحسن الحال

جرى على هذه الحال يعمل للناس والمرضى يعمل فيه عمله ، وينهك قواه وينحل جسده ، حتى اذا مادنا موعد سفره رآه بعض الاطباء فقال ان المرض ينذر بالخطر ، ولا يجوز له الاقدام على السفر ، فجيء بطبيب آخر فقال قوله الاول ، فكتم هذا القول من عرفه من الاصدقاء وذوي القربى وساروا به في اليوم التالي إلى الاسكندرية (١٠ ربيع الآخر) ورآه من ليلته بعض أطبائها فقالوا مثل ما قال الاولان ، وهو لم يعلم بهذا القول ، بل قيل له ان الاطباء قالوا إن جسمك لا يقوى على مشقة سفر البحر فيجب أن تريض في الاسكندرية لعلك بتغيير الهواء تجد قوة تمكنك من السفر وعند ذلك هيا له الصديق الوفي محمد بك راسم دار أخيه في رمل الاسكندرية ونقله اليها

كانت الجرائد اليومية اذاعت خبر سفر الاستاذ إلى أوربة ثم ذكرت انه أرجأ السفر بأمر الاطباء ، فعلم القاصي والداني من أهل هذا القطر بمرضه ، وظهر من آيات مكانته في نفوس الناس ما لم يكن يعلم كله ، فكان شغلا شاعلا للعقلاء والفضلاء ، من جميع الاصناف والطبقات ، كان أمراء البيت الخديوي ومن حضر من نظار الحكومة لاسيا رئيسهم « القائم مقام الخديوي » وغيرهم من كبراء الامة يترددون على الدار التي يقيم فيها المرة بعد المرة ، وكان بعض الامراء يرسلون اليه أطباءهم ، وكانت الرسائل ترد كل يوم في البرق والبريد من جميع أنحاء القطرين — مصر والسودان — تسأل عن صحته وكلما وجد يوماً راحة تبشر الجرائد به .

الامة فيصبح الناس مطمئنين ، فاذا سكنت الجرائد يوما عن البشارة لجوا في السؤال مستخبرين

أما نحن - معشر أهليه وأقرب أصدقائه ومريديه - فاننا نتراوح بين اليأس والرجاء ، اذا رأينا في راحة من الألم يرجح أملنا حتى اذا ماتنا لم عظم خوفنا ووجلنا ، فثلنا في ذلك مثل مقياس الحرارة كل يوم في صعود وهبوط بحسب ما نرى من حاله . ولا غرو فهو كالمواهب الحياتية المعنوية وكاشدس لامتنا المسكينة ، ونسال الله تعالى دفع البلاء والطف في القضاء ، وتمجيل الشفاء ، انه سميع الدعاء . اهـ

وعد اسبوع من صدور هذا الجزء من المنار توفاه الله تعالى اليه في الساعة الخامسة بعد الزوال من ثامن هذا الشهر (جمادى الاولى) الموافق ١١ يوليو (تموز) سنة ١٩٠٥ فياله من رزء وجلت له القلوب ، وذرفت العيون ، وقاضت الشؤون ، واعتصم المؤمنون بآية (ان الله وان اليه راجعون)

وقد أبنته في جزء المنار العاشر (م ٨) الذي صدر في ١٦ جمادى الاولى بمأنصه :

مصاب الاسلام ، بموت الاستاذ الامام

مات الاستاذ الامام ولو كان كبر النفوس ، وطهارة الارواح وعلو الهمم ، مما يحول دون الموت لما مات أبداً ، ولكن كل حي يموت إلا الحي القيوم (إنا لله وإنا اليه راجعون) مات الاستاذ الامام فمات ذلك العلم الواسع ، والحكمة البالغة ، والحجة الناطقة ، والمعارف الكونية والالهية ، والعلوم الكسبية والدنية ، مع البيان الساحر ، والادب الباهر ، والبلاغة التي تمتلك العقول والقلوب ، والفصاحة التي تستهوي الاسماع والنفوس مات الاستاذ الامام فماتت تلك الاخلاق القدسية ، والشجائل المحمدية ، والصدق في القول والفعل ، والاخلاص في السر والجهر ، والوفاء في القرب والبعد ، والسخاء في العسر واليسر ، والعفة في الشباب والكهولة ، والحلم عند الغيظ والمقاضة ، والعفو مع القدرة على المؤاخذة ، والتواضع وخفض الجناح للمخلصين ، والشهامة ، والترفع على المناققين والمستكبرين ، واللين للحق وأهله ، والشدة على الباطل وجنده ،

والشجاعة التي تها بها الامراء والعظماء، والقناعة التي رفعت رأسه فوق الرؤساء
 مات الاستاذ الامام فماتت تلك الاعمال النافعة، والمشروعات الراقعة،
 والمسااعي الجديدة، والوسائل المفيدة، والاجتهاد في ترقية الامة، والدفاع عن
 الملة، والدعوة إلى التوحيد والتأليف، والاشتغال بأفضل التعليم والتأديب،
 والتربية الصحيحة للمريدين والجمع بين علوم الدنيا والدين، ومواساة البائسين
 والمعوزين، وكفالة أولاد الفقراء والمساكين

مات الاستاذ الامام فماتت تلك الآمل البعيدة، والمقاصد الحميدة، التي كانت
 مطوية في ذلك الجرم الصغير، الذي انطوى فيه العالم الكبير، تلك الآمل
 التي تنضامل دونها هم الملوك والامراء، وتتصاغر أمامها نفوس الزعماء والاغنياء،
 الذين هم عن استعمال مواهبهم مصروفون، وعن الثقة بربهم محجوبون،
 وعن سنده في خلقه غافلون

مات الاستاذ الامام فراع موته الناس، من جميع الطوائف والاجناس، فعلم
 علماء الدين، انهم فقدوا ركنهم الركين، الذي تحمل عنهم رد الشبهات وغير ذلك من
 فروض الكفايات، وعلماء الدنيا انهم خسروا ركنهم الاقوى الذي يدفع عنهم
 مطاعن المتعصبين، وتكفير الجامدين، ويثبت أن الاسلام جمع بين المصلحتين،
 ولا يتم ذلك الا بالجمع بين العلمين. وشعر طلاب الاصلاح بانهم فقدوا
 إمامهم العظيم، الذي كملت فيه صفات الزعيم. وأحس الفقراء والمساكين
 بأنهم رزقوا بكافل اليتامى وغوث العاجزين. ولم يجهل القائمون بالشؤون العامة،
 شدة وقع هذه الطامة، وانهم نكبوا بصاحب الرأي الثاقب والعمل النافع،
 صربي الرأي العام في الشورى والجمعية العمومية، صاحب اليد البيضاء في الاوقاف
 الاسلامية، المضطلع باصلاح الازهر والمحاكم الشرعية، الناهض بأعباء الجمعية
 الخيرية، الموفق بين الحكومة والرعية. واعترف اهل الملل بان مصابه مصاب
 الانسانية، والخسارة الكبرى على العلم والمدينة

مرض هذا البر الرحيم فكان على فراش الموت يسأل عن بعض الضعفاء،
 ويبحث عن مساكن القواعد من النساء، ليواسيهم بالبر، من وراء الستر، وقال لي

ان فلانا الغريب قد انقطع عن السفر بدين عليه وانني مستغن الآن عن مئة جنيه فان كانت كافية ارسلتها اليه، ولكنه غاب عن الوجود قبل أن يقضي لباته من البر والجلود، مرض هذا المصلح العظيم اضطربت الامة المصرية لمرضه فكانت الدار التي يمرض فيها كعبة العائدين، من العلماء والامراء والوزراء، والادباء والفضلاء، والفقراء والاغنياء . وكان البرق يناجها كل يوم مع البريد، بالنيابة عن العاجز والبعيد، سائلين عن صحته او مهنئين بما يقال عن راحته، فكان يحمد الله ان جعل الدهماء من امته يعرفون لخادمها خدمته، ويشكرون للعامل لها عمله، ويقولون لئن شفيت لأجهدن النفس في خدمتهم اجمعين، حتى اكون حرضا أو اكون من الهالكين

مرض الاستاذ الامام فلم يمهله المرض عن خدمة المسلمين والاسلام، واحتضر الاستاذ الامام، وهو يفكر في مصلحة المسلمين والاسلام، ومات الاستاذ الامام وهو يلتهب غيرة على المسلمين والاسلام

تقول مات الاستاذ الامام فنبدي القول ونعيده، ننصر الحس، ونكابر النفس، فقد كادت نحسب ان موته رؤى بامنام واضعاث احلام، وما هو الا الحق اليقين، ومصير الاولين والآخرين (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد اذ ان مت فهم الخالدون * كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون) مات استاذنا وإمامنا ولك اللهم البقاء، فلا تفتنا بعده ولا تحرمنا أجره، واغفر اللهم لنا وله

نعم إنه قد مات ولكن لم تمت علومه ومعارفه، وما أثره وعوارفه، فلقد ربى أرواحا، وأصلح إصلاحا، وأنف كتباً، وترك علماء وأدباء، وأمات سنننا سيئة له أجر إمامتها، وأحيا سنننا حسنة له أجرها وأجر من يعمل بها . وعلمنا كيف نفهم القرآن، ونقيم شرائع الاسلام، مع توخي نفع الناس أجمعين . والاخلاص لله رب العالمين .

مات استاذنا وإمامنا فكبر علينا موته ولكنه ربانا على الصبر، وعلمنا كيف نتعزى عنه حتى في مرض موته . فقد كان هجيرا في تلك الكربات والسكرات كلمة الله التي أمرنا بتكرارها في الصلوات : (الله أكبر) فلئن كان بفضل

كبيراً فينا والله أكبر . واثنى كان مرضه وموته كبيراً علينا والله أكبر . ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم . ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم . لبي دعوة ربه برمل الاسكندرية في الساعة الخامسة بعد الزوال من يوم الثلاثاء ثامن جمادى الاولى ، فعماه العرق بآلاته الناطقة والكاتبة الى العاصمة وغيرها من مدن القطر فاضطربت لنعيه القلوب ، وذرفت العيون ، واسترجعت الألسنة وحوقلت ، وطفق الناس يعزي بعضهم بعضاً متفقين على ان الصاب به عام ، وأشد وقعه على المسلمين والاسلام ، وما كنت تسمع من البعيد والقريب ، والبغض والحبيب ، والوطني والاجنبي ، والرشد والغوي ، والعالم والجاهل ، والفضل والفاصل ، الا كلمة « خسارة لاتعوض » أو كلمة « عوض الله الأمة به خيراً » أو قول الشاعر

وما كان قيس رزؤه رزء واحد ولكنه بنيان قوم تهتما

أو قول الآخر: ولكن الرزية فقد حرم يموت لموته خاق كثير
وقد اجتمع مجلس النظار فقرر ان تحتفل الحكومة رسمياً بتشجيع جنازته في الاسكندرية ، ومصر وان تنقل جثته على قطار خاص الى العاصمة ففعلت ، وشاركتها الامة ونزلاؤها والمحتلون بهذا التشجيع الذي لم يسبق مثله لغيره ، حتى كان بخيل للمشيح انه لم يبق احداً من سكان الاسكندرية ولا من سكان القاهرة الا وقد حضر ليودع هذا الامام الوداع الاخير ، وقد صلى عليه في الجمع الازهر ودفن في قراقة المجاورين تمهده الله برحمته ورضوانه . وأسكنه فسيح جناته اهـ

هذا ما أبنته به في المنار عقب الوفاة وجعلته مقدمة لترجمته ، وتركت وصف تأثير مرضه ووفاته في القطر المصري والاحتفال بجنازته بالتفصيل للجرائد المصرية ، وكذا وصف هذا التأثير في العالم الاسلامي وسائر الشرق وبعض تأثيره في الغرب لجرائد الاقطار الاخرى ، وما نظمته الشعراء من الرثاء ، وما كتب من التعازي الرسمية وتعازي العظماء . وقد جمعت اهم ما وصل الي من ذلك في سفر مستقل جعلته الجزء الثالث من هذا التاريخ بلغت صفحاته ٤٢٨ فن أراد أن يعرف اكبار الفضلاء من الامم المختلفة الاجناس والممال له بما امله لم يتفق لغيره فلينظره

المقصد الرابع

من الفصل الثامن

في تأييده ورثائه

نطلق لفظ التأيين على تعداد محاسن الميت وتأثير موته والحزن عليه بالنثر ،
والرثاء على هذه المعاني بنظم الشعر ، ويدخل في الاول ما مزج فيه النثر بأبيات من
الشعر ، وقد أثنى الاستاذ الامام كثير من العلماء والادباء من الازهرين وغيرهم
بما ألقوه في الجمعيات التي عقدت لذلك وبما نشروه في الصحف ، وقد جمعنا كثيراً
منه مع تأييين الصحف المصرية وغيرها ، وما وصل اليينا من المراثي والتعازي
في الجزء الثالث كما تقدم

مقالة يوم الاربعين

وكان المستعدون لتأيينه ورثائه على قبره عند دفنه كثيرين ولا سيما الازهرين
فرأى صديقه حسن باشا عاصم كثرة ازدحام الناس وما هم فيه من الحزن والمكرب
مع شدة الحر والتعب من طول المسافة التي مشوها من محطة مصر الى القرافة
- وهي عدة اميال - فقام في الناس فقال: ان اصدقاء الفقيد ومريديه استحسنا
ان يؤخر التأيين الى اليوم الاربعين لوفاته، فانصرفوا ايها الناس مأجورين
وقبل مجي ذلك اليوم فكر اخوانه في الامر فقرروا ان يعين المؤبنون والراثون
باسمائهم وينشر ذلك في الجرائد لعلهم ان عدد الذين يتصدون لذلك من العلماء
والشعراء سيكون كثيراً ، ولا يمكن تقديم بعضهم ومنع بعض في اثناء الاجتماع
والوقت لا يتسع للجميع ، واتفقوا على ان يكونوا ستة وأعلنوا اسماءهم وموضوع
تأيين كل منهم وهم :

- (١) حسن باشا عاصم يذكر ملخص تاريخ حياته ولاسيما عمله في الجمعية الخيرية الاسلامية التي كان شريكه في خدمتها ، وكذا جمعية احياء الكتب العربية
- (٢) الاستاذ الشيخ احمد ابوخطوة من كبار المدرسين في الازهر والعضو في المحكمة الشرعية الكبرى . يتوسع في مسألتي اصلاحه للازهر وللمحاكم
- (٣) حسن باشا عبد الرازق احد اعضاء مجلس شورى القوانين يكون من اخص ما يذكره خدمته للامة وللحكومة في المجلس
- (٤) قاسم بك امين المستشار في محكمة الاستئناف ، والعالم البارع في علوم الاخلاق والاجتماع ، يكون اخص ما يبينه سمو أخلاقه وفضائله وإصلاحه في الامة
- (٥) حفي بك ناصف القاضي في محكمة مصر الاهلية وأحد كبار الادباء من تلاميذه الذين تخرجوا به في الازهر ثم في دارالعلوم يرثيه بقصيدة
- (٦) محمد حافظ افندي ابراهيم شاعر مصر الاجتماعي ومن مرادي الامام في الادب يرثيه بقصيدة ايضا - وكذلك كان ، ونشرت كل ما قيل في الحفلة في الجزء الثالث من هذا التاريخ (ص ٢٣٦ - ٢٧٤)

وقد سبق لي اقتباس من تأبين الثلاثة المؤننين له في مقاصد عمله في الجمعية الخيرية الاسلامية وجمعية احياء الكتب العربية وعمله في اصلاح المحاكم الشرعية والادب وعمله في مجلس شورى القوانين ، وكنت عازما على اقتباس جمل أخرى مما قاله غيرهم فحال طول الكتاب دون ذلك فانا أحيل القراء على قراءة ذلك كله في الجزء الثالث الخاص بالتأبين والثناء

حفلة الجامعة المصرية

ومنذ بضع سنين أقيمت له حفلة تأبين أخرى في مدرسة (الجامعة المصرية) قام بالدعوة اليها وتنظيمها لجنة مؤلفة من ١٥ رجلا من طبقات الامة العلمية الراقية ثاشم من نابغي علماء الازهر ، وقد وضعت اللجنة رسالة في عملها وما ألتى فيها وما ورد عليها من الخطب والقصائد ، وما كتبتة في شأنها الجرائد ، وطبعناه على نفقتها ووزعناه مجانا ، وقد بينت في مقدمة الطبع الباعث على هذا التأبين وهو سيمور الامة بالحاجة الى احياء ذكره ، وتجديد البحث في تعليمه وهديه ، حتى

كان السابق الى اقترح ذلك في الصحف اليومية ، طالب من طلبة المدارس الثانوية،
لم يدرك عهد الامام ، ولكنه أدرك قيمة ما تركه لها من الصوت والاعلام « (١)
وانني أذكر هنا ما نشرته اللجنة في الجرائد عن عملها وهذا نصه :

اهياء ذكرى الاستاذ الامام

فكر جماعة من تلاميذ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في الاحتفال باحياء
ذكره ، وتألفت لجنة منهم برئاسة زميله حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ
محمد نجيت ، وقررت أن تكون الحفلة بدار الجامعة المصرية الساعة الخامسة من
مساء يوم الثلاثاء ١٦ ذي القعدة سنة ١٣٤٠ الموافق ١١ يوليو سنة ١٩٢٢ (وهو
يوم وفاته بالحساب الشمسي)

ووضعت اللجنة نظام الحفلة وعينت خطباءها مراعية ما يتسع له الوقت وما
يناسب الغرض من الاحتفال بامام مصلح
وستطبع اللجنة مايتبقى في الحفلة في كراسة خاصة مع مايرد اليها من الخطب
والقصائد المختارة . وهذه أسماء حضرات اعضاء اللجنة :

الشيخ محمد نجيت - رئيس . السيد عبد الحميد البكري . السيد محمد رشيد
رضا . الشيخ محمد مصطفى الراعي . الشيخ محمد هلالى اليباري . الشيخ عبد الحميد
سليم . الشيخ مصطفى عبد الرازق . الشيخ علي مرور الزنكلوني . احمد زكي
باشا . حسن عبد الرازق باشا . السيد عبد الرحيم باشا الدمرداش . احمد بك
اطفي السيد . حنا بك باخوم . الدكتور طه حسين . الدكتور منصور فهمي (السكرتير)
ولما جاء اليوم الموعود كانت اللجنة قد أتمت الاستعداد للاحتفال في رحبة
دار الجامعة المصرية بعد إذن مجلس إدارة الجامعة لها بذلك ، ففرشت أرضها بالرمال
الاصفر ، ونصبت في صدر المكان منبر الخطابة وفرشت أرضه بالطنافس العجمية
النفيسة ووضعت عليها الارائك والمقاعد الوثيرة ، وصفت من ورائه كرامى الخيزران
بعدد ماوزعت من رقاع الدعوة على العلماء وخواص الامة من جميع الطبقات

(١) هو محمود افندي كامل مجل الاستاذ محمد علي كامل المحامي المشهور

وما جاءت الساعة المعينة للبده في الاحتفال الا وكانت المقاعد كلها قد شغلت
 بالمدعوين وفي مقدمتهم حضرة صاحب المعالي محمد شكري باشا وزير الزراعة جاء من
 الاسكندرية لاجل حضور الحفلة بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن هيئة الوزارة
 وزاد أناس تجددوا فأذن لهم فاضطر كثير منهم إلى الوقوف وراء الصفوف
 فكان المجموع زهاء ألف وثلاثمائة نسمة. وقد بدى الاحتفال بقراءة بعض الحفظه
 آيات من القرآن الحكيم. وبعد فراغه ابتدر المنبر الاستاذ الشيخ محمد بنحيت
 رئيس لجنة الاحتفال وتلا خطبته الافتتاحية وتلاه سائر الخطباء على الترتيب المتقدم
 (المؤلف) المراد بالمتقدم ما ذكر في فاتحة الرسالة المطبوعة وخلاصته أن يليه
 الاستاذ أحمد لطفي بك السيد بكلمة يقولها باسم الجامعة فالشيخ مصطفى عبدالرازق
 بخطبة في خلاصة ترجمة الاستاذ الامام فالذكتور منصور فهمي بكلمة يعبر بها
 عن رأي النابتة العصرية في الامام ، وماله في قلوب أحرار الفكر من المقام ، وأن
 ينشد بعده محمد حافظ بك ابراهيم قصيدته ، ثم يختم الحفلة صاحب المنار ، بما
 يتسمع له الوقت من الكلام. وقد ابقى بقية من الوقت للاستاذ الشيخ علي الزنكلوني
 قد كان ما أتى في هذه اللجنة على غرار ما أتى في اللجنة الاولى في التنويه
 بامامة الرجل وعقربته وإصلاحه ، قرر ذلك فضيلة رئيسها بالاجمال وشرحه
 الآخرون بالتفصيل ولا حاجة إلى نشر خلاصته فانه مطبوع يناله كل من أراد بهرته
 واكنفي ساخذ كلمة من خطاب الاستاذ احمد لطفي بك السيد في
 الشهادات الآتية :

ذلك انني ذكرت في الجزء الثالث من هذا التاريخ الذي نشرت فيه ما قيل
 في التأبين الاول وفي الرسالة الخاصة بالتأني أقوالا لبعض رجال العصر المشهورين
 من الامم والملل المختلفة والبلاد المتفرقة في علو قدر الاستاذ الامام بالعالم والعمل
 والاصلاح ، والشهادة له بالامامة وتجديد العصر بما لم يشهد بمثله لاحد من الناس
 فانا أختم هذا المقصد باعادتها مع زيادة عليها من الجزء الثالث وأبدأ بالاجانب
 وأختم بالمصريين أيهم أقرب إلى الامام وداً ، وأوفى له عهداً

شهادات رجال العصر له

(ما قاله بعض كبراء الانكليز)

(١) شهادة لورد كرومر الانكليزي السياسي

شهد لورد كرومر في تقريره عن مصر والسودان سنة ١٩٠٥ بان الحزب الاسلامي الذي كان زعيمه الشيخ محمد عبده هو الحزب الوسط بين الحزب المحافظ على التقاليد العتيقة الذي يحارب المدنية وينبذها وبين حزب المتفريجين المارقين من الدين وانه هو الحزب الذي يرجى أن تنهض به البلاد لانه جامع بين الترقى المدني والمحافظة على الدين .

ونقل عنه أنه قال ان هذا الرجل لا ذنب له إلا انه أنور أهل بلاده وقد سئل اللورد عن الشيخ هل كان متساهلاً في الاسلام ؟ فقال : بل هو متعصب له أو فيه ولكن بالعقل

وقال له أحد وجهاء المصريين ان كل أعمال جنابكم محصورة في اصلاح الحكومة فترغب اليكم أن تعملوا اعمالاً ترقية المسلمين فانهم لن يعودوا الاعمال الاجتماعية فقال اللورد اعملوا أنتم وعلي أن أساعدكم فن لا يرقى نفسه لا يرقى غيره . قال المصري انه ليس عندنا رجال بهمهم أمر الامة ويقدررون على العمل النافع لها . فقال اللورد بل عندكم رجلان غيوران مقتدران وهما الشيخ محمد عبده ورياض باشا فساعدهما بالمال وهما يعملان للبلاد ما تحتاج اليه من الترقى

(٢) كلمة السرماء كولم مكاريث مستشار الحقانية بمصر

نوه جناب المستشار في تقريره القضائي عن تلك السنة بما كان من خدمته القيمة لوزارة الحقانية ، في كل ما يتعلق بالشريعة الاسلامية ومحاكمها ثم قال : وكانت آراؤه على الدوام في المسائل الدينية أو الشبهة بالدينية سديدة صادرة عن سعة في الفكر ، كثيراً ما كانت خير معوان لهذه النظارة في عملها ، وفوق ذلك فقد

قام لنا بخدم جزيلة لا تقدر في مجلس شورى القوانين في معظم ما أحدثناه أخيراً من الإصلاحات المتعلقة بالمواد الجنائية وغيرها من الإصلاحات القضائية ، إذ كان يشرح للمجلس آراء النظارة ونياتها ، ويناضل عنها ، ويبحث عن حل يرضي الفريقين كلما اقتضى الحال ذلك ، وأنه ليصعب تعويض ما خسره بموته نظراً لسمو مداركه وسعة اطلاعه ، وميله لكل ضروب الإصلاح ، والخبرة الخصوصية التي اكتسبها أثناء توظيفه في محكمة الاستئناف وسياحاته إلى مدن أوروبا ومعاهد العلم ، وكانت النظارة تريد أن تكل إليه أمر تنظيم مدرسة القضاة الشرعيين المزمع إنشاؤها ومراقبتها مراقبة فعلية . أما الآن فإنه يتعذر وجود أحد غيره حائز للصفات اللازمة للقيام بهذه المهمة ولو بدرجة تقرب من درجته ، فلكل هذه الأسباب أخشى أن نظارة الحفانية ستظل زمناً طويلاً تشعر بخسارها بفقده . اهـ كلام المستشار

(٣) شهادة الدكتور ادوارد براون العالم الانكليزي

كتب الدكتور ادوارد براون العلامة الانكليزي المدرس في جامعة كمبرج كتاب تمزية لمجوده بك قال فيه « مارأيت في الشرق ولا في الغرب مثله » وراجع تنمة كلامه في (ص ١٠٣)

وكتب إلي جواباً عن سؤالي إياه أن يرسل لي ما نشر في الصحف الانكليزية عن وفاة الامام قال فيه : فوالله مارأيت في جرائدنا في هذه الواقعة العظمى والمصيبة الكبرى إلا ما أستحي عن نقله الى حضرتك بسبب عدم كفايته وقلة اطلاعه على بطون الامور ، كأنهم زعموا ان هذا الاستاذ الاكبر الذي كان في زماننا مثل الاكبر عديم النظر كأحد السياسيين القشربين الخ

(ما قاله بعض كبراء الترك والفرس)

(٤) شهادة احمد مختار باشا الغازي

قال المشير احمد مختار باشا الغازي علامة الترك الشهير ورب السيف والقلم في إكبار علمه وعقله : إنني أعتقد ان دماغ هذا الرجل أعظم دماغ عرف ، وأنه

لو وزن لرجح بكل دماغ من أدمغة الرجال العظام الذين عرف الأفرنج وزن أدمغتهم . ولما قرأت في الجرائد نبأ وفاته (وكان الغازي يومئذ في أوربة) ضاق علي المسكان الذي كنت فيه لان الخسارة به لاعوض لها

(٥) شهادة الدكتور عبدالله جودت الكاتب التركي

أبنة الدكتور عبد الله جودت أحد كتاب الترك المشهورين وأحد مؤسسي جمعية الاجتهاد والترقي في مجلته (اجتهاد) التي كانت تصدر في مصر باللغتين التركية والفرنسية مرتين في العدين التاسع والحادي عشر من السنة الاولى فجعل عنوان الترجمة (الاموات الذين لا يموتون) فقال في الاول منها ماترجمته الحرفية :

كان الشيخ محمد عبده بلا خلاف أحد النابغين الذين لا يدخلون في طبقات الرجال ، وانما اللانهاية هي الحد الوحيد الذي ينتهي اليه علمهم

ثم قال كان الشيخ محمد عبده مسلماً حقيقة على قدم النبي ﷺ وقال في العدد الآخر : كان الشيخ محمد عبده مسيحاً ثانياً منح للعالم الاسلامي الذي كان ذوي سقوطه فيه يصحّ مسامح ذوي الوجدان ، ويمزق أحشاء أصحاب الايمان

(٦) شهادة الاستاذ الكبير ذكاء الملك الايراني

قال في اول تأييده من جريدته (تربيت) التي تصدر في طهران ماترجمته :

كل من يسمع نعي المعلم الاول والاستاذ الاجل ، والفقيه الأعلام ، والحكيم والفيلسوف الاسلامي الاعظم ، الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية المعظم - رضوان الله عليه - ولم يبلغ منه الاسف أقصى درجاته فهو يجهل قدر هذا الرجل الجليل المبرور ومقامه العالي في الشريعة الاسلامية - أو هو ...

﴿ مقالة بعض علماء تونس وبلاد العرب ﴾

(٧) شهادة الاستاذ العلامة الشهير طاهر بن عاشور

باش مفتي المالكية في تونس لهذا العهد (١)

قل في كتاب التميزية للمؤلف : أقسمك الأسى والغم على مصيبتنا ومصيبة الاسلام والعلم والحكمة بمفارقة أستاذنا الذي كان علمه نزهة أبصارنا ، وذكره أنس نفوسنا . . . عرفت الاستاذ معرفة شهود بتونس في سنة ١٣٢١ عرفت من ملاقاته الاولى رجل العزم والارادة والفكر وبلاغة القول وشدة الفراسة وتكافؤ القوى العملية والفكرية . . . (ثم قال بعد ذكر المتماد من ضعف الاسى والاسف بطول العهد على المصائب : « فأما أسفنا على الاستاذ الامام فلا شك انه يجدد كلما حارت الافهام في المشكلات ، وخارت القوى في مقاومة البدع وجرائم التأخر يقابلني تمثال الاستاذ الامام في منزلي مرات وأذكر كلماته وتفسيره مهما قرأت سورة في صلاتي فكان ذلك يهزني فخرًا ، ويجدد في روح النشاط والعزيمة فصرت الآن يزيدني أسفا على أسفي وغما على غمي ، حتى سئمت الحياة وصغرت في عيني الدنيا بأسرها

(٨) شهادة الاستاذ محمد بن الخوجه التونسي

قال في مقالة نشرها في جريدة الحاضرة التونسية « فكان أبلغ البلاء إذا كتب ، وأفصح الفصحاء إذا خطب ، وكان أقوى العلماء والادباء بيانًا ، وأجودهم بالحكمة اسنانًا ، وأوسعهم في معاريف الكلام باعًا ، وأوفرهم في مفاهيم العلوم اطلاعا ، وأبعدهم مرمى ، وأسددهم سهما . وكان عظيم الهمة كبير النفس يقالب كرات الزمان بثبات عز عن النظر . ويستصغر الكبار ، ويستسهل المصاعب ، ويستهن بكل شيء . اعترضه في مسيره . ومما يؤثر عنه في هذا المعنى قوله : انني لأخشى شيئا سوى الموت لانه يقطع علي السير . وبالجملة فان الشيخ محمد عبده كان رجلا « والرجال قليل »

(١) وقد كتب ترجمة للامام نشرها في بعض الجرائد

(٩) شهادة الاستاذ محمد الجماعي التونسي

قال في جريدته الصواب « ولولا أن الناس اعتادوا المبالغات في تأبين الاموات لكان تأييننا للاستاذ الامام، لا يشبهه تأيين أحد من رماهم منهم الحم، بعد الانبياء عليهم السلام » اه وقد باغ تأيينه له ست صنجات

(١٠) شهادة العالم العامل الشيخ محمد شاكر من علماء صفاقس (تونس)

قال في كتاب التعزية لي بعد ذكر بعض اعماله: ولا غرو فقد جرت سنة العناية الالهية، أن تختص من شئت بالاختصاصات العلمية، ولقد أتى هذا الفقيد المقدس من الاقول والاعمال الجليلة، بما أجمع به القوم انه رجل الدنيا وشمس الفضيلة، لسان بالحكمة ناطق، وعزم في احياء الدين صادق، وثبات في تأييد الحق، وكمال في صبر على اذاية الخلق، فهو القائم بوظائف الوراثة النبوية، والحريص على دينه وأمنه حتى في آخر أدواره الحياتية الخ

(١١) شهادة العالم الجليل السيد محمد بن عقيل اشهر السادة العلويين

قال في أول كتاب له في تعزيتي من سنغافورة:
بلغنا نبي مجدد القرن الثالث عشر (١) الاستاذ الحكيم... ولقد عم الاسف أفئدة جميع المسلمين ومن عرف الفقيد من عقلاء الطوائف الاخرى وإلى الله المشتكى ولقد صدق شيخنا ابن شهاب في قوله

رزئت مصر لا بل الاسلام وأرتنا اقتدارها الايام

وكتب في رقيم آخر « ثم اني رأيت في بعض الجرائد اقتراحا لبعض محبي مجدد العصر في عمل صورة للاستاذ الامام.... الخ فلم يعجبني ذلك » واقترح كغيره طبع آثاره

﴿ ما قاله بعض علماء سورية ولبنان وأدبائهما ﴾

(١٢) شهادة الاستاذ الحكيم السيد عبدالرحمن الكواكبي

سأل سمو الخديو عباس حلمي العالم الحكيم الشيخ عبد الرحمن الكواكبي :
كيف رأيت الشيخ محمد عبده ؟ قال ان افريقية أخرجت كثيراً من العلماء في
العلوم والفنون المختلفة دون الفلسفة ، ولكنها أخرجت فيلسوفاً واحداً بذاً جميع
الفلاسفة وهو ابن خلدون . وكذلك مصر أخرجت من لا يحصى من العلماء ،
دون الفلاسفة الحكماء ، ثم أخرجت أخيراً حكماً فاق جميع الحكماء . وهو الشيخ
محمد عبده . سمعت هذا من فم الكواكبي ونسيت ان أذكره في الجزء الثالث
وكان الكواكبي يعتقد انه أعلم من أستاذه الافغاني وانه هو الذي كبر صيته
بالعلم ، وهذا غلط منه

(١٣) شهادة الدكتور يعقوب صروف السلامة المصري

قال الدكتور يعقوب صروف صاحب المقتطف لما أكثر المؤننون في حفلة
الاربعين من وصف الاستاذ بكلمة فقيد الاسلام وفقيد مصر : اننا لانرضى بأن
يكون فقيدكم وحدثكم ، بل نقول انه أكبر من ذلك — انه فقيد الشرق كله . وقد
بين هذا مفصلاً بترجمته في مجلة المقتطف فراجع في الجزء الثالث من هذا التاريخ
ومنها قوله في أنواع أعماله « وتارة مفسراً قواعد الدين تفسيراً يقبله العقل
المستنير ، وتصلح به شؤون الأمم ، وينطبق على مصالح الزمان »
ثم قال « وتارة مبيناً بالحجج القاطعة ان الدين لا يمنع الارتقاء والاخذ بأسباب
الامران ، بل يبحث عليها . ومظهراً الشوائب والبدع التي دخلت عليه فأضرت
أهله ، وهي ليست منه في شيء بل يتبرأ منها وينهى عنها »

(١٤) شهادة الشيخ ابراهيم اليازجي الاديب اللغوي الشهير

قال في مجلة الضياء « وكان متوقداً للفؤاد ثاقب البصيرة قوي الحجة ذرب

اللسان، بليغ العبارة، إذا وقف للخطابة كان كأنما يتلو عن ظهر قلبه فلا يتوقف ولا يتلصكاً، ولا تجد في كلامه لفظة ركيكة ولا تركيباً سخيفاً، حتى لو كتبت لفظه الذي يقوله على البداة وجدته كاحسن ما ينشئ المترسلون من الفصحاء . وكان آية من آيات الله في قوة الحفظ وسرعة التناول حتى انه تعلم اللغة الفرنسية وهو فوق الاربعين فلم يأت عليه إلا أشهر حتى كان يجيد فهمها ، ثم كان يتكلم فيها كأحد أهلها، ولم يرو مثل ذلك إلا عن استاذ السيد جمال الدين ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء الخ

(١٥) شهادة الاستاذ جورجى زيدان المؤرخ السوري الشهير

قل في مجلته الهلال بعد نشر مجل من ترجمته ومناقبه وأعماله : على أن عظمت الحقيقة لا تتوقف على ما تقدم من أعماله الخيرية أو العلمية أو القضائية وإنما هي تقوم بمشروعه الإصلاحى الذى لا يتصدى مثله إلا أفراد لا يقوم منهم فى الأمة الواحدة مهما طال عمرها إلا بضعة قليلة وهذا ما أردنا بسطه على الخصوص من هذه المجلة « ثم بسطه وذكر خطته وخطة استاذ السيد وضرب له المثل بمصلح النصرانية (لوثير) فقال انه أول من جاهد فى سبيلها وقد فاز بجهاذه اقيم السياسة بنصرته . وأما مصلح الاسلام فكانت السياسة ضده ، وإنما حمله على تلك المجاهرة حرية ضميره وجسارته الادبية ومنصبه الرفيع فى الافتاء . »

وقال فى محاولته إصلاح الأزهر انه لم ينجح فيه إلا قليلا « ولكنه وضع الاساس ولا بد من رجوع الأمة الى تأييد هذه النهضة ولو بعد حين فىكون له الفضل فى تأسيسها »

(١٦) شهادة نعوم افندي لبكى الكاتب اللبنانى الحر

قال فى جريدته الناظر التى كان يصدرها فى (سان باولو) عاصمة (البرازيل) ان فجعة النصارى بالامام « ايس لانه كاتب وايس لانه خطيب وايس لانه لغوي » ثم بين العلة لصحيفة الفجعة وهى قوله « هو الذى استخدم كل ما وضعت فيه الطبيعة من القدرة فى سبيل إصلاح الاسلام ، فهو مصلح الاسلام ، ومن أصلح الاسلام فقد أصلح الشرق ، فحمد عبده هو مصلح الشرق . وهذا ما يجعلنا نخشع لموته ونكبر المصاب ، لاننا شرقيون وفينا روح وطني »

(بعض ما قاله المصريون)

(١٧) شهادة صاحب الدولة رياض باشا وزير مصر الاكبر

قال رياض باشا وزير مصر الاكبر للشيخ عبد الرحيم الدمرداش وكان ملازما لفراس الفقيد في مرض موته : اننا كلنا شاكرون لك فانك لاتخدم رجلا واما انت تخدم الامة في هذا الرجل - وقال في موته : خسارة لاتعوض

(١٨) شهادة صاحب السماحة الاستاذ محمد توفيق البكري

لما سمع السيد محمد توفيق البكري نبأ وفاة الاستاذ الامام وهو في اوروبا لم يصدق الخبر فلما عاد إلى مصر أخبرنا بانه لم يصدق الخبر إلا بعد عودته إلى مصر وعلل ذلك بانه كان يخال ان الموت لا يتجرأ على الشيخ محمد عبده (١) وقال : لقد ترك الشيخ فراغا لا يسهل أحد ، فانه كان كما قال المتنبي * مل السهل والجبل * ولو ترك مناصب الحكومة وعمل مستقلا لحدث انقلابا عظيما . وكان هذا رأى كثير من الناس

(١٩) شهادة ابراهيم باشا نجيب

قل ابراهيم باشا نجيب المصري وكيل نظارة الداخلية : ان الناس لا يعرفون قيمة الشيخ محمد عبده إلا بعد ثمانين سنة — أى بعد انتهاء جياين في التربية الاجتماعية

(٢٠) شهادة محمد طلعت باشا حرب زعيم النهضة الاقتصادية بمصر

قل في أول مقالة نشرها في جريدة (اجبت) باللغة الفرنسية ما ترجمته
لقد خسرت مصر والعالم الاسلامي خسارة كهري بموت الشيخ محمد عبده

(١) وقع هذا المعنى لكثيرين في الاقطار المختلفة ومنه ما كتبه الي أحد المعزين من مدينة الجزائر من انه كاد يقع للناس ما وقع لسيدنا عمر بن الخطاب (رض) في موت سيد الانام اذ قال : من قال ان محمدا قد مات ضربت عنقه . قال وان بعض العلماء لا يزال ينكر موته الي وقت ارسال هذا الكتاب

مفتي الديار المصرية ، وسببكي خسارة هذا الرجل جميع المسلمين على اختلاف بلادهم ومذاهبهم فإنه كان من أكبر رجال الاسلام الذين كانوا يقدمون ارجاعه إلى مجده السابق

(٢١) شهادة الدكتور عبدالعزيز بك نظمي

قال في أول تأييده له من مجلة الحكمة مانصه :

رزيء العالم الاسلامي في السابع من جمادى الاولى رزءاً لم يذق مرارته مذ طوت الايام حماة الاسلام الاول : رزيء في امام عظيم وعليم حكيم جمع إلى جهاد الخلفاء الاربعة في اقامة الدين والدنيا اجتهاد الأئمة الاربعة في تقويمهما رزيء في خير من سعى بعد رسول الله وخلفائه الراشدين في إعلاء كلمة الله وتجديد ما خلقت لايام من فضائل الاسلام ودفع مفتريات أعدائه عنه ونفي البدع منه ... رزيء فيمن كان للهدي علماً ، وللعلم مناراً ، وللتشريع حجة ، ولمصالح الامة حافظاً ، ولايتامها أباً وني أب ... رزيء في فضيلة الاستاذ الملامة الشيخ محمد عبده رضي الله عنه وأرضاه

(٢٢) شهادة حافظ افندي واصف الادب القبطي المصري

قال في أول تأييده من مجلته المحيط « أجمع العقلاء من كل أمة في هذه الديار ان انتقال هذا الفقيه الكريم كان أعظم خسارة خسرتها الامة الاسلامية خصوصاً والمصرية عموماً في التاريخ الحديث » ثم بين ذلك

(٢٣) شهادة قاسم بك أمين في تأييده

إذا أصيبت أمة من الامم الغربية بفقد رجل من رجال العلم أو الادب أو السياسة كانت تعتمد عليه في إصلاح شأن من شؤونها قال قومه : ليس في الوجود انسان لا يعوض ووجدوا في الحال بين أهل طائفته او صناعته من يسد الفراغ الذي تركه ويأخذ مكانه ، أما الحال عندنا فليس كذلك - مهما قلبنا النظر ، ودققنا في البحث والتفتيش فلا نجد في أمتنا من يعوض علينا ما خسرناه بفقد أستاذنا الشيخ محمد عبده ، لا أقول

ذلك محابة لصديق كانت محبته من اسباب الشرف والسعادة لشخصي، ولا مواءمة للعادة المتبعة في رثاء المتوفين حيث يحسن غض النظر عن عيوبهم، ومنحهم صفات وفضائل لم يعترف لهم احد بشيء منها مدة وجودهم بين الاحياء. وإنما هذا هو الحق الذي يجب إعلانه اعترافا مصري وصل إلى أسمى مقام لا يمكن أن يناله انسان في هذه الحياة - مقام لم يستمد وجوده من منصب عال في الحكومة، ولا من رتبة رفيعة، ولا من ثروة طائلة، ولا من نسبة إلى بيت قديم، ولا من شيء آخر من ألقاب الشرف المعروفة التي اخترعت لتحل محل شرف النفس. مقام اهتدى اليه بشعوره، واكتسبه بمجده وعمله، وحافظ عليه بقوة إرادته وحسن سياسته، وخدم فيه بعلمه وعمله. مقام مكنه من أن يمسك بيده زمام أمة بأسرها، ويحركها نحو الخطة التي رسمها، ويسوقها إلى طريق المستقبل الذي هياه لها - مقام الامامة بأوسع معناها - تركه الشيخ محمد عبده ولا يوجد في مصر واحد يجزأ على أن يدعي فيه استحقاقا بعده. الخ

(٢٤) شهادة احمد لطفى بك السيد العالم المصري

قال في حفلة تأييده في الجامعة المصرية سنة ١٣٤٠ في الكلام على مراكز مصر العلمي في مسابقة الامم الحية
على هذا الاعتبار يجب علينا أن نتخذ نهضتنا العلمية الحاضرة بشير الرجوع الى مضمار المسابقة العلمية العامة، وأن نوطد أنفسنا على العمل بجهد للاستعداد الى هذه المسابقة. ومن صنوف العدة أن نقبين حقيقة مراكزنا العلمي، وايسر مراكزنا العلمي شيئاً آخر إلا تقدير ما أنتجت بلادنا من النوابع الذين هم أركان نهضتنا الحاضرة - أوائلهم مصابيح الماضي، تنبعث منها أنوار الهداية الساطعة، فتكشف للحال طريقه الى الامام في ظلمات المستقبل، وأكبر هؤلاء النباة هو أستاذنا الامام الشيخ محمد عبده.

(٢٥) شهادة سمد باشا زغلول الزعيم المصري الاكبر

قل لي اذا كان شيخنا قد عجز عن إصلاح الازهر وقد أوتي من العلم وقوة الارادة والمزم مالم نؤت فماذا يمكنني انا ان أفعل في إصلاحه

وكنت نشرت في الجزء الثاني من هذا التاريخ مقالة عنوانها (الشورى والاستبداد) على أنها من مقالات الأستاذ الامام في جريدة الوقائع المصرية فقال لي سعد باشا أنها له ليست للامام وان سبب ترك امضائه لها ان الامام كان أمر محرري الوقائع وهو منهم بترك امضاءاتهم في ذيل مقالاتهم . وقل « انك اذا تأملت هذه المقالة تجدها دون مقالات الامام التي نشرتها معها في موضوع الشورى عبارة ومعنى وتحقيقا » فحذفها من الطبعة الثانية لهذا الجزء .

ولو أراد سعد ان يكتب كلمة فيما يعلمه من مناقب أستاذه لتدون في التاريخ لكتب ما هو أبلغ من كل مارويناه عن غيره لانه أعلم من غيره بسيرته من أول نشأته الفاضلة ، إلى نهايتها السكاملة ، ومن أفدرهم على بيان ما يعلم

(٢٦) شهادة أحمد فتحي زغلول النابغة المصري

كان أحمد فتحي باشا من أعلم الناس بعد أخيه ومربيه سعد باشا بمذنب الاستاذ ولو كتب في بيان امامته لجاء بما يلي ما كان يكتبه شقيقه سعد ، ولا أحفظ عنه كلمة مختصرة أدونها هنا إلا قوله : إنا كنا نسمع كلمة الحكمة من الامام فنظن اننا فهمنا ما يريد منها - وبعد اختبار السنير نعلم اننا انما كنا فهمنا مدلول اللفظ اللغوي دون ما رمى اليه من المقاصد الاجتماعية التي كشفها لنا الزمان اهـ

أشهد ان أحمد فتحي زغلول كان رجلا كبيرا بمارفه المصرية وذ كانه ولو ذعيتة وعلو همته ، وقدرته الادارية والقضائية -- وأشهد ان سعد زغلول كان كبيرا في ذلك أيضا وانه بفضل أخاه في الاخلاق والشمال والارادة والثبات - وأشهد بالله ان محمداً عبده اكبر من كل منهما . وانهما كانا على معرفتهما بقيمة أنفسهما كانا يعلمان بأنه فوقهما في كل شيء . ويمتدحان به بكل خيرة وانهما كانا يرجعان اليه في خيلوبهما ، ويتحان كان اليه في تنازعهما . ويكونان معه كالولد أمام والده ، والتلميذ بين يدي أستاذه وحسي هذا بديلا من كلمة نليمة من لفظهما أدونها لها

خاتمة الكتاب

فيما يجب على الامة لهذا الامام

أنبتت تربة مصر ألوفاً كثيرة من العلماء والصلحاء والادباء والقضاة والحكام، ولكننا لا نعرف في تاريخها ذكر الرجل جمع من فضائل العلم والعمل والصلاح والاصلاح مثل الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في مواهبه الفطرية والكسبية وكمالاته الشخصية، وفي صرف حياته العملية كلها الى اصلاح بلاده ووطنه، وترقية امته، وإعلاء شأن ملته، بدون عمل ما لنفسه وأسرته، فهو قد خرج من معاهد العلم الى ميدان الجهاد في هذه السبيل - سبيل الله تعالى - الى ان قضى في المارك نجبه، ولقي ربه، شهد له بذلك العلماء الافذاذ على اختلاف علومهم الدينية والدنيوية والمصرية، واختلاف أوطانهم ومللهم. وترى سيرته الشارحة لهذا مفصلة في هذا الجزء من تاريخه، وترى الشواهد عليها من كلامه ماثلة في الجزء الثاني له، والشهادات له فيها متواترة في الجزء الثالث منه -

مثل هذا الرجل العظيم يجب أن يكون مثلاً كاملاً يقتدى به في علو الهمة، وقوة الارادة، وفي العلم الصحيح، والعمل الصالح المصلح، وفي الجهاد لإعلاء شأن الامة في دينها ودنياها، ومدنيته وحكومتها، فالام لا ترقى إلا بامثال هؤلاء الرجال مثل هذا الرجل الكبير يجب أن تحيي الامة ذكره، وتنشر حكيمته، وتتخذ حجة لها في رقيها واستحقاقها للوقوف مع الامم الراقية، التي تدل وتفاخر بعلمائها النابغين وزعمائها المجاهدين وأئمتها المصلحين. كما قال غير واحد من كبار المفكرين هذا الامام المجدد المصلح يجب على هذه الامة التي نبتت من طينتها، ونبت في عيشتها، فأعلى ذكرها، ورفع قدرها، أن تعلي ذكره، وترفع قدره، وتربي نابتها على أصول حكيمته في التجديد الديني والمدني، والاصلاح الملى والوطني، ويجب على جميع شعوب الملة التي جاهد في سبيل إصلاحها، أن تساعد شعبه على ما يعمل لآحياء ذكره، ودوام الاستفادة من علمه ورأيه

ما كان هذا الشعب الكريم والذي يرضى لنفسه ان يوصف بالكنود للزم ، ولا بالبحود لفضل المنعم ، ولا كان تلاميذ الاستاذ الامام ومريدوه بالابناء العاقين ، ولا اصدقاءؤه ومحبيه بالغافلين او الخاملين : فاما الشعب فلا يجاهد بدون قائد ، وأما اصفياء الامام فقد فكروا في القيام بهذا الواجب عقب المصاب ، وعقدوا له الاجتماع تلو الاجتماع ، وأقروا شيئاً حالت دون تنفيذه الاقدار ، و كان خصمهم أمير البلاد ، و رقيهم عميد الاحتلال ، ولا زعامة يؤيدها الرأي العام

توفي الامام وكان أكبر كبراء مريديه القادرين على تنظيم هذا العمل غائبين عن مصر - أعني سعد باشا زغلول وأحمد فتحي باشا زغلول - فلما عادا من سفرهما عقدا في دار الاول اجتماعا حضره من اصدقائه الشيخ عبد الكريم سلمان ، والشيخ عبد الرحيم الدمرداش ، وحسن باشا عاصم ، ومحمد بك راسم ، وقاسم بك امين ، ومحمد رشيد رضا (الكتاب لهذا) فقررروا أولا أن يشتركوا معي في الرأي ويساعدوني على ما أعلنته من عزمي على تأليف تاريخ له وعلى نشره كما يراه القاريء في مقدمة هذا الكتاب . ثم اجتمعوا وتشاوروا فيما يجب ان يعمل لاهياء ذكره ، فأجمعوا الرأي على إنشاء مدرسة كلية تنسب اليه وتكون التربية والتعليم فيها على رأيه ، وهو ما كان يسمى له بعد تركه للازهر ، ويكون المنفذ لخطته فيها صاحب المنار

وإذ كانوا يملكون أن سلطة الاحتلال تحسب لهذا العمل منهم كل حساب ، عهدوا إلى أحمد فتحي أن يقابل لورد كرومر ويذكر له هذا القرار ، ويسأله عن رأيه فيه ، لكيلا يكون على رية منه ، وبجيتهم بما يسمعه منه في جلسة أخرى عينوا موعدها ، فلما وافوها ليقاتها قال لهم : ان اللورد أظهر الاستحسان لهذا الرأي ، ولكنه قال ان من الحكمة أن يبدأ بهذا العمل صغيراً ثم يصعد فيه على سلم التدرج ، وأن يجري فيه على خطة مدرسة (عليكده) في الهند التي أسسها الرحوم السيد احمد خان الشهير ، وساعدته عليه الحكومة الانكليزية ، حتى صارت للمدرسة كلية ، قال ووعد اللورد بأن يطلب لنا من حكومة الهند نظام هذه المدرسة ومنهاج دروسها ، لتأخذ منه ما نراه موافقا للمدرسة التي نريدها

فهمت اللجنة من فحوى رد اللورد انه لا يرغب فيما ترغب هي فيه من إنشاء

مدرسة كلية راقية على مذهب الاستاذ الامام، الذي اعترف هو بفضل ونبله، ووطنيته الصادقة، وخدمته للمصلحة العامة، التي قال فيها: (ان الاوربيين ما فضلوا المصريين إلا بكثرة رجالها) - وباعتدال حزبه بين الاحزاب الاسلامية، وجمعه بين اسباب الحضارة والمحافظة على اصول الدين الاسلامي. وفهمت منه أيضا انه ينبغي أن تكون المدرسة العبدية، كما يحب هو وترضى دولته اي كالمدرسة الهندية استاءت اللجنة من هذا الرد ولم يثنها الاستياء عن عزمها، بل فكرت في جمع المال لانشاء المدرسة بصفة مصغرة كما قال الاورد لانه هو الممكن، وانتظار موافاة الزمان لتكبيرها، ورأت من الشيخ عبد الرحيم الدمرداش الثري أريحية للبدء في التبرع للمشروع، فقويت المزمعة، حتى ان اللجنة عهدت إليّ بالبحث عن دار صحية لتستأجرها للمدرسة، ففعلت

ولكن حدث في اثناء ذلك ان تبرع مصطفى كامل بك الفمراوي بخسامة جنية لمشروع مدرسة جامعة مصرية، وعهد الى سعد بك زغلول بان يتولى الدعوة الى التبرع له والسعي لتنفيذه هو ومن يختار من اصدقائه وغيرهم، فقبل وألف لجنة لذلك سمي هو وكيلاها، وتركت الرياسة ليختار لها احد الامراء

وتلا هذا ان ولي سعد باشا وزارة المعارف العامة، فاضطر الى ترك لجنة الجامعة المصرية، واختير صديقه قاسم بك امين وكيلا للجنة إدارتها مكانه. وكان ذلك بعد سنة من التصدي لانشاء المدرسة باسم الاستاذ الامام، فلم يبق لهذا المشروع من يشتغل به، وكاد هذا الرجل العظيم ينسى هو وأستاذه السيد جمال الدين، لولا تنويه المنار به في كل جزء من اجزائه، وتنويهه بالسيد أيضا في بعض الاجزاء ونشر بعض آثاره المطوية، وطبع الجزء الثاني والثالث من هذا التاريخ، وقضى الله تعالى أن أرجي. إتمام الجزء الاول منه المفصل لترجمته، بما يرى القارىء اسبابه في مقدمته، ولولا انني من أضعف خلق الله تعالى في السعي لجمع المال وان كان المراد به شريفا وناقما، لما تركت السعي لانشاء المدرسة، وقد كان اقرب الوسائل له في السنين الاخيرة توجه قلب محبه الشيخ عبد الرحيم باشا الدمرداش رحمه الله تعالى إلى البذل للمنافع العامة، فلو وجد في هذه الحالة أحد من كبراء حزب الاستاذ

الامام المدني يزين له إنشاء المدرسة التي كان من اعضاء اللجنة التي قررهما ، ويرغبه في حبس عقار أو أطيان تفي بنفقتها ، لفعل

سكت أصحاب النفوذ والجاه من اصدقاء الاستاذ الامام عن القيام بالواجب له عليهم ، ولكن الرجل حي لا يموت ، ولا ينسى فضله ، في امة يعملو فيها قدر العلم والحرية ، ويزداد السعي للحياة القومية والوطنية

فهذه مدرسة الجامعة المصرية ، التي عارض وجودها وجود المدرسة العبدية الامامية ، قد اعادت منذ بضع سنين الاحتفال بذكره ، فقام به فيها لجنة مؤلفة من تابغي علماء الازهر وبعض الوجهاء ومدرسي الجامعة ، فحرك عملهم الجرائد لاعادة التنويه بذكره ، وتعطير الآفاق بذكي نشره . وتبرع الشيخ عبدالرحيم باشا المدرdash في اثناء ذلك بما يؤتي الجامعة غلة سنوية كافية لنفقة إنشاء كرمي لعلم الاخلاق تخليداً لذكرى الاستاذ الامام فيها . وتلا ذلك اقتراح كثير من فضلاء الامة لاحياء ذكره ، فأشار بعضهم بترميم داره في عين شمس وجعلها من معاهد العلم او الاعمال الخيرية العامة ، وبعضهم غير ذلك

ولما اسندت مشيخة الازهر ورياسة المعاهد الدينية إلى صاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي وهو من خواص تلاميذ الاستاذ ومريديه في العلم والعقل والاخلاق ، ألف في دار الادارة العامة للمعاهد لجنة خاصة لاجل البحث في امثل الطرق لاحياء ذكره في الازهر وغيره ، وجعل اعضاءها من تلاميذه الازهريين وسواهم ، ومنهم مؤلف هذا الكتاب ، فاجتمعت اللجنة مراراً . وكان من سوء الحظ كما يقال أن استقال هذا الاستاذ من المشيخة ورياسة المعاهد الدينية قبل أن تفرغ من المساعي التمهيدية ، وتقرر مايجب تنفيذه وينظم في سلك الاعمال الرسمية وأخيراً قرر مجلس مديرية دمنهور إرسال بعثة علمية إلى ألمانيا باسم الاستاذ الامام لاجل الاختصاص في علوم فلسفة الاخلاق والتربية والاجتماع ، وجددت ادارة المعاهد الدينية تقرير قراءة رسالة التوحيد درسا في الازهر وملحقاته ، وانما كان هذا لكثرة فوائدها ، لا لاحياء ذكر مؤلفها

لكن هذا شيء ، قليل على الامة المصرية ، وقد صارت أمة ذات رأي ووحدة ، وبذلك

في سبيل المصلحة العامة، وكان قطب رحي وحدتها، والعامل الأكبر في جمع كلمتها، والزعيم الأكبر لها فيها، هو تلميذه وريثه الأول سعد باشا زغلول: فمنه تلاقى هذه الأفكار، ومن زنده استورى هذه النار. إذ تربي في حجره بالدرس والتفكير والقول والعمل. وكان اوفى مرديه وأصدقائه له في زمن محنته، وأشد حمحينا اليه في مدة غيبته، وأشوقهم إلى اتباعه واللاحاق به، وقد نشرنا بعض مكتوباته اليه في منفاه ببيروت وفيها التصريح بهذه المعاني، وانا اثبت هنا صورة شمسية من خطه للكتاب الذي تقدم نشره في صفحة ٢٧٥ فن لم يستطع قراءته هنا لتصغير كالمه فليقرأ هناك، وننشر صوراً لمكتوبات أخرى له بخطها الاصلى في أول الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مولای افضل والوی الکریم حضرت مولانا

[illegible]

(کلمات من مکتوبات سعد باشا لاستاذہ الامام)

كان الامام كلف سعاداً بعض الاعمال ومنها ارسال اثاث من بيته بمصر إلى بيروت، فقام بذلك خير قيام فأثنى عليه بكتاب فقال سعد في جوابه :

« اني وما أعمل من خير مما صنعت أيدي مكارمكم فلا أستحق شكراً ولا حمداً ، بل إن كان هناك ما يدعو إلى المديح فالحمد راجع اليكم ، والشكر عائد عليكم ، واني أعد الفخار كل الفخار في خدمة جنابكم العالي ، وأجد تنبيهي الى القيام بأي خدمة نعمة سامية من حضرتكم لا أقدر على الوفاء بواجب شكرها ، وعلى هذا

فولاي برى في اسناد التفضل والتكرم والاحسان إلى زيادة تنازل منه لا أرى نفسي جديرة بها ، وعهدي بالمولى الجليل أن يتحرى بكراماته موقع الاستحقاق « وأظن أن حضرتته يدكر أني في يوم من الايام التي نزلت بها في بيته ذا كرتة في هذا المعنى ، ورجوت من مكارمه أن يجعل طلبه أي أمر مني بصيغة الامر لا بلفظ الرجاء ، فاني أرى في الامر الاول فوائد ترتاح نفسي اليها لا أراها في الثاني » وكتب اليه الامام كتابا يذكر فيه استبشاره بما رآه في جريدة البرهان ، دالا على فوزه ببعض الاعمال ، فاجابه سعد عن هذا بقوله :

« ان ظنكم فيما رأيتموه في جريدة البرهان هو الموافق للصواب ، ويحق لحضرتكم السرور بما نال ولدكم ، فهو التربي في نعمتكم ، المقترف من بحار حكمتكم ، المحفوف بعنايتكم ، المشمول بعين رعايتكم ، البالغ ما بلغ ويبلغ من مراتب السكمال بحسن توجهاتكم ، وكریم تعطفاتكم ، أدامكم الله لكل خير مبدأ »

فاذا كان الزعيم السياسي الاكبر يعد نفسه أنرا من آثاره ، وشعلة من ناره ، وقبسة من أنواره ، وكان يعتقد ان ما بلغه وما يبلغه في المستقبل من المراتب فهو أثر تربيته ، وعمر نعمته ، ويمضي كتيبه اليه بكلمة ولدكم وصنيعكم ، وإذا كانت الحكومة المصرية قد قورت زهاء مائة الف جنيه لبناء قبرة ، ووضع تماثيل للتذكير بشخصه ، أفياكثر منها او يكبر عليها ، او على الوفد الممثل لسياسته ، والعامل باسم زعامته ، ان يقوم بانشاء مدرسة تنسب إلى اسم استاذهم ومربيهم ، وباعادة تعليمه وتربيته ، ونشر رسائله وكتبه ؟ كلا . انه قد آن للامة وقد صار لها زعماء تنقاد لهم ، ومجلس نواب يسيطر

على حكومتهم ، وكتاب بلغاء يدعون إلى المصلحة العامة ، وخطباء مصافح يهزون قلوب الخاصة والعامة ، أن تراجع مناقب هذا الامام التي فصلناها في هذا التاريخ وتقرر ما يجب عليها من إحياء ذكره ، والاهتداء بارشاده ، وبناء أساس التربية والتعليم الديني والمدني على أسس قواعده ، وتعاون أحزابها وحكومتها على تنفيذ مآقرته ، في الوقت القريب المناسب له ، فانها هي القواعد الحكيمة التي تحفظ لها عقائدها وأخلاقها ، وتكوين بيوتها (عائلاتها) ونماء ثروتها ، وترسخ دعائم استقلالها ، وتجعلها قدوة للبلاد العربية ، والشعوب الاسلامية ، التي اعترف

عقلاؤها لهذا الاستاذ العالمين، وأستاذه الفيلسوف الحكيم، بالزعامة الدينية والسياسية، والامامة الدينية، والتوفيق بين الجامعتين الملية والوطنية
فلو لم يكن لهذه الامة الفخر على غيرها بظهور هذا الامام المجدد منها، لكانت
جديرة بان تتبع تعاليمه الحكيمة لعظم فوائدها، ولما تمطيا من الزعامة التي لا تنحصر
منافعها منها، وأعيد التذكير بما هي مستهدفة له من خطر الانحلال، المهدد لما
نالت من مباديء الاستقلال، بانتشار القاسد المادية، والفوضى الادبية، والانفاس
في الشهوات، والاسراف في اللذات، الغني ثروة البلاد، المضني لصحة الاجساد،
المزهد في الزواج، المضعف للانتاج

بل أذكركم بما لا يعزب عن علمهم من اضطراب العالم كله بهذه الفوضى التي
ثلث أكثر عروش الممالك، وأشعلت نار الفتن الداخلية في كثير من الامم، وغاضت
ينابيع ثروة غالب الدول، وأندرت الروابط الاجتماعية بالانحلال، وعرى الشعوب
الموثقة بالانقسام، وثروة الاقوام الغنية بالزوال، ثم أذكركم بأنه لا يثبت في مهب هذه
المواصف إلا الراسخون في الايمان، ولا يصبر على هذه القواصف إلا المتصمون
بمناة الاخلاق، وهو مامهد مسالك الاستاذ الامام، وجعل تناوله على طرف النمام

بل حدث في هذه الاعوام، بوادر انقلاب عام، يرقبه الحكماء، ويشعر به
البصراء، وقد فطن له بعض أذكائنا في سياحته في أوربة، وهو الشعور بشدة الحاجة إلى
هداية الدين، وكونه هو العلاج الوحيد لهذه الأدواء الاجتماعية الوبائية من إباحة
الاعراض، وفوضى الآداب، وعبادة المادة والشهوات، والتنازع السياسي، والنظام
البلشفي، التي تنذر الشعوب زوال الحكم الديمقراطي، وأهيار النظام المالي أو الرأسمالي.
بل تهددها بحرب شر مما قبلها، كالريح العقيم تدمر كل شيء بأمر ربها. وقد وصف
هذا الذكي مارأي وروى عن أوربة من درء هذا الخطر بالدين، وتغنى لويظهر الدين
الواقعي للحضارة الحاضرة من مصر، لكن فضلاء القلم في مصر يرون أن بلادهم أشد
حاجة إلى هذا العلاج من أوربة، فإن هذا الوباء يفتك بها وهي أقل مناعة وحصانة
ممن سرت إليها العدوى منهم، وإنما تفضلهم بأن العلاج موجود فيها وهي في غفلة عنه،
بل لما تشمر بالحاجة إليه، وهو القرآن، وما بينه من سنة محمد عليه الصلاة والسلام

تنبأ حكيمنا هو وأستاذه منذ نصف قرن بأن شعوب أوربة ستشعر بالحاجة الى الدين المصلح المعقول ، فتطلبه فلا تجده إلا في القرآن فتأخذه بقوة كماداتها ، حتى لا يبعد أن يضطر المنسوبون اليه منا أن يعودوا إلى طلبه منها (راجع ص ٩٣٩) فإن كانت مصر تريد أن تكون أهلاً لا تقاذاً أوربة من فوضى الاباحة والمادية التي تتردى هي فيها من ورائها ، فإنها تجد الوسيلة اليها في تعاليم إمامها ، فلتسبق اليها وتجربها في إنقاذ نفسها وها هو ذا أكبر رجال الدين فيها عقلاً ، واسد هم رأياً ، وهو الشيخ محمد مصطفى المراغي الذي ظهر نبوغه في أرقى المناصب الدينية فكان قاضي قضاة السودان ورئيس المحكمة الشرعية العليا بمصر فشيخ الأزهر ورئيس المعاهد الدينية ، فقام بها خير قيام - ها هو ذا يفتيها بترسم خطوات الاستاذ الامام وهذا نص ما كتبه في ذلك : «أعتقد اننا اذا جاوزنا عصر السلف الصالح لا نجد رجلاً رزق فيها في هداية القرآن ، ووسع صدره أدق معانيه الاجتماعية والعمرانية مثل الامام محمد عبده . ولقد وهبه الله شروط الامامة الدينية جميعها ، كما منحه البصر في أمور الدنيا ، ومن الحق على المسلمين ان يترسموا خطواته بالاصلاح الديني والدنيوي ، اذا أرادوا إعزاز دينهم ، ورفعة أتباعه في دنياهم . »

وانني أختم هذا الكتاب الذي قضيت به ديناً أدبياً كبيراً كان على مصر بتدوين تاريخ الامامين المجددين اللذين يرجع اليهما فضل نهضتهم المعنوية ، كما يرجع إلى محمد علي الكبير فضل نهضتها المادية ، باقتراحه عليها قضاء الدين الآخر الذي لا قبل لي به ، وهو العمل بما أرشد اليه الحكماء بالتربية والتعليم ، وإحياء ذكرها بتعميم تاريخهما وآثارهما ، وإنشاء مدرسة لذلك باسم الاستاذ الامام ، وترميم داره وجعلها من المنافع العامة ، فهذا دين يجب على مصر أدائه على اختلاف أحزابها ومذاهبها ومشاربها ، لان الامام كان للجميع باتفاق الجميع

أحمد الله عز وجل أن أدت الامانة وبلغت الوصية ، ووفيت حق أستاذي وصديقي ، ونصحت لأمتي ووطني ، وهو كل ما أملك مما فرضه علي ربي للتي (إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت وماتوفيقى إلا بالله ، عليه توكلت واليه أُنِيب) وسلام على المرسلين ، وعلى من اصطفى من عباده المصلحين ، والحمد لله رب العالمين .

ختم الكتاب في آخر جمادى الاولى سنة ١٣٥٠ هـ

عمارة

﴿ فيها رسوم شمسية لكتب خطية من زعيم مصر الأكبر ﴾

سعد باشا زغلول

إلى شيخه ومريه الأستاذ الامام أيام كان

في بيروت

✽ رسم شمسي الكتاب من عهد باشا زغلول بهر إلى شيخه وسميه الاستاذ الامام في بيروت في ٨ جادى الاولى سنة ١٣٠٠ هـ

مردی انجمن وزادی اطفال مصیبتہ نام

[illegible]

[illegible]

[illegible]

(رسم كتاب ثالث من سعد باشا إلى الاستاذ الامام رجهما الله تعالى في ٢٧ ج سنة ١٣٠٠)

حرفه ارسنا نرا لفاصل والمولى الماس

وسيد تقيي البيا الاندي فقد ورد ، عينا سناهم الموضع ١١ ج والوضع ١٨ ج وسررت غاية الرد - با اهتم علينا ، مه اهتأ الموضع التي حفظنا ها
في السيرة وصفت بذاها من القوة الماعظم لتتوهم على الدواعي لطيب خاطر ولا يبع في ذم شان الكمال وشدة الجهد والهمة الوفا - ومهم
الاعتناء - ورت انه تعرضت لما هيئ الاطراف فذكرنا الله تعالى لما به بالفتنة العظيم والفر الجيد وسنا لم نضع في ذمهم الحماد ورحابة تافهة
آمالهم اطلق على حاله السيرة في جريته البهي صفت الى لم نضع الا منتهى وقد كاد الى الموضع الجيد في فزوس العربية على حفظنا طبقاتهم وقد يرا لرحابنا
اخرى هذه المرة في هذه الجريته على انك رسنا لسانه رسنا في الوفا - كوكب على صفات الطهور وبيد يله سبابه سقراط الديك وموهبات ارسنا على
ورعه وآظها شبر سانه فتقنا العياح ما برحبت ربح الامم فبعد سقراط طوطم ومنه العزيز ا - آية انما كتبه يهد بنا فتنا الى اوسى به غشا ولنا
ان علينا الامم فيه ، وهو بوجههم غيرت تهتة نرة واولى على لم سبانا غيرة وصيرهم بوالد صه كانوا عليهم بولده وظهورها
فيله من الاطراف حال انزل اعتقادهم والمهم بوجههم غيرت تهتة نرة واولى على لم سبانا غيرة وصيرهم بوالد صه كانوا عليهم بولده وظهورها
في اذروقات التي قسم في مده كانا غايب فنبهت فترت قاتل الانبياء في هذه العقيدة وسقطت ورحم اعتبارها عنه مده كانوا مضطرب شانه ونباهة
مكروهم في سنا منتهى من المصيبة بواجب المكينة منهم بنبوته وتزييفه ولو كانت هذه المصيبة ذات عقل راهايس لا رصنت بالوقاية في ممرزها مية

فليس هذا الذي لا يغيره ولا يضره ولا يفتقر به لغيره أيام رزقك أنت الناس على أبواب الجنة ودرهم يجهل إلى أدراك الله العليين
 وبراأهم الوصول إليه وإدراكه من بهد والمظالم إلى البقية باعتمداً وهذا من لوجبه له المظالم صلباً وزيادها
 من بهد ربه وحسنه الله فيكم من باب هذه الكتب النافعة حيثما في عتقنا أهل السنة والجماعة فيكم المظالم فأمره ظاهر
 عباد الله والفتيات والمطلقات رقتة في رقتة للمعتدل به لئلا هذه القضية في سوطاً في كلفة المظهر والله ما يلهيه من ^{المظالم} الجدية رتباً والله
 حزين ثم طمعت أو طمعت على هذا الكتاب ولا تنافروا به كره فليعلم شريح طيب يفتي بكتاب صائب وبكى روضة عباد الله بالقرآن ثم سكت ثم به
 بترج سب السوء فيه ونوحي مع صاحبها في وفوداً به كبره على كبره الحاشية التي علمتموها على الصفا في القضية في وإختار أن أقرب الظرف
 إلى أهل السنة والجماعة وهو طمعت فيكم ففتى ودرت إفاضة إياه من هذا كبره طمعت به من مخرج فكم كل صنف على
 ما وظفهم من المصالح في كبره ثم التي التفت في الطلب والفا مع جرح فاطم في هذا السليل الحق إلى به السب لم يفت عبط الدار به وكره في

فهرس

الجزء الأول

من تاريخ

الاستاذ الامام

الشيخ محمد عبده

(الفهرس الاول لمواد الفصول وما فيها من المقدمات والمقاصد والخواتيم)

(تصدير الكتاب)

ببيان كنه التجديد والاصلاح الذي نهض به حكيم الشرق والاسلام ، وشيخنا
الاستاذ الامام ، ووجه الحاجة اليه ، ووجوب المحافظة عليه

المواد التي اعتمدنا عليها في هذا التاريخ
المقدمة ، وفيها بيان سبب تأخير هذا الجزء ، وصفة تأليفه ، وموقعه عند صنوف قرائه

٩ فاتحة ما كتبه الاستاذ الامام من تدوين سيرته

١١ ما دعا اليه من الاصلاح ، وهو جدير بأن يحفظ لفظه ولا ينسى معناه

١٢ جهره بمقاومة الاستبداد في أيام صلاته

١٣ الفصل الاول منه ، أهلى

وكلامه فيه على والده ووالدته وأصل يتيم وظلم الحكام لهم

١٦ كلامه في شرفي النسب والادب وسبب ضياع الانساب

١٨ كلامه في التربية والوراثة

١٩ مفسدة تفضيل الجواني على أهل البيوتات

الفصل الثانى

٢٠ نشأته وتربيته وطلبه للعلم

٢١ تربيته الصوفية وشيخه الشيخ درويش فيها

٢٥ لقاءه للسيد جمال الدين واتصاله به

فهرسة سيرة السيد جمال الدين

٢٧ ترجمة الاستاذ الامام للسيد جمال الدين

٣٥ مقاله في حال مصر قبل السيد جمال الدين

٣٧ السيد جمال الدين موجد النهضة السياسية الاجتماعية بمصر

٣٩ ترجمة أديب بك اسحاق لجمال الدين

- ٤٢ ترجمة سليم بك المنجوري له
- ٤٩ مخططة الاستاذ الامام للمنجوري في الطعن بجمال الدين واعترافه بخطئه
- ٥١ سبب الطعن على السيد جمال الدين
- ٥٤ السيد جمال الدين في إيران ، والعداوة بينه وبين الشاه ومسألة حصر التنباك
- ٥٦ (مكتوب من البصرة إلى السامرة)
- (وهو ما أرسله السيد جمال الدين الى ميرزا حسن الشيرازي رئيس مجتهدي الشيعة
 رجع به على الشاه فاضطره إلى إلغاء الامتياز باحتكار التنباك لشركة انكليزية)
- ٦٣ مقالات السيد في تحريض العلماء على خلع الشاه
- ٦٩ أحوال فارس الحاضرة (مقالة له)
- ٧١ السيد جمال عند السلطان عبد الحميد وكلامهما في شاة العجم
- ٧٣ (مذهب السيد جمال الدين السياسي)
- وفيه كلام الاستاذ في عمله السياسي ، ونأسيه الحزب الوطني بمصر
- ٧٦ نفى السيد جمال الدين من مصر بسعي فرنسة وانكسار
- ٧٧ كلمة توفيق باشا للسيد جمال الدين في تعليق أمه به
- ٧٨ الاشارة إلى مقصد السيد من السودان وسيأتي شرحه
- ٧٩ (فلسفة السيد جمال الدين)
- ٨٠ كلمة للاستاذ الامام عن درس السيد للاشارات
- ٨٢ (رأي السيد في الاصلاح الاسلامي)
- ٨٤ عشق المؤلف السيد وكتابه اليه
- ٨٨ نهاية أمر السيد في الآ سنانة
- ٨٩ صورة السيد قبل مرضه
- ٩٠ » » بعد العملية الجراحية في فمه
- » عتاب الشيخ أبي الهدى لي على مدحي للسيد
- ٩١ مرض السيد ووفاته ونعي الجرائد له
- ٩٤ تأييد الشيخ اليازجي للسيد جمال الدين ، وفيها ترجمة له باللغة الفرنسية
- ٩٩ ترجمة مجلة الهلال للسيد

عود إلى تاريخ الاستاذ الامام

١٠٢ دخول الاستاذ الامام الامتحان في الازهر

١٠٣ طلبه للعلم بعد التدريس وشهادة العالمية

١٠٤ تعلمه اللغة الفرنسية وما كتبه فيه

الفصل الثالث

١٠٦ في تربيته الروحية وتصوفه

١٠٩ استطراد في حقيقة التصوف وكتبه وتاريخه

١١٣ الموازنة بين الصوفية والفقهاء وبين هدي السلف

١١٦ قول ابن خلدون في الصوفية وغلاهم وغلاة الرافضة

١١٨ الكرامات والكشف والشطحات

١٢١ كلام ابن تيمية في أصناف الصوفية ومراتبهم الثلاث

١٢٣ ما سرى إلى صوفية المسلمين من صوفية الهنود وغيرهم

١٢٤ ضلالات الصوفية وبدعهم نوعان

١٢٥ تحرير التصوف الشرعي بكتاب (مدارج السالكين)

١٢٦ مكانة الاستاذ الامام من التصوف

وفيه إنقاذ السيد للاستاذ من الفرق في خيال التصوف

١٢٨ أحوال الصوفية وغرورهم، وغرور الناس بهم

١٢٩ تعذر أو تسر إصلاح طرق الصوفية

١٣١ الفصل الرابع

في الطور الاول من حياته العملية وهو ما قبل التني وفيه تمهيد وخمسة مقاصد

تمهيد للفصل في حظه بما يكون به الرجل عظيما

(المقصد الاول من الفصل الرابع)

١٣٣ تدريسه وبدؤه بإصلاح التعليم في الازهر

١٣٤ حادثته مع الشيخ عlish في الازهر

(المقصد الثاني منه)

١٣٥ تدريسه في مدارس الحكومة

(المقصد الثالث منه)

١٣٧ عمله في إدارة المطبوعات والجريدة الرسمية - وتمته فياسياتي من تلخيص كتابه في الثورة العرابية

(المقصد الرابع منه)

١٤٠ عمله في مجلس المعارف الاعلى

(المقصد الخامس منه)

١٤٥ عمله ورأيه في الثورة العرابية

١٤٨ خطبته في وجهاء العرايين مخطئاً ومجـ لاهم واثارهم بقتله

١٥٠ قصيدته في الثورة العرابية

كتاب الثورة العرابية له

١٥٧

١٥٨ خطابه للخديو في أول الكتاب

١٥٩ خلاصة ما كتبه في أسباب الثورة

١٦١ مقدمات الثورة من سيرة اسماعيل باشا

١٦٢ الاسباب المباشرة للثورة من سيرة توفيق باشا

١٦٤ مبدأ الفوضى في الجند المصري

١٦٥ نفوذ الاجانب بمصر وأسبابه وغايته وفيه حكم وعبر باللغة

١٧٠ وزارة رياض باشا وتأثيرها في الثورة

» أول إصلاحات رياض باشا لإبطال السخرة بنوعها

١٧٢ عدل رياض في توزيع مياه النيل وإلغاء الضرائب

١٧٣ وضعه ميزانية للحكومة وإبطاله للكرماج والحبس لتحصيل الحقوق

١٧٤ قانون النصفية

عمر في المطبوعات

- (وصفه له في كتاب الثورة العراقية ، وهو أغرب أعماله وأدناها على عبقريته)
- ١٧٦- وضعه الأمتحة قلم المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية فيها
(وفيها إلزام جميع إدارات الحكومة ومصالحها الكبرى بإخبار إدارة المطبوعات بجميع أعمالها - والمحاكم أن ترسل إليها جميع نتائج أحكامها . وإن لإدارة الجريدة الرسمية حق انتقاد كل عمل تراه منتهكاً حتى أعمال وزارة الداخلية !!)
- ١٧٧ انتقاد الجريدة الرسمية لطريقة التحرير في الحكومة وتأثيره في إصلاحها
- ١٧٩ انتقاد الأستاذ رئيس التحرير لنظارة المعارف وتأثيره في إصلاحها
- ١٨٠ تأثير انتقاده الأعمال العمومية في الإصلاح العام

دار الكتب العربية ودار العلوم

- (سميه بتأثير الجريدة الرسمية إلى التقريب بينهما وبين الأزهر وإصلاح التعليم بما يحجي البلاد ويرقي الأمة)
- ١٨١ إصلاح نظام العسكرية والمحاكم
- ١٨٢ (سيرة الحكومة بالأجبال والحدود توفيق والوزير رياض بالتفصيل) من كتاب الثورة العراقية
- ١٨٣ شمائل رياض باشا ومعارفه وأخلاقه منه
- ١٨٥ تأثير سيرة رياض باشا وشمائله في مقدمات اثورة منه
-
- ١٨٨ (سيرة الحديو توفيق المفضية إلى اثورة) منه
- ١٩٠ إثارة الحديو الضباط على وزيره رياض منه
- ١٩١ أسباب نائب الضباط المفضي إلى اثورة منه
- ١٩٢ مظاهرة الملا المصري للضباط منه
- ١٩٥ بدء اثورة بجاذنة قصر النيل منه
- ١٩٧ تشجيع معتمد فراسة اعرابي منه
- ١٩٨ نتيجة ما سبق من تباین افكار عرابي ومشايخيه ورياض والحديو فيه
- ١٩٩ اغراء فنصل فراسة للضباط بالتمرد وإخراجه من مصر منه

٢٠٠	محاولة الحديو تلافى شر تمرد الضباط (منه)
٢٠١	حال عرابي النفسية وخوفه وجبنه وعمله (منه)
٢٠٣	(مسلك الحديو وحاشيته مع الضباط) (منه)
٢٠٧	طالب عرابي مجاس نواب وسببه (منه)
٢١٠	مسألة الضباط التسعة عشر (منه)
٢١١	التغير والزل في الضباط لتوحيد القوة (منه)
٢١٤	قوة ناظر الجهادية ومأمور الضبطية (منه)
٢١٥	تربية الامم وطاعة الجند (منه)
٢١٦	مقاصد سلطان باشا وصفاته ومساعدته امرابي (منه)
٢١٧	﴿ مناوأة الاستاذ الامام للعرابين ورأيه في الاصلاح ﴾
٢١٩	حادثة عابدين وبها ينتهي الخيصر ما كتبه الاستاذ الامام في أسباب الثورة
٢٢٥	﴿ الشيخ محمد عبده العالم الصحفي المحرر ﴾
	ما كتبه المستربرودلى محامي العرابيين تحت هذا العنوان من كتابه (الثورة المرائية)
٢٣٢	شهادة برودلى بان مصر لا تستغنى عن مثله اذا قدر لها الاستقلال
٢٣٣	حياته سلطان باشا لمصر

٢٣٤ مذكرات الاستاذ الامام في الثورة والحرب

وهي مائة مسألة وليف نذكر عناوين أهمها

٢٣٥	سلطان باشا - حياته
٢٣٧	مذكرات أواخر سنة ٨١ عن الثورة
٢٣٩	» سنة ٨٢ »
٢٤١	مسألة الشراكسة وغش القنصلين للحديو
٢٤٢	المذكرة التي استعفت الوزارة عقبها
٢٤٣	المشير درويش باشا مندوب السلطان
٢٤٥	تسلح الاوربيين استعداداً للمذابح
٢٤٦	بدء المذبحة في الاسكندرية

النفس البشرية وخلق آدم

وهنا تأتي أم المسائل التي اعشقها عشقا عظيما . يأتي ذكر النفس البشرية ما هي ؟ اين هي من الانسان ؟ كيف خلقت ؟ وهل هبطت اليك من المحل الارفع ؟ انا اجيب نفسي على هذه الاسئلة بهذه الاجوبة :

النفس البشرية قطعة من الله ولا اقول شعاع من نوره كما يقول الفقهاء والمتكلمون . او ان الله مكون من عدد لا يتناهى من النفوس .

وهي ليست موجودة في أي جزء من اجزاء الانسان ، بل هي تظله ولا علاقة مادية لها به ، مثلها كمثل الحديد الرفيع الذي يوصل التيار الكهربائي الى عربة الترامواي فان هذه الحديد لا علاقة لها بالترامواي الذي هو جسم الانسان واذا حدث للترامواي (العربة) عطل فانها تمتنع عن السير اما الحديد فلا يحصل لها ضرر . وكيفية خلقها يعود بي الى السؤال الاعظم : كيف وجد الله ؟ بل كيف وجدت هذه القوة الهائلة ؟

لان الله والنفس شيء واحد : هذا رب في سمائه ، والنفس رب في ارضها : وهي لم تهبط من المحل الارفع . لكن اين هذا المحل الارفع ؟ ؟
خلق آدم وحواء

كنت وانا صغير شديد الولوج بمطالعة قصة آدم وحواء وكيف طردا من الجنة ، وكيف تقابلا وتناصلا : وانا الآن شغف بقول شاعر كم :

لم تلدنا حواء الا لنشتي ليتها عاطل من الاولاد

ولكن انا الآن أفكر في امر ارقى من هذين الامرين السابقين وان كانت

طريقه محفوفة بالاطار وهالك سيدي رأيت في خلق اول انسان

صورة العالم في اول خلقه كما هي في فكري غريبة جدا : وهذه الصورة

استنبطتها من العلوم التي قرأتها . كان العالم كله مجرا وذلك بعد ان بردت الارض

وانفصلت من النظام الشمسي على حسب رأي لا بلاس الذي جاء مصداقا لما في

القرآن (كانتا رتقا ففتقناها) . ولما صارت الارض مجرا بقيت كما هي زمنا طويلا

الفصل الخامس

٢٧٤

(في الطور الثاني من حياته العملية مدة النفي ، وفيه مقدمة ومقصدان)

٢٧٤ المقدمة في نفيه وحفاوة أهل بيروت به

(بعض مكتوبات سعد زغلول النذب الهام ، إلى مربيہ الاستاذ الامام)

٢٧٥ الكتاب الاول وهو مرجوع ما كتبه اليه الامام من بيروت عقب وصوله اليها

٢٧٦ مكتوب آخر من سعد زغلول له

٢٧٨ اعتذار سعد عن شكوى الامام من طعن الشيخ عبدالكريم سلمان عليه

المقصد الاول من الفصل الخامس

٢٨١ عمله مع السيد جمال الدين في أوربة

٢٧٢ كتاب السيد جمال الدين للاستاذ من بور سعيد

٢٨٣ جمعية العروة الوثقى السياسية السرية

٢٨٤ قانون الاصول العملية للجمعية

٢٨٧ اليمين الذي يحلفه المرتبطون بالجمعية ، وهو جدير بتأمل كل مسلم وتدبره

واستشعاره عظمة الايمان الوجداني الذي صدر عنه

٢٨٩ الجامعة الاسلامية والرابطة الشرقية والوطنية

٢٩٠ (فاتحة العدد الاول من العروة الوثقى)

وفيها قواعد اجتماعية عامة تمثل داء الشرق ودواءه ، والخطر على الانكليز

من تألب الشرق ولا سيما المسلمين عليهم وتمثيل المسألة المصرية والاحتلال

الانكليزي بصورة مبهجة نيرة

٢٩٦ منهج الجريدة

(رعب الانكليز من العروة الوثقى ومقاومتهم لها)

٢٩٩ مقالات الجرائد الانكليزية في العروة الوثقى (منها)

٣٠١ قرار مجلس النظار المصري في منها (منها)

- ٣٠٣ ﴿ تأثير العروة الوثقى في العالم الاسلامي والشرق ﴾
- ٣٠٦ ﴿ مقاصد العروة الوثقى الاربعة ﴾ (١) الجامعة الاسلامية (٢) الرابطة الشرقية (٣) المسألة المصرية (٤) المسألة السودانية
- ٣٠٦ ﴿ مذهبها في الجامعة الاسلامية ، ونموذج من مقالاتها فيها ﴾
- ٣٠٨ مقالة الجنسية والديانة الاسلامية منها
- ٣٠٩ الصفات التي تقوم بها الخلافة الاسلامية
- ٣١٢ وصفه للمتفرنجين المقلدين
- ٣١٣ مقالة المقابلة بين الاسلام والنصرانية في السيادة والقوة العسكرية، وأسباب مخالفة أتباع كل مذهبا لتعاليم دينه خلافا للطبيعة
- ٣١٨ » انحطاط المسلمين وسكونهم وسببه
- ٣٢١ » التعصب بأنواعه وفلسفته وسبب ذم الافرنج والمتفرنجين للديني منه
- ٣٢٤ » القضاء والقدر وتأثير عقيدته في الحرب والفرق بينها وبين عقيدة الجبر
- ٣٢٦ » الفضائل والردائل وما يترتب عليهما من الاعمال
- ٣٢٨ » الوحدة الاسلامية وجناية الملوك عليها
- ٣٣٠ » » والسيادة
- » » استعانة الفاتحين على الامم بأمرائها
- ٢٣١ المسألة المصرية ولها خمس وسائل
- (والمقصود منها جلاء الانكليز عن مصر وجعل حكومتها لاولي العزم من المصريين)
- ٣٣٢ الوسيلة الاولى اثارة العالم الاسلامي للدفاع عن مصر
- ﴿ الشواهد من مقالات العروة في وسائل انقاذ مصر واستقلالها ﴾
- ٢٣٦ (الشاهد الاول) في تحريض المصريين على الانكليز
- » مقالة (هؤلاء رجال الانكليز وهذه أفكارهم) وفيها مناظرة الاستاذ الامام في لوندرة لوزير الحربية الانكليزية وغيره في المسألة المصرية
- ٣٤٠ (الشاهد الثاني) تحريض العثمانيين والمصريين والهنود على الانكليز
- » مقالة اوهم واستعمال الانكليز له واعتمادهم عليه في سياستهم

- ٣٤٦ (الشاهد الثالث) تحريض الروس والعثمانيين على الانكليز
 ٣٤٨ (الشاهد الرابع) في دولة المسألة المصرية وعقد المؤتمر الاوربي لها
 الحقيقة الناصعة ، في ملل البيان الرائعة ، في نعمة أمر المؤتمر
 ٣٥٣ وخديعة انكلترة لفراسة فيه
 ٣٥٧ (الشاهد الخامس) تحريض الدولة العثمانية على الانكليز
 ٣٦٠ (الشاهد السادس) في تنبيه الحديو ورجال دولته لاخطر
 (مقالة) عمى الناس أوتامامهم في مصر عن مقاصد الانكليز فيها. وفيها الحث على
 الحجة الوطنية والمالية والفنك بالحونة
 ٣٦٢ (الشاهد السابع) في سياسة أوربة في المسألة المصرية ومكان الحكومتين
 العثمانية والمصرية منها
 ٣٦٥ (الشاهد الثامن) في تحريض المسلمين عامة والسااطان والمصريين خاصة على الانكليز
 » مقالة زلزال الانكليز في السودان وهي مهيجة أشد التيسج
 ٣٦٦ المدافعة عن الوطن وخيائته وجزاؤها
 ٣٦٩ التحريض الخطابي على الجهاد الديني والوطني
 ٣٧٠ مسألة السودان
 (وسياسة الامامين الحكيمين في تهويل أمر المهديوية فيه لاقناع الانكليز بتركه
 ليجعله مركزاً لسياستهما وفيها شواهد)
 ٣٧١ الشاهد الاول - مقالة سياسة انكلترة في الشرق
 ٣٧٢ » الثاني - « انتصار السودانين على الانكليز وتأثيره
 ٣٧٥ » ٣ « أماني انكلترة في حركات محمد احمد
 ٣٧٦ » ٤ « سقوط بربر في يد محمد احمد
 ٣٧٧ » ٥ « السودان ومصر بعد سقوط بربر
 ٣٧٨ » ٦ قوة محمد احمد بسوء تأثير احتلال مصر
 ٣٧٩ إيضاح غرض الحكيمين من سياستهما في مسألة السودان
 ٣٨٠ دخول الاستاذ الامام مصر مستخفيا في أثناء نفيه والفرض منه
 ٣٨٢ العبرة في هذه السياسة

خاتمة هذا المقصر

(آفة الشرق أمراؤه المستبدون، وزعماءه المتزفون، ومرشدوه الجاهلون وفيه ثلاثة مثل)

٣٨٤ (المثال الاول) استيلاء الانكليز على ممالك الهند بمساعدة أمرائها

٣٨٦ (المثال الثاني) استعباد الاجانب للامم بقوة رؤسائها

٣٨٨ (المثال الثالث) رأي العروة في معاقبة الامم للامراء والرؤساء الخونة

المقصد الثاني

٣٩٠ (من الفصل الخامس — عمله في سورية)

٣٩٣ سيرته في بيروت بقلم الاستاذ السيد عبدالباسط فتح الله

٣٩٣ د د بقلم الامير شبيب أرسلان، وفيها استطراد في فهمه للشعر

وذوقه وشعوره فيه

٤١٠ أصدقاؤه في مصر ورأيه في الازهر وأهله

خاتمة هذا المقصر

٤١٣ سعيه لاقناع الدولة العثمانية باصلاح التعليم والتربية بلائحة أرسلها إلى شيخ

الاسلام في الامتانة، بين فيها الخطر على الدول بفساد التربية والتعليم

الرسمي وحلول التعليم الاجنبي عمله

٤١٤ كلامه في توقف اصلاح المسلمين على القرآن

٤١٥ رأيه الاخير في الدولة العثمانية

الفصل السادس

٤١٦ في الطور الثالث من حياته العملية ، وفيه مقدمة وثمانية مقاصد وخاتمة

٤١٦ المقدمة في عودته من سورية الى مصر

٤١٧ حال الاوفياء والحيثاء من أصحابه معه بعد عودته

٤١٨ عفو الحديو عنه ومن شفع له عنده وكرهه له

٤١٩ سعيه ليكون معلما في دار العلوم وامتناع الحديو

٤٢٠ المقصد الاول عمله في القضاء الاهلي

- ٤٢١ حكمه باجتهاده وتنفيذه أحكامه على الاجانب
 ٤٢٢ عنايته في القضاء بالاخلاق واصلاح ذات بين العائلات وعقاب الفاجرات
 ٤٢٣ براعته في تحقيق القضايا وفراسته فيها
 ٤٢٤ كفته العالية في الارادة والاختيار والتقدير والابداع والنشوء والارتقاء

٤٢٥ المقصد الثاني عمله في الازهر

- » اول كلام دار بيننا في اصلاح الازهر
 ٤٢٧ سعيه لدى الخديو عباس والحكومة في اصلاح الازهر
 ٤٢٨ اصلاح كتب التدريس في الازهر
 ٤٢٩ تفصيل بعد اجمال في اصلاح الازهر (كتاب أعمال مجلس ادارة الازهر)
 ٤٣٠ تشكيل مجلس ادارة الازهر وأسبابه
 ٤٣٢ قانون المرتبات
 ٤٣٣ حال الازهر ومراتب الشيوخ قبل النظام من يؤس وفقر وظلم ومخاياة
 ٤٣٦ تبرم كبار العلماء وشكواهم من النظام
 ٤٣٧ إلحاق التعليم في المسجدين الاحمدي والدسوقي بالازهر لتوحيد النظام
 ٤٣٨ قانون كساوي التشریف وفوائده وسبب كراهة قدماء الشيوخ له
 ٤٤٠ نظام التدريس والامتحان وفوائده وما كان من القوضى قبله
 ٤٤٣ المساحة أو عطلة الدراسة والقوضى قبلها
 ٤٤٤ مساعدة الخديو علي تنفيذ القانون بمال الاوقاف
 ٤٤٦ مكافأة امتحان الطلبة وفوائدها
 ٤٤٩ العلوم الحديثة وقائدها
 ٤٥٥ اصلاح التعليم في الازهر
 ٤٥٦ دار الكتب في الازهر
 ٤٥٨ نظام الجرايات المزيل للقوضى والمخاياة
 ٤٦٠ امتحان التدريس وشهادة العالمية
 ٤٦٢ العلوم والكتب ونظام التدريس
 ٤٦٥ مسألة زاوية العميان والمبرة فيها

- ٤٦٧ إلحاق معهد الاسكندرية بالازهر
 ٤٧٠ الشيخ محمد شاكر وتعيينه شيخا للاسكندرية وفيها عبر
 ٤٧٤ مراتب أولاد العلماء ونفقة الحكومة على الازهر
 ٤٧٦ الفساد والجهل في أخلاق العلماء وأعمالهم
 ٤٧٧ شهادة القضاة والمفتين بالزور لأولاد العلماء
 ٤٧٩ سعي الاستاذ الامام بالرزق لأولاد العلماء
 ٤٨٠ حالة الازهر الصحية وتعيين طبيب له
 ٤٨٤ محافظة المجلس والاستاذ الامام على حقوق الازهر وشرفه

الحديث والازهر

توجه عزم سموه الى قلب نظام الازهر واخراج الاستاذ الامام منه

- ٤٨٧ تمهيد لبيان الشغب الذي أحدث في الازهر
 ٤٨٨ الشغب الذي أحدثه الحديو وانتهى باستقالة السيد البيلاوي وبعض أعضاء المجلس
 ٤٨٩ ختم المشايخ لمرائض الشكوى من البيلاوي ومجلس ادارة الازهر
 ٤٩٠ الدساتير لحمل البيلاوي على الاستقالة
 ٤٩١ حادثة رواق المناربة وفيها عبرة لمن يعتبر
 ٤٩٣ ممرضة النظام في اصرار الازهر
 ٤٩٤ سيرة الشيخ حسونه والشيخ سليم في الازهر
 ٤٩٥ حيلولة الاستاذ الامام دون نفوذ الحكومة في الازهر
 ٤٩٥ ألقاب الازهر السوءى عند الاستاذ الامام

- ٤٩٧ غضب الحديو على الاستاذ الامام وحسن باشا عاصم وما اقتضاه من الانتقام
 ٤٩٩ استعراض الحديو لجيش الاحتلال احتفالاً بمجلوس ملك الانكليز لارضاء
 الانكليز بعزل المفتي

- ٥٠٠ التمهيد الديني بعد السيامي للانتقام من المفتي
 ما كتبه الشيخ محمد الاحمدى من التمهيد
 ٥٠١ التمهيد بشخص الشيخ الثريينى
 ٥٠٢ حديث الشيخ الثريينى في جريدة الجوائب المصرية ونشر المؤيد له

﴿الازهر الشريف﴾

- ٥٠٥ رد الاستاذ الامام على حديث الشرييني (وتفنيده فيه للمقالة في الازهر وما كان يقر فيه وقوله ان الطالبة يطعنون في الأئمة. وكلامه في دخول الفلسفة الازهر)
- ٥١٠ تفنيده لكلامه في استنكار اشتغال العلماء بالسياسة
- ٥١٣ ﴿خطبة سمو الخديو في عابدين﴾

(وتعريضه فيها بالاستاذ الامام لمله على الاستعفاء من الازهر وبصاحب

المنار لنفيه من مصر)

- ٥١٥ غرض الحكومة الخديوية من الازهر
- ٥١٦ تأثير ترك الاستاذ الامام للازهر في المسلمين
- ٥١٩ ما كتبه النواب محسن الملك زعيم الهند في خطبة الخديو وإصلاح الازهر. وفيه طعن شديد في الخديو وعلماء الازهر وثناء عظيم على الاستاذ الامام وآمال المسلمين فيه وآلامهم من تركه لإصلاح الازهر
- ٥٢٦ تعليق جريدة الرياض الهندية على هذه المقالة
- ٥٢٧ دفاع المنار عن علماء الازهر فيما طعن عليهم النواب
- ٥٣٠ رد النواب على دفاع المنار عن الازهرين وإثباته عداوتهم للسلم وبيان أسوء حال المسلمين وما كان يرجى من إصلاح الازهر
- ٥٤١ حقيقة الازهر. وفيه بيان لجود العلماء وضرره على العالم الاسلامي. وكون الاستاذ الامام قد انفرد بالسعي لإصلاحه
- ٥٤٥ ﴿مذكورة الاستاذ الامام في بيان مواد قانون الازهر التي لم تنفذ﴾
- ٥٥٢ صدى استقالة الاستاذ الامام في أوربة
- ٥٥٤ حال الازهر في عهد الشيخ الشرييني
- ٥٥٥ الازهر ومدرسة القضاء الشرعي
- ٥٥٨ ﴿الوسائل الخديوية للانتقام من المفتي﴾
- التقرير الذي رفعه يوسف باشا طلعت الى المايين في الاسانة عن أعمال الخديو ضد السلطان ومقاومة المفتي له
- ٥٦٧ خلاصة الخلاصة في إصلاح الازهر وما جاء في المقصورة الرشيدية في حاله ومستقبله

علاقة الامام بالامير

- ٥٦٩ كلمة في صفة الخديو عباس في أول توليته ومعرض له بعده
 ٥٧٠ كلتان متضادتان للخديو في الازهرين قالها لصاحب المنار
 ٥٧١ سيرة الخديو السيامية والمالية
 ٥٧٢ أسباب مخطط الخديو على الاستاذ وتأثير مخطط الخديو عليه في نفسه
 وفي كلامه ومنها كلمته الصاعدة له في حفلة التشرير
 ٥٧٤ إخلاص الاستاذ للخديو وأصدقاؤه من الامراء واقتراء من انهم بعداوة
 أسرة محمد علي
 ٥٧٥ حسن علاقة الاستاذ بلورد كرومر في نظر الخديو

﴿ شاهدان عمليان ﴾

- على تأييد الاستاذ للخديو ضد الانكليز
 ٥٧٦ (الاول) مسألة عزل قاضي مصر التركي واستبدال مصري به وإنقاذ الاستاذ
 للخديو من ورطتها
 ٥٧٩ (الثاني) مسألة ليون فهمي وإنقاذه إياها منها

﴿ علاقة المؤلف بسمو الخديو ﴾

- ٥٨٠ ذكرى محمد علي وسلوك الخديو في إنشاء مدرسة صناعية باسمه
 ٥٨٤ محاولة الخديو الانتقام من صاحب المنار والتفريق بينه وبين الشيخ محمد عبده
 ٥٨٦ كلام بطرس باشا غالي والاستاذ الشيخ محمد شاكر مع الاستاذ الامام
 من قبل الخديو في التفريق وكلام السيد توفيق البكري معي في ذلك من قبل سموه
 ٥٨٧ كلام الشيخ علي يوسف لي في ضرر انذار من بالغة في مدح الاستاذ الامام
 ٥٨٨ سعي الخديو لنفي صاحب المنار من مصر
 ٥٩١ استطراد في سيرة الخديو مع الاستاذ الامام
 ٥٩٣ وطنية الخديو وسيرته الاولى
 ٥٩٤ الشيخ علي يوسف بين الخديو والامام

- ٥٩٥ الحديو وبطانة قصره
 ٥٩٦ أحمد شفيق باشا بين الحديو والامام
 ٥٩٧ العبرة التاريخية في سيرة الحديو الاخيرة
 ٥٩٨ خدمة الحديو للاسلام بمساعدة مدرسة الدعوة والارشاد
 ٥٩٩ شكوى الانكليز وغيرهم من الاجانب للحديو من المدرسة ودفاعه عنها
 » اهتمام الحديو بمسألة مسلمي فيليين
 ٦٠٠ » » بمسلمي جاوة والسيد محمد بن عقيل

استدراك

على هذا التاريخ بوجود مواد لم تنشر فيه ، والوعد بتأليف ذيل له يستوفي ذلك

المقصد الثالث من الفصل السادس

- ٦٠٢ عمله في منصب الافتاء وتأثير تقليده الافتاء في الامة وتهانيها له
 ٦٠٣ هيئة الشيخ عبدالرحمن قراءة له
 ٦٠٤ » محمد حافظ ابراهيم له
 ٦٠٥ عمله في تفتيش المحاكم الشرعية
 ٦٠٦ تقريره في إصلاح » »
 ٦٠٧ خطابه لوزير الحفانية فيه
 ٦٠٨ كلامه في الحاجة إلى المحاكم الشرعية واصلاحها
 ٦١١ مقدمة ناشر تقرير المحاكم وما فيه من المقاصد العامة
 ٦١٣ قاعدة بناء الاحكام الشرعية على مصالح البشر
 ٦١٤ قواعد الاسلام الشرعية التي بها كانت عامة دائمة
 ٦١٥ اقتراحه توسيع اختصاص المحاكم الشرعية وعدم حصر القضاء في مذهب الحنفية
 ٦١٦ اقتراحه تأليف كتاب في أحكام المعاملات من جميع المذاهب
 ٦١٨ كلمة لاحد كبار قضاة الشرع في اصلاحه للمحاكم
 ٦٢٠ ﴿ علماء الازهر والمحاكم الشرعية ﴾
 ٦٢١ ضياع الشريعة بمجمود العلماء
 ٦٢٣ كلمة لورد كرومر في المحاكم الشرعية

- ٦٢٥ مناقشة مجلس الشورى في اصلاح المحاكم
٦٢٦ كلمة قاضي مصر التركي في استفتاء المحاكم الشرعية عن الاصلاح ورد المفتي عليه
٦٢٩ ﴿ هل يعتبر الازهر اليوم بما لم يعتبر به بالامس ﴾

المقصد الخامس من الفصل السادس

- ٦٣٠ عمله في مصلحة الاوقاف العامة واصلاح المساجد
٦٣١ مشروع اصلاح المساجد ومقاومة الخديولة
٦٣٢ لائحة المساجد : موضوعها وكونها اصلاحاً دينياً عاماً لزول به مفسد كثيرة
٦٣٥ » واحالة الخديولة الى الاورد كرومر !!!
٦٣٧ ﴿ البرة البالغة في مقاومة اصلاح المساجد ﴾
٦٣٨ لائحة المساجد وما نفذ منها
٦٣٩ مشروع ترتيب المساجد الذي قرره مجلس الاوقاف الاعلى
٦٤٣ المذكرة المرفوعة الى المجلس الاعلى بشأن المساجد

فتاوى الاستاذ الامام

- ٦٤٧ الفتوى عن السؤال الوارد من الهند ومقدمة المفتي لها وموضوعها استعانة المسلمين
بالكفار وأهل البدع والاهواء على مصالح المسلمين وحكم من كفر فاعلمها
٦٤٨ جواب علماء المالكية والشافعية عنها
٦٥٦ حكم تكفير المسلم وما يكفر به
٦٥٧ جواب شيخ الحنابلة
٦٥٩ جواب أحد علماء الحنفية
٦٦٢ ما حققه الاستاذ الامام في المسألة بأدلة القرآن والسنة وعمل الصحابة وفيه
(مسألة النهي عن مودة الكفار وموضوعه وما يشترط فيه وانشاء عمر (رض)
الدواوين بالرومية والفارسية وجواز تقليد وزارة التفتيش لغير المسلم)
٦٦٦ فتوا في طوفان نوح هل عم الارض أم لا ؟
٦٦٧ الفتوى الترانسفالية في ذباح أهل الكتاب وابس القبة واقضاء الشافعية بالحنفية
٦٦٩ تقرير محمد بك ابى شادي في الفتوى والطعن على المفتي

- ٦٧٥ الفتاوى الثلاث الترانسفالية. وما كتبه المنار فيها
 ٦٧٧ طعام أهل الكتاب
 ٦٧٩ الفقه في محريم الميتة والتذكية أنواعها وحقيقتها
 ٦٨٣ فتوى القاضي أبي بكر بن عربي في طعام أهل الكتاب
 ٦٨٥ كلام الشيخ محمد بيرم في مسألة خنق الحيوان للتذكية
 ٦٨٦ توضيح القول في الموقوذة وادراك ذكاتها
 ٦٨٨ الخلاف في التسمية على الذبيحة وتأيد الفتوى وحقيقتها وما به الافتاء
 ٦٩٠ اجتهاد المفتي وتقليده وكون الاستاذ الامام مجتهداً
 ٦٩٢ واقعة في ذبائح أهل الكتاب في زمن محمد علي باشا
 ٦٩٤ استحسان الاستاذ الامام لما كتب المنار في مسألة الفتوى وعباراته في
 الاستحسان وفكاهة راوندية للمويلحي في ذلك
 ٦٩٤ اشتغال الجرائد بمسألة الفتوى
 ٦٩٦ مسألة ذبائح أهل الكتاب وتأيد الفتوى بالاجماع
 ٦٩٩ تهافت المرجف في الفتوى
 ٧٠١ الفتنة في محريم الميتة وما أهل به لغير الله
 ٧٠٤ تأيد علماء العصر والجرائد للفتوى
 ٧٠٥ مقالة وعظية لعالم مغربي في موضوع الخلاف في الفتوى
 ٧٠٨ تأيد واقعة الفتوى بمذهب الحنفية
 ٧١٠ الاستدلال على سوء نية المرجف في الفتوى
 ٧١٢ اهانة المرجف للعلماء وتعرضه بالامير
 ٧١٤ كتاب من الترانسفال في حقيقة الفتوى والسؤال
 ٧١٦ تأيد علماء الآفاق للفتوى
 ٧١٧ مقالة في ذلك من جريدة الرياض الهندية عنوانها (هل ولد السيد احمد خان ثانية
 بمصر وظهرت جريدته تهذيب الاخلاق بشكل المنار؟)

المقصد السادس من الفصل السادس

- ٧١٩ عمله في مجلس شورى القوانين وموت رئيس المجلس عمر لطفي باشا فجأة
 عقب تعيينه عضواً فيه

- ٧٢٠ كرامات الخرافين وضعف وطنية المعاصرين
- ٧٢١ وطنية الاستاذ الامام ووطنية الشيخ علي يوسف
- ٧٢٣ مقاله حسن باشا عبدالرازق في عمله في مجلس الشورى
- (المقصد السابع من الفصل السادس)
- ٧٢٦ عمله في الجمعية الخيرية الاسلامية (من المنار)
- ٧٢٩ كلمة حسن باشا عاصم في عمله في الجمعية
- ٧٣٠ الاصلاح الديني والاجتماعي الذي كان بينه الاستاذ الامام في مدارس الجمعية الخيرية
- ٧٣٠ الاحتفال الاول بامتحان مدارس الجمعية وخطاب الامام فيه
- ٧٣٢ امتحان تلاميذ مدرسة الجمعية وخطبة تلميذ في الموضوع
- ٧٣٦ الاحتفال الثاني لمدرسة الجمعية بمصر
- ٧٣٧ خطاب الاستاذ الامام في مقاصد الجمعية من مدارسها وفساد تعليم مدارس الحكومة
- ٧٣٩ الاحتفال الثالث لمدرسة الجمعية بمصر وخطاب الاستاذ الامام في التربية والتعليم وفيه اثبات ضعف المسلمين بترك التعليم الديني
- ٧٤٢ مدرسة الجمعية في المحلة الكبرى والاحتفال بافتتاحها
- ٧٤٣ خطاب الاستاذ الامام في الغرض من التعليم الابتدائي
- ٧٤٤ خطبة صاحب المنار في الاحتفال
- ٧٤٨ خطاب ابراهيم بك الهلباوي فيه
- ٧٤٩ خطة الاستاذ الامام الاصلاحية في الجمعية ومدارسها
- ٧٥٠ افساد جميع مدارس البلاد الامة
- ٧٥١ ما يجب أن تكون عليه كتب التعليم في المدارس، واقترح تأليف كتابين في العقائد والعبادات على صاحب المنار وانفاق الاستاذ رئيس الجمعية وحسن باشا عاصم مدير مدارسها على ذلك وخطبها فيه
- (المقصد الثامن من الفصل السادس)
- ٧٥٣ عمله في جمعية احياء الكتب العربية

الفصل السابع

في شؤونه العامة وفيه ثمانية مقاصد

- ٧٥٥ (المقصد الاول من الفصل السابع تدريسه)
 ٧٥٦ طريقته في التدريس وطريقة أستاذه الانساني
 ٧٥٨ (ختام درس المنطق في الازهر) وفيه بيان طرق اصلاحه في الدرس من
 صفة الالقاء واختيار الكتب وما امتاز به درسه في المنطق من المسائل
 العقلية والعلمية والحلقية)
 ٧٦١ (ملخص خطابه في ختام درس المنطق) وفيه بيانه لاعتناق الاسلام
 الافكار من رق التقليد وتوقفه على الشجاعة ، وان القرآن فرض علينا
 النظر والاستدلال وإنما علم المنطق منظم لطرق الاستدلال

درس التفسير في الازهر

- ٧٦٥ اقتراحي إياه عليه وما دار بينهما الحوار فيه
 ٧٦٩ صفة درس التفسير وما كان له من التأثير وفكاهاته فيه
 ٧٧١ شهادتان مكتوبتان في تأثيره احدهما لعالم غريب
 ٧٧٢ شهادة نابني خريجي دارالعلوم وهي الثانية
 ٧٧٤ الدرس العالي الخاص في خارج الازهر
 ٧٧٧ (المقصد الثاني من الفصل السابع - مؤلفاته)
 ٧٧٩ رسالة التوحيد وصفها وتأثيرها في المسلمين وآراء فضلاء النصارى فيها
 ٧٨١ تقریظ الشيخ سعيد الشرنوبی لرسالة التوحيد
 ٧٨٢ أقوال علماء المسلمين فيها
 ٧٨٣ تقریظ الشنقيطي الكبير لها وانتقاده عليها
 ٧٨٤ تقریظ الشيخ سليم بو حاجب كبير علماء تونس ومفتي المالكية الاكبر فيها
 ٧٨٥ تقریظ عالم أديب شيعي لها
 ٧٨٦ تقریظ الامير شكيب لها
 ٧٨٧ (كتاب الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) وفيه من الحقائق الدينية
 والتاريخية والاصلاحية ما لا يستغنى عن معرفته مسلم في هذا العصر

المقصد الثالث من الفصل السابع

- ٧٨٩ دفاعه عن الاسلام ، وكشفه للشبهات والالوهام ، وهو ثلاثة أنواع
 » النوع الاول دفاعه الشفوي
 ٧٩١ إحالته بعض المستفتين والشاكين على صاحب المنار
 ٧٩٢ كتابان من التلميذ محمد لطفي جمعه في شبهاته وخواطره الدينية
 ٧٩٧ النوع الثاني دفاعه العلمي الخاص بالمسلمين
 ٧٩٨ النوع الثالث رده على الطاعنين في الاسلام

الرد على هانوتو ٧٩٩

- ٨٠٢ هانوتو والاسلام — تلخيص المناقشات في موضوع الرد
 ٨٠٥ الرد على فرح افندي أنطون صاحب مجلة الجامعة
 ٨٠٦ كيف كتب الرد على الجامعة في السفر
 » مکتوبات الاستاذ الامام لي في شأن كتابة الرد
 ٨١٠ نشر الرد على الجامعة وتأثيره ورد الجامعة عليه وردنا عليها
 ٨١١ وقعة صاحب الجامعة بين الولد وأبيه والمريد وأستاذه
 ٨١٢ الكتاب المفتوح ، والادب المفضوح
 ٨١٦ آخر ما كتبه الاستاذ الامام لصاحب الجامعة
 » اعتذار للقراء

الدفاع عن الاسلام والدعوة اليه بالتقريب بين المسلمين وأهل الكتاب

- ٨١٧ ترجمة ميرزا باقر الغريبة
 ٨١٩ جمعية التقريب بين المسلمين وأهل الكتاب
 ٨٢٠ شهادة مفتش انكليزي لمسلمي الهند ومدارسهم
 ٨٢٢ خطاب القس اسحق طيلر الانكليزي ومقالاته في الاسلام والنصرانية
 ٨٢٤ مقاله الاولى لاسحق طيلر بعد زيارته لمصر في الموضوع
 ٧٢٦ مقاله الثانية : القرآن والكتب المنزلة
 ٨٢٧ خريستفورس جبارة
 ٨٢٨ حظ اليهود من جمعية التقريب

المقصد الرابع منه

- ٨٣٠ إغاثته المنكوبين في أحداث الزمان
 ٨٣١ لجنة الاعانة لجرحي وأرامل الجيش المصري المحارب في السودان
 ٨٣٣ منشور الاستاذ الامام في الدعوة إلى الاعانة
 ٨٣٤ تعليق المؤيد على المنشور والدعوة
 ٨٣٧ انكار الاستاذ الامام على تعليق المؤيد
 ٨٤١ رد المؤيد على رسالة الاستاذ
 ٨٤٣ الحكم العدل بين الاستاذ وصاحب المؤيد
 ٨٤٦ اعانة منكوبي الحريق بميت غمر ومنشور الاستاذ الامام في الحث على الاعانة
 ٨٤٦ المقصد الخامس منه في أسفاره
 ٨٤٧ (سفره إلى الاستانة ودسائس الجواسيس وسمايتهم فيه)
 ٨٥٠ زيارة الاستاذ الامام لشيخ الاسلام في الاستانة
 ٨٥١ حديث شيخ الاسلام والاستاذ الامام في العلم والعلماء
 ٨٥٣ قول المقطم ان الحديث وقع على العلماء كالصاعقة
 ٨٥٥ ما كتبه مصطفى كامل في الانكار على الحديث ورد النار عليه
 ٨٥٨ كتاب الاستاذ الامام إلي بعد خروجه من الاستانة

٨٦٠ كتاب أحمد شفيق باشا إلى الاستاذ الامام ، وفيه ما سمعته من باشا كاتب

السلطان وسفير الانكليز فيه

- ٨٦١ عودة الاستاذ الامام من الاستانة وأوربة والتهاني الشعرية له ببودته
 ٨٦٥ (أسفاره إلى أوربة ومقاصده منها)
 ٨٦٨ اجتماعه بالفيلسوف سينسر وحديثهما
 ٨٦٩ تعليق الاستاذ على قول سينسر ان الحق عند أهل أوربة للقوة لا
 قيمة له بذاته ، وقوله ان الافكار المادية محقت الفضيلة منهم وجزم
 بأنه لا علاج لهم الا الدين الاسلامي

- ٨٧٠ سفره الى تونس والجزائر
- ٨٧١ سيرته في تونس والجزائر ونصيحته لاهلها
- ٧٧٤ إمامه بصقلية ورحلته عنها
- ٨٧٥ عودته من سفره هذا والتهاني لها
- ﴿ سفره إلى السودان وما كان من حفاوة الحكومة والاهالي به ﴾
- ٨٧٨ كتاب الزير باننا في دعوته إلى ضيافته
- ٨٧٩ وصف إقامته في السودان وفوائده للمحاكم والمدارس والاندية والجماعات
- ٨٨٥ ضيافة الضباط المصريين له في ناديه وعظته لهم في اجتناب الخمر
- المقصد السادس منه**
- ﴿ آراؤه وآماله وأمانيه ﴾**
- ٨٩١ رأيه في السياسة واستعاذته منها
- ٨٩٣ كلمة شاعر مصر محمد حافظ ابراهيم في حزب الامام والسياسة
- ٨٩٥ الاميرة نازلي هاتم والسياسة
- ٨٩٦ كتاب الاستاذ الامام إلى السيد جمال الدين بالاستانة
- ٨٩٧ خلاصة جواب السيد له
- ٨٩٨ رأيه في مشروع مستر بلنت في استقلال مصر بمساعدة الاحتلال
- كتابان سياسيان من الاستاذ الامام الى مستر بلنت**
- ٨٩٩ الكتاب الاول في شكل الادارة بمصر
- ٩٠٠ » » » نموذج الدستور المصري
- ٩٠٣ قول المنار في الكتابين وردده على المعارضين عليهما
- ٩٠٥ تلخيص ما طلبه الاستاذ الامام بمصر من الانكليز
- ٩٠٩ رأيه في الدولة العثمانية والتعليم فيها
- ٩١١ » الاخير في الخلافة العثمانية والدولة والترك
- ٩١٣ » في استقلال العرب
- ٩١٥ » في الشعب المصري والخطر عليه من السكر والزنا
- ٩١٧ » في القرية والتعليم بمصر
- » » في الوطنية والدين

- ٩١٨ ﴿ انتصاره للقطب ودفاعه عن بطرس باشا بداعية الوطنية ﴾
- ٩٢١ رأيه في الاحتلال والاستعمار الانكليزي والفرنسي
- ٩٢٥ كتاب غوستاف لوبون الذي صرح فيه بان العقيدة الكاثوليكية تجعل
الفرنسيين أعدى أعداء المسلمين
- ٩٢٦ رأيه في اللغة العربية واللغات الاوربية وكتبهما
- ٩٢٧ رأيه في الصوفية والفقهاء وتنازعهما
- ٩٢٩ « في ديوان الاولياء وتصرفهم الباطن
- ٩٣٠ « في البهائية العباسية والشيعة
- ٩٣١ حياة الاديان وارتقاؤها وشبهة البهائية فيها
- ٩٣٢ البهائية وداعتهم ميرزا ابو الفضل
- ٩٣٤ غلو الدعاة إلى الاصلاح العائق لتجاحدهم
- ٩٣٦ اسمالة البهائية والماسونية لاهل الاديان كلها
- ٩٣٧ بطلان استدلال البهائية على صحة دينهم بانتشاره
- ٩٣٨ رأيه في إعراض المسلمين عن الاسلام وعقائهم عليه
- ٩٣٩ « في الاسلام نفسه وكون الافرنج سيهتدون به
- ٩٤٠ « في المذاهب وأئمتها
- ٩٤١ « في المسلمين والفقهاء
- ٩٤٢ مستر براون المهندي الانكليزي
- ٩٤٣ رأيه في تنقيح كتب الحنفية
- ٩٤٤ رأيه في تفسير الفقهاء ومقاسد تقليدهم لعبارات الكتب

آماله وأمانه

- ٩٤٦ مدرسة كلية اسلامية
- ٩٤٧ الحج والزيارة ووضع خريطة لفروقات النبي ﷺ والحجاز
- ٩٤٨ تأليف تاريخ للاسلام
- ٩٤٩ جريدة يومية بصفة خاصة

المقصد السابع من الفصل السابع

(أخلاقه وشماله)

- ٩٥٠ عزة نفسه وعلو همته وتواضعه
 ٩٥١ مهابته ولطفه وسلامة صدره وصفاء قلبه
 ٩٥٢ تغاييه لحسن الظن وتغاييه عن الشر
 ٩٥٣ إيناره للمصاحبة العامة على الخاصة
 ٩٥٤ وقاؤه لآخوانه ووقاؤه له
 ٩٥٧ ثقته بالله دون الخلق
 ٩٥٨ صدقه وشجاعته
 ٩٥٩ رؤيان في مقصد الصدق ومقام الصدق له في الآخرة
 ٩٦٠ شجاعته وعدم خوفه من صائل ولا فائق
 ٩٦٣ انصافه في الرأي والعلم والحكم
 » اذنه لي بتصحيح كلامه والزيادة فيه
 » تصرّجه في الدرس بانتقاد الشنقيطي عليه وما أصاب فيه وشكره له
 ٩٦٦ جوده وسخاؤه
 ٩٦٧ غيرته على الملة والامة
 ٩٦٩ مروءته ومجده
 ٩٧٠ ثباته على الحق واستقامته
 ٩٧١ عاداته وزيه
 ٩٧٣ صفة خاقه ومزاجه وأمراضه

المقصد الثامن منه

- ٩٧٤ ﴿ مذهبه في الاصلاح ومذهب السيد جمال الدين ﴾
 ٩٧٥ ما تشابهوا ما افرقا فيه
 ٩٧٦ اشتغالها منفردين ومجتمعين
 ٩٧٨ وصف إصلاحهما في المقصورة الرشيدية

- ٩٨٢ نتيجة إصلاحيهما وتجديديهما
 ٩٨٤ الطمن على الحكيمين المجددين وسببه والدفاع عنهما
 ٩٨٦ حال الجرائد المصرية والغميزة بالشيخ محمد عبده
 ٩٨٧ الشيخ سليمان العبد والاستاذ الامام

- ٩٨٨ (تجدي الاستاذ الامام للازهر بتجهيله بالتوحيد، الحرك لرميه بانكار التوحيد)
 ٩٩١ الشيخ جمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده (دفاع عنهما لفاضل تركى)

٩٩٥ خاتمة الفصل السابع

(صحبة المؤلف للاستاذ الامام — سببها ومبدؤها وغايتها)

- ٩٩٦ لقائى الاستاذ الامام في طرابلس الشام
 ٩٩٨ هجرنى إلى مصر لصحبته وإنشاء صحيفة اصلاحية
 ٩٩٩ تلاقينا بمصر أول مرة وتصريحه بان الموالد تقاليد وثنية
 ١٠٠٠ استشارتني له في انشاء صحيفة ومحاورنا في ذلك
 ١٠٠٢ رأيه في جرائد مصر وقرائها
 ١٠٠٣ موافقته لي على انشاء جريدة اصلاحية وشروطه فيها
 ١٠٠٥ ترويجه للنار بالثناء عليه
 ١٠٠٧ مساعدة النار المادية، وكلمة في حياتى المالية
 ١٠١١ علاقتى بالاستاذ روحية اصلاحية لاثية فيها
 ١٠١٣ صفة ما كتنا عليه في المعاشرة العاديه
 ١٠١٥ حلى إياه على مكتبة أبى الهدى الصيادي
 » تقرىظ الشيخ أبى الهدى لرسالة التوحيد
 ١٠١٦ حياتنا العملية المعنوية فى الإصلاح
 ١٠١٧ (السماية والدمائس للتفريق بيننا)
 ١٠١٨ سعي الشيخ عبد الكريم سلمان للتفريق . وانذار الامام له بترك
 صحبة ٤٠ سنة، وتلميله لكره عبد الكريم لي وتعليبي لذلك
 ١٠٢٠ صفاء المودة بينى وبين الشيخ عبد الكريم بعده

- ١٠٢١ الدبسة النسائية لتفريق يننا وكلة الامناز لآخيه حموده بك
 ١٠٢٢ استقاا الامناز الامام على المنار
 ١٠٢٣ ﴿ بعض أقواله في الاصلاح والتجديد ﴾
 (والقائم بخطه فيها على أثره وأثر جمال الدين)
 » كنه الخطبة في خطة المنار التجديدية
 ١٠٢٤ (كلماته الشعر المصرة بان صاحب المنار خليفة في إصلاحه وعلمه)
 ١٠٢٦ آياته قبل وفاته في ذلك

١٠٢٨ الفصل الثامن

(في شؤونه الخاصة المعنوية ونهاية حياته الجسدية وفيه ٤ مقاصد)

- » المقصد الاول قوة عقله وسعة علمه
 ١٠٣١ علومه ومعارفه الاسلامية والعصرية
 ١٠٣٣ تفصيله في رواية الحديث والجرح والتعديل

المقصد الثاني

- ١٠٣٥ إيمانه بالله وجهه لله ولرسوله
 ١٠٣٦ تعظيمه للنبي ﷺ وبيانه لعلو قدره
 ١٠٣٧ كنهه في انطواء روحه ﷺ على كليات الدين
 ١٠٣٨ وصفه للنبي ﷺ وما جاء به لاصلاح البشر
 ١٠٤١ عبادته وتهجده
 ١٠٤٣ ترخصه في الجمع بين الصلاتين في الحضرة أحيانا

المقصد الثالث

- ١٠٤٤ مرضه ووفاته
 ١٠٤٦ مصاب الاسلام بوقاة الامناز
 ١٠٥٠ المقصد الرابع في تأيينه ورثائه
 » حفلة يوم الاربعين لتأيينه
 ١٠٥١ حفلة الجامعة المصرية »

شهادات رجال العصر

- ١٠٥٤ ﴿ من الاجانب والوطنين المحتافى الملل ﴾
- » شهادة لورد كرومر الانكليزي السياسي
- » كلمة السر ملكولم مكاريث مستشار الحقاينة بمصر
- ١٠٥٥ » الدكتور ادوارد براون العالم الانكليزي
- » أحمد مختار باشا الغازي المشير العثماني
- ١٠٥٦ » الدكتور عبد الله جودت الكاتب التركي
- » الاستاذ الكبير ذكاء الملك الايراني
- ١٠٥٧ » الامتاز العلامة طاهر بن عاشور مفتي المالكية الاكبر بتونس
- » الاستاذ محمد بن الحوجه التونسي
- ١٠٥٨ » الاستاذ محمد الجعايي التونسي
- » العالم العامل الشيخ محمد شاكر من علماء صفاقس (تونس)
- » العالم الجليل السيد محمد بن عقيل أشهر السادة العلويين
- ١٠٥٩ » الامتاز الحكيم السيد عبد الرحمن الكواكبي السوري
- » الدكتور يعقوب صروف العلامة المصري
- » الشيخ ابراهيم البازجي الاديب اللغوي الشهير
- ١٠٦٠ » الاستاذ جورجى زيدان المؤرخ السوري الشهير
- » نعم افندي ابكي الكاتب اللبناني الحر
- ١٠٦١ » صاحب الدولة رياض باشا وزير مصر الاكبر
- » صاحب المباحة الاستاذ محمد توفيق البكري
- » ابراهيم باشا نقيب وكيل وزارة الداخلية بمصر
- » محمد طلعت باشا حرب زعيم النهضة الاقتصادية بمصر

- ١٠٦٢ كلمة الدكتور عبد العزيز نظمي بك
- » » حافظ اقندي واصف الاديب القبطي
- » » قاسم بك أمين المستشار في محكمة الاستئناف في تأييده
- ١٠٦٣ » احمد لطفي بك السيد مدير الجامعة المصرية
- » » سعد باشا زغلول الزعيم الاكبر
- ١٠٦٤ » احمد فتحي زغلول النابغة الاشهر
- ١٠٦٥ خاتمة الكتاب
- (فيما يجب على الامة لهذا الامام)
- ١٠٦٦ تقرير حزب الاستاذ الامام المدني إنشاء مدرسة باسمه عقب وفاته وتعذر
- ١٠٦٨ عودة الامة الى احياء ذكرى الامام بالاحتفال بها وبابحث في عمل يخلد
- » تأليف شيخ الازهر المراغي لجنة في ادارة المعاهد الدينية لذلك
- ١٠٦٩ تربية الامام لزعيم الامة السياسي سعد باشا زغلول
- » رسم كتاب بخط سعد زغلول باشا للاستاذ الامام وكلمات له من كتب آخر
- في اعترافه بفضل الاستاذ الامام عليه وانه هو صنيعته وغرس نعمته
- ١٠٧٠ الواجب على الامة زعمائها ونوابها واحزابها وحكومتها التعاون على احياء ذم
- ١٠٧١ شدة حاجة الامة الى العمل برأيه في التربية والتعليم وكونه هو الذي ي
- استقلالها ويثبت وينقذها من الفوضى العامة وتذرها وتذر العالم كله
- » شعور عقلاء أوربة بأنه لا يدرء عنها خطر الفوضى الحاضرة إلا هم
- دين معقول ، وان يجدوا هذا في غير دين القرآن
- ١٠٧٢ فتوى الاستاذ الاكبر المراغي في أن الاصلاح الذي دعا اليه الامام
- الذي يمز المسلمين في دينهم ويرفع قدرهم في دنياهم
- تحديد اقتراحى على مصر في احياء ذكرى الامام وهو ختام الكتاب
- تم الفهرس الاول ويليه الفهرس الثاني

فهرس نانه للصور والرسوم

الشمسية في الكتاب

(القسم الاول فهرس الصور)

- صورة موقظ الشرق وحكيم الاسلام مجدد القرن الرابع عشر
السيد جمال الدين الافغاني
- » الاستاذ الامام مجدد القرن الرابع عشر الشيخ محمد عبده
- » السيد محمد رشيد رضا مؤلف الكتاب سنة ١٣٥٠
- » السيد جمال الدين وهو واقف يخطب ٣٩
- » السيد جمال الدين قبل مرضه في الاستانة ٨٩
- » بعد العملية الجراحية له في فمه ٩٠
- » الاستاذ الامام وهو في بيروت سنة ١٢٨٣ ٣٩٢
- » وهو يصلي في لوندرة سنة ١٢٨١ ١٠٤٣
- ٩٩٨ صورة المؤلف بعد هجرته الى مصر في سنتي ١٣١٧ و ١٣٢٧

(قسم رسوم المخطوطات)

- ٢٨٢ رسم الكتاب الذي أرسله السيد جمال الدين الى الشيخ محمد عبده
من بورسعيد في طريقه من الشرق الى اوروبا
- ٢٣٤ رسم مذكرة للاستاذ الامام في خيانة سلطان باشا
- ٧٥٢ رسم مذكرة حسن باشا عاصم والشيخ محمد عبده في اقتراحهما
علي صاحب المنار تاليف كتابين في التوحيد والعبادات لمدارس
الجمعية الخيرية
- ١٠٢٣ رسم كلمة الاستاذ الامام في مجلة المنار وصفة الراغبين فيها
- ١٠٦٩ كتاب من زعيم مصر السياسي الاكبر سعد باشا زغلول الى مريه
الاستاذ الامام
- ١٠٧٣ كتاب آخر من السياسي الاكبر سعد باشا الى مريه الاستاذ الامام
- » » » » ١٠٧٨
- » » » » ١٠٨٠

فهرس نالت لاسماء الاعلوم في الكتاب

﴿ تنبيه ﴾ الصفرة عن يسار الرقم للدلالة على تكرار الاسم في الصفحة التالية

١٤٨	ابراهيم افندي الوكيل	١	
٣٩٩ و ٩٩ و ٩٤	« اليازجي (الشيخ) »		
١٠٥٩ و ١٠٣١ و ٤٠٨		٦٣	آقا محسن العراقي
١١٦	ابن الاثير	١٤	ابراهيم (من أبناء عمومة الاستاذ الامام)
١١٠	« الجوزي »	٢١١ و ٢٠٥	« آغا التوتنجي »
٤٢٦ و ١٣٦ و ١٢٠ و ١١٦	« خلدون »	٦٩٢ و ٤٧٠	« باشا (الشيخ) »
٣٦١	« دريد »	٤١١	« القادلي (من كبار علماء المغرب) »
٨٠٥ و ٧٩٨ و ٥٣٤ و ٤٠٤ و ٥١	« رشد »	٢٣٠	« بك توفيق (مدير البحيرة) »
٨٠٧ و		٢٨٠	« جاد (من المصريين المنفيين) »
١١٠	« السائب الكلبسي »	٨١٧	« جان المعطر (هو ميرزا باقر) »
١٠١٠	« السعود (ملك الحجاز ونجد) »	٢١٩ و ٢١١ و ٢٠٦	« بك حيدر »
١١٠	« سعيد الحافظ »	١٠٤١	« باشا خليل »
٧٥٣	« سيده »	٢٢٨	« دريد »
١١٦ و ٥١	« سينا »	٢٣٨	« الدسوقي »
١٤٨	« الفارض »	٧٢٧	« رشدي باشا »
٤٩٥ و ١٢٥ و ١٠٢	« القيم »	٤٠٨	« صافي (الدكتور البيروني) »
١٣٥	« مسكويه »	١٦	« عثمان الكبير »
٥٣٥	« يعيش القرشي التيمي »	١٠٠٧	« باشا فؤاد »
١١٨	« أبو اسحاق الافراحي »	٥٩٩	« فتحى باشا »
٢٢٥ و ١١٢	« أبو اسماعيل الهروي »	٢٢١	« بك فوزي »
٥٣	« أبو بكر القاضي المالكي »	٢٨٠ و ٢٧٤ و ١٣٧ و ٩٢٦ و ٤٥	« اللقاني »
	« عارف افندي تابع السيد جمال »	٩٣٨ و ٥٥٨ و ٣٩٩ و	
٨١٩ و ٢٨٢ و ٤٨ و ٤١ و ٣٣	« الدين »	٦٦٨ و ٥٨٧ و ٢٧٣ و ٤٦	« المويلحي »
٥١	« أبو الحسن الشاذلي »	٩٢٣ و ٨٥٩ و ٦٩٤	
١٠٨	« أبو السعود بن الشبل »	٧٤٨ و ٧٤٢ و ١٣٨	« الهلباوي »

أبو شرقاوي (الشيخ) الصوفي ١٢٦ و ٩٥٥	أحمد بن نيمية ١٠٢ و ١٢١ و ١٢٨ و ٨١٨
أبو طالب المكي ١١٢	» بن خنبل الامام ١١٢
أبو الطيب الحافظ ١٢١	» باشا تيمور ٧٥٧ و ٧٧٤ و ١٠٤٢
أبو عبد الرحمن السلمي ١٢١ و ١١١	» بك الحسيني (السيد) ٥٠٩
أبو عبيدة ١١٠	» حشمت باشا ٧٢٨
أبو الفضل الجوزقاني (ميرزا) ٩٣٠ و ٩٣١	» خان (السيد الهندي) ٧١٧ و ٨٩١
٩٣٣ و ٩٣٥ و ٩٣٦ و ٩٣٧	» باشا الدرهملي ٢١٣
أبو الفضل الجزاوي (الشيخ) ٩٢٩	» بك رشوان ٨٧
أبو القاسم السكر بلاني (الميرزا) ٦٣	» الرقاعي (الشيخ) ٤٥٨ و ٤٦٤ و ٧٥٦
أبو مسلم الاصفهاني ٥٣	» زكي باشا ١٠٥٢
أبو المعالي (امام الحرمين) ٥٠٦	» سيوفي باشا ٨٣٠
أبو نصر السراج ١١٢	» شفيق باشا ٥٨١ و ٥٨٩ و ٥٩٦ و ٨٦٠
أبو نعيم (الحافظ) ١١٢	» بك صدقي ٢٠٦
أبو النهى القاوقجي (الشيخ) ٩٩٨	» عباس (الشيخ) ٣٩٦
أبو الهدى الصبادي (الشيخ) ٧٣ و ٨٥	» علي محمود ١٤٨
٨٨ و ٩٠ و ٥٨١ و ٨١٤ و ٧٩٦ و ٩١٢	» بك عبدالغفار ١٩٢ و ١٤٦ و ٢١٢ و ٢٢٢ و ٣٩٩
٨١ و ٩٨ و ١٠١ و ١٠٥	» فارس الشدياق ٩٩٧
أبو الوفا الشرقاوي (الاستاذ) ٩٥٥	» فتحي زغلول ٢ و ٢٣٦ و ٥٩٩ و ٧٧٤
أبو الوفا القوني ٤٦	» ٧٧٩ و ٨٣١ و ٩١٦ و ٩٤٦ و ٩٤٨ و ٩٩٦
أحمد آزاد المكنى بابي الكلام ١٠٢٣	» ١٠٠٦ و ١٠١٣ و ١٠١٥ و ١٠٢٠ و ١٠٦٤
» ابراهيم (الشيخ) ٧٧٣ و ٧٧٥	» أحمد كمال باشا (الامير) ٥٨٤
» ادريس (الشيخ) ٦٠٦ و ١٠٢٤	» لطفي السيد ٥٩١ و ١٠٥٢ و ١٠٦٣
» بك ارنأود ٨٣١	» بك العريس ٥٧٩ و ٥٨٣
» أبو خطوه (الشيخ) ٥٩٥ و ٦١٨	» محمد الالاني (الشيخ) ٩٥٩
٦٢٩ و ٦٣٢ و ٦٧٤ و ١٠٥١	» الحمصاني (الشيخ) ٧٧٥ و ١٠٢١
أحمد باشا (الشيخ) ٤٦٧ و ٤٦٩	» محمود بك ٢٣٦ و ٩٥٤
» أحمد البسيوني الحنبلي ٦٥٩	

٩١	اعتماد السلطنة	٥٨١ و ٤١٧ (الغازي)	احمد مختار باشا
١٠٠	افلاطون	١٠٥٥ و ١٠٢٩ و ٨٩٥	
٢١١ و ٢٠٦	ألني افندي يوسف	٨١٩ (الكتاب التركي)	احمد مدحت افندي
١٠٥	الكسندر دوماس	١٠٤٢ و ٩٤٦	احمد باشا المنشاوي
٨٨٠	امري (القائمقام الانكليزي)	٧٧	احمد بك النقادي
٢٧٤	أمين ابو يوسف (الشيخ)	٦٢٤	احمد بك يحيى (باشا)
٤٤	أمين غالي باشا	٤٥٥ و ٤١٣ و ٣٨	أديب بك اسحاق
٩٥٥ و ٨٣٠ و ٥٥٥	أمين باشا فكري	٤٠٨ و ٤٠٠ و ٣٩٩ و ٢٣٨ و ١٨٦ و ٧٨	
٤٣٠ و ٤٢٦ و ٤١١ و ٤٣٠	الانباي (الشيخ)	٨٦٦	ادوارد براون (الدكتور)
٩٤٤ و ٥٥٥ و ٤٥٠ و ٤٣٨ و ٤٣٢		١٠٥٥ و ١٠٣٤ و ٩٤٢	
ب		١٤٢	اسبينا بك
٩٤٢	بارنار (مسيو)	٨٨٠	استانتون باشا
٨٩٢ و ٤١٩ و ٣٤٨	بارنج (السير)	١٤١	استونه باشا
٨٢٢-٨١٧	باقر (ميرزا احمد باقر)	٨٢٦ و ٨٢٤ و ٨٢٢	اسحاق طيلر (القس)
٢٥٨ و ٢٤٠	بالر (الجالسوس الانكليزي)	٤١٥ و ٣٥٠ و ٤١٠	اسماعيل باشا الحديوي
٤٨٥ و ٤٧٤	البيلاوي (السيد شيخ الازهر)	١٤٥ و ١٣٦ و ٧٤ و ٦٢ و ٤٨ و ٤٦	
٥١٣ و ٥١٠ و ٥٠١ و ٤٩١ و ٤٨٨		٢٠٩ و ١٨٦ و ١٧٤ و ١٥٩ و ١٥٧	
٩٠٤٢ و ٩٤٨ و ٩٢٩ و ٦٢٩ و ٥٥٥		٣٣٧ و ٣٣٤ و ٢٩٨ و ٢٦٠ و ٢١٦ و ٢١١	
٩٠١٢ و ١٠١١ و ٨٥	بدرى باشا بدرخان	٩٢٤ و ٧٧٧ و ٦٢٠ و ٥١١	
٣٩٨	بديع الزمان الحمذاني	٩٩٨ و ٩٣٣ و ٨٥٨	اسماعيل الحافظ (الشيخ)
٢٦٦ و ٢٤٣ و ٢٢٤	برودلي (المتر)	١٠٠٣	
٣٦٢ و ٣٤٩ و ٣٠٠	بسمارك	٨٧٧	اسماعيل خليل (الشيخ)
١٢٠٩ و ١٢٠٠		٢٢١ و ٢٠٦	اسماعيل بك صبري
٤١٨	البسيوني (الشيخ)	٩٨٩ و ٧٧٥	اسماعيل باشا صبري
١٠٤٢	بسيوني بك الخطيب	٢١١ و ٢٠٩	اسماعيل باشا صديق
٩٠٠٩ و ٨١١ و ٨٠١	بشارة باشا تقلا	١٤٢	اسماعيل بك الفايكي
١٠٢٩ و ٣٩٩	بشارة زلز (الدكتور)	١١٢	الاصم

٩٧٦ و ٨٩٥ و ٨٩٢ و ٧٧٧ و ٥٩٢	بطرس باشا غالي ٥٨٦ و ٤٩٩ و ٢٨٩
٩٩٩ و	١٠٢٥ و ٩٢٠ و ٩١٨ و ٦١٢
ج	بلانت (المستر ويلفرد) ٢٢٦ و ١٠
٨٠٢ جاد افندي عيد	٢٨٢ و ٣٢٦ و ٨٦٦ و ٨٩٨ و ٩٠٠
١٤٢ جاستون ماسيرو (مسيو)	٩١٤ و ٩٠٤
١٤١ جالياردو بك	٨٦١ بليغ باشا ناظر الدائرة السنية
٨٠٥ جان جاكروسو	٥٢٥ بهاء الدين العالمي
١٠٦ و ٧٣ جورجى زيدان	٩٣٣ بهاء الله (إله البابية)
٢٤ و ١٩ و ٦ و ٤ جمال الدين الافغانى	٤٢ بهنسى
٥٤ و ٥٢ و ٥٠ و ٤٥ و ٣٧ و ٣٥ و ٣١ و ٢٧	٤٧ بولسن (الوزير)
٨٩ و ٨٥ و ٨٣ و ٧٩ و ٧٤ و ٦٢ و ٥٦ و ١٧٢	١٧٢ بولينوباشا
٨٨٠ و ٩١ و ٩٦ و ٩٩ و ١٠٤ و ١٠٦ و ١٣٠	٨٨٠ بونهام كارتر
١٦٤ و ١٦٢ و ١٥٨ و ١٣٩ و ١٣٤ و ١٣٢ و ٨٦٦	٨٦٦ بويل (الاستاذ) المؤلف الشهير
٢٨١ و ٢٧٤ و ٢٦٤ و ٢٦٢ و ٢٣٢ و ١٧٥ و ٦٨٦	٦٨٦ البضاوي (القاضي)
٣٦١ و ٣٢١ و ٣٠٦ و ٣٠٣ و ٢٩٨ و ٢٨٩ و ٤٢	٤٢ بيكو نسفيلد
٤١٦ و ٤٠٥ و ٣٩٨ و ٣٨٢ و ٣٨٠ و ٣٧٠ و ٤١٨ و ٤٢٥ و ٤٩٦ و ٥٦٧ و ٥٦٩ و ٥٩٠	ت
٨٩ و ٨٦٥ و ٨٤٢ و ٨١٧ و ٧٧٧ و ٧٥٦ و ٣٠	٣٠ تحسين افندي
٩٥٠ و ٩٣٦ و ٩١٧ و ٨٩٦ و ٨٩٤ و ٨٩٢ و ١٦١ و ٤١	١٦١ و ٤١ تريكو (المسيو)
٩٨٢ و ٩٧٦ و ٩٧٤ و ٩٧٠ و ٩٦١ و ٩٥٥ و ٨٠٨	٨٠٨ توفيق الايوبى (الشيخ)
٩٩٧ و ٩٩٤ و ٩٩١ و ٩٨٦ و ٩٨٤ و ٣٣	٣٣ توفيق باشا الحديوي
١٠٤١ و ١٠٢٨ و ١٠٢٣ و ١٠١١ و ٤١٢	١٠٤١ و ٤٨ و ٧٤ و ١٠٨ و ١٣٦
٨٥٠ و ٥٧٧ جمال الدين افندى قاضي مصر	١٦٢ و ١٥٩ و ١٥٧ و ١٤٦ و ١٤٣
٦٢٦ و ٦٢٣ و ٨١٩	١٨٢ و ٢٣٢ و ٢٣٥ و ٢٤٤ و ٢٥١
٥٦٩ و ٥٤٣ و ٤٩٩ و ٤١٩ و ٤١٧	٢٦٠ و ٢٦٢ و ٢٦٤ و ٢٩٨ و ٣٣٤
	٣٢٧ و ٣٤٤ و ٣٥٠ و ٣٦٠ و ٣٧٧
	٥٦٩ و ٥٤٣ و ٤٩٩ و ٤١٩ و ٤١٧

١٠١١ و ١٠٠١	حسن باشا سامي	٢٢٨ و ١٩٦	جميلة هانم (الاميرة)
٤١١ و ٢٧٦ و ٢٥	» الطويل (الشيخ)	٣٢٠	جنكيز خان
(وراجع حرف ح من تصدير الكتاب)		١٢١ و ١١١	الجنيد بن محمد
٥٦٩ و ٥٦٢ و ٤٩٧ و ٢	حسن باشا عاصم	٦٣	جواد الآقا التبريزي
٥٩٤ و ٥٨٢ و ٥٨٠ و ٥٧٧ و ٥٧٣		٩٤ — ٩٢	جورج افندي كوتشي
٨٤٥ و ٧٥١ و ٧٢٨ و ٧٢٦ و ٦٠٢		٨٠٥ و ٧٨٠	جورجي افندي بني
١٠٥١ و ١٠٠٧ و ٩٢٣		٨٠٥	جول سيمون
» باشا عبد الرزاق ٧٢٣ و ١٠١٣ و ١٠٥١		٨٧٤	جونار (مسيو)
٦٩٢	حسن العطار (الشيخ)	٨٨٨	جون (القس)
٣٠	» فهمي افندي شيخ الاسلام	٥٠٢	جوهر قائد الممر العبيدي
٦٩٢	» القويضي (الشيخ)	١٤٢	جيجون بك
٤٣١	» المرصفي (الشيخ)		جيل البحري الانكليزي حامل جنهات
» منصور (الشيخ) ٧٧٣ و ٧٧٥ و ١٠٢٤		٢٥٨	الرشوة
١٨٦	» موسى العقاد		
» حسونه النواوي (الشيخ) ١٤٢ و ٤١١ و			
٤٢٧ و ٤٣٠ و ٤٣٢ و ٤٣٧ و ٤٧٩ و ٤٨٥			
٤٩٢ — ٤٩٦ و ٥٠٩ و ٥٥٤ — ٥٥٧			
٥٧٧ و ٦٠٢ و ٦٢٤ و ٦٢٧ و ٦٢٩ و ٩٨٩			
٢٧٦	حسين افندي	٧٧٣	حامد والي (الشيخ الدكتور)
٢١١ و ٢٠٦	» بك		الحاوي للطحاوي (الجاسوس العربي على
» الجسر (الشيخ) ٧٢ و ٨٤ و ٢٨٣ و ٣٠٤		٢٦٥ و ٢٥٩	عرابي)
١٠٠١ و ٩٩٩ و ٩٣٦ و ٨١٩ و ٤٠٤		٦٣	حبيب الله الرشتي
١٠٢٤	حسين دانش بك	٣٥٩	الحجاج بن يوسف
٥٩٩	» رشدي باشا	٦٣	حسن الانتياني
٢٧	الحسين السبط بن علي أمير المؤمنين	٩٢	حسن باشا ضابط بشكطاش
٨٨٥ و ١٤١	حسين فخري باشا	٣٩٩	» بك جاد
٩٩٨	» القصبني (السيد)	٨٢٠	» خان
» كامل (الامير فالسلطان) ٥٧٤ و		١٤	» خير الله

ح

١٠٠٩ و ٩٦٩	
٨٠	حسين الموصني (الشيخ) ١٤٢ و ١٣٧ دارون
٩٥٥	» بك مظهر ٢١٩ داغر (الشيخ)
١٠٠٩	حفي بك ناصف ١٣٥ و ٣٧ و ٧٥٦ داود (الامير)
٠٢١٣	١٠٥١ داود باشا يكن
١٦٩ و ١٦٥ و ٤٧	٢٧٦ دبلنيسير
١٩٧ و ١٩٥ و ١٩١	٣٩٣ درنج (البارون)
٢٥٦ و ٣٢٧ و ١٩٩	حماده الحولي
٢٦٤ و ٢٥٤ و ٢٤٨ و ٢٤٣	حمدي باننا
٠١٠٦ و ٢٣ و ٢١ (الشيخ)	حمزة فتح الله الشيخ ٩٨٧ درو يش باشا ٠٢٤٣ و ٢٤٨ و ٢٥٤ و ٢٦٤
٧٢٨	حموده بك عبده ١٥٦ و ١٥ و ٤٠١ و ٩٥٤ درو يش خضر (الشيخ) ٢١ و ٢٣ و ٠١٠٦
٢٦٥ و ٢٥٧	٩٥٦ و ٩٦٤ و ١٠١٧ و ١٠٢١ و ١٠٥٥ درو يش بك السيد احمد
٥٩٣	١٠٥٢ دلسبس
٥٥٣ و ٥٢٢ (مستشار المعارف)	٤٥ دلونكل
٠٢٧	دولوب (مستشار المعارف) ٥٥٣ و ٥٢٢
٣٦٣	دوست محمد خان ٠٢٧
٣٤٦	دو كورسيل (البارون) ٣٦٣
١٠٠٦	دوندوكوف (البرنس) ٣٤٦
	دي كاستري (الكونت) ١٠٠٦
خ	
١٠٥٦	خضر بك ٣٩٩
٢٥٢ و ٢٤٣	خضر خضر بكبائي ١٩٦ و ٢٠٥
	خريستفورس جباره ٨٢٧
	خير الدين الميقاتي (الشيخ) ٩٩٦
	خير الله التركماني ١٦
	خيري باشا ٢٢٨ و ٣٢
	خليل ابو حاجب (الوزير التونسي) ٨٧٢
	خليل اغا ٥٦٢
	خليل باشا حماده ٨١٥ و ٥٧٢ و ٥٥٧
	خليل بك عفت ٢٢٨
	» افندي علي ٢٠٦
	» سعادته (الدكتور) ٣٩٩
	» مطران صاحب جريدة الجوائب ٥٠١ رضا باشا
	خورشيد بك بسمي ١٩٧
	رفاعة بك ١٩٧

٤٠٥	٧٧٤ و ٥٩٣ . سعد حماده (الحاج)	رفيق بك العظم
٢٨٠ و ٢٧٥ و ١٣٧ و ٤	٣٥٤ سعد باشا زغلول و ٢	رئيس الاكبر
٥٥٧ و ٤٥٨ و ٤١٨ و ٤١٢ و ٢٨٢	١٠١١ و ١٦٧	روتشيلد
٧٧٤ و ٧٥٦ و ٧٢٨ و ٥٩٣ و ٥٩١	١٤٢ و ٤١	روجرس بك
١٠٠٧ و ٩٨٣ و ٩٧٠ و ٩١٨ و ٨٩٦	٢٤١	روفيل
١٠٦٣ و ١٠١٩ و ١٠١٣	١٤٣ و ١٤٠ - ١٣٧ و ٤٤ و ٤٠	رياض باشا
٥٣١	١٧٢ - ١٦٩ و ١٦٥ و ١٦١ و ١٤٦	سعيد الشيرازي
٦٢٧ و ١٥	٢٠٠ - ١٨٥ و ١٨٢ و ١٧٩ و ١٧٥	سعيد باشا (الخديو)
٢٦٩	٢٠٨ و ٢٠٢ - ٢١١ و ٢١٣ و ٢١٦	سعيد البستاني
٤١١ و ٤٠٣ و ٤٠٠	٢٣٧ و ٢٢٤ و ٢٢٢ - ٢٢٠	سعيد الشرتوني (الشيخ)
٧٩٠ و ٧٨١	٥٨٨ و ٥٨٤ و ٥٧٠ و ٢٨٢ و ٢٦٤ و ٢٦١	سعيد الموحجي (الشيخ)
٦٧٤	١٠٥٤ و ١٠٠٧ و ٩٧٦ و ٨٩٠ و ٦٣٦	سفيان الثوري
١١٢	١٠٦١ و	سقراط
١٠٠	١٨٦	رياضستون
٤٢٠	١٠٠	رفيان (الفيلسوف)
٨٧٩	١١٠	الزبير بن بكار
٢٢٧ و ٢١٨ - ٢١٦ و ١٤٧	٨٧٧	الزبير باشا العباسي
٢٤٣ - ٢٤٠ و ٢٣٨ و ٢٣٥ و ٢٣٢	٥٦٢	زرفودا كي
٧٢١ و ٧١٩ و ٢٦٣ - ٢٦١ و ٢٥٨ و ٢٤٨	٤٦	الزرقاني (الشاعر)
١٣٧	١١٠	الزحشري
٣٠٤	١٦	زمزم (اخت الاستاذ الامام)
٤٦٤ و ٤٣١ و ٤٢٨ (الشيخ)	٣٣٨	الزولوس
٤٨٥ و ٤٨٨ و ٤٩١ و ٤٩٤ و ٥١٠	١٤٢	زين المرصني (الشيخ)
٥٥٥ - ٥٥٧ و ٥٨٩ و ٦٢١	٨٥٨	سليم باشا حموي
٢٠٤	٢٠٤	سليم افندي الردي
٥١ و ٤٩ و ٤٢ و ٣١	١٠٠	سليم بك عنجوري
٨٦ و ٧٨ و ٥٣	٧٨٤	سليم نقاش
٤٥	١٤١	سليم البخاري (الشيخ)
١٠٤٣	١٠٣٤ و ٨٦٨ و ٨٦٦	سليم باشا اباطه
٩٥٤ و ٤٥٤ و ٤١٧ و ٢٣٥	١٩٩	ستكوفيش

٢٣٦	شواربي باشا	٢٥٣ و ٢٤٨	سليمان ساهي
٥٩٣	شوبكار هانم (الاميرة)	٩٨٩ و ٩٨٧ و ٩٢٩	سليمان السعيد (الشيخ)
٤٣ و ٣٩ و ٢٩	شير علي خان	٧٧٢	سليمان نظمي الفاروقي
		٢٢٦	سنتلانا
	ص	٢٤٥	سندويش
٢٤٩ و ١٤٢	صادق بك شن	٢٤١	سنكونيش
٥٣٥	صاعد الاندلسي (القاضي)	٠٩٢	سهل باشا نجل فضل باشا العلوي
١٠٢٤	صباح الدين (البرنس)	٨٦٣	سيد علي المرصفي
٣٠	صفوت باشا	١٣٨	سيد وفا افندي
٤٩٠	صفية هانم السادات	٠٢٥٠	سيمور قائد الاسطول البريطاني
٧٨٠	صمويل افندي بني		ش
	ط	١٣٧	شاهين باشا
		١٠١	شيلي شميل (الدكتور)
٤٢٥	طالس	١٩١	شيلي النعماني (الهندي)
٢٢٠	طه باشا	١٠٠	شرشل (اللورد)
٧٥٧	طه البشري (الشيخ)	٢٣٥	شريع باشا
١٠٥٢	طه حسين (الشيخ فالدكتور)	١٦٤ - ١٦٢ و ٧٦ - ٧٤	شريف باشا
٧١٦	طاهر بن عاشور (الشيخ التولوسي)	١١٥	الشريف الرضي
١٠٥٧ و		١٢١	الشمراني
٦٨٨	الطبري	٩١٨	شفيق بك منصور
٦٩٢	الطارطوشي (الامام)	٣٠٣ و ٢٨٩	شكيب ارسلان (الامير)
٢٥٣ و ٢١٧ و ١٤٦	طلبة باشا	٧٩٠ و ٧٨٦ و ٤٠١ و ٣٩٨ و ٣٩١	
١٩٥	طلعت باشا (الوزير التركي)	١٠٤٣ و ١٠٣١ و ١٠٢٠ و ٩٦١	
٨٧٩	الطيب هاشم (الشيخ)	٨٣١	شمعون ارييب
	ظ	٨٢٨	شمعون موريال (الدكتور)
٢١	ظافر المدني (الشيخ)	٢٢٦	شناوي زغلول
	الظواهرى (الشيخ) ٤١١ (وراجع محمد	٧٣٩	الشنقيطي الكبير (الشيخ محمد محمود)
	الاحمدى)	٧٥٤ و ٧٨٣ و ٨٦٢ و ٩٦٣ و ٩٦٥	

٢٧-٢٨	عبد الرحمن خان (الامير)	
٦٤	عبد الرحمن البحراوي	ع
٥٧	عبد الرحمن البرقوقي	
١٠٩٤٨٨	عبد الرحمن الشريبي	٣٠
١٠٤٠ و ١٠٥٢ و ١٠١٩ و ١٠١٥	عبد الرحمن قالبك (الشيخ قالبك)	٢٨٠ و ٢٧٦
٥٨٨ و ٥٥٦	عباس باشا حلمي الخديوي	٨٨ و ٣
٢٣	عبد الرحمن قراعه	١٥٧ و ١٥٦ و ١٤٩٣ و ٤٩٩ و ٥٦٩
١٥٧ و ٤٩٤	عبد الرحمن القطب	٥٧١ و ٥٧٥ و ٥٨٠ و ٥٩١ و ٥٩٣
٦٥	عبد الرحمن بك كتبخداي	١٥
١٠٨ و ١٢٩ و ٩١	عبد الرحمن الكواكبي	١٨
١٠٥٩	عباس باشا الاول	
٣١	عبد الرحيم بك	عباس افندي البهائي ٤٠٧ و ٩٣٠
٣٨ و ٢	عبد الرحيم الدمرداش (باشا)	٩٣٨ و ٩٣٦ و ٩٣٤
١٠٥٢ و ١٠٢٧ و ١٠١٧ و ٨٣١ و ٧٣٩	عبد الرشيد ابراهيم (التصدير (ز))	٢٢٢ و ١٣٥ و ١٠٣
١٩٤	عبد الباسط افندي فتح الله (السيد)	٤١١ و ٤٣٥ و ٥١٠ و ٥١٢ و ٦٢١ و ٦٢٧
١٠٤١ و	عبد السلام المويلحي باشا	٣٩٠
٦	عبد العال بك	٤١٣ و ٤٠١ و ٣٩٣
١٠٤ و ٢٠١ و ١٩٥ و ١٩٢	عبد الحليم بن سماية (الاستاذ)	٨٧٢
٦٤ و ٢١٢ و	عبد الحليم باشا عاصم	٨٦١ و ٥٩٥
٣٠	عبد الحميد (السلطان)	٩٧ و ٨٨ و ٧١ و ٥٥
٥٧	عبد العزيز البشري	٨٥٧ و ٨١٩ و ٦١٦ و ٥٨٢ و ٥٧٦ و ٥٦٠
١٨	عبد العزيز افندي سلطان الطرابلسي	١٠١٠ و ٩٩٣ و ٩٤٧ و ٩١٢
٦٩ و ٩٩٦ و	عبد الحميد البكري (السيد)	١٠٥٢
٧٣ و ٥٩٨	عبد العزيز شاو يش	٦٧٤ (الشيخ)
٦٢	عبد العزيز نظمي (الدكتور)	٨٧٠
٣ و ٥٥	عبد العظيم (مشهد بطوس)	٥٩٥ و ٤٩٠
٢٥	عبد الغني سني (الكاتب التركي)	٢٠٥
٨٣	عبد القادر باشا	
٢٨٣ و ٢٨١	عبد القادر الجزائري (الامير)	١٠١٧
٠٨ و ١٠١ و ٩٠	عبد القادر الجيلي	٨٨٤
	عبد الرؤف سلام (الشيخ)	

١٢١	عبد الواحد بن زيد	٧٨٢ و ٤٦٤ و ٤١١ و ١٠٣	عبد القادر الرافي
٠٨٧٦ و ٧٧٣	عبد الوهاب النجار	٨٠٢ و ٤٠٠	عبد القادر بك القباني
٨٨٩ و ٨٨٣ و ٨٧٩ و		٩٤٣ و ٨٧ و ٨٢ و ٥٥	عبد القادر المغربي
٩٧٥ و ١٣	عبد خير الله	٧٥٣	عبد القاهر الجرجاني
١٩٨ و ١٩٣ و ١٩٠ و ١٨٥	عثمان رقيقي باشا	١٣٨ و ٠٢	عبد الكريم سلمان (الشيخ)
٢٧٦	عثمان شعيب	٤٦٥ و ٤٣٠ و ٤٢٧ و ٤١١ و ٢٨٢ و ٢٧٨	
٢٢٨ و ١٤٢	عثمان بك غالب	٤٦٩ و ٤٧٤ و ٤٨٨ و ٤٩٢ و ٤٩٥ -	
٨٩٤	عثمان باشا فاضل	٦١٧ و ٦١٥ و ٥٩٥ و ٥٤٤ و ٥٠١ و ٤٩٧	
٤٦٧	عثمان مرتضى (باشا)	١٠٠٥ و ٩٩٩ و ٩٥٣ و ٨١٦ و ٦٢٢ و	
٥٩٩	عدي باشا	١٠٢٥ و ١٠٢١ - ١٠١٧ و ١٠١٣ و	
١٥٤ و ١٤٩ - ١٤٦ و ٤٦	عزبان باشا	١١٢	عبد الكريم بن عوازن
٢٠٤ و ٢٠١ و ١٩٧ و ١٩٥ و ١٩٢ و ١٦			عبد اللطيف البغدادي
٢٢٧ - ٢١٩ و ٢١٧ - ٢٠٩ و ٢٠٦ و ٩٢٩			عبد المؤمن موسى (الشيخ العمدة)
٢٤٨ و ٢٤٥ - ٢٤١ و ٢٣٨ و ٢٣٢ - ٢٢٩ و ٩٦٣ و			
٥١٠ و ٣٤٤ و ٢٦٤ و ٢٦٠ - ٢٥٠ و ٩٦٧			عبد المحسن الكاظمي (الشيخ)
١٠٣٢ و ٩٥٥ و ٧٣٨ و		١٠٥٢	عبد المجيد سليم (الشيخ)
٩١	عزت باشا العابد	١٦	عبد الملك
١١٠	عقال بن شية	٩٩٩ و ٣٩٠	عبد الله البركة (الشيخ)
١٤٣	علي ابراهيم باشا		عبد الله جودت (الدكتور) الكاتب التركي
٠٦٢ و ٦٠	علي اكبر الشيرازي	١٠٥٦	
١٧	علي بن أبي طالب امير المؤمنين	٢٧٦	عبد الله زغلول
٢٧	علي الترمذي السيد	٥٩٠	عبد الله باشا صغير
٢٢٩	علي حيدر باشا	٤٠٨ و ١٤١ و ٣٢	عبد الله باشا فكري
١٢١	علي الخواص الصوفي	٩٥٥ و ٤١٠ و	
٧٦٩	علي باشا ذوالفقار	٦٦٦	عبد الله القدومي (الشيخ)
٩٤ و ٩٢	علي بك راغب المصري	٢١٠	عبد الله افندي الكردي
١٠٤٢ و ٦٢٠	علي باشا رفاعة	٩٩٩	عبد الله المسقاوي (الشيخ)
٠١٠٥٢	علي سرور الزنكلوني	٥٨٦	عبد الله افندي المغيرة
٣٠	علي شرواني زاده	٥١٠ و ٢٣٦ و ٤٦	عبد الله نديم (السيد)
٧٥٧	علي عبدالرازق	٧٧٧ و ٦٦٨ و	

٥٩٣ و ٥٧٤	محمد ابراهيم (الامير)	٥٠١ و ٤٩٩ و ٤٩٥ و ٤٦٧ و ٤١٨	
٠٦٧٣ و ٦٧١ و ٠٦٦٨	» بك ابوشادي	٥٧٥ و ٥٧١ و ٠٥٦٤ و ٥٦٠ و ٥٥٨	
٩٩٥ و ٧١٦ و ٧١٠ و ٦٩٥		٥٨٨ و ٥٨٤ و ٥٨١ و ٥٧٩-٥٧٧	
٤٦٤	» ابو الفضل (الشيخ)	٧٢٩ و ٠٦٣٦ و ٦٣٢ و ٦٢٣ و ٥٩٨	
٣٦٥ و ٣٤٧ و ٣٣١ و ٧٨	» احمد المهدي	٨٤٠ و ٨٤٧ و ٨٩٢ و ٨٩٥ و ٩٥٣	
٣٨٢ و ٣٨٠-٣٧٨ و ٣٧٦-٣٧٣ و ٣٧٠	محمد الاحمدى الظواهري	١٠٥٤ و ١٠٢٢ و ١٠١٦ و ٩٩٤ و ٩٦٩	
٥٠٢ و ٥٠٠		٨٨٢	كوري (المستر)
٥٥٢ و ٥٢٠ و ٥٠٤		٢٤٥	كودار بك
٢٨	محمد اسلم	٢٤٧-٢٤٥	كو كسن
٤٣ و ٠٣٩ و ٢٨	» أعظم خان	٢٤٥	كولفي
٢٨	» أفضل خان	٢٢٢	كوفقي (المستر)
٤٣	» اكبر خان	١٣٥	كينزو (مؤلف)
٦٩٢	» بن الامير		ل-م
٢٨	» أمين	١٤١	لارمى باشا
٤٩٥ و ٤٩٣ و ٤٦٤	» البحيري (الشيخ)	١٠٢٤	لطف الله (البرنس سبط السلطان)
٠١٠٥٢ و ١٠٤٣	» بحيت	١٤١	لبرونه ديروول (مسيو)
٨٨١	» البدوي	٢٤٢	ليكس
٢٥	» البسيوني	٢٣٩	ليون (اللورد)
٩٣٥ و ٩٢٣ و ٦٨٥	» بك بيرم	٥٧٩ و ٥٧٦	ليون فهمي
٦٣	» آقي الاصفهاني	٢٤٥ و ٢٤٢-٢٣٩ و ٢٢٢	مات (المستر)
٦٤	» » (البجنوردي) (الملا)	٦١٥ و ٥٧٢ و ٣١٣	مالك الامام
محمد توفيق البكري (السيد) ١٢٩ و ٥٦٣ و		٨٣١ و ٧٦٩ و ٧٣٠	ماهر باشا محافظ مصر
١٠٦١ و ١٠٢٤ و ٦٦٨ و ٥٨٦ و ٥٦٦		٨٢٠	مؤيد الملك
١٠٥٨	» الجمايي التونسي	٥٨٨	متشل انس (مستر)
» حافظ ابراهيم ٦٠٤ و ٧٧٥ و ٨٠٧ و		٢٠	مجاهد (الشيخ) عبده
٨٠٩ و ٨٩٢-٨٩٤ و ٩٥٧ و ١٠١٧ و		٩٦٣	محروس افندي عبده
١٠٥٣ و ١٠٥١ و ١٠٤١ و ١٠٢٠		٥٢٧ و ٥٢٠ و ٥١٦	محسن الملك (النواب)
		٦٠٠ و ٥٥٢ و ٥٥٠ و ٥٤٠ و	
		٨٦٢	محمد بك أباطه

١٠٢٥	محمد حسن الشيرازى (الميرزا) ٦٣ و ٥٦
١٩٣	« حسين (الشيخ) ٧٧٣
١٠٥٨	« بن حنيف ١١١
٦٧٠ و ٦٦٨	« الحلو (الحاج) ٨٣١
١٠٤٣ و ٩٨٩ و ٩٨٦ و ٦٩٩ و ٦٧٤	« خضر ١٤
١٠٥٣	« الحضرى (الشيخ) ٨٨٩ و ٨٨٤ و ٨٧٦
٢٢١	« خليل ٢٧٩ و ٢٧٦
٩٣٧	« بن الخوجه التونسى ٨٧٢ و ٨٥٢
٧٧٨ و ٧٥٦	« الدلاصى الشيخ ٩٢٩
٢١١	« بك راسم ١٩٠ و ٩٥٥
٦٨٦	« راشد (الشيخ) ٥٧٣ و ٥٦٣
١٠٦١	« الرافعى ٩٤٣
٩٩١	« رشيد رضا ٥١ و ٥٣ و ٥٥ و ٦٢ و ٦٨
٣٠٣	و ٧١ و ٢٦٠ و ٤٧٧ و ٥١٤ و ٥٧٠
١٠١٠	و ٥٨٦ و ٥٨٨ و ٥٩٠ و ٦١٧ و ٦٣٠
« عبده الاستاذ الامام	و ٧٩٧ و ٨١٠ و ٨١٢ و ٩٥٦
(لم نبين أرقام اسمه ولا لقبه لكثرتها	و ٩٦٣ و ١٠٠٤ و ١٠١٢ و ١٠١٤
والاستغناء عنهم بالفهرس الاول)	١٠١٨ و ١٠٢١ و ١٠٢٤ و ١٠٢٧ و ١٠٥٢
« عبيد (بكباشى) ١٩٦	محمد رضا الكرمانى ٦١
« العروسى (الشيخ) ٦٩٢	محمد رفيق خان ٢٨
« عز العرب (الشيخ) ٧٧٣	محمد افندى الرملاوى ٢٢٠
« بن عقيل (السيد) ١٠٤٨ و ٦٠٠	محمد افندى الزمر ٣٩٩ و ٢٢٠
« على باشا الكبير ٣٦ و ١٥٧ و ١٦٠	« زيد بك ٧٧٤
و ٢٤٧ و ٣٣٥ و ٣٣٨ و ٥١٠ و ٥٢٨	« باشا سيد احمد ٣٢
و ٥٧٤ و ٥٨٣ و ٨١٣ و ٨٩٩	محمد افندى السيد ٢٢٠
« علي (الامير) ٥٧٤	« شاكرك (الشيخ) ٤٧٠ و ٤٧٣ و ٥٥٣
« علي خان (الميرزا) ٦١	و ٥٨٦ و ٥٩٥ و ٧٧٠ و ٨٧٦ و ٩٩٥

١٣٧ و ٤٦	٣٠٤	محمد علي بك المؤيد
٢٢٣ و ٢١٣ و ٢١١ و ٢٠٢ و ١٩٧	٨٧٩	» عمر البنا
٢٥٧ و ٢٤٤ و ٢٣٦ و ٢٣٠ و ٢٤٠	٥٩٣	» بك فريد
١٠٢٤ و ٩٩٥ و ٤١٠ و ٢٧٥	٧٨٢	» فريد وجدي
١٠٠٩	١٧٥	» كرد علي (الاستاذ)
٩١٤	٤٠٠	» افندي البابا يدي
٨٨٦	٧٩٦ و ٧٩٣ و ٧٩١	» لطفي جمعة (الحامي)
٣١٦	٩٩٩ - ٩٩٦	» باشا محمد المرعي
٢٥٧	٥٩٩	» محب باشا
	١٢ و ٢١	» المدني (السيد)
١٠٥٢	٩٤٨ و ٨٠٩	» بك مسعود
٣٩٢ و ٣٩٠ و ١٥٦	١٠٥٢ و ٨٧٦	» مصطفى المراغي (الشيخ)
٧٨١ و ٤٠٥ و ٤٠٠	٩٧٥ و ١٥	» المنشاوي
١٠٨ و ٥١	٤٠٤	» المنيني (الشيخ)
٩٥٩ و ١١٦	١٠٠٥ و ٧٧٣ و ٧٥٧	» المهدي (الشيخ)
٣٩٣	٤١١	» المهدي العباسي (الشيخ)
٨٨٥	١٠٤٣ و ٩٢٩	» مرسي بك فهمي
١٠١٢ و ٨٥	٤٦٤	» النجدي (الشيخ)
١٠٢١ و ١٠٠٧	٨٨٣ و ٨٧٩ و ٨٧٦	» هارون (الشيخ)
٨٦٤	١٠٥١	» هلال الاياري (الشيخ)
١٠٤٢	٦٠٠	» وجيه الكيلاني (السيد)
٨٦٤	١٠٠٩ و ١٠٠٧	» بك الوكيل
١٠٥٢ و ٨٧٥ و ٧٥٧	٩٧١	» بك يوسف
٢٩٩	٢٢٩	» محمود بك كاتب أسرار الحديو
٧٧٣	٤٦٩	» باشا (الشيخ)
٧٤٥	٩٣٩	» حمزة (السيد مفتي الشام)
٥٩٠ و ٥١٤	١٠٢٤	» باشا الدمام
٩١٥ و ٨٢١	٨٩٧ و ٧٧٤	» بك سالم

٧٨٠	مصطفى كامل باشا	٥٩٤-٥٩٢ و ٥٨٨	نسيم بك خلاط
٦٠٢ و ٦٩٥ و ٦٩٩ و ٧١٠ و ٨٠٣			نوم افندي ليبي
٨١١ و ٦٠٦			
٤٢		١٠٠٣ و ٩٣٧ و ٨٥٩ و ٨٥٧ و ٨٥٥	الزقاوى (السيد)
١٠٠٤	» اطفى المنفلوطي	٨٦٣ و ٧٥٧	نقولا افندي شحاده
٢٠٠ و ١٨٦ و ١٦٥ و ١٦١ و ٧٤	» المنشاوى	٩٧٥ و ١٥	نوبار باشا
٢٥٠ و ٢٤٨	» باشا وهبي	٥١١ و ٣٢	نينه
	المختصم (الخليفة العباسي)	٢٢٨	
	ملكهم سرجم المؤرخ الانكليزي	٣١٦	هادى النجم آبادى
٦٣	ملكولم مكريث (مستشار الحفانية)	١٠٥٤	هارون الطيب
٩٣	منح بك الصلح	٤٠٧	هانوتو المسيو ٧٩٨ - ٨٠١ و ١٠٣٤
	مفدي بك (الميرالاي)	٨٨٠	هرتكتون وزير الحرية
٣٣٩ و ٣٣٧	النصوري	٤٩١	هكس
٣٧٤	منصور فهمي (الدكتور)	١٠٥٢	ولسلي ٢٥٧ ولسن
٩٦٥	منو ٢٥٦ منيف باشا	٣٠	وليد بن القاسم
١١٠	مهدي خان الايراني (الدكتور)	٩٣٧ و ٥٨٩	ونجت باشا السير
٨١٦	المهدي الوزاني	٧١٦	ونجت اللادى
٨٨٠	موجيل ١٤٢ موتان ١٤٢ مونج	٢٤١	يحي افندي قاضي مصر
٨٥١ و ٦٢٦	موني (مسيو)	١٤١	يعقوب خان
٢٩			يعقوب صروف الدكتور ١٠٣٢ و ١٠٥٩
	ن		
	نابليون	٦٢١	يوحنا ميرزا
٨١٧	نادر شاه الايراني	٣٤٦	يوسف باشا جدوى
٢٢٨	نازلي هاشم (الاميرة)	٨٧٢ و ٤١٨	يوسف الحنبلي
٤٦٤		٨٩٧ و ٨٩٤	يوسف سليمان بك
٨٣١	ناصر الدين شاه ايران	٣٤٧ و ٩٥ و ٧٢ و ٥٤	يوسف باشا طلعت
٦٦٩ و ٥٦٠	نجم الدين باشا	١٩٣	يوسف باشا كمال
٢٠٤	نسيب ارسلان (الامير)	٤٠١	يوسف النابلسي
٤٣١	نسيب فايدس	٨٨٧	يوسف التبهاني الدجال
١٠٤٣ و ٥٩٠			

ه - ي

فهرس رابع لاسماء البلدان والامكن

حرف الالف	الاسماء (جامع)	
أذربيجان	افغانستان	١٠٠٥
الاستانة	الافغان (و) من التصدير	٣١٨ و ٤٠
٥٩	اكسفورد	٤٢ و ٢٧
٥٥ و ٤٤ و ٤٠ و ٣٠ و ٢١	ام درمان	٨٦٦
٩٥ و ٩٣ و ٩١ و ٨٨ و ٨٢ و ٧٦ و ٧٢	الاندلس	٨٨١ و ٨٧٧
٩٧ و ٩٣ و ٢٣٦ و ٢٤٤ و ٢٥٨ و ٨٤٧	اندومان (جزائر)	٥٤١ و ٣٢٩ و ٣١٩
٨٩٦ و ٨٧٠ و ٨٦٤	انطلياس (متنزه لبيروت بلبنان)	٢٩٩
٧٧ و ٤١	الاهواز	٩٦١
٧٢	ايتاي البارود	٥٨
الازهر . الالقب التي كان يبرزها الاستاذ	ايران	٢١
الامام	(ز — من التصدير)	٣٣١ و ٩٦ و ٦٤ و ٥٨ و ٥٤ و ٢٩
(وتركتنا بقية أرقام الازهر لكثرتها ومعرفة مواضعها من فصول الكتاب)	ب	
اسعد آباد	باريز	٢٧
اسكيار نيا فيس	٣٦	٣٨١ و ٢٩٥ و ١٠٠ و ٥٥ و ٣٣
الاسكندرية . استعداد الاجانب للمذابح	بخارى	٢٩
فيها وبده المذبحة وسببها	برايتون	٨٦٨
» طلب محافظها ازال عسكر انكليزي بربر	٢٤٥	٣٧٦
اليها	برج أبي حيدر	٣٩٦
» وصف المهاجرة منها بعد حرقها برقايل (بلدة بعكار)	٩٩٦	
وضربها	بشكطاش	٩٢
» كلمة الخديو توفيق في حرقها	البصرة	٣٤٧ و ٩٦ و ٦٢ و ٦٠ و ٥٦
» إلحاق التعالم الديني فيها بالازهر بطرسبرج	٧٢ و ٥٤	
٤٦٧ - ٤٧٤	بعلبك	٩٩٦ و ٤٠٥ و ٣٩٨

٤٣٤	حصه شبشير	البغالة
٢٢٨ و ١٢٦	حضر موت	بغداد
٤٨٤ و ٢٦٠	حاب	بليس
٨٧٤	حلوان	بلم
٣١٣ و ١٠١ و ٣٧	حيدر آباد	بلاد الافغان
٣١٨ و ٦٢	خ-د-ر-ز-س	بلاد فارس
٣٥٩ و ٣١٨	خان الحلي	بلاد الهند (راجع الهند)
٧٧	خانقين	بلوچستان
٢٨١ و ٢٥٠	خراسان	بماي (الهند)
٣٩٨	الخرطوم	بور سعيد
٤٠٤ و ٣٩٨ و ٣٩٠ و ٤٨	خوارزم	بيت المقدس
٩٩٨ و ٤١١ و ٤٠٧	درب الجمايز	بيروت
٥٤٠ و ٣٩٨	دمشق الشام	ت-ج-ح
٢٥٥ و ٨	دمياط	الزعة التوفيقية
١٨١	دنقلا	الثل الكبير
٢٦٠	دهلي	تونس
٥٥١ و ٣٨٩ و ٣٨١ و ٣٦٣ و ٢٥٦	رأس النين السراي	و ٨٧٠ و ٨٧٥ و ٨٩١ و ٩٥٧ و ٩٦٥ رشيد
١٠١٧ و ١٠١٣	الرملة (الاسكندرية)	٢٥٢ و ٨٠٦ و ٤٥
٣٠ و ٢٨	الروملي	(الجامع الازهر)
٤٨	الزقازيق	جدة
٢٧٨	زقاق البلاط	جرجا
٨٧٥ - ٨٧٢ و ٨٧٠ و ٥٥١	زيزينيا	الجزائر
١٠١٧ و ١٠١٣ و ٩٥٧ و ٩٢٤ و ٨٩١	الصامرة (بالعراق)	
٤٦	سرخس	جزيرة سيلان
٨٦٥ و ١٠٥	السند	جنيف
٩٤٧ و ٤٠٣ و ٣٥	السنطة	الحجاز

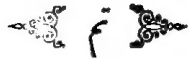
٥٦٢	١٠٥٨ طشيوز	سنا فورة
٢٤٠ و ٢٤١	٣٤٥ و ٣٧٣ مائة	سواكن
٩٣٨ و ٥٨ و ٦٥ و ٩٥	السودان: سياسة جمال الدين ومحمد عبده طهران	
٤١٧ و ٢٣٨ و ٢٢٢ و ٢١٩ (السراي)	فيه أثناء ثورة المهدي ٣٠٦ عابدين	
٩٦١ و ٩٢٢ و ٦٠٠	٣٨٢ - ٣٧٠	
»	زيارة الاستاذ الامام له وفوائدها ١١٠٦ عاصمة الدولة الروسية (تصدير - ز)	
»	سورية: حفاوة أهلها بالاستاذ الامام في نفيه عاصمة الدولة العثمانية	
٥٤١ و ٣٠٤	وماداريين وسعد زغول في ذلك ٢٧٤ العراق	
٣٤٦	سورية: عمل الاستاذ الامام وإصلاحه فيها عشق آباد	
٩٩٦	٣٩٠ - ٤١٥ عكار	
٧١٧ و ٥١٧	» الحفاوة به في عكار وطرابلس منها ٩٩٦ عليكرة الهند	
٧٧٤ و ٥٨٦ و ٥٧٧ و ٥٥٩	عين شمس ٢٥١ و ١٧٤ و ١٧١ و ٢٩	السويس
١٠٢٥ و ٩٧٢ و ٩٦٩ و ٨٦١ و ٨٠٩	٨٧٠ و ٨٦٥ و ١٠٤	سويسرة
	٩٩٥ و ٤١٠ و ٤٦	سيلان
غ-ف-ق-ك		
٢٨	غزنة	ش-ص-ض-ط-ع
٤٣٤	الفجالة	
	١٥ و ١٣ فارس (راجع بلاد فارس)	شبراخيت
٤٤	١٦ فروق (الاستانة)	شبرا - أوشنبرا
٥٩٣	٨٧٧ فشوده	شندي
٦٠٠	٠٩٢ فيلبين	شيخ زراراني (مقبرة المشايخ)
٨٢	٨٧٤ فينا	صقلية
٢٤٦ و ٢٣٦	٤٠٥ قبرص	صيدا
٥٧٠ و ٤٩٢ و ١٧١	٥٩٧ القبة (سراي)	الضلعان من الاناضول
٧٥٤ و ٧٣٩ و ٧٣٠ و ٧٢٨	٨٥٠ قبة الغوري	الطائف
٤٠٥	٥٩ القدس	طبرستان
٢٥٩	٥٩ القصاصين	
٢٠٦ و ٢٠٤ - ٢٠١ و ١٩٦	٣٩٠ و ٣٠٣ و ٨٤ و ٢١ طرابلس الشام	
٦٩	١٠٣٢ و ٩٩٦ و ٩٣٠ و ٤٠٥ و ٣٩٨ القفقاز	
١٠٠١ و ٩٩٨ و ٣٠٣	١٩٧ القامون	طره

القنال	٢٥٧ و ٣٣١ و ٣٧١ و ٣٧٤	مصر . شهادة انكليزي بعدم استغنائها
قندهار	٢٩ و ٣٦٣	عن محمد عبده اذا قدر لها الاستقلال
كابل	٢٧ و ٣٩ و ٣٨٩	٣٣٢
كسلا	٣٨٢ و ٨٨٩	» وصفها في عهد محمد علي من (العروة الوثقى)
كفر اندوار	٢٥٣ و ٢٥٨	٣٣٢
كفر الزيات	٢٢١	» حالها قبل السيد جمال الدين وبعده (من كلام الاستاذ الامام)
كلكته (الهند)	٣٣ و ٢٨١	٢٥
كبرج	٨٦٦ و ١٠٣٤ و ١٠٥٥	» حالها قبل السيد جمال الدين وبعده (من المقصورة الرشيدية)
كنر (افغانستان)	٢٧	٩٧٨
كنيسة اورين	١٥ و ٢١ و ٢٣	» نفوذ الاجانب الغريب فيها وسيا
كوردقان	٣٧٦	وغايتها
الكويت	٣٤٧	١٦٥
ل		
لبنان	٣٩٨ و ٤١١	» اختصار الخديو توفيق ورجاله وكماله
لوندرة	٣٣	ضباطه من الاعاجم المصريين
م		
المارستان (اسم كان يطلقه الاستاذ الامام على الازهر)	٤٩٥	» وطنية اهالها وقيامهم بالواجب في مقاومة الانكليز
مازندران	٥٩	١٦٣
محلة نصر ١٣ و ١٦ و ٢٠ و ٢٣ و ١٠٧	٩٧٥ و ٩٧٦	» وصف العروة الوثقى البليغ انشودم
المحمره (عربستان)	٣٥٩	لاحتلال الانكليز لها
المخروب (اسم كان يطلقه الاستاذ الامام على الازهر)	٤٩٥	» منم جريدة العروة الوثقى من دخوله
مداغسكار	٣٥١	وتفريم من توجد معه
مرو	٣٤٦	» استفزاز المسلمين لنجدة مصر على الاحتلال
مسكوروسية	٩٦	١٦٨
مشهر	٥٦٢ و ٦٣١	» مسائلها مع الاحتلال وسياسة العروة الوثقى فيها
مشهد شاه عبد العظيم بايران	٩٦ و ٩٦	٣٣١ - ٦٩
		» مشروع مستر بلنت في استقلالها ووثق
		الاستاذ الامام فيه
		» رأي الاستاذ الامام في خواص شعير
		١٩٥

١٠٠٥	الناصرية	مصر. رأى الاستاذ الامام في التربية والتعليم
٩١٤ و ٩٥	نجد	فيها
٢٩	نيسابور	» رايه في وطنيتها واتفاق المسلمين مع
٣٦٣ و ٣٤٧ و ٢٨	هراة	القط
٣٦٣	هرسك وبوسنه	مكة المكرمة
٢٩٥ و ٢٨١ و ٦٤ و ٤٣ و ٣٣ و ٢٨	الهند	منية طوخ
٣٨٤ و ٣٣٤ و ٣٢٩ و ٣٠٢	١٥	مونيخ
٣٥٤	هيكل آمون	ميت غمر
٨٤٨ و ٧٢	يلديز	

ن-ه-ي

نابلس



تنبیهات

(الاول) اتواضعنا الفهرس الاول المفصل لمواد الكتاب بهيئة خاصة من اختلاف أنواع الحروف ووضعها للفصول والمقاصد والمسائل ترشد الناظر اليها بسهولة وسرعة أغنتنا عن وضع فهرس آخر لها مرتب على حروف المعجم ووضعنا فهرساً ثانياً للصور والرسوم الشمسية على قلائد لتسهيل مراجعتها على مريدها وفهرساً ثالثاً لاسماء الاعلام الشخصية لان كثير أمها قد يحتاج الناظر في التاريخ الى مراجعتها فيما هو خاص بأصحابها . ولم نلتزم ذكر ألقابهم في الفهرس ولا في كل مكان في التاريخ ولا مراعاة التاريخ في اللقب فسمد باشا كان يلقب بالشيخ فالأقدي قالبك قالباشا فذكرنا اللقب الأخير في كل مكان لقبناه به . وتركنا ألقاب التعظيم الرسمية وغير الرسمية اتباعاً لكتب سلفنا إلا قليلاً

وفهرساً رابعاً لاسماء البلاد والمواضع لان منها ما يحتاج إلى مراجعته ولم نعن بالاستقصاء فيه بل تركنا أكثرها تكرر أ فيه وفيما قبله كما بيناه في محله

(الثاني) يجد القارئ في السطر السابع من فهرس الصور والرسوم (في صفحة ١١١٣) ذكر صورة المؤلف سنة ١٣٥٠ ولكنه يجد بجانبها الصورة نفسها قد كتب تحتها سنة ١٣٤٥ وسبب هذا اننا لما طبعنا الصورة الاولى وهي صورة هذه السنة وجدت غير صالحة فوضعنا مكانها الصورة الاخرى وكان ذلك بعد طبع الفهرس

(الثالث) ذكر في السطر ١٣ من صفحة ج من تصدير الكتاب ان الامام أبو محمد ابن حزم كان في القرن السادس والعشرون الخامس فانه توفي سنة ٤٥٦ وكان يجب تقديم ذكره على ذكر الغزالي في التجديد ومات ذكر هذا إلا بعد طبع الكراسة فليصحح بالقلم

الاستدراك على الكتاب

كتبت في آخر الكلام على عمل الاستاذ الامام في اصلاح الازهر (صفحة ٦٠١) استدراكاً قلت انه بقي لدي من مواد هذا المقصد وغيره (ومن سيرة السيد جمال الدين) شيء كثير أرجأته إلى الجزء الرابع الذي سيكون ذيلاً لهذا الكتاب ثم ذكرت بعض هذه المواد المرجأة في مواضع أخرى. وأقول هنا ان منها تقريراً ضافياً بخطه في إصلاح المحاكم الأهلية وضعه بطلب المستشار القضائي، ومنها بعض تقاريره عن مدرسة دار العلوم في إثر توليه لرياسة الامتحان السنوي فيها، ومنها مقالته الذي أملاه باللغة الفرنسية عن مصر وحكومتها في عهده، ومنها مقالات مهمة في المنار وفي جرائد أخرى تتعلق بالازهر وغيره من الموضوعات المهمة كالرد على ما انتقده لورد كرومر على شيخنا في كتابه مصر الحديثة. ومنها مکتوبات بعض العلماء والادباء والكبراء له وقصائد باناء الشعراء فيه وفيها كتاب من الشيخ يوسف انبهاني وهو الذي هجاه مع أستاذه وتلميذه نفاقاً للخدو ولعلنا نأخذ رسمه بالتصوير الشمسي ومنها موضوع فتوى من أهم المسائل الاجتماعية المالية في هذا العصر وهي حكم شراء سندات الدين الدولي. والذي وجدته عندي في أوراقه منه نص السؤال في هذه المسألة المهمة وهو طويل يتضمن المستندات التي يعتمد عليها في الجواب على الطريقة التي كان يضع عليها علماء دار الفتوى (فتوى خانة) في الاستانة أسئلة الاستفتاء التي يوقع عليها شيخ الاسلام بالفتوى إما بكلمة «أولور» التركية إذا أفتى بالإيجاب من صحة وجواز، وإما بكلمة «أولماز» إذا أفتى بالسلب أي عدم الصحة أو الجواز ولكنني لم أجده نص الافتاء في أوراقه على هذا السؤال، وبحجت عن هذه الفتوى في سجلات فتاويه الرسمية فلم أجدها هذا وانما تركته عمداً من مواد إصلاح الازهر المنشورة في مجلدات المنار ردألي على كتاب رسمي للعلامة الشيخ سليم البشري وآخر على كتاب للعلامة الشربيني (رحمهما الله تعالى) فأما الاول فقد شكاني الى الاستاذ الامام نفسه فرغب إلي في زيارته ومصالحته ففعلت، ثم صحت المودة بيني وبينه بعد الاستاذ الامام فكان مجبداً لعمل في مدرسة الدعوة والارشاد. وقد قال لاحمد شفيق باشا إن السيد محمد رشيد هو لسان الاسلام في هذا العصر. وزار المدرسة مشجماً لها وسأذكر فيه ان شاء الله أشهر أصدقاء الاستاذ الامام ومريديه وتلاميذه الصادقين ومن كان يثق بهم من علماء الازهر وغيرهم (وان من أقدم أصدقائه الاستاذ الشيخ سليمان العبد) وأختمه بالنتيجة الفلسفية التحليلية للتاريخ كله والله الموفق